تاريخ

التمدن الإسلامي

تأليف

جرجي زيدان

المجلد الثاني

منشورات دار مكتبة الحياة
بيروت - لبنان

تاريخ التمدن الإسلامي

تاريخ التمدن الإسلامي

تأليف

جرجي زيدان

الجزء الثالث

يبحث في ثروة الدولة الاسلامية وثروة رجال حكومتها وخلفائها ، وأسباب تلك الثروة ، وأسباب اضمحلالها ، وثروة المملكة ومدنها وقراها

★

منشورات دار مكتبة الحياة
بيروت - لبنان

دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر

مقدمة

العلم اعظم اركان الحضارة واقوى اسبابها ، والبحث في علوم الأمم وآدابهم من أهم واجبات المؤرخين ، وخصوصاً في الاسلام ، لعلاقة العلوم الاسلامية باحوال دوله وسياستها . ولذلك كانت أبحاث هذا الجزء من تاريخ التمدن الاسلامي أهم ابحاث هذا الكتاب . ويزيد أهميته ارتباط تاريخ العلوم في الاسلام بتاريخها قبله ، لأن المسلمين نقلوا الى لسانهم معظم ما أنتجته عقول البشر ، من أول عهد المدنية الى ايامهم ، في العقليات والنقليات ، فورثوا علوم الكلدانيين والفينيقيين والمصريين والفرس واليونان والهنود . فجرنا النظر فيما نقله العرب من علوم تلك الأمم الى البحث في تاريخ تلك العلوم عند كل منها . فكان هذا الجزء من تاريخ التمدن الاسلامي يشتمل على خلاصة تاريخ العلم والفلسفة والأدب ، من أول عهد العمران إلى ظهور الاسلام ، فضلاً عن تاريخها فيه .

وقد رسخ في اعتقاد بعض الكتاب من الافرنج وغيرهم ، أن المسلمين او العرب قلما أفادوا العلم ، لأنهم نقلوه عن اليونان ولم يزيدوا فيه شيئاً من عند انفسهم . وذهب آخرون إلى أن نقلهم لم يقتصر على استبقاء علم اليونان كما كان، بل هم شوهوا ما نقلوه فأضروا العلم وافسدوه . وقد نشأ هذا الاعتقاد في زمن التعصب، وتوالى وتنوقل الى اوائل هذا العصر . ولم يتعرض لتحقيقه او نقده احد من العرب او المسلمين .

على ان المنصفين من مستشرقي الافرنج ذكروا للتمدن الاسلامي أفضالاً على العلم أشاروا اليها باختصار . وقد توسع بعضهم في تعدادها بكلام اجمالي ، اذا قرأه العربي انشرح صدره ،فإذا اراد تحقيقه ذهب اكثر سعيه عبثاً . ووجه التحقيق ان نجد تلك المآثر مثبتة في كتب العرب القدماء ، لانها المصدر الوحيد لتاريخ الاسلام والمسلمين والآداب الاسلامية . وأكثر ما كتبه الافرنج في هذه الموضوعات مرجعه الى كتب العرب . فاذا رأينا في كتب الافرنج مأثرة منسوبة الى العرب ولم نجد لها ذكراً في كتبهم ضعفت ثقتنا بصحتها .. إذ قد تكون منقولة عن بعض الرحلات الافرنجية في العصور الوسطى ، واكثرها يحتاج إلى

تمحيص ، كرحلة بنيامين التطيلي اليهودي التي وصف فيهـا القسطنطينية ومصر وسوريا وفارس الى حدود الصين في القرن الثاني عشر للميلاد ، فقد ضمنها من الحوادث والأخبـار ما يخالف التاريخ ، فضلاً عما فيها من المبالغات والغرائب .. كتبها الرحالة المذكور باللغة العبرانية ، ثم نقلت الى اللاتينية في القرن السادس عشر ، والى الفرنسية في القرن الثامن عشر ، والى الانجليزية في القرن التاسع عشر .

ومن أمثلة ما جاء فيها انه كان في الاسكندرية على عهد الفاطميين عشرون مدرسة علمية ، وفي القاهرة عدد عظيم من المدارس الكلية ، وسنرى في كلامنا عن تاريخ المدارس أنها لم تبن بمصر إلا بعد انقضاء عصر الفاطميين . ومع ذلك فاننا نرى كتابنا ينقلون هذه الأخبار على علاتها فرحاً بتعداد مآثر العرب ، ولو نقبوا عن أساسها لذهب فرحهم . وهذا ما نبهنا اليه صديقنا النعماني العالم الهندي في كتابه الذي نشرنا خلاصته في مقدمة الجزء الثاني ، اذ اقترح علينا ان نذيل صفحات كتابنا هذا بالمصادر التي ننقل عنها ، وقد أخذ باقتراحه . واصبحنا لكثرة ما يعرض لنا من اخطاء المؤرخين في هذا الصدد لا نثق الا بما يؤيد بالاسناد الى النصوص التاريخية او بقرينة لا تقل قوة عنه .

* * *

على اننا لا نرى بدأ من تصديق كتاب الافرنج فيما هو متعلق بآدابهم او تاريخهم كحكاية الساعة التي يقولون ان هارون الرشيد اهداها الى شارلمان مثلاً ، وكقولهم ان عرب الأندلس علموهم صنع رقاص الساعة ، وقول الباحثين في تاريخ الكيمياء مثلا ان العرب صنعوا المركب الفلاني ، او اكتشفوا المادة الفلانية . واما فيما خلا ذلك فلا بد من الرجوع الى المصادر العربية من كتب التاريخ والأدب والعلوم وهي كثيرة ، وفيها فوائد مهمة تظهر بالمطالعة والامعان . ولا ينبغي لنا ان ننسى فضل جماعة المستشرقين في نشر الكتب العربية ، التي لولاهم لضاعت او ظلت في زوايا الاهمال ، ونذكر منها على الخصوص كتاباً كثير الفائدة في هذا الموضوع ، نعني كتاب الفهرست لابن النديم ، والفضل في نشره للمستشرق جوستاف فلوجل Gustav Flugel وقد علق عليه ملاحظات جزيلة الفائدة ومقابلات مهمة شغلت مجلداً كاملا .

فجعلنا معولنا في استخراج الحقائق التاريخية التي بنينا بحثنا عليها في هذا الكتاب على الكتب العربية بعد التمحيص والنقد . واستيفاء لاسباب البحث تصفحنا ما كتبه في هذا الشأن أفاضل الافرنج وغيرهم ، في الانجليزية والفرنسية والالمانية وغيرها . ووقفنا على كتاب في اللغة الهندستانية (الاوردية) للنعماني المشار اليه سماه « رسائل شبلي » ، ذكر فيه فصولا في مدارس العرب ومارستاناتهم ومكتباتهم وكتبهم ذيلها بالاسناد ، وهو كتاب جليل . وبعد الاطلاع على آراء العلماء وابحاثهم في هذا الموضوع ، رجعنا الى المصادر العربية وتصفحناها بامعان وتدقيق ، فعثرنا فيها على ما ادهشنا من عظمة ذلك التمدن وخصوصاً في العلم والادب ، مما ستراه مفصلا في هذا الجزء .

موضوع هذا الجزء

وقد قسمنا الكلام في موضوع هذا الجزء الى : علوم العرب قبل الاسلام ، وعلومهم بعده .. فذكرنا اولا خلاصة ما كان عند الجاهلية من العلوم والآداب ، كالنجوم والانواء والميثولوجيا والكهانة والعرافة والطب والشعر والخطابة واندية الادب والانساب والتاريخ ، وبحثنا في مصادر تلك العلوم بحثاً فلسفياً . وقسمنا الكلام في علوم العرب بعد الاسلام الى ثلاثة اقسام : اولا ، العلوم التي اقتضاها الاسلام وسميناها العلوم الاسلامية . ثانياً ، العلوم التي كانت في الجاهلية وارتقت في الاسلام وهي الآداب العربية الجاهلية . ثالثاً ، العلوم التي نقلت من اللغات الاخرى وهي العلوم الدخيلة .

وقبل النظر في هذه الاقسام قدمنا الكلام بمقدمات تمهيدية : (١) في الاسلام والعلوم الاسلامية وكيف تدرج العرب في وضعها واستلزم بعضها بعضاً (٢) العرب والقرآن والاسلام وما كان من تأثير القرآن في نفوس العرب واكتفائهم به دون سواه (٣) ما جر اليه ذلك الاكتفاء من احراق ما عثروا عليه من كتب الأقدمين وخصوصاً مكتبة الاسكندرية (٤) في الرومان والاسلام والعلم ، وان الذين يقابلون بين الرومان والعرب في اسباب التمدن يظلمون العرب ، وانه يجب ان يقابل بين الرومان والاسلام (٥) ان حملة العلم في الاسلام اكثرهم العجم ، وما السبب في ذلك (٦) تدوين العلم في الاسلام وعلة امساك العرب عن تدوينه الى آخر القرن الاول للهجرة (٧) الخط العربي وتاريخه ، ووضع الحركات والاعجام وما الذي دعا الى ذلك .

ولما فرغنا من هذه المقدمات انتقلنا الى البحث في العلوم الاسلامية ، وقسمناها الى . العلوم الشرعية الاسلامية اي الدينية ، والعلوم اللسانية او اللغوية ، والعلوم التاريخية . وابتدأنا من العلوم الشرعية بالقرآن وتاريخ جمعه وتدوينه وقراءته وتفسيره وتأثير اسلوبه في النفوس . ثم الحديث وما دعا الى وضعه واسناده وعدده . ثم الفقه ومصادره ، والفقهاء والرأي والقياس ومنزلة الفقهاء عند الخلفاء ، وكيف ترتبت تلك العلوم بعضها على بعض . ثم انتقلنا الى العلوم اللسانية وبينا انها مما اقتضاه الاسلام ، وفصلنا الاسباب التي دعت الى وضع النحو ، وذكرنا تاريخ الادب واللغة في البصرة والكوفة وبغداد وعلاقة ذلك بالسياسة . ونشرنا فصلاً في بلاغة الانشاء وتاريخها ومصيرها واسبابها الفلسفية . ثم اتينا الى التاريخ والجغرافية ، فبينا الاسباب التي دعت الى وضعها ومزيتها في اللسان العربي عما في سائر الالسنة .

ثم ذكرنا الآداب العربية الجاهلية ، وهي الخطابة والشعر وما كان للاسلام من التأثير فيها ، وما نسبة الخطابة عند المسلمين الى خطابة الامم الاخرى . وما كان من حال الشعر وطبقاته واسلوبه ورواته وتأثيره في الدولة وعدد الشعراء واشعارهم .

* * *

ثم تقدمنا الى العلوم الدخيلة التي نقلها المسلمون الى العربية . وتمهيداً لفهم الموضوع قدمنا الكلام في تاريخ آداب الامم التي نقلت تلك العلوم عن السنتهم ، واهمهم اليونان والفرس والهنود والكلدان . فذكرنا اولا تاريخ آداب اللغة اليونانية ، منذ اقتبس اليونان العلوم من الكلدان والمصريين والفينيقيين حتى وضعوا التاريخ والفلسفة والنجوم وغيرها الى زمن الاسلام ، وتوسعنا خصوصاً في تاريخ الفلسفة وما مرت به من الادوار الى سقراط فافلاطون فارسطو وتاريخ مؤلفات ارسطو . ثم تاريخ مدرسة الاسكندرية في عصريها اليوناني والروماني الى الفتوح الاسلامية . ثم ذكرنا آداب اللغة الفارسية وما كان من تأثير آداب اليونان عليها في مدرسة جنديسابور وغيرها . وبينا نحو ذلك في آداب الهنود والسريان بأسباب متسلسلة مترابطة .

ثم انتقلنا الى الكلام عن العرب والعلوم الدخيلة وما الذي حملهم على نقلها ، واول من اشتغل فيها قبل الدولة العباسية . ثم اشتغال المنصور في نقل كتب النجوم والطب عن الهند والفرس ، والاسباب التي حملته على نقلها ، ثم المهدي والرشيد . واسهبنا الكلام في المأمون والفلسفة والمنطق وما الذي حمله على نقلها . واتينا بفصل خاص عن نقلة العلم

في العصر العباسي وملخص تراجمهم ، وجلهم من غير المسلمين وفيهم النصراني واليهودي والصابي والمجوسي والسامري ، وفيهم النقلة من اليوناني او من الفارسي او الهندي او النبطي . وفصل في السوريين ونقل العلم بيننا فيه ان السوريين ما زالوا منذ القدم ينقلون العلوم بين الامم .

ثم تقدمنا الى ذكر الكتب التي ترجمت في تلك النهضة بالتفصيل عن كل لغة على حدة ، باعتبار الموضوعات والمؤلفين ، وبإزاء كل كتاب اسم ناقله . فذكرنا ما نقل عن اليونانية فالفارسية فالهندية فالنبطية فالعبرانية فالقبطية ، وهي تعد بالمئات . وقد نقلت بسرعة لم تتفق لأمة من الأمم ، فذكرنا الاسباب التي ساعدت على تلك السرعة وفي جملتها محاسنة الخلفاء للعلماء غير المسلمين . ثم بحثنا في انتشار العلوم الدخيلة في المملكة الاسلامية ونبوغ الفلاسفة والاطباء في الانحاء المتباعدة ، واشتغال الخلفاء والامراء انفسهم بالعلم وتنشيط العلماء وتأليف الكتب لهم ، وما كانوا يبذلونه في هذا السبيل . ثم بحثنا في المؤلفين وكثرتهم والمؤلفات وتعدادها وضخامتها .

ثم نظرنا في تأثير التمدن الاسلامي في هذه العلوم .. فبدأنا بالفلسفة وما ترتب عليها من علم الكلام وتاريخ تنقلها في ممالك المشرق ، وما كان من اضطهاد الخلفاء لاصحابها بعد النهضة العباسية حتى تألفت الجمعيات السرية .. ومن جملتها جمعية اخوان الصفا ، وكيف انتقلت رسائلهم الى الاندلس وما كان من تاريخ الفلسفة هناك ، ثم تاريخ الطب الاسلامي والفرق بينه وبين الطب اليوناني أو الفارسي أو الهندي ، وانه جامع بينها كلها ، واحصينا الاطباء المسلمين وتاريخ المارستانات في الاسلام . ثم نظرنا فيما أدخله المسلمون من عند انفسهم في الطب وفروعه كالكيمياء والصيدلة والنبات وغيرها . ثم تاريخ النجوم او الفلك في الاسلام ، وتاريخ المراصد عندهم والفرق بين التنجيم والنجوم ، ومن نبغ من علماء الفلك في الاسلام ، وما احدثوه من الآراء الجديدة وآلات الرصد الجديدة ، وما يلحق بذلك من الرياضيات كالحساب والجبر والهندسة ، ثم تاريخ الفنون الجميلة وان المسلمين لم يقصروا فيها كما ظن الاكثرون . وختمنا الكلام في المدارس وتاريخ تأسيسها وأسبابه . ثم المكتبات عندهم وعدد ما حوته من الكتب ، مما يدل على فخامة العلم في ذلك التمدن العجيب . وبذلنا الجهد في تحقيق كل عبارة وتمحيص كل رأي ، بما يبلغ اليه الامكان ويأذن به المكان .

ونغتنم هذه الفرصة للثناء على العلماء الافاضل الذين تلقوا خدمتنا بالرضا وذكروها بما هم اهله . ونخص منهم كبار المستشرقين في اوربا ممن وصل اليهم كتابنا المذكور ، فقد

جاءتنا كتبهم ورسائلهم بعبارات الاستحسان والتنشيط ، وكتب بعضهم التقاريظ في المجلات الافرنجية . فاستحثنا ذلك على الاقتداء بهم في خدمة هذه اللغة ، التي سبقونا الى احياء علومها وآدابها ومهدوا لنا سبيل البحث فيها . فنستأذن الذين تفضلوا منهم بالكتابة الينا أن ندون اسماءهم في صدر هذا الجزء اقراراً بفضلهم . وهذه اسماؤهم بالترتيب الهجائي :

الاستاذ دي جويه M. J. Goeje	في ليدن
الاستاذ ديرنبرج H. Derenbourg	في باريس
الاستاذ روزن V. von Rosen	في بطرسبرج
الاستاذ جولدتسيهر I. Goldziher	في بودابست
الاستاذ جويدي M. Guidi	في رومية
الاستاذ مرجليوث D. S Margoliouth	في اكسفورد

عُلوم العَرب قبل الإسلام

تمهيد في جزيرة العرب واهلها

جزيرة العرب شحيحة المياه كثيرة الصحارى والجبال ، فلم يشتغل اهلهـــا بالزراعة لجدب الأرض . والانسان وليد الاقليم الذي ينشأ فيه ، وقد نشأ العرب على مـــا تقتضيه البلاد المجدبة من الارتزاق بالسائمة والرحيل في طلب المرعى. فغلبت البداوة على الحضارة فيهم ، وانصرف اكثر همهم الى تربية الماشية وهي قليلة بالنظر الى احتياجاتهم منهـــا ، فنشأ بينهم التنازع عليها ، وجرهم التنازع الى الغزو ، واضطرهم الغزو الى الانتقال بخيامهم وأنعامهم من نجع الى نجع ، ومن صقع الى صقع ، ليلا ونهاراً . وجوهم صافٍ وسماؤهم واضحة ، فعولوا في الاهتداء الى السبل على النجوم ومواقعها . واحتاجوا في مطـــاردة اعدائهم الى استنباط الأدلة للكشف عن مخابئهم ، فاستنبطوا قيافة الأثر ، وألجأهم ذلك أيضاً الى توقي حوادث الجو من المطر والأعاصير ونحوها ، فعنوا بالتنبؤ عن حدوث الأمطار وهبوب الرياح قبل حدوثها ، وهو ما يعبرون عنه بالانواء ومهاب الرياح .

ودعاهم الغزو من الناحية الأخرى الى العصبية لتأليف الأحزاب ، فاهتموا بالانساب التي يترابطون بها . والارتحال في الغزو ونحوه يقتضي العناية بالسلاح والخيـــل ، ولو كانوا اهل حضارة لاتقنوا صنع السلاح ، واما الخيل فبرعوا في تربيتها وانتقائها ومعالجة أمراضها .

والعرب اخوان الكلدانيين والبابليين والفينيقيين وغيرهم من اركان التمدن القديم . . فهم اهل ذكاء وتعقل ، لو سكنوا وادي الفرات او وادي النيل لكان منهم ما كان من اولئك ، او ما كان من جيرانهم التبابعة ، ولكنهم اقاموا في بادية صفا جوهـــا واشرقت سماؤها ، فصفت ادمانهم وانصرفت قرائحهم الى قرض الشعر ، يصفون به وقـــائعهم او يبينون به أنسابهم او يعبرون به عن عواطفهم . وقويت فيهم ملكة البلاغة ، فبرعوا في القاء الخطب يستنهضون بها الهمم ، او يدعون الى الحرب او السلم او للمفاخرة او المنافرة . .

ولولا ما في فطرتهم من الذكاء والتعقل لما ظهر منهم اكثر مما ظهر من جيرانهم سكان صحراء العدوة الغربية من البحر الاحمر ، فانهم ما زالوا من حيث المدنية على نحو مـا كانوا عليه منذ قرون. وشأن جاهلية العرب من هذا القبيل شأن جاهلية اليونان في عصر هوميروس، فلما تمدن العرب أتوا بمثل ما أتى به أولئك .

على ان العرب لم يسلموا مما وقع فيه معاصروهم من الأمم العظمى ، من الاعتقاد في الكهانة والعرافة وزجر الطير وخط الرمل وتعبير الرؤيا ، ممـا ينجم عن جهل اسباب الحوادث مع رغبتهم في تعليل بواعثها ، ولذلك فقد كثر عندهم الكهان والعرافون ونحوهم .

فالعلوم التي كانت شائعة في جزيرة العرب قبل الاسلام ضرورية باعتبار طبيعة ذلك الاقليم وطبائع اهله. وقد سميناها علوماً بالقياس الى ما يماثلها عند الأمم الأخرى في عصر العلم، وإلا فالعرب الجاهليون لم يتعلموها في المدارس ولا قرأوهـا في الصحف ولا ألفوا فيها الكتب ، لأنهم كانوا أميين لا يقرأون ولا يكتبون ، وإنما هي معلومات تجمعت في محفوظهم بتوالي الأجيال بالاقتباس والاستنباط ، وتنوقلت في الأعقاب وما زالت تنمو وتتزايد حتى بلغت عند ظهور الاسلام بضعة عشر علمـاً ، بعضها من قبيل الطبيعيات والبعض الآخر من قبيل الرياضيات او الادبيات او الكهانة او ما يتعلق بذلك ، ولو اردنا التوسع في وصفها لضاق بنا المقام فنذكرها على سبيل الاختصار .

واذا امعنا النظر في مصادر تلك العلوم رأينا بعضها خاصاً بالعرب وقد نشأ عندهم ، والبعض الآخر دخيل اقتبسوه من الأمم الاخرى . . فالعلوم العربية هي الانساب والشعر والخطابة ، والدخيلة هي النجوم والطب والانواء والخيل ومهاب الرياح والميثولوجيـا والكهانة والعيافة والقيافة وغيرها كما سترى فيما يلي :

١ ــ علم النجوم عند العرب

الكلدان اساتذة العالم في علم النجوم ، وهم وضعوا أسسه ورفعوا اعمدته ، ساعدهم على ذلك صفاء سمائهم وجفاف هوائهم واستواء آفـاقهم ، فرصدوا الكواكب وعينوا اماكنها ورسموا الابراج ومنازل القمر والشمس ، وحسبوا الخسوف والكسوف بآلات فلكية منذ بضعة واربعين قرنا ، وعنهم اخذ اليونان والهنود والمصريون وغيرهم من اهل التمدن القديم .

وما زال الكلدان او البابليون اهل دولة وسلطان الى اوائل القرن الثامن قبل الميلاد، فسطا عليهم الاشوريون فلم يؤثر ذلك شيئاً في آدابهم الاجتماعية لتشابه الشعبين لغة وديناً، فلما كان القرن الخامس قبل الميلاد سطا عليهم الفرس وفتحوا بلادهم وبدلوا آلهتهم واستبدوا فيهم ، فثقل ذلك عليهم وضاقت الارض بهم ، فهاجر كثيرون منهم الى ما جاورهم من البلاد وخصوصاً بلاد العرب ، لانها كانت حمى المهاجرين من العراق ومصر والشام ، لامتناعها على الجنود بالصحارى الرمضاء ولسهوله الاقامة عليهم هناك لقرب لسان العرب من لسانهم .

وكان في جملة المهاجرين اليها جماعة من الكهان وأصحاب النجوم ، فتعلم العرب منهم احكامها وأخذوا عنهم اسماءها ، وتعلموا منهم مواقع الابراج ومناطقها ومنازل القمر والشمس ، وربما كان لهم علم بشيء من احكامها من عند انفسهم ، او مما وصل اليهم من طريق الهند او غيرها . ولكن يقال بالاجمال ان العرب مدينون بعلم النجوم للكلدان ، وهم يسمونهم الصابئة — والصابئة ان لم يكونوا الكلدان انفسهم فهم خلفاؤهم او تلامذتهم [١] وكان الصابئة كثيرين في بلاد العرب ، ولهم مثل منزلة النصارى او اليهود . فاخذ العرب عنهم علم النجوم باصطلاحاته واسمائه ، وان كان معظم اسماء السيارات لا يرد الى اصله الكلداني ، فربما كان له اسباب عارضة ضاعت اخبارها .

على ان بعضها لا يزال اصله الكلداني ظاهراً فيه ، كالمريخ مثلاً فانها تقابل « مرداخ » الكلدانية لفظاً ومعنى. ولكن معظم تلك الاسماء قد ضاعت المشابهة اللفظية بينها وبقيت المشابهة المعنوية . فان « زحل » معناه في العربية الارتفاع والعلو ، وهي نفس دلالة « كاون » اسم هذا السيار في الكلدانية . وأما الابراج ومنازل القمر فلا تزال كما كانت عند الكلدان لفظاً ومعنى — واليك اسماء الابراج عند كليهما :

اسماؤها العربية	اسماؤها الكلدانية	اسماؤها العربية	اسماؤها الكلدانية
الحمل والكبش	امرا	الميزان	ماساثا
الثور	ثورا	العقرب	عقربا
الجوزاء او التوأمين	تامي	القوس او الرامي	قشتا
السرطان	سرطان	الجدي	كديا
الاسد	اريا	الدلو	دولا
السنبلة	شبلتا	الحوت او السمكة	نونا

١ — مختصر تاريخ الدول لابن العبري ٢٢٦ .

ما منازل القمر والشمس فقد تبدل بعض اسمائها كما أصاب السيارات. ولكن العبرة كثر في قواعد هذا العلم ومصطلحاته ، فانها عند العرب كما كانت عند الكلدان تماماً، تى لفظ « منازل القمر » فان هذا التعبير هو نفس ما كان يعبر به الكلدان عن هـذه المنازل ، وقد ابدلته الامم الاخرى التى اخذت هذا العلم عن الكلدان بتعبير آخر ، الا العرب واليهود

ومعرفة العرب بالنجوم مشهورة، فقد رأيت انهم عرفوا السيارات والابراج، وعرفوا عدداً كبيراً من الثوابت ، ولهم في ذلك مذهب يختلف عن مذاهب المنجمين في الامم الاخرى [1] وفي قدم اسماء تلك النجوم في العربية دليل على قدم معرفة العرب بها وبمواقعها ، مثل : بنات نعش الكبرى والصغرى ، والسها ، والظباء، والربع، والرابض، والعوائذ ، والذئبين ، والنثرة ، والفرقد ، والقدر ، والراعي ، وكلب الراعي ، والاغنام، والرامح، والسماك ، وعصا الضياع، واولاد الضياع ، والسماك الرامح ، وحارس السماء ، والاظفار، والفوارس، والكف المخضب، والخباء والعيوق، والعنز ، والجديين، وغيرها .

اما منازل القمر فقد قسموها الى ثمانية وعشرين قسماً ، خلافاً لما كان عند الهنود فانها ٢٧ قسماً عندهم . وأراد العرب منها غير ما أراده أولئك ، اذ كان مرادهم منها معرفة احوال الهواء في الازمنة ، وحوادث الجو في فصول السنة ، لانهم كانوا اميين فلم تمكنهم معرفتها الا بشيء يعاين فاستعانوا عليها بالكواكب ، كما سترى في الكلام على الانواء . واليك اسماء منازل القمر في العربية ، وهي ٢٨ :

الثريا	الجبهة	الاكليل	سعد السعود
الدبران	الزبرة	القلب	سعد الاخبية
الهقعة	الصرفة	الشولة	الفرغ المقدم
الهنعة	العواء	النعائم	الفرغ المؤخر
الذراع	السماك	البلدة	بطن الحوت
النثرة	الغفر	سعد الذابح	الشرطان
الطرف	الزبانيان	سعد بلع	البطين

---

١ – القزويني على هامش الدميري ٥٠ ج ١

وكان العرب اذا عدوا المنازل بدأوا بالشرطين ، لاسباب تتعلق باقليمهم . وقد بالغ المتعصبون للعرب في صدر الدولة العباسية في براعة العرب في علـم النجوم ، وفي جملة المتعصبين ابن قتيبة ، فقد قال في كتابه « تفضيل العرب على العجم » ان العرب اعلم الامم بالكواكب ومطالعها ومساقطها [١] . ومع اعترافنا بما في ذلك من المبالغة ، فاننا نستدل منه على توسع العرب في هذا العلم .

ولا غرابة في اتقانهم معرفة النجوم ومواقعها ، فانها كانت دليلهم في اسفارهم واكثر احوالهم ، فكانوا اذا سألهم سائل عن الطريق المؤدي الى البلد الفلاني قالوا : « عليك بنجم كذا وكذا » فيسير في جهته حتى يجد المكان ، وربما استعانوا على ذلك ايضاً بذكر مهاب الرياح يعبرون بها عن الجهات . ومن امثلة ذلـك ان سليك بن سعد سأل قيس بن مكشوح المرادي ان يصف له منازل قومه ثم هو يصف له منازل قومه ، فتوافقا وتعاهدا الا يتكاذبا . فقال قيس بن المكشوح : « خذ بين مهب الجنوب والصبا ، ثم سر حتى لا تدري اين ظل الشجرة ، فاذا انقطعت المياه فسر اربعا ، حتى تبدو لك رملة وقف بينها الطريق ، فانك ترد على قومي مراد وخثعم » . فقال السليك : « خذ بين مطلع سهيل ويد الجوزاء اليسرى العاقد لها من افق السماء، فثم منازل قومي بني سعد بن زيد مناة » . واشتهر في جاهلية العرب في اتقان النجوم جماعة ، منهم بنو مارية بن كلب ، وبنو مرة ابن همام الشيباني [٢] .

٢ ـ الانواء ومهاب الرياح

ويراد بالانواء عندهم ما يقابل علم الظواهر الجوية عندنا ، مما يتعلق بالمطر والرياح ، ولكنهم كانوا ينسبون الظواهر المذكورة الى طلوع الكواكب او غروبها ، ولذلك كان علم الانواء فرعاً من علم النجوم . وكانوا يسمون طلوع المنزلة نوءها اي نهوضها ، وسموا تأثير الطلوع بارحاً وتأثير السقوط نوءاً ، ومن طلوع كل واحدة منها الى طلوع التي تليهـا ثلاثة عشر يوماً ، سوى الجبهة فان بين طلوعها وطلوع التي تليها ١٤ يوماً . ومن اقوالهم في ذلك :

---

١ ـ البيروني ٢٣٨ . ٢ ـ البيروني ٣٤١ .

والدهر فاعلم كله أرباع — لكل ربع واحد أسباع
وكل سبع لطلوع كوكب — ونوء نجم ساقط في المغرب
ومن طلوع كل نجم يطلع — الى طلوع ما يليه أربع
من الليالي ثم تسع تتبع

ثم اختلفوا فيها ، فزعم بعضهم ان كل تأثير يكون بعد طلوع منزلة الى طلوع التي تتلوها فهو منسوب اليها . وزعم آخرون ان لطلوع كل واحدة وسقوطها مقداراً من الزمن ينسب اليها يكون فيه ، فاذا انقضت تلك المدة لم ينسب اليها ما يكون بعدها . وكانوا اذا تحقق التأثير فلم يظهر منه شيء في تلك الازمنة قالوا : خوى النجم ، او خوت المنزله — يعنون بذلك مضت مدة نوء ولم يكن فيه مطر او حر او برد او ريح[١]. ومن أمثالهم : « أخطأ نوءك » يضرب لمن طلب حاجة فلم يقدر عليها[٢] .

وكانوا اذا امطرت السماء نسبوا المطر الى تأثير النجم المتسلط في ذلك الوقت ، فيقولون مثلاً : مطرنا بنوء الجرة ، او هذا نوء الخريف ، مطرنا بالشمرى . وقالوا ان النوء سقوط نجم ينزل في المغرب مع الفجر ، وطلوع رقيبه في الشرق مع النجم المنازل . ولذلك كانت الانواء ٢٨ نوءاً او نجماً ، كانوا يعتقدون انها هي علة الامطار والرياح والحر والبرد . وفي اشعارهم أمثلة كثيرة تدل على علاقة احوال الجو او فصول السنة باقترانات الكواكب او طلوعها ، وقد نظموها شعراً ليسهل حفظها على الناس لقلة الكتابة عندهم من ذلك قولهم :

اذا ما قارن القمر الثريا — لثالثة فقد ذهب الشتاء

وقول الآخر :

اذا ما البدر تم مع الثريا — أتاك البرد أوله الشتاء

وقول الآخر :

اذا ما قارن الدّبران يوما — لأربع عشرة قمرّ التمام
فقد حف الشتاء بكل أرض — فوارس مؤذنات باحتدام
وحلّق في السماء البدر حق — يقلص ظل أعمدة الخيام
وذلك في انتصاف الليل شطراً — ويصفو الجو من كدر الغمام

---

١ — البيروني ٣٣٩ . ٢ — الميداني ٢٠٢ ج ١ .

وقول الآخر :

اذا ما هلال الشهر أولَ ليلة … بدا لعيون الناس بين النعائم
أتتك رياح القر من كل وجهة … وطاب قبيل الصبح كَوْر العمائم

وقول الآخر :

وقد برد الليل التمام بأهله … وأصبحت العواء للشمس منزلا[١]

وكان عندهم لمطلع كل كوكب او منزل وصف يدل على تأثير ذلك في الطقس على اعتقادهم ، ومن هذا القبيل اعتقادهم تأثير النجوم في اعمال البشر على ما كان عند الكلدان[٢] على انهم كثيراً ما كانوا يستدلون على المطر ايضاً بألوان الغيوم وأشكالها ، فأقل الغيوم مطراً عندهم البيضاء ثم الحمراء ثم السوداء ، ومن اقوالهم : « السحابة البيضاء جفل ، والحمراء عارض ، والسوداء هطلة »[٣] .

وكان العرب في حاجة الى معرفة مهاب الرياح للاهتداء في اسفارهم ، ولذلك فقد وضعوا لها الاسماء . ولكنهم اختلفوا في عدد جهاتها ، فحسبها بعضهم ستة ، والبعض الآخر اربعة . فأصحاب القول الثاني يعدونها (١) مهب الصبا من الشمال (٢) مهب الشمال من المغرب (٣) مهب الدبور من الجنوب (٤) مهب الجنوب من المشرق . ويزيد عليها اصحاب القول الاول : النكباء بجانب الشمال ، والمحوة بجانب الجنوب . واليك قول ذي الرمة في ذلك :

أهاضيب أنواء وهيفانُ جرَّتا … على الدار أعرافَ الجبال الأعافر
وثالثة تهوِي من الشام حرجف … لهـا سنن فوق الحصى بالأعاصر
ورابعة من مطلع الشمس أجفلت … عليها بدقعاء المعا فقراقر
تُحَنِّنُهاالنُّكْبُ السَّوافي فأكثرت … حنين اللِّقاح القاريات العواشر[٤]

٣ — الميثولوجيا

ومما يلحق بعلم النجوم ايضاً ما يعبر عنه الافرنج بالميثولوجيا ، وهي عبارة عما كانوا

---

١ — البيروني ٣٣٦ . ٢ — Rawlinson's Ancient Monarchies, III 425
٣ — الميداني ١٠٩ ج ١ . ٤ — البيروني ٣٤٠ .

يزعمون وقوعه بين الكواكب — او هي الآلهة عندهم من الحروب او الزواج او نحو ذلك مما يجري على البشر على نحو ما ذكروه عن آلهة اليونان . فالعرب ألهوا الأجرام السماوية وعبدوها ، وقد ضاع خبر ذلك لعدم تدوينه ، على اننا نستدل عليه من بعض ما وصل الينا من اسماء اصنامهم وعبادة بعض رجالهم . فاللات اسم للزهرة وقد اشتهر كثيرون بعبادتها وعبادة الشمس والقمر والشعرى ، وكانوا يتناظرون في أفضلية بعضها على بعض ، قالوا : « وابو كبشة اول من عبد الشعرى ، وكان يقول : الشعرى تقطع السماء عرضا ، ولا أرى في السماء شمساً ولا قمراً ولا نجماً يقطع السماء عرضاً غيرها » .

اما تشخيص تلك الاجرام وانزالها منزلة البشر فقد كان معروفاً عند العرب . ومن الاقاصيص الميثولوجية التي كانوا يتناقلونها ان الدبران خطب الثريا واراد القمر ان يزوجه منها ، فأبت عليه وولت عنه وقالت للقمر : ما اصنع بهذا السبروت الذي لا مال له ؟ فجمع الدبران قلاصه يتمول بها ، فهو يتبعها حيث توجهت يسوق صداقها قدامه — يعنون القلاص . وان الجدي قتل نعشاً فبناته تدور به تريده . وان سهيلاً ركض الجوزاء فركضته برجلها فطرحته حيث هو ، وضربها هو بالسيف فقطع وسطها . وان الشعرى اليمانية كانت مع الشعرى الشامية ففارقتها وعبرت المجرة ، فسميت الشعرى العبور .. فلما رأت الشعرى اليمانية فراقها اياها بكت عليها حتى غمصت عيناها ، فسميت الشعرى الغميصاء [١] .

ومن هذا القبيل تأليههم بعض المشاهير من الملوك او القواد او الاسلاف ، واعتبار البعض الآخر من نتاج الملائكة او الجان . فعندهم مثلاً ان بلقيس كانت امها جنية ، وان جرهما كان من نتاج الملائكة وبنات آدم . وكذلك كان ذو القرنين عندهم أمه آدمية وابوه من الملائكة [٢] ، واما اصل هذه الاعتقادات فاما هندي او يوناني او مصري ، أما الكلدان فقلما كانت لهم عناية بأمثال ذلك .

٤ — الكهانة والعرافة

هما لفظان لمعنى واحد ، وفرق بعضهم بينهما فقال ان الكهانة مختصة بالأمور المستقبلة ،

---

١ — الميداني ٣١٢ ج ٢ . ٢ — الدميري ١٨ ج ٢ .

والعرافة بالأمور الماضية . وعلى كل حال فالمراد بهما التنبؤ واستطلاع الغيب . على ان العرب كانوا يعتقدون في الكاهن القدرة على كل شيء ، فكانوا يستشيرونه في حوائجهم ، ويتقاضون اليه في خصوماتهم ، ويستطبونه في أمراضهم ، ويستفتونه فيما اشكل عليهم ، ويستفسرون منه رؤاهم ، ويستنبئونه عن مستقبلهم . وبالجملة فالكهان عندهم هم اهل العلم والفلسفة والطب والقضاء والدين ، شأن تلك الطبقة من البشر عند سائر الامم القديمة في بابل وفينيقية ومصر وغيرها .

والكهانة من العلوم الدخيلة على العرب، جاءتهم من بعض الامم المجاورة لهم ، والغالب في اعتقادنا ان الكلدان حملوها اليهم مع علم النجوم . ويؤيد ذلك ان الكاهن يسمى في العربية أيضاً « حازي » او « حزاء » ، وهو لفظ كلداني معناه الاشتقاقي الناظر او الرائي او البصير ، وهو يدل عندهم على الحكيم والنبي . واما لفظ « الكاهن » فقد اقتبسه العرب بعدئذ من اليهود الذين نزحوا اليهم على اثر ما اصابهم من النكبات في أورشليم (بيت المقدس) ، وخصوصاً بعد خرابها على يد الامبراطور الروماني طيطس سنة ٧٠ للميلاد ، وقد اخذ عنهم العرب كثيراً من الآداب والعادات مما لا يدخل في بحثنا .

واما الكهانة فأصلها من عند الكلدان ، ولعل الذين حملوا علم النجوم الى العرب هم الكهنة الكلدانيون انفسهم ، فكانت الكهانة في جملة ما حملوه اليهم . ويؤيد ذلك ان العرب كانوا يطلقون لفظ الحزاء على الكاهن والمنجم [١] على ان اهل بابل ما زالوا يتواردون على بلاد العرب الى ما بعد الاسلام والعرب يجلونهم لعلمهم وتعقلهم .

فالعرب كانوا يعتقدون في الكهنة العلم بكل شيء ، وان ذلك يأتيهم بواسطة الارواح، فمن كان منهم يعتقد التوحيد نسب ذلك الى استطلاع الغيب عن افواه الملائكة . واذا كان من عبدة الاصنام اعتقد حلول الارواح في الاصنام وبوحيها بأسرار الطبيعة للكهان والسدنة ، فيقول العرب ان الاصنام تدخلها الجن (اي الارواح) وتخاطب الكهان ، وان الكاهن يأتيه الجني بخبر السماء وربما عبروا عنه بالهاتف . ومن اقوالهم : « الاحبار من اليهود ، والرهبان من النصارى ، والكهان من العرب » .

فكل ما كان يصنعه الكاهن إنما مصدره الغيب ، فاذا استطبه مريض من ريح او صداع عالجه بالرقى ، واذا استشير في معضلة خط في الرمل او نفث في العقد ، واذا

١ – السيرة الحلبية ٤٨ ج ١ .

حكمه متخاصمان رمى لهما بالقداح ، واذا استطلع عن سرقة اخذ قمقمة جعلها بين يديه ونفث فيها ، ونحو ذلك من الحركات الوهمية ، واذا استفسر عن رؤيا تمتم وتظاهر باستطلاع الغيب .

قلنا ان الكهانة أتت العرب من بين النهرين ، فالكهان القدماء كانوا في الغالب كلدانيين (او صابئة في قولهم) وكان العلم كله عندهم ، ثم تعدد الكهنة من اليهود وغيرهم ، ثم ما لبث العرب انفسهم ان اخذوا ذلك عنهم ، فنشأ الكهان منهم . على ان بعض العرب اقتصروا فيما تناولوه على علم دون آخر ، فكان بعضهم يتعاطى الطب فقط ، وبعضهم تعبير الرؤيا او القيافة او القضاء .

الكهان :

واشتهر في بلاد العرب جماعة كبيرة من الكهان والكواهن ، اقدمهم شق وسطيح وحكايتهما أشبه بالخرافات منها بالحقائق . فعندهم ان الاول كان شق انسان (اي نصفه) بيد واحدة ورجل واحدة وعين واحدة ، وان سطيحاً كان لحماً يطوى كما يطوى الثوب ، لا عظم فيه غير الجمجمة ووجهه في صدره . ويزعمون ان هذين الكاهنين عاشا بضعة قرون ، الى غير ذلك من الاوهام . ومن الكهان الذين نبغوا في النهضة العربية قبل الاسلام خنافر ابن التوأم الحميري ، وسواد بن قارب الدوسي . وفيهم من يعرفون بما ينسبون اليه من البلاد او القبائل ، كقولهم : كاهن قريش ، وكاهن اليمن ، وكاهن حضرموت ، وغيرهم .

ويقال نحو ذلك في العرافين ، واكثرهم ينسبون الى بلدانهم وقبائلهم ، كعراف هذيل وعراف نجد واشهرهم عراف اليمامة ، شهره عروة بن حزام ببيت قال فيه — وكذلك الشعراء يشهرون ممدوحيهم — وهو قوله :

اقول لعراف اليمامة داوني   فانك ان داويتني لطبيب

وأما الكواهن من النساء فإنهن عديدات ، منهن طريفة كاهنة اليمن وهي اقدمهن ، واليها ينسبون الانذار بخراب سد مأرب واتيان سيل العرم ، وزبراء بين الشحر وحضرموت ، وسلمى الهمدانية الحميرية ، وعفيراء الحميرية ، وفاطمة الخثعمية بمكة ، وزرقاء اليمامة . وغيرهن ينسبن الى القبيلة او المدينة ، ككاهنة بني سعد ، يزعمون انها اقدم عهداً من شق

وسطيح وانها استخلفتهما [١] . وما زالت الكهانة في العرب حتى جاء الحديث في ابطالها وهو : « لا كهانة بعد النبوة » [٢] .

وكان للكهان عند العرب لغة خاصة ، تمتاز بتسجيع معين يعرف بسجع الكهان ، مع تعقيد وغموض . ولعلهم كانوا يتوخون ذلك للتمويه على الناس بعبارات تحتمل غير وجه ، كما يفعل بعض مشايخ التنجيم في هـــذه الايام ، حتى اذا لم يصدق تكهنهم جعلوا السبب قصور الناس في فهم قول الكاهن . ومن امثلة سجع الكهان ما يروونه عن طريفة كاهنة اليمن ، حين خاف أهل مأرب سيل العرم وعليهم مزيقياء عمر بن عامر ، فانها قالت لهم : « لا تؤموا مكة حتى اقول ، وما علمني ما اقول الا الحكم المحكم ، رب جميع الامم من عرب وعجم » . قالوا لها : « ما شأنك يا طريفة؟ » . قالت : « خذوا البعير الشدقم ، فخضبوه بالدم ، تكن لكم ارض جرهم ، جيران بيته المحرم » [٣] .

القيافة :

ومن قبيل الكهانة ايضاً القيافة ، لكنها تختص بتتبع الآثار والاستدلال منهـــا على الاعيان ، وهي قسمان : قيافة الأثر ، وقيافة البشر . والأولى تختص بتتبع آثار الاقدام او الحوافر او الأخفاف ، والاستدلال من آثارها في الرمال أو التراب على اصحابها . والفائدة من ذلك الاهتداء الى الفار من الناس او الضال من الحيوان ، وقـــد اتقن العرب ذلك حتى فرق بعضهم بين أثر قدم الشاب والشيخ ، وقدم الرجل والمرأة ، والبكر والثيب . وأما قيافة البشر فهي الاستدلال بهيئات اعضاء الشخصين على المشاركة والاتحاد بينهما في النسب والولادة وسائر احوالهما ، وهي من قبيل الفراسة .

وكانت القيافة شائعة في العرب ثم اختصت بعض القبائل بهـــا دون البعض الآخر ، واشهر العرب بقيافة الأثر بنو مدلج وبنو لهب . ولا تزال هذه القيافة شائعة الى اليوم في بعض قبائل نجد ، ويقال انهم بنو مرة وهم اعلم الناس بهـــا ، حتى لقد يعرف احدهم الانسان من اثره ، وربما نظر الى أثر بعير فقال : هذا بعير فلان ، وكثيرون منهم يميزون بين العراقي والشامي والمصري والمدني .

---

١ – السيرة الحلبية ٣٦ ج ١ . ٢ – كشف الظنون ٣٣٩ ج ٢ .
٣ – الاغاني ١١٠ ج ١٣ .

والفراسة كانت شائعة في العرب ، وكانت لهم فيهـــا براعة يستدلون بهيئة الانسان واشكاله والوانه واقواله على اخلاقه ومناقبه ، وهي من قبيل الذكاء وسرعة الخاطر وسجية طبيعية .

ومن قبيل الكهانة تعبير الرؤيا ، وكان معروفاً عند العرب ، وكانوا يفزعون الى الكهان في تفسير الاحلام ، على ان كثيرين من غير الكهان كانوا يتعاطونها ، اشهرهم ابو بكر الصديق (١)

ومن هذا القبيل زجر الطير وخط الرمل ، وقد اغضنا عنهما لضيق المقام .

٥ ــ الطب في الجاهلية

الطب من جملة العلوم التي وضع اساسها الكلدان كهنة بابل ، وهم اول من بحث في علاج الامراض ، فكانوا يضعون مرضاهم في الازقة ومعابر الطرق ، حتى اذا مر بهم أحـــد أصيب بذلك الداء فيعلمهم بسبب شفائه ، فيكتبون ذلك على ألواح يعلقونها في الهياكل ، ولذلك كان التطبيب عندهم من جملة اعمال الكهان . وعن الكلدان اخذت سائر الامم القديمة وفي جملتها العرب ، وهو متشابه عنـــد تلك الامم في مصر وفينيقية وأشور . ثم تناوله اليونان فأتقنوه ورتبوا ابوابه ، وعنهم اخذ الرومان والفرس . ونظراً لمعاصرة العرب لهذه الدول فقد اقتبسوا شيئاً من طبها اضافوه الى ما جاءهم به الكلدان ، والى ما استنبطوه من عند انفسهم بالاختبار ، فتألف من ذلك ما عبرنا عنه « بالطب في الجاهلية » ولا يزال كثير منه باقياً الى اليوم في قبائل البادية . وكان للتطبيب عندهم طريقتان : الاولى ، طريقة الكهان والعرافين ، والثانية طريقة العلاج الحقيقية . فالكهان كانوا يعالجون بالرقى والسحر كما تقدم ، او بذبح الذبائح في الكعبة والدعاء فيهـا ، او بالتعازيم او نحو ذلك .

وكان التطبيب بالرقى شائعاً في الامم القديمة كلها ، وقد وجدوا في الآثار المصرية كثيراً من العزائم التي كانوا يصفونها لمعالجة المرضى : وجاء من اخبارهم ان كاهنهم كان اذا سار لمعالجة مريض صحبه خادمان احدهما يحمل كتاب العزائم والثاني صندوق العقاقير الطبية ،

---

١ ــ السيرة الحلبية ٢٩١ ج ١ .

وهم يعالجون بالاثنين جميعاً . وكانوا يوجهون كلامهم في العزيمة او الرقى الى احد آلهتهم وخصوصاً ايزيس واوزيرس ورع، ولهم عبارات يقولونها عند صنع الأدوية وعند مناولتها للمريض . فمن امثلة العزائم التي كانوا يتلونها عند تناول الدواء : « هذا هو كتاب الشفاء لكل مريض ، فهل لايزيس ان تشفيني كما شفت حوريس من كل ألم اصابه من اخيه ست حينما قتل اباه اوزيريس ؟ فيا ايزيس انت الساحرة الكبيرة ، اشفيني وخلصيني من كل شيء مكدر رديء شيطاني ، ومن امراض اللبسة والامراض القاتلة والخبيثة بأنواعها التي تعتريني كما خلصت ابنك حوريس .. » [١] وكان عندهم عزائم لاخراج الارواح الشريرة التي تسبب الامراض في زعمهم . فعلى هذه الكيفية كان العرب يتلون العزائم لاصنامهم ويرقون لاخراج الجان والشياطين . وكان اعتقادهم من هذا القبيل انهم اذا خافوا نهقوا نهيق الحمار ، يزعمون ان ذلك يمنعهم من الوباء ، وان دماء الملوك تشفي من الخبل .

وأما معالجتهم فشبيهة بما كان عند المصريين وغيرهم من الأمم القديمة ، فقد كانوا يعالجون بالعقاقير البسيطة او الاشربة وخصوصاً العسل، فانه كان قاعدة العلاج في امراض البطن — على ان اعتمادهم في معالجة الأمراض كان معظمه عائداً الى الجراحة كالحجامة والكي ، ومن اقوالهم : « كل داء حسم بالكي آخر الأمر ، وآخر الطب الكي » . وكثيراً ما كانوا يعالجون بالقطع او البتر ، والغالب ان يكون ذلك بالنار ، فان النار عندهم كانت تقوم مقام مضادات الفساد (المطهرات) عندنا. فاذا ارادوا فصل عضو حموا شفرة بالنار وقطعوه بها ، كما فعلوا بصخر بن عمرو اخي الخنساء لما نتأت قطعة من جوفه مثل الكبد على اثر طعنة فأحموا له شفرة وقطعوها [٢] .

وكانوا يعالجون حول البصر بإدامة النظر الى حجر الرحى في دورانه ، ويزعمون ان العين تستقيم به . ومن معالجاتهم التي نعدها اليوم خرافة أن المجروح اذا شرب الماء مات [٣] واذا خافت المرأة حتى برد قلبها سقوها ماءً حاراً [٤] .

---

١ — بغية الطالبين ٢٥٨ .　　٢ — الاغاني ١٣٧ ج ١٣ .
٣ — الاغاني ١٣١ ج ١٤ .　　٤ - الاغاني ٣٢ ج ١٠ .

الأطباء :

وأما الأطباء فقد كانوا في أول الأمر من الكهنة ، ثم تعاطى الطب جماعة من العرب ممن خالطوا الروم والفرس واخذوا الطب عنهم فاشتهروا بهذه الصناعة ، واكثرهم من اهل النهضة الأخيرة قبل الاسلام حوالي القرن السادس للميلاد ، على ان بعضهم اقدم من ذلك كثيراً ، وأقدم أطبائها لقمان وهو حكيمهم وفيلسوفهم ، وفي أصله وزمن وجوده اختلاف . يليه رجل من تيم الرباب يقال له ابن حذيم ، ويضربون به المثل بالحذق في الطب فيقولون لمن ارادوا وصفه بذلك : أطب من ابن حذيم . وفيه يقول أوس بن حجر :

فهل لكم فيها اليّ فانني بصير بما أعيى النطاسيّ حِذْيَما

ومن أحدث أطباء الجاهلية الحرث بن كلدة توفي سنة ١٣ للهجرة ، وهو من بني ثقيف من اهل الطائف ، رحل الى ارض فارس واخذ الطب من جنديسابور ، وتعاطى صناعة الطب هناك واكتسب مالاً ثم عاد الى بلاده وأقام في الطائف ونال شهرة واسعة ، وقد ادرك الاسلام وكان النبي يأمر من كانت به علة أن يأتيه فيستوصفه - ومنهم ابن ابي رومية التميمي ، والنضر بن الحرث بن كلدة .

واكثر هؤلاء الاطباء تناولوا الطب من بلاد الفرس او الروم ، وبعضهم اخذه عن الكهان او الأحبار من الاديار ونحوها . وربما اخذوا عنهم شيئاً من الفلسفة القديمة كما فعل النضر المذكور . والظاهر ان بعضهم كان يخصص نفسه للاعمال الجراحية فيغلب عليه لقب الجراح ، واشهر جراحي الجاهلية ابن ابي رومية التميمي ، فقد كان جراحاً مزاولاً لأعمال اليد (١) .

ونظراً لعناية العرب بخيولهم وابلهم كان بعض الاطباء يخصص نفسه لمعالجتها مما يعبرون عنه اليوم بالبيطرة . ومن بياطرة الجاهلية العاص بن وائل (٢) .

٦ — الشعر في الجاهلية

الشعر عند العرب الكلام المقفى الموزون ، وهذا في الحقيقة تعريف النظم وليس تعريف الشعر . لأن النظم غير الشعر ، اذ قد يكون الرجل شاعراً ولا يحسن النظم ،

---

١ - طبقات الاطباء ١١٦ ج ١ . ٢ - المعارف لابن قتيبة ١٩٤ .

وقد يكون ناظماً وليس في نظمه شعر – وان كان النظم يريد الشعر طلاوة ووقعاً في النفس . فالنظم هو القالب الذي يسبك فيه الشعر . واما الشعر بأعم معانيه فيصعب الاختصار في تعريفه، لما ينطوي تحته من أساليب التعبير وتأثيره في النفس، مما لا يستطيع ان يؤثر تأثيره الكلام المرسل . والفرق بينهما اننا نعبر بالكلام المرسل عما نشاهده او نستنتجه من اعمال الحياة بالقياس او البرهان، واما الشعر فنعبر به عن شعورنا بالانفعالات النفسية بلا قياس ولا برهان . فالكلام المرسل « لغة العقل » ، والشعر « لغة النفس او القلب » . وقال بعضهم : « الشعر صور ظاهرة لحقائق غير ظاهرة » .

ولذلك فالشعر قديم لم تخل منه امة من امم العالم قديماً ولا حديثاً وهو مرآة آداب الناس وصحيفة اخلاقهم وديوان اخبارهم وسجل عقائدهم . لأن الانسان ارتقت نفسه وتحرك قلبه قبل ان يرتقي عقله وتتهذب مداركه ، فتكلم بالشعر قبل ان تكلم في العلم ، ولذلك كان اقدم اخبار الناس من قبيل الخيال ، واقدم المحفوظ من مدونات الأمم كتب الشعر ، وقد دونوا فيها مشاعرهم الدينية والأدبية او الحماسية او غير ذلك من صور الانفعالات النفسية . فالمهابهاراتة والرامايانة عند الهنود ، والالياذة والأوديسية عند اليونان ، والانيادة عند الرومان ، وبعض أسفار التوراة عند اليهود ، والشهنامة عند الفرس ، انما هي شعر حفظت فيها عادات تلك الأمم واخلاقهم واخبارهم ، وخصوصاً من حيث العبادة والآلهة. وذلك طبيعي، لان الشعر كما قلنا لغة النفس تعبر به عن انفعالها وتطلب به مشتهاها ، لا تقدم على ذلك برهانا ولا تطلب دليلا. والدين اكثر اعمالها حاجة الى التسليم والايمان العاطفي القلبي .

الشعر العبراني

والشعوب السامية اكثر الامم اغراقاً في عالم الخيال ، ولذلك كانوا اميل الناس الى اعتقاد التوحيد والتدين بما لا يقع تحت الحواس ، ولهذا السبب ايضاً كانوا اقرب الناس الى التصورات الشعرية ، وترى ذلك واضحاً فيما خلفوه من الآثار الشعرية . واقدم آثار الساميين من هذا القبيل التوراة ، وقد وجدوا التصورات الشعرية في اقدم اسفارها . فما كلام « لامك » لامرأتيه « عادة » و « صلة » في سفر التكوين (ص ٢٣٥٤) إلا جزء من نشيد ضاع ولم يبق منه إلا مطلعه ، وفي اصله العبراني ما يدل على انه شعر موزون ومقفى . فهو اقدم منظومات العبرانيين ، بل اقدم الشعر المقفى في العالم على الاطلاق .

وفي التوراة امثلة كثيرة من التصور الشعري ، كقول يشوع لموسى لما سمع جلبة الشعب عند نزول موسى من الجبل ولوحا الشهادة معه (خروج ٣٢ : ١٧) : « صوت حرب في المحلة » فقال موسى : « ليس ذلك صياح ظفر ولا صياح هزيمة ، بل صوت غناء انا سامع » . والمظنون ان هذه الفقرة بيت قديم تمثل به موسى في تلك الحال . وقس عليه .

وهناك أسفار كلها شعر ، كسفر ايوب ويقال ان اصله عربي ، وسفر اشعيا ومزامير داود وغيرهما مما هو مشهور . وقد بلغ الشعر العبراني اسمى درجاته في ايام سليمان الحكيم، لاستتباب الأمن وسعة الملك ورخاء العيش ، وهو العصر الذهبي عند اليهود مثل عصر المأمون عند العرب . وكان سليمان حكيماً وشاعراً كما كان المأمون ايضاً .

الشعر العربي

والعرب كالعبرانيين في استعدادهم الفطري لقرض الشعر والاستغراق في عالم الخيال لأنهم ساميون مثلهم ، واللغة العربية اكثر استعداداً للتعبير الشعري من العبرانية لما فيها من المترادف والمتوارد واساليب المعاني والبيان . واذا اعتبرنا الاقليم والبيئة رأينا العرب اولى بالتصوير الشعري من اليهود ، نظراً لانطلاقهم في الصحاري واستقلالهم في احكامهم وافكارهم وسائر احوالهم . ولذلك كان شعرهم اكثره من قبيل الحماسة والفروسية ، واما اليهود فالذل والانكسار والتدين هي الصفات المميزة لأشعارهم .

على أن الغالب في الشعر ان يكون منظوماً ، وان اختلفت الامم في كيفية نظمه ، فاكتفى بعضهم ان يكون موزوناً غير مقفى ، والبعض الآخر مقفى غير موزون ، او مقفى وموزوناً معاً. والعرب يشترطون في شعرهم الوزن والتقفية والا فهو ليس من قبيل الشعر عندهم ، خلافاً لما هو عند اخوانهم السريان والعبرانيين . فقد كان السريانيون القدماء ينظمون بلا قافية ، اي بلا التزام قافية واحدة ، كافرام السرياني واسحق الانطاكي وغيرهما [1] . والعبرانيون لم يكونوا يشترطون هذا ولا ذاك ، وربما اشترطوا القافية دون الوزن – ولذلك لما سمعوا آيات القرآن ، بما فيها من التصور الشعري الديني مع التزام القافية ، قالوا : هذا شعر ، بالقياس على الشعر في لسانهم .

---

١ – شعراء السريان ١ .

ولا ريب ان للوزن والقافية رنة تزيد المعنى الشعري تأثيراً في النفس ، لا انهـــا هي تجعله شعراً . فالخطابة تؤثر في النفوس وتهيج العواطف ، وكلاهما غير موزون ولا مقفى ، وهي من قبيل التصورات الشعرية . وسيأتي الكلام عليها .

كيف توصلوا للنظم :

فالتصورات الشعرية فطرية في العرب ، اما النظم فحادث عندهم . وربما صاغوا الشعر اولاً بعبارات قصيرة تحفظ وتتناقل على سبيل الامثال الحكيمة ونحوها . والظاهر انهم قضوا اجيالا والنظم عندهم على سبيل الامثال ، حتى اتفق لبعضهم وهو يقول المثل انه جعله شطرين مسجوعين في مثل واحد او مثلين متآلفين فرأى في ذلك رنة فترنم به وأخذه عنه الناس وجعلوا يتغنونه في حدوهم وانشادهم وراء ابلهم – والغناء لسان طبيعي – فاعجبتهم رنة القافية والوزن ، فزادوا شطراً او شطرين او اكثر على قافية واحدة ، وهو الرجز في ابسط احواله . وظلوا دهراً طويلاً يقول شاعرهم من الرجز البيتين او الثلاثة اذا هاجت فيه قريحة الشعر لمفاخرة او هجاء او منافرة ، وكانوا كلما نبـــغ فيهم نابغة ادخل في النظم تحسيناً . وقد ذكروا ممن حسنوا نظم الرجز العجاج والاغلب العجلي [1] ولم يعينوا زمنه .

اما القصيد فأشهر من اطلق سراحه امرؤ القيس امام الشعراء وخاله المهلهل من اهل القرن الخامس للميلاد . فالمهلهل يقولون انه اول من قصد القصائد ، وامرؤ القيس اول من أطالها وتفنن في نظمها وفتح الشعر وبكى ووصف . وهو اول من شبه الخيـــل بالعصا والقوة والسباع والظباء [2] وأول من رقق النسيب وغير ذلك ، ولعله تنبه لهذا التفنن في اثناء اسفاره في بلاد الروم فسمع أشعارهم أو أشعار اليونان ، والنبيه تنفتق قريحته بالاختلاط ، فزاد اختباره فأدخل في الشعر ما أدخـــله . وكان الشعراء الجاهليون قلما يدخلون بلاد الروم ، وانما كانوا يقفون على الحدود في البلقاء عند بني غسان او في الحيرة عند بني لخم المناذرة الا قليلاً منهم .

فالعرب مطبوعون على الشعر (١) لانهم ساميون أهل خيال من فطرتهم (٢) لانهم سكنوا البادية وتعودوا الحرية والاستقلال (٣) لان شؤونهم البدوية قضت بينهم بالتنازع والتنافر والتفاخر مما يشحذ الاذهان ويستحث البدائه (٤) لان لغتهم تساعدهم على النظم .

---

١ – المزهر ٢٤٣ ج ١ .   ٢ – الشعر والشعراء ٥٢ .

والعرب امة قديمة ولذلك فلا بد ان تكون قد نظمت الشعر من قديم الزمان، والحال أن اقدم ما وصل الينا من اشعارهم لا يتجاوز القرن الثاني قبل الهجرة ، فهل كان العرب قبل ذلك ينظمون ؟

الغالب في اعتقادنا انهم نظموا كما نظم العبرانيون ، ولا يبعد ان يكون سفر ايوب من بقايا شعرهم القديم ، وقد حفظ في العبرانية وضاع اصله العربي . ولو لم يحفظ في العبرانية لضاع كما ضاع غيره من منظومات العرب ، لجهلهم الكتابة ولانقطاعهم عن الأمم التي كانت تعرفها في ذلك العهد .

كثرة شعر العرب :

على اننا نكتفي في الاستدلال على كثرة ما نظمه العرب باعتبار ما وصل الينا من اشعارهم في نهضتهم الاخيرة قبل الاسلام ، فقد نظموا في قرن واحد او قرنين ما لم يجتمع عند امم العالم المتمدن في عدة قرون ، وخصوصاً في العصر الجاهلي . فالياذة هوميروس وأوديسيته هما معظم شعر جاهلية اليونان ولا يزيد عدد ابياتهما على ٣٠٫٠٠٠ بيت ، وكذلك مهابهاراتة الهنود ٢٠٫٠٠٠ بيت وراماياناتهم ٤٨٫٠٠٠ بيت[١]. واما العرب فيؤخذ مما بلغنا من أخبارهم عما نظموه في نهضتهم الاخيرة قبل الاسلام انه يربو على اضعاف ذلك. فهم يعدون منظوماتهم بالقصائد وليس بالأبيات ، فقد ذكروا أن أبا تمام صاحب كتاب الحماسة كان يحفظ من أشعار العرب (الجاهلية) ١٤٫٠٠٠ ارجوزة غير القصائد والمقاطيع[٢] وكان حماد الراوية يحفظ ٢٧٫٠٠٠ قصيدة[٣] على كل حرف من حروف الهجاء الف قصيدة . وكان الاصمعي يحفظ ١٦٫٠٠٠ ارجوزة[٤] وكان أبو ضمضم يروي أشعاراً لمائة شاعر كل منهم اسمه عمرو[٥] ومع ما يظن في ذلك من المبالغة فانه يدل على كثرة ما خلفه العرب من المنظومات . وخصوصاً اذا اعتبرنا أن ما وصل الى رواة الشعر في الاسلام إنما هو من بعض أشعار الجاهلية لان كثيرين من رواة الشعر الجاهلي قتلوا في الفتوح الاسلامية فضاع ما كان في محفوظهم من الاشعار — قال أبو عمرو بن العلاء : « ما انتهى اليكم مما قالت العرب الا اقله ، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير »[٦] .

---

١ — Lit. Hist. of India. 213 ٢ — ابن خلكان ١٢١ ج ١ .
٣ — النجوم الزاهرة ٤٢٠ ج ١ . ٤ — ابن خلكان ١٢١ ج ١ وطبقات الادباء ١٥١ .
٥ — الشعر والشعراء ٤ . ٦ — المزهر ٢٣٧ ج ٢ .

وزد على ذلك ان العرب نظموا الشعر الكثير وابدعوا فيه ، وهم يكادون يكونون فوضى لا دولة لهم ولا جامعة ولا دين ولا شيء مما حمل اليونان او الهنود او غيرهم على النظم وإنما اندفعوا اليه بفطرتهم . ولولا ذلك لتأخروا في النظم حتى قامت دولتهم ونضجت قرائحهم ، كما حدث للرومانين فإن الشعر لم ينظم بلسانهم الا بعد تأسيس دولتهم ببضعة قرون . ولم يبلغ الشعر اللاتيني عصره الذهبي الا في ايام اوغسطس وطيباريوس نحو القرن الثامن من تأسيس رومية (القرن الاول للميلاد) ثم أخذ في التقهقر . ويقال نحو ذلك في دول أوربا الحالية ، فان الشعر لم ينضج عندهم إلا بعد نشوء دولهم وتقدمهم في العلم والأدب .

أقسام الشعر :

والشعر من حيث موضوعه ينقسم إلى قسمين كبيرين : الأول ما يعبر به الشاعر عن عواطفه وعواطف ذويه . والثاني ما يصف به احوال الآخرين . والأول هو الذي يسميه الافرنج Lyric أي الغنائي أو الموسيقي من Lyre أي العود ، ويدخل فيه حكاية كل ما تشعر به النفس من الحب والشوق والوجد والرثاء والحماسة والفخر والانتقام . أو ما علمته بطول الاختبار والتعقل كالأمثال والحكم ونحوها . والثاني يشمل سائر ضروب الشعر ، ويدخل فيه الشعر القصصي الذي يسميه الافرنج Epic وهو عبارة عن نظم الحوادث والوقائع شعراً ، والشعر الوصفي والتمثيلي Drama . فأشعار الأمم السامية أكثرها من النوع الأول ، وخصوصاً العبرانيون فانهم أرثى أهل الأرض وأبكاهم وأشكاهم . فالمزامير والمراثي ونحوها من قبيل العواطف ، والأمثال الجامعة من قبيل الحكم . ويقال بالاجمال أن الخيال الشعري منصرف في العبرانيين الى الاحساس الديني كالتعبد والشكوى والاستسلام .

ويقال نحو ذلك في العرب ، غير ان الخيال الشعري فيهم منصرف الى ما تدعو اليه أحوالهم من المفاخرة والحماسة والتشبيب وذكر السيف والفرس. وقد عدوا من أشعارهم بضعة عشر نوعاً معظمها من قبيل الشعر الغنائي ، الذي يعبر به عن العواطف ، كالغزل والفخر والمدح والهجاء والعتاب والاعتذار والزهد والرثاء والتهاني والوعد والتحذير والحماسة ، وبعضها من قبيل الوصف كالزهريات والخمريات ، وبعضها من قبيل العظة كالأدب والحكم . ولو تدبرت معانيها لرأيتها ترجع الى التعبير عن عواطف الشاعر او عواطف قبيلته .

وأما الشعر الوصفي أو القصصي فلا نقول أنه معدوم في العربية ولكنه قليل ، وخصوصاً في الجاهلية ، واكثر ما عثروا عليه منه لا يخرج عن وصف بعض الأدوات او الحيوانات او بعض الوقائع الصغيرة . وأما الشعر القصصي – على نحو ما في الياذة هوميروس أو شاهنامة الفردوسي – فلا وجود له عندهم . ولا يدل ذلك على أنهم لم ينظموا مثلها ، بل يغلب على ظننا أنهم نظموا كثيراً من أخبار حروبهم المشهورة بين قبائلهم ، ونظراً لعدم تدوينها ضاعت من محفوظهم إلا قطعاً بقيت إلى زمن تدوين الشعر في الاسلام ، تقتصر القصيدة منها على وصف وقعة أو بعض وقعة من تلك الحروب . والمقام لا يساعدنا على زيادة البحث .

وكان الشعر فطرياً في العرب ، يندر فيهم من لا يستطيعه حتى المجانين واللصوص [١] ناهيك بالنساء فقد نبغ منهم جماعة كبيرة من الشواعر . ومن لم يستطع الشعر لم يفته الاجتماع في المجالس العامة لسماعه أو تناشده . وكثيراً ما كانت النساء يعقدن المجالس لتناشد الأشعار وذكر الشعر ونقد أقوالهم وبيان ما يتفاضل به بعضهم على بعض [٢] وكان أكثرهم ينظمون الشعراء وهم أطفال لم ينظروا في الأدب أو الشعر [٣] فمن شب ولم تنفتق قريحته عدوا ذلك نقصاً فيه وعيباً على أهله .

منزلة الشعر :

فكانوا يثيرون بذلك غيرة أبنائهم على اتقان الشعر ويحرضونهم على نظمه . لأن الشعراء كانوا حماة الأعراض وحفظة الآثار ونقلة الأخبار ، وربما فضلوا نبوغ الشاعر فيهم على نبوغ الفارس ، ولذلك كانوا اذا نبغ فيهم شاعر من قبيلة أتت القبائل الأخرى فهنأتها به وصنعت الأطعمة واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعن في الأعراس ، ويتباشر الرجال والولدان لاعتقادهم أنه حماية لأعراضهم وذب عن أحسابهم وتخليد لمآثرهم وإشادة لذكرهم [٤] وفي الواقع أن ما بقي لنا من أخبار عرب الجاهلية وآدابهم وعلومهم وأخلاقهم إنما هو منقول عن أشعارهم .

فمن شعرهم استخرج الناس اخبار ايامهم وحروبهم . ومنه الف السجستاني « كتاب المعمرين » . ومنه استخرجوا احوال الشعراء المتقدمين والفوا الكتب كابن قتيبة وغيره .

---

١ – البيان والتبيين ١٦٤ ج ٢ — ٢ – الاغاني ١٥٠ ج ١ .
٣ – ابن خلكان ٢٣ ج ٢ . — ٤ – المزهر ٢٣٦ ج ٢ .

ومن شعرهم استخرجوا وصف البلاد والجبال والأودية والوهاد . ومنه الفوا ما الفوه في الحيوان والنبات ، ككتاب الحيوان للجاحظ ، والنبات لأبي حنيفة الدينوري . ومن اشعارهم استطلعوا اديانهم في ايام جاهليتهم ، وقس على ذلك كل ما عرفوه من عاداتهم وآدابهم في الضيافة والفروسية والأعراس والمآتم وغيرها .

وقد ذكروا شعراء حموا اعراض قبائلهم ببلاغة شعرهم ، كما حمى زياد الأعجم قبيلة عبد القيس من لسان الفرزدق ، وكما حمى عتبة بن ربيعة بني قصي وغيرهما كثيرون [١] .

المعلقات

وقد بلغ من احترام العرب للشعر والشعراء انهم عمدوا الى سبع قصائد اختاروها من الشعر القديم وكتبوها بماء الذهب في القباطي (التيل المصري) بشكل الدرج الملتف وعلقوها في استار الكعبة وهي المعلقات ، ولذلك يقال لها المذهبات ايضاً ، كمذهبة امرىء القيس ومذهبة زهير[٢] وبعضهم يجعل المذهبات غير المعلقات . ونخبة أشعار الجاهلية ٤٩ قصيدة لتسعة واربعين شاعراً تقسم الى سبعة مجاميع كل مجموع سبع قصائد تعرف بلقب خاص وهي : المعلقات ، والمجمهرات ، والمنتقيات ، والمذهبات ، والمراثي ، والمشوبات ، والملحمات . وهي مجموعة في كتاب « جمهرة اشعار العرب » لأبي زيد الانصاري .

تأثير الشعر

أما تأثير الشعر في حماية الاعراض فسببه ما فطر عليه العرب من الحماسة والخيال فيتأثرون بالكلام البليغ ، وربما اقامهم البيت الواحد واقعدهم . ولذلك كانوا يخافون هجو الشعراء ويفتخرون بمدائحهم ، حتى عمر بن الخطاب فانه كان اذا عرض عليه الحكم بين شاعرين كره ان يتعرض للشعراء واستشهد رجالاً للفريقين مثل حسان بن ثابت وغيره [٣] وقد اشترى اعراض المسلمين من الحطيئة بثلاثة آلاف درهم ليؤكد الحجة عليه[٤] وبلغ من شدة خوفهم الهجاء لئلا يبقى ذلك محفوظاً في الاعقاب انهم اذا اسروا

---

١ – بلوغ الارب ٩١ ج ٣ . ٢ – العقد الفريد ٩٣ ج ٣ .
٣ – البيان والتبيين ٩٧ ج ١ . ٤ – فوات الوفيات ٩٩ ج ١ .

الشاعر اخذوا عليه المواثيق . وربما شدوا لسانه بنسعة لئلا يهجوهم ، كما صنعوا بعبد يغوث بن وقاص المحاربي حين اسره بنو تيم يوم الكلاب . وهو الذي يقول :

اقول وقد شدوا لساني بنسعة امعشر تيم اطلقوا من لسانيا
وتضحك مني شيخة عبشمية كأن لم تر قبلي اسيراً يمانيا[1]

فكانوا يبذلون قصارى الجهد في ان يمدحهم الشعراء . ومن مدحوه ارتفعت منزلته واذا كانت له بنات تزوجن ، كما فعل الأعشى الاكبر بالمحلق اذ مدحه الاعشى بقصيدة انشدها في سوق عكاظ فاشتهر وخطبت بناته . وكما فعل مسكين الدارمي في انفاق الخمر السود بعد كسادها ببيتين وصف بهما مليحة عليها خمار اسود وهما :

قل للمليحة في الخمار الأسود ماذا اردت بناسك متعبد
قد كان شمر للصلاة ثيابه حتى قعدت له بباب المسجد

فرغب الناس في لبس الخمر السود فاشتروا منها ما كان عند ذلك التاجر[2] وسيأتي باقي الكلام على تأثير الشعر في النفوس في كلامنا عن العصر الاسلامي .

القاب الشعراء

وكان الشاعر يلقب بلفظ ورد في بعض اشعاره . فعوف بن سعد بن مالك لقب بالمرقش لقوله :

الدار قفر والرسوم كما رقش في ظهر الأديم قلم

وجرير بن عبد المسيح الضبعي لقب بالمتلمس لقوله :

فهذا اوان العرض حي ذبابه زنابيره والازرق المتلمس

وزياد بن معاوية الذبياني لقب بالنابغة لقوله :

وحلت في بني القين بن جسر وقد نبغت لنا منهم شؤون

---

١ – البيان والتبيين ١٧١ ج ٢ . ٢ – ابن خلكان ٤٤٦ ج ١

ويقال نحو ذلك في سائر القابهم ، كالمخرق وافنون وتأبط شرا واعصر والمستوغر والاعسر وطرفة وذي الرمة والمزرد وعويف وجران العود والعجاج وموسى الشهوات وابن قيس الرقيات وصريع الغواني وغبار العسكر ومقبل الريح وغيرهم [١] .

وكانت قبائل العرب تتفاوت في شاعريتها ، وأشعرها ربيعة ومنهم المهلهل والمرقشان الاكبر والاصغر وطرفة بن العبد وعمرو بن قميئة والحارث بن حلزة والمتلمس والأعشى والمسيب الضبي ، ثم انتقل الشعر الى قيس ومنهم النابغتان وزهير بن ابي سلمى وربيعة ولبيد والحطيئة والشماخ وغيرهم . ثم استقر الشعر في تميم ومنهم أوس بن حجر شاعر مضر ويليهم هذيل وغيرها . وكان في حمير جماعة من الشعراء [٢]. ومن الغريب ان العرب كانت تقر لقريش التقدم عليها في كل شيء إلا الشعر فقد كانت لا تقر لها به [٣] والظاهر ان اختلاط العرب بالأعاجم كان يفتق قرائحهم ويحملهم على النظم ، ولذلك كان أكثر القبائل شاعرية أقربهم الى العراق، وأشعرهم من اختلط بالفرس، وأشعر من كليهما من عاشر الفرس والروم .

وبالجملة فقد كان الشعر شائعاً في العرب، ولم تخلُ قبيلة من شاعر أو أكثر يحمي ذمارها ويصف عواطفها ، وكان الشعر عندهم مستودع الأخبار وخزانة الآداب والأخلاق ، ولذلك قيل : الشعر ديوان العرب . ومن قبيل الشعر الأمثال ، فإنها مرآة العادات والأخلاق والآداب وقد استخرج الناس كثيراً من آداب العرب الجاهلية من أمثالها .

٧ ـ الخطابة في الجاهلية

الخطابة تحتاج الى خيال وبلاغة ، ولذلك عددناها من قبيل الشعر، أو هي شعر منثور وهو شعر منظوم وان كان لكل منها موقف. فالخطابة تحتاج الى الحماسة، ويغلب تأثيرها في أبناء عصر الفروسية وأصحاب النفوس الأبية طلاب الاستقلال والحرية ، مما لا يشترط في الشعر. ولذلك تشابهت جاهلية العرب وجاهلية اليونان من هذا الوجه ، لان كليهما اهل شعر وخطابة واهل اباء واستقلال . ولذلك أيضاً كانت الخطابة رائجة عند الرومان ، مع تأخر الشعر عندهم ، ولنفس هذا السبب قصر العبرانيون في الخطابة مع تقدمهم في الشعر لغلبة الذل والضعف على طباعهم ، فتحول خيالهم الشعري الى الشكوى والتضرع وانصرفت قرائحهم الى نظم المراثي والحكم .

---

١ ـ لطائف المعارف ١٧ . ٢ ـ بلوغ الارب ٩٣ ج ٣ . ٣ ـ الاغاني ٣٥ ج ١ .

٣ ـ تاريخ التمدن الاسلامي

أما العرب فقد قضى عليهم الاقليم بالحرية والحماسة ، وهم ذوو نفوس حساسة مثل سائر أهل الخيال الشعري ، فأصبح للبلاغة وقع شديد في نفوسهم ، فالعبارة البليغة قد تقعدهم او تقيمهم بما تثيره في خواطرهم من النخوة . واقتضت المنازعات بينهم ان يتفاخروا ويتنافروا ، فاحتاجوا الى الخطابة في الاقناع وتأليف الأحزاب ، وان غلب في موضوعات خطبهم المفاخرة بالأحساب والآداب في المجالس والأندية العامة والخاصة . وكانوا يخطبون وعليهم العمائم وهم وقوف وفي أيديهم المخاصر ، ويعتمدون على الأرض بالقسي ويشيرون بالعصي والقنا ، وقد يخطبون وهم جلوس على رواحلهم [١] . ومما يدل على تشابه الشعر والخطابة أن الغالب في الشعراء ان يخطبوا ، والخطباء ان ينظموا ، فيكون الواحد شاعراً وخطيباً ، فاذا غلب عليه الشعر سموه شاعراً ، او الخطابة سموه خطيباً . والقبائل التي كثر خطباؤها هي غالباً التي كثر شعراؤها . ومن أقوالهم في تاريخ الشعر والخطابة ان عبد القيس بعد محاربة أياد تفرقوا فرقتين ، ففرقة وقعت بعمان وشق عمان وفيهم خطباء العرب ، وفرقة وقعت الى البحرين وشق البحرين وهم من اشعر القبائل ، ولم يكونوا كذلك حين كانوا في سرة البادية وفي معدن الفصاحة [٢] ويدل ذلك على ما قدمناه من نتائج احتكاك الأفكار عند الاختلاط بالأعاجم ، ولهذا السبب كثر الخطباء أيضاً في اليمن لاختلاطهم بالفرس ، وكان الفرس أهل خطابة مثل العرب .

موضوعات الخطب

وكان العرب يخطبون بعبارة بليغة فصيحة ، وهم أميون لا يقرأون ولا يكتبون ، وإنما كانت الخطابة فيهم قريحة مثل الشعر ، وكانوا يدربون فتيانهم عليها من حداثتهم [٣] لاحتياجهم الى الخطباء في ايفاد الوفود مثل حاجتهم الى الشعراء في حفظ الانساب والدفاع عن الاعراض . ولكنهم كانوا يقدمون الشاعر على الخطيب في الجاهلية ، فلما جاء الاسلام صار الخطيب مقدماً لحاجتهم اليه في الاقناع وجمع كلمة الاحزاب . ولكن نظراً لحاجة العرب الى الخطباء في ارسال الوفود فقد كان خطيب القبيلة عندهم عميدها وزعيمها ، وهو واحد يعدل قبيلة ولسان يعرب عن السنة .

اما ايفاد الوفود فقد كان شائعاً في تلك العصور ، فكانت دول الروم والهند والصين

---

١ – البيان والتبيين ٢٠ ج ٢ .   ٢ – البيان والتبيين ٤٢ و ١٣٩ ج ١ .
٣ – البيان والتبيين ٥٨ و ٩٨ ج ١ .

والفرس يتبادلون الوفود لمبادلة العلاقات او للمفاخرة . ولم يكن للعرب دولة تستوفد من قبلها ، ولكن المناذرة ملوك العرب في العراق كانوا يذكرون فصاحة العرب بين يدي الاكاسرة ، وخصوصاً كسرى انو شروان فكان يميل الى مشاهدتهم . فاتفق مرة ان النعمان خاطبه في ذلك فطلب اليه ان يريه واحداً منهم ، فاستقدم جماعة من خطباء العرب اختار من كل قبيلة اثنين او ثلاثة هم في الحقيقة حكماؤهم ووجهاؤهم ، ومنهم اكثم بن صيفي ، وحاجب بن زرارة من قبيلة تميم ، والحرث بن ظالم ، وقيس بن مسعود من قبيلة بكر ، وخالد بن جعفر ، وعلقمة بن علاثة ، وعامر بن الطفيل من بني عامر وغيرهم . فقدموا على كسرى وخطب كل منهم بين يديه خطاباً ذكره ابن عبد ربه مفصلاً في الجزء الثالث من العقد الفريد .

على أن عرب اليمن وشرقي جزيرة العرب كانوا يقدمون على كسرى للشكوى من عماله هناك ، وكان غيرهم من العرب يفدون عليه بالهدايا من الخيل ونحوها على سبيل الاستجداء ، كما فعل ابو سفيان والد معاوية .

وكانوا يفدون على الامراء من العرب وغيرهم ، كوفود حسان بن ثابت على النعمان ابن المنذر بالحيرة وعلى آل جفنة في البلقاء . ووفود وجهاء قريش على سيف بن ذي يزن في اليمن بعد قتله الحبشة ، فقد وفدوا عليه للتهنئة بالنصر وكان في جملة خطباء ذلك الوفد عبد المطلب جد النبي (صلعم) . ومن هذا القبيل وفود القبائل على النبي بعد ان استتب له الامر ، فقد جاءه من كل قبيلة وجهاؤها وخيرة بلغائها لاعتناق الاسلام او للاستفهام أو غير ذلك . ومن هذا القبيل وفود العرب على الخلفاء للتسليم والتهنئة ، كوفود جبلة بن الايهم وعمرو بن معد يكرب على عمر بن الخطاب ، ووفود اهل اليمامة على ابي بكر وغيرهم مما يطول شرحه .

الخطباء

وجملة القول ان الخطباء كانوا عديدين في النهضة الجاهلية كالشعراء ، والغالب فيهم ان يكونوا امراء القبائل او وجهاءها او حكماءها . وكان لكل قبيلة خطيب او اكثر كما كان لها شاعر او اكثر . وأشهر خطباء الجاهلية قس بن ساعدة من بني أياد ، ادرك

النبي فرآه في سوق عكاظ على جمل احمر وهو يقول في خطابه : « ايها الناس ، اجتمعوا فاسمعوا وعوا : من عاش مات .. ومن مات فات .. وكل ما هو آت آت » (١) .

ومنهم سحبان وائل الباهلي الذي يضرب المثل بفصاحته فيقال : « هو اخطب من سحبان وائل » . وكان اذا خطب يسيل عرقا ، ولا يعيد كلمة ولا يتوقف ولا يقعد حتى يفرغ . ومنهم جماعة كبيرة من حمير ، كذويد بن زيد ، وزهير بن خباب ، ومرثد الخير ، وغيرهم من سائر القبائل ، كالحارث بن كعب المذحجي ، وقيس بن زهير العبسي ، والربيع بن ضبيع الفزاري ، وذو الاصبع العدواني ، وأكثم بن صيفي التميمي ، وعمرو بن كلثوم التغلبي وكثيرين غيرهم .

وكانوا يتخيرون في خطبهم الالفاظ المألوفة الرقيقة المعاني . وكانت خطبهم على ضربين : الطوال والقصار ، والقصار اكثر عدداً لانهم كانوا يفضلونها لسهولة حفظها . وكانوا لشدة عنايتهم بالخطب يتوارثونها ويتناقلونها في الاعقاب ويسمونها باسماء خاصة ، كالعجوز اسم خطبة لآل رقية ، والعذراء خطبة قيس بن خارجة ، والشوهاء خطبة سحبان وائل (٢) .

٨ ـ مجالس الادب وسوق عكاظ

كان العرب يعقدون المجالس لمناشدة الاشعار ومبادلة الاخبار والمسامرة او البحث في بعض الشؤون العامة ، وكانوا يسمون تلك المجالس الأندية ، ومنها نادي قريش ودار الندوة كانت بجوار الكعبة . على انهم كانوا حيثما اجتمعوا على فراغ من العمل عمدوا الى المناشدة والمفاخرة والمسامرة ، وخصوصاً في المواسم المعبر عنها بالأسواق .

الاسواق

والمراد بالسوق مكان يجتمع فيه اهل البلاد او القرى في اوقات معينة ، يتبايعون ويتداولون ويتقايضون . ولا تزال امثال هذه الاسواق تقام الى اليوم في القرى او في البلاد البعيدة عن التمدن الحديث . على ان في بعض المدن الكبرى ـ كالقاهرة مثلا ـ

---

١ ـ البيان والتبيين ١١٩ ج ١ . ٢ ـ البيان والتبيين ١٣٣ ج ١ .

اسواقاً تنعقد في بعض ايام الاسبوع وتعرف بها ، كسوق السبت – او السبتية – وسوق الثلاثاء او الاربعاء ، فيجتمع اليها الناس من الضواحي للبيع والشراء .

ومن هذه الاسواق ما ينعقد كل اسبوع ، ومنها ما لا ينعقد إلا مرة في الشهر ، او في السنة ، ومنها ما ينعقد مرة كل بضع سنين . فان للهنود سوقاً يقيمونها في هردوار على ضفاف الكنج كل سنة ويبلغ عدد المجتمعين هناك في الموسم ٣٠٠٫٠٠٠نفس . ويقيمون في ذلك المكان حجا مرة كل ١٢ سنة يبلغ عدد الحجاج اليه نحو مليون نفس ، وهو اكبر اسواق العالم . وكانت امثال هذه الاسواق كثيرة في روسيا وبلاد الدولة العثمانية وفي المانيا وفرنسا وانجلترا وامريكا . فقد كانت في روسيا سوق تقام في مدينة نوفكرود مرتين في السنة يبلغ عدد الذين يؤمونها ١٢٫٠٠٠ نفس يجتمعون هناك من سائر بلاد روسيا ومن شرقي اوربا ، ويقدرون قيمة ما يباع من البضائع في اسواق روسيا نحو ١٢٫٠٠٠٫٠٠٠ روبل في العام . وقس على ذلك سائر الاسواق الكبرى .

وقد كان كثير من أمثال هذه الاسواق في العالم القديم . لكن الاقدام لا تتزاحم فيها إلا اذا كان الغرض من الاجتماع حجاً دينياً . فاذا اجتمع الناس في مكان الحج وتكاثروا احتاجوا الى من يبيعهم الاطعمة والاشربة وغيرها ، فتقام الاسواق لهذه الغاية – كذلك كان شأن العرب في سوق عكاظ وغيرها من اسواق الجاهلية .

اسواق العرب

كان للعرب في الجاهلية اسواقاً يقيمونها في اشهر السنة وينتقلون من احداها الى الاخرى، يحضرها العرب من قرب منهم ومن بعد. فاذا فرغوا من سوق انتقلوا الى سواها، فكانوا ينزلون دومة الجندل في اعالي نجد اول يوم من شهر ربيع الاول ، فيقيمون اسواقاً للبيع والشراء والاخذ والعطاء، ثم ينتقلون الى سوق هجر فيقيمون هناك شهراً، ويرتحلون منها الى عُمان فيقيمون سوقهم ، ثم يرتحلون الى حضرموت فعدن ، وبعضهم ينزل الى صنعاء فيقيمون أسواقهم ، ثم يرتحلون الى عكاظ في الاشهر الحرم . وكانت لهم اسواق اخر في صحار والشحر والمجنة وحباشة والمشقر وغيرها [1] .

١ – نهاية الارب (خط) .

سوق عكاظ

واشهر اسواق العرب الجاهلية سوق عكاظ ، وهي مكان بين الطائف ونخلة . فكانت العرب اذا قصدت الحج اقامت بهذه السوق من اول ذي القعدة ، ويبيعون ويشترون الى عشرين منه ، ثم يتوجهون الى مكة فيقضون مناسك الحج ثم يعودون الى اوطانهم . وكان كل شريف انما يحضر سوق بلده ، إلا عكاظ فانهم كانوا يتوافدون اليها من كل ناحية. ومن كان له اسير سعى في فدائه هناك ، ومن كانت له حكومة ارتفع الى الذي يقوم بأمر الحكومة في ايام المواسم وهم اناس من تميم . ومن كان له ثأر على احد ولم يعرف مكانه طلبه في الموسم ، او اراد احد ان يعمل عملا تعرفه العرب او يستشهدها فيه عمله في عكاظ[١] او اراد ان يفاخر احداً على مشهد من الناس فاخره هناك . وكانوا يتفاخرون حتى في كبر المصائب — ذكروا ان الخنساء لما اصيبت بمصابها المشهور اعلنت انها اكبر العرب مصيبة ، فبلغ ذلك هند بنت عتبة وكانت تعتقد انها اكبر مصيبة منها ، فأمرت بهودجها فسوم براية وشهدت الموسم بعكاظ فقالت : « اقرنوا جملي بجمل الخنساء » ففعلوا. فلما دنت منها قالت لها الخنساء : « من انت يا اخية ؟ » قالت : « انا هند بنت عتبة ، أعظم العرب مصيبة . وقد بلغني انك تعاظمين العرب بمصيبتك ، فبم تعاظمينهم ؟ » فقالت الخنساء : « بعمرو بن الشريد ، وصخر ، ومعاوية ابني عمرو . فبم تعاظمينهم أنت؟» قالت « بأبي عتبة بن ربيعة ، وعمي شيبة بن ربيعة ، واخي الوليد » قالت الخنساء : «او سواء هم عندك ؟ » . ثم أنشدت تقول :

ابكي ابي عمرا بعين غزيرة ... قليل اذا نام الخلي هجودها
وصنوى لا انسى معاوية الذي ... له من سراة الحرتين وفودها
وصخرا ، ومن ذا مثل صخر اذا غدا ... بسلهبة الابطال قبا يقودها ؟
فذلك يا هند الرزية فاعلمي ... ونيران حرب حين شب وقودها

فقالت هند تجيبها :

أبكي عميد الأبطحين كليهما ... وحاميها من كل باغ يريدها
أبي عتبة الخيرات ويحك فاعلمي ... وشيبة ، والحامي الذمار وليدها
أولئك آل المجد من آل غالب ... وفي العز منها حين ينمى عديدها[٢]

---

١ — الاغاني ٢ ج ١٣ . ٢ — الاغاني ٣٥ ج ٤ .

فاذا كانت هذه حالهم في المفاخرة بالمصائب ، فكيف بالأنساب والأحساب والشجاعة والفضل ؟ ولذلك كثر الخصام هناك وانتشبت عدة مواقع لا محل لذكرها هنا .

وإنما يهمنا في هذا المقام أن العرب كانوا يغتنمون وقت الموسم واجتماع القبائل ، ويقيمون مجالس البحث والمناشدة والمفاخرة ، فينشد الشعراء ويخطب الخطباء فيختارون كبيراً من وجهائهم يجعلونه حكماً فيما يختلفون فيه . وكان النابغة الذبياني اذا أتى عكاظ في الموسم ضربوا له قبة حمراء من أدم ، وتأتيه الشعراء فتعرض عليه أشعارها [١] ليحكم فيها. ويقال أنهم كانوا اذا أقروا على فضل قصيدة علقوها هناك او في الكعبة ، ومنها المعلقات السبع .

وشأن العرب في ذلك مثل شأن اليونان القدماء في الجمناسيوم ، وهي أبنية كانوا يجتمعون فيها للألعاب البدنية ، وفيهم الفلاسفة والعلماء فكانوا يغتنمون فرصة وجودهم هناك ويتباحثون ويتناظرون ويتنافرون ، كما كان يفعل العرب في عكاظ . ولا يخفى ما في ذلك من تمحيص الحقائق واستحثاث القرائح ، فضلاً عما كان يترتب على ذلك الاجتماع من تنقيح اللغة ونموها. فان قريشاً كانوا يسمعون لغات القبائل في اثناء تلك الاجتماعات ، فما استحسنوه من لغاتهم تكلموا به ، فصاروا أفصح العرب وخلت لغتهم من مستبشع اللغات ومستقبح الألفاظ ، كالكشكشة والكسكسة والعنعنة والفخفخة والوكم والوهم والعجعجة والاستنطاء والشنشنة ، وغير ذلك من العيوب في لغات الأمم الأخرى [٢] .

٩ ــ الأنساب في الجاهلية

الأنساب

كان للأنساب في عصور الجاهلية عند الأمم القديمة شأن كبير ، وكان للناس عناية عظمى في حفظ أنسابهم للتناصر على الأعداء أو التفاخر بالآباء . وقد بالغ اليونان في ذلك حتى حفظوا أنساب آلهتهم وكيفية تسلسلها بعضها من بعض ، ثم نسبوا أنفسهم إليها ، فلم يكن في جاهلية اليونان أسرة كبيرة من الأشراف ورجال السلطة الا وحبل نسبها يتصل ببعض تلك الآلهة . وقد نظم بعضهم الأشعار للتفاخر بذلك قبل المسيح ببضعة

---

١ ــ الشعر والشعراء ١٩٧ .   ٢ ــ المزهر ١٠٩ ج ١ .

قرون . وكذلك كان الرومان في اقدم اجيالهم ، فالطبقة التي تعرف عندهم بالبطارقة Patricii كانوا يدعون الانتساب الى آباء اعلى طبقة من البشر . ومن هذا القبيل انتساب اليهود الى الآباء الأولين والأنبياء وافتخارهم بذلك على سائر الأمم . وهم يمتازون في هذا عن اليونان والرومان بأنهم يرجعون جميعاً الى أب واحد – وهذا أيضاً من قبيل ميلهم الفطري الى التوحيد مثل سائر الأمم السامية .

نسب العرب

والعرب من حيث انسابهم فرع من العبرانيين ، لأن العدنانيين منهم يرجعون في اصل آبائهم الأولين الى اسماعيل بن ابراهيم ، والقحطانيين ينتسبون الى يقطان بن عابر ، وقد زادت عناية العرب في الأنساب رغبة في التناصر على الغرباء او بعضهم على بعض . وقد رتبت أنساب العرب في ست مراتب او طبقات ، اولها الشعب ثم القبيلة فالعمارة فالبطن فالفخذ فالفصيلة. فالشعب النسب الأبعد مثل عدنان وقحطان، ثم القبيلة وهي ما انقسمت فيها انساب الشعب مثل ربيعة ومضر ، ثم العمارة وهي ما انقسمت فيها انساب القبائل مثل قريش وكنانة ، ثم البطن وهو ما انقسمت فيه انساب العمارة مثل بني عبد مناف وبني مخزوم ، ثم الفخذ وهو ما انقسمت فيه انساب البطن مثل بني هاشم وبني أمية ، ثم الفصيلة مثل بني أبي طالب وبني العباس (١) .

وبالغ العرب في الرجوع الى الأجداد حتى رجعوا بأسماء المدن الى أسماء بعض اجدادهم ، والغالب ان ينتهي النسب باحد آباء التوراة ، فإذا سئل احدهم مثلاً عن الأندلس من بناها قال : « بناها اندلس بن يافث بن نوح » (٢) وكان النسابون يحفظون اسماء القبائل وما يتفرع منها حفظاً دقيقاً ، فاذا عرض لهم رجل فقال : أنا من بني تميم مثلاً فانسبني ، فانه يبدأ من قبيلة تميم وما تفرع منها من العمائر والبطون والأفخاذ حتى ينتهي الى الفصيلة ، ومنها الى والد السائل او اليه هو نفسه .

وكثر النسابون في الجاهلية ، ولم تخلُ قبيلة او عمارة او بطن من نسابة او اكثر ، ومن اشهرهم دغفل السدوسي من بني شيبان ، وعميرة أبو ضمضم وابن لسان الحمرة من بني تيم اللات ،وزيد بن الكيس النمري والنخار بن أوس القضاعي وصعصعة بن صوحان وعبدالله بن

---

١ – الماوردي ١٩٤ . ٢ – ابن خلكان ١٤ ج ١ .

عبد الحجر بن عبد المدان وغيرهم [1] وظل النسب محفوظاً في صدر الاسلام ، واشتهر كثير من النسابين ، فلما آلت الدولة الى الموالي والمصطنعين صار الناس ينتسبون الى مواليهم ومصطنعيهم .

١٠ ـــ التاريخ

لم يكن عند عرب الجاهلية تاريخ من قبيل ما نفهمه من هذه اللفظة اليوم ، ولكنهم كانوا يتناقلون اخباراً متفرقة بعضها حدث في بلادهم والبعض الآخر نقله اليهم الذين عاشروهم من الامم الاخرى . فمن امثال اخبارهم حروب القبائل المعروفة بايام العرب ، وقصة سد مأرب ، واستيلاء ابي كرب تبان اسعد على اليمن ، وبعض من خلفه ، وملك ذي نواس ، وقصة اصحاب الاخدود ، وفتح الحبشة لليمن ، وقصة اصحاب الفيل وقدومهم الكعبة ، وحرب ذي يزن الحميري الى آخر ما انتهى اليه امر الفرس في اليمن ، وقصة عمرو بن لحي وأصنام العرب ، وحكاية جرهم ودفن زمزم وتاريخ الكعبة الى ايام قصي بن كلاب ، وولاية الحج وأمر عامر بن الظرب ، ثم ما كان من غلب قصي على امر مكة ، وقصة حلف المطيبين وحلف الفضول ، وحفر بئر زمزم وحرب الفجار وحديث بنيان الكعبة . غير اخبار عاد وثمود وغيرهما من العرب البائدة ، وحكاية بلقيس وسليمان ونحوهما من اخبار التوراة ، وغير ذلك من الاخبار التي كان العرب يتناقلونها عند ظهور الاسلام .

الخلاصة

وجملة القول ان ما سميناه علوم العرب قبل الاسلام يبلغ الى بضعة عشر علماً ، فلما جاء الاسلام اهمل بعضها كالكهانة والعيافة والقيافة ، وبقي بعضها عند اهله ونشأ ما يقوم مقامه في عصر الحضارة ، كالنجوم والانواء ومهاب الرياح والطب والخيل ، وارتقى الباقي ، واتسع عما كان في الجاهلية ، كالشعر والخطابة والبلاغة ، وكان الاسلام مساعداً على ارتقائها بالقرآن الكريم .

---

١ ـ بلوغ الارب ١٩٦ ج ٣ والبيان والتبيين ١١٨ ج ١ .

علوم العرب بعد الإسلام

نريد بها العلوم التي اشتغل بها المسلمون من اول الاسلام الى ابان التمدن الاسلامي ، وهي كثيرة يمكن حصرها في ثلاثة مجاميع :

(١) العلوم التي اقتضاها الاسلام ، وهي علوم القرآن والحديث والفقه واللغة والتاريخ ، ونسميها العلوم الاسلامية أو الآداب الاسلامية .

(٢) العلوم التي كانت في الجاهلية وارتقت في الاسلام ، وهي الشعر والخطابة ، ونسميها الآداب الجاهلية أو الآداب العربية .

(٣) العلوم التي نقلت الى العربية من اللغات الاخرى ، كالطب والهندسة والفلسفة والفلك وسائر العلوم الطبيعية والرياضية ، ونسميها العلوم الدخيلة او الاجنبية .

وقبل البحث في هذه العلوم وعلاقتها بالتمدن الاسلامي ، نمهد الكلام بمقدمات لا بد من تدبرها قبل الخوض في الموضوع .

مقدمات تمهيدية

١ — الاسلام والعلوم الاسلامية

كان العرب فيما ذكرناه من علومهم وأخبارهم وأطوارهم اذ جاءهم القرآن فبغتوا لما رأوه من بلاغة اسلوبه على غير المألوف عندهم . لانه ليس من قبيل ما كانوا يعرفونه من نثر الكهان المسجع ولا نظم الشعراء المقفى الموزون وقد خالف كليهما . وهو منثور مقفى على مخارج الأشعار والأسجاع ، فلا هو شعر ولا نثر ولا سجع ، وفيه من البلاغة وأساليب التعبير ما لم يكن له شبيه في لسانهم ، فسحروا بأسلوبه وبما حواه من الشرائع والاحكام والاخبار . فلما دانوا بالاسلام اصبح همهم تلاوته وتفهم احكامه ، لأنه قاعدة

الدين والدنيا وبه تتأيد السلطة والخلافة ، ثم اشكل عليهم بعض ما فيه واختلفوا في تفسيره فعمدوا الى ما اثر عن النبي (صلعم) من قول او فعل او استحسان او استهجان يستوضحون بها ذلك الاشكال ، فأصبح همهم جمع الأحاديث ممن سمعها او رواها عن سامعها بالاسناد المتسلسل ، فرأوا تبايناً في الروايات فاشتغلوا في التفريق بين صحيحها وفاسدها ، فرجعوا الى درس الاسانيد واستطلاع اخبار اصحاب الحديث ، فجرهم ذلك الى درس طبقات المحدثين والاحوال التي تناولوا تلك الاحاديث فيها .

ولما قامت دولتهم اخذوا في ضرب الاموال على البلاد التي فتحوها او غنموها ، وضرائبها تختلف شكلاً ومقداراً باختلاف طريق الفتح ، بين ان يكون عنوة او صلحاً وأماناً او قوة ، فبحثوا في تحقيق اخبار الفتوح والمغازي وتدوينها . ولما فسدت الاحكام في ايام بني امية ، اكثر العلماء من ذكر المواعظ وايراد اخبار السلف من الصحابة ، وخصوصاً الخلفاء الراشدين ، فاجتمع من ذلك تاريخ النبي والصحابة والتابعين .

والنظر في احكام القرآن والسنة لا بد فيه من فهم العبارة وتدبرها ، فنشأ من ذلك علم التفسير ، وباسناد نقله وروايته واختلاف القراء بقراءته تولد علم القراءات . وباسناد السنة الى صاحبها والتفريق بين طبقات الحديث والمحدثين تولدت علوم الحديث . ثم لا بد من استنباط هذه الأحكام من اصولها ، على وجه قانوني يفيد العلم بكيفية هذا الاستنباط ، وهو علم اصول الفقه ثم الفقه فالعقائد الايمانية ثم علم الكلام .

ولما عمدوا الى تلاوة القرآن والحديث وتفسيرهما ، اشكل على غير العرب اعرابها لأن ملكة اللغة غير راسخة فيهم ، فاضطروا الى تدوين اللغة وترتيب قواعدها وتعيين معاني الفاظها ، ولذلك كان اكثر المشتغلين بعلوم اللغة من الاعاجم . وتعيين معاني الالفاظ وضبط التلفظ بها دعاهم الى البحث عن لغة قريش التي كتب بها القرآن ، وقد رأيت ان مرجع التحقيق في ذلك الى الاشعار والامثال ، فاشتغلوا في الاسفار الى بادية العرب وخالطوا الاعراب ونقلوا اشعارهم واقوالهم وامثالهم ، ليدونوها ويرجعوا اليها في التحقيق . فرأوا مشقة في فهم معاني اشعارهم وامثالهم إلا بالاطلاع على انسابهم وآدابهم ، فلم يكن لهم بد من درس ذلك كله ، وهو ما يعبرون عنه بعلم الأدب . واختلفوا في فهم الأشعار ، ووجدوا في روايتها اختلافاً وفي بلاغتها تفاوتاً ، فعمدوا الى البحث في طبقات الشعراء واماكنهم واشعارهم واخبار قبائلهم .

وكان الراحلون في التقاط اللغة والشعر من افواه العرب في مضاربهم يقفون على سائر علومهم ، كالنجوم والانواء والخيل والانساب وغيرها ، فلما عادوا لتدوين اللغة دونوا ايضاً كثيراً من تلك العلوم ، ولذلك كان اصحاب هذه العلوم غالباً من علماء اللغة ، وعثروا ايضاً على الفاظ واشعار يندر ورودها فالفوا النوادر .

وجملة القول ان ما اشتغل به المسلمون في صدر الاسلام من العلوم مرجعه الى القرآن ، فهو المحور الذي تدور عليه العلوم الأدبية واللسانية ، فضلاً عن الدينية ، ولذلك سميناها العلوم الاسلامية .

٢ — العرب والقرآن والاسلام

كان الاسلام في اول أمره نهضة عربية ، والمسلمون هم العرب . وكان اللفظان مترادفين ، فاذا قالوا العرب ارادوا المسلمين ، وبالعكس . ولأجل هذه الغاية امر عمر بن الخطاب باخراج غير المسلمين من جزيرة العرب ، واصبح اهل الجزيرة كلهم مسلمين وهم عرب .

وأساس الاسلام وقوامه القرآن ، ففي تأييده تأييد الاسلام او العرب . وتمكن هذا الاعتقاد في الصحابة ، لما فازوا في فتوحهم وتغلبوا على دولتي الروم والفرس ، فنشأ في اعتقادهم انه لا ينبغي ان يسود غير العرب ، ولا يتلى غير القرآن ، وشاع هذا الاعتقاد خصوصاً في ايام بني اميــة ، وقد بالغوا فيه حتى آل ذلك فيهم الى نقمة سائر الأمم عليهم .

أما في الصدر الأول فقد كان الاعتقاد العام « ان الاسلام يهدم ما كان قبله » [١] فرسخ في الاذهان انه لا ينبغي ان ينظر في كتاب غير القرآن، لأنه جاء ناسخاً لكل كتاب قبله. وقد نهى الشرع الاسلامي يومئذ عن النظر في الكتب المنزلة غير القرآن ، لاتحاد الكلمة واجتماعها على الأخذ به . ومن الاحاديث المأثورة من هذا القبيل : « لا تصدقوا اهــل الكتاب ولا تكذبوهم ، وقولوا آمنا بالذي انزل الينا وأنزل اليكم ، والهنا والهكم واحد » . ورأى النبي في يد عمر ورقة من التوراة فغضب حتى تبين الغضب في وجهه ثم قال : « الم

---

١ — النجوم الزاهرة ٣٧ ج ١ وروى ايضاً : « الاسلام يجب ما قبله » .

آتكم بها بيضاء نقية ؟ والله لو كان موسى حياً ما وسعه إلا اتباعي »[١] . ومن الاحاديث التي شاعت في ذلك العهد : « كتاب الله فيه خبر ما قبلكم ، ونبأ ما بعدكم ، وحكم ما بينكم » [٢] .

فتوطدت العزائم على الاكتفاء به عن كل كتاب سواه ، ومحو ما كان قبله من كتب العلم في دولتي الفرس والروم ، كما حاولوا بعدئذ هدم ايوان كسرى واهرام مصر وغيرها من آثار الدول السابقة — فلا غرو اذا قيل ان العرب احرقوا مكتبة الاسكندرية او غيرها من خزائن العلم القديم

٣ — احراق مكتبة الاسكندرية وغيرها

أنشأ البطالسة في القرن الثالث قبل الميلاد مكتبة في الاسكندرية جمعوا اليها كتب العلم من اقطار العالم المتمدن في ذلك الحين ، وسيأتي خبرها. وتولى على هذه المكتبة احوال كثيرة في ايام الرومان الى الفتح الاسلامي ، وقد ضاعت بين احراق ونهب. والمؤرخون من العرب وغيرهم مختلفون في كيفية ضياعها ، فمنهم من ينسب احراقها الى عمرو بن العاص بأمر عمر ابن الخطاب ، ويستدلون على ذلك ببعض النصوص العربية ، وأشهرها أقوال أبي الفرج الملطي وعبد اللطيف البغدادي والمقريزي وحاجي خليفة . ومنهم من يجل العرب عن ذلك ويطعن في تلك الروايات ويضعفها . وقد كنا ممن جارى هذا الفريق في كتابنا « تاريخ مصر الحديث » منذ بضع عشرة سنة ، ثم عرض لنا بمطالعاتنا المتواصلة في تاريخ الاسلام والتمدن الاسلامي ترجيح الرأي الأول ، لأسباب نحن باسطوها فيما يلي اجلاء للحقيقة فنقول :

أولاً : قد رأيت فيما تقدم رغبة العرب في صدر الاسلام في محو كل كتاب غير القرآن ، بالاسناد الى الاحاديث النبوية وتصريح مقدمي الصحابة .

ثانياً : جاء في تاريخ مختصر الدول لأبي الفرج الملطي عند كلامه عن فتح مصر على يد عمرو بن العاص ما نصه : « وعاش (يحيى الغراماطيقي) الى ان فتح عمرو بن العاص

---

١ — ابن خلدون ٣٦٤ ج ١ وكشف الظنون ٢٥ ج ١ وابجد العلوم ١٠٩ .
٢ — العقد الفريد ١٥٨ ج ١ .

مدينة الاسكندرية ، ودخل على عمرو وقد عرف موضعه من العلوم فأكرمه عمرو، وسمع من الفاظه الفلسفية التي لم تكن للعرب بها أنسة ما هاله، ففتن به. وكان عمرو عاقلاً حسن الاستماع صحيح الفكر، فلازمه وكان لا يفارقه. ثم قال له يحيى يوماً : « انك قد احطت بحواصل الاسكندرية وختمت على كل الأصناف الموجودة بها ، فما لك به انتفاع فلا نعارضك به ، وما لا انتفاع لك به فنحن أولى به » . فقال له عمرو : « ما الذي تحتاج اليه ؟ » . قال : « كتب الحكمة التي في الخزائن الملوكية » . فقال عمرو : « هذا ما لا يمكنني ان آمر فيه الا بعد استئذان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب » . فكتب الى عمر وعرفه قول يحيى ، فورد عليه كتاب عمر يقول فيه : « . . واما الكتب التي ذكرتها ، فان كان فيها ما يوافق كتاب الله ففي كتاب الله عنه غنى، وان كان فيها ما يخالف كتاب الله فلا حاجة اليه، فتقدم باعدامها » . فشرع عمرو بن العاص في تفريقها على حمامات الاسكندرية واحراقها في مواقدها ، فاستنفدت في مدة ستة اشهر ، فاسمع ما جرى واعجب » [1] .

وليس في نص هذه العبارة التباس، ولكن الذين يجلون العرب عن احراق هذه المكتبة يطعنون هذه الرواية وينسبون قائلها الى التعصب الديني ، وفي جملتهم جماعة كبيرة من مؤرخي الافرنج، وقد الفوا الرسائل والكتب في تجريحها. وخلاصة اقوالهم: ان أبا الفرج المذكور هو اول من نسب حريق مكتبة الاسكندرية الى عمرو بن العاص ، وإنه إنما فعل ذلك تعصباً للنصرانية وتحقيراً للاسلام ، وانه من اهل القرن السابع للهجرة ، وكان ابوه يهودياً وتنصر ، وشب ابو الفرج على النصرانية وارتقى في رتب الاكليروس الى الأسقفية ، ثم ألف تاريخاً في السريانية واستخرجه من كتب يونانية وفارسية وعربية وسريانية ، واستخلص من هذا التاريخ كتاباً في العربية سماه مختصر الدول — قالوا : « وهو اول كتاب ذكرت فيه هذه القصة ، وتناقلها عنه الافرنج الى هذه الغاية » . وإن ما جاء في هذا الشأن من اقوال عبد اللطيف البغدادي والمقريزي وحاجي خليفة من مؤرخي المسلمين لا تعتبر مصادر مستقلة ، لأن المقريزي نقل عن عبد اللطيف حرفياً ، وحاجي خليفة لم يذكر مدينة الاسكندرية وإنما أشار الى ان العرب في صدر الاسلام لم يعتنوا بشيء من العلوم الا بلغتهم وشريعتهم، حتى قال : « ويروى أنهم احرقوا ما وجدوه من الكتب في فتوحات البلاد » . وان عبد اللطيف البغدادي ذكر حريق المكتبة في عرض كلامه عن

---

١ — كتاب مختصر الدول صفحة ١٨٠ من طبعة بوك (في أوكسفورد) سنة ١٦٦٣ م . واما النسخة المطبوعة في مطبعة الآباء اليسوعيين في بيروت فقد حذفت منها هذه الجملة كلها لسبب لا نعلمه .

عمود السواري بغير تحقيق . ويزعم اصحاب هذا الرأي ان مكتبة الاسكندرية احرقها الرومان قبل الاسلام ، وانها لو احرقها العرب لذكرها مؤرخو المسلمين وخصوصاً كتاب الفتوح والمغازي . اهـ

لا ننكر ان بعض هـذه المكتبة احترق قبل الاسلام ، ولكن ذلك لا يمنع احتراق باقيها في الاسلام . اما النصوص التي وردت في هذا الشأن فليس ابو الفرج اول من رواها كما توهم بعضهم . فان عبد اللطيف البغدادي طاف مصر وكتب عن مشاهدها وآثارها ، وذكر احراق العرب لهذه المكتبة قبل ان يولد ابو الفرج ببضع وعشرين سنة ، لأن ابا الفرج ولد سنة ١٢٢٦ م (٦٢٢ هـ) وعبد اللطيف زار مصر في اواخر القرن السادس للهجرة ، وهاك نص عبارته : « ورأيت أيضاً حول عمود السواري من هذه الأعمـدة بقايا صالحة ، بعضها صحيح وبعضها مكسور ، ويظهر من حالها انها كانت مسقوفة ، والأعمدة تحمل السقف وعمود السواري عليه قبة هو حاملها . وارى انه الرواق الذي كان يدرس فيه ارسطوطاليس وشيعته من بعده ، وانه دار العلم التي بناها الاسكندر حين بنى مدينته ، وفيها كانت خزانة الكتب التي احرقها عمرو بن العاص بإذن عمر رضي الله عنه »[1] .

نعم ان عبارة البغدادي مختصرة ، وقد جاءت عرضاً ، ولكنها تدل على وثوق قائلها بصحتها ، كأنه أخذها عن مصدر موثوق به ومعول عليه في ذلك العصر ، كالذي أخـذ عنه ابو الفرج .

اما ابو الفرج فقد اتم كتابه « مختصر الدول » في العربية في اواخر حياتـه (توفي سنة ٦٨٤ هـ) . وهو ليس مختصر تاريخه السرياني إلا من حيث اخبار الفتح ، لانه يزيد على النسخة السريانية بأخبار كثيرة ، عن الاسلام والمغول وتاريخ علوم الروم والعرب وآدابهم . واما السرياني فهو عبارة عن اخبار الفتح فقط ، فاغفال ذكر احراق المكتبة فيه لا يدل على انه دخيل في النسخة العربية ، او دسه فيها بعض المتأخرين كما توهم بعضهم ، وانما ذكر في النسخة العربية لأنه يتعلق بآداب الروم والعرب التي ادخلها المؤلف في هذه النسخة كما تقدم .

* * *

١ ـ الافادة والاعتبار ٢٨ .

وقد تبين لنا بالبحث والتنقيب ان ابا الفرج المذكـور نقل تلك الروايــة عن مؤرخ مسلم توفي قبله بنحو اربعين سنة ، وهو جمال الدين ابو الحسن عـلي بن يوسف بن ابراهيم القفطي ، وزير حلب المعروف بالقاضي الأكرم ، ولد في قفط من صعيد مصر سنة ٥٦٥ وتوفي في حلب سنة ٦٤٦ هـ . وللقاضي المذكور كتاب في تراجم الحكماء ، عثرنا على نسخة منه خطية في دار الكتب المصرية مكتوبة سنة ١١٩٧ هـ ، وقرأنا فيهـا في اثناء ترجمة يحيى النحوي كلاماً في معنى كلام ابي الفرج واكثر تفصيلاً منه ، وفيه شيء عن تاريـخ هذه المكتبة منذ انشائها ــ واليك نص قوله :

« وعاش (يحيى النحوي) الى ان فتح عمرو بن العاص مصر والاسكندرية ، ودخل على عمرو وقد عرف موضعه من العلم واعتقاده وما جرى له مع النصارى ، فاكرمه عمرو ورأى له موضعاً ، وسمع كلامه في ابطال التثليث فاعجبه ، وسمع كلامه ايضاً في انقضـاء الدهر ففتن به ، وشاهد من حججه المنطقية وسمع من الفاظه الفلسفية التي لم يكن للعرب بها انسة ما هاله . وكان عمرو عاقلاً حسن الاستماع صحيح الفكر فلازمه وكاد لا يفارقه . ثم قال له يحيى يوماً : « انك قد احطت بحواصل الاسكندرية وختمت على كل الأجناس الموصوفة الموجودة بها ، فاما مالك به انتفاع فلا اعارضك فيه ، وأما ما لا نفع لـكم به فنحن اولى به ، فأمر بالافراج عنه » . فقال له عمرو : « وما الذي تحتاج اليه ؟ » قال : « كتب الحكمة في الخزائن الملوكية ، وقد اوقعت الحوطة عليها ونحن محتاجون اليها ولا نفع لـكم بها » . فقال له : « ومن جمع هذه الكتب وما قصتها ؟ »

فقال له يحيى : « ان بطولوماس فيلادلفوس من ملوك الاسكندرية لما ملك حبب اليه العلم والعلماء ، وفحص عن كتب العلم وأمر بجمعها وافرد لهـا الخزائن ، فجمعت وولى أمرها رجلاً يعرف بابن مرة (زميرة) وتقدم اليه بالاجتهاد في جمعهـا وتحصيلها والمبالغة في اثمانها وترغيب تجارها ففعل ، واجتمع من ذلك في مدة خمسون الف كتاب ومائة وعشرون كتاباً . ولما علم الملك باجتماعها وتحقق عدتها قال لزميرة : اترى بقي في الارض من كتب العلم ما لم يكن عندنا ؟ فقال له زميرة : قد بقي في الدنيا شيء في السند والهند وفارس وجرجان والارمان وبابل والموصل وعند الروم .. فعجب الملك من ذلك وقال له : دم على التحصيل . فلم يزل على ذلك الى ان مات.وهذه الكتب لم تزل محروسة محفوظة يراعيها كل من يلي الأمر من الملوك واتباعهم الى وقتنا هذا » .

فاستكثر عمرو ما ذكره يحيى وعجب منه وقال له : « لا يمكنني ان آمر بأمر إلا

بعد استئذان امير المؤمنين عمر بن الخطاب » وكتب الى عمر وعرفه بقول يحيى الذي ذكر واستأذنه ما الذي يصنعه فيها ، فورد عليه كتاب عمر يقول فيه : « وأما الكتب التي ذكرتها فان كان فيها ما يوافق كتاب الله ففي كتاب الله عنه غنى ، وان كان فيها ما يخالف كتاب الله تعالى فلا حاجة اليها ، فتقدم باعدامها » . فشرع عمرو بن العاص في تفريقها على حمامات الاسكندرية واحراقها في مواقدها ، وذكرت عدة الحمامات يومئذ وانسيتها ، فذكروا انها استنفدت في مدة ستة أشهر . فاسمع ما جرى واعجب »[١] انتهى كلام ابن القفطي .

وبمقابلة هذه الفقرة بكلام ابي الفرج يتضح لك ان ابا الفرج نقل قول ابن القفطي مختصراً . ولو قرأت الكتابين لعلمت ان ابا الفرج نقل كثيراً من زياداته العلمية في كتابه العربي عن كتاب ابن القفطي ، ككلامه عن ثيادوق طبيب الحجاج[٢] فان العبارة منقولة عن تراجم الحكماء حرفياً .

بقي علينا البحث في المصدر الذي نقل عنه ابن القفطي ، والغالب انه نفس المصدر الذي نقل عنه عبداللطيف البغدادي ، لأنهما كانا متعاصرين وعبداللطيف سابقه ، لأنه ولد سنة ٥٥٧ وتوفي سنة ٦٢٩ هـ . ولكن لسوء الحظ قد ضاعت تلك المصادر في جملة ما ضاع من مؤلفات العرب . على اننا اذا تدبرنا ما ذكره ابن النديم في كتاب الفهرست عن اخبار الفلاسفة الطبيعيين من حكاية انشاء مكتبة الاسكندرية ، يتضح لنا ان في جملة المصادر التي نقلت عنها تلك الرواية تاريخاً لرجل اسمه اسحاق الراهب ، كان يبحث في اخبار اليونان والرومان وآدابها .

ومن جملة ما نقلوه عنه خبر انشاء مكتبة الاسكندرية على يد زميرة ، وهاك نصه : « ان بطولوماوس فيلادلفوس من ملوك الاسكندرية لما ملك فحص عن كتب العلم وولى أمرها رجلاً يعرف بزميرة ، فجمع من ذلك على ما حكي اربعة وخمسين الف كتاب ومائة وعشرين كتاباً ، وقال له : ايها الملك قد بقي في الدنيا شيء كثير في السند والهند وفارس وجرجان والارمان وبابل والموصل وعند الروم »[٣] وهي نفس عبارة ابن القفطي ، فالظاهر انه اخذ انشاء المكتبة عن اسحق المذكور ، وأخذ حريقها عن سواه . ولولا

١ ــ تراجم الحكماء (خط) .
٢ ــ مختصر الدول طبعة بيروت ١٩٤ .
٣ ــ الفهرست ٢٣٩ .

ما نقله ابن النديم عن اسحق الراهب من امر الفلاسفة لما علمنـــا بوجوده ، وظنناه لم يقل شيئاً كما ظننا المسلمين لم يذكروا شيئاً عن حريق مكتبة الاسكندرية على يد عمرو .

فيؤخذ مما تقدم ان حكاية احراق مكتبة الاسكندرية لم يختلقها ابو الفرج لتعصب ديني، ولا دسها احد بعده ، بـــل هو نقلها عن ابن القفطي وهو قاض من قضاة المسلمين ، عالم بالفقه والحديث وعلوم القرآن واللغة والنحو والاصول والمنطق والنجوم والهندسة والتاريخ والجرح والتعديل ، وكان صدراً محتشماً جمع من الكتب ما لا يوصف ، وكانوا يحملونها اليه من الآفاق ، وكانت مكتبته تساوي خمسين الف دينار ، ولم يكن يحب من الدنيـــا سواها ، وله حكايات غريبة عن غرامه بالكتب ، ولم يخلف ولداً فأوصى بمكتبته لناصر الدولة صاحب حلب. وله مؤلفات عديدة في التاريخ والنحو واللغة ، وفي جملتها «كتاب اخبار مصر من ابتدائها الى ايام صلاح الدين» في ستة مجلدات[١] وكتاب « تراجم الحكماء » الذي نحن بصدده . وان ابن القفطي وعبد اللطيف البغدادي أخذا عن مصدر ضائع .

وأما خلو كتب الفتح من ذكر هذه الحادثة فلا بد له من سبب، والغالب انهم ذكروها ثم حذفت بعد نضج التمدن الاسلامي واشتغال المسلمين بالعلم ومعرفتهم قـــدر الكتب ، فاستبعدوا حدوث ذلك في عصر الخلفاء الراشدين فحذفوه ، او لعل لذلك سبباً آخر . وعلى أي حال فقد ترجح عندنا صدق رواية ابي الفرج .

ثالثاً : ورد في اماكن كثيرة من تواريخ المسلمين خبر احراق مكتبات فارس وغيرها على الاجمال ، وقد لخصها صاحب كشف الظنون في عرض كلامه عن علوم الاقدمين بقوله: « ان المسلمين لما فتحوا بلاد فارس وأصابوا من كتبهم ، كتب سعد بن ابي وقاص الى عمر ابن الخطاب يستأذنه في شأنها وتنقيلها للمسلمين، فكتب اليه عمر (رضه) ان «اطرحوها في الماء ، فان يكن ما فيها هدى فقد هدانا الله تعالى بأهدى منه ، وان يكن ضلالا فقد كفانا الله تعالى » فطرحوها في الماء أو في النار ، فذهبت علوم الفرس فيها »[٢] .

وجاء في اثناء كلامه عن اهل الاسلام وعلومهم : « أنهم احرقوا ما وجدوا من الكتب في فتوحات البلاد »[٣] ولا بد من أصل نقل صاحب كشف الظنون عنه ، وقد أشار ابن خلدون الى ذلك بقوله: «فأين علوم الفرس التي أمر عمر (رضه) بمحوها عند الفتح ؟ »[٤].

---

١ – فوات الوفيات ٩٦ ج ٢ .
٢ – كشف الظنون ٤٤٦ ج ١ .
٣ – كشف الظنون ٢٥ ج ١ .
٤ – ابن خلدون ٣٢ ج ١ .

رابعاً : ان احراق الكتب كان شائعاً في تلك العصور تشفياً من عدو او نكاية فيه ، فكان أهل كل شيعة او ملة يحرقون كتب غيرها ، كما فعل عبدالله بن طاهر بكتب فارسية كانت لا تزال باقية الى ايامه (سنة ٢١٣ هـ) من مؤلفات المجوس ، وقد عرضت عليه فلما تبين حقيقتها أمر بالقائها في المـــاء ، وبعث الى الاطراف ان من وجد شيئاً من كتب المجوس فليعدمه [١] .

ولما فتح هولاكو التتري بغداد سنة ٦٥٦ هـ أمر بالقاء كتب العلم التي كانت في خزائنها بدجلة ، وكانت شيئاً لا يعبر عنه ، مقابلة في زعمهم بما فعله المسلمون لأول الفتح بكتب الفرس وعلومهم [٢] وقال آخرون انه بنى بتلـــك الكتب اسطبلات الخيول وطوالات المعالف عوضاً عن اللبن [٣] والارجح انه اغرقها انتقاماً من أهل السنة .

ولما فتح الافرنج طرابلس الشام في اثناء الحروب الصليبية احرقوا مكتبتها بأمر الكونت برترام سنت جيل ، وكان قد دخل غرفة فيهـــا نسخ كثيرة من القرآن ، فأمر بأحراق المكتبة كلها وفيها على زعمهم ثلاثة ملايين مجلد [٤] وفعل الاسبان نحو ذلك بمكتبات الاندلس لما استخرجوها من ايدي المسلمين في اواخر القرن الخامس عشر .

خامساً : ان اصحاب الاديان في تلك العصور كانوا يعدون هدم المعابد القديمة واحراق كتب اصحابها من قبيل السعي في تأييد الاديان الجديدة . فأباطرة الروم حالما تنصروا أمروا بهدم هياكل الاوثان في مصر واحراقها بما فيها من الكتب وغيرها . وكان خلفاء المسلمين اذا أرادوا اضطهاد المعتزلة وأهل الفلسفة أحرقوا كتبهم . والمعتزلة كثيراً ما كانوا يتجنبون ذلك تحت خطر القتل فيستترون ويجتمعون سراً والخلفاء يتعقبون آثارهم ويحرقون كتبهم . ومن أشهر الحوادث من هذا القبيل ما فعله السلطان محمود الغزنوي لمـــا فتح الري وغيرها سنة ٤٢٠ هـ ، فانه قتل الباطنية ونفى المعتزلة وأحرق كتب الفلاسفة والاعتزال والنجامة [٥] .

سادساً : في تاريخ الاسلام جماعة من أئمة المسلمين احرقوا كتبهم من تلقـــاء انفسهم ، منهم احمد بن ابي الحواري ، فانه لما فرغ من التعلم جلس للناس فخطر بقلبه يوماً خاطر

---

١ – Browne's Lit. Hist of Persia, 347

٢ – ابن خلدون ٥٣٧ ج ٣ و ٥٤٣ ج ٥ . ٣ – ابن الساعي ١٢٧ .

٤ – Gibbon's Roman Empire II, 505 وابن خلكان ١٢٨ ج ٢ .

٥ – ابن خلدون ٤٧٨ ج ٤ .

من قبل الحق فحمل كتبه الى شط الفرات فجلس يبكي ساعة ثم قال: « نعم الدليل كنت لي على ربي ، فلما ظفرت بالمدلول فالاشتغال بالدليل محال » فغسل كتبه . وذكروا عن سفيان الثوري انه أوصى بدفن كتبه ، وأن أبا عمرو بن العلاء كانت كتبه ملء بيت الى السقف ثم تنسك وأحرقها [١] .

فيرجح مما تقدم ان العرب احرقوا ما عثروا عليه من كتب العلم القديمة في الصدر الأول تأييداً للاسلام ، فلما تأيد سلطانهم واشتغلوا بالعلوم عوضوا على العالم اضعاف ما احرقوه ، كما سترى .

٤ — الرومان والاسلام والعلم

من جملة ما يرمى به العرب من المطاعن « انهم حتى في ابان تمدنهم لم يشتغلوا هم انفسهم في العلم ، وانما كان المشتغلون به الفرس وغيرهم من الأمم الخاضعة لسلطانهم ، بخلاف اليونان والرومان وغيرهما من دول التمدن القديم ، فقد كانوا هم انفسهم يشتغلون بالعلم ، وقد وضعوا علوماً تناقلها الناس عنهم ، وأما العرب فأكثر علومهم منقولة عن سواهم » .

فأصحاب هذا القول يقابلون بين دولة الرومان ودولة العرب ، والصواب ان يقابلوا بين الرومان والاسلام . لأن العرب أسسوا دولة الاسلام كما اسس اهل رومية دولة الرومان ، ودخل في دين الاسلام امم كثيرة اختلطوا بالعرب فتألف منهم امة الاسلام ، كما اختلطت شعوب الممالك التي فتحها اهل رومية وصارت امة واحدة تعرف بأمة الرومان .

فاذا قابلنا بين الاسلام والرومان رأينا المسلمين اكثر اشتغالاً بالعلم والأدب من اولئك ، لأن كليهما نقلا العلم عن اليونان ، والمشتغلون به من الرومان لم يكونوا من اهل رومية ، كما ان المشتغلين به من المسلمين لم يكونوا كلهم من اهل جزيرة العرب . والسبب في اجتماع شعوب المملكة الرومانية باسم الرومان ، وعدم اجتماع شعوب المملكة الاسلامية باسم العرب ، ان العرب فتحوا بلاداً اهلها عريقون بالحضارة ، فلم يمكن اندماجهم وضياع جنسياتهم ، وقد ساعد على ذلك تفريق المذاهب ، ومبالغة العرب في تفضيل انفسهم على سواهم من الامم الخاضعة لسلطانهم .

---

١ — كشف الظنون ٤٠ ج ١ والبيان والتبيين ١٢٣ ج ١ .

اما اليونان فلا جدال في انهم واضعو العلم والفلسفة ، لما في فطرتهم من الاقتدار على ذلك – وان كانوا قد بنوا علمهم وفلسفتهم على أسس اخذوا بعضها من المصريين القدماء ، والبعض الآخر من الكلدان وغيرهم – لكنهم يعدون واضعين ، فهم يفضلون الرومان والعرب من هذا القبيل . ولكنهم اضعف منهما في انشاء الحكومات وسن الشرائع ، لان اليونان لم يطل أمر دولتهم ولا نظموا حكومة ثابتة ، وانما كانوا دولاً صغيرة متفرقة يتنازعون ويتنافرون ويتنافسون .

ثم ان الرومان اخذوا العلم والفلسفة عن اليونان ، وقلما زادوا فيهما ، ولكنهم نظموا الحكومة ووضعوا الشرائع والقوانين ، ونظموا دولة عظيمة مما لم يستطعه اليونان . فالرومان اهل فتح وسلطان ، واليونان أهل تصور وخيال . واما العرب فقد جمعوا الحسنتين ، لأنهم أهل فتح وسلطان واهل تصور وخيال . ولذلك فأنهم انشأوا دولة بعيدة الاطراف ، ووضعوا الشرائع والنظم (الفقه) ولم يكتفوا بنقل العلم عن اليونان واستبقائه على حاله ، بل هم درسوه وزادوا فيه من نتائج قرائحهم وعقولهم ، وبما نقلوه من علوم الفرس والهند والكلدان وغيرهم ، فضلاً عما وضعوه هم انفسهم من العلوم الاسلامية واللسانية ، وما تفردوا فيه من قريحة الشعر . وليس هنا محل الافاضة في ذلك .

٥ ـــ حملة العلم في الاسلام اكثرهم العجم

قد تقدم ان العلوم التي حدثت في التمدن الاسلامي صنفان : العلوم الاسلامية ، والعلوم الدخيلة فتغلب العلوم الاسلامية في غير العرب من المسلمين سببه ان العرب قاموا بالاسلام وفتحوا الفتوح وهم أهل بادية أميون ، فانصرف همهم في بدء الدعوة الى نشر دينهم وانشاء دولتهم مما لا يحتاج إلى علم . وانما كانت حاجتهم من العلم الى القرآن ، ويدعون الناس به الى الاسلام ، وكانوا يستظهرونه ويتناقلونه بالتلقين . ولم يمض على ظهور الدعوة بضع وعشرون سنة حتى فتحوا الشام والعراق ومصر وفارس وافريقية وغيرها ، والمسلمون (العرب) يومئذ هم الجند الفاتح ، وكانوا قليلين بالنظر الى ذلك الملك الواسع ، فضلاً عمن قتل منهم في الحرب والفتن . ومع ذلك فقد كانوا مطالبين بحفظ تلك المملكة وحماية اهلها وتدبير شؤونها . فأصبح همهم الاشتغال بالرئاسة في الجند والحكومة . ونظراً لفطرتهم الخيالية انصرفت قرائحهم الى الاشتغال بالشعر والخطابة والأمثال – وهي آدابهم

في جاهليتهم — وتحريض ابنائهم على اتقانها مع المثابرة على اسباب الرياضة البدنية بالفروسية والعناية بالخيل ، مما اعانهم على الفتح ونشر الدين ، واصبحوا يخافون التحضر لئلا يذهب بنشاطهم وجامعتهم . وكأن رجلهم العظيم عمر بن الخطاب نظر الى مستقبل الاسلام من طرف خفي ، فمنعهم من الزرع والاشتغال بأسباب الحضارة . ولهذا السبب لما تفرّق العرب في الأمصار وتعرضوا لأخطار البحار ، كتب اليهم عمر ان يمارسوا السباحة ايضاً ؛ وهاك نص كتابه : « أما بعد فعلموا اولادكم السباحة والفروسية ، ورووهم ما سار من المثل وحسن من الشعر » [١] .

ولما فسدت اللغة واختلفت القراءات ، وازمع الخلفاء على جمع القرآن وتدوينه ، كان اكثر المتهافتين على حفظه من المسلمين غير العرب ، وهم الموالي واكثرهم من الفرس ، وكانوا يومئذ اهل تمدن وعلم ، وكان العرب يعرفون لهم ذلك ، ومن الاحاديث النبوية : « لو تعلق العلم بأكناف السماء اناله قوم من اهل فارس » [٢] وكان الفرس من الجهة الاخرى يرون للعرب مزية عليهم بالسيادة والنبوة وهيبة الفتح ، فجعلوا يتقربون اليهم بالعلم على ما تتطلبه حال الاسلام — وهو في اوائل دولتهم عبارة عن قراءة القرآن وحفظه وتفسيره وجمع الحديث واسناده وحفظه — لذلك كان اكثر الحفاظ والقراء والمحدثين والفقهاء والمفسرين من العجم ، واذا كان فيهم احد من العرب فالاغلب فيه ان يكون من القبائل الصغرى التي لا شأن لها في الفتح ، كالأصمعي فقد كان عربياً ولكنه كان من قبيلة باهلة الموصوفة بالخساسة وفيها يقول بعض الشعراء :

لو قيـــل للكلب يا باهلي   عوى الكلب من لؤم ذاك النسب

على ان الاكثرين كانوا من غير العرب ، فوهب بن منبه من اقدم رواة الحديث واصحاب التفسير وهو فارسي الأصل ، ونافع القارىء ديلمي ، وقس على ذلك سائر العلماء ، فمن اكابر الفقهاء واقدمهم الحسن بن ابي الحسن ، ومحمد بن سيرين بالبصرة ، وعطاء بن رباح ومجاهد وسعيد ابنا جبير وسليمان بن يسار في مكة ، وزيد بن اسلم ومحمد بن المنكدر ونافع بن ابي نجيح في المدينة ، وربيعة الرأي وابن ابي الزناد في قباء ، وطاووس وابنه وابن منبه في اليمن ، ومكحول في الشام ، وغيرهم في اماكن اخرى ، وكلهم من الموالي اي المسلمين غير العرب [٣] .

١ — البيان والتبيين ٢١٣ ج ١ .
٢ — ابن خلدون ٤٧٨ ج ١ .
٣ — العقد الفريد ٧٤ ج ٢ .

ولما دعا فساد اللغة الى ضبط قواعدها وجمع الفاظها كان العجم احوج الى ذلك من العرب ، لاستغناء العربي بملكته الفطرية عن تعلم القواعـد وحفظ الالفاظ ، فاشتغل الاعاجم بعلوم اللغة وكان اكثر علماء الأدب واللغة منهم ، كحماد الراوية وهو ديلمي ، والخليل وسيبويه والاخفش والفارسي والزجاج وغيرهم من الفرس او من في معناهم .

اما العلوم الدخيلة وهي العلم والفلسفة فالمشتغلون بها للعرب هم غير العرب وغير المسلمين ، لأن العباسيين لما أرادوا نقل كتب اليونان والفرس والهند الى العربية ، استخدموا العارفين هذه الالسنة من الكلدان والسريان والفرس وغيرهم لنقلها ، واكثرهم من النصارى كما سيجيء .

فالعرب اشتغلوا عن العلم في اول دولتهم بالرئاسة والسياسة للأسباب التي قدمناها ، وما زالوا هم اهل الدولة وحاميتها واولى سياستها الى اوائل الدولة العباسية ، فتولد فيهم بتوالي الاجيال الأنفة من انتحال العلم لأنه صار من جملة الصناعات — واهـل الرئاسة يستنكفون من الصناعات والمهن — وكانوا اذا رأوا عربياً يشتغل في اللغة او التعليم عابوه وقالوا : « انه يشتغل بصناعات الموالي » ، ومن أقوالهم : « ليس ينبغي للقرشي ان يستغرق في شيء من العلم إلا علم الاخبار ، وأما غير ذلك فالنتف والشذر من القول » . ومر رجل من قريش بفتى من ولد عتاب بن أسيد وهو يقرأ كتاب سيبويه فقال : « أف لكم .. علم المتأدبين وهمة المحتاجين »[٢] .

ولا بأس من اشتغال الموالي بالعلوم الاسلامية وهم مسلمون . على اننـا لا نعد العرب الذين تحضروا في الدولة العباسية عرباً خلصاً لاختلاطهم بالموالي والمماليـك بالمصاهرة والمعاشرة والمساكنة ، حتى الخلفاء فان اكثر امهاتهم من غير العرب ، وسنعود الى هـذا البحث في جزء آخر .

٦ — تدوين العلم في الاسلام

قلنا فيما تقدم ان الخلفاء الراشدين كانوا يخافون الحضـارة على العرب ، لئلا تذهب بنشاطهم وبداوتهم . ولذلك منعوهم من تدوين الكتب ، لأن علومهم في أوائـل الإسلام

---

١ — البيان والتبيين ١٥١ ج ١ .

كانت قاصرة على القرآن والتفسير ورواية الأحاديث ، ونظراً لقلة الاختلاف ولسهولة المراجعة والاستفتاء من ثقات الصحابة والتابعين، لقرب عهدهم من صاحب الشريعة ، كانوا في غنى عن تدوين تلك العلوم . ويستدل مما روي عن أبي سعيد الخدري أنه استأذن النبي في كتابة العلم فلم يأذن له ، وروي عن أبي عباس أنه نهى عن الكتابة وقال : « إنما ضل من كان قبلكم بالكتابة » . وجاء رجل إلى ابن عباس فقال : « إني كتبت كتاباً أريد أن أعرضه عليك » فلما عرضه عليه أخذه منه ومحاه بالماء ، وقيل له : « لماذا فعلت ذلك ؟ » فقال : « لأنهم اذا كتبوا اعتمدوا على الكتابة وتركوا الحفظ ، فيعرض للكتاب عارض فيفوت علمهم » [1] وان الكتاب يزاد فيه وينقص ويغير والمحفوظ لا يمكن تغييره .

وكان هذا الاعتقاد فاشياً في الصحابة والتابعين ، وتمسك به جماعة من كبارهم ، وكانوا اذا سئلوا تدوين علمهم أبوا واستنكفوا ـ ولعلهم كانوا يفعلون ذلك ليبقى الناس في حاجة إليهم رأساً . سأل رجل سعيد بن جبير وهو من أعلام التابعين أن يكتب له تفسير القرآن فغضب وقال : « لأن يسقط شقي أحب إلي من ذلك » [2] .

فقضى العرب عصر بني أمية وهم يشتاقون الى البداوة ، لأن دولتهم كانت عربية بدوية ، فانقضى القرن الأول وبعض القرن الثاني للهجرة والمسلمون يتناقلون العلم بالتلقين ، ويعتمدون على الحفظ ، ولم يدونوا غير القرآن لأسباب سيأتي بيانها . وكان أبو بكر قد توقف عن جمعه وتدوينه وقال : « كيف أفعل أمراً لم يفعله رسول الله ؟ » [3] .

أما ما خلا ذلك من التفسير والحديث والأشعار والأخبار والأمثال فقد كانوا يتناقلونها في صدورهم ، واكثرهم يقرأون ولكنهم لا يكتبون، وقد يكون بعضهم حافظاً ومفسراً وهو لا يقرأ ، كما كان شأنهم في الجاهلية : يشعرون ويخطبون ولا يقرأون .

فلما انتشر الاسلام واتسعت الأمصار ، وتفرقت الصحابة في الأقطار وحدثت الفتن واختلفت الآراء وكثرت الفتاوى والرجوع الى الكبراء ، اضطروا الى تدوين الحديث والفقه وعلوم القرآن ، واشتغلوا في النظر والاستدلال والاجتهاد والاستنباط ، وتمهيد القواعد والأصول وترتيب الأبواب والفصول ، فرأوا ذلك مستحباً فعمدوا الى التدوين

---

١ ـ كشف الظنون ٢٥ ج ١ . ٢ ـ ابن خلكان ٢٠٥ ج ١ .
٣ ـ الفهرست ٢٤ .

ورجعوا الى حديث رواه أنس بن مالك وهو قوله : « قيدوا العلم بالكتابة » [١] وقوله : « العلم صيد والكتابة قيد » [٢] .

على أنهم ظلوا مع ذلك يستنكفون من التدوين بأيديهم ، فكانوا يستكتبون الكتاب او يلقون دروسهم بطريق الإملاء . وذلك ان يتكلم المحدث او الفقيه والتلميذ يكتب على الرق او القرطاس او الكاغد ، فيبدأ المستملي في أول القائمة بقوله : « مجلس املاء شيخنا فلان بجامع كذا في يوم كذا » ويذكر التاريخ ، ثم يورد المملي باسناده سواء كان حديثاً او خبراً ، واذا كان فيه غريب يحتاج الى تفسير فسره ، وأورد اشعار العرب وغيرها بأسانيدها ، او الفوائد اللغوية باسناد او بغير اسناد على ما يختاره [٣] وهذا معنى قولهم « أمالي » المحدث فلان او اللغوي ، اي ما املاه من الفنون .

وظلوا – حتى بعد اشتغالهم بالتأليف – يحرضون الناس على الحفظ والتعويل على السماع ، وكان احوج العلوم الى ذلك علم الدين ثم الشعر ، لما فيه من الألفاظ الغريبة واللغات المختلفة والكلام الوحشي واسماء الشجر والنبات والمواضع والمياه . لان الكتابة في القرون الاولى للاسلام كانت بلا نقط ، فلا تفرق في شعر الهذليين اذا انت قرأته بين « شابة » و « ساية » وهما موضعان . ولا تثق بمعرفتك في تمييز امثالها مما تتشابه صوره بدون اعجام . وقرىء يوماً على الاصمعي في شعر ابن ذؤيب : « بأسفل ذات الدير أفرد جحشها » فقال اعرابي حضر مجلس القارىء : « ضل ضلالك ايها القارىء . . انما هي ذات الدبر (بالباء) وهي ثنية عندنا » فأخذ الأصمعي بذلك فيما بعد . ومن يرى شعر المعذل في وصف الفرس :

من السح جوالا كأن غلامه   يصرف سبدا في العنان عمردا

اذا كان بلا تنقيط ولا يقرأ « سيدا » بالياء ، لانصراف الذهن الى السبد وهو الذئب؟ وقد اخطأ في ذلك اكثر الذين قرأوا هذا البيت [٤] .

فظل المسلمون زهاء قرن وليس عندهم كتاب مدون غير القرآن ، مع ان الكتابة كانت شائعة يومئذ . وقد نبغ جماعة من مفسري القرآن ورواة الحديث وعلماء النحو واللغة وناظمي الشعر ورواته ، وانما كانت الكتابة العربية مستخدمة لكتابة القرآن أو الرسائل الى القواد ، ولتدوين الحساب في دفاتر الحكومة بعد ان انتقلت الدواوين الى العربية . أما

---

١ – البيان والتبيين ١٦١ ج ١ .   ٢ – كشف الظنون ٢٦ ج ١ .
٣ – المزهر ١٦٢ ج ٢ .   ٤ – الشعر والشعراء لابن قتيبة ٢٠ .

سائر العلوم فكانت تتناقل بالسماع وتحفظ في الصدور ، وربما دون بعضها في صحف غير مرتبة . وأما تأليف الكتب فلم يكن معروفاً عندهم .

واختلف مؤرخو المسلمين في اول من صنف الكتب في الاسلام ، فقال بعضهم انه ابن جريج البصري المتوفي سنة ١٥٥ هـ.[١] وقال غيرهم غير ذلك ، ولم يخرجوا على أي حال عن أواسط القرن الثـاني للهجرة ، وان أول ما دون – بعد القرآن والتفسير الحديث . ولكننا رأينا من الف قبل ذلك بنصف قرن ، وان أول ما دونوه من العلوم بعد القرآن التفسير . وأقدم ما علمنا به من التفاسير تفسير مجاهد بن جبير المتوفي سنة ١٠٤ هـ.[٢] . ثم اشتغلوا في تدوين التاريخ وخصوصاً المغازي ، وأقدم ما وصل الينا خبره من كتبهم في هذا الموضوع كتاب ألفه وهب بن منبه صاحب الأخبار والقصص المتوفي سنة ١١٦ هـ وهو من ابنـاء الفرس المولدين باليمن . فألف كتاباً في الملوك المتوجة من حمير واخبارهم واشعارهم وقصصهم ، قال ابن خلكان انه شاهده بنفسه واثنى عليه[٣]. ثم كتاب المغازي لمحمد بن مسلم بن شهاب الزهري المتوفي سنة ١٤١ هـ[٤] . ثم ألف المسلمون في الحديث والفقه في اواسط القرن الثاني للهجرة ، فصنف ابن جريج بمكة وسعيد ابن أبي عروبة وحماد بن سلمة وغيرهما بالبصرة . وألف أبو حنيفة في الفقـه والرأي في في الكوفة ، وصنف الاوزاعي في الشام ، ومالك جمع الموطأ بالمدينة ، وغيرهم[٥] ثم تكاثرت التآليف بعد ذلك كما سيأتي .

٧ – الخط العربي

تاريخه :

ليس في آثار العرب بالحجاز ما يدل على انهم كانوا يعرفون الكتابة الا قبيل الاسلام ، مع أنهم كانوا محاطين شمالاً وجنوباً بأمم من العرب خلفوا نقوشاً كتابية كثيرة . وأشهر تلك الأمم حمير في اليمن كتبوا بالحرف المسند ، والأنباط في الشمال كتبوا بالحرف النبطي ، وآثارهم باقية الى الآن في ضواحي حوران والبلقاء . والسبب في ذلك ان الحجازيين أو عرب مضر كانت البداوة غالبة على طباعهم ، والكتابة من الصناعات الحضرية .

---

١ – ابن خلكان ٢٨٦ ج ١.

٢ – كشف الظنون ٣١٤ ج ١ وابن الاثير حوادث سنة ١٠٢.

٣ – ابن خلكان ١٨٠ ج ٢ .

٤ – كشف الظنون ٣٠١ ج ٢ وابن خلكان ٤٥٢ ج ١ .

٥ – النجوم الزاهرة ٣٧٨ ج ١ .

على ان بعض الذين رحلوا منهم الى العراق او الشام قبيـــل الاسلام تخلقوا بأخلاق الحضر ، واقتبسوا الكتابة منهم على سبيل الاستعارة ، فعادوا وبعضهم يكتب العربية بالحرف النبطي او العبراني او السرياني . ولكن النبطي والسرياني ظلا عندهم الى ما بعد الفتوح الاسلامية ، فتخلف عن الاول الخط النسخي (الدارج) وعن الثاني الخط الكوفي نُسبة الى مدينة الكوفة . وكان الخط الكوفي يسمى قبل الاسلام الحيري نسبة الى الحيرة، وهي مدينة عرب العراق قبل الاسلام وابتنى المسلمون الكوفة بجوارها .

ومعنى ذلك ان السريان في العراق كانوا يكتبون ببضعة اقلام من الخط السرياني ، في جملتها قلم يسمونه « السطرنجيلي » كانوا يكتبون به اسفار الكتاب المقدس [١] فاقتبسه العرب في القرن الاول قبل الاسلام ، وكان من اسباب تلك النهضة عندهم ، وعنه تخلف الخط الكوفي وهما متشابهان الى الآن .

واختلفوا فيمن نقله الى بلاد العرب ، والأشهر ان أهل الانبار نقلوه — وذلك ان رجلا منهم اسمه بشر بن عبـــد الملك الكندي اخو اكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل ، تعلم هذا الخط من الأنبار وخرج الى مكة فتزوج الصهباء بنت حرب بن امية اخت ابي سفيان والد معاوية ، فعلم جماعة من اهل مكة فكثر من يكتب بمكة من قريش [٢] عند ظهور الاسلام ، ولذلك توهم بعضهم ان اول من نقل الخط الى العرب سفيان بن امية .

والخلاصة على اي حال ان العرب تعلموا الخط النبطي من حوران في اثناء تجاراتهم الى الشام، وتعلموا الخط الكوفي من العراق قبل الهجرة بقليل ، وظل الخطان معروفين عندهم بعد الاسلام . والأرجح أنهم كانوا يستخدمون القلمين معاً : الكوفي لكتابة القرآن ونحوه من النصوص الدينية ، كما كان سلفه السطرنجيلي يستخدم عند السريان لكتابـــة الأسفار المقدسة النصرانية، والنبطي لكتابة المراسلات والمكاتبات الاعتيادية. ومما يدل على تخلف القلم الكوفي عن السطرنجيلي — فضلاً عن شكله - ان الألف اذا جاءت حرف مد في وسط الكلمة تحذف ، وتلك قاعدة مطردة في الكتابـة السريانية ، وكان ذلك شائعاً في أوائل الاسلام، وخصوصاً في القرآن فيكتبون « الكتب » بدل « الكتاب »، و« الظلمين » بدل « الظالمين » .

---

١ - اللمعة الشهية ١٧ . ٢ — المزهر ١٧٧ ج ٢ .

فجاء الاسلام والكتابة معروفة في الحجاز ، ولكنها غير شائعة ، فلم يكن يعرف الكتابة الا بضعة عشر انساناً ، أكثرهم من كبار الصحابة وهم : علي بن أبي طالب ، وعمر بن الخطاب ، وطلحة بن عبيدالله ، وعثمان وابان إبنا سعيد بن خالد بن حذيفة ، ويزيد بن أبي سفيان ، وحاطب بن عمرو بن عبد شمس ، والعلاء بن الحضرمي ، وأبو سلمة ابن عبد الاشهل ، وعبدالله بن سعد بن أبي سرح ، وحويطب بن عبد العزى ، وأبو سفيان ابن حرب وولده معاوية، وجهيم بن الصلت بن مخرمة . ثم تعلم غيرهم من الصحابة ، ومنهم خرج كتاب الدواوين للخلفاء الراشدين وكتاب الرسائل وكتاب القرآن . فكتبوا القرآن بالكوفي أيام الراشدين وأيام بني أمية ، وفي أيامهم تفرع الخط المذكور الى أربعة أقلام ، اشتق بعضها من بعض كاتب اسمه قطبة كان أكتب أهل زمانه ، وكان يكتب لبني أمية المصاحف . ثم اشتهر بعده الضحاك بن عجلان في أوائل الدولة العباسية فزاد على قطبة ، وزاد بعده اسحق بن حماد وغيره ، فبلغ عدد الاقلام العربية الى أوائل الدولة العباسية ١٢ قلماً وهي : (١) قلم الجليل (٢) قلم السجلات (٣) قلم الديباج (٤) قلم أسطورمار الكبير (٥) قلم الثلاثين (٦) قلم الزنبور (٧) قلم المفتح (٨) قلم الحرم (٩) قلم المدمرات (١٠) قلم العهود (١١) قلم القصص (١٢) قلم الحرفاج . وفي أيام المأمون تنافس الكتاب في تجويد الخط ، فحدث القلم المرصع ، وقلم النساخ ، وقلم الرياسي نسبة الى مخترعه ذي الرياستين الفضل بن سهل ، وقلم الرقاع ، وقلم غبار الحلية [١] .

فزادت الخطوط على عشرين شكلاً ، وكلها تعد من الكوفي . وأما الخط النسخي او النبطي فقد كان شائعاً بين الناس لغير المخطوطات الرسمية ، حتى اذا نبغ ابن مقلة المتوفى سنة ٣٢٨ هـ أدخل في الخط المذكور تحسيناً جعله على نحو ما هو عليه الآن وأدخله في كتابة الدواوين . والمشهور عند المؤرخين ان ابن مقلة نقل الخط من صورة القلم الكوفي الى صورة القلم النسخي ، والغالب في اعتقادنا ان الخطين كانا شائعين معاً من اول الاسلام : الكوفي للمصاحف ونحوها ، والنسخي (او النبطي) للرسائل ونحوها كما تقدم . وأن ابن مقلة انما جعل الخط النسخي على قاعدة جميلة حتى يصلح لكتابة المصاحف . وقد شاهدنا في معرض الخطوط العربية القديمة في دار الكتب الخديوية (دار الكتب المصرية الآن) عقد نكاح مكتوباً في اواسط القرن الثالث للهجرة سنة ٢٦٤ هـ على رق مستطيل في أعلاه

---

١ - كشف الظنون ٤٦٦ ج ١ .

صورة العقد بالقلم الكوفي المنتظم ، وتحتها خطوط الـ ـرد بالقلم النسخي بغاية الاختلال – فابن مقلة حسن هذا الخط تحسيناً وأدخله في كتابة المصاحف .

ثم تفرع الخط النسخي المذكور بتوالي الأعوام الى فروع كثيرة ، وأصبحت الأقلام الرئيسية في اللغة العربية اثنين : الكوفي ، والنسخي . ولكل منهما فروع كثيرة ، اشتهر منها بعد القرن السابع للهجرة ستة اقلام وهي : الثلث والنسخي والتعليق والريحاني والمحقق والرقاع . واشتهر من الخطاطين جماعة كبيرة الفوا فيه الكتب والرسائل ، بعضها في أدوات الخط كالأقلام وطرق بريها واحوال الشق والقط والدواة والمداد والكاغد وغير ذلك (١) وما زال الخط يتفرع الى اليوم،ولن يزال الى ما شاء الله عملا بسنة الارتقاء .

الحركات

وكان القرآن في اول الاسلام محفوظاً في صدور القراء ، لا خوف من الاختلاف في قراءته لكثرة عنايتهم في تناقله وضبط الفاظه ، حتى دونوه وكثر اهل الاسلام ، فمضى نصف القرن الاول للهجرة والناس يقرأون القرآن بلا حركات ولا اعجام . واول ما افتقروا اليه الحركات ، واول من رسمها ابو الاسود الدؤلي واضع النحو العربي المتوفي سنة ٦٩ هـ فانه وضع نقطاً تمتاز بها الكلمات او تعرف بها الحركات ، ولذلك توهم بعضهم انه وضع الأعجام . والحقيقة انه وضع نقطاً لتمييز الاسم من الفعل من الحرف ، وليس لتمييز الباء من التاء والجيم من الحاء ، والأرجح انه اقتبس ذلك من الكلدان او السريان جيرانه في العراق ، وكان عندهم نقط كبيرة توضع فوق الحرف او تحته لتعيين لفظه او تعيين الكلمة الواقع هو فيها اسم هي أم فعل أم حرف . مثل قولهم : « كتب » ، فيمكن ان تكون اسما جمع كتاب ، او فعلاً ماضياً معلوماً او مجهولاً ، وكان عندهم أيضاً نقط هي حركات وضعها يعقوب الرهاوي قبيل ذلك الزمن (٢) وهي عبارة عن نقط كانت ترسم في حشو الحروف ، ثم تحولت الى نقط مزدوجة تنوب عن الحركات الثلاث ، وما زالت عندهم الى اليوم . فالظاهر أن أبا الأسود اقتبس هذه الحركات ، ويؤيد ذلك أنه لما أراد التنقيط أتوه بكاتب فقال له أبو الأسود : « اذا رأيتني قد فتحت فمي بالحرف فانقط نقطة فوقه على أعلاه ، واذا ضممت فمي فانقط نقطة بين يدي الحرف ، وان كسرت فاجعل النقطة من تحت الحرف » (٣) . فكان العرب بعد ذلك يستعملون هذه النقط ، والغالب

---

١ – كشف الظنون ٤٦٧ ج ١ . ٢ – اللمعة الشهية ٢١ . ٣ – الفهرست ٤٠ .

ان يكتبوها بلون غير لون الخط . وقد شاهدنا في دار الكتب المصرية مصحفاً كوفياً منقطاً على هذه الكيفية ، وجدوه في جامع عمرو بجوار القاهرة وهو من أقدم مصاحف العالم ، ومكتوب على رقوق كبيرة بمداد اسود وفيه نقط حمراء اللون . فالنقطة فوق الحرف فتحة ، وتحته كسرة ، وبين يدي الحرف ضمة كما وصفها أبو الأسود .

الاعجام

كان الخط لما اقتبسه العرب من السريان والانباط خالياً من النقط — ولا تزال الخطوط السريانية بلا نقط الى اليوم — فالاعجام حادث في العربية وهو قديم فيهما ، والظاهر ان المسلمين بعد ان استخدموا الحركات المذكورة رأوا التصحيف قد تكاثر والتبس الناس في القراءة لتكاثر الاعاجم من القراء ، والعربية ليست لغتهم فصعب عليهم التمييز بين الاحرف المتشابهة في شكلها كالجيم والحاء والسين والشين والباء والتاء والثاء ، فانتبه لذلك الحجاج أمير العراق في ايام عبد الملك بن مروان — قال ابن خلكان : « ففزع الحجاج الى كتابه ، وسألهم ان يضعوا لهذه الاحرف المتشابهة علامات تميزها بعضها من بعض ، فيقال ان نصر بن عاصم قام بذلك فوضع النقاط افراداً وازواجاً ، وخالف بين اماكنها ، فعبر الناس بذلك زماناً لا يكتبون إلا منقوطاً . ولكن مع استعمال النقط ايضاً كان يقع التصحيف ، فأحدثوا الاعجام فكانوا يتبعون النقط بالاعجام »[٣] وفي عبارة ابن خلكان هذه التباس ، لا يفهم المراد بها ولا الفرق بين التنقيط والاعجام وهما واحد ، ولا يعقل ان يكون المراد بالنقط الحركات لأنهم انما عمدوا اليها لكثرة التصحيف ، اي اختلاف القراءة باختلاف النقط . فالظاهر ان النقط المذكورة هي من قبيل الاعجام لتمييز الحروف المتشابهة ، ولكن نصراً هذا لم ينقط إلا بضعة حروف مما يكثر وروده ويخشى الالتباس فيه ، ثم رأوا القراءة لا تضبط الا بتنقيط كل الحروف كما هي الآن ، وهذا ما عبروا عنه بالاعجام .

وقد شاهدنا في معرض الخطوط في دار الكتب المصرية كتابة عربية على صفحة من البردى (البابيروس) مؤرخة سنة ٩١هـ وفيها اعجام، لكنه قاصر على الصور المشابهة للباء للتمييز بين الباء والياء والتاء، وصورة حرف الشين لتمييزه من السين بثلاث نقط موضوعة على استواء واحد - وشاهدنا اجزاء من مصاحف اخرى مكتوبة على رقوق صغيرة وعليها نقط

---

١ — ابن خلكان ١٢٥ ج ١ .

حمراء للحركات ونقط سوداء للاعجام . وقد تجد خطوطاً قديمة منقطة ومحركة وخطوطاً حديثة بلا تنقيط ولا تحريك .

فيؤخذ من ذلك ان العرب استخدموا الحركات والاعجام من اواسط القرن الاول ، ولكنهم ظلوا مع ذلـــك يكرهونها إلا حيث يريدون التدقيق بنوع خاص كالمصاحف ونحوها . اما فيما خلا ذلك فكانوا يفضلون ترك النقط ، لا سيما اذا كان المكتوب اليـه عالماً . وقد حكي أنه عرض على عبدالله بن طاهر خط بعض الكتاب فقال : « ما أحسنه لولا كثرة شونيزه (أي نقطه) ». ويقال : « كثرة النقط في الكتاب سوء ظن في المكتوب اليه » . وقد يقع بالنقط ضرر ، كما حكي عن جعفر المتوكل انه كتب الى بعض عمـــاله : « أن أحص من قبلك من الذميين وعرفنا بمبلغ عددهم » فوقع على الحاء نقطة فجمع العامل من كان في عمله منهم وخصاهم فماتوا غير رجلين [١] .

ولذلك ظل الكتاب في اثناء التمدن الاسلامي مخيرين بين الأعجام وعدمه ، والغالب عدم الأعجام . وقد حدث بسبب ذلك التباس في كثير من الاحوال ، وخصوصاً في أسماء الأماكن الغريبة او الألفاظ الغريبة ونحوهما [٢] . وكان الادباء يستحسنون الاعجام في كتب العلوم ، ويستهجنونه في المراسلات . ولذلك استحسنوا مشق الخط في المكاتبات ، لانهم لفرط ادلالهم في الصنعة وتقدمهم في الكتابة يكتفون بالاشارة ويقتصرون على التلويح ويرون الحاجة الى استيفاء الابانة تقصيراً [٣] .

أدوات الكتابة

أما أدوات الكتابة فقد وفينا الكلام عنها في الجزء الاول من هذا الكتـاب . وظلوا يكتبون الى أواخر دولة الأمويين على الجلود والرقوق دروجاً ، فكانت دفـاتر الحكومة عبارة عن لفائف من الجلد . فلما أفضى الأمر الى العباسيين وقام أبو العبـاس السفاح بالامر

---

١ — كشف الظنون ٤٦٨ ج ٢ .
٢ — راجع كتابنا تاريخ اللغة العربية
٣ — ادب الدنيا والدين ٥٢ .

واستوزر خالد بن برمك ، غير خالد الدفاتر من الادراج الى الكتب . فظلت اعمال الحكومة تدون في كتب من الجلد ، الى ان تصرف جعفر بن يحيى البرمكي بالوزارة في ايام الرشيد فاتخذ الكاغد (الورق) فتداوله الناس من بعده، وظلوا مع ذلك اجيالا يكتبون على الجلود والقراطيس والورق الصيني والتهامي والخراساني [١] فضلاً عن الكاغد يصنعونه كراريس او دفاتر ، وكان بعضهم يفضل الرقاع للكتابة عليها ، كالفارابي مثلاً فقد كانت كتاباته اكثرها على الرقاع [٢] .

---

١ – الفهرست ٤٠ .　　٢ – ابن خلكان ٥٧ ج ٢ .

العلوم الشرعيّة الإسلاميّة

هي العلوم التي اقتضاها الاسلام والتمدن الاسلامي على ما تقدم ، وتقسم الى ثلاثة اقسام: (١)العلوم الشرعية وهي العلوم الدينية الاسلامية (٢)العلوم اللسانية وهي التي اقتضاها الاسلام ضمناً ، فاحتاجوا اليها في ضبط قراءة القرآن أو تفسيره أو تفهمه وتفهم الحديث (٣) التاريخ والجغرافيا .

١ ـــ العلوم الشرعية الاسلامية

القرآن — جمعه وتدوينه :

لا غرو اذا اهتم المسلمون بجمع القرآن وحفظه ، لأن عليه يتوقف دينهم ودنياهم ، وأول أسباب حفظه تدوينه . والقرآن لم ينزل مرة واحدة ، وإنما نزل تدريجاً في أثناء عشرين سنة على مقتضى الأحوال ، من أول ظهور الدعوة الى وفاة النبي ، بعضه في مكة وبعضه في المدينة . فكان كلما تلا آية أو سورة كتبوها على صحف الكتابة في تلك الايام ، وهي الرقاع من الجلود ، والعريض من العظام كالأكتاف والاضلاع ، وعلى العسب وهي قحوف جريد النخل ، واللخاف وهي الحجارة العريضة البيضاء . فتوفي النبي (صلعم) سنة ١١ هـ والقرآن اما مدون على امثال هذه الصحف ، أو محفوظ في صدور الرجال ، وكانوا يسمون حفظته « القراء » .

وكان اكثر الناس عناية في تدوينه على عهد النبي علي بن أبي طالب ، وسعد بن عبيد بن النعمان ، وأبو الدرداء ، ومعاذ بن جبل ، وثابت بن زيد ، وأبي بن كعب وغيرهم . فلما قام ابو بكر بالأمر وارتد بعض اهل جزيرة العرب عن الاسلام ، بعث جنداً لمحاربتهم فقتل من الصحابة في تلك الحروب جماعة كبيرة ، وخصوصاً في غزوة اليمامة فقتل فيها

وحدها ١٫٢٠٠ من المسلمين فيهم ٧٠٠ من القراء . فلما بلغ ذلك الى اهل المدينة فزعوا فزعاً شديداً ، وخصوصاً عمر بن الخطاب رجل الاسلام والمسلمين ، فأشار على ابي بكر بجمع القرآن لئلا يذهب منه شيء بموت اهله ، فتوقف ابو بكر وقال : « كيف افعل امراً لم يفعله رسول الله ولم يعهد الينا فيه عهداً ؟ » ، فما زال به عمر حتى اقنعه بجمعه . فأحضر ابو بكر زيد بن ثابت لأنه كان من كتبة الوحي ، فجمع ما كان مدوناً عند الصحابة ، وربما وجد السورة الواحدة مكتوبة عند اثنين او ثلاثة او اكثر ، وقد لا يوجد من السورة الاخرى الا نسخة واحدة ، كسورة التوبة فانه لم يجد منها الا نسخة واحدة عند أبي خزيمة الانصاري [١] فجمعه من تلك المحفوظات ومن صدور الرجال وسلمه الى ابي بكر ، فظلت الصحف عنده حتى توفي سنة ١٣ هـ ، فلما تولى عمر تسلمها وظلت عنده حتى تولى عثمان سنة ٢٣ هـ فانتقلت الى بيت ابنته حفصة من ازواج النبي « صلعم » .

وفي ايام عثمان اتسعت الفتوح وتفرق المسلمون في مصر والشام والعراق وفارس وافريقية ، وفيهم القراء وعند بعضهم نسخ من القرآن ، وقد رتبها كل منهم ترتيباً خاصاً ، فعول أهل كل مصر على من قام بينهم من القراء . فأهل دمشق وحمص مثلاً اخذوا عن المقداد بن الاسود ، وأهل الكوفة أخذوا عن ابن مسعود ، وأهل البصرة عن ابي موسى الاشعري [٢] وكانوا يسمون مصحفه لباب القلوب - ومع شدة عناية القراء في حفظ القرآن وضبطه لم يخلوا من الاختلاف في قراءة بعض سوره

واتفق في اثناء ذلك أن حذيفة بن اليمان كان في جملة من حضر غزو ارمينية وأذربيجان ، فرأى في اثناء سفره اختلافاً بين المسلمين في قراءة بعض الآيات ، وسمع بعضهم يقول لبعض : « قراءتي خير من قراءتك » . فلما رجع الى المدينة انبأ عثمان بذلك وأنذره بسوء العقبى ان لم يتلاف الأمر ، الى ان قال: « أدرك هذه الأمة قبل ان يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى » فبعث عثمان الى حفصة ان: «ارسلي الينا بالصحف لننسخها في المصاحف ثم نردها اليك » ، فأرسلتها . فدعا عثمان زيد بن ثابت ، وعبدالله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام وأمرهم ان ينسخوا القرآن ، ويستعينوا على القراءة بما حفظه القراء ، وقال لهم : « اذا اختلفتم انتم وزيد بن ثابت في شيء فاكتبوه بلسان قريش ، فانما أنزل بلسانهم » ففعلوا ذلك [٣] سنة ٣٠ هـ ،

---

١ - الفهرست ٢٤ . ٢ - ابو الفدا ١٧٦ ج ١ . ٣ - الفهرست ٢٥ .

, كتبوا أربعة مصاحف بعثها عثمان الى الامصار الأربعة : مكة ، والبصرة ، والكوفة ، والشام [١] واثنين ابقاهما في المدينة : واحد لأهلها ، وواحد لنفسه وهو الذي يسمونه « الامام » ، ثم أمر بجمع كل ما كان من قبل ذلك من المصاحف والصحف [٢] وأمر باحراقه .

فأصبح المعول في المصاحف على ما كتبه عثمان، واشتغل المسلمون في الامصار باستنساخ تلك المصاحف ، فنسخوا منها شيئاً كثيراً في مدة قليلة . ذكر المسعودي في عرض كلامه عن واقعة صفين بين علي ومعاوية ، وما كان من ظهور علي وما اشار به عمرو بن العاص من رفع المصاحف : « ورفع من عسكر معاوية نحو من خمسمائة مصحف » [٣] وليست هذه كل مصاحف المسلمين فاعتبر هذا العدد ، وبين كتابة مصحف عثمان وواقعة صفين سبع سنين .

ومع تشديد الصحابة في التعويل على مصحف عثمان دون سواه ، فقد ظل عند بعض المسلمين نسخ من مصاحف اخرى أشهرها مصحف علي . ويعتقد الشيعة ان علياً اول من خط المصاحف عند وفاة النبي ، وتنوقل مصحفه في شيعته وبقي عند أهل ابنه جعفر . وقد ذكر ابن النديم في كتاب الفهرست انه رأى عند ابي يعلى حمزة الحسيني مصحفاً بخط علي يتوارثه بنو حسن [٤] — ومنها مصحف عبدالله بن مسعود وأبي بن كعب ولكل منها ترتيب خاص في سوره [٥] .

على ان الخلفاء والأمراء كانوا يبذلون جهدهم في جمع الكلمة على مصحف عثمان والتشديد في اعدام ما سواه ، وفي جملة مساعيهم ان الامراء كانوا يكتبون نسخاً من ذلك المصحف يضعونها في المساجد ليتلوها الناس ويرجعوا اليها في تصحيح ما بين ايديهم من المصاحف الخاصة . وربما كتب الامير عدة مصاحف وفرقها في الامصار ، ولكنهم كانوا يعدون قبول مصحف الامير في الجامع اقراراً بسيطرته عليهم . وكان الحجاج في مقدمة من كتب المصاحف من الامراء وفرقها في الامصار ، فبعث منها مصحفاً الى مصر والوالي عليها يومئذ عبد العزيز بن مروان فغضب وقال : « أيبعث الى جند انا فيه بمصحف ؟ » وأمر فكتبوا له مصحفاً آخر بالغ في ضبطه ، وأعلن بعد الفراغ من كتابته أن من وجد

---

١ — نفح الطيب ٣٨٧ ج ١ . ٢ — ابو الفدا ١٧٦ ج ١ .
٣ — المسعودي ٢٠ ج ٢ . ٤ — الفهرست ٢٨ . ٥ — الفهرست ٢٦ .

فيه حرفاً خطأ فله رأس أحمر وثلاثون ديناراً . فوجد فيه احد قراء الكوفة لفظة « نجمة » بدل « نعجة » فنال الجائزة [١] .

قراءة القرآن :

كان للقراءة شأن عظيم في اول الاسلام ، لقلة الذين يقرأون يومئذ ، فسموا الذين كانوا يحفظون القرآن « قراء » تمييزاً لهم عن سائر المسلمين لأنهم كانوا اميين . وقد تقدم أن السبب الذي حمل عثمان على جمع القرآن وكتابته ما بلغه من اختلاف الصحابة في قراءته . على انه لم يمض على ارسال مصاحفه الى الامصار زمان قصير ، حتى أصبح لأهل كل مصر قراءة خاصة يتبعون فيها قارئاً يثقون بصحة قراءته ، وتنوقل ذلك واشتهر . ثم استقر منها سبع قراءات معينة تواتر نقلها بأدائها ، واختصت بالانتساب الى من اشتهر بروايتها ، فصارت هذه القراءات السبع اصولا للقراءة ، ويعدها بعضهم عشرا .

واصحاب هذه القراءات هم : نافع بن أبي رؤيم ، ويزيد بن القعقاع في المدينة ، وعبدالله بن كثير في مكة ، وابو عمرو بن العلاء ، ويعقوب الحضرمي في البصرة. وعبدالله ابن عامر في الشام ، وعاصم بن ابي النجود ، وحمزة بن حبيب الزيات ، وعلي الكسائي ، وخلف البزاز في الكوفة . واشتهر غيرهم كثيرون في اقطار العالم الاسلامي ، وفيهم من يقرأ قراءات غريبة ، وخصوصاً بعد ان ظهرت الفرق الاسلامية وتشعبت الآراء في التفسير والفقه . والخلفاء يشددون في مقاصة اولئك الشاذين خوف التفرقة ، كما كانت تفعل رؤساء النصرانية في القرون الأولى للميلاد . ولكن الاسلام كان اقرب الى اطلاق حرية الفكر والقول وخصوصاً في اوائله ، فلم يكن احد يتردد في ابداء ما يخطر له ولو كان مخالفاً لرأي الخليفة ولذلك كثرت الفرق الاسلامية يومئذ ، وتعددت مذاهب أصحابها في القراءة والتفسير والفقه وفي كل شيء ، حتى ذهب بعضهم الى ان سورة يوسف ليست من القرآن لأنها قصة من القصص ، والقائلون بذلك العجاردة[٢] وذهبت طائفة اخرى الى اثبات حكم من احكام الالهية في السيد المسيح وانه هو الذي يحاسب الخلق[٣] وظل بعضهم يقرأون القراءات الغريبة الى اواسط الدولة العباسية ، وفي جملتهم يعقوب العطار المتوفي سنة ٣٥٤ هـ فاستحضره الخليفة واستتابه بحضرة القراء والفقهاء ، وكتب محضر توبته واشهد عليه من حضر [٤] .

---

١ — المقريزي ٢٥٤ ج ٢ . ٢ — الشهرستاني ٩٥ ج ١ .
٣ — الشهرستاني ٤٢ ج ١ . ٤ — طبقات الادباء ٣٦١ .

وأشهر من قرأ القراءات الشاذة ابن شنبوذ البغدادي المتوفي سنة ٣٢٨ هـ فانـه تفـرد بقراءات من الشواذ كان يقرأ بها في المحراب ، ذكرها ابن النديم وابن خلكان فعـلم به ابن مقلة الوزير سنة ٣٢٣ هـ فقبض عليه واعتقله أيامـاً ، فلم يكن ذلك ليرجعه عن قراءته ، فأمر بجلده واستتابه فتاب وقال أنه قد رجع عما يقرأه وأنه لا يقرأ إلا بمصحف عثمان بن عفان بالقراءة المتعارفة التي يقرأ بها الناس وكتب محضراً بذلك (١) .

والقراءات العشر التي ذكرنا أصحابها كلها جائزة عند المسلمين . وعند الأئمة أن الجميع على صواب ، فقد يختـار الاقليم الواحد قراءة واحدة أو قراءتين أو أكثر ، وقد تقرأ كل القراءات في اقليم واحد (٢) .

وكانوا يرجعون في اثبات صحة القراءة الى الاسناد المتسلسل ، كقولهم : قرأ يعقوب ابن اسحق على سلام ، وقرأ سلام على عـاصم ، وقرأ عاصم على أبي عبد الرحمن ، وقرأ أبو عبد الرحمن على علي بن أبي طالب ، وقرأ علي على النبي (٣) .

تأثير القرآن

إن قراءة القرآن وحفظه من اول واجبات المسلمين ، وخصوصاً في اوائـل الاسلام ، فانطبعت اوامره ونواهيه في افئدتهم ، وارتسمت عباراته على السنة ادبائهم ، واصبح هو المرجع في الشرع والدين واللغـة والانشاء وفي كل شيء . فاقتبسوا اساليبه في خطبهم وكتبهم ، وتمثلوا بآياته في مؤلفاتهم ، وظهرت آدابه وتعاليمه في اخلاقهم واطوارهم ، مع تباعد الأمم التي اعتنقت الاسلام في اصولها ولغاتها وبلادها. واستشهدوا بأقواله ونصوصه في علومهم اللسانية ، فضلاً عن العلوم الشرعية . فقد كان في كتـاب سيبويه وحده ٣٠٠ آية من القرآن. واصبح اهل البلاغة لا تروق لهم الكتابة او الخطابة الا اذا رصعوها بشيء من آي القرآن ، كما سترى في باب الخطابة في الاسلام ، وفي باب البلاغة من اقتباس الآيات وادخالها في عبارات الخطب والرسائل والتوقيعات .

على انهم كانوا ، لفرط اشتغالهم بحفظ القرآن وقراءته وتفهمه ، لو ذكر الرجل حرفاً او كلمة انتبه السامع للآية كلها ، ولذلك كثيراً ما كانوا يرمزون بالكلمـة الواحدة الى آية يفهمها العارف ويعمل بها وقد تخفى على كثيرين .

---

١ — ابن خلكان ٤٩٠ ج ١ . ٢ — المقدسي ٣٩ ونفح الطيب ١٠٤ ج ١ .
٣ — ابن خلكان ٣٠٨ ج ٢ .

ومما يحكى من هذا القبيل ان السلطان محمود الغزنوي الشهير ، بعث إلى الخليفة يطلب ان يذكر اسمه في الخطبة ببغداد ،وينقش اسمه في سكة الذهب والفضة (أي ينقش اسمه على الدنانير والدراهم) . فامتنع الخليفة من ذلك . فبعث اليه كتاباً فيه تهديد ووعيد ، وقال في جملته : « لو أردت نقل حجارة بغداد على ظهور الفيلة الى غزنة لفعلت » . فبعث اليه الخليفة كتاباً مختوماً ، فلما فتحه لم يجد فيه بعد البسملة إلا الفاً ممدودة ،وفي وسطه لام ، وفي آخره ميم ، والصلاة ، والحمدلة . فحار السلطان واهل مجلسه من ذلك حتى دخل عليهم ابو بكر القهستاني ، ففكر في ذلك وقال : « عندي شرحه » فقال : « اذكر ولك ما تريد» فقال : «بعث اليهم السلطان يهددهم بالفيلة، فبعثوا له هذا الكتاب وفيه الف ولام وميم اشارة الى قوله تعالى : (الم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل) الى آخر السورة» فارتاع السلطان لذلك ووقع في قلبه الخوف والندم وعاد الى أحسن الاحوال من الرضى والأدب[1] .

ويحكى ايضاً ان المأمون غضب على عبدالله بن طاهر ، وشاور اصحابه في الايقاع به ، وكان قد حضر المجلس صديق له فكتب اليه كتاباً فيه :«بسم الله الرحمن الرحيم يا موسى» فلما فضه ووجد ذلك تعجب ، وما زال يطيل فيه النظر حتى علم انه يريد « يا موسى ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك » .

وابلغ من ذلك حكاية سديد الملك وتشديد نون « ان » وقد ذكرناها في الجزء الاول من هذا الكتاب ، وفي اعادتها هنا تكرار .

وقد عنى المسلمون في كتابة القرآن وحفظه عناية ليس بعدها عناية ، فكتبوه على صفائح الذهب والفضة ، وعلى صفائح العاج ، وطرزوا آياته بالذهب والفضة على الحرير والديباج ، وزينوا بها محافلهم ومنازلهم ، ونقشوها على الجدران في المساجد والمكاتب والمجالس ، ورسموه بكل الخطوط واجملها على كل اصناف الرقوق والجلود والكواغد بالادراج والكراريس والرقاع بأصناف المداد والوانها وملأوا بين الكلام بالذهب . وكان الخلفاء والامراء والسلاطين يتبركون بكتابة المصاحف بأيديهم ويختزنونها في المساجد او نحوها . وفي دار الكتب الخديوية(المصرية)بالقاهرة أمثلة كثيرة من المصاحف المخطوطة بمعظم الأشكال المذكورة من القلم الكوفي الخالي من الشكل والاعجام الى اتمام الاعجام والشكل وما بينهما .

---

١ – ترتيب الدول ٦٩ .   ٢ – الدميري ١٢٦ ج ١ .

الصِّمَّة شيخ كبير ؛ ليس فيه شيء إلا التيمّن برأيه ومعرفته بالحرْب ، وكان شيخًا كبيراً مجرّبًا ؛ وفى ثقيف سيّدان لهم فى الأحْلاف : قارب بن الأسود ابن مسعود ، وفى بنى مالك ذو الخِمار سُبيْع بن الحارث وأخوه الأحمر بن الحارث فى بنى هلال ، وجِماع أمرِ الناس إلى مالك بن عوف النصرىّ .

فلمّا أجمعَ مالك المسيرَ إلى رسولِ الله صلى الله عليه وسلم حطّ مع الناس ١٦٥٦/١ أموالهم ونساءهم وأبناءهم؛ فلمّا نزل بأوْطاس ، اجتمع إليه الناس؛ وفيهم دُرَيد بن الصمّة فى شِجَار[١] له يُقَادُ به ؛ فلما نزَل قال : بأىّ وادٍ أنتم ؟ قالوا : بأوْطاس ، قال : نعم مجالُ الخيل ! لا حَزْن ضَرِس[٢] ، ولا سَهْلٌ دِهس[٣] ؛ مالى أسمع رُغاء البعير ، ونُهاق الحمير ، ويُعار الشاء[٤] ، وبكاء الصغير ! قالوا : ساقَ مالك بن عوف مع الناس أبناءهم ونساءهم وأموالَهم ، فقال : أين مالك ؟ فقيل : هذا مالك ، فدُعِى له ، فقال : يا مالك ، إنّك قد أصبحتَ رئيس قومك ؛ وإنّ هذا يوم كائن له ما بعده من الأيام ؛ مالى أسمع رُغاء البعير ، ونهاق الحمير ، ويعار الشاء ، وبكاء الصغير ! قال : سُقْتُ مع الناس أبناءهم ونساءهم وأموالهم ، قال : ولِمَ ؟ قال : أردتُ أن أجعل خَلْف كلّ رجل أهلَه ومالَه ليقاتل عنهم ؛ قال : فأنقضَ به[٥] ثم قال : راعى ضأن[٦] والله ! هل يردّ المنهزمَ شىء ! إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجلٌ بسيفه ورمحه ، وإن كانت عليك فُضِحتَ فى أهلك ومالك . ما فعلت كعب وكلاب ؟ قالوا : لم يشهد منهم أحد ، قال : غاب الجِدُّ والحدُّ ؛ لو كان يوم علاءٍ ورفعة لم تَغِب عنه كعب وكلاب ؛ ولوَددت أنكم فعلتم ما فعلتْ كعب وكلاب ؛ فمن شهدها منكم ؟ قالوا : عمرو بن عامر وعوف بن عامر ؛ قال : ذانك الجَذَعان[٧] من بنى عامر ! لا ينفعان ولا

---

(١) الشجار : شبه الهودج ؛ إلا أنه مكشوف الأعلى .

(٢) الحزن : المرتفع من الأرض ، والضرس : الذى فيه حجارة محددة .

(٣) الدهس : اللين الكثير التراب .

(٤) الأغانى : « ثغاء الشاء » .

(٥) أنقض به ، أى زجره .

(٦) فى الأغانى : « أى أحمق » .

(٧) الجذع : الشاب الحدث .

ناهيك بمن كان هناك من اهـل الأديان الأخرى كالصابئة والمجوس وغيرهم ، وكان بعضهم من ذوي المقامات الرفيعة ، فكان المسلمون يسألونهم أيضا وهم يجيبونهم مما عندهم. واشهرهم وهب بن منبه فانه فارسي الأصل ، جاء جده الى اليمن في جملة من بعثهم كسرى لنجدة اليمن على الحبشة ، فأقاموا هناك وتناسلوا وصاروا يعرفون بين العرب بالأبناء اي ابنـاء الفرس ، ومنهم أيضاً طاوس بن كيسان التابعي الشهير .

وكان آباء وهب المذكور على دين الفرس (المجوسية او الزردشتية) فلمـا اقاموا بين اليهود باليمن اخذوا عنهم آداب اليهود وتقاليدهم ، واختلطوا بالحبشة هناك فتعلموا شيئاً من النصرانية ، وكان وهب يعرف اليونانية [١] فـاطلع على آداب اليونان وغيرهم ، فنشأ وهو ذو اطلاع واسع في اخبار الأمم واحوال الأنبياء وقيام الدنيـا وسير الملوك ، ومن اقواله انه قرأ من كتب الله ٧٢ كتاباً ، فكان للعرب ثقة كبرى فيه ولم يسألوه عـن شيء الا افاض في الجواب عليه مما يحفظه .

فكانت كتب التفسير في القرون الأولى محشوة بالأخبار ، وفيها الغث والسمين مما نقل اليها من الاديان الاخرى التي كانت شائعة قبلها في جزيرة العرب او حولهـا . كما اصاب النصرانية عند اول ظهورها ، اذ دخلها كثير من عادات الامم الوثنية ومعتقداتهم وتقاليدهم ، مع سهر الآباء الأولين على تخليصها من ذلك .

فلما نشأت العلوم اللسانية واشتغل المسلمون بها واطلعوا على كتب المنطق والفلسفة ، تعودت عقولهم على طلب الدليل والقياس ، فأعادوا النظر في تلك التفـاسير ونظروا في مروياتها ومحصوها وسبروها بمسبار العقل . واشهر من فعل ذلك منهم ابن عطية والقرطبي وجار الله الزمخشري صاحب الكشاف وغيرهم .

وكتب التفسير كثيرة جداً ، ذكر منها صاحب كشف الظنون نيفاً وثلثمائة تفسير ، وقال انه ذكر بعضها وكانت اكثر من ذلك كثيراً [٢] .

الحديث

لما اشتغل المسلمون في تفهم معاني القرآن كان في جملة ما افتقروا اليه في تفهمها اقوال

---

١ – المسعودي ١٩٠ – ٢ . ٢ – كشف الظنون ٣٠٢ ج ١ .

النبي (صلعم)وهو ما عبروا عنه بالاحاديث النبوية،واقدم من سمعها الصحابة وحفظوها، فكانوا اذا اشكل عليهم فهم آية واختلفوا في تفسيرها او حكم من احكامها استعانوا بتلك الاحاديث على استيضاحها . فلما كانت الفتوح تفرق الصحابة في الارض ، وعند كل منهم بعض الاحاديث ، وقد يتفرد بعضهم باحاديث لم يسمعها سواه ، فأصبح طالب الحديث ، اذا كان من أهل دمشق مثلاً لا يستوفيه إلا اذا رحل في طلبه الى مكة والمدينة والبصرة والكوفة والري ومصر وغيرها ، وكذلك المقيم في احد هذه البلاد فانه لا يستطيع استيفاء الحديث ما لم يطلبه من البلاد الاخرى ، وهذا ما يعبرون عنه بالرحلة في طلب العلم . على ان الارتحال في طلب العلم لم يكن من مستحدثات الاسلام ، ولكنه كان شائعاً من قديم الزمان بالنظر الى قلة اسباب النشر وقلة نسخ الكتب وصعوبة وصولها الى النواحي في تلك العصور ، ثم حرص الناس على السماع من الشيوخ مباشرة . فكان المؤرخ او الجغرافي مثلاً يرحل في طلب التاريخ او الجغرافيا الى اقاصي البلاد، كما فعل هيرودوتس واسترابون وغيرهما . ولذلك كان المسلمون يرحلون في طلب العلوم غير الحديث ايضاً . وكان النصارى في العصر الاسلامي يرحلون الى بلاد الروم لاتقان ديانتهم[١] .

وضع الاحاديث

نشأت الفتنة بعد مقتل الخليفة عثمان ، واختلف المسلمون في الخلافة وادعاها غير واحد ، فانصرفت عناية كل حزب من احزابهم الى استنباط الادلة واستخراج الأحاديث المؤيدة لدعواهم ، فكان بعضهم اذا اعوزهم حديث يؤيدون به قولا او يقيمون به حجة اختلقوا حديثاً من عند انفسهم. وتكاثر ذلك في أثناء تلك الفوضى، فكان المهلب بن أبي صفرة مثلاً يضع الاحاديث ليشد بها أمر المسلمين ويضعف أمر الخوارج[٢] وهو مع ذلك معدود من الاتقياء والنبلاء ، مع علمهم بما كان يضعه من الاحاديث ، لانهم كانوا يعدون ذلك خدعة في الحرب . وامثال المهلب كثيرون ، كانوا يضعون الحديث لاغراض مختلفة .

وتسابق الناس خصوصاً الى وضع الاحاديث في اثناء البحث في شروط الخلافة، نظراً لما رأوه من تأثير الحديث فيها من اول عهدها. اذ مات النبي وانقسم اصحابه في طلب الخلافة الى قسمين : المهاجرين والانصار ، وكل منهما يعتقد الاحقية في الخلافة لحزبه ، واشتد عزم الانصار على الثبات في المطالبة ، وعظمت الفوضى حتى روى ابو بكر الحديث « الائمة من

---

١ – طبقات الاطباء ١٧٥ ج ٢ . ٢ – ابن خلكان ١٤٦ ج ٢ .

قريش »[١] فكان في ذلك فصل الخطاب. فقس على ذلك حاجة اصحاب الفرق والاحزاب وغيرهم الى الاحاديث ، ناهيك بحاجتهم اليها في اثبات الاحكام الشرعية الخاصة بالبلاد المفتوحة واهلها وغير ذلك كأوصاف المهدي المنتظر وشروط ظهوره ووضع الاحكام والقوانين ، وفي كل باب من ابواب الادارة والقضاء . ولما اراد المأمون تحليل زواج المتعة لم يرجعه عن عزمه إلا حديث رووه له في تحريمه[٢] .

فلا غرو بعد ذلك اذا رغب اهل المطامع في اختلاق الاحاديث ، وقد ذكروا من واضعي الحديث جماعة اشهرهم اربعة ، وهم : ابن ابي يحيى في المدينة ، والواقدي في بغداد ، ومقاتل بن سليمان بخراسان ، ومحمد بن سعيد بالشام[٣] . وكثيراً ما كان اولئك الوضاع يعترفون عند مسيس الحاجة بما اقترفوه ، كما فعل ابن أبي العوجاء ، وكان محدثا في الكوفة فأمر اميرها محمد بن سليمان بقتله سنة ١٥٣ هـ فلما ايقن انه مقتول قال : « والله لقد وضعت اربعة آلاف حديث حللت بها الحرام وحرمت الحلال .. والله لقد فطرتكم يوم صومكم وصومتكم يوم فطركم »[٤] . ومنهم احمد الجويباري وابن عكاشة الكرماني وابن تميم الفريابي ، فقد ذكر سهل بن السري انهم وضعوا من عند انفسهم نحو عشرة آلاف حديث[٥] ولنحو هذا السبب نشأت الفروق بين احاديث السنة والشيعة .

فلما هدأت الفتنة وعمد المسلمون الى التحقيق ، كانت تلك الموضوعات قد تكاثرت ، فاشتغلوا في التفريق بينها وبين الصحيح ، فألفوا كتباً كثيرة في الحديث ، وميزوا صحيحه من فاسده وجعلوه مراتب . ولهم في ذلك الفاظ اصطلحوا عليها لهذه المراتب كقولهم : الصحيح ، والحسن ، والضعيف ، والمرسل ، والمنقطع ، والمعضل ، والشاذ ، والغريب ، وغير ذلك من القابه المتداولة بينهم . وبينوا كيف يأخذ الرواة بعضهم عن بعض ، بقراءة او كتابة او مناولة او اجازة وتفاوت رتبها[٦] .

اسناد الحديث

وترتب على اهمية الحديث في الدين والدنيا تعرضه للوضع والتحريف كما رأيت ، فاحتاج الى العناية في تحقيقه ، ولم يكن ذلك ميسوراً في العصور الاولى الا بالحفظ ، والرجوع

---

١ – الشهرستاني ١٢ ج ١ .   ٢ – ابن خلكان ٢١٨ ج ٢ .
٣ – ابن خلكان ٢١٣ ج ٢ .   ٤ – ابن الاثير ٣ ج ٦ .
٥ – تحذير المسلمين ٤ .   ٦ – ابن خلدون ٣٦٨ ج ١ .

بالمحفوظ الى المصدر الاصلي الذي اخذ عنه بالتسلسل وهو « الاسناد » ، كأن يقال : « حدثنا فلان ، او اخبرنا فلان ، او املى علي فلان ما هو كذا وكذا » . فلما بعدت الرواية جعلوها متسلسلة فقالوا : « حدثنا فلان عن فلان انه سمع فلاناً يقول كذا وكذا » . وترتب على تصحيح ذلك وضبطه النظر في طبقات المحدثين للتفريق بين الثقات وغيرهم ، فجعلوهم طبقات : ومنهم الصحابة ، فالتابعون ، فتابعو التابعين ، فالعلماء البالغون الى رتبة الاجتهاد ، فالمشتغلون في جمع الاحاديث وحفظها ، فالناقدون للأحاديث ، فالشارحون وغيرهم [1] والفوا كتباً كثيرةً في طبقات المحدثين والرواة .

وكان اهل الامصار يختلفون في طرق اسنادهم ، فطريقة اهل الحجاز اعلى مما لسواهم وامتن في الصحة ، لاستبدادهم في شروط النقل من العدالة والضبط . وسند طريقة الحجاز بعد الصحابة الامام مالك عالم المدينة المتوفي سنة ١٧٩ هـ ثم اصحابه مثل الشافعي وابن حنبل وامثالهم . ومالك اول من دون الحديث في كتاب الموطأ ، رتبه على ابواب الفقه ، وقيل ان ابن جريج اول من الف فيه . ثم عني الحفاظ في طرق الاحاديث واسانيدها ، وجاء محمد بن اسماعيل البخاري إمام المحدثين في عصره فخرج احاديث السنة على ابوابها والف كتابه « الصحيح » ، ثم الف مسلم بن الحجاج النيسابوري « المسند الصحيح » فسمي كتاباهما الصحيحين وصار مرجع الناس اليهما . ثم جاءت طبقة اخرى من المحدثين جمعوا بين هذين او بينهما وبين الموطأ ، فاجتمع من ذلك الكتب الستة المشهورة للمؤلفين الآتية اسماؤهم : وهم البخاري المتوفي سنة ٢٥٦ هـ ٨٧٠ م ، ومسلم المتوفي بنيسابور سنة ٢٦١ هـ — ٨٧٥ م ، وابو داود المتوفي بالبصرة سنة ٢٧٥ هـ — ٨٨٨ م ، والترمذي المتوفي بترمذ سنة ٢٧٩ هـ ٨٩٢ م ، والنسائي توفي سنة ٣٠٣ هـ — ٩١٥ م ، والدار قطني المتوفي ببغداد سنة ٣٨٥ هـ — ٩٩٥ م [2] .

ولما صار الحديث علماً مدوناً انصرفت العناية الى الاسناد المتسلسل في تحقيق السماع ، اي تعلم تلك الكتب او بعضها ، كأن يقول احدهم : سمعت الحديث (اي تعلمته) من فلان وهو تعلمه من فلان الى البخاري او غيره . وهاك تسلسل اسناد ابن خلكان في كيفية سماعه صحيح البخاري ، قال : « سمعت صحيح البخاري بمدينة اربل في بعض شهور سنة احدى وعشرين وستمائة ، على الشيخ الصالح ابي جعفر محمد بن هبة الله بن المكرم بن عبد الله الصوفي ، بحق سماعه في المدرسة النظامية ببغداد ، من الشيخ ابي الوقت المذكور

---

١ — ابجد العلوم ٨٦ . ٢ — الدميري ٥٢ ج ١ .

في شهر ربيع الاول سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة ، بحق سماعه من ابي الحسن عبد الرحمن ابن محمد بن مظفر الداودي في ذي القعدة سنة خمس وستين واربعمائة ، بحق سماعه من ابي محمد عبد الله بن احمد بن حمويه السرخسي في صفر سنة احدى وثمانين وثلثمائة ، بحق سماعه من ابي عبد الله محمد بن ابي يوسف بن مطر الفربري سنة ست عشرة وثلثمائة ، بحق سماعه من مؤلفه الحافظ ابي عبدالله محمد بن اسماعيل البخاري ، مرتين : احداهما سنة ثمان واربعين ومائتين ، والثانية سنة اثنتين وخمسين ومائتين . رحمهم الله تعالى اجمعين »[١] .

وتطرق المسلمون في طريقة الاسناد من الحديث الى غيره من العلوم النقلية كالتاريخ والادب كما هو مشهور ، وتتبعوا طريقة الاسناد المتسلسل في كثير من العلوم الاسلامية ، مما لم يسبق له مثيل في البلاد الاخرى او الامم الاخرى . فهم اذا ذكروا عالماً في علم فيها ، اسندوا تعلمه الى استاذه واستاذ استاذه الى واضع ذلك العلم ، كقول ابن خلكان في ترجمة فخر الدين بن الخطيب : انه اشتغل في الاصول على والده ضياء الدين ، ووالده على القاسم سليمان بن ناصر الانصاري ، وهو على امام الحرمين ابي المعالي، وهو على الاستاذ ابي اسحق الاسفرايني ، وهو على الشيخ ابي الحسن الباهلي ، وهو على شيخ السنة ابي الحسن الاشعري ، وهو على ابي علي الجبائي اولا ثم رجع عن مذهبه ونصر مذهب اهل السنة والجماعة .

عدد الاحاديث

لما تكاثرت الاحاديث للاسباب التي قدمناها اصبحت تعد بمئات الالوف . فقد ذكروا ان احمد بن حنبل روى مليون حديث ، منها ١٥٠٠٠٠ بالاسانيد والمتون[٢] وان يحيى ابن معين المري قال : كتبت ٦٠٠٠٠٠ حديث ، قال راوي هذا الخبر : واظن المحدثين كتبوا له بأيديهم ٦٠٠٠٠٠ و ٦٠٠٠٠٠ وخلف من الكتب مائة قمطر[٣] وان مسلما صاحب المسند الصحيح استخرجه من ٣٠٠٠٠٠ حديث مسموعة[٤] وان الامام البخاري قال : صنفت كتابي الصحيح من ٦٠٠٠٠٠ حديث[٥] وقس على ذلك مما يدل على كثرة فاحشة . اما الذي صح منها فانه اقل كثيراً ، وبعضهم بالغ في الاقلال ، وهم اصحاب

١ – ابن خلكان ٣٠٦ ج ١ .
٢ – ابن الساعي ٦٦ .
٣ – ابن خلكان ٢١٥ ج ٢ .
٤ – ابن خلكان ٩١ ج ١ .
٥ – ابن خلكان ٤٥٦ ج ١ .

الرأي ، وشيخهم ابو حنيفة فلم يصح عنده إلا ١٧ حديثاً ، ومالك صح عنده ٣٠٠ حديث ، والبخاري اشتمل صحيحه على ٩٢٠٠ حديث منها ٣٠٠٠ مكررة ، واحمد بن حنبل في مسنده ٥٠٫٠٠٠ حديث[1] وقس على ذلك .

الفقه

مصدره

لما صار الاسلام دولة احتاج امرؤه الى ما يقضون به بين رعاياهم في احوالهم الشخصية ومعاملاتهم المدنية ، فرجعوا الى القرآن والحديث . فاستخرجوا منهما شريعة نظموا بها حكومتهم وحكموا بها بين رعاياهم . وذلك طبيعي في الدول الكبرى ، فاليونان قلما عنوا بوضع الشرائع والاحكام الدولية او القضائية ، لانهم لم يكونوا اهل دولة كبرى إلا زمناً قصيراً فانصرفت قرائحهم الى الفلسفة وفروعها . واما الرومان فقد اتسعت مملكتهم كما اتسعت مملكة العرب ، وامتد سلطانهم وقويت شوكتهم فلم يكن لهم بد من وضع الشرائع ، لكنها لم يتم نضجها عندهم إلا بعد تأسيس دولتهم ببضعة عشر قرناً على يد جستنيان صاحب القانون المشهور سنة ٥٣٣ م ، وهي عبارة عن عادات واعتبارات واعتقادات تجمعت بتوالي الاحقاب على الشعب اللاتيني والصابني وغيرهما ممن دانوا لرومية بالتدريج حتى صارت شريعة كاملة على عهد جستنيان المذكور .

واما المسلمون فانهم استخرجوا احكامهم من القرآن والحديث ، وقد علمت ما كان لهم من العناية في حفظهما ودروسهما من اول الاسلام ، ولذلك لم يمض على المسلمين قرنان والثالث حتى نضجت شريعتهم وتكون فقههم ، وهو من افضل شرائع العالم. وقد اسرعوا في ذلك مثل سرعتهم في تأسيس دولتهم ونشر دينهم .

قلنا ان القرآن اساس الفقه الاسلامي ، وكان المسلمون على عهد النبي يتلقون الاحكام منه وهو يبينها لهم شفاها ، فلم يكن ذلك يحتاج الى نظر او قياس . فلما توفي رجع الصحابة الى القرآن والسنة ، فاصبح القراء اول فقهاء الاسلام او حاملي شريعتهم ، وكانوا يرجعون

---

١ — ابن خلدون ٣٦٩ و ٣٧١ ج ١ .

اليهم في الافتاء والاحكام لقلة الذين يقرأون في الصدر الاول . فلما عظمت امصار الاسلام وذهبت الأمية من العرب وكمل الفقه واصبح صناعة ، بدلوا باسم الفقهاء العلماء .

الفقهاء

فاول الفقهاء المسلمين الصحابة الاولون ، واولهم الخلفاء الراشدون ، ثم عبدالرحمن بن عوف وابي بن كعب وعبدالله بن مسعود ومعاذ بن جبل وعمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان وزيد بن ثابت وسلمان الفارسي وابو الدرداء وابو موسى الاشعري [١] ثم انتقلت الفتوى والفقه الى التابعين واشتهر منهم سبعة في المدينة ، وهم : سعيد بن المسيب وابو بكر بن عبدالرحمن وقاسم وعبدالله وعروة وسليمان وخارجة ، وقد جمعهم بعض العلماء في هذين البيتين :

الا كل مــن لا يقتـــدي بأئمـة فقسمته ضيزى عن الحق خارجة
فخذهم : عبيد الله ، عروة ، قاسم ، سعيد، سليمان، أبو بكر، خارجة [٢]

وبعض المؤرخين يحسبهم عشرة مع تبديل بعض الاسماء [٣] وعنهم انتقل الفقه والافتاء في العالم الاسلامي .

وفي اوائل الاسلام كان الفقه والقراءة والتفسير والحديث علمـــاً واحداً ، ثم أخذت هذه العلوم تستقل بعضها عن بعض عملاً بناموس الارتقاء ، فلما استقل الفقه سموا اصحابه الفقهاء كما تقدم ، وكان لهم تأثير كبير في الدولة لما يترتب على الافتاء من الامور الهــامة ، كالعزل والتنصيب والقتل والعفو .

ففي أيام بني أمية كان المرجع في الفقه والافتاء الى اهـــل المدينة ، فكان الخلفاء لا يقطعون امراً دونهم . وقد علمت مما فصلناه في الجزئين الماضيين من هذا الكتاب مـا كان من تعصب بني أمية للعرب واحتقارهم غير العرب من المسلمين وغيرهم ، واهل المدينة مع تحيزهم لاهل البيت وانكار الخلافة على بني أمية كان الامويون يسعون في ارضائهم واكرامهم ، وخصوصاً اهل الورع من الخلفاء كعمر بن عبد العزيز فانه كان لا يقطع أمراً مهماً الا بعد مشورتهم . فلما افضى الامر الى بني العباس ، واراد المنصور تصغير أمر العرب واعظام امر

---

١ — الدميري ٥١ ج ١ . ٢ — ابن خلكان ٩٢ ج ١ .
٣ — ابو الفداء ٢٠٩ ج ١ .

فرس لانهم انصارهم واهل دولتهم ، كان من جملة مساعيه في ذلك تحويل انظار المسلمين بن الحرمين ، فبنى بناء سماه القبة الخضراء حجاً للناس ، وقطع الميرة عن المدينة ، رفقيه لمدينة يومئذ الامام مـــالك الشهير ، فاستفتاه اهلها في أمر المنصور فأفتى لهم بخلع بيعته خلعوها وبايعوا محمد بن عبد الله من آل علي . وعظم أمر محمد هذا وحـاربه المنصور ولم تغلب عليه الا بعد العناء الشديد . فرجع اهل المدينة الى بيعة المنصور قهراً ، وظل مالك ـع ذلك ينكر حق البيعة لبني العباس ، فعـلم امير المؤمنين يومئذ وهو جعفر بن سليمان عم لمنصور بذلك ، فغضب ودعا بمالك وجرده من ثيابه وضربه بالسياط وخلع كتفه (١) .

لرأي والقياس

وكانت علوم القرآن قد انتشرت في العراق وفارس ، ونبـغ من ابنائها من درس الفقه الفتيا ، ولكنهم ما زالوا عيالاً فيها على اهل المدينة ، لانهم اوثق النـاس بحفظ الحديث قراءة القرآن . وكان الحديث قليلاً في العراق على الخصوص . وكان المسلمون غير العرب هناك اكثرهم الفرس ، وهم اهل تمدن وعلم ، فعمدوا الى استخدام القيـــاس العقلي في ستخراج احكام الفقه من القرآن والحديث ، فخالفوا بذلك اهل المدينة لانهم كانوا شديدي لتمسك بالتقليد. فكان من جملة مساعي المنصور في تصغير امر المدينة وفقهائها، وخصوصاً مالك بعد ان افتى بخلع بيعته ، انه نصر فقهاء العراق القائلين بالقيـاس ، وكان كبيرهم يومئذ ابا حنيفة النعمان في الكوفة ، فاستقدمه المنصور الى بغداد واكرمه وعزز مذهبه . وكان ابو حنيفة لا يحب العرب ولا العربية ، حتى انه لم يكن يحسن الاعراب ولا يبالي به (٢) ولذلك كان الربيـع حاجب المنصور يقاومه ، لان الربيـع ينتسب الى العرب وكان يكره لفرس ، وابنه الفضل هو الذي سعى في قتل البرامكة .

فلما نصر المنصور ابا حنيفة واصحابه ، وهم المعروفون بأهل الرأي او القياس ، ازداد مالك تمسكاً برأيه وتبعه فقهاء الحجاز وهم اهل الحديث . وانقسم الفقهـاء الى قسمين : هل الحديث ، واهل الرأي . وزعيم الاول مالك وانصاره من اهل الحجاز ، واصحاب لشافعي واصحاب سفيان الثوري واصحاب احمد بن حنبل وغيرهم من اهـــل التقليد ، وعرفوا بأصحاب الحديث لأن عنايتهم مبذولة في تحصيل الاحاديث ونقل الاخبار وبناء الاحكام على النصوص ، ولا يرجعون الى القياس الجلي او الخفي ما وجدوا خبراً او أثراً .

---

١ ــ ابن خلكان ٤٣٩ ج ١ . ٢ ــ ابن خلكان ١٦٥ ج ٢ .

ويدلك على شدة تمسكهم بذلك قول الشافعي : « اذا وجدتم لي مذهباً ووجدتم خبراً على خلاف مذهبي فاعلموا ان مذهبي ذلك الخبر » .

وزعيم اصحاب الرأي ابو حنيفة النعمان واصحابه فقهاء العراق، ومنهم محمد بن الحسن وابو يوسف القاضي وزفر بن هذيل والحسن بن زياد وابن سماعة وابو مطيع البلخي وعافية القاضي وغيرهم ، وقد سموا اهل الرأي لان عنايتهم اتجهت الى تحصيل وجه القياس والمعنى المستنبط من الاحكام وبناء الاحكام عليها ، وهم يقدمون القياس الجلي على آحاد الأخبار [١] .

وجاء بعد مالك من اصحاب مذهبه محمد بن ادريس المطلبي الشافعي ، فرحل الى العراق وخالط اصحاب ابي حنيفة واخذ عنهم ، ومزج طريقة اهل الحجاز بطريقة اهل العراق واختص بمذهب خالف فيه مالكاً في كثير من مذهبه. ثم جاء بعده احمد بن حنبل وكان من علية المحدثين ، وقرأ اصحابه على اصحاب الامام ابي حنيفة مع وفور بضاعتهم من الحديث فاختصوا بمذهب آخر . ووقف التقليد في الامصار عند هؤلاء الاربعة ، وتولد منهم مذاهب الاسلام الاربعة وهي : الحنفي ، والمالكي ، والشافعي ، والحنبلي .

وللفقه فروع وشروح يضيق المقام عنها هنا ، فنترك الكلام فيها وفي غيرها من فروع العلم الى تاريخ آداب اللغة العربية .

منزلة العلماء عند الخلفاء

يراد بالعلماء ، في عرض الكلام عن العلوم الاسلامية ، علماء الحديث والقرآن والفقه. وقد علمت ما كان من منزلة هذه العلوم في الخلافة ، فلا عجب بعد ذلك اذا رأيت الخلفاء يكرمون الفقهاء واصحاب الحديث والزهاد والعلماء ، وقد رأيت ان بني أمية كانوا يستشيرون فقهاء المدينة في الامور الهامة . وكثيراً ما كان اهل التقوى من الخلفاء يسألون العلماء عن شروط العدل ليجروا عليه — كتب عمر بن عبدالعزيز الى الحسن البصري يسأله عن صفة الامام العادل فأجابه جواباً وافياً [٢] فلما وصله الكتاب وقع منه بمواقع وعظه ومحل يقظه » .

---

١ — الشهرستاني ١٦٠ ج ١ .   ٢ — العقد الفريد للملك السعيد ٥٣ .

وقد يحمل ذلك على مبالغة هذا الخليفة (يريد عمر بن عبد العزيز) في التقوى والورع فما قولك بالمنصور المشهور بالشدة والحزم والدهاء، اذ دخل عليه عمرو بن عبيد بعد مبايعة المهدي فقال له المنصور : « يا ابا عثمان ، هذا ابن امير المؤمنين وولي عهد المسلمين » فقال عمرو : « أراك قد وطدت له الامور وهي تصير اليه وانت عنه مسئول »فاستعبر المنصور وقال « عظني يا عمرو » فوعظه[١] ولما مات عمرو رثاه المنصور بأبيات[٢] . ناهيك بحكاية المنصور وهو يطوف بالكعبة ليلاً اذ سمع ذلك العابد يشكو ظهور البغي والفساد ، ولما سأله المنصور عمن يعني صرح له انه يعنيه هو وحكومته ووعظه عظة شديدة لم يستنكف المنصور من سماعها[٣] وقس على ذلك عظات الاوزاعي وابن السماع وسفيان الثوري وشبيب بن شيبة للمنصور والمهدي والرشيد (راجع كتاب الثوري للرشيد في الجزء الثاني من هذا الكتاب). وكثيراً ما كان الواعظ يبكي الخلفاء لأنهم كانوا يجلون العلماء ويكرمونهم حتى تسابقوا الى احترامهم بما لا يصدر إلا من خادم الى مولاه ، فقد صب الرشيد الماء على يدي ابي معاوية الضرير وهو يغسل[٤] .

وكان الاكرام في اول الأمر للفقهاء والمحدثين خاصة ، ثم اطلق على اصحاب سائر العلوم الاسلامية كالنحاة واللغويين ، فقد كان الرشيد يجلس الكسائي ومحمد بن الحسن على كرسيين ويأمرهما الا ينزعجا لنهضته[٥] ولما مات هذان في الري في يوم واحد قال الرشيد : « دفنت الفقه والعربية في الري »[٦] . وقد تنازع الامين والمأمون ولدا الرشيد في حمل نعال استاذهما الفراء وتقديمها اليه ، حتى اصطلحا على ان يقدم كل منهما واحدة[٧] .

واكرام الخلفاء للعلماء اقتضى اكرام العامة لهم ، فلما توفي ابن حنبل مشى في جنازته ٨٠٠,٠٠٠ رجل و٦٠,٠٠٠ امرأة[٨] وناهيك بهذا الاكرام . ولما سار ابو اسحق الشيرازي من قبل الخليفة المقتدر الى السلطان ملك شاه تنافس اهل البلاد في لقائه والتمسح بأطرافه والتماس البركة من ملبوسه ومركوبه[٩] .

---

١ – المسعودي ١٧٣ ج ٢ .
٢ – ابن خلكان ٣٨٥ ج ١ .
٣ – العقد الفريد ٢٨٧ ج ١ .
٤ – الفخري ١٧٥ .
٥ – المزهر ٢١١ ج ٢ .
٦ – ابن خلكان ٤٥٤ ج ١ .
٧ – طبقات الأدباء ١٣٠ .
٨ – ابن خلكان ١٧ ج ١ .
٩ – ابن خلدون ٤٧٤ ج ٣ .

٢ ـ العلوم اللسانية

النحو

النحو بمعناه الحقيقي طبيعي على لسان كل متكلم يتلقنه من مرضعه . لأن الانسان يتعلم النحو وهو يتعلم النطق اذ بدونه لا يحسن التعبير عن افكاره ، اما اذا اراد ان يتعلم لساناً غير لسانه فدرس قواعد النحو يسهل عليه تناوله . ولذلك فالامة قد تقضي قروناً متطاولة وهي تتكلم وتخطب وتنظم الشعر قبل ان تدون قواعد النحو وتجعله علماً فاليونان لم يبدأوا بضبط قواعد لسانهم الا في القرن الخامس قبل الميلاد ، واول من بدأ بذلك منهم بروتغوراس Protogoras المتوفي سنة ٤١١ ق.م. فتكلم في المذكر والمؤنث وبعض الأسماء ، ثم بروديكوس Prodichos وقد عاصره وتكلم في المترادفات ، ثم جاء أرسطو وغيره واتموا علم النحو اليوناني وله تاريخ يشبه تاريخ النحو العربي . وكذلك فعل الرومان في نحو اللغة اللاتينية ، فانهم لم يدونوا قواعده الا في القرن الأول قبل الميلاد في زمن بومبيوس ، وقد دونه عالم اسمه ديونيسيوس تراكس D. Tarrax اقتداء باليونان .

فاليونان نبغ منهم الشعراء والخطباء والأدباء والفلاسفة قبل تدوين قواعد النحو في لسانهم . فنظم هوميروس الياذته وأوديسيته وهو لم يتعلم قواعد النحو فلم يضره ذلك شيئاً ، لأن اللغة كانت ملكة فيه ، وألف أشيلوس Aeschylos الروايات التمثيلية وسحر اليونان ببيانه ،ونبغ الفلاسفة فريسيدس واناكسيمندر وطاليس Tales وكتب هيرودوتس الرحالة تاريخه الشهير قبل وضع النحو . وكذلك الرومان فقد نبغ فيهم جماعة من الشعراء والخطباء والأدباء قبل تدوين النحو .

وضع النحو العربي وواضعه

وهكذا العرب فقد نظموا الشعر والقوا الخطب وتناشدوا وتراسلوا قبل تدوين النحو ، لأن ملكة اللغة كانت طبيعية فيهم . على انهم اضطروا الى ضبط تلك القواعد وتدوينها بأسرع مما اضطر اليه اليونان والرومان ، التماساً للدقة في ضبط معاني القرآن ، فلم يمض على دولتهم نصف قرن حتى شعروا بالحاجة الى النحو . ويغلب على ظننا انهم نسجوا في تبويبه على منوال السريان ، لأن السريان دونوا نحوهم والفوا فيه الكتب في اواسط القرن الخامس للميلاد ، واول من باشر ذلك منهم الأسقف يعقوب الرهاوي الملقب بمفسر الكتب المتوفي

سنة ٤٦٠ م [١] فالظاهر ان العرب لما خالطوا السريان في العراق اطلعوا على آدابهم وفي جملتها النحو فأعجبهم ، فلما اضطروا الى تدوين نحوهم نسجوا على منواله لأن اللغتين شقيقتان. ويؤيد ذلك ان العرب بدأوا بوضع النحو وهم في العراق بين السريان والكلدان، واقسام الكلام في العربية هي نفس اقسامه في السريانية .

امـا استعجال العرب في تدوين النحو فانه تابع لاستعجالهم في الفتح ونشر الدين ، لان الفتوح دعت الى الاختلاط بالأعاجم ، والاختلاط دعا الى فساد اللغة فأصبح الناس يهملون الاعراب. لان العرب كانوا عند ظهور الاسلام يعربون كلامهم على نحو ما في القرآن، الا من خالطهم من الموالي والمتعربين فان هؤلاء كانوا حتى في ايام النبي (صلعم) يخطئون الاعراب ، وقد ذكروا رجلاً لحن بحضرة النبي فقال : « ارشدوا اخاكم فقد ضل » . وقال ابو بكر : « لأن أقرأ فأسقط أحب إلي من أن أقرأ فألحن » [٢] . ولكن اللحن لم يكثر الا بعد الفتوح وانتشار العرب في الآفاق ، فتذمر العمال مما كانوا يسمعونه من اللحن وخصوصاً في قراءة القرآن ، فأحسوا بحاجة شديدة الى ضبط قواعد اللغة .

اما واضع علم النحو او مدونه فهو بالاجماع ابو الأسود الدؤلي المتوفي سنة ٦٩ هـ وكان من سادات التابعين ، صحب علي بن أبي طالب وشهد معه واقعة صفين ، ثم اقام في البصرة وكأنه تعلم لغة السريان او اطلع على نحوها فرغب في النسج على منواله ، فعرض ذلك على والي العراقين يومئذ زياد ابن أبيه فأبى [٣] لأسباب تقدم بيانها . حتى اذا جاءه رجل يشكو اليه أمراً فسمعه يقول : « أصلح الله الأمير ، توفي أبانا وخلف لنا بنون » فاستنكف زياد من سماع ذلك اللحن فبعث الى أبي الأسود ان يضع ما كان قد نهاه عنه .

وقيل بل السبب في وضعه ان بنت خويلد الأسدي دخلت على معاوية وقالت : « ان أبوي ماتا وتركا لي مالاً » (بالامالة) وبلغ ذلك علياً فرسم لأبي الأسود باب « ان » وباب الاضافة وباب الامالة . ثم سمع أبو الأسود رجلاً يقرأ : « ان الله بريء من المشركين ورسوله » بخفض رسوله ، فصنف باب العطف والنعت . ثم ان بنته قالت له يوماً : « يا ابت ما احسن السماء » على طريق الاستفهام ، فقال « نجومها » . فقالت : « انما اتعجب من حسنها » . فقال : « قولي : ما احسن السماء . . افتحي فاك » . وقالت له يوماً :

١ ـ شعراء السريان للقرداحي ١٨ .
٢ ـ المزهر ١٩٩ ج ٢ .
٣ ـ ابن خلكان ٢٤٠ ج ١ .

« ما اشد الحر » على لفظ الاستفهام على نحو ما جرى في الجملة الماضية ، فصنف بـــاب التعجب [١] .

واختلف المؤرخون في هذه الروايات وذكروا غيرها ولكن الفحوى واحـد ، فهم مجمعون على أن أبا الاسود وضع النحو لمثل الاسباب التي قدمناها ، وهو يقول انه تلقى ذلك عن علي بن ابي طالب . فوضع علم النحو او الشروع فيه على الاقـــل ثابت لأبي الاسود ، ويؤيد ذلك ما ذكره ابن النديم صاحب الفهرست مما شاهده بعينه في عرض كلامـه في خزانة كتب اطلعه عليها احد جماعي الكتب ، فكان في جملة ما فيها قمطر كبير فيه نحو ٣٠٠ رطل جلود فلجان وصكاك وقرطاس مصري وورق صيني وورق تهامي وجلود أدم وورق خراساني ، وبينها اربعة اوراق قال : « احسبها من ورق الصين ، ترجمتها : هذه فيها كلام في الفاعل والمفعول من ابي الاسود رحمة الله عليه بخط يحيى بن يعمر . وتحت هذا الخط بخط عتيق : هذا خط علان النحوي ، وتحته : هذا خط النضر بن شميل . ثم لما مات هذا الرجل فقدنا القمطر »[٢] .

على ان ما وضعه ابو الاسود من القواعـــد لم يكن ليسد الحاجة المستعجلة لضبط القراءة ، فعمد الى ضبطها بعلامات يتميز بها المنصوب من المرفوع ، او الفعل من الاسم ، فوضع علامات كانت عند السريان يدلون بها على الرفع والنصب والجر ، او يميزون بهـا الفعل من الاسم ، كما تقدم في كلامنا عن تاريخ الخط العربي .

فالعرب كانوا يعرفون الاعراب قبل علم النحو ، كما كانوا يحسنون النظم قبل عـــلم العروض ، وكان ذلك ملكة طبيعية فيهم حتى اختلطوا بالاعاجم واسلم هؤلاء وليس فيهم ملكة اللغة ليفهموا القرآن ، فاضطروا الى ضبطها وكانوا اكثر المسلمين اشتغالا في ذلك . بدأ بعلم النحو ابو الاسود وأتمه من جاء بعده من اهل البصرة والكوفة . واول من اخذ عنه عنبسة بن معدان المهري ، واخذ عن هذا ميمون الأقرن ، واخـــذ عنه عبدالله الحضرمي ، واخذ عنه عيسى بن عمر ، واخذ عنه الخليل بن احمد امـام علم العروض واللغة ، ومنه اخذ سيبويه امام علم النحو[٣] فتنوقـل النحو في هؤلاء من الواحد الى الآخر ، وهو ينمو ويرتقي عملا بناموس الارتقاء ، والفوا فيه الكتب لكنه نضج في ايام سيبويه (توفي سنة ١٨٠ هـ) فألف فيه كتابه الشهير ، واصبح كل من الف في النحو عيالا

---

١ – مفتاح السعادة (خط) .
٢ – الفهرست ٤٠ .
٣ – ابن خلكان ٣٠٨ ج ٢ .

عليه وعلى كتاب العين الآتي ذكره.وكانوا اذا قالوا : « الكتاب » ارادوا كتاب سيبويه، كان الناس يتهادونه كأفخر التحف .

الأدب واللغة

لما أخذ المسلمون في تفسير القرآن احتاجوا الى ضبط معـــاني الفاظه وتفهم اساليب عباراته ، فجرهم ذلك الى البحث في أساليب العرب واقوالهم واشعارهم وامثالهم ، ولا يكون ذلك سالماً من العجمة او الفساد الا اذا اخذ عن عرب البادية الذين كانت قريش في الجاهلية تتخير من الفاظهم واساليبهم فعني جماعة كبيرة من المسلمين بالرحلة الى بادية العرب لالتقاط الأشعار والأمثال وسؤال العرب عن معاني الالفـــاظ واساليب التعبير ، وسموا الاشتغال بذلك مع ما يتبعه من صرف ونحو وبلاغة بعلم الأدب .

والقبائل التي نقلوا عنها العربية قيس وتميم وأسد ، وعن هذه القبائل الثلاث اكثر مــا أخذ من اللغة ، وعليها عول الناقلون في الغريب وفي الاعراب والتصريف ، ثم قبيلة هذيل وبعض كنانة وبعض طي ، ولم يؤخذ من غيرهم من سائر القبائل ولا أخذوا شيئاً عن الحضر ولا من البدو الذين كانوا يسكنون البراري المجاورة للأمم الأخرى . فلم يأخذوا من لخم وجذام لمجاورتهما اهل مصر ، ولا من قضاعة وغسان واياد لمجاورتهم اهــل الشام واكثرهم نصارى يقرأون العبرانية والسريانية ، ولا من بكر لمجاورتهم النبط والفرس ، ولا مـــن عبد القيس وأزدعمان لانهم كانوا في البحرين يخـالطون الهند والفرس ، ولا من اهل اليمن لمخالطتهم الهند والحبشة ، ولا من بني حنيفة وسكان اليمامة ولا من ثقيف واهــل الطائف لمخالطتهم تجار اليمن ، ولا من حاضرة الحجاز لان الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدأوا ينقلون لغة العرب وقد خالطوا غيرهم من الامم وفسدت السنتهم . والذين نقلوا اللغـــة وأساليبها عن القبائل المذكورة وأثبتوها في الكتب وصيروها علـــماً هم اهل البصرة والكوفة فقط [1] وكان اكثر المشتغلين في جمع اللغة وآدابها العجم لحاجتهم الى ذلك اكثر من العرب .

---

١ – المزهر ١٠٥ ج ١ .

علماء الأدب بالبصرة والكوفة

ومن اقدم المشتغلين في جمع اللغة والادب واوسعهم حفظاً وروَاية أبو عمرو بن العلاء التميمي المتوفي بالكوفة سنة ١٥٤ هـ وهو من مواليد مكة ، وكانت كتبه عن العرب الفصحاء تملأ بيته الى قريب السقف [١] وقال مع ذلك : « ما انتهى اليكم مما قالت العرب الا أقله ، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير » .

ونبغ في العراق جماعة كبيرة من طلاب الادب واللغة في القرن الثاني للهجرة ، اشهرهم اربعة في عصر واحد وهم : أبو زيد ، وأبو عبيدة ، والأصمعي ، والخليل . وكان العلم كله عندهم ، والثلاثة الاول اخذوا عن أبي عمرو المذكور اللغة والنحو والشعر والقراءة [٢] .

فأبو زيد كان من الانصار توفي سنة ٢١٤ هـ وهو من رواة الحديث ثقة في اللغة واخذ عنه سيبويه . وأبو عبيدة كان اعلم الجميع بأيام العرب واخبارهم واجمعهم لعلومهم ، ومن اقواله : « ما التقى فرسان في جاهلية او اسلام الا عرفتها وعرفت فارسيها » توفي سنة ٢٠٩ هـ ، والاصمعي غلبت عليه اللغة وحفظ الشعر ونقده ، توفي سنة ٢١٣ هـ .

واما الخليل بن احمد المتوفي سنة ١٧٠ فانه اسبقهم جميعاً وقد لقبوه بسيد علم الادب ، لانه اول من دون اللغة على حروف المعجم في كتابه المشهور بكتاب العين ، سماه بذلك لانه رتبه على الحروف باعتبار مخارجها : من الحلق ، فاللسان ، فالاسنان ، فالشفتين . وبدأ بحرف العين ، وهاك ترتيبه : ع ح هـ خ غ ق ك ج ش ص ض س ر ط د ت ظ ذ ث ز ل ن ف م و ا ي . فكأن الخليل حذا بذلك حذو الهنود في ترتيب حروف لغتهم السنسكريتية ، فانهم يبدأون بأحرف الحلق حتى ينتهوا الى الاحرف الشفوية [٣]

وكان من عادات العرب ان يسموا الكتاب بأول لفظ من الفاظه ، ككتاب الجيم للهروي وهو كتاب رتبه على حروف المعجم بدأ به بحرف الجيم[٤] وكتاب الجيم لابي عمرو الشيباني[٥] ومن هذا القبيل كتاب الغين في الحروف ، وكتاب الميم ونحوهما . ويستفاد من

---

١ – ابن خلكان ٣٨٦ ج ١ . ٢ – المزهر ٢٠٢ ج ٢ .
٣ – William's Sanskrit Grammar, 15
٤ – طبقات الأدباء ٢٦٠ . ٥ – ابن خلكان ٦٥ ج ١ .

ملاحظة ترتيب الحروف في كتـاب العين ان الجيم كانوا يتلفظون بها كالكاف الفارسية ، وان كثيراً من الأحرف تختلف عما تنطق به الآن .

وكان الحفاظ والرواة يدققون فيما يأخذونه عن العرب من شعر او مثل او غير ذلك ، وما يسمعونه من معانيها ، لأن عليها يتوقف تفسير القرآن . فانهم اتبعوا في نقل اللغـة طريقة الاسناد المتسلسل ، كما كانوا يفعلون في رواية الحديث ، وعني الناس بحفظها مثل عنايتهم بحفظه ، لاعتبارهم ان ناقل اللغة يجب ان يكون عدلا كما يشترط في ناقل الحديث ، لأنها واسطة تفسيره وتأويله . على انهم لم يستطيعوا ذلك تماماً .

وازدهرت علوم الادب في القرن الثاني وبعض الثالث الهجريين في البصرة والكوفة ، ونبغ فيهما النحاة والرواة والحفاظ والادباء والشعراء . والبصرة متقدمة في ذلك ، واهل الكوفة يأخذون عن اهل البصرة ، وهؤلاء يستنكفون ان يأخذوا عن اهل الكوفـة لاعتقادهم انهم غير محققين . ولم يعلم ان احداً من البصريين اخذ عن اهل الكوفة إلا ابو زيد الانصاري[1] على ان الشعر كان في الكوفة اكثر واجمع منه في البصرة ، ولكن كثيراً منه مصنوع . واشهر علماء الكوفة الكسائي[2] المتوفي سنة ١٨٢ ﻫ يليه في النحو تلميذه الفراء المتوفي سنة ٢٠٧ ﻫ وعلي الاحمر اللحياني وغيره ، كما اشتهر في البصرة سيبويه ومن ذكرناهم من النحاة واهل الادب .

علماء الادب في بغداد

وما زال هذان المصران مصدر العلوم الاسلامية حتى بنيت بغداد وانتقل العلم اليها ، وغلب ورود اهل الكوفة الى بغداد لقربهم منهـا . وكان العباسيون يكرمونهم لأنهم نصروهم لما قاموا لطلب الخلافة ، فقدمهم الخلفاء على اهـل البصرة واستقدموهم اليهم ووسعوا لهم ، ورغب الناس في الروايات الشاذة وتفاخروا بالنوادر ، وتباهوا بالترخيصات وتركوا الاصول واعتمدوا على الفروع . واشتهر منهم في عصر الفراء عبـدالله بن سعيد الاموي ، وابو الحسن الاخفش الكوفي ، وابو عكرمة الضبي ، وابو عمرو الشيباني وغيرهم .

وآل الأمر بعد نضج علم الادب في العصر العباسي الى اربعة هم اركانه واعمدتـه ،

---

١ ـ طبقات الأدباء ١٧٥ .   ٢ ـ المزهر ٢٠٦ .

دونوا عملهم في كتب شهيرة هي: (١) كتاب ادب الكاتب لابن قتيبة (٢) كتاب الكامل للمبرد (٣) البيان والتبيين للجاحظ (٤) كتاب النوادر للقالي . وهذه الكتب هي مصادر علم الأدب عند العرب الى الآن ، واكثر ما الف بعدها نقل عنها [١] .

ولما قدم العباسيون اهل الكوفة ارتقوا في عين انفسهم وارادوا مسابقة اهل البصرة ومفاخرتهم ، فقامت المجادلات بين البلدين في مسائل كثيرة في النحو والأدب واللغة ، اشهرها مسألة الزنبور والنحلة التي انتشبت نارها بين سيبويه من البصرة والكسائي من الكوفة. وكان الكسائي يعلم الأمين ابن الرشيد،فكان الامين ينصره كأن على انتصار أحد النحويين يتوقف انتصار بلده جميعاً . ولا بأس من ايراد خلاصة المسألة ليظهر مقدار اهتمام الخلفاء بالمسائل العلمية . وذلك ان الكسائي كان مقيماً في بغداد يعلم الأمين ، واتفق ان سيبويه قدم اليها من البصرة ، فجمع الامين بينهما في مجلس فتناظرا في امور كثيرة من جملتها مسألة الزنبور . فذكر الكسائي من امثال العرب مثلاً رواه على هذه الصورة : « كنت اظن الزنبور اشد لسعاً من النحلة فاذا هو إياها » فقال سيبويه : « ليس المثل كذلك ، بل : فاذا هو هي » وتحاورا طويلاً ، واتفقا على مراجعة عربي خالص لا يشوب كلامه شيء من كلام اهل الحضر . وكان الأمين شديد العناية بالكسائي لكونه معلمه فاستدعى عربياً وسأله، فقال كما قال سيبويه،فقال له : « نريد ان تقول كما قال الكسائي» فقال : « لساني لا يطاوعني على ذلك فانه ما يسبق إلا الى الصواب » فقرروا معه ان شخصاً يقول : « قال سيبويه كذا وقال الكسائي كذا فالصواب مع من منهما ؟ » فيقول العربي : « مع الكسائي » فقال : « هذا يمكن » . ثم عقد لهما المجلس واجتمع ائمة هذا الشأن ، وحضر العربي وقيل له ذلك فقال : « الصواب مع الكسائي وهو كلام العرب » فعلم سيبويه انهم تحاملوا عليه وتعصبوا للكسائي ، فخرج من بغداد وقد حمل في نفسه لما جرى عليه وقصد بلاد فارس .

ويدل ذلك على عناية اهل الدولة بالمسائل الادبية ، وان كانت في الواقع لا تخلو من غرض سياسي . على انهم كانوا يهتمون بالآداب من ايام بني امية ، فقد ذكروا ان عبدالملك ابن مروان كان يعقد المجالس للمذاكرة ، فقال مرة لبعض اهل مسامرته : « ايكم يأتيني بحروف المعجم في بدنه ؟ » اراد ان يعدد اعضاء بدنه فيذكر عضواً اوله حرف الالف ثم

---

١ — ابن خلدون ٤٨٦ ج ١ .

عضواً اوله حرف الباء وهكذا الى الياء ، فقام سويد بن غفلة فعدها ، فقام احد الحاضرين فعدها في جسد الانسان مرتين[١] فأجاز الاثنين .

وكانت علوم اللغة في اول امرها مشتركة مختلطة ، ثم تميزت وتسعبت فصارت علوما عديدة ، كل منها مستقل عن الآخر ، كالنحو والصرف واللغة والمعاني والبيان والاشتقاق والعروض والقوافي واخبار العرب وامثالهم والجدل وغيرها ، وقد يطلقون عليها علم الادب ، ولكل منها تاريخ وشروح هي من شأن تاريخ آداب اللغة .

بلاغة الانشاء

البلاغة في الإنشاء مما اقتضاه القرآن ، لأنه مثال البلاغة والفصاحة عند العرب ، يتخذونه نموذجاً في خطبهم ورسائلهم وإنشائهم ، وإذا لم يقصدوا الى الاقتباس منه عمداً فشيوع حفظه بينهم اكسبهم ملكة البلاغة ، مع ما كانوا فيه من اسباب الحماسة والأنفة في ابان دولتهم . فدخلت لغة العرب بعد الاسلام في طور جديد من البلاغة والفصاحة ، ظهر في عباراتها على اختلاف طرق تأديتها خطابة او كتابة . اما بلاغة الخطابة فسيأتي الكلام عليها . واما الكتابة فينظر فيها من عدة وجوه ترجع الى كتابة الرسائل وكتابة الكتب .

إنشاء الرسائل

فالرسائل كانت عبارتها عندهم مثل عبارة الخطابة ، من حيث التفنن في اساليب الخيال بالتهديد او الوعيد او النصح او الاستنهاض او الاستعطاف او نحو ذلك من المعاني . وكانوا في اوائل الاسلام يتوخون الاختصار فيها على قدر الامكان ، عملا بالحديث القائل : «اوتيت جوامع الكلم ، واختصر لي الكلام اختصاراً » . فكانوا يجمعون المعنى الكبير في اللفظ القليل ، حتى تكاد ترى المعنى مجرداً من اللفظ . وكان لتلك الرسائل تأثير مثل تأثير الخطب البليغة ، كأنهم استعاضوا بعد زمن الفتح ببلغاء الكتاب عن بلغاء الخطباء .

ومن امثلة الرسائل المختصرة البليغة ان عمر بن الخطاب كتب الى عمرو بن العاص امير

---

١ ـ الكشكول ١٥٥ .

مصر ، وكان الحجاز في ضنك عام الرمادة : « من عبدالله عمر امير المؤمنين الى عمرو بن العاص . سلام عليك ، اما بعد فلعمري يا عمرو ما تبالي اذا شبعت انت ومن معك ان أهلك انا ومن معي. .فياغوثاه ثم يا غوثاه ! » فكتب اليه عمرو : « لعبدالله عمر امير المؤمنين من عبدالله عمرو بن العاص . اما بعد فيالبيك ثم يا لبيك ! قد بعثت اليك بعير اولها عندك وآخرها عندي . والسلام عليك ورحمة الله » .

ومن أمثلة تأثير المكاتبة البليغة ان عبد الملك بن مروان بنى باباً في بيت المقدس باسمه ، وامر الحجاج فبنى باباً باسمه هو ، فاتفق ان صاعقة وقعت فاحترق بهـا باب عبدالملك فقط ، فعظم ذلك عليه وتشاءم منه فكتب الحجاج اليه : « بلغني ان ناراً نزلت من السماء فأحرقت باب أمير المؤمنين ولم تحرق باب الحجاج ، وما مثلنا في ذلك إلا كمثل ابني آدم اذ قربا قربانا فتقبل من احدهما ولم يتقبل من الآخر » فسرى عن عبدالملك بذلك .

وكان الخلفاء يختارون كتابهم من البلغاء ، ويتوخون جهدهم في الاختصار مع البلاغة ، ومن أمثلة ذلك ان المأمون استكتب كاتبه عمرو بن مسعدة كتاباً الى بعض العمال بالوصية عليه والاعتناء بأمره فكتب : « كتابي اليك كتاب واثق بمن كتب اليه ، معني بمن كتب له ، ولن يضيع حامله بين الثقة والعناية » .

وكثيراً ما كانوا يجيبون على الكتاب بعبارة مختصرة ، وخصوصاً اذا ارادوا التهديد او نحوه ، كما اجاب الرشيد نقفور ملك الروم ، وكان قد كتب اليه ينذره بقطع ما كان يحمله الروم الى بغداد من الاموال ، ويطلب اليه ارجاع ما كان قبضه منها الى ان قال : « وافتد نفسك بما تقع به المصادرة ، والا فالسيف بيننا وبينك » . فلمـا قرأ الرشيد الكتاب استفزه الغضب ، فدعا بدواة وكتب على ظهر الكتاب بعد البسملة : « قرأت كتابك يا ابن الكافرة ، والجواب ما تراه لا ما تسمعه ! » . واجـاب مثل ذلك الجواب يوسف بن تاشفين للاذفونش ملك الافرنج لما هدده بكتاب ، فكتب يوسف على ظهر الكتاب : « الذي يكون ستراه » .

التوقيعات

ويعد من هذا القبيل أيضاً التوقيعات ، وهي ما كان يوقعه الخلفاء على ما يرفع اليهم من القصص بما يشبه (التأشير) في دواوين هذه الايام ، وكانوا يتفننون في التوقيع تفننا بديعاً . ويغلب ان يجعلوا اجوبتهم آيات من القرآن ، او جملا من الحديث ، او اشعاراً

مشهورة . ومن امثلة ذلك ان سعد بن ابي وقاص كتب الى عمر بن الخطاب يستأذنه في بنيان يبنيه ، فوقع عمر في اسفل الكتاب « ابن ما يكنك من الهواجر واذى المطر » . ووقع عثمان بن عفان في قصة قوم تظلموا من مروان بن الحكم وذكروا انه امر بوجأ أعناقهم: « فان عصوك فقل اني بريء مما تعملون » . وكتب سلمان الفارسي الى علي بن ابي طالب يسأله كيف يحاسب الناس يوم القيامة ، فوقع على جوابه : « يحاسبون كما يرزقون » .

وكتب عبدالله بن عامر الى معاوية في امر يعاتبه فيه ، فوقع في اسفل الكتاب : « بيت امية في الجاهلية اشرف من بيت حبيب في الاسلام ، فأنت تراه » . وكتب اليه ربيعة بن عسل اليربوعي يسأله ان يعينه في بناء داره بالبصرة باثني عشر الف جذع ، فوقع في اسفل الكتاب : « ادارك في البصرة ام البصرة في دارك ؟! » . وكتب الحجاج الى عبدالملك بن مروان يخبره بسوء طاعة اهل العراق وما يقاسي منهم ، ويستأذنه في قتل اشرافهم ، فوقع له : « ان من يمن السائس ان يتألف به المختلفون ، ومن شؤمه ان يختلف به المتألفون » . ووقع عبد الملك في كتاب ابن الاشعث :

فما بال من اسعى لأجبر عظمه حفاظاً وينوي من سفاهته كسري

ووقع عمر بن عبد العزيز الى عامل شكاه الناس : « كثر شاكوك وقل شاكروك ، فاما اعتدلت واما اعتزلت ، والسلام » [١] وكتب اليه بعض عماله يستأذنه في بناء مدينة فوقع على الكتاب : « ابنها بالعدل ونق طرقها من الظلم » .

* * *

وقس على ذلك سائر توقيعات بني أمية وبني العباس، وهي كثيرة وكلها بليغة، كتوقيع المهدي لعامله على خراسان لأمر جاء عنه : « أنا ساهر وانت نائم . . . » . وتوقيع الرشيد الى عامله على مصر : « احذر أن تخرب خزانتي وخزانة اخي يوسف ، فيأتيك من لا قبل لك به ومن الله اكثر منه » . وتوقيع المأمون الى ابن هشام لأمر تظلم فيه : « من علامة الشريف ان يظلم من فوقه ويظلمه من تحته ، فأي الرجلين انت ؟ »

وكان الأمراء والوزراء أيضاً يوقعون مثل توقيعات الخلفاء فيما يرفع اليهم من القصص . فتظلم احدهم الى زياد ابن أبيه من بعض عماله بكتاب فوقع له : « انا معك » . ووقع

---

١ – المسعودي ١٢١ ج ٢ .

الحجاج في كتاب أتاه من صاحب الكوفة يخبره بسوء طاعة اهلها وما يقاسي من مداراتهم : « مـا ظنك بقوم قتلوا من كانوا يعبدونه ؟ ! » . ووقع جعفر بن يحيى في قضية محبوس : « ولكل اجل كتاب » . ووقع لآخر : « الجناية حبسته والتوبة تطلقـه » . وقد اقتبس العرب التوقيع على هذه الصورة من الفرس لأنهم سبقوهم الى ذلك .

وما زال الاختصار عمدة البلاغة في رسائلهم ومكاتبـاتهم ، حتى تحضروا واختلطوا بالفرس بالمصاهرة والمعـاشرة فاقتبسوا منهم التفخيم والمبالغة والتوسع . وقد بدأوا بذلك من اوائل القرن الثاني للهجرة . واول من اطـال الرسائل واستعمل التحميدات في فصول الكتب وفتق أكمام البلاغة عبد الحميد الكاتب المشهور المتوفي سنة ١٣٢ هـ وهو من اهـل الشام [٢] غير عربي . وسار الكتاب بعده على خطته وقلدوه وتوسعوا في طريقته ، فنبغ جماعة من مشاهير البلغاء فيهم الوزراء والأمراء واكثرهم من غير العرب ، ومنهم يحيى بن خالد البرمكي فارسي ، والفضل بن الربيع من الموالي ، والفضل بن سهل فارسي ، والصاحب ابن عبـاد من الطالقان ، وابن العميد المتوفي سنة ٣٦٠ هـ وهو من اهل خراسان ، وعماد الدين الكاتب المتوفي سنة ٥٩٧ هـ من اهل اصبهان وهو اكثرهم توسعاً واطناباً .

إنشاء الكتب

ونريد بها الكتب المؤلفة في الموضوعات الأدبية أو العلمية أو التاريخية أو نحوها ، وهي تختلف بلاغة وفصاحة باختلاف موضوعاتها . وكتب الأدب احوج الى البلاغة لما تقتضيه الموضوعات الأدبية من التخيلات الشعرية والكنايات ونحوها . والغالب في كتـاب الأدب ان يطالعوا آداب العرب ويخالطوهم ويحفظوا اساليبهم في اشعارهم وخطبهم واقوالهم ، فتحصل فيهم ملكة البلاغة العالية ، ولذلك كان الفقهاء واهل العلوم الطبيعية قاصرين في البلاغة لاستغناء هذه العلوم عن الخيال ، فيتعودون التعبير بعبارات بسيطة بعيدة عـن اساليب الأدباء . واذا حاولوا الكتابة في الأدب او نظم الشعر جاء كلامهم ضعيفاً ركيكاً .

فلغة الكتاب ، قبل انتشار الفقه ونقل العلوم الطبيعية الى العربية ، كانت اقرب الى البلاغة مما صارت اليه بعد ذلك ، لأنها كانت مصوغة على مثال القرآن وهو عنوان البلاغة ، ولكنه اقـرب الى التعبير الشعري منه الى الكلام المرسل . فالذين حذوا حذوه في صدر الاسلام اجادوا في الخطب والمراسلات ، لافتقارهما الى ذلك الاسلوب بمـا فيه من اسباب

---

٢ - ابن خلكان ٣٠٧ ج ١ .

التأثير في النفوس . فلما أقدم المسلمون على تأليف الكتب . وكان معظم المؤلفين من الفرس اصطبغت بلاغة العربية بشيء من أسلوب الفرس فنشأ عنهـا الكلام المرسل المتناسق . واحسن امثلته عبارة ابن المقفع في كتاب كليلة ودمنة ، فانها لا تزال عنوان البلاغة والسهولة الى هذا اليوم .

ابن المقفع

كان ابن المقفع عريقاً في الفارسية عالماً بآدابها متمكناً من اساليبها لأنها لغته ولغة آبائه . وكان يعرف اللغتين الفهلوية واليونانية ، وقد نشأ في البصرة في النصف الأول من القرن الثاني للهجرة وهي حافلة بالادباء والشعراء ، فبرع في اللغة العربية وآدابها وكان سليم الذوق ذا قريحة إنشائية . فلما اقدم على نقل كتاب كليلة ودمنة من الفـارسية الى العربية جاءت عبارته شاملة للبلاغة والسهولة ، وقد سار على نهجه من جـــاء بعده لانه اقدم من حفظ انشاؤه في الموضوعات الادبية باللغة العربية (توفي سنة ١٤٣ هـ) .

على ان سائر كتاب الادب نحو ذلك العصر قلما انشأوا شيئاً من عند انفسهم ، لان اكثر ما كانوا يكتبونه قطع كانوا يروونها عن اهل البادية او عن بلغاء الخطباء بنصها ، وربمـا وصلوا بينها بفقرات لا تتجاوز قولهم : حدثنا فلان ، او اخبرنا فلان ، او خطب فلان فقال كذا وكذا ، وكتب فلان الى فلان كذا وكذا ، مما لا يعد من قبيل الانشاء المرسل . حتى ما كتبه اركان علم الادب في اواسط القرن الثالث للهجرة ، كالجاحظ والمبرد وابن قتيبة وغيرهم ، فان كتبهم عبارة عن قطع من اقوال العرب او مروياتهم منقولة بالاسناد الى اصحابها ، وشأنهم في ذلك شأن كتاب المغازي والفتوح والسير والاخبار والاشعار ، كحماد والاصمعي وابي عبيدة ومحمد بن اسحق ، فانهم كانوا يقولون ويسندون اقوالهم الى الرواة واكثرهم من اهل البادية . ويقال نحو ذلك فيما جمع بين هذه الفنون ، ككتاب العقد الفريد لابن عبد ربه ، وكتاب الأغاني لأبي الفرج الاصبهاني وغيرهما ، فانها عبارة عن اخبار مسندة الى اصحابها ، ويندر فيها الكلام المرسل من عند المؤلف .

فكتاب كليلة ودمنة اقدم ما وصل الينا من الانشاء المرسل من لغة رجل واحـــد . وهو عالم من علماء الفرس وقد نقل الكتاب عن لغة الفرس ، ونظراً الى ما يمتاز به الكتاب المذكور من السهولة والرشاقة عن سائر ما كتب في عصره او ما بعده من كتب الادب ، يغلب على ظننا انه اكتسب ذلك من تأثير اساليب اللغات الاخرى التي كان يعرفهـــا

الكاتب ، او لاقتدار خاص في الكاتب نفسه على مثل ذلك الاسلوب . وقد قل من جاء بمثله بعده ولم يأت احد بأحسن منه ، مع ما بلغ اليه العلم من الرقي في العصر العباسي وما نبغ فيه من علية الكتاب المشاهير ، مما يدلك على ان الانشاء قريحة خاصة مثل قريحة الشعر لا تتقيد بالزمان او المكان إلا قليلاً .

وما زالت الكتب تؤلف بالاسناد والرواية ، حتى كثرت المؤلفات العربية في كل فن او علم ، وعمد الكتاب الى التلخيص والاختصار في القرن السادس او السابع ، فأخذوا يحذفون الاسانيد او يختصرونها الا لأسباب خاصة كما سترى في باب التاريخ .

السجع

ولما نضج التمدن الاسلامي وكثر فيه الادباء والشعراء ، واصبح الشعر شائعاً على السنة الناس على اختلاف طبقاتهم ، وكثر تمثلهم به وتناشدهم اياه ، الف الناس التلذذ برنة القافية ، فاستحسنوا ادخالها اولا في المراسلات وهو التسجيع ، وقد كان في اول امره مقبولاً لقلته وحسن وقعه ، حتى ادخلوه في الكتب وكتبوا به المقامات في اواخر القرن الرابع. واول من فعل ذلك بديع الزمان الهمذاني المتوفي سنة ٣٩٨ هـ ولعله اقتبس نسقها من احمد بن فارس الرازي المتوفي سنة ٣٩٠ هـ[١] وعلى منواله نسج الحريري ولكنه تباعد عن السهولة والطلاوة . وشاعت هذه المقامات واستحسنها الناس فزادتهم رغبة في الاسجاع ، فتكاثر التسجيع في القرون الاسلامية الوسطى حتى مجته الاسماع وعاد الى نحو ما كان عليه في ايام الكهان .

والتسجيع في الكتب أنبى على السمع مما في الرسائل ، وخصوصاً فيما لا يحتاج الى تنميق او اطناب او رنة او خيال ككتب التاريخ والعلم . فمن يطالع كتاب قلائد العقيان للفتح بن خاقان المتوفي سنة ٥٣٥ هـ ، او الفتح القسي في الفتح القدسي لعماد الدين الاصبهاني المتقدم ذكره ، او تاريخ سلجوق لعماد الدين أيضاً يرى ثقل الاسجاع على السماع في التاريخ وان حسنت احياناً في الرسائل والخطب .

على ان معظم مشاهير الكتاب في كل العصور لم يكتبوا الا مرسلاً ، وقد اجادوا كابن خلدون وابن الاثير والمسعودي وغيرهم . وقد كتب غير واحد منهم في تقبيح السجع حتى في المراسلات ، ونسبوا ذلك الى ضعف ملكة الانشاء[٢] .

---

١ — ابن خلكان ٣٥ و ٣٩ ج ١ .   ٢ — ابن خلدون ٤٩٨ ج ١ .

٣ ـــ التاريخ والجغرافية

التاريخ

بقي الانسان أحقاباً لم يدون فيها التاريخ، لانه لم يكن يعرف الكتابة، ولان احواله لم تكن تستدعي التدوين لسذاجتها ، مـــع انصراف همه في تلك العصور الى ضروريات الحياة . على انه ما لبث ان اصيب بطوارق الحدثان ، فحفظ اكثرهـــا تأثيراً في احوال معائشه ، كالطوفان والقحط والحرب ونحوها ، وتنوقلت تلك الاخبار في اعقابه ادهاراً، وهي تتعاظم وتتكيف على ما تطلبه طبيعة الانسان من التلذذ باستماع الغريب ، واجتهاد الراوي في التأثير على السامع بما يلقيه من الاخبار المنمقة المستغربة. فوصلت اخبار الاوائل الى زمن التاريخ وهي اشبه بالخرافات منها بالحقائق. واتخذ بعضها وجهة دينية، والبعض الآخر وجهة حماسية ، واصطبغ بعضها صبغة شعرية أو خيالية ، ويختلف ذلك باختلاف الامم والعصور . فنشأ من ذلك كله ما يعرف بالخرافات القديمة ، كالميثولوجيا اليونانية في الالياذة ، واخبار الهنود في المهابهاراتة ، واخبار الفرس القدماء في الشاهنامة ، واخبـار القبائل البائدة التي كان العرب يتناقلوها . فان ما ينسبونه الى عاد وثمود وطسم وجديس من الحوادث المستغربة لا يخلو من اصل تاريخي تعاظم وتضاعف على مر الايام ، وكذلك حديث سيل العرم وبلقيس وغيرهما .

ويلي ذلك طبقة من الاخبار اقرب الى التاريخ من تلك، كالمهاجرات القديمة والحروب القديمة ، ومنها ايام العرب وحروبهم قبل الاسلام ، وعام الفيل ونحوها مما أشرنا اليه في باب علوم العرب قبل الاسلام . فجاء الاسلام وليس عند العرب من قبيل التاريخ غـــير انسابهم وشذرات من تلك الاخبار والخرافات ، ولا علـم لهم بأحوال الامم الاخرى إلا ما له علاقة بهم ، غير ما كانوا يسمعونه من حوادث التوراة والتلمود من احبار اليهود او قسس النصارى ، ولا يخرج ذلك كله عن اخبار متقطعة يقتصر الخبر منها على حادثـة او واقعة لا علاقة لها بالحوادث الاخرى .

فالعرب قبل الاسلام كانوا يعدون من اضعف الامم المتمدنة في التاريخ . فلمـا ظهر الاسلام اشتغلوا بالفتوح والحروب ، حتى اذا استتب لهم الأمر وفرغوا من الفتح تدرجوا في وضع التاريخ مثل تدرجهم في سائر العلوم الاسلامية . وقد عددنا التاريخ من هـــذه العلوم ، لا لأنه خاص بالاسلام بل لأن الاسلام دعا الى وضعه كما سترى .

قد تقدم في كلامنا عن « حملة العلم في الاسلام اكثرهم العجم » ان العرب كانوا يتنزهون عن الاشتغال بالعلم، إلا الاخبار فانهم كانوا يشتغلون بها ويعنون بحفظها وسماعها وتناقلها، وخصوصاً اخبار الفرسان والشجعان والفصحاء والخطباء والشعراء ، لما في ذلك من بواعث القدوة واستنهاض الهمم وترويض النفوس .

وكان اكثر الخلفاء دهاء وسياسة اكثرهم رغبة في استماع الاخبار. فمعاوية بن أبي سفيان داهية بني امية كان يجلس لأصحاب الاخبار في كل ليلة بعد العشاء الى ثلث الليل ، فيقصون عليه اخبار العرب وايامها ، والعجم وملوكها وسياستها في رعيتها وسائر ملوك الامم وحروبها ومكائدها . ثم ينام ثلث الليل ويقوم غلمان مرتبون وعندهم كتب قد وكلوا بحفظها وقراءتها ، فيقرأون عليه ما في تلك الكتب من سير الملوك واخبار الحروب ومكايدها وانواع السياسيات[١] والغالب في اعتقادنا ان تلك الكتب باليونانية او اللاتينية ، وفيها اخبار ابطال اليونان والرومان كالاسكندر ويوليوس قيصر وهنيبال ، وان الغلمان كانوا يفسرونها له بالعربية لأن العرب لم يدونوا الكتب إلا بعد زمن معاوية .

وسماع اخبار العظماء يستنهض الهمم الى الاقتداء بهم ، ولذلك كان اكبر القواد العظام الراغبين في العلا ، من العرب وغير العرب ، يستتلون اخبار من سبقهم من مشاهير القواد، واذا وقع احدهم في مشكلة سياسية تدبر ما حدث من امثالها قبله تسهيلاً لابداء حكمه فيها . يقال ان المنصور لما هم بقتل أبي مسلم الخراساني تردد بين ان يمضي قتله او يشاور فيه ، لما كان لأبي مسلم من السعي الحميد في قيام الدولة العباسية . فتزايد بلباله حتى ارق ، فلما اصبح استدعى اسحق بن مسلم العقيلي وقال له : «حدثني حديث الملك الذي اخبرتني عنه في حران» ، فقص عليه الحديث وخلاصته ان سابور ملك الفرس انفذ وزيره الى خراسان يدعو اهلها الى طاعته ، فمضى وسعى في تحبيب الناس به ودعاهم الى طاعته . فلما استفحل امره صمم سابور على قتله عند رجوعه اليه بأعيان خراسان ، فلما رجعوا بغتهم فلم ينتبهوا إلا ورأس الوزير بين ايديهم ، فاضطروا الى طاعة سابور — فلما سمع المنصور تلك الحكاية بما فيها من المشابهة بحكاية ابي مسلم اطرق ملياً ثم رفع رأسه وهو يقول :

لذي الحلم قبل اليوم ما تقرع العصا ... وما علم الانسان إلا ليعلما

---

١ — المسعودي ٥٢ ج ٢ .

واستقر رأيه على قتل ابي مسلم ، وقتله[١] . وكان بدر لؤلؤ صاحب الموصل اذا دخل شهر رمضان احضرت له كتب التواريخ والسير ، وجلسوا يقرأون عليه احوال العالم ، فأصبح علم التاريخ من علوم الملوك واصحاب السيادة ، وكان من الامثـال الشائعة في اوائل الاسلام قولهم : « علم الملوك النسب والخبر ، وعلم اصحاب الحروب درس كتب الايام والسير ، وعلم التجار الكتابة والحساب »[٢] .

فلما ضعف شأن الخلافة العباسية واستبد الوزراء بأمور الدولة ، اصبح همهم منـع الخلفاء من مطالعة التاريخ او السير ، خوفاً من ان يتفطنوا الى اشياء لا يحب الوزراء ان يفطنوا لها – قيل ان المكتفي طلب من وزيره كتباً يلهو بها ويقطع بمطالعتها زمانه ، فتقدم الوزير الى النواب بتحصيل ذلك وعرضه عليه قبل حمله الى الخليفة ، فجاءوه ببعض الكتب وفيها شيء مما جرى في الايام السالفة ، ومن وقائع الملوك واخبار الوزراء ومعرفة التحليل في استخراج الاموال . فلما رآه الوزير غضب وقال لنوابه : « والله انكم اشد الناس عداوة لي .. انا قلت لكم حصلوا له كتباً يلهو بها ويشتغل بها عني وعن غيري ، فقد حصلتم له ما يعرفه مصارع الوزراء ويوجد له الطريق الى استخراج الاموال ويعرفه خراب البلاد من عمارتها .. ردوها وحصلوا له كتباً فيها حكايات تلهيه واشعاراً تطربه »[٣] ففعلوا .

مصادر التاريخ الاسلامي

للتاريخ الاسلامي مصادر كثيرة تدرج فيها على مقتضى الاحوال ، واليك تمثيل ذلك :

لما اشتغل المسلمون بجمع القرآن وتفسيره وجمع الاحاديث احتاجوا الى تحقيق الاماكن والاحوال التي نزلت فيها الآيات او قيلت فيها الاحاديث ، فعمدوا الى جمع السيرة النبوية لأنها شاملة لكل ذلك فتناقلوها مدة ثم دونوها . واول من دونها على المشهور محمد بن اسحق المتوفي سنة ١٥١ ، الفها للمنصور . على اننا رأينـا في كشف الظنون ان محمد بن مسلم الزهري المتوفي سنة ١٢٤ ﻫ الف كتابا في المغازي[٤] وقـد توفي قبل ابن اسحق ببضع وعشرين سنة . ولكن يؤخذ من ترجمتهما في وفيات الاعيان انهما كانا متعاصرين . ويقال ايضاً ان اول من صنف المغازي والسير عروة بن الزبير المتوفي سنة ٩٣ ﻫ ووهب بن منبه

---

١ – البيان والتبيين ١٥٥ ج ٢ . ٢ – العقد الفريد ١٥٠ ج ١ .
٣ – الفخري ٥ . ٤ – كشف الظنون ٣٩ و ٣٠١ ج ٢ .

المتوفي سنة ١١٤[١] وعلى اي حال فان هذه السير ضاعت ، وأقدم ما وصل الينا منها سيرة عبد الملك بن هشام المتوفي سنة ٢١٣ هـ في كتابه المعروف بسيرة ابن هشام ، وهي منقولة عن ابن اسحق المذكور وقد طبعت غير مرة .

ولما اشتغل المسلمون في ضرب الخراج على البلاد ، اختلفوا في بعضها : هل فتح عنوة او صلحاً او اماناً او قوة ، وفي شروط الصلح او الامان . فاضطروا الى تدوين اخبار الفتح باعتبار البلاد ، فألفوا كتباً في فتح كل بلد على حدة ، كفتوح الشام للواقدي المتوفي سنة ٢٠٧ هـ وكتابه مشهور لكنه مملوء بالمبالغات بما يشبه الحكايات. وفتوح مصر والمغرب لابن عبدالحكم المتوفي سنة ٢٥٧ هـ ، وفتوح بيت المقدس ونحوها . ثم جمعوا فتوح البلاد معاً في كتاب واحد كفتوح البلدان للبلاذري المتوفي سنة ٢٧٩ هـ ، وهو اوثق كتب الفتح واشملها واقدم ما بين ايدينا منها ، إلا الواقدي .

الطبقات والمغازي

وقد رأيت فيما تقدم من كلامنا عن القرآن والحديث والنحو والأدب ، ان العلماء اضطروا لتحقيق مسائل هذه العلوم الى البحث في اسانيدها وتراجمهم وسائر احوالهم ، حتى اصبح من شروط الاجتهاد في الفقه معرفة الاخبار بمتونها واسانيدها ، والاحاطة بالوقائع الخاصة بها فقسموا رواة كل فن الى طبقات ، فتألف من ذلك تراجم العلماء والادباء والفقهاء والنحاة وغيرهم ، مما يعبرون عنه بالطبقات ، ومنها : طبقات الشعراء ، وطبقات الادباء ، وطبقات النحاة ، وطبقات الفقهاء ، وطبقات الفرسان والمحدثين واللغويين والمفسرين والحفاظ والمتكلمين والنسابين والاطباء ، حتى الندماء والمغنين وغيرهم ، والفوا في كل باب غير كتاب . ولذلك كان المسلمون اكثر امم الأرض كتباً في التراجم لأفراد الرجال .

واقدم كتب الطبقات التي وصلت الينا كتاب طبقات الصحابة لمحمد بن سعد المعروف بكاتب الواقدي المتوفي سنة ٢٣٠ هـ وهو كبير ربما دخل في بضعة عشر مجلداً ، ويحتوي على تراجم الصحابة والتابعين والخلفاء الى ايام المؤلف[٢] وكان هذا الكتاب مشتتاً في مكتبات العالم ، ومنه الجزء الثاني في دار الكتب الخديوية (المصرية) بمصر ، وقد علمنا ونحن نخط هذه الحروف ان جمعية المانية شرعت في طبعه واصدرت الجزء الاول منه . ثم طبقات الشعراء لابن قتيبة المتوفي سنة ٢٧٦ هـ وقد طبع في ليدن في هذا العام بعناية

---

١ – كشف الظنون ٤٧٠ ج ٢ . ٢ – ابن خلكان ٥٠٧ ج ١ .

الاستاذ دي‌خويه المستشرق الهولندي الشهير . ثم الف الناس طبقات كثيرة في ازمنة مختلفة ، ومنها استخرجوا كتب التراجم الكبرى ، كوفيات الاعيـــان ، والوافي في الوفيات ، وفوات الوفيات ، وغيرها مما سيأتي ذكره ، غير التراجم الدخيلة في تواريخ البلاد ، كتاريخ دمشق لابن عساكر في ثمانين مجلداً ، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي في نحو ذلك وفيها تراجم كثيرة .

وكان طلاب الأدب الراحلون في جمع اللغة والشعر من افواه اهل البادية يلتقطون اخبار العرب ووقائعهم وحوادثهم ويدونون ذلك في كتب الادب كما تقدم . ناهـــيك بالأخبار المستخرجة من تلك الاشعار — قال ابن يونس : « لولا شعرالفرزدق لذهب‌نصف اخبار الناس[1] » .

ولما استبد بنو امية بالخلافة واعوجوا في احكامهم عن سبل الخلفاء الراشدين ، كثر تحدث الناس بأخبار الراشدين وتذكر اعمالهم المؤسسة على العدل والرفق — وذلك طبيعي في هـــذه الاحوال . ثم الف بعضهم كتباً في تاريخ الخلفاء الراشدين ، ثم في الخلفاء على الاجمال ، واقدمهم الدينوري المتوفي سنة ٢٨١ هـ ، ويقال نحو ذلك في تأليف تراجم الوزراء ، وتواريخ عمال الشرطة وتواريخ الاذكياء والبخلاء والعشاق وغيرهم .

التواريخ العامة

فانقضى القرن الثاني للهجرة ونصف الثالث وكتب التاريـــخ عند المسلمين الطبقات والمغازي والسير والفتوح على ما تقدم . اما التواريخ العامة مثل تواريخ الامم او البلاد قديماً او حديثاً فلم يشتغلوا بها إلا بعد ذلك، وأقدم من كتب في التاريخ العام ابن واضح المعروف باليعقوبي ، وكتابه مطبوع في جزئين : جزء في التاريخ القديم كاليهود والهنود واليونان والروم والفرس وغيرهم ، والثاني في تاريخ الاسلام من ظهوره الى ايام المعتمد العباسي الذي تولى الخلافة سنة ٢٥٦ هـ . ويليه ابن جرير الطبري المفسر الشهير المتوفي سنة ٣٠٢ هـ . وقـد الف الفرغاني عليه ذيلاً ينتهي الى سنة ٣١٢ هـ ، وكلاهما مطبوع . ثم المسعودي المتوفي سنة ٣٤٦ هـ صاحب « مروج الذهب » وفيـــه وصف البلاد والبحار والحيوانات وغيرها ، فضلاً عن التاريخ ، وهو مبوب حسب الدول او الامم ومطبوع . وللمسعودي كتاب سماه « اخبار الزمان » وقد ضاع ولم يقف له احـد على اثر ، ولكن

---

١ — البيان والتبيين ١٢٤ ج ١ .

يظهر مما ذكر عنه في مروج الذهب انه مطول جداً . يليه حمزة الأصفهاني صاحب « تاريخ سني ملوك الارض » فرغ من تأليفه سنة ٣٥٠ هـ .

وظل الناس على هذه التواريخ وقليل غيرها الى القرن السابع للهجرة ، اذ انقضت الدول الاسلامية العربية : العباسية في العراق ، والفاطمية في مصر ، والاموية في الاندلس ، وقامت دول الاتراك والاكراد والبربر ، فانتقل الناس الى عصر جديد ، فعمدوا الى تدوين تاريخ العصر المنقضي ، فاستعانوا بالكتب التي تقدم ذكرها فاختصروا مطولها وبوبوا مشوشها وجمعوا بين موضوعاتها واضافوا ما لم يدركه أصحابها . والفوا عدة تواريخ مطولة ، اشهرها واوعاها واضبطها كتاب « الكامل » لابن الاثير المتوفي سنة ٦٣٠ هـ فقد ضمنه تاريخ الطبري كله بعد حذف الاسانيد واختصار النصوص المطولة ، وزاد عليه ما حدث بعده وما حدث في زمن الطبري في الأندلس وغيرها . ورتب ابن الأثير كتابه على السنين ، مثل كتاب الطبري ، فجاء ١٢ مجلداً كبيراً ، وهو مطبوع . وجاء بعده ابو الفداء صاحب حماه المتوفي سنة ٧٣٢ هـ ، فأخذ الكامل فلخصه وادخل فيه كثيراً من اخبار الأدباء والعلماء ، وتوسع في اخبار العرب الجاهلية وابقاه على حوادث السنين ، فجاء في ثلاثة مجلدات ، وهو مطبوع ومنشور . وجاء بعده عمر بن الوردي المتوفي سنة ٧٤٩ هـ فاختصر تاريخ ابي الفداء .

ثم نبغ العلامة ابن خلدون المتوفي سنة ٨٠٨ هـ والعرب قد ذهبت دولهم تمام الذهاب واتضحت عبرة التاريخ . وكان ابن خلدون عالماً دقيق النظر صحيح القياس ، فألف تاريخه المشهور ورتبه على الدول بدل السنين ، وافاض خصوصاً في اخبار المغرب والاندلس مما لم يسبقه اليه احد . ويمتاز هذا التاريخ عما سبقه بمقدمة فلسفية لم ينسج احد على مثالها قبلها ، حتى علماء اليونان والرومان وغيرهم من الامم القديمة . وفي شهرتها ما يغني عن وصفها .

ونهج بعض المؤرخين في تآليفهم منهجاً آخر ، فجعلوا مؤلفاتهم بأسماء المدن فضمنوا كتبهم وصف تلك المدن وتراجم الذين عاشوا فيها . واطول المؤلفات من هذا الصنف تاريخ بغداد للخطيب البغدادي المتوفي سنة ٤٦٣ هـ ، وتاريخ دمشق لابن عساكر المتوفي سنة ٥٧١ هـ في ثمانين مجلداً وقد تقدم ذكرهما ، وكلاهما لم يطبعا ، والثاني اكثر وجوداً من الأول . ومن هذا القبيل خطط مصر للكندي ثم للقضاعي ثم للمقريزي ، وهذه الاخيرة مشهورة ومثلها اخبار مصر القاهرة لأبي المحاسن والسيوطي .

التراجم والمعجمات

وأما التراجم فكانت في القرون الاولى تدون في الطبقات ، باعتبار المهن او العلم الذي يجمع كل طبقة كما تقدم . فلما نضج العلم واخذ العلماء في الترتيب والتبويب ، نبغ جماعة من المؤرخين استخرجوا من الطبقات وغيرها كتب التراجم ورتبوها على حروف المعجم ، واشهر تلك الكتب « وفيات الاعيان » لابن خلكان المتوفي سنة ٦٨١ هـ ، ثم « فوات الوفيات » لصلاح الدين بن شاكر الكتبي المتوفي سنة ٧٦٤ هـ استدرك فيه ما فات ابن خلكان ذكره ، وكلاهما مطبوعان ومشهوران . وكتاب « الوافي في الوفيات » لصلاح الدين الصفدي المتوفي سنة ٧٦٤ هـ ، وهو كبير لكنه لم يوجد مجموعاً في مكتبة واحدة ولا جمعوه بعد ، فهو لم يطبع ومنه اجزاء متفرقة في مكتبات اوروبا . ومثله كتاب « مرآة الزمان » لسبط بن الجوزي المتوفي سنة ٦٥٤ في ٤٠ مجلداً ، وهو مشتت . وفي تراجم اهل الاندلس كتب كثيرة منها كتاب « الصلة » لابن بشكوال المتوفي سنة ٥٧٨ وكتاب « المعجم » لابن الأبار وغيرهما .

ومن هذه المعجمات التاريخية ما هو خاص بفئة من الناس او طبقة من طبقاتهم ككتاب « اسد الغابة » في اخبار الصحابة لابن الأثير صاحب الكامل ، وهو في خمسة اجزاء كبيرة وخاص بالصحابة ، وهو مطبوع ومنشور . و « تراجم الحكماء » لابن القفطي غير مطبوع .

على ان كثيراً من التراجم والاخبار التاريخية منتشر في كتب الأدب ، ككتاب الأغاني والعقد الفريد والكشكول والمستطرف والبيان والتبيين . وقد تجد فصولاً تاريخية مهمة في كتب العلم الطبيعي ، ككتاب الحيوان للدميري فان فيه فصولاً تاريخية قلما نعثر عليها في كتب التاريخ .

ويمتاز التاريخ عند العرب على سواه عند سائر الأمم التي تحضرت قبلهم بكثرة ما كتبوه من التراجم ، واكثره بشكل القواميس وهم السابقون في ذلك وعنهم اخذ اهل العالم تأليف المعجمات التاريخية . فعندهم من قواميس التراجم بضعة صالحة ، هي كنوز في التاريخ والجغرافية والأدب والعلم . فوفيات الأعيان معجم يزيد عدد الترجمات فيه على ٨٢٠ ترجمة مرتبة على احرف الهجاء ، غير ما جاء عرضاً في اثناء الكلام على الآخرين . ومن مزاياه أنه يضبط الاعلام من اسماء الرجال والاماكن ، ويذكر سني الوفاة والولادة ، ويضمن التراجم كثيراً من الفوائد الأدبية والعلمية مما يندر في سواه . ويقال نحو ذلك في

قواميس التراجم الأخرى ، كفوات الوفيات وفيه اكثر من ٤٥٠ ترجمة لم يذكرها ابن خلكان ، وكتاب الوافي في الوفيات ، وأسد الغابة في أخبار الصحابة ، وكتاب تراجم الحكماء . غير كتب التراجم المرتبة على غير الهجاء ، ككتاب الطبقات للشعراء والفقهاء والأطباء ، ومن احسنها كتاب طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة المتوفي سنة ٦٦٨ هـ ، فانه جامع تاريخ الطب والاطباء والعلم والعلماء والفلسفة والفلاسفة عند اليونان والفرس والهنود والكلدان ، فضلاً عن العرب والمسلمين ، وهو مرتب بحسب العصور والبلاد ، ناهيك بما يتخلل ذكر مؤلفاتهم ووصفها من العادات والآداب الاجتماعية وغيرها ، وهو مطبوع ومشهور .

عدد كتب التاريخ

فالمسلمون ألفوا في التاريخ كتباً لا تحصى ، وما من أمة قبل العصر الحديث بلغت في هذا العلم ما بلغ اليه المسلمون . فان كتب التاريخ الواردة اسماؤها في كشف الظنون فقط تزيد على ١٣٠٠ كتاب ، غير الشروح والاختصارات وغير ما ضاع من تلك الكتب واهمل ذكره وهو كثير جداً . يدلك على ذلك ما تراه في مقدمات بعض كتب التاريخ او الجغرافية ، اذ يذكر المؤلف كتباً عديدة نقل عنها او اعتمد عليها في تأليف كتابه ، فاذا بحثت عنها رأيت اكثرها ضاع ولم يرد ذكره في كتب الفهارس ككشف الظنون او غيره. فالمسعودي ذكر في مقدمة كتابه « مروج الذهب » عشرات من الكتب التي كانت شائعة في أيامه ، وقد نقل عنها ولم يذكر منها صاحب كشف الظنون الا القليل. فلو بقيت الكتب التي الفها العرب في التاريخ كلها لزادت على بضعة آلاف ، وفيها كتب كبيرة يدخل الواحد منها في اربعين مجلداً او خمسين او ثمانين ، ومنها في عشرة او خمسة او اقل او اكثر .

ومن كتب التاريخ العام ما هو مرتب أحسن ترتيب باعتبار السنين ، كالطبري وابن الاثير وابي الفداء ، او باعتبار الامم أو الدول كالمسعودي والفخري وابن خلدون ، او بحسب المدن او الملوك مما لا يحصى . واكثرها حسن العبارة بليغها مع اسهاب ربما زاد في بعض الاحوال حتى يخرج عن موضوع الكتاب . ويغلب الصدق في روايات كتاب المسلمين ، لما تعودوه من الاسناد في تناقل الاخبار ، الا ما دخل تواريخهم في العصر الاول لاغراض بعض ذوي المطامع او الاهواء والعرب لا يزالون على سذاجتهم .

عيوب المؤرخين المسلمين

وإنما يعاب المؤرخون المسلمون لاقتصارهم في التواريخ على ايراد الحوادث على عواهنها كما بلغت اليهم ، وقد يسندونها الى راو او عدة رواة بلا انتقاد ولا تمحيص ولا قياس اكتفاء بالاسناد . وقد فاتهم ان بعض الاخبار المسندة موضوع في الصدر الاول او مــا بعده لاغراض سياسية ، كما وضع كثير من الاحاديث لاسباب تقدم بيانها .

ومما ينتقد عليهم أيضاً أنهم يصرفون عنايتهم في التواريخ الى تدوين اخبــار الحرب والفتح والعزل والولاية والولادة والوفاة ، وقلما يذكرون تاريخ الآداب او العــلوم ، او احوال الدولة من الحضارة واسبابها ، وتعليل الحوادث وما نجم عنها ، وقياس بعضها على بعض الا ما يجيء عرضاً . فيندر ان ترى لمؤرخ منهم رأياً في حادثة او انتقاداً على خليفة او امير ، او ملاحظة على نكتة ، حتى في الاحوال التي يعلم أنه لا يسيء فيها الى الخليفة ، بل قد يكون في انتقاده ما يسر ذلك الخليفة ، كما كانت حال مؤرخي الدولة العباسية في شؤون الدولة الاموية ، فان شدة العباسيين على الامويين مشهورة ، ومع ذلك فان المؤرخين الذين كتبوا في عهد الدولة العباسية قلما ذكروا شيئاً من مساوىء بني أمية ، الا مــا قد يجيء عرضاً . ولعل السبب في ذلك السكوت ان حوادث التاريخ الاسلامي اكثرها متصل بأسباب دينية أو شرعية بين فرقة وأخرى او مذهب وآخر . فـاذا انتشبت حرب بين خليفتين او اميرين مسلمين ، لا يخلو ان يكون احدهما ظالماً والآخر مظلومــاً ، فالمؤرخ المسلم يتحاشى الطعن في احدهما احتراماً لمقــام الدين ، فينقل الخبر على علاته ويترك الحكم فيه للقارىء ، وهذا هو السبب فيما نقاسيه من العناء في استخراج حقائق التمدن الاسلامي من كتب التاريخ .

وقد يكون من اسباب سكوتهم عن مساوىء بعض الامراء التزلف اليهم او الاستجداء بمدحهم ، وكثيراً ما كان الخلفاء والامراء او السلاطين يقترحون على المؤرخين تــأليف الكتب ويجيزونهم على تأليفها ، فكان المؤرخون يراعون بهــا جانب المقترح ولو خالفوا الحقيقة وهم يعلمون . ومن الطف الشواهد ما قاله ابو اسحق الصابي الكاتب الشهير ، وقد كلفه عضد الدولة بن بويه ان يؤلف له كتاباً في اخبــار الدولة الديلمية ، فألف له تاريخــاً سماه « التاجي » فاتفق وهو يؤلفه ان دخل عليه صديق له فسأله عما يعمله فقال: «أباطيل أنمقها وأكاذيب ألفقها . .» (١)

---

١ - ابن خلكان ١٢ ج ٢ .

وقد يكون السبب عداوة بين المؤلف والمترجم فيبخسه حقه عمداً ، كما فعل الفتح بن خاقان في ترجمة ابن باجة الفيلسوف الاندلسي الشهير [١] .

ويندر ان ترى من بعض المؤرخين تصريحاً بمساوىء احد الخلفاء او الامراء او غيرهم من اولي الامر . واكثر ما عثرنا عليه من امثال ذلك في كتاب الفخري والآداب السلطانية لابن طباطبا ، وتاريخ ابن خلدون . اما ابن طباطبا فقد صرح بذلك انتصاراً لآل علي ، كقوله على اثر حكاية وقعت للرشيد مع ابي نواس اذ اورد قول ابي نواس في الرشيد :

قد كنت خفتك ثم أمنني   من ان اخافك خوفك الله

ثم قال : « ولم يكن الرشيد يخاف الله وافعاله بأعيان آل علي (عم) اولاد بنت نبيه بغير جرم الخ » ، وهذا تصريح لم نر له شبيهاً في كتب مؤرخي المسلمين إلا ما قد يقوله الشيعة في اعمال اهل السنة او بالعكس . وأما ابن خلدون فقد انتقد اعمال بعض الدول او الخلفاء مدفوعاً بالقياس الصحيح والحكم الفلسفي .

ومما يؤاخذ به مؤرخو المسلمين ايضاً – بالنظر الى آداب هذه الايام – انهم اذا عرض لهم في بعض الاخبار الفاظ بذيئة ، او واقعة يخجل سماعها الاديب فانهم يذكرونها بالفاظها ، كما يذكرون سائر الحوادث ، ويدخل في ذلك كثير من الاشعار السفيهة ، وهم يسمون ذلك احماضاً وقد يتبادر الى الذهن انه من مقتضيات تلك العصور ، او انه لم يكن منكراً عندهم . والحقيقة ان اهل الادب الصحيح من اولئك المؤرخين كانوا يتحاشون الوقوع في ذلك . وفي جملتهم ابن خلكان فانه من ابعدهم عن الفحش في القول ، ومن الادلة على أدبه انه لما ترجم لحسين بن محمد المنعوت بالبارع ، وهو من الشعراء المشهورين ، ساقه الحديث الى قصيدة نظمها احدهم للبارع المذكور وقصيدة اجابه البارع بها ، فذكر ابن خلكان البيت الاول من القصيدة ثم قال : « لولا ما اودعها من السخف والفحش لذكرتها » .

الجغرافية او تقويم البلدان

لفظ الجغرافية وحده كان للدلالة على ان هذا الفن ليس من موضوعات العرب ، ولكننا

---

١ – نفح الطيب ٢ ٦١٢ ج ٤ .

ذكرناه هنا لارتباطه بالتاريخ ، ولان العرب كتبوا في وصف الطرق والبلاد والمدن قبل نقل الجغرافية الى العربية لأسباب خاصة بالاسلام .

لم يقدم البشر على وضع علم او فن الا لأسباب حملتهم على ذلك ، لأنهم يساقون في شؤونهم واعمالهم بالحاجة ، ولذلك قالوا : الحاجة ام الاختراع . واضطرارهم الى الجغرافية لم يأت دفعة واحدة ، بل جاء بالتدريج فنا واتسع عملا بناموس الارتقاء . واهم الاسباب التي دعت الى نشوء هذا العلم احتياج الناس قديماً الى معرفة الطرق والبلاد والابعاد بينها، اما للتجارة او للفتح ، فجمعوا معلومات التجار والفاتحين بتوالي الأزمان ، وجعلوا يتداولونها ويتدارسونها للعمل بها ، حتى اتيح لها من رتب ابوابها وضبط اجزاءها وجعلها علماً .

واول من وضع اساس هذا العلم الفينيقيون ، لانهم اقدم تجار العالم واكثرهم اسفاراً ، فقد رادوا شواطىء البحر الابيض واستعمروا بعضها منذ بضعة وثلاثين قرناً . وكانت مدينة صور مركز العالم التجاري في تلك الأيام ، تجتمع حاصلات الامم ومصنوعاتهم فيها وتتفرق منها حتى الهند ، فقد كانوا يحملون منها العاج والطيب والقردة وغيرها . واسماء هذه السلع الباقية في الفينيقية والعبرانية تدل على أصلها الهندي . فاطلع الفينيقيون في أثناء أسفارهم على احوال كثيرة من البلاد وعرفوا المسافات بينها واخبار اهلها .

ولما حمل الاسكندر بجيوشه على العالم واخترق آسيا الى بلاد الهند براً وبحراً ، اطلع رجاله على احوال اواسط آسيا واعاليها فاشتغلوا في جمع الاخبار والاوصاف لغرابتها . وفعل البطالسة نحو ذلك بشواطىء البحر الاحمر الى الحبشة ثم الرومان وغيرهم .

فكانت تلك المعلومات تتجمع بتوالي الاجيال والناس يتناقلونها متقطعة متفرقة ، ثم توجهت الاذهان الى جمعها وترتيبها . واول من فعل ذلك اراتستين Eratostenes اليوناني المتوفي سنة ١٩٦ ق . م على عهد البطالسة ، فألف كتاباً دون فيه كل ما عرفه الفينيقيون او رواه قواد الاسكندر وغيرهم . وجاء بعده غيره وغيره كالرحالة استرابون والجغرافي بلينيوس ، الى زمن بطليموس القلوذي في اواسط القرن الثاني للميلاد ، فألف كتاباً وافياً في الجغرافية عين فيه الاماكن بالحسابات الفلكية ، ورسم الخرائط على الحسابات الرياضية وضبط الاقسام الجغرافية وحقق اماكنها على ما بلغ اليه العلم في عصره ، وذكر فيه ان عدد المدن في ايامه كان ٤٫٣٥٠ وسماها مدينة مدينة ، وعدد الجبال ٢٠٠ جبل ذكر ما

في بطونها من المعادن ، وذكر ما على الأرض من الخلائق وغير ذلك . فجـاء الاسلام وكتاب بطليموس هو المعول عليه في تقويم البلدان . فلما أخذ العرب في ترجمة العلم في العصر العباسي كان هذا الكتاب في جملة ما نقلوه الى لسانهم وسموه جغرافية ، وترجموا كتابه الآخر في الفلك وسموه المجسطي ، وعلى هذين الكتابين بنوا اكثر ما كتبوه في علم الجغرافية .

الجغرافية عند المسلمين

ولكن المسلمين بدأوا بوضع الجغرافية قبل اطلاعهم على كتاب بطليموس . لثلاثة اسباب غير السببين اللذين دعوا اليونان او غيرهم الى وضعها . لأن العرب من اكثر الأمم فتحاً وغزواً ، وقد تفرقوا بعد الاسلام في اربعة اقطار المسكونة . وهم — وخصوصاً اهل الحجاز — كانوا تجاراً من زمن الجاهلية ثم اتسعت تجارتهم في الاسلام باتساع مملكتهم. اما الاسباب الثلاثة التي يمتاز بها العرب على سواهم : فأولها الحج ، لان المسلمين على اختلاف بلادهم واقاليمهم يحجون الى مكة والحج فريضة على المسلم ولو كان في الهند او الصين او او غيرهما ، والقدوم الى مكة يستلزم معرفة الطرق والمنازل . وثانيها الرحلة في طلب العلم ، فقد رأيت فيما تقدم ان المسلمين كانوا يرحلون في طلب العلم الى سائر الامصار الاسلامية ، والرحلة تستلزم معرفة الاماكن والمناطق . ولذلك كان اول ما الفه العرب في الجغرافية من عند انفسهم ذكر الاماكن العربية والمنازل البدوية . واول من الف في ذلك رواة الأدب والشعر ، كالاصمعي والسكوني ، ثم الفوا في بلاد العرب كلها كما فعل الهمذاني في جزيرة العرب وابو الأشعث الكندي في جبال تهامة[1] وغيره . والسبب الثالث ان العرب فتحوا العالم واختلفوا في طرق الفتح باختلاف البلاد بين ان تكون قد فتحت صلحاً او عنوة او اماناً او قوة ، ولكل من فعل ذلك حكم في قسمة الفيء واخذ الجزية وتناول الخراج واجتناء المقاطعات والمصالحات وانالة التسويفات والاقطاعات لا يسع الفقهاء جهلها فضلاً عن الأمراء . فأصبح علم ذلك عندهم من قبيل الدين ، ولا يتوصل اليـه إلا بالتاريخ والجغرافية .

ولما ترجمت الجغرافية الى العربية واطلع العرب عليها اخذوا في تأليف الكتب على مثالها ، وتوسعوا في ذلك وزادوا عليه ما عرفوه من قبل . ولم يكتفوا بالنقل والسماع ،

---

١ — معجم ياقوت ٧ ج ١ .

ولكنهم ركبوا البحار وجابوا الاقطار شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً ، وكتبوا ما شاهدوه او تحققوه وصححوا كثيراً من اخطاء بطليموس . والظاهر ان علم الجغرافية عند العرب لم ينضج إلا في القرن الرابع للهجرة ، فتهافت الناس على التأليف فيه تهافتهم على تأليف التاريخ العام في ذلك القرن .

وأول من دون الجغرافية منهم على نحو ما عند اليونان الشيخ ابو زيد البلخي ، الف في اول القرن الرابع كتاباً في الجغرافية سماه « صور الاقاليم » ذكر فيه أمثلة منها بعد ان قسمها الى عشرين جزءاً ، ثم شرح كل مثال ولكنه اختصره وترك كثيراً من امهات المدن . وكان من معاصريه رجل من علماء الفرس اسمه ابو اسحق الفارسي الاصطخري المعروف بالكرخي ، وكان محباً للاسفار فسافر وحقق بنفسه كثيراً من البلاد والبحار والمدن وعول فيما بقي على كتاب البلخي ، والف كتاباً سماه « مسالك الممالك » وهو مطبوع ومنشور . واما كتاب البلخي فقد ضاع .

وجرى الاصطخري في كتابه على تقسيم البلخي ، فجعل بلاد المسلمين عشرين قسماً بدأ بديار العرب وانتهى الى ما وراء النهر (تركستان) ووصف كل قسم على حدة ، وذكر البلاد وحرفها وتجارتها وغير ذلك . ونبغ نحو ذلك الزمن ابن حوقل ، فالف كتاب « المسالك والمالك » وقد سار بنفسه ايضاً لمشاهدة البلاد . قال في مقدمة كتابه : « فبدأت سفري هذا من مدينة السلام يوم الخميس لسبع خلون من شهر رمضان سنة ٣٣١ هـ » فلما أتم رحلته كتب الكتاب المذكور ووضحه بالخرائط الكثيرة ، لكل اقليم من اقاليم الاسلام خريطة او غير خريطة ، ورسم المدن والانهار والجبال والبحار والجزر وغيرها ، وتقسيمه كتقسيم الاصطخري ، والعبارة تكاد تكون واحدة في كثير من الاماكن .

ثم الف ابن الفقيه الهمذاني والمقدسي والمسعودي وغيرهم . وقد رحل المسعودي رحلات عديدة بلغ بها الى اقاصي الهند وذكر ما شاهده وخبره في كتبه الجغرافية والتاريخية . وجميع هؤلاء من اهل القرن الرابع للهجرة وكتبهم مطبوعة الآن إلا الخرائط فقد ضاعت ولم يبق غير ذكرها او الاشارة اليها .

وظل الناس على هذه الكتب وقليل غيرها ، حتى نهض المسلمون لتأليف التاريخ وترتيبه وجمعه على ما بيناه في مكانه ، فنهض جماعة الفوا في الجغرافية

كما الفوا في التاريخ ، فوضعوا المعجمات الجغرافية على احرف الهجاء ، واشهر من فعل ذلك ياقوت الحموي المتوفي سنة ٦٢٦ هـ فقد الف كتاباً ضخماً سماه « معجم البلدان » أتى فيه على وصف البلدان والجبال والأودية والقيعان والقرى والمحال والاوطان والبحار والأنهار والاصنام والأبداد والأوثان ، وضمن ذلك كثيراً من تراجم الناس في اثناء ذكره للبلاد التي ولدوا فيها او نسبوا اليها . فهو قاموس جغرافي تاريخي أدبي . ولأبي الفداء صاحب حماه ايضاً كتاب في تقويم البلدان ولغيره غيرها ، فضلا عن الرحلات الكثيرة التي خدم العرب بها الجغرافية ، فنكتفي بالاشارة اليها ونترك التفصيل لتاريخ آداب اللغة العربية .

الآدابُ العَربيَّة الجاهِليَّة

الخطابة بعد الاسلام

الخطابة والشعر من الفنون الجاهلية التي زادها الاسلام رونقاً وبلاغة وارتقاء ، ولكن الخطابة سبقت الشعر في الارتقاء ، لحاجة المسلمين اليها في الفتوحات والغزوات ، والعرب يومئذ لا يزالون على بداوتهم ، تتأثر نفوسهم بالتصورات الشعرية سواء سبكت في قالب الخطابة او الشعر . والخطابة اقرب تناولا ، ولم يرد في القرآن ما ينفر الناس منها كما ورد في الشعر والشعراء . فكما كان الشاعر في الجاهلية يقدم على الخطيب لفرط حاجتهم الى الشعر الذي يقيد مآثرهم ويفخم شأنهم ويهول على عـدوهم ويهيب بفرسانهم ، اصبح الخطيب في الاسلام مقدماً على الشاعر لفرط حاجتهم الى الخطابة[1] في استنهاض الهمم وجمع الأحزاب وارهاب الاعداء .

والفرق بين الخطابة في الجاهلية وفي الاسلام ، ان الاسلام زادها بلاغة وحكمة بما كان يتوخاه الخطباء من مجاراة اسلوب القرآن واقتباس الآيات القرآنية ، وقد كان للقرآن نحو هذا التأثير في الشعر ايضاً ، ولكن الخطابة اوسع مجالاً للاقتباس . فأخذ الخطباء يرصعون خطبهم بالآيات تمثيلاً او اشارة او تهديداً ، حتى لقد يجعلون الخطبة برمتها مجموع آيات ، كما فعل مصعب بن الزبير لما قدم العراق واراد ان يحرض اهله على الطاعة لأخيه عبدالله ، فصعد المنبر وقال : « بسم الله الرحمن الرحيم . طسم ، تلك آيات الكتاب المبين ، نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون ، ان فرعون علا في الأرض وجعل اهلها شيعاً ، يستضعف طائفة منهم يذبح ابناءهم ويستحيي نساءهم انـه كان من المفسدين (واشار بيده نحو الشام) ونريد ان نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم ائمـة ونجعلهم الوارثين (واشار بيـده نحو الحجاز) ونمكن لهم في الارض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون (واشار بيده نحو العراق) »[2] .

---

١ — البيان والتبيين ٩٨ ج ٢ .   ٢ — البيان والتبيين ٢٩ ج ٢ .

وزادت الخطابة بعد الاسلام قوة ووقعاً في النفوس،بنهضة العرب للحروب وانتصارهم في اكثر مواقعها ، فازدادوا انفة وسمت نفوسهم فسما بها ذوقهم في البلاغة ، وشحذت قرائحهم بما شاهدوه من البلاد الجديدة والامم الجديدة والالسنة الجديدة، فبلغت الخطابة عندهم مبلغاً قلما سبقهم فيه احد من الامم التي تقدمتهم بلاغة وايقاعــاً وتأثيراً حتى اليونان والرومان . لا تنكر ما كان من تفوق هاتين الأمتين في الخطابة ، وما نبغ بـين رجالهما من الخطباء الذين لا يشق لهم غبار كديموستنيس واشينس وهيبريدس من خطباء اليونان ، وشيشرون ويوليوس قيصر وسالوستس ولوكيرتس من خطباء الرومان ، ولكن العرب لم يأتوا بأقل مما أتى به اولئك بلاغة ووقعا . وربما كان الخطباء في الاسلام اكثر عدداً وخطبهم اوفر وابلغ ، مع اعتبار الفرق بين الامتين لغة وخلقاً وادباً .

فقد ذكروا لديموستنيس اخطب خطباء اليونان ٦١ خطبة نصفها منسوب اليه خطأ ، وهذه خطب الأمام علي تعد بالمئات.واما في كثرة الخطباء فالعرب كانوا في صدر الاسلام من اكثر الامم خطباء، لأن خلفاءهم وامراءهم وقوادهم كان معظمهم من الخطباء والنساك والزهاد [١] ولا غرابة في ذلك ، لأن العرب اهل خيال وذوو نفوس حساسة ، وللبلاغه تأثير شديد في عواطفهم تقعدهم وتقيمهم . وقد كان ذلك من جملة ما ساعد على نشر الاسلام بينهم . وكثيراً ما توقف فتح البلد او الحصن على خطاب يتلوه القائد على رجاله ، فتثور فيهم النخوةوتسري في عروقهم الحماسة فيستهلكون في الدفاع او الهجوم. وفي اخبار الفتوح ادلة كثيرة لا يساعد المقام على ايرادها . ونعرف قواداً انما ساعدهم على النصر قوة عارضتهم وتأثير خطبهم في نفوس رجالهم .

* * *

فالحجاج بن يوسف كان خطيباً بليغاً زادته الخطابة عظمةوسطوة . كان العراق متمرداً على عبدالملك ، فلما أعجزه امره ولى عليه الحجاج ، فدخل الحجاج الكوفة وصعد المنبر متلثما متنكبا قوسه واضعاً ابهامه على فمه ، فاحتقره الناس وكادوا يرمونه بالحصى كما كانوا يفعلون في الولاة قبله . فوقف وازاح لثامه عن وجهه والقى خطبته التي قال في مطلعها :

انا ابن جلا وطلاع الثنايا   متى اضع العمامة تعرفوني

---

١ – البيان والتبيين ١٣٥ ج ١ .

الى ان قال :

« اما والله لأحمل الشر بثقله واحذوه بنعله وأجزيه بمثله . أما والله اني لارى رؤوساً قد اينعت وحان قطافها ، وكأني ارى الدماء بين العمائم واللحى :

هذا أوان الشد فاشتدي زيم   قد لفهـا الليل بسواق حطم

« الا وان أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان نثر كنانته فعجم عيدانها فوجدني أصلبها عوداً فوجهني اليكم .. فانكم اهل بغي وخلاف وشقاق ونفاق ، طالما سعيتم في الضلالة وسننتم سنن البغي .. أما والله لألحونكم لحو العصا ، ولأعضبنكم عضب السلمة ، ولأقرعنكم قرع المروة ، ولأضربنكم ضرب غرائب الابل .. والله ما أخلق الا فريت ، ولا أعد الا وفيت ... الخ » (١)

فما فرغ من خطبته حتى هابوه واذعنوا له ، وكان شديداً عليهم . وأمره مشهور . ومع ذلك فقد كان اذا رقى المنبر وذكر احسانه الى اهل العراق وصفحه عنهم واساءتهم اليه ، يخيل للسامع انه صادق وان اهل العراق ظالموه ..(٢) ولذلك كان الأمراء والخلفاء يخافون الخطباء كما يخافون الشعراء ، لما في اقوالهم من التأثير في تلك النفوس الحساسة .

واذا رجعت الى حوادث الفتح او جمع الاحزاب او اخماد الثورات رأيت عجباً ، وأول ثورة كادت تهب في الاسلام لما بلغ أهل المدينة موت النبي (صلعم) فهاجوا حتى خاف الصحابة سوء العاقبة ، فقام أبو بكر خطيباً فقال : « أيها الناس ، ان يكن محمد قد مات فان الله حي لم يمت (وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم) وقد علمتم أني أكثركم قتباً في بر ، وجارية في بحر ، فأقروا أميركم وانا ضامن ان لم يتم الأمر ان أردها عليكم » (٣) فهذه الكلمات القليلة كانت كافية لاخماد تلك الثورة .

* * *

وقس على ذلك خطبته في السقيفة ، وخطب من تولى بعده من الخلفاء الراشدين ، واخطبهم بلا خلاف علي بن ابي طالب ، وفي كتاب « نهج البلاغة » المنشور بين ظهرانينا

---

١ ــ العقد الفريد ٧ ج ٣ وغيره .   ٢ ــ البيان والتبيين ٢٠ ج ١ .
٣ ــ البيان والتبيين ١٢٢ ج ١ والشهرستاني ١١ ج ١ .

اكبر شاهد على ذلك ، وان لم تصح نسبة كل تلك الخطب اليه ، فاكثرها من اقواله ، وفيها امثلة على كل ضروب الخطب ، ومنها الدينية والادبية والعلمية والحماسية والفخرية .

وكان اكثر الخلفاء يخطبون ، ولكنهم يتفاوتون في البلاغة وقوة العارضة ، على ان تلك القوة اخذت تضعف فيهم ، بعد الفراغ من الفتوح والانغماس في اسباب الترف والسكون الى الرخاء والبذخ ، وتحولت من الحماسة الى المواعظ ثم الى الشكاية. وتداعى فن الخطابة بتداعي دولة العرب في الشرق ، فلما قامت دولتهم في الاندلس بعثوه وقربوا الخطباء كما قربوا الشعراء ، لكنهم قلما كانوا يستخدمونهم لانهاض الهمم او اخماد الفتن ، لذهاب الحاجة الى ذلك بذهاب البداوة والفراغ من الفتح . على انهم كانوا اذا احتفلوا بتنصيب خليفة او بالنصر على عدو او باستقبال قادم كبير ، تقدمت الخطباء للترحيب به واعظام شأنه او شأن مقعده ووصف ما تهيأ له من توطيد الخلافة [١] .

وأما الامراء والقواد فكانوا يخطبون في الجند قبل الاغارة على العدو فيحرضونهم على الثبات . وكثيراً ما كانت الخطبة سبباً للنصر ، كخطبة خالد بن الوليد في وقعة اليرموك ، وخطبة المغيرة في وقعة القادسية ، وخطبة خليد بن المنذر في غزوة فارس ، وخطبة طارق ابن زياد في فتح الاندلس ، ونحو ذلك مما لا تسعه المجلدات .

ناهيك بشيوع الخطابة في القبائل على اختلاف اصقاعها كما كانت في الجاهلية . وكانت ترد الوفود الى المدينة او دمشق او بغداد او غيرها من عواصم المسلمين لتهنئة الخليفة او استنفاره او استنجاده او استجدائه . وكان شباب الكتاب اذا قدم الوفد حضروا لاستماع بلاغة خطبائهم ، لشيوع حب الخطابة فيهم [٢] ولاقتباس اساليب البلاغة منهم .

ويعد من قبيل الخطابة عند العرب البلاغة في المكاتبات ، فقد كان الخلفاء وخصوصاً في صدر الاسلام اذا كاتبوا اميراً في امر تعمدوا البلاغة كأنهم واقفون على منبر الخطابة ، والغالب في قوى العارضة في الخطابة ان يكون بليغاً في الكتابة . وقد مر الكلام على ذلك .

---

١ – نفح الطيب ١٧٥ ج ١ . ٢ – العقد الفريد ٢٦٧ ج ٢

الشعر بعد الاسلام

لشعر وبنو أمية :

ولما ظهر الاسلام ودهش العرب بأساليب القرآن وبالنبوة والوحي ، واشتغلوا بالغزو والفتح ونشر الاسلام ، انصرفت قرائحهم الشعرية الى الخطابة لحاجتهم اليها في استنهاض الهمم وتحريك الخواطر للجهاد واستحثاث القلوب على العبادة . فانقضى عصر الراشدين والعرب في شاغل عن الشعر ، حتى اذا طمع بنو أمية في الخلافة مع كثرة المطالبين بها من أهل البيت واحتاجوا الى من يؤيدهم ، استنفروا النـاس لنصرتهم وابتاعوا الاحزاب بالأموال واستخدموهم بالدهاء ، فكان الشعر في جملة ما تساعدوا به على ذلك لما قدمناه من تأثيره في النفوس . وكان خلفاؤهم يبالغون في اكرام الشعراء ، اما ليرغبوا الناس في خلافتهم او ليقطعوا ألسنتهم فيسكتوا عن هجوهم ، ولذلك عبروا عن اجازة الشاعر بقطع لسانه .

فكان الخلفاء من بني أمية يرغبون الناس في الشعر ويجيزونهم بأعظم الجوائز ، على نسبة الجودة في اشعارهم ومكانهم في اقـواهم ، وكانوا يطالبون اولادهم بحفظ الاشعار والآثار . على ان تحريض الناس على تعليم اولادهم الشعر بدأ في ايام عمر كما تقدم ، اما بنو أمية فقد بذلوا المال والسعي في هذا السبيل . قال معاوية مؤسس دولتهم : « اجعلوا الشعر أكبر همكم واكثر آدابكم »[١] وكان يبالغ في اكرام الشعراء ولو هجوه ، واقتدى به خلفاؤه وامراؤه ، حتى الحجاج فانه كان يهتم بذلك ويسأل أدباء زمانه عن اشعر الشعراء ويبحث في تفاضلهم ، واذا امتنع عليه ذلك مشافهة كاتب به اهل العلم ، كما كاتب قتيبة بن مسلم[٢] . وكانوا اذا امسك الشعراء عن ابوابهم استوفدوهم واستزاروهم وغمروهم بالامـــوال والاكرام . ومن اكثرهم رغبة في الشعر عبدالملك بن مروان ، فكان الناس في ايامه حيثما اجتمعوا يتناشدون الاشعار ويتدارسون اخبار الشعراء[٣] .

* * *

١ — ابن خلكان ١٠٧ ج ٢ . ٢ — المزهر ٤٢٠ ج ١ .
٣ — لطائف المعارف ٧٠ .

وقد يتبادر الى الاذهان انهم كانوا يفعلون ذلك رغبة في الأدب وتنشيطاً لأهله ، لأن الشعر سجية في العرب ودولة الامويين عربية بحتة فلا يبعد ان يكون لذلك يد في الامر ، ولكن الاغلب انهم كانوا يفعلونه للاستعانة بالسنة الشعراء على مقاومة أهل البيت، لعلمهم ان الجمهور يعتقد ان الحق في الخلافة لهؤلاء . وكثيراً ما كان الشعراء المغمورون بنعم بني أمية لا يتمالكون عن التصريح بذلك في بعض الاحوال .

فالفرزدق مثلا امتدح بني امية ونال جوائزهم ، وكان متشيعاً في الباطن لبني هاشم ، والامويون يعلمون ذلك ويسترضونه . ومن جملة اخباره ان مروان بن الحكم ، وكان عاملا لمعاوية على المدينة ، بلغه عن الفرزدق قول اوجب حده فطلبه ففر الفرزدق الى البصرة ، فقال الناس لمروان : « اخطأت فيما فعلت ، فأنك عرضت عرضك لشاعر مضر » فوجه وراءه رسولا ومعه مائة دينار وراحلة خوفاً من هجائه . ومع ذلك اتفق ان الخليفة هشام ابن عبد الملك ذهب الى الحج ، وبينما هو في الطواف شاهد علي بن الحسين وانكره ، فسأل عنه . وكان الفرزدق حاضراً ، فنظم قصيدته المشهورة في مدح اهل البيت ومطلعها :

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته ‏ ‏ ‏ ‏ والبيت يعرفه والحل والحرم

ومما يدل على ان بني امية كانوا يقربون الشعراء لغرض عائد الى تأييد سلطانهم ، ان عمر بن عبدالعزيز اتقاهم واعدلهم لما اراد ان يتمثل بالخلفاء الراشدين في التقوى والزهد ، منع الشعراء من بابه واعلن انه لا يقبل الشعر ولا يقابل الشعراء[1] فلم يطل حكمه ، وعاد خلفاؤه الى المباراة في اكرام الشعراء والاغداق عليهم بالاموال .

الشعر وبنو العباس

فلما انقضت دولة بني أمية وقامت دولة العباسيين ، عدل المنصور عن اكرام الشعراء، وكانوا قد تعودوا الوفود على الخلفاء او نيل جوائزهم ، فاصبحوا اذا اتوا المنصور منعهم من الدخول عليه اياماً ، حتى تنفد نفقاتهم ويملوا الانتظار وحاجبه يرفع امرهم اليه وهو يؤخرهم . ثم اذا اذن لهم بعد ذلك ، اشترط عليهم ان يمدحوه كما كانوا يمدحون بني أمية[2] وكان بخيلا عليهم ، فتغيرت قلوب الشعراء عليه ، فساعد ذلك على تباعد قلوب

---

١ – العقد الفريد ١١٥ ج ١ . ‏ ‏ ٢ – العقد الفريد ٩٢ ج ١ .

العرب عنه وميلهم الى العلويين ، فاستفحل امر محمد بن عبدالله بالمدينـــة وقاسى المنصور امر العذاب في اخماد ثورته . فأصبح الخلفاء بعـــد المنصور يتجنبون اغضاب الشعراء ويبالغون في اكرامهم . وكان الشعراء يتقربون اليهم بهجو العلويين ، وخصوصاً الرشيد ، فقد كان مروان بن ابي حفصة يتقرب اليه بهجائهم[١] وبعد ان كان الشعراء يسمون في ايام بني أمية السؤال سماهم وزيره جعفر الزوار . وبالغ المأمون في اكرامهم ، حتى كان يغضي عنهم اذا هجوه. ذكروا ان دعبلاً الخزاعي الشاعر هجا ابراهيم بن المهدي ، فرفع ابراهيم امره الى المأمون ، فقال له المأمون : « لك اسوة بي ، فقد هجاني واحتملته وقال في :

أيسومني المأمون خطـــة عاجز ... او ما رأى بالأمس رأس محمد ؟
إني من القـــوم الذين سيوفهم ... قتلت اخـــاك وشرفتك بمقعد
شادوا بذكرك بعـد طول خموله ... واستنقذوك من الحضيض الأوهد »

فقال ابراهيم : « زادك الله حلماً يا امير المومنين »[٢] .

وتزاحم الشعراء بباب المهدي والرشيد والمأمون ، ونبغ بشار بن برد العقيلي وابو نواس وابو العتاهية وغيرهم .

الشعر ودول العرب

والشعر كما قدمنا من العلوم العربية ، فلما تغلب العنصر الأعجمي في دولة بني العبـاس وصارت الأمور الى ايدي الأتراك ضعف أمر الشعراء . حتى إذا قامت دولة بني حمدان ، وهم عرب ، عاد الشعر الى رونقه وتزاحم الشعراء بباب سيف الدولة ، حتى قيل أنـــه لم يجتمع بباب خليفة من شيوخ الشعر ونجوم الشعر ما اجتمع ببابه . وكان هو أديباً شاعراً ، فاشتهر في عصره أبو فراس والمتنبي والسري الرفاء وأبو العباس أحمد بن محمد النامي وأبو الفرج عبد الواحد الببغاء وأبو الفرج الوأواء وغيرهم .

فلما انقضت تلك الدولة العربية عـــاد الشعر في الشرق الى الخمول ، وكان قد أينع في دولة بني أمية في الأندلس وراجت سوقه واتسع نطاقه وكثرت فنونه على ما سيجيء .

أما دول المسلمين غير العرب ، فقد كان فيهم من يحب الشعر ويكرم الشعراء ، ولكن

---

١ ــ ابن خلكان ٨٩ ج ٢ . ٢ ــ ابن خلكان ١٧٩ ج ١

الغالب فيهم ان يفعل الملك منهم ذلك على سبيل القدوة او المباهاة، وهو لا يفهم ما يقرأه من مدائحه . ومما يضحك من هذا القبيل ان الشعراء وفدوا على يوسف بن تاشفين امير دولة المرابطين وكان من بربر قبيلة لمتونة البربرية بالمغرب ونظموا القصائد في مدحه بواسطة المعتمد بن عباد ، فلما أنشدوه قصائدهم قال له المعتمد : « أيعلم أمير المسلمين ما قالوه ؟ » قال : « لا اعلم ، ولكنهم يطلبون الخبز . . » . ولما انصرف المعتمد الى ملكه كتب الى ابن تاشفين رسالة قال في جملتها :

بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا ... شوقاً اليكم ولا جفت مآقينا
حالت لفقدكم أيامنا فغدت ... سودا ، وكانت بكم بيضا ليالينا

فلما قرىء عليه هذان البيتان قال للقارىء : « يطلب منا جواري سودا وبيضا ؟ » قال : « لا يا مولانا . . ما أراد إلا أن ليله كان بقرب أمير المسلمين نهاراً لأن ليالي السرور بيض ، فعاد نهاره ببعده ليلاً لأن ليالي الحزن سود . . » . فقال : « والله جيد . . اكتب له في جوابه أن دموعنا تجري عليه ، ورءوسنا توجعنا من بعده ! » (١)

جمع الشعر ورواته

لما اخذ المسلمون في تفسير القرآن واحتاجوا الى تحقيق معاني الألفاظ ، كان الشعر في جملة ما رجعوا اليه في تحقيقها ، فاضطروا الى جمعه بالأخذ عن رواته . شرعوا في ذلك من القرن الأول للهجرة . واكثر الناس اشتغالاً بجمع الشعر اهل العراق مما يلي بلاد العرب اي في البصرة والكوفة ، وكان اهل الكوفة اجمع للشعر من اهل البصرة (٢) واول من جمع اشعار العرب وساق احاديثها حماد الراوية الديلمي الكوفي المتوفي سنة ١٥٥ هـ (٣) وخلف ابن حيان الاحمر الفرغاني مولى ابن بردة (٤) وابو عمرو العلاء وابو عبيدة والاصمعي وغيرهم ، واكثرهم من رواة الادب واللغة ، وقد مر الكلام على ذلك في بابه .

وبلغ ما جمع من شعر الجاهلية عشرات الألوف من القصائد ، مما لم يسمع له مثيل في أمة من الأمم كما تقدم . على ان بعض الرواة كانوا ينظمون الشعر وينسبونه الى العرب لأسباب دعتهم الى ذلك ، لكنهم لم يفعلوا في هذا النحو ما يتجاوز الأبيات القليلة . قال خلف

---

١ — نفح الطيب ٧٨١ ج ٢ .
٢ — المزهر ٢٠٦ ج ٢ .
٣ — ابن خلكان ١٦٤ ج ١ .
٤ — طبقات الادباء ٦٩ .

الاحمر : « أتيت الكوفة لأكتب عنهم الشعر فبخلوا علي بـه ، فكنت أعطيهم المنحول وآخذ الصحيح ، حتى مرضت فقلت لهم : « ويلكم ! أنا تائب الى الله .. هذا الشعر لي » فلم يقبلوا مني ، فبقي منسوباً الى العرب لهذا السبب » [١] .

وقال أبو عمرو بن العلاء : « ما زدت في شعر العرب الا بيتاً واحداً وهو :

وانكرتني وما كان الذي نكرت   من الحوادث الا الشيب والصلعـا

ادخلته في جملة ابيات الاعشى » . وفعل حماد أيضاً نحو ذلك [٢] على ان العرب مـا لبثوا ان اخذوا في تمحيص الروايات بالاسانيد ، بعد ان تعودوا ذلك في رواية الحديث .

* * *

ومن عادة العرب في رواة الشعر ، انهم كانوا من ايام الجـاهلية اذا نبغ الشاعر صحبه رجل يروي اشعاره ويتلوها، او يروي له اشعار غيره للشاهد او نحوه. ويغلب على الراوية ان يكون مرشحاً للشاعرية ، كأنه تلميذ يتدرب على يد استاذه يأخذ عنه. وكانت عمدتهم في الجـاهلية على الحفظ ، لانهم لم يكونوا يكتبون ، فـكان كثير عزة راوية جميل بثينة ، وجميل راوية هدبة بن خشرم، وهدبة كان راوية الحطيئة ، والحطيئة راوية زهير وابنه [٣] وكان الراوية في الجاهلية واوائل الاسلام يروي للشاعر الواحـد ويصحبه وينشد له ، ويعجب به اعجاب التلميذ بأستاذه ويناضل عنه ويفضله على سواه . فلما احتاج العرب الى جمع الشعر كثر رواته او جماعه، وكل منهم يجمعه ويرويه لغرض. فالنحويون كانوا يعتنون بحفظ الاشعار التي يستشهد بهـا في الاعراب ، والشعراء كانوا يروون كل شعر فيه لفظ غريب او معنى صعب يحتاج الى الاستخراج ، والاخباريون كانوا يجمعون من الشعر مـا يجدون فيه الشاهد والمثل وكان فيهم من يروي اشعار المجانين ولصوص الاعراب والارجاز الاعرابية القصار واشعار اليهود، على ان هؤلاء لم يكونوا يعدون من الرواة. وتفرد جماعة بجمع كل انواع الشعر ، وهم الرواة الذين ذكرناهم ومنهم حماد وخلف وغيرهمـا . وكانت لهم في الحفظ نوادر غريبة ، لتعود ذاكرتهم على ذلك مذ اخذ الناس في ذلك العصر بتعويد حوافظهم على حفظ القرآن والحديث ، لتجنب الكتابة للأسباب التي

---

١ – ابن خلكان ٢٠٨ ج ١ .   ٢ – ابن خلكان ٢٨٧ ج ١ .
٣ – الاغاني ٧٨ ج ٧ .

قدمناها . فكان فيهم من يحفظ بضعة وعشرين الف قصيدة ، يرويها بأسانيدها ومعاني الفاظها كما تقدم. وكان للشعراء عناية خاصة في حفظ اشعار العرب،لاكتساب ملكةالعرب فيها ، لانهم كانوا يعتقدون ان من يحفظ شعر شاعر فحل يشمر مثله ، او للجواب على ما قد يعرض عليهم من الاسئلة ، اذ كان الخلفاء والامراء في الدولة الاموية وصـدر الدولة العباسية عناية كبيرة في استطلاع اشعار العرب .

طبقات الشعراء

العرب مطبوعون عـــلى الشعر ، ولكنه يختلف فيهم معنى وأسلوباً باختلاف العصور والاقـــاليم . فالبدوي الذي كان ينظم القصيدة وهو يسوق بعيره في عرض البيداء لا يرى حوله الا رمـالاً أو أطلالاً ، اذا لذعته الشمس او جنه الظلام اوى الى بيت من الشعر او الوبر ، أنيسه فيه البعير والفرس وطعـامه اللبن والتمر وضجيعه السيف والرمح ، يتوسد على حذر من عدو يبغته او حشرة تلسعه ، واذا واعد حبيبته فموعدهما الرقمتان او العقيق فيلتقيان على أكمة او في واد ، يعبد آلهة من الحجارة او الاخشاب او يصنعهـا من التمر ، واذا جاع أكلها . . فالبدوي الذي هذه حاله لا يكون خياله الشعري مثل خيـال رجل نشأ بين القصور الشماء والحدائق الغناء ، ولبس الحرير وتوسد الديباج وتعود ابهـة الدولة وجلال الملك ، وعاشر الخلفاء والوزراء وعانى اسباب التأنق وانغمس في الترف والبذخ. فان الشعر تختلف طبقاته باختلاف هذه الاحوال . ولذلك كان الشعر الجـاهلي اقرب الى الخشونة والمتانة ، مع خلوه من زخرف الكلام وأساليب الكتابة والمجاز .

فلما جاء القرآن وشاع حفظه وحفظ الأحاديث ، وعنى الناس بجمع الآداب والأمثال واستظهار احاسنها واحاسن الشعر ، نهضت طباع الناس وارتقت اذواقهم في البلاغـــة ورسخت ملكاتهم واتسعت تصوراتهم في الشعر والخطابة . فكان كلامهم في نظمهم ونثرهم أسمى رتبة واصفى رونقاً ، واقتبسوا من الفرس اساليب الاطنـاب . ولذلك كان الشعراء الاسلاميون اعلى طبقة في البلاغة واذواقها من شعراء الجاهلية . فشعر حسان بن ثابت وعمر ابن أبي ربيعـة والحطيئة وجرير والفرزدق ونصيب وذي الرمة والأحوص ارفع طبقة في البلاغـة والتفنن في اساليب التعبير من شعر النابغة وعنترة وعمرو بن كلثوم وزهير وعلقمة وطرفة [١] كما كان الخطباء الاسلاميون احسن ديباجة وابلغ عبارة من خطبـاء الجاهلية .

١ — ابن خلدون ٥٠٨ ج ١ .

فالجاهليون طبقة أولى، تليهم طبقة الاسلاميين الى اواخر دولة بني امية وهم المخضرمون، ثم طبقة ثالثة في الدولة العباسية هي طبقة المولدين ، تليها طبقة المحدثين . ولا يسعنا تعيين حد فاصل بين كل طبقة وما تليها ، لان كثيرين من الشعراء ادركوا اواخر احدى هذه الطبقات واوائل التي تليها . فمن شعراء الجاهلية من ادرك الاسلام ، ومن المخضرمين من ادرك زمن المولدين ، وقس على ذلك .

وانما نقسم الشعراء الى هذه الطبقات تقسيماً اجمالياً . فالطبقة الأولى شعراء الجاهلية ، والمراد بهم من كان شعره جاهلياً او نظم اكثره قبل الاسلام. ومزية الشعر الجاهلي البساطة والخشونة ، فاذا وصفوا عاطفة مثلوها بطبيعتها ، او وصفوا اسداً او بيتاً او ظبياً لم يكن في عبارتهم تكلف ولا تعمل او مبالغة . واشهر اهل هذه الطبقة اصحاب المعلقات.

والطبقة الثانية ، وهي المخضرمون ، تشبه الأولى من حيث بقاء اهلها على البداوة في عهد الأمويين ، ولكنها اسمى منها في البلاغة للأسباب التي قدمناها ، وعليها مسحة من الحضارة . ومن اشهر الشعراء المخضرمين حسان بن ثابت وكعب بن زهير وجرير والأخطل والفرزدق .

والطبقة الثالثة المولدون ، وشعراؤها من معاصري الرشيد والمأمون ، في عصر الزهو العباسي، عصر الترف والبذخ والتأنق والرخاء، فرقت طباعهم وارتقت اذواقهم بالمعاشرة والمخالطة ، فظهر ذلك في اشعارهم فعمدوا الى وصف الخمر ومجالس الأنس وحدائق القصور ونحو ذلك . فشعر المولدين يمتاز عن الطبقتين السابقتين بالرقة والخلاعة ، واشهر المولدين بشار العقيلي وابو العتاهية وابو نواس وابو تمام والبحتري .

وأما الطبقة الرابعة فنريد بها الشعراء الذين نبغوا بعد انتشار الفلسفة اليونانية وعلوم اليونان وشيوع علم الكلام، وفي شعر أهل هذه الطبقة صبغة فلسفية حكمية جدلية، كشعر المتنبي والمعري والشريف الرضي والصفي الحلي .

الشعراء في الاسلام واشعارهم :

تكاثر الشعراء في العصر الاسلامي فوق تكاثرهم في العصر الجاهلي ، لرواج سوق الشعراء في القرون الأولى . على ان احصاءهم بالضبط غير متيسر لضياع اكثر اخبارهم ، لكننا نستدل من بعض النصوص على ان عددهم كان عظيماً جداً ، فقد ذكر ابن خلكان : « ان هرون بن علي المنجم البغدادي صنف كتاب البارع في اخبار الشعراء المولدين وجمع

فيه ١٦١ شاعراً ، وافتتحه بذكر بشار العقيلي وختمه بمجمد بن عبد الملك بن صالح » ، والفترة بينهما قصيرة ، وذكر المؤلف انه اقتصر على خـــيرة الشعراء ونخبتهم . فقس على ذلك الشعراء المخضرمين والمحدثين من اهل الطبقة الرابعة ، ناهيك بشعراء الاندلس فانهم يعدون بالمئات .

اما مقدار ما نظمه اولئك الشعراء من القصائد والدواوين فمما لا يحصيه عد ، وقـــد فقد معظمه في الفتن وغيرها في العصور الاسلامية الوسطى ، فنكتفي منها بمـــا ذكره صاحب كشف الظنون ، فانه ذكر نحو ستمائة ديوان لستمائة شاعر من المشاهـــير ، اورد اسماءهم والقابهم وسني وفاتهم ، وهم من اهل العراق والشام وفارس وخراسان ومصر والاندلس وغيرها . ويختلف حجم هذه الدواوين ومقدار صفحاتها من الفي صفحـــة الى مائة وما تحتها ، وتقدير الورقة في اصطلاحهم صفحتان كل صفحـــة عشرون سطراً . فديوان بشار العقيلي مثلا الف ورقة في الفي صفحة أي ٤٠٫٠٠٠ سطر او بيت ، وابن هرمة ٥٠٠ ورقة في ٢٠٫٠٠٠ بيت ، وشعر ابي نواس في نحو الف ورقة ، ومسلم بن الوليد ٢٠٠ ورقة ، وقس على ذلك[١] .

واذا اعتبرت الدواوين التي ضاعت وفات صاحب كشف الظنون ذكرها ، والشعراء الذين لم تجمع اشعارهم ولم يكن لهم دواوين، زاد استغرابك من كثرة الشعر العربي وتعداد شعرائه مما لا تجد له مثيلاً في لغة من لغات العالم القديم او الحديث .

عروض الشعر

المشهور ان الخليل بن احمد المتوفي سنة ١٧٠ هـ هو اول من وضع عروض الشعر العربي، اي استنبطه واخرجه الى الوجود وحصر اقسامه في خمس دوائر يستخرج منهـا خمسة عشر بحراً ، ثم زاد فيه الاخفش بحراً واحداً سماه الخبب[٢] . ولكن الغالب ان بحور الشعر كانت معروفة من قبل ، ولولا ذلك لم يستطع العرب ضبط منظوماتهم على ما نراه في اشعارهم . ويؤيد ذلك قول الوليد بن المغيرة منكراً قول من قال ان القرآن شعر : « لقد عرفت اضرب الشعر وهزجه ورجزه وكذا وكذا فلم أره يشبه شيئاً من ذلك »[٣] فكيف يقول هذا وهو لا يعرف بحور الشعر ؟ فالظاهر ان الخليل اول من جعل العروض علمـــاً

---

١ – الفهرست ١٥٩ .   ٢ – ابن خلكان ١٧٢ ج ١ .

٣ – المزهر ١٧٧ ج ٢ .

ورتبه هذا الترتيب وزاد فيه انواعاً من الشعر ليست من اوزان العرب[١] وربما زادوا فيه بعد ذلك شيئاً من بحور اليونان او اساليبهم ، لأن بعض الذين كانت لهم عناية باللغة اليونانية في ذلك العصر كانوا يقابلون بين شعرها وشعر العرب . ولابن الهيثم في اوائل القرن الخامس للهجرة رسالة في صناعة الشعر ممتزجة من اليوناني والعربي[٢] لم نقف عليها . على ان ابن شرشير – الشاعر المعروف بالناشيء الاكبر المتوفي سنة ٢٩٣ هـ – كان قد نظر في قواعد العروض وادخل عليها شبهاً ومثلها بغير امثلة الخليل[٣] .

ولا مشاحة في ان عروض الشعر ارتقت وتفرعت بتوالي القرون ، شأن كل ما هو من قبيل الاحياء (اي كل ما هو من صنع البشر) ، فتولد في النظم ضروب من القصائد كالاصمعيات والشعر البدوي والحوراني وغيرها .

اما الاندلس فقد كان للشعر فيها تاريخ خاص لرواجه عندهم بعد اشتغال الامم الاخرى عنه ، فانهم هذبوا مناحيه وفنونه حتى بلغ التنميق فيه الغاية ، واستحدثوا الموشح ونظموا به الموشحات الاندلسية المشهورة . استنبطه مقدم بن معافى القبري الاندلسي في اواخر القرن الثالث للهجرة[٤] ولما شاع التوشيح عندهم واخذ به الجمهور ، لسلاسته وتنميق كلامه ، نسجت العامة من اهل الامصار على منواله ونظموا في طريقته بلغتهم الحضرية من غير ان يلتزموا فيها اعراباً ، واستحدثوا فناً سموه « الزجل » شهره ابو بكر بن قزمان القرطبي ويعرف بامام الزجالين .

ثم استحدث اهل الأمصار في المغرب فناً آخر من الشعر في اعاريض مزدوجة ، نظموه بلغتهم الحضرية وسموه « عروض البلد » استنبطه ابن عمير الاندلسي . وشاع هذا الفن بفاس فنوعوه اصنافاً سموها : المزدوج ، والكاري ، والملعبة ، والغزل وغيرها ، كما شاعت الآن انواع الزجل المصري في مصر ، والقريض اللبناني ، والمعنى في الشام .

وكان لعامة بغداد فن من الشعر يسمونه « المواليا » تحته فنون كثيرة ، ذكروا منها « القوما » و « كان وكان »[٥] ومنه مفرد ومنه في بيتين وغير ذلك . ثم انتقل الى الامصار وتفننوا فيه ، وهو شائع الآن في سوريا والعراق ومصر .

---

١ – المزهر ٢٠٢ ج ٢ . ٢ – طبقات الاطباء ٩٤ ج ٢ .
٣ – ابن خلكان ٢٦٣ ج ١ . ٤ – ابن خلدون ٥١٨ او ابن الاثير ٢٨ ج ٨ .
٥ – ابن خلكان ٥٣٠ ج ١ .

الشعر والدولة

بينا في كلامنا عن الشعر في الجاهلية مـــا كان له من التأثير في نفوس العرب لشدة حساسيتها وسرعة تأثرها . فلمـــا صار العرب دولة وارتقت عقولهم زاد شعورهم رقة فازدادوا حساسية وتضاعف تأثـير الشعر فيهم . واتسعت دائرة ذلك التأثير باتساع دولة المسلمين واهتمامهم بالشعراء واشعارهم. فقد رأيت مـــا كان من احتفاء بني أمية بالشعراء واستقدامهم اليهم ، وظل ذلك في صدر الدولة العباسية وفي كل دولة عربية . فاذا وفـد الشاعر على الخليفة او الأمير استأذن في الدخول عليه ، فاذا حل أنشد قصيدته جهـــاراً والخليفة وارباب مجلسه يسمعون [١] ويترنمون فيأمر الخليفة او الأمير بالجائزة وقد تتجاوز مائة الف درهم الى الف الف [٢] وقد يرتب له الرواتب الشهرية ويخلع عليه الخلع ويقـلده الوظائف [٣] . ومن اكثر الخلفاء سخاء على الشعراء المهدي والرشيد العباسيـان والناصر والحكم المستنصر الأندلسيان . ومن اسخى الأمراء خالد القسري أمير العراقين في زمن الأمويين وسيف الدولة بن حمدان .

على أن الخلفاء والأمراء عموماً كانوا يبذلون الأموال للشعراء الا نادراً ، وكانوا يعينون يوماً كل أسبوع أو كل شهر أو سنة يستقبلون فيه الشعراء لا يدخلون فيه سواهم [٤] كأنهم يريدون التفرغ للنظر في الشعر وآدابه . وكان الشعراء يتناظـــرون ويتنافسون في ذلك المجلس ، ولا يخفى ما يترتب على تلك المناظرة من شحذ الأذهان وانهاض العزائم . وكان الاندلسيون اكثر عناية في ذلك من سواهم : كان للمعتضد بن عباد أمير أشبيلية المتوفى سنة ٤٦١هـ، دار خاصة بالشعراء يجلسون فيها على الرحب والسعة، فاذا آن يوم الشعراء ـ وهو يوم الاثنين من كل أسبوع ـ يدخلون عليه ولا يدخـل عليه سواهم . وكان للشعراء مراتب عندهم ولهم رئيس يوليه السلطان [٥] وسجل خاص يقيدون فيه اسماءهم كأنهم يعدونهم من جملة موظفي الحكومة [٦] وكان أمراء الأندلس اذا عاد احدهم من فتح جلس الناس فيقرأ القراء ثم يقوم الشعراء فينشدون . ونظنهم كانوا يبالغون في اكرام الشعراء اقتداء بخلفـاء بغداد ، كما اقتدوا بهم في كثير من آدابهم ونظمهم وسائر احوالهم .

---

١ – ابن خلكان ٧٢ ج ١ . ٢ – ابن خلكان ١٩٨ ج ١ .
٣ – نفح الطيب ٧٢٩ ج ٢ . ٤ – الاغاني ٤٤ ج ٩ وابن خلكان ١٦٩ ج ١ .
٥ – نفح الطيب ١١٩ ج ٢ . ٦ – نفح الطيب ٨٩٥ ج ٢ .

الشعر والخلفاء والأمراء :

ومن اسباب رواج صناعة الشعر في الدولة العربية ان الخلفاء انفسهم كانوا ينظمون الشعر ويبحثون فيه ، ولبعضهم القصائد والمقاطيع الحسنة . ومن اشهر الخلفاء الشعراء يزيد بن معاوية ، فقد جمعوا شعره في ثلاث كراريس ذكر ابن خلكان انه قرأها وحفظ ابياتها لشدة غرامه بها [١] ولا غرابة في ذلك لأن يزيد نشأ في البادية ، ووالدته ميسون بنت بحدل الكلبية التي لم تعجبها قصور معاوية في الشام فحنت الى البادية وأنشدت الأبيات التي مطلعها :

لبيت تخفق الأرواح فيه   احب الي من قصر منيف
ولبس عباءة وتقر عيني   احب الي من لبس الشفوف

فسمعها معاوية فطلقها ، فسارت الى اهلها في نجد وهي حامل بيزيد فولدته بالبادية فأرضعته سنتين [٢] هناك . ومن الخلفاء الشعراء أيضاً الوليد بن يزيد بن عبد الملك وهرون الرشيد . واكثر الخلفاء العباسيين كانوا ينظمون الشعر ، واشعرهم بلا استثناء عبد الله بن المعتز المتوفي سنة ٢٩٦ هـ ، ولم يتول الخلافة الا يوماً وليلة ، وكان من رجال العلم وله ديوان شعر [٣] قد طبع ونشر بمصر . وآخر من نظم الشعر منهم الراضي بالله المتوفي سنة ٣٢٩ هـ ، فانه آخر خليفة دون له شعر ، وآخر خليفة خطب على منبر وجالس الندماء ووصل اليه العلماء [٤] .

واما الخلفاء وامراؤهم فقد نظم الشعر منهم عبد الرحمن الاوسط والمستعين بالله . وقد الف الصولي كتاباً مستقلاً في اشعار خلفاء بني العباس ، فحسدهم خلفاء بني امية بالاندلس ، فكان هم الخليفة الحكم الاندلسي من يؤلف له كتاباً في بني امية مثل كتاب الصولي في بني العباس [٥] .

واذا تدبرت ما تقدم رأيت اكثر الخلفاء والأمراء عناية في الشعر اكثرهم اقتداراً على نظمه ، لأنهم كانوا يقدرون الشعر قدره . وذلك شأن العلم في الدول المطلقة ، فانما يروج فيها من الصنائع والفنون والعلوم والآداب ما كان للملوك او الأمراء رغبة فيه . فالوليد

---

١ – ابن خلكان ٥٠٨ ج ١ .
٢ – الدميري ٢١٨ ج ٢ .
٣ – ابن خلكان ٢٥٨ ج ١ .
٤ – الفخري ٢٥٢ .
٥ – نفح الطيب ١٠٠٣ ج ٢ .

ابن يزيد بن عبدالملك اعطى يزيد بن منبه على قصيدة مدحه بها عن كل بيت الف درهم[١] وهو اول خليفة عد الشعر واعطى على البيت الف درهم . ويقـــال نحو ذلك في سائر الخلفاء الشعراء ، وكذلك الأمراء ، فان سيف الدولة لم يرج الشعر في عصره إلا لأنه كان هو نفسه شاعراً[٢] .

فكان الغرض من تقريب الشعراء في اول دولة بني أمية سياسياً ، ثم صار أدبياً يندفع الخلفاء والأمراء اليه تلذذاً بالشعر وآدابه ولذلك كانوا يجالسون الشعراء ويقترحون عليهم نظم القصائد او الأبيات ، او يستقدمونهم للسؤال عن بيت استغلق عليهم فهمه او نسوا بعضه ، وقد يكون بينهم وبين الشاعر بعد شاسع . فقد بعث هشام بن عبدالملك بدمشق الى اميره على العراق يوسف بن عمر الثقفي ان يوجه اليـه حمادا الراوية ويدفع له خمسمائة دينار وجملا مهرياً ، فسار حماد الى الشام في ١٢ ليلة ، ولما وصلها وسأل عن سبب استقدامه قال له هشام : « خطر ببالي بيت لا اعرف قائله وهو :

دعوا بالصبوح يوماً فجاءت ... قينة في يمينها ابريـــق »

فقال حماد : « يقوله عدي بن زيد العبادي » وانشده باقي القصيدة[٣] . وكثيراً مـا كانوا يفعلون ذلك وهم في مجلس من مجالس الطرب لا يحوزه الشرع ،فان يزيد بن عبدالملك صاحب حبابة التي مات في سبيل تهتكه بهـا ، كانت تغنيه ذات ليلة وتسقيه فطرب ثم غنته :

اذا رمت عنها سلوة قال شافع ... من الحسن ميعاد السلو المقابر

فسألها من قائل هذا البيت فقالت : لا ادري ، فبعث الى الزهري ليستخبره وكان قد ذهب من الليل شطره ، فجاء وهو يرتعد خوفاً فلما علم السبب سري عنه[٤].

على ان الغالب في مجالسة الشعراء ان تكون لغرض أدبي ، كوصف منظر او اداة ، كما فعل الهادي اذ استقدم الشعراء اليه واقترح عليهم ان يصفوا سيفاً اهداه اليه المهدي ، وهو سيف عمرو بن معد يكرب ، فوضع السيف بين يديه وقال للشعراء : صفوه ، فنال الجائزة ابن يامين المصري[٥] .

---

١ – ابن الاثير ١٣٧ جـ ٥ . ٢ – ابن خلكان ٣٦٥ جـ ١ .
٣ – ابن خلكان ١٦٥ جـ ١ . ٤ – حلبة الكميت ٦٠ .
٥ – المسعودي ١٨٧ جـ ٢ .

وكان الرشيد من اكثر الخلفاء بحثاً في الشعر وقائليه ، فقد سأل اهل مجلسه مرة عن صدر هذا البيت : « ومن يسأل الصعلوك اين مذاهبه » فلم يعرفه احد وكان الأصمعي مريضاً لا يقدر على المجيء ، فأرسل اليه اسحق الموصلي وبعث معه الف دينار لنفقته ، فجاء الجواب ان البيت من قصيدة لأبي النشناش النهشلي ، وهذا صدره :

وسائلة اين الرحيـــل وسائل ومن يسأل الصعلوك اين مذاهبه[١]

وكثيراً ما كان الرشيد يعقد المجالس للبحث في معنى بيت ، وقد سأل اهل مجلسه يوماً عن معنى هذا البيت :

قتلوا ابن عفان الخليفة محرماً ورعا فلم ار مثله مخـــذولا

وكان في المجـلس الكسائي والأصمعي ، فطال الجدال بينهما والخليفة يسمع [٢] واعطى الرشيد الفضل خاتماً قيمته ١٫٦٠٠ دينار مكافأة على احسن بيت قالته العرب في الذئب[٣] والمأمون ولى ابن الجهم ولاية من اجل بيت طلبه منه واشترط عليه ذلـــك [٤] وقس على ذلك ما كان يجري من هذا القبيل في مجالس سيف الدولة وغيره من محبي الشعر .

تأثير الشعر في الدولة

ويقال بالاجمال ان الشعر كان عند العرب كل آدابهم ، يتنـاشدونه ويتسامرون به ويتذاكرون فيه ، لم يكن ذلك قاصراً على الخلفاء والأمراء او الأدباء ، ولكنه كان عاماً في الرجال والنساء. وكانوا لكثرة ما يحفظونه منه يرمزون باسم الشاعر الى بيت من أبياته مشهور بمعنى ويريدون ذلك المعنى، كما اتفق لرجل كان قاعداً على جسر بغداد فوجد امرأة بارعة في الجمال قادمة من جهة الرصافة ، فاستقبلها شاب فقال : «رحم الله علي بن الجهم». فقالت له المرأة : « رحم الله ابا العلاء المعري » وما وقفا بل سارا مشرقاً ومغرباً . قــال الرجل : «فتبعت المرأة وقلت لها : والله ان لم تقولي لي ما اراد وما اردت لافضحنك ! ». قالت : أراد بعلي بن الجهم قوله :

عيون المها بـــين الرصافة والجسر جلبن الهوى منحيث أدري ولا أدري

وأردت بأبي العلاء قوله :

---

١ – المزهر ٨٣ ج ١ . ٢ – المزهر ٢٧٨ ج ١ .
٣ – النجوم الزاهرة ٤٦٢ ج ١ . ٤ – الاغاني ١٦ ج ١٣ .

فيا دارها بالخيف ان مزارها قريب ولكن دون ذلك أهوال (١)

فلا غرو بعـــد ما تقدم أن رأيت للشعر تأثيراً شديداً في نفوس كبار القوم ، حتى يترتب على انشاد البيت الواحد ايقاد نار الحرب او قتل جماعة او انقاذهم من القتل .

ومن أمثلة ذلك أن أبا العباس السفاح أول خلفاء بني العباس ، لما استوثق له الأمر بالخلافة تتبع بقايا بني أمية ورجالهم ووضع السيف فيهم . ولكن جماعة من كبارهم كانوا قد استأمنوا وصاروا يحضرون مجلس السفاح ، فاتفق مرة أن أحدهم سليمان بن هشام بن عبد الملك كان في مجلس السفاح وقد أكرمه ، فدخل سديف بن ميمون الشاعر وأنشد :

لا يغرنك ما ترى من رجال ان تحت الضلوع داء دويا
فضع السيف وارفع السوط حتى لا ترى فوق ظهرها أمويا

فالتفت سليمان وقال : قتلتني يا شيخ ! ثم أخذ سليمان فقتل . ودخل على السفاح شاعر آخر ، وقد قدم الطعام وعنده نحو سبعين رجلا من بني أمية فأنشده :

أصبـــح الملك ثابت الآساس بالبهاليل من بني العبـــاس

ثم ذكر مظالم بني أمية الى أن قال :

واذكروا مصرع الحسين وزيدا وقتيـــلا بجانب المهراس
والقتيل الذي بحران اضحى ثاويـــاً بين غربة وتناس

فأمر بهم السفاح فضربوا بالسيوف حتى قتـلوا ، وبسط النطوع عليهم وجلس فوقهم فأكل الطعام وهو يسمع أنين بعضهم حتى ماتوا جميعاً (٢) .

ويقال نحو ذلك في القصيدة التي هاجت الرشيد لمحاربة نقفور ملك الروم ومطلعها :

نقض الذي أعطيته نقفور فعليه دائرة البوار تدور (٣)

وكثيراً ما كان ينجو الرجل من القتل ببيت يعجب به الخليفة فيخلي سبيله ، وحكاية مالك بن طوق مع الرشيد مشهورة ، فانه بعد أن استوجب القتل وركع على النطع قال القصيدة التي مطلعها :

---

١ – حلبة الكميت ٩٥ . ٢ – الفخري ٣١٤ . ٣ – المسعودي ١٤٢ ج ١ .

أرى الموت بين النطع والسيف كامنا   يلاحظني من حيثما أتلفت

الى أن قال :

وما بي من خوف أموت وانني   لأعلم أن الموت شيء موقت
ولكن خوفي صبية قد تركتهم   وأكبادهم من حسرة تتفتت
كأني أراهم حين أنعي اليهم   وقد خمشوا تلك الوجوه وصوتوا
فان عشت عاشوا آمنين بغبطة   أذود الردى عنهم ،وإن مت موتوا
فكم قائل : لا يبعد الله داره !   وآخر جذلان يسر ويشمت

فبكى الرشيد وقال : « لقد سكت على همة وتكلمت على علم وحكمة ، وقد عفوت لك عن الصبوة ووهبتك للصبية ، فارجع الى ولدك ولا تعاود » فقال : « سمعاً وطاعة » وانصرف [١] .

وكم من قائد رجع عن الهزيمة ببيت تذكره فتحمس . قال معاوية يرغب الناس في الشعر : « .. فان فيه مآثر أسلافكم ومواضع ارشادكم ، فلقد رأيتني يوم الهزيمة وقد عزمت على الفرار فما ردني الا قول ابن الاطنابة الانصاري .

أبت لي عفتي وأبى بلائي   وأخذي الحمد بالثمن الربيح » [٢]

وقس على ذلك كثيراً من أمثال هذه الحوادث في الجاهلية والاسلام .

---

١ ـ فوات الوفيات ١٤٣ ج ٢ .   ٢ ـ ابن خلكان ١٠٧ ج ٢ .

العلوم الدخيلة

فرغنا من الكلام فيما اقتضاه التمدن الاسلامي من العلوم الاسلامية ، وفي الأسباب التي دعت الى نشوئها ، وفي الآداب العربية الجاهلية وما بلغت اليه في الاسلام ، ونحن متقدمون فيما يلي الى الكلام في العلوم الدخيلة التي نقلها المسلمون الى العربية ، ونريد بها العلوم القديمة التي كانت شائعة عند ظهور الاسلام في الممالك التي عرفها المسلمون . وهي عبارة عن خلاصة أبحاث رجال العلم والفلسفة والأدب في ممالك التمدن القديم ، على اختلاف الأمم والدول والأماكن والأصقاع في القرون المتوالية ، من أقدم أزمنة التاريخ الى أيامهم ، وفيها زبدة علوم الأشوريين والبابليين والفينيقيين والمصريين والهنود والفرس واليونان والرومان . ولا يراد بذلك ان العرب أخذوا علم كل أمة عن أهله رأساً ، ولكنهم جاءوا والعلوم قد تحلبت بتوالي العصور وتفاعل العناصر ، واجتمع معظمها لليونان فبوبوها ورقوها وظهرت النصرانية فأثرت فيها ، وبقي بعضها في بقايا الدول القديمة كالفرس والكلدان والهنود وغيرهم ، ممن دانوا للمسلمين وانتظموا في خدمتهم ، فأخذوا من هؤلاء جميعاً . ولذلك كان من جملة أفضال التمدن الاسلامي على العلم أنه جمع شتات تلك العلوم من اليونانية والفارسية والهندية والكلدانية الى العربية وزاد فيها ورقاها كما سيأتي .

* * *

فلنبحث اولاً في حال العلم والأدب في البلاد التي عرفها المسلمون ، وهو يتناول النظر في آداب اليونان والفرس والهنود والكلدان على ما يأذن به المقام . ثم نتقدم الى الكلام فيما نقله العرب من ذلك والأسباب التي دعت الى نقله .

آداب اللغة اليونانية

أصل اليونان من القبائل الآرية التي نزحت قبل زمن التاريخ من أعالي الهند واستقرت

في الارخبيل اليوناني وما يقابله من شواطىء آسيا الصغرى حول بحر ايجه . وللشعوب الآرية آداب مشتركة وأخلاق متشابهة . فنزل اليونان هناك ومعهم كثير من معتقدات أسلافهم وعاداتهم التي نزل بها اخوانهم الآريون الى بلادُ الهند ، ودونوا معظمها في كتبهم الدينية السنسكريتية (البرهمية) في أقدم أزمنة التاريخ .

اما اليونان فكانوا يسمون هلاس او الهيلينيين ، وهم ثلاث قبائل كبرى : اليونيون Ionoi والايوليون Aeoloi والدوريون Dorioi . فنزل اليونيون شواطىء آسيا الصغرى ، والايوليون في لسبس وما والاها ، ونزل الدوريون في المورة وصقلية وغيرهما . وكان التمدن القديم يومئذ مزدهراً في وادي النيل ووادي الفرات ، وكان الفينيقيون جيران اليونيين براً والدوريين بحراً ، وقد استعمروا شواطىء آسيا الصغرى مما يلي بلادهم . فاصبح اليونيون (او اليونان الاسيويون) على مقربة منهم ، فحمل اليهم الفينيقيون كثيراً من اسباب التمدن ، واكثره منقول عن البابليين والاشوريين والمصريين. فاقتبس اليونيون مبادىء العلم والادب كالفلك والطب والدين ، ونقلوها الى اخوانهم الدوريين في الجانب الغربي من بحر ايجه . وكان اليونانيون على الاجمال اهل ذكاء ونشاط ، فما لبثوا حيناً حتى نظموا الشعر والقوا الخطب وهي من قرائحهم الفطرية ، ونبغ منهم الشعراء والخطباء ثم الفلاسفة والعلماء والاطباء ، وجعلوا للعلم قواعد لا تزال مرعية في اكثر وجوهها اليوم .

ويقسم تاريخ آداب اللغة اليونانية الى ثلاثة عصور :

(١) عصر الآداب اليونانية القديمة ، ويبتدىء قبل زمن التاريخ الى سنة ٥٢٩ للميلاد ، وهي السنة التي أمر فيها القيصر جستنيان باغلاق المدارس الوثنية في مملكة الروم .

(٢) العصر البيزنطي او القسطنطيني ، ويبتدىء سنة ٥٢٩ م وينتهي بفتح العثمانيين القسطنطينية سنة ١٤٥٣ م .

(٣) العصر الحديث ، يبتدىء بذلك الفتح ولا يزال .

ولا يهمنا في هذا المقام إلا العصر الاول وبعض الثاني .

الآداب اليونانية القديمة

من قبل التاريخ الى سنة ٥٢٩ م

وتقسم الآداب اليونانية الى ثلاثة أدوار : (١) دور الشعر وينتهي سنة ٤٧٥ قبل الميلاد (٢) دور الروايات التمثيلية والتاريخ والفلسفة من سنة ٤٧٥ – ٣٠٠ قبل الميلاد (٣) دور العلم بعد نضجه او الدور الاسكندري ، ويقسم الى عصرين : العصر اليوناني ، والعصر الروماني .

١ — الشعر اليوناني

اليونان من الامم التي استنبطت آدابها الخيالية استنباطاً ، ولم تقلد بها احداً ولا اخذتها عن احد ، وشأنهم في ذلك شأن العرب في علومهم الاسلامية وآدابهم العربية . واقدم آداب اليونان الشعر ، وقد اتقنوه واجادوا فيه من قديم الزمان ، لأن كل قبيلة منهم تولت اتقان فرع منه ، فاشتغل اليونيون في الشعر القصصي ، والايوليون في الشعر الموسيقي البسيط ، واشتغل الدوريون في اتقان هذا الشعر والتوسع فيه ، واخيراً اشتغل الاتيون Attioi — وهم فرع من اليونانيين — في اتقان الشعر التمثيلي وسائر الفنون الخيالية ،وتطرقوا منها الى الفنون النثرية كالتاريخ والفلسفة وغيرهما . وكانت لغات هذه القبائل تختلف بعضها عن بعض ، مثل اختلاف لغات قبائل العرب في عصر الجاهلية .

ويغلب على الظن ان اليونان نظموا الشعر قبل تشتت قبائلهم ، واقدم اشعارهم « اناشيد الفصول » ، تليها اشعار وصفوا بها الآلهة او الحروب على شكل الحكايات المتقطعة كانوا يتناشدونها بالآلات الموسيقية . فلما تفرقوا اختص اليونيون بالشعر القصصي ، فألفوا من تلك الحكايات الملاحم ، واقدم الملاحم الالياذة والاذيسية نظمهما هوميروس في القرن التاسع قبل الميلاد ،وصف بهما الايام العشرة الاخيرة من حصار طروادة .

وقد زها الشعر القصصي عند اليونان قبل سائر ضروب الشعر ، لأنه يصف وقائعهم وحروبهم . وكانوا في اوائل احوالهم مثل قبائل العرب ، وكان امراؤهم يحبون سماع اخبار اسلافهم من الابطال وانصاف الآلهة ، فحببوا الى اصحاب القرائح نظم تلك الاخبار

في الملاحم . وفي اواسط القرن الثامن قبل الميلاد اخذت السلطة الاستبدادية في الافول ، واخذ اليونان يتمتعون بحريتهم الشخصية استعداداً للحكم الجمهوري . فنما شعورهم الاستقلالي ، واحس كل منهم بذاتيته ، وتولد فيه الميل الى وصف عواطفه وميوله، فنظمها شعراً هو الشعر الغنائي ، واكثر المشتغلين به الايوليون والدوريون ، وله عند كل منهما مميزات . واشهر نوابغ الشعر الموسيقي عند اليونان سميونيدس وبندار . الأول يوني الاصل دوري النظم ، واكثر منظوماته في وصف احوال الحرب بين اليونان والفرس ، والثاني دوري المولد والمنشأ واسلوبه ونظمه دوريان .

٢ ــــ الأدب والعلم والفلسفة عند اليونان

من سنة ٤٧٥ – ٣٠٠ ق . م

الادب والتاريخ

ويسمى هذا الدور ايضاً الدور الأتي او الاتيكي نسبة الى اتيكا في جزائر اليونان ، وسكانها مزيج من اليونيين والدوريين . فبعد ان اشتغل اليونيون والايوليون والدوريون في انشاء الشعر ودونوا به اخبارهم ووصفوا حروبهم وعبروا به عن عواطفهم وعواطف ذويهم ، استحثتهم قرائحهم الوقادة الى ما يمثلون به تلك الاخبار ويشخصون به العواطف، ليراها الناس رأي العين او يشعروا بها كأنها بين جنبيهم فأحدثوا فن التمثيل (الدراما) ومنه التراجيديا والكوميديا ، واجادوا في كليهما ونبغ منهم مشاهير عظام من اهل هذا الفن مما يطول بنا الكلام فيه ، وهو خارج عن موضوعنا . وانما يقال بالاجمال ان اليونان اتقنوا الشعر على اختلاف ضروبه وموضوعاته قبل ان يعتنوا بالنثر المرسل لاستغنائهم عنه بالشعر القصصي . واقدم آثارهم النثرية واكملها كتابات هيرودوتس الرحالة الشهير المتوفي سنة ٤٠٦ ق . م ، وهي بالنظر الى نثر اليونان مثل الياذة هوميروس بالنظر الى شعرهم .

على ان هيرودوتس ليس اول من كتب في النثر المرسل عندهم ، فقد ظهر قبله جماعة من العلماء دونوا به آراءهم في الفلسفة او الميثولوجيا او التاريخ او غيرها من العلوم النثرية . واما هيرودوتس فتغلب نثره على نثرهم لحسن اسلوبه واهمية الموضوعات التي كتب فيها . فقد كتب رحلته قبل سنة ٤٣١ ق . م ، وهي التاريخ المعروف باسمه ، بين

فيه اسباب الحروب التي نشبت بين الفرس واليونان في القرن السادس واول الخامس قبل الميلاد . ولا يزال كتابه فريداً في بابه الى اليوم ، ولذلك لقبوه بأبي التاريخ. وبعده بقليل نشبت بين اهل اثينا واهل المورة حرب اهلية ، هي الحرب المورية او البيلوبونيسية من سنة ٤٣١ – ٤٠٤ ق . م فأرخها ثوسيدس ، وكان معاصراً لهيرودوتس واصغر منه . ثم ظهر جماعة من كتاب التاريخ عندهم كخينوفون وغيره ، ثم اشتغل اليونان بالخطابة ونبغ منهم ديموستنيس واشينس وهبريدس وغيرهم ، واشتغل آخرون في وضع الشرائع مثل صولون ، وآخرون بوضع قواعد اللغة او غيرها مما لا يهمنا البحث فيه هنا .

العلم والفلسفة

وهما من نتاج الدور الآتي ، فقد ظل اليونانيون على نحو ما تقدم من الآداب الشعرية والتاريخية والادبية ، حتى تنبهت اذهانهم الى البحث في الخليقة والعلل والمعلولات بنهضة حدثت على اثر الحروب المورية المذكورة . فانها توالت ٢٧ سنة ، وفي نهايتها دخلت اثينا في حوزة اللقديمونيين Laecedomonoi واصبح الاثينيون بعد العز اذلاء ، فساقتهم العبرة والمذلة الى النظر في الوجود فنهضوا نهضة فلسفية زعيمها وواضع اساسها سقراط . والحروب يغلب ان يعقبها نهضة ادبية او علمية او سياسية ، على ما قررناه في غير هذا المكان .

على ان اليونان تنبهوا الى النظر في الموجودات الطبيعية واحوالها قبل تلك النهضة ، على اثر احتكاك الافكار في اثناء حروبهم مع الفرس . وانما كان نظرهم فيها قاصراً على تفهم نواميسها على نحو ما نعبر عنه اليوم بالطبيعيات . واقدم من وصل خبره الينا من الفلاسفة الطبيعيين طاليس المليطي ، ولد في مليطة من بلاد يونيا سنة ٦٤٠ قبل الميلاد ، وقد أخذ علمه من فينيقية ومصر وكريت ويونيا ، وغلب عليه النظر في النجوم والهندسة ، وله آراء في الوجود والموجودات واصل العناصر ، ووضع كثيراً من القواعد الرياضية لاستخراج الكسوف والخسوف وقيام الاجسام المرتفعة بالنظر الى ظلها . ونبغ بعده جماعة من تلامذته وتلامذتهم ، ومنهم ارخيلاوس وهو الذي نقل الطبيعيات من يونيا الى اثينا ، وهناك تتلمذ له سقراط المولود سنة ٤٦٩ ق . م ، وفي ايام الفيلسوف حدثت الحرب المورية ، فامتزجت الطباع وتحاكت الافكار فهاجت القرائح وثارت

العواطف ، واصبح الناس متضاغنين متنافسين ، وربما كان للرجل عدو من قبيلته واهله .

* * *

فلما اصيبت اثينا بالذل بعد تلك العظمة اصاب اهلها اضطراب وانكسار ، والانسان اذا اصيب بنكبة لا حيلة في دفعها اشتغل عنها بالتعليلات الفلسفية عن الوجود واصله ليخفف وطأة تلك المصيبة عليه ، خصوصاً في مثل ما اصيبت به اثينا بعد عزها ورفعة شأنها ، واصبح اهلها بعد سقوطها يتلفتون الى الوراء آسفين وينظرون الى الامام خائفين، وقد ذهبت اسباب مفاخرتهم القديمة ولم تنتظم حكومتهم الجديدة ، فتنبهت اذهانهم وانصرفت قرائحهم الى النظر في شؤون الانسان على الجملة وشؤونهم هم على الخصوص. فكانت وجهة تلك النهضة الادب والفلسفة ، فدخل القرن الرابع قبل الميلاد والناس يتناقلون آراء بعض المتقدمين من العلماء على ما يوافق احوالهم ، ونفوسهم تشتاق الى الزيادة .

سقراط

وكان الناس في ذلك اذ نبغ سقراط الحكيم ، ورأى النظر في الفلسفة الطبيعية لا يجدي نفعاً في تلك الاحوال ، فانصرفت عنايته الى الفلسفة الادبية فدرسها جيداً ، وخلصها مما كان يعتورها من الرموز والغوامض ، وطبقها على حاجات الاثينيين يومئذ ، وقسم شرائعه الى ما يتعلق بالانسان من حيث هو انسان ، والى ما يتعلق به من حيث هو أب ومدبر ، والى ما يتعلق به من حيث هو عضو في الجماعة ، وذهب الى خلود النفس. ويعتبره اليونانيون واضع الفلسفة الادبية العلمية ، او هو محول الفلسفة القديمة من الخيال الى العمل ، قال شيشرون : « ان سقراط انزل الفلسفة من السماء الى الارض » .

ويندر ان ينجو النوابغ واصحاب الآراء الجديدة من حساد يتمنون اذيتهم او يسعون فيها . وقد كان في تعاليم سقراط ما يخالف اعتقاد الاثينيين يومئذ ، فقاموا عليه واتهموه بافساد عقول الشباب وحكموا عليه بالموت ، فشرب السم ومات .

افلاطون

مات سقراط ولم يدون شيئاً من تعاليمه ، فدونها تلامذته من بعده، ولكنهم اختلفوا

في تفسير اقواله فانقسموا الى ثلاث فرق تعرف بالكيرينية والكلبية والاشراقية . وهذه الاخيرة اشهرها وتسمى ايضاً الافلاطونية نسبة الى صاحبها افلاطون المولود سنة ٤٢٨ قبل الميلاد . ومذهبه مقتبس من ثلاثة مذاهب قديمة ،فانه تبع هيرقليطس في الطبيعيات، وفيثاغورس فيما وراء الطبيعة والنقليات ، وتبع سقراط في الفلسفة الادبية والاخلاق . وقال بثلاثة اصول هي : الاله ، والمادة ، والادراك . والآلهة عنده ثلاث طبقات : علويون ، ومتوسطون ، وسفليون ، وعلم بتناسخ الارواح . وكتب افلاطون على اسلوب المحاورات ، وسيأتي ذكرها في كلامنا عما نقله المسلمون من كتب الفلسفة الى العربية .

ارسطو

وانقسم تلامذة افلاطون ايضاً الى فرق ، اهمها فرقة المشائين وصاحبها ارسطو او ارسطوطاليس الذي اجمع العلماء على انه اقدر الفلاسفة القدماء ، ويسميه العرب المعلم الاول . ولد سنة ٣٨٤ وتوفي سنة ٣٢٢ ق . م ، وعنه نقل العرب اكثر كتب الفلسفة والمنطق . جمع ارسطو في كتبه زبدة ما بلغ اليه العلماء في عصره ببلاد اليونان من الفلسفة والعلم . أما الفلسفة فأخذها عن استاذه افلاطون،ويدخل فيها الابحاث المنطقية والعقلية والنفسية والسياسية . واما العلم ، ويراد به الحقائق المبنية على المشاهدة والاختبار كالرياضيات والطبيعيات ونحوها ، فقد كانت جملة ما طالعه من علوم القدماء وما اختبره بنفسه ، وكان غرض ارسطو ايضاح الفلسفة بالعلم واخضاع كل بحث عقلي او نظري الى النواميس الطبيعية . ولم يكن يهمه تزويق العبارة او برقشة الالفاظ، وانما كان يهمه الغرض الاصلي من الموضوع ، فكان يبذل جهده في تجريد عبارته من الخيالات الشعرية التي مازجت فلسفة افلاطون .

فلما اظهر ارسطو فلسفته شغف الناس بها ، وكان يلقيها في اروقة حول هيكل ابولو قرب اكاديمية افلاطون ، وكان يتلو دروسه وهو يمشي هناك فسمي تلامذته المشائين او الرواقيين . ومن حظ ارسطو ان الاسكندر المقدوني ظهر في ايامه وتتلمذ له وأمده بالاموال لأبحاثه في الطب والحيوان وغيرهما . ولما سافر الاسكندر للفتح ظل ارسطو في اثينا ، فلما جاء الخبر بموت الاسكندر سقط حزبه وفي جملتهم ارسطو . وكأن فتوح الاسكندر هزت القرائح اليونانية كما هزتها حرب المورة من قبل ، فنهضت نهضة ثانية والعقول اكثر استعداداً واقوى على الابحاث . ولا يبعد ان يكون الاسكندر قد نقل الى

اثينا بعض علوم فينيقية وبابل وفارس ، كما سيأتي ، فأدخلها ارسطو في فلسفته والف في كل موضوع عقلي وطبيعي وفلسفي ومنطقي ولغوي . ومؤلفاته كثيرة ، وينسبون اليه كتباً لم يؤلفها هو . واما الكتب التي ثبتت نسبتها اليه فنحو ١٩ كتاباً ، نقل المسلمون اكثرها الى العربية وسيأتي ذكرها .

والكتب المنسوبة اليه خطأً اكثرها في الميكانيكيات والبلاغة والادبيات والرياضيات، مما لا حاجة الى ذكره ، وانما نذكر منها كتابين مشهورين له وهما : كتاب المقولات (قاطيغورياس) في المنطق ، وكتاب التفسير .

قد جاء ارسطو في اواخر عصر الزهو اليوناني ، فجمع ما ولدته العقول اليونانية الى ايامه من الآراء والابحاث والاختبارات في العلم والفلسفة ، ورتبها في كتب تعليمية توخى فيها الوضوح والسهوله ، فعاشت تعاليمه ادهاراً ولم تستغن عنها امة من الأمم التي تمدنت في عصر اليونان او بعدهم كالرومان والفرس والعرب وغيرهم ، ولا يزال كثير منها مرعياً الى اليوم .

مؤلفات ارسطو

ولمؤلفات ارسطو تاريخ غريب لا بأس من ايراده : لما دنا اجله عهد بكتبه ومسوداته الى اكبر تلامذته ثيوفراستوس ، وبعد ٣٥ سنة توفي هذا وقد عهد بها وبكتبه هو الى تلميذ اسمه نيليوس . فرحل هذا الى وطنه سبسس في آسيا الصغرى فبقيت عنده حتى توفي ، فخاف ورثته عليها من ملك برجامس حينئذ فأخفوها في مغارة بقيت فيها ١٨٧ سنة . فلما استخرجوها في رأس المائة الأولى قبل الميلاد ، وجدوا بعضها قد تهرأ بالعفونة والرطوبة والبعض الآخر اكله الدود والعث ، فباعوها صفقة واحدة الى كتبي اسمه ابليكون فأرجعها الى اثينا . فلما استولى سولا الروماني على اثينا سنة ٨٦ ق . م ، كانت مكتبة هذا الرجل في جملة غنائم الرومانيين ، فنقلوها الى رومية فتوصل اليها بعض اليونانيين المقيمين هناك فاشتغلوا في نسخها وضبطها . واول المشتغلين في ذلك تيرانيون صاحب شيشرون . ثم تولى اندرونيكوس الرودسي تصحيحها وترميمها ، ثم تناقلها الناس . فكل ما وصل الى العالم من مؤلفات ارسطو انما هو من تصحيح اندرونيكوس المذكور في اواسط القرن الاول قبل الميلاد .

على انها ما لبثت ان ظهرت في العالم حتى تناولها الناس واشتغلوا فيها بين درس ونقل ،

وترجمة وتلخيص وشرح ونقد . بدأ بذلك اليونان انفسهم، ثم الرومان فالفرس فالعرب، فأهل العصور الوسطى في اوروبا ، فأهل اوائل التمدن الحديث، وخصوصاً فلاسفة القرون الاولى لهذه النهضة . وكانت مدرسة الاسكندرية الآتي ذكرها تعلم الفلسفة بكتب ينسبونها الى ارسطو وكتبه لا تزال مدفونة . فلما فتح الرومان الاسكندرية — وكانوا قد وقفوا على نسخ اندرونيكوس — اعتمدوا عليها دون سواها واصبحت عمدة التعليم في رومية والاسكندرية على السواء . حتى ظهرت النصرانية ، فبطل تعليمها في رومية وظل في الاسكندرية . ولما سعى قياصرة الروم في ازالة الوثنية من مملكتهم ، بحثوا عن العلوم الوثنية وابطلوها ومن جملتها كتب ارسطو إلا بعض كتبه المنطقية . على انهم كانوا يعلمونها سراً، حتى جاء الاسلام وانتقل التعليم من الاسكندرية الى انطاكية ايام عمر بن عبدالعزيز، فانتقلت الى هناك وظل تعليمها محظوراً لا يتعلمها إلا بعض اليهود او الحرانيين لتقوى بها حجتهم على النصرانية .

الطب والنجوم

والطب ايضاً من ثمار تلك النهضة على اثر الحرب المورية ، وكان اليونان قبل ذلك يعالجون مرضاهم بالكهانة ، وينسبون الامراض الى اعمال الشياطين والعلاج الى اعمال الآلهة . وكان الفلاسفة يتكلمون في الطب باعتبار انه فرع من العلم الطبيعي ، ولم يستقل احد منهم بالبحث فيه . واول من رتب الطب وبوبه وبناه على اسس صحيحة ابقراط المتوفي سنة ٣٥٧ ق . م ، ولذلك سموه ابا الطب . وهو من نتاج الحرب المورية ، فقد نشأ في اثنائها ونبغ بعد انقضائها وسافر الى سوريا ، ولعله اطلع على طب البابليين والمصريين فاضافها الى طب اليونان والف فيه الكتب . واساس علاجه الاعتماد على الطبيعة ، وكان يفصد ويحجم ويكوي ويحقن ويشخص الامراض بالسماعة ويصف المسهلات النباتية والمعدنية . وله كتب في الطب كثيرة ، ذكروا منها ٨٧ كتاباً ولم يتبث له منها إلا نحو العشرين ، وسيأتي ذكرها فيما نقله المسلمون من كتب الطب الى العربية . وما زالت كتب ابقراط معول الاطباء الى العصر الحديث ، وفيهم من شرحها او فسرها او ترجمها او علق عليها . وممن اشتغل من اليونانيين في ترقية العلوم الطبية بعد ابقراط ارسطو وغيره من الفلاسفة العظام ، فلما انشئت مدرسة الاسكندرية على عهد البطالسة كان للطب شأن كبير فيها كما سيجيء .

وعلم النجوم — او علم الفلك — قديم عند سائر الامم ، كما قد رأيت في كلامنا عن

علوم العرب قبل الاسلام . اخذ اليونان مبادىء هذا العلم عمن سبقهم من امم التمدن القديم ، على يد الفينيقيين وتوسعوا فيه من عند انفسهم . وكان النظر فيه من جملة ابحاث الفلاسفة واقدمهم طاليس المتقدم ذكره ، وقل من جاء بعده من فلاسفة اليونانيين ولم يتعرض لهذا الفن ، واشهرهم فيه انكسيمندر وانكسيمينس وانكساغوراس . وكان للقسم الايطالي من بلاد اليونان عناية كبرى في النجوم ، ومقدم فلاسفتهم فيه فيثاغورس الشهير المتوفي سنة ٥٠٠ ق . م ، اخـذ بعض هذا العلم من مصر وتوسع فيه وتبعه في ذلك كثيرون . ولا يكاد يخلو فيلسوف من فلاسفة اليونان من النظر في النجوم واحكامهم مما يطول شرحه . على ان هذا العلم بلغ قمة مجده في مدرسة الاسكندرية . ويقال نحو ذلك في سائر العلوم الرياضية كالحساب والهندسة ، فقد اشتغل فيها الفلاسفة لكنها لم تنضج إلا في مدرسة الاسكندرية على يد اوقليدس .

٣ ــ الدور الاسكندري

مدرسة الاسكندرية ومكتبتها

لم يكد اليونان يتخلصون من مصائبهم بالحروب المورية حتى انقض عليهم الرجل المقدوني العظيم (الاسكندر) فغلبهم على ما في ايديهم ، ثم حمل بهم على العالم المتمدن في ذلك العهد ، ففتح مصر وبنى فيها الاسكندرية واكتسح الشام والعراق وفارس الى بلاد الهند . فأصاب العالم بتلك الحروب هزة انتفضت لها اعصابه واختلطت عناصره ، فالتقى اليوناني بالفينيقي والمصري والفارسي والكلداني والهندي ، وتحاكت الافكار وتلامست المطامع وتقاطعت المصالح ، وكان من اقل نتائجها : اولا ، نشر علوم اليونان وآدابهم وتمدنهم في امم الأرض ، ثانياً نقل علوم الفرس والكلدان وغيرهم الى بلاد اليونان او مصر . فقد ذكروا ان الاسكندر لما فتح اصطخر عاصمة الفرس خرب ابنيتها وشوه نقوشها ونسخ ما كان مجموعاً من ذلك في الدواوين والخزائن هناك ونقله الى اللسان اليوناني والقبطي . وبعد فراغه من نسخ حاجته منه احرق ما كان مكتوباً بالفارسية ، واخذ ما كان يحتاج اليه من علم النجوم والطب والطبائع وبعث بـه وبسائر ما اصاب من العلوم والخزائن والعلماء الى بلاد مصر [1] .

---

١ - الفهرست ٢٣٩ .

ولما مات الاسكندر سنة ٣٢٣ ق . م ، انقسمت مملكته بين قواده ، فانتقل علماء اليونان من بلادهم للاقامة في مستعمراتهم الجديدة في مصر والشام والعراق ، فابتنوا المدارس في الاسكندرية وانطاكية وبيروت وغيرها، وكان حظ البطالسة في الاسكندرية اوفر من حظوظ سائر الدول اليونانية في الشرق في ترقية شؤون العلم والفلسفة . وكان بطلميوس الاول – الملقب بسوتر – اول البطالسة عادلاً محباً للعلم (حكم من سنة ٣٠٦ – ٢٨٥ ق . م) فتقاطر اليه العلماء والفلاسفة من بلاد اليونان على اختلاف القبائل والاماكن. فاكرم وفادتهم ونشطهم في مواصلة البحث والدرس، واطلق لهم الأموال فزادوا احتراماً له ورغبة في العلم .

وكان في جملة المقربين اليه خطيب اثيني اسمه ديمتريوس فاليروس ، أشار عليه بانشاء مكتبة يجمع اليها الكتب من انحاء العالم فأجابه الى ذلك وهي مكتبة الاسكندرية الشهيرة التي بحثنا عن اسباب حرقها فيما تقدم والظاهر ان الكتب التي بعثها الاسكندر من اصطخر وغيرها وضعوها في هذه المكتبة . وديمتريوس هذا هو الذي سماه ابن القفطي « زميرة »، وسبب الفرق تصحيف في النسخ . وباشارته ايضاً انشأ سوتر المتحف او النادي Museum على هيئة مدارس اوروبا الجامعة ، يجتمع فيه العلماء والأدباء والفلاسفة للدرس والبحث ؛ وهو مدرسة الاسكندرية الشهيرة .

وكان البطالسة خلفاء سوتر يقتفون اثره في تنشيط العلم ، واكثرهم من العلماء وخصوصاً فيلادلفوس (من سنة ٢٨٥ – ٢٤٧ ق . م) فانه اضاف الى المكتبة ما لم يكن فيها من كتب العلم اليونانية وغير اليونانية ، فابتاع الكتب وجمع كثيراً من مؤلفات اليهود والمصريين القدماء حتى لا ينقص هذه المكتبة علم ولا خبر ، وخلفه بطلميوس اورجيتس (سنة ٢٤٧ – ٢٢٢ ق . م) فاضاف الى المكتبة كثيراً من كتب الأدب والشعر والتمثيل او مما وجدوه في خزائن اثينا، وفرض على كل من يقيم في الاسكندرية او يمر بها من رجال العلم أن يقدم للمكتبة نسخة من كل ما يملكه من الكتب، فزهت الاسكندرية بالعلم ونبغ فيها العلماء في كل موضوع ، حتى فاقت كل ما تقدمها او عاصرها من مدن العالم القديم، وما زالت رافلة بالعلم والعلماء الى ظهور الاسلام، اي عبارة عن نيف وتسعمائة سنة تقسم الى مدتين : الأولى ، يونانية تبتدىء بولاية سوتر وتنتهي بدخول مصر في حوزة الرومان سنة ٣٠ قبل الميلاد، والثانية رومانية تبتدىء من هذه السنة وتنتهي سنة ٦٤٠م، لما فتحها ابن العاص. وكان غرضها في المدة الأولى علمياً أدبياً، وغايتها ترقية العلوم اليونانية

وتوسيع نطاقها ، وكانت المرجع العلمي الوحيد في تلك العلوم الى اواخر القرن الثاني للميلاد ، فأخذت تتقهقر لأسباب كثيرة ، اهمها فساد الحكومة واعوجاج الحكام وظهور مدارس أخرى من نوعها في سوريا ورودس وغيرهما ، فتحولت همم رجال العلم الى بلاد العدل والحرية. فلما دخلت الاسكندرية في حوزة الرومان اتسعت شهرتها باتساع دولتهم، ولكن رغبة رجال العلم تحولت عنها الى رومية . واتفق ظهور الديانه المسيحية واشتغال ذوي القرائح في اثباتها او نفيها . ونظراً لتوسط الاسكندرية وقربها من ميدان الجدال اتخذت مدرستها خطة فلسفية دينية . فلمدرسة الاسكندرية بهذا الاعتبار عصران : الأول ، يوناني علمي أدبي ، والثاني روماني فلسفي ديني .

العصر الاسكندري اليوناني من سنة ٣٠٦ - ٣٠ق.م.

زهت الاسكندرية في عصرها الأول بمن انتقل اليها من جالية اليونان، على أثر ماأصاب بلادهم من الذل بعد ذهاب استقلالهم ، وحملوا معهم كتب العلم والفلسفة والطب والشعر والأدب واللغة والتاريخ ، غير ما جمعه البطالسة من الكتب الأخرى كما تقدم ، فأقام اليونانيون في الاسكندرية على الرحب والسعة في ظل حكومة يونانية وعادات وآداب يونانية . لكنهم كانوا قد اضاعوا انفة الاستقلال وروح الحرية ، لتقيد عواطفهم وشعائرهم بالحكم المطلق الذي لا يقترب منه الا المتزلفون، ففسدت القرائح وضاقت العقول، فاشتغل يونانيو الأسكندرية في الشعر والخطابة والتاريخ والميثولوجيا ، لكنهم لم يجيدوا شيئاً منها مثل إجادتهم في أثينا والمورة وساقس وغيرها ، ناهيك بانصراف الأذهان الى العلوم الطبيعية والرياضيات ، وقد كان لهذه العلوم حظ وافر في تلك المدرسة ، فنبغ فيها جماعة من علماء الفلك والطب والهندسة والجغرافية ، وان كانت مؤلفاتهم في الغالب مبنية على مؤلفات القدماء او شروحاً لها .

الرياضيات

نبغ أقليدس الصوري المولود سنة ٣٢٣ ق.م ، وقد طلب العلم في بلاد اليونان واتقن الرياضيات بنوع خاص، وكانت الاسكندرية قد دخلت في حكم البطالسة وأفضت الحكومة الى بطليموس فيلادلفوس ، فاستقدمه اليه في جملة من استقدمهم من رجال العلم ، ووسع له الرزق وأمره بتدريس الهندسة وكان فيلادلفوس أول من تلقاها عنه ، وهناك ألف كتابه المعروف بأصول أقليدس ولا يزال عليه المعول في هذا الفن الى اليوم ، وقد نقل الى كل لغات العالم المتمدن .

ونبغ من الرياضيين بعد أقليدس أرخميدس – أو أرشميدس – الصقلي المولود سنة ٢٨٧ قبل الميلاد ، وجاء مدرسة الاسكندرية وتلقى فيها الرياضيات وعاد إلى بلاده ، وكان ملكها يحترمه فقربه اليه، وكان في حرب ضد الرومان فأعانه من علمه بما لم يستطعه القواد بسيوفهم ، ولكنه ذهب ضحية تلك المساعي ، فقتله بعض جنود الرومـان في أثناء الفتح وهو لا يعرفه . ولأرخميدس اكتشافات مهمة في النواميس الطبيعية المتعلقة بالهندسة أو الحساب ، وذكروا له من الكتب كتاباً في الكرة والاسطوانة ، وآخر في تربيع الدائرة وتسبيعها والدوائر المماسة والمثلثات والخطوط المتوازية والمأخوذات والمفروضات [١] .

ثم نبغ أبولونيوس المولود سنة ٢٥٠ق.م صاحب الأبحاث في قطع المخروط، وهيبارخوس المتوفي سنة ١٢٥ ق.م مؤسس الرأي الفلكي للسموات ، واشتغلوا في أثناء ذلك بالجغرافية الرياضية ، وأول من كتب فيهـا أراتستين المتوفي سنة ١٩٥ ق. م ، وهو أول من وضع جداول أسماء الملوك الفراعنة وأول من قاس الأرض .

ثم ظهر بطليموس القلوذي الشهير في أواسط القرن الثاني بعد الميلاد ، فأخـذ رأي هيبارخوس وبنى عليه كتاب المجسطي الذي كان عليه المعول في مدارس العالم الى عهد غير بعيد . ومن اقوالهم : « لا يعرف كتاب ألف في علم من العلوم قديمها وحديثها فاشتمل على جميع ذلك العلم وأحاط بأجزائه غير ثلاثة : كتاب المجسطي في علم هيأة الفلك وحركات النجوم ، وكتاب أرسطوطاليس في صناعة المنطق ، وكتـاب سيبويه في النحو » [٢] . ومن مؤلفات بطليموس المذكور كتاب الأربعة ، وكتاب الحرب والقتال ، وكتـاب الجغرافية في المعمور وغيرها .

واشتغل علماء الاسكندرية خصوصاً برصد الأفلاك واستخراج الازياج ، وكان عندهم مرصد يرصدون منه الاجرام ، وظل هو المرصد الوحيد في العالم الى ايام الاسلام .

الطب

اما الطب فقد كان يعلم في مدرسة برجامس ، فلما زهت مدرسة الاسكندرية توجهت الانظار اليها وكثر طلبة الطب فيها ، وكانت عمدة التدريس فيها على مؤلفات ابقراط ، لكنهم اشتغلوا خصوصاً في فن التشريح حتى فاقوا فيه سائر مدارس الطب في ذلـك

---

١ – الفهرست ٢٦٦ .   ٢ – تراجم الحكماء (خط) .

العهد ، واشتهر فيها اثناء العصر اليوناني طبيبان لكل منهما مذهب في الطب والعلاج وهما: هيروفيلوس ، واراسستراتس . الاول من خلقيدونة ، وتلقى العلم في مدارس اليونان واشتغل خصوصاً في التشريح ، والف كتباً وافق ابقراط في اكثرها ، ويعدونه في المنزلة الاولى بعده . اما الثاني فكان معاصراً لهيروفيلوس ، وهو من انطاكية وجاء الاسكندرية للتبحر في علم التشريح ، وله مؤلفات ذهب فيها غير مذهب هيروفيلوس ، فكان لكل من هذين الطبيبين تلامذة يؤيدون رأيه . واصحاب هيروفيلوس ينصرون ابقراط والآخرون ضده . وظل المذهبان الى القرن الثاني بعد الميلاد ، وقد مهد الارستراتيون الطريق للتدجيل الذي شاع بعدئذ في الاجيال المظلمة .

انقضى عصر مدرسة الاسكندرية اليوناني وبعض العصر الروماني والاطباء فئتان لهما مذهبان متناقضان ، حتى ظهر جالينوس القلوذي المولود في برجاموس سنه ١٣٠ م . تلقى اصول العلم على ابيه ثم شرع في درس الطب هناك ، وسافر سنة ١٥٠ م الى ازمير ، ثم قدم الى الاسكندرية لاتقان فن التشريح ، وطاف بلاداً اخرى في طلب العلم حتى عاد سنة ١٥٨ م . الى برجاموس وسافر سنة ١٦٤ الى رومية وهي آهلة بالعلماء ، واتفق له معالجة بعض كبار القوم وشفاؤهم على يديه فذاع صيته وسموه « الطبيب العجيب » ، فحسده زملاؤه فرجع الى بلده سنة ١٦٨ ، ثم تمكن من الرجوع الى رومية وخدم بعض اباطرتها حتى توفي سنة ٢٠٠ م ، وله مؤلفات عديدة في الطب اشهرها يعرف بالكتب الستة عشر ، وبعضها يعرف باسماء خاصة حسب موضوعاتها ، وسيأتي ذكرها في جملة ما نقل من كتب الطب الى العربية . وجالينوس ليس من اهل العصر الاسكندري اليوناني الذي نحن بصدده ، وانما ذكرناه استيفاء للكلام في تاريخ الطب .

العصر الاسكندري الروماني من سنة ٣٠ ق . م — ٦٤٠

هو العصر الاسكندري الثاني ، ويبتدىء في الحقيقة قبل الفتح الروماني بنصف قرن، أي منذ دخول اثينا في حوزة الرومان في القرن الاول قبل الميلاد ، فان قائدهم « سولا » — بعد ان فتح اثينا — حمل منها الى رومية احمالاً من كتب العلم والفلسفة كما تقدم، فانتقل العلم من ذلك الحين من اثينا الى رومية ، ولما اسس اوغسطس قيصر المكتبة الشهيرة في رومية قسمها الى قسمين : لاتيني ويوناني . ولم ترث رومية كتب اثينا فقط ولكنها ورثت علماءها وفلاسفتها ايضاً ، فاصبح اليونان انفسهم اذا ارادوا التبحر في العلم رحلوا الى رومية . وليس من شأننا الآن البحث في آداب الرومان .

فمدرسة الاسكندرية اخذت في الانحطاط قبل دخولها في حوزة الرومان، فلما صارت رومانية زادت ضعفاً . وكانت علومها قد تغيرت وجهتها وانحصرت في الفلسفة ، لأن الاسكندرية ما برحت منذ تأسيسها وفيها جماعة من اليهود ، نزحوا اليها كعادتهم في الرحيل للارتزاق او فراراً من الاضطهاد ، فآنسوا في الاسكندرية ترحاباً وراحة فتكاثروا . فترتب على اختلاطهم باليونان وتمازج الاذواق والابحاث تطور مهم في الفلسفة والدين ، لأن اليهود اهل توحيد ووحي وتقليد ، واليونان اهل فلسفة ومنطق وخرافات دينية ، فأدى التمازج الى التقارب وزاد ذلك بظهور النصرانية . ولما تأيدت النصرانية واعتنقها اليونان اخذوا في تطبيق فلسفتهم على الدين ، فتولد من ذلك ما يسمونه الفلسفة الافلاطونية الجديدة Neo - Platonic والفلسفة الفيثاغورية الجديدة Neo-Pythagoric ، وجملة القول ان العصر الاسكندري الثاني قلما افاد العلم لأن ابحاثه كانت غايتها فلسفية دينية .

ومما اختصت مدرسة الاسكندرية في ترقيته من العلوم : اولا التشريح، لان المصريين كانوا يفتحون الجثث لأجل تحنيطها فسهل عليهم درس فن التشريح بها. ثانياً علم الكيمياء، لأنه كان في مصر قبل دخولها في سلطة اليونان ، ولما انشئت مدرسة الاسكندرية اشتغل علماؤها في درس هذا العلم وجمعوا ما كان عند الامتين في علم واحد .

وظلت مدرسة الاسكندرية مركز التدريس في الشرق الى اواخر القرن الاول للهجرة ، حتى نقله عمر بن عبدالعزيز الى مدرسة انطاكية فمدرسة حران وغيرهما من تلك الايام[١] .

العصر البيزنطي من سنة ٥٢٩ — ١٤٥٣ م

سمي هذا العصر بالبيزنطي نسبة الى بيزانتيوم (القسطنطينية) لأن آداب اللغة اليونانية هناك كان لها فيه شأن خاص ، فلا بأس من الاشارة الى ما يهمنا منه . ويقال بالاجمال أن الآداب اليونانية قلما تقدمت في تلك العاصمة ، مع ان العلم كان في خزائنها كما كان في خزائن الاسكندرية ، وخصوصاً بعد موت جستنيان . فلما قامت الخصومة على الايقونات كان من جملة نتائجها اعدام الكتب واهمال العلم ، واقتصر النوابغ فيها على ما لا يحتاج الى مواهب خاصة ، او الى بحث او نظر، فكانوا اذا نشأ أحد القياصرة واراد التشبه بمنشطي

---

١ — طبقات الاطباء ١١٦ ج ١ .

العلم القدماء رغب الناس في المطالعة والتأليف . وتأليفهم عبـــارة عن تلخيص القديم أو شرحه أو جمعه على شكل الموسوعات ، وقد يفعل القيصر نفسه ذلـك . فـان قسطنطين السابع (٩٠٥ — ٩٥٩م) كان محباً للعلم مشتغلاً بالتأليف ، فألف كتباً متسلسلة في تاريخ الحكومة ونظامها . وكذلك كانوا يفعلون في سائر الموضوعات الأدبية ، كالتاريخ والشعر واللغة ، بدون نقد ولا نظر كما فعل مؤلفو العرب بعد ذلك مثل هذه الحال . اما الفلسفة فتحولت عندهم الى اللاهوت، لان علماء النصرانية استخدموا الأدلة الفلسفية لاثبات بعض العقائد او الآراء الدينية في مجادلاتهم او في مواعظهم ، على نحو مـــا قدمناه عن الفلسفة الافلاطونية الجديدة. وممن اشتهر في هذا الشأن يوحنا الدمشقي (٧١٨ — ٧٤١م) صاحب المؤلفات الكثيرة في الدين والفلسفة وغيره مما لا حاجة بنا الى ذكره .

آداب اللغة الفارسية قبل الاسلام

الفرس من الشعوب الآرية اخوان الهنود واليونان ،وهم امة قديمة حاربت اليونان قبل المسيح ببضعة قرون ، فجردت على بلادهم جيشاً قـد يمتنع على اعظم دول الأرض اليوم حشده ونقـــله بمهماته ومؤونته من اواسط آسيا الى البحر الابيض ، فكيف منذ بضعة وعشرين قرناً ؟ فالدولة التي هذا مبلغ قوتها لا تخلو من ادب وعـــلم ، والفرس اهل ذكاء وتعقل ، وفيهم استعداد فطري لاسباب التمدن . فلا بد من اجادتهم نظم الشعر على نحو ما فعل اخوانهم الهنود في المهابهاراتة ونحوها ، وان كان ما وصل منه الينا قليلاً . ناهيك بالعلوم القديمة التي هي من قبيل الطبيعيات والرياضيات كالنجوم والانواء ، فقـد احرزوا شيئاً منها وخصوصاً لأنهم ورثوا البابليين والأشوريين واحتكوا باليونان وهم في ابان تمدنهم واختلطوا بجيرانهم الهنود . وكانوا يعرفون الكتابة وينقشونها على الأحجار باللغة الفهلوية، ويؤيد ذلك ما جاء في كتب الأخبار عن فتح الاسكندر بلاد فارس ، ومـا عثر عليه في عاصمتهم اصطخر من خزائن الكتب فاستنسخها واحرقها كما تقدم ، وفيها ما كان قد جمعه الفرس من علوم الهند والصين الى تلك الأيام .

وليس ذلك كل ما كان عند الفرس من كتب العلم ، فقد عثروا في أوائل القرن الرابع للهجرة على مخابىء في رستاق جي بفارس ، هي عبارة عن أزج معقود بالحجـــارة فوجدوا هناك كتباً كثيرة مكتوبة في لحاء التوز ، وفيها اصناف من علوم الأوائل باللغـة

الفارسية القديمة (الفهلوية) وقد تبين من قراءتها « أن طهمورث الملك المحب للعلوم والعلماء خاف الأمطار على كتب العلم فأودعها ذلك الرستاق » وهي كتب نفيسة في علم النجوم وعلل حركاتها مما كان عند الفرس والروم والكلدان [١] . وعثروا نحو ذلك الزمن أيضاً على أزج آخر انهار فانكشف عن كتب كثيرة لم يهتدِ أحد الى قراءتها . والظاهر أن عادة حبس الكتب في المغارات او نحوها كانت شائعة في ذلك الزمان. قال ابن النديم : «والذي رأيته أنا بالمشاهدة أن أبا الفضل بن العميد انفذ الى هنا في سنة نيف وأربعين (وثلثمائة) كتباً متقطعة اصيبت بأصفهان في سور المدينة في صناديق ، وكانت في اليونانية فاستخرجها اهل هذا الشأن مثل يوحنا وغيره ، وكانت أسماء الجيش ومبلغ أرزاقهم ... الخ » .

على ان الشائع من علوم الفرس لم يكن يتجاوز بعض الأشعار والأخبار وكتب العقائد والأديان الى ايام سابور بن اردشير من الدولة الساسانية في اواسط القرن الثالث للميلاد . وفي أيامه ظهرت طائفة المانوية ، ونشبت بين سابور والروم حروب انتهت بنصرته ، وقد حمل معه عدداً كبيراً من أسراهم الى بلاده ، فأنشأ لهم في الأهواز مدينة سماها جنديسابور نسبة اليه ، وأكرم وفادتهم فحببوا اليه العلم فعمل على استرجاع علوم الفرس من اليونان او الاستعاضة بمثلها . فبعث الى بلاد اليونان فاستجلب كتب الفلسفة وأمر بنقلها الى الفارسية [٢] واختزنها في مدينته ، وأخذ الناس في نسخها ودراستها .

فلما تولى كسرى انو شروان العادل (من سنة ٥٣١ — ٥٧٨) فتح للفرس مورداً جديداً للعلم والفلسفة بما كان من اضطهاد جستينان قيصر الروم للفلاسفة الوثنيين على اثر اقفاله الهياكل والمدارس الوثنية . وكانت الفلسفة الافلاطونية الجديدة قد نضجت ، ففر بعض اصحابها من وجه الاضطهاد وتفرقوا في العالم ، وجاء منهم سبعة الى انوشروان فأكرم وفادتهم ، وامرهم بتأليف كتب الفلسفة او نقلها الى الفارسية ، فنقلوا المنطق والطب [٣] والفوا فيهما الكتب فطالعها هو ورغب الناس فيها . وعقد المجالس للبحث والمناظرة كما فعل المأمون بعده بقرنين وبعض القرن ، حتى خيل لليونان الذين جالسوا انوشروان انه من تلامذة افلاطون . والمظنون ان تلك الفلسفة كانت اساساً لتعاليم الصوفية التي نشأت بعد ذلك .

ولم يقتصر انوشروان على نقل علوم اليونان الى لسانه ولكنه نقل علوم الهنود ايضاً

---

١ — الفهرست ٢٤٠ . ٢ — ابو الفداء ٥٠ ج ١ . ٣ — الفهرست ٢٤٢ .

من السنسكريتية الى الفارسية[١] وانشأ في جنديسابور مارستانا (مستشفى) لمعالجة المرضى وتعليم صناعة الطب ، استقدم اليه الاطباء من الهند وبلاد اليونان ، وكانوا يعلمون فيه الطبين : الهندي والابقراطي فجمع بين الحسنيين . وبلغ هذا المارستان من الشهرة ١٠ لم يسبق له مثيل ، وكان له شأن كبير بعد الاسلام كما سيأتي .

وجملة القول ان الفرس اشتغلوا قبل الاسلام في الفلسفة والطب، وتثقفت عقولهم وذاع صيتهم وكان لهم اطلاع خاص في علم النجوم واحكام الافلاك ، مما توارثوه عن اسلافهم او نقلوه عن جيرانهم . وقد زها العلم عندهم في ايام انوشروان العادل ، والعلم لا يزهو إلا في ظل العدل والحرية .

آداب اللغة السريانية قبل الاسلام

السريان بقايا الكلدان او البابليين القدماء ، الذين أنشأوا تمدناً ووضعوا علوماً هامة ورصدوا الكواكب واخترعوا المزاول ووضعوا اسس الطب قبل الميلاد بقرون ، ثم دالت دولتهم واستولى الفرس على بلادهم فذهب علمهم بذهاب حريتهم ، حتى اذا قامت النصرانية وانتشر دعاتها في البلاد وافترقت الى طوائف ومذاهب ، كان للسريان حظ كبير من كل ذلك وكان لهم تأثير ذو شأن في تاريخ النصرانية .

وانما يهمنا في هذا المقام ما كان عندهم من العلم والفلسفة . وهم في ذلك تلامذة اليونان ، لأنهم تعلموا فلسفتهم وطبهم وسائر علومهم ، كما تعلمها الرومان قبلهم واقتبسها الفرس معهم وكما تعلمها المسلمون بعدهم . والسريان اهل ذكاء ونشاط ، فكانوا كلما اطمأنت خواطرهم من مظالم الحكام وتشويش الفاتحين انصرفوا الى الاشتغال بالعلم ، فأنشأوا المدارس للاهوت والفلسفة واللغة ، ونقلوا علوم اليونان الى لسانهم وشرحوا بعضها ولخصوا بعضاً . ومنهم خرج اكثر الذين ترجموا العلم للعباسيين واكثرهم من النساطرة كما سيجيء . ونقتصر هنا على ذكر اشتغالهم بالعلم لأنفسهم .

كان للسريان فيما بين النهرين نحو خمسين مدرسة، تعلم فيها العلوم بالسريانية واليونانية،

---

١ — E. Browne's Literary History of Persia, 167

اشهرها مدرسة الرها وفيها ابتــدأ السريان يشتغلون بفلسفة ارسطو في القرن الخامس للميلاد . وبعد ان تعلموها اخــذوا في نقلها الى لسانهم ، فنقلوا المنطق في اواسط القرن المذكور . ثم اتم دراسة المنطق سرجيس الراس عيني الطبيب المشهور ، وفي المتحف البريطاني بلندن نسخ خطية من ترجمــة الايساغوجي الى السريانيــة ، وكذلك مقولات ارسطو لفرفوريوس ، وكتاب النفس وغيرها ، وقد نشر بعضها مـــن عهد قريب .

وفي اوائل القرن السابع للميلاد اشتهرت مدرسة قنسرين على الفرات بتعليم فلسفة اليونان باللغة اليونانية ، وتخرج منها جماعـــة كبيرة من السريان وفي جملتهم الاسقف ساويرس ، فقد انقطع فيها لدرس الفلسفة والرياضيات واللاهوت . ولما تمكن من تلك العلوم نقل بعضها الى السريانية ، ولا تزال بعض ترجماته في الفلسفة محفوظة في المتحف البريطاني . وقد اتمها بعده تلميذه يعقوب الرهاوي واضع علم النحو السرياني ومن تلامذة اثناسيوس جورجيوس المعروف باسقف العرب (٦٨٦ م) فقد ترجم بعض كتب ارسطو. واشتغل جماعة آخرون في ترجمة كتب افلاطون وفيثاغورس وغيرهما مما يطول شرحه . واشتهرت هناك مدارس اخرى كمدرسة نصيبين التي كان عدد تلامذتها نحو ثمانمائة،وكانت تعلم فيها كل العلوم العقلية والنقلية .

اما الطب فقد كان لهم فيه حظ وافر على اثر انشاء مارستان جنديسابور ، واشتهر فيهم من اهل هذه الصناعة كثيرون ، منهم سرجيس الراس عيني المتقدم ذكره ، واثاتوس الامدي ، وسمعان الطيبوتي ، والاسقف غريغوريوس ، والبطريرك ثيودوسيوس، وغيرهم من الاطباء الذين ادركوا الدولة العباسية وخدموها .

وقد نقل اطباء السريان كثيراً من كتب الطب اليوناني الى السرياني ، حتى في اثنـاء اشتغالهم بنقلها الى العربيــة ، لانهم كانوا كثيراً ما ينقلونها الى السريانيــة فقط او الى السريانية والعربية معاً . فسرجيس ترجم بعض كتب جالينوس الى السريانية ، ثم نقلهـا في الاسلام موسى بن خالد الى العربية[١] والطيبوتي الف في اواخر القرن السابع للميلاد كتاباً في الطب وترجم غير كتاب ، ناهيك بمـا كان من مؤلفات آل بختيشوع وآل حنين وغيرهما .

---

١ – طبقات الاطباء ١٨٩ ج ١ .

ولهم في النجوم مؤلفات كثيرة ، لتسلسل هذا العلم فيهم عن آبائهم الكلدانيين ، فان البرديصاني له كتاب في النجوم لم يصل الينا غير خبره ، وألف الرأس عيني في تأثير القمر وحركة الشمس وألف السبكتي في صور الأبراج . وممن ألف في النجوم أيضاً يعقوب الرهاوي المتقدم ذكره، وداود البيت رباني وموسى بن كيفا وعمونيل البرشهاري وغيرهم.

واشتغل السريان أيضاً في الكيمياء والحساب والرياضيات ، فضلا عن اشتغالهم في لغتهم وضبط قواعدها وحركاتها . والمشهور أنهم اقتبسوا قواعد النحو عن اليونان ، وحركات احرفهم عبارة عن احرف يونانية صغيرة توضع فوق الحروف او تحتها . وقد استغرقوا في آداب اللغة اليونانية وشعرها، فترجموا الالياذة والأوذيسية الى لسانهم. ترجمها ثيوفيل الرهاوي سنة ٨٧٥ م وقد ضاعت الترجمة ولم يبق منها الا بيتان. ويقال أنهم تنبهوا لاستخدام الحروف اليونانية مكان الحركات لما أراد ناظم الالياذة ضبط الاعلام اليونانية فيها. وذلك غير النقط التي كانت تقوم عندهم مقام الحركات ، وقد تقدم ذكرها في كلامنا عن حركات الخط العربي . ولا تزال الحركات عند السريان النقط والأحرف اليونانية الى اليوم ، الأولى شائعة عند السريان الشرقيين ، والثانية عند الغربيين .

آداب اللغة الهندية قبل الإسلام

الهنود امة قديمة ، والطبقة العليا منهم اخوان الفرس واليونان ، وقد نظموا الملاحم ودونوا الأخبار شعراً من قديم الزمان ، ولهم آداب خاصة وتواريخ خاصة تولدت عندهم بتوالي القرون ، كما يستدل من مراجعة تواريخهم ودرس أحوالهم . حتى أنه كثيراً ما كان ملوك الفرس يستعينون بأطباء الهنود ، كما فعل انو شروان في مارستان جنديسابور ، وكما وقع للخلفاء العباسيين في أوائل نهضتهم ، فانهم كانوا يستقدمون الأطباء من الهند ويستشيرونهم في أمراضهم ، بعد ان تفرغ حيل اطباء الفرس والسريان من معالجتهم . لأن للطب الهندي طرقاً غير ما للطب اليوناني او الفارسي ، وقد اشتهر منهم عدة أطباء ألفوا في الهندية ، ونقل المسلمون بعض كتبهم الى العربية كما سيجيء ، ومنهم كنكة وصنجهل وشاناق وغيرهم .

وكانت لهم معرفة حسنة بالنجوم ومواقعها وأبراجها ، ولها أسماء خاصة بلسانهم ، وكان لهم فيها ثلاثة مذاهب : مذهب الارجهير ، ومذهب الاركند ، ومذهب ثالث يقال

له بالسنسكريتية سدهنتا Siddhânta وهو عبارة عن زيج ذكروا فيه آراءهم في حركات الكواكب ، وهو الذي وصل الى العرب ونقلوه الى لسانهم وسموه السندهند . والهنود هم الذين اخترعوا الأرقام ، وعنهم اخذها العرب ، ولهم طرق خاصة في الحساب اكتسبها العرب عنهم . وكان لهم معرفة بفن الموسيقى ، ولهم فيها كتب ترجم المسلمون بعضها الى العربية وسيأتي ذكرها .

الخلاصة

هذه حال العلوم في العالم وبعض نواحي المملكة الاسلامية لما عزم المسلمون على نقلها الى العربية ، وقد رأيت أن أكثرها يونانية الأصل ، وضعها اليونان في ايام وثنيتهم مع ما اقتبسوه من الأمم التي تمدنت قبلهم. ثم تنوعت بالنصرانية وبانتقالها الى الفرس والسريان، على مقتضيات آداب تلك الأمم وعاداتهم .

وكان العراق على الخصوص حافلاً بالعلماء ، وفيهم الأطباء والفلاسفة والمنجمون والحساب وغيرهم ، ممن تجمعوا من بلاد فارس وما بين النهرين ، وفيهم السريان والفرس والروم والهنود . فلما اراد الخلفاء نقل تلك العلوم الى لسانهم وجدوا بين ظهرانيهم من يلبي الطلب ويفي بالغرض .

* * *

العلوم الدخيلة

ما الذي حملهم على طلبها :

قد رأيت فيما كتبناه عن « العرب والقرآن والاسلام » ان المسلمين كانوا يعتقدون في الصدر الأول « أن الاسلام يجب ما قبله » ، وأنه « لا ينبغي أن يتلى غير القرآن » ، وبناء على ذلك هان عليهم احراق ما عثروا عليه من كتب اليونان والفرس في الاسكندرية وفارس . ثم اشتغلوا عن طلب تلك العلوم بما احتاجوا اليه في صدر الاسلام من أسباب انشاء الدولة ، فأصبحوا لا عناية لهم الا بالقرآن واحكامه وما ترتب عليه من العلوم

الاسلامية في الفقه واللغة والمغازي وسير الفتح ونحو ذلك . وكان اهل البلاد الاصليون من الروم والفرس يحببون الى الخلفاء الاشتغال بعلوم الاوائل ، وخصوصاً الطب والفلسفة وهم لا يصغون ولا يقبلون . يحكى ان ماسرجويه البصري من معاصري مروان بن الحكم كان عالماً في الطب ، وهو سرياني الجنس يهودي المذهب ، وكان في أيامه كتاب في الطب هو كناش (حاوي) من افضل الكنانيش ألفه القس أهرون بن أعين في اللغة السريانية فنقله ماسرجويه الى العربية . فلما تولى عمر بن عبد العزيز وجد هذا الكتاب في خزائن الكتب في الشام ، فحرضه بعضهم على اخراجه الى المسلمين للانتفاع به . فاستخار الله في ذلك اربعين يوماً ثم اخرجه الى الناس وبثه في أيديهم [1] ويدلك ذلك على التردد الذي استولى على الخليفة في اخراج هذا الكتاب مع انه من كتب الطب وليس الفلسفة .

ولما اتسع سلطان المسلمين وفرغوا من انشاء العلوم الاسلامية – وقد تأيدت دولتهم وذهبت عنهم السذاجة والغفلة عن الصناعات ، واخذوا في اسباب الحضارة بالحظ الوافر وتفننوا في الصناعات والعلوم – تشوقوا الى الاطلاع على العلوم الفلسفية بما سمعوه من الاساقفة والقساوسة وهان عليهم ذلك بالاسناد الى الحديث النبوي القائل : « الحكمة ضالة المؤمن ، يأخذها ممن سمعها ولا يبالي في أي وعاء خرجت » ، وقوله : « خذوا الحكمة ولو من ألسنة المشركين » [2] ، و « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » ، و « اطلبوا العلم من المهد الى اللحد » ، و « اطلبوا العلم ولو بالصين » [3] . على انهم لم يقدموا على طلبها دفعة واحدة وانما طلبوها تدريجاً تبعاً لمقتضيات الاحوال .

أول من اشتغل بها

اقدم من اشتغل من العرب بهذه العلوم النضر بن الحارث بن كلدة الثقفي ، وهو ابن خالة النبي (صلعم) ، وكان قد رحل الى بلاد فارس وغيرها كأبيه الحارث الطبيب الشهير في عصر النبي (صلعم) ، واجتمع بالعلماء وعاشر الاحبار والرهبان وحصل من العلوم القديمة أشياء جليلة ، واطلع على علوم الفلسفة وأجزاء الحكمة وتعلم من أبيه صناعة الطب. وكان يجاري أبا سفيان في عداوة النبي (صلعم) لأنه ثقفي ، وكان بنو ثقيف حلفاء بني

---

١ – تاريخ الحكماء (خط) ٢ – العقد الفريد ١٦٠ ج ١ .

٣ – كشف الظنون ٣٩ و ٤٣ ج ١ .

أمية . فكان النضر كثير الأذى للنبي (صلعم) ، ينكلم فيه بأشياء كثيرة . ثم وقع النضر أسيراً في واقعة بدر ، فأمر النبي (صلعم) بقتله وذهب خبره (١) .

على ان النضر اقتصر من تلك العلوم على المطالعة ولم ينقل منها شيئاً الى العربية . أما أول من اشتغل في نقلها فخالد بن يزيد الأموي المتوفي سنة ٨٥ هـ حفيد معاوية الاكبر ، ويسمونه حكيم آل مروان . وكان طامعاً في الخلافة بعد وفاة أخيه معاوية الثاني ، فغلبه على ذلك مروان بن الحكم وانتقلت به الخلافة من بيت أبي سفيان الى بيت مروان. فلمايئس خالد من الخلافة ــ وهو ذو مطامع وذكاء ــ انصرف ذهنه الى اكتساب العلى بالعلم. وكانت صناعة الكيمياء رائجة يومئذ في مدرسة الاسكندرية ، فاستقدم جماعة منهم راهب رومي اسمه مريانوس طلب اليه ان يعلمه صناعة الكيمياء ، فلما تعلمها أمر بنقلها الى العربية ، فنقلها له رجل اسمه اصطفان القديم (٢) وهذا أول نقل في الاسلام من لغة الى لغة .

وكان خالد راغباً في علم النجوم ايضاً ، وأنفق الاموال في طلبه واستحضار آلاته ، ولعلهم ترجموا له شيئاً منه لم يصلنا خبره. على ان بعض الذين اطلعوا على مكتبة القاهرة في اواسط القرن الرابع للهجرة شاهدوا فيها كرة من نحاس من عمل بطليموس وعليها مكتوب : « حملت هذه الكرة من الامير خالد بن يزيد بن معاوية » (٣) .

ويلي نقل خالد للكيمياء نقل ماسرجويه ــ او ماسرجيس المتقدم ذكره ــ لكناش أهرون من السرياني الى العربي ، وهو ثلاثون مقالة زاد عليها ماسرجويه مقالتين (٤) .

---

١ ــ طبقات الاطباء ١١٣ ج ١ . ٢ ــ الفهرست ٢٤٢ و ٢٤٤ .
٣ ــ تراجم الحكماء . ٤ ــ طبقات الأطباء ١٠٩ ج ١ .

نقل العلوم في العصر العبّاسي

المنصور والنجوم والطب

اول الخلفاء العباسيين السفاح ، ولم يعن بشيء من العلم لقصر مدة حكمه . ثم افضت الخلافة الى اخيه المنصور (سنة ١٣٦ – ١٥٨ هـ) وكان شديداً حازماً كثرت في ايامه الفتوح فاضطر الى حروب كثيرة ، وقد طالت مدة حكمه لكنه قضى معظمها في تثبيت دعائم دولته وبناء مدينته « بغداد » .

النجوم

وكان المنصور مع براعته في الفقه ميالا الى التنجيم لا يكاد يعمل عملا إلا استشار المنجمين فيه ، وهو اول خليفة قرب المنجمين وعمل باحكام النجوم [١] واقتدى به اكثر الذين خلفوه . وكانت صناعة النجوم رائجة عند الفرس ، ونبغ فيها جماعة تقربوا بها اليه اشهرهم نوبخت المنجم الفارسي ـ كان مجوسياً واسلم على يده ، وكان بارعاً في اقترانات الكواكب وحوادثها ، وكان يصحب المنصور حيثما توجه . ولما ضعف عن خدمته قال له المنصور: « احضر ولدك ليقوم مقامك » فأحضره وهو ابو سهل بن نوبخت[٢] وتوالى آل نوبخت في خدمة العباسيين ، وترجموا لهم كتباً في الكواكب واحكامها ، وكانوا فضلاء ولهم رأي ومشاركة في علوم الاوائل .

وخدم المنصور ايضاً في النجوم ابراهيم الفزاري المنجم وابنه محمد ، وعلي بن عيسى الاسطرلابي المنجم[٣] . ونظراً لكلف المنصور بحركات الكواكب وحبه الاطلاع عليها قصده اصحابها من بلاد فارس والهند والروم ، وفي جملتهم رجل من الهند بارع في حساب

---

١ – المسعودي ٣٦٤ ج ٢ . ٢ – ابو الفرج ٢١٦ .

٣ – المسعودي ٢٦٤ ج ٢ .

السدهنتا المتقدم ذكره سنة ١٥٦ هـ وعرض عليه كتاباً في النجوم مع تعاديل معمولة على مذاهب الهند ، فامر المنصور ان ينقل هذا الكتاب الى العربية ، وان يؤلف فيه كتاب يتخذه العرب اصلا في حركات الكواكب ، فتولى ذلك محمد بن ابراهيم الفزاري وعمل منه كتاباً سماه المنجمون « السند هند الكبير » وظل اهل ذلك الزمان يعملون بـــه الى ايام المأمون[١] .

فاهتم الناس من ذلك الحين بعلم النجوم ومتعلقاتهـا ، وجرهم النظر في الافلاك الى الهندسة ، فكتب المنصور الى ملك الروم ان يبعث اليه بكتب التعاليم مترجمة ، فبعث اليه بكتاب اقليدس وبعض كتب الطبيعيات[٢] ولعل المجسطي من جملتها ، لأنـــه في النجوم . والظاهر ان ترجمة هذه الكتب لم تكن مضبوطة ، لأننا رأينا اقليدس والمجسطي في جملة ما ترجم للرشيد والمأمون . وجملة القول ان رغبـــة المنصور في النجوم دعت الى ترجمة بعض كتب النجوم وما يتعلق بها .

الطب

ومما اهتموا بنقله من العلوم الطبيعية في ايام المنصور الطب . والسبب في ذلـك ان المنصور اصابه في اواخر أيامه (سنة ١٤٨ هـ) مرض في معدته فانقطعت شهوته ، وكان الاطباء القائمون في خدمته يعالجونه ولا يجدي علاجهم نفعاً . فجمعهم يوماً وقـال لهم : « هل تعرفون من الاطباء في سائر المدن طبيباً ماهراً ؟ » فقالوا : « ليس في وقتنا هـذا احد يشبه جورجيس رئيس اطباء جنديسابور » . وهو جورجيس بن بختيشوع السرياني ، فقد كان ماهراً في الطب وله فيه مصنفات باللغة السريانية ، وكان من الذكاء والفضل على جانب عظيم ، حتى اصبح رئيس اطباء مارستان جنديسابور اشهر مدارس الطب في تلك الايام . فبعث المنصور في طلبه على عجل ، فلما جاء الرسول الى جورجيس اراد استمهاله فهدده بالقتل اذا ابطأ . فعهد بأمر المارستان الى ابنه بختيشوع ، واصطحب اثنين مـن تلامذته هما : ابراهيم وعيسى بن شهلا وركب الى بغداد . فلما وصل استقدمه المنصور اليه فدخل ودعا له بالفارسية والعربية . وكان جورجيس ذا هيبة ووقار وفصاحة ، فوقـع عند المنصور موقعاً حسناً فأجلسه امامه وسأله بعض الاسئلة فاجابـه عليها بسكون ،

---

١ — تراجم الحكماء (خط) . ٢ — ابن خلدون ١ : ٤٠١ ج ١ .

فازداد اعجاباً به فأخبره عن علته من ابتدائها . فقال له جورجيس : «انا ادبرك كما تحب» فخلع عليه وانزله في قصر خاص وأمر باكرامه . ورجع في الغد ونظر في قارورة الماء (زجاجة البول) ودبره تدبيراً لطيفاً ، فشفي ورجع الى مزاجه فازداد فرحه به ومنعه من الرجوع الى بلده . ومما زاده رغبة فيه انه رآه عفيفاً صادقاً في تدينه . وكان المنصور قد علم ان جورجيس خلف امرأته في جنديسابور وليس عنده في بغداد من يخدمه ، فأرسل اليه ثلاث جوار روميات وثلاثة آلاف دينار فقبل الدنانير ورد الجواري ، فلما عاتبه المنصور في الغد اجابه : « اننا معشر النصارى لا نتزوج إلا بامرأة واحدة ، وما دامت المرأة حية لا نأخذ غيرها »[١] فحسن موقع ذلك عند المنصور واطلق له الدخول الى حظاياه وحرمه ليطببهن ، وتعلق به تعلقاً شديداً .

وكان جورجيس محباً للتأليف كما رأيت ،وكان يعرف اللغة اليونانية فضلا عن السريانية والفارسية والعربية. فلما رأى وثوق المنصور به نقل له كتباً طبية من اليونانية الى العربية غير ما الفه في السريانية . اما التأليف في الطب فقد سبقه اليه اكثر الأطباء الذين خدموا المسلمين على عهد بني أمية .وكان الطبيب اذا خدمهم الف لنفسه او لولده او لأحد تلامذته كتاباً او غير كتاب في الفن الذي يتعاطاه . والغالب ان يؤلفوا الكنانيش ، كالكناش الذي الفه ثياذوق المتوفي سنة ٩٠ هـ طبيب الحجاج ، الفه لابنه والف له ايضاً كتاباً في الأدوية ومعالجتها . وتوالى آل بختيشوع في خدمة العباسيين وخدموا الطب والعلم في ظلهم خدمة نافعة .

فالمنصور اول من عني بنقل الكتب القديمة ، ولكنه اقتصر منها على النجوم والهندسة والطب . وفي ايامه ترجم ابن المقفع كليلة ودمنة . وأما الفلسفة والمنطق وسائر العلوم العقلية فترجمت في أيام المأمون. وقد ذكر صاحب الفهرست ان ابن المقفع نقل من الفارسية الى العربية كتباً في المنطق والطب كان الفرس قد نقلوها عن اليونانية . فلعله نقلها لنفسه .

المهدي والرشيد

اما المهدي (١٥٨ — ١٦٩ هـ) فانه اشتغل عن العلم بما ظهر في ايامه من البدع الدينية ،

---

١ — طبقات الاطباء ١٢٤ ج ١ .

وما انتشر من كتب ماني وابن دميان ومرقيون مما نقله ابن المقفع وغيره وترجمت من الفارسية والفهلوية الى العربية ، وما صنفوه في تأييد هذه المذاهب في العربية ، فكثر الزنادقة وظهرت آراؤهم في الناس،فأمر المهدي اهل البحث من المتكلمين بتصنيف الكتب لابطال تلك المذاهب . اما الهادي ، فلم تطل ايامه ولم يأت أمراً يذكر .

فلما أفضت الخلافة الى الرشيد (١٧٠ - ١٩٣هـ) كانت الافكار قد نضجت والأذهان قد زادت تنبهاً الى علوم الاقدمين بما كان يتقاطر الى بغداد من الاطباء والعلماء من السريان والفرس والهنود . وكانوا اهل تمدن وعلم كما رأيت ، وكانوا يتعلمون العربية ويعاشرون المسلمين ويباحثونهم في تلك العلوم ، والمسلمون يتهيبون من ذلك لما سبق الى اذهانهم من مخالفته للدين إلا الكتب الطبية فكانوا يرغبون في نقلها او مطالعتها . ولكن الاطباء انفسهم كانوا يومئذ من غير المسلمين، ويغلب ان يكونوا من محبي الفلسفة والمنطق، وكانوا من الجهة الثانية يخدمون الخلفاء ويجالسونهم ويعاشرونهم كأنهم بعض اهلهم كما سترى . فأدى ذلك الى ائتلاف الخلفاء بذكر الفلسفة ، واصبحوا اذا فتحوا بلداً ووجدوا فيه كتباً لا يأمرون باحراقها او اعدامها ، بل يأمرون بحملها الى عاصمتهم والاحتفاظ بها لنقلها الى لسانهم ، كما اتفق للرشيد في اثناء حربه في انقرة وعمورية وغيرهما من بلاد الروم ، فانه عثر هناك على كتب كثيرة حملها الى بغداد وامر طبيبه يوحنا بن ماسويه بترجمتها[١] ولكنها ليست من الفلسفة في شيء وانما هي في الطب اليوناني[٢] .

وفي ايام الرشيد نقل كتاب اقليدس النقلة الاولى على يد الحجاج بن مطر ، وتسمى الهارونية تمييزاً لها عن النقلة المأمونية التي نقلها للمأمون[٣] . وفي ايامه نقل المجسطي الى العربية ، واول من عني بنقله يحيى بن خالد البرمكي ، ففسره له جماعة لم يتقنوه فندب لتفسيره ابا حسان وسلما صاحب بيت الحكمة ، فأتقناه واجتهدا في تصحيحه .

المأمون والفلسفة والمنطق

فالكتب الفلسفية لم يقدم المسلمون على ترجمتها إلا في ايام المأمون ، لسبب متصل بالمأمون نفسه . وذلك ان المسلمين تعودوا من اول الاسلام حرية الفكر والقول والمساواة

---

١ - طبقات الاطباء ١٧٥ ج ١ . ٢ - ابو الفرج ٢٢٧ .
٣ - الفهرست ٢٦٥ و ٢٦٨ .

فيما بينهم ، فكان اذا خطر لأحدهم رأي في خليفة او امير لا تمنعه هيبة الملك من ابداء رأيه . وكان ذلك شأنهم في الدين ، فاذا فهم احد من الآية او الحديث غير ما فهمه الآخر صرح برأيه وجادله فيه . فلم ينقض عصر الصحابة حتى اخذ المسلمون يفترقون في المذاهب ، ولم يدخل القرن الثاني حتى تعددت الفرق وتفرعت ، وفي جملتها المعتزلة . والمعتزلة طوائف كثيرة ، اساس مذهبهم تطبيق الاحكام العقلية على النصوص الدينية ، ولو طالعت مذاهبهم لرأيت بعضها يوافق احدث الآراء الانتقادية في الدين مع مرور الاجيال على تمحيصها . ولذلك فهم يسمون اصحاب العدل والتوحيد .

المأمون والاعتزال

ظهر مذهب الاعتزال في اواخر القرن الاول للهجرة ، وكثر اشياعه بسرعة لارتياح العقل الى ادلته . وقد تقدم في كلامنا عن الفقه ان المنصور اخذ بناصر اصحاب الرأي والقياس واستقدم ابا حنيفة الى بغداد ونشطه لهذه الغاية ، وظل الميل الى القياس متواصلاً في بني العباس . والاعتزال اقرب المذاهب الى اصحاب الرأي ، لأن عمدة المعتزلة في اثبات مذهبهم البرهان العقلي ، ولذلك كانوا اذا رأوا رجلاً مطلعاً على منطق ارسطو او اقواله في الجدل ونحوه استعانوا بما يسمعونه منه في تأييد مذهبهم ، واحتاجوا الى ذلك ، خصوصاً في ايام المهدي لدفع أقوال الزنادقة كما تقدم . فلعلهم احتاجوا الى الاستعانة بمنطق اليونان وفلسفتهم ، او شعروا باحتياجهم اليها على الاقل ، واخذوا في انشاء علم الكلام . وكان البرامكة من اصحاب الرأي ايضاً ، وفيهم ذكاء وميل الى العلم ، فاشتغلوا في ترجمة الكتب القديمة قبل المأمون[1] وكانوا يعقدون مجالس المباحثة والمجادلة في منازلهم ولكن يظهر ان الرشيد لم يكن يوافقهم على ذلك فلم يتظاهروا به .

فلما افضت الخلافة الى المأمون (١٩٨ – ٢١٨ هـ) تغير وجه المسألة ، لأنه كان مع فطنته وسعة علمه شديد الميل الى القياس العقلي . وقد تعلم وتفقه وطالع ما نقل الى عهده من كتب القدماء ، فازداد رغبة في القياس والرجوع الى احكام العقل ، فتمسك بمذهب الاعتزال وقرب اليه اشياخه كأبي الهذيل العلاف وابراهيم بن سيار النظام ، وجالس المتكلمين فتمكن من مذهب الاعتزال . فأخذ بناصر اشياعه وصرح بأقوال لم يكونوا

---

١ – ابن خلكان ٦٧٥ ج ١ .

يستطيعون التصريح بها خوفاً من غضب الفقهاء ، وفي جملتها القول بخلق القرآن اي انه غير منزل . وكان المسلمون في ايام الرشيد يخافون المأمون في ذلك ، لانه ظهر فيه قبل توليه الخلافة ، وكان الفضيل بن عياض يتمنى طول عمر الرشيد لما تبين له من امر المأمون من هذا القبيل .

فلما تظاهر المأمون بالاعتزال وقال بخلق القرآن ، قامت قيامة الفقهاء وعظم ذلك على غير المعتزلة وهم اكثر عدداً ، ولم يعد في وسعه الرجوع عن قوله فعمل على تأييده بالبرهان وجعل يعقد المجالس للمناظرة في هذا الموضوع [١] . وتأييداً لصحة الجدل امر بنقل كتب الفلسفة والمنطق من اليونانية الى العربية ، واطلع هو عليها فقويت حجته وازداد تمسكاً بالاعتزال . ولما يئس من اقناع الناس بالبرهان والقياس عمد الى العنف ، باشر ذلك في العام الأخير من حكمه وهو خارج بغداد ، فكتب الى عامله فيها اسحق بن ابراهيم ان يمتحن القضاة والشهود وجميع اهل العلم بالقرآن ، فمن اقر انه مخلوق محدث خلى سبيله ومن أبى فليعلمه به [٢] .

فالراجح عندنا ان المأمون ، لسعة علمه وحرية فكره ورغبته في القياس العقلي لم يكن يرى بأساً على نقل علوم اليونان الى العربية ، وأنه بدأ بنقل كتب الفلسفة والمنطق تأييداً لمذهب الاعتزال ، ثم جعل الترجمة عامة لكل مؤلفات ارسطو في الفلسفة وغيرها . وقد ابتدأ بترجمة تلك الكتب في اعوام بضعة عشر ومائتين ، فتلقى المعتزلة تلك الفلسفة تلقي الظمآن لموارد الماء ، واقبلوا على تصفحها والتبحر فيها فاشتد ساعدهم بها [٣] . فتولد من اشتغال المسلمين بالفلسفة علم الكلام [٤] كما تولد من اشتغال النصارى بها «الفلسفة الافلاطونية الجديدة » .

المأمون ونقل الكتب

وقد ذكروا لمباشرة المأمون نقل تلك الكتب أسباباً كثيرة . قال أبو اسحق النديم صاحب كتاب الفهرست في سبب ذلك ، إن المأمون رأى في منامه أرسطوطاليس الحكيم وسأله بعض الأسئلة ، فلما نهض من منامه طلب ترجمة كتبه ، فكتب الى ملك الروم يسأله

١ — الدميري ٧٢ ج ١ . ٢ — ابو الفداء ٣٣ ج ٢ .
٣ — المقريزي ٢٥٧ ج ٢ . ٤ — الشهرستاني ١٨ ج ١ .

الاذن في انفاذ ما يختار من كتب العلوم القديمة المدخرة ببلد الروم ، فأجابه الى ذلك بعد امتناع . فأخرج المأمون لذلك جماعة منهم الحجاج بن مطر وابن البطريق وسلما صاحب بيت الحكمة وغيرهم ، فأخذوا مما وجدوا ما اختاروا ، فلما حملوه اليه أمرهم بنقله فنقل[١].

وذكر نحو ذلك ابن ابي اصيبعة صاحب طبقات الأطباء ، وابو الفرج صاحب مختصر الدول وغيرهما . والغالب في ظننا انهم نقلوا ذلك عن ابن اسحق المذكور . ومهما يكن السبب ، فلا مشاحة في ان المأمون بذل جهده في استخدام التراجمة لنقل تلك الكتب وغيرها . وكان ينفق في سبيل ذلك بسخاء ، حتى اعطى وزن ما يترجم له ذهبا. وكان لشدة عنايته في النقل يضع علامته على كل كتاب يترجم له . وكان يحرض الناس على قراءة تلك الكتب ويرغبهم في تعلمها ، وكان يخلو بالحكماء ويأنس بمناظراتهم ويلتذ بمذاكراتهم [٢] .

واقتدى بالمأمون كثيرون من اهل دولته ، وجماعة من اهل الوجاهة والثروة في بغداد ، فتقاطر اليها المترجمون من انحاء العراق والشام وفارس ، وفيهم النساطرة واليعاقبة والصابئة والمجوس والروم والبراهمة ، يترجمون من اليونانية والفارسية والسريانية والسنسكريتية والنبطية واللاتينية وغيرها . وكثر في بغداد الوراقون وباعة الكتب ، وتعددت مجالس الأدب والمناظرة ، واصبح هم الناس البحث والمطالعة ، وظلت تلك النهضة مستمرة بعد المأمون الى عدة من خلفائه ، حتى نقلت أهم كتب القدماء الى العربية .

نقلة العلم في العصر العباسي

رأيت فيما تقدم ان السريان كانوا في نهضة علمية قبل الاسلام ، وأنهم أخذوا في نقل كتب اليونان الى لسانهم ، ودرسوا كثيراً منها وخصوصاً الفلسفة والطب ، وبرزوا في هذه الصناعة حتى تولى بعضهم رئاسة مارستان جنديسابور كما تقدم ، وان اللغة اليونانية كانت تعلم في مدارسهم . فلما انتقل كرسي الخلافة الى بلادهم (العراق) وعمرت بغداد بالوافدين من اطراف المملكة الاسلامية وغيرها ، كان أولئك السريانيون من جملة الوفود التماساً للرزق ، فتعلموا لسان العرب كما نتعلم نحن لغة الانجليز اليوم لهذا السبب . وطاب لهم

---

١ — الفهرست ٢٤٣ .   ٢ — ابو الفرج ٢٣٦ وطبقات الاطباء .

الاختلاط بالعرب — او المسلمين لما آنسوه من عدل العباسيين في اول دولتهم ، واطلاق حرية الأديان لرعاياهم ، حتى كثيراً ما كانوا يوسطونهم في فض الخلاف بين طوائفهم واساقفتهم . ولهذا السبب أيضاً انتقل جماعة من الفرس الى بغداد ، وكانوا اهــل دولة وحكومة ، فاستخدمهم الخلفاء في ادارة شؤون دولتهم ، وفيهم جماعة كبيرة من اهــل العلم والأدب ، واستقدم الخلفاء أيضاً جماعة من أطباء الهند للانتفاع بطبهم .

فلما اراد الخلفاء نقل كتب العلم الى العربية ، كان واسطة ذلك النقل اهــل العراق والشام وفارس والهند . فرغبهم الخلفاء في ذلك بالبذل الكثير وجعــلوا لبعضهم رواتب وأرزاقاً ، وبالغــوا في اكرامهم ومحاسنتهم ، فتكاثروا . واكثرهم من السريان النساطرة ، لأنهم اقدر على الترجمة من اليونانية واكثر اطلاعاً على كتب الفلسفة والعلم اليوناني . وفيهم جماعة من اهل فارس والهند وغيرهم ، للنقل من الفارسية او الهندية ، وكان اكثرهم تتوالى الترجمة في اعقابه فيتولاها هو واولاده واحفاده . واليك اشهر نقلة العلم في العصر العباسي :

(١) آل بختيشوع : وهم من السريان النساطرة، اولهم جورجيس بن بختيشوع طبيب المنصور وقد تقدم ذكره ، وخلفه عندهم ابنه بختيشوع بن جورجيس استقدمه الرشيد من جنديسابور كما استقدم المنصور اباه قبله. فلما دخل على الرشيد دعا له بالفارسية والعربية، فقال الرشيد لوزيره يحيى : امتحنه، فدعا يحيى الأطباء لامتحانه — وهم أبو قريش عيسى وعبد الله الطيفوري وداود بن سرابيون وغيرهم — فلما رأوه قــال أبو قريش : « يا أمير المؤمنين ليس في الجماعة من يقدر على الكلام مع هذا ، لأنه كون الكلام وهو وابوه وجنسه فلاسفة » . ويدل ذلك على منزلة آل بختيشوع من العلم والفلسفة . فولاه الرشيد رئاسة الأطباء ، وخلفه فيها ابنه جبريل وكان حظياً عند الخلفاء ونال جوائزهم وعطاياهم. وكان له من الرواتب شيء كثير قد فصلناه في الجزء الثاني من هذا الكتــاب . وخلفه ابنه بختيشوع بن جبريل ، وقد بلغ من عظم المنزلة والحال وكثرة المال مــا لم يبلغه احد من أطباء عصره . ومنهم جبريل بن عبيد الله بن بختيشوع ، خدم المقتدر العبــاسي . وخلفه عبيد الله بن جبريل . فهؤلاء ستة من آل بختيشوع ، كلهم من مهرة الأطبــاء ، ولم يعن بالترجمة منهم الا جورجيس الاول . وانما اوردنا ذكرهم لان اكثرهم ألف في الطب كتباً مفيدة ، وبعضهم استخدم التراجمة في نقل بعض كتب الطب الى السريانية [1] .

---

١ — طبقات الاطباء ١٣٨ ج ١ .

(٢) آل حنين : اولهم حنين بن اسحق العبادي شيخ المترجمين ، وهو من نصارى الحيرة . ولد سنة ١٩٤ هـ وكان ابوه صيرفياً ، ولما ترعرع انتقل الى البصرة فتلقى فيها العربية ، ثم انتقل الى بغداد ليشتغل بصناعة الطب ، فلقي في ذلك مشقة لأن الأطباء — وخصوصاً اهل جنديسابور — كانوا يكرهون ان يدخل في صناعتهم ابناء التجار . وكان اعمر مجالس الطب في بغداد يومئذ مجلس يوحنا بن ماسويه احد متخرجي مارستان جنديسابور ، فجعل حنين يحضره . فاتفق انه سأله مرة مسألة مما كان يقرأه عليه ، فغضب يوحنا وقال : « ما لأهل الحيرة وصناعة الطب ؟ فصر الى فلان قرابتك ، حتى يهب لك خمسين درهماً ، تشتري بها قفافاً صغاراً بدرهم ، وزرنيخاً بثلاثة دراهم ، واشتر بالباقي فلوساً كوفية وفارسية ، وزرنخ القادسية في تلك القفاف ، واقعد على الطريق وصح : الفلوس الجياد للصدقة والنفقة !وبع الفلوس،فأنه اعود عليك من هذه الصناعة . . » ثم امر به فأخرج من داره .

فخرج حنين باكياً مكروباً، وقد بعثه ذلك النشاط للسعي في تعلم الطب بلغته الاصلية . فغاب عن بغداد سنتين ، ثم عاد وقد تعلم اليونانية وآدابها في الاسكندرية وحفظ اشعار هوميروس[١] فأصبح اعلم اهل زمانه بالسريانية واليونانية والفارسية فضلاً عن العربية ، واصبح اطباء بغداد في حاجة اليه لنقل الكتب ، حتى ابن ماسويه نفسه فانه استخدمه في نقل بعض كتب جالينوس الى السريانية وبعضها الى العربية ، واحتذى فيها حذو الاسكندرانيين[٢]. وترجم ايضاً لجبريل بن بختيشوع كتاب التشريح لجالينوس ، وكان جبريل يخاطبه بالتبجيل فيقول له : « ربن حنين » في اصطلاح السريان اي : « يا معلمنا حنين ».ولما اراد المأمون نقل فلسفة اليونان الى العربية سأل عمن يستطيع ذلك فأرشدوه الى حنين ، لأنه لم يكن ثمة من يضاهيه وهو لا يزال شاباً ، فأخرج المأمون جماعة من التراجمة وهم الحجاج بن مطر وابن البطريق وسلم صاحب بيت الحكمة وغيرهم وعليهم حنين المذكور ليصلح ما يترجمونه.وكان المأمون يعطيه من الذهب زنة ما ينقله الى العربية مثلا بمثل ، ولذلك فقد كان حنين يكتب الترجمة بحروف غليظة واسطر متفرقة على ورق غليظ جداً لتعظيم حجم الكتاب وتكثير وزنه . وذكر ان حنيناً رحل بنفسه في طلب الكتب من بلاد الروم لنقلها ، وكان يترجم ايضاً لبني شاكر الآتي ذكرهم ولغيرهم .

---

١ — طبقات الاطباء ١٨٥ ج ٣ .   ٢ — طبقات الاطباء ١٨٩ ج ١ .

وكان لحنين ولدان : داود واسحق ، صنف لهما كتباً طبية في المبادىء والتعليم ، ونقل لهما كتباً كثيرة من مؤلفات جالينوس ، فأفلح اسحق وتميز ، واشتغل في الترجمة مثل ابيه من اليونانية الى العربية. الا ان عنايته كانت منصرفة الى نقل كتب الحكمة مثل كتب ارسطوطاليس وغيره من الحكماء . أما ابوه فكان اكثر اشتغاله في نقل كتب الطب ، وخصوصاً كتب جالينوس . ويندر ان يوجد من جالينوس كتاب إلا وهو بنقل حنين او باصلاحه ، وما لم يكن كذلك لم يكن معتبراً عندهم ، لبراعة حنين في العربية فضلاً عن تمهره بصناعة الطب . واشتغل حنين في زمن المتوكل (تولى سنة ٢٣٣ ﻫ) فاختاره لرئاسة الترجمة ، فعين جماعة من التراجمة كاصطفان بن باسيل وموسى بن خالد ، فكانوا يترجمون ويتفحص حنين ترجمانهم وينقحها . وكان يلبس زناراً على عادة النصارى في تلك الايام وتوفي سنة ٢٦٤ ﻫ . واشتهر ابنه اسحق ايضاً ، واكثر نقله من كتب ارسطو في الفلسفة وشروحها ، وكان مع ابيه ثم انقطع للقاسم بن عبيدالله وزير المعتضد ، وكان يفضي اليه باسراره ، وله فضلاً عن المنقولات مؤلفات في الطب والصيدلة وغيرهما .

(٣) حبيش الأعسم الدمشقي : هو حبيش بن الحسن الدمشقي ابن اخت حنين بن اسحق ، وقد تعلم صناعة الطب منه ، وكان قد سلك مسلكه في الترجمة . وقيل : من جملة سعادة حنين صحبة حبيش له ، فان اكثر ما نقله حبيش نسب الى حنين ، وكثيراً ما يرى الناس شيئاً من الكتب القديمة مترجماً بنقل حبيش فيظنه لحنين وقد صحف ، فيكشطه ويجعله لحنين [1] .

(٤) قسطا بن لوقا البعلبكي : وهو من نصارى الشام ، وكان طبيباً حاذقاً وفيلسوفاً نبيلاً ، رحل الى بلاد الروم في طلب العلم ، وكان عالماً باللغات اليونانية والسريانية والعربية ونقل كتباً كثيرة من اليونانية الى العربية ، وكان جيد النقل واصلح نقولاً كثيرة وألف رسائل عديدة في الطب ، وكان حسن العبارة جيد القريحة . وفضلاً عما نقله فله مؤلفات كثيرة في الطب والتاريخ والفلسفة والجبر والمقابلة والهندسة والمنطق والأدب والدين ، ما يزيد على مائة كتاب . قال أبو الفرج الملطي : « لو قلت حقاً لقلت أنه افضل من صنف كتاباً ، بما احتوى عليه من العلوم والفضائل ومـا رزق من الاختصار للألفاظ وجمع المعاني » .

---

١ – ابو الفرج ٢٥٣ .

(٥) آل ماسرجويه : اولهم ماسرجويه ، متطبب البصرة ، وهو يهودي المذهب سرياني اللغة . وكان ينقل من السرياني الى العربي ، وقد تقدم ذكره . ثم ابنه عيسى بن ماسرجويه ، وكان يلحق بأبيه ولهما مؤلفات في الطب .

(٦) آل الكرخي : اولهم شهدي الكرخي من اهل الكرخ ، وكان قريب الحال في الترجمة ، ثم ابنه وكان مثل ابيه في النقل ثم فاق اباه في آخر عمره ، ولم يزل متوسطاً . وكان ينقل من السرياني الى العربي .

(٧) آل ثابت : أولهم ثابت بن قره الحراني ، وهو من الصابئة المقيمين في حران . وكان صيرفياً ثم تعلم الطب والفلسفة والنجوم، وكان مع ذلك يعرف اللغة السريانية جيداً، وكان جيد النقل الى العربية ، وله تصانيف كثيرة في الرياضيات والطب والمنطق ، وله في السريانية كتاب في مذهب الصابئة . وكان في خدمة المعتضد العباسي ، وبلغ عنده اجل المراتب ، حتى كان يجلس في حضرته في كل وقت ، ويحادثه طويلاً ويضاحكه ، فيقبل عليه دون وزرائه وخاصته . يليه ابنه سنان بن ثابت ، وكان مقدماً عند القاهر بالله ، وله تصانيف كثيرة ، وكذلك ابنه ثابت بن سنان ، ولكنهما لم ينقلا شيئاً .

(٨) الحجاج بن مطر : كان في جملة من ترجم للمأمون ، وقد نقل كتاب المجسطي واقليدس الى العربية ، ثم اصلح نقله فيما بعد ثابت بن قرة الحراني .

(٩) ابن ناعمة الحمصي : هو عبد المسيح بن عبدالله الحمصي الناعمي ، كان متوسط النقل وهو الى الجودة أميل . ومن بيت الناعمة الحمصي ايضاً زروبا بن مانحوه ، وكان أضعف من سابقه .

(١٠) اسطفان بن باسيل : كان يقارب حنين بن اسحق في جودة النقل ، الا ان عبارة حنين كانت أفصح وأحلى .

(١١) موسى بن خالد : ويعرف بالترجمان ، نقل كتباً كثيرة من الستة عشر لجالينوس ، وهو دون حنين .

(١٢) سرجيس الرأس عيني: هو من مدينة رأس العين في العراق ، نقل كتباً كثيرة، وكان متوسطاً في النقل ، وحنين كان يصلح نقله .

(١٣) يوحنا بن بختيشوع : هو من غير آل بختيشوع المتقدم ذكرهم ، وكان ينقل الكتب من اليوناني الى السرياني وليس الى العربي .

(١٤) البطريق : كان في ايام المنصور وقد أمره بنقل أشياء من الكتب القديمة ، وله نقل كثير جيد الا انه دون نقل حنين .

(١٥) يحيى بن البطريق : كان في جملة الحسن بن سهل ، وكان لا يعرف العربية حق معرفتها ولا اليونانية وانما كان يعرف اللاتينية [١] .

(١٦) أبو عثمان الدمشقي : كان من النقلة المجيدين الى العربية .

(١٧) أبو بشر متى بن يونس : من أهل دير قنى، تفقه في مدرسة مارماري على اساتذة عظام ، واليه انتهت رئاسة المنطقيين في عصره .

(١٨) يحيى بن عدي : هو من أهل المنطق في القرن الرابع للهجرة ، قرأ على متى بن يونس وعلى أبي نصر الفارابي ، وهو يعقوبي المذهب خلافاً لأكثر المترجمين السريان (اذ كانوا نساطرة) وكان سريع الخط يكتب في اليوم والليلة مائة ورقة [٢] .

هؤلاء أشهر نقلة العلم من اليوناني أو السرياني الى العربي . وقد اكتفينا بما تقدم للاختصار .

وأما النقلة من الألسنة الأخرى ، فمنهم من نقل من الفارسية الى العربية كابن المقفع وآل نوبخت ، وقد تقدم ذكر نوبخت كبيرهم ولابنه الفضل بن نوبخت نقل من الفارسي الى العربي في النجوم وغيرها . ومنهم موسى ويوسف ابنا خالد ، وكانا يخدمان داود بن عبد الله بن حميد بن قحطبة ، وينقلان له من الفارسية الى العربية ، وعلي بن زياد التميمي ويكنى ابا الحسن نقل من الفارسي الى العربي كتاب زيج الشهريار، والحسن بن سهل وكان من المنجمين . والبلاذري احمد بن يحيى وجبلة بن سالم كاتب هشام واسحق بن يزيد نقل سيرة الفرس المعروفة باختيار نامه . ومنهم محمد الجهم البرمكي وهشام بن القاسم وموسى بن عيسى الكردي وعمر بن الفرخان وغيرهم .

ومن الذين نقلوا من اللغة السنسكريتية (الهندية) منكه الهندي ، كان في جملة اسحق

---

١ – طبقات الاطباء ٢٠٥ ج ١   ٢ – الفهرست ٢٦٤ .

ابن سليمان بن علي الهاشمي ينقل من اللغة الهندية الى العربية وابن دهن الهندي وكان اليه مارستان البرامكة نقل من الهندي الى العربي [1] .

ومن الذين نقلوا من اللغة النبطية (الكلدانية) الى العربية ابن وحشية ، نقل كتباً كثيرة سيأتي ذكرها .

السوريون ونقل العلم

اذا تدبرت ما تقدم من اخبار النقلة ومواطنهم ومللهم ، رأيت معظمهم من السوريين سكان الشام والجزيرة والعراق . وللسوريين شأن كبير في نشر العلوم بين الأمم ونقلها من أمة الى اخرى او من لسان الى لسان من اقدم ازمنة التاريخ ، يساعدهم على ذلك نشاطهم وذكاؤهم وإقدامهم وتوسط بلادهم بين الشرق والغرب .

فالسوريون (او الفينيقيون) هم الذين نشروا احرف الهجاء في العالم قبل الميلاد ببضعة عشر قرناً ، فحملوها معهم في أثناء أسفارهم التجارية الى بلاد اليونان والكلدان ، ولا تزال صورها واسماؤها عند سائر أمم العالم المتمدن شاهدة بذلك الى اليوم . وهم الذين توسطوا في نقل العلوم والآداب بين المصريين والكلدانيين ، ثم نقلوها الى اليونان القدماء كما تقدم . وكانوا يدرسون اللغات اليونانية والقبطية والبابلية وغيرها من لغات ممالك الأمم المتمدنة في تلك العصور ، كما يدرسون اليوم الانجليزية والفرنسية وغيرهما من لغات ممالك التمدن الحديث ، لنقل العلم او الاتجار او الانتفاع من الخدمة في مصالح تلك الدول .

ولما تمدن اليونان واستنبطوا الفلسفة والمنطق وغيرهما ، ونضجت علومهم وانتقلت بفتوح الاسكندر الى العراق والشام ، تلقاها السوريون ونقلوها الى لسانهم واضافوا اليها بعد انتشار النصرانية الآداب النصرانية اليونانية ، وحفظوها مع الفلسفة اليونانية في اديرتهم ، ثم كانت مصدراً للعلم والفلسفة الى بلاد الفرس والهند وغيرهما .

وكان السوريون في دولة الفرس الساسانية الواسطة الكبرى في نقل علوم اليونان

---

١ — الفهرست ٢٤٥ .

وطبهم وفلسفتهم الى الفرس . ولما بنى كسرى انوشروان مارستان جنديسابور لتعليم الطب والفلسفة كما تقدم ، كان جل معتمده في ذلك على نصارى العراق والجزيرة ، ناهيك بما حفظ من الآداب السامية على صبغته الوثنية في حران ، لأن أهلها ظلوا على ديانتهم القديمة . غير ما حفظه اهل العراق من آداب قدماء الكلدان وعلومهم .

فلما ظهر الاسلام واراد الخلفاء نقل العلوم الى العربية ، كان السوريون ساعدهم الأقوى في نقلها من اللغات المعروفة في ذلك العهد ، وفيهم الحمصي والبعلبكي والدمشقي والحيري والحراني والبصري . ونقل العلوم من لسان الى آخر لا يتيسر الا باستيعاب تلك العلوم وتفهمها ، فضلاً عن اتقان اللغات اللازمة لذلك . ولهذا كان اكثر اولئك المترجمين من اهل العلم الواسع فيما اشتغلوا بنقله، وفيهم من ألف في اكثر فروع العلم او الفلسفة او المنطق او الطب وغيرها .

وذلك شأن السوريين أيضاً في علوم التمدن الحديث ، فقد كانوا من اكثر الناس اشتغالاً في نقلها من لغات أوربا المختلفة الى اللغة العربية ، ولا يزالون في ذلك الى اليوم .

نقل العلم لغير الخلفاء

قد رأيت فيما تقدم ان الخلفاء هم الذين سعوا في نقل كتب العلم على يد التراجمة . فلما نقل بعض تلك الكتب واطلع عليها اهل بغداد ، نهض جماعة من كبرائهم واقتدوا بالخلفاء في نقلها ، واستخدموا التراجمة وبذلوا الاموال في البحث عنها وترجمتها .

واشهر هؤلاء ثلاثة يعرفون ببني شاكر او بني موسى ، لأنهم اولاد موسى بن شاكر ، وهم : محمد واحمد والحسن ، ويعرف اولادهم بعدهم ببني المنجم . وكان والدهم موسى يصحب المأمون ، والمأمون يرعى حقه في اولاده هؤلاء . أما موسى فلم يكن من اهل العلم والادب ، بل كان في حداثته لصاً يقطع الطريق ويتزيا بزي الجند ، وكان شجاعاً مجرباً . وكان يصلي العتمة مع جيرانه في المسجد ثم يخرج متنكراً فيقطع الطريق على فراسخ كثيرة في طريق خراسان ، ويركب فرساً له اشقر يشد على قوائمه خرقاً بيضاء

ليوهم من يراه في الليل انه محجل . وكان له جاسوس يأتيه بخبر من يخرج ومعه مـــال ، وربما لقي الجماعة وفارسهم وغلبهم فينصرف من ليلته فيصلي الصبح مع الجماعة في المسجد. فلما كثر فعله واشتهر اتهم ، فشهد له الجماعة بملازمته الصلاة معهم فاشتبه أمره . ثم انـه تاب ومات وخلف هؤلاء الثلاثة صغاراً ، فوصى بهم المأمون اسحق بن ابراهيم المصعبي واثبتهم مع يحيى بن ابي المنصور في بيت الحكمة . وكان المأمون اذا سافر بعث الى اسحق ان يراعيهم ، حتى قال اسحق : « جعلني المأمون داية لأولاد موسى » . وكانت حـالهم رثة رقيقة وارزاقهم قليلة ، ولكنهم خرجوا نهاية في علومهم . وكان اكبرهم واجلهم محمد ، وكان وافر الحظ في الهندسة والنجوم . عالماً باقليدس والمجسطي وغيرهما من علوم الفلك والطبيعيات والرياضيات . وكان اخوه احمد دونـــه في العلم إلا صناعة الحيل (الميكانيكيات) فانه قد فتح له فيها ما لم يفتح مثله لأخيـــه . وكان اخوهما الحسن منفرداً بالهندسة ، وله طبع عجيب فيها لا يدانيه احد فيه ، مع انه علم كل علمه من نفسه بدون تعليم ، ولا قرأ كتب الهندسة إلا ست مقالات من اقليدس[١] .

وتفانى اولاد شاكر في طلب العلوم القديمة ، وبذلوا فيها الرغائب واتعبوا انفسهم في جمعها ، وانفذوا الى بلاد الروم من اخرجها اليهم ، واحضروا النقلة من الاصقاع والاماكن بالبذل السني . وكان في جملة من انفذوه للبحث عن الكتب حنين بن اسحق[٢] وغيره . واقاموا التراجمة وفي جملتهم حنين وحبيش وثابت بن قرة ، وكانوا ينفقون ٥٠٠ دينار في الشهر للنقل والملازمة[٣] . ولبني موسى مؤلفات كثيرة في الفلك والحيل والهندسة ، ولهم استنباطات في هذا العلم لم يسبقهم اليها احد . وقد برهنوا للمـــأمون ان محيط الأرض ٢٤٫٠٠٠ ميل برهاناً محسوساً ، فضلا عن مهارتهم في الرصد وغيره .

وممن بذلوا المال في نقل العلوم غير الخلفاء محمد بن عبدالملك الزيات ، وكان يقارب عطاؤه للنقلة والنساخ ٢٫٠٠٠ دينار في الشهر ، ونقل باسمه كتب عديدة . ومنهم علي ابن يحيى المعروف بابن المنجم ، كان احد كتاب المأمون ونقل له كثيراً من كتب الطب ، وكذلك محمد بن موسى بن عبد الملك .

ومنهم ابراهيم بن محمد بن موسى الكاتب ، وكان حريصاً على نقل كتب اليونانيين الى

---

١ – تراجم الحكماء (خط) وطبقات الاطباء . ٢ – الفهرست ٢٤٣ .
٣ – طبقات الاطباء ١٨٧ ج ١ .

لغة العرب ، كثير البذل في سبيلها . ومنهم تادري الاسقف في الكرخ ، وكان راغبـاً في طلب الكتب متقرباً الى قلوب نقلتها ، وصنف له الاطباء النصارى كتباً كثيرة . وعيسى ابن يونس الكاتب الحاسب من اهل العراق ، وكانت له عناية في تحصيل الكتب القديمـة والعلوم اليونانية . ومنهم شيرشوع (كذا) بن قطرب من اهل جنديسابور ، وكان يبر النقلة ويهدي اليهم ويتقرب الى تحصيل الكتب بما يمكنه من المال ، وكان يجيد النقل الى السرياني اكثر مما الى العربي.وقس على ذلك جماعة من اطباء الخلفاء كيوحنا بن ماسويه وجبريل بن بختيشوع وداود بن سرابيون وسلمويه وابن الطيفوري وغيرهم . واقتدى بالخلفاء العباسيين في نقل العلوم الى العربية ايضاً كثيرون من امراء المسلمين المستقلين عنهم ، فقد كان عند سيف الدولة طبيب اسمه عيسى الرقي ينقل له من السرياني الى العربي [١] .

---

١ ــ طبقات الاطباء ١٤٠ ج ٢ .

الكتب التي ترجمت في النهضة العباسية

قد رأيت الاسباب التي حملت الخلفاء على نقل علوم القدماء في النهضة العباسية وقبيلها، وقد ذكرنا الذين اشتغلوا في ترجمتها من الألسنة المختلفة. وبقي علينا أن نذكر الكتب التي نقلت وكان عليها معول علماء المسلمين فيما ألفوه بعد ذلك. وهي كثيرة تصعب الاحاطة بها لتشتت أخبارها وضياع كثير منها، على اننا نكتفي بما يبلغ اليه الامكان.

وتسهيلاً للاحاطة بموضوعات تلك الكتب واللغات المنقولة هي عنها نقسمها باعتبار اللغات التي نقلت عنها وهي: اليونانية والفارسية والهندية (السنسكريتية) والنبطية والعبرانية واللاتينية والقبطية. ونقسم منقولات كل لغة الى اقسام باعتبار الموضوعات على ما يقتضيه المقام:

١ ـ الكتب المنقولة عن اليونانية

هي اكثر ما نقلوه الى العربية في تلك النهضة، واكثرها في الفلسفة والطب والرياضيات والنجوم وفروع العلم الطبيعي. واليك كتب كل علم على حدة، مرتبة باعتبار المؤلفين، وبازاء كل كتاب اسم المترجم الذي نقله.

١ ـ كتب الفلسفة والادب:

كتب افلاطون

١ ـ كتاب السياسة	نقله حنين بن اسحق
٢ ـ » المناسبات	» يحيى بن عدي
٣ ـ » النواميس	» حنين ويحيى
٤ ـ » طيماوس	» ابن البطريق وأصلحه حنين

٥ — » أفلاطن الى أقرطن	» يحيى بن عدي	
٦ — » التوحيد	. . . .	
٧ — » كتاب الحس واللذة	. . . .	
٨ — » أصول الهندسة	» قسطا بن لوقا	

كتب أرسطوطاليس

١ — قاطيغورياس ، أي المقولات	نقله حنين بن اسحق
٢ — كتاب العبارة	» » الى السريانية وإسحق الى العربية
٣ — تحليل القياس	» ثيادورس وأصلحه حنين
٤ — كتاب البرهان	» اسحق الى السرياني ومتى الى العربي
٥ — » الجدل	» » » » ويحيى » »
٦ — » المغالطات او الحكمة المموهة	» ابن ناعمة وأبو بشر الى السرياني ويحيى الى العربي
٧ — » الخطابة	» اسحق وابراهيم بن عبدالله
٨ — » الشعر	» أبو بشر من السرياني الى العربي
٩ — » السماع الطبيعي	» أبو روح الصابي وحنين ويحيى وقسطا وابن ناعمة
١٠ — » السماء والعالم	» ابن البطريق وأصلحه حنين
١١ — » الكون والفساد	» حنين الى السرياني واسحق والدمشقي الى العربي
١٢ — » الآثار العلوية	» أبو بشر ويحيى
١٣ — » النفس	» حنين الى السرياني واسحق الى العربي
١٤ — » الحس والمحسوس	» أبو بشر متى بن يونس
١٥ — » الحيوان	» ابن البطريق

١٦ — » الحروف أو الإلهيات	» اسحق ويحيى وحنين ومتى	
١٧ — » الاخلاق	» اسحق	
١٨ — » المرآة	» الحجاج بن مطر	
١٩ — » اثولوجيا	. . . .	

ولكتب أرسطو شروح وتعاليق لبعض تلامذته أو من جـــاء بعده ، كثاوفرسطس وديدوخس برفلس والاسكندر الافروديسي وفرفوريوس الصوري وامونيوس وتامسطيوس ونيقولاوس وفلوطرخس ويحيى النحوي وغيرهم . ولبعض هؤلاء مؤلفات خاصة،وكلها في الفلسفة وفروعها،وقد نقل كثيراً منها الى العربية ولم يعلم ناقلها فأغضينا عن ذكرها ، وقد ذكرها صاحب الفهرست .

وذكروا لجالينوس في جملة كتبه الطبية الآتي بيانها بضعة كتب في الفلسفة والادب ، وهي « كتاب ما يعتقده رأياً » ترجمه ثابت ، وكتاب « تعريف المرء عيوب نفسه » نقله توما واصلحه حنين ، وكتاب « الاخلاق » نقله حبيش ، وكتاب « انتفاع الأخيـــار بأعدائهم » نقله حبيش ، و « المحرك الاول لا يتحرك » نقله حبيش وعيسى وغيرها .

٢ — كتب الطب وفروعه

كتب أبقراط

١ — كتاب عهد أبقراط	نقله حنين الى السريانية وحبيش وعيسى الى العربية
٢ — « الفصول	« حنين لمحمد بن موسى
٣ — « الكسر	« » » » »
٤ — « تقدمة المعرفة	« « وعيسى بن يحيى
٥ — « الأمراض الحادة	« عيسى بن يحيى
٦ — « ابيذيميا	« » » »
٧ — « الأخلاط	« » » « لأحمد بن موسى
٨ — « قاطيطيون	« حنين لمحمد بن موسى
٩ — « الماء والهواء	« « وحبيش
١٠ — « طبيعة الإنسان	« « وعيسى

كتب جالينوس

واشهر كتب جالينوس الكتب الستة عشر ، وهي : كتاب الفرق ، الصناعة ، كتاب النبض ، شفاء الأمراض ، المقالات الخمس ، الاسطقصات ، كتاب المزاج ، القوى الطبيعية ، العلل والأمراض ، تعرف علل الأعضاء الباطنة ، كتاب النبض الكبير ، كتاب الحميات ، البحران ، ايام البحران ، تدبير الأصحـاء ، حيلة البرء ، وقد نقلهـا كلها حنين بن اسحق الى العربية الا كتاب العلل الباطنة ، وكتاب النبض الكبير ، وكتاب تدبير الأصحـاء ، وكتاب حيلة البرء ، فقد نقلها حبيش . اما ما بقي من كتب جالينوس الطبية فـاليك اسماءها مع اسماء ناقليها :

١ التشريح الكبير نقله حبيش الأعسم
٢ اختلاف التشريح « « «
٣ تشريح الحيوان الحي « « «
٤ « « الميت « « «
٥ علم أبقراط بالتشريح « « «
٦ الحاجة الى النبض « « «
٧ علوم أرسطو « « «
٨ تشريح الرحم « « «
٩ آراء أبقراط وافلاطون « « «
١٠ العادات « « «
١١ خصب البدن « « «
١٢ المني « « «
١٣ منافع الاعضاء « « «
١٤ تركيب الادوية « « «
١٥ الرياضة بالكرة الصغيرة « « «
١٦ « « الكبيرة « « «
١٧ الحث على تعلم الطب « « «
١٨ قوى النفس ومزاج البدن « « «

١٩ حركات الصـدر { نقله اصطفان واصلحه حنين
٢٠ علل النفس نقله اصطفان واصلحه حنين
٢١ حركة العضل « « « «
٢٢ الحاجة الى النفس « « « «
٢٣ الامتلاء « « « «
٢٤ المرة والسوداء « « « «
٢٥ الحركات المجهولة نقله حنين
٢٦ علل الصوت « «
٢٧ افضل الهيئات « «
٢٨ سوء المزاج المختلف « «
٢٩ الأدوية المفردة « «
٣٠ المولود لسبعة اشهر « «
٣١ رداءة التنفس « «
٣٢ الذبول « «
٣٣ قوى الاغذية « «
٣٤ التدبير الملطف « «
٣٥ مداواة الامراض « «

٣٦ أبقراط في الامراض الحادة	نقله حنين	
٣٧ الى تراسوبولوس	«	«
٣٨ الطبيب والفيلسوف	«	«
٣٩ كتب ابقراط الصحية	«	«
٤٠ محنة الطبيب	«	«
٤١ افلاطون في طيماوس	«	« واسحق
٤٢ تقدمة المعرفة	«	عيسى
٤٣ الفصد	نقله عيسى واصطفان	
٤٤ صفات لصبي يصرخ	«	ابن الصلت
٤٥ الاورام	«	« «
٤٦ الكيموس	«	ثابت وحبيش
٤٧ الادوية والادواء	«	عيسى
٤٨ الترياق	«	ابن البطريق

وهناك كتب في الطب وتوابعه ذكرها صاحب الفهرست ولم يذكر ناقليها . واما مؤلفوها فمنها بضعة وعشرون كتاباً لروفس من اهل افسس كان قبل جالينوس ، ولعلها لم تنقل كلها . ومما ذكر ناقلوه بضعة كتب لأوريباسيوس ، وهي كتاب الادوية المستعملة نقله اصطفان بن باسيل ، وكتاب السبعين مقالة نقله حنين وعيسى بن يحيى الى السريانية ، وكتاب الى ابنه اسطاث نقله حنين ، وكتاب الى أبيه ارنافيس نقله حنين. ولديسقوريدس العين زربي - ويقال له السائح في البلاد لسياحته في طلب العقاقير والحشائش — كتاب في الحشائش سيأتي تاريخ نقله . ولاسكندروس كتاب « البرسام » نقله ابن البطريق ، وغير هؤلاء مما لم يعرف ناقلوه .

٣ — كتب الرياضيات والنجوم وسائر العلوم

ويشتمل النظر في ذلك على علم النجوم والهندسة والحساب والموسيقى والميكانيكيات، وهاك خلاصة الكلام فيها :

(١) كتب اقليدس : منها اصول الهندسة ، نقله الحجاج مطر نقلين : الهاروني والمأموني ، ونقله اسحق بن حنين وأصلحه ثابت بن قرة ، ونقله ابو عثمان الدمشقي ، ولا يزال هذا الكتاب باقياً الى الآن . ومن كتب اقليدس التي لم يعرف مترجموها : كتاب الظاهرات ، وكتاب اختلاف المناظر ، وكتاب الموسيقى وكتاب القسمة ، وكتاب القانون ، وكتاب الثقل والخفة .

(٢) كتب ارخميدس : وقد تقدم ذكرها في كلامنا عن آداب اليونان ، وهي عشرة لم يعرف ناقلوها .

(٣) ابلونيوس : صاحب كتاب المخروطات وكتاب قطع السطوح وقطع الخطوط والنسبة المحدودة والدوائر المماسة ، ولم يعرف ناقلوها .

(٤) منالاوس : له كتاب الاشكال الكروية وكتاب اصول الهندسة ، نقله الى العربية ثابت بن قرة .

(٥) بطليموس القلوذي : صاحب كتاب المجسطي الشهير ، وقد تقدم خبر نقله وتفسيره على يد يحيى البرمكي . ولبطليموس ايضاً كتاب الاربعة ، نقله ابراهيم بن الصلت واصلحه حنين ، وكتاب جغرافيا المعمور وصفة الأرض نقله ثابت الى العربية نقلاً جيداً ، ولبطليموس ١٥ كتاباً اخر في الجغرافية وغيرها لم يعرف ناقلوها .

(٦) ابرخس : له كتاب صناعة الجبر ويعرف بالحدود وكتاب قسمة الاعداد،لم يعرف ناقلها .

(٧) ذيوفنطس : له كتاب صناعة الجبر لم يعرف ناقله .

وهناك كتب عديدة في الرياضيات والهيئة والازياج ونحوها ، ذكرها ابن النديم ولم يذكر ناقليها ، منها : كتاب العمل بالاسطرلاب المسطح لابيون البطريق ، وكتاب جرم الشمس والقمر لارسطرخس ، وكتاب العمل بذات الحلق ، وكتاب جداول زيج بطليموس المعروف بالقانون المسير ، وكتاب العمل بالاسطرلاب – وكلها لثاون الاسكندري ، غير ما تقدم ذكره من الكتب الرياضية في اثناء ذكر كتب الفلسفة رغبة في ايرادها لاصحابها مع سائر مؤلفاتهم. وقد نقل للمسلمين من كتب الموسيقى عن اليونانية كتاب الموسيقى الكبير لنيقوماخس الجهراسيني، وكتاب الموسيقى المنسوب لاقليدس وقد تقدم ذكره ، ومقالات في الموسيقى لفيثاغورس وغيره . وكتاب الريموس ، وكتاب الايقاع لارسطكاس ، وكتاب الآلات المصوتة المساة بالارغن البوقي والارغن الزمري لمورطس .

ونقل لهم من كتب الميكانيكيات ، غير ما جاء في كتب ارخميدس ، كتاب الحيل الروحانية ، وكتاب شيل الاثقال لايرن ، وكتاب استخراج المياه لبادروغوغيا، وكتاب الآلات المصوتة على ستين ميلا لمورطس .

٢ ــ الكتب المنقولة عن الفارسية

اكثر الكتب المنقولة عن الفارسية في النهضة العباسية من قبيل الآداب والاخبار والسير والاشعار ، وبعضها في النجوم مما نقله آل نوبخت وعلي بن زياد التميمي وغيرهم . أما ما بقي من كتبهم المنقولة الى العربية فهي مع اسماء ناقليها :

١ كتاب رستم واسفنديار	نقله جبلة بن سالم	٩ « الآداب الصغير	نقله عبدالله بن المقفع
٢ « بهرام شوش	« « «	١٠ « اليتيمة	« « «
٣ « خداينامه في السير	« عبدالله بن المقفع	١١ « هزار افسانه	لم يذكر ناقله
٤ « آيين نامه	« « «	١٢ « شهريزاد مع ابرويز	« «
٥ « كليلة ودمنة	« « «	١٣ « الكارنامج انوشروان	« «
٦ « مزدك	« « «	١٤ « دارا والصنم الذهب	« «
٧ « التاج في سيرة انو شروان	« « «	١٥ « بهرام ونرسي	« «
		١٦ « هزاردستان	« «
٨ « الآداب الكبير	« « «	١٧ « الدب والثعلب	« «

١٨ ــ سير ملوك الفرس ، وهي غير كتاب ـ ترجم احدها محمد بن جهم البرمكي ، والآخر ترجمه زادويه بن شاهويه الاصفهاني والآخر محمد بن بهرام بن مطيار الاصفهاني[١].

---

١ ـ رسائل شبلي في اللغة الهندستانية

ومما يجب ذكره من مترجمات الفرس ، وان كان من مؤلفاتهم بعد نشوء التمدن الاسلامي ، كتاب « شاهنامه » التي نظمها الفردوسي للسلطان محمود الغزنوي سنة ٣٨٤ هـ في نحو ٦٠٫٠٠٠ بيت على نسق الياذة هوميروس ، وقد تضمنت تاريخ الفرس القديم نقلها الى العربية الفتح بن علي البنداري الاصبهاني نثراً للملك العظيم عيسى الايوبي اتم ترجمتها سنة ٦٩٧ هـ [1] ولا ريب ان العرب نقلوا من اللغة الفارسية كتباً اخرى تاريخية وادبية ، وخصوصاً مما يتعلق بالمذاهب القديمة ونحوها .

٣ — الكتب المنقولة عن اللغة الهندية

نقل العرب عن اللغة الهندية (السنسكريتية) كثيراً من كتب الطب والنجوم والرياضيات والحساب والاسمار والتواريخ . والكتب الطبية المنقولة عنها كثيرة وان لم يصل الينا من اخبارها الا القليل ، لان بغداد كانت في ابان الزهو العباسي محج العلماء والاطباء والتجار والسياح من كل الملل ، وكان للبرامكة عناية في استقدام اطباء الهند اليها ، وقد بعث يحيى بن خالد فاستقدم بضعة صالحة منهم كنكه وبازيكر وقليرفل وسندباز وغيرهم [2] .

ويظهر مما كتبه المسلمون بعد العصر العباسي في الادب او الطب او الصيدلة او السير أنهم اعتمدوا في جملة مصادرهم على كتب هندية الاصل . راجع قانون ابن سينا مثلاً او الملكي للرازي او غيرهما من كتب الطب الكبرى ، فتراهم يذكرون بعض الامراض ويشيرون الى ان الهنود يسمونها مثلاً كذا وكذا او يعالجونها بكذا وكذا . واذا قرأت العقد الفريد لابن عبد ربه او سراج الملوك للطرطوشي ، او غيرهما من كتب الادب المهمة ، رأيت مؤلفيها اذا ذكروا بعض الآداب او الاخلاق او نحوها قالوا : « وفي كتاب الهند كذا وكذا » .

---

١ — كشف الظنون ٤٧ ج ٢ ٢ — البيان والتبيين ٤٠ ج ١ .

كتب الطب وفروعه

على أننا نعلم مما جاء في كتاب طبقات الاطباء لابن ابي اصيبعة انـــه اشتهر حوالي العصر العباسي جماعة من علماء الهند في الطب والنجوم والفلسفة وغيرهـا ، منهم كنكه الهنـــدي وهو من متقدميهم واكابرهم وخصوصاً في علم النجوم فضلاً عن الطب وله مؤلفات كثيرة ، منها كتاب النمودار في الاعمار وكتاب اسرار المواليد وكتاب القرانات الكبير والصغير وكتاب في الطب يجري مجرى الكناش وكتـــاب في التوهم وكتاب في احداث العالم والدور في القران . ومنهم ايضاً صنجل وباكهر وغيرهما ، وقد نقل كثير من مؤلفاتهم في النجوم والطب الى اللغة العربية ، اما رأساً أو بواسطة اللغة الفارسية ، بأن ينقل الكتاب من الهندي الى الفارسي ثم ينقل من الفارسي الى العربي . منها كتاب سيرك الهندي ، وقد نقله من الفارسي الى العربي عبدالله بن علي،وكتاب آخر في علامات الادواء ومعرفة علاجها أمر يحيى بن خالد البرمكي بنقله . وكتاب فيما اختلف فيه الروم والهند في الحار والبارد وقوى الادوية وكتب اخرى في فروع الطب .

ومن مشاهيرهم منكه الهندي المتقدم ذكره بين المترجمين ، وقـــد أتى الى بغداد بأشارة يحيى بن خالد لمعالجة الرشيد فشفاه فأجرى عليه الرشيد رزقاً واسعاً . وكان منكه يعرف الفارسية أيضاً فكان ينقل من الهندي الى الفارسي ، وله حديث طويل ذكره صاحب طبقات الاطبـــاء [١] . ومنهم صالح بن بهلة الهندي جاء العراق في ايام الرشيد ايضاً ونال شهرة واسعة وخالط اطباءها يومئذ واختلطوا به ، فاذا لم يكونوا نقلوا شيئاً من كتبه فلا بد من اقتباسهم شيئاً من آراء الهند عنه .

ومن مشاهيرهم ايضاً شاناق ، وله كتاب في السموم خمس مقالات نقله من اللسان الهندي الى الفارسي منكه الهندي ، وأوعز يحيى بن خالد الى رجل يعرف بأبي حاتم البلخي بنقله الى العربية ،ثم نقل للمأمون على يد العباس بن سعيد الجوهري مولاه . ولجودر الحكيم كتاب في المواليد نقل الى العربية ايضاً .

ومن الكتب الطبية التي نقلت من الهندية الى لسان العرب في العصر العباسي غير ما تقدم ذكره [٢] :

١ ـ طبقات الاطباء ٣٣ ج ٢   ٢ ـ الفهرست ٣٠٣

١ - كتاب سسرد في الطب	نقله منكه
٢ - » أسماء عقاقير الهند	» » لاسحق بن سليمان
٣ - » استانكر الجامع	» ابن دهن
٤ - » صفوة النجح	» » »
٥ - » مختصر الهند في العقاقير	لم يذكر ناقله
٦ - » علاجات الحبالى للهند	» » »
٧ - » روسا الهندية في علاجات النساء	» » »
٨ - » السكر للهند	» » »
٩ - » التوهم في الامراض والعلل	» » »
١٠ - » رأي الهند في اجناس الحيات وسمومها	» » »

كتب النجوم والرياضيات

اما في الرياضيات والكواكب فللهند شأن كبير ، وقد ذكرنا خبر السند هند فيما تقدم ، وكان لنقل هذا المزيج تأثير في علم النجوم عند العرب وقد قلدوه وألفوا على مذهبه . وممن ألف على هذا المذهب محمد بن ابراهيم الفزاري وحبش بن عبدالله البغدادي ومحمد بن موسى الخوارزمي وغيرهم[١] والفزاري اول من عمل اسطرلابا في الاسلام[٢]. وما من فلكي من فلكيي المسلمين اراد التوسع في علم النجوم إلا وطالع كتبهم ، إما في اللغة الهندية او في ترجمتها الى العربية . واكثر المسلمين عناية في ذلك واطلاعاً على آداب الهند وعلومهم ابو الريحان البيروني المتوفي سنة ٤٤٠ هـ فأنه طاف بلاد الهند واطلع على علومهم وآدابهم ثم الف كتابه « الآثار الباقية عن القرون الخالية » وله من المؤلفات ما يعد بالعشرات ، ومنها كثير في علوم الهند اما ترجمة او تصحيحاً او نقداً ، ومما ذكره من كتبه الذي الفها في هذا الصدد قوله :

« وعملت في السند هند كتاباً سميته جوامع الموجود لخواطر الهنود في حساب التنجيم ، جاء ما تم منه ٥٥٠ ورقة . وهذبت زيج الاركند وجعلته بالفاظي اذ كانت الترجمة الموجودة منه غير مفهومة والفاظ الهند فيها متروكة لحالها . وعملت كتاباً في المدارين المتحدين والمتساويين ، وسميته بخيال الكسوفين عند الهند وهو معنى مشتهر فيما بينهم لا

---

١ - تراجم الحكماء (خط)   ٢ - الفهرست ٢٧٣

يخلو منه زيج من ازياجهم ، وليس بمعلوم عنــد اصحابنا . وعملت تذكرة في الحساب والعد بأرقام السند والهند في ٣٠ ورقة ، وكيفية رسوم الهند في تعلم الحساب ، وتذكرة في ان رأي العرب في مراتب العدد اصوب من رأي الهند فيها ، وفي راسكيات الهند ، وترجمة ما في ابرهم سدهاند من طرق الحساب . ومقالة في تحصيل الآن من الزمان عند الهند . ومقالة في الجوابات على المسائل الواردة من منجمي الهند . ومقالة في حكاية طريقة الهند في استخراج العمر . وترجمة كلب باره وهي مقالة الهند في الامراض التي تجري مجرى العفونة » وغير ذلك ، فيؤخذ من هذا ان الهنود اهل علم ورأي في النجوم وعلومها وان المسلمين نقلوا عنهم شيئاً كثيراً .

كتب الادب :

واما كتب الهند في الادب والتاريخ والمنطق والاسمار والخرافات مما نقل الى العربية ، فأولها كتاب كليلة ودمنة وقد نقل عن طريق الفارسية كما تقدم ، وبعد نقله الى العربية نظموه شعراً كما نظمه الفرس من قبلهم . وممن نظمه في العربية ابان بن عبد الحميد بن لاحق ابن عفير الرقاشي وعلي بن داود . (٢) كتاب سندباد الكبير (٣) كتاب سندباد الصغير (٤) كتاب البد (٥) كتاب يوذاسف (٦) يوذاسف مفرد (٧) كتاب ادب الهند والصين (٨) كتاب هابل في الحكمة (٩) كتاب الهند في قصة هبوط آدم (١٠) كتاب طرق (١١) كتاب دبك الهندي في الرجل والمرأة (١٢) كتاب حدود منطق الهند (١٣) كتاب ساديرم (١٤) كتاب ملك الهند القتال والسباح (١٥) كتاب بيدبا في الحكمة [١] .

ومما نقله العرب من الهنود كتاب في الموسيقى اسمه في الهندية (بيافر) ومعناه ثمار الحكمة وفيه اصول الالحان وجوامع تأليف النغم [٢] .

٤ ـــ الكتب المنقولة عن النبطية

قد رأيت فيما تقدم كتباً كثيرة فلسفية وطبية نقلت من اليونانية الى العربية عن طريق اللغة السريانية أخت النبطية أو هي عينها فلا نتعرض لذكرها . وانما المراد بهذا الباب

١ ـــ الفهرست ٣٠٥ . ٢ ـــ تراجم الحكماء (خط) .

الكتب التي كانت مكتوبة في اللغة الكلدانية أو النبطية ونقلت الى العربية رأساً ولولا نقلها لضاعت . وأهم تلك الكتب كتاب الفلاحة النبطية فانه فريد في بابه ، وقد نقله الى العربية احمد بن علي بن المختار النبطي المعروف بابن وحشية سنة ٢٩١ ه ، وظل معتمد اهل الزراعة الى امد غير بعيد، وقد نقل الى اللغات الافرنجية ولولا نقله الى العربية لضاع وخسره العالم كما يؤخذ من مطالعة مقدمته ، فقد قال ابن وحشية وهو يملي الكتاب على علي بن محمد بن الزيات سنة ٣١٨ ه : « اعلم يا بني اني وجـدت هذا الكتاب في كتب الكسدانيين (الكلدان او النبط) يترجم معناه في العربية كتاب فلاحة الارض واصلاح الزرع والشجر والثمار ودفع الآفات عنها . وكان هؤلاء الكسدانيون اشد غيرة عليهـا ، لئلا يظهر هذا الكتاب فكانوا يخفونه بجهدهم . وكان الله عز وجل قد رزقني المعرفـة بلغتهم ولسانهم ، فوصلت الى ما اردت من الكتب بهذا الوجه . وكان هذا الكتاب عند رجل متميز فأخفى عني علمه ، فلما اطلعت عليه لمتـه في اخفاء الكتاب عني وقلت له : انك ان اخفيت هذا العلم دثر ومضى ولا يبقى لأسلافـك ذكر . وما يصنع الانسان بكتب لا يقرؤها ولا يخلي من يقرأها فهي عنده بمنزلة الحجارة والمدر ؟ فصدقني في ذلك واخرج الى الكتب ، فجعلت انقل كتاباً بعد كتاب . فكان اول كتاب نقلته كتاب دواناي البابلي في معرفة اسرار الفلك والاحكام على حوادث النجوم ، وهو كتاب عظيم المحل ، ونقلت كتاب الفلاحة هـذا بتمامه الخ »[١] (٢) كتاب طرد الشياطين ويعرف بالأسرار (٣) كتاب السحر الكبير (٤) كتاب السحر الصغير (٥) كتاب دوار على مذهب النبط (٦) كتاب مذاهب الكلدانيين في الاصنام (٧) كتاب الاشارة في السحر (٨) كتاب اسرار الكواكب (٩) كتاب الفلاحة الصغير (١٠) كتاب في الطلسمات (١١) كتاب الحياة والموت في علاج الامراض (١٢) كتاب الاصنام (١٣) كتاب القرابين (١٤) كتاب الطبيعة (١٥) كتاب الاسماء واكثرها من نقل ابن وحشية[٢] غير ما لا بد من نقله من كتب الدين واخبار الكلدان القدماء .

٥ ــ الكتب المنقولة عن العبرانية واللاتينية والقبطية

لا ريب ان كثيراً من تعاليم اليهود وآدابهم المدونة في التلمود وغيره من كتبهم قـد

١ ــ كتاب الفلاحة النبطية (خط) . ٢ ــ الفهرست ٣١٢ .

نقل الى العربية ، وان كنا لا نرى شيئاً منها مدوناً بصفة ترجمة لأنهم كانوا ينقلونها شفاها للصحابة وغيرهم على ما تقدم ، وربما دونوا منها شيئاً وضاع . واما ما وصل الينا خبره من المنقول عن العبرانية فترجمة اسفار التوراة ، نقلها سعيد الفيومي المتوفي سنة ٣٣٠ ه وهو اقدم من نقل التوراة الى العربية مما وصل الينا خبره ، وله ايضاً شروح وتفاسير عليها [١] .

ولا يبعد ان يكون قد نقل الى العربية بعض الكتب عن اللاتينية ، لأنها كانت تحوي كثيراً من العلوم الفلسفية والتاريخية والشرعية وغيرها ، وربما فات نقلة الاخبار ذكر ما نقل عنها . وقد رأينا في جملة المترجمين ان يحيى بن البطريق لا يعرف غير اللغة اللاتينية وانه ترجم عدة كتب ، فالظاهر انه ترجمها عن اللاتينية .

واما القبطية فاذا لم ينقل العرب عنها رأساً فلا نشك في انهم نقلوا كثيراً من علوم المصريين بواسطة اللغة اليونانية ، وخصوصاً صناعة الكيمياء القديمة وغيرها مما برع فيه المصريون ، واما الكيمياء فقد نقلت عن القبطي واليوناني معاً بأمر خالد بن يزيد [٢] .

الخلاصة

وفي الجملة فان المسلمين نقلوا الى لسانهم معظم ما كان معروفاً من العلم والفلسفة والطب والنجوم والرياضيات والادبيات عند سائر الامم المتمدنة في ذلك العهد ، ولم يغادروا لساناً من السن الامم المعروفة اذ ذاك لم ينقلوا منه شيئاً ، وان كان اكثر نقلهم عن اليونانية والفارسية والهندية . فأخذوا من كل امة احسن ما عندها ، فكان اعتمادهم في الفلسفة والطب والهندسة والموسيقى والمنطق والنجوم على اليونان ، وفي النجوم والسير والآداب والحكم والتاريخ والموسيقى على الفرس ، وفي الطب (الهندي) والعقاقير والحساب والنجوم والموسيقى والاقاصيص على الهنود ، وفي الفلاحة والزراعة والتنجيم والسحر والطلاسم على الانباط والكلدان ، وفي الكيمياء والتشريح على المصريين ، فكأنهم ورثوا اهم علوم الاشوريين والبابليين والمصريين والفرس والهنود واليونان ، وقد مزجوا ذلك كله وعجنوه واستخرجوا منه علوم التمدن الاسلامي (الدخيلة) .

---

١ ـ الفهرست ٢٣ . ٢ ـ ٢٤٢

ومما نلاحظه من امر ذلك النقل ان العرب ، مع كثرة ما نقلوه عن اليونان لم يتعرضوا لشيء من كتبهم التاريخية او الادبية او الشعر ،مع انهم نقلوا ما يقابلها عند الفرس والهنود، فقد نقلوا جملة صالحة من تواريخ الفرس واخبار ملوكهم وترجموا الشاهنامة . ولكنهم لم ينقلوا تاريخ هيرودتس ، ولا جغرافية استرابون ، ولا الياذة هوميروس ولا اوذيسيته . والسبب في ذلك ان اكثر ما بعث المسلمين على النقل رغبتهم في الفلسفة والطب والنجوم والمنطق ، لأسباب تقدم بيانها . وأما التواريخ والآداب فقد كان التراجمة ينقلونها غالباً من عند انفسهم ، حباً في اظهار مآثر اسلافهم او جيرانهم . فالمترجمون الفرس نقلوا شيئاً من تواريخ الفرس وآدابهم ، وكذلك فعل التراجمة السريان بآداب اجدادهم وكذلك التراجمة الهنود . فلو كان في اولئك المترجمين واحد من اليونان لنقلوا كثيراً من تواريخ امتهم واشعارها . ولا ريب ان من جملة ما منعهم من نقل الالياذة الى العربية ذكر الآلهة والاصنام فيها ، ولكن في الشاهنامة ايضاً كثيراً من ذلك فلم يمنعهم من نقلها .

ويلاحظ ايضاً ان العرب نقلوا من علوم تلك الامم في قرن وبعض القرن ما لم يستطع الرومان بعضه في عدة قرون ، وذلك شأن المسلمين في اكثر اسباب تمدنهم العجيب .

محاسبة الخلفاء للعلماء غير المسلمين

ومن العوامل الفعالة في سرعة نضج العلم في النهضة العباسية ، وكثرة ما ترجم في تلك المدة القصيرة ، ان الخلفاء اصحاب تلك النهضة كانوا يبذلون كل مرتخص وغال في سبيل نقل الكتب ، ويرغبون النقلة وغيرهم بالبذل والاكرام والمحاسنة ، بقطع النظر عن مللهم او نحلهم او انسابهم ، وقد كان فيهم النصراني واليهودي والصابي والسامري والمجوسي . فكان الخلفاء يعاملونهم كافة بالرفق والاكرام ، مما يصح ان يكون مثالاً للاعتدال والحرية وقدوة لولاة الامور في كل العصور .

بلغ من اكرام المنصور لطبيبه جورجيس بن بختيشوع[1] انه أمر ان يحضروا له المشروب وهو محرم في الاسلام . وذلك انه رأى وجهه يتغير على اثر اقامته في بغداد ، فقال المنصور لحاجبه الربيع : « ارى هذا الرجل قد تغير وجهه .. أتكون قد منعته مما

---

١ – ويقال ايضاً جورجيس بن جبرئيل .

يشربه على عادته ؟ » . قال الربيع : « لم نأذن له ان يدخل الى هذه الدار مشروباً » فاجابه المنصور بقبيح وقال : « لا بد ان تمضي بنفسك حتى تحضره من المشروب كل ما يريده » فمضى الربيع الى قطربل وحمل منها اليه غاية ما امكنه من الشراب الجيد[١] وكان ذلك شأن المنصور مع اكثر اطبائه ، حتى كان يستشير بعضهم في اهم الامور . فلما طلب اهل خراسان عقد البيعة لابنه المهدي كان من اطبائه طبيب يهودي اسمه فرات ابن شحاثا وكان حاضراً ، فقال له المنصور : « ما تقول يا فرات ؟ » فأشار عليه بما يراه .

وبلغ من اكرام الرشيد لطبيبه جبريل بن بختيشوع انه دعا له وهو في الموقف بمكة دعاء كثيراً ، فانكر عليه بنو هاشم ذلك وقالوا : « يا سيدنا ذمي » فقال : « نعم ، ولكن صلاح بدني وقوامه به ، وصلاح المسلمين بي ، فصلاحهم بصلاحه وبقائه » فقالوا : « صدقت يا امير المؤمنين ! »[٢] . اما المأمون فلطفه واكرامه العلماء اشهر من ان يذكر .

وكثيراً ما كان الخلفاء يطلقون ايدي اطبائهم في دورهم ، ويستشيرونهم في مهام امورهم الادارية والسياسية ، وربما كلفوهم التوقيع عنهم . فكان المعتصم قد استطب سلمويه بن بنان النصراني ، وبلغ من اكرامه اياه انه كان اذا ورد الى الخليفة كتاب يقتضي توقيعاً ، وكان سلمويه حاضراً ، امره ان يوقع عنه بخطه . وكل ما كان يرد على الأمراء والقواد من خروج امر او توقيع من الخليفة فبخط سلمويه . وكذلك كان شأن داود بن ديلم مع المعتضد[٣] ومن ادلة اكرام المعتصم لسلمويه انه ولى اخاه ابراهيم بن بنان خزن بيوت الاموال في البلاد وخاتمه مع خاتم الخليفة ، ولم يكن احد عنده مثل سلمويه واخيه في المنزلة . وكان المعتصم يدعو سلمويه « أبي » وكان اذا قرب الفصح او غيره من اعياد النصارى اذن له بالذهاب الى بلده القادسية ليقيم في كنيستها ويتقرب ، ويزوده بالاكسية والمسك والبخور . ولما اعتل سلمويه عاده المعتصم وبكى عنده وقال له : «تشير علي بعدك بما يصلحني ؟» فاشار عليه بيوحنا بن ماسويه . فلما مات سلمويه امتنع المعتصم من اكل الطعام يوم موته ، وأمر بأن تحضر جنازته الدار ويصلى عليه بالشمع والبخور على زي النصارى الكامل ، ففعلوا وهو بحيث يبصرهم ويباهي في كرامته[٤] .

---

١ ـ طبقات الاطباء ١٢٤ ج ١ .
٢ ـ طبقات الاطباء ١٣٠ ج ١ .
٣ ـ طبقات الاطباء ٢٣٤ ج ١ .
٤ ـ طبقات الاطباء ١٦٥ ج ١ .

وكذلك كان المتوكل والمهتدي وغيرهم في اكرام الاطباء وتقديمهم والاحسان اليهم ، وكانوا اذا حضروا مجلس الخليفة جلسوا معه على السدة[١] وربما جلس الطبيب والوزراء والامراء وقوف ، كما كان شأن ثابت بن قرة الصابي مع المعتضد بالله[٢] . وكانت مواكبهم اذا ركبوا مثل مواكب الامراء والوزراء . وكان الخلفاء يمازحونهم ويماجنونهم ، وهم اول من يدخل عليهم للنظر فيما يحتاجون اليه مما يصلح ابدانهم ، ويختارون لهم الأطعمة المناسبة . ولم يكن الخليفة يتناول دواء إلا باذن طبيبه ، فاذا فعل ولم يستأذنه جر عليه غضب الطبيب واضطر لاسترضائه . ذكروا ان المتوكل احتجم مرة بغير اذن طبيبه اسرائيل بن الطيفوري ، فغضب اسرائيل فافتدى الخليفة غضبه بثلاثة آلاف دينار وضيعة تغل في السنة ٥٠٠٠٠ درهم[٣] وكان جبرائيل الكحال اول من يدخل على المأمون بعد الصلاة ، فيغسل اجفانه ويكحل عينيه ، فاذا انتبه من قائلته فعل مثل ذلك[٤] .

وطبيعي ان يأنس الانسان بطبيبه ويكرمه ، وخصوصاً في دور الخلفاء في ذلك العصر ، والمطالبون بالخلافة كثيرون ومن اقرب الطرق الى نيل مطالبهم ان يقتلوا الخليفة بالسم ، وذلك هين على الطبيب . وكثيراً ما كانوا يخافون ذلك من ملوك الروم . فكان الخلفاء يخافون ان يفعل الاطباء ذلك طمعاً في مال او منصب ، فكانوا يبذلون الجهد في ان يملأوا جيوبهم وعيونهم وقلوبهم . وكثيراً ما كانوا يمتحنون أمانتهم وسلامة ذمتهم قبل التسليم لهم ، كما فعل المتوكل بحنين بن اسحق لما اراد ان يستطبه وقد خافه على نفسه ، فبعث اليه فلما حضر اقطعه اقطاعاً سنياً وقرر له جاريا وخلع عليه ثم قال له : « اريد ان تصف لي دواء يقتل عدواً نريد قتله سراً » فقال حنين : « ما تعلمت غير الأدوية النافعة ، ولا علمت ان امير المؤمنين يطلب مني غيرها ، فان احب ان امضي واتعلم فعلت » فقال : « هذا شيء يطول بنا » . ثم رغبه وهدده وحبسه في بعض القلاع سنة ، ثم احضره واعاد عليه القول واحضر سيفاً ونطعاً وهدده بالقتل فقال : « لي رب يأخذ لي حقي غداً في الموقف العظيم » فتبسم المتوكل واخبره انه اراد امتحانه[٥] .

ولنفس هذا السبب كان الخلفاء يوجبون على اطبائهم النصارى او غيرهم التمسك بطقوس دياناتهم[٦] ويكرمون اهل تلك الاديان من اجلهم . فقد كان ثابت بن قرة صابئياً ،

---

١ — ابو الفرج ٢٤٩ . ٢ — طبقات الاطباء ٢١٦ ج ١ .
٣ — طبقات الاطباء ١٥٧ ج ١ . ٤ — طبقات الاطباء ١٧١ ج ١ .
٥ — ابو الفرج ٢٥١ . ٦ — طبقات الاطباء ١٩٠ ج ١ .

فلما نال حظوة عند المعتضد تجددت الرئاسة للصابئة في مدينة السلام . وقلما كانوا يريدونهم على الاسلام إلا نادراً ، كما اراد القاهر بالله سنان بن ثابت المذكور فهرب ثم اسلم خوفاً منه . علي ان الصابئة كثيراً ما كانوا يصومون شهر رمضان مع المسلمين ، كما كان يفعل ابو اسحق الصابي الكاتب المشهور في ايام عز الدولة ، ومع ذلك فلما اراده عز الدولة على الاسلام لم يفعل ، لأنه كان متمسكاً بدينه . والصابي هذا هو الذي رثاه الشريف الرضي بقصيدته الدالية التي مطلعها[1] :

ارأيت من حملوا على الاعواد ارأيت كيف خبا ضياء النادي؟

ولم يمنعه شرفه في الاسلام من هذا الرثاء . ويدلك ذلك على ان التعصب او التساهل انما يكون مصدرهما من صاحب الأمر والنهي ، فاذا كان الامير معتدلاً او متعصباً كانت رعيته مثله . ولذلك فقد كان التساهل في عصر النهضة العباسية شاملاً على الخصوص اهل الخلفاء واهل الوجاهة والعلم . ولم يكن العالم المسلم يستنكف ان يأخذ العلم عن نصراني ، حتى الفارابي الفيلسوف الكبير فقد اخذ بعض علمه عن نصارى حران[2] وكان النصارى من الجهة الاخرى لا يستنكفون من قراءة التوراة والانجيل على فقيه مسلم[3] .

أما بذل الاموال للأطباء فلا حاجة الى ذكره لشهرته ، ومن مراجعة ثروة جبريل ابن بختيشوع في الجزء الثاني من هذا الكتاب كفاية . فضلاً عما كانوا يكسبونهم من الاموال غير الرواتب ، فان المأمون امر ان كل من يتقلد عملاً لا يخرج الى عمله إلا بعد ان يلقى طبيبه جبريل ويكرمه . وللمأمون شعر فيه :

أفي طبك يا جبريـ ل ما يشفي ذوي العلة ؟
غزال قد سبى عقلي بلا جرم ولا زلة[4]

فكيف لا يزهو العلم ويزهر ويثمر في ظل هؤلاء ؟

ولم تكن تلك المحاسنة خاصة بالنهضة العباسية ، بل كانت تتناول كل دولة نهضت للعلم ، فالدولة الفاطمية بمصر كان اكثر اطبائها من النصارى واليهود والسامريين ، وكانت لهم عندهم منزلة الاطباء في الدولة العباسية ، فكانوا يغدقون عليهم الاموال ، ويولونهم الوظائف والمناصب ويستشيرونهم ويكرمونهم ويلقبونهم بالقاب الشرف ، كسلطان

---

١ — ابن خلكان ١٣ ج ١ . ٢ — ابن خلكان ج ٢ .
٣ — ابن خلكان ١٣٣ ج ٢. ٤ — طبقات الاطباء ١٣٨ ج ١.

الحكماء وامين الدولة ومعتمد الملك[١] ويخاطبونهم كما يخاطبون الأمراء والوزراء . كان طبيب العزيز بالله الفاطمي نصرانياً اسمه منصور بن مقشر ، فاعتل الطبيب وتأخر عن الركوب ، فلما تماثل كتب اليه الخليفة العزيز بخط يده « بسم الله الرحمن الرحيم . على طبيبنا – سلمه الله – سلام الله الطيب ، واتم النعمة عليه . وصلت الينا البشارة بما وهبه الله من عافية الطبيب وبرئه ، والله العظيم لقد عدل عندنا ما رزقنـــاه نحن من الصحة في جسمنا . اقالك الله العثرة ، واعادك الى افضل ما عودك من صحة الجسم وطيبة النفس وخفض العيش بحوله وقوته[٢] .

ويقال نحو ذلك في دولة الاندلس ، فقد كان للاطباء والعلماء في ايام الحكم المستنصر ابن الناصر ما كان لهم في ايام المأمون لمشابهة بين الخليفتين، فقد كان الحكم محباً للعلم والعلماء جماعاً للكتب كما سيأتي . على ان حال هؤلاء العلماء كانت تختلف باختلاف الخلفـــاء واختلاف العصور .

انتشار العلوم الدخيلة في المملكة الاسلامية

لم تكد العلوم الدخيلة تنقل الى العربية حتى اخذ المسلمون في درسها والاشتغال بهـا . وكان اشتغالهم في بادىء الرأي على سبيل التلخيص او الشرح او التعليق ، حتى اذا نضج تمدنهم وانتشرت العلوم في البلاد – للاسباب الآتية – اخذ المسلمون في التأليف من عند انفسهم ، وبعد ان كانت العلوم في القرنين الأولين نقلية انما تحتاج الى الادخار في الذاكرة، اصبحت في القرنين التاليين وما بعدهما عقلية عمدتها النظر والقياس والتحليل والتركيب .

وكانت بغداد كعبة العلم ومحج العلماء ومنبت اهل الفضل ومقر نقلة العلم في اثنـــاء النهضة العباسية ، وخصوصاً في ايام المأمون . حتى اذا تولى المعتصم واستكثر من الاتراك، وظهرت منهم الاساءة لأهل بغداد نفر الناس وتباعدت القلوب ، ولكن المعتصم كان على مذهب اخيه المأمون في الاعتزال واكرام الشيعة ، فظلت بغداد على نحو ما كانت عليه في ايام المأمون . وكان الواثق يتشبه بالمأمون في حركاته وسكناته ، وكان يعقد المجالس مثله للمباحثة بين الفقهاء والمتكلمين في انواع العلوم العقلية والسمعية في جميع الفروع[٣] .

---

١ – تراجم الحكماء . ٢ – ابو الفرج ٣١٦ . ٣ – المسعودي ٢٦١ و ٣٦٧ ج ٢

فلما توفي الواثق سنة ٢٣٣ هـ خلفـه اخوه جعفر المتوكل ، وكان شديد الانحراف عن الشيعة والمعتزلة ، حتى امر بهدم قبر الحسين بن علي وما حوله من المنازل ومنع الناس من اتيانه ، وكان كثير الاستهزاء بعلي[١] وكان يجالس من اشتهر ببغضه . وخالف ما كان عليه المأمون والمعتصم والواثق من الاعتقاد ، فأبطل القول بخلق القرآن ، ونهى عن الجدل والمناظرة في الآراء ، وعاقب عليه ، وامر بالرجوع الى التقليد ونصر السنة والجماعـة ، وامر الشيوخ والمحدثين بالتحديث ، فانحط علم الكلام بعد ان بلغ رونقه في ايام الرشيد وخلفائه ، فأخذ في التقهقر في ايام المتوكل ، لأنه كان شديد الوطـأة على اصحاب الرأي وأصحاب الفلسفة وسائر العلوم الدخيلة . واخذ منذ تولى الخلافـة في مناوأتهم ، فاهلك جماعة من العلماء وحط مراتبهم وعادى العلم واهله ، ولاقى اهل الذمة منه الشدائد بتغيير زيهم وتذليلهم واهانتهم[٢] . ومن اشهر حوادث نقمته على خدمة العلم ، انه غضب على بختيشوع الطبيب وقبض ماله ونفاه الى البحرين ، وقتل ابا يوسف يعقوب المعروف بابن السكيت[٣] وسخط على عمر بن مصرح الراجحي وكان من علية الكتاب ، واخذ منه مالاً وجوهراً وأمر أن يصفع كل يوم ، فأحصي ما صفع به فكان ستة آلاف صفعة[٤] .

ومات المتوكل مقتولاً سنة ٢٤٧ هـ ، قتله رجاله بتحريض ابنـه فاضطربت احوال الخلافة واستفحل شأن الأتراك ، فنفرت قلوب طلبة العلم وا كثرهم من الفرس والعرب ، فتفرقوا من بغداد رويداً رويداً الى انحاء المملكة الاسلامية شرقاً وغرباً ، ولذلك كان اكثر من ظهر من العلماء — بعد نضج العلم في القرن الرابع للهجرة فما بعده — انما نبغوا خارج بغداد ، وفيهم الاطباء والفلاسفة والمهندسون والمتكلمون واصحاب المنطق والفقهاء واللغويون وغيرهم .

فكان مركز الطب والطبيعيات والفلسفة — عند ظهور الاسلام — في الاسكندرية ، ثم انتقل في ايام عمر بن عبدالعزيز في آخر القرن الأول للهجرة الى انطاكية . وكان مركز العلوم الاسلامية في اول الاسلام في المدينة ، ثم انتقل الى البصرة ، ومنها الى الكوفـة . فلما بنيت بغداد انتقلت اليها تلك العلوم ، ثم انضمت اليها العلوم الدخيلة ، فأصبحت بغداد ام المدائن في العلم والادب والفلسفة والطب وسائر العلوم العقلية والنقليـة . فلما اضطربت احوال الخلافة في ايام المتوكل ، ثم لما نشأت الدول الجديدة في انحـاء المملكة

---

١ — ابو الفداء ٤٠ ج ٢ .
٢ — تاريخ المشارقة (خط) .
٣ — ابو الفداء ٤٣ ج ٢ .
٤ — المسعودي ٢٦٩ ج ٢ .

الاسلامية بالتفرع والتشعب على مقتضى ناموس الارتقـــاء ، تفرق العلماء واصبح للعلم مراكز كثيرة قد يتفاضل بعضها على بعض . وتدرج الانتقال من بغداد اولا الى العراق العجمي ، فخراسان وما وراء النهر من المشرق ثم الى القاهرة ومـــا اليها من المغرب والاندلس .

وربما كانت الاندلس اسبق من سواها الى الادب والشعر ، لأنها ورثت دول المشرق في ذلك ، فأصبحت قرطبة في الدولة المروانية قبة الاسلام ومجتمع العلماء ، واليها كانت الرحلة في رواية الشعر ومناشدة الشعراء[1] وهي في ذلك وفي غيره مدينة لبغداد وخصوصاً في العلوم الدخيلة . فان الموسيقى نقلت اليها من بغداد على يد زرقون وعلون ، دخلا في ايام الحكم بن هشام[2] . واما الفلسفة فقد دخلتها في عهد عبد الرحمن الاوسط المعاصر للمأمون وازدهت في ايام الحكم بن الناصر[3] أما الطب فدخل المغرب ثم الاندلس على يـد اسحق ابن عمران ، اصله من بغداد ورحل الى المغرب ونقل الطب معه [4] في اوائـل القرن الثالث . على ان اطباء الاندلس ومصر ما زالوا حيناً من الدهر يرحلون في اتقان الطب وغيره من العلوم الدخيلة الى بغداد[5] . حتى يهود الأندلس فقد كانوا يستخرجون فقههم من يهود بغداد . ويقال نحو ذلك في سائر بلاد الاسلام .

وبالجملة فان بذور العلم التي القاها خلفاء النهضة العباسية في بغداد ، ظهرت ثمارها في خراسان والري وخوزستان واذربيجان وما وراء النهر ، وفي مصر والشام والاندلس وغيرها . وظلت بغداد مع ذلك حافلة بالعلماء بقوة الاستمرار وبما فيها من اسباب الثروة ولأنها مركز الخلافة . فنبغ فيها جماعة من اهل العلم المسلمين ، فضلاً عن الاطباء النصارى الذين كانوا يخدمون الخلفاء في التطبيب والترجمة .

على ان اكثر العلماء غير المسلمين ، الذين نبغوا فيها بعد تلك النهضة ، كانوا يتقاطرون اليها من انحاء جزيرة العراق وغيرها لخدمة الخلفاء . اما المسلمون فالغالب ان يكون ظهورهم خارج العراق ، ولا سيما وان اكثر ملوك الدول الجديدة التي تفرعت من الدولة العباسية اقتدوا بخلفاء النهضة العباسية ، في ترغيب اهل العلم واستقدامهم الى عواصمهم في القاهرة وغزنة ودمشق ونيسابور واصطخر وغيرها . فالرازي من الري ، وابن سينا من بخارى في تركستان ، والبيروني من بيرون في بلاد السند ، وابن جلجل النباتي من اهـــل

---

١ – نفح الطيب ٢١٧ ج ١ .
٢ – نفح الطيب ٧٥٣ ج ٢ .
٣ – طبقات الاطباء ٦٢ ج ٢ .
٤ – طبقات الاطباء ٣٦ ج ٢ .
٥ – طبقات الاطباء ٥٠ ج ٢ .

الاندلس ، وكذلك ابن باجة الفيلسوف وابن زهر الطبيب واقاربه آل زهر وابن رشد وابن الرومية النباتي وكلهم من الأندلس .

اما مصر فاكثر أطبائها المشاهير من النصارى واليهود والسامريين ، وقد نبغ فيها ابن الهيثم من اهل الفلسفة والطبيعيات ، وعلي بن رضوان الطبيب الشهير والشيخ السديد رئيس الاطباء ، ورشيد الدين ابو حليقة الطبيب الفيلسوف ، وضياء الدين بن البيطار النباتي الشهير . اما الشام فقد نبغ منها الفارابي الفيلسوف ، وابو المجد بن ابي الحكم ، وشهاب الدين السهروردي ، وموفق الدين البغدادي الرحالة ، ناهيك بعدد عديد من النصارى الذين خدموا الخلفاء والأمراء في الطب والفلسفة وغيرهما ممن نبغ في الشام .

ويقال نحو ذلك في علماء العلوم الاسلامية ، كالفقهاء والمحدثين واللغويين والشعراء ، فانهم مع بقاء بغداد آهلة بهم فقد ظهر جماعة كبيرة منهم في خارجها ، والقابهم تدل على اماكنهم ، كالبخاري والشيرازي والنيسابوري والسجستاني والفرغاني والبلخي والخوارزمي والفيروزابادي والحموي والدمشقي والفيومي والسيوطي والقرطبي والاشبيلي وغيرهم .

الخلفاء والامراء والعلم

اشتغال الخلفاء والامراء بالعلم

فلا غرو اذا احتفى الخلفاء والامراء بأهل العلم وحاسنوهم ، وهم انفسهم كانوا من طلبة العلم ومريديه ، واذا كان الملك او الامير عالماً زها في ايامه العلم وسعد خدمته . ومن شروط الخلافة في الاسلام ان يكون الخليفة عالماً بالامور الشرعية ، ولذلك كان الخلفاء في الغالب عالمين بها ، يعقدون المجالس للنظر فيها ويقربون الفقهاء والمحدثين ، وتطرقوا من ذلك الى الرغبة في النحو واللغة والتاريخ ، لارتباط تلك العلوم بعضها ببعض ، والعلم مترابط يطلب بعضه بعضاً . فلما أقاموا في العراق ، واحاط بهم اهل العلوم الطبيعية والفلسفة والنجوم من السريان والفرس ، واطلعوا على شيء من تلك العلوم ، تاقت انفسهم اليها واشتغلوا بها ، وكان ذلك الاشتغال باعثاً على استنارة الخلفاء والأمراء ، فنبغ من ذلك العصر فما بعده جماعة من الخلفاء ، انتظموا في سلك اهل العلم الطبيعي فضلاً عن الأدبي .

واعلم خلفاء بني العباس المأمون ، فقد كان عالماً بالشرع واللغة والنجوم والفلسفة والمنطق ، ويقابله في الدول الاسلامية الاخرى الحكم المستنصر بن الناصر الاموي في الاندلس (توفي سنة ٣٦٦ هـ) والحاكم بأمر الله الفاطمي في مصر (توفي سنة ٤١١ هـ) اما الحكم فقد كان مع رغبته في العلم جماعاً للكتب يبذل الأموال في استجلابها من الاقطار . واما الحاكم فقد كان عالماً بالنجوم وبنى مرصداً وانشأ مكتبة كما سيأتي . وكذلك كان عبدالرحمن الاوسط امير الأندلس المتوفي سنة ٢٣٨ هـ [١] وهو اول من وصلت اليه كتب الفلسفة من امراء الاندلس واطلع عليها وتظاهر بها ، اقتداء بالمأمون لقرب عهده منه . اما قبلهما فلم يكن احد من الخلفاء يعرف الفلسفة ، واذا عرفها فلا يجسر على التظاهر بها ، ولكنهم كانوا يعرفون النجوم ويشتغلون بها ، كما فعل المنصور والرشيد . اما بعد النهضة العباسية فقد تظاهر بعض الخلفاء بالفلسفة والعلم الطبيعي .

اما الادب والشعر فكان للخلفاء حظ وافر منهما ، وقد ذكرنا بباب الشعر من اشتغل به منهم . اما الادب فقد كان السفاح تعجبه المحادثة ومفاخرات العرب من نزار واليمن [٢] وكان المنصور صاحب اخبار وآداب وله كتاب فيها [٣] وكان الهادي يجالس الادباء يقصون عليه الاخبار والاشعار . وابن المعتز اول من الف في علم البديع [٤] وابراهيم بن المهدي كان من علية اهل الأدب والشعر . ويقال نحو ذلك في بني حمدان في حلب ، وبني عباد في الاندلس ، وبني بويه في بغداد .

وكان هؤلاء الخلفاء او الامراء يقدمون اهل العلم ويستوزرونهم . ومن الوزراء العلماء : يحيى بن خالد وزير الرشيد ، ويعقوب بن كلس وزير العزيز بالله بمصر ، وكذلك كان اكثر الوزراء في الدولة العباسية وغيرها .

واذا كان السلطان من اهل العلم فلا غرو اذا كثر العلماء في عصره وزها العلم على يده ، لأن الناس على ما يريد ملوكهم وخصوصاً في الحكم المطلق ، لأن الافكار تتجه الى ارضاء الحاكم المطلق فيشتغلون بما يرضيه . قال اسامة بن معقل : « كان السفاح راغباً في الخطب والرسائل يصطنع اهلها ويثيبهم عليها ، فحفظت الف رسالة والف خطبة طالباً للحظوة عنده فنلتها ، وكان المنصور بعده معنيا بالاسمار والاخبار وايام العرب يدني اهلها ويجيزهم عليها ، فلم يبق شيء من الاسمار او الاخبار إلا حفظته طلباً للقربى منه ، وكان موسى

---

١ – نفح الطيب ١٦٤ ج ١ .
٢ – المسعودي ١٥٩ ج ١ .
٣ – البيان والتبيين ١٠٤ ج ٢ .
٤ – ابن خلكان ٢٠٨ ج ١ .

الهادي مغرماً بالشعر يستخلص اهله ، فما تركت بيتاً نادراً ولا شعراً فاخراً ولا نسيباً سائراً إلا حفظته ، ولم ار شيئاً ادعى الى تعلم الآداب غير رغبة الملوك في اهلها وصلاتهم عليها » [١] .

تأليف الكتب للخلفاء والامراء

وهذا هو الواقع في كل عصر وكل دولة . فالمأمون لولا حبه العلم واحرازه شيئاً منه لم يقدم على ترجمة الكتب ، وقد كان يعقد المجالس للمناظرة والمحاورة ، وهو الذي امر الفراء بجمع اصول النحو واخلاه في غرفة واطلق له الاموال[٢] فزها العلم في ايامه وخصوصاً الفلسفة لأنه كان يحبها . وما من امير ولا ملك محب للعلم إلا اجتمع العلماء حوله ، والفوا له الكتب فيما يحبه من فروع العلم وهو يجيزهم عليها . فمحمد بن اسحق الراوية الشهير الف كتاب المغازي للمنصور وهو في الحيرة [٣] وابن بكار الف كتاب الاخبار المعروف بالموفقيات للموفق بالله[٤] والرازي الف كتابه المنصوري باسم المنصور ابن اسحق ، ولما تولى عضد الدولة بن بويه دار السلام قرب اليه اهل العلم ، فقصدوه من كل بلد وصنفوا له « كتاب الايضاح » في النحو و« كتاب الحجة » في القراءات و« كتاب الملكي » في الطب و« التاجي » في تاريخ الديلم وغيرها[٥] وسعيد بن هبة الله الطبيب الف كتاب المغني في الطب للمقتدي بأمر الله[٦] وقد يؤلفون الكتب للوزراء والامراء ، فقد الف الحريري مقاماته لأنوشروان وزير المسترشد[٧] والف جبريل بن عبيدالله بن بختيشوع كتاب الكافي بلقب الصاحب بن عباد لمحبته له . وقس على ذلك كثيرين الفوا الكتب بأسماء الخلفاء والامراء او الوجهاء . والغالب ان يكون الغرض من ذلك الطمع في العطايا الوافرة ، وكانوا ينالون شيئاً كثيراً منها . فالمنصور الاندلسي اثاب على كتاب الفصوص بخمسة آلاف دينار[٨] والفردوسي نظم الشاهنامة للسلطان محمود الغزنوي على ان يعطيه على كل بيت ديناراً فبلغت ٦٠٫٠٠٠ بيت .

---

١ – كتاب البلدان للهمذاني .　　٢ – طبقات الادباء ١٢٧ .
٣ – ابن خلكان ٤٨٣ ج ١ .　　٤ – المسعودي ٢٤١ ج ٢ .
٥ – ابو الفداء ١٢٨ ج ٢ .　　٦ – طبقات الاطباء ٢٥٥ ج ١ .
٧ – الفخري ٢٧٤ .　　٨ – ابن خلكان ٣٩٦ ج ١ .

على انهم لم يكونوا يجيزون على تأليف الكتب اعتباطاً ، وانما كانوا ينظرون فيها نفعاً نبذوها وربما عاقبوا مؤلفيها ، فأبو بكر الرازي الطبيب الف للمنصور بن اسحق المذكور كتاباً في صناعة الكيمياء فاجازه عليه بألف دينار ، ولكنه طالبه باثبات ما فيه فلما عجز عن ذلك قال له المنصور : « ما اعتقدت ان حكيماً يرضى بتخليد الكذب في كتب ينسبها الى الحكمة يشغل قلوب الناس بها . وقد كافأتك على قصدك وتعبك بألف دينار ، ولا بد من معاقبتك على تخليد الكذب ! » ثم امر ان يضرب بالكتاب على رأسه حتى يتقطع ، ثم جهزه وارجعه الى بغداد[١] .

وكان بعض الامراء والسلاطين يتفاخرون بتقريب العلماء وتأليف الكتب بأسمائهم ، وخصوصاً في الاندلس بعد ذهاب دولة بني أمية منها وقيام دول الطوائف . فانهم كانوا يقلدون الخلفاء في حب العلم وتنشيط العلماء ، وكان اكثرهم يحاضر العلماء والأدباء ويحب ان يشهر عنه ذلك وخصوصاً عند مباديه في الرئاسة[٢] وكانوا يتباهون ان يقال ان العالم الفلاني عند الملك الفلاني ، والشاعر الفلاني مختص بالملك الفلاني . وكان العلماء والشعراء يدلون عليهم ويستعزون ، وربما ابى الشاعر ان يمدح الملك إلا بمال معين يشترطه سلفاً والملوك يسترضونهم بما يريدون،وقد يقترح الامير على العالم ان يؤلف كتاباً باسمه فلا يرضى ولو بالمال الكثير . حكى ان ابا غالب تمام بن غالب اللغوي القرطبي المتوفي سنة ٤٣٦ هـ ، لما الف كتابه في اللغة بعث اليه ابو الجيش مجاهد العامري ملك دانية الف دينار ومركوبا وكساء ، على ان يجعل الكتاب المذكور باسمه فيزيد في آخره : « هذا الكتاب مما الفه ابو غالب لأبي الجيش مجاهد » فرد الدنانير وقال : « كتاب الفته لينتفع به الناس واخلد فيه همتي اجعل في صدره اسم غيري واصرف الفخر له ؟ » فلما بلغ هذا مجاهداً استحسن انفته واضعف له العطاء وقال : « هو في حل من ان يذكرني فيه لا نصده عن غرضه[٣] » .

على ان بعض العلماء كانوا يؤلفون الكتب لأبنائهم واخوانهم واصدقائهم لا يلتمسون على ذلك اجراً ، وقد يؤلفون لأنفسهم ، ومن لطيف ما جاء في مقدمة كتاب الحيوان للدميري قوله : « هذا الكتاب لم يسألني أحد تأليفه » .

---

١ – ابن خلكان ٧٨ ج ٢ .   ٢ – نفح الطيب ١٠١ ج ١ .

٣ – نفح الطيب ٧٨٠ ج ٢ وابن خلكان ٩٧ ج ١ .

وجملة القول ان التمدن الاسلامي كان حافلا بأهل العلم ، من قصور الخلفاء الى المساجد ومنازل الامراء والعامة الى مجالس الغناء . وكانوا يعقدون المجالس للمناظرة في العلوم على اختلافها ، وفي الآداب على تنوع وجهاتها ، وفي الشعر وغيره . وكانوا يفرضون العلم على اولادهم واخوانهم ومماليكهم وجواريهم وسراريهم . وكانوا يعلمون الجواري ويثقفونهن ويحفظونهن القرآن ويروونهن الأشعار والأخبار ويعلمونهن النحو والعروض والغناء ثم يتهادونهن . وقد كان عند زبيدة ام الأمين مائة جارية يحفظن القرآن ، وكان يسمع من قصرها دوي كدوي النحل من القراءة[١] حتى المخانيث فقد كانوا يؤدبونهم ، وكان في قرطبة في اوائل القرن الخامس للهجرة جملة من الفتيان المخانيث ممن اخذ من الأدب بأوفر نصيب ولهم فيه مؤلفات[٢] .

واغرب من ذلك بذلهم الاموال للمطالعين ، فضلاً عن المؤلفين ، فالملك المعظم شرف الدين عيسى الايوبي صاحب دمشق كان من رغاب الادب ، فاشترط لكل من يحفظ كتاب المفصل للزمخشري مائة دينار وخلعة ، فحفظه جماعة كبيرة[٣] وهذه منقبة لم يسمع بمثلها .

المؤلفون والمؤلفات

فلا عجب والحالة هذه اذا كثر المؤلفون وتعددت مؤلفاتهم واتسعت مباحثهم ، وكان منهم الملوك والامراء والوزراء والاغنياء والفقراء ، وفيهم العرب والفرس والروم واليهود والسريان والهنود والترك والديلم والقبط ، وغيرهم من الملل الخاضعة للاسلام في انحاء العالم المتمدن يومئذ ، في الشام ومصر والعراق وفارس وخراسان وما وراء النهر والهند وفي المغرب والاندلس وغيرها . وقد حوت مؤلفاتهم البحث في كل ما انتجته قريحة الانسان الى ذلك الزمان ، من الطبيعيات والالهيات والعقليات والرياضيات والنقليات . ودعت ابحاثهم الواسعة الى تشعب العلوم وتفرعها حتى زادت على خمسمائة علم، ذكرها طاشكبري زاده في مفاتيح العلوم ومنها ما لم يكن له وجود قبل الاسلام ، كالاقتصاد السياسي ، وفلسفة التاريخ ، والموسوعات التاريخية ، والجغرافية . غير العلوم الاسلامية الخاصة بلغة العرب وآداب المسلمين .

---

١ – ابو المحاسن ٦٣٢ ج ١ . ٢ – نفح الطيب ٧٢٩ ج ٢ . ٣ – ابن خلكان ٣٩٦ ج ١ .

وقد تعددت مؤلفاتهم حتى اصبحت تعد بعشرات الالوف ، ويستدل على كثرتها مما بقي من خبرها الى القرن الحادي عشر للهجرة على ما في كشف الظنون . فقد بلغ عدد المؤلفات المذكورة هناك ١٤٫٥٠١ غير الشروح والتعاليق ، وغير ما ضاع خبره منها في النكبات المتوالية في اثناء الفتن الداخلية بين الفرق الاسلامية وغيرها ، وما كان يحرقه ولاة الامر من كتب الفلسفة ومتعلقاتها ، اضطهاداً لأصحابها كما سيجيء ،حتى ذهب معظم ما ترجموه او الفوه ولم يبق منها إلا النزر اليسير .

ولا ريب عندنا ان الضائع من كتب المسلمين يزيد على اضعاف الباقي . ومما يؤيد ذلك ان بعض المؤلفين القدماء ، كالمسعودي والطبري وابن الأثير وغيرهم ، ذكروا في مقدمات كتبهم كثيراً من اسماء المؤلفات التي نقلوا كتبهم عنها وقلما نجد اسماءها في الفهارس .

ومن المؤلفين المسلمين من بلغت مؤلفاته بضع مئات الى الالف ، فمؤلفات ابي عبيدة ٢٠٠ مؤلف في علوم مختلفة ، ومؤلفات ابن سريج ٤٠٠ ، ومؤلفات ابن حزم ٤٠٠ مجلد ، ومؤلفات الكندي ٢٣١ ، ومؤلفات القاضي الفاضل مائة كتاب . وقس على ذلك مؤلفات كثير من العلماء في الموضوعات المختلفة ، كمؤلفات الرازي والسيوطي وابن سينا ، وقد بلغت مؤلفات بعضهم الف كتاب كعبد الملك بن حبيب عالم الاندلس[١] وقد عدت مؤلفات جمال الدين العيني الحافظ وقسمت على عمره فبلغ كل يوم تسع كراريس[٢].

ناهيك بضخامة تلك المؤلفات ، فان بعضها يتألف من عشرات المجلدات خصوصاً كتب التاريخ ، فكتاب مرآة الزمان لسبط بن الجوزي اربعون مجلداً ، وتاريخ دمشق لابن عساكر ثمانون مجلداً ، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي ١٤ مجلداً ، والاغاني عشرون مجلداً ، وابن الاثير ١٢ مجلداً ، ويقال نحو ذلك في غير كتب الادب كشرح كتاب النبات لأبي حنيفة الدينوري فانه بلغ ستين مجلداً [٣] وتقدير المجلد يختلف باختلاف الاحوال ، فاذا اعتبرنا تقسيم ابن الأثير والاغاني الى مجلدات رأينا المجلد عبارة عن ٢٠٠ صفحة فأكثر . ولكننا رأينا في بعض النصوص ان تقدير المجلد عشر ورقات[٤] وربما اختلف ذلك باختلاف الموضوعات .

---

١ نفح الطيب ٣٣١ ج ١ . ٢ – ابن خلكان ٢٩٧ ج ١ .

٣ – نفح الطيب ٨٨٤ ج ٢ . ٤ – ابن خلكان ٢٣٠ ج ٢ وطبقات الادباء ١٠٥ .

والغالب في المؤلفات الكبرى عنـــدهم ان تكون من قبيل الموسوعات الحاوية في موضوعها وما يقاربه . فمعجم ياقوت موضوعه الاصلي في الجغرافية ، ولكنه يحوي تراجم جماعة كبيرة من علماء الاسلام وادبائه ، والاغاني في الغناء ولكنه يشمل فوائد ذات شأن في تاريخ العرب وآدابهم في الجاهلية واوائل الاسلام ، والعقد الفريد كتاب في الأدب ، ولكن فيه فوائد كثيرة في الشعر والعروض والاخلاق والتاريخ وغيرها ، وقس على ذلك سائر كتب التراجم او التواريخ المطولة . ومن هذا القبيل الكتب الطبية كالقانون لابن سينا ، فانه عبارة عن قاموس جامع لفنون الطب كالتشريح والفسيولوجيا والباثولوجيا والنبات والصيدلة وغيرها، وكذلك كتاب الرازي. وقد يجمع الكتاب الواحد موضوعات متباعدة ، ككتاب حياة الحيوان للدميري ، فان موضوعه علم الحيوان ولكنه حوى شيئاً كثيراً من التاريخ والآداب والاخلاق والطب والصيدلة والنبات ، والكشكول كتاب في الادب والحكم ولكن فيه مقالات وفصولا في فنون متناقضة ، كالجبر والهندسة والمنطق والنجوم والفلسفة والتاريخ والادب واللاهوت والفقه والحديث وغيرها .

تأثير الإسلام في العلوم الدخيلة

لما نضج التمدن الاسلامي وانتشرت العلوم الدخيلة في بلاد الاسلام ، عنى المسلمون بدرسها ونبغ منهم جماعة فاقوا اصحابها وادخلوا فيها آراء جديدة ، فتنوعت وارتقت على ما اقتضاه الاسلام والآداب الاسلامية وما مازجها من علوم الأمم الاخرى ، فأصبحت على شكل خاص بالتمدن الاسلامي . فلما نهض اهل اوروبا الى استرجاع علوم اليونان ، اخذوا معظمها عن اللغة العربية وفيها الصبغة الاسلامية . فلنبحث فيما اثره التمدن الاسلامي في علوم التمدن القديم .

١ — الفلسفة في الاسلام

قرأ المسلمون الفلسفة في كتب افلاطون وارسطو ، وما علقه عليها اليونان من الشروح واضافوا اليها من الآراء ، وهي تشمل المنطق والطبيعيات والالهيات والاخلاق . فبدأ المسلمون اولا بدرس هذه الكتب ، ثم اخذوا في شرحها او تلخيصها ، ثم عمدوا الى الكتابة في تلك الموضوعات من عند انفسهم . ويندر ان يشتغل الواحد منهم في الفلسفة دون الطب والنجوم ، او في الطب دون الفلسفة والنجوم ، او بالعكس . ومن اقوال حنين : « ان الطبيب يجب ان يكون فيلسوفاً » لكنهم كانوا يلقبون العالم بما غلب اشتغاله فيه .

الفلاسفة المسلمون في الشرق

واكبر فلاسفة المسلمين وأشهرهم واسبقهم يعقوب بن اسحق بن الصباح الكندي ، وهو عربي الاصل دون سواه من الفلاسفة ، ويتصل نسبه بملوك كنده ولذلك سموه فيلسوف العرب . فبعد ان كان العرب في صدر الاسلام يستنكفون من الاشتغال بالعلوم حتى

الاسلامية ، وبعد ان عملوا على ابادة ما عثروا عليه من علوم الاقدمين في مصر وفارس ، اصبحوا لا يستنكفون من الاشتغال حتى بالعلوم الفلسفية الدخيلة . وأول من اشتغل بها منهم ابناء ملوكهم . كان الكندي معاصراً للمأمون والمعتصم الى المتوكل ، وكانت له عندهم منزلة سامية ، وقد برع في الطب والفلسفة والحساب والمنطق والالحان والهندسة وطبائع الاعداد وعلم النجوم ، وقد نبغ وليس في المسلمين فيلسوف غيره ، وحـــذا في تآليفه حذو ارسطوطاليس ، وله ترجمات عديـــدة نقلها لنفسه ، وكان يعد من حذاق التراجمة ولم يذكر بينهم لانه لم يرتزق بالترجمة . وقد الف الكندي في معظم العلوم الدخيلة كتباً كثيرة ،ذكرها صاحب الفهرست واليك عددها باعتبار العلوم :

في الفلسفة	٢٢	كتاباً	في الطبيعيات الخ	٣٣	كتاباً
« الحساب	١١	»	« الكريات	٨	كتب
« النجوم	١٩	»	« المنطق	٩	»
« الهندسة	٢٣	»	« الموسيقى	٧	»
« الفلكيات	١٦	»	« الأحكام	١٠	»
« الطب	٢٢	»	« النفس	٥	»
« الجدل	١٧	»	« الأبعاد	٨	»
« السياسة	١٢	»	« تقدمة المعرفة	٥	»
« الأحداث	١٤	»	المجموع كله	٢٣١	

واكثر هذه الكتب قد ضاع . ويتضح من مراجعة اسمائها ان الرجل كان كثير التضلع في هذه العلوم ، حتى انتقد اصحابها وخطأهم . وللكندي تلامذة حذوا حذوه .

ويليه ابو نصر الفارابي المتوفي سنة ٣٣٩ هـ ، أصله من فاراب ببلاد الترك لكنه فارسي المنتسب[١] وقد نشأ في الشام واشتغل فيها ، وكان فيلسوفاً كاملاً درس كل مـــا درسه الكندي من العلوم ، وفاقه في كثير منها وخصوصاً في المنطق ،وتعمق في الفلسفة والتحليل وانحاء التعاليم ، وافاد التعليم وجوه الانتفاع بها ، والف كتباً في موضوعات لم يسبقه احد اليها ، ككتابه « في احصاء العـلوم والتعريف بأغراضها » وهو اشبه بقاموس علمي على شكل موسوعات العلوم لم يذهب مذهبه فيه احد قبله ، وكتاب « السياسة المدنية » وهو

١ ــ طبقات الاطباء ١٣٤ ج ٢ .

الاقتصاد السياسي الذي يزعم اهل التمدن الحديث انه من مخترعاتهم ، وقد كتب فيه الفارابي منذ الف سنة ، ثم كتب فيه ابن خلدون في مقدمته . وبرع الفارابي خصوصاً في علم الموسيقى حتى اصبح لا يضاهيه فيه احد، واخترع القانون كما سيأتي في باب الموسيقى، واصلح ما بقي من الترجمات غير مصلح فسموه المعلم الثاني(١) .

وممن غلبت عليه الفلسفة من علماء المسلمين الشيخ الرئيس ابن سينا المتوفي سنة ٤٢٨ هـ ، وله من المؤلفات نحو مائة كتاب منها ٢٦ في الفلسفة فقط . ومنهم ابو حامد الغزالي الملقب حجة الاسلام المتوفي سنة ٥٠٥ هـ ، وهو امام التصوف . غير الذين ظهروا في الاندلس ، وسيأتي ذكرهم . على ان الافاضة في ذكر الفلاسفة ومؤلفاتهم وآرائهم من متعلقات « تاريخ آداب اللغة » فنقتصر هنا على تاريخ الفلسفة في الاسلام وما كان من تأثيرها في الدين والعلم .

اهم ما كان من تأثير الفلسفة في الاسلام انهم بنوا عليها علم الكلام وأيدوه بها ، لتقوى حجتهم فيما قام بينهم من المجادلات المذهبية . واشتهر علم الكلام في المسلمين وعكفوا على درسه ، وخصوصاً المعتزلة ، واشتهر به جماعة من علية القوم، وفي جملتهم الشريف المرتضى والزمخشري والباقلاني وغيرهم .

واما الفلسفة في حد ذاتها فقد كان اصحابها متهمين بالكفر ، وكان الانتساب اليها مرادفاً للانتساب الى التعطيل ، ومن اقوالهم : « كان فلان — سامحه الله — يتهم بدينه لكون العلوم العقلية غالبة عليه »(٢) وقد شاع ذلك في بغداد بين العامة ، حتى في ايام المأمون ، ولذلك سماه بعضهم امير الكافرين(٣) ولكنهم لم يكونوا يتظاهرون بذلك ، حتى ذهب عصر المأمون والمعتصم والواثق، وتولى المتوكل فاصبح مريدو الفلسفة يتجنبون الظهور بها ، او ينكرونها وهم كلفون بها، فكانوا يشتغلون فيها سراً فألفوا الجمعيات السرية لهذه الغاية .

---

١ — كشف الظنون ٤٤٨ ج ١ .
٢ — ابن خلكان ١٣٤ ج ٢ . ٣ — اليعقوبي ٥٤٦ .

جمعية اخوان الصفا

ومن جمعياتهم السرية الفلسفية جمعية اخوان الصفا ، تألفت في بغداد في اواسط القرن الرابع للهجرة ، ذكروا من اعضائها خمسة هم : ابو سليمان محمد بن معشر البستي ويعرف بالمقدسي ، وابو الحسن علي بن هارون الزنجاني ، وابو احمد المهرجاني ، والعوفي ، وزيد بن رفاعة[1] وكانوا يجتمعون سراً ويتباحثون في الفلسفة على انواعها ، حتى صار لهم فيها مذهب خاص ، هو خلاصة ابحاث الفلاسفة المسلمين بعد اطلاعهم على آراء اليونان والفرس والهند ، وتعديلها على ما يقتضيه الاسلام . واساس مذهبهم ان الشريعة الاسلامية تدنست بالجهالات واختلطت بالضلالات ، ولا سبيل الى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة ، لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية ، وانه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال .

وقد دونوا فلسفتهم هذه في خمسين رسالة سموها رسائل اخوان الصفا ، وكتموا اسماءهم . وهي تمثل الفلسفة الاسلامية على ما كانت عليه في ابان نضجها ، وتشمل : النظر في مبادىء الموجودات ، واصول الكائنات الى نضد العالم ، فالهيولي والصورة ، وماهية الطبيعة ، والارض والسماء ووجه الارض وتغيراته ، والكون والفساد ، والآثار العلوية ، والسماء والعالم ، وعلم النجوم ، وتكوين المعادن ، وعلم النبات ، واوصاف الحيوانات ، ومسقط النطفة وكيفية رباط النفس بها ، وتركيب الجسد ، والحاس والمحسوس ، والعقل والمعقول ، والصنائع العلمية والعملية ، والعدد وخواصه ، والهندسة ، والموسيقى ، والمنطق وفروعه ، واختلاف الاخلاق ، وطبيعة العدد ، وان العالم انسان كبير والانسان عالم صغير ، والاكوار والادوار ، وماهية العشق ، والبعث والنشور ، واجناس الحركات ، والعلل والمعلولات ، والحدود والرسوم .. وبالجملة فقد ضمنوها كل علم طبيعي او رياضي او فلسفي او الهي او عقلي . وبين ايدينا خلاصة هذه الرسائل مطبوعة في ليبسك بعناية الدكتور ديتريشي في نحو ٦٥٠ صفحة كبيرة . ويظهر من امعان النظر فيها ان اصحابها كتبوها بعد البحث الدقيق والنظر الطويل . وفي جملة ذلك آراء لم يصل اهل هذا الزمان الى احسن منها . وفي ذيل ذلك الكتاب فصل في كيفية عشرة اخوان الصفا وتعاونهم بصدق المودة والشفقة ، وان الغرض منها التعاضد في الدين . وذكروا شروط قبول الاخوان فيها وغير ذلك .

---

١ – تراجم الحكماء (خط) .

وكان المعتزلة ومن جرى مجراهم يتناقلون هذه الرسائل ويتدارسونها ويحملونها معهم سراً الى بلاد الاسلام ، ولم تمض مائة سنة على كتابتها حتى دخلت الاندلس على يدأبي الحكم عمرو بن عبدالرحمن الكرماني وهو من اهل قرطبة ، رحل الى المشرق للتبحر في العلم على جاري عادةالاندلسيين. فلما عاد الى بلاده حمل معه الرسائل المذكورة وهو اول من ادخلها الاندلس[1] فما لبثت ان انتشرت هناك حتى تناولها اصحاب العقول الباحثة واخذوا في درسها وتدبرها .

فلاسفة الاندلس

وكانت الفلسفة قد دخلت الاندلس في ايام عبد الرحمن الاوسط كما تقدم ، وقد اخذ الاندلسيون بشيء منها ، وظهر فيهم جماعة اشتهروا بعلوم الاوائـــل والنجوم ، واولهم ابو عبيدة مسلم بن احمد المعروف بصاحب القبلة توفي في اواخر القرن الثالث للهجرة . ثم يحيى بن يحيى القرطبي المعروف بابن السمينة المتوفي سنة ٣١٥ هـ ، وابو القاسم مسلمـة ابن احمد المعروف بالمرجيطي او المجريطي من اهل قرطبة ، كان امام الرياضيين في عصره بالاندلس توفي سنة ٣٩٨ هـ ، وانجب تلامذة جلة، اشهرهم ابن السمح المهندس الغرناطي ، وابن الصفار استاذ الرياضيات في قرطبة، والزهراوي صاحب كتاب الاركان في المعاملات على طريق البرهان ، وابو الحكم عمرو الكرماني المتقدم ذكره ، فانه رحل الى المشرق حتى نزل حران وتعلم فيها الهندسة والطب ، ثم رجع برسائل اخوان الصفا الى الاندلس وتوفي في سرقسطة سنة ٤٥٨ هـ .

على ان هؤلاء انما اقتصروا من علوم الاوائل على الرياضيات والنجوم ونحوها ، امـــا الفلسفة بمعناها الحقيقي فلم يعن اهل الاندلس بها إلا بعد دخول رسائل اخوان الصفا ، وكان المستنصر بن الناصر قد استجلب كتب الفلسفة من المشرق فتداولها الناس، ولكنهم لم ينبغوا فيها إلا بعد مطالعة تلك الرسائل . فنبغ ابو بكر بن باجة الفيلسوف الاندلسي الشهير المتوفي سنة ٥٢٣ هـ ، ويعرف بابن الصائغ ، ومن تلاميذه القاضي ابو الوليد بن رشد الفيلسوف القرطبي المتوفي سنة ٥٩٥ هـ ، ونبـغ ايضاً ابن الطفيل وابن هود وغيرهما ، وقد الفوا المؤلفات الضافية في فروع الفلسفة مما اتخذه الافرنج قاعدة لفلسفتهم في اوائل نهضتهم .

---

١ — طبقات الاطباء ٤٠ ج ٢ .

على ان اولئك الفلاسفة كانوا عرضة لاحتقار العامة ، شأنهم في مثل هذه الحال في سائر العصور . وكان الملوك يسايرون العامة في ذلك رغبة في استرضائهم لتوطيد سلطانهم ، فما من ملك إلا نقم على الفلاسفة واضطهدهم . ومن اشهر الحوادث من هذا القبيل نقمة المنصور بن عامر صاحب الاندلس ، في اواخر القرن السادس للهجرة ، فانه اضطهد الفلاسفة ونفاهم ، وفي جملتهم ابن رشد وابو جعفر الذهبي وابو عبدالله قاضي بجاية وغيرهم[١] وعزم ان لا يترك شيئاً من كتب المنطق والحكمة في بلاده ، فأمر باحراقها في النار وشدد النكير على المشتغلين بها ، واصبح العامة كلما قيل فلان يشتغل في الفلسفة او التنجيم اطلقوا عليه اسم زنديق وقيدت عليه انفاسه ، فان زل في شبهة رجموه بالحجارة او احرقوه . اما الخاصة فكانوا يدرسون الفلسفة سراً ، وربما امر السلطان بقتل بعض الفلاسفة تقرباً من قلوب العامة ، ويكون هو نفسه يحبها[٢] .

٢ ــ الطب في الاسلام

الطب الاسلامي

الطب الاسلامي خلاصة ما بلغ اليه علم الطب عند الامم المتمدنة قبل الاسلام . لأن المسلمين نقلوا الى لسانهم كتب ابقراط وجالينوس وغيرهما من اطباء اليونان ، واطلعوا على ما كان عند السريان من الطب اليوناني الممزوج ببقايا طب الكلدان القدماء ، ونقل اليهم اطباء مدرسة جنديسابور طب اليونان بصبغته الفارسية ، واطلعوا على طب الهنود ممن جاءوا بغداد من اطبائهم ، غير ما كان عند العرب في ايام الجاهلية وتنوقل في الاسلام . ومن تفاعل هذه العناصر وتمازجها تألف الطب الاسلامي ، الذي تمثل بعد نضج العلم في الكتاب الملكي (او الملوكي) لأبي بكر الرازي الملقب جالينوس العرب ، الفه للملك عضد الدولة بن بويه ، وجمع فيه كل ما وجده متفرقاً من ذكر الامراض ومداواتها في كتب القدماء الى زمانه في اواسط القرن الرابع للهجرة ، وللرازي من كتب الطب والفلسفة وغيرهما شيء كثير . وما زال الناس يعولون على الكتاب الملوكي حتى ظهر القانون لابن سينا ، وهو منشور ومشهور الى اليوم ، واذا قلبت صفحاته علمت انه قاموس في الطب والصيدلة ، وقد جمع خلاصة ابحاث اليونان والكلدان والهنود

---

١ ـ طبقات الاطباء ٧٦ ج ٢ .   ٢ ـ نفح الطيب ١٠٤ ج ١ .

والفرس والعرب في الأمراض ومعالجتها والعقاقير وخصائصها . وليس هو طب اليونان فقط كما توهم البعض ، لأنك تقرأ في اماكن كثيرة منه تفصيلا لآراء الهنود وانتقادها واستحسانها . ومما ذكره من طبهم مثلا انهم وصفوا انواع العلق واشكاله وخصائص كل منها(١) ومن آرائهم ان اكل اللبن مع الحوامض او السمك يورث امراضاً منها الجذام . وقولهم انلا يؤكل ماست مع الفجل ولا مع لحوم الطير ولا سويق على ارز بلبن او نحو ذلك(٢) ناهيك بالعقاقير الهندية التي تدل اسماؤها على اصلها.

ومن الكتب الطبية الاسلامية التي استفاد منها الافرنج في نهضتهم الاخيرة كتاب « التصريف لمن عجز عن التأليف » لأبي القاسم خلف بن عباس الزهراوي الاندلسي من اهل القرن الخامس للهجرة ، وهو قاموس في الطب ويمتاز عن سواه بالقسم الجراحي ، وكتاب التيسير لعبدالملك بن زهر الاندلسي الفه لابن رشد الفيلسوف في اواسط القرن السادس للهجرة . واطباء المسلمين كثيرون ، وكتبهم كثيرة لا محل لذكرها هنا .

الاطباء المسلمون

ولو احصينا الاطباء المسلمين الذين نبغوا بعد ترجمة الكتب الطبية الى انقضاء النهضة العباسية وابتداء عصر التقهقر ، أي في اثناء ثلاثة او اربعة قرون ، لزاد عدد المؤلفين منهم ممن بلغت الينا اسماؤهم على بضع مئات ، واكثرهم اشتغلوا بسائر العلوم الدخيلة والفوا الكتب العديدة ، وترى ذلك مفصلا في طبقات الاطباء لأبن ابي اصيبعة ، وتراجم الحكماء لابن القفطي ، وكتاب كشف الظنون وغيرها . اما عدد الاطباء على الاطلاق فمما لا يمكن حصره لضياع ذلك مع الزمان ، وانما يستدل من بعض القرائن انه كان كثيراً جداً . فقد احصوا اطباء بغداد وحدها في زمان المقتدر بالله في اول القرن الرابع للهجرة فبلغ ٨٦٠ طبيباً احتاجوا الى الامتحان لنيل الاذن في التطبيب ، سوى من استغنى عن الامتحان لشهرته وسوى من كان في خدمة الخليفة(٣) فلا يمكن ان يكون مجموع ذلك كله اقل من الف طبيب معاصرين في مدينة واحدة . وبلغ عدد اطباء النصارى فقط في خدمة المتوكل بأواسط القرن الثالث للهجرة ٥٦ طبيباً(٤) . وكان سيف الدولة اذا جلس على المائدة حضر معه ٢٤ طبيباً ، ومنهم من يأخذ رزقين لتعاطيه علمين ، ومن يأخذ ثلاثة ارزاق لتعاطيه ثلاثة علوم(٥) .

١ – القانون ١٠٧ ج ١ . ٢ – القانون ٨٤ ج ١ .
٣ – طبقات الاطباء ٢٢٢ ج ١ . ٤ – طبقات الاطباء ١٩٢ ج ١ .
٥ – طبقات الاطباء ١٤٠ ج ٢ .

وكان للأطباء عندهم نظام وعليهم رئيس يمتحنهم ويجيز من يرى فيه الكفاءة للتطبيب، واشهر هؤلاء الرؤساء سنان بن ثابت في بغداد ومهذب الدين الدخوار في مصر . ويقال نحو ذلك في الصيادلة ، فقد كانوا كثاراً وتفشى الغش في الأدوية حتى اضطر اولو الأمر الى الامتحان واعطاء الاجازات او المنشورات الى الذين يحسنون الصناعة ونفي الآخرين . واول من فعل ذلك الافشين في بغداد ، فقد وكلَ زكريا بن الطيفوري به في حديث يطول ذكره[١] وكان من الاطباء او الصيادلة من هو خاص بالجند يرافقه في أسفاره ومنهم من هو خاص بالخلفاء والامراء، ولهؤلاء رواتب خاصة ويعرفون بالمرتزقين . ومنهم من يطببون العامة وهم غير مرتزقين .

وكان الاطباء طبقات وأصنافاً ، وفيهم الطبيب على اجماله والجراح والفاصد والكحال والاسناني ، ومن يعالج النساء والمحاظي فقط او يطبب المجانين فقط . على نحو الاطباء الاخصائيين في هذه الايام . وكان الكحالون في مصر اكثر منهم في سواها لتعرضهم لأمراض العين ، وكانوا يعالجون الماء الازرق بقدح العين على نحو عملية الكتركتا اليوم .

ونبغ جماعة من النساء اشتهرن بصناعة الطب ، منهن اخت الحفيد بن زهر الاندلسي وابنتها ، فقد كانتا عالمتين بصناعة الطب ولهما خبرة جيدة بمداواة النساء، وكانتا تدخلان على نساء المنصور الاندلسي واهله ولا يقبل المنصور سواهما[٢] واشتهر في ايام بني أمية بالشام امرأة اسمها زينب طبيبة بني أود ، كانت عالمة بالأعمال الطبية ومداواة العين بالجراحة[٣] فضلا عمن اشتهر منهن بالعلم والادب ، كشهدة الدينورية وبنت دهين اللوز الدمشقية وغيرهما .

وكان الفحص الطبي عندهم قاصراً على فحص البول وجس النبض . فيأتي المريض ومعه قارورة الماء ، اي زجاجة البول ، فيسلمها الى الطبيب فينظر فيها ثم يذوقها ، ليتحقق وجود الحوامض او القوايض او السكر فيها ، ثم يجس النبض وعند ذلك يحكم في حال المريض ، لاعتقادهم ان النبض يدل على مزاج القلب ، والبول على مزاج الكبد وحال الاخلاط . ومهما يكن من اعتقادهم فان هذه الطريقة لا تزال مما يعول عليه الاطباء الى اليوم .

---

١ – ابو الفرج ٢٤٤ . ٢ – طبقات الاطباء ٧٠ ج ٢ .
٣ – طبقات الاطباء ١٢٣ ج ١ .

ما الذي احدثه المسلمون في الطب

بقي علينا النظر فيما احدثه المسلمون في الطب من الاختراعات الجديدة او الآراء المبتكرة ، والحكم في ذلك يستلزم درساً لا يسعه هذا المكان . على اننا نقول بالاختصار ان المسلمين جمعوا بين طب اليونان والفرس والهنود والكلدان والعرب كما تقدم ، واضافوا الى ذلك كثيراً من نتائج اختبارهم في هذه الصناعة ، كما يظهر من مراجعة كتبهم الطبية ، فأنهم كثيراً ما يذكرون رأي جالينوس او ابقراط مثلاً وينتقدونه ويبينون وجه الخطأ وصوابه[١] . فضلاً عما ادخلوه من الترتيب والتبويب في الكتب التي ترجموها ، كما فعل ابن أبي الاشعث بكتب جالينوس ، فأنه رتبها وبوبها وفصلها تسهيلاً لمطالعتها[٢] غير ما احدثوه من الشروح والذيول لكتب القدماء . ففي ذيل ابن جلجل على كتاب ديسقوريدس عقاقير لم يعرفها القدماء .

اما ما احدثوه من عند انفسهم رأساً فالاحاطة به من الامور الشاقة التي يعسر تحقيقها، فنذكر ما ثبت عندنا حدوثه على سبيل المثال . من ذلك انهم احدثوا في الطب آراء جديدة تخالف آراء القدماء في تدبير الأمراض ، وان لم يصلنا الا خبر القليل منها ، مثل نقلهم تدبير اكثر الامراض التي كانت تعالج قديماً بالادوية الحارة (على اصطلاحهم) الى التدبير البارد كالفالج واللقوة والاسترخاء وغيرها ، وذلك على غير ما سطره القدماء . وأول من فطن لهذه الطريقة ونبه عليها واخذ المرضى بالمداواة بها الشيخ ابو منصور صاعد ابن بشر الطبيب في بغداد، فانه اخذ المرضى بالفصد والتبريد والترطيب ومنعهم من الغذاء ، فأنجح تدبيره فعينوه رئيساً للمارستان العضدي ، فرفع منه المعاجين الحارة والادوية الحارة ، ونقل تدبير المرض الى ماء الشعير ومياه البزور ، فأظهر في المداواة عجائب فاقتدى به سائر الاطباء بعده[٣] .

والعرب اول من استخدم المرقد[٤] « البنج » في الطب ، يقال انهم استخدموا له الزوان او الشيلم ، وهم اول من استخدم الخلال المعروف عند الاطباء .

وقد وجد محققو الافرنج ان العرب اول من استخدم الكاويات في الجراحة على نحو استخدامها اليوم ، وانهم اول من وجه الفكر الى شكل الاظافر في المصدورين ، ووصفوا

---

١ — القانون ٢١ ج ٣ . ٢ — طبقات الاطباء ٢٤٦ ج ١ .
٣ — طبقات الاطباء ٢٣٢ ج ١ . ٤ — ابن خلكان ٣١٢ ج ١ والانسكلوبيديا .

علاج اليرقان والهواء الاصفر ، واستعملوا الافيون بمقادير كبيرة لمعالجة الجنون ، ووصفوا صب الماء البارد لقطع النزف ، وعالجوا خلع الكتف بالطريقة المعروفــة في الجراحة برد المقاومة الفجائي ، ووصفوا ابرة الماء الازرق وهو قــدح العين ، وأشاروا الى عملية تفتيت الحصاة .

وقد الف العرب في بعض فروع الطب ما لم يسبق احد الى مثــله . فالجذام اول من كتب فيه اطباؤهم ، واول كتاب في هذا الموضوع ليوحنا بن ماسويه وهم اول من وصف الحصبة والجدري بكتاب لأبي بكر الرازي ، غــير ما الفوه من الموسوعات الضافية في الطب .

الصيدلة والكيمياء والنبات

ومن فروع الطب الصيدلة ، وللعرب فضل كبير فيها . فقد بذلوا الجهد في استجلاب العقاقير من الهند وغيرها . بدأوا بذلك من ايام يحيى بن خالد البرمكي كما تقدم ، ثم نبغ منهم الاطباء والصيادلة ، ووجهوا عنايتهم الى درس العقاقير ، وقد نقلوا كتباً فيها من الهندية واليونانيــة ثم اشتغلوا هم انفسهم في جمعها . وقد عني الافرنــج بعــد نهضتهم الأخيرة بدرس تاريخ فن الصيدلة ، فتحققوا ان العرب هم واضعو اسس هــذا الفن ، وهم اول من اشتغل في تحضير الادوية او العقاقير ، فضلاً عما استنبطوه من الادوية الجديدة . وانهم اول من الف الاقرباذين على الصورة التي وصلت الينا[١] وظل العرب في النهضة العباسية يعتمدون في المارستان ودكاكين الصيادلة على اقرباذين الفه سابور بن سهل المتوفي سنة ٢٥٥ هـ . حتى ظهر اقرباذين امين الدولة بن التلميذ المتوفي في بغداد ٥٦٠ هـ . وهم اول من انشأ حوانيت الصيدلة على هذه الصورة . ومن اقرب الشواهد على ذلك اسماء العقاقير التي اخذها الافرنج عن العرب ، ولا تزال عندهم بأسمائهــا العربية او الفارسية او الهندية كما اخذوها عن العربية[٢].

على ان تقدمهم في الصيدلة تابع لتقدمهم في الكيمياء والنبات ، ولا خلاف في ان العرب هم الذين اسسوا الكيمياء الحديثة بتجاربهم ومستحضراتهم . وقد تقدم ان اول من اشتغل في نقلها الى العربية خالد بن يزيد ، نقلها عن مدرسة الاسكندرية ، وعنه اخذ جعفر الصادق المتوفي سنة ١٤٠ هـ ، وبعــده جابر بن حيان ، ثم الكندي ، فابو بكر الرازي وغيرهم ، فاكتشفوا كثيراً من المركبات الكيماوية الــتي بنيت عليها الكيمياء

١ — طبقات الاطباء ١٨٣ ج ١ .

٢ — Encyclopaedia Brit. art. «Medicine»

الحديثة . وقد ذكر محققو الافرنج ان العرب هم الذين استحضروا مـاء الفضة (الحامض النتريك) ، وزيت الزاج (الحامض الكبريتيك) ، وماء الذهب (الحامض النتروهيدرو كلوريك)، واكتشفوا البوتاسا ، وروح النشادر ، وملحه ،وحجر جهنم (نترات الفضة) ، والسليماني (كلوريد الزئبق) ، والراسب الاحمر (اكسيد الزئبق) ، وملـح الطرطير ، وملح البارود (نترات البوتاسا) ، والزاج الاخضر (كبريتات الحديد) ، والكحول ، والقلي ، والزرنيخ ، والبورق ، وغير ذلك من المركبات والمكتشفات التي لم يصل الينا خبرها . على اننـا نستدل على وجود بعـض المركبات الكيماوية في ايامهم ، مما لم نسمع له بمثيـل في تاريخ الكيمياء قبل اواخر القرن الماضي . فقد اشار ابن الأثير الى ادويـة استخدمها العرب في واقعة الزنـج سنة ٢٦٩ هـ ، اذا طلي بهـا الخشب امتنع احتراقه [١] ولم يذكر ما هي . ومما يعد من قبيل الكيمياء أيضاً البارود ، فقد ترجح لنا بالبحث انهم هم الذين ركبوه [٢] وهم أول من وصف التقطير ، والترشيح ، والتصعيد ، والتبلور ، والتذويب . وقد الفوا في ابطال الكيمياء القديمة ـ اول من ألف ذلك منهم حكيمهم وفيلسوفهم يعقوب الكندي في اواسط القرن الثالث للهجرة [٣] .

وأما النبات فللعرب القدح المعلى في درسه والتأليف فيه ، وقد أخذوا هـذا العلم في النهضة العباسية عن مؤلفات ديسقوريدس وجالينوس ومن كتب الهنـد . نقل كتاب ديسقوريدس في أيام المتوكل ، نقله اصطفان بن باسيل من اليونانية الى العربية ، فالعقاقير التي لم يعرف لها اسماء في العربية تركها على لفظها اليوناني اتكالاً على ان يبعث الله بعده من يعرف ذلك ويفسره . وحمل هذا الكتاب الى الاندلس على هذه الصورة ، فانتفـع به الناس الى ايام الناصر صاحب الاندلس في اواسط القرن الرابع للهجرة . فكاتبه ملك القسطنطينية سنة ٣٣٧ هـ وهاداه بكتب من جملتها كتاب ديسقوريدس باليونانية «مصور الحشائش » بالتصوير الرومي العجيب ، ولم يكن في الاندلس من يحسن اليونانية ، فبعث الناصر الى الملك يطلب اليه رجلاً يعرف اليونانية واللاتينية لينقله الى اللاتينية ، وعارفو هذه اللغة في الاندلس كثيرون . فبعث اليه راهباً اسمه نقولا وصل قرطبة سنة ٣٤٠ هـ ، فتعاونوا على استخراج ما فات ابن باسيل تعريبه من عقاقير هذا الكتاب ، ثم جـاء ابن جلجل في آخر القرن الرابع فألف كتابا فيما فات ديسقوريدس ذكره من اسماء العقاقير والأدوية وجعله ذيلا على ذلك الكتاب .

---

١ – ابن الاثير ١٥١ جـ ٧ .   ٢ – الهلال ، السنة العاشرة صفحة ٨٧ .

٣ – كشف الظنون ٣٤١ جـ ٢.

حتى اذا نبغ ابن البيطار المالقي النباتي في اواسط القرن السابع للهجرة ، تنـــاول الكتاب المذكور فدرسه وتفهمه ، ثم سافر الى بلاد اليونان، والى اقصى بلاد الروم، ولقي جماعة يعانون هذا الفن ، واخذ عنهم معرفة نبات كثير عاينه في مواضعه ، واجتمع ايضاً وغيره بكثير من علماء النبات وعاين منابته بنفسه ، وذهب الى الشام ودرس نباتهـــا ، وجاء الديار المصرية في خدمة الملك الكامل الايوبي ، وكان يعتمد عليه في الادوية المفردة والحشائش حتى جعله رئيساً على العشابين واصحاب البسطات . وبعد طول ذلك الاختبار ألف كتابه في النبات ، وهو فريد في بابه [١] وكان عليه معول أهـل أوربا في نهضتهم الاخيرة .

ومن المبرزين في علم النبات رشيد الدين بن الصوري المتوفى سنة ٦٣٩ هـ صاحب كتاب « الادوية المفردة » ، وكان كثير البحث والتدقيق يخرج لدرس الحشائش في منابتهـــا ، ويستصحب مصوراً معه الاصباغ والليق على اختلافها وتنوعها ، ويتوجه الى المواضع التي بها النبات في لبنان وسوريا فيشاهد النبات ويحققه ، ويريه للمصور فيعتبر لونه ومقدار ورقه وأعضائه وأصوله ويصور بحسبها بالدقة [٢] وذلك غاية ما يفعله الباحثون في هذا العلم اليوم .

المارستانات في الاسلام

المارستان أو البيمارستان لفظ فارسي معنـــاه مكان المرضى ويقابله اليوم المستشفى ، ولكن المارستانات كانت في التمدن الاسلامي تشمل مدارس الطب والمستشفيات معاً ، لأنهم كانوا يعلمون الطب فيها . والعرب أخذوا المارستانات عن الفرس وأنشأوها على مثال مارستان جنديسابور المتقدم ذكره .

وأول من انشأ المارستانات في الاسلام الوليد بن عبد الملك الاموي ، انشأ مارستاناً بدمشق سنة ٨٨ هـ جعل فيه الأطبـاء وأمر بحبس المجذومين واجرى لهم الأرزاق [٣] فانقضت الدولة الأموية وليس في الاسلام غير هذا المارستان ، فلما حكم العباسيون كان المنصور اول من استقدم الاطباء من مارستان جنديسابور كما رأيت ، ولم ينشىء مارستاناً

---

١ – طبقات الاطباء ٣٣ ج ٢ . ٢ – طبقات الاطباء ٢١٩ ج ٢ .
٣ – المقريزي ٤٠٥ ج ٢ .

ولكنه انشأ داراً للعميان والايتام والقواعد من النساء [١] وانشأ هو أو من خلفه دوراً لمعالجة المجانين [٢] .

وأول من انشأ المارستانات في الدولة العباسية الرشيد ، فانه لما رأى مهارة القادمين عليه من اطباء مارستان جنديسابور ، اراد أن يكون لبغداد مثل ذلك ، فأمر طبيبه جبرائيل بن بختيشوع بانشاء المارستان في بغداد . وكان رئيس مارستان جنديسابور يومئذ طبيباً هندياً اسمه دهشتك ، فبعث اليه ليقلده مارستان بغداد فاعتذر ودله على ماسويه فولاه اياه ، ثم تولاه ابنه يوحنا بن ماسويه [٣] وكان البرامكة اهل علم ولهم رغبة في طب الهند واطبائه كما رأيت ، فأنشأوا مارستاناً باسمهم وولوا عليه طبيباً هندياً اسمه ابن دهن ، وهو ممن نقل الى العربية من اللسان الهندي رأساً [٤] .

ولما اشتهر مارستان بغداد أخذت المدن الاخرى في تقليدها كما قلدتها في سائر اسباب ذلك التمدن ، وكان الفتح بن خاقان وزير المتوكل قد انشأ في مصر مارستاناً عرف بمارستان المغافر ، فلما تولاها ابن طولون انشأ فيها سنة ٢٥٩ هـ ، مارستانا عرف باسمه وانفق على بنائه ٦٠٠٠٠ دينار ، وشرط ان لا يعالج فيه جندي ولا مملوك بل يعالج فيه العامة من المرضى والمجانين وغيرهم ، وحبس ريعاً يضمن بقاءه . وكان يتعهده بنفسه كل يوم جمعة حتى ساءه احد المجانين فقطع الزيارة [٥] .

ولم ينقض القرن الثالث للهجرة حتى بنيت المارستانات في مكة والمدينة وغيرهما . ولما دخل القرن الرابع تسابق الخليفة المقتدر ووزراؤه الى انشاء المارستانات في بغداد وضواحيها ، منها مارستان علي بن عيسى الوزير انشأه بالحربية سنة ٣٠٢ هـ وانفق عليه من ماله وقلده طبيبه ابا عثمان الدمشقي [٦] ومارستان السيدة فتحه سنان بن ثابت بسوق يحيى سنة ٣٠٦ هـ وبلغت النفقة عليه ٦٠٠ دينار في الشهر . وفي تلك السنة اشار سنان المذكور على الخليفة المقتدر ان يتخذ مارستانا ينسب اليه ، فأمر فبنوا له بباب الشام من ابواب بغداد المارستان المقتدري ، وكان ينفق عليه من ماله ٢٠٠ دينار كل شهر وبنى ايضاً الوزير ابن الفرات نحو ذلك الزمن مارستانا بدرب الفضل عرف باسمه [٧] وبنى غيرهم

---

١ — ابن خلكان ٤٩٥ ج ١ . ٢ — الكشكول ٢١٣ .
٣ — طبقات الاطباء ١٧٤ ج ١ . ٤ — الفهرست ٢٤٥ .
٥ — المقريزي ٤٠٥ ج ٢ . ٦ — طبقات الاطباء ٢٤٣ ج ١ .
٧ — طبقات الاطباء ٢٢٢ و ٢٢٤ ج ١ .

مارستانات اخرى في الري ونيسابور وغيرهما . وفي اواسط القرن الرابع بني المارستان الكافوري بمصر . ثم انشا عضد الدولة بن بويه المارستان العضدي سنة ٣٦٨ ﻫ على طرف الجسر في الجانب الغربي من بغداد ، ورتب له ٢٤ طبيباً فيهم الجراحون والكحالون والمجبرون والفاصدون والاطباء الطبيعيون ، ففاق سائر ما تقدمه من المارستانات ، وكان على الاطباء رئيس يسمونه « الساعور » .

وظل المارستان العضدي صدر المارستانات حتى بنى نورالدين زنكي مارستانه الكبير في دمشق في اواسط القرن السادس، ثم بنى صلاح الدين الايوبي المارستان العتيق في القاهرة وغيره . ولما تولى السلاطين المماليك مصر بنى الملك المنصور قلاوون المارستان المنصوري بالقاهرة سنة ٦٨٣ ﻫ على مثال مارستان دمشق ، وصفه المقريزي وصفاً مسهباً في الجزء الثاني من خططه . ولا تزال آثار المارستان المنصوري باقية الى اليوم في شارع النحاسين . ثم بنى الملك المؤيد سنة ٨٢١ ﻫ المارستان المؤيدي بمصر، ناهيك بما انشأوه من المارستانات في سائر بلاد الاسلام في فارس وخراسان والموصل والشام والاندلس ، مما يطول شرحه . وفي رحلة ابن جبير وصف ما شاهده بنفسه من مارستانات المسلمين في القرن السادس للهجرة هناك .

وكانت تلك المارستانات في غاية النظام يعالج فيها المرضى على اختلاف طوائفهم ونحلهم ، وفيها لكل مرض قاعة او قاعات خاصة يطوفها الطبيب المختص بها وبين يديه المشارفون والقوام لخدمة المرضى، فيتفقد المرضى ويصف لهم الأدوية ويكتب لكل مريض دواءه[١] فمن شفي فيها زودوه السلام ومن مات كفنوه ودفنوه . وكانت تلقى فيها الدروس في الطب والصيدلة وتمارس بها هاتان الصناعتان .

وكان من ضروب المارستانات عندهم مارستان نقال يحملونه على الجمال او البغال على نحو المستشفيات المتنقلة في دول هذه الأيام . فكان في معسكر السلطان محمود السلجوقي مارستان يحمله اربعون جملا يستصحبه العسكر حيثما توجهوا[٢] .

٣ ـــ التنجيم والنجوم او الفلك

النجوم عند القدماء علمان : علم طبيعي ينظر في النجوم من حيث مواضعها وحركاتها

---

١ ـــ طبقات الاطباء ١٥٥ ج ٢ .   ٢ ـــ ابن خلكان ٢٧٤ ج ١ وتراجم الحكماء .

واحكامها بالنظر الى الخسوف والكسوف ، وعلم ينظر فيها باعتبار علاقاتها بحوادث العالم من حيث الحرب والسلم والولادة والوفاة والسعد والنحس والمطر والصحو ونحو ذلك . وتسهيلاً للبحث نسمي الاول علم النجوم او الفلك والثاني علم التنجيم . وقد علمت مما تقدم ان العرب كانوا يعرفون هذين العلمين ، فلما تمدنوا ونقلوا العلم اضافوا الى ما اخذوه عن اليونان والفرس والهند والكلدان الى ما كان عندهم ، فتولد من ذلك كله التنجيم والنجوم عند المسلمين .

التنجيم

وأول من عني بالتنجيم والنجوم في النهضة العباسية ابو جعفر المنصور ، فترجموا له السند هند كما تقدم ، واقتدى به خلفاؤه واصبح للتنجيم شأن كبير عندهم ، حتى في ابان العصر العباسي. وكان المنجمون فئة من موظفي الدولة كما كان الاطباء والكتاب والحساب، ولهم الرواتب والارزاق[1] وكان الخلفاء يستشيرونهم في كثير من احوالهم الادارية والسياسية ، فاذا خطر لهم عمل خافوا عاقبته استشاروا المنجمين ، فينظرون في حال الفلك واقترانات الكواكب ثم يشيرون بموافقة ذلك العمل او عدمها . وكانوا يعالجون الأمراض على مقتضى حال الفلك ، وكانوا يراقبونها ويعملون بأحكامها قبل الشروع في أي عمل ، حتى الطعام والزيارة . على ان علماء الشرع الاسلامي كانوا يبينون فساد هذا الاعتقاد ويخطئونه ويردونه ، والناس على اعتقادهم ولا يزال بعضهم على ذلك الى اليوم .

علم النجوم أو الفلك

كان للمسلمين حظ وافر في علم النجوم وفضل كبير عليه ، يكفيك انهم جمعوا فيه بين مذاهب اليونان والهند والفرس والكلدان والعرب الجاهلية ، شأنهم في اكثر العلوم الدخيلة . فقد رأيت ان محمد الفزاري نقل السند هند للمنصور ليكون قاعدة علم النجوم عند العرب ، وانه ظل معولهم عليه الى عصر المأمون . وفي ايامه نبغ محمد بن موسى الخوارزمي ، وكان منقطعاً الى بيت الحكمة وله علم واسع في النجوم، فاصطنع زيجاً جمع فيه بين مذاهب الهند والفرس والروم ، فجعل اساسه على السندهند وخالفه في التعاديل والميل، فجعل تعاديله على مذاهب الفرس، وجعل ميل الشمس فيه على مذهب بطليموس،

---

١ – الفرج بعد الشدة ٩٠ ج ١ .

واخترع فيه ابواباً حسنه فاستحسنه أهل عصره وطاروا به في الآفاق ولكنه جعل تاريخه على الحساب الفارسي، فنقله مسلمة بن احمد المرجيطي الاندلسي المتوفي سنة ٣٩٨ هـ الى الحساب العربي، ووضع أواسط الكواكب لأول تاريخ الهجرة. والزيج كتاب فيه جداول حركات الكواكب يؤخذ منها التقويم.

واشتهر منهم في علم النجوم بنو شاكر الثلاثة، وقد تقدم ذكرهم. ومن اعمالهم المأثورة انهم قاسوا للمأمون درجة خط نصف النهار، واستعملوا فيها محيط الارض في حديث ذكره ابن خلكان وغيره. وقد ألف بنو شاكر كتباً جليلة في الفلك والهندسة، ونبغ في عصرهم أبو معشر البلخي المتوفي سنة ٢٧٢ هـ، كان معاصراً للكندي يغري به العامة ويشنع عليه بعلوم الفلاسفة، فدس له الكندي من حسن له النظر في الرياضيات فدخل ذلك واستغرق فيه واتصل بعلم النجوم وألف فيه كثيراً. ومنهم حنين بن اسحق العبادي المترجم الشهير، وثابت بن قرة الحراني المتوفي سنة ٢٨٨ هـ، وأحمد بن كثير الفرغاني، وسهل بن بشر كان يخدم طاهر بن الحسين، ومحمد بن عيسى الماهاني، ومحمد بن جابر الحراني المعروف بالبتاني، وكان صابيا اصطنع زيجا عرف بالزيج الصابي وهو نسختان الثانية أصح. ابتدأ بالرصد سنة ٢٦٤ الى سنة ٣٠٦ هـ، وأثبت الكواكب في زيجه سنة ٢٩٩ هـ، وكان أوحد عصره في فنه وتوفي سنة ٣١٧ هـ [١] وغيرهم. يليهم في القرن الرابع والخامس أبو الوفاء البوزجاني والبيروني ومعاصروه كثيرون. وامام فلكيي القرن السابع للهجرة نصير الدين الطوسي، ونبغ في عصره المؤيد العرضي وابنه محمد، والفخر المراغي بالموصل، والفخر الخلاطي بتفليس، ونجم الدين القزويني [٢] وغيرهم في عصور اخرى، وتفصيل مؤلفاتهم ووصفها من شؤون «تاريخ آداب اللغة»، وانما يهمنا في هذا المقام النظر فيما احدثه التمدن الاسلامي في علم الفلك.

وأول ما يستلفت انتباهنا من هذا القبيل ان العرب (او المسلمين) قالوا بابطال صناعة التنجيم المبنية على الوهم [٣] ولعلهم أول من فعل ذلك وان كانوا لم يستطيعوا ابطالها، ولكنهم مالوا بعلم النجوم نحو الحقائق المبنية على المشاهدة والاختبار كما فعلوا بعلم الكيمياء، وكانوا كثيري العناية بعلم الفلك يرصدون الافلاك ويؤلفون الازياج ويقيسون

---

١ – الفهرست ٢٧٩ . ٢ – ابو الفرج ٥٠١ . ٣ – ابن خلدون ٤٥٧ ج ١ .

العروض ويراقبون السيارات ، ويرتحلون في طلب ذلـــك العلم الى الهند وفارس ، ويتبحرون في كتب الاوائل ويتممون ما نقص منها او يجمعون بين مذاهبها . ولعلم الفلك عند العرب تاريخ طويل لا يسعه هذا المكان ، فنذكر اولاً المراصد ثم نأتي على أمثلة ممـا استنبطوه في هذا العلم .

المراصد

الرصد اساس علم الفلك وعليه المعول في تعيين اماكن النجوم وحركاتهـا ، وكان له شأن كبير عند اليونان فرصدوا الكواكب واصطنعوا آلات الرصد . وفي القرن الثالث قبل الميلاد بنوا مرصداً في الاسكندرية بلغ قمة ارتقائه على عهد بطليموس القلوذي صاحب المجسطي . وظل المرصد الاسكندري وحيداً في العالم ، حتى نهــض العرب وانشأوا المراصد في بغداد ودمشق ومصر والاندلس ومراغة وسمرقند وغيرها كما سيجيء .

آلات الرصد

وللرصد آلات كان منها في عهد التمدن الاسلامي بضعة عشر شكلا تختلف باختلاف الغرض منها ، وهاك اهمها :

(١) اللبنة : وهي جسم مربع مستو ، يستعلم بــه الميل الكلي وابعاد الكواكب وعرض البلد .

(٢) الحلقة الاعتدالية : هي حلقة تنصب في سطح دائرة المعدل ، ليعلم بها التحويل الاعتدالي .

(٣) ذات الاوتار : هي اربع اسطوانات مربعة تغني عن الحلقة الاعتدالية ، ويعلم بها تحويل الميل .

(٤) ذات الحلق : هي اعظم الآلات هيئة ومدلولا . وتركب من حلقة تقوم مقـام منطقة فلك البروج ، وحلقة تقوم مقام المـارة بالاقطاب ، تركب احداهما في الاخرى بالتصنيف والتقطيع . وحلقة الطول الكبرى وحلقة الطول الصغرى تركب الاولى في محدب المنطقة والثانية في مقعرها . وحلقة نصف النهار وقطر مقعرها مساو لقطر محدب حلقة الطول الكبرى . ومن حلقــة الأرض قطر محدبها قدر قطر مقعر حلقة الطول الصغرى . وهي توضع على كرسي .

(٥) ذات السمت والارتفاع : هي نصف حلقة قطرها سطح من سطوح اسطوانة متوازية السطوح ، يعلم بها السمت وارتفاعه ، وهي من مخترعات الرصاد الاسلاميين .

(٦) ذات الشعبتين : هي ثلاث مساطر على كرسي ، يعلم بها الارتفاع .

(٧) ذات الجيب : هي مسطرتان منتظمتان انتظام ذات الشعبتين .

(٨) المشتبهة بالناطق : لمعرفة ما بين الكوكبين من البعد ، وهي ثلاث مساطر .

(٩) الاسطرلاب : وهو انواع كثيرة ، منهـا : التام ، والمسطح ، والطوماري ، والهلالي، والزورقي، والعقربي، والآسي، والقوسي، والجنوبي، والشمالي، والمبطح، والمسرطق ، وحق القمر ، والمغني ، والجامعة ، وعصا موسى . ناهيـك من آلات الرصد بالارباع واشكالها ، ولكل شكل تنوعات مما لا يحصيه عد[١] .

المراصد في الاسلام

لما اشتغل المأمون في نقل علوم الأوائل الى العربية، ووقف العلماء على كتاب المجسطي وفهموا صور آلات الرصد الموصوفة به ، نزعت به همته الى السير على منهاجـه ، فجمع علماء النجوم في عصره وامرهم ان يصنعوا آلات يرصدون بها الكواكب كما فعل بطليموس صاحب المجسطي ، ففعلوا وتولوا الرصد بها بالشماسية في بغداد وجبل قيسون في دمشق سنة ٢١٤ هـ[١] ولما توفي المأمون سنة ٢١٨ هـ توقفوا عن العمل وقيدوا ما كانوا قـد تبينوه من رصدهم وسموه الرصد المأموني . وكان الذين تولوا ذلـك يحيى بن أبي منصور كبير المنجمين في عصره ، وخالد المروزي ، وسند بن علي ، والعباس بن سفيد الجوهري، فألف كل منهم في ذلك زيجا منسوباً اليه . وارصاد هؤلاء اول الارصاد في الاسلام[٢] .

ثم بنى بنو شاكر مرصداً في بغداد على طرف الجسر عند اتصاله بالطاق ، ورصدوا الكواكب فيه واستخرجوا حساب العروض الاكبر من عروض القمر[٣] وبنى شرف الدولة ابن عضد الدولة رصداً في طرف بستان دار المملكة في اواسط القرن الرابع للهجرة، وقد رصد فيه الكواكب السبعة ابو سهل الكوهي[٤] .

---

١ ـ أبجد العلوم ٣٤٢ . ٢ ـ كشف الظنون ٥٧٢ ج ١ .
٣ ـ فوات الوفيات ١٥١ ج ١ . ٤ ـ ابو الفرج ٢٠٧ .

ولما ضعف شأن الخلافة في بغداد وتشعبت المملكة العباسية الى فروع ، تحولت الهمم الى تلك الفروع واكبرها المملكة المصرية في ايام الفاطميين ، فأنشأوا رصداً (او مرصداً) على جبل المقطم عرف بالرصد الحاكمي ، نسبة الى الحاكم بأمر الله المتوفي سنة ٤١١ ﻫ ، وفيه استخرج علي بن يونس الزيج الحاكمي[١] ثم اعيد بناء هذا الرصد في ايام الأفضل بن امير الجيوش المتوفي سنة ٥١٥ ﻫ ، وذكر المقريزي خبر انشائه في حديث طويل . وأنشأ بنو الاعلم ببغداد سنة ٤٢٥ ﻫ رصداً عرف باسمهم . وذكر صاحب فوات الوفيات رصداً في حدود الشام سماه البيناني (كذا) .

وما زال الراصد الحاكمي عمدة الراصدين ، حتى نشأ نصير الدين الطوسي على عهد هولاكو التتري ، فبنى مرصداً في مراغة من بلاد تركستان سنة ٦٥٧ ﻫ ، أعد فيه كل ما يلزم من الآلات وانفق فيه الاموال الطائلة ، وانشأ له مكتبة فيها ٤٠٠٫٠٠٠ مجلد[٢] ثم بنى تيمورلنك مرصداً في سمرقند ، وبنى غيرهم مراصد اخرى في اصبهان ومصر والاندلس ، وارصاداً خصوصية او عمومية لم يصل الينا تفصيلها .

علم النجوم والاسلام

وفي هذه المراصد اشتغل المسلمون في رصد الكواكب ووضع الازياج ، واطولها الزيج الحاكمي المتقدم ذكره ، كتبه ابن يونس في اربعة مجلدات وكان عليه تعويل المسلمين بعدما سبقه من الازياج البغدادية . ومن اشهر الازياج زيج الفزاري صاحب المنصور ، وازياج الخوارزمي ، وابي حنيفة الدينوري صاحب رصد اصبهان ، وابي معشر البلخي وضع زيجه على مذهب الفرس ، وزيج أبي السمح الغرناطي المتوفي سنة ٤٢٦ ﻫ ، وزيج أبي حماد الأندلسي ، والزيج الايلخاني لنصير الدين الطوسي ، وزيج ابن الشاطر الانصاري سنة ٧٧٧ ﻫ وغيرهم[٣] وقد اصلحوا في هذه الازياج كثيراً من الارصاد اليونانية .

وللمسلمين طرق جديدة ادخلوها في الرصد من عند انفسهم ، واخترعوا كثيراً من آلاته كذات السمت والارتفاع اللتين تقدم ذكرهما ، وذات الاوتار والمشبهة بالناطق فانهما من اختراع تقي الدين الراصد[٤] . والبديع الاسطرلابي البغدادي المتوفي في اوائل القرن

١ — ابن خلكان ٣٧٥ ج ١ . ٢ — فوات الوفيات ١٤٩ ج ٢ .
٣ — كشف الظنون ١٣ ج ٢ . ٤ — ابجد العلوم ٣٤٢ .

السادس للهجرة زاد في الكرة ذات الكرسي ما كمل عملها بعد ان مرت السنون على نقصها، والف رسالة في ذلك وكمل الآلة الشاملة التي ابتدعها الخجندي وجعلها بعرض واحد، واقام الأدلة على انها لا تكون لعروض متعددة، فنظر فيها البديع المذكور وعملها لعروض متعددة، غير ما اخترعه من المساطر والبراكير وغيرها[١].

وادخل الشيخ شرف الدين الطوسي تحسيناً في الاسطرلاب، فاستنبط ان يقع المقصود من الكرة والاسطرلاب في خط، فوضعه وسماه العصا وعمل فيه رسالة بديعة. وهو اول من اظهر هذا في الوجود، فصارت الهيئة توجد في الكرة وهي جسم وفي السطح وفي الخط ولم يبق غير النقطة[٢] وبين البتاني نقطة الذنب للأرض، واصلح قيمة مبادرة الاعتدالين، وقيمة ميل دائرة البروج على دائرة خط الاستواء، وهو اول من استخدم الجيوب والاوتار في قياس المثلثات والزوايا[٣].

والبيروني اول من استنبط تسطيح الكرة، وقد فصل ذلك في كتابه «الآثار الباقية»[٤] وللبيروني استنباطات جليلة في الفلك والرياضيات، يستدل عليها من قراءة كتابه المذكور من فهرست مؤلفاته في مقدمة ذلك الكتاب. يكفيه انه نقل علوم اليونان الى الهند، ونقل حكمة الهنود الى المسلمين. فقد دخل بلاد الهند واقام فيها عدة سنين، وتعلم من حكمائها فنونهم وعلمهم طرق اليونانيين في فلسفتهم[٥] في ظل السلطان محمود الغزنوي، كما فعل نصير الدين الطوسي في نشر علم النجوم بين المغول في ظل هولاكو التتري، وكما نشره عمر الخيامي بين السلاجقة، ومرجع الفضل في ذلك للاسلام.

فطار خبر فلكيي المسلمين في اقطار العالم، واصبح المرجع اليهم في تحقيق المسائل، فان ملوك الافرنج كانوا يرسلون اليهم في حل المشكلات الفلكية، فيعرضون عليهم المسائل ويطلبون حلها ليس في الاندلس فقط لقربها من بلادهم ولكنهم كانوا يوفدون الوفود الى ممالك الاسلام في الشرق لهذه الغاية. ومما نقله ابن أبي اصيبعة ان الانبرور ملك الافرنج انفذ الى بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل رسولا وبيده مسائل في علم النجوم وغيره، فبعث بدر الدين الى كمال الدين بن يونس في حلها في حديث طويل[٦].

---

١ — تراجم الحكماء.
٢ — ابن خلكان ١٨٥ ج ١.
٣ — القبة الزرقاء ٥.
٤ — البيروني ٣٥٧.
٥ — ابو الفرج ٣٢٥.
٦ — طبقات الاطباء ٣٠٦ ج ١.

ويعترف الاسبان ان العرب علموهم الرقاص (البندول) لقياس الزمن ، ولا يخفى ما بني على الرقاص من الآلات الفلكية وغيرها . على انهم كانوا يعرفون عمل الساعات من قبل ، ويقال ان الرشيد اهدى الملك شارلمان ساعة بديعة تناقل الافرنج خبرها .

ومن فضل العرب على الفلك وسائر الرياضيات انهم نقلوا عن اليونانية كتباً ضاع اصلها بعد نقلها ، وحفظت العلوم في ترجماتها العربية . منها مؤلفات تموخارس وارستلوس وكرويات منيلاوس وكرويات ثاوون وشرحه للمجسطي[١] ولم يقتصر ذلك على كتب الفلك ولكنه تناول كثيراً من العلوم ، حتى كتب الأدب فان كتاب كليلة ودمنة نقله ابن المقفع من الفارسية ، وقد ضاع اصله الفارسي فلما عمد اهل اوربا الى ترجمته نقلوه عن العربية .

الحساب والجبر والهندسة

كان العرب في صدر الاسلام يستنكفون من تعلم الحساب ، لأنه من شأن عمال الخراج اهل الذمة والموالي ، وكانوا يقتصرون على العمل بوصية عمر بتعليم اولادهم الشعر والفروسية والسباحة والمثل . فلما تحضروا ورأوا افتقارهم للحساب مالوا اليه وشاع فيهم قول ابن التوأم : « علم ابنك الحساب قبل الكتاب »[٢] ثم ما لبثوا ان استغرقوا في طلب العلم كله على اختلاف انواعه ، ونقلوه الى لسانهم فكان الحساب في جملة تلك العلوم ، وهو مما اشتغل فيه الفلكيون والمهندسون ونحوهم ، وقلما انفرد واحد منهم بالحساب وحده .

ومن اكبر مآثر التمدن الاسلامي في الرياضيات نقلهم الحساب الهندي والارقام الهندية من الهند الى سائر اقطار العالم . فالعرب يسمونها ارقاماً هندية لأنهم نقلوها عن الهنود ، والافرنج يسمونها عربية لأنهم اخذوها عن العرب[٣] واول من تناول تلك الارقام من الهنود ابو جعفر محمد بن موسى الخوازمي[٤] ومن اسمه اشتق الافرنج لفظ Algorism الافرنجية .

---

١ — القبة الزرقاء ٥ .　　٢ — البيان والتبيين ١٢٣ ج ١ .
٣ — راجع كتابنا « الفلسفة اللغوية » ، الطبعة الثانية ١١٦ .　　٤ — تراجم الحكماء (خط) .

واما الجبر فللعرب فضل كبير في وضعه أو تأليفه ، فقد رأيت في كلامنا عن نقل العلوم اليونانية ان العرب نقلوا كتابين في الجبر ، احدهما لذيوفانتوس والآخر لابرخس . وقد وجد الباحثون بعد نهضة التمدن الحديث ان ما كتبه هذان ليس من الجبر في شيء ، او هي اصول ضعيفة لا يعتد بها ، وهم يعتقدون ان الجبر من موضوعات العرب . والحقيقة على ما نرى ان العرب بعد ان اطلعوا على حساب الهنود اضافوا الى ما نقلوه عن اليونان ، وبنوا على ذلك علم الجبر. ومن اشهر كتب المسلمين في الجبر كتاب الجبر والمقابلة للخوارزمي المذكور ، فالظاهر ان الخوارزمي جمع بين ما عثر عليه من الاصول الجبرية عند اليونان والهنود والفرس واليونان . وقد عني العرب بشرح كتاب الخوارزمي مراراً . والف ايضاً في الجبر ابو كامل شجاع بن اسلم ، وابو الوفاء البوزجاني، واكثر مؤلفاته في الحساب، وابو حنيفة الدينوري المتوفي سنة ٢٨١ هـ ، وابو العباس السرخسي المتوفي سنة ٢٨٦ هـ وغيرهم . ولما نهض الافرنج في تمدنهم الحديث اخذوا الجبر عن العرب .

ومما احدثه المسلمون في الهندسة انهم طبقوها على المنطق ، وقد فعل ذلك ابن الهيثم في اوائل القرن الخامس للهجرة ، فانه الف كتاباً فيه الاصول الهندسية والعددية من اقليدس وابلونيوس ، ونوع فيها الاصول وقسمها وبرهن عليها ببراهين نظمها من الامور التعليمية والحسية والمنطقية ، حتى انتظم ذلك مع انتقاص توالي اقليدس وابلونيوس ، وادخل في الجبر والحساب اساليب جديدة في استخراج المسائل الحسابية من جهتي التحليل الهندسي والتقدير العددي وعدل فيه عن اوضاع الجبريين والفاظهم[١] .

والحسن بن موسى بن شاكر اشتغل في استخراج مسائل هندسية لم يستخرجها احد من الاولين ، كقسمة الزاوية الى ثلاثة اقسام متساوية ، وطرح خطين بين خطين ذي توال على نسبة (كذا) ، وكان يحللها ويردها على المسائل الاخرى ولا ينتهي الى آخر امرها لأنها أعيت الاولين[٢] .

الفنون الجميلة

الفنون الجميلة تسمية جديدة لما تنبسط له النفس من المصنوعات لجماله ورونقه لا لمنفعته

---

١ – طبقات الاطباء ٩٣ ج ٢ ٢ – تراجم الحكماء .

ومتانته ، والفنون التي تدخل في اعتبارهم تحت هذه التسمية قسمان : الأول تظهر أشكاله محسوسة كالحفر والتصوير والنحت والتمثيل (وتسمى الآن الفنون التشكيلية) ، والثاني ما لا يحس ولا يرى بل هو من قبيل الخيال كالشعر والموسيقى . او ان الفنون المذكورة ترجع بكليتها الى التصوير ولبعضها صور محسوسة كالمنحوتات والمرسومات، وللبعض الآخر صور خيالية كالشعر والموسيقى . والامم التي تمدنت قبل الاسلام اشتغلت في هذه الفنون على تفاوت في اتقانها . وممن أجاد فيها المصريون واليونان والرومان ، فانهم نحتوا التماثيل وصوروا الصور ومثلوا الحوادث ونظموا الشعر وضبطوا الالحان .

ومن الاعتقادات الشائعة ان التمدن الاسلامي مقصر في هذه الفنون ، لأنه لم يخلف ما خلفه اليونان او الرومان من الآثار الجميلة كالابنية والتماثيل والصور ونحوها . ولو دققنا النظر لرأينا المسلمين او العرب من اكثر الأمم استعداداً للفنون الجميلة والاجادة فيها لا يقلون شيئاً عن اليونان والرومان ، وربما فاقوهما في بعضها . أما الجمال المحسوس فقد اجادوا فيما يتعلق منه بالبناء ، ولهم نمط خاص فيه مشهور ، ومن آثارهم البنائية الحمراء في الاندلس وجوامع القاهرة والشام وفارس والهند ، وهي تدل على تقدم عظيم في هندسة البناء ، مع ما فيها من زخارفه كالفسيفساء ونحوها مما يدهش النظر . ولهم نحو ذلك في الصياغة والنسيج ونحوهما من الصنائع الجميلة . اما التصوير فلم يشتغلوا فيه لأنه محرم عندهم كما هو معلوم .

أما الشعر فقد بينا فيما تقدم ان العرب اكثر الامم انطباعاً على الشعر واتقاناً له واكثرهم نظماً واوسعهم خيالاً .

الموسيقى

واما الموسيقى فالعرب فاقوا سواهم فيها ، وقد وضعوا الالحان واخترعوا الآلات المطربة واتقنوا صنعها ، وكان للموسيقى شأن كبير . والمشهور ان العرب كان عندهم من الالحان شيء يوافق سذاجتهم وخشونة الجاهلية ، فلما ظهر الاسلام واختلطوا بالروم والفرس اقتبسوا الموسيقى عن تلك الامم قبل سائر العلوم الدخيلة ، لأن اقتباسها لا يحتاج الى نقل او ترجمة . واول من فعل ذلك عبد مكي اسمه سعيد بن مسجح ، كان حسن الصوت مغرماً بالموسيقى ، وكان في مكة عند حصار الامويين لها على عهد عبدالله بن الزبير في الثلث الأخير من القرن الأول للهجرة . واستخدم ابن الزبير بعض رجال الفرس في ترميم الكعبة ، فسمع ابن مسجح بعضهم يغني بالفارسية فطرب والتقط النغم منه ، ثم رحل الى

الشام وفارس وأخذ الالحان الرومية والفارسية ، والقى منها مـــا استقبحه من النبرات والنغم مما لا يألفه الذوق العربي ، وغنى على هذا المذهب. وهو اول من فعل ذلك ،وأخذ عنه من جاء بعده من مغنيي المسلمين ، فنبغ منهم جماعة كبيرة . وكان الغناء يزداد اتقاناً ويزداد نبوغ المغنين كلما قربت الدولة من الترف والقصف ولذلك كثروا في اواخر الدولة الأموية واواسط الدولة العباسية . ومن اشهر المغنين إبن سريج والغريض ومعبد وحكم الوادي وفيلج بن ابي العوراء وسياط ونشيط وعمر الوادي وابراهيم الموصلي وابنه اسحق وغيرهم من المغنيات جميلة وحبابة وسلامة وعقيلة وغيرهن .

ولما اشتغل المسلمون في نقل العلوم الدخيلة ، كان من جملتها كتب الموسيقى لليونان والهند ، فتناولها المسلمون ودرسوها واصبحت الموسيقى علماً عندهم بأصول ، وقــد جمعوا بين الحان اليونان والهنود والفرس والعرب ، فالفوا من ذلك علماً خاصاً بالتمدن الاسلامي بلغ درجة حسنة من الاتقان . فألفوا فيه المؤلفات ، فضلاً عمـا استنبطوه من الالحان او اخترعوه من الآلات . وكان للخلفاء عناية كبرى بالغناء ، يبذلون الاموال في سبيل تنشيطه كما هو مشهور . وكانوا يشترطون في المغني ان يكون حافظـاً للأشعار والنوادر ، يحسن النحو والاعراب ، فكان المغنون في الدولة العباسية من احاسن اهــل الادب ، وفيهم من يحسن الفقه فضلاً عن الأدب واللغة ، كابراهيم بن اسحاق الموصلي[١] وغيره وبعضهم كان عالماً بالنجوم مثل زرياب المغني. وكثيراً ما كان الخلفاء يجمعون المغنين للمناظرة بينهم في التلحين[٢] ويجيزون المجيدين ويغدقون عليهم الرواتب والجواري ، فقد كان راتب الموصلي عند الهادي ١٠٫٠٠٠ درهم في الشهر ، غير الصلات وغلات الضياع وغيرها[٣] ولما قدم زرياب المغني من العراق الى الاندلس ركب الامير عبدالرحمن بنفسه للقائـه[٤] .

وقد أدخل الموسيقيون في فن الموسيقى ألحاناً لم تكن من قبل ، وفيهـا ما لم يسبق له مثيل في تأثيره . ذكروا منها الحاناً لا يقدر الشبعان الممتلىء على غنائها ، ولا سقاء يحمل قربة على الترنم بها ، واخرى لا يقدر المتكىء ان يغنيها حتى يقعد مستوفزاً ، ولا القاعد حتى يقوم[٥] .

---

١ — ابن خلكان ٦٦ ج ١ .
٢ — حلبة الكميت ١٨٠ .
٣ — حلبة الكميت ٦٣ .
٤ — نفح الطيب ١٦٣ ج ١ .
٥ — الاغاني ٢٠ ج ١ .

والآلات الموسيقية اخذوا اكثرها عن الفرس والانباط والروم والهند ، فقد كان لكل من هذه الأمم آلات خاصة يتغنون بها . كان غناء الفرس بالعيدان والصنوج ، وغناء اهل خراسان بالزنج ذات سبعة اوتار ، ايقاعه يشبه ايقاع الصنج . وغناء اهل طبرستان والديلم بالطنابير . وغناء الانباط والجراجمة بالعيروارات ، وهي كالطنابير . والروم كان غناؤهم بآلة يسمونها الاوعر عليها ١٦ وتراً ، والسلبان له ٢٤ وتراً ، واللوزا وهي كالرباب من خشب لها خمسة اوتار ، والقيثارة ولها ١٢ وتراً والصليح من جلود العجاجيل ، والأرغن وهو منافخ من الجلود . وكان للهند الكيلكة بوتر واحد يمد على قرعة فيقوم مقام العود والصنج . وكان عند العرب الدف والمزهر . فالمسلمون جمعوا بين هذه الآلات الكثيرة ، كما جمعوا بين علوم تلك الامم واستخرجوا أحسنها وزادوا فيها وحسنوها ، فضلا عما استنبطوه من عند انفسهم كالآلة المعروفة بالقانون ، فقد اخترعها الفارابي الفيلسوف ، وهو من ركبها هذا التركيب ولا تزال عليه الى الآن .

واصطنع الفارابي آلة مؤلفة من عيدان ، يركبها ويضرب عليها وتختلف انغامها باختلاف تركيبها ولكنها على اي حال غريبة في بابها . ذكروا ان الفارابي حضر مجلس غناء لسيف الدولة ، ولم يكن احد من الحضور يعرفه ، فعاب المغنين فسأله سيف الدولة : هل يحسن الغناء ؟ ففتح خريطة واستخرج تلك الآلة وركبها ثم لعب بها ، فضحك منها كل من كان في المجلس ، ثم فكها وركبها تركيباً آخر وضرب عليها فبكى كل من كان في المجلس ، ثم فكها وغير تركيبها وضرب ضرباً آخر فنام كل من كان في المجلس ، حتى البواب ، فتركهم نياماً وخرج [١]

وزاد المسلمون في العود وتراً خامساً ، زاده زرياب بالاندلس ، وكان للعود اربعة اوتار على الصنعة القديمة التي قوبلت بها الطبائع الاربع ، فزاد عليها وتراً خامساً احمر متوسطاً ، ولون الاوتار وطبقها على الطبائع . وهو الذي اخترع مضراب العود من قوادم النسر ، وكانوا قبله يضربون بالخشب . وعباس بن فرناس في الاندلس اصطنع الآلة المعروفة بالمثقال ، يعرف بها الاوقات على غير رسم ومثال[٢] .

وبالجملة ان العرب لم يقصروا في الفنون الجميلة ، بل هم فاقوا سواهم في اكثرها وانما قصروا في بعضها مراعاة للدين .

---

١ – ابن خلكان ٧٧ ج ٢ .   ٢ – نفح الطيب ٧٨٣ ج ٢ .

المدارس في الاسلام

التعليم

قد رأيت فيما تقدم ان القرآن اساس العلوم الاسلامية، فتعليمه اساس التعليم الاسلامي، واول دروس القرآن قراءته. فأول المعلمين في الاسلام النبي (صلعم) علمه للصحابة، وهم علموه للناس مع ما ترتب عليه او تفرع عنه من العلوم. ولهذا السبب كانت مدارس المسلمين في جوامعهم كما كانت مدارس النصارى في اديرتهم وكنائسهم. وكانوا يسمون التلامذة المجتمعين حول استاذ يتلقون علماً من العلوم « حلقة ». وتفرعت العلوم بتوالي الاعوام واتسعت دوائرها، حتى اصبح للعلم الواحد عدة حلقات، والغالب ان تنسب الحلقة الى استاذها، فيقولون مثلاً : حلقة ابي اسحق الشيرازي في جامع المنصور او نحو ذلك. وكانوا يجعلون في كل جامع خزانة كتب للمطالعة او الاستنساخ.

على ان التعليم لم يكن خاصاً بالمساجد، فكثيراً ما كانوا ينشئون حلقات التدريس في المارستانات او الربط او المنازل او غيرها. وكان الاغنياء اذا ارادوا تعليم اولادهم احضروا المعلمين الى منازلهم، كذلك كان يفعل الخلفاء والامراء، ولا يزال اهل الوجاهة يفعلون ذلك الى اليوم.

واشهر الجوامع في التدريس على الاطلاق الجامع الأزهر في القاهرة، فقد بني مع القاهرة في اواسط القرن الرابع للهجرة، وكانت تلقى فيه دروس القرآن والفقه على جاري العادة في سائر الجوامع. وكان جماعة من الطلبة يقيمون فيه ويسمون المجاورين، ومنهم من جاء من اقاصي البلاد الاسلامية حتى تركستان والهند وزيلع وسنار، ولكل طائفة منهم رواق باسمها كرواق الشوام او المغاربة او العجم او الزيالعة او السنارية او اليمنية او الهندية، فضلاً عن اروقة اهل الصعيد. وبلغ عدد تلامذة الأزهر في اوائل القرن التاسع للهجرة ٧٥٠ طالباً من طوائف مختلفة، وكانوا يقيمون في الجامع ومعهم صناديقهم وخزائنهم، يتعلمون فيه الفقه والحديث والتفسير والنحو والمنطق ويحضرون مجالس الوعظ وحلق الذكر. وربما بات في الجامع كثيرون من غير الطلبة للتبرك او المأوى، وللجامع المذكور تاريخ طويل ترى تفصيله في خطط المقريزي والخطط التوفيقية. على ان حاله كانت تختلف باختلاف المذهب السائد بمصر وباختلاف مناقب الحكام. وبلغ عدد مجاوريه

في عهد العائلة الخديوية بضعة عشر الفاً ، والهمة مبذولة في ادخال بعض العلوم الحديثة فيه .

المدارس

ومما لاحظناه من أمر التعليم في التمدن الاسلامي ان العلم نضج على اختلاف وجهاته واثمر ، ونبغ العلماء والفقهاء والاطباء والفلاسفة ، وليس في الاسلام مدرسة مستقلة نحو مدارس هذه الايام . وقد اجمع المؤرخون المسلمون تقريباً على ان اول من بنى المدارس في الاسلام نظام الملك الطوسي وزير ملك شاه السلطان السلجوقي ، في اواسط القرن الخامس للهجرة . ومن الغريب ان ينقضي العصر العباسي ، ويتم نقل الكتب وينضج العلم على اختلاف موضوعاته دون ان ينشىء المسلمون مدرسة ، او ينشئوا المدارس ولا يرد ذكرها في تاريخهم . ولكننا رأينا الافرنج يذكرون للمسلمين مدرسة انشأها المأمون في خراسان وهو وال هناك[١] ولا ندري من اين نقلوا ذلك ولم نر له ذكراً في كتب العرب التي طالعناها . على اننا رأينا فيما ذكره المسلمون عدة مدارس انشئت في نيسابور عاصمة خراسان قبل زمن نظام الملك ، منها مدرسة ابن فورك المتوفي سنة ٤٠٦ [٢] والمدرسة البيهقية نسبة الى البيهقي المتوفي سنة ٤٥٠هـ..والمدرسة السعيدية بناها نصر بن سبكتكين اخو السلطان محمود الغزنوي الشهير ، ومدرسة بناها اسماعيل الاسترابادي الصوفي الواعظ ، واخرى بنيت للاستاذ ابي اسحق[٣] وكل هذه المدارس بنيت قبل بناء المدرسة النظامية في بغداد . حتى نظام الملك نفسه بنى مدرسة بهذا الاسم في نيسابور ايضاً قبل مدرسة بغداد ، بناها لامام الحرمين في سلطنة الب ارسلان[٤] فلعل السبب في اشتهار اسبقية نظام الملك في انشاء المدارس الاسلامية انه اول من بنى مدرسة كبرى في بغداد ، وجعل التعليم فيها مجاناً ، وفرض لتلامذتها الارزاق والجواري والمعاليم .

وعلى اي حال فان اول من بنى المدارس في الاسلام الامراء الاعاجم ، واذا صحت رواية الافرنج عن مدرسة المأمون في خراسان (او نيسابور) فقد بنيت في بلاد اعجمية لغرض اعجمي ، وإلا فلماذا لم يبن المأمون مثلها في بغداد لما تولى الخلافة واشتغل في نقل العلوم ؟.. فما هو السبب في اختصاص انشاء المدارس في الاسلام بغير الخلفاء ؟

---

١ – Encyclopaedia Brit. art. Al-Mamun .   ٢ – ابن خلكان ٤٨٢ ج ١ .
٣ – السيوطي ١٨٥ ج ٢ .   ٤ – ابن خلكان ٢٨٧ ج ١ .

قد رأيت فيما تقدم منزلة العلماء المسلمين عند الخلفاء والامراء ، لارتباط السياسة بالدين عندهم ، ولأن العلماء هم حملة الدين والداعون اليه . فكان العلماء في اوائل الاسلام يشاركون الخلفاء في النفوذ على العامة ويساعدونهم فيه . فلما ضعف شأن الخلفاء، وأفضت الحكومة الى السلاطين والأمراء من الفرس والاتراك والديلم والاكراد وغيرهم ، اصبح هؤلاء في حاجة الى اكتساب قلوب العامة لتأييد سلطانهم بما يقوم مقام نفوذ الخلفاء الديني. وأقرب السبل المؤدية الى ذلك الاحسان الى الفقراء واكرام العلماء . فأصبح السلطان او الأمير اذا تولى بلداً وكان حكيماً عاقلاً ، فأول ما يسعى فيه تقريب العلماء والفقهاء واسترضاء العامة بانشاء الجوامع والربط والمارستانات ونحوها ، وتعيين الرواتب والارزاق للعلماء والفقراء وغيرهم ، فيكتسبون بذلك ثقة العامة ورضى الخاصة ، غير ما يرجونه من الثواب . كذلك فعل ابن طولون بمصر ، وعضد الدولة في بغداد ، ونورالدين في الشام، وصلاح الدين بمصر .

وذلك ايضاً مما حمل نظام الملك على انشاء المدارس ، لانه وزر للسلطان الب ارسلان عشر سنين ، وكان بمنزلة والده وله النفوذ الاكبر عنده ، فلما توفي الب ارسلان وازدحم اولاده على الملك،وطد المملكة لولده ملك شاه فصار الأمر كله لنظام الملك وليس للسلطان غير التخت والصيد . اقام على ذلك عشرين سنة ، وكانت طائفة الباطنية قد استفحل أمرها في ذلك العصر وكثر المتزاحمون على السلطة . وكان نظام الدين عاقلا حكيماً ، فبذل جهده في استمالة الاعداء وموالاة الاولياء ، فأكثر من الاحسان حتى عم العدو والصديق والبغيض والحبيب . وكان من اهم مساعيه في ذلك انه بنى دور العلم للفقهاء ، وانشأ المدارس للعلماء ، واسس الرباط للعباد والزهاد واهل الصلاح والفقراء ، ثم اجرى الجرايات والنفقات لطلبة العلم وغيرهم . وعم بذلك سائر اقطار مملكته في الشام وديار بكر والعراقين وخراسان الى سمرقند ، فلم يكن فيها حامل علم او طالبه او متعبد او زاهد إلا وكرامة نظام الملك شاملة له سابغة عليه ، وقدروا ما كان ينفقه في هذا السبيل فبلغ ٩٠٠٠٠٠ دينار في السنة . فوشى به بعضهم الى السلطان وقالوا : « ان الاموال التي ينفقها نظام الملك في ذلك تقيم جيشاً يركز رايته في سور القسطنطينية » فعاتبه ملك شاه في ذلك فأجابه : « يا بني انا شيخ أعجمي ، لو نودي علي فيمن يزيد لم احفظ خمسة دنانير . . وانت غلام تركي ، لو نودي عليك عساك تحفظ ثلاثين ديناراً . . وانت مشتغل بلذاتك منهمك في شهواتك ، واكثر ما يصعد الى الله تعالى معاصيك دون طاعتك ، وجيوشك الذين تعدهم للنوائب اذا احتشدوا كافحوا عنك بسيف طوله ذراعان وقوس

لا ينتهي مدى مرماها ثلثمائة ذراع ، وهم مع ذلـــك مستغرقون في المعاصي والخمور والملاهي والمزمار والطنبور ... وانا أقمت لك جيشاً يسمى جيش الليـــل ، اذا نامت جيوشك ليلا قامت جيوش الليل على اقدامها صفوفاً بين يدي ربهم ،فأرسلوا دموعهم واطلقوا السنتهم ومدوا الى الله اكفهم بالدعاء لـــك ولجيوشك .. فأنت وجيوشك في خفارتهم تعيشون ، وبدعائهم تبيتون وببركاتهم تمطرون وترزقون .. » فقبل ملك شاه وسكت[١] وتوفي نظام الملك مقتولا سنة ٤٨٥ .

ومن الاسباب التي كانت تحمل الامراء غير العرب على انشاء المدارس والمساجد ، غير التماس الاجر والثواب ، انهم كانوا ينشأون في بـــلاط السلطان ويغلب ان يكونوا من صنائعه او مواليه ، فيكون له عليهم حق الولاء او الرق . فاذا توفي احدهم عن مال او ضياع واراد السلطان قبضها فعل وحرم ابناءه منها . فكان الرجل منهم اذا بلغ الامارة وكثر ماله خاف عادية السلطان على ما يخلفـــه من ذريته ، فيبني المدارس او الزوايا او الربط ، ويقف عليها الاوقاف المغلة من ضياعه او ابنيته ، ويجعل في شروط الاوقاف ان يتولاها بعض ولده وله نصيب منها ، والاوقاف ثابتة فيؤمن بذلك على اولاده الفقر .

وكان من اسباب انشاء المدارس ايضاً تأييد المذهب الذي يتبعه السلطان او الامير ، فقد كانت القاهرة شيعية منذ بنيت ، وكانت الدروس التي تلقى في الجـــامع الازهر على مذهب الشيعة ، فلما تولاها صلاح الدين الأيوبي ابطل هذا المذهب واحيا المذهبين المالكي والشافعي ، فأنشأ المدارس لتعليم هـــذين المذهبين فبنى المدرسة الناصرية سنة ٥٦٦ ه للمذهب الشافعي ، وهي اول مدرسة حدثت بمصر[٢] واقتدى به من جـاء بعـده من الاكراد والاتراك .

ومهما يكن السبب ، فلا خلاف في ان نظام الملك اول ما اشتهر بانشاء المدارس في الاسلام في اواسط القرن الخامس للهجرة . فبنى المدارس في بغداد واصبهان ونيسابور وهراة وغيرها ، وكل منها تنعت بالنظامية نسبة اليه ، اشهرها المدرسة النظامية في بغداد تولى بناءها سعيد الصوفي سنة ٤٥٧ ه على شاطىء دجلة وكتب عليها اسم نظام الملك ، وبنى حولها أسواقاً تكون محبسة عليها وابتاع ضياعاً وخانات وحمامات وقفها عليها ، فبلغت النفقة ما يقارب ٦٠٫٠٠٠ دينار .

---

١ – سراج الملوك ٢٦٧ .　　٢ – الخطط التوفيقية ٨٧ ج ١ .

وكان للمدرسة المذكورة شأن كبير في العالم الاسلامي ، وقد تخرج فيها جماعة من رجال العلم طار ذكرهم في الآفاق . واول اساتذتها الشيخ ابو اسحق الشيرازي ، ثم الامام ابو نصر الصباغ صاحب الشامل ، ثم ابو القاسم الدبوسي ، وابو حامد الغزالي ، والشاشي ، والكيا الهراسى ، والسهروردي ، وكمال الدين الانباري وغيرهم من اقطاب العلم. فأصبح التعليم في هــذه المدرسة من اكبر اسباب الثقة بالمعلمين ، وكانت تعلم فيها العلوم الدينية والفقهية واللسانية .

واقتدى السلاطين والأمراء بنظام الملك في انشاء المدارس المجانية على هذه الصورة في انحاء المملكة الاسلامية ، واشهرهم على الترتيب السلطان نورالدين زنكي صاحب دمشق المتوفي سنة ٥٧٧ هـ ، وهو تركي الأصل بنى المدارس في جميع بلاد الشام وغيرها مثل دمشق وحلب وحماه وحمص وبعلبك ومنبج والرحبة ، غير ما بناه من المارستانات والمساجد ودور الحديث والربط . ثم السلطان صلاح الدين المتوفي سنة ٥٨٩ وهو كردي بنى المدارس في مصر والاسكندرية والقدس وغيرها ، ثم الملك المعظم مظفر الدين صاحب اربل المتوفي سنة ٦٣٠ هـ ، فقد بنى كثيراً من المدارس ودور الايتام واللقطاء والارامــل وغيرها . واقتدى بالسلطان صلاح الدين من خلفه من اهله في مصر ، فتسابقوا الى انشاء المدارس فيها فبلغ عددها بعد انقضاء ملكهم ٢٥ مدرسة . ولما افضى الملك الى السلاطين المماليك ساروا على خطواتهم واقتدى بهم الاغنياء ، فبلغ عدد ما انشأوه بمصر الى ايام المقريزي في اواسط القرن التاسع للهجرة ٤٥ مدرسة وصار المجموع ٧٠ مدرسة . ويقال نحو ذلك في الاصقاع الاخرى . واول من انشأ المدارس في الدولة العثمانية السلطان اورخان المتوفي سنة ٧٦١ هـ ، واقتدى به سلاطين آل عثمان في انشائها ، واشهرها المدارس الثماني التي انشأها السلطان سليمان[1] .

وجاء في رحلة ابن جبير الذي طاف الشرق الاسلامي في القرن السادس انه شاهــد عشرين مدرسة في دمشق و٣٠ في بغداد . اما الاندلس فقد نقل الامير علي صاحب تاريخ الاسلام في الانجليزية ان العرب انشأوا المدارس في قرطبة واشبيلية وطليطلة وغرناطة ومالقة وغيرها ، وان مملكة غرناطة وحدها بلغ عدد مدارسها ١٧ مدرسة كبرى و١٢٠ مدرسة صغرى[2] ولكن يظهر ان مدارس الاندلس انشئت على مثال المدرسة النظامية .

---

١ ـ الشقائق النعمانية ١٠٤ ج ٢ .

٢ ـ Ameer Ali's Short History of the Saracens, 627

قال المقري صاحب نفح الطيب : « وليس لأهل الاندلس مدارس تعينهم على طلب العلم ، بل يقرأون جميع العلوم في المساجد بأجرة ، فهم يقرأون لأن يتعلموا لا لأن يأخذوا جارياً »(١) فترى في عبارة المقري نفياً صريحاً للمدارس في الاندلس ، فالظاهر ان الأمير علياً المذكور نقل كلامه عن الافرنج ، وهؤلاء ربما يعنون مدارس المساجد .

والمدارس في الاسلام على اشكال ، منها حلقات الجوامع والربط والزوايا ، ومنها المدارس المجانية الكبرى للعلوم الاسلامية والمارستانات للطب والفلسفة ، غير ما قد يعقده العلماء من مجالس التعليم في منازلهم . وعدد الطلبة على اي حال يختلف باختلاف شهرة الاستاذ في فنه ، فكان يجتمع في حلقة الفارابي مئات المئين من الطلبة . وقد يكون للأستاذ تلامذة تحتهم تلامذة . ذكروا ان ابا بكر الرازي الطبيب المشهور كان يجلس في مجلسه ودونه التلاميذ ، ودونهم تلاميذهم ، ودونهم تلاميذ أُخر . فكان يجيء الرجل فيصف ما يجد لأول من يلقاه ، فأن كان عندهم علم وإلا تعداهم الى غيرهم ، فإن اصابوا وإلا تكلم الرازي(٢) وكان الاستاذ يزداد شهرة ونفوذاً بازدياد تلامذته ، واذا مشى مشوا حوله وقد يركب وهم مشاة . كان الامام فخرالدين بن خطيب الري إذا ركب مشى حوله ٣٠٠ تلميذ من الفقهاء(٣) . وكان الشيخ الاستاذ اذا قرأ عليه احد كتاباً كتب هو علامته على الكتاب ، شهادة بأنه قرىء عليه . ومن اكثر العلماء تلامذة الشيرازي والفارابي والرازي وابن خطيب الري وابن سينا والغزالي . وكان التعليم شاملاً كل طبقات الناس ، حتى المماليك والجواري والعبيد والمخانيث وغيرهم .

المكتبات او خزائن الكتب

ما برح الناس منذ اخذوا في تدوين اعمالهم واخبارهم وعلومهم وهم يحرصون على استبقاء ما يدونونه ، لأنهم دونوه رغبة في استبقائه . ويعبرون عن المكان الذي يحفظون الكتب فيه بالمكتبة او خزانة الكتب ، واقدم من انشأ المكتبات في العالم البابليون سنة ١٧٠٠ قبل الميلاد ، ومن بقاياهم مكتبة عثر عليها علماء القرن الماضي في خرائب بابل وأشور ، هي عبارة عن قرميدات من الطين المجفف عليها كتابة بالحرف الاسفيني

---

١ – نفح الطيب ١٠٤ ج ١ .

٢ الفهرست ٢٩٩   ٣ – طبقات الاطباء ٢٣ ج ٢

(المسماري) ، يليهم المصريون القدماء فقد وصف ديودورس مكتبة وجدوها في قبرملك مصري اسمه اوسيمندياس . ثم اليونان وهم اول من انشأ المكتبات العامة لفائدة الناس ، واقدم منشئيها بسستراتوس في اواسط القرن السادس قبل الميلاد . وذكر بلوتارخس مكتبة في برجاموس مؤلفة من٢٠٠٠٠٠ مجلد . وانشأ البطالسة مكتبة الاسكندرية الشهيرة . ثم الرومان ، واول مكتباتهم نقلوها عن مقدونية الى رومية سنة ١٦٧ ق.م ، ثم استولوا على مكتبة برجاموس المذكورة سنة ١٣٣ ق.م ، ثم نقلوا مكتبات أثينا سنة ٨٦ ، ولما عظم شأن قسطنطين في القسطنطينية أنشأ فيها مكتبة سنة ٣٥٥ م ، غير ما تقدم ذكره من خزائن الفرس في الرساتيق والأزج . ثم كف الناس عن إنشاء المكتبات حتى تمدن المسلمون وأنشأوا مكتباتهم .

المكتبات الاسلامية

لما ظهر الاسلام ونهض المسلمون للفتح أحرقوا ما عثروا عليه من الكتب لأسباب تقدم بيانها ، لكنهم ما لبثوا أن تحضروا وذاقوا طعم العلم حتى أصبحوا أحرص الناس على الكتب وأكثرهم بذلاً في الحصول عليها وأشدهم عناية في صيانتها . وقد رأيت أن العرب قضوا القرن الأول ونصف القرن الثاني وأبحاثهم قاصرة تقريباً على العلوم الاسلامية ، ولم يدونوها إلا في أواخر تلك المدة . فكان ما يجمعونه من الكتب محصوراً في الأشعار والأخبار والأمثال مكتوبة على الرقوق أو الجلود أو الأنسجة أو نحوها . قالوا أن كتب أبي عمرو بن العلاء كانت تملأ بيته الى السقف، وقالوا نحو ذلك في سائر رواة الأدب والشعر كالأصمعي وحماد وأبي عبيدة .

غير أن ذلك لا يعد من قبيل المكتبات العامة التي انما يقوم بانشائها ولاة الأمور أو من يجري مجراهم . ومرجع الفضل في إنشاء هذه المكتبات الى خلفاء النهضة العباسية ، وان كنا نرى ذكر خزائن الكتب في أيام بني أمية التي أخرج عمر بن عبد العزيز منها كناش هرون ، فتلك على الغالب مما أنشأه الأطباء أو الفلاسفة الذين كانوا في خدمة تلك الدولة لأنفسهم أو لأولادهم .

مكتبات بغداد

أما في الدولة العباسية فكان انشاؤها من جملة أسباب نهضتهم لنقل العلوم ، فأنشأوا

مكتبة في بغداد سموها « بيت الحكمة » الغالب أن الرشيد أنشأها وجمع اليها ما كان قد نقل الى العربية من كتب الطب والعلم ، وما ألف من العلوم الاسلامية ، مع ما سعى يحيى ابن خالد في جمعه من كتب الهند ، وما وقع للرشيد من كتب الروم في أنقره وغيرها . ولما تولى المأمون وأنشأ مجالس الترجمة جمع في بيت الحكمة كتب العلم في لغاتها ، وفيها اليونانية والسريانية والفارسية والهندية والقبطية ، فضلاً عن العربية ، وعلم الناس رغبته في ذلك فأتوه بالكتب على اختلاف موضوعاتها وأشكال خطوطها ، ومنها كتاب ذكر ابن النديم أنه بخط عبد المطلب بن هاشم جد النبي (صلعم) على جلد ، وفيه ذكر حق عبد المطلب « على فلان بن فلان الحميري من أهل صنعاء عليه الف درهم فضة كيلاً بالحديدة ومتى دعاه بها أجابه شهد الله والملكان »[١] .

وكان بيت الحكمة عبارة عن مجلس للترجمة أو النسخ أو الدرس أو التأليف ، فيجلس النساخ في أماكن خاصة بهم ينسخون لأنفسهم او بأجور معينة ، وكذلك المترجمون والمؤلفون والمطالعون . ومن نساخ بيت الحكمة علان الشعوبي أصله فارسي وكان راوية عارفاً بالانساب والمنافرات ، وكان ينسخ في بيت الحكمة للرشيد والمأمون والبرامكة ، وله كتاب في مثالب العرب هتك فيه العرب وأظهر مثالبها[٢] وممن كان يتردد الى بيت الحكمة للمطالعة او التأليف محمد بن موسى الخوارزمي المنجم ، ويحيى بن أبي منصور الموصلي احد اصحاب الارصاد في ايام المأمون ، والفضل بن نوبخت المنجم ، وأولاد شاكر وغيرهم. وكان للبيت المذكور قيم يدير شؤونه يسمى صاحب بيت الحكمة ، واشهر مديريها سهل ابن هارون وهو فارسي شعوبي شديد التعصب على العرب ، وله في ذلك كتب كثيرة . ومنهم سلم وله نقول من الفارسي الى العربي . فترى من ذلك ان البيت او الخزانة المذكورة أنشئت على يد الفرس وخدمتها والمترددون اليها من الفرس ، واكثرهم من الشعوبية الذين يكرهون العرب ، ولذلك سبب متصل بقيام الخراسانيين بنصرة المأمون لاسباب ذكرناها في الجزئين الماضيين من هذا الكتاب .

ثم أنشأ البغداديون المكتبات على مثال بيت الحكمة ، اشهرها مكتبة وقفها سابور بن اردشير وزير بهاء الدولة في محلة بين السورين في الكرخ في سنة ٣٨١ هـ وجعل فيها اكثر من عشرة آلاف مجلد كلها بخطوط الائمة المعتبرة ، وكان المؤلفون يقفون عليها نسخاً من مؤلفاتهم . واحترقت فيما احترق من محال الكرخ عند مجيء طغرل بك اول ملوك

---

١ ـ الفهرست ٥ . ٢ ـ الفهرست ١٠٥ .

السلجوقية الى بغداد سنة ٤٤٧ هـ [١] وممن تولى حفظ ما بقي منها والاشراف عليها عبد السلام البصري اللغوي المتوفي سنة ٤٠٥ هـ [٢] . واشتهر بجمع الكتب من بني العباس الخليفة الناصر بن المستضيء المتوفي سنة ٦٢٢ هـ [٣] .

مكتبات الاندلس

وكان المأمون مثالا في انشاء المكتبات في الممالك الاسلامية ، كما كان مثالا في سائر اسباب النهضة العلمية. فاقتدى به بنو أمية في الاندلس ، واشبههم به الحكم المستنصر بن الناصر الذي تولى الخلافة سنة ٣٥٠ هـ وتوفي سنة ٣٦٦ هـ وكان محباً للعلوم مكرماً لأهلها جماعاً للكتب على انواعها بما لم يجمعه احد من الملوك قبله . فأنشأ في قرطبة مكتبة جمع اليها الكتب في انحاء العالم ، فكان يبعث في شرائها رجالا من التجار ومعهم الاموال ، ويحرضهم على البذل في سبيلها لينافس بني العباس في اقتناء الكتب وتقريب الكتاب . وكان ابو الفرج الاصفهاني صاحب الاغاني معاصراً له ، وهو أموي مثله فبعث اليه ان يرسل اليه كتاب الأغاني قبل اخراجه الى بني العباس ، وبذل له على ذلك الف دينار ذهباً . وفعل نحو ذلك مع القاضي ابي بكر الابهري المالكي في شرحه لمختصر ابن عبد الحكيم وغيره ، فاجتمع له من الكتب ما لم يسبق له مثيل في الاسلام . فجعلوها في قاعات خاصة من قصر قرطبة اقاموا عليها مديراً ومشرفاً ووضعوا لها الفهارس لكل موضوع على حدة . وذكروا ان فهارس الدواوين وحدها ٤٤ فهرساً في كل فهرس عشرون ورقة [٤] فاذا قدرنا الصفحة ٢٥ اسماً فقط كان مجموع عدد الدواوين ٤٤٠٠٠ كتاب ، فكيف بسائر الكتب ؟ ولا نظننا نبالغ اذا سلمنا مع ابن خلدون والمقري ان مجموع ما حوته تلك المكتبة ٤٠٠٠٠٠ مجلد [٥] .

واقتدى بالحكم رجال دولته وعظماء مملكته ، فأنشأوا المكتبات في سائر بلاد الاندلس ، حتى قالوا ان غرناطة وحدها كان فيها سبعون مكتبة من المكتبات العامة ، وأصبح حب الكتب في الاندلس سجية في اهلها وأصبح اقتناؤها من شارات الوجاهة والرئاسة عندهم . وقد يكون الرئيس منهم جاهلا ويحتفل ان يكون في بيته خزانة

---

١ – ابن الاثير ١٤٥ ج ١٠ ومعجم ياقوت ٧٩٩ ج ١ .

٢ – طبقات الادباء ٤١٢ وابن خلكان ٣٥٠ ج ٢ . ٣ – ابن خلدون ١٤٦ ج ٤ .

٤ – ابن خلدون ١٤٦ ج ٤ . ٥ – نفح الطيب ١٨٢ و ١٨٦ ج ١ .

كتب ، ليقال فلان عنده خزانة كتب ، والكتاب الفلاني ليس عند احد غيره ،والكتاب الذي هو بخط فلان قد حصله وظفر به . قال الحضرمي : « اقمت مرة بقرطبة ولازمت سوق كتبها مدة اترقب فيه وقوع كتاب كان لي بطلبه اعتناء ، الى ان وقع وهو بخط فصيح وتفسير مليح ففرحت به اشد الفرح ، فجعلت أزيد في ثمنه فيرجع الى المنادى بالزيادة علي ، الى ان بلغ فوق حده . فقلت له : يا هذا ! أرني من يزيد في هذا الكتاب حتى بلغه الى ما لا يساوى ، قال : فأراني شخصاً عليه لباس رئاسة ، فدنوت منه وقلت له : اعز الله سيدنا الفقيه ، ان كان لك غرض في هذا الكتاب تركته لك ، فقد بلغت به الزيادة بيننا فوق حده . فقال لي : لست بفقيه ولا ادري فيه ، ولكني أقمت خزانة كتب واحتفلت فيها لاتجمل بها بين اعيان البلد ، وبقي فيها موضع يسع هذا الكتاب ، فلما رأيته حسن الخط جيد التجليد استحسنته ولم ابال بما ازيد فيه ، والحمد لله على ما انعم به من الرزق فهو كثير . قال الحضرمي : فأحرجني وحملني على ان قلت له : نعم ، لا يكون الرزق كثيراً إلا عند مثلك .. يعطي الجوز من لا اسنان له .. وانا الذي اعلم ما في هذا الكتاب واطلب الانتفاع به يكون الرزق عندي قليلاً ، وتحول قلة ما بيدي بيني وبينه ! »(١) .

وظل اهل قرطبة على أي حال احسن الاندلسيين رغبة في الكتب ، كما كان اهل اشبيلية ارغبهم في اللهو والطرب ، فاذا مات عالم في اشبيلية فأريد بيع كتبه ، حملت الى قرطبة حتى تباع فيها ، واذا مات مطرب بقرطبة فأريد بيع تركته حملت الى اشبيلية . اما مكتبة قرطبة فما زالت في قصرها حتى بيع اكثرها في حصار البربر ثم أتم عليها الأفرنج .

مكتبات مصر

واقتدى بخلفاء بغداد والاندلس الخلفاء الفاطميون بمصر ، بدأ بذلك منهم العزيز بالله ثاني خلفائهم ، تولى الخلافة سنة ٣٦٥ ﻫ وهو شاب ، فاستوزر يعقوب بن كلس ، وكان يعقوب مدبراً ومحباً للعلم ، فرتب له الدواوين وقرب اليه العلماء على اختلاف طبقاتهم ، واجرى لهم الارزاق وحبب الى الخليفة اقتناء الكتب ، فجمع منها جانباً كبيراً خصص لها قاعات في قصره وسماها « خزانة الكتب »، وبذل الأموال في الاستكثار من المؤلفات

---

١ - نفح الطيب ٢١٨ ج ١ .

المهمة في التاريخ والأدب والفقه ، ولو اجتمع من الكتاب الواحد عشر نسخ او مائة نسخة او اكثر. ذكروا انه كان فيها من كتاب العين للخليل نيف وثلاثون نسخة منها نسخة بخط الخليل نفسه ، وعشرون نسخة من تاريخ الطبري ، واشتروا النسخة بمائة دينار ، ومائة نسخة من كتاب الجمهرة لابن دريد . وكان عدد النسخ المكررة يزداد بتوالي الاعوام ، حتى بلغ عدد النسخ من تاريخ الطبري عند استيلاء صلاح الدين الايوبي على مصر ١٢٠٠ نسخة ، وكان فيها ٣٤٠٠ ختمة قرآن بخطوط منسوبة محلاة بالذهب . فلا عجب اذا قالوا انها كانت تحوي ١٫٦٠٠٫٠٠٠ كتاب[١] في الفقه والنحو واللغة والحديث والتاريخ والنجامة والروحانيات والكيمياء ، منها ١٨٫٠٠٠ كتاب في العلوم القديمة ، فيها ٦٥٠٠ جزء من كتب النجوم والهندسة والفلسفة خاصة[٢] غير ادوات الهندسة والفلك .

على اننا نرى في تقدير تلك الكتب مبالغة ، وقد قدرها آخرون ٢٠٠٫٠٠٠ كتاب ، وغيرهم ١٢٠٫٠٠٠ ، ونظن في تقدهم التباساً من حيث المراد بخزانة الكتب او خزائن الكتب ، لأن العزيز بعد ان انشأ خزانته بقصره اقتدى به جماعة من اهله فأنشأوا مثلها في قصورهم ، فالظاهر ان المراد بالتقدير القليل عدد الكتب في خزانة العزيز خاصة ، وبالكثير عدد ما في خزائن القصور كلها . وبهذا الاعتبار لا يقل عدد الكتب في خزائن القصور عن ١٫٠٠٠٫٠٠٠ مجلد او كتاب .

وكان للعزيز عناية كبيرة بخزانته يتعهدها بنفسه حيناً بعد حين ، وقد رتب لها قيما يتولى شؤونها ويجالسه ويقرأ له الكتب وينادمه ، وممن تولى ذلك ابو الحسن الشابشتي الكاتب المتوفي سنة ٣٩٠ هـ[٣] .

وقد أصاب هذه الخزائن من الاحن بتوالي الفتن مثل ما اصاب مكتبة الاسكندرية في عهد الرومان ، فالقي بعض كتبها في النار والبعض الآخر في النيل وترك بعضها في الصحراء فسفت عليها الرياح حتى صار تلالا عرفت بتلال الكتب ، واتخذ العبيد من جلودها نعالاً مما يطول شرحه . وبالاجمال فقد طرح ما بقي منها عند دخول الاكراد للمبيع في اواسط القرن السادس ، وكان في جملة ما اخرجوه من تلك القصور نحو ١٢٠٫٠٠٠ كتاب اعطاها صلاح الدين للقاضي الفاضل عبدالرحيم البيساني[٤] .

---

١ – المقريزي ٤٠٨ و ٤٠٩ ج ١ . ٢ – تراجم الحكماء .
٣ – ابن خلكان ٣٣٨ ج ١ . ٤ – ابن خلدون ٨١ ج ٤ .

دار الحكمة

وتسمى ايضاً دار العلم وهي غير خزانة العزيز او خزائن القصور كما توهم الاكثرون . انشأها الحاكم بأمر الله بن العزيز بالله سنة ٣٩٥ هـ ، بجوار القصر الغربي بالقاهرة ، وحمل اليها الكتب من خزائن القصور ، ووقف لها اماكن ينفق عليها من ريعها . ففرشوها وزخرفوها وعلقوا الستائر على ابوابها وممراتها واقاموا عليها القوام والمشرفين . والغرض من دار الحكمة مثل الغرض من بيت الحكمة الذي انشأه العباسيون ، أي لخدمة الناس في المطالعة والدرس والتأليف . وهي طريقة القدماء في تعليم الناس ،اذ يتعذر على غير الاغنياء اقتناء الكتب الكثيرة نظراً لغلائها ، فمن احب تعليم رعيته انشأ مكتبة جمع فيها الكتب وفتح ابوابها للناس ، كما فعل البطالسة في مكتبة الاسكندرية ، والعباسيون في بيت الحكمة ببغداد . وقد عد بعضهم دار الحكمة مدرسة ، لأن الحاكم اقام بها القراء والمنجمين وأصحاب النحو واللغة والاطباء ، واجرى لهم الارزاق واباح الدخول اليها لسائر الناس على اختلاف طبقاتهم من محبي المطالعة ، ليقرأوا او ينسخوا ما شاءوا ، وجعل فيها ما يحتاجون اليه من الحبر والاقلام والورق والمحابر . وكان الحاكم يستحضر بعض علماء الدار المذكورة بين يديه ويأمرهم بالمناظرة كما كان يفعل المأمون ويخلع عليهم الخلع . وقد أباح المناظرة بين المترددين الى دار الحكمة ، فكانوا يعقدون المجتمعات هناك وتقوم المناظرات وقد يفضي الجدال الى الخصام . واتخذ بعض اصحاب البدع تلك الاجتماعات وسيلة لبث آرائهم ، فأضطر الافضل بن امير الجيوش في اوائل القرن السادس للهجرة الى ابطالها دفعاً لأسباب الفتن ، فلما توفي الافضل امر الخليفة الآمر بأحكام الله وزيره المأمون ابن البطائحي فأعادها سنة ٥١٧ هـ ، ولكنه اشترط فيها المسير على الاوضاع الشرعية ، وان يكون متوليها رجلاً ديناً وان يقام فيها متصدرون برسم قراءة القرآن . ولا نظن ان عدد كتبها يقل عن ١٠٠٫٠٠٠ كتاب ، ولما افضت الحكومة الى صلاح الدين الايوبي هدم دار العلم وبناها مدرسة للشافعية (١) .

مكتبات الشام

لما كانت الشام مركز الخلافة في ايام بني أمية لم يكن للخلفاء رغبة في العلم ولا التفت العباسيون اليها . ولكنها اشتهرت في عهد الدولة الفاطمية بمكتبة كانت في طرابلس الشام

---

١ — ابن خلدون ٧٩ جـ ٤ (ويسميها دار المعرفة) .

حتى فتحها الافرنج سنة ٥٠٢ فانتهبوها [١] وذكر « جبن » ان عدد كتبها ٣٫٠٠٠٫٠٠٠ مجلداً احرقها الافرنج [٢] . فلما تولى نور الدين الشام وأنشأ المدارس في مدائنها جعل فيها خزائن الكتب ، وتعرف بالخزائن النورية ، وهكذا فعل صلاح الدين .

اما بلاد فارس فقد تقدم في غير هذا الباب ما كان فيها من الخزائن المخبأة في الرساتيق والأزج والقباب ، مكتوبة بالحروف الفهلوية على الجلود ونحوها قبل الاسلام ، فلما نضجت الحضارة الاسلامية في بغداد كان الفرس من اكبر العوامل فيها ، وفي جملة مساعيهم انشاء بيت الحكمة وغيره كما تقدم .

وأما خراسان فقد كانت بلاد علم وأدب لما علمته من انشاء المدارس فيها قبل سائر بلاد الاسلام . واما المكتبات فلم يتصل بنا من اخبارها الا القليل ، فقد ذكر ياقوت في معجمه أنه ترك مرو الشاهجان اشهر مدن خراسان يومئذ سنة ٦١٨ هـ وفيها عشر خزائن للوقف لم ير في الدنيا مثلها كثرة وجودة ، وقد فصل اخبارها واخبار واقفيها وذكر ان واحدة منها كان فيها ١٢٫٠٠٠ مجلد وانه اخذ علمه منها [٣] .

أما ما وراء النهر فقد ذكروا في بخارى مكتبة اشتهرت باقتباس ابن سينا علمه عنها ، وكانت لنوح بن منصور سلطان بخاري ، قال الشيخ الرئيس : « ورأيت فيها من الكتب ما لم يقع اسمه الى كثير من الناس ، وما كنت رأيته من قبل الخ » . وأنشأ هولاكو التتري لنصير الدين الطوسي في مراغة مكتبة فيها ٤٠٠٫٠٠٠ مجلد مما نهبه التتر من بغداد والشام والجزيرة .

هذا ما عثرنا على خبره من المكتبات العامة التي أنشأها الخلفاء او السلاطين لمنفعة الناس ، غير خزائن الكتب التابعة للمدارس او المارستانات او الجوامع ، فانها كانت كثيرة جداً ومنها ما لا تقل كتبها عن المكتبات الكبرى ، وهي مرتبة أبواباً حسب الموضوعات وعليها الوكلاء والقوام . وغير الخزائن الخاصة التي كان يقتنيها العلماء لانفسهم وهي كثيرة وعظيمة ، فقد كانت كتب الصاحب بن عباد تنقل على ٤٠٠ جمل ، وخلف افرايم الطبيب المصري ٢٠٫٠٠٠ مجلد ، ولما مات موفق الدين بن المطران كان في خزانته ١٠٫٠٠٠

---

١ – ابن خلكان ١٢٨ ج ٢ .

٢ – Gibbon's Roman Empire. II, 505

٣ – معجم ياقوت ٥٠٩ ج ٤ .

مجلد غير ما استنسخه ، وكان له ثلاثة نساخ يكتبون . وكان عنـد امين الدولة ٢٠٫٠٠٠ مجلد ، وقس عليهم كثيرين كالفتح بن خاقان وابن القفطي وغيرهما .

ولا تتضح ضخامة تلك المكتبات إلا اذا قابلناها بمكتبات هذا العصر ، مع اعتبار الفرق بين العصرين وما كان لانتشار الطباعة من تسهيل اقتناء الكتب ، مع مرور الأزمنة الطويلة على مكتبات هذه الايام ، وكثرة الوسائل المساعدة على اقتناء الكتب لقلة النفقة وغير ذلك . ونقتصر على المكتبات الاسلامية الكبرى التي عرفنا عدد مجلداتها ونقابلهـا بأشهر مكتبات اوربا اليوم :

اشهر مكتبات المسلمين في عهد التمدن الاسلامي

عدد المجلدات	
٠٠٠ ٠٠٠	بيت الحكمة في بغداد
٠٠٠ ١٠	مكتبة سابور «
٠٠٠ ٤٠٠	« الحكم بقرطبة
٠٠٠ ٠٠٠ ١	خزائن القصور بالقاهرة
٠٠٠ ١٠٠	دار الحكمة «
٠٠٠ ٠٠٠ ٣ ؟	مكتبة طرابلس
٠٠٠ ٤٠٠	« مراغة
٠٠٠ ٩١٠ ٤	

اشهر مكتبات هذه الايام في عواصم اوربا الكبرى

عدد المجلدات	
٠٠٠ ٧٠٠ ٢	مكتبة باريس الأهلية
٠٠٠ ٦٤٨ ١	« المتحف البريطاني في لندن
٠٠٠ ٣٦٠ ١	« بطرسبرج القيصرية
٠٠٠ ٢٣٠ ١	« برلين الأهلية
٠٠٠ ٩٢٤	« فينا الملوكية
٠٠٠ ٦٧٧	« رومية الأهلية
٠٠٠ ٥٣٩ ٨	

وفي الولايات المتحدة ٤٠٢٦ مكتبة مجموع عدد كتبها ٣٣٫٠٥١٫٨٧٢ مجلداً . وعلى الجملة فان المسلمين جمعوا في مكتباتهم العامة والخاصة من الكتب على اختلاف موضوعاتها ما يعد بالملايين . ولم يبق منها إلا جزء صغير جداً ، وقد ضاع معظمها في أثناء القرون الوسطى وذهب بذهاب التمدن .

أما الباقي من تلك الكتب فأكثره تجمع في عاصمة الاسلام في اثناء تلك القرون وهي القسطنطينية . وقد توفق المستشرق جوستاف فلوجل ، ناشر كتاب الفهرست وكتاب كشف الظنون ، الى احراز قوائم المكتبات العربية على ما بلغت اليه قبل النهضة الاخيرة وشيوع الطباعة في الشرق . وذيل كتاب كشف الظنون بأسماء تلك الكتب بحسب موضوعاتها . فبلغ عدد تلك المكتبات بضعاً وعشرين مكتبة ، منها ٢١ في القسطنطينية بلغ مجموع كتبها ٢٧٤٤٥ كتاباً . وأما ما بقي ففي مصر ودمشق وحلب ورودس ومجموع كتبها ٢٤٠٠ كتاب ، فيكون الباقي من كتب التمدن الاسلامي في المكتبات العامة نحو ٣٠٫٠٠٠ كتاب ، هاك تفصيلها باعتبار اماكنها :

مكتبات المسلمين في اواخر القرون الوسطى وكتبها

عدد المجلدات	
١ ٥٣٧	مكتبة السلطان محمد الثاني في القسطنطينية
٨٠٣	« « سليمان «
٧٥٢	« قليج علي باشا بالطبخانة «
٤١٢	« حافظ أحمد باشا «
١ ٤٤٨	« كيوبريلي اوغلو «
٢ ٩٠٦	« شهيد علي باشا «
٨٣١	« إبراهيم باشا «
٧٣٢	« والده سلطان «
٥٥٢	« بشير أغا «
١ ٣٣٦	« عاطف افندي «
١ ٤٤٥	« أيا صوفيا «

عدد المجلدات		
٥٥٦	مكتبة سراي غلطه	القسطنطينية
٢ ٤٣٦	« عثمان الثالث	«
١ ٠٧٧	« محمد راغب باشا	«
٩٨٠	« لعله لي دفتر أول	«
١ ٩٤٧	« « « ٢	«
٩١٦	« سراي همايون	«
١ ٧٦٩	« ولي الدين افندي	«
١ ٨٧٧	« عاشر افندي	«
١ ١٠٩	« دامادزاده محمد مرادافندي	«
١ ٣٨٣	« مكتبة عبدالحميد	«
٦٥٦	« حالت افندي	«
٢٧ ٤٤٥	(مجموع الكتب في القسطنطينية)	
١ ٠٩٩	مكتبة الأزهر	في القاهرة
٤٢٢	« عبدالله باشا العظم	بدمشق
٢٦٩	« المدرسة الأحمدية	بحلب
٦٠٩	« رودس	
٢٩ ٨٤٤	(المجموع كله)	

وبديهي ان هذه الكتب ليست كلها ما بقي من المؤلفات العربية ، فقد كان منها شيء كثير في المكتبات الخاصة وغيرها ، ولكنها على أي حال لا تعد شيئاً بالنظر الى ما كانت عليه في ابان التمدن . وخصوصاً اذا اعتبرنا تكاثر المؤلفات بتوالي القرون ، مما يدعو الى زيادة عدد الكتب الباقية في القرون الوسطى كما لا يخفى لا الى نقصانها ، ولكن لكل شيء اجل لا يتعداه ، سنة الله في خلقه .

وأمن السبل العامة ، وادخل المرافق عليهم ، وادفع المكاره عنهم ، واعد الاموال واخزنها ، فان النوائب غير مأمونة ، وهي من شيم الزمان ، واعد الكراع والرجال والجند ما استطعت، واياك وتأخير عمل اليوم الى الغد فتتدارك عليك الامور وتضيع... وأعد رجالا في الليل لمعرفة ما يكون في النهار ، ورجالا في النهار لمعرفة ما يكون في الليل ، وباشر الامور بنفسك ، ولا تضجر ، ولا تكسل ، واستعمل حسن الظن، وأسيء الظن بعمالك و كتابك وخذ نفسك بالتيقظ »[1]

* * *

قضى المنصور مدة خلافته ، ولم ير في داره لهو ولا شيء يشبه اللهو او اللعب ، او العبث ، إلا مرة ، كان في مجلسه فسمع جلبة فأمر حمادا التركي وكان واقفاً على رأسه ان يبحث عن سبب ذلك . فمضى فرأى خادماً من خدم المنصور وقد جلس وحوله الجواري وهو يضرب لهن بالطنبور ، وهن يضحكن ، فعاد حماد واخبر المنصور فقال : « وأي شيء هو الطنبور ؟ » فوصفه له فقال : « وما يدريك انت ما هو الطنبور ؟ » فقال : « رأيته بخراسان » فقام المنصور ومشى الى الجواري فلما رأينه تفرقن خوفاً منه ، فأمر بالخادم فضرب رأسه بالطنبور حتى تكسر الطنبور واخرج الخادم فباعه .

* * *

وكان المنصور بخيلاً على نفسه باللباس ، كان يرتدي جبة هروية ويرقع قميصه ، واذا استجداه احد بخل إلا اذا رأى الجود لازماً . فربما سأله احدهم درهماً فلا يعطيه، ويعطي الآخر الفاً بلا سؤال .. من امثلة ذلك ان احد معارفه القدماء لقيه بعد الخلافة وكان فقيراً فسأله المنصور : « ما عيالك ؟ » قال : « ثلاث بنات والمرأة وخادم لهن » فقال له « أنت أيسر العرب . اربع مغازل يدرن في بيتك .. » ولم يعطه شيئاً . ولما توفي عيسى بن نهيك سأل المنصور خادمه عما خلفه من المال فقال الخادم : « خلف الف دينار انفقته امرأته على مأتمه » فقال : « كم خلف من البنات ؟ » ، قال : « ستا » فأطرق المنصور ثم امر لكل من البنات بثلاثين الف دينار وسعى في تزويجهن . وفرق المنصور في أهل بيته في يوم واحد ١٠٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم [2] .

١ – ابن الاثير ٨ ج ٦ .   ٢ – ابن الاثير ١٣ ج ٦ .

رد على القائلين بالأمومة والطوتمية

عند العرب الجاهلية

كتب الينا صديقنا الأستاذ مرجليوث المستشرق الانجليزي الكبير في أثناء نقله كتابنا تاريخ التمدن الاسلامي الى اللغة الانجليزية كتاباً هذا نصه :

« إن بين ما جاء في كلامكم عن أنساب العرب وبين آراء المستشرقين في هذا الصدد بوناً عظيماً . ولو اطلعتم على كتاب الأنساب والزواج عند العرب الجاهلية للأستاذ روبرتسن سميث [1] لرأيتم بين المشهور عندنا والموضوع في كتابكم فرقاً بعيداً ، فان مسألة الأمومة مثلاً قد دونت فيها مجلدات كثيرة ذهب اكثر اصحابها الى ان العائلة القديمة ليس فيها أب معلوم ، بل ترأسها أم كثيرة الرجال . وحق الأبوة امر مستحدث ادخاله عند العرب لم يسبق عهد النبي (صلعم) بكثير . وأنساب العرب كلها اكاذيب ، فان اسماء القبائل ليست اسماء رجال قد عاشوا كما يزعمون ، بل اكثرها يشبه المسمى طوتم Totem عند الأمم المتوحشة ، اعني حيواناً ينتسبون اليه لجهلهم بترتيب الطبيعة ، فيصدر عن انتسابهم اليه سنن وقوانين لا تخفى آثار بعضها عند العرب الجاهلية » .

هذا هو نص كتاب الأستاذ ، فنظرنا فيه نظر الاعتبار اجلالاً لمقام صاحبه ، وبادرنا الى كتاب روبرتسن سميث المشار اليه ، فاذا هو يدخل في نيف وثلاثمائة صفحة . فتصفحناه ملياً رغبة في الاطلاع على ذلك الرأي وتدبره ، لأن مؤلفه من كبار المستشرقين وله في الشرق وآدابه ابحاث ومؤلفات ذات شأن ، ككتابه في اديان الساميين وغيره من المقالات الشائقة . فقرأنا الكتاب باخلاص وامعان ، لعلنا نقتنع بصحة هذا الرأي فنرجع اليه ، اذ لا غرض لنا فيما نكتبه الا تقرير الحقيقة ، فهي ضالتنا المنشودة اذا ظفرنا بها وقفنا عندها صاغرين ، ولا يهمنا على يد من يكون ذلك . فتحققنا من مطالعة الكتاب ما عليه الرجل من العلم والفضل ، وسعة الاطلاع على آداب الشعوب السامية ولغاتها واديانها ،

---

١ – Kinship and Marriage in Early Arabia

وتوسمنا من خلال ادلته وسبك عبارته حجة وقوة على الاقناع ، يندر مثلهـــا بين أرباب الأقلام ، ولولا ذلك ما استطاع – مع ضعف المذهب الذي اخذ على نفسه اثباته – ان يلاقي اصغاء من جلة العلماء المستشرقين ، وفي جملتهم صديقنا الاستاذ مرجليوث ، حتى ظهر اقتناعه بذلك في مقدمة كتابه الجليل الذي اصدره في السيرة النبوية Mohammed and the Rise of Islam على ان الاستاذ المشار اليه قد اسند الرأي الى صاحبه ولم يتكلف نقده ، اعتماداً على ما اشتهر به صاحبه من سعة العلم ، ولا نخاله لو تكلف ذلك الا شاعراً بما شعرنا به من وهم صاحبه في تصوره على ما سنبينه فيما يـلي . وقد نكون واهمين مثله ، لان العصمة لله وحده . وانما اردنا ان نقول في هذا الموضوع كلمة نلقيها بين يدي العلمـاء المستشرقين ، ولا ندعي النجاة من الزلل ، بل يكفينا ان تربو مواضع الصواب في اقوالنا على مواضع الخطأ ، وربما كان الامر بالعكس – على ان البحث لا يخلو من فـائدة على اي حـــال .

وبما اننا سننشر هذه الرسالة باللغة العربية ايضاً ليطلع عليها جمهور القراء ، وفيهم من لا يزال خالي الذهن من الطوتم والامومة ونحوهما من الابحاث الجديدة التي قلما طرقهـــا كتاب العربية ، رأينا ان نصدر الكلام بتمهيد وجيز في المراد من هذه الألفاظ ، ثم نتقدم الى الموضوع .

* * *

١ ــ الطوتمية

عند القبائل المتوحشة الآن

الطوتم هو لفظ دخل اللغات الافرنجية في اواخر القرن الثامن عشر من لغة الاوجيبي من هنود امريكا ، ويراد به كائنات تحترمها بعض القبائل المتوحشة ، ويعتقد كل فرد من افراد القبيلة بعلاقة نسب بينه وبين واحد منها يسميه طوتمه ، وقد يكون الطوتم حيواناً او نباتاً او غير ذلك . وهو يحمي صاحبه ، وصاحبه يحترمه ويقدسه او يعبده ، واذا كان حيواناً لا يقدم على قتله ، او نباتاً فلا يقطعه أو يأكله . وتختلف الطوتمية عن عبـــادة الحيوانات والنباتات الشائعة عند بعض تلك القبائل المعبر عنها بالديانة الفتشية في ان هــذه عبادة صنم بصورة حيوان ، وتلك تقديس نوع من انواع الحيوانات او النبات او عبادته .

والطوتم بالنظر الى مجموع القبائل ثلاث طبقات : اولا طوتم القبيلة وهو عام يشترك في احترامه كل افرادها ويتوارثونه ، ثانياً طوتم الجنس وهو ما يختص باحترامه افراد احد الجنسين الذكور او الاناث فيكون خاصاً بنساء القبيلة او برجالها ، ثالثا الطوتم الشخصي وهو ما يختص باحترامه الفرد الواحد ولا يرثه ابناؤه . والاول احراها بالاعتبار وعليه نجعل مدار كلامنا .

طوتم القبيلة

هو حيوان او نبات او شيء آخر يشترك في تقديسه او عبادته افراد قبيلة من القبائل ويتسمون باسمه ويعتقدون انه جدهم الاعلى وانهم من دم واحد مرتبطون بعهود متبادلة ترجع الى ذلك الطوتم . وله عندهم اعتباران ، احدهما ديني والآخر اجتماعي . فالديني يراد به ما بين الرجل وطوتمه من العلاقة المتبادلة : الرجل يحترم الطوتم ، والطوتم يحميه ويحفظه . واما الاجتماعي فهو الحقوق المتبادلة بين افراد تلك القبيلة التي يجمعها اسم ذلك الطوتم ، بالنظر الى القبائل الاخرى المنسوبة الى طوتمات اخرى ، وقد يختلف الاعتباران في كثير من الاحوال .

فالطوتم من الوجهة الدينية يعتبر ابا للقبيلة وانها من نسله، ولكل قبيلة حديث خرافي عن طوتمها يتناقلونه أباً عن جد ، يغلب ان يكون مداره على كيفية انتقاله من الحيوانية او النباتية الى الانسانية . فمن قبائل الايروكوا — من هنود امريكا — قبيلة تعرف بقبيلة السلحفاة ، يعتقد اهلها انهم متسلسلون من سلحفاة سمينة استثقلت صفدتها فألقتها عن ظهرها ثم تحولت الى انسان اولد اولاداً . ومنهم قبيلة الحلزون (البزاقة) يعتقدون انهم متسلسلون من الحلزون وانثى الجندبادستر — وذلك ان حلزوناً ذكراً خلع صدفته ونبت له يدان ورجلان ورأس وتحول الى رجل طويل القامة جميل الصورة . فتزوج انثى الجندبادستر واولدها هذه القبيلة . وقس على ذلك قبائل تنسب الى البط او الأوز او غيرهما من الطيور المائية . وفي سينغمبيا قبائل تنتسب الى وحيد القرن وفرس البحر او الى العقرب او الثعبان . فكل من هذه الحيوانات يعد طوتما للقبيلة التي تسمى باسمه ، وهي تحترمه وتقدسه فلا تؤذيه ولا تقتله . فقبيلة البط مثلاً لا تؤذي هذا الطير ولا تقتله إلا اذا عض احدها الجوع فيأكل البطة وهو يأسف ويستغفر ، وكذلك اذا كان الطوتم نباتاً فانهم يحترمونه ويتجنبون ان يدوسوه او يأكلوه ، فمن كان طوتمه الذرة مثلا فأكلها محرم عليه . واذا كان الطوتم شجرة حرموا احراق عيدانها .

ولا يقتصر احترامهم الطوتم على تحريم اكله او اذيته فان بعضهم يحرم لمسه او النظر اليه . فقبيلة الايل – من قبائل الاوهاما – لا تأكل لحم الايل ولا تمس ايلا ذكراً ، وقبيلة رأس الغزال لا تمس جلد غزال قط . وقد يحرمون التلفظ باسم الطوتم ، فاذا اضطروا الى ذكره عمدوا الى الكناية او الاشارة . فمن هنود الدولاورس في امريكا قبيلة تنسب الى الذئب ، واخرى الى السلحفاة ، واخرى الى ديك الحبش (الديك الرومي) فاذا اضطروا الى ذكر احدها كنوا عن الاول بالقدم المستديرة ، وعن الثاني بالساحف ، وعن الثالث بغير الماضغ ، والقبائل المذكورة تعرف بهذه الكنايات .

واذا مات حيوان من نوع طوتم القبيلة احتفل اهلها بدفنه وحزنوا عليه حزنهم على واحد منهم ، فقبيلة البومة في ساموا اذا وجد احد رجالها بومة ميتة فانه يقعد الى جانبها ويأخذ في الندب والبكاء ويضرب جبينه بالحجارة حتى يدميه ، ثم يكفن البومة ويحملها الى المدفن كأنها بعض افراد القبيلة ويعتقدون ان من اهان الطوتم او اساء اليه يصاب بالمصائب ، ويختلف اعتقادهم ذلك باختلاف القبائل او البلاد . فبعضهم يعتقدون ان من يأكل طوتمه تصبح نساء قبيلته عواقر ، وغيرهم يعتقدون انهم يصابون بالامراض او النكبات او نحو ذلك . ويتوهم آخرون ان آكل طوتمه يجازى بالموت ، بأن يقيم الطوتم في بدنه ولا يزال يأكل منه حتى يموت .

ويؤمنون من الجهة الأخرى ان الطوتم لا يؤذي صاحبه ، فالذين طوتمهم الحية مثلاً لا يخافون لسعها ، وعندهم ان الحية لا تلسعهم . وكذلك قبائل العقرب في سينغمبيا ، فهم على ثقة ان العقرب السامة تمر على جسم احدهم ولا تؤذيه . وقس على ذلك قبائل الذئاب ونحوها . وكثيراً ما يمتحنون بذلك قرابة من يدعي انتسابه الى احدها ، فمن زعم انه من قبيلة الثعبان اطلقوا عليه الثعبان ، فاذا لسعه قالوا انه مدع كاذب ، وعلى هذا المبدأ ينبذون كل من لا يراعي الطوتم جانبه ويتجنب اذيته .

على انهم لا يكتفون من الطوتم ان يكف اذاه عن اصحابه او عباده ، ولكنهم يتوقعون ان يحسن اليهم ويدافع عنهم . فتعتقد قبيلة الذئاب ان ' ب تدافع عنها في ساحة القتال ، ويتوهم اكثر اصحاب الطوتمية ان الطوتم ينذر اصحابه بالخطر ' وقوعه بعلامات او رموز على نحو ما يعبر عنه بالفأل او الطيرة .

ومما يتقربون به الى الطوتم ابتغاء رضاه وحمايته ان يتشبهوا به ، فيقلدوه في شكله ومظهره ويلبسوا جلده او قسماً من جلده ، او يتخذوا جزءاً منه يعلقونه في اعناقهم

او اذرعهم على نحو التعاويذ في الامم الاخرى ، فلا يخلو فرد من تعويذة تدل على علاقته بطوتمه .

ومن عاداتهم الدالة على اعتبارهم انفسهم من نسل الطوتم، ما يجرونه من الاحتفال عند الولادة او الزواج او الوفاة ونحوها من الاحوال . فقبيلة الغزال الاحمر مثلاً اذا ولد لهم طفل نقشوا ظهره بالحمرة ، واذا كان من قبيلة الذئب صاحت الولائد عند وضعه : « قد ولد لنا ذئب صغير ! » ويخيطون بقميص الطفل قطعة من عين الذئب او قلبه ، واذا تزوج واحد من قبيلة الكلب الاحمر في جاوة دهنوا العروسين برماد عظام كلب احمر ، وقس على ذلك سائر القبائل بمن ينتسبون اليه من انواع الطوتم . ويحتفلون نحو هذه الاحتفالات عند الوفاة او الزواج .

اما الطوتم الجنسي فيراد به اختصاص ذكور القبيلة او اناثها بطوتم خاص . فبعض القبائل في استراليا لذكورها طوتم ولاناثها طوتم آخر، وكلاهما غير طوتم القبيلة. وكذلك الطوتم الشخصي ، فان الرجل قد يكون له طوتم خاص به غير طوتم القبيلة وغير الطوتم الجنسي .

اما طوتم القبيلة من الوجهة الاجتماعية ، فيراد به تعاقد اهل القبيلة فيما بينها باعتبار علاقتها بالقبائل الاخرى. فأهل الطوتم الواحد يعدون اخوة واخوات يتعاونون في السراء والضراء بروابط هي اشد مما بين افراد العائلة الواحدة اليوم . فيتزوج الرجل بامرأة من غير قبيلته وطوتم غير طوتمه ، وربما نشأ الاولاد على طوتم آخر ، فاذا انتشبت حرب تعاون اهل الطوتم الواحد على اصحاب الطوتم الآخر ، فينفصل الرجل عن زوجته والولد عن ابيه او امه .

ومن شروط الطوتمية ان رجال الطوتم الواحد لا يتزوجون نساء من قبيلتهم، ولا النساء برجال منها، وهو ما يعبر عنه علماء العمران بالزواج الخارجي Exogamy . ويعتقد اصحاب الطوتم ان التزاوج في نفس القبيلة مضر بالصحة حتى ينخر العظام ، ويعاقبون من يقدم عليه بالموت او العذاب الاليم ، ولذلك فهم يتخذون نساء من القبائل الاخرى بالغزو او المراضاة او نحو ذلك ، والاولاد يرثون على الغالب طوتم امهاتهم، فكأن النسب يتصل بينهم بالامهات وليس بالآباء كما هو المعهود بيننا .

وقد تتفرع القبيلة الى بطون وافخاذ تنسب الى آباء من الحيوان او النبات بينها نسبة تفرعية ، مثل تفرع الحيوان الى الانواع وما تحتها من الفصائل والتباينات ، او بعلاقة اخرى بين طوتم القبيلة وطوتمات الفروع ، كأن يكون طوتم القبيلة حيواناً وطوتم فرعها نباتاً يأكله ذلك الحيوان مما لا سبيل الى بسطه .

والطوتمية منتشرة الآن في العالم المتوحش ، فهي عامة بين قبائل استراليا ، وكثيرة الانتشار في شمالي امريكا وفي بناما والطوتم الشائع هناك « الببغاء » ، ولا تخلو امريكا الجنوبية من آثار الطوتمية على حدود كولمبيا وفنزويلا وفي جيانيا وبيرو . وللطوتمية شأن كبير في افريقيا ، فانها شائعة في سينغمبيا ، وبين قبائل البقالى على خط الاستواء ، وعلى شاطىء الذهب الأشانتي ، وبين الدامارية والبكوانية في جنوبي افريقيا ، وفي اماكن كثيرة من تلك القارة . ولها آثار في مدغشقر وبعض جزر ملقا . اما في آسيا فلها اثر في اواسط الهند بين قبائل البنغال غير الآريين ، وفي سيبيريا وبعض جهات الصين وجزائر المحيط . واكثر هذه القبائل ادخلها العلماء في الطوتمية بالقياس التمثيلي ، لانها تقدس بعض الحيوانات او النباتات وان لم تتسم بأسمائها .

الخلاصة

فالطوتمية تلخص فيما يلي :

(١) انها شائعة الآن بين اكثر الامم اعراقاً في الوحشية .

(٢) ان قوامها اتخاذ القبيلة حيواناً او نباتاً او شيئاً آخر من الكائنات المحسوسة ابا لها تعتقد انها متسلسلة منه وتتسمى باسمه .

(٣) ان كل قبيلة تقدس طوتمها او تعبده .

(٤) تعتقد كل قبيلة ان طوتمها يحميها ويدافع عنها ، او هو على الاقل لا يؤذيها وان كان الاذى طبعه .

(٥) الزواج ممنوع بين اهل الطوتم الواحد ، واساس التناسل عندهم التزوج ببنات من اصحاب الطوتمات الاخرى (الاكسوجامي) .

(٦) ان الابوة ضائعة عندهم ومرجع النسب الى الام .

(٧) لا عبرة عندهم بالعائلة ، وانما القرابة تنتهي الى الطوتم ، واهل الطوتم الواحد اخوة واخوات يجمعهم دم واحد .

اصل هذا المذهب

ومذهب الطوتمية – بالنظر الى نظام الاجتماع – حديث ، اول من قاله الدكتور مكلينان الباحث الاجتماعي الانجليزي المتوفي سنة ١٨٨١ ، فأنه الف في هذا الموضوع كتابه الزواج عند القدماء Primitive marriage ونشره للمرة الاولى سنة ١٨٦٥ ، ثم كتب كتباً كثيرة في هذا الموضوع وما يتفرع عنه نشر فيها اصل مذهبه والقواعد التي بنى عليها رأيه في الطوتمية . ولم يكد ينشر رأيه حتى تصدى علماء الاجتماع لانتقاده ، وفي مقدمتهم الفيلسوف سبنسر والسير جون لبك العالم الاجتماعي الشهير ، ولا سيما الاول فانه افاض في نقد هذا المذهب بكتابه « اصول العمران » وكتاب « أصول التمدن » وغيرهما مما لا شأن لنا به . وانما ننظر الآن في الامر من حيث ما يهمنا ونغض الطرف عن صحة هذا المذهب او فساده ، ونبحث فيما أراده الاستاذ روبرتسن سميث من تطبيقه على العرب قبل الاسلام .

راي سميث في طوتمية العرب

يرى سميث ان العرب كانوا في اقدم ازمانهم ينتسبون الى آباء من الحيوانات او النباتات كانوا يعبدونها او يقدسونها ويتسمون بأسمائها ، وكان شأنهم في الزواج والامومة وغيرها مثل شأن القبائل المتوحشة في استراليا وامريكا وافريقيا ، وان المشهور من انتساب العرب الى اسماعيل وقحطان من آباء التوراة وتسلسل القبائل على الصورة المعروفة انما هو حادث وضعه أهل الاغراض في زمن حديث لا يتجاوز القرن الاول للهجرة ، مبنياً على ديوان الامام عمر بن الخطاب من حيث حقوق المسلمين في العطاء بالنظر الى القبائل وانسابها (صفحة ٦ من كتابه) .

ولتأييد هذا الرأي بدأ اولاً باثبات الأمومة عند العرب ، فقال ان العرب في الزمن القديم لم يكن عندهم عائلة رئيسها الأب ، ولا كانت الانساب تتصل بالآباء ، بل كان الزواج عندهم نحو ما هو في بلاد التبت اليوم ويعرف بالزواج التيبتي ، وذلك ان المرأة تتزوج برجلين فأكثر ، واولادها لا ينتسبون لأحدهم وإنما ينتسبون الى القبيلة ويسمون بطوتمها كما تقدم . فعمد اولا الى ايراد الأدلة على إثبات الأمومة وشيوعها عند العرب القدماء ، ولما

ظن نفسه أثبتها عمـد الى اثبات الطوتمية ، فبذل قصارى جهده في استخراج الادلة والشواهد ممـا سنفصله ونبين وجه الخطأ فيه .

٢ ـ العرب القدماء وانسابهم واخبارهم

وقبل التقدم الى البحث في ادلة الاستاذ سميث، نقول كلمة اجمالية في العرب وانسابهم وروواياتهم تمهيداً للبحث .

ان من يطالع رأي صاحب طوتمية العرب ، ومن يقول قوله من المستشرقين ، يدرك لأول وهلة انهم انما حملهم على ذلك امران : الاول ضعف ثقتهم باقوال مؤرخي العرب وبما حفظ من خرافاتهم القديمة ، والثاني نهوض اهل القرن الماضي لتحدي مـا ثبت من مذهب الارتقاء في قواعد العمران ، لأن شيوع هذا المذهب في اواسط ذلك القرن حمل ادباء الافرنج على رد كل شيء الى اسباب طبيعية ، كما فعل سبنسر في رد العبارات واكثر العادات الى مثل هذه الاسباب . وهكذا اراد صاحب طوتمية العرب فانه لما اطلع على ما كتبه مكلينان عن الطوتم في القبائل المتوحشة – وهو مستشرق مطلع على اخبار العرب سيء الظن في جاهليتهم يحتقر اقوال رواتهم ونسابيهم – ورأى بين اسماء آباء القبائـل والبطون ما يشبه اسماء الحيوانات ، سبق الى وهمه انها من آثار الطوتمية عندهم . فوضع هذا الحكم نصب عينيه ، واخذ على نفسه ان يبرهنـه . ولما كانت الطوتمية مبنية على الامومة ، عمد الى اثبات هذه فأتى بأدلة ضعيفة تجاوز بها حـد التكلف ، واستشهد بنوادر من اخبار العرب ، فجعل الشاذ قاعدةوأغفل القواعد العامة الثابتة التي اجمع عليها النسابون والرواه ، مما يخالف اصول البحث . وهذا غريب من عالم اطلع على أخبار الامم وخرافاتهم ، وعلم ان التاريخ القديم اكثره مأخوذ من الخرافات المأثورة عن الاسلاف ، يمحصها المؤرخون ويستخرجون صحيحها من فاسدها فلا يحتقرون خرافة ولا ينكرون قولا . فان ما في الياذة هوميروس من اخبار الآلهة وخرافاتهم ، لم يمنع العلماء من تمحيصها والتمييز بين التاريخ والدين والخرافة فيها . ويقال نحو ذلك عن اخبار الهنود القدماء ، منذ نزول جماعة الآريين الى بلاد الهند على ما هو مدون في كتبهم السنسكريتية . وهكذا ينبغي ان يقال في خرافات العرب ، من اخبار عاد وثمود وطسم وجديس ، واخبار سيل العرم ونحوها . فأنها – مع بعدها عن مألوفنا – لا تخلو من حقائق تاريخية ذات بـال ، قد كشف الزمان صدق كثير منها ، فنأتي بشذرات من ذلك على سبيل المثال :

عـــاد وثمود

إن أعرق خرافات العرب في القدم وأبعدها عن المألوف أخبار القبـــائل البائدة . وما زال الباحثون الى عهد غير بعيد يعدونها من الخرافـــات الموضوعة قبيل الاسلام ، وظنها آخرون لبعض الأمم الأخرى وقد حفظها العرب ونسبوهـا لأنفسهم . ثم تبين لهم أنها لا تخلو من حقيقة ثابتة ، لما وجدوه من ذكرها في كتب مؤرخي اليونان او جغرافييهم القدماء كاسترابون وبطليموس وغيرهما . وأهم القبائل البائدة عاد وثمود . أما عـــاد فقد كان المظنون أنها لم تذكر في كتب اليونان ، لأنهم لم يعثروا بين أسماء قبائل العرب على لفظ يشبهها ، ولكننا بينا في مقالة لنا بهذا الموضوع (الهلال ٢٣ سنة ٦) أنهم ذكروها باسم «عادارم» فكتبوها Adramitae ، تمييزاً لها عن حضرموت واسمها عندهم Xatramotitae ، ورجحنا هناك أنها وقبيلة هدورام المذكورة في التوراة بين العرب القاطنين بلاد اليمن قبيلة واحدة .

وأما ثمود فقد ذكرت مراراً في كتب اليونان والرومان ، وعثروا على آثارها في اعالي الحجاز وحلوا بعض ما نقش على احجارها ، وكانوا مع ذلك يحسبون تاريخها لا يتجاوز في القدم ما وراء تاريخ الميلاد الا قليلا ، حتى عثر المنقبون على ذكرها في انقاض أشور حوالي القرن الثامن قبل الميلاد [١] في عرض اخبار الحروب والفتوح ، مما يدل على ان تلك القبيلة كانت ذات شأن في هذا العهد . وقس على ذلك سائر اخبار القبائل البائدة ، مما ضاع خبره لتقادم عهده او اشتبه اسمه عند اليونان بالتصحيف او نحوه ، كما اصاب قبيلة « جديس » فان اليونان كتبوها Jolisitai والغالب في اصلها على اعتقادنا Jodisitai بابدال الدال لاماً وهما متشابهان في اللغة اليونانية فاللام تكتب هكذا Λ والدال هكذا Δ وقس عليه .

ناهيك بما يؤيد اخبار العرب وأنسابهم من نصوص التوراة ، وما عثروا ويعثرون عليه في آثار اليمن وغيرها .

النسابون العرب

اذا كان هذا شأن خرافات العرب القديمة ، فكيف بأخبارهم المدونة في الكتب مما اجمع عليه النسابون في صدر الاسلام ، والرواة يومئذ لا يقبلون رواية الا بعد تحققها بالاسناد

---

١ – Glaser Sk. der Geschichte und Geographie Arabiens II. 259

الصحيح ، لما تعودوه من تحقيق الأحاديث النبوية او نحوها من الأخبار الدينية في ذلك العصر ؟ فالعرب يعدون من اكثر الامم تحقيقاً في الرواية ، واكثرهم تدقيقاً في حفظ ما يروونه، ولا سيما في صدر الاسلام لاعتمادهم على الذاكرة واغفالهم الكتابة ، لاسباب بيناها في الجزء الثالث من كتابنا « تاريخ التمدن الإسلامي » .

ولا ننكر ما يتخلل تلك الروايات من الامور الموضوعة او المختلف فيها او غير المعقولة ، ولكن لا يعقل ان تكون كلها موضوعة ، اذ لا يتأتى التواطؤ الى هذا الحد . وإن جاز لنا تصديق هذا التواطؤ لم يكن لنا بد من السؤال عن الزمن الذي حصل فيه ، أهو قبل الاسلام او بعده ؟ فاذا قيل قبل الاسلام ، فما الذي دعا الى حصوله ؟ ولا نعلم سبباً يدعو الى ذلك ، ولا نظن صاحب طوتمية العرب يعلم . واذا قيل بعد الاسلام ـ وهو رأيه ـ فقد زعم ان النسابين وضعوا الانساب في صدر الاسلام فقسموها الى قحطانية وعدنانية ، وقسموا كلاً منها الى فروع ، وان الغرض من هذا التقسيم بيان حقوق القبائل بالنظر الى العطاء الذي فرضه عمر ـ فكيف يجوز ذلك وهذه اشعار العرب الجاهلية واقوالهم وامثالهم واخبارهم شاهدة بمحافظتهم على النسب وعنايتهم بالرجوع الى اجدادهم من قحطان وعدنان ؟ بل كيف يقال هذا والاسلام من ظهوره الى انتشاره مبني على النسب القحطاني والعدناني ، والخلفاء يحرضون المسلمين على حفظ انسابهم والتدقيق فيها ؟ ومن اقوال عمر بن الخطاب : « تعلموا النسب ، ولا تكونوا كنبط السواد اذا سئل احدهم عن اصله قال : من قرية كذا » [١] فهل يصح ذلك والعرب قبائل طوتمية لا رابطة بينها ولا نسب ؟

واذا افترضنا صحته وان النسابين وضعوا هذه الانساب في اول الاسلام للعطاء ، فكيف ترضى القبائل التي ابعدها النسابون عن النسب النبوي فقل عطاؤها او ضعفت حقوقها ، وكيف لا تحتج على ذلك ، بل كيف لا يشتم رائحة ذلك الاحتجاج من كلام المؤرخين ؟ على ان تواطؤ النسابين على الوضع بعيد الامكان ، لانهم لم يأتوا بشيء من عند انفسهم، وانما كانوا يطوفون البادية ينقلون النسب عن السنة الحفاظ ويدونونه اويحفظونه. وقد يجمع النسابة اخباره من اهل نجد والحجاز واليمن بالسؤال من الثقات في تلك الاصقاع المتباعدة الاطراف ، فهل يمكن تواطؤهم على ذلك ؟

---

١ ــ ابن خلدون ١٠٩ ج ١

الشعوبية وأنسباء العرب

واذا سلمنا بامكانه، وان العرب لم يبدوا معارضة احتراماً للخليفة اوخوفاً منه، فكيف سكت الشعوبية ولا سيما الفرس عن هذا الاختلاف ، مع ما يفاخرهم به العرب من شرف النسب العربي ، والشعوبية يبحثون عن حجة يضعون بها من شرف العرب المتصل اليهم من انتسابهم الى اسماعيل وقحطان ؟ وقد تجرأ الفرس في صدر الاسلام حتى نسبوا العرب الى الوحشية وقالوا : «انهم كالذئاب العادية والوحوش النافرة ، يأكل بعضهم بعضا ويغير بعضهم على بعض ، فرجالهم موثقون في حلق الأسر ، ونساؤهم سبايا مردفات على حقائب الابل » . ولم يطعن احد منهم في نسبهم تلميحاً ولا تصريحا ، ولو استطاعوا ذلك لكان فيه اقوى انتقام لهم . ولا يقال انهم سكتوا عنه اهمالا ، او انهم لم ينتبهوا له ، فقد طعنوا في اختلاف العرب بالنسب وفي استلحاقهم الادعياء ونحو ذلك مما يتعلق بالانساب . قال بجير يعير العرب باستلحاق الادعياء :

زعمتم بأن الهند اولاد خندف ... وبينكم قربى وبين البرابر
وديلم من نسل ابن ضبة باسل ... وبرجان من اولاد عمرو بن عامر
بنو الاصفر الاملاك اكرم منكم ... وأولى بقربانا ملوك الاكاسر
أتطمع في صهري دعيا مجاهرا ... ولم تر سترا من دعى مجاهر
وتشتم لؤما رهطه وقبيله ... وتمدح جهلا طاهرا وابن طاهر (١)

ومع ذلك لم يتعرضوا لصحة انسابهم أو فسادها . وأمة الفرس بلغت اوج تمدنها قبل الاسلام بقرون ، وكان العرب ينزحون اليهم ويقيمون بينهم ، وجرى لهم معهم حروب ومنافسات قبل الاسلام ، وقد استولى الفرس على اليمن وأقاموا بين ظهراني العرب وعاشروهم وخالطوهم قبيل الإسلام — فهم اولى الناس بمعرفة احوالهم في جاهليتهم ، فلو وجدوا في ضبط انسابهم شكاً ما سكتوا عنه ، وقد بدأوا بالنقمة عليهم من اوائل القرن الأول للهجرة . واغرب من ذلك أن النسابين أنفسهم كان اكثرهم من العجم ، فهل يضعون شيئاً يكون سلاحاً عليهم في أيدي أعدائهم ؟

اختلاف بعض الانساب

فكل ما لدينا من اخبار العرب يرجع الى ترتيب النسب على ما ذكروه في كتبهم أو

---

١ — العقد الفريد ٧١ ج ٢ .

رووه في أشعارهم ، وليس عندنا ما يخالف ذلك الترتيب نصا ولا اشارة ، فكيف يجوز لنا نقضه ؟ ولا عبرة في ما ذكره صاحبنا من اختلاف النسابين في نسبة بعض القبائل الى قحطان او عدنان او الى قيس أو كلب أو نحو ذلك ، لأن النسب كما قدمنـــا منقول في الاصل عن أفواه الناس على اختلاف الاصقاع ، والانسان غـير معصوم من الخطأ . ولا يخلو ان يكون ديوان عمر بن الخطاب وفرض العطاء على النسب اوجب بعض التشويش ، وانتماء بعض البطون الى غير قبائلها ، والنسابون المحققون يبينون الصحيح من الفاسد على ما يبلغ اليه امكانهم . ولكن وجود هذا الاختلاف لا يدل على فساد النسب من اساسه ، كما ان اختلاف الرواة في تفاصيل احدى الوقائع التاريخية لا يدل على انها لم تقـــع . فلو اختلف جماعة في فتح عمرو بن العاص مصر ، فقال احدهم انه فتحها صلحا، وقال آخرون انه فتحها عنوة ، وقال غيرهم انه جاءها بأربعة آلاف مقاتل ، وقال آخرون بل جاءها بعشرة آلاف ، واختلف آخرون في هل جاءها العرب على الخيل او على الابل ــ فهل يدل ذلك على ان مصر لم تفتح ، واذا قال ذلك قائل ألا ننسبه الى الشذوذ في احكامه ؟

على ان اختلاف النسابين قد يكون سببه تشابه القبائل بالاسماء لفظا واختلافها معنى، وهذا كثير في انسابهم قـــد وضع له النسابون كتباً مستقلة ، ككتاب مختلف القبائل ومؤتلفها لأبي جعفر محمد بن حبيب المتوفي في اواسط القرن الثالث للهجرة ، وقد طبع في جوتنجن سنة ١٨٥٠ . ولو راجعت معجمات القبائل لرأيت عدة منها باسم واحد، بعضها من قحطان والبعض الآخر من عدنان وفيها بطون من اليمنية وبطون من القيسية . فبنو أسد بطن من الأزد من كهلان من القحطانية ، وبنو أسد ايضاً بطن من قضاعة من حمير، وبنو الأوس بطن من الأزد من القحطانية، وبنو الأوس بطن من العدنانية ، وبنو الحرث عدة بطون من قبائل مختلفة ، وبنو بكر عدة بطون بعضها من العدنانية والبعض الآخر من القحطانية ، وبنو تغلب حي من وائل بن ربيعة من العدنانية ، وبنو تغلب بطن من قضاعة من القحطانية ، وبنو تميم من طابخة من العدنانية ، وبنو تميم بطن من هذيل من العدنانية ، وبنو ثعلبة بضعة عشر بطناً من قبائل مختلفة [١] ومثلهم بنو ربيعة ، وبنو سليم ، وبنو عامر ، وبنو عدي ، وبنو كعب وغيرهم . فالاسم الواحد تشترك فيه عدة بطون ترجع الى اصول مختلفة . قـــد وجدوا بطوناً كثيرة باسم بني امية ، ففي قريش امية بن عبد شمس بن عبد مناف ، وفي اياد بن نزار أمية بن حذافة ، وفي الانصار امية بن

١ ــ نهاية الارب من قبائل العرب (خط) .

زيد بن مالك من الأوس ، وفي طي امية بن عدي بن كنانة بن مالك ، وفي قضاعة امية بن عصبة بن هصيص ، وقس عليه .

وقد تتشابه اسماء القبائل صورة وتختلف لفظاً ومعنى ، مثل جساس بسين مشددة وجساس بسين مخففة ، واكثر ما يكون الاشتباه في الاسماء المتشابهة بصور الحروف مع غض الطرف عن النقط ، وقد كان ذلك سبباً كبيراً للالتباس قبيل الاسلام وفي صدره . ففي مذحج عنس (بالنون) ابن مالك بن ادد، وفي غطفان عبس (بالباء) ابن بغيض، وفي الأزد عبس (بالباء) ابن هوازن بن أسلم . وقس عليه عنزة ، فانها بهذا اللفظ في ربيعة وهي عنزة بن أسد بن ربيعة بن نزار ، وفي خزاعة عيرة (بالياء) ويقال ايضاً عنز ، وفي الازد عنترة بن عمرو بن عوف بن عدي بن الأزد، وفيها ايضاً عبرة (بالباء) اما مضمومة العين او مفتوحتها ، ومنها غيرة بالغين والياء باختلاف الحركات. ومن هذا القبيل عنز من ربيعة وعتر من ربيعة أيضاً ، ومثلها غبر وقس على ذلك اجرم واخزم واحرم ، وكل منها من اصل غير أصل الاخريين[١] .

فهذه الاختلافات بالصورة واللفظ اوجبت بعض الالتباس في انساب القبائل . ويقال نحو ذلك في قلة عدد الآباء بالنظر الى الزمن ، فقد يكون سببه ضياع بعض الاجداد لنسيان او غيره ، او اعتبار الجد قبيلة برأسها وليس رجلاً فرداً ، كما هو المظنون في بعض اجداد اليهود آباء التوراة . وهذا أيضاً من الادلة على قدم الانساب من عهد الجاهلية ، اذ لو وضعها واضع بعد ذلك لاتقن صناعة التزوير واكثر من الآباء حتى لا يبقى مكان لظهور التزييف ، ولكن النسابين لم يأتوا بشيء من عند أنفسهم ، وانما نقلوا ما كان شائعاً على السنة العرب محفوظاً في اذهانهم على علاته .

وزد على ذلك ان من القواعد الاساسية في تمييز الحقوق « ان الاصل براءة الذمة » ، فالاصل في انساب العرب ان تعتبر كما وصلت الينا ، ولا يجوز لنا الاعتراض عليها او نقضها إلا بما لا يقل ثقة عن النصوص الصريحة والقرائن الثابتة بالتواتر او نحوه . اما الاعتماد على الاقوال النادرة ، او الرجوع الى شوارد الاخبار ، واتخاذ الشواذ قواعد ، فلا يصح الاعتماد عليه ، او هو استقراء ناقص ، بل هو ليس من الاستقراء في شيء ، وانما هو من قبيل التحكم على خلاف القاعدة المتبعة في البحث والنقد . والاقرب الى الصواب في

١ ــ مختلف القبائل ومؤتلفها .

اثبات قضية ان نتدرج فيهـــا من الجزئيات الى الكليات ، فمتى ثبتت الجزئيات ثبتت الكليات . واما صاحبنا فانه افترض القضية الكلية وحاول اثباتها ، فلم يعدم من الحوادث المبعثرة من اخبـار العرب مـا يتخذه اساساً يبني عليه بنـــاء ضعيفاً يظهر ببراعته كأنه صحيح .

فالاستاذ روبرتسن سميث صاحب طوطمية العرب اطلع على رأي مكلينان في طوطمية هنود استراليا وأمريكا ونحوهما ، ورأى لبعض قبائل العرب أسماء حيوانية ، ووجد النسابين مختلفين في أصول بعض القبائل ، فتبادر الى ذهنه انهـا بقايا الطوتم كما قدمنا ، فوضع القضية الكلية : « ان العرب كانوا من اصحاب الطوتم » ثم أخذ يبحث في كتبهم عما يؤيد هذا القول ، ولا يخفى عليك ما هنالك من النوادر الشاذة والحوادث المتضاربة ، فاختار ما ظنه يؤيد قوله وأغفل الباقي . فلو كان السير على هذه الخطة في الاستدلال والبرهان جائزاً لما أعجزنا اثبات اي قضية فرضناها ، مهما يكن من غرابتها فلو أردنا الذهاب الى ان المرأة في الجاهلية كانت مطلقة الحرية ذات شأن في الهيأة الاجتماعية مثل شأنها في أمريكا اليوم ، لما عدمنا من أخبار العرب ما يسند هذا القول . وكذلك لو قلنا انها كانت تعامل عندهم معاملة البهائم فاننا نجد ما يشاكل زعمنا . ولكن القاعدة في مثل هذا البحث ان ينظر في مجمل الادلة ويؤخذ الراجح بالاجماع او الاغلبية ، ولم يجمع العرب في اخبارهم او خرافاتهم او اشعارهم او تواريخهم او عاداتهم على شيء مثل اجماعهم على تلك الانساب ، افننكرها بمجرد الظن ؟ وهل يزال اليقين بالشك ، ثم نلتفت الى رأي ليس في اخبـار العرب ولا في تواريخهم ولا تواريخ سائر الأمم السامية ما تشتم رائحته منه ؟

ثم ان تلك الانساب وصلت الينا بالتسلسل من النسابين الى المؤرخين على اختلاف أماكنهم وعصورهم ، وهي مع ذلك مطابقة في اكثر رواياتها ، فكيف تتفق هذه المطابقة ان لم يكن اصلها صحيحاً ؟ وان قيل ان ذلك الاصل وضع بعد الاسلام ، فلا بد من ان يكون واضعه رجلاً ذا سلطان ، فمن هو هذا يا ترى ؟ وكيف يخفى خبره مع كثرة اعداء العرب في ذلك العصر ؟

والصحيح ان النسب قديم عند العرب ، مثل قدمه عنـــد سائر الامم السامية ، والعرب أشد تمسكاً به لبداوتهم وتنقلهم مع فراغ ايديهم من جامعة اخرى يرجعون اليها . وقد بالغوا في المحافظة على الانساب ، حتى حفظوا انساب خيولهم الى اجيـال كثيرة ، فيلحقونها بما اشتهر منها في اللحاق او السباق من جياد الخيل ، كأعوج والوجيه ولاحق

والغراب واليحموم (١) . ولو راجعت ما وصل الينا من اخبار النسابين لعجبت من عنايتهم بحفظ الانساب وتدقيقهم في ضبطها . وكان احدهم اذا نسب واحداً تتبع نسبه من ابيه الى رهطه فالفصيلة حتى يصل الى القبيلة ، او بالعكس من القبيلة الى الفرد .

الشعوب السامية

وقد ذهب صاحب طوتمية العرب في مقدمة كتابه «اديان الساميين» وفي كتاب «انساب العرب» الذي نحن في صدده الى ان الساميين نشأوا اولا في جزيرة العرب ثم تفرعوا ، فخرج العبرانيون والآراميون منها وعمروا ما حولها من البلاد وظل العرب فيها على بداوتهم ، فكان ينبغي ان تكون الطوتمية عندهما كما هي عند العرب . ولكنه لم يقل ذلك ، واذا قاله فلا نظنه يوفق الى ما يسند قوله ولو في الظاهر مثل توفيقه في طوتمية العرب ، لان اليهود قلما تسموا بأسماء الحيوانات لبعدهم عن البداوة الخشنة ، فلا يجد بين اسماء القبائل ما يساعده على هذا الزعم . وهب انه وفق الى بعض الاسماء كما وفق الاستاذ كوك في مقالة نشرها في المجلة الاسرائيلية الانجليزية سنة ١٩٠٤ (٢) مثل كالب ويعقوب وعورب — فهي اسماء اشخاص لا اسماء قبائل ولا يصح الرجوع اليها في اثبات الطوتمية .

على انه لو ترك الافتراض والظن ونظر في الأمر على بساطته ، لرأى هذه الأمم السامية تتشابه في أمر حقيقي واضح لا التباس فيه ، وهو الانتساب الى آباء التوراة . وانتساب العرب الى اسماعيل وقحطان ثابت مما جاء في التوراة من انساب الأمم ، اذ يظهر للمتأمل ان انساب العرب فرع من انساب الساميين ، وقد حقق ذلك واثبته جورج رولنسن في كتابه اصل الامم (٣) وادوار جلازر في كتابه تاريخ العرب وجغرافييهم (٤) ولنا مقالة في انساب العرب منشورة في (الهلال) العشرين من السنة الخامسة ، بينا فيها انساب القبائل البائدة فضلاً عن القبائل الباقية ، بالاسناد الى التوراة ومؤرخي العرب ، والتوفيق بينها وبين الآثار التي كشف عنها المنقبون ونصوص مؤرخي اليونان .

فالنسب العربي ثابت بثبوت انساب التوراة ، مع اعتبار ما يراه اهل النقد من الباحثين ان اسماء بعض الآباء الاولين يراد بها القبائل لا الاشخاص ، فاذا نقضنا هذه لم يبق بيدنا

١ — الكامل للمبرد ٤٥٤ .
٢ — The Jewish Quarterly Review
٣ — Rawlinson's Origin of Nations, 228
٤ — Glaser Gesch. & Geogr. Arabiens II. 266 & 424

شيء. وهل يجوز ان نغفل هذه الأنساب الثابتة بتوالي القرون ، ونرجع الى رأي لا اساس له في كتب المشارقة ولا اشارة اليه في خرافاتهم ولا عاداتهم ولا اديانهم ولا شيء من آثارهم ؟

ومما لا يحسن الاغضاء عنه ان العرب لا يصح قياسهم في احوالهم وانسابهم بأصحاب الطوتم من الامم المتوحشة من هنود استراليا وامريكا وزنوج افريقيا ، لان العرب من ارقى الامم عقلاً ونفساً ، وهم اهل تمدن قديم مثل تمدن ارقى الشعوب القديمة ، وقد ذهب بعض الباحثين في آثار اليمن وحضرموت الى ان التمدن العربي القديم اصل التمدن المصري القديم ، اي ان الفراعنة اخذوا تمدنهم من بلاد اليمن – ومهما يكن من منزلة هذا القول من الصحة فانه يدل على اعراق العرب في المدنية منذ آلاف من السنين . دع عنك ارتقاء لغتهم في تركيبها وألفاظها ، وهو يشهد بارتقاء عقول اصحابها من اقدم ازمنة التاريخ وقبله ، فهل يعقل ان يتخذوا آباء من النبات او الحيوان كما يفعل اعرق الامم وحشية اليوم ؟ على ان القول بالطوتمية بحد ذاتها من الغرابة بحيث يصعب علينا تصديق وجودها في الامم المتوحشة ، ونخشى ان يكون القول بها مبنياً على الاستقراء الناقص . ولنتقدم الآن الى النظر في ادلة صاحبنا فننظر فيما يختص منها بالامومة ، ثم ما بناه عليها من الطوتمية عند العرب فنقول :

٣ – الأمومة عند العرب

الأمومة على الاجمال

الامومة الانتساب الى الام ، ويراد بها انتساب اهل القبيلة او الامة الى امهاتهم بدلاً من آبائهم ، فيقال : فلان بن فلانة كما يقال في الابوة : فلان بن فلان . والامومة من الابحاث التي حدثت في اواسط القرن الماضي بعد شيوع مذهب الارتقاء ، واول من استلفت الانظار اليها عالم الماني اسمه باخوفن في كتاب نشره سنة ١٨٦١ ، فاهتم به علماء العمران لاختلافه عما تعودوه من نظام العائلة المألوف . ومرجع بحثه ان الامومة سابقة في تاريخ العائلة للأبوة ، فعنده ان الزواج كان عند الاقدمين فوضى بلا شرط ، وهو زواج المشاركة فاذا ولدت بعض النساء غلاماً لا يمكن تعيين والده وهو ملازم امه للرضاع فينتسب اليها

ويعرف بها ، فيصير الانتساب الى الامهات قاعدة عامة . فأصبح للمرأة المقام الاول في الهيئة الاجتماعية وهي صاحبة النفوذ ، كما هو حال الرجل اليوم .

* * *

ثم ظهر كتاب مكلينان الانجليزي في الزواج عند القدماء Primitive Marriage نشره سنة ١٨٦٥ فذهب في الامومة مذهباً جعل اساسه الزواج الخارجي ، اي تزوج الرجال ببنات من غير قبيلتهم بالغزو لقلة البنات عندهم بالوأد (على زعمه) فنشأ عن ذلك في اعتقاده زيادة عدد الرجال ، فاضطر كل جماعة منهم الى الاكتفاء بامرأة واحدة وهو تعدد الازواج ، وانحصر النسب في الام وعلت منزلتها . وهو قول ضعيف الاسناد متناقض المعنى ـ كيف يمكن حفظ النسب بالامهات وكل منهن مجلوبة من الخارج ولها نسب خاص ؟ على ان مذهب مكلينان في اصل العائلة ما لبث ان سقط بما كتب فيه المنتقدون ، وخصوصاً مورجن العالم الأمريكي صاحب كتاب نظام الاجتماع عند القدماء ، فقد برهن ان الزواج الداخلي لا ينافي الأمومة . وكتب في الأمومة ونظام العائلة غير واحد من علماء الاجتماع الالمان والفرنسيين والانجليز والروس وغيرهم ، مثل باجيهوت ودارجون واميرا وويلكن وستارك وبريد وجيرو وسميث ووسترمارك وغيرهم مما يطول بنا تعداده ، فنكتفي بآخر من خاض هذا العباب وهو الاستاذ ويلكن المستشرق في كلية ليدن ، فانه وضع كتاباً في الامومة عند العرب على الخصوص ، كتبه بعد مطالعة كتاب الاستاذ روبرتسن سميث في طوتمية العرب ، فوافقه من وجوه وانتقده من وجوه ، ولكنه يرى رأيه في ان الامومة كانت سائدة عند العرب قبل الاسلام ، وان الانساب التي يتناقل العرب اخبارها موضوعة . واستشهد بقول نولدكي المستشرق الالماني الشهير في هذا الشأن ، وخلاصة قوله ان الانساب العربية وضعها ابن الكلبي وغيره بعد الاسلام لفقوها تلفيقاً (١) وهو قول قد بينا بعده عن الامكان وستأتي تتمة الكلام .

ولو أردنا الاتيان على اقوال الباحثين في هذا الموضوع لضاق بنا المقام ، فنتقدم الى النظر في ادلة سميث التي نحن في صددها ومن قال قوله :

أدلتهم على أمومة العرب

ليس في أدلة سميث ولا غيره على الامومة عند العرب قول صريح او دليل ثابت ،

---

١ ـ Zeitsch. der Deutch. Marg. Gesl. Bd. XVII, 707

وانما هي قرائن او اشارات لو ثبتت أمومة العرب لكانت مؤيدة لها لا ان تكون هي وحدها دليلا عليها . فانتساب بعض القبائل او البطون أو العشائر الى امهاتهم ، وتأنيث اسماء القبائل ، واشتقاق لفظ الامة من الام ، واطلاق لفظ الخال على اهل الام جميعاً ، وامتلاك بعض النساء عصمتهن بالطلاق ، وغير ذلك مما عول عليه صاحبنا في اثبات قوله على ما سنبينه .. هذه كلها ـ اذا فرضنا ثبوتها ـ لا يجوز اتخاذها دليلا على ان العرب كانوا ينتسبون الى امهاتهم أو أن أساس العائلة عندهم المرأة . لان وجود هذه الاحوال في جاهلية العرب لا ينافي انتسابهم الى آبائهم، بل هي تعد من قبيل الشواذ، أو انها وقعت على سبيل الاتفاق . ولو جاز لنا ان نجعل الشواذ قواعد لفسدت احكامنا وضللنا في اقوالنا وعقائدنا . فالثابت منذ قرون عديدة أن العرب وغيرهم من الشعوب السامية كان نظام الاجتماع عندهم كما هو الآن ، أي ان الرجل هو رأس العائلة وهو سيدها ، ويؤيد ذلك لفظ « البعل » للزوج والسيد جميعاً . ناهيك بشهادة التوراة ، فانها مع قدم عهدها لم يرد في نص من نصوصها فقرة تشير الى الامومة أو تدل على وجودها أو أثر شيوعها عند الساميين او غيرهم ، ولو على سبيل النقد او النهي او الاصلاح . ولا ورد شيء من ذلك في القرآن، ولا شوهد منقوشاً على الآثار في مملكة من ممالك الشرق قديماً ولا حديثاً، بل كل ما جاءنا من هذا السبيل يؤكد سيادة الابوة عند الساميين . ولو افترضنا وجودها لاقتضى ان يكون ذلك قبل اسفار موسى بمدة لا نعلم مقدارها ، لان هذه الاسفار لما كتبت لم يكن للامومة اثر على الاطلاق . بل ينبغي ان تكون قد امحت آثارها قبل موسى بعدة قرون ، لان شريعة حمورابي التي اكتشفوا نصها مؤخراً دونت نحو القرن الحادي والعشرين قبل الميلاد [١] وكل ما جاء فيها عن الزواج والطلاق ونحوهما يدل على ان نظام العائلة كان في عصر حمورابي نحو ما هو عليه الآن : الرجل رب العائلة . وليس في نص من نصوص شريعته او موادها لفظ او عبارة او قرينة تدل على وجود الامومة ، لا تصريحا ولا تلميحاً . ولا اطلعنا على ذكر الأمومة أو الاشارة اليها في كتاب من الكتب القديمة المتصلة بالخرافات ، مع ما تتضمنه من أقاصيص الآلهة ونحوها . ولا اكتشف المكتشفون نقشاً من نقوش الاطلال فيه اقل اشارة الى ذلك ، فكيف يجوز القول بوجودها والاستناد في اثباتها الى بعض القرائن الضعيفة ؟

---

١ ـ الهلال سنة ١٣ .

قول استرابون

والظاهر ان القائلين بالأمومة عند العرب نبههم اليها ما طالعوه في كتب السياح عن وجود زواج المشاركة عند بعض القبائل المتوحشة بين هنود امريكا وأستراليا وفي بـــلاد التبت ونحوها ، وان العرب الجاهلية كان عندهم نوع من هذا الزواج ، فذهبوا الى شيوعها قبل الاسلام ، وخصوصاً بعد ان قرأوا ما قاله الرحالة استرابون عن الزواج عند العرب في عصره ، اي نحو القرن الاول قبل الميلاد . فقد جاء في الكتاب السادس عشر من رحلته ما ترجمته : « والزواج عندهم مشترك بين الاخوة ، فللأخوة جميعاً امرأة واحدة ، والذي يدخل منهم اليها اولاً يترك عصاه بالباب . وأما الليل فهو خاص بأكبرهم . وقد يأتون امهاتهم ، والزناة يعاقبون بالقتل ، وهم الذين يتزوجون من غير قبيلتهم »[1] فقد يتبادر الى ذهن المطالع لأول وهلة ان هذه الفقرة تؤيد الأمومة ، وليس الأمر كذلك . لأن هذه القصة انما تشير الى اشتراك الاخوة في الزواج بامرأة واحدة ، وليس اهل العشيرة جميعاً . فهي تدل على وجود العائلة واستقلالها ، مما يخالف شروط الأمومة . وتشير ايضاً الى تحريم الزواج الخارجي ، وهو من أسس الأمومة عند اصحابنا ، ويقول استرابون ان العرب كانوا يعاقبون مرتكبه بالقتل .

وهب أن نص هذه الحكاية لا يخالف ما يريدونه بالأمومة ، فتكون الامومة شائعة عند العرب حوالى تاريخ الميلاد . وقد تقدم قول الاستاذ سميث ان العرب والعبران والآراميين كانوا في اقدم ازمانهم عائشين معاً في جزيرة العرب ثم خرج العبرانيون والآراميون وظل العرب مكانهم . وبينا قبلا ان العبرانيين لا ذكر لهذا الزواج عندهم على الاطلاق ، ولا سمعنا بمثله عند الآراميين ، واغفال حمورابي ذكره في نصوص شريعته يدل على انه لم يكن معروفاً في عصره في بلاد ما بين النهرين أو ما يجاورها ، فكيف نصدق وجوده عند العرب نحو تاريخ الميلاد ؟ فالأرجح عندنا ان يكون استرابون قد شاهد حادثـة من هذا النوع عند بعض الناس فأطلقها على سائر العرب ، أو سمعها من بعض الرواة فصدقهـا لغرابتها ، فأوردها على علاتها كما يفعل كثيرون من أمثاله ، الذين يرحلون الى بلاد الشرق فيعولون في وصف أهله وعاداتهم على ما يلقيه عليهم بعض التراجمة او عابري السبيل ، بما فيه من المبالغة او الاختلاق ، وهم ارغب في نشر الغريب استجلاباً لاعجـاب قرائهم ، كما حدث في الأجيال الوسطى وما بعدها على اثر انتشار الاسلام .

---

[1] Strabon, Trad. A. Tardien, Livre XVI, 25

ومع اشتغال الافرنج بنقل العلم عن الكتب العربية في القرنين الحادي عشر والثاني عشر للميلاد ، واختلاطهم بالمسلمين في قرطبة وطليطلة وغيرهما ، فقد ظلوا يجهلون تهجئة اسم النبي فيكتبونه تارة مفمت Mophomet ، وآونة بفمت Bophomet ، وحيناً بافون Bafon ، وكانوا يظنون محمداً صنماً يعبده المسلمون . حتى يولوجيوس احد كهنة قرطبة العلماء ، مع مخالطته المسلمين في تلك العاصمة ، فقد كتب عن الاسلام مفتريات لا اصل لها في كتبهم ولا في تعاليمهم ، كقوله مثلاً ان النبي (صلعم) اعلن اصحابه ان الملائكة ستحمله الى السماء بعد موته بثلاثة ايام – زعم انه نقل ذلك من مسودات لاتينية عثر عليها في بمبلونة . فقس عليه ما قد يختلقه غير العارفين ، كما حدث ويحدث كل يوم الى عهد غير بعيد . حتى الذين يقيمون بين اظهرنا اعواماً فقد ينقلون عنا الأكاذيب التي ما انزل الله بها من سلطان، وربما رأوا حادثة غريبة ارتكبها بعض الناس عن جهل او اتفاق فيعدونها من القواعد المرعية عند سائر افراد الأمة . وبين يدينا رحلات عديدة كتبت ونشرت في اثناء القرنين الماضيين عن سوريا ومصر ، وفيها من المفتريات ما لا اصل له الا في ذهن الكاتب او ملقنه، ولولا انتشار الطباعة وخروج الناس الى نور العلم وتصحيح تلك المفتريات ، لرسخ في اذهان اهل الغرب ان الشرقي يكدن امرأته للحراثة ، وأنه يزرع القوارما (اللحم المقلي) وهو يعتقد أنه سيستغل خرفاناً ، ويزرع الفحم ليستغل عبيداً . . فكيف في عصر استرابون منذ نيف وتسعة عشر قرناً وهو يكتب عن قوم لا يعرف لسانهم ولا اقام بينهم ؟ ويؤيد ذلك ان تتمة قوله في هذا الموضوع تدل على انه اورده على سبيل الحكاية ، ولم يغفل الاشارة الى ضعف اسناده بقوله يزعمون On dit فلا عبرة بما ذكره استرابون فيما يختص بالامومة ، وهو بظاهره اصرح ادلة صاحب طوتمية العرب . واما سائر ادلته فانما هي قرائن ضعيفة لا يصح الاعتماد عليها . وحتى لا يقال أننا لم ننصفه نأتي بتلك الادلة وننظر في كل منها على حدة وهي :

١ ـ الانتساب الى الأمهات (صفحة ٢٧ و ٣٠ من كتابه)

كقولهم بنو خندف وبنو ظاعنة وكلاهما اسم امرأة نسبت القبيلة اليها – ولو نقبنا بين المئات من اسماء القبائل والبطون والافخاذ ما وجدنا بينها من ينسب الى أمهم الا بضعة قليلة . فأي غرابة في ذلك وبين العائلات اليوم نحو عشرة في المئة ينسبون الى الامهات ، كآل ظريفة وآل تقلا وآل نور وآل نائلة وآل مارية، وقس عليه اهل اللغات الاخرى ؟ فهل يجوز الذهاب الى ان هذه الاسماء من آثار الامومة عند اسلافنا ؟ ام نأتي على تعليلها

من الطريق الاقرب ، وهي ان بعض هذه العائلات نسبت الى امرأة هي جدتهم العليا ، لان جدهم مات وهي كفلتهم وربتهم فعرفوا باسمها . وقد يكون الاب مجهولاً لحصول الحمل من السفاح مما يحدث في الجاهلية وغيرها ، فيولد الولد لا يعرف ابوه فينسبونه الى امه ، كما وقع لزياد ابن ابيه الصحابى الداهية ، فقد كان يعرف بأمه سمية فيقال زياد بن سمية ، ولولا استلحاق معاوية اياه بنسبه لعرف اعقابه بآل سمية ، ولو تقادم عهد هذه العائلة وتنوسي خبر أمها لاضافها صاحبنا الى اسماء امهات القبائل وعدها من بقايا الامومة .

ويكثر الانتساب الى الامهات على الخصوص في الامم التي يتزوج رجالها امرأتين فأكثر ، فيولد للرجل ولدان من والدتين يسميها باسم واحد ، فينسب كل منهما الى امه فضلاً عن انتسابه لابيه تمييزاً له عن ابن الام الاخرى ، وقد يشتهر بنسبته الى امه دون أبيه ، وأمثلة ذلك كثيرة قبل الاسلام وبعده . فقد كان لعلي بن أبي طالب غير امرأة ، ولد له منهن عدة اولاد من جملتهم ثلاثة كل منهم اسمه محمد ، فنسب أحدهم محمد الاكبر الى امه خولة بنت جعفر من بني حَنِيفة فسماه محمد ابن الحنفية ، فلو عاش هذا في الجاهلية لعرف اعقابه ببني الحنفية بطن من هاشم او من قريش ، كما عرف بنو العدوية نسبة الى امهم من قبيلة عدي .

وقد يشتهر الرجل باسم امه وان لم يكن له سمي من اخوته ، وانما يقع ذلك لشهرة والدته . فمحمد الامين بن هرون الرشيد اشتهر بابن زبيدة ، لفضل امه على سائر امهات الخلفاء وشهرتها ، وقس عليه . فهل يجوز ان تؤخذ هذه الحوادث ادلة على الامومة ؟ وزد على ذلك ان القبائل العربية التي تنسب الى امرأة ترجع اخيراً الى النسب الابوي ، وهو العام الشامل . فبنو ظاعنة مثلا نسبوا الى امهم ظاعنة وهم ينتسبون ايضاً الى ابيهم ، فيقال لهم بنو ثعلبة بن مراد بن اد . وبنو خندف هم أيضاً بنو الياس بن مضر ، وقد نسبوا الى امهم امرأة الياس واسمها خندف ، وبنو طهية نسبوا الى امهم ، وهم بنو سود بن مالك ، وقس عليه[١] .

٢ — تأنيث اسماء القبائل (صفحة ٢٨)

أي ان العرب تقول : جاءت مضر وسطت قيس الخ ، ولا يقولون : جاء مضر ،

---

١ — المعارف لابن قتيبة ٢٥ .

وسطا قيس ــ فلا ندري العلاقة بين تأنيث الاسم والامومــة ، والتأنيث والتذكير في العربية لا قياس لهما ، ولو صحت الامومة لما ضرها ان تكون اسماء القبائل مذكرة ، كما ان تأنيثها لا يثبت وجود الامومة . على ان لتأنيث القبائل سبباً مبنيــاً على قاعدة من قواعد اللغة ، وهو تقدير لفظ « القبيلة » قبــل كل اسم ، فقولنا « مضر » ، يراد بــه « قبيلة مضر » ، وقولنا « قيس » يراد به «قبيلة قيس» ، فالتأنيث للفظ القبيلة المحذوف. والحكمة في ذلك دفع الالتباس بين ان يكون المراد بالفاعل رجلاً اسمه قيس او مضر او القبيلة . فاذا كان الفعل مؤنثاً انصرف الذهن الى القبيلة . وعلى هــذا المبدأ يؤنثون اسماء المدن وان لم يكن لفظها مؤنثاً ، فنقول : فتحت بغــداد وعمرت مصر او الشام بتقدير لفظ « مدينة » . ونحن نقول اليوم : روت المقطم ، وذكرت المؤيــد ، وقالت الهلال ــ فنؤنث الفعل ، والفاعل مذكر لفظاً ومعنى ، وانما نقدر قبله كلمة الصحيفة او المجلة .

٣ ــ التعبير عن القرابة بالبطن (صفحة ٢٨)

فيزعم ان تسمية القبيلة بالبطن يؤيد اعتماد العرب على قرابة الام . والواقع ان البطن فرع من فروع القبيلة على سبيل التشعب كالشجرة ، وانما جعلوا اسماءهــا شبيهة بأسماء أجزاء البدن بالنظر الى علاقتها بعضها ببعض ، او تفرعها بعضها عن بعض. فالمجموع الأكبر عندهم « الحي » كناية عن الانسان كله ويراد به الجماعة النازلون بمربع وهو ينقسم الى « الشعوب » أي الفروع ، والشعبان النصفان ، كأنهم ارادوا انقسام الجسم الى شطرين متساويين : ايمن وايسر . ويليها « القبائل » وهي قطع عظم الرأس المشعوب بعضها من بعض . ثم « العمارة » كناية عن الصدر ، ثم « البطن » ، وبعده « الفخذ » ، واخــيراً « الفصائل » . فترى استخدام البطن للقبيلة او بعض فروعها لا علاقة له بالامومة ، وانما هو فرع من فروع النسب لما يقابله من اعضاء الجسد . واذا عدلنا عن هذا التعليل واعتبرنا كل اسم مستقلاً ، وقبلنا التعليل الذي تبــادر الى ذهن حضرته ، لاقتضى ان يدلوا بالبطن على العائلة التي هي من بطن واحد ، ولكنهم يريدون بــه القبيل المؤلف من عائلات .

٤ ــ اشتقاق لفظ الامة من الام

وهو عنده دليل على ان الأصل في النسب الام ، وخصوصاً لأن الام في العبرانية تدل

على القبيلة او الجماعة ، ولكن هذا التعبير انما هو من قبيل المجاز ، مما لا يخفى على العارف بأساليب اللغة العربية ، كقولهم : ام القرى ، وام المدائن ، والأمهات للعناصر . وعندهم الأم الاصل ، فأم كل شيء أصله وعماده ، وكل شيء انضمت اليه اشياء فهو ام لها . والاصل في هذه المعاني اتباع الاطفال امهم ، لأنها هي المكلفة بتربيتهم في طفولتهم ، فيتبعونها وينقادون لأمرها لا لأنها أصل النسب . ولهذا السبب قالوا ام الكتاب اصله ، وام القرى مكة ، وام الدنيا مصر لكثرة اهلها . واما اشتقاق الامة من الام فيعلل بنفس هذه الكيفية ، لاستعارة الامومة للرئاسة او من التوليدلظهور ذلك في النساء دون الرجال، لأن المرأة تضع النسل وهي تتولى الحضانة والتربية . فاذا ذكرنا الولادة سبق الى اذهاننا الأم ؛ ولذلك غلب التعبير عن القرابة بعضو التوليد بالنساء كالبطن او الرحم ، وليس لأن الأم اصل القرابة . ولو تتبعت معاني ما يقابل لفظ الامة في سائر اللغات لرأيت لها نفس هذا المعنى ، فلفظ nation في اللغات الافرنجية معناه الامة وهو مشتق من فعل في اللاتينية بمعنى « ولد » ، والانجليز يقولون Motherland ويريدون بها وطن الابوين مع ان اللفظ يقتضي ان تكون وطن الام فقط . فعلى تعليل صاحبنا تكون هذه اللفظة دليلاً على شيوع الامومة عند الانجليز الآن !

ب ـ الخال والعم والكنة

وذلك ان لفظ « الخال » بالعربية لا يراد به اخو الام على الخصوص ، ولكنه يطلق على كل رجل من اهلها . وكذلك لفظ « العم » وان هذه اللفظة اصل معناها « الشعب » ، وذلك هو مؤداها في العبرانية الى الآن . وعليه فلا تكون عند العرب غائلة خصوصية وانما الولد يكون ابن الجماعة او القبيلة على ما تقتضيه الامومة او الطوتمية ـ وهو قول غريب اذا صح الاعتماد عليه تشوشت احكامنا في انساب الانجليز والفرنسيين وغيرهم ، لأنك ترى عندهم نفس هذا الاطلاق او الاشتراك ، فلفظ Cousin في السنتهم يدل على كل قرابة عصبية ابعد من الاخوة ، فهو ابن العم ، وابنة العم ، وابن العمة ، وابنة العمة ، وابن الخال ، وابنة الخال ، وابن الخالة ، وابنة الخالة ، وابن ابن العم ، وابن ابن الخال الخ ... مما لا مثيل له في العربية . والاصل فيه ابن الخالة ، لأنه منحوت من Consobrinus في اللاتينية أي ابن أخت الأم ـ فهل يفيدنا اطلاقه على كل الأقرباء ان الأصل في القرابة الام؟ وقس على ذلك لفظ uncle في الانجليزية وما يقابلها في اللغات الافرنجية الاخرى ، فانها تدل على العم او الخال واصلها avunculus في اللاتينية ومعناها الخال ثم اطلقت على العم . والحقيقة ان لا عبرة في هذا الاختلاف فيما يختص بالامومة ، فان اللغات تختلف في طرق

الدلالة بما لا قياس له، وخصوصاً من حيث درجات القرابة . ففي بعض اللغات لفظ يدل على قرابة لا يعبر عنها في لغة اخرى إلا بعدة الفاظ: فالصهر في العربية لا يمكن التعبير عنه في اللغة الانجليزية الا بثلاثة الفـاظ brother-in-law ، وكذلك الحمو فهو عندهم father-in-law ، والجد يعبر عنه في اللغة الانجليزية بلفظين grand father ، وكذلك حفيد Grandson وبعكس ذلك لفظ Nephew في الانجليزية فلا يمكن التعبير عنه في العربية الا بلفظين : ابن الاخ او ابن الاخت ، ومثلها Niece بنت الاخ او بنت الاخت – فدلالة كل من هذين اللفظين على اولاد الأخ والأخت معاً قد يتخذها اصحاب رأي الامومة من جملة الادلة عليها !

ولفظ « الكنة » في العربية يراد به في اللغات السامية الكنة والزوجة على السواء ، فاستدل صاحبنا بذلك على ان الرجل كان يتزوج كنته (أي امراة ابنه او امرأة اخيه) فلا رابط للزواج بين الرجل وامرأته . والجواب على ذلك يدخـل فيما تقدم بيانه من اختلاف معاني الالفاظ توسعاً ومجازاً . ومثلها لفظ « صهر » يراد بها زوج بنت الرجل وزوج اخته ، ويراد بالصهر ايضاً القرابة على العموم ، والاصهار اهل بيت المرأة . ومنهم من يجعل الصهر من الاحماء ، فهل يصح الاعتماد على مثل هـذا التوسع في اثبات مبدأ أو رأي ؟

٦ – زواج المتعة

وهو الزواج الوقتي ، اي ان يعقد الرجل على امرأة عقد زواج الى اجل مسمى فمتى انقضى الاجل بطل الزواج . فيرى صاحبنا ان هذا الزواج كان شائعاً عند ظهور الاسلام، وهو بحسبه يؤيد رأيه في الأمومة ، وهي تقتضي اباحة نساء القبيلة لأهل القبيلة بلا عقد ولا شرط ، والمتعة لا تكون بدون عقد فهي تناقض ما اراد اثباته . فالمتعة ضرب من ضروب الزواج التي كانت شائعة في الجاهلية ، وكلها تنفي الامومة لأن الرجل فيهـا صاحب السيادة وصاحب العصمة .

٧ – الوأد

يرى صاحب طوتمية العرب ان شيوع الوأد في الجاهلية قلـة البنات فاضطروا الى الاشتراك في النساء ، فكان يشترك عدة رجال في امرأة واحدة يستولدونها ويكون الانتساب اليها. وقد بالغ بعض الباحثين في مسألة الوأد وتوهموها عادة شائعة في بلاد العرب

كلها، والناقد يرى انها كانت منحصرة في مكان معين وزمان معين تحت احوال مخصوصة، والا فلا يعقل أن يعمد الى دفن بناتهم ثم يضطروا الى المشاركة في الازواج وفي طاقتهم ان يتخلصوا من ذلك الضيق . وقد ذهب بعضهم الى ان العرب كانوا يئدون بناتهم خوف الفقر ، وهم في حل من هذا الفقر لو استبقوهن على قلة البنات لما يجدون من اقبال الأزواج عليهن بالمهر والهدايا . وقال آخرون انهم كانوا يئدونهن خوف العـــار ، واذا صحت الامومة لم يكن ثمة عار يخافه الآباء . وخوفهم العار على بناتهم دلالة على الغيرة ، وهي لا تكون في زواج المشاركة ، وفي الحالين فان دليله في الوأد ساقط .

٨ – العصمة في يد المرأة

وقد اتخذ امتلاك بعض نساء الجاهلية عصمتهن في الزواج والطلاق دليلا على سيادة الامومة ، وان المرأة هي رئيسة العائلة ـ فما اغرب هذا الاستنتاج وما انقص هذا الاستقراء..ان المرأة في الجاهلية لم تكن عصمتها في يدها الا في احوال مخصوصة وحوادث نادرة ، فهل نجعل الشاذ قاعدة نبني عليه ، والنادر قياساً نقيس به ؟ واما القاعدة في زواجهم فهي ان تكون العصمة في يد الرجل . وهب أنها في يد المرأة ، فلا تكون الا بعقد مقيد بشروط وقوانين ، وليس على سبيل الاباحة والاشتراك كما يريدون بالامومة . وقس على ذلك سائر أدلته لاثبات الامومة ، فان مرجعها الى تأويل الالفاظ والاعتماد على الاستقراء الناقص كقوله ان الاب معناه المربي ، وكاستخراجه الحي من حواء وذكره القرابة بالرضاعة او المؤاكلة وتأويل لفظ آحاب الى أخ أب ، ونحو ذلك مما يقاس في رده بما قدمناه .

الخلاصة

فالقول بشيوع الامومة في العرب الجاهلية لا يستطاع اثباته بالقرائن الضعيفة ، لان اليقين لا يزال بالشك ، الا اذا جاز الاعتماد على الشاذ واغفال القواعد العامة . فقد رأيت في شروط الامومة أن يكون الزواج من الخارج بالغزو او السبي ، لان بنات القبيلة في زعمهم تقل بالوأد او بغيره ، وان تكون المرأة زوجاً لعدة رجال معاً واولادها ينسبون اليها ، فلم نفهم كيف يكون الزواج بالغزو ، وكيف يمكن الرجوع بالانساب في القبيلة الواحدة الى الام ، ولماذا تقل البنات حتى تضطر القبيلة ان تغزو غيرها للحصول على النساء. والقاعدة الطبيعية في تاريخ الانسان في أدواره الاولى أن يكون النساء اكثر من الرجال ،

لتعرض هؤلاء للقتل ونحوه بالغزو والسطو ، والاولى ان يكثر النساء حتى يتزوج الرجل عدة منهن . على ان الحصول على النساء بالغزو يبعث على الرجوع الى النسب الابوي ، لان الآباء يبقون في القبيلة . ويشبه ذلك ما كان من كثرة السبايا والجواري في صدر الاسلام ، فانهن تكاثرن حتى اختص الرجل بعشرة أو عشرات منهن ، وظل النسب في الرجال — ولا يمكن غير ذلك كما يظهر للمتأمل . ولو فرض ان النساء يحاربن القبائل للحصول على الازواج بالسبي ، لكان ذلك اقرب الى حفظ النسب فيهن ، اي الانتساب اليهن او الى قبيلتهن .

فالقول بتسلط الامومة على الاجمال يفتقر الى اثبات او تعديل، لان وجودها على هذه الكيفية غير معقول ولا يوافق قواعد العمران ، او هو لا يوافقها على الاقل عند العرب ، لان القاعدة في الزواج عندهم وعند سائر الساميين ان تكون داخل القبيلة ، واذا جنح احدهم الى الخارج فلسبب طارىء . هذا هو حالهم في اقدم ما نعلمه من اخبارهم في التوراة وغيرها ، والعربي يسمي امرأته ابنة عمه وان لم تكن كذلك ، لان الغالب في الزواج عندهم ان يكون بين ابناء العم على تفاوت درجات العمومة . واليهود اكثر الامم محافظة على انسابهم ويمنعون الزواج من غير قبائلهم ، ويعاقبون من يخرج عن ذلك عقاباً صارماً ، واذا تزوج اسرائيلي بغير اسرائيلية فزواجه سفاح ، ويسمون المولود من ذلك الزواج « نغلا » كما يسميه العرب « هجينا » اي لئيماً ، فكيف نزعم مع ذلك ان العرب القدماء كانوا يتزوجون من الخارج بالغزو ، واذا فرضنا أنهم كانوا كذلك فمتى انتقل الزواج الى الداخل ، وكيف انتقلت الامومة الى الابوة او البعولة ، ومتى ؟ كلها مسائل مهمة لا يمكن الجواب عليها ، واصحاب مذهب الامومة انفسهم يعترفون بعجزهم عن ذلك ، فما اغنانا عن الذهاب اليه . ومن يطالع تاريخ الزواج من اول احوال العمران الى الآن لا يرى فيه الا ما ينقض الامومة .

٤ — الطوتمية عند العرب

واذا نقض القول بالامومة عند العرب نقض معه القول بالطوتمية عندهم ، لانها اساسها واول شروطها . ومع ذلك فاننا ننظر في ادلة صاحبنا من حيث الطوتمية على حدة ، فنذكر شروط الطوتم كما فسره هو ، ثم ننظر في تطبيقها على احوال العرب .

فالطوتمية يشترط فيها « أن يتفق اهل القبيلة الواحدة على حيوان او نبات او كائن آخر يعتقدون أنه جدهم الاعلى يتسمون باسمه ويعبدونه او يقدسونه»، فهل ينطبق ذلك على احوال العرب الجاهلية انطباقاً كلياً او جزئياً ؟ ولكي ينجلي الموضوع ويتضح البرهان نحلل القضية الى اجزائها الاصلية ، وعليه فالطوتمية تقتضي :

أولاً ــ ان يتفق اهل القبيلة على حيوان او نبات يعتقدون انه جدهم الاعلى .

ثانياً ــ ان يتسموا باسمه او ينتسبوا اليه .

ثالثاً ــ ان يعبدوه او يقدسوه .

ولا تثبت الطوتمية ما لم تجتمع هذه المقدمات عند الثلاث العرب. ولو انك بحثت في اخبارهم قديمها وحديثها ، من الخرافات والحقائق الثابت منها وغير الثابت ، وفيما رواه غير العرب عن احوالهم القديمة في كتب اليونان والرومان فضلاً عن التوراة ، وما قرىء من اخبارهم على آثار أشور وآثار ثمود وآثار اليمن وحضرموت ، لما وفقت الى العثور على ما يشير الى وجودها . واذا درست احوال العرب الآن في الصحارى والمدن والاودية والجبال ، لا تجد بينهم قبيلة ولا بطناً ولا رجلاً يعتقد انه متسلسل من اسد او ثور او ثعلب او جميزة او وردة . ومهما اجهدت نفسك في التنقيب والمراجعة والتأويل فانك لا تجد اثراً لهذا الاعتقاد على الاطلاق، ولو على سبيل الخرافة او في معرض التكذيب او الطعن ــ فالمقدمة الاولى سقطت .

اما الثانية فبعضها صحيح ، اي ان بعض القبائل تسمى باسماء الحيوانات ، كبني أسد وبني النمر وبني كلب ونحوها ، ولكنها لا تعتقد ان اولئك الاجداد حيوانات ، بل هي تعدهم اناساً لهم انساب متصلة بالآباء الأولين.

والمقدمة الثالثة ظاهرها صحيح وباطنها فاسد ، لان بعض قبائل العرب كانت تعبد آلهة على شكل الحيوانات ،مثل عبادة سائر الامم الوثنية القديمة في مصر واشور وفينيقية ، ممن كانوا يعبدون أصناماً يمثلون بها القوى العلوية ــ لا انها تعبد حيواناً خاصاً تقدسه وتجتنب اذاه وتعتقد انه جدها كما يفعل أصحاب الطوتم . فبنو اسد مثلاً يتسمون باسم الاسد ، ولكنهم لا يعتقدون انه جدهم ولا يقدسون الاسد او يعبدونه ، واذا عرض لهم الاسد قتلوه . وقد يكون معبودهم من الحيوانات بشكل نسر او فرس او غيرهما من الاصنام الحيوانية . وشرط الطوتمية انما هو أن يعتقد بنو اسد ان الاسد جدهم ، وان

يقدسوا كل اسد او يعبدوه او لا يؤذوه. وبنو ثور يجب ان يعتقدوا ان الثور جدهم ، وان يعبدوا الثيران او يقدسوها ولا يذبحوهـــا او يؤذوها . وبنو جراد حقهم ان يعتقدوا تسلسلهم من الجراد ، ويقدسوه ولا يأكلوه كما رأيت فيما تقدم من شروط الطوتمية عند الامم المتوحشة اليوم . ولا يكفي ان تسمى القبيلة باسم الثور مثلاً وتقدس الجراد ، او تتسمى باسم الاسد وتقدس الفرس . ولو فرض واتفق لقبيلة ان تسمى بحيوان وتقدسه او تعبده فليست من الطوتمية في شيء ، لأن الشرط الاول ان تعتقد تسلسلها عنه . وهذه الشروط الثلاثة لم يتفق وجودها في قبيلة من قبائل العرب ، ولا في بطن من بطونها ، ولا في فصيلة ولا فرد من افرادها ولو على سبيل الخرافة او الاكذوبة . حتى اجتماع الشرطين الأخيرين فأنه متعذر ، اذ ليس بين قبائل العرب قبيلة تسمى باسم حيوان وتعبده ، ولا يكفي ان تعبد صنما بشكل ذلك الحيوان ، بل الشرط ان تقدس جنس هذا الحيوان وتتجنب اذاه ، كما كان المصريون يقدسون الهر او الجعلان . والعرب لا يقدسون حيوانـــاً إلا نادراً وفي احوال مخصوصة . على ان صاحبنا لم يتفق له ، مع ما اجهد نفسه وتوسع في برهانـــه من التأويل والتفسير ، أن يأتي بدليل على ان قبيلة من القبائل المسماة بأسماء حيوانية كانت تجسد صنماً بشكل الحيوان الذي تتسمى به ، وان كان توفيقه الى ذلك لاينفعه شيئاً ، لأن المطلوب ان القبيلة التي تتسمى باسم حيوان يجب ان تقدس جنس ذلك الحيوان لا ضنمـــاً بشكله.

فمذهب الطوتمية عند العرب ساقط بسقوط الأمومة ، ثم هو ساقط أيضاً لبعد احوال العرب عن شروط الطوتمية كما رأيت ــ ومع ذلك فلا ينبغي لنـــا الاغضاء عن الادلة التي اعتمد عليها صاحب طوتمية العرب في اثبات هـــذا الرأي وسبب ذهابه اليه مع غرابته فنقول :

٥ ــ أدلته على طوتمية العرب

ان من يطالع تلك الأدلة في كتابه يتضح له من مجملها انه لما اطلع على احوال الطوتمية عند القبائل المتوحشة كما ذكرها مكلينان وغيره ــ وهو مستشرق يعرف احوال العرب الجاهلية وقبائلها وأنسابها ومعبوداتهـــا ــ ورأى بعض القبائل او البطون تسمى بأسماء حيوانية ، وكان العلماء يومئذ مولعين بالحقائق الطبيعية على مذهب الارتقاء يشتغلون برد

كل الحوادث اليه كما قدمنا، ورأى النسابين العرب مختلفين في تحقيق انساب بعض القبائل، تبادر الى ذهنه ان اسماء هذه القبائل من بقايا الطوتمية عند العرب ، فأخذ يفتش عن شروطها الأخرى ، فرأى بعض القبائل تعبد اصناماً بشكل بعض الحيوانات ، فتمكن ذلك الرأي من ذهنه ونسي ان الشرط ليس عبادة صنم حيواني الشكل وانما المراد تقديس صنف من الحيوانات اسمه كاسم القبيلة . او لعله انتبه لذلك وظن نفسه قادراً على الاتيان بحادثة يمكن تأويلها او قرينة يستدل بها على شيء ، واخبار العرب كثيرة وفيها الغث والسمين والناقض والمنقوض ، وهو قوي الحجة لطيف الأسلوب فوفق الى أدلة توهم غير المتأمل انه اصاب بها المرمى وهو بعيد عنه كما سترى . واليك ادلته وبيان فسادها :

تسمية القبائل بأسماء حيوانية (صفحة ١٨٨)

ليس بين أدلته على الطوتمية ما يصح اعتباره من قبيل القول الصريح الا اسماء القبائل، وإن كانت هذه الاسماء لا تكفي وحدها لاثبات رأيه لاسباب تقدم بيانها . ولكنه يحتج بأن تسميتها بأسماء حيوانات ليست من قبيل العبث ولا بد لذلك من سبب . فعلينا ان ندفع حجته بأن هذه التسميات طبيعية لا غرابة فيها .

ان صاحبنا الاستاذ اورد من اسماء القبائل كل ما يشتم منه رائحة الحيوانية ، ولم يزد عدد ما اورده منها على ثلاثين اسماً بعضها قبائل وبعضها عمائر وبعضها بطون او فصائل وهي :

بنو أسد	بنو جعدة	بنو ضب	بنو فهد
بنو بدن	بنو جعل	بنو ضبيعة	بنو كلب
بنو بكر	بنو حداء	بنو عضل	بنو نعامة
بنو بهثة	بنو حمامة	بنو عنز	بنو نمر
بنو ثعلب	بنو حنش	بنو غراب	بنو وبر
بنو ثور	بنو دؤيل	بنو فهد	بنو هوزن
بنو جحش	بنو دب	بنو قرد	بنو يربوع
بنو جراد	بنو ذئب	بنو قنفد	

ولو عددنا اسماء القبائل العربية وفروعها من العمائر والبطون والافخاذ والفصائل لزادت على بضع مئات ، وربما ناهزت الالف . فلو كانت التسمية طوتمية لوجب ان يزيد عدد القبائل الطوتمية على سائرها ، ثم ان بعض ما اورده من الاسماء له غير معنى الحيوانية ، ولكنه اختار الحيوانية ليزيد اسباب برهانه . فبكر مثلاً تفسر بولد الناقة ، ولكن لها معنى « العذراء » ، و«اول كل شيء » ، والسحابة ، والكرم اول حمله ، وغير ذلك . على اننا لو رجحنا معناها الاول ، أي ولد الناقة ، لما كان في التسمية شيء من الطوتمية ، لأن العرب لو جاز ان يتسموا بحيوان ويعبدوه لكان « الجمل »أو «البعير» اولى من سواه ، نظراً لاضطرارهم اليه وقدم عهده عندهم ،وليس من القبائل ما يسمى به إلا بكر هذا ،وهو اقرب ان يكون لقباً لقب به رجل فتي نشيط كأنه ولد الناقة . و « البهثة » البقرة الوحشية ، وابن الزناء. و« الجعدة » الانثى من اولاد الضأن ، والمرأة في شعرها جعودة ، فلماذا لا يكون المراد بها المعنى الثاني لو لم يسبق الى ذهنه الطوتمية ؟ و« العضل » الجرذ ، ولكنه أيضاً يدل بكسر العين على الداهية من الرجال او القبيح منهم ، فلماذا لا يكون احد هذين المعنيين ؟ و« القهد » نوع من ضأن الحجاز ، ولكنه يدل ايضاً على الرجل الابيض اللون نقيه . وقس على ذلك – فالقبائل التي تثبت تسميتها بأسماء الحيوانات لا تزيد على بضعة وعشرين قبيلة او فرع قبيلة .

فاتفاق هذا العدد القليل بين مئات من الاسماء لا يصح عزوه الى الطوتمية ، فان الناس ما برحوا منذ القدم يتسمون بأسماء الحيوانات ، او يتلقبون بها ثم يذهب الاسم ويبقى اللقب كما سنبينه .

التسمية

ان لأسماء الاعلام تاريخاً طويلا في علم العمران ، وهي تختلف صورة ومعنى باختلاف العصور وباختلاف الامم . فكل امة تختلف التسمية فيها عما في سواها ، وتختلف في الامة الواحدة باختلاف أدوار تمدنها . على انها في كل حال تقتبس مما يقع في النفس موقع الاعتبار من الكائنات على اختلاف طبقاتها،فتختار من اسمائها ما يلائم عاداتها ومعتقداتها. فاذا تدينت انتسبت الى الاله او الآلهة ، سواء كانت تلك الآلهة اجراماً سماوية او حيوانات او اصناماً او غير ذلك . اما قبل التدين او في حال البداوة الخشنة ، فالغالب

ان يختار الناس لابنائهم اسماء ما يعجبون به أو يخافونه من الاجسام الطبيعية ، ولا سيما الحيوانات على ما يتوسمونه في المولود من القوة او الشجاعة او الدهاء او الدعة أو الخوف. فيختارون له اسم حيوان فيه مثل هذه الطباع ، فيسمون الرجل الشجاع بالاسد ، والسريع الوثوب بالنمر ، ويسمون الفتاة اللطيفة بالغزال او الحمامة . وقد جرى على ذلك معظم الامم القديمة في كل انحاء العالم ، ولا سيما الامم الحربية او اهل البداوة والغزو الذين يعيشون في البراري ويرحلون من نجع الى آخر والحيوانات عشراؤهم ، كما كان شأن العرب في ايام جاهليتهم فقد كانوا يعيشون بين الحيوانات حتى درسوا طبائعها ووصفوا كلا منها بوصف خاص ، فاذا ولد لهم ولد هان عليهم تشبيهه بواحد منها بشكله او طباعه ويسمونه به .

وليس هذا خاصاً بالعرب ، بل هو يتناول سائر اهل البادية او من جرى مجراهم قبل تعلقهم بالدين . فاليهود كانوا في اوائل ادوارهم يجرون في التسمية على هذا النمط، ولذلك رأيت بين اسمائهم القديمة كثيراً من اسماء الحيوانات ، كقولهم دبورا (نحلة) وأربه (أسد) ويونا (حمامة) وراحيل (نعجة) وشوال (ثعلب) وكالب (كلب) وديسان (غزال). او اسماء الاجرام السماوية مثل حودش (الهلال) . ومن الاوصاف الطبيعية أشور (اسود) وايدوم (احمر) وعيسو (كثير الشعر) وكوره (شجاع) . وقس على ذلك سائر الامم القديمة ، ولا سيما قبل تدينها فقدماء الانجليز كانوا يتسمون بأسماء الحيوانات ايضاً ، ومن اسمائهم القديمة Ethelwolf (الذئب الشريف او ذئب الحرث) وقد تسموا بالاوصاف الطبيعية كالابيض والاسمر والطويل والقصير ، ثم تدرجوا الى الصناعات كالحداد والنجار والنقاش والسروجي . وانما يهمنا في هذا المقام الاسماء الحيوانية ، وهذه لم تخل امة من التسمية بها ، على تفاوت في ذلك بتفاوت احوالهم من البداوة والحضارة . ولا يزال عند الأمم المتمدنة حتى الآن عدد كبير منها او ما يقابلها من اسماء الكائنات الطبيعية كالحجارة والاشجار ، واليك امثلة من ذلك :

فمن الاسماء اليونانية والرومانية :

كالاسد أو الاسد	Leonidas
أسد الغاب	Napoleon

صخر	Peter
محب الخيل	Philip
غزال	Darcas
أسد	Leo

ومن الاسماء الجرمانية والسكسونية والتيوتونية :

النسر او قوي كالنسر	Arnold
الحجر الشريف	Athelston
الذئب او قوي كالذئب	Bernard
العقاب او قوي كالعقاب	Bertram
الخنزير البري	Everard
نعجة	Giles
عقاب	Ingram
أسد	Leonder
كالاسد او كالعقاب	Leonard
خروف	Oven
ذئب المنازل	Randal
الذئب المشهور	Rodolph
الحية الشريفة	Ethelnid

ومن الاسماء الفارسية القديمة :

شير كوه	اسد الجبل
ببر او بابر	الاسد
جمشيد	وجه الشمس
اردشير	الاسد الغضوب
بلاش	نوع من النمر
سيمورغ	السمك الفضي
زرسب	الجواد المذهب

بهرام	المريخ
الضحاك	الثعبان

فترى مما تقدم أن التسمية بالاسماء الحيوانية من القواعد الطبيعية المرعية عنـــد سائر الامم ، وربما كان العرب أكثر تمسكاً بها لما تقتضيه بداوتهم وخشونتهم ، ولذلك كثرت عندهم الاسماء المتعلقة بالحروب ايضاً ، كحرب ونصر وسعد وعدوان وعبس وأشجـع وسهم وصخر ونحوها – قيل لأبي الدقيش الاعرابي: «لم تسمون ابناءكم بشر الاسماء نحو كلب وذئب وعبيدكم بأحسنها نحو مرزوق ورباح ؟ » فقال : « انما نسمي ابناءنا لاعدائنـا وعبيدنا لانفسنا » (١) .

على ان المتعبدين من العرب للاصنام كانوا يتسمون عبيداً لها كعبد العزى وعبد مناة وعبد شمس وعبد سعد وعبدتيم وغيرها . ولما اسلموا كثرت اسماؤهم المنسوبة لله او بعض صفاته ، كعبدالله وعبدالرحمن وعبد الرحيم وعبد الاحد وعبد الصمد . وذلك شأن الأمم المتدينة في كل مكان وزمان ، فالاشوريون كانوا يتسمون بالنسبة الى آلهتهم مثـل « تغلاتنين » عبد الاله تنين ، و « متاغل نبو » عابد نبو ،وكذلك البابليون فانهم يضيفون اسماءهم الى الههم « بل » او « نبو » ، فيقولون « بل ابني » بل صنعني ، و« نبو نصر » اي نبو ينصر ، و « عبدنبو » أي عبـد الاله نبو ، و« نبو بالوزور » نبو يحمي ابني(٢) وكذلك اليونان بعد تنصرهم ، ومن اسمائهم « ثيودسيوس » عطية الله ، و« ثيودورس » عبدالله وغيرهما .

فتسمية العرب الجاهلية رجالهم بأسماء الحيوانات امر طبيعي يؤيده تصغير تلك الاسماء للتحبب ، كقولهم ذؤيب واسيد وكليب ونحو ذلك، مما لا يفسر إلا اذا كانت تلك الاسماء القاباً للناس . وظل العرب على ذلك في بداوتهم حتى تدينوا وتسموا بالاسماء الدينية كما تقدم . ولمـــا تمدنوا تسموا بأسماء الصناع كالنحاس والصيدلاني والكحال والنجار والاسطرلابي ، ولما ضعفت عصبية النسب عندهم تسموا بالنسبة الى البـــلاد كالدمشقي والبغدادي والبصري والبخاري والنيسابوري وغيرها – فبقاء بضعة وعشرين من القبائل القديمة على اسماء الحيوانات ليس أمراً غريباً .

---

١ – الدميري ٢٤٢ ج ٢ .

٢ – Rawlinson's Ancient Monarchies, II. 539 & III, 527

قال الجاحظ في كتاب الحيوان : « والعرب انما كانت تسمي بكلب وحمار وحجر وجعل وحنظلة وقرد على التفاؤل بذلك. وكان الرجل اذا ولد له ذكر خرج يتعرض لزجر الطير والفأل ، فان سمع انساناً يقول حجر او رأى حجراً ، سمى ابنه به وتفاءل فيه الشدة والصلابة والبقاء والصبر وانه يحطم ما لقي ، وكذلك اذا سمع انساناً يقول ذئب او رأى ذئباً تأول فيه الفطنة والمكر والكسب ، وان كان حماراً تأول فيه طول العمر والوقاحة والقوة والجلد، وان كان كلباً تأول فيه الحراسة واليقظة وبعد الصوت والكسب، ولذلك صور عبيدالله بن زياد في دهليز كلباً وكبشاً واسداً وقال : كلب نابح وكبش ناطح واسد كالح ، فتطير على ذلك فطارت عليه » .

التلقيب

هذا على فرض انها اسماء سمي بها آباء تلك القبائل ، ولكن كثيراً منها كان في الاصل لقباً الحق بالاسم الاصلي ، ثم ذهب الاسم وبقي اللقب، مما يقع دائماً وخصوصاً عند العرب، لأنهم مفطورون على التلقيب والتكنية ، ويتضح لك ذلك من مراجعة معجماتهم ، فانك ترى للأسد مئات من الاسماء اكثرها القاب لقبوه بها ثم صارت اسماء ، وكذلك الديك والغراب والفرس والبعير والذئب والحية والجراد وغيرها من حيواناتهم ، غير اسماء الاسلحة ، ناهيك بالمترادفات من اسماء الشمس والمطر والبحر والبئر واللبن والعسل والخمر والنار . ومن الالقاب كالطول والقصر والشجاعة والجبن والكرم والبخل والحمق ونحوها[1] ولكل منها مئة او مئات من المترادفات واكثرها القاب او كنايات تدل على ميل العرب الى التلقيب والتكنية من فطرتهم .

وكانوا يضربون الامثال غالباً بالبهائم ، فلا يكادون يذمون او يمدحون الا بذلك ، لأنهم جعلوا مساكنهم بين السباع والاحناش والحشرات ، واستعملوا التمثيل بها لما الفوه من طبائعها ، وخصوصاً القبائل العدنانية لسكناهم في صحاري نجد والحجاز ، وبلادهم اكثر وعورة وخشونة من القحطانية ، ولذلك كانت اسماء الحيوانات اكثر في قبائلهم مما في القبائل القحطانية ، وقد درسوا تلك الطبائع بالمزاولة واختصوا كل حيوان بطبيعة نسبوها اليه ، كالروغان للثعلب ، والشجاعة للأسد ، والصبر للحمار ، والامانة للكلب ، والغضب للنمر ، والثقل مع الخساسة للفيل ونحو ذلك وصاروا يعوضون عن الالقاب

١ — لطائف اللغة العربية

باسماء تلك الحيوانات ، فبدلا من قولهم : « شجاع » يقولون: « اسد » ، وبدلاً من صبور يقولون : « حمار » ، ويكنون عن المراوغ بالثعلب ، واذا ارادوا ان يقولوا غضب فلان قالوا : « تنمر » .

وكانوا من الجهة الاخرى يلقبون الحيوانات بأسماء الناس او كناهم ، فالفيل كنيته ابو حجاج ، والاسد ابو الحارث ، والذئب ابو جعدة ، والدب ابو رباح ، والخنزير ابو قادم ويقال ابو عقبة ، والثعلب ابو الحصين والكلب ابو خالد ، وابو ناصح عند بعضهم ، والسنور ابو خراش ويقال ابو غزوان ، والغزال ابو الحسين ، والجمل ابو صفوان ويقال ابو ايوب ، وابو مزاحم ، والثور ابو حاتم ، والكبش ابو المطرف ، والنمر ابو وثاب ، والفهد ابو قرة ، والفرس ابو طالب ، والبرذون ابو مضاء ، والبغل ابو المختار ، والحمار ابو زياد . وعندهم ام حبين الجرادة ، وام عوف الحمامة ، وام مهدي الدجاجة ، وام حفص الهدهد ، وابو الميت الجعالة ، وابو الصراة القملة ، وام عقبة الحية ، وام يقظان ، العقرب وقس عليه .

وكان التلقيب عاماً في الشعوب السامية ، اعتبر ذلك بما جاء في التوراة عن تلقيب يعقوب لاولاده لما جمعهم في آخر ايامه ، فعبر عن اوصاف بعضهم باسماء الحيوانات ، فسمى يهوذا شبل اسد ، ويساكر حماراً ، ودان ثعباناً ، ونفتالى ايلة ، وبنيامين ذئباً . وترى امثال التلقيب في اماكن كثيرة من التوراة ، ويدل ذلك على شيوع هذا التلقيب عند الساميين قديماً ، ثم قل عند العبران والسريان لما سكنوا المدن واخلدوا الى السكون ، وظل عند العرب لبقائهم على البداوة . وما زال ذلك شأنهم الى صدر الاسلام وما بعده ، ولا تزال بعض اسماء الحيوانات تستخدم للتكنية الى اليوم ، وقد تنوسي معناها الاصلي كالقرم للسيد العظيم ومعناه في الاصل «الفحل» ، وكذلك «الرت» للباسل وهي اسم للخنزير ، و « الاصيد » للملك وهو البعير . على انهم كثيراً ما كانوا يلقبون بأعضاء الحيوانات المفترسة كالناب والانف والقرن فانها من القاب الشجاعة والقوة عندهم [١] ومن عادات العرب اذا مات لاحدهم اولاد وخاف انقطاع ذريته ان يسمي اولاده باسماء الحيوانات المفترسة ، كالذئب والنمر وغيرهما ، ولا تزال هذه العادة جارية في سوريا الى اليوم .

فترى ان التلقيب بالحيوانات كان شائعاً عند العرب قبل الاسلام ، على انهم ساروا عليه بعد الاسلام فسموا حمزة عم النبي (صلعم) « اسد الله » او « اسد رسول الله » ،

---

١ — الالياذة العربية (المقدمة)

وكذلك علي بن ابي طالب لشجاعتها [١] وقد سموا مروان محمد بالحمار لصبره. ويكون التلقيب للمدح كما رأيت او للذم ، كتسميتهم عثمان بن عفان « نعثل » وهو ذكر الضباع ، وتسمية عبد الملك بن مروان « ابا زبان » لبخره و « شح الحجر » لبخله [٢] ، وتلقيب بني عمرو بن عمر أفواه الكلاب لبخر افواههم .

ومن ادلة رغبتهم في التلقيب انهم يلقبون الرجل ببيت شعر نظمه او لفظ قاله او حادثة جرت معه مما لا ضابط له ، فالمرقش الشاعر أصل اسمه عوف بن سعد فنسي الاسم وبقي اللقب ، والمتلمس اسمه جرير بن عبد المسيح ، والنابغة اسمه زياد بن معاوية ، وكذلك المخرق وتأبط شرا واعصر والمستوعر وغيرهم ممن ذهبت اسماؤهم وبقيت ألقابهم فماذا يمنع حدوث ذلك قبل التاريخ ، فيلقب أبو القبيلة بما يناسب خلة من خلاله مدحاً او ذماً ثم يتناسى الاسم ويبقى اللقب ؟ وفي اخبار العرب امثلة كثيرة من هذا النوع ، فقيس عيلان اصل اسمه قمقة ولكنه اشتهر بلقبه ، وكذلك قريش وغيره . وقد يكون للتلقيب سبب متصل بحادثة ، فعنزة ابو القبيلة المعروفة سمي بذلك لانه قتل رجلا بعنزة واصل اسمه عامر . والحظائر سمي بذلك لأن المنذر بن امرىء القيس كان جمع اسارى بكر في الحظائر ليحرقهم ، فكلمه فيهم فشفعه واصل اسمه كعب . والزبرقان سمي بهذا الاسم لجماله وسمي القمر ايضاً ، وكلاهما غير اسمه ولا يعرف الا بهما . وقصي اصل اسمه زيد ، وعبد المطلب اسمه عامر وكلاهما يعرف باللقب فقط وقد يكون اللقب اسم حيوان او لقباً من القابه ، مثل جساس اسم الرجل المشهور ، فمعناه في اللغة الاسد المؤثر في الفريسة ببراثنه واصل اسمه عمرو بن مرة البكري ، وقس على ذلك القاب الخلفاء بعد الاسلام ، فان اكثرهم يعرف بلقبه كالفاروق والصديق والمنصور والرشيد والمأمون وغيرهم .

فاذا اعتبرنا شيوع التسمية باسماء الحيوانات او التلقيب بها ، وامكان بقائها وذهاب الاسماء الاصلية ، مع ميل العرب من فطرتهم الى ذلك ، فوجود بضعة وعشرين اسماً حيوانياً بين مئات من اسماء القبائل لا يعد شيئاً غريباً .

التلقيب بصيغة الجمع

على اننا رأينا صاحب طوتمية العرب يعلق اهمية كبرى على تسمية بعض القبائل بجمع

---

١ — والافرنج يلقبون جوستافوس ادولفوس ملك السويد بأسد الشمال

٢ — المعارف ١٢١ .

اسماء الحيوانات ، مثل الانمار والكلاب والاراقم والضباب ، فعنده ان وجود هـذه الاسماء بصيغة الجمع لا ينطبق على تفسيرنا من حيث تلقيب ابي القبيلة بلقب يبقى ويذهب اسمه الاصلي . ويرى ان هـذه الصيغة دليل قوي على الطوتمية ، لان ابناء قبيلة النمر يعدون انماراً ، وابناء قبيلة كلب يعدون كلاباً على مقتضى شروط الطوتمية .

والجواب على ذلك ان التلقيب بصيغة الجمع للقبيلة كان شائعاً عند العرب مثل شيوع التلقيب بصيغة المفرد للفرد . وكانوا يلقبون القبيلة بصفة عامـة تشترك فيها او يغلب شيوعها بين افرادها ، كالكرم والبخل والحلم والغدر ونحو ذلك . فلما انتشر الاسلام وضعوا لاهل الاقاليم اوصافاً يمتاز بها بعضهم عن بعض .

فمن أمثلة اوصاف القبائل في صدر الاسلام ان معاوية سأل دغفلا النسابة : ما تقول في بني عامر بن صعصعة ؟ قال : أعناق ظباء ، واعجاز نساء . وقال : فما تقول في بني اسد ؟ قال : عافة قافة ، فصحاء كافة . قال : فما تقول في بني تميم ؟ قال : حجر خشن ، ان صادفته آذاك وان تركته اعفاك . قال : فما تقول في خزاعة ؟ قال : جوع وأحاديث. ومن هذا القبيل ان الحجاج سأل ابن القرية عن قبائل العرب فوصف كلا منها بما امتازت به ، وليس في وصفه مجون . قال :

قريش : اعظم القبائل احلاماً واكرمها مقاماً .
بنو عامر : اطولها رماحاً واكرمها صباحاً .
بنو سليم : أعظمها مجالس واكرمها محابس .
ثقيف : أكرمها جدوداً واكثرها وفوداً .
بنو زبيد : الزمها للرايات وادركها للثارات .
قضاعة : اعظمها اخطاراً وأعظمها نجاراً وابعدها آثاراً .

وهكذا حتى أتى على معظم القبائل ثم وصف الاقاليم مما لا محل له هنا .

وعلى هذا النمط كانوا يلقبونهم بأسماء حيوانات يغلب في طباعها الخلة التي اشتهرت تلك القبيلة بها ، وقد يذهب الاسم الاصلي ويبقى اللقب وحده وتعرف القبيلة به ، كما حدث بالانمار فانها قبيلة من نزار لقبت بذلك لاشتهار اهلها بالقنص كأنهم انمار في الوثوب على الفريسة ، قال النابغة من معلقته :

اهوى له قانص يسعى بأكلبه عاري الاشاجع من قناص انمار[١]

وكذلك الاراقم – قبيلة من بني تغلب – لقبوا بذلك لأن عيونهم شبهت بعيون الحيات الاراقم فعرفوا بهذا الاسم [٢] والعنابس – اي الاسود – لقبوا بذلك لشجاعتهم. وقد يطلق لقب واحد على غير رجل او غير قبيلة ، وتعرف كل قبيلة باسمها الاصلي كالاراقم المتقدم ذكرها ، فانها لقب لجشم ومالك وعمرو وثعلبة والحرث ومعاوية بني بكر ابن حبيب من تغلب[٣] .

وليس تلقيب القبائل على هذه الصورة خاصاً بالعرب الجاهلية بل هو شائع في عرب هذه الايام . واشهر ما تداولته الالسن من هذا القبيل تلقيب النقاش لأهل لبنان في اواسط القرن الماضي ، اذ ارسلته الدولة العثمانية لمسح لبنان واحصاء سكانه ، وكان ظريفاً وفيه دعابة فكان اذا نزل القرية او البلد لقب اهله بأول تشبيه يتبادر الى ذهنه عند اقباله على ذلك البلد – واليك القاب بعض اهل القرى من اقاليم الغرب ، واكثرها اسماء حيوانات بصيغة الجمع .

اسم البلد	لقب أهله
أهل جباع	الشواح
أهل نيحة	النور
أهل بعذران	الثعالب
أهل المختارة	الذئاب
أهل عين قنية	الشواح
أهل عماطور	الديوك المزهرة
أهل المزرعة	البقر
أهل عينبال	الجحاش
أهل بعقلين	الغنم
أهل جديدة الشوف	الكلاب [٤]

---

١ – جمهرة أشعار العرب ٥٤ . ٢ – الكامل للمبرد .
٣ – المعارف ١٢١ . ٤ – الهلال ، صفحة ٩٥ سنة ١٣ .

وليس هذا خاصاً بالعرب بل يتناول بعض الأمم المتمدنة، ففي الولايات المتحدة لأهل كل ولاية لقب خاص على هذه الصورة :

اسم الولاية	لقب أهله
Illinois	Luchers
Missouri	Pipers
Oragon	Webfoot
Ohio	Buckeye
Indiana	Hoosiers
New England	States Yankees
Alabama	Yellow Limnor
Wisconsin	Badger

وجملة القول ان تسمية بعض القبائل بأسماء حيوانية أفراداً او جماعات لا اهمية لها فيما نحن فيه، لأنه عادي وطبيعي في الأجيال القديمة والحديثة. وبالطبع لم تبق أهمية لما ذكروه من عبادة الحيوانات التي كانت شائعة في الجاهلية ، وان كانت في الحقيقة ليست من قبيل عبادة الحيوانات الطوطمية ، بل هي عبادة اصنام اقلها بشكل بعض الحيوانات واكثرها بأشكال اخرى . فهي من قبيل عبادة الأوثان وليست من الطوتمية في شيء، لأن اهل الطوتم لا يعبدون صنماً بشكل الحيوان ، بل يعبدون الحيوان نفسه ويقدسونه ويتجنبون أذاه كما تقدم ، وليس عند العرب شيء من ذلك ـ على أننا نقول كلمة في اصنام العرب لا تخلو من فائدة . .

اصنام العرب

من المشهور ان العرب وسائر الامم السامية أهل توحيد من فطرتهم ، واذا عبدوا صنما فيغلب ان يكون ذلك الصنم دخيلا عندهم ، ويصدق ذلك على العرب بنوع خاص لتوسطهم بين الأمم الوثنية القديمة ، فقد كانوا في عهد جاهليتهم محاطين بالفراعنة في مصر ، والفينيقيين في الشام ، والاشوريين في العراق ، والاحباش في الحبشة . وكانت جزيرتهم طريق اهل الهند في التجارة الى مصر والشام . وكانوا اذا ذهبوا الى بلد مما يجاورهم للتجارة او للغزو ورأوا أهل ذلك البلد يعبدون صنما يعتقدون فيه الكرامة حملوه معهم في رجوعهم ونصبوه في الكعبة او غيرها من مجتمعاتهم. واذا مرت بهم قافلة هندية ومعهم صنم يعبدونه في أثناء اسفارهم فربما اعجب العرب فأخذوه منهم او اصطنعوا صنما على مثاله . ولم يصل الينا من اخبار هذه الاصنام إلا نتف مشتتة يمكن الاستدلال بها على غيرها .

واشهر من نقل الاصنام الى مكة في عهد الجاهلية رجل يسمونه عمرو بن لحي، ذكروا انه غلب على مكة واخرج منها جرهما وتولى سدانتها ، وكان كاهنا فحمل اليها الاصنام من الآفاق فنقل هبل واساف ونائلة من البلقاء[1] ونقل ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر من ساحل جدة[2] واختصت كل قبيلة من القبائل المشهورة يومئذ بواحد منها ، فأصبح ود لقبيلة كلب، وسواع لهمدان ، ويغوث لمذحج ، ويعوق لمراد ، ونسر لحمير وكان ود على صورة رجل ، وسواع على صورة امرأة ، ويغوث على صورة أسد ، ويعوق على صورة فرس ، ونسر على صورة نسر . ولو جمعت اصنام العرب لزاد عددها على مئة صنم ، ليس منها على صور الحيوانات إلا بضعة قليلة جداً . على انها اذا كثرت فقلما تؤيد برهاناً للأسباب التي قدمناها ولأنها دخيلة كما رأيت – ولا نقول ذلك اعتماداً على رواية العرب فقط لأن صاحبنا الاستاذ لا يثق من أقوالهم إلا بما يؤيد برهانه ، ولكننا ننظر في هذه الاصنام نظراً تحليلياً عسانا أن نتوصل الى نتيجة فنقول :

هبل

هو اكبر أصنامهم ويسمونه الصنم الاكبر ، وذكروا انه كان مصنوعاً من نحاس – وقيل من قوارير أي زجاج – على هيئة رجل ضخم ، وكانوا يذبحون له ويستخيرونه في أسفارهم وحروبهم وسائر أعمالهم . ويظهر لنا ان هذا الصنم من آلهة الفينيقيين او الكنعانيين والأدلة على ذلك :

أولاً قول العرب انه جاءهم من مواب بأرض البلقاء ، حمله اليهم عمرو بن لحي الذي ذكرناه .

ثانياً ان لفظ هبل لا اشتقاق له في العربية من معناه ، فهو غير مشتق من لفظ عربي ، وعندنا انه عبراني او فينيقي أصله « هبعل » وهو اسم اكبر أصنام الفينيقيين او الكنعانيين ومن جاورهم من أمم الشام كالموابيين والمديانيين والبابليين والليبيين . وكان للفينيقيين عشرات من الآلهة يميزون منها إلهين ، احدهما ذكر والآخر انثى ، ويسمون الذكر « هبعل » والانثى « عشروت »، ومعنى « بعل » في لسانهم السيد والاله ، والهاء في العبرانية أداة التعريف مثل « ال » العربية ، فباضافة هذه الأداة الى بعل يريدون

---

١ – ابن هشام ٢٧ ج ١ . ٢ – ياقوت ٩١٤ ج ٤ .

الاله الاكبر . والظاهر ان عمرا المذكور لما قدم مواب أعجبته عبادة الموابيين لهذا الصنم ، وكانوا يستمطرونه ويستنصرونه ، فحمله الى مكة باسمه العبراني «هبعل» ، وأما العين الزائدة فيسهل اهمالها بالتخفيف ثم ضياعها بالاستعمال ، وخصوصاً في لفظ « بعل » لأن الكلدانيين كانوا يلفظونه « بل » باهمال العين ، وهو اسم هذا الاله عندهم . وربما كان الموابيون يلفظونها « هبل » فنقلها عمرو بن لحي كما كان يسمعها .

ثالثاً — ان أساليب عبادة العرب هبل تشبه أساليب عبادة الموابيين هبعل . فقد كان الموابيون ينصبون هذا الصنم على التلال المرتفعة او سقوف البيوت ، ويذبحون له الذبائح من الحيوانات والآدميين ، ويحرقون له المحرقات ويستخيرونه ويفضلونه على سائر آلهتهم ، وكذلك كان يفعل العرب لهبل. وكما ان هبعل اكبر أصنام الموابيين ومن جرى مجراهم ، فهبل اكبر أصنام العرب وكانوا ينصبونه فوق الكعبة .

اساف ونائلة

ذكروا انهما صنمان ، الاول على صورة رجل والثاني على صورة امرأة ، حملهما عمرو بن لحي ايضاً من البلقاء فوضعهما على بئر زمزم بالكعبة ، ثم وضع احدهما على الصفا والآخر على المروة ، فربما كان هذان وهبل مثلثا وثنياً ، والمثلثات الوثنية كانت شائعة عند الوثنيين في الازمنة القديمة . والغالب في هذه المثلثات ان يكون كل منها مؤلفاً من رجل وامرأة وغلام . وامثلة هذه المثلثات كثيرة عند المصريين القدماء والكلدانيين وغيرهم .

يغوث

جاء في تفسير الزمخشري انه على صورة أسد ، وان عمرو بن لحي نقله من جدة على ساحل البحر الى مكة . فاذا كان مجلوباً من الخارج فالغالب انه من الحبشة او مصر ، لأن جدة محطة المسافر من احداهما الى الحجاز . وقد وجدنا بين آلهة المصريين صنما على صورة أسد او لبؤة يسمونه « تغنوت » ، ولا يخفى ما بين هذه اللفظة ولفظ يغوث من المشاكلة الصورية اذا اعتبرنا ان العرب كانوا يكتبون بلا نقط ، فاذا كتبوا « نعنوت » التبس عليهم بين ان تقرأ يغوث او تغنوت او تعوت ، وكثيراً ما وقع لهم ذلك حتى بعد تدوين التاريخ في ابان التمدن الاسلامي ، فامبراطور الروم الذي حاربه هرون الرشيد يسميه بعض المؤرخين يعفور ، والبعض الآخر نعفور ، والآخر نقفور وهو الصواب لان اسمه الروماني Nicephorus الا يعقل أن يحدث

مثل هذا الالتباس في عصر الجاهلية ؟ وعلى هذا المبدأ تحول اسم قايين الى قابيـــل ، وشاول الى طالوت ، وجليات الى جالوت ، مقورح الى قارون

ود

وهذا الصنم قد وصفه ياقوت في معجمه فقال . « انه على مثال رجـــل كأعظم ما يكون من الرجال ، قد دبر عليه ـ اي نقش عليه ـ حلتان ، متزر بحلة ومرتد بحلة. عليه سيف وقد تنكب قوسا ، وبين يديه حربة فيها لواء وجعبة فيها سهام » ، فما أشبه هذا الوصف بوصف ملك من مـــلوك الفراعنة ذاهب للحرب على مركبته . وهو يشبه الها فينيقيا اسمه اشبو او سيس اله مصري . ولا يمكننا الجزم في ذلك وانما يظهر من وصفه انه اله غريب .

وقس على ذلك سائر الاصنام ، وان كنا لا نطمع في ردها كلها الى أصولها ، ولا ان يكون كلامنا فيها يقينياً او قطعياً ، وانما هو من قبيـــل الترجيح ، وهذا يكفي في هذا المقام .

الثأر والعائلة والحلف

ورأينا صاحب طوتمية العرب قد علق اهمية كبرى على اجتماع العرب للمطالبة بالثأر باسم القبيلة ، فعنده ان ذلك من بقايا الطوتمية ، لان القبيلة كانت قديماً اذا قتل احـــد افرادها اشتركت كلها في المطالبة بدمه ، لانها تطالب بحق الاله الذي هو جدها الاعلى وان العرب ليس عندهم عائلة وانما آخر انسابهم الحي – ولا حاجة بنا الى التطويل في بيان فساد هذا التأويل بعد ان ظهر فساد المقدمات الاخرى . فالطلب بالثأر باسم القبيلة طبيعي في أمم البادية ، وضروري لحفظ جامعة النسب ، ولولاها لم يكن لتلك الجامعة معنى . ولكن صاحبنا اجهد نفسه كثيراً في التفسير والتعليـــل ، للتوفيق بين المطالبة بالثأر عند العرب ومطالبة اصحاب الطوتم بحق جدهم الاعـلى . وهيهات ان يتأتى له ذلك الا اذا ثبتت الطوتمية عند العرب فيمكن تفسير الثأر بما فسره ، لا ان يكون هو من ادلة تلك الطوتمية يستعان به في اثباتها .

واما عدم وجود العائلة عند العرب فالقول به غريب ، وانكار العائلة عند العرب يقرب من انكار البديهيات ، او هو انكار ضوء الشمس في رابعة النهار . واغرب من ذلك استدلاله على طوتمية العرب بما يحدث عندهم من الترابط او التعاون بواسطة الحلف ونحوه ، فالتحالف قاعدة سياسية لا تزال جارية الى الآن عند ارقى الأمم المتمدنة ، وانما يختلف عن الحلف عند قبائل العرب كما تختلف بداوة هؤلاء عن حضارة اولئك .

تاريخ التمدن الإسلامي

تأليف

جرجي زيدان

الجزء الرابع

منشورات دار مكتبة الحياة
بيروت - لبنان

مقدمة الطبعة الأولى

أخذنا في تأليف هذا الكتاب ونحن نعلم اهمية موضوعه ونشعر بافتقار اللغة العربية الى مثله . ولكننا لم نكن نتوقع مالاقاه من حفاوة اهل اللغات الاخرى في العالم الاسلامي بأسره ، ولا أن يصل اعجاب كبار المستشرقين في اوربا بموضوعه الى مثل ما رأيناه منهم على اثر صدور الاجزاء الثلاثة الماضية لأنهم فضلاً عما كتبوه الينا من عبارات الاستحسان والتنشيط ، وما نشروه من التقاريظ في المجلات والجرائد التي تصدر في بلادهم ، قد اخذوا يشتغلون بنقله الى السنتهم ونشره بين مواطنيهم ونحن لم نفرغ بعد من تأليفه . وبعض هذه الترجمات قد طبع ونشر ، ولا يزال البعض الآخر تحت الطبع ، والآخر تحت الترجمة . فقد صدر الجزء الأول من الترجمة الأوردية (الهندستانية) مطبوعاً على الحجر في امرتسار (الهند) بقلم الشيخ محمد غلام منشىء « جريدة وكيل » الهندية الشهيرة . وسيصدر الجزء الأول من الترجمة الفارسية قريباً بقلم ميرزا ذكاء الملك صاحب « جريدة تربيت » الفارسية . وكتب الينا المستشرق الكبير الاستاذ مرجليوث المشتغل بنقله الى الانجليزية في جامعة اكسفورد ، انه سيفرغ من ترجمته ويبدأ في نشره في أواخر هذا الصيف . وبعث الينا الاستاذ دانيلوف المستشرق الروسي في موسكو انه اتم نقل الجزء الاول الى اللغة الروسية ويليه الجزء الثاني . وقد خابرنا بعض المستشرقين بشأن نقله الى اللغة الفرنسية وغيرها .

فنشطنا ذلك في المثابرة على التنقيب والبحث لاستطلاع دخائل التمدن الاسلامي وكشف اسراره بما يبلغ اليه الامكان على اسلوب لم يطرقه كتاب العرب ، نتوخى فيه ارجاع الحوادث الى أسبابها وبيان ارتباطها بعضها ببعض مع تطبيق احكام العقل ونواميس العمران عليها . فنطالع كتب التاريخ والأدب وغيرها ، على سذاجة اسلوبها في سرد الحوادث وايراد الوقائع ، ونتدبر ما نقرأه ثم نستخرج منه فلسفة ذلك التمدن العجيب ، كما يستخرج السكر من الخروب . لأن مؤرخي الاسلام ، مع ما بذلوه من الجهد في تحقيق الحوادث وتمحيص اسانيدها ومصادرها ، قلما نظروا في علاقاتها او عللوا

اسبابها وانما نقلوها على علاتها ، وخصوصاً ما يتعلق منها بسياسة الدولة ، وكيفية انتقال الملك من عائلة الى عائلة ، او امة الى امة ، او طائفة الى طائفة. لأن تعليل تلك الحوادث يبعث أحياناً على الطعن في اقوال بعض الخلفاء ، او تخطئة بعض المذاهب، وهم يتحاشون ذلك احتراماً للدين ورجاله. ولذلك كان موضوع هذا الجزء أوعر مسلكاً من موضوعات سائر الاجزاء الماضية ، وادعى الى اعمال الفكرة ، واستنباط الاقيسة ، وتطبيق النتائج على المقدمات ، لأنه عبارة عن فلسفة تاريخ الاسلام في ذلك التمدن .

موضوع هذا الجزء

بسطنا الكلام في الجزء الاول من هذا الكتاب عن نشوء الدولة الاسلامية وسعة مملكتها ، وتاريخ نظمها الادارية والسياسية والمالية والعسكرية والقضائية وغيرها . وخصصنا الجزء الثاني لبيان ثروة الدولة الاسلامية ورجالها ، واسباب تكون تلك الثروة وأسباب تدهورها . وجعلنا الجزء الثالث خاصاً بالعلم والادب ، فبحثنا فيما كان منهما عند العرب في الجاهلية ، وما احدثه الاسلام من التغير في القرائح والعقول ، وما نقل عن اللغات الاجنبية من العلوم ، وما كان من تأثير التمدن الاسلامي في كل ذلك .

فبعد ان نظرنا في التمدن المذكور ، من حيث نظام الدولة وثروتها وعلومها ، عمدنا الى البحث في سياستها ، فخصصنا لها هذا الجزء برمته ، ولعله اهم اجزاء الكتاب وأوعرها مسلكاً ، لما يحول بيننا وبين أسباب الوقائع السياسية من العقبات والشكوك ، ولا سيما انتقال الخلافة من دولة الى دولة ، وما يعترض ذلك من تنازع اهل الدولة على الاستئثار بالسلطة ، وتأثير الاختلاف الجنسي او المذهبي في ذلك ، مما لا يتيسر العثور عليه في كتب القوم لما قدمناه من تحاشي المؤرخين الخوض في مثله . على اننا لم نعدم بصيصاً من خلال تلك العظمة ، تلمسنا به سبيلنا في البحث عن الاسباب والعلل ، فوفقنا الى كشف اسباب اكثر الحوادث ، فبسطناها بما يقتضيه ذلك من النظر الفلسفي والحكم العقلي والقياس التمثيلي ، وتحرينا الحقيقة جهد طاقتنا .

ولما عمدنا الى تقسيم الموضوع وتبويبه اعترضتنا عقبة اخرى لا تقل وعورة عن تلك ، لاختلاط الحوادث وتعارض أسبابها واشتراك نتائجها وتلون مظاهرها ، وتعدد اوجهها من حيث الدين او الجنس او المكان او الزمان ، فرأينا بعد امعان النظر ان نقسم

الموضوع باعتبار العناصر التي سادت في الاسلام ، وما كان من تنازعها على تلك السيادة ، مع ملاحظة اطوار التمدن الاسلامي باختلاف تلك العناصر . فقسمنا تاريخ الاسلام الى دورين كبيرين :

الدور الاول : دور التمدن الذي نحن بصدده ، يبتدىء بظهور الاسلام وينتهي بذهاب الدولة العباسية من العراق ، وتدهور المملكة الاسلامية وتسلط المغول عليها .

الدور الثاني : هو النهضة السياسية التي حدثت بعد ذلك التدهور ، بتغلب الدولة العثمانية واحياء الخلافة الاسلامية ، بجمع شتات المسلمين السنيين في ظلها ، وظهور الدولة الصفوية الفارسية ، وجمع شتات الشيعة تحت رايتها .

وقسمنا الدور الأول الى خمسة عصور ، باعتبار تغلب احد العناصر الاسلامية على سائرها. ولا يتيسر وضع حد فاصل بين هذه العصور لأسباب لا تخفى على المطلع ، فيغلب ان تختلط أواخر كل عصر بأوائل العصر الذي يليه . واليك هذه العصور :

١ – العصر العربي الأول : من ظهور الاسلام الى انقضاء الدولة الأموية سنة ١٣٢ هـ .

٢ – العصر الفارسي الأول : من قيام الدولة العباسية سنة ١٣٢ الى خلافة المتوكل سنة ٢٣٣ هـ .

٣ – العصر التركي الأول : من خلافة المتوكل الى تسلط الديلم سنة ٣٣٤ هـ .

٤ – العصر العربي الثاني : من قيام الدولة الفاطمية الى انقضائها .

٥ – العصر المغولي : من ظهور جنكيزخان الى وفاة تيمورلنك .

أما العصر التركي الثاني فهو عصر الدولة العثمانية ، والعصر الفارسي الثاني عصر الدولة الصفوية ومن خلفها على بلاد فارس ، ويتألف منها الدور الاسلامي الثاني وهو خارج عن دائرة بحثنا في هذا الكتاب .

وقسمنا كلا من العصور الخمسة التي درسناها في هذا الجزء الى فصول وأبواب على ما يقتضيه المقام . فقدمنا الكلام بتمهيد في العرب قبل الاسلام من حيث نظام الاجتماع ، فوصفنا البدو والحضر وأنساب العرب وقبائلهم وبطونهم ، واستفحال عصبية النسب عندهم ومنها الأمومة والخؤولة، ثم ذكرنا توابع تلك العصبية كالحلف والاستلحاق والخلع، ثم العبيد والموالي في الجاهلية وانواعهم واحكامهم ، والنازلين من الأجانب في جزيرة العرب

قبل الاسلام وخصوصاً الأبناء الفرس . وختمنا التمهيد بفصل في سياسة دول العرب قبل الاسلام ومناقب العرب .

ثم تقدمنا الى العصر العربي الأول ، فقسمناه الى ايام الراشدين وايام بني أمية ، فبينا اولاً ان الاسلام قام بالجامعة الاسلامية التي جمعت كلمة العرب على اختلاف قبائلهم وبطونهم تحت راية الاسلام . فتساووا في الفضل من حيث أنسابهم ، وتفاضلوا من حيث سبقهم الى الدين او جهادهم في سبيله ، فتولدت طبقات اسلامية جديدة ، كالمهاجرين والأنصار واهل بدر واهل القادسية ، مما لم يكن من قبل .

ثم وصفنا سياسة الخلفاء الراشدين وانها مبنية على التقوى والحق والعدل ، وذكرنا مزايا كل خليفة منهم ، وان سياسة عمر بن الخطاب كانت في اول خلافته تدعو الى حصر المسلمين في جزيرة العرب وبلاد الشام والعراق ، وانه اضطر بطبيعة العمران الى ان يأذن لقواده وأمرائه في الانسياح في الأرض ، فانتشر العرب بالفتح او المهاجرة وتكاثروا بالتناسل الكثير .

وختمنا العصر الاول بفصل في العبيد والموالي واحكامهم في الاسلام .

ثم انتقلنا الى القسم الثاني من العصر الاول ، وهو ايام الأمويين ، فذكرنا اولاً الاسباب التي ساعدت على انتقال الخلافة اليهم ، وما كان بين بني هاشم وبني أمية من المنافسة قبل الاسلام ، وكيف شق على الامويين ان يعظم أمر بني هاشم بالنبوة وهم اقل منهم عدداً وقوة. فما زالوا حتى غلبوهم على الدولة، فأخذها معاوية بن ابي سفيان من علي بن ابي طالب بالدهاء والاطماع . وفصلنا سياسة الامويين في تأييد سلطتهم، وبينا أن محور هذه السياسة طلب التغلب بأية وسيلة كانت . والامويون يعلمون ان الهاشميين احق منهم بالخلافة ، فعمدوا الى التغلب بالعصبية كما كانت في الجاهلية ، وكان العرب المسلمون قد زالت عنهم دهشة النبوة ، فعادوا الى عصبية النسب اولاً بين قريش وسائر العرب ، ثم بين اليمنية والمضرية . وبالغ الامويون في التعصب على غير العرب ، فاحتقروا الموالي الفرس وغيرهم وضيقوا عليهم . وتحضر العرب في عصر الامويين وألفوا السكنى في المدن ، فحدثت العصبية الوطنية ، اي تعصب البلاد بعضها على بعض كالبصرة والكوفة والشام وغيرها . واضطر الامويون في سبيل التغلب على بني هاشم الى اصطناع القبائل والرجال ببذل المال، فحملهم ذلك على الاستكثار من الاموال . وجرهم الاستكثار منها الى ابتزازها بحق او بغير حق ، فضيقوا على الرعية من المسلمين واهل الذمة ، حتى مل الناس ايامهم

وخصوصاً بعدما ظهر من استخففافهم باحكام الشريعة ، وتهتكهم وفتكهم واحتقارهم الموالي وتضييقهم على اهل الذمة . ويلي ذلك فصل طويل في احكام اهل الذمة من زمن عمر بن الخطاب الى آخر ايام الامويين .

ثم تقدمنا الى العصر الفارسي الاول ، فصدرناه بفصل في انتقال الخلافة الى العباسيين بنصرة الموالي الناقمين على بني امية . وكيف نصروا بني العباس – وهم في الاصل من شيعة علي – وكانوا يظنون بيعتهم مشتركة بين العلويين والعباسيين ، لان العباسيين كانوا قد بايعوا العلويين على ذلك فسكتوا ، فنقل ابو مسلم الخراساني المملكة الاسلامية من الامويين وسلمها الى العباسيين . فلما قبض العباسيون على زمام الدولة نكثوا البيعة ، وغدروا بمن كانوا يخشون سلطانهم من العلويين وغيرهم ، حتى فتكوا بجماعة من اكبر دعاتهم وانصارهم ، وفيهم ابو مسلم نفسه .

وقسمنا سياسة العباسيين الى سياستين :

الاولى : سياستهم في تأييد سلطتهم ، وكانت مبنية على الغدر والفتك، فخافهم الفرس الذين ساعدوهم على قيام دولتهم ، وكظموا غيظهم لئلا يصيبهم ما اصاب أبا مسلم واصحابه ، فاستخدمهم العباسيون في مصالح دولتهم ، وسلموا اليهم مقاليد الحكومة ، وجعلوهم وزراءهم واشهرهم البرامكة ، فلما اشتد ساعد البرامكة ونالوا ما نالوه من القوة والسطوة والثروة ، اخذوا يبذلون الاموال لاكتساب قلوب الناس ، وقد اضمروا ارجاع البيعة الى العلويين او تسليم الدولة للفرس ، فشعر الرشيد بذلك فنكبهم . وفصلنا مقدمات هذه النكبة وأسبابها ، وبينا كيف تضاعفت نقمة الفرس على العباسيين . ولما مات الرشيد اختلف ابناه الامين والمأمون ، وكان الفرس اخوال المأمون ، فنصروه وحاربوا معه وقتلوا اخاه وأعادوا الخلافة اليه ، على ان يبايع بعده لعلي الرضا ، اي ينقل الدولة من العباسيين الى العلويين ، فأطاعهم حتى ملك مراده منهم ثم غدر بهم .

والثانية : سياستهم في معاملة الرعية ، وكانت مؤسسة على العدل والحق والمحاسنة ، ويتخلل ذلك فصول في اهل الذمة واحكامهم واسباب ما لحقهم من الاضطهاد الى عهد غير بعيد . وفصل في حرية الدين واطلاق الافكار ، وما كان من تنازع العناصر ، وكيف ذهبت العصبية العربية بذهاب الامين ، وما رافق ذلك من اختلاط الانساب ، حتى ندر الدم العربي الخالص بعد ذهاب القرن الثاني للهجرة الا في البادية .

ثم تقدمنا الى العصر التركي الأول ، وذكرنا الاسباب التي دعت الى تدخل الاتراك في في الدولة من ايام المعتصم ،وكيف جمع الاتراك وجندهم وبنى لهم سامرا ، وكيف تدرجوا في مصالح الدولة حتى تغلبوا على الخلفاء ، وما ترتب على ذلك من احتجاب الخلفاء في دور النساء ، ومعاشرتهم الخدم ووثوقهم بهم ، حتى رفعوا الخدم والخصيان الى رتب القيادة وامارة الامراء وغيرهما ، واطلقوا ايدي النساء في مصالح الدولة ، فآل ذلك كله الى فساد الحكم واختلال الاعمال ، وذهبت هيبة الخلفاء .. فعمد اصحاب الاطراف الى الاستقلال بولاياتهم ، فتشعبت الدولة العباسية الى فروع : فارسية ، وتركية ، وعربية ، وكردية ، وكلها تبايع الخليفة العباسي . فاستطرقنا بذلك الى البحث في معنى الخلافة ونسبتها الى السلطة من اول الاسلام الى الآن .

ثم انتقلنا الى العصر العربي الثاني ، فذكرنا نقمة العرب على العباسيين منذ اهملوهم واسقطوهم من الديوان ، واضفنا اليها نقمة العلويين والامويين ، وكيف ظهرت الدولة الاموية في الاندلس ، والفاطمية في مصر ، لمقاومة الدولة العباسية ، واوشك الفاطميون وهم علويون — ان يتغلبوا على العباسيين ، لو لم يقف السلاجقة في سبيلهم . على ان الفاطميين ما لبثوا ان تضعضعوا وغلبهم الاكراد على دولتهم وأولهم صلاح الدين ، فأعاد البيعة الى العباسيين ، وانقضى هذا العصر وقد تضعضعت المملكة الاسلامية وانقسمت على نفسها ، وطمع فيها اعداؤها المحيطون بها ، فجاءها المغول وهي في تلك الحال ، فاكتسحوها وزادوها ضعفاً واختلالا ، وهو العصر المغولي ، وبه ينتهي هذا الجزء .

وقد بذلنا الجهد في تمحيص الحقائق وتحقيق الحوادث ، بالاعتماد على اوثق المصادر وأصح الروايات ، وتدبرنا ذلك واستخرجنا من علل الحوادث واسبابها ما نظنه الاقرب الى الصواب ، ملتزمين الصدق والاخلاص والانصاف ، والله حسبنا ونعم الوكيل .

وسيكون موضوع الجزء الخامس حضارة المملكة وابهة الدولة وآداب الاجتماع ، وبه ينتهي الكتاب .

العصر العربي الأول

من ظهور الاسلام حتى سنة ١٣٢ هـ — ٧٤٩ م

نريد بهذا العصر المدة التي كانت فيها الدولة الاسلامية في ايـــدي العرب ، وكانت سياستها عربية وقوادها عربا وعمالها عربا ، وكانت السيادة فيها للعنصر العربي. والعصر المذكور يبتدىء بالاسلام وينقضي بانقضاء الدولة الاموية . وهو ينقسم الى دولتين: دولة الراشدين ، ودولة الامويين ، ولكل منها أحكام خاصة بها في السياسة وشؤون الحكومة سيأتي بيانها. ولا بد لنا تمهيداً لذلك ان نأتي بفذلكة في حال العرب قبل الاسلام ، من حيث ما يهمنا بيانه في هذا الباب .

تمهيد في العرب قبل الاسلام

البدو والحضر

البدو أهل البادية ، والحضر أهل المدن . والبداوة اقدم من الحضارة ، لأنهـا اقرب منها الى الفطرة الطبيعية . فالانسان كان في اول ادواره بدوياً يحترف الزراعة والفلاحة ، او ينتحل القيام على تربية الحيوان من الغنم والبقر والماعز او النحل والدود لنتاجهـــا واستخراج فضلاتها، مما لا تتسع له المدن من المزارع للغرس والمراعي للمرعى. فالتجأوا الى السهول والبراري ، وكان همهم بلوغ الضروري من القوت والسكن والدفء بالمقدار الذي يحفظ الحياة ويمكن من مواصلة العيش . فلما تقدمت أحوالهم وحصلوا على ما هو اكثر من ذلك من اسباب الغنى والرفاهية ، عمدوا الى السكون والدعة وتأنقوا وتمدنوا واترفوا.

فالبداوة تقوم اما على الفلاحة والزرع ، او على تربية الحيوان . فالبدو أهل الفلاحة مضطرون للاستقرار في مواطنهم ينتظرون الغـــلة وهم سكان المداشر والقرى والجبال ، وكانوا قليلين في بادية العرب . وانمـــا يكثر هذا الصنف من البدو في بـــلاد

البربر بشمالي افريقيا ، وفيما يجاور المدن العامرة بمصر وفارس والشام وغيرها . واما البدو الذين يحترفون تربية الحيوان فدأبهم الظعن والارتحال ، لارتياد المسارح والمياه لحيواناتهم. وهم صنفان اهل سائمة ، واهل ابل . فاهل السائمة هم القائمون على الشاء والبقر ، ولا يبعدون في القفر لقلة المراعي الطيبة ، ويقال لهم الشاوية نسبة الى الشاء . وهؤلاء مثل البربر في شمالي افريقيا ، والترك واخوانهم التركان والصقالبة ، وغيرهم ممن يقطنون بوادي تركستان وخراسان ونحوهما .

* * *

واما اهل الابل فأشهرهم بدو العرب ، وهم اكثر ظعناً وابعد في القفار مجالاً من اهل السائمة ، لأن مسارح التلول ونباتها وشجرها لا تستغني بها الابل في قوام حياتها عن مراعي الشجر بالقفار ، وورود مياهه الملحة والتقلب في فصل الشتاء في نواحيه فراراً من اذى البرد الى دفء هوائه وطلباً لماخض النتاج في رماله ، لان الابل اصعب الحيوانات فصالاً ومخاضاً واحوجها في ذلك الى الدفء . فاضطروا الى ابعاد النجعة والايغال في القفار ، فهم ينزلون من اهل الحواضر منزلة الوحش غير المقدور عليه ، والمفترس من الحيوان ، لتفردهم عن المجتمع ، وتوحشهم في الضواحي ، وقيامهم بالدفاع عن انفسهم . فهم دائماً يحملون السلاح ، ويتلفتون في الطرق ، ويتجافون عن الهجوع ، الا غراراً في المجالس وعلى الرحال وفوق الأقتاب ، ويتفردون في القفار والبيداء واثقين ببأسهم ، حتى صار البأس لهم خلقاً ، ولذلك كان اكثر البدو توغلاً في القفار اشدهم بأساً واصبرهم على المشاق .

فسكان جزيرة العرب معظمهم من البدو الرحل ، ولذلك كانت المدن قليلة في تلك الجزيرة ، ولا سيما في اواسطها . واشهر المدن العربية قبل الاسلام مكة والمدينة والطائف في الحجاز ، ومأرب وصنعاء في اليمن . وسكانها اخلاط من العرب والفرس والأحباش واليهود وغيرهم ، يرتزقون بالبيع والشراء على من يفد عليهم من اهل البادية .

العصبية العربية قبل الاسلام

قلنا ان العرب جمهورهم من البدو ، والعصبية ضرورية لأهل البادية . لأن الناس مفطورون على المطامع ، ودأبهم التخاصم والتنازع ، فأهل المدن يدفع عدوانهم الحكام

واهل الدولة من ان يظلم بعضهم بعضاً ، وهي أيضاً تدفع غارات الأعداء بما تقيمه من الأسوار وتعده من الجند والسلاح . واما البدو فيحكم بينهم مشايخهم وكبراؤهم ، بما وقر في نفوس اهل القبيلة او الحي من الوقار لهم .. واكرام السن من تقاليد البدو . واذا سطا عليهم عدو في منازلهم قام بالدفاع عنها فتيانهم وشجعانهم ، وهؤلاء لا يصدق دفاعهم الا اذا كانوا عصبية تشتد بها شوكتهم ويخشى جانبهم .

واهل البلد الواحد ، او المصلحة الواحدة ، لا بد لهم من جامعة تجمع بين افرادهم . والجامعة تختلف في الأمم باختلاف احوالهم ، فبعض الأمم يجمعهم الوطن ، وآخرون يجمعهم الدين ، وغيرهم يجمعهم النسب او اللغة . وقد رأيت ان البدو لا وطن لهم ، وكانوا قبل الاسلام لا دين لهم ، فلم يكن لهم ما يجمعهم غير العصبية واللغة ، وهما متلازمتان خصوصاً في البداوة لذلك عني العرب بحفظ أنسابهم وضبطها ، وتفاخروا بها ، وبالغوا في استقصائها ، حتى ردوها الى الآباء الأولين .

فأقرب اسباب العصبية عندهم الأخوة والأبوة والعمومة ، ومنها تتألف العائلة او الأسرة ، ومن العائلات تتألف الفصيلة : كآل أبي طالب وآل العباس مثلاً ، فان كلا منهما فصيلة مؤلفة من عائلات ، وكلاهما من بني هاشم . ومن الفصائل تتألف الأفخاذ ، مثل بني هاشم وبني أمية ، وكلاهما من بني عبد مناف . ومن الأفخاذ تتألف البطون ، مثل بني عبد مناف وبني مخزوم ، وكلاهما من قريش . ومن البطون تتألف العمائر (جمع عمارة) مثل بني قريش وبني كنانة ، وكلاهما من مضر . ومن العمائر تتألف القبائل ، مثل ربيعة ومضر ، وكلاهما من عدنان. ومن القبائل يتألف الشعب ، وهو النسب الأبعد ، مثل عدنان وقحطان .

انساب العرب

والذي عليه النسابون ان سكان جزيرة العرب قبل الاسلام يرجعون في اصولهم الى قسمين : العرب البائدة ، والعرب الباقية .فالقبائل البائدة هي التي بادت وضاعت اخبارها قبل ظهور الاسلام ، مثل عاد وثمود وطسم وجديس وعمليق وجرهم وجاسم . وقد بحثنا بحثا تحليليا في نسب هذه القبائل وأماكنها في مقالة نشرت في الهلال العشرين من السنة الخامسة لا محل لها هنا . وأما العرب الباقية فهي القبائل التي ظهر الاسلام وهي

موجودة ، فقامت به ونشرته وانشأت الدولة الاسلامية . والقبائل الباقية فرقتان، ترجع كل منهما الى اب واحد يضمها وطن تنسب اليه : الفرقة الاولى القحطانية ، وترجع في انسابها الى قحطان وهو يقطان الذي ينتهي نسبه الى ارفكشاد (ابو ارفخشد) من آباء التوراة ، ومقر القبائل القحطانية في اليمن ، ولذلك عرفت أيضاً بالقبائل اليمنية او عرب اليمن . والفرقة الثانية العدنانية ، نسبة الى عدنان من بعض اعقاب اسماعيل بن ابراهيم الخليل وتعرف ايضاً بالاسماعيلية ، ولما كان مقر اكثرها في الحجاز ونجد عرفت بالقبائل الحجازية ، او بعرب الحجاز ونجد او عرب الشمال .

ولكل من القحطانية والعدنانية فروع من القبائل والعمائر والبطون والافخاذ والفصائل لا يحصيها عد ولا محل لذكرها ، ولكننا نأتي بما يهمنا منها في هذا المقام فالعرب القحطانية اقدم من العدنانية ، او تمدنت قبلها على الاقل ، ومنها بنو حمير الذين انشأوا تمدناً في اليمن ، ومنهم الملوك التبابعة وآثارهم في حضرموت وخرائب اليمن ، لا يزال اكثرها مدفوناً في الرمال وعليه نقوش بالقلم المسند . وقد تفقد آثار ذلك التمدن غير واحد من المستشرقين ، ولكنهم لم يتمكنوا من الاطلاع على شيء كثير لصعوبة السلوك في تلك القفار . على ان بعضهم الف الكتب في هذا الموضوع ، وذهب الى ان التمدن اليمني اقدم من التمدن المصري ، وان الفراعنة اخذوا اصول تمدنهم عن اولئك العرب القحطانية . والمظنون ان ملكة سبأ التي زارت سليمان الحكيم نحو القرن العاشر قبل الميلاد انما هي من ملوك هذه المدينة .

* * *

وما زال اليمنية في بلاد اليمن وحضرموت ، حتى كان سيل العرم او انبثاق السد المعروف بسد مأرب. وهو عبارة عن حائط كان موصلا بين جبلين ، يحجز الماء الذي كان يسيل بينهما ، فيرتفع ويروي السفحين الى اعلاهما . بناه بعض ملوك تلك الدولة بناء متينا ، فصبر على صدمات الماء وتأثير الهواء عدة قرون . فلما دنا القرن الثاني للميلاد (تقريباً) وكانت الدولة قد شاخت ، احسوا بقرب سقوط السد ، فخافوا الطوفان والقحط ، فنزحوا من ذلك المكان وتفرقوا في البلاد ، بحسب قبائلهم وبطونهم ، ومنهم بنو غسان في الشام ، وبنو لخم في العراق ، وبنو الأوس والخزرج في المدينة ، والأزد في منى ، وخزاعة بجوار مكة . ثم انفجر السد فهاجر من بقي هناك من القبائل اليمنية . وفي نحو

القرن الخامس للميلاد استولى الأحباش على بلاد اليمن ، ثم جاء الفرس فاخرجوا الاحباش وضموا اليمن الى مملكتهم . وجاء الاسلام واليمن من اعمال مملكة الفرس .

فلما ظهر الاسلام ، كانت دولة العرب القحطانية قد دالت ، وهم الحضر وسكان المدن . وأما البدو القحطانية فكانوا لا يزالون كثيرين ، غير من بقي من القحطانية الحضر في يثرب وغيرها من مدن الحجاز واليمن . واليك اشهر القبائل القحطانية عند ظهور الاسلام وهي : سبأ وحمير وكهلان والأزد ومازن وغسان والأوس والخزرج وخزاعة وبجيلة وخثعم وهمدان وطيء ولخم وكندة وقضاعة وكلب وتنوخ ومراد والأشعر وغيرها .

* * *

وأما القبائل العدنانية ، او عرب الحجاز ونجد او عرب الشمال ، فلم يظهروا قبل الاسلام إلا قليلا ، ولم ينشئوا دولة إلا بعد الاسلام . وهم قبائل عديدة ، مواطنهم غالباً في نجد والحجاز والعراق وتهامة ، وكلها بادية رحالة إلا قريشاً فقد كانوا حضراً يقيمون في مكة ، وبعض اهل الطائف وأعظم قبائل العدنانية قبيلة «معد» ومنها تسلسلت قبائل عدنان كلها ، ويقال انه كان معاصراً لأرميا النبي[١] . وتفرع من معد اياد ونزار ، وسكنت اياد العراق وتشعبت الى بطون وافخاذ . واما نزار ففيها العظمة والقوة ، ولها الفضل الاعظم على العرب ، لأن منها جاءهم النبي (صلعم) . وانقسمت نزار الى قبيلتي ربيعة ومضر فسكنت ربيعة في جزيرة العراق ، ومن بطونها ضبيعة واسد وعنزة وجديلة والنمر وتغلب وبكر بن وائل وغيرهم . وأما مضر بن نزار فهم اهل الكثرة والغلب بالحجاز ، أكثر من سائر بني عدنان ، وكانت لهم الرياسة بمكة . ومن مضر تشعبت عدة عمائر من جملتها قريش ، وتشعبت قريش الى ٢٥ بطناً من جملتها بنو عبد مناف ، ومنهم بنو هاشم رهط النبي (صلعم) ، وبه شرفت مضر بعد الاسلام على سائر العرب قحطانيها وعدنانيها .

واشهر القبائل العدنانية ، غير ما تقدم ، خزيمة وكنانة والنضر وشيبان وقيس وهوازن وسليم وغطفان وذبيان وثقيف وكلاب وعقيل وتميم وهلال وباهلة ومخزوم وامية وعبد القيس وغيرها ، وبعضها فروع للبعض الآخر . ولكل قبيلة او عمارة شؤون خاصة وحكومة خاصة وشارة خاصة . ولكل منها سمة خاصة تمتاز بها عن سائر القبائل ، تعرف

---

١ — ابن خلدون ٣٠٠ ج ١ .

بها رايتها وتسم بها ابلها ، اي تنقش عليها علامة خاصة بها كياً بالنار يقال لها الميسم [١] وكانت القبيلة تمتاز بشيء تعرف به ويذاع بين القبائل خبره ، وتفاخر به سواها . فكانت مضر مثلاً تفتخر بفصاحتها ، وربيعة تفتخر بفروسيتها ونجدتها [٢] واشتهر بعض القبائل بالعز والمنعة دون سواها ، كقبيلة بهدلة من العدنانية ، فقد ذكروا ان العز والقوة تسلسلا اليها من معد الى نزار فمضر فخندف فتميم فسعد فكعب فعوف فبهدلة .

عصبية النسب

وبين القبائل ، او افخاذها او بطونها او عمائرها ، عصبية النسب تجمعها بعضها على بعض – الاقرب فالاقرب الى الابعد فالابعد . فتجتمع فيه الفصيلتان من الفخذ الواحد على فخذ آخر ولو كانوا جميعاً من بطن واحدة ، وتجتمع البطنان من عمارة واحدة على عمارة اخرى ولو كانوا جميعاً من قبيلة واحدة ، على حد قول المثل : « أنا واخي على ابن عمي ،وانا وابن عمي على الغريب » فالقحطاني يتعصب على العدناني وهذه اوسع العصبيات ، ثم ان القبائل يتعصب بعضها على بعض . والعمائر من قبيلة واحدة تتعصب بعضها على بعض ، ويقال نحو ذلك في البطون من عمارة واحدة ، او الافخاذ من بطن واحدة ، حتى تصل الى الفصائل والعائلات . فبنو العباس وبنو ابي طالب مثلا تخاصما ، وكلاهما من بني هاشم ،وبنو هاشم وبنو امية تخاصما ، وكلاهما من بني عبد مناف ،وقس على ذلك.

وكل من القبائل او البطون او الأفخاذ يفاخر سواه بحسنات قومه ويذكر مثالب الآخرين . ولهم في ذلك مفاخرات يطول بنا شرحها . على ان اشهر حوادث المنافسة بين العرب انما هو بين القبائل القحطانية (او اليمنية) والقبائل العدنانية ، وقد يرد ذكر ذلك في التاريخ ولا ينتبه له القارىء لانهم قلما يذكرون انتساب القبائل الى احدى هاتين العصبيتين فيقولون مثلا : « انتشبت الحرب بين قيس وكلب » ولا يذكرون ان قيساً من العدنانية وكلباً من القحطانية ، لاعتقادهم ان القارىء يعرف ذلك . وقس عليه قولهم تفاخرت قحطان ونزار ، او معد واليمن ، او مضر وحمير ، او هوازن وكهلان ، او قيس وهمدان ، او نحو ذلك .

---

١ – الاغاني ٤ ج ١٩ .   ٢ – المسعودي ٢١١ ج ١ .

العرب والعجم قبل الاسلام

على ان العرب القحطانية والعدنانية يجتمعون عـــلى غير العرب من الفرس او الترك ويسمونهم « العجم » ، ويفاخرونهم بالانساب واللغة ويحتقرونهم ، وقد شقوا من اسمهم لفظ الاعجم للدلالة على الخرس ، او ان العجم مشتق من العجمة ، فالعجمي عندهم غير العربي ، والاعجم الاخرس [١] والاخزر عندهم الذي في عينه ضيق ، وهذا وصف العجم وهو عند العرب من النقائص ، فاذا قيل للعربي يا اخزر عد ذلك القول اهانة لانه اخرجه من العرب . على ان العجمي في الاصل الفارسي ، والعجم الفرس ، لان الفرس اقدم من خالط العرب من الامم الغريبة عن لسانهم ، ثم اطلقوا لفظ العجم على كل اجنبي غير عربي .

والمنافسة بين العرب والعجم قديمة ، فان الفرس في ايام دولتهم كثيراً ما كانوا يخرجون العرب من بلادهم بالسيف ، والعرب كانوا يسطون على مدن الفرس حتى في ايام سابور قبل الاسلام ببضعة قرون ، وكان هـــذا قد تعمد أذى العرب واخراجهم من بلاده ، وخصوصاً قبيلة اياد ، وفيه يقول الشاعر :

على رغم سابور بن سابور اصبحت   قباب اياد حولها الخيل والنعم

ولكنه تمكن منهم بالقوة والجند ، فقتل منهم خلقاً كثيراً ، ومن افلت لحق بأرض الروم . وفعل نحو ذلك ببني تميم في البحرين . وما زالت الضغائن بين العرب والفرس ، حتى اضطر عرب اليمن الى استنجاد كسرى على الاحباش في القرن الخامس للميلاد ، فأرسل جنداً اخرجوا الاحباش واحتلوا مكانهم وحكموا العرب ، الى ان جاء الاسلام وتحول السلطان الى العرب فتسلطوا على العجم ، فكبر ذلك عليهم وخصوصاً في ايام بني امية ، لتعصبهم على غير العرب . ونشأت فرقة الشعوبية للطعن في العرب ، وسيأتي بيان ذلك .

الأمومة والخؤولة

الأصل في العصبية عند العرب الأبوة او الانتساب الى الأب ، مثل سائر الأمم الراقية ،

---

١ — العقد الفريد ٢٢٩ ج ٣ .

على ان الأمومة كان لها شأن كبير عندهم ، وكثيراً ما كانت المزاوجة او المصاهرة سبباً كبيراً للعصبية ، ليس ذلك لعلو منزلة المرأة على الاجمال ، وانما الفضل فيه للأمومة ، فان المرأة كانت لا تزال محتقرة حتى تصير أماً .. فتعلو منزلتها وتشتد عرى الاتحاد بهـا . فالرجل منهم يفضل أمه على امرأته ، لأن الأم في اعتقاده ابقى له من امرأته . ومن أمثلة ذلك ان صخر بن عمرو بن الشريد – اخا الخنساء – لما حضر محـاربة بني اسد ، طعنه ربيعة بن ثور الأسدي فأدخل بعض حلقات الدرع في جنبه ، وبقي صخر مدة في اشد ما يكون من المرض ، وأمه وزوجته سليمى تمرضانه . فضجرت زوجته منه ، فمرت بهـا امرأة فسألتها عنه فقالت : « لا هو حي فيرجى ولا ميت فينسى » فسمعهـا صخر فأنشد قصيدة قال منها :

أرى أم صخر لا تمـل عيادتي ... وملت سليمى مضجعي ومكاني
وأي امرىء ساوى بأم حليلة ... فـلا عاش الا في شقا وهوان [١]

وكانت العرب من اجل ذلك لا يعزون في المرأة الا ان تكون أماً [٢] ولم يكن ذلك خاصاً بحال المرأة عند العرب، فقد كان هذا شأنها أيضاً عند اليونان ، لأنهم كانوا يعـدون المرأة أمة يحجبونها قبل الزواج وبعده ، وتشتغل بأشغال البيت من الحياكة والغـزل وتمريض المرضى. وكذلك كان يفعل الفرس بنسائهم ، فاذا صارت المرأة أماً علت منزلتها وصار اليها الأمر والنهي في بيتها ، ولا يزال هذا دأب اهل البادية الى اليوم . ونشأت من ذلك عصبية الخؤولة عند العرب ، وهي نصرة عشيرة الأم لأولادهـا ، وبعبارة اخرى لعشيرة زوجها ، ولو كان الأب من قبيلة يمنية والأم من قبيلة عدنانية ، او بالعكس .

* * *

وكان للخؤولة شأن عظيم عند العرب قبل الاسلام، واقرب الشواهد عليها نصرة اهل المدينة للنبي (صلعم) في هجرته اليهم ، فان الخؤولة كانت من اهم اسباب نصرتهم ، لان ام النبي من بني النجار من الخزرج وهي قبيلة قحطانية ، وابوه من قريش وهي قبيلة مضرية . فلما توفي والده ذهبت به أمه الى المدينة، لكي تلتجىء الى اخواله بني النجار وهم كثيرون، وكانوا من اقرب اهلها الى التدين ، وقد ترهب احدهم في الجاهلية ، ولبس المسوح وفارق الاوثان واغتسل من الجنابة ، وهم بالنصرانية ثم امسك عنها ، واتخـذ بيته مسجداً .

---

١ – ابن خلكان ١٣٢ ج ١ . ٢ – العقد الفريد ٢٦٤ ج ٢ .

فأقامت عندهم على الرحب والسعة، ثم ذهبت به الى اعمامه في مكة وماتت على الطريق، فلما قام بدعوته وقاسى ما قاساه من اضطهاد اعمامه ، هاجر الى اخــواله في المدينة ، واهلها يعرفون ذلك فيه ، لان خؤولة بني النجار جعلت الخزرج كلهم اخواله ، فلما نزل المدينة رحب به اهلها ، وكان اول من تابعه منهم اخواله او من يمت اليهم بقرابة . وكانوا اشد اهل المدينة غيرة عليه ودفاعاً عنه [١] ثم تهافت اهــل المدينة الى مبايعته . وكان في اثناء غزواته اذا اشتد القتال جلس تحت رايـــة الانصار [٢] وهم يستهلكون في سبيل نصرته ، ولا سيما آل النجار . وكان اعداء الانصار اذا هجوهم خصوا بني النجــار منهم بالذكر ، لتصدرهم في ذلك اكثر من سائر اهل المدينة . فمن قصيدة قالها عمرو بن العاص يوم احد وهو لم يسلم بعد :

خرجنا من الفيفـا عليهم كأننا ... مع الصبح في رضوى الحبيك المنطق
تمنت بنو النجار جهـــلاً لقاءنا ... لدى جنب سلع والاماني تصدق
فمـــا راعهم بالشر الا فجـاءة ... كراديس خيل في الازقـة تمرق [٣]

* * *

وظلت الخؤولة مرعية عند العرب حتى بعد الاسلام ، وكان لها تأثير كبير في العصبية وسياسة الدولة . فلما طلب معاوية الخلافة ، بحجة المطالبة بدم عثمان بن عفـان ، نصره بنو كلب وهم يمنية ، لان نائلة امرأة عثمان منهم وقد تلطخت اصابعها بالدم. وكان لنصرتهم دخل كبير في قيامه، وتزوج هو واحدة منهم ولدت له ابنه يزيد . ولما افضت الخلافة الى يزيد ، كان الكلبية من حزبه لانهم اخواله، وامثال هذه الشواهد كثيرة في تاريخ الاسلام، منها ان المأمون نصره الفرس لان امه منهم،وكان اخوه الامين ضده وحزبه عربي لان امه عربية ، فلجأ المأمون الى خراسان واقام بمرو عند اخواله، فأخرجوا الخلافة من يد الامين وسلموها اليه . والمعتصم كانت امه تركية وكان ميله الى الاتراك كثيراً ، وقـــد جندهم فنصروه على الفرس . وقس على ذلك تأثير الام في الدولة ، مما سيأتي تفصيله . وكان رجال السياسة والتدبير من الملوك والقواد يقوون احزابهم بالتزوج من القبائل المختلفة،فيكتسبون عصبية قبائل نسائهم .

---

١ – ابن هشام ١٨٩ ج ١ . ٢ – ابن هشام ٨١ ج ٢ .
٣ – ابن هشام ١١٠ ج ٢ .

توابع العصبية العربية

الحلف

فعمدة العرب في العصبية جامعة النسب من الاب ، ثم الام . على انهم كانوا يجتمعون بأسباب اخرى ، كالحلف بين القبائل وهو يشبه المحالفات او المعاهدات الدولية في هذه الأيام . واشهر احلاف الجاهلية حلف المطيبين ، وحلف الفضول . فالحلف يجمع بين القبائل ولو تباعدت انسابها من القحطانية والعدنانية . وقد يكون التحالف بين العرب وغير العرب ممن ينزلون بينهم ، وهو من قبيل الولاء ، كاليهود الذين نزلوا المدينة من بني النضير وبني قينقاع وغيرهم ، ومنهم حلفاء الأوس والخزرج ، وكان اهل وادي القرى حلفاء بني هاشم ، وسيأتي ذكرهم في الموالي .

وللتحالف او الحلف عندهم شروط واسباب ، منها ان يكون الحليف اسيراً لا يستطيع فداء نفسه ، فيسمونه بسمة تلك القبيلة فيعد حليفاً لها[١] والحليف يرث من القبيلة كما يرث الصريح من ابنائها[٢] أما اذا قتل فديته نصف دية الصريح[٣] .

الاستلحاق

ومن توابع العصبية العربية قبل الاسلام الاستلحاق ، وهو ان يدعي الرجل رجلا يلحقه بنسبه ، وقد يكون عبداً او اسيراً او مولى ، فيسميه مولاه وينسبه اليه . ومن أشهر حوادث الاستلحاق في الجاهلية ، ان امية جد بني أمية كان له عبد اسمه ذكوان ، استلحقه بنسبه وكناه ابا عمرو ، فصار اسمه عندهم ابا عمرو بن أمية ، ومن نسله جاء الوليد بن عقبة اخو عثمان بن عفان لأمه ، وكان من جلة الصحابة .

وأشهر حوادث الاستلحاق في الاسلام استلحاق زياد بن أبيه بأبي سفيان والد معاوية داهية العرب ، وقصة استلحاقه مشهورة في كتب التاريخ ، وكان زياد هذا ابن امرأة اسمها سمية ، وكانت جارية ، فولدت زياداً من غلام رومي من موالي ثقيف اسمه عبيد ، ولم يكن ذلك مشهوراً عند العرب ، فكانوا يعتبرون زياداً مجهول الاب فسموه « زياد بن ابيه » ، فلما طلب معاوية الخلافة واحتاج الى من ينصره ، قرب اليه جماعة من دهاة

١ – الاغاني ١١٠ ج ٧ . ٢ – تاريخ الوزراء ٢٥١ . ٣ – الاغاني ١٦٧ ج ٢ .

العرب ومنهم زياد المذكور، واختص زياداً بالاستلحاق، فاستشهد خماراً من اهل الطائف اسمه ابو مريم السلولي، فشهد ان ابا سفيان جاءه والتمس منه بغياً فأتاه بسمية فحملت منه بزياد، وثقات المؤرخين ينكرون ذلك ويعتقدون ان معاوية اختلق هذه القصة ليكتسب نصرة زياد، وقد تم له ما أراد. فسمي « زياد بن أبي سفيان » بعد ان كان يعرف بزياد ابن أبيه او ابن سمية[١] وما زال آل زياد معدودين من قريش، حتى ردهم المهدي سنة ١٦٠ هـ الى نسب عبيد المذكور، وصاروا من موالي ثقيف[٢] ومثل هؤلاء آل أبي بكرة، فقد كانوا من موالي النبي (صلعم) والحقوا بثقيف، فردهم المهدي الى اصلهم.

وكانوا يسمون المستلحق « دعيا »، وقد يكون الرجل دعي ادعياء فيكون هو دعيا في رهطه ورهطه دعي في قبيلة مثل ابن هرمة، فقد كان دعيا في الخلج والخلج ادعياء في قريش، وكثيراً ما كانوا يستلحقون الرهط او العشيرة دفعة واحدة، لنزولهم فيهم او لنصرتهم اياهم، كما اصاب بني العم من اهل البصرة، فانهم نزلوا ببني تميم في ايام عمر بن الخطاب، فاسلموا وغزوا مع المسلمين فقالوا لهم: «انتم وان لم تكونوا من العرب اخواننا واهلنا، وانتم الانصار وبنو العم» فلقبوا بذلك وصاروا من جملة العرب[٣].

وكانوا يعدون الدعي من انفسهم، ويورثونه كما يورثون الابن الصريح[٤] ويرثونه، وكثيراً ما كان العرب يرغبون في استلحاق مواليهم، رغبة منهم في ان يرثوهم، وقد يأبى المولى ان يلحقوه اذا عرف غرضهم، كما اصاب نصيباً المغني المشهور، اذ اراد مواليه ان يلحقوه بنسبهم فأبى وقال لهم: « والله لأن اكون مولى لائقاً احب الي من ان اكون دعيا لاحقا، وقد علمت انكم تريدون مالي »[٥].

ومن اسباب العصبية عندهم ما يشبه الحلف « المؤاخاة »، وقد تكون بين القبائل او بين الافراد، ولا تزال هذه العادة شائعة بين البدو الى الآن، فاذا آخيت العربي اخذ بناصرك وحماك ودافع عنك كأنك اخوه.

---

١ – ابن الاثير ٢٢٥ ج ٣. ٢ – ابن الاثير ٢٠ ج ٦.
٣ – الاغاني ٧٦ ج ٣. ٤ – الاغاني ٩٤ ج ١٧. ٥ – الاغاني ١٣٤ ج ١.

الخلـــع

وضد الاستلحاق عندهم « الخلع » ، فكان الرجل اذا ساءه أمر من ابنه ، سواء كان صريحاً او دعياً خلعه ، اي نفاه عن نفسه فيتخلص من تبعة ما قـــد يرتكبه الولد من المكروه ، وقد تفعل ذلك القبيلة او العشيرة ، فيذهب جماعة منها الى سوق عكاظ ومعهم المراد خلعه ، ويشهدون على انفسهم انهم خلعوه ، ويبعثون منادياً بذلك فلا تحتمل القبيلة جريرة له ، ولا تطالب بجريرة يجرها احـــد عليه . كما فعلت خزاعة بقيس بن الحدادية الشاعر الجاهلي (١) وقد يكتبون بالخلع كتاباً .

ومن اشهر حوادث الخلع قبل الاسلام خلع عمرو بن العاص من عشيرته ، وكان قـــد ذهب الى الحبشة بتجارة في الجاهلية مع عمارة بن الوليد المخزومي واختصما في الطريق، فأساء عمارة الى عمرو فأضمر له الشر ، وعمرو من بني سهم فكتب الى ابيه ان يخلعه ويتبرأ من جريرته اذا آذى عمارة ففعل ، فخلعت كل من العشيرتين صاحبها وارسلوا بذلك مناديا الى مكة (٢) .

وكان الخلعاء في البادية كثيرين ، يجتمعون ويؤلفون عصابات من الصعاليك يقطعون السبل ويتمردون على القبيلة . فلما جاء الاسلام اصبح تمردهم على الحكومة . فقد كان يعلى الاحول من شعراء الدولة الاموية خليعاً ، يجمع صعاليك الأزد وخلعاءها فيغير بهم على احياء العرب ويقطع الطريق على السابلة . وكان بين تجار الرقيق من يبتـــاع الخلعاء ويذهب بهم الى بلاد الروم .

العبيد في الجاهلية

الاسترقاق

الاسترقاق قديم مثل قدم الانسان ، لأن الانسان مفطور على الاستبداد ، والقوي يستعبد الضعيف . وكان الانسان في اول عهد العمران اذا غلب عـــدوه وقبض عليه لا يستعبده بل يقتله، الا النساء فقد كانوا يستبقونهن للاستمتاع بهن . ثم صاروا يستعبدون الاسرى ويستخدمونهم في حرث الارض ورعاية الماشية ، او نحو ذلك من الصناعات ،

---

١ – الاغاني ٢ ج ١٣ . ٢ – الاغاني ٥٢ ج ٨ .

يبيعونهم بيع المتاع . ذلك كان شأنهم في عهد التمدن القديم في مصر واشور وبابل. وكان للاسترقاق سوق رائجة في الدولة الرومانية ، فكانوا يأتون بالاسرى بالمئات والالوف ، ويبيعونهم بيع الاغنام ويعاملونهم معاملة الحيوانات . ولما انتظم حال تلك الدولة، صاروا يتزوجون بالجواري ، وبعد ان كان الروماني يتصرف بعبيده كما يشاء من قتل او جلد ، اصبح قصاصه منوطاً برأي القضاة ، واذا بالغ السيد في ظلم عبده حكم القضاة عليه .

على ان العبيد ما زالوا كثيرين في المملكة الرومانية ، لا يخلو منهم بيت ، واكثرهم من الاسرى أو ابنائهم ، يستخدمونهم في المنازل ويعلمونهم الصناعات على اختلاف ضروبها، ويبيعونهم في اسواق خاصة بالرقيق . ويختلف ثمن العبد عندهم من عشرين ريالا رومانيا الى اربعة آلاف ريال ، ويقال نحو ذلك في سائر الممالك القديمة . فالفرس مثلا كانوا يستعبدون الاتراك في الحرب ويتهادونهم ، وقد يتهادون ابناء الامراء منهم . ومما ذكره التاريخ من ذلك ان ابرويز ملك الفرس اهدى موريقس Mauricius ملك الروم مائة غلام من ابناء اراكنة الترك في غاية الحسن والجمال ، في آذانهم من الذهب فيها الدر واللؤلؤ ، في جملة هدايا أخرى . فأهداه ملك الروم هدية فاخرة ، في جملتها عشرون جارية من بنات ملوك برجان Burgundians والجلالقة Gallicians والصقالبة Sclavs والوشكنس Gascons من الاجناس المجاورة لبلاده على رؤوسهن أكاليل الجوهر (١) .

العبيد عند العرب

والعرب ايضاً كانوا يستخدمون العبيد من اسرى الحرب ، او ممن يبتاعونهم من الامم المجاورة لجزيرتهم ، كالحبشة وما حولها من الامم المتوحشة . فكان النخاسون يحملون العبيد والاماء من تلك البلاد وغيرها الى جزيرة العرب ، يبيعونهم في اسواقها في المواسم، وكانت قريش تتجر بالرقيق مثل اتجارها بسائر السلع . ومن اشهر النخاسين في الجاهلية عبدالله بن جدعان التيمي رئيس قريش في حرب الفجار(٢) فاذا اشترى احدهم عبداً وضع في عنقه حبلا وقاده الى منزله(٣) كما تقاد الدابة . واذا كان العبد اسير حرب جزوا ناصيته وجعلوها في كنانتهم حتى يفتدي نفسه . وكانوا يبتاعون الارقاء ويتهادونهم ويتوارثونهم مثل سائر الامتعة ، إلا اذا دبر المولى عبده اي قال له : « انت حر بعد

---

١ — المسعودي ١١٩ ج ١ . ٢ — المسعودي ٢٨٢ ج ١ .
٣ — المعارف لابن قتيبة ١١٢ .

موتي » فانه يكون حراً . وقد يخرجون العبيد في جملة صداق العرائس ، وممن اخرج في الصداق بشار بن برد الشاعر الاسلامي الشهير ، فانه كان هو وامه لرجل من الازد تزوج امرأة من بني عقيل فساق اليها بشاراً وامه في صداقها[١] .

وذلك يدل على كثرتهم ، ولا سيما عنـــد الامراء والملوك حتى ليزيدون على المئات والالوف . فقد وفد ذو الكلاع ملك حمير على أبي بكر ومعه الف عبد غير من كان معه من عشيرته[٢] ، ولم يكن شريف من اشراف العرب يخلو منزله من عبيد يستخدمهم في قضاء حاجات منزله ، فعبدالله بن ابي ربيعة كان له عبيد من الحبشة يقومون بجميع المهن ، وكان عددهم كثيراً وفيهم من يخرج للحرب . وقلما كانوا يثقون بأمانتهم[٣] على انهم كانوا يستعينون بهم في القتال ، وكان لذلك شأن بعد الاسلام . وكانوا يجعلون الحـد على العبد نصف ما على الحر[٤] واذا شهد حرباً لا يضرب له بسهم[٥] بل يكون سهمه لسيده .

وكان من أصناف العبيد عندهم « القن » وهو العبد الذي يعمل في الارض ويباع معها ويشبه ما يعرف باسم Cerf في المملكة الرومانية .ومن العبيد من يدخل الرق بالمقامرة ، كما اتفق لأبي لهب مع العاصي بن هشام ، فانهما تقامرا على ان من قمر كان عبداً لصاحبه ، فقمره ابو لهب فاسترقه واسترعاه ابله[٦] وكانوا يسترقون المدينين أيضاً .

وكانت العرب تتزوج الاماء ، فاذا ولد منهم اولاد استعبدوهم ، فاذا انجب احدهم الحقوه بأنسابهم واعترفوا به والا بقي عبداً . واشهر حوادث الاستلحاق على هذه الصورة الحاق عنترة العبسي بأبيه شداد ، وهو ابن جاريته زبيبة . وكان شداد نفاه فلمـــا انجب الحقه بنسبه[٧] وقصته مشهورة . وكان العرب قبل الاسلام لا يعتقون عبيدهم إلا لسبب هام . واذا احب العبد العتق ، استباع اي طلب البيع ، فاذا رضي صاحبه باعه لسواه . اما بعد الاسلام فقد كثر الاعتاق لحكمة سياسية دينية سيأتي ذكرها .

---

١ – الاغاني ٢٠ ج ٣ . ٢ – المسعودي ٢٨٧ ج ١ .
٣ – الاغاني ٣٢ ج ١ . ٤ – الاغاني ١٢٤ ج ١٤ .
٥ – المعارف لابن قتيبة ١١٠ . ٦ – الاغاني ١٠٠ ج ٣ .
٧ – الاغاني ١٤٨ ج ٧ .

الموالي في الجاهلية

المولى عند العرب وسط بين العبد والحر ، والغالب فيه ان يكون عبداً معتقاً ، فكل عبد اعتق صار مولى ، وهو يشبه ما كان في الدولة الرومانية من العبيد المحررين ويسمونهم Libertines وكل عبد اواسير اعتقه صاحبه فهو مولى له ، وينسب اليه او الى قبيلته او رهطه . فمولى العباس مثلا هو مولى بني هاشم ، وهو ايضاً مولى قريش ومولى مضر . وقد ينسب المولى الى بلد معتقه ، فيقال فلان مولى اهل المدينة ، او مولى اهل مكة . والمولى عندهم كالقريب ، لكنهم يسمون قرابة الاهل صريحة وقرابة المولى غير صريحة . ويطلق المولى على الصاحب والقريب وابن العم والجار والحليف والابن والعم والنزيل والمحب والتابع والصهر وغير ذلك ، واكثرها يطلق على المولى بسبيل المجاز . اما عند التحقيق فالموالي ثلاثة انواع : مولى عتاقة ، ومولى عقد ، ومولى رحم .

مولى العتاقة

فمولى العتاقة هو الذي كان أسيراً او عبداً واعتق ، وكانوا يعتقون الأسير مكافأة على احسان ، فيشترط الرجل على عبده مثلا اذا فعل كذا وكذا فهو حر ، ويكون مولى لمعتقه ، وكان لذلك تأثير كبير في صدر الاسلام ، لأن المسلمين كثيراً ما كانوا يستعينون بالعبيد على اسيادهم بطريق الاعتاق . ومن امثلة ذلك ان المسلمين لما حاصروا الطائف في السنة الثامنة للهجرة وكادت تمتنع عليهم ، أمر النبي (صلعم) منادياً فنادى : « أيما عبد نزل فهو حر وولاؤه لله ورسوله » فنزل جماعة كبيرة [١] وقد يكون الاعتاق لسبب آخر .

واذا كان العبد من اسرى الحرب وارادوا اعتاقه جزوا ناصيته وخلوا سبيله ، فيصير مولى لمالك تلك الناصية ومن قول حسان بن ثابت شاعر النبي (صلعم) بعد واقعة أحد جواباً على قول هبيرة بن ابي وهب :

ألا اعتبرتم بخيل الله اذ قتلت أهل القليب ومن الفينه فيهـا
كم من أسير فككناه بـلا ثمن وجز ناصية كنا مواليها [٢]

---

١ ــ العقد الفريد ٢ ج ٣ . ٢ ــ ابن هشام ١٠٥ ج ٢ .

المكاتبة

وقد يقع العتاق باتفاق بين العبد وصاحبه بالبيع ، وهو ما يعبرون عنه بالمكاتبة ، وذلك ان يكتب العبد على نفسه صكاً بثمن اذا سعى وأداه عتق ، وقد يجعل الدفع أنجماً (تقسيطاً) ، فأبو سعيد المقرى احد كبار التابعين كان عبداً لرجل من جندع وكاتبه على اربعين الفاً وشاة لكل اضحى فأداها [١]

قلنا ان من اعتق عبداً كان ولاؤه له ، ومعنى ذلك انه يكون هو صاحب ولائه ، فينسب اليه ، واذا مات كان هو وارثه . على انهم كانوا يشترطون احياناً الا يكون ولاؤه لمعتقه ، بل يكون لمن يؤدي ثمن المكاتبة . وقد تكون العتاقة « سائبة » ، وهي ان يعتق العبد ولا ولاء له . فكان الرجل اذا قال لعبده : « انت سائبة » يعتق ولا يكون ولاؤه لمعتقه . ويضع ماله حيث شاء . ومن اشهر المعتقين سائبة سالم مولى ابي حذيفة بن عتبة ، واصله من اصطخر وكان مملوكاً لبثينة امرأة ابي حذيفة ، فأعتقته سائبة [٢] .

على ان الاسلام نهى ان يكون الولاء لغير المعتق ، فبريرة بنت سعود الثقفية دخلت على عائشة ام المؤمنين تستعينها في كتابتها وعليها خمس اواق نجمت عليها في خمس سنين ، فقالت لها عائشة : « أرأيت ان عددت لهم عدة واحدة ايبيعك اهلك فاعتقك فيكون ولاؤك لي ؟ » فذهبت بريرة الى اهلها فعرضت ذلك عليهم ، فقالوا : « لا ، الا ان يكون لنا الولاء » . قالت عائشة : « فدخلت على رسول الله (صلعم) فذكرت ذلك له فقال : اشتريها فأعتقيها فانما الولاء لمن اعتق » [٣] الا ان يشتري احد ذلك الولاء من صاحبه فيصير الولاء الى المشتري ، كما اصاب ابا معشر احد اصحاب الحديث ، فقد كان مكاتباً لامرأة من بني مخزوم فأدى وعتق ثم اشترت ام موسى بنت منصور الحميرية ولاءه [٤] .

ومن اسباب العتاقة عندهم التدبير ، وذلك ان يقول الرجل لعبده انت حر بعد موتي فلا يرثه اهله .

مولى العقد

ويقال له أيضاً مولى حلف او اصطناع ، وذلك ان ينتمي الرجل الى رجل بالخدمة على اختلاف ضروبها ، او بالمحالفة او المخالطة او الملازمة على ان يتعاقب ذلك اجيالاً .

---

١ – المعارف لابن قتيبة ١٥٤ . ٢ – المعارف ٩٢ .
٣ – البخاري ٦٠ ج ٢ . ٤ – المعارف ١٧٢ .

ومن امثلة الموالي بالمحالفة أو المخالطة اليهود في يثرب (المدينة) فقد جـاء الاسلام وهم يعدون من موالي الاوس والخزرج ، فولاؤهم من قبيل الحلف . ولولاء اليهود في يـثرب تاريخ يطول شرحه ، خلاصته ان اليهود نزلوا قبل الميلاد ببضعة قرون وتوطنوها قبل ان ينتقل اليها الاوس والخزرج من عرب اليمن، فلما جاءوا اليها رأوا اليهود مستأثرين بالأرض والماشية فأقاموا في ضيق ، حتى اتفق ان اميراً منهم اسمه مالك بن عجلان استشار ملك غسان بالشام في شأنهم ، وكأنه استعانه عليهم فاتفقا على الكيد لهم . فجاء المدينة وفعـل ذلك فذل اليهود وخافوا ، واصبحوا اذا داهمهم احد من الاوس او الخزرج بشيء يكرهونه ، لا يمشون بعضهم الى بعض كما كانوا يفعلون من قبل ، بل يذهب كل منهم الى جيرانه الذين هو بين اظهرهم فيستجير بهم ، فلجأ كل قوم من اليهود الى بطن مـــن الاوس او الخزرج يتعززون بهم [1] ويحالفونهم على انهم مواليهم ، وفيهم من ينسب ولاءه الى رهط خاص كموالي بني النجار اخوال النبي (صلعم) او موالي غيرهم من عرب المدينـة .

ومن هـذا القبيل اكثر موالي العرب بعد الاسلام ، فقد كان العرب اهـل السيادة والشوكة ، واهل البلاد يلازمونهم بالخدمـــة او المخالطة او المعاشرة ، فينسبون اليهم ويسمون ذلك ولاء الموالاة ، وهي ان يقول شخص لآخر : « انت مولاي ترثني اذا مت، وتعقل عني اذا حييت » فيقول الآخر : « قبلت » . ولكل طبقة من العرب طبقة من الموالي ، فقد كان البرامكة مثـــلا من موالي الرشيد ، ومن هم دونهم من العجم موالي الامراء ، وهكذا .

وكان المولى في الجاهلية ربما كان نصرانياً او يهودياً او مجوسياً ، لا فرق في ذلـــك عندهم ، فموالي النبي (صلعم) كان احدهم حبشي الاصل والآخر يوناني الاصل والآخر قبطي الاصل والآخر فارسي الأصل[2] وعدس مولى عتبة بن أبي ربيعة كان من أهـــالي نينوى وقتـــل يوم بدر على النصرانية[3] أما بعد ظهور الاسلام فاصبح الولاء خاصاً بالمسلمين ، لأن القرآن نهى عن تولي اليهود والنصارى بالآية : « يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء الخ . وصاروا يعدون بعد الاسلام من أهل الذمة .

---

١ – الاغاني ٩٧ ج ١٩ .   ٢ – ابن الاثير ١٥١ ج ٢ .

٣ – المسعودي ٣١ ج ١ .

مولى الرحم

واما مولى الرحم فيكتسب الولاء بالزواج من موالي بعض القبائل ، فينسب الى القبيلة التي تزوج من مواليها . ومن امثلة ذلك سديف الشاعر ، فقد كان مولى خزاعة ، ثم ادعى ولاء بني هاشم لأنه تزوج مولاة لآل ابي لهب (من بني هاشم) [١] .

وللموالي عند العرب احكام خاصة ، فاحكامهم العامة ان المولى احط منزلة من الحر وارفع من العبد ، فهو حر لا يباع كالعبد لكنه لا يعامل معاملة الحر في الزواج والميراث. فالمولى لا يتزوج حرة ، ودية المولى نصف دية الحر[٢] كأنه عبد . ويعامل نحو ذلك فيما يقع عليه من القصاص ، فيجلد نصف حد الحر .

واما احكامهم الخاصة فتختلف باختلاف نوع الولاء ، واهمها الارث ، فمولى العتاقة يورث ولا يرث ، ومولى العقد لا يرث ولا يورث ، ومولى الرحم يرث ويورث [٣] فمن اعتق عبداً كان الولاء له وهو يرثه ، ولذلك يسمونه مولى النعمة . وكان الرومانيون يرثون ثلث ما يملكه مواليهم او يكتسبونه بالعمل او غيره ، واذا لم يكن لهم من يرثهم من نسلهم ورثوا كل أموالهم[٤] .

وكان للموالي شأن في عصبية العرب قبل الاسلام ، وقد عظم شأنهم في الاسلام ، حتى كانوا سبباً في قلب الممالك ونقل السلطة من دولة الى دولة .

النزالة الاجانب في الجاهلية

كان معظم سكان جزيرة العرب من القبائل العدنانية والقحطانية ومن يتبعهم من العبيد والموالي والخلفاء ونحوهم ، وفيها ايضاً جماعة من النزالة نزحوا اليها من الحبشة والشام والعراق ومصر وفارس والهند ، وفيهم الاحباش واليهود والروم والكلدان والعجم والهنود وغيرهم . وكان بعضهم يتوالدون فيها ويتزوجون بأهلها ، فيختلطون بهم وتضيع انسابهم فيها ، كالكلدان والسريان وغيرهم . وفيهم من يحالفونهم وينتمون اليهم كاليهود

---

١ — الاغاني ١٦٢ ج ١٤ .
٢ — الاغاني ١٧٦ ج ٢ .
٣ — العقد الفريد ٢٦٢ ج ٢ .
٤ — Gibbon's Roman Empire, II.

والنصارى ، ومنهم من يدخلون في جملة عبيدهم ومواليهم كالاحباش والفرس ، والهنود ، فتضيع أصولهم . ولذلك كان سكان جزيرة العرب عند ظهور الاسلام عرباً صرفاً ، إلا بعض اليهود كبني قينقاع والنضير وغيرهم ، وشرذمات من من نصارى الروم ، وطائفة من الفرس الاحرار يعرفون بالابناء .

الابناء

هم طائفة من الفرس كانوا يقيمون في بلاد اليمن ، ويعرفون بأبناء الفرس الاحرار او « الابناء » تمييزاً لهم عن الفرس الموالي . وابناء الفرس الاحرار هم ابناء الجند الفارسي الذي جاء بلاد اليمن لنصرة سيف بن ذي يزن الحميري على الاحباش ، وكان الاحباش قد فتحوا اليمن واستولوا عليها ، ففزع سيف المذكور الى كسرى ملك الفرس واستنجده في حديث طويل ، فسير كسرى معه بضعة آلاف من جند الفرس ومعهم قائد اسمه وهرز . فلما وصل الجيش الى اليمن جرت الواقعة بينهم وبين الاحباش ، فاستظهر الفرس عليهم واخرجوهم من البلاد ، وملك سيف بن ذي يزن ووهرز اربع سنين . وكان سيف قد اتخذ من الاحباش خدماً ، فخلوا به يوماً وهو في الصيد وقتلوه وهربوا في رؤوس الجبال ، وطلبهم اصحابه فقتلوهم جميعاً ، وتضعضع امر اليمن ولم يولوا عليهم احداً من العرب فظلت سيادة الفرس عليها حتى ظهر الاسلام ، وفيها عاملان من قواد الفرس احدهما اسمه فيروز الديلمي والآخر راذويه فاسلما .

فالجيش الفارسي لما استوطن اليمن تزوج رجاله فيها وتناسلوا ، ورزقوا الاولاد والاحفاد وعرفوا بالابناء . واشتهر منهم في صدر الاسلام طاوس بن كيسان احد اعلام التابعين ، ووهب بن منبه صاحب الاخبار والقصص ، ووضاح اليمن الشاعر وغيرهم .

وكان مثل هؤلاء الفرس ايضاً في الشام والعراق والجزيرة ، واختلفت اسماؤهم باختلاف اماكنهم بعد الاسلام ، فهم يسمون في اليمن الابناء كما رأيت ، وفي صنعاء خاصة يسمون بني الاحرار ، وفي الكوفة الاحامرة ، وبالبصرة الاساورة ، وبالجزيرة الخضارمة ، وبالشام الجراجمة [١] . وكان للابناء شأن عند ظهور الاسلام ، فتجندوا للمسلمين ونصروهم وظلوا مميزين عن سائر المسلمين غير العرب بأنهم غير الموالي .

---

١ — الاغاني ٧٦ ج ١٦ .

سياسة الدولة في الجاهلية

لم يكن للعرب دولة في جاهليتهم ، الا ما كان في اليمن من دول التبابعة مما لا يدخل في بحثنا . وانما نريد بسياسة الدولة عندهم القواعد التي كانت تدور عليها احكامهم ومعاملاتهم لحفظ علاقاتهم السياسية وآدابهم الاجتماعية ، مما يقوم مقام القوانين الادارية والسياسية الدولية في الامم المتمدنة .

فالرياسة عندهم او الامارة انما ينالها اهل العصبية والجاه ، واذا تساوت العصبية في جماعة قدموا اكبرهم سناً ، ولذلك كان لفظ « الشيخ » عندهم يدل على الشيخوخة والرياسة معاً ، واذا أشكل عليهم الانتخاب لأي سبب عمدوا الى الاقتراع . وكذلك اذا اجتمعت عدة قبائل في محالفة على حرب ، واحتاجوا الى من يرأسهم جميعاً فأنهم يقترعون بين اهل الرياسة ، فمن وقعت عليه القرعة اسندوا اليه الرياسة .. ذلك هو شأن بدو العرب وهم معظمهم . وأما حضرهم في مكة فالرياسة فيهم لسادن الكعبة ، وقد تقدم ذكر مصالح الحكومة عندهم في الجزء الأول من هذا الكتاب .

وكان في كل قبيلة بالجاهلية بيوتات تشتهر بالرياسة والشرف ، فتمتاز عن سائر القبيلة وتكون الرياسة فيها ، كبيت هاشم بن عبد مناف من قبيلة قريش ، وبيت آل حذيفة بن بدر الفزاري من قيس ، وبيت آل زرارة بن عدي من تميم ، وبيت آل ذي الجدين بن عبد الله بن همام من شيبان ، وبيت بني الريان من بني الحرث بن كعب من اليمن . وقد امتازت هذه البيوتات على قبائلها بالشرف ، لتوالي ثلاثة آباء منها في الرياسة على الاقل . ولأهل البيوتات نفوذ على سائر القبيلة : وكان اهل السياسة من رجال المسلمين يلاحظون ذلك في تولية الحكام . ومن هذا القبيل وصية ابن عباس للحسن بن علي : — « ول أهل البيوتات تستصلح بهم عشائرهم » .

والامير البدوي مع سلطته المطلقة قلما يستبد في احكامه ، ويغلب ان يستشير اهل بطانته وخاصته ، على انه لم يكن يحتجب عن احد ولا يمتهن احدا . يجالس جميع الناس ويخالطهم ، رفيعهم ووضيعهم . وهم لا يعرفون القاب التفخيم ولا نعوت التملق ، فاذا خاطب البدوي اميره ناداه باسمه وطالبه بحقه ، بعبارات تشف عن عزة النفس واباء الضيم ، او هي انفة البداوة ، على انهم كانوا يتكلمون على الاسنان ، والامير يخاطب رعاياه بألقاب الوقار كالأب والعم والخال والابن او ابن الاخ على ما تقتضيه الاسنان

والانساب . وظل ذلك شأنهم في صـــدر الاسلام ، ينادون الخليفة باسمه ويحاجونه في شؤونه ، حتى اذا تحضروا احتجبوا وتكبروا ، فاتسع الفاصل بين المحكوم والحاكم .

مناقب العرب في الجاهلية

الوفـاء

على ان العرب قلما كانوا يحتاجون الى حاكم يفصل في الخصومة بينهم ، لما فطروا عليه من المناقب الجميلة التي تقوم فيهم مقـــام الحاكم الصارم ، وتنزههم عن ارتكاب الدنايا مما يغنيهم عن القضاء . وسيد هذه المناقب « الوفاء » ، لأنه اذا تأصل في امة اغناها عن القضاء ــ والحكومة انما تقضي بين الذين لا يعرفون الوفاء . وكان الوفاء متمكنا في خلق العربي ، ويزيد تمكنا فيه كلما بعد عن المدن واوغل في الصحراء ، لان الغدر والنكث لا يعيشان إلا في القصور الشماء في ظل الحدائق الغناء .

وترى الوفاء مطبوعاً في اقوال اهل البادية وأشعارهم وأمثالهم ، ويتجلى في عـاداتهم واخلاقهم وفي سائر اعمالهم ، وهو فيهم سجية وفي سواهم صناعة وتكلف . وحكاية حنظلة الطائي والنعمان بن المنذر تمثل هذه الخلة احسن تمثيل ، فان حنظلة وعد النعمان بالرجوع بعد عام لاستقبال الموت ، فطلب النعمان من يضمنه فضمنه شريك بن عدي ، ولم يقدم شريك على ذلك الا وهو يعتقد صدق البدو لاشتهارهم به . وقد وفى حنظلة فجـــاء في الوقت المعين ، لا جند تقوده ولا حراس تخفره ، مما حمل النعمان على العفو عنه وقصته مشهورة [١] .

واغرب من ذلك وفاء السموأل (صموئيل) بن عادياء ، وكان امرؤ القيس الكندي قد استودعه سلاحاً وامتعة تساوي مالاً كثيراً ، وسافر الى بلاد الروم ومات قبل رجوعه ، فبعث ملك كنده يطلب الأسلحة والأمتعة المودعة عند السموأل ، فلم يسلمها . ولما ألح عليه اجابه : « لا اغدر بذمتي ولا اخون اماتني ولا اترك الوفاء الواجب عـلي » فجرد الملك عليه جيشاً وحاصره في حصنه ، فوقع ابن السموأل اسيراً عند الملك ، فهدد السموأل بقتل ابنه ان لم يسلم الوديعة ، فأبى التسليم وقال : « ما كنت لاخفر ذمامي وابطل وفائي

---

١ ــ المستطرف ١٦١ ج ١ .

فافعل ما شئت » . فذبح ولده والسموأل ينظر . فلما امتنع الحصن على ملك كندة عاد خائباً ، واما السموأل فصبر على ما تحمله من الثكل محافظة على الوفاء ، ولم يسلم الوديعة الا الى ورثة امرىء القيس .

فمن كانت هذه مناقبهم قلت حاجتهم الى القوانين ، واستغنوا عن الجند والحرس وخصوصاً اذا اضفنا اليها علو الهمة وطيب النفس وقلة احتمال الذل والسماحة والكرم والنزاهة عن الدنايا .. فهذه كلها مناقب العرب اهل البادية .

الجوار

ومن قبيل الوفاء بالعهد وحفظ الذمام أيضاً « الجوار » ، فان البدوي يحافظ على جاره محافظته على نفسه . والمقصود بالجوار في الأصل ان يحافظ الرجل على جاره القريب، وهو من قبيل التعاون الطبيعي حتى قيل : « جارك القريب ولا اخوك البعيد » . ولكن العرب توسعوا في ذلك حتى شقوا منه الاجارة والاستجارة والجوار ، وكلها بمعنى الحماية والحفظ ، مع ان اصل المادة « جار » يفيد عكس ذلك . واستعاروا الجوار للحماية على الاطلاق ، فاذا خاف احدهم سوءاً جاء الى رجل يحميه، ويكفي ان يقول له : « اجرني » فيجيره بقدر طاقته ، وقد يفرط في اهله ولا يفرط في جاره .

ومن امثلة ذلك ان الأعشى امتدح الأسود العنسي فأعطاه جائزة من الحلل والعنبر ، فرجع وطريقه على بني عامر فخافهم على ما معه من المال ، فأتى علقمة بن علاثة فقال له : « أجرني .. » ، فقال : « قد أجرتك .. » ، قال : « من الأنس والجن .. » ، قال : « نعم .. » ، قال : « ومن الموت .. » ، قال : « لا .. » ، فتركه وأتى عامر بن الطفيل فقال له : « أجرني .. » ، قال : « قد أجرتك .. » ، قال : « من الأنس والجن .. » ، قال : « نعم .. » ، قال : « ومن الموت .. » ، قال : « نعم .. » ، قال : « وكيف تجيرني من الموت ؟ » ، قال : « اذا مت وأنت جاري بعثت الى اهلك الدية » ، فقال : « الآن علمت انك تجيرني »[١]

وقد يجيء بعضهم ليستجير برجل فلا يجده في بيته ، فيكفي ان يعقد طرف ثوبه الى

---

١ – الاغاني ٨٣ ج ٨ .

جانب طنب البيت ، فاذا فعل ذلك صار جاراً ووجب على المعقود بطنب بيته للمستجير به ان يجيره وان يطلب له بظلامته[١] .

ومن قبيل تعظيم الجوار والمحافظة عليه ان عامر بن الطفيل لما مات نصبت بنو عامر انصاباً ميلاً في ميل على قبره ، لا ينشر فيه ماشية ولا يرعى ولا يسلكه راكب ولا ماش، اشارة الى ما كان عليه من المحافظة على الجوار في حياته[٢] .

وما زال الجوار مرعياً عند العرب بعد الاسلام ، إلا من خالط الامم الاخرى في البلاد المفتوحة . على ان تأييد الدولة اقتضى ضعف الجوار ، لأن اهل الوجاهة اصبحوا من اهل الدولة، والرجل يومئذ انما يستجير من حاكم يطلبه، فاذا استجار به مظلوم قالوا : « انما يجير الرجل على عشيرته ، واما على سلطانه فلا » خوفاً على مناصبهم ، كما اصاب ابن مفرغ لما هجا بني زياد واستجار بالأحنف بن قيس على عبيد الله بن زياد ، وهو يومئذ أمير البصرة فأبى الاحنف خوف العزل، وقال له : «اذا شئت ان اجيرك من بني سعد فعلت» ، فذهب الى غيره من وجهاء العرب فأبوا اجارته لنفس السبب[٣] .

الأريحية

ومن المناقب التي تغني العرب عن الوازع القهري او القوة الحاكمة « الاريحية » ، وهي من مقتضيات العصور الجاهلية البدوية ، او ما يجري مجراها من احوال الفروسية التي يعبر عنها الافرنج بقولهم « Chevalerie » ومرجع ذلك الى التفاخر بالشجاعة والكرم وحسن الاحدوثة . وكان للأريحية شأن عظيم عند العرب ، لدقة شعورهم وسرعة تأثرهم ، لأنهم اهل خيال وذوو نفوس حساسة ، يقيمهم البيت من الشعر ويقعدهم ، وقد يسمعون الكلمة فتطير لها نفوسهم ، وربما بذل العربي حياته في سبيل كلمة يقولها ، او فراراً من كلمة يسمعها ، ولذلك كثرت عندهم ضروب المفاخرة والمباهاة في المواسم والاندية ، مما يرغب في الفضائل ويغني عن زجر الحكام .

ومناقب العرب كثيرة ، كالكرم والضيافة وعلو الهمة ، مما لا دخل له في موضوعنا .

---

١ – الاغاني ١٨٤ ج ٢ . ٢ – الاغاني ١٣٩ ج ١٥ . ٣ – الاغاني ٥٦ ج ١٧ .

سياسة العرب في عصر الراشدين

من سنة ١١ – ٤١ هـ

الجامعة الاسلامية

قد رأيت ان العرب انما كانوا يتفاضلون بالعصبية ويتفاخرون بالانساب ، فلما جاء الاسلام كان في جملة ما بدله من احوالهم انه جمع كلمتهم وصاروا يداً واحدة على اختلاف انسابهم ومواطنهم. وبعد ان كان اليمني يفاخر الحجازي، والمضري يفاخر الحميري، ونحو ذلك من مفاخرات القبائل والبطون والافخاذ ، جاء الاسلام فجمعهم تحت راية واحدة باسم واحد هو « الاسلام » فقال النبي : « المسلمون اخوة » ، وقال في خطبة القاها يوم فتح مكة : « يا معشر قريش ، ان الله قد اذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء ، الناس من آدم وآدم من تراب »[١] وقال من خطبة في حجة الوداع : « أيها الناس ، ان ربكم واحد وأن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، واكرمكم عند الله اتقاكم ، ليس لعربي فضل على عجمي إلا بالتقوى »[٢] .

واقتدى بالنبي خلفاؤه الاولون ، لا سيما عمر بن الخطاب ، فان جبلة بن الايهم ملك غسان بعد ان اسلم ، اتفق وهو يطوف بالكعبة ان فزاريا وطىء إزاره فانحل ، فرفع جبلة يده وهشم الفزاري ، فشكاه الى عمر فأراد ان يهشم انف جبلة ، فقال : « وكيف ذلك يا أمير المؤمنين وهو سوقة وانا ملك ؟ » فأجابه عمر : « ان الاسلام جمعك واياه ، فلست تفضله بشيء إلا بالتقى والعافية » ، فلم يحتمل جبلة ذلك فعمد الى الفرار[٣].

فيؤخذ من ذلك ان الجامعة الكبرى انما هي الاسلام ، ولكنهم كانوا يجعلون للعرب مزية على سواهم من الامم لانهم قوام الاسلام ، واوصى عمر بن الخطاب بأهل البادية

---

١ – ابن هشام ٢١٩ ج ٢ .   ٢ – البيان والتبيين للجاحظ ١٦٤ ج ١ .
٣ – الاغاني ٤ ج ١٤ .

خيراً لانهم اصل العرب ومادة الاسلام (١) وقال : « اياكم واخلاق العجم » ، والاسلام نهضة عربية جمعت العرب على العجم . وعمر اول خليفة فضل العرب وجعل لهم مزية على سواهم ومنع من سبيهم ، ومن اقواله : « قبيح بالعرب ان يملك بعضهم بعضاً وقد وسع الله عز وجل وفتح الاعاجم » وفدى سبايا العرب من الجاهلية والاسلام الى ايامه (٢) عملا بالحديث « لا سبأ في الاسلام » .

وكان عمر لا يدع احدا من العجم يدخل المدينة (٣) وهو الذي قسم خيبر بين المسلمين واخرج اليهود منها ، وقسم وادي القرى وأجلى يهود نجران الى الكوفة (٤) لتخلو جزيرة العرب من غير العرب . وكان كثير العناية بالجامعة العربية يوصي العرب بحفظ انسابهم لئـــلا تضيع عصبيتهم ، ومن وصاياه : « تعلموا النسب ولا تكونوا كنبط السواد اذا سئل احدكم عن اصله قال : من قرية كذا .. » (٥)

الجامعة العربية

ثم ان عمر ، مع حرصه على الجامعة العربية واختصاص جزيرة العرب بها ، قد حرض العرب المسلمين على سكنى العراق والشام فقال : « ليست الحجاز لكم بدار الا عـــلى النجعة .. سيروا في الارض التي وعدكم الله في الكتاب ان يورثكموها » (٦) لعلمه ان في العراق والشام عرباً يتحدون معهم وينصرونهم . وكان عرب العراق ناقمين على الفرس من ايام دولتهم ، لمـــا كانوا يسومونهم اياه من الاضطهاد . وكانت ديانة بعض عرب العراق والشام النصرانية ، ولكنهم فرحوا بالمسلمين وكانوا ينصرونهم للعصبية العربية وليس للدين . وخصوصاً عرب العراق فانهم حاربوا مع المسلمين ودلوهم على عورات الفرس — فأبو زبيد الطائي حارب مع المسلمين في واقعة الجسر حتى قتل وهو نصراني ، وانما حارب حمية العرب . وجاء المسلمين يوم واقعة البويب أنس بن هـلال النمري في جمع عظيم من النمر — وهم نصارى — وقالوا : « نقاتل مع قومنا » (٧) وكذلك فعل جماعة من تغلب وغيرهم حمية للجامعة العربية ، بقطع النظر عن الدين .

---

١ - ابن الاثير ٢٥ ج ٣ .
٢ - ابن الاثير ١٨٦ ج ٢ .
٣ - المسعودي ٢٩ ج ١ .
٤ - ابن الاثير ٢٨٠ ج ٢ .
٥ - ابن خلدون ١٠٩ ج ١ .
٦ - ابن خلدون ١٢٢ ج ١ .
٧ - ابن الاثير ٢١٥ ج ٢ .

وكثيراً ما كان عرب الشام والعراق عوناً للمسلمين في حروبهم، يرشدونهم وينصحونهم ويحملون اليهم اخبار اعدائهم . فلما خرج الوليد بن عقبة غازيا للروم لقيه الروم فقاتلوه، فجاءه رجل من العرب نصراني وقال له: « اني لست من دينكم ولكنني انصحكم للنسب، فالقوم مقاتلوكم الى نصف النهار، فان رأوكم ضعفاء افنوكم وان صبرتم هربوا وتركوكم»[١] وقد نفعته هذه النصيحة .

ولم يكن عمر يجهل تلك الرابطة، فحرض المسلمين على فتح الشام والعراق . ولما رأى ما كان من نصرة عرب العراق لهم عرف فضلهم، فلما هم المسلمون بوضع الجزية على اهل الذمة وفي جملتهم عرب تغلب واياد والنمر وهم نصارى ابى هؤلاء الجزية، وبلغ عمر ذلك فاستشار اصحابه فقال له بعضهم : « انهم عرب يأنفون الجزية، وهم قوم لهم نكاية فلا تعن عدوك عليك » فوافق ذلك ما في نفسه ففرض عليهم الصدقة كما تفرض على المسلمين، ولكنه شرط عليهم ان لا ينصروا اولادهم[٢] .

كل ذلك محافظة على الجامعة العربية، وكان يعد ذلك حقاً واجباً فلما سار الوليد بن عقبة لفتح العراق والجزيرة، انضمت اليه عربها النصارى، الا قبيلة اياد، فانهم تحملوا الى بلاد الروم، فكتب الوليد الى عمر بذلك، فكتب عمر الى ملك الروم : « بلغني ان حياً من احياء العرب ترك دارنا وأتى دارك، فوالله لتخرجنه الينا او لنخرجن النصارى اليك » فأخرجهم ملك الروم[٣] .

الانسياح في الارض

فعمر حرض العرب على فتح الشام والعراق توسيعاً للجامعة العربية، والاستعانة بها على الروم والفرس، ولكنه لم يأذن لهم بفتح ما وراءهما الا في السنة السابعة عشرة او الثامنة عشرة، وهو ما يعبرون عنه بالانسياح في الأرض . فكانوا يتطلبون الفتح وقد طابت لهم الغنائم واستلذوا النصر، فاذا استأذنوه في فتح بلد مما وراء ذلك لم يأذن لهم، كما وقع لعمرو بن العاص لما أراد فتح مصر، وكان قد عرفها من أيام الجاهلية، فلما فتحت الشام والعراق جاء الى الخليفة عمر ورغبه في فتحها وقال له : « انك ان فتحتها كانت قوة للمسلمين وعوناً لهم، وهي أكثر الأرض أموالاً وأعجز عن القتال والحرب »

---

١ – الاغاني ١٨٧ ج ٤ . ٢ – المعارف ١٩٣ . ٣ – ابن الاثير ٢٦٢ ج ٢ .

فلم يجبه عمر ، ولما ألح عليه أطاعه وهو يتردد وقال له : « سر .. اني مستخير الله في سيرك ، وسيأتيك كتابي ان شاء الله تعالى ، فاذا ادركك كتابي آمرك فيه بالانصراف عن مصر قبل ان تدخلها أو شيئاً من ارضها فانصرف ، والا ان دخلتها قبل ان يأتيك كتابي فامض لوجهك واستعن بالله واستنصره » . فسار عمرو بجنده مسرعاً خوفاً من ان يأتيه كتاب الخليفة بالرجوع . فوصله كتابه في بلد قرب العريش خارج حدود مصر ، فلم يفتح الكتاب حتى نزل العريش وهي من مصر ، ففض الكتاب واذا نصه : « بسم الله الرحمن الرحيم . من الخليفة عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص عليه سلام الله تعالى وبركاته ، أما بعد فان ادركك كتابي هذا وانت لم تدخل مصر فارجع عنها ، واما اذا ادركك وقد دخلتها او شيئاً في أرضها فامض واعلم اني ممدك » فمضى حتى فتح مصر .

ولما فتح المسلمون الاهواز قال عمر : « ليت بيننا وبين فارس جبلا من نار لا يصلون الينا ولا نصل اليهم » . ومن هذا القبيل نهيه المسلمين عن اجتياز البحر . وكان اذا هم المسلمون بالنزول في بلد او انشاء معسكر في البلاد المفتوحة اوصاهم ان لا يقيموا في مكان يفصل بينه وبين المدينة (مركز الخلافة) ماء، حتى اذا اراد ان يأتيهم اتاهم على راحلته، مما يدل على رغبته في العصبية العربية على ان يكون مركزها في بلاد العرب . ومع ذلك فلما لم ير بداً من الانسياح في الارض اذن لقواده بالفتح، ولكنه ظل على رأيه في القرشيين على الخصوص ، فحصرهم في المدينة ومنعهم من الخروج وقال : « أخوف ما اخاف على هذه الامة انتشاركم في البلاد » ، فاذا جاء الرجل منهم يستأذنه في الغزو اجابه : « قد كان لك في غزوك مع رسول الله ما يبلغك ، وخير لك من غزوك اليوم ان لا ترى الدنيا ولا تراك » . كان يفعل ذلك بالمهاجرين من قريش فقط ، فلما ولي عثمان خلى عنهم ، فلحق معظمهم بمعاوية في الشام وانتشروا في البلاد[١] .

فسياسة عمر بن الخطاب في اوائل دولته كانت تقضي ببقاء العرب محصورين في جزيرة العرب وما يليها من الشام والعراق ، وان يختص قريشاً بالاقامة في المدينة لأنها مركز الاسلام وهم اساسه ومنشأه ، على انه لم يستطع وقف تيار الفتح فلم ير بداً من الاذن في الانسياح .

---

١ - ابن الاثير ٩٠ جـ ٣ .

فالعصبية التي قام بها الاسلام هي الجامعة العربية ، ولذلك كان اللفظان مترادفين في ذلك الحين ، وخصوصاً عند الامم التي خضعت لسلطان المسلمين ، فكانوا اذا قالوا « العرب » أرادوا « المسلمين » ، وبالعكس . ولفظ « طيبوتا » عند السريان يدل على العرب والمسلمين على السواء ، والفرق بين هذه الجامعة قبل الاسلام وبعده ان العرب كانوا في الجاهلية عصبيات عديدة تختلف باختلاف الانساب ، فأصبحوا بالاسلام عصبية واحدة تجمعها كلمة العرب ، وتركوا ذكر الآباء والاجداد عملا بما يقتضيه روح الاسلام . وكانوا في جاهليتهم يتفاضلون بالانساب ، فأصبحوا في الاسلام يتفاضلون بالتقوى والجهاد في سبيل الدين ، فنشأت فيهم جامعات اسلامية فرعية لم يكن لها ذكر من قبل .

طبقات عربية اسلامية

لما قام النبي (صلعم) بالدعوة الاسلامية ، احتاج الى من يسمع دعوته وينصره ، فاجتمع حوله جماعة من قبيلته صدقوه ونصروه ، وهاجر بعضهم الى الحبشة وهاجر الآخرون الى المدينة معه فعرفوا بالمهاجرين ، وهم اقدم الطبقات الاسلامية . ولما جاء المدينة واقام فيها نصره اهلها وآمنوا بدعوته فسماهم « الانصار » وهم طبقة اخرى ، والطبقتان معاً تسميان « الصحابة » اي الذين صحبوا النبي او عرفوه .وتفرع من الصحابة جماعات تعرف كل منها بجامعة خاصة لاحوال خاصة كان لها تأثير في نصرة الاسلام او نشره . فواقعة بدر كان لها شأن عظيم في تأييد الاسلام، فامتاز الصحابة الذين شهدوها عن سائر المسلمين ونسبوا اليها فسموا « البدريين » او « اهل بدر » ، وكذلك واقعة القادسية التي كانت عنوان فتح العراق وفارس ، فان الذين شهدوها عرفوا بأهل القادسية . وقد جعل المسلمون لكل من هذه الطبقات او الجماعات امتيازات خاصة ، وفضلوا اهل بدر وأهل القادسية بالعطاء على سائر المسلمين .

ويقال نحو ذلك في من شهد فتح مكة او سواها من الوقائع الاخرى التي كان لها شأن في الاحزاب الاسلامية ، كواقعة الجمل وواقعة صفين ، فان شيعة علي يفضلون من رجالهم الذين شهدوا واقعة الجمل لانهم انتصروا فيها ويسمونهم « اصحاب الجمل » ، وشيعة بني أمية يفضلون « أصحاب صفين » لمثل هذا السبب ، وقد زاد معاوية عطاء هؤلاء عن سائر اصحابه .

على ان الصحابة يتفاضلون ايضاً في السبق الى الهجرة او الى البيعة ، ومنهم اصحاب بيعة العقبة واصحاب الغار . والذين لهم صحبة قبل بيعة الرضوان يفرقون عمن صاحب بعدها ، ونحو ذلك مما يطول شرحه . ناهيك بالمناصب التي اقتضتها الاحوال الدينية او الادارية ، كالحفاظ والقراء والمؤلفة قلوبهم والعمال والقضاة والتابعين وتابعي التابعين وغيرهم .

على ان عصبية النسب لم تذهب بعد الاسلام ذهاباً تاماً ، ولكنها تحولت الى وجهة دينية ، فأصبح اشرف الانساب عندهم ، اقربها الى قبيلة النبي « قريش » فالنسب القرشي اشرف الانساب ، وللقرشيين التقدم في المناصب والمراتب والعطاء خصوصاً بعد اشتهار الحديث : « الائمة من قريش »[١] فاعتقدوا الفضل للقرشيين على الناس كافة في كل شيء ، حتى في أحوال الحياة والولادة فقالوا : « لا تحمل لستين إلا قرشية ، ولا تحمل لخمسين إلا عربية »[٢] وانه لا تكون بنت امرأة قرشية أمة[٣] وان القرشي لا يتزندق[٤] وانه لا ينبغي للقرشي أن يستغرق في شيء من العلم غير الاخبار[٥] وظلت الرياسة في قريش لا ينازعهم فيها منازع الى عهد غير بعيد .

وكان لكل من طبقات الصحابة المهاجرين والانصار شأن خاص وحزب خاص ، ولا سيما في بني أمية ، اذ ذهبت دهشة النبوة وعاد الناس الى عصبية الجاهلية ، فاختصم المهاجرون والانصار وتذكروا ما كان بين العدنانية والقحطانية من التفاخر — والمهاجرون من العدنانية (مضر) والانصار من القحطانية (الاوس والخزرج) — فعادوا الى المنافسة وغلب انحياز كل من الطائفتين الى احد الاحزاب التي نشأت في ذلك العهد ، فكان الانصار مع علي ومعظم المهاجرين مع معاوية ، وعادوا الى المهاجاة والمفاخرة بالاشعار وغيرها .

وكان الانصار اهل المدينة من اشجع الناس وهم اهل الشورى ، يعقدون الامامة وحكمهم جائز على الامة وهم شيعة علي وسائر اهل البيت . فلما قام معاوية يطلب الخلافة لنفسه كانوا اقوى مقاوميه ، فكان رجاله يكرهونهم ويسعون في اذلالهم ، وكثيراً ما كانوا ينكرون عليهم هذا اللقب — يروى ان بعض الانصار استأذنوا للدخول على معاوية في ابان خلافته ، فدخل الحاجب وقال : « هل تأذن للانصار » ، وكان عمرو بن العاص حاضراً فقال : « ما هذا اللقب يا أمير المؤمنين ؟ أردد الناس الى انسابهم ».

---

١ — العقد الفريد ٤٠ ج ٢ .　　٢ — الاغاني ٨٨ ج ١٥ .
٣ — الاغاني ١١٠ ج ١٤ .　　٤ — الاغاني ٦٠ ج ١٤ .　　٥ — البيان والتبيين للجاحظ ١٥١ ج١ .

سياسة الخلفاء الراشدين

لم يكن للاسلام في عصر الراشدين دولة سياسية ، بل هي خلافة دينية اساس احكامها التقوى والرفق والعدل ، مما لم يسمع بمثله في عصر من العصور . ورجل هذا العصر ، بل رجل الاسلام على الاطلاق « عمر بن الخطاب » فان ما يروونه من اعماله واحكامه يندر اجتماعه في البشر ، ومناقبه مدونة في الكتب ومشهورة . واما ابو بكر فلا يقل عظمة عنه ، لولا قصر مدة حكمه ، ويكفيه من الأثر في الاسلام قتاله أهل الردة، اذ رجع بعض الناس عن الاسلام بعد موت النبي ، فخاف المسلمون ذهاب دولتهم وهي لا تزال في طفولتها ، فشمر ابو بكر عن ساعد الجد وقاتل المرتدين وايد الدين ، وكذلك يقال عن علي وعثمان .

ابو بكر

وعصر الراشدين هو في الحقيقة عصر الاسلام الذهبي ، ومناقب الخلفاء الراشدين مشهورة بالزهد والتقوى والعدل . فقد اسلم ابو بكر وعنده من ماله اربعون الفا ، وهي ثروة طائلة يومئذ ، انفقها كلها في سبيل الاسلام مع ما اكتسبه من التجارة . وكان له في خلافته بيت مال ينفق كل ما فيه على المسلمين ، ولما مات لم يجدوا فيه غير دينار . وكان منزله في السنح بضواحي المدينة يغدو اليه على رجليه ، ويندر ان يركب فرسه . فاذا جاء المدينة صلى في الناس ، فاذا جاء العشاء عاد الى السنح . وكان مع ذلك يغدو كل يوم الى السوق يبيع ويبتاع ، وكانت له قطعة غنم تروح عليه وربما خرج بنفسه فيها . وكان قبل الخلافة يحلب للحي اغنامهم ، فلما صار خليفة سمع جارية تقول : « الآن لا يحلب لنا منائح دارنا » فقال : « بلى لعمري لاحلبنها لكم ، واني لارجو ان لا يغيرني ما دخلت فيه » . وبعد خلافته بستة اشهر تحول الى المدينة وقال : « ما تصلح امور المسلمين مع التجارة ، وما يصلح الا التفرغ لهم والنظر في شؤونهم » . فترك التجارة ، فصار ينفق من مال المسلمين ما فرضوه له : ٦٠٠٠ درهم في السنة . فلما حضرته الوفاة أوصى بقطعة ارض كانت له ، ان تباع ويصرف ثمنها عوض ما اخذه من مال المسلمين .

عمر بن الخطاب

أما عمر بن الخطاب ، ففي ايامه فتحت البلاد وكثرت الغنائم ، وانصبت خزائن

كسرى وقيصر بين يدي رجاله ، ومع ذلك فانه كان من الزهد والتقشف بما ليس بعده غاية ، حتى قيل انه كان يقف للخطابة وعليه ازار مرقع بجلد . واذا انفق عطاءه واحتاج الى مال اتى صاحب بيت المال فاستقرضه على ان يؤديه من عطائه . وكان شديد الحرص على اموال المسلمين ، لا ينفقها الا في مصالحهم ، ويتولى امورهم بنفسه ديناً وسياسة ، فيسعى في نشر الاسلام ، ويعلم العرب قواعد الدين ، فيطوف الاسواق ويقرأ القرآن ويحرض الناس على التقوى ، واذا حرضهم على شيء بدأ بنفسه . ووضع على من يشرب الخمر ثمانين ضربة ، وكان يبعث اناساً من القراء يعلمون اهل البادية القرآن ، ثم يبعث من يمتحنهم فمن لم يقرأ شيئاً منه عاقبه بالضرب ، وربما فرط الضارب حتى يقتل المضروب [١] وكان شديداً على عماله وقواده ، يحاسبهم ويدقق في استطلاع احوالهم ، فمن رأى فيه اعوجاجاً قومه ، لا يبالي من هو حتى خالد بن الوليد القائد الاسلامي الشهير ، فان عمر نقم عليه لامر يخالف قواعد التقوى ، فاستقدمه اليه ووبخه وهدده كأنه غلام وخالد لا يجيبه [٢] وقد يضرب عامله بالدرة او يوبخه ، وليس فيهم من يرد في وجهه او يعترضه ، وكان شديد العقاب على من يشرب الخمر ، او يطمع في اموال المسلمين. ومع ذلك فقد كان يعامل الناس معاملة الاب لبنيه ، فيطعمهم على موائد يجفن لهم فيها عشرة عشرة ، واذا غاب قواده تفقد بيوتهم وتعهد اهلهم بما يحتاجون اليه [٣] وكان عادلا في الناس رفيقاً بغير المسلمين . وكانت الدنيا في ايامه مجمعة على الطاعة ، والناس يدخلون في الاسلام او يبقون تحت راية المسلمين عن رضى وراحة ، كأنه كان قابضاً على شؤون الدولة وأعنة الحكومة بيد من حديد . فلما قتل تزعزعت اركانها ، ونقض كثير من اهل الامصار وخصوصاً خراسان وسجستان [٤] وغيرهما من الاطراف البعيدة .

عثمان بن عفان

وكان عثمان مثل سائر الخلفاء الراشدين ، لولا ضعفه واستسلامه الى بعض ذوي قرابته من بني امية ، حتى نقم عليه سائر المسلمين ، وخصوصاً اهل المدينة لاسباب تقدم بيانها وقتلوه ، فاتخذ بنو امية قتله حجة لطلب الخلافة لانفسهم . على ان عثمان اول خليفة اقتنى المال لنفسه ، فقد ذكروا انه كان عند خازنه ٠٠٠ر١٥٠ دينار و٠٠٠ر٠٠٠ر١ درهم ، وله

---

١ — الاغاني ٥٨ جـ ١٦ . ٢ — ابن الاثير ١٧٤ جـ ٢ .
٣ — الجزء الثاني من هذا الكتاب . ٤ — ابن الاثير ٦٠ جـ ٣

ضياع بوادي القرى وحنين وغيرهما قيمتها ١٠٠,٠٠٠ دينار ، فضلا عما خلفه من الخيل والابل ، وفي ايامه اقتنى الصحابة الضياع وابتنوا الدور واختزنوا الاموال [١] وتعودوا الغنى والترف ، ولما جاءهم علي بعده بما كان عليه عمر من الزهد والتقشف كابروه ، وساعدهم على التمنع قيام معاوية واطماعهم في الاموال ، وسيأتي بيان ذلك .

علي بن ابي طالب

أما علي فحكاياته في الزهد والتقوى كثيرة ، وكان شديد التمسك بالاسلام ، حر القول والفعل ، لا يعرف الدهاء ولا يركن الى الحيلة في شأن من الشؤون ، وانما همه الدين وعمدته في اعماله الصدق والحق . فمن أمثلة تقشفه وزهده انه تزوج فاطمة بنت النبي وليس له فراش الا جلد كبش كانا ينامان عليه بالليل ويعلفان عليه ناضحهما بالنهار ، ولم يكن عنده خادم يخدمه . وجاءه مال من اصبهان في ايام خلافته فقسمه على سبعة أسهم ، فوجد فيه رغيفاً فقسمه على سبعة ، وكان يلبس قطيفة لا تقيه البرد . ورآه بعضهم يحمل تمراً في ملحفته قد اشتراه بدرهم ، فقال له : « يا امير المؤمنين ألا نحمله عنك ؟ » ، فقال : « ابو العيال احق بحمله .. » . ومن اقواله في كيف يجب ان يكون المسلمون قوله : « خمص البطون من الطوى ، يبس الشفاه من الظمأ ، عمش العيون من البكاء [٢] . ومن أمثلة عدله انه رأى درعاً له عند رجل فتقاضيا الى شريح القاضي ، فوقف علي بجانب خصمه احتراماً للعدل وكان اذا بعث رجاله في حرب اوصاهم أن يرفقوا بالناس وأن يكفوا الأذى عن النساء .

وكان شديداً في محاسبة رجاله حرصاً على العدل والحق ، كما كان يفعل عمر . ولو تولى امور المسلمين في زمن عمر ، والناس في دهشة النبوة وصدق التدين ، لكان نصيبه من الحكم اطول ، ولما بدا في تدبيره ضعف ، لكنه تولاها وقد فسدت النيات ، وطمع العمال في الاحكام ، واطمعهم وادهاهم معاوية بن أبي سفيان ، فانه جمع الرجال حوله بالدهاء والحيلة والبذل ، وعلي يضيع الاحزاب بتدقيقه في محاسبة عماله وقواده ، والمبالغة في المحافظة على الدين واسباب التقوى ، ففارقه جلة الصحابة حتى ابن عبدالله بن عباس ، وكان عاملاً له على البصرة ، فوشى به ابو الأسود الدؤلي الى علي ، فكتب علي الى ابن عباس بذلك ولم يذكر اسم الواشي ، فأجابه : « أما بعد فان الذي بلغك باطل ، واني لما تحت

---

١ – المسعودي ٣٠١ ج ١ . ٢ – ابن الاثير ٢٠٤ ج ٣ .

يدي لضابط وله حافظ ، فلا تصدق الظنين والسلام » . فكتب اليه علي : « أما بعد فأعلمني ما اخذت من الجزية ، ومن أين أخذت ، وفيما وضعت ».فكتب اليه ابن عباس: « أما بعد فقد فهمت تعظيمك مرزاة ما بلغك ، اني رزئته من أهل هذه البلاد ، فابعث الى عملك من احببت فاني ظاعن عنه والسلام ، واستدعى أخواله من بني هلال بن عامر ، فاجتمعت معه قيس كلها ، فحمل مالا وقال : « هذه أرزاقنا اجتمعت » فتبعه اهل البصرة الى مكة[1] ولم ينتفع علي به ولا بأحزابه فعلي لم يفعل بابن عمه غير ما كان عمر يفعله بعماله ، ولكن الاحوال كانت قد تغيرت ، وقام معاوية يبتاع الاحزاب بالعطاء ويجتذب القواد بالدهاء .

وزد على ذلك ان رجال عمر كانوا مثله غيرة وحمية ، وكانت لا تزال فيهم الأريحية والأنفة وحرية البداوة والوفاء ، وجاء الاسلام فكمل الأسباب الباعثة الى الاتحاد والنهضة والقوة .

على ان سياسة الراشدين على الاجمال ليست مما يلائم طبيعة العمران ، او تقتضيه سياسة الملك ، وانما هي خلافة دينية وفقت الى رجال يندر اجتماعهم في عصر ، والى احوال يكفي منها الجامعة الاسلامية والحمية الدينية والأنفة البدوية والأريحة العربية . فهذه كلها اجتمعت في عصر واحد وتلاءمت فأتت بالعجائب ، فانتشر الاسلام وفتح العالم في بضع عشرة سنة كما هو مشهور[2] فأهل العلم بطبائع العمران لا يرون هذه السياسة تصلح لتدبير الممالك في غير ذلك العصر العجيب ، وان انقلاب تلك الخلافة الدينية الى الملك السياسي لم يكن منه بد سنة الله في خلقه .

انتشار العرب في الارض

قد رأيت رغبة عمر بن الخطاب رجل الاسلام في جمع كلمة العرب ، وتوثيق عرى الاتحاد بين قبائلهم وتأكيد العلائق بين منازلهم ، فحرضهم على فتح العراق والشام ، لعلمه بما هنالك من قبائل العرب ، فاذا انضموا الى عرب الحجاز واليمن زادوا الاسلام قوة . ولكنه منعهم مما وراء ذلك ، وأمرهم اذا بنوا بلداً في دار الفتح ان لا يبنوه في مكان

---

١ ــ الجزء الاول من هذا الكتاب .

يحول بينه وبين المدينة ماء ، خوفاً على الجامعة العربية أن يزداد تباعد أطرافها فتتمزق ، ورغبة منه في استبقاء مركز الخلافة في المدينة دار الهجرة، على أن يستبقي البلاد المفتوحة لاستدرار ما فيها من غلة او مال لأهـــل الحجاز . ولهذا السبب ايضاً نهى المسلمين عن الزرع وشدد في منعهم اعتماداً على الحديث القائل « السكة (المحراث) ما دخلت دار قوم الا دخله الذل » (١) ولأن الاشتغال بالزرع يشغلهم عن الحرب، وهو يريد ان يقيمهم حامية لجمع الخراج والجزية واستبقاء السلطة، ولم تكن المدن التي بنوها في صدر الاسلام كالبصرة والكوفة والفسطاط الا حصوناً او معسكرات ، ينزل فيها جند العرب نزول الحامية أو جيش الاحتلال (٢) ولهذا السبب ايضاً أخرج غير المسلمين من جزيرة العرب عملا بوصية النبي (صلعم) «ان لا يترك في جزيرة العرب دينان» (٣)، وان لا يأتي الحج احد من المشركين (٤) فأخرجهم وتخلص من خطرهم ، اذ لو بقوا هنـاك على غير دين الاسلام لأقلقوا الراحة ، وربما كانوا عوناً لغير المسلمين كما كان نصارى الشام والعراق ينصرون الروم بعـــد ذلك ، كما سترى .

فكانت السياسة في صدر الاسلام ان يبقى المسلمون في بلاد العرب وضواحيها ، وكان القواد الذين فتحوا الشام والعراق قد ذاقوا لذة الفتح مع سهولته عليهم ، فلم يكفوا عن عمر حتى أذن لهم بفتح ما وراء ذلك كما تقدم، فكان عمر وهو في المدينة قابضاً على اطراف الدولة يشدها نحوه ، ورجاله يحاولون الذهاب بها شرقاً وغرباً ، حتى اضطر اخيراً الى مجاراتهم وأذن بانسياحهم في الارض ، فتفرق العرب وفتحوا مصر وفارس وافريقية وغيرها. ولما تولى عثمان اطلق العنان لقريش أن يخرجوا من المدينة، فخرجوا وتفرق العرب في الارض وانتشروا في مصر والشام والعراق وفارس وما وراءها، وعددهم يومئذ لا يزيد على ٢٠٠٫٠٠٠ نفس (٥) وهم جند المسلمين وعليهم حماية مملكتهم الجديدة واستغلالها ، وسكانها يزيدون على مئة مليون ودولة الروم واقفة لهم بالمرصاد .

الاستكثار بالتناسل

كانت العرب في الجاهلية قليلة العدد بالقياس على ما صارت اليه بعد الاسلام . ذكروا

---

١ – ابن خلدون ١١٩ ج ١ . ٢ – الجزء الاول من هذا الكتاب .
٣ – ابن هشام ١٩٥ ج ٢ . ٤ – ابن هشام ٥٠ ج ٣ . ٥ ابن خلدون ١٣٦ ج ١ .

ان اكبر جيش اجتمع في الجاهلية لم يزد عدد رجاله على ثمانية آلاف رجل ، وهو جيش يوم الصفقة [١] والذين تجندوا للاسلام وقاموا بنصرته كانوا في صدر الاسلام قليلين كما رأيت ، ومملكتهم الواسعة تحتاج الى رجال ، فعمدوا الى الاستكثار بالتناسل ، وهو من قواعد العصبية العربية من ايام الجاهلية . فان عبد المطلب جد النبي ، لما ظهرت قريش عليه ، نـــذر لله اذا رزقه عشرة من الولدان يبلغون أن يمنعوه ويذودوا عنه ، ان ينحر احدهم قربانا لله ، فجاءه عشرة اولاد فاشتد ازره بهم .

فالمسلمون لما رأوا قلة عددهم ، وما وقع في ايديهم من السبايا الروميات والفارسيات والقبطيات ، استكثروا من امهات الاولاد،فضلا عن الزوجات ، فكثر نسلهم — والترف يزيد الدولة في اولها قوة بكثرة النسل — وتسابقوا الى احراز الجواري ، حتى ان بعضهم احصن ثمانين امرأة معاً ، كالمغيرة بن شعبة فقد جمع في منزله اربع نسوة و ٧٦ امة [٢] فلا غرابة اذا ولد لاحدهم خمسون ولداً او مئة ولد او اكثر . ذكروا انه وقع للارض من صلب المهلب ٣٠٠ ولد [٢] وخلف عبد الرحمن بن الحكم الاموي ١٥٠ ذكراً و ٥٠ انثى [٤] وخلف تميم بن المعز الفاطمي اكثر من مئة ذكر و ٦٠ انثى [٥] وكان لعمر بن الوليد تسعون ولداً منهم ستون يركبون الخيل [٦] وولد لابن سيرين ٣٠ ولدا من امرأة و ١١ بنتاً [٧] وقس على ذلك مما يطول شرحه ، وفي التاريخ ادلة كثيرة على قيام الدولة بعصبية الملك من الاولاد والاخوة والاعمام ، كالعباسيين والايوبيين وغيرهم .

انتشار العرب بالفتح

كان العرب في الجاهلية محصورين في جزيرة العرب وما يجاورها من جزيرة العراق وضواحي الشام . فلمـــا ظهر الاسلام اجتمعت كلمة العرب على نصرته ، ونهضوا للفتح وأوغلوا في البلاد وفتحوا الامصار ، ولم يكن زجر عمر ليوقف تيـــارهم فانساحوا في الارض،حتى نصبوا أعلامهم على ضفاف نهر الكنج شرقاً وشواطىء المحيط الاطاسي غرباً، وضفاف نهر لوار شمالاً وأواسط افريقيا جنوباً ، وملأوا الارض فتحاً ونصراً ، واحتلوا مدائن كسرى وقيصر، وأقاموا في المدن وركنوا الى الحضارة وتعودوا الترف،واختلطت

---

١ — العقد الفريد ٧٨ ج ٣ . ٢ — الاغاني ١٤٣ ج ١٤ والمعارف ١٠٠
٣ — ابن خلكان ١٤٧ ج ٢ ٤ — نفح الطيب ١٦٤ ج ١ ٥ — ابن خلكان ٩٩ ج ١ .
٦ — العقد الفريد ٢٥٨ ج ٢ ٧ — ابن خلكان ٤٥٣ ج ١ .

انسابهم بتوالي الاجيال وضعفت عصبيتهم فضاعت سلطتهم . والقبائل التي قامت بنصرة الاسلام ونشره قبائل مضر وأنصارها من العدنانية والقحطانية ، واليك اسماء القبائل التي مهدت قواعد الدولة الاسلامية ونشرت الدين الاسلامي بالفتح من اول الاسلام :

من العدنانية		من القحطانية	
مضر	ربيعة	كهلان	حمير
قريش	تغلب بن وائل	الأوس والخزرج	قضاعة وبطونها
كنانة	بكر بن وائل	غسان	كلب
خزاعة	شكر	الأزد	سليح
أسد	حنيفة	همدان	تنوخ
هذيل	عجل	خثعم	بهراء
تميم	ذهل	بجيلة	عذرة
غطفان	شيبان	مذحج	وغيرها
سليم	تيم الله	مراد	
هوازن	النمر بن قاسط	زبيد والنخع	
ثقيف	وغيرها	الأشعريون	
سعد بن بكر وعامر ابن صعصعة		لخم وكندة	

على ان هذه القبائل لم تكن في اوائل الفتح تنزل القرى وتختلط بالناس ، بل كانت رابطة ثم اختلطوا وتفرقوا في الارض ، وأنفقتهم الدولة الاسلامية العربية ، فنبا منهم الثغور القصية واكلتهم الاقطار المتباعدة ، واستلحمتهم الوقائع وضاعت اسبابهم بتوالي الاجيال حتى خرجت الدولة من ايديهم .

انتشار العرب بالمهاجرة

على أن انتشار العرب في الأرض لم يكن بالفتح فقط ، ولكنهم تفرقوا ايضاً بالمهاجرة بأهلهم وخيامهم وأنعامهم ، التماساً لسعة العيش في البلاد العامرة من مملكتهم الجديدة .

فقد جلت بطون من خزاعة الى مصر والشام في صـــدر الاسلام ، لأن أرضهم أجدبت فمشوا يطلبون الغيث والمرعى [١] وكذلك كانت تفعل العرب كلما اصابها جدب ، حتى كانت لهم أعوام خاصة يجلون فيها الى مصر والشام ، يسمونها اعوام الجــلاء [٢] وكانوا يفعلون ذلك قبل الاسلام : اذا أجدبت أرضهم يمموا العراق وفارس ، فيعطيهم الفرس التمر والشعير ، ولكنهم كانوا لا يقيمون هناك بل يرجعون الى بلادهم [٣] خوفاً من الذل في سلطان دولة أعجمية . أما بعد الاسلام فكان المقام يطيب لهم في بلاد فتحها آباؤهم أو أعمامهم أو أخوالهم ، وغرسوا عليها أعلامهم وجعلوها فيئاً لهم .

على ان الغالب في نزوح العرب عن أحيائهم وانتجاعهم المدن أو أكنافها ، ان يكون بايعـــاز بعض الخلفاء أو الأمراء ، وخصوصاً بعد رجوع العرب الى عصبية النسب بين قحطان وعدنان ، أو مضر وقيس في عهد الدولة الاموية . فكان الأمير أو الخليفة اذا تولى بلداً وخاف على سلطانه من أمير آخر ذي عصبية أخرى ، استقدم جماعة من قبيلته ، او من ينتمي اليهـا بالحلف ونحوه ، يسكنهم في ضواحي بلده لاستنصارهم عند الحاجة ، فيطلق لهم المرعى ، ويفرض لهم العطاء ، كما حدث في ولاية الوليد بن رفاعة على مصر في خلافة هشام بن عبد الملك الأموي ، وكان هشام يقرب قبيلة قيس (العدنانية) لأنهم نصروه وأيدوا خلافته ، ولم يكن منهم في مصر الا بعض بطون ، وقيس قبيلة كبيرة تحتها عدة قبائل وبطون وأفخاذ ، وأول من نبه هشام الى نقلهم عبيد الله بن الحبحاب ، فانه وفد عليه فسأله أن ينقل الى مصر منهم أبياتاً ، فأذن له في الحاق ثلاثة آلاف منهم وتحويل ديوانهم الى مصر ، أي أن يقبضوا رواتبهم من حكومة مصر ، على أن لا ينزلهم في الفسطاط ، فأنزلهم في الحوف الشرقي (الشرقية والدقهلية) ولا سيما في بلبيس وأمرهم بالزرع [٤] ثم تقاطروا بعد ذلك وتكاثروا فيها .

بنو سليم وبنو هلال

وقد يكون الباعث على استقدامهم واقرارهم رغبة الامير او الخليفة في التخلص من شرهم ، كما فعل العزيز بالله الفاطمي ببني سليم وبني هلال ، وهما بطنان من مضر ، كان رجالهما الى زمن العزيز المذكور في القرن الرابع للهجرة لا يزالون أحياء ناجعة أهل بادية ،

---

١ – الاغاني ٦ ج ١٣ ٢ – الاغاني ٤٧ ج ١١
٣ – ابن الاثير ٢٢٨ ج ٢ ٤ – المقريزي ٨٠ ج ١

محلاتهم وراء الحجاز مما يلي نجد : بنو سليم من جهة المدينة ، وبنو هلال من جبل غزوان عند الطائف فكانوا يطوفون رحلة الصيف والشتاء أطراف العراق والشام ، فيغيرون على الضواحي ويفسدون السابلة ، وربما أغار بنو سليم على الحاج ايام الموسم بمكة وأيام الزيارة بالمدينة ، ثم ظهر القرامطة فتحيز بنو سليم لهم ، وعاثوا في البلاد ، وقد عجز الخلفاء العباسيون عن قمعهم . فلما أفضت خلافة مصر الى العزيز بالله الفاطمي ، كان القرامطة قد تغلبوا على الشام ، فانتزعها العزيز منهم وردهم الى قراهم في البحرين ، ونقل أشياعهم من بني هلال وسليم وأنزلهم بالصعيد ، في العدوة شرقية من نهر النيل ، فأقاموا هناك . وكان لهم أضرار في البلاد ، والخلفاء يداورونهم ويبحثون عن وسيلة يتخلصون بها منهم . فاتفق بعد سنين ان المعز بن زيري عامل الفاطميين في افريقية ، شق عصا الطاعة وبايع للدولة العباسية ، وقطع اسم الخليفة الفاطمي من الخطبة والطراز والرايات ، فعظم الامر على الخليفة بالقاهرة ، وهو يومئذ المستنصر بالله ، فأشار عليه وزيره ابو محمد الحسن بن علي اليازوري ، ان يقرب اليه احياء هلال وسليم المذكورين ويصطنع مشايخهم ويوليهم أعمال افريقية ويرسلهم لاستلام امورها ، فاذا فازوا كانت احدى الحسنيين ، والا فانه يتخلص من شرهم . فبعث الخليفة وزيره الى هذه الاحياء سنة ٤٤١ هـ وحرضهم على الذهاب الى المغرب وتملكه ، ففرحوا وأجازوا النيل وساروا براً الى برقة ففتحوها . ثم تبعهم غيرهم من بطون دياب وزغب طمعاً في الكسب ، وأصبحت افريقية مقر هذه القبائل من ذلك الحين ، فاقتسموا البلاد فيما بينهم[١] .

وقس على ذلك ما كان من انتقال العرب المسلمين الى الاندلس بعد اتمام فتحها ، اذ صرف عرب الشام وغيرهم الهمم الى الحلول بها لخصبها وطيب هوائها . فنزل بها من أصول العرب وساداتهم جماعة اورثوها اعقابهم ، وفيهم قبائل من العدنانية والقحطانية[٢] وكل قبيلة كانت تنزل البلد الذي يشبه بلدها باقليمه ومرعاه . ناهيك بما كان يتنقل من القبائل او البطون في اثناء الحروب في عصر الامويين للنجدة او نحوها .

العبيد والموالي في الاسلام

للعبيد والموالي شأن كبير في الدولة الاسلامية ، وقد اثروا في سياستها وجندها وفي سائر احوالها من العلم والادب والفقه ، فلا غرو اذا افردنا للكلام عنهم فصولا خاصة .

---

١ – ابن خلدون ١٤ ج ٦ . ٢ – نفح الطيب ١٣٧ ج ١

الرق في الاسلام

قلنا ان الاسترقاق عند العرب الجاهلية كان اكثره بالاسر أو الشراء ، واما في الاسلام فأكثر الاسترقاق بالاسر ، وخصوصاً في اثناء الفتوح لكثرة من كان يقع في ايديهم من الاسرى . فاذا غلبوا جنداً او فتحوا بلداً ، اسروا رجاله ، وسبوا نساءه وأطفاله ، واقتسموا الأسرى والسبايا والغنائم ، وهي كثيرة ربما زاد عدد الأسرى في المعركة الواحدة على عشرات الالوف ، فيختمون اعناقهم ويقسمونهم على الاسهم وقد يصيب الفارس من العرب مائة اسير ومائة جارية في واقعة واحدة ، فيجتمع عند بعضهم بتوالي الايام الف عبد أو أكثر [١] وهم عند الأمراء أكثر مما عند غيرهم ، وقد تزايدوا على الخصوص بعد عصر الراشدين . على ان الخليفة عثمان كان عنده ألف عبد [٢] .

والغالب في الاسرى اذا كانوا كثاراً ان يباعوا بالجملة قبل تفريق الاسهم ، فينادون على الاسير بمائة درهم وأقل أو أكثر ، وربما اقتضى لبيع أسرى معركة واحدة عدة أشهر . ومن اكثر الفتوح أسرى وغنائم فتوح الاندلس ، فقد ذكروا أنهم ظلوا يبيعون الاسرى والغنائم بعد معركة هناك ستة اشهر [٣] وتكاثرت الاسرى على المسلمين بعد واقعة عمورية ، حتى نادوا على الرقيق خمسة خمسة وعشرة عشرة للسرعة [٤] وكثرت الاسرى والغنائم عليهم في واقعة الأرك بالأندلس ، حتى بيع الاسير بدرهم والسيف بنصف درهم [٥] .

على انهم كانوا يعدون البلد المفتوح عنوة ملكاً للفاتحين ، بما فيه من الناس والدواب والبساتين والانهار والاشجار ، وقد تمسك بنو أمية بذلك وبالغوا فيه ، كقول سعيد بن العاص : « السواد بستان قريش » ، وقول عمرو بن العاص لصاحب خربتا : « ان مصر فتحت عنوة وأهلها عبيدنا ندير عليهم كيف شئنا » [٦] .

والغالب في عامة الجند من المسلمين أن يبيعوا اسراهم ويحرزوا اثمانهم ، لعجزهم عن القيام بمعاشهم ، فلم يكن يستبقي الاسرى في حوزته عبيداً الا الامراء ، حتى يفتديهم اهلهم أو يعتقهم هو لسبب من الاسباب .

ومن مصادر الرقيق في الاسلام ــ غير الاسر ــ أن بعض العمال ، وخصوصاً في افريقية

---

١ – ابن الاثير ١٤٧ ج ٤ . ٢ – الدميري ٤٩ ج ١ . ٣ – نفح الطيب ٢١٣ ج ١ .
٤ – ابن الاثير ١٩٩ ج ٦ . ٥ – نفح الطيب ٢٠٩ ج ١ ، ٦ – ابن الاثير ٢٧٩ ج ٢ .

وتركستان ومصر ، كانوا يؤدون بعض خراج أعمالهم من الرقيق [١] وكان بعض اهـــل الذمة من البربر ونحوهم يقدمون بدل الجزية رقيقاً من اولادهم [٢] غير ما كان يقع في أيدي المسلمين من الرقيق الاصلي في جملة الغنائم .

أما أحكام الاسرى في الاسلام فالخليفة (أو من يقوم مقامه) مخير بين أربعة أشياء : اما القتل ، واما الاسترقاق ، واما الفداء بمال او اسرى ، واما المن عليهم بغير فداء، فان اسلموا سقط القتل وكان الخليفة على خياره في أحد الثلاثة الباقية [٣] فكانوا يتصرفون في ذلك على ما تقتضيه الاحوال .

ومن ملك رقيقاً بالاسر او الشراء او غير ذلك كان مخيراً في استبقائه او بيعه او المن عليه بالعتق ، ومن اعتق عبــداً صار مولاه . وللعتق اسباب كثيرة ، أهمها في الاسلام اظهار التقوى أو الغيرة على الدين ، فاذا اسلم العبد واظهر التقوى اطلقه سيده، فقد اعتق عبد الله بن عمر بن الخطاب على هذه الصورة الف عبد[٤] واعتق محمد بن سليمان ٧٠٠٠٠ مملوك ومملوكة وقد يعتقونهم فداء عن يمين ، او وفاء لنذر ، او التماساً للثواب ، او شكراً لله على نعمة ، او نحو ذلك . وكان بعض اهل الورع يبتاعون العبيد ويعتقونهم ابتغـاء مرضاة الله . واقسم عمر بن ابي ربيعة لما اسن ان لا يقول بيت شعر إلا اعتق رقبة ، وقد نظم وبر بقسمه غير مرة [٥] ، وكانوا يعتقون العبيد ترغيباً لهم في الجهاد ، كما فعل الجنيد ابن عبد الرحمن المري صاحب خراسان بهشام بن عبد الملك في واقعة الشعب ، لمـا احتدم الوطيس وخاف الجنيد الفشل ، فصاح في العبيد : « اي عبد قاتـــل فهو حر » ، فقاتل العبيد قتالاً اعجب منه الناس وانهزم الاعداء[٦] وكثيراً مـا كانوا يرغبون العبيد في نصرة الاسلام وهم عند اعدائهم بأن يعدوهم بالعتق ، كما فعل النبي (صلعم) يوم حصار الطائف، اذ قال : « كل عبد نزل الي فهو حر » [٧] وكما فعل المسلمون في بعض البلاد التي فتحوها ، فكانوا يعدون عبيدها بالعتق اذا أسلموا ، فيدخل بعضهم في الاسلام على نيـة ان يرجعوا عنه بعد ذهاب الحرب ، ولكنهم لما ارادوا ذلك عدهم المسلمون مرتدين فعل حربهم .

على ان الاسلام جاء رحمة للأرقاء ، فأوصى النبي بهم خيراً بقوله : « لا تحملوا العبيد ما

---

١ – المقريزي ٣١٣ ج ١ . ٢ – ابن الاثير ١٣ ج ٣ . ٣ الماوردي ١٢٥ .
٤ – ابن خلكان ٢٤٨ ج ١ . ٥ – الاغاني ٦٤ ج ١ .
٦ – ابن الاثير ٧٨ ج ٥ . ٧ – المعارف ٩٧ .

لا يطيقون ، واطعموهم مما تأكلون »[١] وقال: «لا يقل احدكم : عبدي وأمتي ، وليقل: فتاي وفتاتي » .

وفي القرآن الكريم : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين احساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم ان الله لا يحب من كان مختالاً فخورا » . والاسلام من الجهة الاخرى يحرض العبد على التقوى وحسن العبادة[٢] وقد اختص العرب المسلمين بالنجاة من الرق والسبي بقول الأئمة : « لا سبأ في الاسلام ، ولا رق على عربي في الاسلام » . ومن احكام العبيد عندهم ان يعاملوا معاملة نصف الحر ، فالعبد اذا اذنب ضرب نصف ما يضرب الحر[٣] واذا احسن كانت جائزته لمولاه ، والاسرى الذين يقعون في ايدي العرب بالفتوح من اهل البلاد المفتوحة فيهم النصراني واليهودي والمجوسي والصابي والسامري وغيرهم ، فهؤلاء اما ان يفتديهم اهلهم ، او يبيعهم المسلمون لبعض تجار الرقيق ، او يستبقوهم في خدمتهم لقضاء حاجات المنازل ، او رعاية الإبل او الماشية ، او لبري القسي ورمي النبل او جمع النبال المتساقطة وقت القتال ، او لرواية الشعر او حفظ القرآن او الحديث او غير ذلك . فكانت قيمة العبد تختلف باختلاف نوع صناعته ، فالعبد الذي لا يعرف صناعة يساوي مائة دينار ، فاذا كان راعياً للإبل يحسن القيام بها يقدرون قيمته بـ ٢٠٠ دينار ، فاذا كان عارفاً بصناعة النبال والقسي يباع بأربعمائة دينار ، فاذا كان يحسن رواية الشعر صارت قيمته ٦٠٠ دينار . تلك اثمان العبيد في أواسط دولة بني امية[٤] .

وأما القن فهو العبد الذي يشتغل في الارض ، وهو خاص بالقرى ، ويسمى المزارع المقيم « فلاحاً قراراً » ، فاذا أقطعت أرضه ، أو بيعت لأحد ، أو دخلت في ملك احد بالفتح او غيره ، كان الفلاح تبعاً لها وصار « عبداً قناً » ، الا انه لا يرجو ان يباع او يعتق ولا يستطيع مولاه ذلك لو اراد ، بل هو قن ما بقي حياً ، وكذلك أولاده بعده ، فانهم يكونون عبيداً لمالك الارض او مقتطعها، وقد أشرنا اليه في كلامنا عن العبيد في الجاهلية .

الموالي في الاسلام

والباقون في الأسر اذا اعتنقوا الاسلام نجوا من الرق غالباً ، اذ يغلب ان يعتقوهم

---

١ – المقريزي ١٣٧ ج ١   ٢ – البخاري ٥٩ ج ٢   ٣ – الاغاني ١٥٢ .
٤ – الاغاني ١٣٣ .

مكافأة لهم ، ومن اعتق منهم صار مولى ، ولذلك كان الموالي من المسلمين غـير العرب ، استنكافاً من استرقاق المسلم ، ثم اطلقه بنو أمية على كل مسلم غير عربي ، فـاذا قالوا « الموالي » أرادوا المسلمين من الفرس وغيرهم الذين كانوا مجوساً أو ذميين واعتنقوا الاسلام، أو كانوا مما لازم العرب أو التجأوا اليهم ، ويسمونهم « الحمـراء » فاذا قالوا « الحمراء » أرادوا الموالي ، والحمراء في القاموس العجم ، وهم كل من سوى العرب .

وأصبح الموالي في الاسلام طبقة خاصة من طبقات الهيئة الاجتماعية ، كان لها شأن عظيم في تاريخ الاسلام ، ويمكن اعتبارهم من قبيل العصبية العربية ، لقول النبي (صلعم): « مولى القوم منهم » (١) وقوله : « من ادعى الى غير ابيه او تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » (٢) واهل الرجل عند العرب الموالي والذراري . ويثق الرجل بمولاه كما يثق بابنه ، لأنه لم يعتقه الا حباً فيه ، والمولى يعد عتقه منة لمولاه عليه ، فيترك نسبه الى اهله وينتسب الى مولاه ، فيقال فلان مولى فلان ولا يقال ابن فلان . او ينتسب الى قبيلته فيقال مثلا ابن سريج مولى بني نوفـل ، ومحرز مولى عبد الدار ، وحكم الوادي مولى الوليد بن عبد الملك ، وابن عياد مولى بني مخزوم ، وقس عليه . ولذلك كانت رابطة المولى بمولاه وثيقة ، وخصوصاً من يعيش من الموالي في بيت مواليهم ، ولكن الغالب ان يخرجوا لعمل يعملونه ، حتى اذا انتشبت حرب اجتمعوا تحت لوائهم .

وللموالي فضل كبير في الاسلام ، لأن معظم الحفاظ واهل التفسير واللغـة والشعر وسائر العلماء واكثر التابعين منهم ، لاشتغال العرب عن هـذه العـلوم بالسياسة والسيادة والتنازع على السلطة (٣) ومعظم الموالي الذين خدموا العرب في صدر الاسلام من بقايا الفيء والغنائم في فارس وغيرها ، واكثرهم كانوا غلماناً في جمـلة السبي ، فربوا في الاسلام ونبغوا فيه أو نبـغ أولادهم ـ منهم أربعون غلاماً كانوا يتعلمون الانجيل في عين التمر لما فتحها خالد بن الوليد ، فغنمهم وبعثهم الى أبي بكر بالمدينة ففرقهم في أهل البلاد من جملة الغنائم ، فاعتنقوا الاسلام وأعتقهم مواليهم فنبـغ من اولادهم جماعة كانوا عوناً كبيراً للمسلمين في السياسة والحرب والعـلم والدين ، منهم موسى بن نصير فاتح المغرب والاندلس فان اباه منهم ، وحمران مولى عثمان بن عفان (٤) وايضاً محمد بن اسحق صاحب

---

١ ـ العقد الفريد ١١١ ج ٢ ، ٢ ـ ابن هشام ٧٧ ج ٣ والبيان والتبيين ١٦٤ ج ١ .
٣ ـ الجزء الثالث من هذا الكتاب . ٤ ـ ابن الاثير ١٩٢ ج ٢ .

المغازي والسير فان جده يسار منهم (١) وقس على ذلك سائر مشاهير الموالي الذين أصلهم من السبي في اثناء الفتح او بعده .

فأبو صفر من سبي دبا في ايام أبي بكر، وحماد الراوية أصل ابيه ديلمي من سبي مكنف ابن زيد الخيل (٢) وسائب خاثر أصله من فيء كسرى ، ومروان بن ابي حفصة الشاعر الشهير اصله يهودي من سبي اصطخر (٣) والهروي اللغوي المشهور اسير وقع في سهم عرب نشأوا في البادية (٤) وابن الاعرابي سندي الاصل ، وابو دلامة كوفي أسود كان عبداً لرجل من بني اسد فأعتقه (٥) وقل نحو ذلك عن سائر حملة العلم في الاسلام .

وقد يكون المولى من اصل رفيع واسترقه الاسر ولم يتوفق له الفداء ، فان بعض موالي المنصور من اولاد المرازبة (٦) وأبو علي بن بذيمة الذي يروى عنه وابو زهير جد المطلب بن زياد اصلها من ابناء الاكاسرة ، وقعا في الاسر يوم المدائن فأهداهما سعد الفاتح الى سمرة بن جنادة الصحابي فأعتقها ابنه جابر (٧) . وانتقى ابو موسى الاشعري ستين غلاماً من اولاد الدهاقين من سبي بيروذ بفارس ، وفرق بعضهم في المسلمين ، غير الذين افتداهم أهلهم (٨) .

وكان للخلفاء والامراء ثقة كبرى بمواليهم ، يعهدون اليهم بكل شئونهم ، فأكثر حجاب الخلفاء الراشدين من مواليهم ، لا فرق في أن يكون أصلهم فارسياً او ديلمياً او حبشياً او رومياً ، فموالي أبي بكر اولهم بلال بن رباح كان عبداً حبشياً لرجل من مكة ، اشتراه ابو بكر بخمس اواق وأعتقه . وهو اول من أذن في المدينة ، وكان له مقام رفيع في الاسلام ، وكذلك عامر بن فهيرة ، وابو نافع ومرة بن ابي عثمان وغيرهم (٩) وقس على ذلك موالي عمر وعثمان وعلي وغيرهم من الخلفا وكبار الصحابة . وكلهم يستهلكون في سبيل مواليهم ، لاعتقادهم الفضل لهم عليهم ، وفي التاريخ شواهد كثيرة من هذا القبيل على اختلاف الأعصر — من ذلك أن محمد بن يزيد المهلبي ، لما نشبت الفتنة بين الامين والمأمون ، كان هو من حزب الامين ، وأراد ان يحفظ له الاهواز من اصحاب طاهر بن الحسين قائد جند المأمون فباغته طاهر بجنده قبل ان يتحصن وضايقه ، فالتفت المهلبي

١ — ابن خلكان ٤٨٣ ج ١ والمعارف ١٦٨ . . — المعارف ١٢٠ ج ٩ .
٣ — الاغاني ٣٦ ج ٩ . ٤ — ابن خلكان ٥٠١ ج ١ . ٥ — الاغاني ١٢٠ ج ٩ .
٦ — الاغاني ٨٢ ج ٢٠ . ٧ — المعارف ١٠٣ . ٨ — ابن الاثير ٢٣ ج ٣ .
٩ — المعارف ٥٨ .

المذكور الى مواليه وقال لهم : « ما رأيكم ؟ . اني أرى من معي قد انهزم ، ولست آمن خذلانهم ولا أرجو رجعتهم ، وقد عزمت على النزول والقتال بنفسي حتى يقضي الله بما أحب ، فمن اراد الانصراف فلينصرف ، فوالله لأن تبقوا أحب الي من ان تموتوا » . فقالوا : « والله ما انصفناك اذن .. تكون قد أعتقتنا من الرق ، ورفعتنا من الضعة ، وأغنيتنا بعد القلة ، ثم نخذلك على هذا الحال ؟ فلعن الله الدنيا والعيش بعدك » . ثم نزلوا فعرقبوا دوابهم واستقتلوا بين يديه (١) .

على ان المولى لا يزال احط مقاماً من العربي . وكان الموالي في صدر الاسلام يتولون كثيراً من مصالح الدولة التي تفتقر الى امانة وثقة ، فضلا عن العلم والدين . ولهم الرواتب السنية (٢) لكنهم كانوا محرومين من المناصب الرفيعة التي تحتاج الى شرف وعصبية ، كالقضاء مثلا ، فانه كانوا يعدونه فوق مرتبتهم ، فان عمر بن العزيز لما أراد ان يولي مكحولاً القضاء أبى وقال : « قال النبي : لا يقضي بين الناس الا ذو الشرف في قومه ، وانا مولى » (٣) .

---

١ – ابن الاثير ١٠٦ ج ٦ . ٢ – الاغاني ١٦٣ ج ١٠ .

٣ – العقد الفريد ٨ ج ١ .

سياسة الدولة في عهد الأمويين

من سنة ٤١ - ١٣٢ هـ

قد رأيت مما تقدم ان سياسة الدولة في ايام الراشدين انما كان قوامها الجامعة العربية ، وعمادها العدل والرفق والأريحية ، ففتحوا العالم وأسسوا الدولة الاسلامية ، واخضعوا معظم المعمور في بضع وعشرين سنة ، ووجهتهم دينية وسلاحهم التقوى والحق ، والعمل بالكتاب والسنة ، وغايتهم نشر الدين والتماس الثواب في الآخرة ، وحكومتهم بالانتخاب والشورى ، وسترى في سياسة بني أمية ما يخالف ذلك من كل الوجوه .

انتقال الخلافة الى الأمويين

لما طمع بنو أمية في الخلافة ، كانت قد افضت الى علي بن ابي طالب صهر النبي وابن عمه ، والمسلمون يعتقدون انه احق الناس بها ، لقرابته من النبي وتقواه وشجاعته وعلمه ، وسابقته في الاسلام وفضله في تأييده. فتصدى له معاوية بن ابي سفيان، وكان ابوه واخوته من اشد الناس مقاومة للاسلام عند ظهوره ، ولم يسلموا الا بعد فتح مكة في السنة الثامنة للهجرة ، وانما اقدموا على ذلك مضطرين ، لما رأوا الاسلام قد تأيد في جزيرة العرب ولم يبق سبيل الى مقاومته .

وكان ابو سفيان والد معاوية زعيم اهل مكة ، وقد حارب النبي في عدة اماكن . وجاهر بعداوته وطعن فيه . فلما ظفر المسلمون في غزواتهم ، واشتد ازرهم وهموا بفتح مكة ومشوا حتى اقبلوا عليها ، كان ابو سفيان وبعض كبراء قريش قد خرجوا منها يتجسسون . فلقيهم العباس عم النبي ، فقال له ابو سفيان وقد اسقط في يده : « لقد اصبح امر ابن اخيك عظيماً » فأشار عليه العباس ان يستأمن ، فلم ير له حيلة في غير ذلك فاستأمن ، ثم فتحت مكة ولم يكن له بد من الاسلام فأسلم هو واولاده وفيهم معاوية ، وقد تألفهم النبي بالعطاء ليثبتوا في اسلامهم [١] .

---

١ - الجزء الاول من هذا الكتاب .

المنافسة بين بني أمية وبني هاشم

والسبب في طلب معاوية للخلافة متصل بالجـاهلية . وذلك ان بني عبد مناف هم اشرف بطون قريش واكثرهم عدداً وقوة ، وهم فخذان : بنو أمية وبنو هاشم ، وكان بنو أمية اكثر عدداً من بني هاشم واوفر رجـالاً ، وكان لهم قبل الاسلام شرف معروف انتهى الى حرب بن أمية والد ابي سفيان وجد معـاوية وكان حرب المذكور رئيسهم في واقعة الفجار قبل الاسلام ، وله جاه وشوكة في الفخذين جميعاً ، فلما جاء الاسلام ، والنبي من بني هاشم شق ذلك على بني أمية وكانوا من اقوى الساعين في مقـاومته ، فلم يفلحوا . ولكنهم حملوا النبي على الهجرة من مكة الى المدينة ، وقد نصره الأنصار هنـاك وهم من القحطانية حتى استتب له الأمر ، وقد مات عمه ابو طـالب وهاجر بنوه مع النبي الى المدينة . ثم لحقهم اخوه حمـزة ثم العباس وغيره من بني عبد المطلب وسائر بني هاشم ، فخلا الجو لبني أمية في مكة ، واستغلظت رياستهم في قريش ، وزادت سطوتهم بعـد واقعة بدر اذ هلك فيها عظماء قريش من سائر البطون . فاستقل ابو سفيـان بشرف أمية بمكة والتقدم في قريش ، وكان رئيسهم في واقعة احد وقائدهم في واقعة الأحزاب ومـا بعدها . فلما استفحل امر المسلمين وفتحوا مكة واستأمن ابو سفيان كما تقـدم ، رأى النبي من حسن السياسة ان يمن على قريش كافة بعد ان ملكهم بالفتح عنوة ، فمن عليهم واطلق سبيلهم وقال : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » وفيهم معاوية ، فأسلموا جميعاً .

فلما مات النبي وتولى الخلافة ابو بكر ، جاء القرشيون ومعظمهم من بني أمية ، وشكوا اليه ما وجدوه في انفسهم من التخلف عن رتب المهاجرين والأنصار ، فقال لهم ابو بكر : « لقد جئتم الاسلام متأخرين ، فأدركوا اخوانكم في الجهاد » فجاهدوا في حروب الردة . ولما تولى عمر بن الخطاب ادرك ما في نفوسهم ، فخاف بقاءهم في المدينة ، فرمى بهم الروم ورغبهم في الشام ، فاستعمل يزيد بن ابي سفيان عليها ، فانتقل معه سائر قريش ، واستطابوا فاكهة الشام فأقاموا فيها حتى توفي يزيد المذكور ، فولى عمر مكانه اخاه معاوية . ولما تولى عثمان سنة ٢٣ هـ اقر معاوية على الشام ، فاتصلت به رياسة بني أمية على قريش في الاسلام كما كانت في الجاهلية ، وبنو هاشم مشتغلون بالنبوة وقد نبذوا الدنيا .

معاوية وعلي

وكان بنو أمية ينظرون الى ما ناله بنو هاشم بالنبوة من السلطان والجاه ، ويتوقعون فرصة للقبض على ازمة الملك . فلما قتل عمر بن الخطاب وأمر بالشورى ، اختار الصحابة عثمان بن عفان وهو من بني أمية ، ولا يخلو فوزهم بهذا الانتخاب من دسيسة أموية . وكان عثمان ضعيفاً يؤثر ذوي قرابته في مصالح الدولة ، فاغتنم الأمويون ضعفه وتولوا الأعمال واستأثروا بالأموال ، فشق ذلك على سائر الصحابة فنقموا عليه ، ثم استشهد بعد ذلك على ما هو معروف .

فاتخذ الأمويون قتله ذريعة للقبض على الخلافة ، ورئيسهم معاوية بن ابي سفيان عامل عثمان على الشام ومعه رجال قريش . وكان اهل المدينة قد بايعوا علي بن ابي طالب ، وجمهورهم الأنصار . فأصبح المسلمون يومئذ حزبين رئيسيين : (١) الأنصار ويريدون الخلافة لاهل بيت النبي (صلعم) جرياً على نصرتهم اياه يوم هجرته (٢) بنو أمية في الشام ويطلبونها لمعاوية ابن زعيمهم في الجاهلية . وجمهور الصحابة يرون الحق لعلي ، فلم ير معاوية سبيلاً الى نيل بغيته الا بالدهاء والتدبير . وكان ادهى اهل زمانه بلا منازع . فنظر في الأمر نظرة رجل يطلب الملك كما يطلبه اهل المطامع وطلاب السيادة في كل عصر بلا علاقة بالدين ، وقد ساعده على ذلك ان خصمه علياً كان يعتبر الخلافة منصباً دينياً ، وهو زاهد في الدنيا ولا مطمع له في غير الثواب والحسنى . وان رجال معاوية قد ذهبت منهم حرمة الدين ، ونسوا دهشة النبوة وذاقوا لذة الثروة وتعودوا السيادة فاتسعت مطامعهم . فأثمرت مساعي معاوية في اصطناع الأحزاب بقاعدة ذكرها في حديث دار بينه وبين عمرو بن العاص . إذ قال معاوية : « لو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت » فقال عمرو : « وكيف ذلك يا امير المؤمنين ؟ » ، قال : « إن هم شدوا ارخيت ، واذا ارخوا شددت » .

فأول شيء فعله معاوية أنه استعان بثلاثة من كبار الصحابة يعدهم المؤرخون ادهى رجال العرب — ومعاوية ادهاهم جميعاً — وهم : عمرو بن العاص ، وزياد بن أبيه ، والمغيرة ابن شعبة . ولولاهم لم يستتب له الأمر ، لأن ابن العاص احتال في نجاته من واقعة صفين ، بعد ان كادت الدائرة تدور عليه ، اذ ظهرت جيوش علي على جيوشه ، فأشار عليه عمرو بن العاص ان يرفع المصاحف لايقاف الحرب ، ثم اشار بالتحكيم وخدع ابا موسى الأشعري نائب

علي في ذلك التحكيم فخلع علياً وبايع معاوية. ونال عمرو في مقابل ذلك ولاية مصر طعمة له طول العمر [١] وزياد بن ابيه رجل لا يعرف له أب ، فلما رأى معاوية دهاءه قربه منه وادعى انه اخوه ، واستلحقه بنسبه وسماه زياد بن ابي سفيان ، في حديث طويل ذكرنا خلاصته فيما تقدم . واستلحاق زياد اول عمل ردت به اعلام الشريعة الاسلامية علانية [٢] وكان زياد عوناً كبيراً لمعاوية في حفظ العراق وفارس . اما المغيرة بن شعبة فهو اول من ضرب الزيوف في الاسلام واول من رشى [٣] وهو الذي حرض معاوية على مبايعة ابنه يزيد ، وجعل الخلافة وراثية في نسله وساعده على ذلك .

فهؤلاء وغيرهم من كبار القواد اكتسب معاوية مساعدتهم بالدهاء والاطماع ، فأطعم ابن العاص مصر ، وأطعم المغيرة فارس ، وجعل زياداً أخاه . وكان يتساهل في محاسبة عماله ويغضي عن سيئاتهم [٤] ويبالغ في اكرامهم . ولو رأوا من علي بعض ذلك لكانوا معه ، ولكن علياً كان دقيقاً في محاسبتهم ، متصلباً في رأيه لا يحيد عما يقتضيه ضميره - كذلك كان يفعل ابو بكر وعمر ، ولكن المسلمين كانوا في ايامهما لا يزالون في ابان الحمية الدينية والاريحية العربية ، ينصاعون لأوامر خليفتهم بكلمة ، ولذلك عدوا تصرف علي ضعفاً منه . فلما رأوا ضعفه انحازوا الى معاوية بعد ان كانوا معه ، وأولهم المغيرة بن شعبة ، فهذا جاء علياً يوم بويع ومعاوية واقف له بالمرصاد ، فأشار اليه ان يحاسن معاوية ولا يعزله عن عمله في الشام ، ريثما يستتب له الأمر فيعزله اذا شاء ، فلم يطعه علي ، فعاد اليه في اليوم التالي وخادعه ، وأشار عليه ان يعزل معاوية ويفعل كما يشاء ، ثم انحاز المغيرة الى معاوية وصار من اكبر انصاره .

وقس على ذلك تصرف علي مع ابن عمه عبد الله بن عباس ، وكيف كدره وأخرجه من حوزته بتدقيقه كما تقدم . ولما قتل علي خلفه ابنه الحسن ، فرأى نفسه عاجزاً عن منازلة معاوية ، فتنازل له عن الخلافة سنة ٤١ هـ فرسخت قدم معاوية فيها . وسار بنو امية بعده على خطته ، وسار العلويون على خطة علي ، وكان الفوز دائماً لأهل الدهاء ، نقضى العلويون معظم ايامهم خائفين شاردين ، ومات اكثرهم قتلا مع انهم اهل تقوى

---

١ - المقريزي ٣٠٠ ج ١ .
٢ - ابن الاثير ٢٢٥ ج ٣ .
٣ - المعارف ١٨٩ .
٤ - ابن الاثير ٢٦٠ ج ٣ .

ودين وحق ، وأولئك على الضد من ذلك – مما يدلك على ان السياسة والدين لا يلتحمان الا نادراً ، وما التحامها ايام الراشدين الا فلتة قلما يتفق مثلها . على اننا لا نعـــد دولة الراشدين حكومة سياسية ، وانما هي خلافة دينية .

رغبة بني أمية في السيادة

ان المحور الذي كانت تدور عليه سياسة بني امية ، والغرض الذي كانوا يرمون اليه ، انما هو احراز الخلافة والرجوع الى السيادة التي كانت لهم في الجاهلية ، بقطع النظر عن وعورة المسالك المؤدية الى ذلك ، او وخامة الاسباب التي تمسكوا بها . وقـــد فازوا بغايتهم ، فاتسعت المملكة الاسلامية في ايامهم واشتدت شوكتها ، ما لم تبلغ دولة العباسيين بعدها [1] وكانوا يطلبون السلطة على ان لا يشاركهم فيها احد ، وكان اشدهم فتكاً عبد الملك بن مروان يقول : « لا يجتمع فحلان في اجمة » [2] .

فرغبة بني امية في السلطة على هذه الصورة ، مع وجود من هو احق منهم بهـــا ، جرهم الى ارتكاب امور آلت الى توجيه المطاعن اليهم . وقد ظهرت هذه الدولة وتغلبت على سائر طلاب الخلافة في ايامهم بشيئين : العصبية القرشية ، واصطناع العصبيات او الاحزاب الاخرى ، وهما اساس كل ما ظهر من سياسة بني امية كما سترى .

العصبية العربية في عصر الامويين

العرب وقريش

كانت العصبية العربية في الجاهلية بـــين القبائل بحسب الانساب ، فلما جاء الاسلام تنوسيت تلـــك العصبية ، واجتمع العرب كافة باسم الاسلام والجامعة الاسلامية ، وما زالت الجامعة الاسلامية تشمل العرب على اختلاف قبائلهم وبطونهم طول ايام الخلفـــاء الراشدين . حتى اذا طمع بنو امية في الملك ، وقبضوا على أزمة الخلافة ، استبدوا

---

١ – الفخري ٢٥ .   ٢ – ابن الاثير ٩١ ج ٦ .

وتعصبوا للعرب ، وحافظوا على مقتضيات البداوة وتمسكوا بعاداتها ، فظلت خشونة البادية غالبة على حكومتهم وظاهرة في سياستهم ، مع ذهاب مناقب البدو التي ذكرناها . وانما حفظوا من احوال جاهليتهم تعصبهم لقبيلتهم « قريش »، وايثار اهلهم على سواهم. فجاشت عوامل الحسد في نفوس القبائل التي كان لها شأن في الجاهلية وضـاع فضلها في الاسلام ، وخصوصاً اهل البصرة والكوفة والشام ، لأن اكثر العرب الذين نزلوا هذه الامصار جفاة لم يستكثروا من صحبة النبي (صلعم) ، ولا هذبتهم سيرته ولا ارتاضوا بخلقه ، مع ما كان فيهم من جفاء الجاهلية وعصبيتها. فلما استفحلت الدولة اذا هم في قبضة المهاجرين والانصار، من قريش وكنانة وثقيف وهذيل وأهل الحجاز ويثرب، فاستنكفوا من ذلك وغصوا به لما يرون لانفسهم من التقـدم بأنسابهم وكثرتهم ، ومصادمة فارس والروم ، مثل قبائل بكر بن وائل وعبد القيس من ربيعة وكندة ، والازد من اليمن ، وتميم وقيس من مضر ، فصاروا الى الغض من قريش والأنفة عليهم ، فعادت العصبية الى نحو ما كانت عليه في الجاهلية .

بدأت هذه العصبية بتعصب العرب كافة على قريش،حسداً لهم كما ذكرنا، ولاستبدادهم بالسلطة دون سائر الصحابة او التابعين مع استئثارهم بالفيء – الا الذين تألفهم معاوية من القبائل اليمنية او العدنانية . وأول خلاف وقع بين المسلمين من هـذا القبيل حدث في ايام عثمان ، ذلك ان سعيد بن العاص لما ولاه عثمان الكوفة اختار وجوه الناس واهـل القادسية وقراء اهل الكوفة لمجالسته،فكانوا يسمرون عنده وفيهم جماعات من كل القبائل. وكان بنو امية وغيرهم من الصحابة قد اخذوا في امتلاك العقار وبناء المنازل، وبنو امية اطول باعاً يومئذ في ذلك لقرابتهم من الخليفة . فاتفق في احدى مسامراتهم عند سعيد ابن العاص ان بعضهم ذكر جود طلحة بن عبيد الله احد كبار الصحابة ، فقال سعيد : « ان من له مثل النشاستج لحقيق ان يكون جوادا ، ولو كان لي مثله لاعاشكم الله به عيشاً رغداً » . والنشاستج ضيعة في الكوفة كانت لطلحة ، وهي عظيمة كثيرة الدخل اشتراها من اهل الكوفة المقيمين بالحجاز بمال كان له بخيبر وعمرها فعظم دخلها[1] .

فلما قال سعيد ذلك قام غلام من الحضور فقال له : « لوددت ان هذا الملطاط لك » . والملطاط ما كان للاكاسرة على جانبي الفرات مما يلي الكوفة . فنهض بعض الحاضرين من

---

١ – ياقوت ٧٨٣ ج ٤ .

غير قريش وانتهر الغلام فاعتذر ابوه عنه وقال : « غلام فلا تجازوه » . فقال : « كيف يتمنى له سوادنا ؟ » اي سواد العراق فقال سعيد : « السواد بستان قريش » . وكان الاشتر النخعي حاضراً، وهو من اليمنية، وكان شديد التعصب لعلي بن ابي طالب، فغضب وقال لسعيد : « اتزعم ان السواد الذي افاءه الله علينا بأسيافنا بستان لك ولقومك ؟ » فقام عبد الرحمن الاسدي صاحب شرطة سعيد فقال للاشتر: «اتردون على الامير مقالته؟» وأغلظ لهم ، فأشار الاشتر الى رفاقه فوثبوا على الرجل فوطأوه وطأً شديداً حتى غشي عليه ، ثم جروا برجله ونضحوه بالماء فأفاق ، فنظر الى سعيد وقال : «ان الذين انتخبتهم لسامرتك قتلوني » . فقال سعيد : « والله لا يسمر عندي أحد أبداً » (١) .

فوقعت الوحشة بين قريش وسائر القبائل من ذلك الحين ، وخصوصاً بينهم وبين اليمنية ، ومنهم الانصار . وثبت الانصار في نصرة اهل البيت ضد اهلهم من قريش مثلما فعلوا في اول الاسلام ، اذ جاءهم النبي مهاجراً فراراً من اهله . ولما جرت واقعة صفين سنة ٣٧ هـ بين علي ومعاوية عدوها بين اليمنية «الأنصار» وقريش. فلما احتدم القتال في تلك الواقعة قال رجل يمني من أنصار علي : « أيها الناس هل من رائح الى الله تحت العوالي (أي السيوف) ؟ والذي نفسي بيده لنقاتلنكم على تأويله (القرآن) كما قاتلناكم على تنزيله » ، وتقدم وهو يقول :

نحن ضربناكم على تنزيله والیوم نضربكم على تأويله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله ويذهل الخليل عن خليله
أو يرجع الحق الى سبيله (٢)

القبائل اليمنية والمضرية

ثم صار اكثر اليمنية شيعة علي وأنصاره ، الا الذين تألفهم معاوية بالعطاء ، لعلمه ان اكتفاءه بقريش ونحوهم لا يجديه نفعاً ، فقرب منه قبيلة كلب وتزوج منها بجدل أم يزيد ابنه ، واستنصرهم على قتلة عثمان لأن امرأة عثمان كانت كلبية ، واستغواهم بالمال فحاربوا معه ، ولما فاز في حروبه ورسخت قدمه في الخلافة تقربت منه قبائل كثيرة من مضر واليمن ، وظلت كلب على نصرة يزيد ابنه بعده لأنهم اخواله .

---

١ — ابن الاثير ٧٢ و ٩٧ ج ٣ .   ١ — المسعودي ١٦ ج ٢ .

فلما مات يزيد وابن الزبير في مكة يطالب بالخلافة ، واختلف بنو أمية على اختيار خالد بن يزيد او مروان بن الحكم (وكلاهما من أمية) ، ووقع الخصام بين دعاة ابن الزبير ودعاة بني أمية ، كان انصار ابن الزبير من قيس (مضرية) يدعون لابن الزبير ، وانصار بني أمية بنو كلب (يمنية) يدعون لخالد بن يزيد لأنه ابن اختهم . ونهض اناس من بني أمية فاعترضوا على صغر سن خالد ، فأجمعوا على بيعة مروان لشيخوخته على ان تكون الخلافة بعده لخالد . ثم جرت واقعة مرج راهط بين اصحاب مروان واصحاب ابن الزبير ، أي بين كلب وقيس ، وفاز مروان وثبتت قدمه في الخلافة . ثم توفي مروان ولم يف لخالد ، فخلفه ابنه عبد الملك بن مروان الشديد الوطأة ، وظلت كلب معه وقيس مضطغنة عليه ، وانقسم العرب في سائر انحاء المملكة الاسلامية بين هذين الحزبين : قيسية وكلبية ، أو مضرية ويمنية ، او نزارية وقحطانية . وقامت المنازعات بينهما في الشام والعراق ومصر وفارس وخراسان وافريقية والأندلس . وفي كل بلد من هذه البلدان وغيرها حزبان : مضري ويمني ، تختلف قوة احدهما او الآخر باختلاف الخلفاء او الأمراء او العمال . فالعامل المضري يقدم المضرية ، والعامل اليمني يقدم اليمنية ، ويختلف ذلك باختلاف الأحوال ، وله تأثير في كل شيء من تصاريف احوالهم ، حتى في تولية الخلفاء والأمراء وعزلهم ، وكثيراً ما كانت الولاية والعزل موقوفين على الانحياز الى احد هذين الحزبين .

فقد رأيت ان قبيلة قيس كانت على عبد الملك بن مروان ، ولكنها كانت اول نصير لابنه هشام ، فنصرته فقربها وألحقها بالديوان أي فرض لاهلها الرواتب والجرايات . وفي ايامه نقل كثير من بطونها وافخاذها الى بلاد الاسلام وخصوصاً مصر والشام . وفي ايام هشام ارتفع شأن القيسية ، وصارت سائر المضرية انصاراً لبني أمية ، ولا سيا لما قتل الوليد بن يزيد وأمه قيسية [1] فقام مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية يطالب بدمه رغبة في نصرتهم ليشتد أزره بهم ، فاجمع المضرية على نصرة مروان ، وما زالوا كذلك الى آخر ايامه ، فلما قامت شيعة بني العباس كانت اليمنية من انصارها .

وكان تحت هذين الحزبين الكبيرين احزاب فرعية تتخاصم وتتحارب . على ان مقام قريش ما زال في كل حال محفوظاً ومفضلاً على مقام سائر القبائل شرفاً ونفوذاً ، فكانوا

---

١ - ابن الاثير ١٥٩ ج ٥ .

اذا خافوا عصيان بعض الولايات على عاملها ولوا عليها عامـــلا من قريش ، فيذعنون له ويجمعون على طاعته (١) .

على ان قريشاً كانوا منقسمين فيما بينهم ، واهم انقساماتهم بين بني أمية وبني هـاشم ، فكان الناس يتعصبون لأحدهما على الآخر تبعاً لغرضه او وطنه ، وكثيراً مـــا كانوا يتشاجرون في هذا السبيل فيشغلون اوقاتهم بالمناظرة والمفاخرة ، حتى تحتدم نار الخصام وتتحول الى حرب يطير شرارها وتسفك فيها الدماء . وكانت قوة بني هاشم في الحجـاز والعراق ، وقوة بني أمية في الشام ، ويختلف هذا التحديد باختـلاف العصور . وكثيراً ما كان الخصام يبدأ بين الشعراء . واشتهر بعضهم على الخصوص في هـــذه المطاعنات ، واشهر مناظراتهم في هذا السبيل ما كان بين سديف الشاعر ، الذي ينتسب بولائه الى بني هاشم ، فقــد كان يتعصب لهم ، وسياب الشاعر وكان يتعصب لبني أمية ، فكان هذان الشاعران يخرجان الى ظاهر مكة يذكران المثالب والمعـائب ، والناس ينقسمون في التعصب لهما ، حتى تولد من ذلك عصبتان كبيرتان عرفتـا بالسديفية والسيابية ، وتواصل ذلك الى ايام الدولة العباسية ، وتغير اسماهما الى الحناطين والجزارين (٢) وسديف هذا هو الذي قال شعراً بين يدي السفاح قتل به سليمان بن هشام الأموي .

عصبية العرب على العجم

وكما كان القرشيون في ايام بني امية مقدمين على سائر قبائل العرب ، فان العرب عـلى الاجمال كانوا مقدمين على سائر الامم الذين دانوا بالاسلام . ولم يكن هؤلاء يستنكفون من ذلك ، بـل كانوا يعتقدون فضل العرب في اقامة هذا الدين ، وانهم مادته وأصله ، ولا كانوا يأنفون من ان يسموا العرب اسيادهم ويعدوا انفسهم من مواليهم ، بل كانوا يعدون طاعتهم وحبهم فرضاً واجباً عليهم ، عملاً بالحديث المأثور : « من ابغض العرب أبغضه الله »(٣) وكثيراً ما كانوا يعترفون بفضلهم عليهم في العقل والحزم وسائر المناقب ، فان عبد الله بن المقفع المنشىء الشهير – وكان عريقاً في النسب الفارسي – ضمه مجلس في بيت بعض كبراء الفرس بالبصرة ، وفيه جماعة من اشراف العرب ، فتصدى هو للكلام

---

١ – ابن الاثير ١٧٨ جـ ٥ .
٢ – الاغاني ١٦٢ ج ١٤ .
٣ – العقد الفريد ٤٢ جـ ٢ .

فسأل بعض الحضور : « اي الامم اعقل ؟ » فظنوه يريد امته فقالوا : « فارس » فقال : « كلا .. لانهم وان ملكوا الارض وضمت دولتهم الخلق لكنهم لم يستنبطوا شيئاً بعقولهم » ، فقالوا : « الروم » ، فقال : « لا » حتى سئموا فقالوا : « قل انت » ، قال : « العرب . واذا فاتني حظي من النسبة اليهم فلا يفوتني حظي من معرفتهم . ان العرب حكمت على غير مثال مثل لها ولا آثار اثرت عليها، اصحاب ابل وغنم وسكان شعر وأدم، يجود احدهم بقوته ويتفضل بمجهوده ، ويشارك ميسوره ومعسوره ، ويصف الشيء بعقله فيكون قدوة ، ويفعله فيصير حجة ، ويحسن ما شاء فيحسن ويقبح ما شاء فيقبح ، ادبتهم انفسهم ورفعتهم هممهم ، وأعلتهم قلوبهم والسنتهم ، فلم يزل حباء الله فيهم وحباؤهم في انفسهم ، حتى رفع لهم الفخر وبلغ بهم اشرف الذكر ، وختم لهم بملكهم الدنيا على الدهر ، وافتتح دينه وخلافته بهم الى الحشر على الخير فيهم ولهم » .

العرب والموالي

فكان العرب يزدادون بأمثال هذه الاقوال افتخاراً على سائر الامم ، وخصوصاً على المسلمين منهم ، فكانوا يترفعون عنهم ويسمونهم الموالي كما تقدم . ومن أقوال أهل العصبية للعرب على العجم: «لو لم يكن منا على المولى عتاقة ولا احسان الا استنقاذنا له من الكفر، واخراجنا له من دار الشرك الى دار الايمان ، كما في الاثر — ان قوما يقادون الى حظوظهم بالسواجير . وكما قال : عجب ربنا من قوم يقادون الى الجنة بالسلاسل . على اننا تعرضنا للقتال فيهم ، فمن اعظم عليك نعمة ممن قتل نفسه لحياتك ؟ . فالله امرنا بقتالكم وفرض علينا جهادكم ورغبنا في مكاتبتكم » .

وكانوا يكرهون ان يصلوا خلف الموالي ، واذا صلوا خلفهم قالوا : اننا نفعل ذلك تواضعاً لله . وكان نافع بن جبير التابعي الشهير اذا مرت به جنازة قال : « من هذا ؟ » ، فاذا قالوا : « قرشي » قال : « واقوماه ! » واذا قالوا : « عربي » قال : « وابلوتاه ! » واذا قالوا : « مولى » قال : « هو مال الله يأخذ ما شاء ويدع ما شاء » (١) . وكانوا يقولون: « لا يقطع الصلاة الا ثلاثة: حمار، او كلب، او مولى». وكانوا لا يكنونهم بالكنى، ولا يدعونهم الا بالاسماء والألقاب ، ولا يمشون في الصف معهم ، ولا يدعونهم يتقدمونهم في المواكب ، وان حضروا طعاماً قاموا على رؤوسهم ، وان اطعموا المولى لسنه وفضله

---

١ — العقد الفريد ٧٣ ج ٢ .

وعلمه اجلسوه في طريق الخباز ، لئلا يخفى على الناظر انه ليس من العرب ، ولا يدعونهم يصلون على الجنائز اذا حضر احد من العرب، — وسيأتي الكلام على احكام الموالي في هذا العصر .

وكان العرب في ايام هذه الدولة يترفعون عن سائر الامم من الموالي واهل الذمة ، ويعدون انفسهم فوقهم جبلةً وخلقة وفضلا ، وكانوا يسمونهم « الحمراء » كما تقدم ، وربما ارادوا بالحمراء الموالي على الخصوص . فكان العربي يعد نفسه سيداً على غير العربي ، ويرى انه خلق للسيادة وذاك للخدمة ولذلك لم يكن العرب يشتغلون في صدر الاسلام الا بالسياسة والحكومة ، وتركوا سائر الاعمال لسواهم وخصوصاً المهن والصناعات . ومن امثالهم « ان الحمق في الحاكة والمعلمين والغزالين » لانها صناعات اهل الذمة [١] وتخاصم عربي ومولى بين يدي عبد الله بن عامر صاحب العراق فقال المولى : « لا كثر الله فينا مثلك » ، فقال العربي : « بل كثر الله فينا مثلك » ، فقيل له : « ايدعو عليك وتدعو له ؟ » ، قال : « نعم ، يكسحون طرقنا ويخرزون خفافنا ويحوكون ثيابنا » [٢].

ولم يكن العرب يعتنون بشيء من العلم غير الشعر والتاريخ، لانه لازم للسيادة والفتح، واما الحساب والكتابة فقد كانت من صناعات الموالي وأهل الذمة ، ولذلك كان العمال في ايام بني امية مع تعصبهم للعرب قلما يولونهم الدواوين ، لانهم كانوا لا يكتبون ولا يحسبون [٣] .

وكان الامويون في ايام معاوية يعدون الموالي اتباعاً وارقاء . فلما تكاثر الموالي ادرك معاوية الخطر من تكاثرهم على دولة العرب ، فهم ان يأمر بقتلهم كلهم او بعضهم . وقبل مباشرة ذلك استشار بعض كبار الامراء من رجال بطانته، وفيهم الاحنف بن قيس وسمرة ابن جندب ، فقال لهما: « اني رأيت هذه الحمراء (يعني الموالي) واراها قد قطعت على السلف، وكأني أنظر الى وثبة منهم على العرب والسلطان ، فرأيت ان اقتل شطراً وادع شطراً لإقامة السوق وعمارة الطريق ، فما ترون ؟ ». فقال الأحنف: « ارى ان نفسي لا تطيب.. أخي لأمي وخالي ومولاي وقد شاركناهم وشاركونا في النسب » ، واما سمرة فأشار بقتلهم وطلب ان يتولى ذلك هو بنفسه ، فرأى معاوية ان الحزم في رأي الأحنف فكف

---

١ — البيان والتبيين ١٠٠ ج ١ . ٢ — العقد الفريد ٧٣ ج ٢ .

٣ — المسعودي ١١٤ ج ٢ .

عنهم . فاعتبر مقدار استخفاف العرب بسواهم ، وكيف يخطر للخليفة ان يقتل شطراً منهم بغير ذنب اقترفوه كأنهم من الأغنام .

وكأن العرب سكروا بخمرة السيادة والنصر ، بارتقائهم من رعاية الابل الى سياسة الممالك في بضعة عشر عاماً ، فتوهموا في فطرتهم ما ليس في سواهم من المناقب والسجايا كما توهم الرومان قبلهم ، وكما يتوهم اهل هذا العصر في بعض الأمم السائدة فيعتقدون امتيازها باصل فطرتها عن سائر الأمم فتوهم العرب في انفسهم الفضل على سائر الأمم .. حتى في ابدانهم وامزجتهم فكانوا يعتقدون انه لا تحمل في سن الستين الا قرشية ، ولا تحمل لخمسين الا عربية كما تقدم، وان الفالج لا يصيب ابدانهم ولا يضرب احداً من ابنائهم الا ان يبذروا بذورهم في الروميات والصقلبيات وما اشبههن فيعرض الفالج لمن يلدنه [١] ولذلك كانوا في ايام بني أمية شديدي العناية في حفظ انسابهم من شوائب العجمة ، ومنعوا غير العرب من المناصب الدينية المهمة كالقضاء ، فقالوا : « لا يصلح للقضاء الا عربي » [٢] وحرموا منصب الخلافة على ابن الأمة ولو كان ابوه قرشياً، وكان ذلك من جملة ما احتج به هشام على يزيد بن علي بن الحسين، اذ قام يطلب الخلافة لنفسه فقال له هشام بن عبدالملك : « بلغني انك تخطب الخلافة ولا تصلح لها لأنك ابن امة » [٣] مع ان امه من بنات ملوك فارس . واول من ولي الخلافة من ابناء الأماء يزيد بن الوليد الأموي سنة ١٠١ هـ ، وكانوا يسمون العربي من ام اعجمية « الهجين » ، ولا يزوجون الأعجمي عربية ولو كان اميراً وكانت هي من احقر القبائل . فان بعض دهاقين الفرس اراد ان يتزوج امرأة من باهلة كانت في بعض قصور الترك فأبت ، مع ان باهلة من احقر قبائل العرب . ولم يكن اثقل على طباعهم من استرقاق العربي [٤] .

وكان فضل العرب على سواهم قضية مسلمة في صدر الاسلام لا تحتاج الى دليل ، فلما بالغ بنو أمية في الاستخفاف بغير العرب وقد ذهبت دهشة النبوة ، اخذ هؤلاء في التذمر ونصروا آل علي والخوارج وغيرهم من اعداء الأمويين ، وهان عليهم الرد على العرب في مفاخراتهم ، فنشأ من ذلك طائفة يعرفون بالشعوبية ، لا يعترفون بفضل العرب على سواهم ، وتصدوا لدفع حجج القائلين بفضل العرب على سائر الشعوب . ولم يكن الشعوبية

---

١ – طبقات الاطباء ١٥٠ ج ١ والاغاني ٨٨ ج ١٥ . ٢ – ابن خلكان ٢٠٥ ج ١ .
٣ – سراج الملوك على هامش مقدمة ابن خلدون ٢٨٨ ٤ – ابن الاثير ٤٤ و ١٣١ ج ٥ .

يستطيعون الظهور في ايام بني أمية [١] فلما افضت الخلافة الى بني العباس وانحط شأن العرب بعد قتال الأمين والمأمون ، ظهروا وألفوا الكتب في مثالب العرب ، كما سيأتي .

آثار بني أمية في الاسلام

فالدولة الأموية كانت شديدة الحرص على منزلة العرب ، كثير العناية في حفظ الأنساب ، فجعلت في كل ديوان من دواوينها سجلا يقيدون فيه من يولد من ابناء العرب المقيمين في البلاد المفتوحة [٢] وهي التي جعلت الاسلام دولة ، وقد كان في ايام الراشدين ديناً ، فصار على عهد الأمويين عصبية وسيفاً ، ثم صار دولة أيدوها بنشر اللغة العربية في المملكة الاسلامية ، بنقل الدواوين من القبطية والرومية والفارسية الى العربية . وبعد ان كانت مصر قبطية والشام رومية والعراق كلدانية او نبطية ، اصبحت هذه البلاد بتوالي الأجيال عربية النزعة وتنوسيت لغاتها الأصلية ، وهي تعد الآن من البلاد العربية . وإذا نزلها التركي او الافرنجي او غيرهما من اي امة كانت وتوالد فيها عد نسله عربيـاً .

وظل العرب في ايام بني امية على بداوتهم وجفائهم . وكان خلفاؤهم يرسلون اولادهم الى البادية لاتقان اللغة واكتساب اساليب البدو وآدابهم [٣] وظل كثير من عادات الجاهلية شائعاً في ايامهم ، كالمفاخرة والمباهلة ومناشدة الأشعار في الأندية العامة ، فكان أشراف اهل الكوفة يخرجون الى ظاهرها يتناشدون الاشعار ويتحادثون ويتذاكرون ايام الناس. وكان خارج البصرة بقعة يقال لها المربد ، يجتمع اليها الناس من البصرة وغيرها يتناشدون الاشعار ويتحادثون [٤] كما كانوا يفعلون في عكاظ . وكان في المربد حلقات للعلماء او الشعراء يجتمع عليهم الطلبة او المريدون ، في جملتها حلقة كانت لراعي الابل والفرزدق وجلسائهما بأعلى المربد [٥] وقس على ذلك ما كان يقع هناك من المفاخرة والمناضلة ، كأنهم رجعوا بعصبيتهم الى ما كانوا عليه قبل الاسلام . ولم يبلغ العرب من العز والسؤدد ما بلغوا اليه في ايام هذه الدولة ، وقد تكاثروا على عهدها وانتشروا في ممالك الارض .

---

١ ـ الاغاني ١٢٥ ج ٤ . ٢ ـ المقريزي ٩٤ ج ١ . ٣ ـ العقد الفريد ٢٥٨ ج ٢ .
٤ ـ الاغاني ١٥٣ ج ١٩ . ٥ ـ الاغاني ١٦٩ ج ٢٠ .

العصبية الوطنية في عصر الامويين

لم يكن للعرب قبل الاسلام جامعة وطنية يجتمعون بها او يدافعون عنها ، لانهم كانوا لا يستقرون في وطن ، لتغلب البداوة على طباعهم وتنقلهم بالغزو والرحلة. فلما اسلموا وفتحوا البلاد ومصروا الامصار وابتنوا المدن واقاموا فيها ، تحضروا ونشأت فيهم الغيرة على تلك المواطن والدفاع عنها والتعصب لها ، وهي ما عبرنا عنه بالعصبية الوطنية .

تحضر العرب بعد الفتح

وقد تدرج العرب الى الحضارة تدريجاً ، ولم يكن ذلك مقصوداً في بادىء الرأي وانما سيقوا اليه بطبيعة العمران ، لانهم كانوا في صدر الاسلام لا يزالون على بداوتهم ، واذا ساروا للفتح ساقوا معهم اولادهم ونساءهم وابلهم وسائمتهم كما كانوا يتغازون في ايام جاهليتهم ، واذا فتحوا بلدا نصبوا خيامهم في ضواحيه والتمسوا المراعي لابلهم وخيلهم. وقد نهاهم عمر عن الزرع ، فكأنه نهاهم عن التحضر رغبة منه في استبقائهم جنداً محارباً ، لا يمنعهم عن الجهاد عقار ولا بناء ، ولا يقعدهم عن القتال ترف ولا قصف . فكانوا يقيمون في معسكراتهم بضواحي المدن كما تقيم جيوش الاحتلال في هذه الايام ، وكانوا يعبرون عن ذلك بالحامية او الرابطة . فكان المسلمون في عصر الراشدين فرقاً تقيم كل فرقة في ضاحية مدينة من المدن الكبرى وتسمى جنداً . وكانت عساكر الشام اربعة اجناد ، تقيم في ضواحي دمشق وحمص والاردن وفلسطين ومنها تسمية هذه الاقاليم بالاجناد . وعساكر العراق كانت تقيم على ضفاف الفرات مما يلي جزيرة العرب ، في معسكرين صارا بعدئذ مدينتين هما : البصرة والكوفة . وكانت جنود مصر تقيم في معسكر على ضفاف النيل في سفح المقطم مما يلي بلاد العرب ، حيث بنيت الفسطاط بعد ذلك .

وكان العرب (او المسلمون) يقيمون في تلك المعسكرات بأولادهم ونسائهم ، لا يختلطون بأهل القرى ، حتى اذا جاء الربيع يسرحون خيولهم للمرعى في القرى ، يسوقها الاتباع من الخدم او العبيد ومعهم طوائف من السادات . فاذا فرغوا من رعاية الخيل عادوا الى خيامهم ، وهم الى ذلك الحين اهل بداوة وغزو ، ومركز دولتهم في المدينة وفيها مقر الخليفة واليها مرجع المسلمين عند الحاجة .

فلما طال مقامهم في تلك المعسكرات ، وأفضت الخلافة الى بني امية ورغبوا في الشام عن الحجاز ، هان على المسلمين اغفال امر المدينة وسائر الحجاز ، وطاب لهم المقام في الشام وسائر الامصار ، واغفلوا وصية عمر فاقتنوا الارض والضياع وغرسوا المغارس، فتحولت تلك المعسكرات بتوالي الاجيال الى مدن عامرة . اشهرها البصرة والكوفة والفسطاط والقيروان من المدن التي بناها المسلمون ، غير المدن القديمة التي استوطنوها في الشام ومصر والعراق وفارس وغيرها . ومـا زالوا حتى اقتنوا المغارس والضياع ، وابتنوا المنازل والقصور ، واشتغلوا بالزرع وتعلموا اشغال اهل المدن من تجارة وصناعة .

تدرجوا الى ذلك في اعوام متطاولة ، لاستغنائهم عن الريع لمعاشهم لانهم كانوا في صدر الاسلام شركاء فيما يرد علـى بيت المال من الفيء او الغنائم من العراق وغيره من البلاد المفتوحة ، ولكل مسلم الحق في ذلك الفيء حيثما كان مقامه . فاهل المدينة مثلا يتمتعون بفيء العراق ، وكذلك اهل الشام . فلمـا بدأوا بالاستيطان في اواخر عصر الراشدين ، واراد اهل كل مصر ان يستقلوا بمصرهم ، كان ذلك مجحفاً بأهل المدينة ، لأن معاشهم من فيء البلاد المفتوحة ، فشكوا ذلك الى الخليفة اذ ذاك عثمان بن عفان، وطالبوه بفيئهم من الأرض بالعراق، فاستبدله لهم من اهل العراق بأرض كانت لهؤلاء في الحجاز او اليمن او غيرهما من بلاد العرب (١) .

تعصب المدن الاسلامية بعضها على بعض

ومما زاد المسلمين ايغالاً في العصبية الوطنية انقسام الأحزاب السياسية يومئذٍ باعتبـار المدن . واول خلاف وقع بين بلدين اسلاميين الخلاف الذي وقع بين الشام والكوفة في ايام عثمان بن عفان (٢) ثم حدث الانقسام الوطني السياسي بعد مقتله ، وكان اساسه الميـل الى احد طلاب الخلافة يومئذ ، وهم علي ومعاوية وطلحة والزبير، فكان اهل الشام مع معاوية لأنه اميرهم ومعظمهم من قريش ، واهل المدينة مع علي وهم الانصار وتبعتهم مصر ، وكان اهل الكوفة مع الزبير ، واهل البصرة مع طلحة . فلما كانت واقعة الجمـل سنة ٣٦ هـ وقتل طلحة والزبير انحاز اهل العراق الى علي فضلاً عن اهل المدينة ومصر ، وظل اهل الشام مع معاوية. ولما كانت واقعة صفين ومسألة التحكيم سنة ٣٧هـ وغلب عمرو بن العاص

---

١ — ابن الاثير ٥٢ ج ٣ وياقوت ٧٨٣ ج ٤ .   ٢ — ابن الاثير ٦٥ ج ٣ .

بكره ، بويع معاوية وتركت مصر لعمرو بن العاص عندما صارت مصر في حوزة معاوية. ولما قتل علي سنة ٤٠ هـ ومات الحسن ثم قام الحسين يطالب بالخلافة بعد موت معاوية وخلافة يزيد ، استعان الحسين بأهل العراق وانتقل اليهم ، فبايع اهل الحجاز لابن الزبير. فأصبح الحجاز مع ابن الزبير والعراق مع الحسين والشام ومصر مع معاوية .

وقس على ذلك انحياز تلك البلاد الى الخلفاء باختلاف الأحوال ، فأصبح لكل بلد بتوالي الاعوام استقلال خاص وعوائد خاصة تميزه عن سواه ، على انها كانت تمتاز بعضها عن بعض في ذلك من ايام معاوية ، فقد سأل معاوية ابن الكواء عن اهل الامصار فقال : «اهل المدينة احرص الأمة على الشر واعجزهم عنه ،واهل الكوفة يردون جميعاً ويصدرون شتى ، واهل مصر اوفى الناس بشر واسرعهم الى الندامة ،واهل الشام اطوع الناس لمرشدهم واعصاهم لمغويهم» .

وكان لأهل كل بلد غرض خاص في السياسة عبرنا عنه في العصبية الوطنية ، وهي غير عصبية النسب ، اذ قد يجتمع اهل البلد الواحد على غرض واحد ويعرفون بجامعة واحدة ، كأهل البصرة والكوفة والشام والفسطاط ، وهم اخلاط من قبائل شتى . فكان لكل بلد في عصر بني أمية جامعة خاصة يجتمع بها ويحارب باسمها . وهو مؤلف من قبائل تختلف نسباً وعصبية ، وفيهم قبائل اليمن ومضر وربيعة وغيرها ، يقيم كل منها في حي خاص بها يعرف باسمها ، فكانت البصرة مثلاً مؤلفة من خمسة اقسام تعرف بالأخماس ، كل خمس لقبيلة ، وهي الأزد وتميم وبكر وعبد القيس واهل العالية . والمراد بأهل العالية بطون قريش وكنانه والأزد وبجيلة وخثعم وقيس عيلان كلها ومزينة [1] وقس على ذلك سائر البلاد .

فاذا تحارب بلدان وقفت كل قبيلة من اهل البلد الواحد امام ما يقابلها من قبيلتها في البلد الآخر . ففي واقعة الجمل كانت الحرب بين البصرة والكوفة ، فلما انتشب القتال تصدت قبائل اليمن البصرية لقبائل اليمن الكوفية ، ونزلت قبائل مضر الى مضر ، وربيعة الى ربيعة . وكذلك في واقعة صفين ، وهي بين اهل الشام وقائدهم معاوية ، واهل العراق وقائدهم علي . فلما التحم القتال سأل علي عن اهل الشام فعرف مواقفهم ، فأخذ يستحث من معه من القبائل على اخوانهم في معسكر عدوه ، فقال للأزد : «اكفونا الأزد» ،

---

١ — ابن الاثير ٣٤ ج ٥ .

وقال لخثعم : « اكفونا خثعم » ، وأمر كل قبيلة معه ان تكفيه اختها في عسكر الشام . الا ان تكون قبيلة ليس لها بالشام احد فيصرفها الى قبيلة اخرى في الشام ليس بالعراق منها احد(١) — فتأمل كيف غلبت الجامعة الوطنية على جامعة النسب ، وانما غلبت لأن الأحوال اقتضتها فرأى الناس فيها ما يسد مطامعهم .

على ان اهل البلد الواحد كانوا يختلفون عدداً ونسباً باختلاف عصبية الامير او الخليفة ، كما تقدم في كلامنا عن عصبية النسب . ويختلف غرض البلد الواحد باختلاف تلك الاحوال مما لا ضابط له ، فتنشب الحروب بين البلدين كما تنشب بين القبيلتين . ومن اشهر حوادث الخلاف بين البلاد في صدر الاسلام خلاف اهل الكوفة والبصرة ومفاخرتهما . ففي أيام علي والخوارج كانت البصرة عثمانية ، والكوفة علوية ، والشام اموية ، والجزيرة خارجية ، والحجاز سنية (٢) وتقلبت هذه الاحوال كثيراً ، واختلفت باختلاف الدول والعصور . فحدث بتوالي التقلبات السياسية تعدد الجامعات : اولها الجامعة العصبية او جامعة النسب بين مضر واليمن ، والثانية جامعة الوطن بين العراق ومصر والشام ، والثالثة جامعة المذهب بين الفرق الاسلامية كالسنة والشيعة والمعتزلة ، وربما اجتمعت كل هذه الفرق في رجلين (٣) .

ومما ساعد على نشوء الجامعة الوطنية ان اهل الحجاز كانوا يجتمعون بالحرمين ويفاخرون المسلمين بهما ، لان الاسلام لا يستغني عنهما وفيهما شيعة علي ولا سيما المدينة . فكان الامويون مع عداوتهم للعلويين لا يرون بدأ من زيارة الحرمين ورعاية اهلها ، فيقف ذلك حجر عثرة في سبيل سلطانهم ، وخصوصاً بعد ان احتمى ابن الزبير بالكعبة واخرج بني أمية واحزابهم من الحجاز ، فلم يستطع الامويون التغلب عليه الا بضرب الكعبة بالمنجنيق. ولهذا السبب خطر للامويين ان ينقلوا منبر النبي من المدينة الى الشام ، ليجمعوا عندهم الدين والسياسة . ولعل الحجاج بنى القبة الخضراء في واسط لمثل هذه الغاية ، كما بنى المنصور في بغداد بعد ذلك قبة خضراء على مسجد بغداد تصغيراً للكعبة (٤) والغرض من ذلك كله تحويل القلوب عن الحجاز وتصغير امر العلويين فلم يجدهم ذلك نفعاً .

---

١ — ابن الاثير ١٢١ و ١٤٩ و ١٧١ ج ٣ . ٢ — العقد الفريد ٢٧٧ ج ٣ .
٣ — ابن خلكان ١٠٠ ج ٢ . ٤ — المسعودي ١٦٦ ج ٢ .

اصطناع الاحزاب في عصر الامويين

سياسة معاوية

ومما احتاج اليه بنو امية في سبيل التغلب لنيل الخلافة اصطناع الرجال واجتذاب الأحزاب ، كما فعل معاوية بن ابي سفيان في اكتساب نصرة عمرو بن العاص وزياد بن ابيه والمغيرة بن شعبة ، اكتسبهم بالدهاء والعطاء ، ثم صار بعد ذلك قاعدة سار عليها بنو امية في تثبيت دعائم ملكهم ، والعلويون ابناء بنت النبي واحفادها ينازعونهم عليه على انه لم يقم في بني امية رجل مثل معاوية في الدهاء والتعقل ، مما يعبر عنه اهل هذا الزمان بالسياسة . واذا قسنا اعمال هذا الرجل بأعمال أعاظم رجال السياسة من اهل هذا العصر وغيره ، لرأيناه يفوق اكثرهم تعقلا وحكمة ودهاء ، وخصوصاً اذا اعتبرنا موقفه بازاء طلاب الخلافة من اهل بيت النبي (صلعم) وابناء عمه وابناء بنته ، والمسلمون يعتقدون حقهم فيها وان معاوية طليق لا تحل له الخلافة [1] وانه لم يعتنق الاسلام الا مكرهاً ، ومع هذا غلب عليهم جميعاً فقبض على ازمة الملك وجعله ارثاً في نسله ، ولم يسفك في سبيل ذلك دماً كثيراً ، وانما كانت عمدته سعة الصدر والدهاء وبذل الاموال .

اما سعة الصدر فانه كان يغضي عن مطاعن اهل البيت عليه ، ولو فعلوا ذلك بين يديه ، وبدلا من ان ينتقم منهم كان يبذل لهم الاموال ويقربهم . فربما دخل عليه الرجل منهم وهو في مجلسه وبين امرائه ، فيطعن فيه ويعرض باختلاسه الملك ويفضل علياً عليه ، فيلين له الجواب ويهبه الاموال فينقلب معه ولو كان من اقرباء علي . ذكروا ان عقيلا أخا علي بن ابي طالب وفد على معاوية وعلي لا يزال حياً ، فرحب به معاوية وسر بوروده لاختياره اياه على اخيه ، واوسعه حلماً واحتمالا ، فقال له معاوية : « كيف تركت علياً ؟ » فقال : « تركته على ما يحب الله ورسوله ، وألفيتك على ما يكره الله ورسوله » فقال معاوية : « لولا انك زائر منتجع جنابنا لرددت عليك جواباً تألم منه » . ثم احب معاوية ان يقطع الحديث مخافة ان يأتي بشيء يسوؤه ، فوثب من مجلسه وامر له ان ينزل واوصل اليه مالاً عظيماً . فلما كان من غد جلس معاوية وبعث الى عقيل وقال له : « كيف تركت علياً اخاك ؟ » . قال : « تركته خيراً لنفسه منك ، وانت خير لي منه » [2] .

---

١ – المسعودي ١٢ ج ٢ . ٢ – المسعودي ٥٤ ج ٢ .

وأخبار معاوية مع صعصعة بن صوحان العبدي ، وغيره من رجال علي ومريديه كثيرة ، تدل على سعة صدر وحلم . فان لم يكفه الحلم عمد الى المخادعة او البذل ، فلا يلتقي به واحد ممن يخاف بطشهم الا رجع راضيا. وقد يأتيه الرجل مستجديا وهو يتعمد خداعه، فينخدع له ويطاوعه ويجيزه. ذكروا ان ابن الزبير –قبل قيامه بالدعوة لنفسه– هرب من عبد الرحمن بن ام الحكم الى معاوية ، وقد احرق عبد الرحمن داره بالكوفة ، فجاء معاوية متظلما وقال له : « ان عبد الرحمن احرق داري » فقال معاوية : « وكم تساوي دارك ؟ » قال : « ١٠٠,٠٠٠ » ، فطلب منه شاهداً فأتاه بشاهد من اصدقائه ، فأمر له معاوية بالمال . فلما انصرف الرجلان قال معاوية لجلسائه : « اي الشيخين عندكم اكذب ؟ والله اني لاعرف داره ، وما هي الا خصائص قصب ، لكنهم يقولون فنسمع ويخادعوننا فننخدع » [١] وكان ذلك وامثاله مما اسكت ابن الزبير وغيره عن القيام لطلب الخلافة في ايامه .

فأين هذا من تدقيق علي في محاسبة عماله، حتى اغضب اكثرهم وخسر نصرتهم، وفي جملتهم ابن عمه عبدالله بن عباس بعد ان كان اكبر نصير له ، فأغضبه من اجل وشاية لا طائل تحتها كما تقدم ؟ على حين ان معاوية كان يهب لعماله الولايات طعمة لهم ، واذا وفد احدهم عليه بالغ في اكرامه والترحيب به ، فكان معاوية بن حديج اذا قدم على معاوية في الشام زينت له الطرق بقباب الريحان تعظيماً لشأنه [٢] .

وكان معاوية يحتمل الطعن والنقد على الخصوص من رؤساء القبائل واهل البيوتات وزعماء الاحزاب ولو اطلقوا ألسنتهم عليه . فالأحنف بن قيس التميمي ، احد السادة التابعين واهل النفوذ ، كان على رأي علي وقد نصره في واقعة صفين . فاتفق أنه وفد على معاوية بعد ان استقر له الأمر بالخلافة فلما دخل عليه قال له معاوية : « والله يا أحنف ما اذكر يوم صفين الا كانت حزازة في قلبي الى يوم القيامة » ، فقال له الأحنف : « والله يا معاوية ان القلوب التي ابغضناك بها لفي صدورنا ، وان السيوف التي قاتلناك بها لفي اغمادها ، وان تدن من الحرب فتراً ندن منها شبراً ، وان تمش اليها نهرول لها » ثم قام وخرج ولم يكلمه معاوية . وكانت اخت معاوية من وراء حجاب تسمع كلامه ، فقالت :

---

١ – الاغاني ٤٨ ج ١٣ . ٢ – ابن الاثير ٢٠٧ ج ٣ .

« يا أمير المؤمنين من هذا الذي يهدد ويتوعد ؟ » . قـال : « هذا الذي اذا غضب غضب لغضبه مائة الف من تميم لا يدرون فيم غضب » [١] .

على ان معاوية كان اذا خاف عدواً لا يقدر عليه بالسيف ولا يستطيع اصطناعه بالمال احتال على قتله غيلة بالسم ، كما فعل بعبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، وكان قـد عظم شأنه عند اهل الشام ومالوا اليه بما عندهم من آثار ابيه ، ولغنائه في بـلاد الروم وشدة بأسه ، فخافه معاوية فأمر ابن الأثال الطبيب ان يحتال في قتله ، وضمن له ان يضع عنه خراجـه مـا عاش وان يوليه خراج حمص . فدس ابن الأثال اليه شربة عسل مسمومة مع بعض مماليكه فشربها ومات [٢] ونجا معاوية منه . وفعل نحو ذلك بالأشتر النخعي مـالك بن الحارث ، وكان من اشد رجال علي بطشاً او هو اشدهم جميعاً ، وقد أبلى معه في صفين بلاء حسناً . فلما اضطربت احوال مصر بدسائس معاوية ، وكانت لا تزال في حوزة علي ، بعث الأشتر والياً عليها ، فعلم معاوية أنه إن وليهـا امتنعت عليه ، فبعث الى المقدم على اهل الخراج في القلزم — وهي في طريق الأشتر لا بد من مروره بها عند قدومه الى مصر وقال له : « ان الأشتر قد ولي مصر ، فان كفيتنيه لم آخذ منك خراجاً مـا بقيت وبقيت » . فخرج حتى أتى القلزم واقام به ، فلما جاء الأشتر استبقاه ذلك الرجل فعرض عليه النزول فنزل عنده ، فأتاه بطعام فلما أكل أتاه بشربة من عسل قد جعل فيه سماً فسقاه اياها ، فلما شربها مات . واخذ معاوية يقول لاهل الشام : « ان علياً قد وجـه الاشتر الى مصر فادعوا الله عليه » . فكانوا يدعون عليه كل يوم ، واقبل الذي سقاه الى معاوية فأخبره بهلك الأشتر ، فقام معاوية خطيباً وقال : « أما بعد فانه كان لعلي يمينان فقطعت احداهما بصفين (يعني عمـار بن ياسر) وقطعت الأخرى اليوم (يعني الأشتر) [٣] فلمـا بلغ خبر الاشتر الى عمرو بن العاص قال : « ان لله جنوداً من العسل » [٤] .

عمرو بن العاص

فكان معاوية واصحابه لا يضيعون فرصة ، ولا يبالون في انفاذ اغراضهم ما يرتكبون من القتل او نحوه . اما علي واصحابه فكانوا لا يحيدون عن مناهج الدين ومقتضى الاريحية ، وكانت اريحيتهم هذه مساعداً كبيراً لفوز معاوية عليهم . ففي واقعة صفين كانت كفة

---

١ — ابن خلكان ٢٣٠ ج ١ .
٢ — ابن الاثير ٢٢٩ ج ٣ .
٣ — ابن الاثير ١٧٩ ج ٢ .
٤ — المقريزي ٣٠٠ ج ١ .

ناصر راجحة لعلي ، ولو تم له ذلك لقضى على معاوية واغراضه ، ودهبت مساعيه ادراج الرياح ، ولذهب أمر بني أمية بذهابه واستتب الامر لعلي واهل بيته . وانما منع من فوز علي دهاء عمرو بن العاص ، لان معاوية لما احتدمت المعركة ، ورأى الضعف في عسكره وايقن الخذلان ، لجأ الى عمرو بن العاص وكان محارباً معه وقال له : « هلم مخبآتك يا ابن العاص فقد هلكنا ، وتذكر ولاية مصر » . فأشار عليه عمرو يومئذ برفع المصاحف وان ينادوا : « كتاب الله بيننا وبينكم ! من لثغور الشام بعد اهل الشام ؟ ومن لثغور العراق بعد اهل العراق ؟ ومن لجهاد الروم والترك ومن للكفار ؟ » فخدع رجال علي بهذه الحيلة وأوقفوا القتال ، ثم اتفقوا على التحكيم وبه اتم ابن العاص حيلته ، فخلع علياً وبايع معاوية . فلولا عمرو بن العاص لفشل معاوية وذهب امره ، ولولا اريحية ابداها علي في تلك المعركة لقتل عمرو قبل تدبير تلك الحيلة ، وذلك ان عمروا كان قد برز للنزال، فبرز له علي فلما التقيا عرفه علي ، فشال السيف ليضربه ويتخلص منه ، فلما أيقن عمرو بالموت كشف عن عورته وقال : « مكره اخوك لا بطل » ، فثارت الاريحية في نفس علي فحول وجهه عنه وقال : « قبحت ! » ونجا عمرو بتلك الحيلة [1] وذهب عمل عمرو هذا مثلاً وفيه يقول الشاعر :

ولا خير في صون الحياة بذلة ‏ ‏ كما صانها يوماً بذلته عمرو

وكذلك كان اصحاب علي من حيث الاريحية والتقوى وصدق اللهجة ، تلك كانت طبيعة الاسلام والمسلمين في ذلك العصر الذهبي ، الا من طمع في الدنيا وانحاز الى معاوية . وكانت هذه المناقب في علي على اقوى احوالها ، ولو تساهل فيها او اغضى عن شيء منها لنجا من شرور كثيرة ، ولذلك قالت قريش : « ان ابن ابي طالب رجل شجاع ولكنه لا رأي له في الحروب » [2] .

فبالدهاء ونحوه تمكن معاوية من نيل الخلافة وتوريثها لابنه ، ثم صارت في بني مروان من أمية ، ولكنه لم يستطع قطع شأفة المقاومين من طلاب الخلافة ، وهم كثيرون اهمهم اولاد علي . على انه كان يسكتهم بالمسالمة والبذل ، وكانوا يهابونه ويسكنون الى سياسته ويتوقعون من الجهة الاخرى رجوع الخلافة اليهم بعد موته .

---

١ – المسعودي ١٩ ج ٢ .   ٢ – الاغاني ١٥ ج ١٥ .

فلما رأوه نقلها الى ابنه يزيد ، ثار المطالبون بالخلافة في الحجاز والعراق وغيرهما ، وكل منهم يزعم انه صاحب الحق فيها . فاجتمع سنة ٦٨ هـ اربعة الوية في عرفات ، كل منها لزعيم يطلب الخلافة لنفسه ، احدها لبني امية ، والآخر للعلويين باسم محمد بن الحنفية ، والثالث لعبد الله بن الزبير ، والرابع لنجدة الحروري من الخوارج . ثم قام غيرهم ولم يفز بالملك الا بنو امية ، للعصبية العربية واصطناع الاحزاب . واليك الاسباب التي ساعدتهم على اصطناع الاحزاب ، غير ما تقدم ذكره من دهاء معاوية وضعف رأي علي في السياسة .

بذل المال في عصر الامويين

العطاء من بيت المال

العطاء من اكبر العوامل التي ساعدت بني امية في اصطناع الرجال وكسر شوكة اعدائهم ، لان العطاء رواتب الجند او رواتب المسلمين ، وكانوا في صدر الاسلام كلهم جندا ، ولكل منهم راتب يختلف باختلاف نسبه من النبي ، أو سابقته في الاسلام ، او غير ذلك مما تراه مفصلا في كلامنا عن الديوان في ايام عمر [١] وترى الرواتب فيه للمسلمين على اختلاف طبقاتهم حتى النساء والاولاد . وأصل هذا العطاء من اموال الفيء ، وهناك طبقة اخرى من المسلمين الذين لا يستطيعون الحرب ، فهم من الفقراء ويأخذون اعطيتهم من اموال الصدقة وهي الزكاة ، ولكل من الصدقة والفيء ديوان خاص وحساب خاص .

فمن قبض على بيت المال قبض على رقاب المسلمين ، فيجدر بهم ان يتقربوا منه أو يتزلفوا اليه . فاذا قبض عليه رجل حكيم مثل معاوية يعرف كيف يعطي ولمن يعطي ، اغناه ذلك عما سواه . فكان معاوية يزيد العطاء أو ينقصه او يقطعه على حسب الاقتضاء ، والغالب ان يبذل الاموال ويضاعف الاعطية حيث يتوسم نفعاً ، وأخوف ما كان يخافه في خلافته قيام العلويين او غيرهم من اهل بيت النبي ينازعونه الخلافة ، فبذل لهم العطاء بسخاء . فبعد ان كان عطاء الحسن والحسين بحسب ديوان عمر ٥٠٠٠ درهم في السنة

١ ـ الجزء الاول من هذا الكتاب .

جعلها معاوية مليون درهم ، اي انه ضاعفها ٢٠٠ مرة ، وأعطى مثل هذا المبلغ ايضاً الى عبد الله بن عباس لانه ابن عم النبي ويخشى منه . وكذلك عبد الله بن جعفر بن ابي طالب ، وغيرهم من كبار ابناء الصحابة اهل النفوذ في الاسلام ممن يقيمون في المدينة . فكان من جهة يتألفهم بالاموال ويشغلهم بالرخاء عن النهوض للمطالبة ، ومن جهة اخرى يتألف بهم اهل المدينة لانهم كانوا ينفقون تلك الاموال في اهلها للتمتع بملاذ الحياة ، ومنهم من كان ينفق عطاءه على المغنين والشعراء . واكثرهم سخاء وبذلا من هذا القبيل عبد الله ابن جعفر ، وهو ابن عم الحسن والحسين ، فانه كان يفد على معاوية في الشام فيدفع اليه عطاءه فيعود الى المدينة فيفرقه في اهلها . وكان معاوية يعلم ذلك فيقربه ويحسن اليه ليستألف أهل المدينة به .

ويقال انه قدم على يزيد بن معاوية بعد توليه الخلافة ، فقال له يزيد : « كم كان عطاؤك ؟ » فقال : « الف الف درهم » ، قال : « قد اضعفناها لك » ، قال : « فداك ابي وامي ، ما قلتها لاحد قبلك » ، قال : « قد اضعفناها لك ثانية » فقيل ليزيد : « اتعطي رجلا واحدا ٤٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم ؟ » فقال : « ويحكم اني اعطيتها اهل المدينة اجمعين ، فما يده فيها الا عارية » [١] .

وقس على ذلك بذل معاوية في تألف القبائل ، فقد كان يفرض للقبائل التي تحارب معه ، ولو بعدت عن نسبه كاليمن مثلاً ، فانه كان يتألفها بالأموال خوفاً من بطشها . وكان يفرض لها ولا يفرض لقيس وهي اقرب اليه ، لانه لم يكن يخاف بأسها ، حتى ان احد رجالها كان يأتي معاوية يطلب منه ان يفرض له فيأبى ، كما فعل بمسكين الدارمي ، فانه طلب من معاوية ان يفرض له فأبى ، فقال شعراً يعاتبه فيه ويذكره بما بينهما من النسب ، ومن ذلك قوله :

أخاك أخاك ان من لا أخا له	كساع الى الهيجا بغير سلاح
وان ابن عم المرء ـ فاعلم ـ جناحه	وهو يقنص البازي بغير جناح ؟
وما طالب الحاجات الا مغرر	وما نال شيئاً طالب كجناح

فلم يعبأ به لأنه انما كان ينظر الى مصلحة نفسه . فاعتزت اليمن واشتد بأسها واستطالت على الدولة ، وتضعضعت قيس وسائر عدنان . فبلغ معاوية ان رجلا من اليمن قال يوماً :

١ ـ العقد الفريد ١١٠ ج ١ .

« لهممت ان لا ادع بالشام احداً من مضر ، بل هممت ان لا احل حبوتي حتى اخرج كل نزاري بالشام » فخاف معاوية بأس اليمنية ، ورأى ان يضربهم بالمضرية ، ففرض من وقته لأربعة آلاف من قيس وغيرها من عدنان ، وبعث الى مسكين يقول له : « لقد فرضنا لك وانت في بلدك ، فاذا شئت ان تقيم بها او عندنا فافعل ، فان عطاءك سيأتيك » . وصار معاوية يغزي اليمن في البحر وقيساً في البر [١] ولولا دهاؤه وحسن اسلوبه لما استطاع التوفق بينهما .

ويقال نحو ذلك في زيادة العطاء للذين شهدوا الوقائع الهامة ونصروا الأمويين، كواقعة صفين فان معاوية زاد عطاء اصحابها [٢] كما فعل عمر فيمن شهدوا القادسية . وسار خلفاء بني أمية على خطوات معاوية ، فأعطوا احزابهم حتى فرضوا الأعطية للشعراء ، التماساً لقطع السنتهم او ليتقربوا الى قلوب الناس . وكان اهل التقوى يرون ذلك مجحفاً بحقوق بيت المال ، ويعترضون على اعطاء الناس من مال الفيء فانه مال الله او مال المسلمين . وكان ذلك من جملة ما غير اصحاب علي على معاوية يوم صفين [٣] فلما تولى عمر بن عبد العزيز وسار على نهج الخلفاء الراشدين منع العطاء عن الشعراء ، فلما مات عادوا الى ما كانوا عليه .

وكانوا يفرضون لأي من جاءهم ، ولو كان اعرابياً ، حتى كان اهل البادية كثيراً ما يبيعون ابلهم ويأوون الى المدن يطلبون الفرض لهم . ومع ذلك فأهل الأنفة منهم كانوا يدركون ما وراء ذلك من استعباد النفوس ، لغرض يعتقدون أنه ضد الحق ، وأنه تأييد لدعوة القائمين على اهل البيت فتعافه نفوسهم . يحكى ان امرأة جيها الأشجعي من اهل البادية حرضت زوجها على الذهاب الى المدينة ليبيع ابله ويفترض في العطاء، فأطاعها وساق ابله حتى اذا دنا من المدينة شرعها بحوض ليسقيها ، فحنت ناقة منها ثم نزعت ، وتبعها الابل ، وطلبها ففاتته فقال لزوجته : « هذه الابل لا تعقل وتحن الى اوطانها » ثم قال شعراً :

قالت أنيسة : دع بلادك والتمس ... داراً بطيبة ربة الآطام
تكتب عيالك في العطاء وتفترض ... وكذاك يفعل حازم الأقوام
فهممت ثم ذكرت ليل لقاحنا ... بذوي عنيزة او بقف بشام

١ – الاغاني ٦٩ ج ١٨ . ٢ – المسعودي ١٥٧ ج ٢ ٣ – ابن الاثير ١٥٠ ج ٣ .

اذ هن عن حسبي مداود كلما | نزل الظـــلام بعصبة اغنــام
ان المدينة لا مدينــة فالزمي | حقف السناد وقبة الأرحـــام
يجلب لك اللبن الغريض وينتزع | بالعيس عـــن يمن اليك وشام
وتجـاوري النفر الذين بنبلهم | أرمي العـدو واذا نهضت مرام
الباذلين اذا طلبت بـــلادهم | والمانعي ظهري من الغـــرام (١)

ومن اقوال عبد الملك بن مروان : « انعم الناس عيشاً من له مـا يكفيه ، وزوجـة ترضيه ، ولا يعرف ابوابنا الخبيثة فنؤذيه » (٢) .

وكان هم بني أمية اهل المدينــة ، لأنهم شيعة علي وفيهم الأنصار ونخبـة القرشيين ، فكان عامل بني أمية فيها اذا اجتمع اليه مـال الصدقة من الأطراف اقرض من اراد من قريش منه ، وكتب بذلك صكاً عليه فيستعبدهم به ويختلفون اليه ويدارونه . فاذا غضب على احد منهم استخرج المال منه ، وما زال هذا شأنهم الى ايام الرشيد ، فكلمـه عبد الله بن مصعب في صكوك بقيت من ذلك فحرقت (٣) .

وكانوا اذا عصاهم احد من المسلمين قطعوا عطاءه ، ولو كان العاصون بلداً برمتها ، كما فعل الوليد لما ثار عليه زيد بن علي ، فقطع عطاء اهل الحرمين جميعاً (٤) وحرم الوليـــد آل حزم من العطاء ، لأن قتلة عثمان دخلوا اليه من دارهم في المدينة ، وقبض اموالهـم وضياعهم ، وظلوا كذلك الى ايام المنصورة فأفرج عنهم (٥) وكثيراً ما كان الأنصار يكثون بلا عطاء (٦) ولا ذنب لهم الا انهم ينصرون اهل البيت. وقطع عبدالملك بن مروان اعطية آل سفيان ، مع انهم أمويون مثله ، وانما فعل ذلك لموجدة وجدها على خـالد بن يزيد بن معاوية (٧) .

فلا غرو اذا اضطر الناس الى مسايرتهم والاذعان لهم ، وهم يعلمون انهم يخالفون الحق باذعانهم ، وقد يصرحون بذلك فيما بينهم . كما حدث لما نصب معاوية ابنه يزيد لولاية العهد ، فأقعده في قبة حمراء واقبل الناس يسلمون على معاوية بالخلافة ، ثم على ابنه يزيد

---

١ – الاغاني ١٤١ ج ١٦ .
٢ – ابن الاثير ١٨٣ ج ١٠ .
٣ – الاغاني ١٠٥ ج ١٣ .
٤ – الاغاني ١١١ ج ٦ .
٥ – العقد الفريد ٤١ ج ٣ .
٦ – الاغاني ٦٢ ج ١٠ .
٧ – العقد الفريد ١٣٢ ج ١ .

بولاية العهد ، حتى جاء رجل منهم فسلم على الاثنين، ثم رجع الى معاوية فقال : « يا أمير المؤمنين ، إعلم انك لو لم تول هذا امور المسلمين لاضعتها». وكان الاحنف بن قيس التميمي حاضراً، فقال له معاوية : «ما بالك لا تقول يا ابا بحر ؟ » فقال: « اخاف الله اذا كذبت، واخافكم اذا صدقت » فقال معاوية : « جزاك الله على الطاعة خيراً » ، وأمر له بمال. فلما خرج لقيه ذلك الرجل فقال له : « يا ابا بحر ، اني لاعلم أن شر من خلق الله هذا وابنه، ولكنهم استوثقوا من هذه الاموال بالابواب والاقفال ، فليس يطمع في استخراجها الا بما سمعت » [١] .

تدقيق علي وبخل ابن الزبير

ومما ساعد الامويين على اصطناع الرجال بالاموال، ان مناظريهم أهل البيت وعبد الله ابن الزبير كانوا قليلي العطاء ، اما عن امساك او عن ورع ، حتى قالوا : « وما رؤي في الناس ابخل من اهل البيت ، ولا من عبدالله بن الزبير » [٢] وكثيراً ما كان امساكهم سبباً في فشلهم وانحياز الناس الى بني امية ، فان امثلة ذلك ان مصقلة بن هبيرة الشيباني كان عاملا لعلي على ازدشيرخره ، فرأى اسرى كان بعض رجال لعلي قد اسرهم ، فاشتراهم منه شفقة عليهم. وهم ٥٠٠ انسان بخمسمائة الف، وأطلق سراحهم . فطالبه علي بالمال ، فأدى نحو النصف وطمع في الباقي ، فألح عليه اصحاب علي فقال مصقلة : « أما والله لو كان ابن هند (يعني معاوية) ما طالبني بها ، ولو كان ابن عفان لوهبها لي » ، فقالوا : « ان علياً لا يترك شيئاً » ، فهرب مصقلة من ليلته ولحق بمعاوية [٣] .

ومن امثلة بخل ابن الزبير الذي افسد عليه الامر ، ان اخاه مصعباً لما قتل المختار بن أبي عبيد في العراق ، وأخضع العراق لاخيه ، وقد ساعده على ذلك وجوه اهل العراق ، فجاء بهم حتى اتى اخاه في مكة وكان لائذا بالكعبة وقال له : «يا امير المؤمنين ، جئتك بوجوه اهل العراق لم أدع لهم بها نظيراً لتعطيهم من هذا المال » فقال عبد الله : « جئتني بعبيد اهل العراق لاعطيهم مال الله ؟ والله لا فعلت » . فلما علموا ذلك وسمعوا منه جفاء انصرفوا من عنده وكاتبوا عبد الملك بن مروان وغدروا بمصعب [٤] وكان ذلك سبباً في ذهاب دولة ابن الزبير .

---

١ – ابن خلكان ٢٣٠ ج ١ . ٢ – الاغاني ١٠٥ ج ١٣ .
٣ – ابن الاثير ١٨٨ ج ٣ . ٤ – العقد الفريد ١١٩ ج ١ .

وقس على ذلك بخل العلويين في فرض العطاء ، الا لاهل التقوى او من في معناهم . على حين ان بني امية كانوا يفرضون للرجل ولأهله وأولاده ، فقد فرض عبد الملك لعامر الشعبي (وما هو من رجال الحرب) الفين في العطـاء ، وجعل عشرين من ولده وأهل بيته في الفين الفين من اجل حديث حدثه اياه [١] وكانوا يفرضون للشعراء اعطية معينة يقبضونها في اوقاتها غير الجوائز ، فمنهم من عطاؤه الفان او اكثر او اقل . واذا مدحوهم زادوا اعطيتهم ترغيباً لهم في مدحهم ، وكذلك كان يفعل عمالهم في سائر انحاء المملكة الاموية . واهل التقى من الخلفاء لا يرون للشعراء حقاً في بيت المال[٢] فعمر بن عبدالعزيز كان اذا احرجه شاعر ولم ير مناصاً منه اعطاه من ماله الخاص [٣] .

على ان غير الاتقياء منهم كانوا يقطعون عطاء الشاعر اذا حاد عما يريدونه ، كما فعل عبد الملك بن مروان بابن قيس الرقيات لما مدحه ، فقال له عبد الملك : « والله لا تأخذ مع المسلمين عطاء » [٤] وكان عمر بن الخطاب يحرض القراء على التماس الرزق من عند انفسهم والا يكونوا عالة على الناس [٥] فكيف بالشعراء !

الاستكثار من الاموال في عصر الامويين

وبذل الاموال لاصطناع الاحزاب جر بني امية الى خرق كثير من القواعد التي وضعها الخلفاء الراشدون لاقتضاء الاموال وانفاقها . فقد كانت الاموال التي ترد على بيت المال تعد ملكاً للمسلمين ، وليس الخليفة او عامله الا حافظاً لها ، لينفقها في مصالحهم وتدبير شؤونهم ، وله منها راتب معين يتناوله مثل سائر المسلمين ، وقد رأيت ان ابا بكر توفي وليس في بيت ماله غير دينـار ، وان عمر كان اذا احتاج الى المال فوق راتبه استقرضه من بيت المال حتى يؤديه من عطائه . وكان عمر يرى انه لا ينبغي ان يبقى في بيت المال شيء ، ونهى عن اختزان المال ، وقد اشرنا الى غرابة هذا الرأي في الجزء الثاني من هذا الكتاب . ونهى عمر ايضاً عن الزرع ، وحرم على المسلمين اقتناء الضياع ، لان ارزاقهم وارزاق عيالهم تدفع من بيت المال . اراد بذلك ان يبقوا جنداً على اهبة الرحيل ، وان

---

١ – الاغاني ١٧١ ج ٩ . ٢ – الاغاني ٩٩ ج ١٠ .
٣ – الاغاني ١١٨ ج ١٧ . ٤ – الفرج بعد الشدة ١٢٣ ج ٢ والاغاني ١٥٩ ج ٤ .
٥ – العقد الفريد ٢٣٦ ج ١ .

تبقى البلاد التي فتحوها فيئاً يؤخذ من خراجها وجزية اهلها للانفاق على المسلمين. ووضعوا لكل من الخراج والجزية والصدقة احكاماً لجمعها وتفريقها على مقتضى الشرع [١] .

عمال بني امية

فلما اضطر بنو امية الى اصطناع الرجال وجمع الاحزاب واسترضاء القبائل وبنـــاء المدن ، اغضوا عن كثير من تلك الاحكام وتوفقوا الى عمال اشداء لا يبالون بالدين ولا احكامه في سبيل اغراضهم ، مثل زياد بن ابيه عامل معاوية ، وعبيد الله بن زياد عامل ابنه يزيد ، والحجاج بن يوسف عامل عبد الملك بن مروان ، وخالد القسري عامل هشام ابن عبد الملك وغيرهم . فكان الخلفاء يكتبون الى عمالهم بجمع الاموال وحشدها ، والعمال لا يبالون كيف يجمعونها. فقد كتب معاوية الى زياد يقول: «اصطف لي الصفراء والبيضاء» فكتب زياد الى عماله بذلك وأوصاهم ان يوافوه بالمـال ولا يقسموا بين المسلمين ذهباً ولا فضة [٢] وكان العمال من الجهة الاخرى يختصون انفسهم بجانب من تلك الاموال وليس ثمة من يحاسبهم ، وقد اطلق الخلفاء ايديهم في الاعمال ترغيباً لهم في البقاء على ولائهم ، فكان العمال يختزنون لانفسهم الاموال الطائلة ، حتى بلغت غلة أحدهم عشرة ملايين درهم في السنة وزادت ثروته على مائة مليون درهم [٣] وزادت نفقاتهم زيادة فاحشة ، ولم يعد عندهم لراتب العمالة قيمة ، حتى كتب امية بن عبد الله الى عبد الملك بن مروان يقول : « ان خراج خراسان لا يفي بمطبخي » [٤] فلما رأى الخلفـــاء استئثار العمال بالاموال عمدوا الى مصادرتهم ، فكانوا اذا علموا بمال عند احدهم انفذوا اليه من يقبض امواله ويتولى العمل مكانه ، والكل طامعون في الكسب لانفسهم .

وكان العمال لا يرون حرجاً في ابـــتزاز الاموال من اهل البلاد التي فتحوها عنوة ، لاعتقادهم انها فيء لهم كما تقدم. وكقول عامل بني امية في العراق: « السواد بستان قريش ما شئنا اخذنا منه وما شئنا تركناه » . وقد سأل صاحب اخنا بمصر عمرو بن العاص ان يخبره بما عليه من الجزية فأجابه : « لو اعطيتني من الارض الى السقف ما اخبرتك بمـــا عليك ، انما انتم خزانة لنا ، ان كثر علينا كثرنا عليكم ، وان خفف خففنا عنكم » [٥] ومن قال ذلك يعد مصر فتحت عنوة . وقال غيره : « الصغد بستان امير المؤمنين » .

---

١ – الجزء الاول من هذا الكتاب . ٢ – العقد الفريد ١٨ ج ١ وابن الاثير ٢٣٧ ج ٣ .
٣ – الاغاني ٦٢ ج ١٩ وابن خلكان ٣٦١ ج ٢ . ٤ – الاغاني ٥٦ ج ١٣ .
٥ – المقريزي ٧٧ ج ١ .

الاسلام والجزية

فكان العمال يبذلون الجهد في جمع الاموال بأية وسيلة كانت، مصادرها الجزية والخراج والزكاة والصدقة والعشور . وأهمهـــا في اول الاسلام الجزية لكثرة اهل الذمة ، فكان عمال بني امية يشددون في تحصيلها ، فأخذ اهل الذمة يدخلون في الاسلام ، فـلم يكن ذلك لينجيهم منها ، لان العمال عدوا اسلامهم حيـــلة للفرار من الجزية وليس رغبة في الاسلام ، فطالبوهم بالجزية بعـــد اسلامهم . وأول من فعل ذلك الحجاج بن يوسف (١) واقتدى به غيره من عمال بني امية في افريقية وخراسان وما وراء النهر ، فارتد الناس عن الاسلام وهم يودون البقـــاء فيه ، وخصوصاً اهل خراسان وما وراء النهر ، فانهم ظلوا الى اواخر ايام بني امية لا يمنعهم عن الاسلام الا ظلم العمال بطلب الجزية منهم بعـد اسلامهم ، فبعث اليهم رجلا اسمه ابو الصيداء فقال الرجل : « اخرج اليهم على شريطة ان من اسلم لا تؤخذ منه الجزية » فقال اشرس : « نعم » فشخص الى سمرقند ودعا اهلها الى الاسلام على ان توضع الجزية عنهم . فسارع الناس الى الاسلام وقل الخراج. فكتب عاملها الى اشرس : « ان الخراج قد انكسر » ، فأجابه : « ان في الخراج قوة للمسلمين ، وقـد بلغني ان اهل الصغد وأشباههم لم يسلموا رغبة في الاسلام، وانما اسلموا تعوذا من الجزية ، فانظر من اختتن وأقام الفرائض وقرأ سورة من القرآن فارفع خراجه » ففعل النـــاس ذلك وبنوا المساجد ، وكتب العمال بذلك الى اشرس فأجابهم : « خذوا الخراج ممن كنتم تأخذونه » فأعادوا الجزية على من اسلم ، فامتنعوا واعتزلوا في سبعة آلاف على عـــدة فراسخ من سمرقند ، وكانت بسبب ذلك فتنة ارتد عن الاسلام بسببها اهل الصغد وبخارا واستجاش الترك . وما زالوا كذلك حتى تولى خراسان نصر بن سيار وقد عرف موضع الخطأ ، فأعلن سنة ١٢١ هـ انه وضع الجزية عمن اسلم، وجعلها على من كان يخفف عنه من المشركين ، فلم يمض اسبوع حتى اتاه ٣٠٫٠٠٠ مسلم كانوا يؤدون الجزية (٢).

ناهيك بما كان يرتكبه بنو امية من زيادة الخراج وضرب الضرائب (٣) والاستئثار بالفيء . ولم يقم من خلفائهم من نهى عن ذلك الا عمر بن عبد العزيز ، فانه لم ينفق من بيت المال درهماً على نفسه ولا أخذ منه شيئاً (٤) وأمر أهله بذلك فلم يلق سامعاً . وهو الذي كتب الى عماله لما ولي الخلافة : « ضعوا الجزية عمن اسلم ، ان الله بعث محمداً هادياً

---

١ — راجع الجزء الاول من هذا الكتاب . ٢ — ابن الاثير ٢٦١ ج ٤ و ٦٨ و ١٠١ ج ٥ .
٣ — الجزء الثاني من هذا الكتاب . ٤ — العقد الفريد ٢٦٢ ج ٢ .

ولم يبعثه جابيا » ولم تطل مدة حكمه [١] واراد يزيد بن الوليد ان يتشبه به فتبعه . وكان في جملة ضرائبهم ان يأخذ الخليفة لنفسه نصف دية المعاهد، فأبطلها عمر بن عبد العزيز [٢].

الصدقة والرشوة

واضطر الامويون للاستكثار من الاموال ان يمدوا ايديهم الى اموال الصدقة ، وهي الزكاة تؤخذ من اغنياء المسلمين وتنفق في فقرائهم ، خلافاً لسائر اموال الدولة كالفيء والغنيمة والجزية فانها تفرق في المقاتلة والجند . فكان بنو امية كثيراً ما يعطون جوائز الشعراء ونحوهم من اموال الصدقة[٣] وحقها ان تعطى من مال الخليفة الخاص ، او من مال الفيء ونحوه باعتبار ان تلك الجائزة مما ينفع المسلمين في تأييد دولتهم . او لعل الخليفة اعتبر الشعراء من فقراء المسلمين فأعطاهم من الصدقة ، وهو خلاف المألوف لأنه انما اجازهم لانهم مدحوه فعليه ان يجيزهم من ماله الخاص . وكانوا ايضاً كثيراً ما يعطون ارزاق المسلمين من مال الصدقة ، والمحاربون يستنكفون من ذلك ويعدونه حطة في مقامهم ، كما اتفق لاهل المدينة وقد جاءهم الخليفة عبد الملك حاجاً وأمر للناس بالعطاء ، فخرجت البدر مكتوب عليها « الصدقة » فأبى اهل المدينة قبولها ، وعدوا ذلك اهانة لهم تعمدها عبد الملك ، لان اهل المدينة من انصار اهل البيت وقالوا : « انما عطاؤنا من الفيء » فضرب عبد الملك مثلاً كشف لهم به عما بينه وبينهم من التضاغن من عهد مقتل عثمان ويوم الحرة .

وكانوا كثيراً ما يعمدون اذا اعوزهم المال الى بيع الولايات بالرشوة ، وخصوصاً في ايام ضعفهم وفساد دولتهم . فان الوليد بن يزيد لما تولى الخلافة زاد اعطيات الناس ترغيباً لهم في طاعته ، فلم يجد مالا يكفيه ، ولم يكن عنده من العمال الاشداء من يوافيه بالاموال حالا ، فكان من جملة ما استعان به على جمع الاموال انه باع ولاية خراسان واعمالها ليوسف بن عمر ، وصارت الولايات في ايامه بالرشى للخليفة واصحابه[٤] وكانت الولايات تعطى في ايام اسلافه جزاء على خدمة ، كما اعطى معاوية عمرو بن العاص مصر مكافأة لنصرته على علي ، فاقتدى به خلفاؤه . فكانوا اذا التمس احدهم الاحزاب اطمع رؤساءها بالولايات ، وصار ذلك مشهوراً حتى اصبح الامير اذا دعي لنصرة احد الخلفاء

---

١ — المقريزي ٧٨ ج ١ . ٢ — الاغاني ١٣ ج ١٥ .

٣ — الاغاني ١٥٦ ج ١١ . ٢ — ابن الاثير ١٢٥ و ١٢٦ و ١٣٢ ج ٥ .

اشترط مالا او ولاية معينة . ومما يحكى ان عبد الملك بن مروان ، في اثناء محاربته مصعب بن الزبير في العراق ، بعث الى اهل الكوفة والبصرة يدعوهم الى نفسه ويمنيهم ، فأجابوه وشرطوا عليه شروطاً وسألوه الولايات . ومن غريب الاتفاق ان اربعين رجلا منهم سألوه ولاية اصبهان ، فقال عبد الملك لمن حضره : « ويحكم ! ما اصبهان هذه ؟ » تعجباً ممن يطلبها(١) .

الاستخفاف بالدين وأهله

لما طلب الامويون الخلافة لانفسهم ، وهم يعلمون ان اهل البيت أحق بها منهم ، وان حجة اهل البيت في طلبها مبنية على اساس صحيح ، كان اكثر الفقهاء والعلماء وسائر رجال الدين يرون رأيهم ويؤيدون دعوتهم ، ولكن العصبية كانت مع الامويين ، والقوة غالبة . اما الفقهاء وسائر اهل التقوى فكانوا لا ينفكون عند سنوح الفرصة عن تفضيل اهل البيت ، وتذكير الامويين بما يرتكبونه في سبيل التغلب من الظلم والقسوة والتعدي ، ويعظونهم ويذكرونهم بتقوى الله . وكان معاوية لحلمه ودهائه يغضي عن اقوالهم ،ويقطع السنتهم بالعطاء والمحاسنة والحلم . فتعودوا ذلك وبالغوا فيه ، حتى اذا افضت الخلافة الى عبد الملك بن مروان عمد الى الشدة والعنف ، فحج سنة ٧٥ هـ بعد مقتل ابن الزبير ، ولما جاء المدينة وفيها انصار البيت خطب فيها خطاباً قال فيه :

« اما بعد فاني لست بالخليفة المستضعف (يعني عثمان) ولا بالخليفة المداهن (يعني معاوية) ولا بالخليفة المأفون (يعني يزيد) . ألا واني لا اداوي هذه الامة إلا بالسيف حتى تستقيم لي قناتكم . وانكم تحفظون اعمال المهاجرين الاولين ولا تعملون مثل اعمالهم . وانكم تأمروننا بتقوى الله وتنسون ذلك من انفسكم . والله لا يأمرني احد بتقوى الله بعد مقامي هذا إلا ضربت عنقه » . فهو اول من نهى عن المعروف(٢) فعظم ذلك على اعداء بني امية حتى تحسروا على ايام معاوية ، وقالوا قول ابن الزبير فيه لما جاءه نعيه : « رحم الله معاوية ، انا كنا لنخدعه فيتخادع لنا » .

---

١ – الاغاني ١٦٢ ج ١٧ . ٢ – ابن الاثير ١٩٠ و ٢٥١ ج ٤ .

استهانة بعض الامويين بالمقدسات

اما عبد الملك فكان يرى الشدة ويجاهر بطلب التغلب بالقوة والعنف ، ولو خالف احكام الدين . وقد يتبادر الى الذهن انه فعل ذلك اقتداء بعامله ونصيره ومؤيد دولته الحجاج بن يوسف ، ولا نظنه مقتديا بذلك لأنه صرح باستهانة الدين منذ ولي الخلافة ، وكان قبلها يتظاهر بالتدين فلما تولاها استهوته الدنيا . ذكروا انه لما جاءوه بخبر الخلافة كان قاعداً والمصحف في حجره فاطبقه وقال : « هذا آخر العهد بك » او « هذا فراق بيني وبينك »[١] فلا غرو بعد ذلك اذا اباح لعامله الحجاج ان يضرب الكعبة بالمنجنيق وان يقتل ابن الزبير ويحتز رأسه بيده داخل مسجد الكعبة[٢] والكعبة حرم لا يجوز القتال فيها ولا في جوارها ، فاحلوه وظلوا يقتلون الناس فيها ثلاثا ، وهدموا الكعبة ، واوقدوا النيران بين احجارها واستارها[٣] مما لم يحدث مثله في الاسلام ، ودخلوا المدينة وهي احد الحرمين وقاتلوا اهلها وسفكوا دماءهم ، لم يغلق لها باب الا احرق ما فيه ، حتى ان الاقباط والانباط كانوا يدخلون على نساء قريش فينزعون خمرهن من رؤوسهن وخلاخلهن من ارجلهن ، بسيوفهم على عواتقهم والقرآن تحت ارجلهن[٤] .

ناهيك بمن قتلوه من الصحابة والتابعين واهل التقوى صبراً ، وانما ارادوا بذلك تحقير امر علي وشيعته تأييداً لسلطانهم . ولهذا السبب ايضاً لعنوه على المنابر ، وامروا الناس بلعنه وقتلوا من لم يلعنه . واول من قتل صبرا في هذا السبيل حجر بن عدي الكندي في ايام معاوية[٥] وظلوا يلعنون علياً على المنابر الى ايام عمر بن عبد العزيز فأبطل ذلك .

الخلافة والنبوة في رأي بعض العمال

وفق بنو امية الى عمال اشداء زادوهم استبداداً وشدة ، بما توخوه من تمليقهم بالتعظيم والتغرير مما يخالف احكام الدين . واول من تجرأ على ذلك الحجاج بن يوسف عامل عبد الملك ، فانه سمى الخليفة « خليفة الله » ، وعظم امر الخلافة حتى فضلها على النبوة فكان يقول : « ما قامت السموات والارض إلا بالخلافة ، وان الخليفة عند الله افضل من

---

١ — ابو الفداء ٢٠٥ ج ١ وسراج الملوك ٩٦ . ٢ — العقد الفريد ٢٥٦ ج ٢ .
٣ — ابن الاثير ٣٦ ج ٥ . ٤ — ابن خلكان ٢٧٤ ج ٢ .
٥ — المسعودي ٣٩ ج ٢ .

الملائكة المقربين والانبياء والمرسلين ، لان الله خلق آدم بيده واسجد له الملائكة واسكنه جنته ثم اهبطه الى الارض وجعله خليفة ، وجعل الملائكة رسلاً » . واذا حاجه احد في ذلك قال : « اخليفة احدكم في اهله اكرم عليه ام رسوله في حاجته ؟ » . وكان عبد الملك اذا سمع ذلك اعجب به[١] واقتدى بالحجاج من جاء بعده من العمال الاشداء كخالد القسري عامل هشام بن عبد الملك فقد كان يقول قول الحجاج ، وخطب الناس في مكة مرة فقال : « ايها الناس ، ايهما أعظم ، اخليفة الرجل على اهله ام رسوله اليهم؟ » يعرض ان هشاماً خير من النبي[٢] واقتدى بالعمال سائر المملقين من وجوه الدولة ، وفيهم جماعة كبيرة انما اسلموا رغبة في الدنيا فزادوا الامور فساداً. وكانوا يملقون العمال من هذا القبيل ويجرئونهم على خرق حرمة الدين : ذكروا ان خالد القسري كان قليل العناية في حفظ القرآن ، فاذا تلا آية اخطأ فيها والحن في نطقها ، فوقف مرة للخطابة فقال واخطأ ، ثم ارتج عليه وفشل ، فنهض صديق له من تغلب فقال : « خفض عليك ايها الامير ولا يهولنك ، فما رأيت قط عاقلا حفظ القرآن ، وانما يحفظه الحمقى من الرجال » فقال خالد: « صدقت ، يرحمك الله ! »[٣] .

فلا غرو بعد ذلك اذا قيل لنا ان الوليد بن يزيد ، سكير بني مروان ، رمى القرآن بالنشاب وهو في مجونه وسكره . فقد ذكروا انه عاد ذات ليلة بمصحف فلما فتحه وافق ورقة فيها (واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد ، من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد) فأمر بالمصحف فعلقوه واخذ القوس والنبل وجعل يرميه حتى مزقه ثم قال :

اتوعد كل جبار عنيد ؟	فها انا ذاك جبار عنيد !
اذا لاقيت ربك يوم حشر	فقل لله : مزقني الوليد ! [٤]

فلم يكن يهم بني امية نشر الاسلام ، وانما كان همهم الفتح والتغلب وحشد الاموال ، فتوقف نشر الاسلام على عهدهم في الاطراف البعيدة كالسند وتركستان مع رغبة اهلها فيه ، وانما نفرهم منه شدة بني امية وجشعهم ، فكانوا يسلمون ثم يرتدون تبعاً لما يرونه من المعاملة الحسنة او السيئة. فلما تولى عمر بن عبد العزيز التقي الورع ، وسار على خطوات

---

١ – العقد الفريد ١٨ ج ٣ والمسعودي ١٠٤ ج ٢ .
٢ – ابن الاثير ٢٥٧ ج ٤ و ١٣٠ ج ٥ والاغاني ٦٠ ج ١٩ .
٣ – الاغاني ٦٣ ج ١٩ .
٤ – الاغاني ١٢٥ ج ٦ والمسعودي ١٣٤ ج ٢ .

سميه ابن الخطاب ، كتب الى ملوك السند وغيرهم يدعوهم الى الاسلام على ان يملكهم بلادهم ، ولهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، وكانت سيرته قد بلغتهم فأسلموا وتسموا بأسماء العرب . فلما قتل عمر المذكور سنة ١٠١ هـ وعاد بنو امية الى سابق سيرتهم ارتد اولئك عن الاسلام [١] .

وقس على ذلك ما ارتكبه الامويون من قتل ابناء علي وصلبهم والمثلة بهم ، غير من قتلوه من التابعين وأهل الصلاح صبرا ، واكثرهم اقداماً على ذلك عاملهم الحجاج بن يوسف .

الفتك والبطش في عصر الامويين

كان المسلمون في ايام الراشدين يرون الطاعة للامام واجبة ، لا يحتاجون في سياسة شؤونهم الى حيلة او عنف ، ولا يحيدون عن الحق في اعمالهم او اقوالهم . اذا اذنب احدهم اعترف بذنبه وأذعن لما يفرضه الخليفة عليه من القصاص ونحوه ، فلم تكن الاحكام تحتاج الى بحث او نقض او حيلة ، ولا تنفيذها يفتقر الى شدة او عنف . وربما اقتصر القصاص على التوبيخ او اللوم ، واذا اخطأ الخليفة حكم على نفسه كما يحكم على رعيته . ولم يكن عندهم سجن يحبس فيه الناس ، وأول من وضع السجن معاوية ، وهو ايضاً وضع الحرس [٢] لقلة الحاجة الى ذلك في عصر الراشدين ، فكان عمر بن الخطاب يأمر القائد من كبار الصحابة ان يأتيه فيأتي صاغراً ، مع علمه انه لو امتنع عن المجيء لعجز الخليفة عن استقدامه . وقد يأمر بجلد الرجل منهم فيذعن مطيعاً . وكان عمر لا يتغاضى عن الذنب الصغير خوفاً من الذنب الكبير ، ولذلك اشتهر بالحزم والصرامة .

فلما تولى الخلافة معاوية ، وسلم الاعمال الى دهاته في العراق وفارس ومصر وغيرها ، والمسلمون لا يزالون في اريحيتهم وأنفتهم ، وقد اطلق معاوية السنتهم بحلمه وسعة صدره ، خاف العمال ان يجر ذلك الى استفحال الامر فعمدوا الى الشدة . وأول من توخى الشدة والعنف زياد بن ابيه عامل معاوية على العراق ، زعم انه يفعل ذلك اقتداء بعمر بن الخطاب في اقامة السياسات بالصرامة والحزم ، ولكنه اسرف وتجاوز الحد . وهو اول من شدد

---

١ — ابن الاثير ٢٧٣ ج ٤ و ٥٦ ج ٥ . ٢ — المقريزي ١٨٧ ج ٢ .

...ر السلطة واكد الملك لمعاوية ، فجرد سيفه وأخذ بالظنة وعاقب على الشبهة [1] وتولى العراق بعده ابنه عبيد الله بن زياد في خلافة يزيد بن معاوية ، وفي ايامه قام الحسين بن علي يطالب بالخلافة ، وقد نقض بيعة يزيد وحمل على العراق ، فكتب يزيد الى ابن زياد : « احبس على التهمة ، وخذ بالظنة ، غير ان لا تقتل الا من قاتلك » [2] .

ولما افضت ولاية العراق الى الحجاج بن يوسف في خلافة عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٦ هـ) وقد كثر المطالبون بالخلافة ، اراد الحجاج ان يتشبه بزياد وابنه في الشدة والعنف ، فبالغ في ذلك حتى اهلك ودمر [3] ولم يكن الحجاج اشد وطأة من زياد او ابنه ، ولكن زياداً كان يزجره حلم معاوية ، وابن زياد يزجره امر يزيد ان لا يقاتل الا من قاتله . واما الحجاج فقد اعانته شدة عبد الملك على المبالغة في الشدة ، فاكبر المسلمون ذلك ونقموا على تلك الدولة ، وكثر الخارجون عليها واتهموا خلفاءها بالمروق من الدين . ومن اقوال الخوارج فيهم : « ان بني امية فرقة بطشهم بطش جبارين : يأخذون بالظنة ، ويقضون بالهوى ، ويقتلون على الغضب » [4] .

بسر بن ارطاة وقتل الاطفال

على ان سياسة بني امية كانت من اول امرها مبنية على الشدة والحزم ، على ما تقتضيه سياسة الممالك في ذلك العصر ، ثم تجاوزوا الحدود ولم يبالوا بالفتك والقتل في سبيل تأييد دعوتهم والتغلب على اعدائهم . فكانوا يطلقون ايدي عمالهم في الاحكام ، يقتلون ويصلبون على ما يتراءى لهم بدون مشورة الخليفة ، مع ان ذلك لم يكن جائزاً في ايام الراشدين ، لأن الخليفة منهم كان وهو مقيم في المدينة يدير شؤون الرعايا في اطراف المملكة ، وهذا الذي اراد عمر بن عبد العزيز ان يرجع اليه في ايام خلافته فلم يفسح له الاجل [5] فلما مات كتب خليفته يزيد بن عبد الملك الى عماله ان يعودوا الى ما كانوا عليه قبلا من الشدة والبطش [6] .

فكان الخلفاء من بني امية يرون في اطلاق ايدي عمالهم او قوادهم تشجيعاً لهم وتنفيذاً لأغراضهم. وربما حرضهم الخليفة على الفتك عند الحاجة حتى في ايام معاوية ، فانه ارسل

---

١ - ابن الاثير ٢٢٨ ج ٣ . ٢ - ابن الاثير ١٨ ج ٤ .
٣ - ابن خلكان ١٢٤ ج ١ والبيان للجاحظ ١٧٥ ج ١ والعقد الفريد ٣ ج ٣ .
٤ - البيان والتبيين ١٩٥ ج ١ .
٥ - ابن الاثير ٢٩ ج ٥ . ٦ - العقد الفريد ٢٦٥ ج ٢ .

بسر بن أرطاة بعد تحكيم الحكمين وعلي بن ابي طالب يومئذ حي، وأرسل معه جيشاً ويقال انه اوصاهم ان يسيروا في الارض ويقتلوا كل من وجدوه من شيعة علي، ولا يكفوا ايديهم عن النساء والصبيان . فسار بسر على وجهه حتى انتهى الى المدينة ، فقتل فيها اناساً من اصحاب علي وهدم دورهم ، ومضى الى مكة وغيرها يقتل ويهدم ، حتى أتى اليمن وعليها عبيد الله بن عباس عامل علي وابن عمه ، وكان غائباً فراراً من القتل، فوجد بسر ابنين له صبيين اسماهما عبد الرحمن وقثم ، فأخذهما وذبحهما بيده بمدية كانت معه[1]. وذكروا ان الغلامين كانا عند رجل من كنانة بالبادية ، فلما اراد بسر قتلهما قال الكناني : تقتل هذين ولا ذنب لهما ؟ فان كنت قاتلهما فاقتلني معهما » فقتله وقتلهما معه ، فصاحت امرأة من كنانة : « يا هذا قتلت الرجال فعلام تقتل هذين » والله ما كانوا يقتلون في الجاهلية ولا الاسلام ، والله يا ابن ارطأة ان سلطاناً لا يقوم الا بقتل الصبي الصغير والشيخ الكبير ونزع الرحمة وعقوق الارحام لسلطان سوء » . وقالت ام الصبيين شعرا في رثائهما كانت تنشده في المواسم مطلعه .

يا من أحس بابني اللذين هما   كالدرتين تشظى عنهما الصدف

على أننا لا نظن معاوية كان راضياً عن ذلك العمل الفظيع ، لأنه يخالف دهاءه وحلمه، ونظنه اطلق يد بسر ولم يعين له حدوداً ، وكان بسر سفاكاً للدماء فلم يستثن طفلا ولا شيخاً . ويؤيد ذلك ما أراد فعله بأولاد زياد بن ابيه بعد موت علي ، اذ خاف معاوية زياداً وكان عامله على فارس فأمر بسر ان يستقدمه اليه ، فأمسك بسر اولاد زياد وكتب اليه : « اما تأتي حالاً او اقتل اولادك » ، فلما بلغ معاوية ذلك منع بسراً من قتلهم[2] .

فاذا كان هذا حال العمال في ايام معاوية مع حلمه وطول اناته ، فكيف في ايام عبد الملك مع شدته وفتكه . فهل يستغرب ما يقال عن فتك الحجاج وكثرة من قتلهم صبرا ولو كانوا ١٢٠٫٠٠٠ وهل يستبعد ان يكون في حبسه عند موته ٥٠٫٠٠٠ رجل و ٣٠٫٠٠٠ امرأة ؟[3] وكان عبد الملك اشد وطأة منه وأجرأ على الغدر والفتك ، بل هو اول من غدر في الاسلام بعد ان اعطى الأمان - وذلك ان عمر بن سعيد الأشدق احد امراء عبد الملك طمع في الملك لنفسه ، فاغتنم خروج عبد الملك من دمشق سنة ٦٩ هـ

١ - الاغاني ٤٤ ج ١٥ .   ٢ - ابن الاثير ١٩٥ و ٢١١ ج ٣ .
٣ - المسعودي ١١٣ ج ٢ والكشكول ٣٢ .

لحرب مصعب ابن الزبير في العراق ، وجاء الى الشام ووضع يده عليها . فبلغ عبدالملك ذلك وهو في الطريق ، فرجع حالاً الى دمشق وقاتل عمر أياما فلم يقدر عليه ، فخاف على سلطانه فاحتال في عقد الصلح فرضي عمرو وكتبا بينهما كتاباً فيه أمان عبد الملك له . فاطمأن خاطر عمرو المذكور ، وخرج الى الخليفة حتى اوطأ فرسه اطناب عبد الملك ، ثم دخل عليه فاجتمعا ودخل عبد الملك دمشق .

وبعد دخوله بأربعة ايام ارسل الى عمرو فأجابه انه آت العشية ، واتاه في مئة من مواليه ، ودخل على عبد الملك وعنده جماعة من بني مروان ، وقد بقي مواليه خارجاً . فاستقبله عبد الملك حتى اجلسه معه على السرير وجعل يحادثه ، ثم أمر احد الغلمان ان يأخذ سيفه وقال له : « اتطمع ان تجلس معي متقلداً سيفك ؟ » فأعطاه السيف . ثم قال عبد الملك : « يا ابا امية (عمرو) انك حينما خلعتني آليت بيمين ان انا ملأت عيني منك وانا مالك لك ان اجعلك في جامعة » فقال الحضور من بني مروان : « ثم تطلقه يا امير المؤمنين ؟ » ، قال : « نعم ، وما عسيت ان افعل بأبي أمية ؟ » . فقال بنو مروان لعمرو : « أبر قسم امير المؤمنين » ، فقال قد ابر الله قسمك يا امير المؤمنين » . فأخرج عبد الملك من تحت فراشه جامعة وقال : « يا غلام قم فاجمعه فيها » ، فقام الغلام فجمعه فيها فقال عمرو : « اذكرك الله يا امير المؤمنين ان تخرجني فيهـــا على رؤوس الناس » ؟ فقال : « أمكر يا ابا امية عند الموت ؟ لا والله ما كنا لنخرجك في جامعة على رؤوس الناس » . ثم جذبه فوقع واصاب فمه السرير فكسر ثنيته ، فقال عمرو « اذكر الله يا امير المؤمنين ، كسر عظم مني فلا تركب ما هو اعظم من ذلك » ، فقــال عبد الملك : « والله لو اعلم انك تبقي علي لو ابقيت عليك وتصلح قريش لاطلقتك ، ولكن ما اجتمع رجلان في بلدة قط على ما نحن عليه الا اخرج احدهما صاحبه » . فلما رأى انه يريد قتله قال : « اغدر يا ابن الزرقاء ؟ » ثم قتله عبد الملك[١] .

وترى مما دار بينهما ان الذي جر عبد الملك الى هذا الغدر كثرة الطامعين في السلطة ، ولا رادع لهم من عنـــد انفسهم كما كانوا في عصر الدين والتقوى ، فأصبح القوي يأ كل الضعيف ومن سبق الى قتل صاحبه ملك ، وهي سياسة الفتك . وقد نفعتهم هذه السياسة في تأييد سلطانهم ، ثم صارت سنة فيمن ملك بعـدهم من بني العباس وغيرهم . وآخر حادثة جرت من هـــذا القبيل فتك محمد علي باشا بالمماليك ، وقد عمد بنو امية الى ذلك استعجالاً للنصر وتخلصاً من اسباب النزاع ، فاذا خرج عليهم خارج جعــلوا

---

١ - ابن الاثير ١٤٦ ج ٤ .

همهم قتله ، لعلمهم انه اذا قتل تفرق اصحابـه ، واذا لم يتفرقوا استرضوهم بالاموال او نحوها .

خزانة الرؤوس

وكانوا يقتلون الخارجين عليهم ويمثلون بقتلاهم ارهاباً لاحزابهم ،فيقطعون راس الرجل ويطوفون به من بلد الى بلد او يصلبون الجثة حيث تزدحم الاقدام — كانوا يفعلون ذلك على الخصوص برؤساء الاحزاب ولا سيما العلويين ، فكان العامل الاموي يقتل الخارج على الدولة ويبعث برأسه الى الخليفة في الشام ليطاف به في الاسواق . وأول رأس حمل من بلد الى بلد رأس عمر بن الحمق الخزاعي (١) احد قتلة عثمان ، وأول رأس طيف به في الاسواق رأس محمد بن ابي بكر (٢) واول رأس حمل الى الخلفاء رأسا هانيء وابن عقيل من اشياع الحسين في الكوفة ، ثم رأس الحسين بن علي ، ارسله ابن زياد من الكوفة الى يزيد بن معاوية في الشام ، وكذلك فعـل المختار برؤوس قتلة الحسين ، فانه ارسلها الى محمد بن الحنفية (٣) . وهكذا فعل الحجاج برأس عبد الله بن الزبير ورؤوس اصحابه، فانه ارسلها من مكة الى عبد الملك بن مروان في الشام. وكذلك فعل عبد الملك برأس مصعب ابن الزبير ، فانه سيره من الكوفة الى الشام فنصب فيها (٤)

ومن غريب ما يحكى انهم لما جاءوا الى عبـد الملك برأس مصعب بن الزبير ، وهو جالس في طاق بالكوفة ،كان ابن عمير اللخمي حاضراً عنده،فلما رأى الرأس بين يدي عبد الملك ارتعد . فقال له عبد الملك : « مالك ؟ » ، قال : « اعيذ بالله امير المؤمنين ! كنت في هذا الطاق بهذا الموضع مع عبيد الله بن زياد فرأيت رأس الحسين بن عـلي بين يديه في هذا المكان ، ثم كنت مع المختار بن ابي عبيد الثقفي فرأيت رأس عبيد الله بن زياد بين يديه ، ثم كنت فيه مع مصعب بن الزبير هذا فرأيت فيه رأس المختار بين يديه ، ثم هذا رأس مصعب بن الزبير بين يديك ! » فتشاءم عبد الملك من ذلك ، وقـام فأمر بهدم ذلك الطاق (٥) .

---

١ — المعارف ١٨٧ وطبعة القاهرة ١٩٣٥ ص ٢٤١ .
٢ — العقد الفريد ٣٩ ج ١ .   ٣ — ابن الاثير ١١٩ ج ٤ .
٤ — ابن الاثير ١٦٢ ج ٤ .   ٥ — ابن خلكان ٢٨٦ ج ١ .

وصار قطع الرؤوس على هذه الصورة سنة في عصر بني امية ومن جاء بعدهم من بني العباس ، وصار للرؤوس في دار الخلافة خزانة يحفظونها فيها: كل رأس في سفط خاص[١] وجرت العادة ايضاً بصلب الجثث أو الرؤوس . لكنهم لم يكونوا ينصبون الا رؤوس الخوارج[٢] ويطوفون بها على رمح ، وكان بنو امية يعدون العلويين خوارج ، فكانوا اذا قتلوا احدهم صلبوه .

ومن هذا القبيل تشديدهم في العذاب قبل القتل ، ولعل ذلك من مخترعات الحجاج لارهاب اعدائه واخضاعهم بالعنف . فمن ضروب التعذيب انه كان يأتي بالقصب الفارسي فيشقه ويشده على الرجل وهو عار ، ثم يسله قصبة قصبة حتى يقطع جسده ، ثم يصب عليه الخل والملح حتى يموت[٣] فعل ذلك ببعض الذين حاربوه مع ابن الاشعث ارهاباً لسواهم . وكان الخوارج ايضاً يفعلون نحو ذلك بمن ظفروا به من اعدائهم ، حتى لقد يضعون الأطفال في القدور وهي تفور[٤] اما اشتفاء أو انتقاماً أو ارهاباً .

الموالي واحكامهم في عصر الامويين

تكاثر الموالي

أفضت الخلافة الى الامويين في اواسط القرن الأول للهجرة ، وعدد الموالي آخذ في الزيادة بموالاة الفتح وتكاثر الرقيق بالاسر او الاهداء . لأن العمال كثيراً ما كانوا يبعثون بمئات او الوف من الرقيق الابيض والاسود الى بلاط الخليفة هدية او بدلا من الخراج او نحوه[٥] والخليفة يفرق ذلك في اهل بطانته او قواده ، وهؤلاء يفرقونه فيمن حولهم او يبيعونه فينتقل الى النــــاس على اختلاف طبقاتهم ، فمن انجب من اولئك الارقاء او اعتق لسبب من الاسباب صار مولى ، وذلك كثير وعادي يومئذ – غير الذين كانوا يدخلون في الولاء بالعقد وغيره . فتزايد عـــدد الموالي في عصر الامويين زيادة عظيمة ، وصاروا يتقربون من مواليهم بما يحتاجون اليه من شؤونهم ،فاستخدمهم العرب في مصالحهم الصناعية

١ – الفخري ٢٤٨ ج ٢ . ٢ – العقد الفريد ٢٧٢ ج ٢ .
٣ – المعارف ١١٥ . ٤ – المسعودي ١٢٣ ج ٢ .
٥ – المسعودي ٣٠٤ ج ٢ .

او الزراعية او الدينية او العلمية ، واشتغلوا هم بالرياسة والسياسة ، ولذلك كان اكثر القراء والشعراء والمغنين والكتاب والحجاب من الموالي .

وقد يثري المولى فيبتاع العبيـــد ويعتقهم فيصيرون من مواليه ، وهؤلاء اذا استطاع احدهم او بعض اولاده اقتناء العبيد واعتاقهم صاروا مواليه ، وهكذا حتى يتفق احياناً ان يكون الرجل مولى مولى ، او مولى مولى مولى او اكثر - فعبد الله بن وهب الفقيه المالكي الشهير كان مولى يزيد بن رمانة ، وهذا مولى يزيد بن انس الفهري . وكذلك حماد ابن سامة ، والليث بن سعد ، وابو اسامة وغيرهم . وكان ابن مناذر الشاعر مولى سليمان القهرمان ، وسليمان مولى عبيد الله بن ابي بكرة ، وعبيد الله من موالي النبي (صلعم) [١]. وأغرب من ذلك ان عبيد الله هذا ادعى انه عربي من ثقيف ، وادعى سليمان القهرمان انه عربي من تميم ، وادعى ابن مناذر انه عربي من بني جبير بن يربوع ، فيكون ابن مناذر مولى مولى مولى ، ودعيا لمولى لمولى ، دعي مولى دعي . وقد بلغت نسبة الولاء عندهم الى خمس درجات ، فداود بن خالد بن دينار واخوته من اهل الحديث ، وكلهم من موالي آل حنين ، وآل حنين موالي مثقب ، ومثقب مولى مسحل ، ومسحل مولى شماس ، وشماس مولى العباس بن عبد المطلب [٢] فهو مولى مولى مولى مولى . وقس على ذلك ، مما يدل على تكاثر الموالي في ذلـــك العصر ، وفيهم الفارسي والفرغاني والتركي والديلمي والخراساني والرومي والبربري والسندي وغيرهم ، يشتغلون بما يحتاج اليه العرب من المهن والصناعات والآداب .

ناهيك بالموالي المحاربين ، فقد كان في كل قبيلة من العرب عدد كبير منهم ، ربما زاد على عددها ، فاذا خرجت للحرب خرجوا معها ، وحاربوا في سبيل نصرتها . واختلف عدد الموالي بالنسبة الى مواليهم باختلاف الأعصر ، ففي أيام علي كانت نسبة الموالي الاحرار ممن يخرجون الى الحرب كنسبة واحد الى خمسة [٣] ثم تكاثر الموالي في عصر الامويين حتى زاد عددهم على عدد الاحرار. وبنو امية مع ذلك يحتقرونهم ويضطهدونهم ، وهم يصبرون على ذلك او يفرون من سلطانهم الى اطراف المملكة . وممن فر من جور بني امية ميمون جد ابراهيم الموصلي المغني المشهور [٤] .

---

١ - الاغاني ٩ ج ١٧ .　　٢ - المعارف ١٩٧ .

٣ - ابن الاثير ١٧٣ ج ٣ .　　٤ - الاغاني ٢ ج ٥ .

نقمة الموالي على العرب

فلما تكاثر الموالي ورأوا ما كان فيه الامويون من التعصب للعرب على سواهم — ولا سيما الموالي ، حتى كانوا يستخدمونهم في الحروب مشاة ولا يعطونهم عطاء ولا شيئاً من الغنائم او الفيء — عظم ذلك عليهم ، ورأوا في نفوسهم قوة فنفرت قلوبهم من بني امية ، وأصبحوا عوناً لكل من خلع الطاعة او طلب الخلافة من العلويين او الخوارج فكل من قام لمحاربة الأمويين استعان عليهم بالموالي والعبيد ، وهم الفئــــة المظلومة . وأشهر من حاربهم بالموالي والعبيد المختار بن ابي عبيد الذي قام في العراق للمطالبة بدم الحسين سنة ٦٦ هـ ثم طلب الخلافة لمحمد بن الحنفية — فالمختار المذكور اطمع موالي العراق في الغنيمة وأركبهم على الدواب ، وكانوا ناقمـــين على اسيادهم ومواليهم لسوء معاملتهم ، فجاءوه متطوعين وجاءه عدد كبير من اباق العبيد وفيهم من ترك الاسلام غيظاً من بني امية . فكان عدد الموالي في جند المختار اضعاف عدد الاحرار [١] وقد ابلوا في الحرب معه اكثر من بلاء الاحرار ، لنقمتهم على اسيادهم . ولذلك كان اكثر القتـــلى في تلك الحرب من الموالي ، فقد بلغ عدد قتلاهم في معركة سنة ٦٧ هـ ٦٠٠٠ ، ليس فيهم من العرب الاحرار الا ٧٠٠ ، وسائرهم من الموالي [٢] وفاز المختار بالانتقام للحسين فوزاً حسناً وقتل قتلته . ولما رأى وجهاء الكوفة انتصار المختار بمواليهم وعبيدهم بعثوا اليه يقولون: «انك آذيتنا بموالينا، فحملتهم على الدواب وأعطيتهم فيئنا » فأجابهم: « ان أنا تركت مواليكم،وجعلت فيئكم لكم ، تقاتلون معي بني امية وابن الزبير ، وتعطونني على الوفاء عهد الله وميثاقه وما اطمئن اليه من الايمان ؟ » فلم يرضوا . والمختار اول من جنـــد الموالي وفاز بهم ، فجرأهم ذلك على الدولة واستخفوا بهـــا ونصروا اعداءها ، وأصبح الخلفاء العقلاء يسترضونهم بالعطاء ونحوه . وأول من فرض لهم العطاء من بني امية معاوية ، فانه جعل لكل واحد ١٥ درهماً ، فعبد الملك جعلها ٢٠ ، ثم ابلغها سليمان الى ٢٥ وجعلها هشام ٣٠ [٣] على ان ذلك الفرض قلما كان يعطى لهم ، لأن العمال كانوا يستخدمونهم غالباً بلا عطاء ولا رزق [٤] .

---

١ — ابن الاثير ١٢١ ج ٤ . ٢ — ابن الاثير ١٣٦ ج ٤ .
٣ — العقد الفريد ٢٤٩ ج ٢ . ٤ — ابن الاثير ٢٤ ج ٥ .

والمولى اذا آنس من مولاه رضاء ومحاسنة استهلك في نصرته ، وكان لسيده ثقة فيه حتى خلفاء بني امية فقد كانوا يقربون جماعة من مواليهم ، يعهدون اليهم بمهامهم ويرفعون منزلتهم ويستشيرونهم في امورهم ، والموالي يخلصون لهم ويستميتون في الدفاع عنهم ، كما كان موالي بني هاشم يستميتون في نصرة مواليهم ، وكانت تقوم المفاخرات بين الحزبين، وأشهرها مفاخرات سديف وسياب وقد تقدم ذكرها .

وقد يكون المولى من اصل رفيع ، أو يرتقي الى اعلى المراتب حتى في ايام بني امية رغم اضطهادهم وتعصبهم عليهم ، واعظم موالي العراق وأشهرهم فيروز مولى اهل الخشخاش ، فانه ولى الولايات وخرج مع ابن الاشعث على الحجاج ، فقال الحجاج : « من جاءني برأس فيروز فله عشرة آلاف درهم » فقال فيروز : « من جاءني برأس الحجاج فله ١٠٠٠٠٠ درهم » . فلما غلب ابن الاشعث هرب فيروز الى خراسان ، فقبض عليه ابن المهلب هناك وبعث به الى الحجاج فقتله بعد ان عذبه بسل القصب المشقوق على جسمه[١]

زواج الموالي بالعربيات

على ان الموالي في ايام بني أمية كانوا على الاجمال اعداء الدولة ، يقومون عليها مع القائمين انتقاماً لما كانوا يقاسونه من الاحتقار والجور من عصبية العرب على العجم ، فازداد الأمويون تحقيراً لهم . فبعد ان قال النبي : « مولى القوم منهم » منعوا زواجهم بالعربيات، كما كان الفرس يمنعون زواج العرب ببناتهم قبل الاسلام[٢] فاذا تجرأ مولى على الزواج بعربية وبلغ أمره الى الوالي طلقها منه ، كما حدث لأعراب بني سليم في الروحاء ، فأنهم جاءوا الروحاء فخطب اليهم بعض مواليها احدى بناتهم فزوجوه ، فوشى بعضهم الى والي المدينة بذلك ، ففرق الوالي بين الزوجين وضرب المولى مائتي سوط وحلق رأسه ولحيته وحاجبيه ، فقال محمد بن بشير الخارجي في ذلك بعد مدح عمل الوالي واسمه ابو الوليد :

حمى حدبا لحوم بنات قوم ... وهم تحت التراب ابو الوليد
وفي المثنين للمولى نكال ... وفي سلب الحواجب والخدود
اذا كافأتهم ببنات كسرى ... فهل يجد الموالي من مزيد؟
فأي الحق أنصف للموالي ... من اصهار العبيد الى العبيد؟[٣]

---

١ – المعارف ١١٥ . ٢ – المسعودي ١٩٦ ج ١ . ٣ – الاغاني ١٥٠ ج ١٤ .

وكثيراً ما كانوا يفعلون مثل ذلك بالموالي ، ولو كانوا من اهل المنزلة الرفيعة او اهل العلم والتقوى ، فان عبدالله بن عون من كرام التابعين ولكنه كان مولى ، فتزوج عربية فضربه بلال بن أبي بردة بالسياط[١] .

على ان ذلك المنع كان شائعاً قبل الاسلام ، وظل العرب يستنكفون منه رغم ما كان من نص الحديث المذكور وغيره . فسلمان الفارسي نصر المسلمين في حروبهم فى ايام النبي، وله فضل كبير في الاسلام ، فخطب الى عمر بن الخطاب ابنته فوعده بها لأنه لم ير في زواجه بها بأساً ، اما ابنه عبدالله فلما بلغه ذلك غضب وشكاه الى عمرو بن العاص فقال له : « هنيئاً لك يا ابا عبدالله ، ان امير المؤمنين يتواضع لله عز وجل في تزويجك بابنته » فغضب سلمان وقال : « لا والله لا تزوجت اليه ابداً » [٢]

فتزويج المولى بالعربية بالغ الامويون في تقبيحه تعصباً للعرب على سواهم ، وهو عندهم اقبح من زواج العربي بغير العربية . ولكن ذلك لم يكن محرماً في الدين ولا اعتبره اهل التقوى ، فعلي بن الحسين بن علي المعروف بزين العابدين – وهو احد الائمة الاثني عشر ومن سادات التابعين – كانت امه سلامة بنت يزدجرد آخر ملوك الفرس ، فلما توفي ابوه زوجها بثريد مولى ابيه واعتق جارية له وتزوجها ، فكتب اليه عبد الملك ابن مروان يعيره بذلك . فكتب اليه زين العابدين : « لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة ، وقد اعتق رسول الله صفية بنت حيي بن اخطب وتزوجها، واعتق زيد بن حارثة وزوجه بنت عمته زينب بنت جحش » .

فالاسلام يرفع منزلة المولى ، واما الامويون فرأوا تحقيره باعتبار انه غير عربي، وشاع ذلك في ايامهم واصبح الناس يعيرون بمصاهرة الموالي . ومن اشعارهم في رجل من بني عبد القيس بالبحرين زوج ابنته من احد الموالي قول ابي بجير يؤنب آل عبد القيس لتزويجهم الموالي ومنهم الزارع والتاجر قال :

أمن قلة صرتم الى ان قبلتم	دعارة زراع وآخر تاجر ؟
واصهب رومي واسود فاحم	وابيض جعد من سراة الاحامر
شكولهم شتى وكل نسيبكم	لقد جئتم في الناس احدى المناكر
متى قال اني منكم فمصدق	وان كان زنجياً غليظ المشافر

١ – المعارف ١٦٧ . ٢ – العقد الفريد ٢ ١٣٢ ج ٣ .

اكلهم وافي النساء جدوده | وكلهم اوفى بصدق المعاذر
وكلهم قد كان في اوليـة | له نسبة معروفة في العشائر
على علمكم ان سوف ينكح فيكم | فجدعا ورغما للانوف الصواغر
فهـلا اتيتم عفة وتكرما | وهلا وجلتم من مقالة شاعر ؟
تعيبون امراً ظاهراً في بناتكم | وفخركم قد جاز كل مفاخر
متى شاء منكم مغرماً كان جده | عمارة عبس خير تلك العمائر
وحصن بن بدر او زرارة دارم | وزبان زبان الرئيس بن جابر
فقدصرت لا ادري وان كنت ناسيا | لعل تجارا من هلال بن عامر
وعل رجال الترك من آل مذحج | وعل تميا عصبة من يحامر
وعل رجال العجم من آل عالج | وعل البوادي بدلت بالحواضر
زعمتم بأن الهند اولاد خندف | وبينكم قربى وبـين البرابر
وديلم من نسل ابن ضبة باسل | وبرجان من اولاد عمرو بن عامر
بنو الاصفر الاملاك اكرم منكم | واولى بقربان ملوك الاكاسر
أأطمع في صهري دعيا مجاهرا | ولم تر شرا من دعي مجاهر ؟
ويشتم لؤما عرضه وعشيره | ويمدح جهلا طاهرا وابن طاهر[١]

وغرس هذا الاعتقاد في اذهان الناس حتى ان الموالي انفسهم كانوا يستنكفون من تزويج المولى بالعربية . ذكروا ان ابنا لنصيب المغني الشهير – وهو مولى – احب بنت مولاه وكان مولاه قد مات ، فخطبها من اخيه فاجابه الى طلبه ، فعرف نصيب بذلك فجمع وجوه الحي فلما حضروا اقبل نصيب الى اخي مولاه وقال له : « ازوجت ابني هذا من ابنة اخيك ؟ » قال : « نعم » فقال نصيب لعبيد له سود : « خذوا برجل ابني هذا فجروه فاضربوه ضرباً مبرحاً » ففعلوا ، ثم قـال لأخي مولاه : « لولا اني اكره اذك لألحقتك به » . ثم نظر الى شاب من اشراف الحي فزوجه الفتاة ، وانفق على العقد من جيبه[٢] .

ومع ذلك فالمولى لم يكن يخطب امرأة لنفسه ولا يزوج ابنته لرجـل ما لم يستشر مولاه ، فاذا احب رجل ان يخطب فتاة من بنات الموالي لا يذهب الى ابيها ولا الى اخيها

---

١ – العقد الفريد ٢٣٢ ج ٣ .   ٢ – الاغاني ١٣٦ ج ١ .

وانما يخطبها من مواليها ، فان رضي ,ـلاها زوجت وإلا فلا . وان زوجها الاب او الاخ بغير رأي مواليه فسخ النكاح ، وان كان قد دخل بها عد ذلك سفاحاً[١] .

وجملة القول ان تعصب بني اميـــه للعرب جرهم الى تحقير غير العرب وخصو ـاً الموالي ، فنقم هؤلاء عليهم وكانوا اكبر المساعدين في اخراج الدولة من ايديهم .

اهل الذمة واحكامهم في عصر الامويين

عهود اهل الذمة في اول الاسلام

الذمة في اللغة العهد والامان والضمان ، واهل الذمة هم المستوطنون في بلاد الاسلام من غير المسلمين . قيل لهم ذلـــك لأنهم دفعوا الجزية فأمنوا على ارواحهم واعراضهم واموالهم ، واكثرهم من النصارى واليهود ، وقد دعاهم القرآن « اهل الكتاب » نسبة الى الكتاب المقدس التوراة والانجيل ، وقـــد اثنى عليهم واوصى بهم خيرا . وفي الحديث النبوي اقوال كثيرة بمحاسنة اهل الذمة ،وخصوصاً قبط مصر ،فقد رووا عن النبي(صلعم) انه قال : « اذا افتتحتم مصر فاستوصوا بالقبط خيراً ، فان لهم ذمة ورحما » اشارة الى ان ام اسماعيل ابى العرب منهم ، وقال : « الله الله في اهل الذمة ، اهل المدرة السوداء ، السحم الجعاد ، فان لهم نسباً وصهراً » .

وكان الخلفاء الراشدون اذا انفذوا جيشاً للفتح اوصوا قوادهم باهل الذمة خيراً ، ولا سيما النصارى ورهبانهم . واذا جاءهم اهل المدن بالصلح صالحوهم وعاهدوهم على الحماية ، في مقابل ما يؤدونه من الجزية عن رؤوسهم . ويختلف مقدار الجزية ونوعهـــا باختلاف الاحوال ، وعلى مقتضى التراضي بين المسلمين واهـــل الكتاب ، ولكل شروط تختلف باختلاف البلاد ، ولكنها في كل حال تقضي على المسلمين بحماية اهل الذمة والدفاع عنهم. فاذا امتنعوا عن اداء الجزية امتنع المسلمون عن حمايتهم ، واذا عرض للمسلمين مـــا يمنع حمايتهم جاز لأهل الذمة الامساك عن الدفع[٢].

وفي تاريخ الفتوح عهود كثيرة كتبت لأهل الذمة ، عاهدهم المسلمون فيها بحمايتهم وتسهيل اعمالهم ، في مقابل ما يؤدونه من الجزية ، ككتاب النبي (صلعم) الى صاحب

---

١ ـ العقد الفريد ٧٣ ج ٢ . ٢ ـ الجزء الاول من هذا الكتاب .

ايلة (في العقبة) والى اهل اذرح في اثناء غزوة تبوك في السنة التاسعة للهجرة وهاك كتاب النبي (صلعم) الى صاحب ايلة :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذه أمنة من الله ومحمد رسول الله ليحنى بن رؤبة واهل ايلة : سفنهم وسياراتهم في البر والبحر لهم ذمة الله وذمة محمد النبي ، ومن كان معهم من اهل الشام واهل اليمن واهل البحر ، فمن احدث منهم حدثا فانه لا يحول ماله دون نفسه ، وانه طيب لمن اخذه من الناس ، وانه لا يحل ان يمنعوا ما يردونه ولا طريقا يردونه من بر او بحر » [١] .

وهاك كتابه الى اهل اذرح واهل مقنا :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله الى بني حبيبة واهل مقنا : سلم انتم ، فانه انزل على انكم راجعون الى قريتكم ، فاذا جاءكم كتابي هذا فانكم آمنون ، ولكم ذمة الله وذمة رسوله ، وان رسول الله قد غفر لكم ذنوبكم وكل دم اتبعتم به . لا شريك لكم في قريتكم إلا رسول الله او رسول رسول الله ، وانه لا ظلم عليكم ولا عدوان ، وان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجيركم مما يجير منه نفسه ، فان لرسول الله بزتكم ورقيقكم والكراع والحلقة ، إلا ما عفا عنه رسول الله او رسول رسول الله ، وان عليكم بعد ذلك ربع ما أخرجت نخيلكم وربع ما صادت عركم وربع ما اغتزلت نساؤكم ، وانكم قد ثريتم بعد ذلك ورفعكم رسول الله عن كل جزية وسخرة ، فان سمعتم واطعتم فعلى رسول الله ان يكرم كريمكم ويعفو عن مسيئكم ، ومن ائتمر في بني حبيبة واهل مقنا من المسلمين خيرا فهو خير له ، ومن اطلعهم بشر فهو شر له ، وليس عليكم امير الا من انفسكم او اهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكتب علي بن ابي طالب في السنة التاسعة » [٢].

واقتدى بالنبي (صلعم) قواد في اثناء الفتح بالشام ومصر والعراق وفارس، وكتبوا العهود لأهل الذمة على نحو ما تقدم في مقابل الجزية — منها عهد خالد بن الوليد الذي كتبه لأهل الشام ، وهذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما اعطى خالد بن الوليد اهل دمشق : اذا دخلها اعطاهم امانا على انفسهم واموالهم وكنائسهم ، وسور مدينتهم لا يهدم ، ولا يسكن شيء

١ – ابن هشام ٤٠ ج ٣ . ٢ – فتوح البلدان للبلاذري ٦٠ .

من دورهم . لهم بذلك عهد الله وذمة رسوله والخلفاء والمؤمنين، لا يعرض لهم الا بخير الا اذا اعطوا الجزية » (١) .

واليك صورة عهد ابي عبيدة الى اهل بعلبك :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب امان لفلان بن فلان واهل بعلبك ، رومها وفرسها وعربها، على انفسهم واموالهم وكنائسهم ودورهم ، واهل المدينة وخارجها وعلى ارحائهم ، وللروم ان يرعوا سرحهم ما بينهم وبين خمسة عشر ميلا ، ولا ينزلوا قرية عامرة ، فان مضى شهر ربيع وجمادى الاولى ساروا الى حيث شاءوا ، ومن اسلم منهم فله ما لنا وعليه ما علينا ، ولتجارهم ان يسافروا الى حيث ارادوا من البلاد التي صالحنا عليها ، وعلى من اقام منهم الجزية والخراج . شهد الله وكفى بالله شهيداً » (٢) .

وقس عليه عهود سائر الفاتحين ، مثل عمرو بن العاص وسعد بن ابي وقاص وغيرهما ، في مصر والعراق وفلسطين وفارس وافريقية والاندلس وغيرها، على انهم كانوا يشترطون في الجزية ان يؤديها اهل الذمة عن يد وهم صاغرون .

اما شروط الصلح فكانت تختلف شدة ورفقاً باختلاف البلاد والاحوال التي فتحت بها ، فصلح مصر يختلف عن صلح الشام ، وصلح الشام غير صلح العراق .

العهدة النبوية

وبين ايدي الناس نسخ من عهد يقولون ان النبي (صلعم) كتبه الى النصارى ورهبانهم يسمونه « العهدة النبوية » ، والنسخ المذكورة تختلف نصاً وتتفق مغزى . ويقولون ان العهد المذكور كتب بخط علي بن ابي طالب ، ووضع في مسجد النبي في السنة الثانية للهجرة ، وحملت منه نسخ الى الاديار ، ومن ذلك نسخة كانت محفوظة في دير طورسينا، فنقلها السلطان سليم الفاتح العثماني الى الاستانة في اوائل القرن السادس عشر للميلاد ، بعد ان عرضها على مجلس شرعي ، فنقلوها الى اللغة التركية ، وابقوا النسخة التركية في الدير وصورة الاصل العربي مع عهود برعاية حقوقهم الواردة في نص ذلك العهد، وحملوا النسخة

---

١ – البلاذري ١٢١ .   ٢ – البلاذري ١٣٠ .

العربية الاصلية الى الاستانة [١] ـ واليك نص العهـــدة النبوية نقلا عن كتاب « منشآت سلاطين » لأفريدون بك بعد البسملة : [٢] .

« هذا كتاب كتبه محمد بن عبد الله الى كافة الناس اجمعين ، رسوله مبشراً ونذيراً ومؤتمناً على وديعة الله في خلقه ، لئـــلا يكون للناس حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً ، كتبه لأهل ملة النصارى ولمن تنحل دين النصرانية ، ومن مشارق الارض ومغاربها قريبها وبعيدها فصيحها وعجمها معروفها ومجهولها ، جعل لهم عهداً فمن نكث العهد الذي فيه وخالفه الى غـــيره وتعدى ما امره ، كان لعهد الله ناكثاً ولميثاقه ناقضاً وبدينه مستهزئاً وللعنته مستوجباً ، سلطاناً كان ام غيره من المسلمين ـ وان احتمى راهب او سائح في جبل او واد او مغارة او عمران او سهل او رمل او بيعة ، فأنا اكون من ورائهم أذب عنهم من كل غيرة لهم بنفسي وأعواني وأهلي وملتي وأتباعي ، لأنهم رعيتي وأهل ذمتي وانا أعزل عنهم الأذى في المؤن التي يحمل اهل العهد من القيام بالخراج الا ما طابت له نفوسهم ، وليس عليهم جبر ولا اكراه على شيء من ذلك ، ولا يغير اسقف من اسقفيته ولا راهب من رهبانيته ولا حبيس من صومعته ولا سائح من سياحته ، ولا يهدم بيت من بيوت كنائسهم وبيعهم ، ولا يدخل شيء من مال كنائسهم في بنـــاء مساجد المسلمين ولا في بناء منازلهم ، فمن فعل شيئاً من ذلك فقد نكث عهد الله وعهد رسوله . ولا يحمل على الرهبان والاساقفة ولا من يتعبد جزية ولا غرامة ، وأنا احفظ ذمتهم اينما كانوا من بر او بحر في المشرق او المغرب والجنوب والشمال ، وهم في ذمتي وميثاقي واماني من كل مكروه ، وكذلك من ينفرد بالعبادة في الجبال والمواضع المباركة لا يلزمهم ممـا يزرعونه لا خراج ولا عشر ، ولا يشاطرون لكونه برسم افواههم ، ولا يعاونون عنـد ادراك الغلة ، ولا يلزمون بخروج في حرب وقيام بجبرية ، ولا من اصحاب الخراج وذوي الاموال والعقارات والتجارات مما هو اكثر من اثني عشر درهماً بالجملة في كل عام ، ولا يكلف احد منهم شططا ولا يجادلون الا بالتي هي احسن ، ويحفظونهم تحت جناح الرحمة ، يكف عنهم اذية المكروه حيثما كانوا وحيثما حلوا ــ وان صارت النصرانية عند المسلمين فعليها برضاها ويمكنها من الصلاة في بيعها ، ولا يحال بينها وبين هوى دينها ، ومن خان عهد الله واعتمد بالضد من ذلك فقد عصى ميثاقه ورسوله ، ويعاونون على مرمة بيعهم

---

١ – الهلالان ١٥ و ١٧ من السنة السابعة .

٢ – قاموس الادارة والقضاء (مادة بطركخانة) .

ومواضعهم ، وتكون تلك مقبولة لهم على دينهم وفعالهم بالعهد ، ولا يلزم احد منهم بنقل سلاح بل المسلمون يذبون عنهم ، ولا يخالف هذا العهد ابداً الى حين تقوم الساعة وتنقضي الدنيا » ا هـ .

والغالب في اعتقادنا ان النبي (صلعم) اذا كان قد اعطى عهداً للنصارى والرهبان عموماً فهو غير هذا العهد ، او لعله كان مختصراً وطولوه ، او تنوسي وضاع اصله فكتبوه من عندهم ، او ان النصارى وضعوا هذا العهد من عند انفسهم لغرض سياسي ، اذ لم يذكر خبر هذا العهد احد من مؤرخي الفتوح او غيرهم من كتاب المسلمين في الازمنة الاولى ، فضلاً عما في عباراته والفاظه مما لم يكن معروفاً في صدر الاسلام وخصوصاً في السنة الثانية للهجرة .

عهد عمر

ويذكرون ايضاً عهداً يعرف بعهد عمر بن الخطاب لأهل الشام ، اشار اليه غير واحد من مؤرخي المسلمين ، وقد اورده بعضهم بنصه منهم ابو بكر محمد بن محمد بن الوليد الفهري الطرطوشي المالكي المتوفي سنة ٥٢٠ هـ ، اورده في كتاب « سراج الملوك » نقلا عن عبد الرحمن بن غنم الاشعري المتوفي سنة ٧٨ ، واليك صورة العهد المذكور برواية ابن غنم قال :

« كتبنا لعمر بن الخطاب رضى الله عنه حين صالح نصارى اهل الشام : (بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب لعبدالله عمر امير المؤمنين من نصارى مدينة (كذا) انكم لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وذرارينا واموالنا واهل ملتنا ، وشرطنا لكم على انفسنا الا نحدث في مدائننا ولا فيما حولها ديرا ولا كنيسة ولا قلية ولا صومعة راهب ، ولا نجدد ما خرب منها ولا ما كان مختطا منها في خطط المسلمين في ليل ولا نهار . وان نوسع ابوابها للمارة وابن السبيل ، وان ننزل من مر بنا من المسلمين ثلاث ليال نطعمهم . ولا نؤوي في كنائسنا ولا في منازلنا جاسوساً ، ولا نكتم غشاً للمسلمين ، ولا نعلم اولادنا القرآن ، ولا نظهر شرعنا ، ولا ندعو اليه احداً ، والا نمنع احداً من ذوي قرابتنا الدخول في الاسلام ان اراد ، وان نوقر المسلمين ونقوم لهم من مجالسنا اذا ارادوا الجلوس ، ولا نتشبه بهم في شيء من لباسهم من قلنسوة ولا عمامة ، ولا نعلين ولا فرق

شعر ، ولا نتكلم بكلامهم ولا نكتني بكناهم ولا نركب بالسروج ، ولا نتقلد السيوف ولا نتخذ شيئاً من السلاح ولا نحمله معنا ، ولا ننقش على خواتمنا بالعربية ولا نبيع الخمور. وان نجز مقادم رؤوسنا ونلزم زينا حيثما كنا ، وان نشد الزنانير على اوساطنا ولا نظهر صلباننا وكتبنا في شيء من طرق المسلمين ولا اسواقهم ، ولا نضرب نواقيسنا في كنائسنا إلا ضربا خفيفاً ، ولا نرفع اصواتنا بالقراءة في كنائسنا في شيء من حضرة المسلمين ، ولا نخرج شعانيننا ولا باعوثنا ولا نرفع اصواتنا مع موتانا،ولا نظهر النيران في شيء من طرق المسلمين ولا اسواقهم ، ولا نجاورهم بموتانا ، ولا نتخذ من الرقيق ما جرى عليه سهام المسلمين ، ولا نتطلع الى منازلهم) فلما اتيت عمر رضي الله عنه بالكتاب زاد فيه (ولا نضرب احداً من المسلمين ، شرطنا ذلك على انفسنا واهل ملتنا وقبلنا عليه الامان ، فان نحن خالفنا في شيء مما شرطناه لكم وضمنا على انفسنا فلا ذمة لنا ، وقد حل منا ما يحل من اهل المعاندة والشقاق) فكتب اليه عمر (امض ما سألوه والحق فيه حرفين اشترطهما عليهم مع ما شرطوه على انفسهم : ان لا يشتروا شيئا من سبايا المسلمين ، ومن ضرب مسلماً عمداً فقد خلع عهده) اهـ [١] .

ويلحق بالعهد المذكور احكام تتعلق بالكنائس وضعها عمر ايضاً ، وذلك انه امر فهدم كل كنيسة لم تكن قبل الاسلام ، ومنع من ان تحدث كنيسة بعد الاسلام ، وامر ان لا تظهر عليه خارجة من كنيسة ولا يظهر صليب خارج من كنيسة إلا كسر على رأس صاحبه [٢] .

وترى في نص هذا العهد ضغطاً على النصارى وتصغيراً لهم ، خلافاً لما جاء في سائر عهود الامان او كتب الصلح في صدر الاسلام ، وخلافاً لما هو معروف من عدل عمر بن الخطاب ورفقه بأهل الذمة ، كما يستدل من سيرة حياته فانها تدل على صدق لهجته في الفكر والقول والعمل ، فكان اذا أساء مسلم الى مسيحي اقتص له منه ولو كان المسلم من كبار الصحابة ، كما اقتص لذلك القبطي من عمرو بن العاص وابنه وقال لعمرو: « يا عمرو مذ كم تعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احرارا ؟ » [٣].

فنرى لاول وهلة تناقضا بين هذه المناقب ونص هذا العهد ، فيتبادر الى الذهن انه موضوع بعد عصر عمر بأزمان ، كما قلنا عن نص العهدة النبوية ، ولكن حاله يختلف عن حالها بما يرجح صحته . فلننظر اولا في صحة نسبته الى عمر ، ثم في سبب التناقض الظاهر بينه وبين مناقبه .

---

١ – سراج الملوك ٢٨٣ . ٢ – سراج الملوك ٢٨٦ . ٣ – الجزء الاول من هذا الكتاب .

نسبة هذا العهد الى عمر

الارجح في اعتقادنا ان كتب عهداً لنصارى الشام ، ان لم يكن هـــذا هو بنصه فهو بمعناه على الاقل ، وسبب هذا الترجيح :

١ أن العهد المذكور وارد في كتب المسلمين بنصه الاصـــلي بطريق الاسناد ، فالطرطوشي وان كان من اهل القرن السادس للهجرة فانه اورد نص العهد بطريق الاسناد الى الراوي الاصلي ، على عادة المؤرخين المحققين في اوائل الاسلام ، مما يدل على انه نقله من كتاب قديم

٢ – ان « سراج الملوك » الذي اورد نص هذا العهد هو من كتب الادب والسياسة المهمة ، وليس من كتب الفكاهة ، ومؤلفه من اكبر علماء الاندلس ، صحب أبا الوليـــد الباجي وأخذ عنه مسائل الخلاف وأجاز له ، وقرأ الفرائض والحساب والادب ، وجاء بغداد ومصر وتفقه على أبي بكر الشاشي وعلى ابي احمد الجرجاني ، وأتى الشام وسكنها ودرس بها وكان اماماً فقيها عالماً زاهداً ورعا . وكان مع ذلك متعصباً على النصارى يرى تحقيرهم ، واتفق انه دخل على الافضل شاهنشاه ابن امير الجيوش بمصر وبجانب الافضل رجل نصراني فوعظ الافضل حتى بكى ثم انشد :

يا ذا الذي طاعته قربى　　وحقه مفترض واجب
ان الذي شرفت من اجله　　يزعم هـــذا انه كاذب

واشار الى النصراني فأقامه الفضل من موضعه (١) ولعل تعصبه هذا حمله على إثبـــات هذا العهد في كتابه ، مع رغبة اكثر الذين سبقوه في اغفاله لما توهموا فيه من المغايرة لمناقب الخلفاء الراشدين . ولا يقال ان الطرطوشي وضع هذا العهد من عند نفسه ، لان من كان في منزلته من الزهد والتقوى ينزه نفسه عن الكذب .

٣ – ان اكثر مواد هذا العهد واردة في كتب الفقه من احكام اهل الذمة ، كما وردت في هذا العهد بمعناها الحرفي تقريباً (٢) واكثر هذه الاحكام كتب قبل زمن الطرطوشي . ناهيك بما جاء من ذلك في كتب السياسة والادارة ، وبعضها اشار الى هذا العهد اشارة

---

١ – ابن خلكان ٤٧٩ ج ١ .　　٢ – الهداية ٥٧٤ .

صريحة وأورد بعض نصه . فقد جـــاء في كتاب الاحكام السلطانية للماوردي المتوفي سنة ٤٥٠ هـ (اي قبل الطرطوشي بخمس وسبعين سنة) بباب الجزية والخراج قوله : « واذا صولحوا – النصارى – على ضيافة من مر بهم من المسلمين قـدرت عليهم ثلاثة ايام لا يزادون عليها ، كما صالح عمر نصارى الشام على ضيافة من مر بهم من المسلمين ثلاثة ايام مما يأكلون ، ولا يكلفهم ذبح شاة ولا دجاجة ، وتبيت دوابهم من غير شعير ، وجعل ذلك على اهل السواد دون المدن – الى ان قال – ويشترط عليهم في عقـــد الجزية شرطان : مستحق ومستحب ، اما المستحق فستة شروط :

١ – ان لا يذكروا كتاب الله تعالى بطعن فيه ولا تحريف له .

٢ – ان لا يذكروا رسول الله « صلعم » بتكذيب له ولا ازدراء .

٣ – ان لا يذكروا دين الاسلام بذم له ولا قدح فيه

٤ – ان لا يصيبوا مسلمة بزنا ولا باسم نكاح .

٥ – ان لا يفتنوا مسلماً عن دينه ولا يتعرضوا لماله ولا دمه .

٦ – ان لا يعينوا اهل الحرب ولا يؤووا اغنياءهم .

فهذه الستة الحقوق ملتزمة فتلزم بغير شرط ، وانمـــا تشترط اشعاراً لهم وتأكيداً لتغليظ العهد عليهم ، ويكون ارتكابها بعد الشرط نقضاً لعهدهم .

واما المستحب فستة اشياء :

١ – تغيير هيئاتهم بلبس الغيار وشد الزنار .

٢ – ان لا يعلوا على المسلمين في الابنية .

٣ – ان لا يسمعوهم اصوات نواقيسهم .

٤ – ان لا يجاهروهم بشرب الخمر ولا باظهار صلبانهم .

٥ – ان يخفوا دفن موتاهم .

٦ – ان يمنعوا من ركوب الخيل عتاقاً وهجاناً [١] .

فقول الماوردي هذا يكاد يكون نص عهد عمر حرفياً بعد الترتيب والتبويب .

فالعهد المذكور كان معروفاً قبـــل كتاب سراج الملوك . ويؤيد ذلك ان ابن الاثير

---

١ – الماوردي ١٣٨ .

ان اليه اشارة تدل على اعترافه بفحواه وبنسبه الى عمر، كقوله في حوادث سنة ٤٨٤ هـ : «واخرج توقيع الخليفة بالزام اهل الذمة بالغيار ولبس ما شرطه عليهم امير المؤمنين عمر بن الخطاب» (١) .

٤ — ان الخلفاء الاولين في القرون الاولى للاسلام كانوا اذا ارادوا تجديد عهود اهل الذمة ، ولا سيا النصارى ، فرضوا عليهم مثل فحوى هذا العهد من تغيير الزي ونحوه ، مما يدل على اتصال هذا العهد بالقرن الاول ، واقدمهم عمر بن عبد العزيز الخليفة التقي المشهور باقتفائه آثار سميه وجده لامه عمر بن الخطاب ، وهو اول خليفة اموي اراد رد النصارى الى ما شرطه عليهم عمر ، وكانوا قد اغفلوا اكثر شروطه وخصوصاً من حيث اللباس وتشبهوا بالمسلمين بلبس العمامة ، فأمرهم ان يضعوا العمائم ويلبسوا الاكسية ولا يتشبهون بشيء من الاسلام . وقس على ذلك سائر الخلفاء الذين اضطهدوا النصارى، فانهم كانوا يرجعون الى فحوى عهد عمر كما سترى .

عهد عمر ومناقبه

أما ما يظهر من التناقض بين هذا العهد ومناقب عمر ففيه نظر ، ولا بد في بيانه من المقابلة بين مناقب عمر وفحوى ذلك العهد :

مناقب عمر بن الخطاب

اظهر مناقب عمر العدل مع الصراحة وحرية الضمير والشدة ، والتقوى مع الغيرة الشديدة على الاسلام والرغبة في تأييدة ونشره ، فقد كان عادلا حتى لا يبالي ان يحكم على ابنه او على نفسه ، فهو مثال للعدل مجسم لا يزال المسلمون الى اليوم يتمثلون بأحكامه ويحاولون الاقتداء به ، ولم يستطع احد منهم ان يدرك شأوه . وكانت غيرته على الاسلام لا مثيل لها ، فلا يعمل عملا او يقول قولا الا وهو ينظر من ورائه الى نشر الاسلام ورفع مناره وجمع كلمة العرب في نصرته . فالعدل يقضي عليه ان ينصف اهل الذمة ويحاسنهم، ولكن رغبته في نشر الاسلام كانت تظهره من خلال ذلك الانصاف . فقد اطلق حرية الدين في مملكته ، وابقى اهل الذمة على ما كانوا عليه من امر دينهم وطقوسهم وقسسهم

---

١ - ابن الاثير ٧٦ ج ١٠ .

وكنائسهم ، ولكنه منعهم من احداث كنائس جديدة لكي تنحصر النصرانية فيتغلب الاسلام عليها ثم يمحوها والعدل قضى عليه ان يحسن الى نصارى العرب مكافأة لنصرتهم المسلمين في العراق ، ففرض عليهم الصدقة بدلا من الجزية ، ولكن رغبته في جمع كلمة العرب تحت لواء الاسلام قضت بالاشتراط عليهم ان لا ينصروا اولادهم[1] .

فحوى عهد عمر

وفحوى العهد المذكور يرجع الى اربعة شروط اولية وهي :

١ – الا يحدث النصارى معبداً .

٢ ان ينزلوا من يمر بهم من المسلمين ثلاثة ايام .

٣ – الا يؤووا في كنائسهم جاسوساً ولا يكتموا غشا للمسلمين .

٤ – الا يقلدوا المسلمين بشيء من اللباس او الركوب او تعلم القرآن او نقش اسمهم بالعربية على اختامهم .

وانه بغير هذه الشروط لا يكون لهم امان على انفسهم وذراريهم واموالهم .

فالشرط الاول ينطبق على رغبة عمر في تأييد الاسلام ونشره كما تقدم .

والشرط الثاني تستلزمه حال المسلمين في بلاد الفتح ، فقد كانوا غرباء بين اهل الذمة ، والعرب اهل ضيافة ولم يكن اهل تلك البلاد يألفون تلك العادة ، فجعلها عمر شرطا واجباً عليهم رحمة بالمسلمين في اسفارهم للحرب وغيرها .

أما الشرطان الثالث والرابع فلا بد في تطبيقها على اخلاق عمر من مقدمة صغيرة...

نصارى الشام وقيصر الروم

أول ما يلاحظ في هذا العهد أن عمر أخذه على نصارى الشام دون سائر اهل الذمة في الشام ودون نصارى سائر الامصار . فهو لا يسري على قبط مصر او نبط العراق ،

---

١ – المعارف ١٩٣ والبلاذري ١٨٣ وابن الاثير ٢٥٩ ج ٢ .

ولا على صابئة حران ولا مجوس فارس ، ولا على اليهود في بلد من البلاد . فلا بد لذلك من سبب متصل بما حواه ذلك العهد من الشدة ،والا فلماذا لم يجعله عاماً على سائر بلادالاسلام؟ ولماذا لم يدخل فيه اليهود والصابئة وغيرهم من اهل الذمة ؟ وزد على ذلك أنهم ينسبون الى عمر عهدا [١] آخر لأهل الذمة كافة ، وليس فيه ضغط ولا تضييق وانما مرجعه الى التسامح والرعاية والحماية ، ويشبه العهدة النبوية في اكثر نصوصه ، ورأينا فيه مثل رأينا في تلك العهدة : لان عبارته تخالف عبارة صدر الاسلام ، ولم يذكره أحد من كتاب المسلمين القدماء ، ولكنه يوافق روح ذلك العصر بفحواه لمشابهته اكثر عهود الصلح التي كتبت يومئذ وذكرنا بعضها فيما تقدم . فمن المعقول أن يعطي عمر لأهل الذمة عهداً بهذا المعنى ، لانه ينطبق على عدله ورفقه في معاملتهم ، وهو عام لهم يشمل كل طوائفهم .

اما العهد الذي نحن بصدده فقد أعطي لنصارى الشام على الخصوص ، وكأنه اختصهم بالتضييق . فهو لم يفعل ذلك الا لسبب دعاه اليه . والغالب في اعتقادنا انه اشترط هذه الشروط صيانة لبلاد الشام من رجوع الروم اليها بمساعي اهلها النصارى ، اذ يكونون عيوناً للروم على المسلمين ، لما بينهم وبين الروم من الرابطة الدينية ، وهي اقوى الجامعات في الشرق منأقدمأزمانه الىهذا اليوم.فكل طائفة من الطوائفالشرقية تفضل ان يحكمها حاكم من مذهبها ولو كان ظالماً ، على ان تخضع لحاكم من غير دينها ولو كان عادلاً . وفي التواريخ شواهد كثيرة تؤيد هذا القول حتى في عصرنا الحاضر ، مع ما داخل نفوس المشارقة من التسامح الديني . فان كل طائفة من اهله تفضل ان يحكمها ابن دينها ، لا تبالي بعدله او ظلمه . النصراني يفضل حاكماً مسيحياً ، والمسلم يفضل حاكماً مسلماً ، فكيف بتلك العصور والدين مرتبط بالسياسة ؟

ونصارى الشام أذعنوا للجزية ، ودخلوا في سلطان المسلمين ، وظلوا على ما كانوا فيه من حيث الدين وطقوسه ، يقيمون الصلاة في كنائسهم كما كانوا يقيمونها قبل الاسلام ، يأتيهم القسس والاساقفة من القسطنطينية او انطاكية ولسانهم لسان دولة الروم ومعتقدهم مثل معتقدها . وقد بينا في غير هذا المكان ان الفتح الاسلامي كان في صدر الاسلام احتلالاً عسكرياً ، ولم يكن المسلمون يتعرضون للمسيحيين في شيء من طقوسهم الدينية ولا أحوالهم الشخصية ولا احكامهم القضائية ، وكانوا يعترفون لصاحب القسطنطينية

---

١ – قاموس الادارة والقضاء « مادة بطركخانة » نقلا من منشآت سلاطين .

بسيادته في ذلك على نصارى الشام . فاذا حدث ما يمس هذه السيادة احتج ملك الروم على الخليفة ، وخصوصاً من حيث الكنائس. وكان الخلفاء يراعون عهودهم في هذا الشأن، حتى اذا استفحل امر بني امية خرقوا حرمة تلك العهود كما خرقوا سواها مما أقره الراشدون .

ذكروا ان الوليد بن عبد الملك سمع صوت ناقوس فقال : « ما هذا ؟ » قيل : «بيعة» فأمر بهدمها وتولى بعض ذلك بيده فتسابق الناس يهدمون فرفع النصارى أمرهم الى قيصر القسطنطينية فكتب الى الوليد : « ان هذه البيعة قد أقرها من كان قبلك ، فان يكونوا اصابوا فقد اخطأت ، وان تكن أصبت فقد اخطأوا » [1] ولم يجد اعتراضه نفعاً. ولكن ذلك يدل على ان نصارى الشام كانوا في صدر الاسلام تحت حماية الروم ، او هم يعدون قيصر الروم حامياً لكنائسهم ، كما يعتقدون الآن في بعض دول اوربا . فضلاً عما غرس في قلوبهم من حب دولة الروم بواسطة كهنتهم وتعاليمهم . وهب انهم كانوا ناقمين على تلك الدولة من بعض الوجوه الدينية ، فأصبحوا بعد دخولهم في سلطة العرب يفضلون بقاء القديم على قدمه ، وذلك عادي في الأمم التي تعودت الرضوخ لسواها ، فانها لا تستقر على حال ولا يهون اخضاعها الا بطريق الدين . ناهيك بما كان يحدده الكهنة والاساقفة من أسباب الميل الى قيصر القسطنطينية ، والفتح يومئذ حديث والقيصر يرجو استرجاع تلك البلاد الى سلطانه ، على ان يستعين على ذلك بأهل مذهبه المقيمين بجوار المسلمين فيتخذهم عيونا له عليهم .

وكان بعض نصارى الشام لا يدخرون وسعاً في هذا السبيل ، فينقلون اخبار المسلمين الى الروم ، واذا جاء جواسيس الروم آووهم في منازلهم واعانوهم في استطلاع الاخبار . فربما دخل النصراني بين المسلمين وهو في مثل لباسهم ، وقد نقش اسمه بالعربية على خاتمه مثلهم ، وحفظ شيئاً من القرآن ليوهم المسلمين انه منهم . والشام لم يتم فتحها بعد ، وعمر لا يزال يخاف انتقاضهم لبعدها عن مركز الخلافة . فخوفاً من مثل ذلك اشترط على أهلها ان لا يتشبهوا بالمسلمين في شيء من اللباس او الركوب وغيره ، وان لا يؤووا احداً من جواسيس الروم ، ولا يكتموا غشاً للمسلمين .

ولنحو هذا السبب ايضاً أوصى عمر أن لا يستعملوا اهل الكتاب ، لأنهم أهل رشى

---

١ — المسعودي ١١٣ ج ٢ .

ولأن بعضهم اولياء بعض . ويقال ان أصل هذا المنع منقول عن النبي في حديث جرى له يوم خروجه الى بدر [١] على ان هذه الوصية لم يمكن العمل بها لاضطرار المسلمين الى من يعرف الحساب والكتابة ، وخصوصاً في أول الاسلام اذ كانت الدواوين لا تزال بلغاتها الاصلية .

فالارجح عندنا ان عمر كتب عهداً لنصارى الشام (او استكتبهم عهداً) ان لم يكن هذا نصه فهو فحواه ، ولا يستبعد وقوع بعض التغيير في نصه بعد ذلك . ان السبب فيما حواه من الشدة خوفه من نصارى الشام ، لأنهم اقرب نصارى الشرق الى كنيسة القسطنطينية . اما القبط فقد كانوا اعداء تلك الكنيسة ، وهم الذين واطأوا المسلمين على الروم وسهلوا لهم الفتح . وانه لم يفعل ذلك للتضييق على النصارى تعصباً للدين او كرهاً للنصرانية . ثم أطلق المسلمون هذا العهد على سائر اهل الذمة .

الامويون وأهل الذمة

كذلك كانت احكام اهل الذمة لما افضت الخلافة الى بني أمية ، وكانوا لا يخافون الروم على الشام ، لان مقر خلافتهم فيها وقد احتلوا الشواطىء وتغلبوا على اهلها ، وصاروا يغزون الروم في البحر . غير انهم ضيقوا على اهل الذمة من جهة الجزية في جملة مساعيهم في حشد الاموال لاصطناع الاحزاب والتمتع بأسباب الدنيا ، فزادوا الجزية والخراج وشددوا في تحصيلها ، وضيقوا على الناس حتى اخذوا الجزية ممن اسلم . واما من بقي على دينه من اهل الكتاب فكانوا يسومونهم سوء العذاب ، ويحتقرونهم لأنهم ليسوا عرباً ولا مسلمين . ولا غرابة في ذلك بعد ما علمت من احتقار بني امية لغير العرب من المسلمين . وكانوا يعدون الناس ثلاث درجات اولها العرب ، ثم الموالي ، ثم اهل الذمة . ويؤيد ذلك رأي معاوية في اهل مصر ، قال : « وجدت اهل مصر ثلاثة أصناف : فثلث ناس ، وثلث يشبه الناس ، وثلث لا ناس . فأما الثلث الذين هم ناس فالعرب ، والثلث الذين يشبهون الناس فالموالي ، والثلث الذين هم لا ناس فالمسالمة » يعني القبط[٢] .

ولما رأى القبط ان الاسلام لا ينجيهم من الجزية او العنف في تحصيلها ، عمد بعضهم

---

١ – سراج الملوك ٢٨٤ .　　٢ – المقريزي ٥٠ ج ١ .

الى التلبس بثوب الرهبنة ، والرهبان لا جزية عليهم ، فأدرك عمال بني أمية غرضهم فوضعوا الجزية على الرهبان، وازدادوا غيظاً منهم حتى اراد بعضهم اقتضاءها من الاموات فضلا عن الاحياء ، بأن يجعلوا جزية الموتى على احيائهم[١] وامثال هذه الحوادث كثيرة في عهد بني أمية ، ذكرنا كثيراً منها في الجزء الثاني من هذا الكتاب مع الطرق التي كان يتخذها عمال بني امية لابتزاز الاموال من اهل الذمة .

فعل الامويون ذلك واغضوا عن شروط عمر ، حتى اذا افضت الخلافة الى حفيده ومريده عمر بن عبدالعزيز كان من جملة ما قلده فيه انه كتب الى عماله باحياء ذلك العهد كقوله: « وأمروا من كان على غير الاسلام ان يضعوا العمائم ويلبسوا الاكسية ، ولا يتشبهوا بشيء من الاسلام ، ولا تتركوا احداً من الكفار يستخدم احداً من المسلمين، ولاتستخدموا احداً من اهل الذمة »[٢] ونهى النصارى عن ضرب النواقيس وقت الاذان .

ونظراً لإهتمام بني أمية بجمع الأموال للاسباب التي قدمناها ، وأهل الذمة اقدر على مساعدتهم في جمعها من سواهم ، لاقتدارهم في الحساب والكتابة واعمال الخراج ، استخدموهم في هذا السبيل رغم ارادتهم ، ولم يكن يهمهم ذلك من وجه ديني لنشر الاسلام او حصر النصرانية ، ولولا ذلك ما ولوا خالداً القسري العراقين، وامه نصرانية رومية كان يراعي جانبها ويكرم النصارى من اجلها ، فاعتز النصارى في ايامه . واراد خالد امه على الاسلام فلم تسلم ، فابتنى لها بيعة في ظهر القبلة بالمسجد الجامع في الكوفة ، فكان المؤذن اذا اراد ان يؤذن ضرب لها بالناقوس[٣] وكان خالد يولي النصارى والمجوس على المسلمين عكس وصية عمر بن عبد العزيز ، ويطلق ايديهم في الحكومة فيستبدون بالمسلمين . وعمر بن ابي ربيعة الشاعر المشهور كانت امه نصرانية ماتت والصليب في عنقها[٤] وكان النصارى في ايام بني امية يدخلون المساجد ويمرون فيها فلا يعترضهم احد . وكان الاخطل الشاعر النصراني يدخل على عبد الملك بن مروان بغير اذن ، وهو سكران وفي صدره صليب ولا يعترضه احد ، ولا يستنكفون من ذلك لانهم كانوا يستعينون به في هجو الانصار[٥] .

---

١ – المقريزي ٢٩٥ ج ١ .
٢ – العقد الفريد ٢٦٢ ج ٢ وابن الاثير ٣١ ج ٥ . ٣ – الاغاني ٥٩ ج ١٩ .
٤ – الاغاني ٣٢ ج ١ . ٥ – الاغاني ٧٤ و ١٧٨ ج ٧ .

على ان الخلفاء من بني أمية كانوا اذا قربوا نصرانياً او يهودياً طلبوا اليه ان يدخل في الاسلام ، فلا يمنعه من الرفض مانع ، الا من يغضب الخليفة عليه ولم يكن يحتاج اليه فينتقم منه ، كما اصاب شمعلة وكان من رهط الفرس نصرانياً ، فدخل على بعض خلفاء بني أمية فقال له : « اسلم يا شمعلة » قال : « لا والله لا اسلم ابداً ، ولا اسلم إلا طائعاً اذا شئت » فغضب وأمر فقطعت بضعة من فخذه وشويت بالنار واطعمها . اما الأخطل فان عبد الملك قال له مرة : « الا تسلم فنفرض لك في الفيء ونعطيك عشرة آلاف ؟ » قال : « كيف بالخمر ؟ » قال : « وما نصنع بها ؟ وان اولها لمر وآخرها لسكر » فقال : « اما اذا قلت ذلك فان بين هاتين لمنزلة ما ملكك فيها الا كلعقة من الفرات بالاصبع » فضحك.

أما عمال بني أمية فكانوا يضايقون النصارى في استخراج الاموال ، فمن سهل لهم استخراجها اكرموه . وفي خطط المقريزي فصول في انتقاض القبط فلتراجع هناك[١]

الخلاصة

وجملة القول ان الدولة الاموية دولة عربية اساس سياستها طلب السلطة والتغلب ، فاستعان اصحابها على ذلك بالعصبية القرشية واصطناع الاحزاب . فجرتهم تلك العصبية الى انقسام العرب الى قبائلها كما كانت في الجاهلية وانقسمت ايضاً الى عصبيات وطنية . وبالغوا في التعصب للعرب وامتهان غير العرب من الموالي واهل الذمة . واعوزهم اصطناع الاحزاب الى الاستكثار من الاموال لانفاقها في اجتذاب قلوب الرجال والاستكثار منها بعثهم على الظلم في تحصيلها والخروج بذلك عما يقتضيه العدل ، ومدوا ايديهم الى اموال الصدقة وغيرها ، واستأثروا بالفيء ، ورأوا اعداءهم العلويين يطلبون الخلافة بالحق ، وسلاحهم الدين والتقوى واذا جادلوهم غلبوهم ، فاستخفوا بالدين تحقيراً لأهله وعمدوا الى الدهاء والحيلة والأغضاء عن الاريحية ، وبالغوا في الشدة والعنف واشتهر ذلك عنهم ولم ينكره احد من المؤرخين حتى اهلهم من اعقابهم . فأبو الفرج صاحب الأغاني اموي[٢] واكثر ما يعرف من مساوىء بني امية مقتبس من كتابه .

والفضل في ثبات دولتهم لثلاثة من خلفائهم اشتهروا بالدهاء والسياسة والتدبير ، حكم

---

١ — المقريزي ٧٩ و ٣٠٢ و ٤٩٣ ج ١ . ٢ — ابن الاثير ٢٢٩ ج ٨ .

كل منهم نحو عشرين سنة وهم : معاوية بن ابي سفيان (حكم من سنة ٤١ - ٦٠ هـ) وعبد الملك بن مروان (من ٦٥ — ٨٦ هـ) وهشام بن عبد الملك (من سنة ١٠٥ — ١٢٥ هـ) وكان المنصور العباسي لما أفضت الخلافة اليه يتتبع هشام في سياسته[١] وأما عمر بن عبد العزيز فقد كان احسنهم تديناً ، ولكنه جاء في غير اوانه فلم يطل مقامه ولولا هؤلاء السواس لذهبت الدولة من ايديهم عاجلاً ، لما تداول الخلافة بينهم من الخلفاء الضعفاء اهل الترف واللهو والقصف . واولهم يزيد بن معاوية المتوفي سنة ٦٤ هـ فقد كان مغرماً بالصيد كثير العناية باقتناء الجوارح والكلاب والقرود والفهود ، وكان يحب الطرب والمنادمة على الشراب ، فجرى عماله على مثاله واظهروا الشراب ، وفي ايامه ظهر الغناء في مكة والمدينة واستعملت الملاهي ، ولم يكن المسلمون يعرفونها من قبل ذلك[٢].

ومنهم يزيد بن عبد الملك المتوفي سنة١٠٥ هـ ويسمونه خليع بني امية ، فقد تولى الخلافة بعد عمر بن عبدالعزيز وسار في طريق غير طريقه ، فشغف بجاريتين اسم احداهما سلامة والاخرى حبابة فقطع معهما زمانه ، وغنت يوماً حبابة :

بين التراقي واللهاة حرارة ما تطمئن ولا تسوغ فتبرد

فطرب يزيد ثم قال : « اريد ان اطير » واهوى ليطير فقالت : « يا امير المؤمنين لنا فيك حاجة » فقال : « والله لأطيرن » فقالت : « على من تدع الامة ؟ » قال : « عليك » وقبل يدها ، فخرج بعض خدمه وهو يقول : « سخنت عينك فما اسخفك ! » . وخرج يوماً ليتنزه في ناحية الاردن ومعه حبابة ، وبينما هما في الشراب رماها بحبة عنب فدخلت حلقها فشرقت ومرضت وماتت . فتركها ثلاثة ايام لم يدفنها ، حتى انتنت وهو يشمها ويقبلها وينظر اليها ويبكي ، فكلموه في امرها حتى اذن بدفنها وعاد الى قصره كئيباً حزيناً وسمع جارية له تتمثل بعدها :

كفى حزناً بالهائم الصب ان يرى منازل من يهوى معطلة قفرا

فبكى ، وبقي بعد موتها سبعة ايام لا يظهر للناس ، اشار عليه اخوه مسلمة بذلك مخافة ان يظهر منه ما يسفهه عند الناس[٣] ولم يحكم إلا اربع سنوات .

---

١ — المسعودي ١٣٢ جـ ٢ . ٢ — المسعودي ٦٨ جـ ٢ .
٣ — ابن الاثير ٥٧ جـ ٥ .

ومنهم الوليد بن يزيد بن عبد الملك المتوفي سنة ١٢٦ ﻫ وكان خليعاً سكيراً همه الصيد وشرب الخمر ، حتى جعل الخمر في برك يغوص فيها ويشرب[١] واول شيء فعله لما ولي الخلافة انه بعث الى المغنين في المدينة ومكة واشخصهم اليه ، واستقدم اهل المجون والخلاعة ونادمهم ، وبالغ في التهتك والمكر ولكنه لم يحكم إلا سنة واحدة .

على ان العرب اعظموا تهتك بني أمية من ايام يزيد بن معاوية ، واستغربوا البيعة له ، فكيف بعد الذي شاهدوه من يزيد والوليد وغيرهما ، حتى قال بعض الشعراء يخاطبهم :

ان البرية قد ملت سياستكم   فاستمسكوا بعمود الدين وارتدعوا
لا تلحمن ذئاب الناس انفسكم   ان الذئاب اذا ما الحمت رتعوا
لا تبقرن بأيديكم بطونكم   فثم لا حسرة تغني ولا جزع

فأين هو من دهاة بني أمية الذين ذكرناهم ، ولم يكن فيهم من يمس الخمر او يتماجن او يتخالع ؟ حتى هشام بن عبد الملك ، مع انه جاء في اواخر الدولة ، فكان لا يشرب الخمر ولا يسقى احد في حضرته مسكراً ، وكان ينكر ذلك ويعيبه ويعاقب عليه[٢] .

فلما انغمس بنو امية في الترف والقصف ، مع ما كان من تعصبهم على غير العرب واحتقارهم الموالي واساءتهم الى اهل الذمة وسائر اهل القرى ، بما كانوا يسومونهم اياه من نهب غلتهم في اثناء السفر — اذ كان جند المسلمين في اواخر ايام بني امية اذا مروا بقرية غصبوا من يمرون بهم اموالهم[٣] — فاصبح الناس يتحدثون بقرب زوال دولتهم ،ولم يمض إلا سنوات قليلة حتى ذهبت وقامت الدولة العباسية مقامها .

١ — الاغاني ٩٨ ج ٣ .   ٢ — الاغاني ١٦٧ ج ٥ .   ٣ — ابن الاثير ١٤٦ ج ٥ .

العَصر الفَارسي الأوَّل

العصر الفارسي الأوّل

من خلافة السفاح سنة ١٣٢ هـ الى خلافة المتوكل سنة ٢٣٢ هـ

دعونا هذا العصر فارسياً مع انه داخل في عصر الدولة العباسية ، لأن تلك الدولة على كونها عربية من حيث خلفائها ولغتها وديانتها ، فهي فارسية من حيث سياستها وادارتها، لأن الفرس نصروها وأيدوها ، ثم هم نظموا حكومتها وأداروا شؤونها ، ومنهم وزراؤها وكتابها وحجابها . وقد حملهم على القيـــام بنصرتها ما علمته من عصبية بني امية على غير العرب ، واحتقار الموالي وأكثرهم من الفرس ، فكانوا ينصرون كل ناقم على تلك الدولة من الشيعة والخوارج . على انهم كانوا اكثر رغبة في نصرة الشيعة ، لما رأوه في دعوتهم من قوة الحجة يومئذ ، لأنهم يدعون الى بيعة صهر النبي او ابناء بنت النبي . فكان العلويون يبثون دعايتهم في العراق وفارس وخراسان وغيرها من البلاد البعيدة عن مركز الخلافة الاموية ، والفرس يبايعونهم وينصرونهم على أمل التخلص من ظلم بني امية .

ثم قام بنو العباس لطلب الخلافة ، وفازوا بها على يد أبي مسلم الخراساني ، واستعانوا بانقسام العرب يومئذ ونقمة اليمنية على بني امية ، ولم يبق من العرب من ينصر الامويين الا مضر ، فاستعان أبو مسلم باليمنية على الامويين ، حتى فاز بمشروعه . واليك البيان .

انتقال الخلافة الى العباسيين

الشيعة العلوية

ظهر بنو امية وتسلطوا واستبدوا وآل علي بن ابي طالب يطالبون بالخلافة ويسعون في ادراكها . وأول من طلبها بعد علي ابنه الحسن ، ثم تنازل عنها لمعاوية سنة ٤١ هـ ، فغضب اشياع العلويين في الكوفة من تنازله وهاجوا — وأمير الكوفة يومئذ زياد بن أبيه الداهية الشهير ، فشدد فى اخماد الثورة وقتل جماعة من اشياع علي ، فيهم حجر بن عدي

وأصحابه . فتربص العلويون ينتظرون موت معاوية ، لعل انتخاب الامة يقع على واحد من ابناء علي فترجع الخلافة الى اهل البيت ، ولم يخطر لهم أن يبايع معاوية لابنه . فلما علموا ببيعته نقموا عليه ، وزادهم نقمة ما علموه من تهتكه وقصفه واشتغاله بالصيد عن امور الخلافة — ومن قول عبد الله بن هشام السلولي في ذلك :

خشينا الغيظ حتى لو شربنا دماء بني امية ما روينا
لقد ضاعت رعيتكم وانتم تصيدون الارانب غافلينا[1]

وكان اوجه العلويين يومئذ الحسين بن علي ، فلما مات معاوية سنة ٦٠ هـ وتولى ابنه يزيد ابى الحسين ان يبايعه على ان اكثر الذين بايعوه من اهل التقوى عدوا بيعتهم خرقاً لحرمة الدين[2] . وكان الحسين في المدينة ، فلما طلبوا منه ان يبايع يزيد فر الى مكة ، واكثر شيعته في الكوفة فكتبوا اليه وحرضوه على القدوم اليهم لينصروه فأطاعهم ، ولما اقترب من الكوفة قعدوا عن نصرته .. وبعث اليه امير الكوفة يومئذ عبدالله بن زياد جندا حاربه ، فدافع عن نفسه واهله حتى قتل قتلته المشهورة في كربلاء ، يوم عاشوراء من سنة ٦١ هـ .

ثم ندم الشيعة على قعودهم عن مناصرته ، فخرجوا بعد وفاة يزيد وبيعة مروان بن الحكم سنة ٦٤ هـ يطالبون بدمه وسموا انفسهم « التوابين » ، وامير الكوفة لا يزال عبيد الله بن زياد ، فأخرجوه منها وولوا عليهم رجلا منهم . فتغلب ابن زياد عليه ، فنهض المختار بن ابي عبيد الثقفي ، وهو من جملة الذين طمعوا في السيادة لابتزاز الاموال في اثناء تلك الفوضى واختلال الاحوال . وكان المختار عالي الهمة فجاء الكوفة يطالب بدم الحسين ، ويدعو الى بيعة محمد بن الحنفية أخي الحسين من ابيه . فتبعه على ذلك جماعة من الشيعة سماهم « شرطة الله » ، وزحف على ابن زياد فهزمه وقتله وقتل اكثر قتلة الحسين . ولكن محمد بن الحنفية لم يكن راضياً عن تلك الدعوة ، فبعث الى المختار يتبرأ منه . فحول المختار دعوته الى عبدالله بن الزبير ، وكان عبدالله قد نهض عند نهوض الحسين ، لأن اباه الزبير بن العوام كان من جملة الطامعين في الخلافة بعد مقتل عثمان كما تقدم ، واقام عبدالله في مكة يدعو الى نفسه . على ان المختار لم يخلص النية في دعوته لاحد ، لأنه انما كان يريدها لنفسه . فلما علم ابن الزبير بغرضه ، بعث اخاه مصعباً على العراق فحارب المختار وقتله سنة ٦٧ هـ .

---

١ — المسعودي ٥٠ ج ٢ . ٢ — ابن الاثير ٢٥٢ ج ٢ .

اما الشيعة العلوية فانقسمت بعد مقتل الحسين الى فرقتين ، احداهما تقول ان الحق في الخلافة لولد علي من فاطمة بنت النبي ، والاخرى تقول بتحولها بعد الحسن والحسين الى اخيهما محمد بن الحنفية ، وهي الفرقة الكيسانية . واكثرهما ظهوراً وتصدياً الفرقة الاولى، فبايعوا بعد الحسين ابنه علياً المعروف بزين العابدين ، وتسلسلت الخلافة بعده في اعقابه حتى صار الائمة ١٢ اماماً وهم : علي ، والحسن ، والحسين ، وزين العابدين ، ومحمد الباقر ، وجعفر الصادق ، وموسى الكاظم ، وعلي الرضى ، ومحمد التقي ، وعلي النقي ، وحسن العسكري ، ومحمد المهدي . وتفرع من الشيعة العلوية أيضاً فرق اخر ، بايعت غير واحد من اعقاب علي ، كالزيدية نسبة الى زيد بن علي بن الحسين ، والاسماعيلية نسبة الى اسماعيل ابن جعفر الصادق وفرق اخر لا محل لذكرها .

وكان بنو امية اذا سمعوا بظهور أحد دعاة العلوية بذلوا جهدهم في قتله، فقتلوا بعضهم وسموا البعض الآخر وصلبوا آخرين ، فأصبح دعاة الشيعة يتسترون خوف الفتك بهم . فلاقى العلويون في ايام بني امية ضنكاً شديداً ، وكادوا يهلكون جوعاً واصبح هم احدهم قوت عياله ، حتى تولى خالد القسري عامل بني امية المتوفي سنة ١٢٦ هـ فأعطاهم الأموال ورفق بهم ، فعادوا الى طلب الخلافة [1] وخالد هذا غريب الأخلاق ، فمع كونه من عمال بني امية فقد كان ينصر العلويين ويستعمل اهل الذمة كما تقدم .

الشيعة العباسية

وكان من جملة المطالبين بالخلافة من اهل البيت بنو العباس عم النبي ، لكنهم كانوا لا يتصدون لطلبها والامويون في ابان دولتهم، وانما كانوا يدعون الى انفسهم سراً . وكان العلويون والعباسيون في ايام ضيقهم واضطهادهم يتقاربون لانهم من بني هاشم ، وكلا الرهطين اعداء بني امية من قبل الاسلام – والمضطهدون يتقاربون على اي حال .

وظل العباسيون يتسترون في دعوتهم ، وهم مقيمون في الحميمة من اعمال البلقاء بالشام ، حتى ضعف شأن بني امية فهموا بالنهوض . واتفق في اثناء ذلك ان الفرقة الكيسانية دعاة ابن الحنفية صارت دعوتها بعده الى ابنه أبي هاشم ، وكان ابو هاشم هذا يفد على خلفاء بني امية من المدينة الى الشام ، فيمر في اثناء الطريق بالحميمة . ففي بعض وفداته على هشام

١ – ابن الاثير ١٢٩ جـ ٥ .

ابن عبد الملك ، آنس هشام منه فصاحة وقوة ورياسة ، مع علمه بطمعه في الخلافة، فدس اليه في اثناء رجوعه الى المدينـــة رجلا سمه في لبن . فشعر ابو هشام بالسم وهو في بعض الطريق فعرج الى الحميمة ، وصاحب الدعوة العباسية يومئذ محمد بن عـــلي بن عبد الله بن عباس ، فنزل عنده . ولما احس بدنو الاجل خاف ضيـــاع البيعة وهو بعيد عن أهله ، فأوصى الى محمد المذكور بالخلافة بعده . وكان معه جماعة من شيعته ، سلمهم اليه وأوصاه بهم . فلما مات ابو هاشم ، تهوس محمد بالخلافة وأيقن بالنجـــاح ، لأنه اكتسب حزب الكيسانية جميعاً ، فأخذ في بث الدعاة سراً . ثم توفي وقد اوصى بالخلافة بعده الى ابنه ابراهيم ، وعرف بالامام .

فأخذ ابراهيم الامام في بث دعاته ، وبدأ بخراسان لوثوقه بأهلها اكثر من سائر اهل الامصار ، ولأن الشيعة الكيسانية اكثرهم من خراسان والعراق ، وقد نصروا العلويين مراراً . فبعث اليهم دعاة الكيسانية الذين كانوا مع ابي هاشم ، وأوصاهم ان يطلبوا بيعة الناس باسم « آل محمد » اي أهل النبي، ولم يعين العلويين ولا العباسيين. وكان الخراسانيون قد ملوا الدولة الاموية ، فهان عليهم ان يبايعوا لآل محمد ، وهم يحسبون الامر يكون مشتركاً بين العباسيين والعلويين. وتوفق ابراهيم الامام في اثناء ذلك الى ابي مسلم الخراساني القائد العجيب ، فأتم امرهم وسلم لهم الدولة كما هو مشهور .

بيعة المنصور للعلويين ونكثه

وكان بنو هاشم – العلويون والعباسيون – لما رأوا اختلال امر بني امية ، اجتمعوا بمكة وفيهم اعيان بني هاشم ، علويهم وعباسيهم ، وتداولوا في قرب انحلال دولة الامويين ، وفيمن يخلفهم من اهل البيت . وكان في جملة الحضور ابو العباس المعروف بالسفاح ، واخوه عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ، وهو ابو جعفر المنصور ، وغيرهما من آل العباس . فأجمع رأيهم على مبايعة اوجه العلويين يومئذ ، وهو محمد بن عبد الله بن حسن المثنى بن الحسن بن علي ، الملقب بالنفس الزكية . فبايعوه لتقدمه فيهم ، ولما علموه له من الفضل عليهم ، وبايعـــه ابو جعفر المنصور ، في جملتهم [1] ولعل هذه المبايعة هي التي اسكتت العلويين عن طلب الخلافة ، في اثناء انتشار دعـــاة العباسيين في طلبها ، كأنهم اتفقوا ان تكون الخلافة مشتركة في أهل البيت . لان العباسيين كانوا يطلبون بيعة الناس باسم « آل محمد » ، وليس باسم الامام ابراهيم او غيره من بني العباس .

---

١ – ابن خلدون ٣ ج ٤ وابن الاثير ٢٤٣ ج ٥ والفخري ١٤٧ .

اما دعاة الشيعة العلوية ، الذين كانوا يدعون للعلويين في العراق وفارس وخراسان قبل انتقال البيعة الى العباسيين ، فقد رضوا بذلك الانتقـال غير مخيرين . وفي جملتهم ابو سلمة الخلال المثري الفارسي الشهير ، وكان يقيم في حمام اعين بضواحي الكوفة ، وكان شديد التمسك بدعوة العلويين ، وقد بذل ماله وجاهه في سبيل نشرها . فلما سمع بانتقال البيعة الى بني العبـاس ، كظم غضبه وتربص ليرى ما يقول الناس . ثم علم ان ابراهيم الامام عين أبا مسلم وأرسله الى خراسان ومعه الوصية المشهورة (من اتهمته فاقتله) وقد اطاعه النقباء فأطاعه ابو سلمة في جملتهم ، وهو يتوقع ان تكون البيعة شورى بين الشيعيين [١] ولما بلغه ان مروان بن محمد آخر خلفاء بني امية قتل ابراهيم الامام ، اضمر الرجوع الى الدعوة العلوية [٢] ثم جاءه أخوه الامام ، وفيهم ابو العباس السفاح واخوته وسائر اهل بيته وقد انتقلت البيعة الى ابي العباس المذكور ، فأنزلهم ابو سلمة عنده ورأى نفسه عاجزاً عن نقل البيعة ، فسكت فبقيت لآل العباس . وكان ابو مسلم وسائر النقباء والقواد يحاربون عساكر الامويين في خراسان وفارس والعراق ، فلما غلبوهم وملكوا خراسان وما يليها جاءوا العراق وبايعوا ابا العباس ، فسكت العلويون خوفاً على انفسهم من ذلك التيار العظيم ، وهم يتوقعون مع ذلك ان تكون الخلافة شورى بين الرهطين .

وعلم العباسيون بما كان يضمره ابو سلمة من نقل الخلافـة الى العلويين ، فشكوه الى ابي مسلم سراً . فدس اليه رجلاً قتله بالكوفة غيلة ، واشاعوا ان بعض الخوارج قتله ، وقد قتلوا كثيرين غيره ممن شكوا في اخلاصهم ، حتى تم الامر لهم .

اما آل الحسن بن علي ، الذين كانوا قد بايعوا احدهم محمد بن عبدالله في المدينة وبايعه معهم سائر بني هاشم ومنهم ابو جعفر المنصور ، فلما علموا بذهاب دولة بني أمية ومبايعة أبي العباس السفاح سنة ١٣٢ هـ جاءوا اليه في الكوفـة يطالبونه ببيعتهم ، فاسترضاهم ابو العباس بالاموال وقطع لهم القطائع وكان في جملة القادمين اليه عبدالله بن الحسن والد صاحب البيعة فاكرم السفاح وفادته وعرض عليه ما يرضاه من المال وقال له: «احتكم علي» فقال عبدالله : « بألف الف درهم ، فاني لم أرها قط . » ولم يكن هذا المال موجوداً عند السفاح ، فاستقرضه له من رجل صيرفي اسمه ابن ابي مقرن ودفعه اليه . واتفق — وعبدالله المذكور عند السفاح — ان بعض الناس جاءه بالجواهر التي كانت عساكر العباسيين قـد

---

١ — الفرج بعد الشدة ١٢٠ ج ٢ . ٢ — المسعودي ١٥٠ ج ٢ .

اغتنمتها من مروان بن محمد ، فجعل السفاح يقلب الجواهر بين يديه وعبدالله ينظر اليهـا ويبكي ، فسأله عن السبب فقال : « هذا عند بنات مروان ، وما رأت بنات عمك مثله قط .. » فحباه به ، ثم امر الصيرفي ان يبتاعه منه فابتاعه بثمانين الف دينار (نحو مليون درهم) وأمر ابو العباس باكرام عبدالله وانزاله على الرحب والسعة ، وهو يتوجس مما في ضميره ، فبث عليه العيون فآنس عنده طمعا فزاده عطاء ، فعاد عبدالله الى المدينة مثقلاً بالاموال ففرقها في اهله ، وكانوا اهل فاقة فلما رأوا تلك الاموال سروا .

وأما عبدالله فما زال مضمراً المطالبة بالخلافة لابنه[1] على مـــا تمت المبايعة عليه ، والعباسيون يخافون ذلك والسفاح يسترضيه وسائر اهله بالاموال كما رأيت . فلمـا توفى السفاح سنة ١٣٦ هـ خلفه اخوه ابو جعفر المنصور ، وكان رجلاً شديد البطش لا يبالي بما يرتكبه في سبيل تأييد سلطانه . فكان همه قبل كل شيء ان يتحقق ما في نفس بني الحسن في المدينة لان لهم في عنقه بيعة ، فبث عليهم العيون واراد اختبارهم ، فبعث بعطاء اهل المدينة على جاري العادة من قبل ، وكتب الى عامله فيها « اعط الناس في ايديهم ولاتبعث الى احد بعطائه ، وتفقد بني هاشم ومن تخلف منهم عن الحضور ، وتحفظ بمحمد وابراهيم ابني عبدالله بن الحسن » ففعل العامل ذلك ، فـــلم يتخلف عن العطاء إلا محمد وابراهيم المذكوران ، فكتب اليه بذلك ، فتحقق المنصور انهما ينويان القيام عليه ، وقد سكتا في اثناء خلافة اخيه لأنه كان يكرمهما ويغدق عليهما والمنصور لا يرى ذلـــك ، فلما رأوا تضييقه عزموا على الخروج ، فبثوا الدعاة في خراسان وغيرها يدعون شيعتهم الى بيعتهم. فعلم ابو جعفر بذلك ، فبعث من يقبض على كتبهم في الطريق ، واحتـــال في استطلاع اسرارهم ، واراد استقدام ابني عبدالله وكتب اليه يستقدمه بهما ، فانكر عبدالله انه يعرف مقرهما ، فأصبح هم المنصور التخلص منهما ومن سائر طلاب الخلافة من العلويين ، وخصوصاً بني الحسن وهم يقيمون في المدينة ، فبعث الى عامله فيها ان يقبض عليهم جميعاً ، ثم امره ان ينقلهم الى العراق ، فنقلهم وهم مثقلون بالقيود والاغلال في ارجلهم واعناقهم ، وقـد حملهم على محامل بغير وطاء ، ولكن ليس فيهم محمد ولا ابراهيم ابنا عبدالله لاستتارهمـا فجاءوا ببني الحسن وعدتهم بضعة عشر رجـــلا ، فأمر المنصور بقتلهم فقتلوا إلا بضعة قليلة

---

١ — العقد الفريد ٢٧ ج ٣ .

اما محمد بن عبدالله صاحب البيعة فلم يقع في الفخ ، فبعث المنصور الى عامله في المدينة يشدد في طلبه ، فلم ير محمد بدأ من القيام . فظهر بالدعوة ، فبايعه اهل المدينة بعد ان استفتوا امامهم مالك بن انس ، فافتاهم بالخروج معه فقالوا : « ان في اعناقنا بيعة لأبي جعفر » فقال : « انكم بايعتموه مكرهين،وان بيعة محمد بن عبدالله اصح منها لأنها انعقدت قبلها » (١) وكان ابو حنيفة على هذا الرأي ، يقول بفضل محمد هذا ويحتج الى حقه ، فحفظ لهما المنصور هذا القول فتأدت اليهما المحنة بسبب ذلك . فلما تمكن من محمد وقتله سنة ١٤٥ هـ أصبح من اكبر المضطهدين لهما فضرب مالكاً على الفتيا في طلاق المكره ، وحبس ابا حنيفة على القضاء كما هو مشهور .

وكان لنكث المنصور بيعة محمد بن عبدالله تأثير عظيم في اذهان العلويين ، لانها جاءتهم بغتة ، وكانوا يظنون ان ذلك لا يصدر من اهل البيت كما صدر من بني أمية ، فتحسروا على ايام بني أمية وتمنوا رجوعها — ذكروا عن محمد بن عبدالله، في اثناء قيامه على المنصور انه سمع شاعراً يرثي بني أمية فبكى ، فقال له عمه : « اتبكي على بني أمية وانت تريد ببني العباس ما تريد ؟ » فقال له : « يا عم ، لقد كنا نقمنا على بني أمية ما نقمنا ، فما بنو العباس إلا اقل خوفاً لله منهم ، وان الحجة على بني العباس اوجب منها عليهم . ولقد كان للقوم اخلاق ومكارم وفواضل ليست لأبي جعفر » (٢) .

سياسة العباسيين في تأييد سلطتهم

القتل على التهمة

قد رأيت فيما تقدم ان بني العباس قاموا يدعون الى انفسهم وهم بين خطرين عظيمين : الاول ان يحاربوا بني أمية ويتغلبوا على احزابهم ، والثاني ان يأمنوا جانب العلويين في مسابقتهم الى الخلافة . وكانت الحوادث قد علمتهم ان الدولة لا تقوم بالدين والتقوى فقط، كما قامت في عصر الراشدين وكما ارادها بنو علي ، وان العلويين انما عجزوا عن نيلها لاعتمادهم في دعوتهم على شرف نسبهم وصدق تدينهم ، وان معاوية لم يغلب إلا بالدهاء والحيلة ، وان عبد الملك لم يستطع استبقاءها إلا بالفتك وشدة البطش. فلما انتقلت البيعة

---

١ — ابن الاثير ٢٠١ ج ٥ وابن خلدون ٣ ج ٤ .   ٢ — الاغاني ١٠٦ ج ١٠ .

من العلويين الى العباسيين ، بمبايعة ابي هاشم بن محمد بن الحنفية لمحمد بن علي العباسي كما تقدم ، ثم افضت بعده الى ابنه ابراهيم الامام ، وتوفق هذا الى ابي مسلم الخراساني ورأى فيه الشدة والدهاء، جعلهقائداً علىنقبائه ودعاته واوصاه وصية هي محور سياسةالعباسيين في تأييد دولتهم هذا نصها :

« انك رجل منا اهل بيت ، احفظ وصيتي : انظر الى هذا الحي من اليمن فالزمهم واسكن بين اظهرهم ، فان الله لا يتم هذا الامر إلا بهم . واتهم ربيعة في امرهم . واما مضر فانهم العدو القريب الدار . واقتل من شككت فيه . وان استطعت ان لا تدع بخراسان من يتكلم بالعربية فافعل . وايما غلام بلغ خمسة اشبار واتهمته فاقتله ... »[١]

فخرج ابو مسلم من عند الامام ابراهيم بهذه الوصية ، وقد عمل بها وعول عليها ، فكان يقتل كل من اتهمه او شك فيه ، فبلغ عدد الذين قتلهم في سبيل هذه الدعوة ٦٠٠,٠٠٠ نفس قتلوا صبرا[٢] بدون حرب في بضع سنين ، وفي جملتهم جماعة من كبار الشيعة ، وفيهم غير واحد من جلة النقباء وكبار الدعاة ، كأبي سلمة الخلال الذي نصر الدعوة العباسية بماله كما نصرها ابو مسلم بسيفه ، وكان يقال له وزير آل محمد كما يقال لأبي مسلم امير آل محمد . فحالما استشار السفاح ابا مسلم في شأنه واتهمه بنقل الخلافة الى العلويين ، اشار ابو مسلم بقتله فقتلوه وقتلوا عماله على الاطراف . وفعل نحو ذلك ايضاً بسليمان بن كثير ، وهو من أكبر دعاة الدولة العباسية قبله ، وكان شيخاً جليلا لم يدخر وسعاً في نصرة تلك الدعوة . فبعد قتل أبي سلمة بلغ ابا مسلم عنه مثل ما بلغه عن ابي سلمة ، فأحضره اليه وقال له : « اتحفظ قول الامام لي : من اتهمته فاقتله ؟ » قال :«نعم» قال : « فاني قد اتهمتك ! » فخاف سليمان وقال : « اناشدك الله .. » قال « لا تناشدني ، فأنت منطو على غش الامام » وامر بضرب عنقه[٣] ناهيك بمن قتلهم من غير الشيعة ، وفيهم الامراء والقواد . قتل بعضهم بالحيلة والبعض الآخر بالغدر ، ومنهم الكرماني واولاده وكبار رجاله[٤] وغيرهم بشر كثير ، حتى سئم الناس فعله وملوا سفك الدماء ،

١ – ابن الاثير ١٦٥ ج ٥ .   ٢ – ابن الاثير ٢٢٧ ج ٢ .
٣ – ابن الاثير ٢٠٨ ج ٥ .   ٤ – ابن الاثير ١٨٣ ج ٥ .

واصبح المسلمون — حتى رجاله — لا يدعى احدهم الى مقابلته إلا اوصى وتكفن وتحنط. وثار من ذلك بعض الامراء من شيعة بني العباس وصاح في رجاله : « ما على هذا اتبعنا آل محمد : ان تسفك الدماء وان يعمل بغير الحق .. » فتبعه على رأيه اكثر من ٣٠٫٠٠٠ رجل فوجه اليهم ابو مسلم جنداً قاتلهم وقتلهم .

المنصور والدولة العباسية

فبهذا وامثاله مهد ابو مسلم الخلافة لبني العباس ، فساعدهم اولا على اخراجها من بني امية الى اهل البيت ، ولم يكتف ببيعة ابي العباس وقتل مروان بن محمد آخر خلفاء بني ، ولكنه حرضهم على قتل من بقي من بني أمية بالاغراء او التخويف على السنة الشعراء . ويقال انه هو الذي اوعز الى سديف الشاعر مولى بني هاشم ان يقول ذلك الشعر في مجلس السفاح ، وفيه سليمان بن هشام بن عبد الملك ، وكان السفاح قد أمنه واكرمه وامن سائر بني أمية — فيقال ان سديفا دخل يوماً على السفاح وعنده سليمان بن هشام فأنشد سديف قوله :

لا يغرنك ما ترى من رجال ... ان تحت الضلوع داء دويا

فضع السيف وارفع السوط حتى ... لا ترى فوق ظهرها امويا

فتأثر السفاح وامر بسليمان فقتل . ودخل شاعر آخر فقال شعراً آخر ، وكان عند السفاح نحو سبعين من رجال بني أمية ، فقتله وبسطت له النطوع على جثثهم فأكل الطعام وهو يسمع انين بعضهم حتى ماتوا جميعاً [١] وقيل في كيفية قتلهم غير ذلك ، وان الذي قتلهم عبدالله بن علي عم السفاح ، وهو مشهور بكرهه لبني أمية وشدة نقمته عليهم ، ولكن لا خلاف في انهم قتلوا غدراً سنة ١٣٢ هـ وهم آمنون كما قتل الامراء المماليك بمصر في اوائل القرن الماضي .

والغالب ان ابا مسلم اوعز الى العباسيين بقتلهم لئلا يقفوا في سبيل دولتهم ، فأشار الى سديف ان يحرضهم على ذلك بشعره . ولم يقل سديف ذلك حباً ببني العباس بل كرهاً لبني أمية وانتقاماً لآل علي ، لأنه من الشيعة العلوية وهو يظن الخلافة شورى بين الشيعتين. فلما رأى المنصور استقل بها بعد ذلك ، نقم على العباسيين وهجاهم باشعار بلغ خبرها المنصور ، فكتب الى عامله ان يأخذ سديفاً فيدفنه حياً ففعل [٢] .

---

١ — الفخري ١٣٤ والعقد الفريد ٢٧٩ ج ٢ . العقد الفريد ٣٢ ج ٣ .

وبعد ان قتل العباسيون من كان في قبضتهم من الامويين، عمدوا الى استئصال شأفتهم من سائر البلاد . ولم ينج منهم الا قليلون ، اهمهم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ، ففر الى المغرب وأسس دولة بني امية بالأندلس كما سيأتي . وتولى استئصال شأفة الامويين من بني العباس عبد الله بن علي ، فبالغ في ذلك حتى نبش قبورهم ومثل بجثثهم ، انتقاماً لما فعلوه قبلاً بالأئمة من آل علي ، وخصوصاً زيد بن زين العابدين . فاستخرج جثة هشام بن عبد الملك من قبره وهو لم يبل ، فضربه ثمانين سوطاً ثم أحرقه [١] .

وبعد ان تخلص المنصور من الأمويين ، لم يدخر ابو مسلم وسعاً في تخليص الدولة من اقربائه آل العباس انفسهم ، وفي جملتهم عبد الله بن علي المتقدم ذكره ، وقد طمع في الخلافة فحاربه بأمر المنصور وغلبه ، واستولى على ما في عسكره من الغنائم والاسلحة . فأراد المنصور ان يوجه همه الى بني الحسن منافسيه في الخلافة ، فاشتغل خاطره بأبي مسلم وأصبح خائفاً منه على سلطانه ، بعد ما بلغ اليه من النفوذ والشهرة والدالة . ولم يكن همه الا قتله ليفرغ للعلويين ، فأتهمه بأنه ينوي اخراج الملك منهم فاستحق القتل عملاً بوصية الامام .

وكان المنصور قد خاف ابا مسلم وعزم على قتله ، من عهد خلافة اخيه ابي العباس ، ولكن أبا العباس لم يرد الاقدام على ذلك . فلما مات السفاح وخلفه المنصور صمم على قتله ، ولكنه استخدمه في حرب عمه عبد الله بن علي ، فضرب عدويه احدهما بالآخر ، فأيهما قتل صاحبه انفرد فيسهل على المنصور قتله . فلما فرغ ابو مسلم من حرب عبد الله ابن علي ، احتال المنصور في استقدامه اليه من خراسان في حديث طويل ، وأدخله عليه دخول الزائر الأمين ، وقد اكمن له اناساً بالسلاح وراء الستر ، فأخذ سيفه منه وحادثه ، وتدرج من العتاب الى التوبيخ ، حتى اذا أزفت الساعة صفق المنصور ، فخرج الكامنو[ن] بأسلحتهم وقتلوه سنة ١٣٧ هـ فأمر به فلفوه بالبساط ، ثم دعا بعض رجال خا[صته] وشاورهم في قتله — ولم يقل انه قتله — فقال له أحدهم : « ان كنت قد أخذت من رأ[سه] شعرة فاقتله ثم اقتله » فأشار المنصور الى البساط ، فلما رأى أبا مسلم فيه وتحقق مو[ته] قال : « عد هذا اليوم أول يوم من خلافتك .. » [٢]

ولما فرغ المنصور من ابي مسلم ، لبث يتوقع ما يبدو من رجاله الخراسانية ، لعلمه انه

---

١ – ابن خلكان ٢٠٥ ج ٢ . ٢ – المسعودي ١٦٧ ج ٢ .

ركب بقتله خطراً عظيماً ، فما عتم أن اثار عليه جماعة منهم يعرفون بالراوندية ، وكادوا يفتكون به لو لم يدافع عنه معن بن زائدة . فقتل الراوندية جميعاً ، ولكنه أصبح لا يأمن على نفسه من مثل هذه الثورة ، فبنى مدينة بغداد بشكل حصين يقيه غائلة ذلك عند الحاجة ، ثم عمد الى تخليص الخلافة من آل علي ، فحارب محمد بن عبدالله وقتله . ثم رأى من آل العباس من ينازعه عليها ، منهم عمه عبد الله ، وكان ابو مسلم قد غلبه ولكنه لم يتمكن من قتله ، فاحتال المنصور في استقدامه بأمان بعثه اليه مع ولديه ، فجاء فحبسه عنده . ثم علم سراً ان ابن عمه عيسى بن موسى ينوي الخروج عن طاعته ، وكان والياً على الكوفة ، فتجاهل وبعث اليه وقد دبر امراً كتمه عن رجال بطانته ، فلما جاء عيسى استقبله المنصور بالترحاب والاكرام ، ثم أخرج من كان في حضرته من الحاشية واستبقاه وحده ، واقبل عليه وقال : « يا ابن العم .. اني مطلعك على امر لا اجد غيرك من اهله ، ولا ارى سواك مساعداً لي على حمل ثقله ، فهل انت في موضع ظني بك، وعامل ما فيه بقاء نعمتك التي هي منوطة ببقاء ملكي ؟ » فقال له عيسى : « انا عبد اميرالمؤمنين، ونفسي طوع أمره ونهيه .. » فقال المنصور : « ان عمي وعمك عبدالله قد فسدت بطانته، واعتمد على ما بعضه يبيح دمه ، وفي قتله صلاح ملكنا . فخذه اليك واقتله سراً ..» فاطاعه عيسى، فسلم اليه عمه فمضى به الى الكوفة . واضمر المنصور ان ابن عمه عيسى اذا قتل عمه عبدالله الزمه القصاص ، وسلمه الى أعمامه اخوة عبدالله ليقتلوه به ، فيكون قد استراح من الاثنين معاً . أما عيسى فكأنه شك في نية المنصور ، والناس يومئذ يتهمون بعضهم بعضاً خوفاً من وصية الامام ، فاستشار بعض ذوي مشورته فحذروه من عاقبة ذلك فحبس عمه ولم يقتله . ولما طلبه المنصور منه دفعه اليه حياً ، فقتله في بيت جعل اساسه على الملح[1] .

وأمثلة ما اتاه المنصور من الدهاء والفتك في تأسيس دولته كثيرة ، وكان يعطي الأمان ثم ينكث ، كما رأيت فعله بعمه عبد الله ، وكما فعل بابن هبيرة عامل بني أمية على واسط ، لما بويع السفاح وأرسل اخاه المنصور لمحاربته ، فجرت السفراء بينهما واتفقا على أن يدخل ابن هبيرة في أمان بني العباس ، فكتب له المنصور أمانا ظل ابن هبيرة اربعين ليلة وهو يشاور فيه العلماء حتى تحقق صحته ورضي به ، فبعثه الى ابي جعفر ، فأنفذه ابو جعفر الى أبي العباس فأمره بامضائه . وكان رأي أبي جعفر في بادىء الامر ان يفي

---

١ – المستطرف ٦٣ ج ١ وابن الاثير ٢٥٧ ج ٥ .

بما اعطاه ، ولكن أبا مسلم (وكان لا يزال حيا) اشار على السفاح ان يقتله قائلاً : « ان الطريق السهل اذا القيت فيه الحجارة فسد. لا والله لا يصلح طريق فيه ابن هبيرة.» فبعد ان جاء ابن هبيرة الى أبي جعفر مستأمناً غدر به وقتله[١] لانه اتهمه ، ثم اتهم ابا مسلم وقتله بعد ان أمنه كما رأيت . وشاع نكث الأمان والغدر عن المنصور وتحدث به الناس . فلما قام محمد بن عبدالله العلوي في المدينة ، خافه المنصور كما تقدم ، فبعث اليه يعرض عليه الأمان ويعده خيراً ، فاجابه محمد : « أي امان تعطيني ؟ أمان ابن هبيرة ، ام امان عمك عبدالله ، ام امان ابي مسلم ؟ »[٢] .

وظل المنصور وابو مسلم قدوة لمن جاء بعدهما في الدهاء والفتك . على انهم لم يكونوا يبطشون او يفتكون الا بمن نازعهم على الخلافة ، فهذا يقتلونه على الشك . أما أحكامهم فيما خلا ذلك ففي نهاية العدل والرفق ، كما سيأتي . اما من كان في نفسه مطمع في الخلافة او ما يتعلق بها فحكمه حكم المجرمين ، فكل من يطلب الخلافة لنفسه او يسعى فيها لأحد كانت حياته في خطر ، فاذا دعي للمثول بين يدي الخليفة اغتسل وتحنط استعداداً للموت .

وكان المنصور ايضاً قدوة لعبدالرحمن بن معاوية ، مؤسس دولة بني أمية في الاندلس، وقد فر من العراق فالشام الى المغرب خوفاً من القتل ، فنصره رجاله وخصوصاً مولى له اسمه بدر ، سعى في تأييد سلطانه مثل سعي أبي مسلم في الدولة العباسية ، فلما استتب له الأمر سلبه كل نعمة وسجنه ثم أقصاه حتى مات ، وفعل نحو ذلك في رؤساء الاحزاب الذين نصروه ، وسيأتي الكلام على ذلك

واشتهر فتك العباسيين بالذين ينصرونهم في تأييد دولتهم ، حتى صار الخلفاء انفسهم يشيرون الى ذلك اذا أعوزهم الاستدلال به . فالأمين لما رأى طاهر بن الحسين يتفانى في نصرة أخيه المأمون ، وقد تولى قيادة جند الخراسانيين وغلب على جند الأمين وكاد يذهب بدولته ، كتب اليه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، اعلم انه ما قام لنا منذ قمنا قائم بحقنا وكان جزاؤه إلا السيف ، فانظر لنفسك او دع .. »[٣] وفي الواقع ان المأمون لما استتب له الأمر في الخلافة بسيف طاهر المذكور عمل على قتله بحجة مثل حجة المنصور بقتل ابي مسلم ، فأهدى له خادماً كان رباه وامره ان يسمه ففعل[٤] .

١ — ابن خلكان ٢٧٩ ج ٢ . ٢ — ابن الاثير ٢٥٤ ج ٥ .
٣ — المسعودي ٢١٣ ج ٢ . ٤ — ابن خلكان ٢٣٧ ج ١ .

سياسة الدولة العباسية في معاملة الرعية

الموالي الفرس

قد رأيت ان الدولة العباسية قامت بالفرس وغيرهم من الرعايا ، وفيهم الموالي وأهل الذمة وكانوا ناقمين على دوله بني أمية ، فنصروا أهل البيت انتقاماً منها ، والجمهور الأهم منهم الفرس .

الفرس والعرب قبل الاسلام

الفرس أهل سياسة وسلطان ، وقد انشأوا الدول وساسوا الناس ووضعوا الاحكام من قديم الزمان . وضخمت دولتهم وقويت شوكتهم حتى حاربوا اليونان والرومان ، ونبغ فيهم القواد والعلماء والحكماء ، وترجموا العلم والفلسفة ، وكان لهم شأن كبير في التاريخ القديم ، واشتهر فيهم فضلا عن الاسر المالكة والدهاقين والاساورة بيوتات شريفة ، أشهرها سبعة كان الشرف فيها . وعلى اطلال اصطخر عاصمة الفرس القدماء ، وغيرها من بقايا مدنهم القديمة ، نقوش كتابية ، مثل التي خلفها الفراعنة واليونان والرومان وغيرهم .

وكان في مملكة فارس قبائل كثيرة من العرب ، يقيمون على حدودها بين النهرين في العراق والجزيرة ، وكانت لهم دولة عربية تحت رعاية الفرس، وهم المناذرة في الحيرة . وكثيراً ما كان الفرس يتعلمون لغة العرب وينظمون الشعر العربي ، حتى ملوكهم فانهم لم يكونوا يستنكفون من ذلك — حكي ان بهرام بن يزدجرد بن سابور نشأ بين العرب بالحيرة وتعلم العربية ونظم فيها شعراً[١] وكانوا يستخدمون العرب في دواوينهم ، للكتابة او الترجمة بينهم وبين من يفد على ملك الفرس من عرب الحجاز او اليمن او نجد ، وخصوصاً بعد ان دخلت اليمن في حوزتهم على عهد كسرى انوشروان .

واشهر كتاب العرب في دواوين الفرس آل عدي بن زيد من المضرية ، وكان عدي وابوه وجده من مهرة الكتاب ، على قلة من يحسن الكتابة من العرب في ذلك العهد ، وكانوا يخدمون الفرس في دواوينهم . فجده حماز بن زيد بن ايوب كان كاتباً عند النعمان

١ — المسعودي ١١٣ ج ١ .

في الحيرة ، وتقرب من الفرس وولد له زيد فأوصى به دهقان كان صديقاً له وهو من أهل الدولة ، فرباه الدهقان وعلمه الفارسية فنبغ في اللسانين ، فتقدم الدهقان الى كسرى ان يوليه البريد . ولم يكن ينال هذا المنصب إلا ابناء المرازبة ، فتقدم زيد في الدولة حتى صار كسرى يستشيره في مهامه، وولد لزيد ابنه عدي وتثقف وتعلم مثل ابناء الاساورة، وأتقن العاب الفرس على الخيل بالصوالجة ، فقربه كسرى وجعله كاتباً في ديوانه بالمدائن ، وصار من اصحاب السطوة والكلمة النافذة ، وكسرى يأذن له مع الخاصة ويبعث به في المهمات الكبرى الى ملك الروم وغيره . واذا فسد العرب على الفرس وتمردوا توسط عدي في اصلاحهم ، واذا مات ملك العرب في الحيرة لا يولي كسرى من يخلفه إلا بمشورة عدي. فشق ذلك على ملوك الحيرة حسداً له ، لأنهم يمنية وعـــدي مضري ، فوشى به بعضهم الى كسرى حتى قتل ، وتولى بعده ابنه زيد بن عدي في المكاتبة عن كسرى الى ملوك العرب في أمورها وفي خواص أمور الملك . وكانت لكسرى وظائف يؤديها اليه العرب كل عام ، فكان زيد يتولى ذلك وغيره [١] .

وجملة القول ان العرب كانوا يخدمون الفرس في ايام دولتهم قبـــل الاسلام ، كما خدم الفرس العرب في ايام دولتهم بعد الاسلام ، على ان الفرس بلغ من ضخامة سلطانهم وسعة ملكهم قبل الاسلام أن كانوا يسمون انفسهم الاحرار والاسياد ويعدون سائر الناس عبيداً لهم ، اي انهم أصيبوا بما اصاب العرب بعد ذلك ، وبما يصاب به غيرهم من الامم التي توفق الى السيادة فيغلب عليها الغرور وتترفع عن سواها .

فلما ظهر الاسلام وقامت دولة الخلفاء مقـــام دولة الاكاسرة ، كان ذلك شديداً على الفرس، وخصوصاً بعد ما لاقوه من ضغط بني امية واحتقارهم، فكانوا ينتقضون فيحاربهم الأمويون ، ويبالغون في اهانتهم وظلمهم ويضربون مدائنهم بالمجانيق ويقتلون اهاليها ، حتى افنوا اكثر البيوتات القديمة ووجوه الأساورة الذين كانوا يأوون الى اصخر [٢] فلا لوم عليهم بعـــد ذلك اذا نصروا كل قائم على الدولة الأموية . على انهم لم يفوزوا الا بطلبها للعباسيين كما رأيت ، وكانوا يعدون ذلك فوزاً لأنفسهم ، تخلصاً من عصبية العرب عليهم ، وطمعاً في الرجوع الى ما كانوا عليه من السلطة والشوكة .

---

١ – الاغاني ٢٠ ج ٢ . ٢ – ابن الاثير ٩٠٤ ج ٣ .

استخدام الموالي الفرس

فلما قبض العباسيون على ازمة الملك ، جعلوا عاصمة مملكتهم بين شيعتهم في العراق ، فأقاموا اولا في الكوفة ثم في الهاشمية ، حتى بنى المنصور مدينة بغداد على دجلة فجعلوها دار الخلافة . وقربوا الموالي ، وخصوصاً اهل خراسان ، فجعلوهم بطانتهم ورجال دولتهم ، ولا سيما الذين حاربوا مع أبي مسلم في طلب الخلافة لهم . واشهرهم خالد بن برمك جد الوزراء البرامكة ، فأنه كان من قواد جند ابي مسلم ، وشهد معه الوقائع وابلى بلاء حسناً في نصرة اهل البيت ، وكان ابوه برمك من مجوس بلخ ، وكان يخدم بيتاً من بيوت النار هناك اسمه النوبهار ، اشتهر هو وبنوه بسدانته ، وكان برمك عظيم المقدار عند الفرس . فاسلم خالد ودخل في جند ابي مسلم ، وكان عاقلاً حازماً فلم يجعل للعباسيين محلا للشك في صداقته ، كما فعل ابو مسلم . فقدمه ابو العباس وولاه الوزارة ، ثم تولاها للمنصور وخدمه بعد مقتل ابي مسلم في محاربة الاكراد ، وكانوا قد تغلبوا على فارس[١] وتوالت الوزارة في اعقابه الى يحيى ابنه ، فجعفر ابن ابنه ، وهو الذي نكب البرامكة على عهده لسبب سنذكره .

وكذلك فعل العباسيون في استخدام الموالي في مهماتهم . واول من استخدمهم لذلك المنصور ، فانه استعمل مواليه وغلمانه وصرفهم في مهماته وقدمهم على العرب ، فاقتدى به الخلفاء بعده حتى سقطت دولة العرب ، كما سيجيء . ولما حضرته الوفاة اوصى بثلث ماله لمواليه[٢] واوصى باكرامهم . ومن اقواله في وصيته لابنه المهدي : وانظر الى مواليك فأحسن اليهم وقربهم واستكثر منهم ، فانهم مادتك لشدتك ان نزلت بك .. واوصيك بأهل خراسان ، فانهم انصارك وشيعتك الذين بذلوا اموالهم ودماءهم في دولتك ، ومن لا تخرج محبتك من قلوبهم ، ان تحسن اليهم وتتجاوز عن مسيئهم وتكافئهم عما كان منهم ، وتخلف من مات منهم في اهله وولده[٣] .

ولا غرو اذا اكرم العباسيون اهل خراسان ، بعد ان آثروهم على اهلهم وابنائهم وقتلوا من خالفهم . ولكن العرب كانوا يستغربون ذلك لأول وهلة ، فكانوا اذا جاءوا مجلس الخليفة رأوا الخراسانيين يذهبون ويجيئون ويدخلون على الخليفة كأنهم من اهله ، والعرب يقفون ببابه لا يؤذن لهم إلا بمشقة — ذكروا ان ابا نخيلة الشاعر العربي وفد على

---

١ — ابن خلكان ١٠٦ ج ١ . ٢ — الفخري ١٢٠ . ٣ — ابن الاثير ٧ ج ٦ .

أبي جعفر المنصور ، ووقف ببابه واستأذن فلم يؤذن له ، وهو يرى الخراسانية تدخل وتخرج وتهزأ به ، فيرون شيخاً اعرابياً جلفاً فيعبثون به ، فسأله صديق له رآه في تلك الحال : « كيف ترى ما انت فيه من هذه الدولة ؟ » فقال :

اكثر خلق الله من لا يدرى   من اي خلق الله حين يلقى
وحلة تنشر ثم تطوى   وطيلسان يشترى فيغلى
لعبد عبد او لمولى مولى   يا ويح بيت المال ماذا يلقى[١]

وكان المهدي بن المنصور اذا اراد الشورى جمع خاصته للمداولة ، وأول من يتكلم منهم الموالي[٢] وقس على ذلك في سائر الاحوال . فأصبحت بطانة الخليفة ورجال دولته وخاصة حكومته من الموالي الفرس ، وهم نظموا الحكومة ودواوينها ، ورتبوا احوالها ومنهم الوزراء والقواد والعمال والكتاب والحجاب كأنها دولتهم ، لأن الغالب في هذه المناصب ان تنتقل من الرجل الى بعض اولاده ، مثل منصب الخلافة ، فاشتهر بعض البيوتات بالوزارة او الولاية ، كآل برمك وآل قحطبة وآل سهل وآل طاهر وغيرهم .

وكانت امور الدولة ترجع الى الوزراء : يولون ويعزلون ، واذا تولاها احدهم ولى الاعمال رجالاً من اصحابه او مريديه ، ومن ناحية اخرى تغيرت الاحوال على اهل البلاد ، واطمأنت خواطرهم وتفرغوا للعمل في التجارة او الصناعة او الزراعة ، ونسوا ما كانوا فيه من ضغط بني أمية واستبدادهم ، واطلقت حرية العمل وحرية الدين، وذهبت عصبية العرب ووقع الناس في بحبوحة الأمن .

ولما استبد الاتراك في الدولة وضعفت شوكة الفرس ، بعد المأمون كما سيأتي ، ظل الموالي من اصحاب النفوذ في دولة الخلفاء ، يعتمد عليهم الخليفة في أموره الخاصة والعامة من الكتابة الى القيادة ، ولم يعد التقدم فيهم للفرس بنوع خاص ، ولكنهم اصبحوا اخلاطاً منهم ومن سواهم ، وانما تجمعهم كلمة الموالي ويتفانون في خدمة الخليفة او الامير .

---

١ – الاغاني ١٤٨ ج ١٨ .   ٢ – العقد الفريد ٥٣ ج ١ .

أهل الذمة في الدولة العباسية

لما أخذ الموالي الفرس في تنظيم الحكومة وترتيب دواوينها ، أحسوا بافتقارهم الى من يعينهم على ذلك من أهل الذمة في العراق والشام ، وكانوا اهل معرفة في الحساب والكتابة والخراج فضلا عن العلوم ، فأطمعوهم بالرواتب والجوائز وسهلوا لهم أسباب المعيشة وقربوهم واكرموهم . فاطمأنوا لتلك الدولة وتقاطروا الى بغداد ، وخدموا العباسيين بعقولهم وأقلامهم ، بما آنسوه من تسامحهم واطلاق حرية الدين لهم ،فاستخدمهم العباسيون في دواوينهم وولوهم خزائنهم وضياعهم .

فالجهابذة (الصيارف) كان اكثرهم من اليهود ، والكتاب كان فيهم جماعة كبيرة من النصارى . وكثيراً ما كان النصارى يتقلدون ديوان الجيش ، وربما عظمت منزلة صاحب هذا الديوان وهو نصراني – حتى يتسابق اكابر رجال الدولة من المسلمين الى تقبيل يده . وممن تقلدوا ديوان الجيش من النصارى في الدولة العباسية ملك بن الوليد ، قلده اياه المعتضد بالله ، واسرائيل النصراني ، قلده اياه الناصر لدين الله . وقد أدرك بعضهم رتبة الوزارة ، فتقلد امرها ابو العلاء صاعد بن ثابت في ايام المتقي بالله[١] .

وسرى ذلك الاعتدال والتسامح في الدين الى الدولة الفاطمية بمصر ، وكان لأهل الذمة فيها شأن عظيم ، فتقلد الوزارة او الكتابة (وهي كالوزارة في مصر) غير واحد منهم ، وقويت شوكتهم في الدولة ، فاستوزر العزيز بالله الفاطمي رجلا نصرانياً اسمه عيسى بن نسطوروس ، وآخر يهودياً اسمه منشا ، فعز النصارى واليهود في ايامهما[٢] ومن نافذي الكلمة في الدولة الفاطمية من اهل الذمة ، فهد بن ابراهيم النصراني كاتب برجوان ، صاحب النفوذ الاعظم في ايام الحاكم بأمر الله . فكان فهد هذا يوقع عن برجوان،ويخاطب بالرئيس ، وله نفوذ عظيم وارتفع شأن النصارى في أيامه ، حتى كادت الدولة تكون في ايديهم[٣] على أن الكتابيين – أهل الذمة كانوا في ايام الحاكم هم اهل الدولة ، وكذلك في ايام الحافظ[٤] وكتاب الجيش في اكثر الاحايين من اليهود .

ناهيك بمن كان الخلفاء والامراء يستخدمونهم من اطباء اهل الذمة وحكمائهم وتراجمتهم

١ – تاريخ الوزراء ٩٥ والفرج ١٤٩ ج ٢ . ٢ – ابن الاثير ٣٢ ج ٩ والسيوطي ١٧ ج ٢.
٣ – المقريزي ٤ و ٣١ ج ٢ . ٤ – المقريزي ٤٠٦ ج ١ .

وكتابهم ، وخصوصاً نصارى الشام ، فانهم خدموا التمدن الاسلامي في نقل العلوم من اليونانية والفارسية والسريانية وغيرها الى اللغة العربية ، على ما فصلناه في الجزء الثالث من هذا الكتاب ، وبينا ما كان من محاسنة الخلفاء لهم وتقديمهم ورعاية جانبهم واكرامهم ، وفيهم النصراني واليهودي والمجوسي والسامري والصابي وغيرهم ، والكل راتعــون في بحبوحة السكينة والطمأنينة يتكسبون من خزائن الخلفاء والامراء

وكان الخلفاء في صدر الدولة العباسية يكرمون الأساقفة ويجالسونهم . فالهادي كان يستدعي اليه الأسقف تيموثاوس في اكثر الايام ويحاوره في الدين ، ويبحث معه ويناظره، ويطرح عليه كثيراً من المشكلات ، وله معه مباحث طويلة ضمنها كتاباً ألفه الأسقف المذكور في هذا الموضوع ، وكذلك كان يفعل معه هرون الرشيد[1] وغيره ، واغضوا عن بعض ما في عهد عمر بن الخطاب من التضييق على النصارى ،كمنعهم من احداث الكنائس[2] او الاحتفال بالاعياد ، او منعهم من خدمة الدولة ، وسهلوا لهم الاختلاط بهم وأظهروا احترام مذهبهم ، حتى اصبح النصارى يهدون الخلفاء ايقونات بعض القديسين فيقبلونها منهم ، وكثيراً ما كان الاساقفة يطلبون من الخلفــاء ان يثبتوهم في مناصبهم للاعتزاز بذلك على اخصامهم او منازعيهم .

اضطهاد اهل الذمة في العصر العباسي

على ان ذلك لم يمنع تضييق بعض الخلفاء على النصارى ، بمقتضى عهد عمر ، وهــدم كنائسهم — فان الملوك المستبدين تختلف سياستهم باختلاف اخلاقهم واطوارهم ، فقد يتراءى لبعضهم التضييق على النصارى لسبب او لغير سبب كما فعل هرون الرشيد والمتوكل من خلفاء بني العباس . فالمتوكل المتوفي سنة ٢٤٧ ﻫ كان شديد الوطأة على النصارى ، ولعله أشد الخلفاء العباسيين وطأة عليهم ، لأنه أمر بهدم الكنائس المحدثة بعد الاسلام ، ونهى ان يستعان بهم في الاعمال ، او ان يظهروا الصلبان في شمانينهم ، وأمر ان يجعل على ابوابهم صور شياطين من الخشب، وان يلبسوا الطيالسة العسلية، ويشدوا الزنار، ويركبوا السروج بالركب الخشب بكرتين في مؤخر السرج ، وأن يرقعوا لباس رجالهم برقعتين تخالفان لون الثوب ، قدر كل واحــدة اربع اصابع ولون كل واحدة غير لون

١ — تاريخ المشارقة (خط) ١٤٣ . ٢ — المقريزي ١١٥ ج ٢ .

الاخرى ، ومن خرج من نسائهم تلبس ازاراً عسلياً ، ومنعهم عن لبس المناطق وغير ذلك[١].

ولا يستغرب هذا التضييق من المتوكل ، فانه نقم مثل هذه النقمة على سائر اهل الدولة وغيرهم ، وشدد النكير على الشيعة وأهلك العلماء والكتاب . وكان شديدالتعصب على الشيعة ، فاضطهدهم وعذبهم ، ولاقى اهل الذمة منه الشدائد[٢] على انه لم يرتكب هذا الشطط بغير سبب دعا اليه ، فقد حمله عليه انتصار النصارى لأعداء الدولة — وذلك أن اهل حمص المسلمين وثبوا بعاملهم سنة ٢٤١ هـ فأعانهم النصارى عليه ، فكتب العامل الى المتوكل فأمره باخراج النصارى وهدم كنائسهم ، وكان هذا من اسباب نقمته عليهم [٣] .

ويقال نحو ذلك فيما صدر في ايام الرشيد من الاوامر بهدم الكنائس في الثغور ، واخذ اهل الذمة بمخالفة هيئة المسلمين في لباسهم وركوبهم[٤] — فعل الرشيد ذلك على أثر رجوعه من حرب الروم في هرقلة ، فالظاهر أن نصارى الثغور (الحدود بين مملكة الروم ومملكة الاسلام) ساعدوا ابناء طائفتهم الروم في التجسس على احوال المسلمين واستخدموا الكنائس لهذه الغاية ، فأمر الرشيد بالتضييق عليهم انتقاماً منهم ، وخصص أمره هذا بأهل الثغور على الحدود ، وشدد على الخصوص في مخالفتهم هيئة المسلمين في لباسهم ، دفعاً لتنكرهم وتجسس احوال المسلمين — وإلا فالرشيد من احسن خلفاء بني العباس عدلاً ورفقاً بأهل الذمة ، وكان احد عمال اخيه الهادي قد هدم بعض الكنائس بمصر ، فلما أفضت الخلافة اليه أمر باعادة بنيانها[٥] .

وهكذا يقال في اضطهاد النصارى بمصر على عهد الدولة الفاطمية ، مع ما تقدم من منزلتهم وحرية الدين عندهم . واقدم ما قاسوه من تضييق الحكام في طقوسهم وكنائسهم في ايام الحاكم بأمر الله سنة ٣٩٥ هـ وسبب ذلك ما ذكرناه من تقدم النصارى في مصالح الدولة في ايامه حتى صاروا كالوزراء ، وتعاظموا لاتساع احوالهم وكثرة اموالهم ، فتزايدت مكايدتهم للمسلمين على عهد عيسى بن نسطوروس وفهد بن ابراهيم النصرانيين ، فغضب الحاكم بأمر الله — وكان اذا غضب لا يملك نفسه فيبلغ غضبه حد الجنون . فأمر

١ — ابن خلدون ٢٧٥ ج ٣ وابن الاثير ٢٠ ج ٧ والمقريزي ٤٩٤ ج ٢ .
٢ — تاريخ المشارقة (خط) ١٤٦ . ٣ — ابن الاثير ٢٩ ج ٧ .
٤ — ابن الاثير ٨٢ ج ٦ . ٥ — المقريزي ٥١١ ج ٢ .

بقتل هذين الرجلين وشدد على النصارى فأمرهم بلبس ثياب الغيار وشد الزنار في اوساطهم ، ومنعهم من عمل الشعانين والتظاهر بما كانت عادتهم فيه ، وقبض على ما في الكنائس وأدخله في الديوان ، ومنع النصارى من شراء العبيد ، وهدم كنائسهم واجبرهم على الاسلام ، وغير ذلك من التشديد والعنف[1] مما لم يقاس النصارى مثله من قبل ، ولعله اعظم ما اصابهم من الاضطهاد في ابان التمدن الاسلامي . ولا جناح على التمدن الاسلامي منه ، لان مرتكبه اتاه عن حمق او جنون .

وقد سوغ للحاكم المبالغة في اضطهاد النصارى حرب كانت بين الروم والمسلمين يومئذ ، فخرب الروم بعض جوامع المسلمين ومنها جامع كان في القسطنطينية ، فانتقم الحاكم منهم بالتضييق على اهل مذهبهم في بلاده ، وكان في جملة ما هدمه من الكنائس كنيسة القيامة بالقدس . فلما تولى الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله بعد الحاكم ، عقدت الهدنة بينه وبين ملك الروم سنة ٤١٨ هـ واتفقا على بناء جامع القسطنطينية ، وان يعاد بناء كنيسة القيامة ، وان يؤذن لمن اظهر الاسلام في ايام الحاكم ان يعود الى النصرانية اذا شاء ، فرجع اليها كثيرون[2] .

وربما كان السبب الذي حمل الحاكم على ذلك التضييق طفيفاً ، فعظمه تعصبه وحمقه فأمر بالهدم والقتل . على انه كثيراً ما كلف رعاياه من المسلمين وغيرهم أموراً مضحكة تشبه الجنون الصريح ، كاصداره المنشورات بمنعهم من أكل الملوخيا او من البقلة المسماة بالجرجير ، او منعهم من عمل الفقاع ، ومنع النساء من التبرج او المسير في الطرق ، والأمر بسب السلف ولعنهم ، ونقش ذلك على المساجد وابواب الحوانيت وعلى المقابر ، ونحو ذلك من الأوامر التي تدل على اختلال في عقله . على أننا قلما نراه أتى أمراً الا لسبب ، وان كان ضعيفاً — فالسبب في منعه الناس من اكل الملوخيا مثلاً ان معاوية بن أبي سفيان عدو الشيعة كان يحبها ، والدولة الفاطمية شيعية . ومنعهم من اكل بقلة الجرجير لانها منسوبة الى عائشة أم المؤمنين ، ومنعهم من أكل المتوكلية لانها تنسب الى المتوكل وهو من أعداء الشيعة . ومنع الناس من شرب الفقاع لان علي بن ابي طالب كان يكرهه[3] وقس على ذلك سائر ضروب الحماقة والغرابة ، ومن هذا القبيل اضطهاد النصارى وتخريب كنائسهم . على أنه عاد ، لسبب طفيف او بلا سبب ، فأمر ببناء تلك الكنائس[4] وخير

---

١ — المقريزي ٤٩٥ ج ٢ .   ٢ — المقريزي ٣٥٥ ج ١ .
٣ — المقريزي ٣٤١ ج ٢ .   ٤ — ابن الاثير ٨٦ ج ٩ .

النصارى في الرجوع الى دينهم فارتد كثير منهم - وقد تقدم ان ذلك كان في أيام ابنه الظاهر ومن أعماله الغريبة انه ابتنى المدارس ، وجعل فيها الفقهاء والمشايخ ثم قتلهم وخربها ، وألزم الناس باغلاق الاسواق نهاراً وفتحها ليلا ، فظل الناس على ذلك دهراً طويلا (١) فمن كانت هذه أعماله لا يستغرب منه اضطهاد ، ولا يعد اضطهاده عاراً على الدولة او الامة .

على ان أفظع ما قاساه النصارى واليهود من الاضطهاد ، انما كان في دور الاضمحلال او التقهقر في العصور الاسلامية الوسطى ، وخصوصاً بعد الحروب الصليبية ، لانها كانت سبباً كبيراً في اثارة التعصب بين الامتين . فالنصارى تذكروا تقدم المسلمين عليهم واضطهاد حكامهم لدينهم ، وزاد حقد المسلمين على رعاياهم النصارى لما كان من نصرتهم الافرنج سراً ، فبالغ امراء المسلمين في الفتك بهم . فنصارى « قارا » مثلا — بين دمشق وحمص — كانوا يسرقون المسلمين في اثناء تلك الحرب ، ويبيعونهم خفية للافرنج ، فلما مر بها السلطان الملك الظاهر في اثناء عودته من بعض غزواته سنة ٦٦٤ هـ أمر بنهب اهلها وقتل كبارهم ، واتخذ صبيانهم مماليك فتربوا بين الاتراك في الديار المصرية ، فصار منهم اجناد وأمراء (٢) كما فعل العثمانيون بتجنيد الانكشارية بعد ذلك بزمن غير بعيد .

وتزايدت الضغائن بعد تلك الحروب بين المسلمين وأهل الذمة في بلادهم ، حتى أصبحت كل من الطائفتين تبذل جهدها في أذى الاخرى ، ولما كانت الحكومة اسلامية فالنصارى هم المغلوبون . فاذا احترقت حارة للمسلمين اتهموا النصارى واليهود باحراقها ، فتأمر الحكومة باحراقهم او احراق كنائسهم (٣) وهذا التعصب من مقتضيات تلك العصور المظلمة ، لان الدول النصرانية كانت تعامل المسلمين في بلادهم مثل هذه المعاملة أو أشد منها . وكثيراً ما كانوا يهددون أسرى المسلمين بالقتل او يتنصروا (٤) واذا دخلوا بلداً اسلامياً بالحرب عنوة ضربوا نواقيسهم في الجوامع (٥) ولما تغلب نصارى الاندلس على المسلمين اجبروهم على حمل علامة كان يحملها اليهود وأهل الدجن ، ولما غلبوهم في آخر الدولة خيروهم بين النصرانية والموت فتنصروا عن آخرهم (٦) .

---

١ — السيوطي ٧ ج ٢ . ٢ — ابو الفداء ٤ ج ٤ .
٣ — المقريزي ٨ ج ٢ وابو الفداء ١١٧ ج ٤ وسراج الملوك ١٨٩ .
٤ — ابن الاثير ٢٩ ج ٧ . ٥ — ابن الاثير ٦٢ ج ٨ . ٦ — نفح الطيب ١٢٦٩ ج ٢ .

تعصب العامة على النصارى

قلنا ان الخلفاء والامراء قدموا النصارى في مصالح الدولة ، وأغدقوا عليهم الاموال واكرموهم ورفعوا منزلتهم ، وانهم فعلوا ذلك لاحتياجهم اليهم في ابان ذلك التمدن ، لنقل العلوم او الطب او الحساب او الكتابة او غيرهـا مما تحتاج اليـه الدولة في تنظيم شؤونها ، لاشتغال المسلمين يومئذ بالرياسة وكان أولو الأمر من الجهة الأخرى يقدمون المسلمين في المعاملات الرسمية على سواهم من اهل الذمة ، كما كان الأمويون يقدمون العرب على غير العرب ، فنشأ التحاسد بين عامة المسلمين وعامة المسيحيين وذلك طبيعي في كل مملكة يتنازع العمل فيها ملتان او طائفتان ، ولا يزال ذلك جارياً على نحو هذا الشكل الى يومنا هذا .

نشأ هذا التحاسد اولا بين العامة ونحوهم من أهل المهن العلمية أو الحرف الصناعية ، الذين يحومون حول الخلفاء والأمراء للارتزاق بما يعوزهم من أسباب المدنية ، أو يرضيهم من عوامل الرخاء والترف كالشعر والغناء والكتابة والحساب وغيرها . وأما أهل الطبقة العليا (الشرفاء) والاغنياء ورجال الدولة ، فقلما كانوا يتعصبون أو يتباغضون ، وانمـا كانوا ينظرون الى الرجال من حيث هم بقطع النظر عن مذاهبهم ، فالشريف الرضي الذي كتب الى الخليفة القادر بالله :

عطفاً أمير المؤمنين فاننا ... في دوحة العلياء لا نتفرق
ما بيننا يوم الفخار تفاوت ... أبداً ، كلانا في المعالي معرق
الا الخلافـة ميزتك فانني ... أنا عاطل منها وأنت مطوق

رثى أبا اسحق الصابي بقصيدته المشهورة التي مطلعها :

أرأيت من حملوا على الأعواد ... أرأيت كيف خبا ضياء النادي

فلم يقع ذلك موقع الاستحسان عند العامة ، فعابه بعضهم لكونه شريفاً يرثي صابئاً فقال له : « انما رثيت فضله » [١] .

وأما العامة ومن جرى مجراهم ، أو استعان بهم عـلى بعض المصالح أو المناصب ، فكانوا يظهرون التعصب على النصارى ، ويسعون في أذيتهم لدى ولاة الأمور ، فاذا

---

١ – ابن خلكان ١٣ ج ١ و ٢ ج ٢ .

كان صاحب الأمر حازماً لا يصغي للوشاية   ذكروا أن رجلا نصرانياً من أهل بغداد اتهمه بعض المسلمين سنة ٢٨٤ هـ أنه شتم النبي (صلعم) فاجتمع أهـل بغداد وصاحوا بالقاسم بن عبيد الله وزير المعتضد بالله يومئذ وطالبوه باقامة الحد عليه ، وكأنه اعتقد براءة الرجل فلم يجب طلبهم [١] واتصل الأمر بالخليفة وكان له شأن كبير . والحكم صاحب الاندلس في أوائل القرن الثالث للهجرة صلب أحد عماله لانه ظلم أبناء اهـل الذمة [٢] .

فلما اقتربت الدولة من الشيخوخة أخذ هذا التعصب يسري من العامة الى الخاصة ، لرغبة النـــاس يومئذ في التقرب من رجال الدولة بالتزلف والتملق التماساً للكسب ، فينتحلون الاسباب المساعدة على ذلك، ويتسابقون الى دس الدسائس واختلاق الوشايات. وأسهل وسائل التزلف في الدولة الاسلامية التدين ، لاشتراك الدين والسياسة في مصالحها ، فكان بعضهم يستعينون في اظهار التدين والغيرة على الاسلام بالطعن في الاديان الاخرى، فاذا كان صاحب الأمر ضعيفاً انطلى عليه ذلك ، واضطهد أهل تلك الاديان . ولذلك كان التعصب على أهل الذمة ، ولا سيما النصارى ، يزداد بتقدم الدولة الاسلامية نحو الشيخوخة . وقد اشتد في الأجيـال الاسلامية الوسطى عـلى أثر الحروب الصليبية ، فأصبح الحكام وأرباب المناصب العلمية وغيرها يجاهرون باحتقار غير المسلمين، ويبالغون في اضطهادهم ويعاملونهم معاملة الاعداء . وتمكنت العداوة بين الفئتين، وكل منهما تحاول أذية الاخرى ، حتى أصبح النصارى يودون التخلص من دولتهم بأية وسيلة كانت . فلمـا جاء التتر لفتح بغداد سنة ٦٥٦ هـ كان هوى أهل الذمة معهم . وتعاظم هذا التباغض على الخصوص قبيل النهضة الاخيرة ، أي منذ قرن وبعض القرن ، حتى في المعاملات الرسمية ولا سيا في البلاد البعيدة عن المدنية — فقد أطلعنا صديق عالم على صورة رخصة من جانب الشرع الشريف في ديار بكر ، بدفن رجل مسيحي توفي فيها ننشرها لغرابة عبارتها وهي :

« من جانب الشرع الشريف في ديار بكر الى مطران طائفة كفرة السريان .

« ايها المكروه بالنظر والمعتقد ، إن يعقوب الكافر من طائفتكم المكروهة حيث ان الملعون قد فطس وهلك ، فلأجـــل ادخال جثته الكريهة ضمن الارض ، قد صدر

---

١ — ابن الاثير ١٩٢ ج ٧ .   ٢ . ابن الاثير ١٥٧ ج ٦ ص ١٣٦ .

الاسترحام من مرشد محلته وجرى أخـــذ الخراج ، وان تكن الارض لا تقبل جثته الخبيثة ، ولكي لا تكون سبباً لفساد الهواء، قد أعطيناه الرخصة بعنوان الشرع الشريف ان تدفن ، ضمن مدينتكم المخصوصة بموجب مذهبكم الباطل الى زمرة جهنم . اقتضى اعطاء هذه الرخصة لكي لا يكون مانع من طرف احد في ٢٦ جمادى الأولى سنة ١٢٠٣» . انتهى .

فأي مسلم او مسيحي من اهل هذا العصر يطلع على هذا ولا ينكره او يستغربه؟ ولولا ثقتنا بصدق الناقل لانكرناه نحن ايضاً . وقد هون علينا تصديقه ان صديقاً آخر مقيم في القاهرة اكد لنا وجود رخص كثيرة في بعض البطركخانات بمصر في مثل هذه العبارة . وقد اخذ هذا التعصب في الزوال من بدء هذه النهضة ، ومتى نضجت نرجو ان يزول تماماً باذن الله .

تحاسد النصارى

على انك لو تدبرت ما كان يلحق النصارى من الاذى ابان التمدن الاسلامي لرأيت سببه في كثير من الاحوال وشاية بعض طوائف النصرانية بالبعض الآخر ، كالنساطرة واليعاقبة في العراق . وكثيراً ما كان اهل النفوذ من النصارى اشد وطأة على اهل دينهم من حكامهم المسلمين، كما كان عيسى بن شهلا الطبيب لما تولى الطبابة ونال منصباً في دار الخلافة ، فاغتنم تلك الفرصة وبسط يده على المطارنة والاساقفة يأخـذ اموالهم لنفسه ، حتى انه كتب الى مطران نصيبين كتاباً يلتمس منه فيه من آلات البيعـــة اشياء عظيمة المقدار ويهدده ، ومن اقواله له : « الست تعلم ان امر الملك بيـــدي ، ان شئت امرضته وان شئت عافيتـــه ؟ » فبعث المطران بالكتاب الى الربيع حاجب الخليفة فانتقم الخليفة منه .

واعتبر ما اجراه بختيشوع بن جبرائيل الطبيب مع حنين بن اسحق المترجم الشهير ، لما رأى من منزلته عند الخليفة المتوكل ، فحسده عليها وعمل على الكيد له من طريق الدين، وذلك انه اصطنع ايقونة (صورة) للسيدة العذراء وفي حجرها السيد المسيح . واوعز الى بعض خاصته ان يحملها هدية الى الخليفة في وقت عينه له ، وذهب الى مجلس الخليفة في الميعاد المضروب ، وكان هو المستقبل للايقونة من يد الخادم والحامـــل لها ، وهو الذي

وضعها بين يدي المتوكل، فاستحسنها المتوكل جداً، وجعل بختيشوع يقبلها بين يديه مراراً كثيرة ، فقال له المتوكل : « لم تقبلها ؟ » فقال له : « يا مولانا اذا لم اقبـل صورة سيدة العالمين فمن اقبل ؟ » فقال له المتوكل : « وكل النصارى يفعلون كذلك ؟ » فقال : « نعم يا امير المؤمنين وافضل مني ، لأني انا قصرت حيث انا بين يديك . ومع تفضيلنا معشر النصارى ، فأني اعرف رجلا من النصارى في خدمتك ، وافضالك وارزاقك جارية عليه ، يتهاون بها ويبصق عليها ، وهو زنديق ملحد لا يقر بالوحدانية ولا يعرف آخرة ، يستتر بالنصرانية وهو معطل مكذب بالرسل » فقال له المتوكل : « من هذا الذي هذه صفته ؟» فقال له : « حنين المترجم » فقال المتوكل : « اوجه احضره، فان كان الامر على ما وصفت نكلت به وخلدته في المطبق، مع ما أتقدم به في امره من التضييق عليه وتجديد العذاب » فقال : « انا احب ان يؤخر مولاي امير المؤمنين امره الى ان اخرج واقيم ساعـة ، ثم تأمر باحضاره » فقال : « اني افعل ذلك » . وخرج بختيشوع توا الى حنين وأخبره : « ان الخليفة اهديت اليه ايقونة كذا ، وقد استحسنها . وان نحن تركناها عنـده ومدحناها بين يديه ، احتقرنا وقال لنا : « هذا ربكم وامه مصوران . وقـد سألني امير المؤمنين عن رأيي فيها ، فقلت له : مثلها يكون في الحمامات والكنائس وغيرها مما لانبالي به. فطلب الي ان ابصق عليها فبصقت،فاذا دعا بك افعل مثل فعلي» فصدقه حنين . ولما دعاه الخليفة فعل كما قال له بختيشوع ، فحالما بصق على الايقونة أمر الخليفة بحبسه، ووجه الى ثيودوسيوس الجاثليق يومئذ فأحضره ، فلما رأى الايقونة وقع عليها وقبلها ، ولم يزل يقبلها ويبكي طويلا ، ثم اخذها بيده وقام قائماً ، فدعا لامير المؤمنين واطنب في دعائه ، فدعاه الى الجلوس والايقونة في حجره ، فطلب الجاثليق اليـه ان يتركها له . ثم سأله الخليفة عما يستحق الذي يبصق عليها ، فقال : « اذا كان مسيحياً عارفاً فاني احرمـه دخول الكنيسة ومن القربان ، وامنع النصارى من ملامسته وكلامـه واضيق عليه » فأعطى الخليفة الايقونة للجاثليق مع جائزة ، وامر بحنين فجلد بالسياط والحبال ، وأمر بنقض منازله وحبسه ، ولم ينج من ذلك حتى اعتل المتوكل واحتاج الى مشورته فأفرج عنه[1] .

فاذا كان هذا فعل المتوكل في هذه الحال ، وهو كما وصفناه من شدة وطأتـه على النصارى وغيرهم من أهل الذمة ، فكيف غيره من الخلفاء المعتدلين ؟. وقد رأيت مـ

---

١ - طبقات الاطباء ١٩٤ ج ١ .

حديث حنين هذا ان الخلفاء كانوا يفرضون على النصارى صدق التدين في النصرانية ، فضلاً عن اعفائهم من الاسلام ، إلا من اراده باختيـاره . وكانوا يشاركون النصارى في احتفالاتهم بالاعياد الكبرى ، كالميلاد والشعانين ، ويخرجون معهم الى اماكن النزهـة كأنهم امة واحدة[١] ولم يكن ذلك مقصوراً على اهل العراق والشام ، فان المصريين كانوا يحتفلون بأعياد النصارى السنوية كما يحتفل بها النصارى انفسهم ، وكان الخليفة يفرق في الناس الهدايا في عيد الميلاد والغطاس ، ويفرح المصريون جميعهم معاً[٢] .

وكانت الحكومة اذا انشأت معهداً خيريا كان حظ اهل الذمة منه مثل حـظ المسلمين ، وخصوصاً المستشفيات ودور المرضى ، فانها كانت تبنى لمعالجة المسلم والذمي ، فاذا لم يكن فيها ما يكفي الاثنين قدموا المسلم[٣] .

على ان المسلمين في ابان تمدنهم اطلقوا حرية الدين لرعاياهم ، على اختـلاف طوائفهم ونحلهم ، فلم يسمع انهم اكرهوا طائفة من الطوائف على الاسلام تعصباً للدين ، حتى في ايام بني أمية مع ضغطهم على غير العرب في طلب المال فقد رأيت ما كان من خالد القسري وغيره . واما بنو العباس فكانوا اقرب الى الاعتدال وحرية الدين ، ولذلك تعددت البدع الدينية في ايامهم من المجوس وغيرهم ، ناهيك بالفرق الاسلامية وتعددها . وكان اكثر الخلفاء تسامحاً في الدين المأمون ، فكان هو نفسه شيعياً ، وكان وزيره يحيى بن اكثم سنياً ، ووزيره احمد بن أبي داود معتزليا[٤] يكفيك من تسامحه في الدين انتصاره للمعتزلة في القول بخلق القرآن – وأول من قال بذلك رجل يهودي اسمه لبيد الاعصم ، الذي يقال انه سحر النبي (صلعم) . فكان لبيد يقول ان التوراة مخلوقة ، ثم قال بخلق القرآن ، وعنه اخـذ طالوت ابن اخته ، وأخذه ابان بن سمعان عن طالوت ، واخذه الجعد بن درهم عن ابان في ايام هشام بن عبد الملك الاموي ، واظهر مقالته في خلق القرآن وانكار ما فيه ، وان فصاحته لا تعجز الناس بل يقدرون على مثلها واحسن منها[٥] فغضب عليه هشام وبعث به الى خالد القسري امير العراقيين وأمره بقتله ، فحبسه ولم يقتله . فالح عليه ، فأخرجه يوم الاضحى ، وبعد ان صلى قال : « اريد ان اضحي اليوم بالجعد بن درهم ، فانه يقول ما كلم الله موسى ولا اتخذ ابراهيم خليلا ، تعالى الله عمـا يقول الجعد علواً كبيراً » ثم

---

١ – ابن الاثير ١١٣ ج ٨ وأبو الفرج ١٥٦ ج ٣ .
٢ – المقريزي ٤٩٤ ج ١ . ٣ – طبقات الاطباء ٢٢١ ج ١ .
٤ – ابن خلكان ٢٢٣ ج ٢ . ٥ – المقريزي ٣٤٦ ج ٢

ذبحه[١]. ولما تولى مروان بن محمد كان يقول بخلق القرآن مثل الجعد[٢] حتى اذا تولى المأمون نصر المعتزلة – ولعله اخذ الاعتزال من يحيى بن المبارك مؤدبه – وتبعه الواثق بالله فقال مثل قوله فعظم ذلك على عامة المسلمين وانكروه وسموا الواثق كافراً[٣] كما سموا المأمون امير الكافرين[٤] وكان ما كان من المحنة في ذلك ايام المتوكل . وانقسم المسلمون الى حزبين، والخلفاء ضد المعتزلة وقد شددوا النكير على القائلين بخلق القرآن ، وتناشدت الشعراء ذلك طعناً فيهم وتكفيراً لهم ، كقول أبي خلف المعافري :

لا والذي رفع السما ... ء بلا عماد للنظر
ما قال خلق في القرآ ... ن بخلقه إلا كفر
لكن كلام منزل ... من عند خلاق البشر[٥]

وبالجملة فقد كانت الافكار من حيث الدين مطلقة الحرية في تلك العصور ، لا يكره الرجل على معتقده او مذهبه ،فربما اجتمع عدة اخوة في بيت واحد وكل منهم على مذهب. فأولاد ابي الجعد ستة ، كان منهم اثنان يتشيعان واثنان مرجئين واثنان خارجيين[٦].

فسياسة الدولة العباسية في معاملة الرعايا من المسلمين واهل الذمة انما هي المحاسنة والعدل والرفق . وقد أتينا بأمثلة من عدل الخلفاء الاولين من بني العباس ورفقهم في الجزء الثاني من هذا الكتاب . وكانوا يحاسنون الفرس وسائر اهل النفوذ من الموالي على الخصوص ، ولا سيما بعد ان صارت الحكومة اليهم وقبضوا على جندها ومالها ، فكان الخلفاء يقدمونهم ويكرمونهم ويطلقون ايديهم في شؤون الدولة ، فاذا داخلهم شك في اخلاصهم ولو على سبيل الوشاية فتكوا بهم فتكاً ذريعاً ، كما اتفق للبرامكة وغيرهم من وزراء العصر العباسي الاول .

العصبية العربية في العصر العباسي

سياسة التقسيم

على ان المنصور كان همه منصرفاً الى العرب ، لأنهم أهل عصبية اذا اجتمعوا تغلبو

---

١ – ابن الاثير ١٢٣ ج ٥ و ٢٨ ج ٧ . ٢ – ابن الاثير ٢٠٤ ج ٥ .
٣ – ابن الاثير ٨ ج ٧ . ٤ – ابن الاثير ١٣١ ج ٦ .
٥ – نفح الطيب ١٥٨ ج ٣ . ٦ – المعارف ١٥٦ .

على الدولة وفعلوا ما ارادوه ، لما يعلمه من جرأتهم في طلب الحق وتقبيح الظلم جهاراً ولا يحملون ضيماً،وهو كما علمت بما ارتكبه في تأسيس دولته من الغدر والفتك، مما لا تصبر عليه النفوس الابية . وقد زاده حذراً منهم ما كان يسمعه من اقوالهم الدائمة على اباء الضيم ولو كان فيه ما يسوؤه ، كما اتفق له وهو في بعض حجاته ، وكان يطوف بالكعبة ليلاً ، اذ سمع قائلاً يقول : « اللهم اشكو اليك ظهور البغي والفساد في الأرض ، وما يحول بين الحق واهله من الطمع » فخرج المنصور الى ناحية من المسجد ودعا القائل وسأله عن قوله ، فطلب ان يؤمنه حتى يقول الحق فأمنه . فقال له : « ان الذي حال بين الحق واهله هو انتِ يا امير المؤمنين ».قال المنصور : « ويحك ! وكيف يدخلني الطمع والصفراء والبيضاء في قبضتي ، والحلو والحامض عندي ؟ » . فقال الرجل : « لأن الله تعالى استرعاك المسلمين واموالهم ، فجعلت بينك وبينهم حجاباً من الجص والآجر ، وابواباً من الحديد وحجاباً معهم الاسلحة وامرتهم الا يدخل عليك إلا فلان وفلان ، ولم تأمر بايصال المظلوم والملهوف ولا الجائع والعاري ولا الضعيف والفقير ، وما احد إلا وله من هذا المال حق .. الخ » .

فهذا وامثاله نبه المنصور لجرأة العرب ، فجعل يفكر في اذلالهم ويستنبط له الحيل ، وكان للعرب ديوان خاص لهم فيه الرواتب على انسابهم ومراتبهم،وفيهم اليمنية والمضرية . فلما فرغ المنصور من تأييد دولته بمقاتلة العلويين والخوارج وغيرهم ، وقد بنى بغداد وحصنها وانشأ فيها منازل الجند ، نظر الى من حوله منهم على الاجمال ، فاذا هم ثلاث فرق كبرى : اليمنية والمضرية والخراسانية ، فاتفق سنة ١٥١ ﻫ ان بعض الجند شغبوا عليه وحاربوه على باب الذهب ، وهو قصره في بغداد ، فاوجس خيفة من تكرار ذلك ، لعلمه ان دولته انما قامت بالجند ، فاذا اجتمعوا عليه اخرجوها من يده ، وهو يعلم ايضاً ان لكل من هذه الفرق هوى مع بعض دعاة الخلافة العلويين او غيرهم ، فليس اهون عليهم من ردها الى دولة جديدة .

وكان كبير بني العباس يومئذ قثم بن العباس بن عبيد الله بن العباس ، وهو شيخهم وله الحرمة والتقدم عندهم ، فاستشاره المنصور في ذلك قائلاً : « اما ترى ما نحن فيه من التياث الجند علينا ؟ وقد خفت ان تجتمع كلمة هؤلاء فيخرج هذا الأمر من ايدينا ، فماذا ترى ؟ » . قال « يا امير المؤمنين عندي رأي ان اظهرته لك فسد ، وان تركته امضيته وصلحت خلافتك وهابك جندك » . قال له : « افتمضي في خلافتي شيئاً لا اعلمه ؟ » قال

له : « ان كنت عندك متهما فلا تشاورني ، فان كنت مأمونا عليها فدعني افعل رأيي » . فقال له المنصور : « فأمضه » . فانصرف قثم الى منزله فدعا غلاماً له فقال : « اذا كان الغد فتقدمني واجلس في دار امير المؤمنين ، فدا رأيتني قد دخلت وتوسطت اصحاب المراتب ، فانهض وخذ بعنان بغلتي ، واستحلفني بحق رسول الله وبحق العباس وبحق امير المؤمنين الا وقفت لك وسمعت مسألتك واجبتك عنها ، فأني سأنتهرك عند ذلك واغلظ لك فلا تخف وعاود المسألة ، فاني سأضربك فعاود وقل لي : أي الحيين أشرف ، اليمن ام مضر ؟ فاذا اجبتك فاترك البغلة وأنت حر » . ففعل الغلام كما امره ، وفعل قثم به ما قاله ، الى ان قال : « مضر اشرف ، لأن منها رسول الله (صلعم) وفيها كتاب الله ، وفيها بيت الله ، ومنها خليفة الله » . فامتعضت اليمن من قوله ، لأنه لم يذكر لهم شيئاً ، وقال بعض قوادهم : « ليس الأمر كذلك مطلقاً بغير فضيلة لليمن » . ثم قال لغلام له : « قم الى بغلة الشيخ فاكبحها » ففعل حتى كاد يعقبها ، فامتعضت مضر وقالوا : « يفعل هذا بشيخنا ؟ » فأمر بعضهم غلامه فضرب يد ذلك الغلام فقطعها ، فنفر الحيان ودخل قثم على المنصور وافترق الجند العربي من ذلك الحين ، فصارت مضر فرقة واليمن فرقة والخراسانية فرقة ، وقال قثم للمنصور : « قد فرقت بين جندك وجعلتهم احزاباً ، كل منهم يخاف ان يحدث حدثاً فتضربه بالآخر » [1] .

وكان المهدي بن المنصور قد جاء من خراسان ، فقدم عليه اهل بيته من الشام والكوفة والبصرة وغيرها ، فهنأوه بقدمه فأجازهم وكساهم ، وفعل المنصور بهم مثل ذلك ، فقال قثم للمنصور · « قد بقي عليك بالتدبير بقية ، وهي ان تعبر بابنك « المهدي » فتنزله في ذلك الجانب من بغداد ، وتحول معه قطعة من جيشك ، فيصير ذلك بلداً وهذا بلداً ، فان فسد عليك اولئك ضربتهم بهؤلاء ، وان فسد عليك هؤلاء ضربتهم بأولئك ، وان فسد عليك بعض القبائل ضربتهم بالقبائل الاخرى » فقبل رأيه واستقام ملكه ، وبنى المهدي بلداً سماه الرصافة -- فاستعان المهدي في استبقاء دولته بسياسة التقسيم .

وما زال شأن العرب يضعف في الدولة العباسية تدريجاً ، وحزب الفرس يقوى حتى أصبحت الدولة في أيام الرشيد بين عاملين كبيرين : أحدهما فارسي والآخر عربي كل منهما يحاول الاستئثار بالسلطة . وكانت بطانة الخليفة أيضاً حزبين ، أحدهما ينتمي الى الفرس والآخر الى العرب ، مرجعهما الى ابني الرشيد الأمين والمأمون ، لأن الأول امه عربية

---

١ – ابن الاثير ٢٨٥ ج ٥ .

هاشمية (زبيدة) وأم الثاني امة فارسية يقال ان الرشيد اشتراها لتلد له لأن امرأته زبيدة أبطأت في الحمل ، فولدت له عبد الله المأمون ، ثم حملت زبيدة فولدت محمداً الأمين [١] فوقع بين الوالدتين من التحاسد مثل الذي وقع بين سارة وهاجر امرأتي ابراهيم الخليل . وسرى هذا التحاسد في البطانة ومنه الى سائر رجـال الدولة ، وهوى بني هاشم وسائر العرب مع الأمين ، وهوى سائر رجال الدولة من الفرس وغيرهم مع المأمون . وكان زعيم الحزب العربي الربيع بن يونس وابناؤه من بعده .

والربيع يتصل نسبه بكيسان مولى الحرث مولى عثمان بن عفان ، فجده مولى مولى . دخل الربيع في جملة موالي المنصور ، فولاه حجابته ثم جعله وزيره ، وكان المنصور شديد الميل اليه حسن الاعتماد عليه ، فسأله يوماً عما يتمناه منه فقال : « أن تحب ابني الفضل » . فقال المنصور : « كيف اخترت له المحبة دون كل شيء ؟ » . فقال : « لأنك اذا احببته كبر عندك صغير احسانه وصغر عندك كبير اساءته » . ومات الربيع في ايام الهادي سنة ١٧٠ هـ . ولما تولى الرشيد الخلافة واستوزر البرامكة ، سقط في يد الفضل ابن الربيع لخروج الوزارة من يده ، فرام التشبه بهم ومعارضتهم ، ولم يكن له من القدرة ما يدرك اللحاق بهم ، فكان في نفسه منهم احن وشحناء ، فسعى بهم عند الرشيد ، وكان سعيه من جملة أسباب نكبتهم .

ذهاب عصبية العرب بذهاب دولة الأمين

وكان المأمون ، فضلاً عن نسبه الفارسي من امه ، قد ربي في حجر جعفر بن يحيى البرمكي ، وهو الذي سعى له في ولاية العهد [٢] ورباه على حب الفرس . والفضل بن الربيع سعى في تأييد بيعة الأمين . ولما توفي الرشيد بعد مقتل البرامكة ، كان الفضل بن الربيع هو الذي حمل الأمين على نقض بيعة المأمون [٣] واختلف الاخوان على البيعة ، وكان المأمون عند اخواله بخراسان ، والامين في أهله ببغداد ، وانتشب القتال بين الفريقين — وهو قتال بين الفرس والعرب ، لأن العرب في معظم المملكة العباسية كانوا من حزب الأمين [٤] . وقـد نصر الخراسانيون ابن اختهم المأمون ، بتدبير الفضل بن سهل . وكان الأمين يحرض جنده في بغداد بمشورة الفضل بن الربيـع . وكان العرب من الجند العباسي

---

١ — المسعودي ٢١١ ج ٢ .
٢ — ابن الاثير ٩٤ ج ٦ .
٣ — ابن الاثير ٨٩ ج ٦ .
٤ — المقريزي ١٧٨ ج ١ .

قد انهكتهم الحضارة والترف ، وتبددوا بسياسة التقسيم ، فلم يستطيعوا دفاعاً . فلما ضاق الحال بالأمين ، ولم يبق عنده مال للتجنيد ، استنجد رعاع أهل بغداد ، وفيهم العيارون والشطار وكانوا طوائف كبيرة . وأمر بعض قواده ان يتتبعوا اصحاب الأموال والودائع والذخائر من اهل الملة وغيرهم ،فلم يزده ذلك الا ضعفاً . وانقضت تلك الحروب بفوز المأمون، وسيأتي تفصيل ذلك . فأخرج الخراسانيون الخلافة من العرب وسلموها الى المأمون ، كما اخرجوها قبلاً من بني امية وسلموها الى اجداده .

فاستفحل امر الفرس في ايام المأمون وازداد العرب ضعفاً ، حتى كثيراً ما كانوا يتعرضون له في الشوارع يشكون اغضاءه عنهم ، ومن أقوالهم : « يا امير المؤمنين ، انظر الى عرب الشام كما نظرت الى عجم خراسان .. » (١)

فلما افضت الخلافة الى المعتصم سنة ٢١٨ هـ وقد جمع ما جمعه من الاتراك والفراغنة ، كانت الضربة القاضية على العرب في الدولة العباسية ، لأنه كتب الى عماله في الاطراف باسقاط من في دواوينهم من العرب وقطع العطاء عنهم ، ففعلوا وهم يستعيذون بالله من ذلك ، وانحط شأن العرب من ذلك الحين (٢) ومنعوا من الولايات . وآخر من ولي مصر منهم عنبسة بن اسحق ، صرف عنها سنة ٢٤٢ هـ (٣) فتمكن الفرس من الدولة وزادت رغبتهم في نزعها من العرب على الاطلاق،فقام مرداويج في اصفهان سنة ٣٢٢ هـ يريد أن يأخذ بغداد وينقل الدولة الى الفرس ويبطل دولة العرب (٤) فلم يفلح ، على ان النفوذ تحول بالتدرج الى الخدم كما سترى .

الشعوبية والعرب

وفي أيام المأمون ومن جاء بعده تظاهر الشعوبية بالطعن على العرب ، وكان المأمون يقربهم ويجعلهم من بطانته ويحبوهم ، ومنهم سهل بن هارون قيم بيت الحكمة ، وكان شديد التعصب على العرب ــ وأبو عبيدة الراوية الشهير ، وعلان الشعوبي . وألف الشعوبية الكتب في ذكر مثالب العرب والرد على القائلين بتفضيلهم على سواهم من الأمم .

والشعوبية يقولون بالمساواة بين بني الإنسان ، ولذلك سموهم أيضاً : « أهل التسوية » ،

---

١ – ابن الاثير ١٧٦ ج٦ . ٢ – المقريزي ٩٤ و٣١١ و٣١٣ ج١ وابن خلدون ١٣٠ ج١ .
٣ – المقريزي ٢٩٤ ج ٢ . ٤ – الفخري ٢٥٣ .

ومن أقوالهم في الرد على العرب أن النبي (صلعم) نفسه ساوى بين المسلمين على اختلاف جنسياتهم بقوله: «المسلمون أخوة تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم». وقوله في خطبة حجة الوداع «ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى». وما جاء في القرآن: «إن أكرمكم عند الله أتقاكم». والشعوبية ينوبون بدفاعهم عن كل أمم الأرض في ذلك العهد، إلا العرب، فإذا افتخروا (أي الشعوبية) بملوكهم ذكروا الفراعنة والنماردة والعمالقة والأكاسرة والقياصرة، وافتخروا بسليمان الحكيم والإسكندر الكبير وبملوك الهند. وإذا فاخروهم بالأنبياء والمرسلين ذكروا من آدم إلى أيامهم، وأنهم جميعاً من غير العرب، إلا أربعة هم: هود، وصالح، واسماعيل، ومحمد (صلعم). وإذا فاخروهم بالعلم والصناعة والفلسفة، ذكروا اختراع لعبة الشطرنج ورمانة القبان والأسطرلاب، وفخروا بفلسفة اليونان وأشعارهم وسائر علومهم وعلوم الهند والفرس وغيرهم. وبلغ من جسارة بعض الشعوبية في بعض ردوده أن قال: «فما الذي تفخر به العرب على العجم؟ فإنما هي كالذئاب العادية والوحوش النافرة، يأكل بعضها بعضاً ويغير بعضها على بعض، فرجالها موثقون في حلق الأسر، ونساؤها سبايا مردفات على حقائب الابل» [١] واستشهدوا على ذلك بأبيات من اقوال العرب تدل على ضعف غيرتهم على العرض وقالوا: «لا يفلح العربي إن لم يكن معه نبي ينصره» [٢] وعيروهم باستلحاق الأدعياء ونظموا الأشعار طعناً فيهم. وممن نظم المطاعن عليهم الحسن بن هانىء وبشار بن برد، وغيرهما، على أن بشاراً كان تارة مع هؤلاء وتارة مع هؤلاء.

وقام المتعصبون للعرب فألفوا الكتب في الرد على الشعوبية. ومن أشهر ما أُلف في ذلك كتاب «تفضيل العرب» لابن قتيبة، وقد رد الشعوبية عليه في مناظرات يطول شرحها. وعلى أي حال فإن السياسة وطبيعة العمران قضت بذهاب دولة العرب.

---

١ – العقد الفريد ٦٩ ج ٢. ٢ – ابن الاثير ٥٧ ج ٧

نكبة الوزراء الفرس

الوزراء الفرس قبل البرامكة

قد رأيت ان الخلفاء العباسيين قربوا الموالي الفرس وولوهم المناصب الكبرى، فاتخذوا منهم الوزراء والعمال، فاعتز الفرس وتاقت نفوسهم الى الاستبداد بالدولة والرجوع الى ما كانوا فيه على عهد الأكاسرة. وهم يعلمون أن ذلك لا يتيسر لهم في الاسلام الا بصبغة دينية تحت راية الخلافة الاسلامية. وربما كان ذلك الأمل في جملة ما حملهم على التشيع لأهل البيت في أيام بني أمية ونصرتهم في طلب الخلافة.

فلما انتقلت البيعة من العلويين الى العباسيين وبويع هؤلاء بالخلافة، ثم جعلها المنصور محصورة فيهم دون العلويين، وقاتل آل الحسن وقتلهم بعد أن قتل أبا مسلم وغيره من شيعته. لم يرَ الفرس بداً من الرضوخ لسلطانه خوفاً من بأسه. على أنهم ظلوا على مذهب الشيعة، وتربصوا يتوقعون فرصة يثبون فيها على الدولة أو ينشئون لأنفسهم دولة شيعية.

وكان الخلفاء يلاحظون ذلك ويحاذرون الوقوع فيه، فيستخدمون الفرس في أكبر مصالح الدولة على حذر. فإذا رأوا من أحدهم ميلاً إلى التشيع عزلوه أو قتلوه، ولذلك كان الوزراء يكتمون تشيعهم، والخلفاء يبثون العيون في منازلهم. كما فعل المهدي بوزيره يعقوب بن داود، وأصله من موالي العرب، وكان في بادىء أمره كاتباً عند ابراهيم بن عبدالله العلوي الحسني أخي محمد بن عبدالله الذي قام في المدينة وقتله المنصور. وكان يعقوب قد خرج مع محمد هذا على المنصور، ثم رجع في جملة الراجعين، وكتم ميله واتصل بالمهدي فاستخدمه وأحبه كثيراً ووثق به، حتى آخاه وأعلن ذلك في الدواوين، فقال سلم الخاسر في ذلك:

قل للإمام الذي جاءت خلافته — تهدى إليه بحق غير مردود
نعم القرين على التقوى أعنت به — أخوك في الله يعقوب بن داود

وأحرز يعقوب المذكور نفوذاً عظيماً، حتى غلب على أمور المهدي وسهل له الاسراف والاشتغال عن مصالح الدولة ، وتفرغ هو للعمل ، والعرب لا يعجبهم ذلك ، فجعلوا يعرضون به بالأشعار ونحوها ، والمهدي يسمع أقوالهم ولا يبالي بها – روي أن المهدي حج مرة فمر بمكان عليه كتابة قرأها فإذا هي :

لله درك يا مهدي من رجـــل   لولا اتخـاذك يعقوب بن داود

فقال المهدي لمن معه كتبوا تحته : « على رغم أنف الكاتب لهذا وتعساً لجده » .

فلما لم يجد أعداؤه حيلة في تغيير قلب المهدي عليه تحولوا الى الوشاية من جهة لا بــد للخليفة أن يتنبه لها ، فقالوا له : « إن يعقوب يميل الى العلوية ، وإنــه كان معهم عنــد قيامهم على أبيه » فاشتغل خاطره ، وكان يعقوب يكتم ذلك عنه ، فأراد أن يمتحنــه . فدعا به يوماً وهو في مجلس فرشه موردة وعليه ثياب موردة وعلى رأسه جارية جميلة ، ثم أظهر المهدي أنه مسرور منه فأهداه المجلس بما فيه والجارية أيضاً ، ثم تقدم اليه بمهمة طلب قضاءها – وهو أن رجلا من العلوية يريد المهــدي أن يتخلص منه ، فأوصى يعقوب أن يقتله ، فوعده بذلك بعد أن أقسم الإيمان . فذهب الى منزله واستقدم ذلك العلوي وكلمه فرآه لبيباً ، وتوسل الرجل إليه أن يحقن دمه ، فحن له يعقوب وعفا عنه وأوصاه بالفرار وساعده بالمال . وكانت الجارية في بعض جوانب البيت تسمع ما جرى ، فنقلت الحكاية كما جرت . فبعث المهدي حتى قبض على الرجل وخبأه ، وأتى بيعقوب فاعترف له بما فعله فحبسه بالمطبق عدة سنين ، ولم يخرج الا في السنة السادسة من خلافة الرشيد ، شفع له يحيى بن خالد البرمكي لأنهما من طينة واحدة ومذهب واحد ، وكان يعقوب قد عجز فخيره الرشيد في الإقامة حيث يشاء،فاختار مكة فسيروه اليها وتوفي فيها سنة١٨٧هـ وهي السنة التي نكب فيها البرامكة .

الوزراء البرامكة

مرتبتهم في الدولة

لما توفي المهدي والهادي وأفضت الخلافة الى الرشيد استوزر البرامكة ، لأن خــالداً جدهم من قواد ابي مسلم، وقد جاهد في نصرة العباسيين جهاداً حسناً،فاستوزره أبو العباس واستعمله المنصور في الحروب كما تقدم . وكان خالد كبير العقل واسع الصدر ، لم يبلغ

أحد من ولده مبلغه في الجود والرأي والبأس والقلم ، واشتهر ابنه يحيى بموفور العقل وسداد الرأي ، وكان مقرباً من المهدي يعول عليه برأيه . وولد ليحيى سنة ١٤٨هـ غلامه الفضل ، قبل ولادة الخيزران للرشيد بسبعة أيام ، وربي الطفلان معاً فأرضعت الخيزران الفضل من لبن ابنها ، فكان الفضل بن يحيى أخا الرشيد من الرضاعة ، وفي ذلك يقول سلم الخاسر : (١)

أصبح الفضل والخليفة هرون رضيعي لبان خير النساء

ولما ترعرع هرون عهد المهدي الى يحيى بتربيته ، فشب الرشيد في حجره وكان يدعوه « يا أبت » ، فلما مات المهدي سنة ١٦٩ هـ في جرجان كان اكبر رجال الدولة المقربين يومئذ يحيى بن خالد والربيع بن يونس . وخاف الرشيد اختلال الأمر اذا علم الناس بموت ابيه وهم في تلك الحال ، فاستشار يحيى فأشار عليه برأي كان فيه الصواب ، حتى رجعوا الى بغداد . وقد هاج الناس ، وفيها الخيزران أم الهادي والرشيد ، فبعثت الى الربيع ويحيى لتشاورهما ، فأجابها الربيع ولم يجبها يحيى ، وأوصاه أن يقوم بأمر الرشيد كما كان في ايام أبيه ووبخ الربيع .

وأول شيء خطر للهادي بعد قبضه على ازمة الخلافة أن يخلع أخاه الرشيد من ولاية العهد ، ويحول الارث الى ابنه لتبقى الخلافة في نسله ، كما كان يفعل معظم الخلفاء في مثل هذه الحال . فأعلن الهادي عزمه لبعض خاصته فوافقوه ، وخلعوا هرون وبايعوا جعفر ابن الهادي ، وتنقصوا من الرشيد في مجلس الجماعة . فأمر الهادي الا يسار بين يديه بالحربة ، على جاري العادة في المسير بين يدي ولي العهد ، فاجتنبه الناس وتركوا السلام عليه ، ورضي هو بذلك . ولكن يحيى لم يرض ، بل حرضه على التمسك بحقه في ذلك ، فوشى بعضهم الى الهادي ان يحيى يفسد الرشيد عليه ، فبعث الهادي الى يحيى فقال له : « يا يحيى ، مالي ولك ؟ » . قال : « ما يكون من العبد الى مولاه الا طاعته » . فقال : « لم تدخل بيني وبين أخي تفسده علي ؟ » فقال : « من أنا حتى أدخل بينكما ؟ انما صيرني المهدي معه ، ثم أمرتني أنت بالقيام بأمره فانتهيت الى أمرك » . فطابت نفس الهادي بهذا القول . فاغتنم يحيى رضاه وقال : « يا أمير المؤمنين انك ان حملت الناس على نكث الايمان هانت عليهم ايمانهم ، وان تركتهم على بيعة أخيك ثم بايعت لجعفر بعده كان ذلك أوكد للبيعة » قال : « صدقت » وصرفه .

---

١ – ابن الاثير ٢٧٧ ج ٥

فلما لقي الهادي القواد الذين خلعوا الرشيد حملوه على معاودة الخلع ، فبعث الى يحيى فحبسه ، فكتب اليه يحيى وهو في الحبس : « ان عندي نصيحة » فأحضره وسأله عما عنده فقال يحيى : « يا أمير المؤمنين ، أرأيت ان كان الأمر الذي لا نبلغه ونسأل الله أن يعدمنا قبله ؟ (يعني موت الهادي) أتظن الناس يسلمون الخلافة لجعفر وهو لم يبلغ الرشد ، أو يرضون به لصلاتهم وحجهم وغزوهم ؟ » . قال : « ما أظن ذلك » قال : « يا أمير المؤمنين ، أفتأمن أن يسمو اليها اكابر أهلك مثل فلان ، ويطمع فيها غيرهم فتخرج من ولد ابيك ؟ والله ان هذا الأمر لو لم يعقده المهدي لأخيك لقد كان ينبغي ان تعقده أنت له ، فكيف بأن تحله عنه وقد عقده المهدي ؟ ولكني أرى أن تقر الأمر على أخيك ، فاذا بلغ (جعفر) أشده أتيت بالرشيد فخلع نفسه له وبايعه » فقبل الهادي قوله وعمل به [١] .

وتوفي الهادي ولم يملك الا سنة ، وأفضت الخلافة الى الرشيد ، ويحيى اول من بشره بها وأتاه بالخاتم وهو نائم ، فعرف الرشيد فضله في ذلك وقال له : « يا أبت أنت أجلستني في هذا المجلس ببركتك ويمنك وحسن تدبيرك وقد قلدتك الأمر » . ودفع اليه خاتمه وجعل اصدار الامور وايرادها اليه . وكان يعظمه ، فاذا ذكره قال : « ابي » وفي هذه الوزارة يقول الشاعر :

ألم تر ان الشمس كانت سقيمة ⁂ فلما ولي هرون أشرق نورها ؟

بيمن أمين الله هرون ذي الندى ⁂ فهرون واليها ويحيى وزيرها

وخلف يحيى أولاداً أحسنهم الفضل في جوده ونزاهته ، وجعفر في كتابته وفصاحة لسانه ، ومحمد في بعد همته ، وموسى في شجاعته وبأسه . وقد تولوا ارفع المناصب وتصرفوا في الدولة ، وخصوصاً جعفر والفضل ، فضلاً عما اشتهروا به من الجود والسخاء ، وكان أبوهم يحيى جواداً مثلهم ، فاشتق الناس من اسمهم فعلاً للسخاء فقالوا : « تبرمك الرجل » أي جاد وسخا .

وأراد الرشيد إكرام يحيى ، فولى ابنيه الفضل وجعفر اعظم الأعمال ، فقسم المملكة بينهما ، فجعل جعفر عاملا على الغرب كله من الأنبار الى أفريقية ، وقلد الفضل الشرق كله من شيروان الى اقصى بلاد الترك . فشخص الفضل الى خراسان سنة ١٧٦ هـ :

---

١ – ابن الاثير ٣٩ ج ٦ .

عمله ، وأزال سيرة الجور منها وبنى المساجد والحياض والربط وأحرق دفاتر البقايا وزاد الجند ووصل الزوار والقواد والكتاب ، لكنه لم يقم فيها إلا قليلا ، فاستخلف على عمله وشخص الى العراق سنة ١٧٩ هـ ، فأكرمه الرشيد ثم ولاه الوزارة ، ورأى بعد قليل أن ينقلها الى جعفر فخاطب أباهما قائلا : « قد أحببت أن أنقل ديوان الخاتم من الفضل الى جعفر ، وقد استحييت من مكاتبته في هذا المعنى فاكتب أنت اليه » . فكتب يحيى الى الفضل : « قد أمر أمير المؤمنين أعلى الله أمره أن تحول الخاتم من يمينك الى شمالك » ، فأجابه الفضل: «قد سمعت ما أمر به أمير المؤمنين في أخي، وما انتقلت عني نعمة صارت اليه ، وما طلعت عني رتبة طلعت عليه » (١) .

وتمكن جعفر عند الرشيد وغلب على أمره ، وبلغ من علو المرتبة عنده ما لم يبلغه سواه ، حتى اتخذ الرشيد ثوباً له زيقان ، فكان يلبسه هو وجعفر جملة . وتصرف جعفر في المملكة تصرفاً مطلقاً ، لم يكن يمضي أمراً إلا أمضاه الرشيد ، ولو كان فيه هبة نصف مملكته او تزويج بعض بناته . وفي حكايته مع عبدالملك بن صالح الهاشمي ما يمثل ذلك الإطلاق احسن تمثيل : كان الرشيد متغيراً على عبدالملك لأنه من بني عمه وله طمع في الخلافة ، فاتفق ان عبد الملك المذكور كان مرة في مجلس شراب بمنزل جعفر ، فلما أراد الانصراف قال له جعفر : « أذكر حوائجك » فشكا اليه أن الرشيد متغير عليه، فقال له : « قد رضي عنك أمير المؤمنين وزال ما عنده منك » ، فقال : « وعلي ٤٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم ديناً » ، قال : « تقضى عنك وإنها لحاضرة ، ولكن كونها من أمير المؤمنين أشرف بك وأدل على حسن ما عنده لك » . قال : « وابراهيم ابني أحب أن أرفع قدره بصهر من ولد الخلافة » . قال : « قد زوجه أمير المؤمنين العالية ابنته » . قال : « وأوثر التنبيه على موضعه برفع لواء على رأسه » . قال : « قد ولاه أمير المؤمنين مصر » . وخرج عبد الملك والحضور يعجبون من إقدام جعفر على ذلك من عند نفسه ، وخافوا أن يغضب الرشيد من هذه الجسارة ، فما عتم ان علموا بإمضاء الرشيد كل ذلك وهو يقول : « أحسن أحسن » (٢) .

ناهيك بما كان من اطلاق يده في خزائن الدولة وفي رقاب الناس . ومع ذلك فإن الرشيد حالما أوجس منه على سلطانه نكبه ونكب سائر أهله نكبتهم المشهورة، واختلف المؤرخون في سببها وهو ما نذكره .

---

١ — الفخري ١٨٦ .   ٢ — ابن خلكان ١٦ ج ١ .

نكبة البرامكة

الرشيد والشيعة

كان البرامكة من الشيعة ، وكان جدهم خالد قد بايع للعلويين قبل العباسيين مثل سائر أهل خراسان وفارس . فلما غلب العباسيون وشاهد فتكهم بأبي سلمة ثم بأبي مسلم وسواه ممن أراد الخلافة للعلويين ، رأى من الحكمة وسداد الرأي أن يغضي عن ذلك الأمر ، وأخلص الخدمة للسفاح ثم للمنصور . وسار ابنه يحيى واولاده على نحو ذلك ، وهواهم لا يزال مع الشيعة العلوية من إيثار آل علي ، لكنهم كانوا يكتمون ميلهم وخصوصاً في خلافة الرشيد ، لأنه كان شديد الوطأة على العلويين وشيعتهم يتتبع خطواتهم ويقتلهم [1] وكان يكره الشيعة منذ صباه ، وهم يخافونه من قبل الخلافة . فلما تولى الخلافة أمر باخراج الطالبيين جميعاً من بغداد الى المدينة [2] .

واشتهر بذلك حتى اصبح الشعراء يتقربون اليه بهجائهم ، وكان شعراء العلويين يهجونه لهذا السبب ، وهم لا يجسرون على الظهور في حياته . فلما مات ودفن في طوس ، قال دعبل بن علي يعرض بما ارتكبه العباسيون جميعاً بقتل العلويين ، من قصيدة مدح بها أهل البيت وهجا الرشيد ، وأشار الى اجتماع القبرين في طوس قبر الرشيد وقبر الرضا قال :

وليس حي من الاحياء نعلمه ... من ذي يمان ومن بكر ومن مضر
إلا وهم شركاء في دمائهم ... كما تشارك ايسار على جزر
قتل وأسر وتحريق ومنهبة ... فعل الغزاة بأرض الروم والخزر
أرى أمية معذورين ان قتلوا ... ولا أرى لبني العباس من عذر
اربع بطوس على القبر الزكي اذا ... ما كنت تربع من دين الى وطر
قبران في طوس : خير الناس كلهم ... وقبر شرهم ، هذا من العبر !
ما ينفع الرجس في قرب الزكي ولا ... على الزكي بقرب الرجس من ضرر
هيهات كل امرىء رهن بما كسبت ... له يداه فخذ ما شئت او فذر [3]

---

١ – العقد الفريد ١٤٢ ج ١ .
٢ – ابن الاثير ٤٧ ج ٦ .
٣ – الاغاني ٥٧ ج ١٨ .

وكان البرامكة يكرهون تعصب الرشيد على العلوية ، ويعدون عمله حراماً (١) ويكظمون . على أنهم كانوا يساعدون الشيعة سراً بما يبلغ اليه امكانهم ، وكان كبارهم يجتمعون الى جعفر، وجيه البرامكة يومئذ وصاحب الصوت الأعلى عند الرشيد، ويذكرون أعمال الرشيد، وجعفر يحاذر أن يبلغ ذلك اليه، ولكن حساده في بلاط الخليفة — وأكثرهم من العرب أو من ينتمي اليهم — كانوا يسعون به الى الرشيد ، وأشدهم غيظاً منه وأقدرهم على الكيد به زبيدة أم الأمين ، لأنه فضل ابن ضرتها المأمون على ابنها . وقد اضطغنت عليه مذ كانوا في الكعبة ، وقد جاءها لتعليق كتابي العهد للأمين والمأمون ، فلما حلف الأمين اليمين على جاري العادة وهم بالخروج من الكعبة ، رده جعفر وقال له : « ان غدرت بأخيك خذلك الله » وطلب اليه ان يحلف على ذلك ثلاثا ، فشق طلبه على امه زبيدة فحقدتها عليه ، وكانت من جملة من حرض الرشيد على الايقاع به (٢) فضلا عما بينهما من العداوة العنصرية ، وناهيك بمن كان يحسد البرامكة من أمراء العرب، وخصوصاً آل الربيع وآل مزيد الشيباني ، فان البرامكة اضعفوا نفوذهم في الدولة وأغروا الرشيد بهم (٣) غير حسادهم من الفرس ، حتى عمهم محمد بن خالد ، فانه كان من جملة حسادهم والساعين في أذاهم (٤) .

هؤلاء جميعاً كانوا يوغرون صدر الرشيد على جعفر تارة من حيث تشيعه وطوراً من حيث استبداده بالدولة ، وآونة من حيث استئثاره هو وأهله بالأموال ، والرشيد يحفظ ذلك ويتدبره ، وقد غلب عليه ما غرس في نفسه من أفضال يحيى عليه ، وآثار أبنائه في تنظيم دولته واحياء معالمها ، وان يكن ساءه ما يبديه جعفر أحياناً من نصرة العلويين أو استنصارهم ، فان جعفر لما ولاه الرشيد المغرب استخلف على مصر رجلا شيعياً (٥) فكان الرشيد صابراً على ذلك يترقب الفرص .

الشيعة العلوية بخراسان

وكان الخراسانيون ومن والاهم من أهل طبرستان والديلم — قبل قيام العباسيين — من شيعة علي ، وانما بايعوا للعباسيين مجاراة لأبي مسلم أو خوفاً منه . فلما رأوا ما حل

---

١ — الاغاني ٧٦ ج ٢٠ .　　٢ — المسعودي ١٩٥ ج ٢ .
٣ — ابن الاثير ٥٧ ج ٦ وابن خلكان ١٧٩ ج ٢ .
٤ — ابن الاثير ٧١ ج ٦ .　　٥ — السيوطي ١٠ ج ٢ .

به من القتل غدراً ، غضبوا وتعاقدوا على الأخذ بثأره ، ثم رأوا المنصور فتكبالراوندية اخوانهم وهم من أصحاب أبي مسلم . ثم بنى بغداد وتحصن فيها ، فتربصوا واذا هو قد حارب العلويين وبطش فيهم ، وفر من بقي من ولد علي الى أطراف المملكة الاسلامية في خراسان والمغرب، وأخذوا يبثون دعاتهم وينشرون دعوتهم سراً، فكان الخراسانيون من أقوى أنصارهم انتقاماً من المنصور ، لقتله أبي مسلم وعملاً بتعاقدهم عليه .

فكان العباسيون انما يخافون على دولتهم من خراسان ، لانها شيعة العلويين وأهلها أشداء ولهم رهبة في قلوب الناس ، منذ نقلوا الخلافة من بني امية الى بني العباس . وكان داعية الشيعة هناك في ايام الرشيد يحيى أخا محمد بن عبد الله الذي حاربه المنصور وقتله . فظهر يحيى هذا في الديلم سنة ١٧٦ هـ وقويت شوكته حتى خافه الرشيد ، فسرح اليه الفضل بن يحيى ،فاستنزله الفضل من بلاد الديلم بالحسنى، على أن يشترط ما أحب ويكتب له الرشيد بذلك خطه ، فكتب له أماناً أمضاه الرشيد وجلة بني هاشم ، وجاء الفضل ومعه يحيى الى بغداد ، فوفى له الرشيد بكل ما أحب وأجرى له أرزاقاً سنية .

ثم خطر له ان يحبسه خوفاً منه ، ولعل بعض الأعداء الشيعة حرضوه على حبسه ، لكنه لم يكن يستطيع ذلك لعهد الأمان الذي بيده . فاستشار الفقهاء في الأمان فقال بعضهم : الأمان صحيح ، فحاجه الرشيد فقال الآخر — وهو ابو البختري القاضي : هذا أمان منتقض من وجه كذا ، فمزقه الرشيد وصمم على حبس الرجل ، فدفعه الى جعفر فحبسه وهو يرى انه مظلوم ، لأنه جاء على الامان وقد نكث الرشيد الأمان ، فحدثته نفسه ان يطلقه بما له من النفوذ والدالة ، ولم يكن يظن الرشيد يسأل عنه . فبعث الى يحيى المذكور من الحبس فخاطبه ، فتوسل الرجل اليه وقال : « اتق الله في أمري ولا تتعرض ان يكون خصمك محمد (صلعم) فوالله ما احدثت حدثا ولا آويت محدثا » فرق له جعفر وقال : « اذهب حيث شئت من بلاد الله » . قال : « وكيف اذهب ولا آمن أن أؤخذ ؟ » فوجه معه من أداه الى مأمنه[1] .

الرشيد وجعفر

وكان حساد جعفر يراقبون حركاته ، وخصوصاً الفضل بن الربيع ، لأنه كان يرشح

---

١ — ابن خلدون ٨ ج ٤ وابن الاثير ٥٠ و ٧٠ ج ٦ .

نفسه للوزارة بعد ابيه فسبقه اليها أولئك العجم ، وكانت له عيون على جعفر فأخبروه بما فعله ، فرفع الخبر الى الرشيد فأنكره ، ولكنه انتهر الفضل واظهر أن جعفر انما فعله بأمره . ثم بعث الى جعفر فدعاه الى الطعام معه ، وجعل يلقمه ويحادثه ثم سأل عن يحيى فقال : « هو بحاله في الحبس »فقال : « بحياتي ! » ففطن جعفر فقال : « لا وحياتك..» ، وقص عليه امره وقال : « قد علمت انه لا مكروه عنده » فقال الرشيد : « نعم ما فعلت ، ما عدوت ما في نفسي » . وقد كظم غيظه وعزم على الايقاع به من ذلك الحين. ولما قام جعفر عنه قال في نفسه : « قتلني الله ان لم اقتلك ! » ولكنه مكث يترقب الفرص ويدبر الحيل ، لما يعلمه من نفوذ البرامكة بما يبذلونه من الاموال للناس على اختلاف طبقاتهم ، حتى بني هاشم انفسهم .

وأراد ان يغالطه لئلا يتنبه جعفر لما في نفس الرشيد عليه ، فأظهر انه يريد ان يوليه خراسان ، فأخذ الخاتم ودفعه الى أبيه يحيى ، وعقد له على خراسان وسجستان ثم عزله عنها بعد عشرين يوماً[1] فهو اما ولاه اياها تمويها او ولاه ثم خافه .

وكان في جملة حساد البرامكة علي بن عيسى بن ماهان ، فسعى بموسى بن يحيى اخي جعفر واتهمه في أمر خراسان ، واعلم الرشيد انه يكاتبهم ليسير اليهم ويحرضهم على خلع الطاعة ، فصدق الرشيد الوشاية فحبسه ثم أطلقه ، ولكنه تغير على البرامكة جميعاً وظهر ذلك في بعض معاملاته . فكان يحيى بن خالد مثلا يدخل على الرشيد بغير اذن ، فعرض الرشيد في بعض حديثه استهجانه ذلك فكف يحيى عنه . وكان يحيى اذا دخل على الرشيد قام له الغلمان ، فأوصى الرشيد مسرورا خادمه الا يقوموا له ، فشعر يحيى بهذا التغيير وتناقل الناس خبر ذلك ، ولبثوا يتوقعون شراً يصيب البرامكة وليس من يجرؤ على اخبارهم به . على انهم كانوا يعرضون في اثناء الغناء بما يخافونه عليهم — ومن ذلك ما كان يغنيه ابن بكار احياناً :

ما يريد الناس منا ؟ ما تنام الناس عنا ؟
انما همهم أن يظهروا ما قد دفنا

وكان الرشيد يستعظم الاقدام على ذلك الامر ، ويخاف انصار البرامكة اذا هو فتك بهم ، فاراد ان يستطلع افكار خاصته في هذا الشأن ليرى وقعه في قلوبهم ، والمغنون

---

١ — ابن الاثير ٦١ ج ٦ .

أحسن وسيلة لذلك لمخالطتهم الناس في حال سكرهم وطربهم ، والسكر يبعث صاحبه على الافشاء بما في ضميره والتصريح بمـــا يجول في خاطره . فسأل الرشيد مغنيه اسحق الموصلي مرة: « بأي شيء يتحدث الناس ؟ » فقال : « يتحدثون بأنك تقبض على البرامكة وتولي الفضل بن الربيع الوزارة » فأظهر الرشيد الغضب وصاح به : « مـــا أنت وذاك ؟ ويلك ! » فأمسك (١) .

وكان للرشيد عيون على البرامكة في منازلهم ودواوينهم ، يحصون عليهم انفاسهم فلا يخلو ان تبدو منهم بادرة تلميحا او تصريحاً ، والوشاة يعظمونها له .

وكان في جملة جواسيس الرشيد خادمان خزريان رباهما وأهداهمـــا الى جعفر ، فكانا ينقلان اليه كل ما يدور في مجالس جعفر يومياً . وكان لجعفر مجلس أنس يعقده في منزله مرة في الاسبوع ، يحضره ارباب الدولة وأهل الوجاهة من الفرس ، يلبسون اثواباً لونها واحد يخلعها عليهم جعفر ويلبس هو مثلهم . ففي أحد المجالس دار الكلام على ابي مسلم وبطشه ، وكيف استطاع وحده ان ينقل الدولة الاسلامية من عائلة الى عائلة . فقـــال جعفر : « لا يستغرب ذلك منه ولا فضل له به ، لأنـــــه لم يدركه إلا بقتل ٦٠٠ر٠٠٠ نفس سفك دماءهم صبراً ، وانما الرجل من ينقل الدولة من قوم الى قوم بغير سفك دم»(٢) وكان الغلامان الخزريان يسمعان قوله فنقلاه الى الرشيد ، وافهماه انه يعرض بنقل الدولة من العباسيين الى الفرس او العلويين ، فازداد خوف الرشيد منه .

فلما كانت السنة التي نكبوا فيها (سنة ١٨٧ هـ) كان الرشيد قادماً من الحج وقـــد صمم على الفتك بجعفر ، فأظهر رضاه عنه وولاه كورة خراسان ، اراد بذلك ان يطمئنه ليأخذ الخاتم منه بحجة الولاية ، وخلع عليه وعقد له لواء وعسكرا بالنهروان . فضرب الناس مضاربهم هناك ومكثوا يتأهبون للسفر ، وفيهم نخبة من أصحاب جعفر ، وبقي هو ببغداد يتأهب للحاق بهم .

وكان له صديق من الهاشميين غيور عليه اسمه اسماعيل بن يحيى ، قد علم ما في نفس الرشيد على جعفر وأهله ، فأراد ان يتوسط في اصلاح ما بينهما ، فجاء جعفر في أثنـــاء تأهبه للخروج الى خراسان ،وخلا به وحادثه في شؤون شتى حتى تطرق الى الموضوع الذي جاء من أجله ،فقال له :«يا سيدي انت عازم على الخروج الى بلدة كثيرة الخير واسعة الاقطار

---

١ – الاغاني ١١٣ ج ٥ .   ٢ – زينة المجالس (فارسي) .

عظيمة المملكة ، فلو صيرت بعض ضياعك لولد امير المؤمنين لكان احظى لمنزلتك عنده». فلما سمع جعفر قوله غضب كأن ما يجول في نفس الرشيد لم يخطر بباله وقال: «والله يا اسماعيل ما أكل الخبز ابن عمك إلا بفضلي ، ولا قامت هذه الدولة إلا بنا . اما كفى اني تركته لا يهتم بشيء من أمر نفسه وولده وحاشيته ورعيته ، وقد ملأت بيوت امواله مالا ، وما زلت للامور الجليلة أدبرها حتى يمد عينه الى ما ادخرته واخترته لولدي وعقبي بعدي ، وداخله حسد بني هاشم وبغيهم ودب فيه الطمع ؟ والله لئن سألني شيئاً من ذلك ليكونن وبالا عليه ! » كأنه يهدده بذهاب خراسان . فلما سمع اسماعيل تهديده ورأى غضبه ، خرج من عنده واحتجب عنه وعن الرشيد ، لأنه صار متهما عندهما .

فسمع ذلك الحديث احد جواسيس الرشيد ونقله اليه ، فصمم على الفتك به . ولعله كان ينوي القبض عليه وحبسه فقط ، فلما بلغه هذا التهديد عزم على قتله . وأكبر الأقدام على ذلك ، فاستشار زبيدة امرأته ، وصرح بما يجول في خاطره قائلا : « انني خائف ان تمكن هؤلاء من خراسان ان يخرج الامر من يدي» فحرضته على سرعة الفتك به ، ويقال انها ذكرت له اموراً ارتكبها جعفر في بيت الرشيد[١] تتعلق بالعباسة اخته . فاغتنم الرشيد بعد جعفر عن رجاله ومريديه ، وهم في عسكره بالنهروان وهو في بغداد ، وبعث خادمه مسرورا ليأتيه برأسه ، فذهب اليه وقتله كما هو مشهور . ووجه الرشيد من احاط بأبيه يحيى وسائر اولاده وبأخيه الفضل ليلا ، فحبسهم وقبض ما وجده لهم من مال وضياع ومتاع وغير ذلك ، وأرسل الى سائر البلاد يقبض على أموالهم ووكلائهم ورقيقهم واسبابهم ، ولم يتعرض لمحمد بن خالد لأنه كان من جملة الساعين بهم ، واسند الوزارة بعدهم الى الفضل بن الربيع عدوهم . ثم ندم الرشيد على قتل البرامكة وكان اذا ذكرهم بكى[٢] وقد اصاب جعفر من الرشيد كما أصاب بزرجمهر وزير كسرى ابرويز ، اذ اتهمه كسرى بالزندقة فقبض عليه وقتله ثم ندم على قتله[٣] .

فالرشيد فتك بالبرامكة لأنه خافهم على سلطانه ، عملا بسياسة العباسيين في تأييد دولتهم ، اذ اتهم جعفر وشك فيه فقتله ، وهي غير سياستهم في معاملة رعاياهم ، فانها كانت مؤسسة غالباً على ما تقتضيه الشريعة الاسلامية ويستدعيه الحق ، مع رفق وحلم وبذل ومحاسنة ، ولا سيما الرشيد فقد كان اذا وعظته بكى ، واذا استعطفته عفا واذا

---

١ – الاتليدي ١١٣ . ٢ – الاغاني ٧٤ ج ١٧ .
٣ – المسعودي ١١٩ ج ١ .

استجديته سخا ، حتى جرى خبره مجرى الامثال . أما العلويون فكان لا يخاف الله فيهم[١] ولا فيمن يدعو اليهم او ينصرهم .

الأمين والمأمون

او العرب والفرس

لما قتل البرامكة على هذه الصورة غضب اهل خراسان وتضاعفت نقمتهم على الدولة العباسية ، وتعاقدوا على الأخذ بثأر أبي مسلم والبرامكة ، وتربصوا يترقبون الفرص . وتوجهت آمالهم الى المأمون لأن أمه فارسية ، وقد شب في حجر جعفر البرمكي على الميل الى الشيعة العلوية — ولم تكن الشيعة يومئذ مذهباً دينياً كما هي اليوم ، وانما كانت حزباً سياسياً يراد به جماعة الفرس او غيرهم من انصار العلويين . فتمكن حب الفرس ومذهبهم من نفس المأمون منذ نعومة اظفاره ، وكان يحيى بن خالد قد اختار الفضل بن سهل السرخسي لخدمة المأمون . والفضل اصله من مجوس خراسان ، اسلم على يد المأمون[٢] سنة ١٩٠ ﻫ وتشيع طمعاً في نصرة الفرس في خراسان ، وكان هماما فقدمه يحيى في الدولة حتى صار من خاصته ، ثم جعله قهرمانا له . وتوسم الفضل في المأمون نجابة وتعقلا ، فتوقع ان تصير الخلافة اليه فلزمه وخدمه وتقرب منه . وكان المأمون يجله ويقدمه ، ولم يكن الفضل طامعاً في أقل من الوزارة — يحكى ان مؤدب المأمون قبل الخلافة لما رأى جميل رأيه في الفضل واكرامه اياه ، نقل ذلك للفضل وقال له : « لا استبعد ان يحصل لك منه ١٠٠٠٠٠٠ درهم » فاغتاظ الفضل وقال : « والله ما صحبته لأكتسب منه مالا قل او جل ، ولكني صحبته ليمضي حكم خاتمي هذا في الشرق والغرب »[٣] .

وكان الرشيد لما بايع لاولاده بولاية العهد جعل للأمين العراق والشام الى آخر المغرب وهو الخليفة بعده ، وجعل للمأمون خراسان وسائر المشرق[٤] على ان يتولى الخلافة بعد اخيه الأمين . وكل ذلك بتدبير جعفر وغيره من احزاب الشيعة ، وفي جملتهم الفضل بن سهل ، وأراد الرشيد سنة ١٩٢ ﻫ ان يسير الى خراسان ، فأمر ابنه المأمون ان يبقى في

١ — الفخري ١٧ . ٢ — ابن خلكان ٤١٣ ج ١ وابن الاثير ٧٩ ج ٦ .
٣ — الفخري ٢٠٣ . ٤ — ابن الاثير ٦٩ ج ٦ .

بغداد حتى يرجع . وكان الرشيد مريضاً ، فخاف الفضل ان يموت الرشيد في الطريق فيذهب سعيه هدراً ، فجاء الى المأمون وقال له : « لست تدري ما يحدث بالرشيد ، وخراسان ولايتك ومحمد الأمين المقدم عليك ، وان احسن ما يصنعه بك ان يخلعك ، وهو ابن زبيدة وأخواله بنو هاشم ، وزبيدة واموالها كما تعلم ، فاطلب الى امير المؤمنين ان تسير معه » . فطلب المأمون ذلك من ابيه فامتنع اولا ، ثم اجاب — ولا بد لامتناعه من سبب كان يجول في خاطره ، وهو يتوقع قرب اجله ويرى لأولاده عليه رقباء[1] يحصون أنفاسه ويستطيلون بقاءه .

فسار المأمون مع أبيه والفضل معهما ، واهتم الفضل في اثناء الطريق بتأييد امر المأمون ، فأخذ له البيعة على كل من في عسكر الرشيد من القواد وغيرهم ، واقر له الرشيد وهو في طوس والأمين في بغداد ، وله عيون مع الرشيد اشدهم غيرة عليه الفضل ابن الربيع ، وزير الرشيد بعد البرامكة . فلما بلغ الأمين اشتداد المرض على ابيه بعث الى ابن الربيع وغيره يستحثهم على بيعته . فلما مات الرشيد هناك سنة ١٩٣ هـ احتال ابن الربيع على من كان في ذلك المعسكر ، والمأمون غائب في مرو وحرضهم على اللحاق بالأمين . فأطاعوه رغبة منهم في الرجوع الى اهلهم واولادهم في بغداد ، واغفلوا العهود التي اخذت عليهم للمأمون ، وحملوا ما كان في عسكر الرشيد الى الأمين وتمت البيعة له . ثم حسن الفضل بن الربيع للأمين ان يخلع اخاه المأمون من ولاية العهد ، ففعل .

الفضل بن سهل وعلي الرضا

فلما بلغ المأمون موت ابيه ، ورجوع رجاله الى اخيه بالاموال والاحمال وقد نكثوا عهده ، خاف على نفسه فجمع خاصته بمرو وشاورهم في الامر ، واظهر لهم ضعفه وانه لا يقوى على اخيه ، فنشطوه ووعدوه خيراً . وقال له الفضل بن سهل : « انت نازل في اخوالك وبيعتك في اعناقهم . اصبر وانا اضمن لك الخلافة » فاطمأن خاطر المأمون بهذا الوعد الصريح وقال له : « قد صبرت وجعلت الامر اليك فقم به » وسماه ذا الرياستين ، أي رياسة السيف ورياسة القلم .

---

١ — ابن الاثير ٨٣ ج ٦ .

فبذل الفضل جهده في نصرة المأمون ، لأنه انما يعمل لنفسه ووطنه وامته ، واستمال الناس وضبط الثغور . وتعاظمت العداوة بين الأخوين ، وقطعت الدروب بينهما من بغداد الى خراسان ، وابطل كل منهما اسم اخيه من الخطبة ، وتجردت الجيوش وحدثت معارك هائلة فاز فيها جند المأمون وهم الفرس بقيادة طاهر بن الحسين ، وانتهت الحرب بفتح بغداد وقتل الأمين سنة ١٩٨ هـ ، وقد حملوا رأسه الى المأمون في خراسان . فلما تحقق المأمون صدق ما عاهده الفضل عليه ، اصبح آلة بيده لا يخالفه في شيء . فاستبد الفضل في الدولة ، وولى اخاه الحسن بن سهل كور الجبال والعراق وفارس والأهواز والحجاز واليمن ، على ان يكون مقامه في بغداد . ثم اغتنم هذه الفرصة لنقل الخلافة الى العلويين . وكان داعيتهم يومئذ في خراسان علي بن موسى الرضا بن جعفر بن محمد بن علي ابن الحسين ، المعروف بعلي الرضا . فبذل الفضل جهده في تحريض المأمون على بيعة علي الرضا بولاية العهد بعده ، اي ان يخرج الخلافة من بني العباس الى العلويين . وربما جعل تلك البيعة شرطاً لمساعدته في استرجاع الخلافة له ، او انه حسن له ذلك ولم يشترطه . فأجابه المأمون الى طلبه ، اما وفاء لوعده ، او مجاراة له للمكر به ، او انه فعله عن حسن ظن في العلويين ، لأنه رضع حب الشيعة من طفولته وكان يظهر التشيع[1] فبايع لعلي الرضا سنة ٢٠١ هـ وجعله الخليفة بعده ، ولقبه « الرضا من آل محمد » ، وأمر جنده بطرح السواد لباس العباسيين ولبس الخضرة ، وكتب بذلك الى الآفاق .

فلما بلغ ذلك الخبر الى بغداد ضج الهاشميون واتباعهم ، واعظموا الامر وامتنعوا عن البيعة لعلي المذكور ، وقالوا لا تخرج الخلافة من ولد العباس ، وقد تحققوا ان تلك البيعة انما هي دسيسة من الفضل بن سهل ، فأنكروا ولاية اخيه الحسن بن سهل على بغداد . واقروا اخيراً على خلع المأمون وبيعة عمه ابراهيم بن المهدي ، فبايعوه ولقبوه « المبارك » ، وبعث الهاشميون الى المأمون يهددونه بالقتل اذا بقي على عزمه .

وكان الفضل بن سهل يخفي هذه الاخبار عن المأمون ، لئلا يخاف ، فيندم وينكث البيعة فيخلع علياً فيذهب سعيه عبثاً . وكان علي الرضا مطلعاً على ما حدث في بغداد ، وابت نفسه ان يحدث ذلك بسببه ، ولا يطلع المأمون عليه فجاءه بنفسه وأخبره بما صار اليه حال بغداد ، وانهم بايعوا ابراهيم بن المهدي . فاستغرب المأمون الخبر ولم يصدقه وقال : « بل هم ولوه عليهم في أثناء غيابي ، كذلك اخبرني الفضل » . فقال له : « ان

---

١ – المسعودي ٢٢٤ جـ ٢ .

الفضل قد كذبك » فأدرك المأمون دسيسة الفضل ، وانه انما نصره لهذا الغرض ، وشك فيه فحل قتله عنده ، فدس اليه اناساً قتلوه في الحمام بسرخس مغافصة ثم حاكمهم على قتله وقتلهم به (١) .

وفكر في بيعة علي الرضا ، فأعظم ان يرجع عنها وخاف اذا رجع ان يثور عليه اهل خراسان ويقتلوه ، فعمد الى سياسة الفتك فدس اليه من اطعمه عنباً مسموماً فمات(٢) فذهبت الاسباب التي اغضبت اهل بغداد ، فخلعوا ابراهيم بن المهدي وعادوا الى بيعة المأمون . فهرب ابراهيم والفضل بن الربيع وسائر الذين كانوا مع الأمين في تلك الثورة ، وجاء المأمون بغداد سنة ٢٠٤ ﻫ واستقر بها . ودفعاً للشبهة فيما اشتهر بـه من حب آل أبي طالب ، اضطهدهم ومنعهم من الدخول عليه وامرهم بلبس السواد (٣) .

فاضطرب امر الشيعة في بغداد ، مع بقاء النفوذ للفرس وهم يكتمون تشيعهم الى آخر خلافة الواثق ، فلما تولى المتوكل سنة ٢٣٢ ﻫ اضطهد الشيعة وشدد النكير عليهم ، لأنه كان قد ربي من حداثته بين جماعة اهل عصبية عربيـة يكرهون الفرس او الشيعة ، منهم علي بن الجهم الشاعر الشامي من بني شامة ، وعمرو بن فرخ الرخجي ، وابو السمط من ولد مروان بن أبي حفصة ، الذي كان يتقرب الى الرشيد بهجو العلويين وهو من موالي بني أمية . وكانوا يخوفون المتوكل من الشيعة على الاجمـال ، ويشيرون عليه بابعادهم والاعراض عنهم والاساءة اليهم ، ثم حسنوا له الوقيعة في أسلافهم الذين يعتقد الناس علو منزلتهم في الدين . فأثرت اقوالهم فيه ، وهم المأمون والمعتصم والواثق (٤) كما اثرت تربية البرامكة في المأمون وحببوا اليه الشيعة واهلها .

فلما تولى المتوكل أمر بهدم قبر الحسين بن علي وهدم ما حوله من المباني ، ومنع الناس من اتيانه ، وبالغ في بغضه عليا واهل بيته حتى جعله سخرية — ذكروا انه كان في جملة ندمائه مخنث اسمه عبادة ، كان يشد على بطنه تحت ثيابه مخدة ويكشف رأسه وهو أصلع تشبهاً بالامام علي ، ويرقص ويقول : « قد اقبل الأصلع البطين خليفة المسلمين » (يعني علياً) والمتوكل يشرب ويضحك(٥) وغلبت السنة في الدولة منذ ذلك الحين وقوامها الاتراك ،

---

١ — ابن الاثير ١٤٣ ج ٦ والفخري ١٩٩ والاغاني ٣١ ج ٩ وابن خلكان ٤١٤ ج ١ .
٢ — ابن الاثير ١٤٤ ج ٦ والفخري ١٩٩ . ٣ — ابن الاثير ١٥٦ ج ٦ .
٤ — ابن الاثير ٢٢ ج ٧ . ٥ — ابو الفداء ٤٠ ج ٢ .

كما سيأتي . وبذهاب امر الشيعة من بغداد ذهب نفوذ الفرس منها ، وبخلافة المتوكل ينقضي العصر الفارسي الاول .

الاسرار في الدولة العباسية

واشتهر بنو العباس على الخصوص بحفظ الاسرار والتكتم فيما ينوونه ، وكانوا يفرضون ذلك على مواليهم ورجال بطانتهم ، ولا سيما فيما يحتاجون اليه لتثبيت دعائم دولتهم ، كما رأيت من تصرف الخلفاء مع قوادهم ووزرائهم من اول دولتهم ، وخصوصاً المنصور مع اعمامه ، وابي مسلم وغيرهم ، وتصرف الرشيد مع البرامكة ، والمأمون مع الفضل ابن سهل وعلي الرضا وطاهر بن الحسين . وكانوا يرون كتمان مشروعاتهم شرطاً من شروط نجاحها ، كما فعل قثم بن العباس في التفريق بين فرق الجند بحيلة لم يشأ ان يطلع المنصور عليها . وكانوا يستعينون على ذلك بالعيون والارصاد ، وكل منهم يتجسس على صاحبه . فيبث الخليفة العيون على قواده ووزرائه ، ووزراؤه يقيمون الارصاد عليه . فربما كان خادم الرجل وجاريته عينا عليه ، وقد يقيم الخليفة الجواسيس والرقباء على اولاده او اخوته ، او يقيم ولاة العهد الرقباء على آبائهم ، كما فعل الأمين والمأمون بأبيهم الرشيد ، فقد كان رقيب المأمون على أبيه مسرورا الخادم ، ورقيب الأمين جبرائيل بن بختيشوع الطبيب ، وكانوا يحصون انفاسه[1] كما تقدم .

ولما تولى المأمون الخلافة وأتى بغداد كان يتجسس على ابراهيم بن المهدي ، فألزمه رجلا ينقل اليه كل ما يسمعه من لفظه جداً او هزلاً[2] وهكذا كان سائر الخلفاء ، وخصوصاً في اواخر الدولة ، لأن التجسس يكثر اذا مالت الدولة الى السقوط وتدانت من الهرم ، كما سيجيء . وكان للوزراء عيون على الخلفاء ، وللخلفاء عيون على العمال ، هم أصحاب البريد أو اصحاب الاخبار ،غير ما كانوا يبثونه من الخدم والجواري والمغنيات لهذه الأغراض – كانوا يفعلون ذلك خوفاً على سلطانهم ، فبالغوا في التكتم الى ما يفوق الوصف . فكان للمأمون على كل واحد صاحب خبر ، وكان يغتفر كل شيء إلا القدح في الملك وافشاء السر والتعريض بالحريم[3] .

---

١ – ابن الاثير ٨٣ ج ٦ . ٢ – الاغاني ٨٢ ج ٢٠ .

٣ – المسعودي ٢٢٥ ج ٢ وطبقات الاطباء ١٧١ ج ١ .

وبمحافظتهم على الاسرار والتكتم في اعمالهم ، اشكل على الناس كثير من الحوادث التي جرت في ايامهم ولم يفهموا اسبابها . فنكبة البرامكة مثلا تكهن المؤرخون في تدوينها رجماً بالغيب ، وذهبوا في اسبابها كل مذهب . وكم من قتيل لم يعرف قاتله فحسبوه مات من أكلة عنب او تمر او غير ذلك ، وانما قتل مسموماً بدسيسة بعض الخلفاء او القواد او ولاة العهد الى طبيبه او صاحب داره[١] .

اختلاط الانساب بعد الاسلام

قد رأيت ما كان للعرب من العناية في حفظ انسابهم حتى كانوا يحتقرون من لم يكن مولوداً من ابوين عربيين ، فاذا كان ابوه غير عربي سموه المذرع ، وان كانت أمه أعجمية سموه الهجين . واذا كانت امه أمة استعبدوه ، فاذا انجب اعترفوا به ، وإلا ظل عبداً ، والعرب لا تورث الهجين ، وهو من قبيل احتقارهم غير العرب كما تقدم .

ابناء الاماء

ولما جاء الاسلام وغلب العرب على أمم الشرق من فارس والترك وغيرهما ، وكثرت السبايا في اثناء الفتوح ، اتخذوا من النساء اظئارا ودايات ومراضع ، واقتنوا الجواري للفراش ، وكانوا في بادىء الرأي يكرهون التزوج بهن ويحتقرون ابناءهن ، وخصوصاً في الحجاز مركز الجامعة العربية ، حتى نشأ في المدينة ثلاثة من كرام الرجال امهاتهم من الاماء ، وهم علي بن الحسين والقاسم بن محمد وسالم بن عبدالله ، وفاقوا أهل المدينة فقهاً وعلماً وورعاً فرغب الناس في السراري[٢] .

على ان بني أمية ظلوا يحتقرون ابناء الاماء ، تعصباً للعرب على العجم ، فبلغ عبد الملك يوما ان علي بن الحسين تزوج جارية له واعتقها، فكتب اليه يؤنبه فأجابه علي: « ان الله رفع بالاسلام الخسيسة واتم النقيصة واكرم به من اللؤم ، فلا عار على مسلم ، وهذا رسول الله (صلعم) قد تزوج أمته وامرأة عبده » ، فلما تلا عبد الملك جوابه قال:

---

١ – طبقات الاطباء ١٨٢ ج ١ . ٢ – العقد الفريد ٢٢٩ ج ٣ .

« ان علي بن الحسين يشرف من حيث يتضع الناس » . على ان العرب اصبحوا بعد الاسلام يرفعون من شأن الهجناء ، اعتماداً على ان النسب ليس من قبيل الام وانما النسب للآباء عملا بقول الشاعر :

لا تشتمن امرأ من ان تكون له ... ام من الروم او سوداء عجماء
فانما أمهات القوم أوعية ... مستودعات ، وللاحساب آباء

أما بنو أمية فظلوا على احتقارهم بني الاماء الى اواخر دولتهم ، وكانوا لا يستخلفونهم ، وقالوا : لا تصلح لهم العرب . ولذلك لما قام زيد بن علي بن الحسين يطالب بالخلافة في ايام هشام بن عبد الملك عيره هشام بقوله : « انت الذي تنازعك نفسك في الخلافة وانت ابن أمة ؟ » قال : « يا أمير المؤمنين ، ان الامهات لا يقعدن بالرجال عن الغايات . وقد كانت ام اسماعيل امة لام اسحق ، فلم يمنعه ذلك ان بعثه الله نبياً وجعله للعرب ابا ، فأخرج من صلبه خير البشر محمداً »[١] فالعلويون كانوا اقرب للاختلاط بغير العرب ، استنكافاً من شدة تعصب بني أمية للعرب ، ولذلك كان الموالي اكثرهم من شيعة العلويين .

وكان العرب في صدر الاسلام بهذا الاعتبار طائفتين ، فيهم من يحقر ابناء الاماء وفيهم من لا يجعل لنسب الام قيمة — ذكروا ان عبد الملك بن مروان سابق ولديه سليمان ومسلمة ، فسبق سليمان فقال عبد الملك :

ألم انهكم ان تحملوا هجناءكم ... على خيلكم يوم الرهان فتدرك
وما يستوي المرآن : هذا ابن حرة ... وهذا ابن اخرى ظهرها متشرك
وتضعف عضداه ويقصر سوطه ... وتقصر رجلاه فلا يتحرك
وادركنه خالاته فنزعنه ... الا ان عرق السوء لا بد يدرك

وهاك ما قاله حاتم الطائي :

وما انكحونا طائعين بناتهم ... ولكن خطبناها بأسيافنا قسرا
فما زادها فينا السباء مذلة ... ولا كلفت خبزاً ولا طبخت قدرا
ولكن خلطناها بخير نسائنا ... فجاءت بهم بيضاً وجوههم زهرا

---

١ – المسعودي ١٣٠ ج ٢ .

وكائن ترى فينا من ابن سبية   اذا لقي الابطال يطعنهم شزرا
ويأخذ رايات الطعان بكفه   فيوردها بيضاً ويصدرها حمرا
كريم اذا اعتز اللئيم تخاله   اذا ما سرى ليل الدجى قمرا بدرا (١)

على ان طبيعة العمران غلبت على ما اراده الامويون من حفظ النسب العربي ، وقضى الاختلاط بالاعاجم باختلاط الانساب ، حتى في الخلفاء من بني امية ، فبايعوا في اواخر دولتهم لابناء الاماء واول من تولى الخلافة من الخلفاء الهجناء يزيد بن الوليد بن عبد الملك سنة ١٢٦ هـ ، ولكن امه كانت من نسل يزدجرد بن كسرى ، سباها قتيبة ببلاد الصغد وارسلها الى الحجاج فقدمها الحجاج الى الوليد بن عبد الملك فأولدها يزيد(٢) ويقال ان بني امية حظروا مبايعة بني الاماء ، ليس لاستهانة بهم ولكنهم كانوا يرون زوال دولتهم على يد ابن امة ، فلما تولى يزيد المذكور ظنوه الذي يذهب ملكهم على يده ، فلم يلبث سبعة اشهر حتى مات ، ووثب مكانه مروان بن محمد وامه امة كردية ، فذهب ملكهم على يده .

الخلفاء الهجناء

اما بنو العباس فقامت دولتهم بالموالي ، وقد ضعفت في ايامهم العصبية العربية لكثرة الاختلاط ، فأصبحوا لا يعتدون بالأم على الاطلاق ، وكان اكثر خلفائهم من بني الاماء من ابراهيم الامام فما بعده ، وفيهم الاماء من الفرس والترك والروم والاكراد والبربر والاحباش والزنج وغيرهم ، واليك اسماء بعض خلفاء بني العباس من ابناء الاماء :

اسم الخليفة	جنس امه	اسم الخليفة	جنس امه
ابراهيم الامام	بربرية	المأمون	فارسية
المنصور	بربرية	المنتصر بالله	حبشية رومية
الرشيد	حرشية	المستعين بالله	صقلبية
ابراهيم بن المهدي	زنجية	المعتز	جارية ؟
المهتدي	رومية	المستضيء	أرمنية
المقتدر	تركية	الناصر	تركية
المكتفي	تركية		

١ – العقد الفريد ٢٣٠ ج ٣ . ٢ – ابن الاثير ٢٧٥ ج ٤ و ١٤٧ ج ٥ .

وقس على ذلك الخلفاء من الدول الاخرى . فان المستنصر بالله الفاطمي امه أمة سودانية ، وعبد الرحمن الداخل الاموي امه بربرية . ناهيك بأبناء الخلفاء الذين لم يتولوا الخلافة حتى في صدر الاسلام ، فان محمد بن الحنفية امه جارية سندية سوداء .

فاذا كان هذا حال اختلاط النسب في الخلفاء ، فكيف في سائر طبقات الناس ؟ فالنسب العربي لم يكن خالصاً إلا في الجاهلية وصدر الاسلام الى اواسط الدولة الاموية ، وظل بعد ذلك محفوظاً من حيث الآباء فقط ، أما من حيث الامهات فانه اختلط اختلاطاً عظيماً . ونحن نعلم الآن ان الولد يرث من امه كما يرث من ابيه ، وربما كان من حيث الاخلاق اقرب الى امه مما الى ابيه . فالعرب بعد القرن الثاني للهجرة قل فيهم الدم العربي الخالص ، الا في البادية او حيث لم يكثر اختلاطهم بالاعاجم . فضلا عما أثر فيهم من طبائع الاقاليم التي نزلوها وعادات اهلها .

فالعرب الحضر في القرن الثالث للهجرة هم غير العرب في صدر الاسلام فكيف في حضر هذه الأيام وقد توالى فيهم الاختلاط والتزاوج ؟ ناهيك بمن يتعرب وينتسب الى البلاد ، فأهل الشام ومصر والعراق والمغرب مثلا يعدون من العرب ، وهم في الحقيقة اخلاط من العرب والترك والديلم والجركس والروم والفرس والارمن والكرج وغيرهم ، ولكن الرجل اذا نزل بعض هذه البلاد عد في بادىء الرأي غريباً ، فاذا قطنها وتناسل فيها كان اولاده مولدين ، فاذا توالت عليهم الاجيال سموا عرباً .

العصر التركي الأول

العصر التركي الأوّل

من خلافة المتوكل سنة ٢٣٢ الى تسلط الديلم سنة ٣٣٤ ه

نريد بهذا العصر المدة التي استبد فيها الاتراك بالدولة العباسية ، وهم الاجناد ، تمييزاً له عن العصر العباسي الفارسي الذي استبد فيه الفرس ، وهم الوزراء . وليس بين العصرين حد فاصل ينتهي اليه الواحد ويبتدىء منه الآخر ، بل هما تعاصرا مدة كان الاول في اواخره ، والآخر في اوائله .

الاتراك القدماء

الترك امة قديمة جداً مؤلفة من قبائل وبطون وافخاذ ، كانت مواطنهم على جبال الالطاي او جبال الذهب في اواسط آسيا بين الهند والصين وسيبريا . وهم يذهبون في اصل اجتماعهم مثل مذهب الرومانيين في مؤسس دولتهم « روملس » فيعتقدون ان برتزينا اول قوادهم رضع من ثديي الذئبة ، فلما شب قادهم في الحروب والغزو بخيامهم وانعامهم ، لانهم اهل بادية ، فحاربوا الامم المجاورة وخصوصاً سكان الصين . وخلف برتزينا غير واحد من ابنائه ، وكانوا قد شاهدوا مدن الصين وعمرانها فأحب بعضهم ان يبني المدن فمنعه بعض امرائه ، ومن نصائحه في هذا الشأن قوله : « نحن يا مولاي اقل من عشر اهل الصين عدداً وقوتنا انما هي باطلاق حريتنا ، اذا رأينا في انفسنا قوة على الحرب هجمنا وإلا رجعنا الى البادية ، وأهل المدن محبوسون داخل الاسوار كأنهم في قفص » ، فأعجبه رأي الرجل وعدل عن التحضر . وتلك كانت حال العرب في صدر الاسلام ، فان بداوتهم كانت من اهم اسباب تغلبهم .

وما زال الاتراك اهل بادية وغزو وخيام ، يزدادون قوة وعدداً حتى اجتمع منهم نحو ٤٠٠٫٠٠٠ رجل حاربوا اهل الصين والفرس والرومان خمسين سنة ، وظفروا في معظم حروبهم ، وقد عقدوا مع الرومان في ايام جوستنيان صلحاً ، وظلت العلائق حسنة بينهم وبين خلفائه ، وتبودلت السفارات بين الامتين غير مرة . وفي ايام خاقان ديزابول

ارسل اليه الرومانيون في جبال الذهب وفداً عقدوا معه محالفة على محاربة الفرس في زمن كسرى انوشروان فلم يقووا عليه ، وكانوا قد انتشروا في بلاد تركستان واقام بعضهم في المدن .

الاتراك بعد الاسلام

ولما ظهر الاسلام وانتشر العرب في انحاء العالم ، وطئت حوافر خيولهم بلاد الترك ، وهم يعبرون عنها بما وراء النهر ، ففتحوا بخارا وسمرقند وفرغانة واشروسنة وغيرها من تركستان في ايام بني أمية . ولما تولى العباسيون كانت تلك المدن خاضعة للمسلمين يؤدون عنها الجزية والخراج ، وكانوا يحملون في جملة الجزية اولاداً من اهل بادية تركستان يبيعونهم بيع الرقيق ، وهم في الغالب من السبي او الاسرى على جاري العادة في تلك الاعصر . فضلا عمن كان يقع منهم في ايدي المسلمين في اثناء الحرب بالاسر او السبي ويعبرون عنهم بالمماليك ، ويفرقونهم في بلاط الخلفاء ومنازل الامراء . فأخذوا يدينون بالاسلام مثل سواهم من الامم التي خضعت للعرب في ذلك العهد ، ومنهم العبيد والموالي كما تقدم .

وكان الاتراك يومئذ يمتازون عن سائر الشعوب التي دانت للمسلمين بقوة البدن والشجاعة والمهارة في رمي النشاب والصبر على الاسفار الشاقة فوق ظهور الخيل ، والثبات في ساحة الوغى مع قلة العناية بالعلوم ولا سيما الفلسفة والعلم الطبيعي ، وقلما اشتغل احد منهم بدرسها في ابان التمدن الاسلامي . واشتهر ذلك عنهم حتى اصبحوا اذا سمعوا بتركي يشتغل بالعلم الطبيعي ذكروه مع الاستغراب ، كما فعل ابن الاثير لما اشار الى معرفة قتلمش علم النجوم فقال : « ومن العجب ان قتلمش هذا كان يعلم علم النجوم وقد اتقنه مع انه تركي ويعلم غيره من علوم القوم » . ويعرف الاتراك في تاريخ الاسلام بأسماء كثيرة تختلف باختلاف اصولهم وفروعهم ، وقبائلهم كثيرة مثل قبائل العرب .

الجند التركي في الدولة العباسية

المعتصم والاتراك

اول من استخدم الاتراك في الجندية من الخلفاء المنصور العباسي ، ولكنهم كانوا شرذمة صغيرة لا شأن لها في الدولة ، وانما كان الشأن الأكبر يومئذ للخراسانيين «الفرس» والعرب . ولما اشتد التنافس بين العرب والفرس في ايام الرشيد ، وذهبت سطوة العرب بذهاب دولة الأمين وتسلط الفرس انصار المأمون واخواله واستبدوا في الدولة ، كانت الحضارة قد اضرت بالمسلمين واذهبت منهم قوة التغلب والفتح . ففكر المعتصم اخو المأمون في ذلك قبل ان تفضي الخلافة اليه ، وكانت امه تركية وفيه كثير من طبائع الاتراك التي ذكرناها مع الميل اليهم لأنهم اخواله ، كما كان يميل المأمون الى الفرس . وشاهد المعتصم من جرأة الفرس وتطاولهم بعد قتل اخيه الامين ، حتى اصبح يخافهم على نفسه . ولم يكن له ثقة بالعرب ، وقد ذهبت عصبيتهم واخلدوا الى الحضارة والترف وانكسرت شوكتهم ، فرأى ان يتقوى بالاتراك وهم لا يزالون الى ذلك العهد اهل بداوة وبطش ، مع الجرأة على الحرب والصبر على شظف العيش . فجعل يتخير منهم الاشداء يبتاعهم بالمال من مواليهم في العراق ، او يبعث في طلبهم من تركستان وغيرها . فاجتمع عنده عدة آلاف ، وفيهم جمال وصحة ، فألبسهم اثواب الديباج والمناطق المذهبة والحلية المذهبة ، وميزهم بالزي عن سائر الجنود[1] . واكثر الاتراك الذين اجتمعوا عنده ينسبون الى فرغانة واشروسنة .

فلما افضت الخلافة اليه كان الاتراك عوناً له ، وتكاثروا حتى ضاقت بغداد عنهم ، وصاروا يؤذون العوام في الاسواق فينال الضعفاء والصبيان من ذلك اذى كثير ، وربما اردوا الواحد بعد الواحد قتيلاً على قارعة الطريق . فاتفق ان المعتصم خرج بموكبه يوم عيد فقام اليه شيخ فقال له : « يا ابا اسحق ! » فاراد الجند ضربه فمنعهم وقال : « يا شيخ مالك ؟ » قال : لا جزاك الله عن الجوار خيراً ! جاورتنا وجئت بهؤلاء العلوج من غلمانك الاتراك فأسكنتهم بيننا ، فأيتمت بهم صبياننا وأرملت نساءنا وقتلت رجالنا » والمعتصم يسمع ذلك ، فدخل منزله ولم ير راكباً الى مثل ذلك اليوم . فخرج فصلى

١ – المسعودي ٢٤٦ ج ٢ .

بالناس العيد ، ولم يدخل بغداد بل سار يلتمس معسكراً لاجنـــاده ، حتى اتى سامرا فاتخذها معسكراً فأعجبته وسماها سر من رأى ، واختط فيهـــا الخطط واقطع اتراكه القطائع على حسب القبائل ومجاورتهم في بلادهم ، وافرد أهل كل صنعة بسوق وكذلك التجار . فبنى الناس وارتفع البنيان وشيدت القصور وكثرت العمارات واستنبطت المياه، وتسامع الناس ان دار الملك قد انتقلت الى هناك فقصدوها ، وجهزوا اليهـا من انواع الامتعة وسائر ما ينتفع به الناس ، فكثر العيش واتسع الرزق . وما زالت سامرا قاعدة الدولة العباسية من سنة ٢٢١ ﻫ الى ايام المعتمد ، فعاد الى بغداد سنة ٢٧٩ ﻫ وهو اول من عاد اليها منذ بنيت سامرا [١] .

وكان المعتصم ينظم المماليك فرقاً عليهم القواد منهم ، مثل نظام الجند في ذلك الزمن. ولم يكتف بجمع المماليك الاتراك بالشراء او المهاداة ، ولكنه رغب امراء الاتراك واولاد ملوكهم في القدوم اليه والاقامة في ظله . وممن جاء منهم على هذه الصورة جف بن بلتكين من اولاد ملوك فرغانة ، وكانوا قد وصفوه له بالشجاعة والتقدم في الحروب ، فوجه المعتصم اليه من احضره واحضر غيره من ابناء الامراء فبالغ المعتصم في اكرامهم . ولما بنى سر من رأى « او سامرا » اقطعهم فيها القطائع ، وظلت قطائع جف تعرف باسمه هناك عدة قرون[٢] .

وكان اكثر الاتراك لما جمعهم المعتصم اليه يدينون بالمجوسية او الوثنيـة على ما كانوا عليه في بلادهم ، وفيهم جماعة قد دخلوا الاسلام . اما غير المسلمين فلما صاروا من جنـد الخليفة وتربوا في ظل المسلمين اسلموا ، وفيهم من اظهر ذلك تزلفاً للخلفـاء كالافشين ، وكان مجوسياً واظهر الاسلام طمعاً في الكسب من الغنائم بالحروب .

وكان المعتصم شديد الرغبة في استبقاء اتراكه على فطرتهم ، ويخـــاف تحضرهم واختلاطهم بالامم الاخرى فتذهب عصبيتهم وتضعف نجدتهم ، فابتـــاع لهم الجواري التركيات فأزوجهم منهن ومنعهم ان يتزوجوا او يصاهروا احداً من المولدين ، الى ان ينشأ لهم الولد فيتزوج بعضهم الى بعض ، واجرى للجواري ارزاقاً قائمة ، واثبت اسماءهن في الدواوين فلم يكن يقدر احد منهم ان يطلق امرأته او يفارقها[٣] .

---

١ – ابن الاثير ١٨١ ج ٧ . ٢ – ابن خلكان ٤١ ج ٢ .
٣ – اليعقوبي : تقويم البلدان ٣٣ .

الجند التركي ومصالح الدولة

فاشتد ساعد الاتراك بذلك وقويت شوكتهم وغلبوا على امور الدولة ، وخصوصاً بعد ان انقذوا المملكة من بابك الخرمي وفتحوا عمورية ونصروا الاسلام فتحول النفوذ اليهم . وبعد ان كانت امور الدولة في قبضة الوزراء الفرس اصبحت في ايدي القواد الاتراك ، او صار النفوذ فوضى بين الوزراء والقواد . واشتهر من الوزراء في اثناء تلك المدة جماعة من كبار الرجال ، كابن وهب وابن الفرات وعلي بن عيسى وابن مقلة وغيرهم . وكانوا يسابقون الاتراك الى النفوذ وابتزاز الاموال بالمصادرات ونحوها من المظالم كما سيجيء.

وكانت الدولة قد تجاوزت طور الشباب واخذت في التقهقر ، وانغمس الخلفاء في الترف والقصف وعجزوا عن القيام بشؤون الحكومة ، فأصبحوا لا يبلغون منصب الخلافة إلا بالجند (الاتراك) وهؤلاء لا يعملون عملا إلا بالمال ، فمن استطاع استخدام الجند ملك ، ولا عصبية هناك ولا جنسية ولا جامعة دينية ولا وطنية . فأصبح الاتراك محور تلك الحركة وهم أهـــل شجاعة وحرب كما تقدم ، فأصبح البطش والفتك اكبر عوامل السيادة .

وكانت جنود الدولة العباسية في اوائلها العرب من مضر واليمن ، والفرس — ونريـد بالفرس سكان ما بين العراق واطراف خراسان شرقاً الى نهر جيحون (الاندوس) ويدخل في ذلك اهل خوزستان وفارس وكرمان ومكران وسجستان وقوهستان وخراسان وغيرها — وقد قام هؤلاء بنصرة المسلمين انتقاماً من بني أمية او رغبة في الملك ، ومعظمهم من الجنود الاحرار بلا بيع ولا عتق ، وانما سموا الموالي اشارة الى انهم ليسوا عربـاً على اصطلاح ذلك العصر . واختار الخلفاء جماعة منهم قدموهم في مصالح الدولة ، فنبغ منهم الوزراء والامراء والعلماء ، وولاهم الخلفاء الولايات فاستقلوا بها وانشأوا الدول المستقلة تحت رعاية الخلافة العباسية كما سيأتي .

فلما تولى المعتصم واقتنى الاتراك بالترغيب او الشراء ، اصبح الجند العباسي اكثره من المماليك الاتراك واخلد الخلفاء بعد الى نصرتهم واختصوا بعضهم بالخدمـــة في بلاطهم ، وجعلوا من بطانتهم في جملة الخدم او الحرس ، وتقدم بعضهم في مناصب الدولة حتى قادوا الجند واستبدوا بالاحكام . فانتقلت سياسة الدولة من ايدي الموالي الفرس — واكثرهم من الشيعة — الى الجند الاتراك واكثرهم من السنة . وتمكن هذا المذهب منهم منـــذ جاهر

الخلفاء العباسيون باضطهاد الشيعة ، واولهم المتوكل على الله . ورسخ الاتراك في مذهب السنة من ذلك الحين ، ولا يزالون عليه الى اليوم .

أما استبدادهم في بلاط الخلفاء فابتدأ في ايام المتوكل ، لأنه لما تولى الخلافة سنة ٢٣٢ ه وكان ما كان من كرهه الشيعة واستبداده فيهم ، زاد في تقديم الاتراك ورعايتهم فزاد طمعهم في الدولة . ثم اغراهم ابنه المنتصر بعده ، ولم تطل مدة حكمه اكثر من بضعة اشهر فمات وضميره يخزه . وتولى بعده المستعين بالله سنة ٢٤٨ ه ثم المعتز بالله سنة ٢٥١ ه وقد استفحل امر الاتراك استفحالا عظيما – ومما يحكى عن استبدادهم بالخلفاء انه لما تولى المعتز قعد خواصه واحضروا المنجمين وقالوا لهم « انظروا كيف يعيش الخليفة وكم يبقى في الخلافة . . » وكان في المجلس بعض الظرفاء فقال « انا اعرف من هؤلاء بمقدار عمره وخلافته . . » فقالوا له « فكم تقول انه يعيش وكم يملك » قال : « مهما اراد الاتراك . . » فلم يبق في المجلس إلا من ضحك [1] .

وقد قتلوا المعتز هذا شر قتلة ، فانهم جروه برجله الى باب الحجرة وضربوه بالدبابيس وخرقوا قميصه ، واقاموه في الشمس في الدار فكان يرفع رجلا ويضع اخرى لشدة الحر وبعضهم يلطمه بيده [2] . والمستكفي سملوا عينيه ثم حبسوه حتى مات في الحبس [3] وبلغ من فقر القاهر بالله انهم حبسوه وهو ملتف بقطن جبة وفي رجله قبقاب خشب [4] – فلا غرو اذا اصبحوا آلة في ايدي الاتراك : اذا تنازعوا على السلطة كان الخليفة مع الحزب الغالب [5] وبعد ان كان القواد يحلفون للخليفة بالطاعة صار الخليفة يحلف لهم [6] .

فلما تقدم الاتراك في الدولة العباسية ، وعلم اخوانهم في بلادهم بذلك ، تقاطروا مئات والوفاً يطلبون الارتزاق بالجندية ، ورغبوا في الاسلام وجعلوا يدخلون فيه بالالوف وعشرات الالوف . فقد اسلم منهم سنة ٣٥٠ ه ٢٠٠٠٠٠ خركاه دفعة واحدة ، والخركاه الخيمة ولا يقل اهل الخيمة الواحدة عن خمسة انفس ، فعدد الذين اسلموا في هذه الدفعة نحو مليون نفس . واسلم سنة ٤٣٥ ه ١٠٠٠٠ خركاه من اهل بلاساغون وكاشغر دفعة واحدة ، وضحوا عشرين الف رأس غنم [7] .

---

١ – الفخري ٢٢٠ .　　٢ – ابن الاثير ٧٧ ج ٧ .　　٣ – ابن الاثير ١٧٧ ج ٨ .
٤ – ابن الاثير ١٧٣ ج ٨ .　　٥ – ابن الاثير ٢٦٤ ج ٩ .
٦ – ابن الاثير ١٧٦ ج ٨ .　　٧ – ابن الاثير ٢١٠ ج ٨ و ٢١٦ ج ٩ .

وكان الجند الاتراك يومئذ اشبه شيء بالفرق التي كانت عند الرومان ويسمونها Praetorian او هم كالباشبوزق في الدولة العثمانية يستخدمهم من شاء بالمال . فكل من وصلت يده الى السلطة اقتنى الغلمان الاتراك اما بالشراء او بالاجرة . وتألفت منهم الفرق بتوالي الاعوام ، وكل منها تنسب الى صاحبها كالساجية نسبة الى ابي الساج ، والصلاحية الى صلاح الدين ، وقس على ذلك الاسدية والنظامية وامثالها . وكثيراً ما كانت الحروب تشب بين هذه الفرق تنازعاً على النفوذ او على الاموال . ولما استولى الديلم على بغداد في ايام بني بويه توالت الحروب بين الترك والديلم وغلمان الخلفاء او الموالي . ومـا من دولة قامت في ذلك العصر إلا استخدمت الاتراك في جندها ، سواء كانت شيعية او سنية . فـكانوا يحملون الى بغداد او غيرها من المدائن الاسلامية تباعاً ، وقلما يتوالدون فيها ولذلك كانوا يتفاهمون بالتركية ، وقد يتعلمون العربية ولا يتكلمونها تكبراً .

وكان للأمراء والقوّاد عناية كبيرة في تدريب جنودهم الاتراك على الحركات العسكرية ، فضلاً عن تعليمهم الفرائض الدينية . على انهم كانوا يعلمونهم هـذه الفرائض وهم احداث فاذا جاء التاجر بمملوك للبيع عرضه على الامير او السلطان ، فاذا اعجبه اشتراه وانزله في الطبقة التي يماثلها من مماليكه ، وسلمه الى الطواشي برسم الكتابة . فأول ما يبدأ به تعليمه ما يحتاج اليه من القرآن . وكان في دولة المماليك المصرية لكل طائفة من الغلمان فقيه يحضر اليها كل يوم ويعلمها القرآن والخط وآداب الشريعة الاسلامية وملازمـة الصلوات . فاذا شب المملوك علمه الفقيه شيئاً من الفقه ، فاذا صار الى سن البلوغ اخذوا في تعليمه فنون الحرب من رمي النشاب ولعب الرمح ونحو ذلك . واذا ركب الاتراك لرمي النشاب او اللعب بالرمح لا يجسر جندي ولا امير ان يحدثهم او يدنو منهم . فاذا اتقن فنون الحرب تنقل في اطوار الخدمة رتبة بعد رتبة ، حتى يصير من الامراء ، ولا يصل الى هذه الرتبة إلا وقد تهذبت اخلاقه وكثرت آدابه ، وقـد ينبغ منهم الفقهاء والادباء والشعراء والحساب[١] .

على ان اهل البلاد كانوا يهابون الاتراك ويخافون بطشهم ، فاذا حلوا بلداً خافهم اهله ، اذ كثيراً ما كانوا ينزلون في دور الناس[٢] ويتعرضون للحرم والغلمان ، فاصبح عامـة بغداد يكرهونهم كرهاً شديداً .

---

١ – المقريزي ٢١٣ ج ٢ .   ٢ – ابن الاثير ٢٦٤ ج ٩ .

الخدم ونفوذهم في الدولة العباسية

اقدم من سمعنا به من الخدم النابغين في الدولة العباسية مسرور خادم الرشيد ، ولم يكن له شأن كبير . واول من قرب الخدم واستكثر منهم الامين ابن الرشيد ، فانه لما تولى الخلافة طلب الخصيان وابتاعهم وغالى فيهم ، فصيرهم لخلوته ليله ونهاره وقوام طعامه وشرابه وأمره ونهيه ، وعين منهم جماعة سماهم الجرادية وجماعة من الحبشان سماهم الغرابية . ولم يقرب الامين الخدم لحمايته او سياسة دولته ولكنه فعل ذلك انهماكاً في الترف والقصف . ومن اقوال الشعراء في عصره يصفون انصرافه الى اللهو بالغلمان ويشمون بعضهم قولهم :

الا يا ايها المثوى بطوس عزيبا ما تفادى بالنفوس
لقد ابقيت للخصيان هقلا يحمل منهم شؤم البسّوس
فاما نوفل فالشأن فيه وفي بدر فيا لك من جليس
وما للعصمي شيء لديه اذا ذكروا بذي سهم خسيس
وما حسن الصغير اخس حالا لديه عند مخترق الكؤوس
لهم من عمره شطر وشطر يعاقر فيه شرب الخندريس
وما للغانيات لديه حظ سوى التقطيب والوجه العبوس
اذا كان الرئيس كذا سقيما فكيف صلاحنا بعد الرئيس ؟
فلو علم المقيم بدار طوس لعز على المقيم بدار طوس[١]

وكان لهوه من أعظم أسباب سقوطه .

سبب نفوذهم

ولم يكن للخدم شأن في ايام المأمون ولا المعتصم ولا الواثق ، فلما استبد الاتراك وعلت كلمتهم في ايام المتوكل فما بعده ، وصاروا يولون الخلفاء ويعزلونهم او يقتلونهم ، كان في جملة ما استعانوا به على الاستبداد بهم ان يحجروا عليهم قبل الخلافة ويحبسوهم في القصور ليزيدوهم ضعفاً . وكان الخلفاء من الجهة الاخرى يميلون الى حبس اولادهم واقاربهم[٢]

---

١ — ابن الاثير ١٢٠ ج ٦ . ٢ — الفخري ٢٩٧ .

خوفاً من تواطئهم مع بعض الاتراك على خلعهم او قتلهم . ولا عشير لهم في اثناء الحجر إلا الخدم والخصيان ، فألفوا اخلاقهم وتحققوا بالاختبار ان حياتهم تتوقف بالاكثر على امانة اولئك الخدم لما آنسوا من غيرتهم عليهم ، وخصوصاً الخصيان اذ لا عصبية فيهم تمنعهم من التفاني في خدمة اسيادهم ولا مطمع لهم في الملك لاولادهم واهلهم . فأصبح ولاة العهد اذا افضت الخلافة اليهم بالغوا في تقريب الخدم بالعطايا والاكرام ، التماساً لحمايتهم اذا اراد الاتراك الفتك بهم . فعمدوا الى الاستكثار من الخدم ، وكانوا يقدمونهم ويكرمونهم ويستشيرونهم في امورهم ، فازداد الخدم نفوذاً وسطوة حتى اصبح الاتراك يخافونهم ، وقد ارتقى كثيرون منهم في العصر التركي من الخدمة في المنازل الى قيادة الجند او الامارة على الاقاليم .

فرق الخدم وطبقاتهم

ولما تكاثر الخدم في دور الخلفاء جعلوهم طبقات وفرقاً تعرف بأسماء خاصة ، وفيهم الرومي والتركي والحبشي والارمني والسندي والبربري والصقلبي ، في فرق اشبه بفرق الجند ولهم الرواتب والجواري .

والمراد في الاصل بالخدم والغلمان او العبيد او المماليك الذين يقيمون في دور الخلفاء او الامراء للخدمة فيما يحتاجون اليه من مهام المنازل . فكانوا يبتاعون الغلمان وفيهم الحائك والسائس والحجام والخباز وغيرهم . ثم صاروا يستكثرون منهم للاستعانة بهم في حماية تلك المنازل ايام الشدة ، على قدر ما يستطيعون بذله من المال في ابتياعهم . واثمانهم تتفاوت من مئة دينار الى الف دينار او اقل او اكثر . وربما بلغ عدد الخدم عند بعض الامراء الى خمسمئة غلام او الف او اكثر . فغلمان بغا الشرابي احد قواد الاتراك بلغ عددهم ٥٠٠ ، وزاد عدد غلمان يعقوب بن كلس وزير الفاطميين بمصر على ٤٠٠٠ .

اما في دور الخلفاء فكان الغلمان فرقاً تعرف بأسماء خاصة ، كفرق الغلمان الاصاغر ، والغلمان الحجرية والرجال المصافية والركابية وغيرها . والفرق بين فرق الجند التركي وفرق الغلمان ، ان الاجناد عساكر الدولة ينتظمون في خدمة المملكة ويتقاضون رواتبهم من بيت المال وفيهم المبتاع والمأجور ، وأما الغلمان فهم مختصون بالامير او الخليفة لخدمته الشخصية او حماية داره ، وهم ملكه وينفق عليهم من ماله الخاص وقد تتحول فرق الغلمان الى فرق من الجند ، او يعملون معاً في خدمة الدولة على ما تقتضيه الاحوال . وقد

يبتاع الخليفة العبيد ليتقوى بهم على اعدائه مما لا ضابط له . وكثيراً ما تستبد بعض فرق الخدم بالخليفة او الامير حتى تغلبه على أمره وتفعل ما تشاؤه فيضطر الخلفاء احياناً الى الفتك بهم غيلة بمساعدة فرق اخرى[١] .

وكان في دور الخلفاء صنف من الخدم الخصيان يغلب استخدامهم في دور النساء ، وكانوا يستكثرون منهم ايضاً واكثرهم من الطواشية السود . وكان اهل بغداد يسخرون بهم ويهزأون بأشكالهم ويتعرضون لهم في الطرق وينادونهم بعبارات التهكم كقولهم : « يا عقيق صب ماء واطرح دقيق . يا عاق يا طويل الساق » وهم يشكونهم الى الخلفاء ، واصاب الناس في ايام المعتضد شدة بسبب ذلك ، فان بعض اهل بغداد تعرضوا لبعض الطواشية السود سنة ٢٨٤ هـ فاجتمعوا وكلموا المعتضد بما يلحقهم من ذلك ، فأمر المعتضد بجماعة من العامة ضربوا بالسياط[٢] على ان الخصيان كثيراً ما كانوا يرتقون في الدولة الى مصاف الامراء .

القواد والوزراء من الخدم

واول من استكثر من الخدم وقربهم ورفع منزلتهم المقتدر بالله ، فقد تولى سنة ٢٩٥ هـ وعنده من الخدم والخصيان ١١٠٠٠ خادم من الروم والسودان [٣] وكثير من المال والجوهر فتمكن من الحكم ٢٥ سنة رد فيها رسوم الخلافة الى ما كانت عليه . وكان يقدم الخدم ويستعين بهم ، وقد ولاهم قيادة الجند وغيرها . وفي أيامه نبغ مؤنس الخادم، فقدمه وكان يستشيره في اموره ، فتصرف مؤنس في مصالح الدولة كما يشاء ، وتولى رياسة الجيش وامارة الامراء وبيوت الاموال ، واستبد بكل شيء ، لكنه على الاجمال خدم الخليفة المقتدر خدمات ذات بال فلقبه الخليفة بمؤنس المظفر ، ثم كانت بينهما وحشة تكررت حتى أدت الى حروب انتهت بقتل المقتدر ، وحملوا رأسه الى مؤنس فلما رأى رأس مولاه بكى ولطم وجهه .

فالخلفاء انما لجأوا الى تحكيم الخدم والخصيان استبقاء لحياتهم او احياء لنفوذهم ودفع استبداد جند الاتراك . ولم يكن ذلك خاصاً بالدولة العباسية ، بل شمل معظم الدول الاسلامية المعاصرة . ولا هو من مخترعات الاسلام لأنه كان شائعاً في معظم الدول القديمة،

---

١ – ابن الاثير ١٢٦ ج ٨ . ٢ – المسعودي ٣٤٠ ج ٢ . ٣ – الفخري ٢٣٤ .

فاسطفان المعتق (المولى) استبد بشئون الدولة الرومانية من قتـل وتنصيب وعزل ، وكذلك سليمان الخصي وغيرهما .

أما في الاسلام فاشتهر من الخدم في مناصب الدولة جماعـة كبيرة ، تولوا القيادة او الامارة او بيت المال او غير ذلك من المناصب الكبرى . فبدر غلام المعتضد تولى قيادة الجند ونقش اسمه على التروس والاعلام ، وابلى في خدمة مولاه بلاء حسناً حتى قتل في سبيل نصرته سنة ٢٨٩ هـ[١] وبحكم أصله من الغلمان وارتقى حتى صار امير الامراء وهي اعلى رتب الدولة العباسية في عصرها الثاني[٢] وجوهر قائد جند الفاطميين الذي فتح لهم مصر وبنى القاهرة في اواسط القرن الرابـع للهجرة كان مملوكاً رومياً ، وبلغ من تعظيمهم امره واكرامه انه لما اقلع عن المغرب قادماً الى مصر لفتحها ترجـل اولاد الخليفة المعز واهله ومشوا بـــين يديه[٣] وكان كافور الاخشيدي وهو خصي اسود ارتقى بمصر حتى استقل بأحكامها سنة ٣٥٥ هـ ، ويانس الصقلي الخصي اصله خادم مؤنس الخـادم تقدم مع ذلك في أعمال الدولة وعظمت منزلته حتى ولي الولايات وتداخل في السياسة . وبرجوان الاستاذ كان خصياً ابيض ارتقى في الدولة الفاطمية الى رتبة الوزارة ، ووزر للعزيز بالله والحاكم وتلقب بأمين الدولة ، وهو اول من لقب بذلك في الدولة الفاطمية[٤] وقراقوش الطواشي وزير صلاح الدين الايوبي بلغ ارقى مناصب الحكومة في الدولة الايوبية . وعميد الملك احد كبار القواد الاتراك كان من الخصيان ، وكذلك شقير الخادم صاحب البريد في مصر والشام ايام بني طولون . ومؤتمن الخلافة في الدولة الفاطمية كان خادمـــاً خصياً ، وقس على ذلك تقدم الصقالبة في دولة بني أمية بالاندلس ، وتقـــدم الخصيان في دول السلاجقة وبني بويه وسائر دول الاسلام في تلك العصور .

تأثير النساء في سياسة الدولة

للمرأة تأثير في اعمال الرجل ، مهما يكن نوعها وفي اي عصر كان واية امة كانت ، وان اختلف مقدار ذلك التأثير باختلاف عادات الامم وآدابها . فاذا كانت الدولة ملكية مطلقة كان للمرأة شأن كبير في سياستها ، حـــتى في الاسلام مع شيوع الطعن في آرائهن

١ – ابن الاثير ٢٠٥ ج ٧ .　٢ – ابن الاثير ١٣٣ ج ٨ .
٣ – المقريزي ٣٧٧ ج ١ .　٤ – ابن الاثير ٩٤ ج ٩ .

وقولهم ان مشاورتهن في الامور مجلبة للعجز ومدعاة الى الفساد ". وما من عظيم من عظماء الاسلام الا ونهى عن مشورتهن وادخالهن في الامور. قال المنصور في وصيته لابنه المهدي: « اياك ان تدخل النساء في امرك »، وقال النخعي : « من اقتراب الساعة طاعة النساء »، وقال ابو بكر : « ذل من اسند امره الى امرأة » ، وللعلي اقوال كثيرة في النهي عن مشورة النساء ، ومع ذلك فقد اثرت المرأة في سياسة الدولة تأثيراً عظيماً .

أمهات الخلفاء

وتأثير النساء في الدولة من قبيل تأثير الام في الابناء ، وقد بينا ذلك في باب الأمومة ، ويعظم اثره على الخصوص في تأثير امهات الخلفاء على اولادهن ، ولا سيما في اواسط الدولة عند احتجاب الخلفاء واستسلامهم الى الخدم .

على ان العباسيين حتى في صدر الدولة كانوا يصغون الى النساء ، فأحرزت المرأة نفوذاً كبيراً وخصوصاً امهات الخلفاء ، واول من استبد منهن الخيزران ام الهادي والرشيد ، وهي قرشية وكانت ذات نفوذ وقوة يخافها اولادها ، ومن خالفها منهم او اعترضها قتلته . وكانت في ايام زوجها المهدي صاحبة الامر والنهي وهو يطاوعها ، فلما تولى ابنها الهادي ارادت الاستبداد بالامور دونه ، وان تسلك به مسلك ابيه ، فلم يمض اربعة اشهر حتى انثال الناس اليها ، وكانت المواكب تغدو وتروح الى بابها فساءه ذلك ، وكلمته يوماً في أمر فلم يجد الى اجابتها فيه سبيلاً فقالت : « لا بد من اجابتي اليه فاني قد ضمنت هذه الحاجة لعبدالله بن مالك » فغضب الهادي وقال : « ويلي على ابن الفاعلة ! قد علمت انه صاحبها والله لا اقضيها لك » ، قالت : « اذن والله لا أسألك حاجة »، قال : « لا أبالي » وقامت مغضبة فصاح بها : « مكانك .. والله انا نفي من قرابتي من رسول الله ، لئن بلغني انه وقف ببابك احد من قوادي او خاصتي لاضربن عنقه ولاقبضن ماله . ما هذه المواكب التي تغدو وتروح الى بابك ؟ اما لك مغزل يشغلك او مصحف يذكرك او بيت يصونك ؟ اياك واياك لا تفتحي بابك لمسلم ولا ذمي ! » فانصرفت وهي لا تعقل ، ولم تنطق عنده بعدها . ثم انه قال لاصحابه : « ايما خير : انا ام انتم ، وامي أم أمهاتكم ؟ » ، قالوا : « بل انت وامك خير » قال « فأيكم يحب ان يتحدث الرجال بخبر امه فيقال : فعلت أم فلان وصنعت ؟ » قالوا : « لا نحب ذلك » ، قال : « فما بالكم تأتون امي فتتحدثون بحديثها ؟ » ، فلما سمعوا ذلك انقطعوا عنها فحقدتها عليه ، حتى اذا علمت انه يريد خلع

أخيه الرشيد والبيعة لابنه جعفر امرت بعض جواريها بقتله بالغم والجلوس على وجهه[١] فقتلنه .

فلما كانت ايام الرشيد استبدت الخيزران بالاحكام ، واحتشدت الاموال فبلغت غلتها في العام ١٦٠ مليون درهم ، أي نحـو نصف خراج المملكة العباسية في ذلـك العهد ، ولما ماتت توسع الرشيد بأموالها . وقس على ذلك ثروة سائر امهات الخلفاء [٢] .

أما من حيث النفوذ فقد كان للسيدة أم المقتدر — وهي تركية — سطوة غريبـة على رجال الدولة في خلافة ابنها ، وكانت تتصرف في الاحكام دونه بالاشتراك مع الحجاب والخدم ، وكان الوزراء يهابونها ويرتعدون خوفاً من ذكرها[٣] .

ويقال نحو ذلك في ام المستعين بالله المتوفي سنة ٢٥١ هـ ، وكانت صقلبية الاصل ، فأطلق المستعين في أمور الدولة يدها ويد اثنين من قواد الاتراك هما أتامش وشاهك الخادم ، فكانت الاموال التي ترد الى بيت المـــال من النواحي يصير معظمها الى هؤلاء الثلاثة [٤] .

على ان تسلط النساء في الدولة العباسية كان على معظمه في ايام المقتدر ، لتسلط الخدم والحجاب . وقـــد اشتهر من النساء في ذلك العهد السيدة أم المقتدر والخالة وأم موسى الهاشمية القهرمانة ، فهؤلاء كن يرتشين بالاشتراك مع موسى الخادم ونصر الحـــاجب والكتاب ونحوهم ، ويمشين الامور كما يردن ويريد هؤلاء . وكان لام موسى المذكورة دهاء ونفوذ ، حتى تكفلت مرة بالخلافة لاحد العباسيين من اصهارها ، واخـذت تبذل الاموال للقواد وغيرهم ، فوشى بها بعضهم الى المقتدر فقبض عليها واخـذ منها اموالاً عظيمة . وقس على ذلك نفوذ نساء القصور في الدولة العباسية ، وهو من قبيل نفوذالموالي في هذه الدولة ، لأن اكثر اولئك النساء من غير العرب .

---

١ — ابن الاثير ٤١ ج ٦ . ٢ — الجزء الثاني من هذا الكتاب .
٣ — تاريخ الوزراء ٦٧ . ٤ — ابن الاثير ٤٧ ج ٧.

فساد الأحكام في الدولة العباسية

التنازع على النفوذ

وبلغت الدولة العباسية عصرها الذهبي في ايام خلفائها الاولين ، وخصوصاً الرشيد والمأمون بتدبير الوزراء الفرس ولا سيما البرامكة . فاتسع سلطانها في ايامهم وامتدت سطوتها على معظم العالم المعمور في ذلك العهد ، فبلغت الهند شرقاً والمحيط الاطلسي غرباً وبلاد سيبيريا وبحر قزوين شمالا وبحر فارس وبلاد النوبة جنوباً . وقد بينا اقسامها وجغرافيتها في الجزء الثاني . فلما نكب البرامكة ثم استبد الجند التركي بالحكومة اصبحت الاحكام فوضى ، وخصوصاً بعد المتوكل ، لأنهم اقدموا على قتله وكان ذلك فاتحة جرأتهم على الخلفاء بعده من عزل وتولية وقتل وسمل . فعجز الخلفاء عن القيام بشؤون الدولة ، وهم اصحابها المسؤولون عنها والاحكام تصدر بأسمائهم ، وان كانوا مدفوعين الى اجراءاتهم ببعض ارباب النفوذ في بلاطهم ، من الوزراء والقواد . فأقدرهم على ارضاء الخليفة او اشدهم دهاء ومكراً يفضى النفوذ اليه ، فاذا ملك قياد الحكومة بذل جهده في حشد الاموال ، اذ لا يأمن ان يستبدل هذا الخليفة بآخر لا يرضاه ، او لعل بعض اعدائه يغلبه بدسائسه وسعايته فيعزله ، فاذا لم يكن له مال عاش ذليلا مهاناً . على ان القواد كانوا يحاولون الاستئثار بالنفوذ في بلاط الخليفة بالتهديد او بالوشاية ، ويختلف ذلك باختلاف الاحوال والاشخاص .

ويقال بالاجمال ان النفوذ اصبح ضائعاً بين الوزراء والقواد ، وكلاهما لا يرجون من وراء عنايتهم وجهدهم منفعة لأنفسهم ، غير ما يكتسبونه من المال في اثناء نفوذ كلمتهم . فأصبح الغرض الاول من تمشية الاحكام انما هو حشد المال . فالوزير الذي يتولى امور الدولة ولا يدري ما يكون مصيره بعد عام او عامين من عزل او قتل او حبس لا يهمه غير الكسب من اي طريق كان ، ولا يبالي بما قد يترتب على ذلك فيما بعد ، عملا بالقاعدة التي وضعها ابن الفرات كبير وزراء ذلك العصر وهي قوله : « ان تمشية امور السلطان على الخطأ خير من وقوفها على الصواب » [١] .

---

١ – تاريخ الوزراء ١١٩ .

وانتبه الخلفاء الى مطامعهم ، فأصبحوا اذا عزلوا وزيراً صادروه واخـذوا امواله ، وقد فصلنا ذلك في باب المصادرة في الجزء الثاني من هـذا الكتاب ، ثم عمت المصادرة سائر رجال الحكومة ، حتى الرعية ، واصبحت بتوالي الايام المصدر الرئيسي لتحصيل المـال. فالعامل يصادر الرعيـة ، والوزير يصادر العمال ، والخليفة يصادر الوزراء ويصادر النـاس على اختـلاف طبقاتهم ، حتى انشأوا للمصادرة ديوانـاً خاصاً مثل سائر دواوين الحكومـة [١] فـكان المال يتداول بالمصادرة كما يتداول بالمتاجرة .

انواع المصادرة ومقاديرها

قال الوزير ابن الفرات : « تأملت ما صار الى السلطان من مالي فوجدته ١٠ ملايين دينار ، وحسبت ما أخذته من الحسين بن عبدالله الجوهري (ابن الجصاص) فـكان مثل ذلك » فكأنه لم يخسر شيئاً ، لانهم كانوا يقبضون بالمصادرة ويدفعون بالمصادرة . واذ صودر احدهم على مال لم يكن في وسعه اداؤه كله معجلا اجلوه بالباقي ، وساعدوه على تحصيله او جمعه برد جاهه وتغيير زيه وانزاله في دار كبيرة فيها الفرش والآلة الحسنة ؛ ليستطيع التمحل في جمع الاموال من الناس[٢] .

وتعددت اسباب المصادرة وجهاتها ،حتى اصبح كل صاحب مال او منصب عرضة لها. وهاك قائمة بما قبضه ابن الفرات من المصادرة على ايام الراضي بالله ، ننشرها بنصها حرفياً انموذجاً لأنواع المصادرات ومقاديرها [٣] .

دينـار	
٧٫٣٠٠	من احمد بن محمد البسطامي عن النصف مما بقي عليه من مصادرته لسنة ٣٠٠ هـ
١١٫٠٠٠	من علي بن الحسين الباذبيني الكاتب عما تولاه بالموصل .
٣٠٫٠٠٠	من محمد بن عبدالله الشافعي عما تصرف فيه لعلي بن عيسى .
٨٠٫٠٠٠	من محمد بن علي بن مقلة عما تصرف فيه

---

١ – تاريخ الوزراء ٣٠٦ . ٢ – الفرج بعد الشدة ٥١ ج ١ .
٣ – تاريخ الوزراء ٢٢٤ .

دينـار	
١٠٠ر٠٠٠	من محمد بن الحسين المعروف بأبي طاهر
١٣ر٠٠٠	من الحسن بن ابي عيسى الناقد عما ذكر انه وديعة لعلي بن عيسى
٤ر٠٠٠	ومنه ايضاً عن نفسه
٢٠ر٠٠٠	من ابراهيم بن احمد المادرائي
٣٦ر٣٦٠	من عبد الواحد بن عبدالله بقية مصادرة والده
١٠ر٠٠٠	من احمد بن يحيى عن مصلحة وجبت
٦ر٠٠٠	من ابراهيم بن احمد الجهبذ عن صلحه
٤ر٠٠٠	من محمد بن عبد السلام عما عنده من الوديعة لمحمد بن علي وابراهيم المادرائي
٤٠ر٠٠٠	من عبد الوهاب بن احمد بن ما شاء الله عن صلحه
١٠ر٠٠٠	من محمد بن عبدالله بن الحرث عن صلحه
٢٥٠ر٠٠٠	من محمد بن احمد عما تصرف فيه بالموصل وغيرها
١٥ر٠٠٠	من ابراهيم المادرائي عن الباقي عليه
٣ر٠٠٠	من ابي عمر بن الصباح عن الباقي على ابن العباس احمد
٧ر٠٠٠	من علي بن محمد بن الحواري وقتل
٧ر٠٠٠	من هرون بن احمد الهمذاني
٢ر٠٠٠	من عبدالله بن زيد بن ابراهيم
١٥ر٠٠٠	من عبدالله بن زيد صلحاً عن نفسه
٦٠ر٠٠٠	من علي بن مأمون الاسكافي وقتل
٧٠ر٠٠٠	من يحيى بن عبدالله عما تصرف فيه مع حامد
١ر٣٠٠ر٠٠٠	من حامد بن عباس وقتل
١٥٠ر٠٠٠	من محمد بن حمدون الواسطي
٤٢ر٠٠٠	من علي بن عيسى
١٠ر٠٠٠	من ابراهيم جهبذ حامد بن عباس
١ر٢٠٠ر٠٠٠	من الحسن المادرائي
١ر٠٠٠ر٠٠٠	ومنه ايضاً
١ر٠٠٠ر٠٠٠	من محمد المادرائي

دينـــار	
١٠ر٠٠٠	ومنه ايضاً بخط آخر
٢٠ر٠٠٠	من ابي الفضل محمد بن احمد بن بسطام
٥٠٠ر٠٠٠	من علي بن الحسن الباذبيني صلحاً عما تصرف فيه بالموصل وقتل
١٠٠ر٠٠٠	من أبي عمر بن الصباح عن ضمانة الباقي من مصادرة ابي ياسر
١٠٠ر٠٠٠	من عبدالله بن احمد اليعقوبي
١٠٠ر٠٠٠	من الحسن بن ابراهيم الخرائطي صلحا عما اقتطعه من مال الرئيس
١٠٠ر٠٠٠	من الحسين بن علي بن نصير
٢ر٠٠٠	من علي بن محمد بن احمد السمان عن ورثة قرقر
١٠و٠٠٠	من ابي بكر الجرجاني من ضياع بن عيسى
٢٣٠ر٠٠٠	من الحسين بن سعد القطربلي
١ر٥٠٠ر٠٠٠	من محمد بن احمد ..
٣ر٠٠٠ر٠٠٠	من أبي الحسن بن بسطام
٥٠ر٠٠٠	من احمد بن محمد بن حامد بن عباس.
٣٣٠ر٠٠٠	من سليمان بن الحسن بن مخلد

ابتزاز الاموال

فالوزير يتولى الوزارة عاماً او عامين ، ثم يعزل او يستقيل وله عدة ملايـــين من الدنانير ، فضلاً عن الضياع والمباني ، وقد اكتسب هذه الثروة بالرشوة ونحوها من اسباب المظالم . وكان الوزير لا يولي عاملا على ولاية ما لم يقبض منه مالا على سبيل الرشوة يسمونه « مرافق الوزراء » . ومن اغرب حوادث التولية بالرشوة ان الخاقاني وزير المقتدربالله ولى في يوم واحد تسعة عشر ناظراً للكوفة واخذ من كل واحـد رشوة . واذا لم يكن للعامل او الناظر ما يفي المبلغ المتفق عليه مع الوزير ، دفع بعضه معجلا واجـل البعض الآخر الى مدة معينة او غير معينة ، والخلفاء يعلمون ذلك ولا ينكرونه او يرون فيـه غرابة او ظلماً .

والعامل الذي يتولى عمله بالرشوة وهو لا يزال مديناً ببعضها يهون عليه ابتزاز اموال الرعية — او هو يطلب الولاية لهذه الغاية — فيأخذ العمال في حشد الاموال اما بالتلاعب في

جباية الحكومة ، فينفقون ديناراً في بعض مصالحها فيقيدونه عليها عشرة دنانير ، او باستخراج اموال الرعية بالرشوة ، او بضرب الضرائب الفادحة على الباعة واهل الاسواق في المدن[١] او بسلب الفلاحين في القرى بعض غلاتهم ، وقد يقاسمونهم اياها فان بعض العمال كان يبعث رجاله الى البيدر فيقسمونه كما يشاءون ، واذا تكلم الاكار (الفلاح) شتموه وحلقوا لحيته وضربوه[٢] وقد لا يرضيهم ذلك فيغتصبون الضياع برمتها .

ومن أغرب طرق الاغتصاب ان يغتصب العامل او الوزير او غيرهما من رجال الدولة ضيعة لبعض الناس ، فيأخذها بغير ثمن ويستغلها لنفسه واذا استحق عليها الخراج اداه صاحبها الاول ، مخافة ان يثبت الملك لمغتصبها اذ يدون خراجها باسمه في الديوان فيبطل حق مالكها في ملكيتها[٣] فيضطر المالك الى دفع الخراج اعواماً ريثما يتوفق الى من ينصفه ممن يفضي النفوذ اليهم من اهل العدالة او يهتدي الى وساطة او حيلة .

ناهيك بما كانوا يغتصبونه من أموال الرعية باقتضاء خراج الارض مضاعفاً او مكرراً ، على انهم قد يرون لهم نفعاً من ترك خراج بعض الارضين ، فيتركونه لاصحابها على ان يخدموهم في مصلحة لهم ، وربما بلغ مقدار الخراج المتروك مالا كثيراً جداً . فقد كان لرجل يدعى أبا زنبور في وزارة ابن الفرات ضياع مساحتها مئة فرسخ بمئة فرسخ لم يأخذ منه من حقوق بيت المال درهما[٤] وكثيراً ما كانوا يتركون امثال هذه الضياع بلا خراج لاهل الوساطة او الدالة او النفوذ عند الخليفة او غيره .

الجاسوسية واللصوصية

ومن وسائل ابتزاز الاموال ان يقسط الوزير او من يقوم مقامه على أرباب الدواوين والقضاة او غيرهم مالا على وجه القرض ، على ان يسبب لهم عوضه من اهل النواحي[٥] فتقع الخسارة على الرعية . فتضايق اهل الاسواق في المدن والفلاحون في القرى والرساتيق وضاقت ابواب الرزق على النـــاس ، واصبحت الحقوق فوضى ، من استطاع حيلة في اختلاس المال سراً او جهراً استخدمها ، وكثر العيارون والشطار في المدن ، وتعـدد

---

١ – ابن الاثير ١٢٩ و ٢٠٣ ج ١٢ . ٢ – تاريخ الوزراء ٩٢ .
٣ – الاغاني ٤٧ ج ٢٠ . ٤ – تاريخ الوزراء ٩٤ . ٥ – تاريخ الوزراء ٢٦٢ .

اللصوص في القرى ، وفيهم جماعة اصلهم من جنود الدولة ، طمع الوزراء او القواد في ارزاقهم فخرجوا يتعرضون للمارة ويسلبونهم اموالهم وامتعتهم ، واذا عوتبوا اوحوكموا احتجوا بذلك . وكان قطاع الطرق يسطون على قوافل التجار ويأخذون اموالها باعتبار انها حق لهم ، لأن أصحابها لم يؤدوا زكاتها لبيت المال وقد منعوها وتجردوا فتركت عليهم فصارت أموالهم بذلك مستهلكة ، واللصوص في حاجة اليها بسبب فقرهم فاذا اخذوا تلك الاموال – وان كره التجار اخذها – كان ذلك لهم مباحاً لان عين المال مستهلكة بالزكاة وهم فقراء يستحقون اخذ الزكاة شاء ارباب الاموال او كرهوا[١] لأن الزكاة صدقة تؤخذ من اغنياء المسلمين وتفرق في فقرائهم ، وكان لها شأن كبير في اول الاسلام ثم اهملت في اواسط الدولة العباسية فاتخذ اللصوص ذلك حجة لسلب أموال التجار .

وزد على ذلك ما نجم عن فساد الاحكام من الضيق المالي وغلاء الاسعار في المدن ، وما انتشب من الفتن بين الاحزاب ولاسيما السنة والشيعة ، وراجت الدسائس وتكاثرت السعايات برجال الدولة ، وانتشرت الجاسوسية في قصور الخلفاء ودواوين الوزراء والكتاب . واصبح لكل منهم جواسيس على الآخرين ينقلون اليه اخبارهم ، فتسابق اسافل الناس الى السعاية بافاضلهم ، يرفعون الى الخليفة او الى صاحب النفوذ في دولته كتباً يختلقون بها المطاعن على الابرياء للانتفاع بأذاهم ، واكثر ما تكون وشايتهم بأهل الدولة في حال اعتزالهم ، او فيمن يخافونهم اذا القيت مقاليد الاحكام اليهم ، وقد يجتمع عند الخليفة او الوزير صناديق مملوءة بتلك الكتب فاذا تكاثرت او ذهبت الحاجة اليها احرقوها[٢] .

فلما فسدت الاحكام في دار الخلافة ، واستبد الوزراء والقواد بشؤون الدولة ، رأى العمال في الولايات ان يحتزئوا من الاستبداد في ولاياتهم ، فأخذوا يستقلون فتشعبت المملكة العباسية الى ممالك يحكمها الامراء من الفرس والاتراك والاكراد والعرب وغيرهم. ومنها ما جاءها التغلب من الخارج ففتحها ، كما اصاب مصر لما فتحها الفاطميون .

---

١ – الفرج بعد الشدة ٥١ ج ١ . ٢ – تاريخ الوزراء ٢٢٤ .

تفرق المملكة العباسية

لما اصبحت الدولة العباسية فيما تقدم من فساد الامور ، والفوضى في سلطتها واحكامها بين الفرس والاتراك ، او بين الوزراء والاجناد ، او بين الخدم والنساء ، وذهبت هيبة الخلفاء بما اصابهم من التضييق والاحتقار ، هان على عمالهم في اطراف المملكة ان ينفصلوا عنهم بأحكامهم الادارية والسياسية ، وان يستأثروا بجباية اعمالهم وهو الاستقلال . وكان اسبقهم اليه ابعدهم عن مركز الخلافة . واسبق عمال العباسيين الى ذلك ابراهيم بن الاغلب في شمال افريقيا استقل سنة ١٨٤ هـ ولا يعد استقلاله من نتائج فساد الدولة ، لأنه حدث في عصر الرشيد والدولة العباسية في معظم سطوتها ، وانما ساعده على ذلك بعده عن مركز الخلافة . واما استقلال العمال بذهاب هيبة الخلفاء او اختلال شؤون الدولة فالاسبق اليه الفرس ثم الاتراك فالاكراد ، مثل تواليهم في التغلب على الخلفاء . وتدرج كل من هذه الامم من العمالة الى الامارة الى الملك او السلطنة . فأول من استقل من الفرس العمال ، فأنشأوا الامارات الصغرى ثم الدول الكبرى ، وكذلك فعل الاتراك والاكراد. فنقدم الكلام عن الفروع الفارسية ، ثم نذكر الفروع التركية والكردية . اما العربية فسيأتي ذكرها في الكلام على العصر العربي الثاني .

الدُّول الفَارسيَّة في ظِلّ العَبَّاسِيين

الدول الصغرى

لما أعاد الفرس مقاليد الخلافة الى المأمون ازدادوا دالة عليه واستخفافاً بالسلطة العباسية ، ثم استبد الاتراك بالخلفاء بعد المعتصم وغلوا ايديهم وكسروا شوكتهم ، فكان للفرس على الاجمال حظ كبير من ذلك . فلما رأوا ذهاب نفوذهم في دار الخلافة استعاضوا عنه بالاستقلال بإماراتهم .

على ان الذين استقلوا من القواد او الامراء ما زالوا يعترفون للعباسيين بالسلطة الدينية فيطلبون الاستقلال تحت رعايتهم . فتفرعت المملكة العباسية الى امارات مستقلة عملا بسنة الارتقاء . واليك اهم الفروع الفارسية باعتبار تاريخ استقلالها واسماء مؤسسيها :

	الدولة	مقرها	مدة حكمها	مؤسسها
١	الطاهرية	خراسان	٢٠٥ – ٢٥٩ هـ	طاهر بن الحسين
٢	الصفارية	فارس	٢٥٤ – ٢٩٠	يعقوب بن الليث الصفار
٣	السامانية	ما وراء النهر	٢٦١ – ٣٨٩	نصر بن أحمد الساماني
٤	الساجية	اذربيجان	٢٦٦ – ٣١٨	يوسف بن أبي الساج
٥	الزيارية	جرجان	٣١٦ – ٤٣٤	مرداويج بن زيار

فانظر كيف تفرعت بلاد فارس الى امارات فارسية . فانتعشت الشيعة ، ونالوا بعض ما كانوا يؤملونه من مساعيهم في نصرة العلويين من ان يعيدوا دولة الفرس الضخمة كما كانت قبل الاسلام . ولكن تلك الامارات لم تمكث طويلا – كما ترى في الجدول – حتى قامت دولة آل بويه ، وهي اكبر دولة فارسية شيعية ظهرت في الشرق في عهد ذلك التمدن في ظل الدولة العباسية .

دولة آل بويه

رجال هذه الدولة وانصارها الديلم من الجيلان وراء خراسان ، ولكن ملوكها آل بويه من الفرس ، ويرتفع نسبهم الى ملوك الفرس القدماء ، وانما سموا ديلم لأنهم سكنوا بلاد الديلم . وكان العلويون يسعون في نشر دعوتهم هناك ايام الرشيد ، وآخر من نجح في ذلك الحسن بن علي الاطروش من نسل الحسين ، فدعا الديلم الى مذهبه في اواخر القرن الثالث فأجابوه .

وجد آل بويه الاقرب الذي أسس هذه الدولة اسمه بويه ولقبه ابو شجاع ، كان له ثلاثة اولاد : علي ويلقب عماد الدولة ، وحسن ويلقب ركن الدولة ، واحمد ويلقب معز الدولة . وكان بويه رقيق الحال ، فانتظم اولاده في الجندية لأنها كانت يومئذ باباً من ابواب الرزق الواسعة ، وكان عماد الدولة في خدمة مرداويج مؤسس الدولة الزيارية ، فارتقى عنده حتى ولاه الكرج ، ثم اتسعت احواله فكتب الى الخليفة العباسي وهو يومئذ الراضي بالله المتوفي سنة ٣٢٩ ﻫ ان يقاطعه على اعمال فارس بمال يحمله الى دار الخلافة ، على جاري عادتهم مع الدولة العباسية في ذلك العهد ، فأجابه الراضي وبعث اليه بالخلعة . واخوه حسن ركن الدولة تملك خوارزم ، وجاء الأخوان واتحدا مع اخيهما الثالث معز الدولة في شيراز ، وساروا غرباً حتى اتوا بغداد في ايام المستكفي سنة ٣٣٤ﻫ فرحب بهم وخلع عليهم ولقبهم الألقاب المذكورة ، وجعل معز الدولة امير الامراء ، واستبدوا بالمملكة واستولوا على الخلافة ، وعزلوا الخلفاء وولوهم ، فرفعوا منار الشيعة وأحيوا معالمها واضعفوا نفوذ الاتراك والخلافة العباسية لا تزال في بغداد . ولما افضت امارة الأمراء الى عضد الدولة لقب بالملك ،وهو اول من خوطب بهذا اللقب في الاسلام. وحكم آل بويه من سنة ٣٢٠ — ٤٤٧ ﻫ .

الدول التركية في ظل العباسيين

الدول الصغرى

لما قويت شوكة الاتراك في الدولة العباسية وهابهم الخلفاء كما تقدم ، طمع بعضهم في الولايات كما طمع الفرس ، فاستقلوا بهـــا فنبتت للدولة العباسية فروع تركية خارج بلاد فارس ، كما نبتت الفروع الفارسية في بـــلاد الفرس . واليك الفروع التركية في العصر العباسي حسب سني نشأتها واسماء مؤسسيها وبلادها :

اسم الدولة	مقرها	مدة تأسيسها	مؤسسها
١ الطولونية	مصر	٢٥٤ – ٢٩٢ هـ	احمد بن طولون
٢ الايلكية	تركستان	٣٢٠ – ٥٦٠	عبد الكريم ستق
٣ الاخشيدية	مصر	٣٢٣ – ٣٥٨	محمد الاخشيد
٤ الغزنوية	افغانستان والهند	٣٥١ – ٥٨٢	البتكين

وتدرج الاتراك في الولايات الاسلاميـــة كما تدرج الفرس قبلهم ، أي من الامارة الى السلطنة وهم اول من سموا سلاطين في الاسلام ، وأولهم سلاطين الدولة الغزنوية التي منها السلطان محمود الغزنوي فاتح الهند وناشر الاسلام فيها .

الدولة السلجوقية وفروعها

على ان هذه الامارات نشأت فروعاً للدولة العباسية ، وكان أمراؤها وسلاطينها من عمال الدولة العباسية او قوادها .

وكانت السنة قد تقوت بظهور الامارات التركية ، فلما قامت دولة آل بويه في أواسط القرن الرابع للهجرة بالعراق وفارس وعاصرتها الدولة الفاطمية بمصر ، عظم أمر الشيعة

في العالم الاسلامي وتضعضعت السنة فتشتت شمل المملكة العباسية . ثم ظهرت الدولة التركية الكبرى في أواسط القرن الخامس ، وتعرف بالدولة السلجوقية نسبة الى جدهـا سلجوق، فجاءت في حال الحاجة اليها ، لانها لمت شعث المملكة العباسية ونصرت مذهبها (السنة) بعد أن كادت تضمحل بين يدي الشيعة في مصر والشام والعراق وفارس وخراسان . وكانت الدولة الفاطمية قد نشرت سلطتها على المغرب ، وأوشكت ان تستولي على المشرق كله ، فجاء السلجوقيون من أقاصي الشرق فاستولوا على المملكة العباسية وجمعوا شملها . وبعد ان كانت ولايات مستقلة يملكها أمراء من الفرس والاتراك والاكراد والعرب ، جعلوها مملكة واحدة يحكمونها تحت رعاية الخليفة العباسي .

ومؤسس الدولة السلجوقية سلجوق بن تكاك ، أمير تركي كان في خدمة بعض خانات تركستان ، فعلم باختلال المملكة العباسية فطمع فيها ، وعلم انه لا يبلغ ذلك وهو على دين غير دين الاسلام ، فأسلم هو وقبيلته وسائر جنده ورجال عصبيته دفعة واحدة ونهض بجميع هؤلاء من تركستان وساروا غرباً ، فقطعوا نهر جيحون وتدرجوا في الفتح ونشر سلطانهم حتى اكتسحوا المملكة العباسية ، وامتد سلطانهم من أفغانستان الى البحر الابيض . وأصبح العالم الاسلامي تتنازعه ثلاث دول اسلامية ، أكبرها دولة السلاجقة في المشرق ، ثم الدولة الفاطمية في مصر والمغرب ، والثالثة دولة بني امية في الاندلس . فشأن الدولة السلجوقية غير شؤون الدول التركية الصغرى التي تقدمتها،لان هذه أمارات نشأت في حجر الدولة العباسية وتفرعت من مملكتها ، وأما الدولة السلجوقية فقد نشأت مستقلة وجاءت من الخارج بقوة وجند وأنقذت الخلافة العباسية من الضياع على أيدي البويهيين وغيرهم من الشيعيين . والدولة الايلكية نشأت مستقلة ايضاً ، لكنها قلما أثرت في المملكة الاسلامية .

وللسلاجقة منزلة عظمى في تاريخ الاسلام، وفي أيامهم تكاثر نزوح الاتراك الى المملكة الاسلامية في فارس والعراق والشام ، للسكنى والارتزاق في ظل ابناء بلدتهم، والسلاجقة أول من أنشأوا المدارس في المملكة الاسلامية ، بأرقى ما بلغت اليه في عهد ذلك التمدن على يد نظام الملك وزير ملك شاه السلجوقي في أواسط القرن الخامس ، وقد فصلنا ذلك وعللناه في الجزء الثالث من هذا الكتاب .

ونظام الملك فارسي الاصل من أولاد الدهاقين ، ولكنه أنشأ ما أنشأه من المدارس والتكايا والرباطات والمساجد والمارستانات باسم سلطانه ملك شاه .

والسلاجقة دول تفرعت من أصل واحد وعرفت باسم واحد ، ولكنها تمتاز بعضها ن بعض بأماكن حكمها ، وأكبر هذه الدول السلاجقة العظام وهم أصل سائر الفروع أقوى منها جميعاً . واليك الدول السلجوقية ومدار حكمها :

١ – السلاجقة العظام	حكموا من سنة	٤٢٩ – ٥٥٢ هـ
٢ – سلاجقة كرمان	« « «	٤٣٣ – ٥٨٣ هـ
٣ – سلاجقة الشام	« « «	٤٨٧ – ٥١١ هـ
٤ – سلاجقة العراق وكردستان	« « «	٥١١ – ٥٩٠ هـ
٥ – سلاجقة بلاد الروم (آسيا الصغرى)	« « «	٤٧٠ – ٧٠٠ هـ

فحكمت الدولة السلجوقية على الاجمال نحواً من ثلاثة قرون ، وبلغ اتساع مملكتهم من حدود الصين الى آخر حدود الشام .

انتقال المملكة السلجوقية الى الاتابكة

وكان السلاجقة في أيام سلطتهم يولون الاعمال أو الولايات قواداً من مماليكهم يسمونهم الاتابكة ، واحدهم أتابك ، وهو لفظ تركي معناه « الاب الامير » ، واستعملوه أولا بمعنى وزير ثم صار بمعنى الملك . وأخذ الاتابكة يستقلون بولاياتهم شيئاً فشيئاً ، حتى اقتسموا المملكة السلجوقية فيما بينهم ، الا الفرع الرومي في آسيا الصغرى فانه ظل في حوزة السلاجقة ، حتى أتى العثمانيون في أواخر القرن السابع – واليك تفرع المملكة السلجوقية الكبرى الى مماليكهم الاتابكة وغيرهم وسني حكم كل دولة منها :

١ – الدولة البورية	في دمشق	من سنة	٤٩٧ – ٥٤٩ هـ
٢ – « الزنكية	« الجزيرة والشام	«	٥٢١ – ٦٤٨
٣ – « البكتيجينية	« اربلاء وغيرها	«	٥٣٩ – ٦٣٠
٤ – « الارتقية	« ديار بكر وماردين	«	٤٩٥ – ٧١٢
٥ – دولة الشاهات	« أرمينيا	«	٤٩٣ – ٦٠٤
٦ – أتابكة أذربيجان	« أذربيجان	«	٥٣١ – ٦٢٢
٧ – الدولة السلغرية	« فارس	«	٥٤٣ – ٦٨٦
٨ – « الهزارسبية	« لورستان	«	٥٤٣ – ٧٤٠
٩ – « الخوارزمية	« خوارزم	«	٤٧٠ – ٦٢٨
١٠ – « القطلغية	« كرمان	«	٦١٩ – ٧٠٣

وما زالت هذه الممالك في حوزة الاتابكة وغيرهم من مماليك الدولة السلجوقية وقوادها حتى جاء المغول فاكتسحوها كلها واستولوا عليها .

سلاجقة الروم

اما الفرع السلجوقي الذي ظل سائداً دون سائر الفروع فهو سلاجقة آسيا الصغرى ، وهي بلاد الروم في اصطلاح تلك الايام . على أن مملكتهم هناك تفرعت الى عدة فروع يحكم كلا منها عائلة سلجوقية صغيرة ، وهاك أسماءها مع اسماء العائلات السلجوقية التي كانت تتولاها :

اسم الامارة	اسم العائلة
١ - ميسيا	آل كراسي
٢ - بيسيديا	« حميد
٣ - فريجيا	« كرميان
٤ ليسيا	« تاكة
٥ - ليديا	« سروخان وأيدين
٦ - كاريا	« منتشا
٧ بفلاغونيا	« قزل احمدلي
٨ - ليكونيا	« قرمان [1]

وما زالت هذه الامارات في سلطة الامراء السلاجقة حتى أتى العثمانيون فاستولوا عليها وأنشأوا الدولة العثمانية في أوائل القرن الثامن للهجرة .

---

١ - Lane Poole's Moh. Dynasties

الدول الكردية في ظل العباسيين

الدول الصغرى

الاكراد قوم اشداء واكثرهم اهل بادية وخشونة وجفاء، يقيمون في الخيام وينقسمون الى قبائل وعشائر وبطون ، وهم أقل قبولا للحضارة من الفرس والترك وغيرهما من الامم الشرقية التي دانت للاسلام في ابان التمدن الاسلامي وقد ظلوا اهل ظعن ورحلة في معظم ذلك التمدن . وكانت الدول تستعين بهم في الحروب البدوية الشبيهة بالغزو كما كانت تستعين بالاعراب ، ومقامهم على الاكثر في كردستان وأرمينيا وجزيرة العراق كالموصل وديار بكر ، ولا يزال سوادهم هناك الى الآن .

ونظراً لتمسكهم بالبداوة والخشونة لم تستخدمهم الدولة العباسية في اعمالها الا قليلا ، فلم ينبغ فيهم احد من رجال الامارة المستقلة او اهل السياسة والتدبير الا بعد دهر طويل من عهد ذلك التمدن . واول من انشأ دولة كردية مستقلة في الاسلام حسنويه بن حسين البرزكاني ، زعيم بعض قبائل الاكراد في كردستان ، في أواسط القرن الرابع للهجرة ،وامتدت سلطته على معظم تلك المملكة وفيها ديناور (أو الدينور) وهمذان ونهاوند وسرماج وغيرها . وقد اعترف خليفة بغداد بسلطانه ولقب ابنه بعده بناصر الدولة . ولم يطل عمرها كثيراً فحكمت من سنة ٣٤٨ – ٤٠٦ ﻫ ثم استقل من الاكراد ابو علي بن مروان في ديار بكر سنة ٣٨٠ ﻫ وامتدت سلطته على آمد وآرزان وميافرقين ، وبايع خلفه للفاطميين حيناً من الزمن وذهبت دولته سنة ٤٨٩ ﻫ .

الدولة الايوبية :

على ان الاكراد لم يكن لهم شأن يذكر في الاسلام الا على عهد الدولة الايوبية من سنة ٥٦٤ – ٦٤٨ ﻫ ومؤسسها السلطان صلاح الدين الايوبي . وهو من أعظم رجال الاسلام تعقلاً وسياسة وبسالة وتدبيراً ، انشأ دولته على انقاض الدولة الفاطمية بمصر

وبايع فيها للعباسيين ، وحارب الصليبيين وردهم عن سوريا وانقذ بيت المقدس من ايديهم ، ومآثره اشهر من ان تذكر . وارتفع شأن الاكراد في ايام دولته وتولوا الامارات والولايات في مصر والشام وكردستان واليمن وخراسان ، ولما مات اقتسم مملكته اخوته واولاده واولاد اخوته ، ولذلك لم يطل حكمها . فغلبهم على معظمها مماليكهم الاتراك ، كما غلب الاتابكة ملوكهم السلاجقة قبلهم ، فكان للمماليك بمصر دولتان تعرفان بالسلاطين المماليك كما سيجيء .

ومما يحسن التنبيه اليه في هذا المقام ان الاسلام قد أثر في أمم المشرق تأثيراً خاصاً وساقها الى التمدن تدريجاً ، فتسابقت الى انشاء الدول وتأسيس الممالك باعتبار اسبقيتها في الاسلام وقربها من العالم الاسلامي . فأول من اسلم من تلك الامم العرب وأسسوا الدولة الاسلامية العربية ، فاحتك بهم اولاً الفرس وهم اقرب امم المشرق الى جزيرة العرب فكانوا اسبق الاعاجم الى انشاء الدول . ثم جاء الاتراك من وراء بلاد فارس ، فلما انتشر الاسلام بينهم اسسوا الدول ونظموا الحكومات . ثم ظهر الاكراد وهم اقرب من الاتراك الى العالم الاسلامي يومئذ لكنهم تمدنوا بعدهم لان الاتراك اقرب منهم الى سياسة الدول . وامتد الاسلام في تركستان وما وراءها من بلاد التتر او المغول فنهض هؤلاء واغاروا على بلاد الاسلام للنهب والقتل ، لكنهم ما كادوا يحتكون بالعالم الاسلامي حتى اخلدوا الى النظام وانشأوا الدول . ويقال نحو ذلك عن تأثير الاسلام في المغرب ، خصوصاً قبائل البربر في شمالي افريقيا كما تقدم .

الخلافة والسلطة

او الدين والسياسة

لما ظهر الاسلام كان النبي رئيس المسلمين في امور الدنيا والدين ، وهو حاكمهم وقاضيهم وصاحب شريعتهم وامامهم وقائدهم. وكان اذا ولى احد اصحابه بعض الاطراف خوله السلطتين السياسية والدينية ، واوصاه ان يحكم بالعدل وان يعلم الناس القرآن . ولكنه ما لبث ان فصل بين المنصبين فيمن كان يوليهم امور الرعية ، فبعث في السنة الثالثة للهجرة ابا زيد الانصاري وعمرو بن العاص ومعهم كتاب منه يدعو الناس الى الاسلام ، وقال لهما : « ان اجاب القوم الى شهادة الحق واطاعوا الله ورسوله فعمرو الامير وابو زيد على الصلاة واخذ الاسلام على الناس وتعليمهم القرآن والسنن » .

على ان ذلك لم يكن قاعدة عامة ، لأن الأمير كثيراً ما كان يتولى الخراج والحرب والصلاة معاً ، كما تولاها يزيد بن المهلب في العراق من قبل سليمان بن عبدالملك[1] ويقال بالاجمال ان مصالح الدولة الاسلامية بعد ان كانت محصورة في النبي (صلعم) سياسياً ودينياً تفرعت في ايام الخلفاء الى عشرات من المناصب ، الا الخلافة فانها ما زالت حتى الآن (حوالي سنة ١٩١٠) تشمل الرياسة في أمور الدين والدنيا .

والخلافة في الاصل منصب ديني تولاه الخلفاء الراشدون لاتمام العمل الذي بدأ به النبي (صلعم) وهو نشر الاسلام والجهاد في سبيله ، وكانوا يتولون امور المسلمين السياسية ايضاً لما يقتضيه الجهاد من الحرب وأسبابها ، كإدارة الجند وتنظيمه لحماية البلاد، ويدخل في ذلك ولاية الأعمال وجباية الخراج . على انهم كانوا يفعلون ذلك بصفة دينية ، أي ان كل ما يعملونه فالى الدين ينتهي الغرض منه ، فكانوا يجندون الرجال ويفتحون البلاد في سبيل الدين . فلما انتشر الاسلام وتوطدت دعائمه وذهبت الحاجة الى الجهاد

---

١ - ابن الاثير ١٠ جـ ٥ .

جاز للرياسة الدينية ان تستقل عن السيادة السياسة، او تنقسم الرياسة الى الخلافة والسلطة، كما حدث في النصرانية وغيرها .

ولكن الارتباط بين الدين والسياسة في الاسلام يختلف عما في النصرانية ، لأن النصرانية انتشرت اولاً في عامة الناس ثم انتقلت الى رجال الدولة . وأما الاسلام فانه ظهر اولا في رجال الدولة وانتقل منهم الى العامة ، لأن اقدم اهل الاسلام الصحابة وهم جند المسلمين وامراؤهم ، نشروا الاسلام في الارض وجاهدوا في سبيل نصرته بأنفسهم فلما تأيد الدين وقامت دولة المسلمين ورغب الامراء في السلطة الدنيوية ، كان منصب الخلافة من اكبر اسباب تغلبهم ، لتأثير الدين على اذهان الناس في تلك الايام، فقد كانوا لا يجتمعون إلا تحت رايته وخصوصاً في الشرق ، ولا يزالون على ذلك حتى الآن .

على ان اهل التقوى من المسلمين كانوا يجعلون حداً فاصلا بين الخلافة والسلطة ، فلما طلب معاوية السيادة كما يطلبها اهل المطامع بالدهاء والقوة ، خالفوه وأبوا مبايعته ، فلما قتل علي وتنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية ، لم ير المسلمون بداً من مبايعته على الطاعة كما يبايعون الملوك ، لكنهم استنكفوا من ان يسموه « خليفة » او يعترفوا له بسلطة دينية فسموه « ملكا » ، وهو يأبى الا ان يجمع الرياستين لعلمه ان الرياسة الدنيوية وحدها لا تفيده شيئاً — ذكروا ان سعد بن أبي وقاص دخل على معاوية بعد ان استقر الامر له وقال : « السلام عليك ايها الملك » فضحك معاوية وقال : « ما عليك لو قلت يا امير المؤمنين ؟ » . فقال : « تقولها جذلان ضاحكاً ؟ والله ما احب انى وليتها بما وليتها به » .

فيظهر من ذلك انهم كانوا ينزهون الخلافة عن السياسة والدهاء ، ويعتقدون ان بني امية نقلوا الاسلام من الدين الى العصبية والسيف ثم الى الملك البحت .

الخلافة لازمة للسلطة المطلقة

وفي اعتقادنا ان الحكم المطلق لا يتأيد ويتسع نطاقه ويطول مكثه إلا بالدين او ما يقوم مقامه . فما من دولة مطلقة طال حكمها واتسعت مملكتها إلا وفي سلطتها صبغة دينية تحميها من طمع الطامعين ، بأن تجعل لملوكها مزية على سائر الناس . واذا اريد فصل الدين عن السياسة فلا بد من تقييد الحكومة بالشورى ، وهي افضل الحكومات واطولها

عمرا ، وإلا فانها تنحل سريعاً ، ويكفي لانحلالها ان يتولى شؤونهـــا ملك قليل التدبير ناقص الاختبار فيغتصب ملكه بعض وزرائه او قواده • واذا تدبرت تاريـــخ الدول الاسلامية رأيت للسلطة الدينية تأثيراً كبيراً في طول بقائها واتساع نطاقها - اعتبر ذلك في الدول التي نشأت في اثناء التمدن الاسلامي من الفرس والترك والكرد والجركس ، كالبويهيين والسلاجقة والايوبيين وغيرهم من الدول الضخمة ، فان بين ملوكها جماعة من دهاة الرجال وقهارمة السياسة ، ولم تطل اعمارها رغم استقوائها بالخلافة العباسية. وانظر الى الدول العربية التي جمعت بين الخلافة والسلطة كالعباسيين والفاطميين والامويـــين في الاندلس ، مع ما طرأ عليها من اسباب السقوط ، فقد صبرت وطال جهادها. واذانظرت الى الدول الاعجمية رأيت اطولها عمراً واوسعها ملكاً الدولة التي جمعت بـين السلطتين وهي الدولة العثمانية . وبنو أمية في الشام لو لم يتخذوا لقب الخلافة ويقبضوا على ازمــة الرياسة الدينية ما استطاعوا الى الحكم سبيلا ، فانهم انما حكموا الناس وايدوا سلطتهم بما في الخلافة من الصبغة الدينية ، وتوفقوا الى اعوان عرفوا ان العامة لا تحكم بمثـــل الدين فجعلوا همهم تعظيم الخلافة حتى جعلوها فوق النبوة ، وسموا الخليفة « خليفة الله » وقالوا: « خليفة الرجل في اهله افضل من رسوله في حاجته » كما تقدم - والعلماء ينكرون ذلـك ولا يصدقونه ، واما العامة فكانوا يساقون الى الطاعة بالارهاب ، رغم ما كان يعتور صحة خلافة بني امية من الشكوك .

فلما افضت الخلافة الى بني العباس ، وهم من بني هاشم ومن اولى الناس بالخلافـة ، كان المسلمون اطوع لهم مما لبني أمية ، واعتقدوا ان خلافتهم تبقى ابد الدهر حتى يـأتي السيد المسيح[١] وغرس في اذهان الناس بتوالي الازمان ان الخليفة العباسي اذا قتل اختل نظام العالم واحتجبت الشمس وامتنع القطر وجف النبات[٢] .

وكان الخلفاء لا يأنفون من ذلك التفخيم ، حتى الرشيد مع تعقله وانتشار العـلم في عصره ، فقد ذكروا انه كان يحتمل ان يمدح بما يمدح به الانبياء فلا ينكر ذلك ولا يرده ، حتى قال فيه بعض الشعراء : « فكأنه بعد الرسول رسول »[٣] فكيف يكون حـال الخلفاء في عصر الاضمحلال ، اذ يقوم الوهم مقام الحقيقة ويكثر المتزلفون والمتملقون ويكتفي اولو الامر بالكلام دون الاعمال ؟

---

١ - ابن الاثير ١٩٨ ج ٥ .   ٢ - الفخري ١٢٥ .   ٣ - الاغاني ١٨ ج ١٢ .

واذ شاخت الدولة تمسك اهلها بالعرض وتركوا الجوهر ، فلا غرو اذا سموا الخليفة في ايام المتوكل « ظل الله الممدود بينه وبين خلقه »[١] او قـالوا قول ابن هانىء للمعز الفاطمي :

ما شئت لا ما شاءت الاقدار   فاحكم فأنت الواحد القهار[٢]

الخلفاء والفقهاء

ويدل ذلك على ما كان للخلافة من المنزلة المقدسة عند عامة الناس ، والاصل في هذا التقديس انما هو للدين ، وتعظيم الخلافة فرع منه . ولذلك كان بين الخلفاء الاولين وعلماء الدين الاسلامي ، كالحفاظ والمحدثين والفقهاء ، علاقة متبادلة وكل منهم يتقوى بالآخر — ومعنى ذلك ان الخليفة هو صاحب السيادة الدينية والسلطة الدنيوية ، فهو امير الناس في السلم ، وقائدهم في الحرب ، وامامهم في الصلاه وهو قاضيهم وفقيههم كما كان النبي (صلعم) في اول الاسلام. فلما اتسعت الفتوح ومست الحاجة الى تقسيم الاعمال بمقتضى سنة العمران، عمد الخليفة الى انابة من يتولى تلك الاعمال عنه . فالوالي انما هو نائب الخليفة في العمل الذي يتولاه ، والقاضي نائبه في القضاء ، وقائد الجند يتولى قيادته بالنيابة عن الخليفة . وقس على ذلك سائر المناصب الادارية والسياسية والقضائية ، وكذلك في المهن الدينية ، فالقراء والمفسرون والمحدثون والفقهاء يتولون اعمالهم بالنيابة عن الخليفة . فكما يحتاج الخليفة الى نصرة العمال والقواد والقضاة في تأييد سلطته الدنيوية ، فهـو يفتقر ايضاً الى الفقهاء والعلماء لتأييد سيادته الدينية . ولذلك رأيت الخلفاء يقربون اهل العلم ولا سيما في اوائل الاسلام (وهم يومئذ الحفاظ او القراء) وكان اليهم المرجع في حـل المشكلات الدينية او القضائية او الفقهية ، وهي اساس الاحكام السياسية في الدولة الاسلاميـة . ونظرا لتمسك العامة بالدين على الاجمال كان للفقهاء تأثير شديد في الدولة ، فلا يقطع الناس بأمر هام إلا باستفتائهم حتى في تنصيب الخلفاء ، فاذا انكر الفقهاء بيعة احـدهم انكرها الناس . ولذلك كان الخلفاء يجلون العلماء ويقربونهم ويعولون على مشورتهم فيعصر الراشدين والدولة على سذاجتها لم يلابسها غش ولا دهاء ، فاذا نهوا الخليفة او الامير عن عمل انتهى واخذ بنصيحتهم .

---

١ – المسعودي ٢٨٠ ج ٢ .   ٢ – ابن الاثير ٢٤٥ ج ٨ .

فلما طمع بنو امية في الخلافة والتمسوها من طريق الدهاء والبطش ، كان في جملة ما اهملوه من قواعد الراشدين الاخذ بأقوال اهل العلم ، لأنهم لو اطاعوهم ما تيسر لهم الملك . فقاسى العلماء في اوائل دولة الامويين عذاباً شديداً من المقاومة والضغط ، فاضطر بعضهم للافتاء بما يرضي اهل الدولة وأبى البعض الآخر إلا الحق ، فاضطهدوهم وضيقوا عليهم – بدأوا بذلك من ايام عثمان والعمال يومئذ من بني أمية ، وقد اخذوا يمهدون السبيل لسلطانهم بجمع الاموال والاستئثار بالنفوذ . وفي حكاية ابي ذر الغفاري مع معاوية ابن ابي سفيان دليل ناطق على ما كان من جرأة اهل العلم على الخلفاء وانكار الامويين ذلك. وقد فصلناها في الجزء الثاني من هذا الكتاب .

فلما استتب الأمر لبني أمية حبست الأفكار وتقيدت الألسنة ، ولم يتقدم من العلماء في مناصب الدولة الا المتملقون . وبعد أن كان الخليفة لا يعمل عملاً الا بمشورة فقهاء المدينة ، أغفل بنو أمية المدينة وفقهاءها الا عمر بن عبد العزيز فانه عاد الى مشورتهم . فظل الاحرار من الفقهاء في زوايا الاهمال معظم أيام بني أمية . فلما تسلط العباسيون واظهروا انهم يريدون احياء السنة وتقويم ما اعوج من سبل الدين في عهد الامويين ، ظهر أهل الأفكار المستقلة من الفقهاء والعلماء والزهاد ، وقربهم الخلفاء وأكرموهم فعادوا الى جرأتهم في خطاب من يأنسون منه اصغاء ، كما فعل ذلك الرجل بالمنصور وهو يطوف – وقد أشرنا اليها أيضاً في الجزء الثاني من هذا الكتاب – وكما فعل سفيان الثوري لما استدعاه الرشيد الى بغداد ليكرمه ويقربه ، فكتب اليه سفيان كتابا قال فيه : « اما بعد ، فاني كتبت اليك أعلمك اني صرمت حبلك وقطعت ودك ، وانك قد جعلتني شاهداً عليك باقرارك على نفسك في كتابك أنك هجمت على بيت مال المسلمين فأنفقته في غير حقه وأنفذته في غير حكمه . ولم ترض بما فعلته وأنت ناء عني حتى كتبت الي تشهدني على نفسك . فأما أنا فاني قد شهدت عليك انا واخواني الذين حضروا كتابك وسنؤدي الشهادة غداً بين يدي الله الحكم العدل . يا هرون ! هجمت على بيت مال المسلمين بغير رضاهم . هل رضي بفعلك المؤلفة قلوبهم والعاملون عليها في أرض الله والمجاهدون في سبيل الله وابن السبيل ..؟ أم رضي بذلك حملة القرآن وأهل العلم (يعني العاملين) ؟ أم رضي بفعلك الأيتام والأرامل ، أم رضي بذلك خلق من رعيتك ؟ »[1]

---

١ الدميري ١٨٨ ج ٢ .

ودخل سفيان المذكور على المهدي مرة ولم يسلم بالامارة فلم يغضب عليه المهدي بل استعطفه[١] وكان اكثر الخلفاء الأولين من بني العباس اذا لقوا فقيهاً أو زاهداً طلبوا اليه ان يعظهم ، فاذا وعظهم بكوا حتى تخضل لحاهم . وأشهر المتعظين من الخلفاء المنصور والرشيد والمعتصم والواثق ، ولهم حكايات مشهورة .

فالفقهاء واسطة السيادة الدينية بين الخليفة والعامة ، مثل توسط الأمراء والقواد في تأييد السيادة الدنيوية ، وقد يغني الفقهاء عن الواسطتين جميعاً ، لأن عامة المسلمين ينقادون الى فقهائهم ويستسلمون اليهم كما ينقاد عامة النصارى الى كهنتهم . فالخلفاء العباسيون كانوا يحتاجون الى الفقهاء للاستعانة بهم على اخضاع العامة وامتلاك قلوبهم ، وكذلك كان يفعل السلاطين والأمراء لنفس هذا السبب او لسبب آخر والنفع متبادل بين الفئتين ، لأن الفقهاء كانوا يكتسبون بتقربهم من الخلفاء مالاً وجاهاً ولكن ما يكتسبه الخلفاء منهم أعظم وأبقى . فرسخ احترام الفقهاء في قلوب العامة وتمسكوا بهم وعظموهم باسم الدين .

وكان الخلفاء يذعنون للعامة باسم الدين أيضاً . حتى انهم كثيراً ما كانوا يضطرون الى مسايرة بعض الناس في بعض اعتقاداتهم الدينية ، ولو كان ذلك الاعتقاد مخالفاً لما في نفوسهم أو مناقضاً للواقع ، كما فعل المهدي اذ جاءه رجل بنعل زعم أنها نعل النبي (صلعم) فقبلها المهدي منه وأجازه عليها مع اعتقاده كذبه ، وانما خاف إن كذبه ان يحمل العامة قوله على الفتور في الدين[٢] .

ولم يكن للخلفاء بد من اظهار التقوى والقيام بالفروض الدينية ، لئلا يفسد عليهم العامة ويحتقروا سلطانهم ولو كان الخليفة لا يعتقد ذلك . ذكروا ان الوليد بن يزيد الأموي مع اشتهاره بالخلاعة والتهتك ، كان اذا حضرت الصلاة يطرح ما عليه من الثياب المصبغة والمطيبة ، ثم يتوضأ فيحسن الوضوء ويؤتى بثياب بيض نظاف من ثياب الخلافة ، فيصلي فيها أحسن الصلاة بأحسن قراءة وأحسن سكوت وسكون وركوع وسجود ، فاذا فرغ عاد الى تلك الثياب[٣] .

---

١ – ابن خلكان ٢١٠ ج ١ . ٢ – كتاب الاذكياء ٩ . ٣ – الاغاني ١٤١ ج ٦

فلهذا السبب كان الامراء الذين يستقلون عن الدولة العباسية بالادارة والسياسية لضعف الخليفة عن حربهم لا يستطيعون الاستقلال عنه بالدين ، اذ لا يستغنون عن بيعته لتثبيت سلطانهم . فاذا اراد احدهم الاستقلال بولاية او فتح بلد او انشاء امارة لنفسه ، بعث الى الخليفة في بغداد يبايعه ويطلب منه ان يعطيه تقليداً او عهداً بولاية ذلك البلد ، او ان يلقبه ويخلع عليه ، واذا أبى الخليفة ان يجيبه غضب وعد ذلك تحقيراً له ، وقد يجرد عليه الجند ليكرهه على تثبيته .

فالامارات او الممالك التي استقلت عن الدولة العباسية ،في فارس وخراسان وتركستان وما بين النهرين والشام ومصر وبلاد المغرب وغيرها ، قبل قيام الدولة الفاطمية ، كان أصحابها يخطبون لخليفة بغداد ويبعثون اليه بمال معين في العام، مع انهم في أمن من سطوته، وانما يريدون ان يرضى العامة عن سلطانهم .

وكذلك كان شأن الأجناد الاتراك وامرائهم ، فقد كانوا مع استبدادهم بخلفاء بغداد قتلاً وخلعاً لا يجسرون على استبقاء منصب الخلافة خالياً يوماً واحداً ، لاعتقادهم انه بدون الخليفة لا تستصلح العامة . حتى الملوك او السلاطين الذين تسلطوا على بغداد وقبضوا على كل شيء فيها واصبح الخليفة آلة في ايديهم ،مثل آل بويه وآل سلجوق ،فقد كانوا يحاربون الخليفة ويجردون عليه الجيوش ، حتى اذا ظفروا به وغلبوه بايعوه واكرموه ورفعوا مقامه وتبركوا به . فعضد الدولة البويهي ملك بغداد واستبد بها ، وهو شيعي على غير مذهب الخليفة . وكان يغالي في التشيع ويعتقد ان العباسيين غصبوا الخلافة من مستحقيها ، فلم يكن ثمة باعث ديني يدعوه الى طاعة خليفة بغداد ، ومع ذلك فانه بايعه وعظم شأنه واعاد من امر الخلافة ما قد نسي ، وأمر بعمارة دار الخلافة والاكثار من الآلات ، وعمارة ما يتعلق بالخليفة وبطانته واكرمه غاية الاكرام[١] .

وكان الخلفاء من الجهة الاخرى يعرفون حاجة الامراء المسلمين الى رضاهم ، فاذا ساءهم أحد منهم هددوه بالخروج من بغداد، فيضطر الى استرضائهم لأن خروجهم يغضب العامة[٢] ويجرئهم على خلع الطاعة ، لتقديسهم شخص الخليفة وتنزيهه عن الخطأ — ولذلك

---

١ — ابن الاثير ٢٥٧ ج ٨ . ٢ — ابن الاثير ٢١٣ ج ٩ .

لم يكن من سبيل الى نزع سلطته او الاعتراض عليها الا من وجه ديني ، فكان الذين يقومون على الخلفاء يجعلون سلاحهم الدين ، فيلبسون الصوف ويدعون الى المعروف او يعلقون في اعناقهم المصاحف[١] او نحو ذلك مما يحرك عواطف العامة . واذا اراد احد الخلفاء ان يصلح ما بينه وبين العامة اصلحه بالتقوى . فلما ضمن الفضل بن سهل الخلافة للمأمون اوصاه باظهار الورع والدين ليستميل القواد[٢] ولما رأى ابو مسلم الخراساني أهل اليمن في مكة قال : « أي جند هؤلاء لو لقيهم رجل ظريف اللسان غزير الدمعة » يريد تحريك عواطفهم الدينية بالوعظ والبكاء. فلم يكن للممالك الاسلامية بد من خليفة تبايعه لتثبيت ملكها . وقد يستاء بعض الامراء المستقلين من خليفة بغداد فيكظم ولا يخلع بيعته إلا اذا رأى خليفة آخر يبايعه . فلما قامت الدولة الفاطمية بالمغرب ومصر خلعت كثير من البلاد بيعة خليفة بغداد وبايعت للفاطميين في القاهرة . ولما تغلب السلطان صلاح الدين الايوبي على مصر وذهبت الدولة الفاطمية منها ، فأول شيء فعله انه خطب بجامع القاهرة للخليفة العباسي في بغداد ، وطلب المنشور منه والخلع عليه . وكانت الخلافة العباسية في غاية الاضمحلال والضعف ، وهو في غنى عن بيعتها ، ولكنه علم انه اذا لم يبايع الخليفة فلا يرضى عنه الناس .

وكذلك فعل السلاطين المماليك الذين ملكوا مصر بعد الدولة الايوبية ، فانهم بايعوا للعباسيين وكانت الخلع تأتيهم من بغداد الى القاهرة بتثبيت سلطتهم . فلما سطا التتر على بغداد وفتحوها سنة ٦٥٦ هـ وقتلوا الخليفة العباسي المستعصم بالله توقف شأن الخلافة ، فاضطربت احوال مصر وبذل سلاطينها جهدهم في ايجاد خليفة يبايعونه[٣] ولو اعوزهم خليفة ولم يجدوه ربما اختلقوا واحدا ليحكموا العامة به[٤] على انهم ما زالوا يبحثون عن بقية الخلفاء العباسيين الذين كانوا في بغداد ، حتى ظفروا بالهاربين منهم فاستقدموهم الى القاهرة ، وفرضوا لهم الرواتب واحتفلوا بهم احتفالا عظيما ، وبالغوا في احترامهم واكرامهم[٥] مع علمهم ان اولئك الخلفاء لا يغنون عنهم شيئاً ، ولكنهم خافوا اختلال دولتهم بدونهم . وظل ملوك الهند وغيرهم من ملوك الاسلام بالاطراف البعيدة يبايعون للخليفة العباسي بالقاهرة ، ويطلبون التأييد منه او المنشور لأثبات سلطتهم على

---

١ – ابن الاثير ٢٠٨ ج ٨ .
٢ – كتاب الاذكياء ٢٧ .
٣ – ابو الفداء ٢٢٢ ج ٣ .
٤ – ابن الاثير ١١٩ ج ٩ .
٥ – المقريزي ٣٠١ ج ٢ .

يدالسلاطين المماليك[١] فما الذي بعث اولئك الملوك على طلب التقليد من خليفة لا ينفع ولا يشفع لولا ما يتوقعونه من أثر ذلك في اذهان العامـــة ؟ ولا ننكر ان بعضهم كان يطلب بيعة الخليفة تديناً ، ولكن الكثيرين كانوا يطلبونها لاستصلاح العامة بها .

الخلافة في غير قريش

ومما يستحق النظر والاعتبار ان ملوك المسلمين غير العرب ، على اختلاف مواطنهم وأجناسهم ولغاتهم ودولهم ، من الفرس والاتراك والاكراد والبربر والجركس وغيرهم ، مع ما بلغوا اليه من سعة الملك وعز السلطان ، ومع حاجتهم الى السيادة الدينية لتستقيم دولتهم وتجتمع الرعية على طاعتهم ، لم يخطر لأحد منهم أن يطلب الخلافة لنفسه قبـل انتقال الاسلام الى طوره الثاني ، بعد تضعضعه بفتوح المغول ، ولا ادعاها أحد من العرب غير قريش . وأول سلطان غير عربي بويـع بالخلافة السلطان سليم العثماني .

على أن الذين قويت شوكتهم في عهد ذلك التمدن ، من الامراء المسلمين أو القواد غير العرب ، كانوا اذا طمعوا في السيادة الدينية أو الخلافة انتحلوا لأنفسهم نسباً في قريش ، كما فعل أبو مسلم الخراساني لما رأى من نفسه القوة على انشاء الدولة ، وربما طمع في الخلافة فانتحل لنفسه نسباً في بني العباس ، فقال انه ابن سليط بن عبد الله بن عباس[٢] .

وأما الملوك أو السلاطين الاعاجم فلمـا ضخمت دولهم في أواخر العصر العبـاسي ، ورأوا اضمحلال الخلافة وتقهقرها تمنوا الاستغناء عنها ، ولكنهم لم يروا سبيلاً الى ذلك الا ان يستبدلوها بخلافة أخرى. على ان بعضهم طمع في النفوذ الديني من طريق الانتساب الى الخليفة بالمصاهرة . وأول من فعل ذلك عضد الدولة بن بويه المتوفي سنة ٣٧٢ هـ فانه حمل الطائع لله الخليفة العباسي في أيامه أن يتزوج بابنته ، وغرضه من ذلك ان تلد ابنته ولداً ذكراً فيجعله ولي عهده ، فتكون الخلافة في ولد لهم فيه نسب[٣] ولم يوفق الى مراده .

لما أفضت السلطة الى السلاجقة ، تقدموا في هذا الطريق خطوة أخرى ، فعمدوا الى التقرب بالمصاهرة ايضاً ، ولكن على ان يتزوج السلطان طغرل بك السلجوقي ابنة الخليفة ، وهو يومئذ القائم بأمر الله ، فخطبها اليه ووسط قاضي الري في ذلك ، فانزعج الخليفة لهذا

---

١ – ابن خلدون ٤٤٣ ج ٣ . ٢ – الفخري ١٢٣ . ٣ – ابن الاثير ٢٨٣ ج ٨ .

الطلب أيما انزعاج ، اذ لم يسبق آن يتزوج بنات الخلفاء الا أكفاؤهم بالنسب . وكانت يد السلطان قوية والخليفة لا شيء في يده ، فأخذ في استعطافه ، ليعفيه من اجابة طلبه ، فأبى السلطان الا ان يجاب وحدثت أمور يطول شرحها خيف منها على الدولة ، فاضطر الخليفة الى القبول — فعقد له عليها سنة ٤٥٤ ه وهذا ما لم يجر مثله قبله ، لأن آل بويه لم يطمعوا في ذلك ولا تجاسروا على طلبه مع مخالفتهم للخليفة في المذهب[١] اذ يكفي من الخليفه تنازلا أن يتزوج بنات الملوك لا أن يزوجهم بناته ، ولم ينل هذا الشرف أحد قبل طغرل بك . ومع ذلك فانه لما دخل الى عروسه في السنة التالية ، قبل الارض بين يديها وهي جالسة على سرير ملبس بالذهب ، فلم تكشف الخمار عن وجهها ولا قامت له ، وظل أياماً يحضر على هذه الصورة وينصرف . على انه لم يوفق لاتمام ما أراده لأنه توفي في تلك السنة . أما المبايعة بالخلافة لغير العرب فلم تنلها دولة اسلامية قبل العثمانيين ، فلما فتح السلطان سليم مصر وجد فيها آخر الخلفاء العباسيين الذين كان السلاطين المماليك قد استقدموهم ، فتنازل له عن الخلافة سنة ٩٢٣ ه .

---

١ – ابن الاثير ٨ ج ١٠ .

العصر العربي الثاني

الأمارات العربيّة والعنصر العربي

نريد بالعصر العربي الثاني ، العصر الذي جدد فيه العرب سطوتهم ، وأعادوا سلطانهم ونفوذهم في الدولة ، بعد أن غلب الفرس على أمورهم واستبدوا بهم . فقد رأيت أن شوكة العرب ضعفت بذهاب الدولة الأموية، وتغلب الفرس في الدولة العباسية ، حتى غلب الامين فانكسرت تلك الشوكة وتضعضع شأن العرب ، ثم جاء المعتصم فقطع أعطيتهم ومنعهم من مصالح الدولة، فذلوا ونقموا على العباسيين ولبثوا يترقبون الفرص لاسترجاع سلطانهم، وأصبحوا ينصرون كل من يخرج على تلك الدولة في العراق أو الشام أو مصر، حتى الأكراد والأعراب والقرامطة ، فلم ينفعهم ذلك إلا قليلاً لتغلب الأتراك في مصالح الحكومة .

على أن بعض القبائل العربية تمكنت بأسباب مختلفة من إنشاء إمارات صغيرة فيما بين النهرين والشام تحت رعاية العباسيين ، وقد ساعدهم على ذلك ما قام من الفتن والحروب بين الخلفاء العباسيين ووزرائهم الفرس وأجنادهم الأتراك في القرن الرابع للهجرة ، ورأوا الفرس والترك يستقلون بولاياتهم فقلدوهم ، فاستقل آل حمدان من بني تغلب بالموصل وحلب وغيرهما من سنة ٣١٧ — ٣٩٤ هـ ، وكانت دولتهم عربية أحيوا بها معالم العرب وآدابهم وعرفت بالدولة الحمدانية ، أشهر أمرائها سيف الدولة وقد اشتهر بما نظمه فيه أبو الطيب المتنبي .

ونشأ في حلب في ذلك القرن أيضاً دولة عربية أخرى اسمهـا المرداسية ، نسبة إلى أسد الدولة صالح بن مرداس من قبيلة بني كلاب من المضرية ، فحكم في حلب هو وأولاده من سنة ٤١٤ — ٤٧٢ هـ وخلف الحمدانية بالموصل دولة بني عقيل من كعب من المضرية فتولوها من سنة ٣٨٦ — ٤٨٩ هـ ، وظهرت في أثناء ذلك دولة عربية رابعة عرفت بالمزيدية نسبة إلى مزيد الشيباني من قبيلة أسد ، وقد أنشأوا مدينة الحلة في العراق وحكموا من سنة ٤٠٣ — ٥٤٥ هـ .

وهناك دولتان أنشأهما رجال من العرب في العصر العباسي الأول وفي بلاد غير عربية،

فالأولى أن تعدا من الدول الأعجمية ، وهما الدولة الدلفية التي أنشأهـا أبو دلف العجلي في كردستان ، والعلوية التي أنشأها الحسن بن زيد في طبرستان ، وإذا أضفنا إلى ما تقدم دولة الأغالبة التي استقلت بالمغرب قبل سائر فروع الدولة العباسية ، ودولة الأدارسة الآتي ذكرها ، بلغ عدد الدول العربية الصغرى في النهضة العربية الثانية ثماني دول ، هذا بيانها مع أسماء مؤسسيها ومدة حكم كل منها ، ننشرها بحسب تاريخ تأسيسها :

الدولة	مقرها	مدة حكمها	مؤسسها
١ ـ الإدريسية	مراكش	١٧٢ ـ ٣٧٥ هـ	ادريس بن عبد الله
٢ ـ الأغلبية	تونس وغيرها	١٨٤ ـ ١٨٩	ابراهيم بن الأغلب
٣ ـ الدلفية	كردستان	٢١٠ ـ ٢٨٥	أبو دلف العجلي
٤ ـ العلوية	طبرستان	٢٥٠ ـ ٣٦١	الحسن بن زيد
٥ ـ الحمدانية	حلب والموصل	٣١٧ ـ ٣٩٤	بنو حمدان
٦ ـ المزيدية	الحلة	٤٠٣ ـ ٥٤٥	مزيد الشيباني
٧ ـ العقيلية	الموصل	٣٨٦ ـ ٤٨٩	بنو عقيل
٨ ـ المرداسية	حلب	٤١٤ ـ ٤٧٢	صالح بن مرداس

غير الامارات العربية الصغرى التي ظهرت في بلاد اليمن ، كالزيادية في زبيد ، واليعفورية في صنعاء ، وغيرهما .

على ان هذه الدول قلما اثرت في احياء سطوة العنصر العربي او ارجاع شوكة العرب ، لأنها كانت تعترف بخلافة العباسيين وتبايع لهم ، إلا العلوية والادارسة . ولا حرج عليهم ، فان الفرس والترك والديلم كانوا قد استبدوا باكثر امارات المملكة العباسية ، ورسخ في اذهان الناس ان الدولة العباسية باقية الى رجوع المسيح ، فبات الشرق كله تحت سيطرة سيطرة العباسيين ، يخطب لهم ويضرب النقود باسمهم ، فاتجهت آمال العرب نحو الغرب .

وكان الأمويون اصحاب العصبية العربية ، واكبر اعداء الفرس ومن جاورهم من الأعاجم ، قد انشأوا دولة عربية في الاندلس من سنة ١٣٨ هـ سيأتي الكلام عليها . فالعرب الذين كانوا يطمعون في احياء العنصر العربي ، ويكبرون ذهاب دولة العرب في ظل العباسيين ، كانوا ينزحون الى الغرب فينزلون في الاندلس او يقيمون في افريقيا في ظل السيادة العربية بعيدين عن سلطة الدولة العباسية .

واكثر العرب نفوراً من تلك الدولة واشدهم بغضاً لها شيعة العلويين ، لا سيما بعد ان قضى على آمالهم في الشرق بما توخاه العباسيون من التفرد بالخلافة هناك . وكان بعض اصحاب هذه الدعوة قد فروا من وجه العباسيين نحو الغرب في اوائل دولتهم ، فأنشأوا هناك دولة علوية عرفت بالدولة الادريسية ، نسبة الى ادريس بن عبدالله حكمت من سنة ١٧٢ ٣٧٥ هـ ولم يطمع امراؤها في لقب الخلافة .

وبقي في الشرق جماعة من العلويين كانوا لا يزالون يؤملون الفوز بشيعتهم الموالي الفرس ، فلما رأوا العباسيين غلبوهم على ما في ايديهم بعد فتنة الأمين والمأمون واستبداد رجال الاتراك في الدولة ومقاومتهم العنصرين الفارسي والعربي جميعاً ، يئسوا من نصرة الموالي فنزح بعضهم الى المغرب تدريجياً ، وظل البعض الآخر في المشرق يترصدون ضعفاً يبدو لهم من الدولة العباسية ، فيغتنمون الفرصة للوثوب بها لا يبالون بمن يستنصرون او على من يعولون . فكانوا يقومون تارة بالفرس او الخراسانيين ، وطوراً بالاكراد او الديلم اوغيرهم من الامم الناقمة على الاتراك ، او الفئات المظلومة من فساد الاحكام واستبداد الخدم ، ولم يفز احد منهم بانشاء دولة غير الحسن بن علي في طبرستان صاحب الدولة العلوية التي ذكرناها ، ولم يطل عمرها وكثيراً ما كانت تلك الفئات المظلومة تنتحل الدعوة العلوية للوثوب على الدولة ، كما فعل صاحب الزنج في العراق ، فانه اقلق راحة الدولة العباسية واجنادها وعمالها بضعة عشر عاماً ، بما جمعه من اباق العبيد والزنوج الذين كانوا يكسحون السباخ في ضواحي البصرة والكوفة ، واستنهض سائر السودان فتركوا اسيادهم وقاموا معه فحارب الدولة في وقائع كثيرة قتل فيها نحو ٢٫٥٠٠٫٠٠٠[1] وكانوا يفعلون ذلك باسم الدعوة العلوية وزعيمهم دعى اسمه علي بن محمد زعم انه من نسل الحسين ، وانتهت تلك الثورة بقتل الدعي وتشتت رجاله .

على ان الشيعة العلوية لم يكن لها شأن يذكر ، الا بعد ظهور الدولة البويهية الشيعية في الشرق ، واستيلائها على بغداد واستبدادها بالخلافة . وكان الشيعة قد أنشأوا خلافة علوية في بلاد المغرب ، فاشتد أزرهم بذلك وحملوا على المشرق يلتمسون افتتاح المملكة العباسية ، فجاءوا مصر وفتحوها في اواسط القرن الرابع للهجرة واقاموا فيها ، وكانت دولتهم ضخمة عرفت بالدولة الفاطمية وهي اكبر دول الشيعة ، وسيأتي ذكرها .

---

١ — الفخري ٢٢٧ .

وجاءت الدولة الفاطمية مزاحمة للدولة العباسية ، وقد قام بنصرتها العرب والبربر ، وهؤلاء ينتحلون لأنفسهم نسباً في العرب . وكانت الآمال متعلقة باحياء العنصر العربي على يدها كما كان في صدر الاسلام ، فبايعها معظم العالم العربي يومئذ حتى في العراق وما بين النهرين ، فان اهل الكوفة والموصل بايعوها مدة مع قربهم من بغداد عاصمة العلويين[١] على انهم لم يستطيعوا احياء ذلك العنصر ،لذهاب دولة آل بويه من المشرق، وظهور الدولة السلجوقية التركية هناك وانتصارها للعباسيين وانتحالها مذهبها ودفاعها عنها فظلت الموازنة محفوظة بين الشرق والغرب : الاول سني والثاني شيعي .

فلما تغلب الاكراد على الدولة الفاطمية واخرجوا مصر من حوزتها على يد صلاح الدين الايوبي ، اعادوا البيعة العباسية اليها سنة ٥٦٧ هـ ، وكان العنصر العربي قد ضعف بمصر قبل انقضاء تلك الدولة بمن استبد بالاحكام من الاتراك والارمن وغيرهم كما سيجيء ، فعاد العنصر العربي الى الضياع ، إلا امارات صغيرة ظهرت في جزيرة العرب ولا يزال بعضها باقياً الى الآن (حوالي سنة ١٩١٠) .

فالعصر العربي الثاني عبارة عن احياء العنصر العربي في المغرب بعد انحلاله في المشرق، واكبر العوامل في احيائه الدولتان الاموية بالاندلس والفاطمية بمصر ، وكان قيامها نهضة عربية لم يطل مكثها ولا كان لها تأثير يذكر ، ولم يقم للعرب قائمة في الدولة الاسلامية من ذلك الحين – إلا ما ابدته بعض القبائل من النهوض في بلاد العرب او غيرها بدعوة سياسية او دينية ، كقيام العائلة الوهابية في نجد والدراويش في السودان . ولما عزم محمد علي مؤسس العائلة الخديوية على انشاء دولة اسلامية كبرى في اوائل القرن التاسع عشر ، اراد ان يستعين على انشائها بعصبية اسلامية ، واقوى العصبيات بمصر يومئذ الترك والعرب ، والعصبية التركية للدولة العثمانية ، فاختار عصبية العرب ،فحامت الآمال حوله، وخصوصاً بعد حربه الوهابية واجتماعه بشريف مكة وغيره من رؤساء القبائل ، فأحيا العنصر العربي ونشط العصبية العربية بما انشأه من المدارس والمطابع ونشره من الكتب . فكان

---

١ – ابن الاثير ٩٢ ج ٩ .

للعرب نهضة قلما أفادته في غرضه السياسي ، لما حـــال دون مطامعه من اغراض دول الافرنج في المملكة الاسلامية ، ولكنها افادت اهل الشرق من العرب فائدة ادبية علمية، بتمهيد السبيل للنهضة التي نحن فيها الآن ، اما ما تتناقله الجرائد من اخبار اليمن ونجـد وتمرد بعض رؤساء القبائل فلا نتوقع له نتيجة تذكر ، لأسباب عمرانيـــة سياسية لا محل لها هنا .

فالنهضة العربية في العصر العربي الثاني الذي نحن في صدده قلما اثرت في احياء العنصر العربي . وقد تقلبت على كل من الدولتين الأموية في الاندلس والفاطمية بمصر احوال مختلفة في سياستها وشؤون حكومتها لا بأس من الاتيان على خلاصتها ، وان كانتا في الحقيقة مقلدتين للدولة العباسية في اكثر احوالهما .

سياسة بني أمية في الأندلس

من سنة ١٣٨ — ٤٢٢ هـ

اقتدت هذه الدولة في سياستها بالدولة العباسية ، مثل سائر الدول التي عاصرتها أو نشأت بعدها . فمؤسسها عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبدالملك بن مروان كان شديداً مثل جده عبد الملك ، نجا من مذبحة أهله في مجلس السفاح سنة ١٣٢ هـ وهرب من العراق يطلب بلاد المغرب بمساعدة مولى له اسمه بدر ، لم يدخر وسعاً في إنقاذه وحمايته في أثناء ذلك الفرار ، والمسافة طويلة وأهل البلاد ناقمون على الأمويين . فلما وصل به الى المغرب سعى له في جمع الأحزاب ، فقطع مضيق جبل طارق الى الأندلس ، وفيها من موالي بني أمية نحو خمسمائة رجل ؛ فأخبرهم بقدوم مولاه وحرضهم على نصرته لاستبقاء هذه الدولة هناك ، فنصروه وجمعوا كلمة المضرية واليمنية وجمعها صعب في ذلك العهد . فبعد حروب كثيرة مهدوا له الدولة واستقدموه اليهم ، فدخل الأندلس وتولى أمورها سنة ١٣٨ هـ (٧٥٦ م) ولذلك سموه الداخل .

وقد حكم عبد الرحمن أولاً باسم الدولة العباسية ، وخطب بها للمنصور نحو سنة ، ولم يجسر في بادىء الرأي على إنشاء خلافة أخرى مع وجود الخلافة العباسية ، لأن النبي (صلعم) واحد وخليفته واحد . وكان لعبد الرحمن ابن عم يقال له عبد الملك بن عمير بن مروان ، شديد العصبية للأمويين واسع الأمل في إرجاع خلافتهم ، وكانوا يسمونه شهاب آل مروان لشجاعته وسرعة فتكه ، وقد حارب في نصرة ابن عمه حروباً ثبتت له بها الدولة ، فحرضه على قطع الخطبة العباسية ، ولما آنس منه تردداً صاح فيه : « إقطعها وإلا قتلت نفسي ! » فقطعها ولكنه لم يجسر أن يسمي نفسه خليفة ، فكانوا يسمون أمويي الأندلس في أوائل دولتهم الأمراء ، ثم سموهم الخلفاء

واتفق في أثناء ذلك أن المنصور العباسي أهان مالك بن أنس إمام المدينة ، لما علمه من إفتائه بخلع المنصور ، لأنه كان قد بايع للعلويين ، فاغتنم الأمويون نقمة مالك عليه وقربوه

منهم وأكرموه ، فانتفع كل منهما بصاحبه. فالأمويون رأوا فيه إماماً كبيراً ينصر دعوتهم أو يؤيدها من حيث الدين ، ويطعن في خلافة بني العباس . ورأى مالك في الأمويين ملجأ كبيراً وتعزية لما ذاقه من شدة بني العباس . فشاع مذهب مالك في الأندلس من ذلك الحين، وكانوا قبلاً على مذهب الأوزاعي مثل أهل الشام . وقد نقلوا الفتوى الى رأي مالك في أيام الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل [١] .

وكان عبد الرحمن هذا يقلد سياسة المنصور العباسي في تأييد دولته ، وكانا متشابهين من عدة أوجه : منها أن والدة كل منهما بربرية ، وكان عبد الرحمن مثل المنصور من حيث الشدة والعزم وضبط الأمور . فاتفقا في أن كلا منهما قتل ابن أخيه ، فقتل المنصور ابن أخيه السفاح ، وقتل عبد الرحمن ابن أخيه المغيرة بن الوليد بن معاوية [٢] وقد اقتدى عبدالرحمن بالمنصور في سياسة الفتك والغدر لتأييد سلطانه بقتل الذين ساعدوه على تأييده، فسخط على بدر مولاه لفرط دلاله عليه ، ولم يرع حق خدمته وصدق مناصحته ، فأخذ ماله وسلبه نعمته ونفاه سنة ١٥٦ هـ الى مكان بقي فيه الى أن هلك ، كما قتل المنصور أبا مسلم الخراساني بعد بلائه في إنشاء دولته[٣]. وقتل عبد الرحمن أيضاً أبا الصباح بن يحيى رئيس العرب اليمانية ، وكان قد ساعده على القيام وله فضل عليه [٤] ففعل به مثل ما فعل بنو العباس بأبي سلمة وابن كثير وغيرهما . وقام اليمانية رجال أبي الصباح يطلبون بثأره ، فأوقع عبدالرحمن بهم وأكثر القتل فيهم ، واستوحش من العرب قاطبة وعلم أنهم يصحبونه على غل وحقد ، فانحرف عنهم الى اتخاذ المماليك ليتقوى بهم على أعدائه ، فبعث الى كبراء مملكته يبتاع مواليهم ، فاقتنى موالي الناس من كل ناحية ، واعتضد بالبربر فوجه اليهم في بر العدوة على شواطىء أفريقية واستوفدهم، فجاءه منهم كثيرون فأكرم وفادتهم وأحسن اليهم وقربهم ، فرغبوا في خدمته واستكثر منهم ومن العبيد حتى بلغ جنده من هؤلاء نحو ٤٠,٠٠٠ رجل، غلب بهم على أهل الأندلس من العرب فاستقامت مملكته وتوطدت دعائمها كما تأيدت الدولة العباسية بالخراسانيين

الصقالبة

ثم عمد الأمويون بعده الى استخدام الخصيان الصقالبة ، وهم غلمان كان النخاسون

---

١ — نفح الطيب ٧٩٩ ج ٨ .   ٢ — نفح الطيب ٧١٥ ج ٢ .
٣ — ابن الاثير ٥ ج ٦ .   ٤ — نفح الطيب ٧٠٦ ج ٢ .

يحملونهم من شمالي أوربا يتجرون ببيعهم في أنحاء العالم ، وكان الاتجار بهم رائجاً. والسبب في رواجه أن قبائل السلاف (الروسيين) نزلوا في أوائل أدوارهم شمالي البحر الأسود ونهر الطونة ، ثم أخذوا ينزحون غرباً جنوبياً نحو أواسط أوربا ، وهم قبائل عديدة عرفت بعدئذ بقبائل السلاف أو (السكلاف) والسرب والبوهيم والدلمات وغيرهم . فاضطروا وهم نازحون أن يحاربوا الشعوب التي في طريقهم ، كالسكسون والهون وغيرهم، فتكاثر الأسرى من الجانبين . وكان من عادات أهل تلك العصور أن يبيعوا أسراهم بيع الرقيق ، فتألفت لذلك جماعات كبيرة من التجار يحملون الأسرى ، عن طريق فرنسا فإسبانيا الى أفريقيا ومنها الى الشام ومصر ، فلما وقعت هذه البلاد في أيدي المسلمين راجت تلك التجارة . فكان التجار من الإفرنج وغيرهم يبتاعون الأسرى من السلاف والجرمان ، من جهات ألمانيا عند ضفاف الرين والألب وغيرهما الى ضفاف الدانوب وشواطىء البحر الأسود – ولا يزال أهل جورجيا والجركس الى اليوم يبيعون أولادهم بيع السلع (الى ما قبل الحرب العالمية الأولى) – فإذا عاد التجار من تلك الرحلة ساقوا الأرقاء أمامهم سوق الأغنام، وكلهم بيض البشرة على جانب عظيم من الجمال وفيهم الذكور والاناث ، الى ان يحطوا رحالهم في فرنسا ومنها ينقلونهم الى اسبانيا (الأندلس) فكان المسلمون يبتاعون الذكور للخدمة او الحرب ، والاناث للتسري . وغلب على أولئك الأرقاء انتسابهم الى الجنس الصقلبي ، وكانت كلمة « سلاف » تلفظ عندهم « سكلاف » فعربها العرب « صقلب » ، ومنها « صقلبي وصقالبة » ، وأصبح هذا اللفظ عندهم يستعمل للرقيق الأبيض على الإجمال .

على ان عبد الرحمن الداخل قلما رغب في الصقالبة ، وأول من استكثر منهم حفيده الحكم بن هشام (١٨٠ – ٢٠٦ هـ) فإنه استكثر من اقتناء المماليك وارتبط الخيول ببابه وتشبه بالجبابرة . وهو أول من جند الجند المرتزقين بالأندلس ، فجعل المماليك من المرتزقة فبلغت عدتهم ٥٠٠٠ مملوك ، وكانوا يسمونهم الخرس لعجمة ألسنتهم ، ثم تدرج الأمويون في استخدام الصقالبة ، حتى تكاثروا في أيام عبدالرحمن الناصر (٣٠٠ – ٣٥٠هـ) وجعلهم بطانته وجنده كما فعل المعتصم العباسي بالأتراك قبله . واستقل بنو أمية بمملكتهم هذه في أوربا عن سائر ممالك الاسلام في آسيا وأفريقيا ، ولم يكونوا يطمعون في التغلب على الممالك الأخرى ، فقطعوا علاقاتهم معها ومنعوا أهل دولتهم من الحج الى الحرمين[1] مخافة أن يقع

١ – ابن خلدون ٢٣٨ ج ١ .

أحد منهم في أيدي العباسيين ، فلم يحج سائر أيامهم أحد من أهل دولتهم ، وما أبيح لهم الحج إلا بعد فراغ شأن الأموية ورجوع مملكة الأندلس الى ملوك الطوائف غير العرب .

ملوك الطوائف بالأندلس

وبلغت الأندلس إبان مجدها في أيام عبد الرحمن الناصر المتوفي سنة ٣٥٠ ﻫ وكان عاقلاً كريماً توفرت الثروة في خلافته ، وكانت أيامه مثل أيام هرون الرشيد في بغداد من حيث الرغد والرخاء. وكان ابنه الحكم المستنصر، وكان محباً للعلم والعلماء مثل المأمون بن الرشيد، وبلغت مملكة الأندلس في أيام هذين الخليفتين الى أوج مجدها سطوة وأبهة وثروة ، وأخذ شأن الخلافة بعدهما في الاضمحلال ، فاستبد أهل الدولة وجندها بالأحكام ، وهم موالي الأمويين من البربر والصقالبة ، كما استبد الفرس والأتراك في الدولة العباسية .

وكان العرب في مقدمة رجال الدولة واهل العصبية ، ولهم المقام الرفيع والكلمة النافذة ، لأن الأمويين أهل عصبية للعرب كما تقدم ، فلما استبد الصقالبة والبربر بالمناصب والاعمال اخذت شوكة العرب في الضعف تدريجياً ، حتى غلب ابن ابي عامر وزير الحكم بن الناصر على امور الدولة في ايام هشام بن الحكم في اواخر القرن الرابع للهجرة ، ومكر بأهل الدولة وضرب بين رجالها وقتل بعضا ببعض ومنع الوزراء من الوصول الى الخليفة، وهو عربي الاصل من اليمنية ، فأصبح يخاف الجند على نفسه ، فعمل على تفريق جموعهم فبدأ بالصقالبة الخدم بالقصر فنكبهم بدسيسة واخرجهم من القصر ، ثم فتك بالجند الصقالبة واخر رجال العرب واسقطهم عن مراتبهم واستقدم اليه رجالا من برابرة افريقية وزناتة وقدمهم واستعان بهم . فانكسرت شوكة العرب في الاندلس من ذلك الحين .

وما زالت الدولة هناك آخذة في الانحلال حتى اقتسمها الولاة البربر وغيرهم ، بأسرع مما حدث في الدولة العباسية ، لضعف اعتقاد المسلمين بصحة خلافة بني أمية ، ولأن العباسيين ارسخ قدماً في الخلافة لقرابتهم من النبي (صلعم) فانقسمت مملكة الاندلس في اوائل القرن الخامس للهجرة الى امارات تولاها اصحاب الاطراف والرؤساء ، وفيهم العرب والبربر والموالي ، فتغلب كل انسان على ما في يده ، فصاروا دولا صغيرة متفرقة ، ولذلك سموا ملوك الطوائف . وهاك اشهرهم مع اسماء اماراتهم

اسم الدولة	اسم المملكة	مدة الحكم
بنو حمود	مالقة والجزيرة	٤٠٧ ٤٤٩ هـ
بنو عباد	اشبيلية	٤١٤ – ٤٨٤
بنو زيري	غرناطة	٤٠٣ – ٤٨٣
بنو جهور	قرطبة	٤٢٢ ٤٦١
بنو ذي النون	طليطلة	٤٢٧ – ٤٧٨
العامريون	بلنسية	٤١٢ – ٤٧٨
بنو هود التجيبيون	سرقسطة	٤١٠ – ٥٣٦

ولم تطل سيادة هذه الدول كما رأيت، فغلبت عليهم دولة المرابطين ثم الموحدين، وظل الانقسام متتابعاً بين تلك الممالك ، والخصام متوالياً والافرنج يغتنمون ضعفهم وانقسامهم، ويسترجعون امارتهم واحدة بعد واحدة وبلداً بعد بلد ، حتى غلبوا على المسلمين واخرجوهم من الاندلس . وآخر مدينة افتتحها الافرنج من تلك المملكة غرناطة ، وكانت في حوزة بني نصر نسبة الى يوسف بن نصر من سنة ٦٢٩ هـ ، توالى عليها منهم بضعة وعشرون ملكاً ، آخرهم ابو عبدالله محمد بن علي ، فاستخرجها الافرنج من يده سنة ٨٩٧ هـ وفر ابو عبدالله ، وكان ذلك آخر عهد المسلمين بالاندلس .

الدَّولة الفَاطِمِيَّة

من سنة ٢٩٧ – ٥٦٧ هـ

الشيعة في المغرب

قد علمت حال الشيعة في ايام بني أمية بالشام وما قاسوه من القتل والصلب ، ثم ما كان من حالهم في الدولة العباسية ، وخصوصاً في ايام المنصور والرشيد والمتوكل ، من الاضطهاد والقتل ، فحملهم ذلك على الفرار الى اطراف المملكة الاسلامية ، فهاموا على وجوههم شرقاً وغرباً كما تقدم . وكان فيمن جاء منهم نحو الغرب ادريس بن عبدالله بن الحسن المثنى ، اخو محمد بن عبدالله الذي بايعه المنصور ثم نكث بيعته . فأتى ادريس مصر وهي في حوزة العباسيين ، فاستخفى في مكان اتاه اليه بعض الشيعة سراً ، ومنهم صاحب البريد فحمله الى المغرب في ايام الرشيد ، فتلقاه الشيعة هناك وبايعوه ، فأنشأ دولة في مراكش عرفت بالدولة الادريسية من سنة ١٧٢ ٣٧٥ هـ على ان هؤلاء لم يسموا انفسهم خلفاء .

أما ظهور الشيعة وتغلبهم وارتفاع شأنهم حقيقة فالفضل فيه للدولة الفاطمية ، نسبة الى فاطمة بنت النبي (صلعم) لأن اصحابها ينتسبون اليها ، وتسمى ايضاً الدولة العبيدية نسبت الى مؤسسها عبيد الله المهدي . وكان شأن الشيعة قد بدأ بالظهور في المشرق على يد بني بويه في اواسط القرن الرابع للهجرة .

ولما تغلب البويهيون على بغداد كانت الدولة الفاطمية قد اشتد ساعدها في المغرب وهمت بفتح مصر . وكان آل بويه يغالون في التشيع ، ويعتقدون ان العباسيين قد غصبوا الخلافة من مستحقيها ، فاشار بعضهم على معز الدولة البويهي ان ينقل الخلافة الى العبيديين او لغيرهم من العلويين ، فاعترض عليه بعض خاصته قائلاً : « ليس هذا برأي . فانك اليوم مع خليفة تعتقد أنت واصحابك انه ليس من أهل الخلافة ، لو أمرتهم

بقتله لقتلوه مستحلين دمه ، ومتى اجلست بعض العلويين خليفة كان معك من تعتقد انت واصحابك صحة خلافته ، فلو امرهم بقتلك لقتلوك » فرجع معزالدولة عن عزمه[١].

على ان الشيعة اعتزت في الشرق بهذه الدولة ، واحيا البويهيون كثيراً من الاحتفالات الدينية الشيعية ومنها عاشوراء تذكار مقتل الحسين[٢] وحملوا الخليفة على ان يخطب لعضد الدولة في بغداد، اي ان يذكر اسمه في الخطبة ، فخطب له وهو اول من خطب له فيها . فوقع التحاسد بين الاتراك والديلم هناك ، ونشأت الفتن بين السنة والشيعة من ذلك الحين، والترك يمثلون السنة والديلم او الفرس يمثلون الشيعة . فحمل الاتراك اهل بغداد على الاحتفال ببعض الاعياد عكس احتفال الشيعة[٣] نكاية بهم .

الشيعة في مصر

على ان ظهور الشيعة في الشرق هون على الدولة العبيدية فتح مصر والانتقال اليها ، وكانت قصبتها قبلاً مدينة المهدية بافريقيا وخلفاؤها ينتسبون الى الحسين بن علي ، وللمؤرخين في انتسابهم اليه اقوال متناقضة ، فالذين يتعصبون للعباسيين ينكرون ذلك عليهم . ويغلب في اعتقادنا صحة انتسابهم اليه ، وان السبب في وقوع الشبهة طعن العباسيين فيه تصغيراً لشأنهم[٤] .

والمصريون كانوا يحبون عليا من صدر الاسلام ، وكانوا من حزبه يوم مقتل عثمان ، ولكن قلما كان لهم شأن في الشيعة العلوية ، لأن العلويين استنصروا اولا اهل العراق وفارس كما تقدم . فلما قامت الدولة العباسية وتأثرهم المنصور بالقتل والحبس ، وقتل محمد بن عبدالله الحسني وبعض اهله وفر سائر العلويين من وجه الدولة العباسية ، كان في جملتهم علي بن محمد بن عبدالله فجاء مصر بأمر دعوته بعض رجال الشيعة ، لكنه ما لبث ان حمل الى المنصور واختفى[٥] .

وكان حال الشيعة العلوية بمصر يتقلب بين الشدة والرخاء ، بتقلب احوال الخلفاء في بغداد ، فان تولى خليفة يكره العلويين ضيق على الشيعة واضطهدهم والعكس بالعكس، فلما تولى المتوكل واضطهد الشيعة العلوية كتب الى عامله بمصر باخراج آل ابي طالب !!

---

١ – ابن الاثير ١٧٧ ج ٨ .   ٢ – ابن الاثير ٢١٦ ج ٨ .
٣ – ابن الاثير ٦٥ ج ٩ .   ٤ – المقريزي ٣٤٩ ج ١ .   ٥ – المقريزي ٣٣٨ ج ٢ .

العراق فاخرجهم سنة ٢٣٦ هـ ، ولما قدموا الى العراق ارسلوهم الى المدينة واستتر من بقي في مصر على رأي العلوية ، لان عمال المتوكل كانوا يبالغون في اظهار الكره للشيعة تزلفاً للخليفة — يحكى ان رجلاً من الجند اقترف ذنباً اوجب جلده ، فأمر يزيد بن عبدالله عامل مصر يومئذ بجلده ، فأقسم الرجل عليه بحق الحسن والحسين الا عفا عنه فزاده ثلاثين ضربة . ورفع صاحب البريد الى المتوكل ذلك الخبر ، فورد كتابه الى العامل ان يضرب الجندي المذكور مائة سوط فضربه . وتتبع يزيد المشار اليه آثار العلويين ، فعلم برجل منهم له دعاة وانصار فقبض عليه وارسله الى العراق مع اهله وضرب الذين بايعوه .

ولما تولى المنتصر بن المتوكل سنة ٢٤٧ هـ كتب الى عامله بمصر أن لا يضمن علوي ضيعة ولا يركب فرساً ولا يسافر من الفسطاط الى طرف من أطراف مصر ، وأن يمنعوهم من اتخاذ العبيد الا العبد الواحد . واذا كان بينهم وبين أحد الناس خصومة قبل قول خصمه فيه بغير أن يطالب ببينة . فقاسى العلويون عذاباً شديداً بسبب ذلك .

ولما استقل أحمد بن طولون بامارة مصر سنة ٢٥٤ هـ اضطهد الشيعة لأنه تركي ولأنه على رأي الخليفة العباسي ، فاقتص آثار العلويين وحاربهم مراراً . حتى اذا ضعف أمر بني طولون بمصر واختلت أحوال الدولة العباسية في بغداد وتغلب آل بويه عليها في القرن الرابع للهجرة أخذ حزب الشيعة ينتعش ويتقوى. فلما جاءهم جند المعز لدين الله الفاطمي سنة ٣٥٨ هـ بقيادة جوهر الصقلي كانت الاذهان متأهبة لقبول تلك الدعوة ، ففتح جوهر مصر على أهون سبيل وخطب فيها للعلويين وأقام شعارهم وأزال شعار العباسيين ، وبنى مدينة القاهرة وانتقل اليها مولاه المعز لدين الله ، وتوالى من دولة الفاطميين بمصر عشرة خلفاء ، وجملة خلفائهم منذ أنشأوا دولتهم في افريقية الى انقضائها بمصر ١٤ خليفة حكموا من سنة ٢٩٧ — ٥٦٧ هـ وانتقلت مصر منهم الى الاكراد الأيوبيين .

سياسة الدولة الفاطمية

ان الفاطميين من جملة الدول الاسلامية التي قلدت الدول العباسية في نظام حكومتها وسائر شؤونها ، الا ما يتعلق منها بالدين فانهم أيدوا كل ما يوافق مذهب الشيعة من ايثار العلويين وتقديمهم والعمل بأقوال أئمتهم . فألف يعقوب بن كلس وزير العزيز بالله الفاطمي

كتاباً يتضمن الفقه على ما سمعه من المعز لدين الله وابنه العزيز بالله ، وبوبه على أبواب الفقه فبلغ حجمه نصف حجم صحيح البخاري، وهو يشتمل على فقه الطائفة الاسماعيلية . وقد بذلت الدولة الفاطمية جهدها في نشر هذا الفقه بين المسلمين ، حتى كان الوزير المشار اليه يجلس بنفسه لقراءة هذا الكتاب على الطلبة ، وبين يديه خواص الناس وعوامهم وسائر الفقهاء والقضاة والادباء . وجعله مرجع القضاء في الفتوى ، وأفتى الناس به ودرسوه في الجامع العتيق (جامع عمرو) وعمل الخلفاء على ترغيب الناس في حفظه بالبذل والعطاء ، فأجرى العزيز بالله على ٣٥ رجلا من الفقهاء يحضرون مجلس الوزير ويلازمونه أرزاقاً تكفيهم ، فضلاً عما كان يصلهم من مال العزيز بالله في الصلات السنوية ، وأمرهم ببناء دار الى جانب الجامع الازهر ، وكان يخلع عليهم في عيد الفطر ويحملهم على البغال ترغيباً لهم في نشر فقه الشيعة وتعاليمهم ، وأجلسوا أناساً في قصر الخلافة لقراءة علوم أهل البيت على الناس ، لأنه بانتشار ذلك المذهب تتأيد تلك الدولة ، لارتباط السياسة بالدين كما قدمنا . وتعقبوا من يطالع غير ذلك الكتاب وشددوا في عقابه ، فاتفق أنهم عثروا على رجل وجدوا عنده كتاب الموطأ لمالك ، فضربوه وطافوا به في المدرسة . وكان يعقوب الوزير المذكور يهودياً وأسلم ، وخدم الدولة الفاطمية خدمات جزيلة في تأييد دعوتهم كما رأيت ، فلا عجب اذا عاده العزيز في مرضه وقال له : « وددت لو أنك تباع فأبتاعك بملكي »[1] .

وتمشى سائر الخلفاء الفاطميين على هذه الخطة في نشر مذهب الشيعة ، فأنشأ العزيز والحاكم دور الكتب للمطالعة والنسخ لنشر كتبهم ، ولما تولى الخليفة الظاهر سنة ٤١١ هـ أخرج من كان في مصر من الفقهاء المالكية وغيرهم. وشددوا الأوامر على الناس ان يحفظوا كتاب « دعائم الاسلام » و « مختصر الوزير » وجعلوا لمن حفظ ذلك مالا[2] ومن مقتضيات فقه الدولة الفاطمية في المواريث توريث ذوي الارحام ، فالبنت عندهم اذا انفردت استحقت المال بأجمعه[3] تأييداً لحقهم في وراثة الخلافة ، لأنهم ينتسبون الى فاطمة بنت النبي (صلعم) وهي منفردة بالارث .

أدوار الدولة الفاطمية :

مرت الدولة الفاطمية في ثلاثة أدوار تشبه الادوار التي مرت بها الدولة العباسية ،

---

١ – ابن الاثير ٣٢ ج ٩ . ٢ – المقريزي ٣٥٥ ج ١ . ٣ – المقريزي ١١١ ج ١ .

فقد رأيت ان نفوذ الكلمة في الدولة العباسية كان في أوائلها مشتركاً بين العرب والفرس ، ثم صار الى الفرس ثم الى الأتراك . والفاطميون عرب قامت دولتهم بالعرب والبربر ، فكان النفوذ في أولها مشتركاً بين هذين العنصرين ، ثم صار الى البربر ثم الى الاتراك .

والبربر قوم أشداء ، مساكنهم في شمال أفريقية ، وقد نصروا الشيعة العلوية في المغرب كما نصرها الفرس في المشرق وهم قبائل شتى مثل قبائل العرب الرحل ، وقد قاسى المسلمون في اخضاعهم عذاباً شديداً ، لأنهم ارتدوا عن الاسلام اثنتي عشرة مرة وثبوا فيها كلها على المسلمين ، ولم يثبت اسلامهم الا في ايام موسى بن نصير في أواخر القرن الاول. ولما نقم الناس على بني أمية لتعصبهم على غير العرب كان البربر في جملة الذين خرجوا عليهم وتطاولوا للفتك بهم . وقد سرهم ذهاب دولة الامويين ، ولكن ساءهم انتقالها الى الاندلس على مقربة منهم ، لانهم كانوا يكرهونهم للعصبية فنصروا العلويين نكاية فيهم — الا من اصطنعهم الاندلسيون بالمال ، وللبربر فضل كبير في نشر الاسلام في أواسط افريقية ، مثل فضل الاتراك في نشره في اواسط آسيا الى الهند والصين ، لأن البربر لما ثبت الاسلام فيهم نهضوا لفتح ما وراء بلادهم في أفريقية الغربية فنشروا الاسلام هناك .

فلما قامت الدولة الفاطمية في المغرب كان البربر من أنصارها ، لا سيا قبائل كتامة وهوارة وهما من قبائل صنهاجة فأخذوا بيد الفاطميين منذ قيامهم على أيام عبيد الله المهدي أول خلفائهم في أواخر القرن الثالث للهجرة . فلما تأيدت دولتهم اتخذ خلفاء الفاطميين بطانتهم منهم وجعلوهم من أهل الدولة وأول من فعل ذلك أبو عبد الله الشيعي ، وظلوا كذلك في خلافة ابنه القائم بأمر الله « سنة ٣٢٢ هـ » ثم المنصور بنصر الله « سنة ٣٣٤ هـ » ثم المعز لدين الله « سنة ٣٤١ هـ » وساعدوهم في تملك المغرب كله واخراجه من البيعة العباسية . وفي أيام المعز لدين الله فتح الفاطميون مصر وبنوا القاهرة ونقلوا دولتهم اليها .

فلما أفضت الخلافة الى العزيز بالله بن المعز سنة ٣٦٥ هـ ، أراد التشبه بالعباسيين فاصطنع الاتراك والديلم واستكثر منهم وقدمهم وجعلهم خاصته ، كأنه خاف على حياته من البربر . فقامت المنافسة بين البربر والاتراك وعظم التحاسد حتى توفي العزيز بالله وخلفه الحاكم بأمر الله سنة ٣٨٦ هـ وكان يقدر فضل البربر ، فقدمهم وقربهم فاشترطوا أن يتولى أمورهم ابن عمار الكتامي (من البربر) فولاه الوساطة وهي كالوزارة عندهم . فاستبد في

أمور الدولة وقدم البربر وأعطاهم وولاهم وحط من قدر الغلمان الاتراك والديلم الذين اصطنعهم العزيز . فاجتمعوا الى كبير منهم اسمه برجوان وكان صقلبياً وقد تاقت نفسه الى الولاية ، فأغراهم بابن عمار حتى وضعوا منه فاعتزل الوساطة وتولاها برجوان ، فقدم الاتراك والديلم واستخدمهم في القصر . ثم بدا للحاكم ان يقتل ابن عمار فقتله وقتل كثيراً من رجال دولة أبيه وجده ، فتضعضع البربر وقوي الاتراك .

ولما مات الحاكم وخلفه ابنه الظاهر لاعزاز دين الله سنة ٤١١ هـ أكثر من اللهو والقصف ومال الى الاتراك والمشارقة ، فانحط جانب البربر وما زال قدرهم يتناقص حتى كاد يتلاشى . فلما ملك المستنصر سنة ٤٢٧ هـ بعد الظاهر وكانت أمه أمة سوداء استكثرت في جنود ابنها من العبيد ابناء جلدتها ، حتى بلغوا ألف عبد أسود ، وكان هو يستكثر من الاتراك ، فأصبح الجند طائفتين كبيرتين تتنافسان وتتسابقان الى الاستئثار بالنفوذ ، وآل التنافس الى حرب شقيت بها مصر واضطر الخليفة الى استنصار رجال دولته في الشام ، فأتاه امير الجيوش بدر الجمالي من سوريا وهو أرمني الأصل فقتل الكثير من أهل الدولة وأقام بمصر جنداً من الأرمن ، وصار من حينئذ معظم الجيش منهم وذهب نفوذ البربر وصاروا من جملة الرعية ، ولم يبق لهم شأن في الدولة بعد ان كانوا وجوهها وأكابر أهلها [1] .

وكان السلاجقة في أثناء ذلك قد غلبوا على العراق وفارس ، وذهبت دولة آل بويه وضعف أمر الشيعة هناك ، وولى السلاجقة مماليكهم وقوادهم (الأتابكة) على الولايات ، واستقل كل منهم بولايته كما تقدم ، ومنهم نور الدين زنكي في الشام . وكان في جملة قواد نور الدين جماعة من شجعان الاكراد ، منهم نجم الدين أيوب وأخوه أسد الدين شيركوه ، وقد بلغا عنده منزلة رفيعة ، وكانت خلافة مصر قد أفضت سنة ٥٥٥ هـ الى العاضد بن يوسف،وكان ضعيف الرأي وقد غلب وزراؤه على دولته وتنافسوا على الاستئثار بالنفوذ، وطال تنافسهم حتى أخربوا البلاد والخليفة لا يستطيع عملاً .

وكان في جملة المنافسين وزير اسمه شاور ، قد غلب على أمره فذهب الى نور الدين زنكي واستنجده على رجل آخر كان ينافسه في الوزارة وهو ضرغام ، فاغتنم نور الدين تلك الفرصة للاستيلاء على مصر ، وأنجده بأسد الدين شيركوه في جند من المماليك ، فرد الوزارة الى شاور وصار هذا يدفع ثلث خراج مصر الى نور الدين .

---

١ – المقريزي ٢ ج ١٢ .

وكانت الحروب الصليبية في تلك الاثناء قد احتدمت ، فزاد تداخل نور الدين في شؤون مصر ونائبه فيها شيركوه ، ومعه ابن اخيه يوسف بن نجم الدين ، وهو صلاح الدين الأيوبي الشهير . ومات شيركوه بمصر سنة ٥٦٤ ﻫ فخلفه صلاح الدين في منصب النيابة وهي الوزارة .

وكان صلاح الدين من أهـــل المطامع الكبرى ، فلما قبض على أزمة النيابة ، وهي كالوزارة ، ورأى ضعف الخليفة أراد مصر لنفسه وليس لأميره نور الدين . فلمــا مات العاضد آخر الخلفاء الفاطميين، خطب صلاح الدين بالقاهرة للخليفة العباسي ونقل حكومة مصر من الشيعة الى السنة وقبض على أزمة الاحكام . واستفحل أمر الصليبيين في تلك الأيام فتولى صلاح الدين أمر حربهم وقام بأعمال لا يزال التاريخ يردد صداها الى اليوم ، أهمها استرجاع بيت المقدس ومد سلطته على الشام وغيرهــا . وأنشأ الدولة الايوبية ، وهي كردية الجنس سنية المذهب ، فعادت مصر الى ظل الدولة العبـــاسية من حيث البيعة فقط .

وعمد صلاح الدين ومن خلفه من أهله الى الاستكثار من المماليك والاتراك والجراكسة للجندية ، على جاري العادة في تلك الأعصر ، حتى اذا كثروا استبدوا بشؤون الحكومة وطمعوا في السلطة . فلمـــا ضعف أمر الدولة الأيوبية قبضوا هم على أزمة الحكومة وأنشأوا بمصر دولتين ، عرفتا بدولتي السلاطين المماليك وهما المماليك البحرية والمماليك البرجية ، حكمت الأولى من سنة ٦٤٨ — ٧٩٢ ﻫ والثانية من سنة ٧٨٤ — ٩٢٣ ﻫ وكانتا تبايعان للخليفة العباسي وهو مقيم في بغداد . فلما جاء التتر وفتحوا بغداد سنة ٦٥٦ ﻫ وقتلوا الخليفة (المستعصم) فر من بقي من بني العباس ، والتجأوا الى سلاطين مصر على عهد الملك الظاهر بيبرس فاختار واحداً منهم قلده الخلافة وبايعه ، وبهذا انتقلت الخلافة العباسية الى القاهرة ، وظل خلفاء العباسيين والبيعة لهم حتى جاء السلطان سليم الفاتح العثماني وفتح مصر سنة ٩٢٣ ﻫ. وكان الخليفة العباسي عامئذ المتوكل على الله آخر خلفائهم ، فبايع للسلطان سليم وسلم اليه الآثار النبوية ، فانتقلت الخلافة من العباسيين الى العثمانيين من ذلك الحين .

العَصر المغُولي أو التَتَري

انحلال الدولة الاسلامية

من قيام جنكيزخان سنة ٦٠٣ هـ حتى وفاة تيمورلنك سنة ٨٠٧ هـ

قد رأيت فيما تقدم ان الدولة العباسية ، لما فسدت أحكامها وضعف شأن خلفائها واستبد بها جندها وخدمها ، ضعفت علاقة أطراف مملكتها بدار الخلافة ، فتفرعت الى فروع بعضها فارسي وبعضها تركي او كردي والبعض الآخر عربي ، وكلها تبايع للخليفة العباسي في بغداد ، حتى نشأت الدولة الفاطمية في المغرب وخلافتها علوية ، ففتحت مصر ونازعت الدولة العباسية على الشام وغيرهـا ، ثم اصابها ما اصاب تلك فمالت الى الشيخوخة مثلها ، ولكنها انقرضت قبلها على يد صلاح الدين الايوبي ، وعادت مصر الى مبايعة العباسيين .

على ان الخلافة العباسية كانت يومئذ قد بلغت منتهى الضعف ، واستبد السلاجقة بمملكتها في الشام والعراق وفارس وما وراء النهر حيناً ، ثم اقتسمها مماليكهم الأتابكة كما تقدم .

فانقضى القرن السادس للهجرة والمملكة الاسلامية قد تولاها الضعف والانقسام ، ولا سيما في المشرق بمن تنازع على سلطتها من الأتراك قواد السلاجقة ومماليكهم ، وأهمهم الخوارزمية في خراسان وتركستان ، والخلافة العباسية قد تناهت في الضعف وبلغت الهرم ، حتى اشرفت على الانحلال ، وانما استبقاها اصحاب الاطراف ليستعينوا بهـا على تأييد سلطانهم بالبيعة . واصبحت مملكتهم الواسعة تتنازعها ثلاث أمم ، كأنهم اقتسموها فيما بينهم ، وهم : (ا) الاتراك السلاجقة وقوادهم في المشرق (ب) والاكراد الأيوبية في مصر والشام (ج) والبربر في المغرب والاندلس (الموحدون) . وقد ذهبت دولة العرب ذهاباً تاماً الا امارات صغيرة بقيت في اليمن ونحوها . وهذه الدول على اختلاف اجناسها واطوارها مجمعة على مبايعة الخليفة العباسي في بغداد على ضعفه وانحلال دولته ، ولكنها تختصم على الاستئثار بالسلطة في العالم الاسلامي .

فلما رأى أعداء الدولة الاسلامية المحيطون بها ضعفها وانقسامها عمدوا الى الانتقام منها فأغاروا عليها من الشمال والغرب والشرق وكل منهم يريد اغتيالها . فهاجمها الكرج والأرمن واللان من الشمال هجوم الغزاة للسلب والنهب ، حتى انهم كثيراً ما كانوا يدخلونها بعشرات الالوف فيكتسحون اذربيجان وما جاورها ، يقتلون وينهبون ويعودون بالأسرى والسبايا والغنائم ، وكانت سبايا المسلمين تزيد احياناً على عدة آلاف غير القتلى[١] – كما كان العرب يفعلون في أوائل دولتهم . على انهم لم يستطيعوا فتحاً ولا رسخت لهم قدم في مملكة الاسلام .

وهجم عليها من الغرب أمم الافرنج الصليبيين هجوم الفتح ، وقد تكاتفوا لاكتساح المملكة الاسلامية بحجة الدين لان القبر المقدس فيهـــا ، ففتحوا فلسطين وبعض سوريا وملكوا بيت المقدس حينـــاً ، ولو اجتمعت كلمتهم لافتتحوا ما وراء ذلك ، ولكنهم انقسموا على أنفسهم وجاءهم صلاح الدين الايوبي ببسالته ودهائه وتدبيره،فغلبهم على ما في ايديهم واخرجهم من بيت المقدس سنة ٥٨٣ هـ فضعف أمرهم واخذ المسلمون يستعيدون البلاد منهم شيئاً فشيئاً ، حتى أزالوهم من الشام تماماً على ايام الناصر قلاوون .

أما من الشرق فجاءها التتر او المغول بقبائلهم وبطونهم ، وهم في خشونة البداوة وقوة الأبدان ، وقد توفقوا الى رجل شديد البطش وهو جنكيزخان القائد الشهير ، فحمل بهم من أواسط آسيا على العـالم المتمدن في أوائل القرن السابع للهجرة ، وليس للمسلمين يومئذ رجـــل مثل صلاح الدين ، فدوخ جنكيزخان مملكة الاسلام من أقصى أطرافها الشرقية الى حدود العراق ، غير ما افتتحه من بلاد الهند والصين حتى بلغت مساحة مملكته ٤٠٠٠٠٠٠ ميل مربع .

المغـــول

المغول او المغل قبيلة من التتر كانت تقيم حوالي بحيرة بيقال (او بيكال) في جنوبي سيبيريا ، وتاريخهم القديم سقيم ، لأنهم لم يظهروا الا بظهور جنكيزخان في أوائل القرن السابع للهجرة ، وكانوا قبله مثل سائر القبائل الرحل ، يعيشون بالغزو والنهب والصيد

---

١ – ابن الاثير ١٢٨ ج ١١ .

والقنص في تلك البلاد البعيدة عن التمدن ، وقد كفوا الناس خيرهم وشرهم ولا شأن لهم بين الأمم ، لأنهم كانوا لا يزيدون على ٤٠٠٠٠٠ خيمة ، فاذا حسبنا في الخيمة عشر أنفس لم يزد عددهم على ٤٠٠٠٠٠٠ نفس ، فلما كانت ايام جنكيزخان حمل بهذا العدد القليل من بدو المغول على ما يحيط ببلادهم من الممالك العامرة واكتسحوها في بضعة عشر عاماً ، كما خرج بدو العرب في أول الاسلام وافتتحوا مملكتي الروم وفارس في نحو تلك المدة . وفي الحالين كان النصر للبداوة على الحضارة ، لان المسلمين كانوا في ايام جنكيزخان قد تحضروا وانغمسوا في الترف وانقسموا على انفسهم كما كان الروم والفرس عند ظهور الاسلام — والتاريخ يعيد نفسه .

جنكيزخان

كان والد جنكيزخان اميراً على ١٣ قبيلة من المغول ، تحت رعاية الخان الاكبر ملك التتر بعهود متبادلة بينهما . ولد جنكيزخان سنة ٥٤٨ﻫ فسموه تموجين وهو اسمه الذي كان يعرف به في نشأته الأولى . وبعد اربع عشرة سنة توفي أبوه فاستخف رؤساء القبائل بتموجين وتمردوا عليه ،واصبح كل منهم يطالب بالسيادة لنفسه .وكان تموجين شديد البطش من حداثته ، فجمع رجاله وحارب الثائرين وتغلب عليهم ، وهذه أول وقائعه فهابه الناس ، على انه لم يستغن عن استنجاد الخان الأعظم ، فأنجده وأكرمه وثبته في امارة ابيه وزوجه ابنته .

وكان تموجين قد شب على ظهور الخيل وتعلم رمي النشاب وضرب السيف وأتقن الفروسية بسائر فروعها ، وكان قوي البدن شجاعاً صبوراً على التعب والجوع والعطش والبرد والألم ، وعود رجاله على ذلك فاجتمعت كلمتهم على نصرته وانقادوا لأمره .

ولما علت منزلة تموجين عند الخان هاجت عوامل الحسد في اعضاء اسرته وغيرهم من رجال الدولة ، وكان تموجين قد أغرى الخان بأولئك الأمراء فضيق الخان عليهم ، فأوغرت صدورهم فثاروا عليه وشقوا عصا الطاعة وحاربوه وغلبوه ، فاستنجد تموجين فأنجده وأعاده الى كرسيه ومثل بأعدائه ، حتى القى سبعين رجلاً منهم في الماء الغالي وهم أحياء .

فلما ظفر تموجين وأظهر القسوة والشدة خافه حموه وحسده ، وأدرك تموجين ذلك فسعى في اصلاح ما بينهما بالحسنى فلم ينجح ، فعزم على محاربته فتحاربا فانتصر تموجين فخافه الأمراء وحسدوه وحاربوه وكان الفوز له ، فتولى عرش المغول .

وحارب تموجين بعد ذلك حروباً فاز فيها ، فازداد أمراؤه تعلقاً به واحتفلوا بتهنئته احتفالاً عظيماً في سهل على ضفاف سلنكا ، فاجتمع الامراء والخانات فوقف فيهم خطيباً وكان قوي العارضة فأبدع . ثم جلس على لبادة سوداء فرشوها له هناك ، وأصبحت تلك اللبادة أثراً مقدساً عندهم من ذلك الحين . ثم وقف بعض الحضور وكان من اهل التقوى والنفوذ فقال : « مهما بلغ من قوتك فانها من الله ، وهو سيأخذ بيدك ويشد أزرك فاذا فرطت في سلطانك صرت اسود مثل هذه اللبادة ، ونبذك رجالك نبذ النواة » . وفي هذا القول من حرية البداوة والجرأة مثل ما يروونه عن جرأة العرب على خلفائهم وأمرائهم في صدر الاسلام . ثم تقدم سبعة أمراء أنهضوه باحترام ، وساروا بين يديه حتى أقعدوه على عرشه ، ونادوا باسمه ملكاً على المغول . وكان في جملة الحضور شيخ يعتقدون فيه الكرامة والقداسة ، فتقدم وليس عليه كساء وقال : « يا اخوتي ، قد رأيت في منامي كأن رب السماء على عرشه الناري تحدق به الأرواح ، وقد أخذ في محاكمة اهل الأرض ، فحكم بأن يكون العالم كله لمولانا تموجين ، وان يسمى جنكيز خان اي الملك العام » . ثم التفت الى تموجين وقال : « لبيك ايها الملك ، فانك تدعى منذ الآن جنكيزخان بأمر الاله » . ولم يعد يعرف بعد ذلك الا بهذا الاسم .

فلما تهيأ له تأسيس دولته وتدريب جنده ، عمد الى فتح العالم فسار أولاً نحو الشرق الى مملكة الصين ، وكان لامبراطور الصين جزية على المغول يؤدونها كل سنة ، فلما استفحل أمر جنكيزخان أبى الدفع ، ومعنى ذلك الاباء اشهار الحرب . فحمل جنكيزخان بجيشه على الصين واخترق سورها العظيم ، وأمعن فيها قتلاً ونهباً ، والصينيون يومئذ اسبق الأمم في الاختراعات الحربية ، فاستخدموا النار اليونانية التي استعان بها اليونان على دفع العرب وقذفوا على المغول كرات فيها البارود قبل ان يعرفه الغرب بأزمان . على ان ذلك لم يكن ليرد غارات تلك القبائل ، فما زال جنكيز خان زاحفاً حتى احتل بكين عاصمة الصين وسائر بلادها الشمالية . فازداد ذلك الفاتح رغبة وقوة ، فتحول بجنده الجرار نحو الغرب أي غربي بلاده وهي مملكة الاسلام .

وكانت المملكة الاسلامية بما وصفناه من الضعف والاختلال ، وقد انقسمت الى عدة ممالك كردية وتركية وفارسية ، واقربها من بلاد المغول المملكة الخوارزمية من السلاجقة والاتراك ، وسلطانها يومئذ علاء الدين خوارزمشاه ، وكانت سلطة علاء الدين قد امتدت في اواخر ايامها على معظم العراق العجمي وسجستان وكرمان وطبرستان وجرجان

وبلاد الجبال وخراسان وفارس وما وراء النهر وقسم من افغانستان وبعض الهند . وكانت قصبة تلك الدولة مدينة خوارزم ، ومنها سمي سلطانها « خوارزم شاه » ، فحمل جنكيز خان نحو الغرب وجنده يزيد على ٧٠٠,٠٠٠ مقاتل ، واكتسح تركستان وما وراءها ، واوغل فيها قتلا ونهباً مما تقشعر له الابدان .

ومما حمله على ارتكاب الفظائع ، انه لما وصل بجنده الى تركستان سير جماعة من التجار الاتراك ومعهم الذهب الى سمرقند وبخارى من بلاد ما وراء النهر (تركستان) ليشتروا له ثيابا للكسوة ، فوصلوا الى مدينة من بلاد الترك اسمها اترار وهي آخر مملكة خوارزمشاه مما يلي بلاد جنكيز خان . وكان لخوارزمشاه هناك نائب ، فلما جاءته هذه الطائفة من التتر ارسل الى خوارزمشاه يعلمه بوصولهم وبذكر ما معهم من الاموال ، فبعث خوارزمشاه يأمر بقتلهم واخذ ما معهم وانفاذه اليه . فقتلهم وسير ما معهم وكان شيئاً كثيراً ففرقه خوارزمشاه في تجار بخارى وسمرقند وأخذ ثمنه منهم . وعذره في هذه المعاملة ان المغول كانوا قد غزوا كاشغار وبلاساغون وغيرهما من تركستان ، وصاروا يحاربون عساكره ، فلذلك منع الميرة عنهم .

فلما قتل نائب خوارزمشاه اصحاب جنكيز خان ، حمي غضبه وجمع من الرجال فوق ما كان عنده وحمل على مملكة الاسلام ، وكتب الى علاء الدين خوارزمشاه يقول : «تقتلون أصحابي وتأخذون اموالهم ؟ . تهيأوا للحرب . فاني قادم اليكم بجمع لا قبل لكم به » . فلما قرأ خوارزمشاه الرسالة قتل الرسول وأمر بحلق لحى الجماعة ، واعادهم الى جنكيز خان يخبرونه بما فعل بالرسول ويقولون له : « ان خوارزمشاه يقول لك : انا سائر اليك ولو انك في آخر الدنيا ، حتى انتقم وافعل بك كما فعلت بأصحابك » - فاستخف خوارزمشاه بالمغول كما استخف هرقل بالعرب اذ جاءته كتبهم في اوائل الاسلام .

وقد فعل جنكيز خان كما قال تماماً ، فزحف بعساكره على المملكة الاسلامية فدوخوها من بلاد تركستان فما وراءها غرباً ، وهم ينتقلون من مدينة الى اخرى يفتكون وينهبون ويحرقون ويهدمون ، لا يخلفون وراءهم إلا الاطلال البالية مما لم يسبق له مثيل في تاريخ الانسان . وهنا يفترق بدو المغول عن بدو العرب ، فان هؤلاء ابقوا على البلاد التي فتحوها وأمنوا اهلها وجعلوهم في ذمتهم ، واقتبسوا تمدنهم وبنوا عليه تمدناً من عند أنفسهم . وأما المغول فلم يكن همهم غير القتل والنهب كالوحوش الكاسرة ، وليس هنا

محل الافاضة في سيرة هذا الرجل[1] وانما يقال بالاجمال انه تمكن في حياتـــه من انشاء مملكة لم يتوفق لمثلها احد من الفاتحين قبله ولا بعده ، لا الاسكندر المقدوني ولايوليوس قيصر الروماني ولا نادرشاه الفارسي ولا نابليون بونابرت الفرنسي أنشأ مملكة تمتد من البحر المحيط الى البحر الاسود ، ودخل في سلطانـــه ملايين من الصينيين والتنكوت والافغان والهنود والفرس والاتراك وغيرهم .

أنشأ جنكيز خان هذه المملكة الواسعة وهو لا يعرف الكتابة ولا القراءة ، وكذلك معظم رجاله ،فاستعان في وضع الشرائع والنظام بمن دخل في سلطانه من المسلمين ورعاياهم ، كما استعان العرب في إنشاء دولتهم أول الاسلام بالفرس والروم وغيرهم ، وقد توفي جنكيز خان سنة ٦٢٤ هـ وهو في السادسة والسبعين من عمره بعد أن حكم ٢٢ سنة .

وبعد وفاته اقتسم أولاده مملكته على عادة المغول في هذه الحالة ، باعتبار أن البلاد ملكه فيورثها لأعقابه فيقتسمونها كما يقتسمون سائر أمواله ، فانقسمت مملكة المغول بعده الى أربعة فروع تفرقت في أولاده الأربعة ، ثم تفرع كل منها الى غير فرع مما يطول شرحه ، فنكتفي بذكر ما يهمنا منها :

إن أولاد جنكيز خان الذين أفضت الحكومة اليهم أربعة : أقطاي وطلوي وجوجي وجقطاي ، فانقسمت المملكة فيما بينهم على ما يأتي ، ويعرف ملوكها بالخاقانات وهم :

١	دولة أقطاي في زنقاريا وغيرها	من سنة ٦٠٣ — ١٠٤٣ هـ	
٢	« طلوي في بلاد المغول	« « ٦٥٤ — ٧٥٠	
٣	« جوجي في بلاد القفجاق وغيرها	« « ٦٢١ ٩٠٧	
٤	« جقطاي في ما وراء النهر	« « ٦٢٤ — ٧٦٠	

فالدولة الأولى (أقطاي) كانت لها السيادة العظمى ، وأول ملوكها جنكيز خان نفسه ولا يهمنا تاريخها في هذا المقام . أما الدولة الثانية فيهمنا من فروعها فرع له شأن في تاريخ الاسلام ، نعني به فرع « هولاكو » وهو ابن طولوي بن جنكيز خان ، تولى بعض المقاطعات في مملكة أبيه واستقل بها وملك فارس سنة ٦٥٤ هـ ، وعرفت دولته فيهـــا بدولة إيلخان أو مغول الفرس ، وكان في بلاد فارس بقايا مملكة خوارزمشاه فضمها اليه ،

---

١ — راجع الهلال السادس من السنة الثالثة عشرة .

وأقدم على ما لم يقدم عليه أحد من أسلافه وذلك أنه لما استقر له الملك في فـارس حمل على بغداد .

هولاكو وسقوط بغداد

والسبب في ذلك أن المنافسات بين السنة والشيعة في بغداد تكررت في أواخر الدولة، فلا تمضي سنة لا يقع فيهـا بين الطائفتين قتال تتوسط الحكومة في إصلاحه ، وبمـا أن الحكومة سنية فالضغط كان يقع غالباً على الشيعة ، وكانوا يقيمون معـاً في الكرخ ببغداد وهم صابرون على ما يكابدونه من الاضطهاد ، والحكومة مع ذلك توليهم مصالحهـا وتعهد اليهم بتدبير شؤونها. وكان الخليفة في أيام هولاكو المستعصم بالله ، تولى الخلافة سنة ٦٤٠هـ، وكان ضعيف الرأي ووزيره رجل من الشيعة اسمه مؤيد الدين بن العلقمي ذو دهاء ومكر. فـاتفق وقوع فتنة بين السنة والشيعة على جاري العادة ، وكان للخليفة ولد اسمه أبو بكر شديد العصبية على الشيعة ، فاستعان بقـائد الجند (الدوادار) وأمر العسكر أن يفتكوا بالشيعة ، فهجموا على الكرخ وهتكوا النساء وركبوا منهن الفواحش ، فعظم ذلك على الوزير ابن العلقمي ولم يعد يستطيع صبراً ، فكتب الى هولاكو سراً وأطمعه في ملـك بغداد ، وأرسل اليه أخاه ليحرضه على القدوم ، فزحف هولاكو على بغداد بجيش عظيم . فلما علم الخليفة المستعصم بقدومهم ، بعث الدوادار فيمن بقي ببغداد من الجنـد وهم لا يزيدون على ٢٠٫٠٠٠ مقاتل ، فالتقى الجيشان على مرحلتين من بغداد فانهـزم عسكر الخليفة وتشتت .

أما هولاكو فأقبل حتى نزل الجانب الشرقي من بغداد ، وأرسل قائداً من قواده نزل الجانب الغربي قبالة دار الخلافة ، والمستعصم لا يعلم بما دبره ابن العلقمي ، فأنفذه لمخابرة هولاكو بشأن الصلح ، فكمل مكيدته وعاد وقال للخليفـة : « إن هولاكو يبقيك في الخلافة كما فعل بسلطـان الروم ، ويريد أن يزوج ابنته من ابنك أبي بكر » . وحسن له الخروج الى هولاكو ، فخرج اليه في جمع من أكابر أصحابـه ، فأنزلهم في خيمة ، ثم استدعى الوزير الفقهاء والأماثل ، فاجتمع هنـاك جميع سادات بغداد . فلما اجتمعوا أمر هولاكو بقتلهم فقتلوا ، ثم بذلوا السيف في بغداد ، وهجموا على دار الخلافة وقتلوا كل من كان فيها من الاشراف ، إلا الاطفال فأخذوهم في جملة الاسرى والسبي . ودام القتل والنهب في دار السلام اربعين يوماً ، ثم نودي بالأمان ودخلت بغداد في سلطة هولاكو سنة ٦٥٦ هـ وذهبت الخلافة العباسية من العراق على يد الشيعة العلوية ، كما كان يخاف ذهابها

المنصور والمهدي والرشيد ، وقد نكبوا وزراءهم وقوادهم خوفاً من ذلك . على ان الخلافة العباسية لم تنقرض تماماً ، بل انتقل من بقي من العباسيين بعد مذبحة هولاكو الى مصر ، واقاموا في ظل السلاطين المماليك كما تقدم .

أما هولاكو فلما ملك عاصمة الاسلام في ذلك العهد طمع في فتح ما وراءها ، فحمل على الشام وكانت في حوزة السلاطين المماليك بعد الدولة الايوبية فردوه عنها ، فقنع بما دخل في حوزته ، وقد امتدت مملكته من الهند الى الشام واورثها لاولاده ، فانقضت دولته ولم يتم عليها القرن « ٦٥٤ — ٧٥٠ هـ » وانقسمت الى ولايات صغيرة ما زالت في اضطراب وتضعضع حتى اخضعها تيمور لنك .

تيمورلنك

ينسب هذا القائد العظيم الى دولة جنكيز خان . وليس هو من نسله ولكنه من عائلته ، وكان جده وزيراً عند جقطاي بن جنكيز خان . ولد تيمور سنة ٧٣٦ هـ ، ولما ترعرع تولى بعض الاعمال في دولة اقطاي في ما وراء النهر ثم ترقى الى رتبة الوزارة فطمع في الملك ، فغلب على ملكه محمود وحمل على العالم كما حمل جنكيز خان قبله ، ففتح بلاد فارس بعد حروب كثيرة سفكت فيها دماء غزيرة ، ولم تمض سبع سنوات حتى دوخ خراسان وجرجان ومازندران وسجستان وافغانستان وفارس واذربيجان وكردستان ، ثم جاء العراق فاستخرج بغداد من الجيلارية وكانوا قد تملكوها بعد هولاكو ، ثم حول أعنة خيوله شرقاً نحو الهند ، فغزا كشمير ودلهي ، وتحول غرباً لفتح آسيا الصغرى وكانت في حوزة العثمانيين وسلطانهم يومئذ بايزيد ، فبلغ تيمور لنك في فتوحه الى انقرة وحارب بايزيد واسره سنة ٨٠٤ هـ واكتسح سائر بلاد المشرق الى آخر حدود الشام ، وبايعه سلاطين مصر على الطاعة ، فتحول لمحاربة الصين فمات في الطريق سنة ٨٠٧ هـ قبل ان ينظم حكومته ، فذهبت فتوحه هدراً فعادت البلاد التي فتحها الى ملوكها الاولين ، وعادت الاحوال الى ما كانت عليه قبله . على ان الدولة التيمورية طال حكمها في ما وراء النهر الى سنة ٩٠٦ هـ ، وبوفاة تيمورلنك ينقضي العصر المغولي ، وبانقضائه ينقضي الدور الاول من تاريخ الاسلام .

الدور الثـــاني

من ظهور الدولة العثمانية ولا يزال

قد رأيت ان المغول لم ينشئوا دولة ثابتة في بلاد الاسلام ، ولم يكن لهم شأن في التمدن الاسلامي ، وانما علاقتهم بهذا التمدن انهم جاءوه والدولة الاسلامية في آخردورها الاول ، وفي منتهى التضعضع والضعف بمن حمل عليها من الافرنج والكرج والارمن واللان ، فزادوها ضعفاً وذهبوا ببقية الخلافة العباسية في بغداد ، وعادوا عنها وهي تكاد تكون في حال الاحتضار ، وقد تبدد شملها وليس فيها دولة حية تجمع شتاتها ، على ان ذلك كان مقدوراً للدولة العثمانية في العصر التركي الثاني ، ولدولة شاهات الفرس في العصر الفارسي الثاني ، ويتألف منهما الدور الثاني من تاريخ الاسلام . فعاد التتر عن المملكة الاسلامية في اوائل القرن التاسع للهجرة ، ومصر في حوزة السلاطين المماليك يتنازعون على السلطة ويتخاصمون على الكسب . والشام بعضها في ايدي اولئك المماليك ، وبعضها في ايدي بعض اعقاب الايوبيين ، حتى يكاد يكون كل بلد مستقلا بنفسه . والعراق وبلاد الفرس وما بين النهرين يتنازع عليها الايلخانية والجيلارية والمظفرية والقراقيونلية والتيمورية وغيرهم . وما وراء النهر وافغانستان في سلطة المغول التيمورية . وآسيا الصغرى يتنازعها العثمانيون وبقايا السلاجقة . وسائر بلاد المشرق يختصم عليها بقايا التتر او بقايا الاتابكة . وشمالي افريقيا كان منقسما بين المرينية والحفصية . والاندلس لم يبق منها في سلطة المسلمين إلا الدولة النصرية في غرناطة . وجزيرة العرب تحكمها امارات صغيرة تتحارب وتتعادى . وهذه الدول مع ضعفها واختلال احوالها تجمعها خلافة اضعف منها ، هي بقية الخلافة العباسية في الديار المصرية .

تلك كانت حال العالم الاسلامي من الاضطراب والتضعضع عند تغلب الدولة العثمانية ، فجاءت في ابان الحاجة اليها فافتتحت القسطنطينية ، وقد يئس المسلمون من فتحها بعد ان حاولوه مراراً . وحارب العثمانيون اعظم ملوك اوربا وطاردوهم الى بـــلاد المجر ،

وحاصروا فينا عاصمة النمسا واخذوا الجزية من الارشيدوق فردينان ، واكتسحوا البحر الابيض الى شواطىء اسبانيا ، فارتعدت اوربا خوفاً منهم ، وفتحوا المشرق الى العراق، ثم ساروا جنوباً غربياً حتى فتحوا الشام ومصر ، وفيها بقية الدولة العباسية ، فتنازل العباسيون لهم عن الخلافة كما تقدم . فامتدت مملكتهم في ايام السلطان سليمان « سنة ٩٢٦–٩٧٤ هـ » من بودابست على ضفاف الطونـــة الى اسوان على ضفاف النيل ، ومن الفرات بالعراق الى مضيق جبل طارق ، فاجتمع العالم الاسلامي الغربي تحت جنـــاح الدولة العثمانية . وكان اجتماع الخلافة والسلطة فيها سبباً لطول بقائها اكثر مما تقدمها من الدول الاسلامية . حتى العباسيين مع طول مدة ملكهم، لان سلطتهم اصبحت بعد القرن الثالث من انشاء دولتهم اسماً بلا رسم .

ونهض الصفويون من الجهة الاخرى في بلاد فارس وبين النهرين فأنشأوا دولة شيعية كبرى ، ثم انتقلت الى الدولة القاجارية وجمعت البلاد الشيعية كما جمعت الدولة العثمانية البلاد السنية .

تاريخ التمدن الإسلامي

تأليف

جرجي زيدان

الجزء الخامس

منشورات دار مكتبة الحياة
بيروت - لبنان

مقدمة

هذا الجزء الخامس من تاريخ التمدن الاسلامي هو آخر أجزاء الكتاب . فنحمد الله لأننا وفقنا الى إتمام هذا العمل الشاق ، مع ما يعتوره من العقبات ويحتاج اليه من اعمال الفكرة والمراجعة لما توخيناه فيه من التحقيق والتدقيق ، ولا سيا بعد أن عمدنا الى ذكر المراجع في هوامش الصفحات ،مع الإشارة الى الكتاب والجزء والصفحة من كل منها . ولا يخفى ما يقتضيه ذلك من التيقظ والتعب في ضبطه والتوفيق بين أجزائه . ولكنه أعاننا من الجهة الأخرى على الإيجاز في بعض الأماكن ، اكتفاء بالإشارة الى خلاصة الموضوع وإحالة القارىء في استيفائه الى المصدر الأصلي لئلا يخرجنا ايراده الى التطويل .

على ان كثرة الموضوعات وتعدد فروعها وتداخلها ، قد حملنا أحياناً على ايراد بعض النصوص في جزء مع ورودها في جزء آخر قبله . وإنما فعلنا ذلك رغبة في استيفاء الأدلة وإحكام البرهان، بتنسيق المقدمات ونتائجها وتفادياً من ارجاع القارىء الى بعض الأجزاء السابقة ، وإن كنا لم نعمد الى هذا التكرار الا عند الضرورة ، لأن وجهتنا الأولى في كتابتنا إنما هي بسط العبارة وإيضاح الموضوع ، حتى ينجلي للقارىء كأنه مجسم . على اننا كثيراً ما أحلنا المطالع الى مراجعة ما سبق ذكره في أماكنه .

والجزء الذي نحن بصدده أكثر سائر الأجزاء طلاوة وأقربها الى أفهام المطالعين على اختلاف طبقاتهم وتفاوت معارفهم ، لأنه يبحث في مثل ما ألفوه من العادات والآداب مما تلذ مطالعته وتتوق النفس الى معرفته ، من الأبحاث الاجتماعية والموضوعات العمرانية والأحوال العائلية ، مما يريده الناس عادة بقولهم « حضارة » أو « مدنية » ، وهو في الحقيقة بعض ظواهرهما على ما تبين لك في الأجزاء السابقة .

فموضوعات هذا الجزء سهلة على المطالع ، ولكنها شاقة على المؤلف ، لخلو كتب القوم من أمثالها على الأسلوب الذي تطلبناه في هذا الكتاب . ولو بحثت فيما كتبه اسلافنا في التاريخ والأدب والعلم وغيرها ، ما رأيت لأحدهم فصلاً ولا جملة ولا فقرة في نظام الاجتماع

مثلاً أو طبقات الناس أو الآداب الاجتماعية او الحضارة او الأبهة ، الا ما قد يرد عرضا في أثناء النوادر او الحكم او التراجم او الوقائع مما استعنا به في الاستدلال على بعض الحقائق المذكورة .

وأبحاث هذا الجزء تنتظم في اربعة ابواب كبرى :

(١) نظام الاجتماع .

(٢) الآداب الاجتماعية .

(٣) حضارة المملكة .

(٤) أبهة الدولة .

فنظام الاجتماع أساسه طبقات الناس ، ولذلك قدمنا الكلام بفصول في طبقاتهم قبل الاسلام في جزيرة العرب وما يحدق بها من البلاد العامرة في الشام والعراق ومصر وفارس وأفريقية ، ثم طبقاتهم بعد الاسلام وما طرأ عليها من التغيير في أيام الراشدين فالامويين فالعباسيين . وبسطنا الكلام في نظام الاجتماع في العصر العباسي . فقسمنا الناس الى طبقتين كبيرتين : الخاصة والعامة ، وجعلنا الخاصة أربع طبقات : الخليفة ، وأهله ، وأهل دولته ، وأرباب البيوتات . وأضفنا الى الخاصة طوائف من الناس يصح الحاقهم بها سميناهم « أتباع الخاصة » وهم : الجند ، والاعوان ، والخدم . ويدخل في طائفة الخدم : العبيد ، والجواري ، والخصيان . وبينا ما كانت عليه كل طبقة او طائفة في عهد ذلك التمدن .

وجعلنا العامة طبقتين كبيرتين : الاولى المقربون وهم فئة من العامة سمت بهم قرائحهم او هممهم الى اللحاق بالخاصة ، كأصحاب الفنون الجميلة وأهل الادب والشعر والغناء وأرباب التجارات الثمينة والصناعات العليا .. وذكر ما كان يكتسبه هؤلاء من الأموال المتدفقة من خزائن الدولة . وأما الطبقة الثانية من العامة فهم معظم الأمة ، وينقسمون الى فئتين : الأولى أهل القرى وهم السواد الأعظم ، والثانية عامة اهل المدن وهم اكثر سكانها ، ويتعاطون الصناعات اليدوية والتجارات الصغرى ، وبينهم طوائف العيارين والشطار والمخنثين وغيرهم ، وذكرنا تاريخ كل منها .

وأما الآداب الاجتماعية فصدرناها بتمهيد في تاريخها من زمن الجاهلية ، فذكرنا مناقب

البدو كالعصبية والانفة والوفاء والسخاء والنجدة والأريحية والعفة ، وكيف تسرب الفساد الى هذه المناقب تدريجاً بتقدم القوم في معارج الحضارة ، وذكرنا الاسباب التي بعثت على تبديل بعضها في عصر الراشدين فالامويين الى العصر العباسي . وبسطنا الكلام في آداب هذا العصر بسطاً وافياً ، لأنه هو المراد في هذا الباب ، فقسمنا الكلام فيه الى فصول في العائلة ونظامها وما يتخلل ذلك من حال المرأة العربية . فبينا عفتها وانفتها في الجاهلية وأوردنا أمثلة ممن اشتهرن فيها بالشجاعة والحزم والرأي ، وكيف تبدلت أحوالها في عصر الترف بما أدخله عليها الرجل من الجواري والسراري ، حتى ذهبت الغيرة ونشأ سوء الظن فحبسها وضيق عليها . وأفردنا فصلاً لأسلوب الارتزاق في عهد ذلك التمدن بالسخاء المتسلسل على سنة العرب . وجعلنا كلامنا في المعيشة العائلية فصولاً في الطعام واللباس والمأوى ، فأجملنا تاريخ كل منها في أيام الجاهلية وما أحدثه فيه ذلك التمدن .

ثم أتينا الى الباب الثالث من هذا الجزء وهو حضارة المملكة ، فقسمناه الى قسمين : اولها العمارة او العمران ، وثانيها الثروة والرخاء . والعمارة أما في المدن أو في القصور . فأتينا بأمثلة من عمارة أهم المدن الاسلامية ، وأشهر القصور والمباني في دمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة وغرناطة وغيرها . اما الثروة فيدور الكلام فيها على ابحاث في ثروة الخلفاء والامراء وما تقتضيه من التأنق في الطعام والتنعم باللباس والتزين بالأثاث والرياش والجواهرات ونحوها .. ثم القصف وما يلابسه من التسري وعقد مجالس الغناء والشراب . ثم السخاء وقد نظرنا فيه من ايام الراشدين الى العباسيين ، وكيف تدرج القوم في مقدار الصلة ونوعها . ويتخلل ذلك فصول في الغناء وتاريخه من الوجهة الاجتماعية والأدبية ، والمسكر وخلاصة أقوالهم في تحريمه وتحليله وتاريخ انتشاره وانغماس الخاصة فيه ، فضلاً عن العامة وما نتج عن ذلك من التهتك والاسراف والفحشاء .

أما أبهة الدولة فجعلنا مدار الكلام فيها على الخلفاء وأحوالهم ، من سذاجة الراشدين وتقشفهم الى بذخ العباسيين وأبهتهم . وقسمنا البحث في هذا العصر الى فصول عديدة في مجالس الخلفاء ومواكبهم واحتفالاتهم وعلاقاتهم بالدول المعاصرة وملابسهم وألعابهم وملاهيهم . ويتفرع القول في مجالسهم الى المجالس العامة ومجالس الادب والغناء والمناظرة وغيرها . فوصفنا المجلس وفرشه ومراتب الجلاس فيه وشروط الاستئذان في الدخول

والتحية وآداب المجالسة وعلامة الصرف ونحو ذلك . وقسمنا ملاهيهم الى فصول في الصيد والسباق والكرة والصولجان ورمي البندق وارتباط السباع وغيرها .

وذيلنا هذا الجزء بجدول أسماء الكتب التي ذكرت في هوامش الأجزاء الخمسة مع اسم المؤلف وسنة نشر الكتاب ومحل طبعه ، فضلاً عن فهرس هذا الجزء .

وقد بذلنا الجهد في تحري الحقيقة وتوخينا الانصاف والاخلاص بما يبلغ اليه الامكان ، فان أحسنا فذلك قصدنا وأقصى مرادنا ، وان أسأنا فعن غير عمد منا وما العصمة الا لله وحده .

نظام الاجتماع

نظام الاجتماع في المملكة الاسلامية

موضوع هذا الباب النظر في حال الهيئة الاجتماعية في ابان التمدن الاسلامي ، وبيان الجماعات التي كانت تتألف منها طبقاتهم وعلاقاتهم بعضها ببعض . ولزيادة الايضاح نمهد بالكلام عن نظام الاجتماع على عهد الروم والفرس في البلاد التي فتحها المسلمون من تينك المملكتين ، وما كان من تأثير الاسلام في ذلك النظام ، وكيف تدرج في الارتقاء من أيام الراشدين فالأمويين فالعباسيين ، ثم نبسط القول في نظام الاجتماع في العصر العباسي .

طبقات الناس قبل الاسلام

ويقسم الكلام في ذلك الى وصف طبقات الناس (١) في الشام والعراق (٢) في مصر (٣) في أفريقيا (٤) في بلاد فارس (٥) في جزيرة العرب .

١ ــ طبقات الناس في الشام والعراق

نريد بهذين البلدين ما بين دجلة في الشمال الشرقي وآخر حدود الشام في الجنوب الغربي، وسكان هذه البقعة أكثر أمم الأرض اختلاطاً في اجناسهم واديانهم وآدابهم لكثرة الدول التي توالت عليها من اقدم ازمنة التاريخ. وللعلماء أبحاث طويلة وآراء متضاربة في احوالهم لا محل لها ولا فائدة منها . وخلاصة ما يستخرج من أبحاثهم ان اقدم من عرف من اهل تلك البلاد بطون من الساميين ، وكانت مساكن القبائل السامية تمتد من دجلة عند ما بين النهرين شمالاً شرقياً الى سواحل سوريا حتى العريش فالبحر الأحمر غرباً وشواطىء اليمن وحضرموت جنوباً فخليج فارس وبحر عمان شرقاً ، وهي عبارة عن بلاد ما بين النهرين والعراق وسوريا وفلسطين وجزيرة سينا وجزيرة العرب .

والساميون ثلاثة فروع كبرى :

(١) الآراميون ، وهم القبائل السامية الشمالية . كانت مواطنهم فيما بين النهرين والعراق وسوريا إلا قسماً من شواطئها .

(٢) العبرانيون ، وهم القبائل السامية الوسطى . وموطنهم في فلسطين وشواطىء سوريا .

(٣) العرب ، وهم القبائل السامية الجنوبية . ومقامهم في جزيرة العرب وما يليها من بادية الشام والعراق وجزيرة سينا .

الآراميون

فالآراميون كانت لغتهم فرعاً من اللغة السامية يعرف باللغة الآرامية ، وانقسموا بتوالي الاجيال الى امم اشتهرت في التاريخ ، اهمها امة السريان فيما بين النهرين والعراق ، والكلدان في اعالي سوريا . وانقسمت اللغة بهذا الاعتبار الى الفرعين السرياني والكلداني .

والعبرانيون يراد بهم ابناء ابراهيم عليه السلام ، وقد استقروا في فلسطين نحو القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، ويلحق بهم الفينيقيون وكانوا يتكلمون لغة تشبه العبرانية .

وأما العرب فكانوا يتفاهمون بلغة من اللغات السامية هي العربية ، ومن فروعها او اخواتها الحميرية والحبشية . وأقرب القبائل العربية الى الشام الانباط ، وكان لهم شأن في اثناء تسلط الرومان على الشام سيأتي ذكره .

فما بين النهرين والعراق والشام وفلسطين كانت في اقدم ازمنة التاريخ مأهولة بشعوب سامية تتقارب نسباً ولغة . اما قبل نزول الساميين فكانت مقاماً لأمم لا يعرف اصلها، وكان الساميون اقوى منهم فغلبوهم على بلادهم واستقروا فيها،واخذ اولئك في الانقراض قبل الميلاد بعدة قرون . وهاك ترتيب مساكن الساميين هناك من الشمال الى الجنوب : السريان ، فالكلدان ، فالفينيقيون ، فالعبرانيون ، فالأنباط . وخالطتهم امم شتى غير سامية ، اقامت بين اظهرهم في بقاع مختلفة من بلادهم . غير بقايا الشعوب الاصلية مما يطول بيانه ، ولكن الساميين تغلبوا عليهم جميعاً وعاشت اديانهم وآدابهم وعاداتهم .

على ان مركز هذه البلاد الجغرافي جعلها عرضة لمطامع الفاتحين من الامم القديمة ، كالحثيين والأشوريين والفرس ، فكانوا يتناوبون فتحها او اكتساحها وتتقاطر شعوبهم

اليها . ولكن الامر لم يستقم لدولة من هذه الدول في سوريا كما استقام لليونانيين خلفاء الاسكندر ، فان هذا القائد العظيم فتح هذه البلاد في القرن الرابع قبل الميلاد، واوغل فيها وغرس في نواحيها بذور الحضارة الاغريقية ، وقد اختلطت هذه العناصر الاغريقية بعناصر الحضارات الشبيهة بالهيلينية Hellenistic وتوافد اليها اليونان واقاموا فيها واختلطوا بأهلها ولا سيما بعد ظهور النصرانية وهي في سلطة الرومان . ولكن العنصر اليوناني ما زال متغلباً عليها ، واكثر تغلبه من سواحل بحر الروم . ويضعف شأنه في الداخل تدريجاً .

ومع ذلك الاختلاط ظلت الشعوب السامية محافظة على آدابها وعاداتها ولغاتها ، ولا سيما اليهود فانهم مع ما اصابهم من الاضطهاد والسبي ظلوا من حيث الآداب والدين على نحو ما كانوا عليه في ايام داود وسليمان ، الا ما اصاب لغتهم من التغيير في اثناء السبي ببابل ، فانها اختلطت بالسريانية والكلدانية وعرفت باللغة الآرامية او الكلدانية ، وبها كتبوا التلمود وانقسموا الى اليهود والسامريين . اما ما بقي من الشعوب السامية ولا سيما السريان فتنصروا وانفردوا بآدابهم وعاداتهم ، واكثرهم كانوا يقيمون في العراق وما بين النهرين واعالي سوريا الى فلسطين

الانباط

فكانت حدود الشام الغربية على سواحل بحر الروم يغلب عليها العنصر اليوناني ، وحدودها الشرقية مما يلي البادية يغلب عليها العنصر العربي . وكان هناك في أوائل القرن الرابع قبل الميلاد أمة عربية عرفت بالأنباط أو النبط ، كان مقامهم وراء فلسطين غرباً جنوبياً على أنقاض الآدوميين ، في بقعة تمتد من جزيرة سينا الى حوران تعرف بالبلاد العربية الصخرية Arabia Petraea ، ولا تزال آثار مدينة بطرا باقية الى الآن وفيها الأبنية المنقوشة والتماثيل المنحوتة ونحوها . حاربهم الروم سنة ٣١٢ ق.م بقيادة انتيجونوس وكان الأنباط عشرة آلاف مقاتل . وذكر ديودورس أنهم يجتنبون الزراعة رغبة في الرحلة ، ويعيشون على اللحوم والألبان ويحرمون الخمر تحت طائلة القتل ، وانما شرابهم الماء يحلونه بالمن وهو كثير عندهم . وكانوا يتجرون بالمر والأطياب يحملونها من شواطىء البحر الأحمر وبلاد العرب ، وبالحمر أو القار يحملونه من البحر الميت الى مصر ليستخدمه المصريون في التحنيط . وكانت طرق التجارة بين مصر وسائر المشرق لا تسلك الى على يدهم ، والا فانهم يهاجمون القوافل وينهبون التجار . ثم تغلب عليهم البطالسة وقهروهم ، فتباعدوا عن

حدود مصر ونزلوا حوران، ونبغ منهم في القرن الأول قبل الميلاد ملك يسميه اليونانيون أريتاس (الحارث) حارب عامل دمشق وغلبه على مدينته واستولى عليها وعلى ملحقاتها تحت رعاية الرومانيين نيفاً وأربعين سنة . ثم صار الأنباط حلفاء الرومانيين في القرن الاول للميلاد ، وامتدت شوكتهم في أثناء ذلك الى جزيرة العرب مما يلي سواحل البحر الأحمر .

وظلت مدينة بطرا مركزاً تجارياً بين المشرق ومصر ، حتى اكتشف الناس الطريق من القصير الى قفط على النيل فأخذت بطرا في التقهقر ، وكان الأنباط قد تحضروا فذهبت خشونتهم وعجزوا عن الغزو والحرب وركنوا الى الزراعة وأووا الى المنازل وانغمسوا في الترف ، فجاءهم تراجان الروماني سنة ١٠٥م فخاربهم وأخضعهم وأذلهم فذهبت عصبيتهم وانحلت قواهم وأخلدوا الى الدعة ، واختلطوا بأهل البلاد الأصليين من السريان أو الآراميين ، وانتشروا على حدود سوريا وفلسطين مما يلي البادية بين جزيرة سينا والفرات، ولم تقم لهم قائمة من ذلك الحين .

ولما جاء المسلمون لفتح الشام وجدوا بقايا هذه الأمة هناك يتكلمون اللغة الآرامية او السريانية ، لغة لهل العراق وما بين النهرين ، فحسبوا الأنباط والعراقيين أمة واحدة فأطلقوا عليهم جميعاً اسم « الأنباط » ، والذي اتفق عليه المحققون أن أنباط بطرا ربما يليها عرب ، وانما تكلموا الآرامية على أثر اختلاطهم بأهل الشام والعراق بعد ذهاب دولتهم . ويظن علماء التوراة ان القبطيين ينسبون الى نباطوط من آباء التوراة .

ولما ضعف الأنباط ظهر مكانهم على حدود الشام والعراق اجيال جديدة من العرب ، اتخذهم الروم والفرس حلفاء يردون عنهم غارات اخوانهم اهل البادية ، او ينصرونهم في الحروب التي كانت تنشب بين تينك الدولتين قبيل الاسلام . فأقام حلفاء الروم في جهات حوران وهم الغساسنة ، وأقام حلفاء الفرس على شاطيء الفرات في الحيرة وهم المناذرة . فاذا انتشبت حرب بين الروم والفرس تجند الغساسنة للروم والمناذرة للفرس ، ودافع كل منهما عن اصحابه . فكانوا مع بداوتهم وسذاجتهم عوناً قوياً لهاتين الدولتين الضخمتين ينصرون احداهما على الأخرى . ولنحو هذا السبب أقام العرب على الحدود بين الفرس والروم فيما بين النهرين والعراق ، وفيهم بطون من أياد وربيعة ولخم وتنوخ .

فسكان الشام والعراق عند ظهور الاسلام كان معظمهم من بقايا الآراميين الأصليين ، وهم السريان في الشمال والشرق ، واليهود والسامريون في الجنوب ، وبقايا الأنباط في

الغرب ، يليهم العرب الغساسنة والمناذرة ثم قبائل أياد وربيعة بين النهرين ، ويتخلل هذا الموضوع شتات من أمم أخرى كالجراجمة في جبل اللكام [١] والجرامقة في الموصل [٢] وأخلاط من مولدي اليونان والرومان على الشواطىء ، ومولدي الفرس والأكراد في الشمال . وكانت جامعة الدين قد غلبت على جامعة النسب او الجنس او اللغة ، فأصبحت الطوائف تنتسب الى مذاهبها الدينية ، كالنصارى واليهود والسامريين . وينقسم النصارى الى ملكيين ويعاقبة ونساطرة وموارنة وغيرهم . وكانت الديانة والسياسة مرتبطتين احداهما بالأخرى ، والحزب الديني عبارة عن حزب سياسي يستخدم في تأييد الدولة ، فالكنيسة القسطنطينية كانت أم كنائس المشرق ، وشعوب هذه الكنائس تنقاد الى تلك الكنيسة لتأييد سلطة القيصر صاحب العرش فيها ، والكلام في تفصيل ذلك يطول .

نظام الاجتماع في الشام والعراق

أما موقف الأهالي من الحكومة فكان على غير المألوف بيننا ، لبعد النسبة بين الحاكم والمحكوم في تلك الأيام ، ولا سيما في البلاد التي يحكمها الغرباء البعيدون عن اهلها لغة او ديناً او جنساً ، فالرومان كانوا يعدون البلاد وأهلها ملكاً لهم يتصرفون فيهم كيف شاءوا ، وكان الفلاحون في كثير من البلاد يعدون من توابع العقار ، فينتقل العقار من مالك الى آخر ، وفلاحوه معه يسمونهم Serfs اي الأقنان (جمع قن) ، الا الذين تسمو بهم هممهم الى التقرب من رجال الدولة بالصناعة او الادب او التجارة وهم قليلون . فكان الناس طبقتين : طبقة الخاصة وهم الملك وأهله وأعوانه ورجال الدين ومن جرى مجراهم ، والعامة أهل البلاد الأصليون وأكثرهم الفلاحون او الأكرة .

فخاصة اهل الشام في العصر الروماني حكامها وهم البطارقة والبطريق غير البطريرك . وكان البطارقة عند الرومانيين جماعة من اشراف المملكة الرومانية ، نشأوا مع مدينة روما وكان لهم نفوذ عظيم في الدولة الرومانية ، وانحط شأنهم بعد انقسامها ولم يبق لهم عمل ، فلما امتدت سطوة الروم الى المشرق رأوا تلك البلاد البعيدة لا يستطيع الحكم فيها واخضاع اهلها الا اهل السطوة والهيبة ، فعهدوا بذلك الى البطارقة وولوهم المستعمرات

---

١ — البلاذري : فتوح البلدان ، القاهرة ١٩٣٢ ، ص ١٦٣ وما بعدها .
٢ — مختصر تاريخ الدول لابن العبري ، ص ١٣١ .

الشرقية وفي جملتها الشام ومصر ، وكانت الشام ولاية واحدة تقسم الى ١١ اقليماً ، على كل اقليم بطريق معه الجند كأنه حاكم مستقل [١] . وكانت حدود الشام بالنظر الى الحكومة تنتهي من الشمال الشرقي الى الفرات ، ولا يدخل العراق وما بين النهرين فيها ، وانما جعلناهما في كلامنا عن الاهالي ، لأنهم وأهل الشام من اصل واحد كما رأيت .

٢ — طبقات الناس في مصر

ان سكان مصر اقل اختلاطاً بغيرهم من سكان الشام والعراق ، ومع ذلك فقد توالت الهجرة الى مصر من اقدم ازمنة التاريخ قبل زمن الفراعنة . والفراعنة اكثرهم من الفاتحين الغرباء ، فكانوا اذا فتحوا مصر واستقام الامر فيها هاجر اليها اهل عصبيتهم لاستثمار ذلك الفتح فيأتون على ان تكون اقامتهم وقتية ريثما يجتمع لهم المال ، ولكن اكثرهم لا يرجعون ولا تمضي بضعة اجيال حتى يختلطوا بالسكان ويصيروا جزءاً منهم ، كما حدث في زمن الرعاة والفرس واليونان والرومان وغيرهم ممن فتحوا مصر قبل الاسلام . والغالب في الفاتحين انهم لا يزالون يميزون عصبيتهم على عصبية سائر رعاياهم ، حتى ينتقل الامر من ايديهم الى فاتح آخر فتتناسى عصبيتهم ويندمجون في جملة الوطنيين. ناهيك بمن يأتي مصر للاتجار او الاستثمار لاشتهارها بالخصب والرخاء .

وكان الفاتحون يترفعون غالباً عن الاختلاط بسائر افراد الامة ، فيكون منهم الجند ورجال الدولة والكهنة ونحوهم من اهل السيادة ، ويجعلون مقامهم في المدن الكبرى ويبقى الشعب للفلاحة والصناعة والخدمة . فالبطالسة حكموا مصر نحو ٣٠٠ سنة ، وتقاطر اليونان في ايامهم بكثرة ، وكانوا يقيمون في الاسكندرية او غيرها من العواصم ، وأكثرهم من الجند او التجار او رجال الدولة لادارة الحكومة . وكذلك كان شأن الرومان ، فانهم تولوا وادي النيل ستة قرون ، والروماني يجتهد في ان يميز نفسه عن المصري لغة ومذهباً وخلقاً ، وكانوا يقيمون في المعاقل والحصون او المدن الكبرى كما كان حالهم في الشام .

---

١ — راجع تفصيل ذلك في الجزء الاول من هذا الكتاب .

فلما ظهر الاسلام كان سكان مصر طبقتين :

(١) الرومان او الروم ، وعاصمتهم الاسكندرية ومنهم رجال الدولة والاجناد وبعض رجال الدين .

(٢) الأهالي وهم الأقباط الأصليون ، يخالطهم بعض المولدين من اليونان والرومان وغيرهم من النازحين للتجارة او الخدمة أو غيرهما ، من اهل الشام واليمن والعراق والنوبة وافريقية ، وكان بين الحكومة والأهالي فاصل آخر مذهبي ، فكان الروم على مذهب الملك وهم الملكيون ، والأقباط على مذهب يعقوب البردعي وهم يعاقبة .

٣ — طبقات الناس في افريقية

يريد العرب بافريقية البلاد الواقعة في شمال افريقيا ، حيث الآن تونس وطرابلس والجزائر ومراكش ، وهي في الاصل مستعمرة سامية لبعض النازحين من فينيقية قبل الميلاد بعدة قرون ، بنوا فيها مدينة قرطاجة او قرطجنة وانشأوا دولة تعتبر شرقية باعتبار اصلها وان كانت غربية في موقعها ، لأن اهلها ساميون ولغتها من اخوات اللغة العربية . وقد حارب القرطجنيون الرومانيين ونازعوهم على السيادة ، فقطعوا اليهم البحار وجبال الالب حتى حاصروا روما وكادوا يذهبون بدولتها ، ولو فعلوا ذلك لتغير وجه الارض عما نعرفه ، ولكنهم اخفقوا فرجعوا ثم ارتد عليهم الرومان وحاربوهم في بلادهم حتى افنوهم وخربوا مدينتهم ، وتوالى على قرطاجة بعدهم امم شتى كالرومان والوندال وغيرهم .

أما أهل البلاد الأصليون فقد كان معظمهم قبل القرطجنيين اقواماً من الجنس البربري يعتصمون بالجبال دأبهم النهب والغزو . ولما ذهب القرطجنيون وخلفهم الرومان وجدوا أهل تلك البلاد طبقتين ، احداهما حضرية تتوطن السواحل فيما هو الآن مراكش والجزائر وتونس يتعاطون التجارة والصناعة ، والاخرى تسكن الجبال والبادية ، فسموا الأولى الموريتانيين والثانية النوميديين. وكان النوميديون من القبائل الرحل الاشداء فلم تقو الدولة الرومانية على اذلالهم بل كانوا كثيراً ما يهاجمون حاميتها في المدن ويعودون الى جبالهم. ذلك كان شأنهم مع من فتح افريقية بعد الرومان ، وما زالوا على ذلك حتى جاء المسلمون وفتحوا افريقية واهلها طبقتان : الاولى اهل المدن وهم الموريتانيون ومن اختلط بهم

من الأمم الفاتحة كالروم والوندال وقد اعتنقوا النصرانية وتحضروا ، والثانية النوميديون وهم لا يزالون على بداوتهم وظلوا ممتنعين في جبالهم الى اواخر القرن الاول للهجرة ، وهم الذين يسميهم العرب قبائل البربر على ما هو مدون في كتبهم ، ولهم شأن كبير في تاريخ الاسلام .

٤ ــ طبقات الناس في بلاد فارس

نريد ببلاد فارس ما بين دجلة في الغرب الجنوبي ونهر جيحون في الشرق الشمالي ، ويدخل فيها خوزستان وكرمان ومكران وبلاد الجبال وخراسان واذربيجان وارمينيا وغيرها ، وهي تحوي شعوبا شتى من امم مختلفة لا يمكن حصرها وتمييزها بعد ان طال العهد عليها . ولكنها تمتاز على اي حال عما يجاورها من سكان العراق والشام امتيازاً كلياً في الجنس واللغة والدين : اما الجنس فسكان بلاد فارس أكثرهم من الجنس الآري وهو غير الجنس السامي الذي عمر الشام وما وراءها كما تقدم أما اللغة فالفارسية من اللغات الآرية اخوات لغات أوربا وهي غير اللغات السامية ، وأما الدين فالمذهب الذي كان شائعاً في تلك البلاد قبل الاسلام هو الزردشتية او المجوسية في حين ان ديانة أهل العراق والشام كانت النصرانية واليهودية .

وتوالى على بلاد فارس دول كثيرة حتى فتحها الاسكندر في القرن الرابع قبل الميلاد، فلما مات واقتسم المملكة قواده لم يستطيعوا استبقاء تلك البلاد في حوزتهم ، فاقتسمها امراؤها وهم المعروفون بملوك الطوائف ، حتى قام أردشير بن ساسان سنة ٢٢٤ م فجمع كلمتها بالسيف وتوالى عليها أهله الى ظهور الاسلام ، وهي الدولة الساسانية .

فلما ظهر الاسلام كان سكان تلك المملكة طبقتين : العامة والخاصة . أما العامة فأهل البلاد الأصليون ومنهم الفلاحون والصناع والخدم وغيرهم من نتاج الاختلاط قروناً بين القبائل الآرية وبعض القبائل الطورانية من الاتراك والديلم . وكانوا يسمون عند ظهور الاسلام « الطاجية » ، ولا يعرف أصل هذه اللفظة تماماً[1] ولكنهم يريدون بها طبقة العامة ، والطاجية ضخام الأجسام اقوياء الأبدان .

---

١ ــ الهلال ، ص ٩٩ سنة ١٣ .

وأما الخاصة فالملك وأهله ورجال دولته ورجـال الدين والأشراف من بقايا الدول السالفة . فبعد الملك واهله تأتي طبقة الشهارجة « شهريجان » او السهارجة[١] وهم أشراف السواد وارباب الدولة كالبطارقة عند الروم . تليهم طبقة الدهاقين - واحدهم دهقان - وينتسبون الى الملوك القدماء من الدول السالفة ، وهم أصحاب الارض وفي ايديهم اكثر البقاع التي يستغلونها على رقاب الطاجية . والدهاقين خمس مراتب ، وقد يتولون الامارات ويتعاطون الحكومة كأمراء بخارا (بخارا خدا) فقد كانوا عند ظهور الاسلام من الدهاقين، وكذلك هرات . وقد يكون الدهقان مثل بعض العامة .

وكانت مملكة فارس – عند ظهور الاسلام – في حوزة الدولة الساسانية ، تقسم الى عمالات يتولى كل عمالة امير يسمونه « مرزبان » ، وأصل معنى هذه اللفظة قائد الحدود . على ان بعض العمال كانوا يتمتعون بشيء من الاستقلال في أحكامهم ، ولا سيما في الامارات البعيدة ،وكان بعضها مستقلا استقلالاً تاماً ويتخذ كل امير لقباً خاصاً به ،مثل «رتبيل» لقب أمير سجستان ، و « رنجان » لأمير سمندجان ، و « جيغويه » لصاحب طخارستان ، و« اصبهبذ » لصاحب بلخ ، و « باذان » لمرو الروذ ، « شهرك » للطالقان ، و«أخشيد» لصاحب فرغانة — وقس عليه . على ان بعض الولايات ، كمرو وسرخس وطوس ، كان يتولاها المرازبة .

واكبر نفوذاً وسطوة من اشراف المملكة وملوكها رجال الدين وهم كهنة الزردشتية ، ويسميهم المسيحيون المجوس ، واسمهم عند الفرس الموبذان واحدهم « موبذ » ، وهم كالاساقفة عند النصارى ، رئيسهم يسمونه « موبذ موبذان » مثل رئيس الأساقفة ، وكان نفوذهم في الدولة يفوق نفوذ الملك[٢] ومنهم القضاة او من يقوم مقامهم في الحكومة بين الناس .

وكان في بلاد الفرس جماعات تجمعهم نسبة او صفة يقيمون في بلد او يتنقلون في البلاد ، كالأساورة والسيابجة والزلط والأحامرة ونحوهم[٣] .

---

١ – المسعودي ١٢٣ ج ١ .

٢ – Le Christianisme dans l'Empire Perse,6

٣ – البلاذري ٣٨١ .

٥ — طبقات الناس عند العرب الجاهلية

قد علمت ان سكان جزيرة العرب من الشعوب السامية اخوان الأراميين والعبرانيين، ولكنهم لم يصبهم ما اصاب اخوانهم في العراق والشام من الاختلاط ، لامتناع جزيرتهم على الفاتحين بما يحدق بها من البوادي التي يعسر سلوكها على الجيوش . وقد هم بها الأشوريون واليونان والروم وغيرهم ورجعوا عنها بلا طائل ، حتى اذا كان القرن الخامس للميلاد فتح الاحباش قسمها الجنوبي (اليمن) وعجزوا عن الحجاز ، فاستنصر اليمنيون الفرس فنصروهم واخرجوا الأحباش وحلوا محلهم واختلطوا بأهل اليمن وعرفوا بالابناء الأحرار .

على أن بلاد العرب كانت ملجأ النازحين من الشام او مصر او العراق ، فراراً من ظلم او ضغط او امتناعاً على الحكومة لسبب من الاسباب . وأكثر الامم نزوحاً اليها اليهود ، لكثرة ما قاسوه من الاضطهاد منذ خروجهم من مصر الى ان اضطهدهم الروم في عهد طيطس وغيره – وهاجر اليها كثيرون من اليونان والرومان والفرس والهنود والاحباش وغيرهم بلا حرب ولا اضطهاد . ومع ذلك فان العرب ظلوا مستقلين بأنسابهم وعاداتهم وآدابهم . ويقسمون باعتبار النسب او الوطن الى : قحطانية او يمنية ، وعدنانية او حجازية . وانقسمت لغتهم بهذا الاعتبار الى حميرية ومضرية ، وقد فصلنا طبقات العرب وقبائلهم وحلفاءهم ومواليهم وعبيدهم في الجزء الرابع من هذا الكتاب .

نظام الاجتماع في عصر الراشدين

بينا في الجزء الرابع ما احدثه الاسلام من التغيير في العصبية العربية ، وما تولد به من الطبقات الجديدة التي لم تكن قبل الاسلام ، كالمهاجرين والأنصار واهل بدر واهل القادسية ، وما اقتضاه النسب الهاشمي او القرشي من العصبيات الجديدة ، ومنهم طبقات الأشراف من العلويين او العباسيين وابناء الانصار والمهاجرين ، على ما وضعه عمر في ديوانه من مراتب العطاء باعتبار تلك الطبقات [1] وما يلحق بذلك من طبقات التابعين

١ – الجزء الاول من هذا الكتاب .

وتابعي التابعين والانتساب الى مشاهير الصحابة كآل الزبير وآل ابي بكر وغير ذلك مما اقتضاه الاسلام والفتوح . فتولد من ذلك بيوتات اسلامية غير البيوتات العربية التي كانت قبل الاسلام .

وعندما سار العرب لفتح الشام والعراق كان اول من لقيهم على حدودها العرب ابناء لغتهم واهل عصبيتهم ، ولما اوغلوا في هذين البلدين استأنس اهلوها باللسان العربي لقربه من لسانهم الآرامي او السرياني ، مع بعد لسان حكامهم يومئذ الرومي او الفارسي عنهم — فكان ذلك من جملة ما مهد لهم اسباب الفتح . اما طبقات الناس الاصلية في هذين القطرين فقلما اصابها تغير في عصر الراشدين ، لان المسلمين لم يكونوا يخالطونهم ولا يدخلون في شيء من احوالهم الادارية او الدينية او السياسية ، وانما كان همهم اقتضاء الجزية والخراج وحماية من دخل في ذمتهم من اهل الكتاب . فكانوا يقيمون في مضاربهم او معاقلهم بضاحية البلد المفتوح بما يشبه الاحتلال العسكري — الا من دخل في حوزتهم من الأرقاء بالأسر او السبي ومن أعتقوه فصار من الموالي . وهناك طبقة جديدة نشأت بانتشار الاسلام خارج جزيرة العرب . وهم المسلمون من غير العرب ، ولهم شروط واحوال تخالف ما للعرب على ما بيناه في الجزء الرابع .

نظام الاجتماع في عصر الأمويين

كانت قصبة الاسلام على عهد الراشدين في المدينة بجوار قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، فنقلها الأمويون الى الشام قرب البلاد المفتوحة ، وعملوا على توسيع دائرة مملكتهم ، فجردوا الجيوش وفتحوا المدن حتى وطئت حوافر خيولهم ما وراء النهر في اقصى الشرق .. وركبوا بحر المجاز (مضيق جبل طارق) الى اسبانيا ففتحوها وما وراءها من بلاد الافرنج الى منتصف غالة وهي ما يعرف الآن بفرنسا ، ونصبوا اعلامهم على اعظم مدائن الفرس والترك والروم والاسبان والافرنج ، وهددوا القسطنطينية . وحولوا الاحتلال المؤقت الى السيادة الدائمة ، وأقاموا دولة الاسلام في هذه الاقطار وأيدوها بنقل دواوين الحكومة في الشام ومصر والعراق من اليونانية والقبطية والفارسية الى العربية ، وبعد ان كانت تلك الدواوين يتولاها اهل البلاد غير المسلمين جعلوها في ايدي المسلمين . وضربوا النقود العربية فاستعاضوا بها عن نقود الروم والفرس ، ونقشوا عليها الآيات القرآنية بدلاً من

الصور والرموز . ونقلوا طراز الدولة من اليونانية او الفارسية او العربية ـ فآل ذلك الى انتشار العرب في الارض وسيادة العنصر العربي ونشر اللغة العربية .

وقد استمسك العرب بعصبيتهم خلال العصر الاول الذي تلا الفتح ، وفرقوا بين انفسهم وبين الموالي تفرقة واضحة . وانقسموا هم انفسهم الى قحطانيين وعدنانيين . وظل العرب في ايامهم على بداوتهم بما كانوا يتوخونه من المحافظة على خشونة الجاهلية وسذاجتها وآدابها .

فطبقات الناس في العصر الأموي تقدمت خطوة عما كانت عليه في زمن الراشدين ، فكان الناس طبقتين كبيرتين : المسلمين وغير المسلمين ، والمسلمون طبقتان : العرب وغير العرب وهم الموالي . وظل غير المسلمين ، وهم اهل الذمة من القبط والأنباط والروم والفرس وغيرهم ، على ما كانوا عليه قبل الاسلام ـ الا من دخل منهم في خدمة المسلمين من الاطباء والكتاب والمترجمين فقد نشأت منهم طبقة جديدة من اهل الذمة لم تكن قبل الاسلام . هذا الى ما حدث في اثناء الفتوح الأموية والحروب الأهلية من انتقال بعض الطوائف والجماعات من بلد الى آخر ، كانتقال السيابجة والزط الى سواحل الشام في ايام معاوية ، ونقل الحجاج لجماعة من زط السند الى العراق واسكانه اياهم بأسافل كسكر ، وسبي عبيد الله بن زياد خلقاً من اهل بخارا وانزاله اياهم البصرة . ولما بنى الحجاج مدينة واسط نقل كثيراً منهم اليها فأقاموا فيها وتناسلوا [1] فضلاً عمن كانوا يصطحبونهم احياناً في حملاتهم البعيدة للفتح او الغزو ، فقد يكون في الحملة جماعات من البرابرة والأنباط والأقباط والجرامقة والجراجمة [2] فهؤلاء اذا فتحوا بلداً اقاموا فيه وتناسلوا واختلطوا بأهله .

وبالجملة فان الهيئة الاجتماعية في ايام الامويين كانت في بدء انتقالها من حالها القديمة في عصر الروم والفرس الى حالها الجديد الذي ستكون عليه في العصر الاسلامي . ولم يتم ذلك الانتقال وتكييف هذه الهيئة الاجتماعية بشكلها الخاص بالاسلام والتمدن الاسلامي

---

١ – البلاذري ٣٨٤ .

٢ – البيان والتبيين ١١٤ ج ١ وابن الاثير ٣٥ ج ٥ .

الا في العصر العباسي ، لترفع الامويين عن الاختلاط بغير العرب ورغبتهم في البقـاء على البداوة . ومع ايغال جنودهم في بـلاد فارس وخراسان وتركستان ومصر والمغرب والأندلس فانهم قلما اختلطوا بأهلها او اقتبسوا منهم او قلدوهم في شيء من عـاداتهم واخلاقهم ، الا ما اتخذوه من الحرس والبريد والسرير على ما يأتي بيانـه . اما العباسيون فنظراً لتغلبهم بالموالي على الامويين فقد جعلوا مقامهم بين اشياعهم الفرس ، فبنوا بغداد على الحدود بين الفرس والسريان ، او بين الآريين والساميين ، او بين المجوس والنصارى ، وقربوا الفرس واتخذوا منهم الوزراء والعمال ورجـال الدولة ، فنظموا لهم الدواوين على نحو ما كانت عليه في الدولة الساسانية .

نظام الاجتماع في العصر العباسي

كل ما قدمناه من الكلام على طبقات الناس في العصور السالفة انما هو تمهيد للكلام عن العصر العباسي ، عندما نضج التمدن الاسلامي وتكيفت طبقاته على شكل خاص بهذا التمدن ، وكان على أتم أشكاله في مدينة بغداد قصبة العالم الاسلامي ، فهي أوضح أنموذج يمثل به نظام الاجتماع في ذلك العصر .

كان الناس في العصر العباسي طبقتين : الخاصة والعامة ، تحت كل منها طبقات وأتباع وفروع سيأتي تفصيلها :

طبقات الخاصة

كان الخاصة خمس طبقات : (١) الخليفة (٢) أهله (٣) رجال دولته (٤) أرباب البيوتات (٥) توابع الخاصة .

فالخليفة صاحب السلطتين الدينية والسياسية [١] فأحر بمن كان هذا منصبه أن يعظم الناس شأنه ويتقربوا اليه بالطاعة وبذل الخدمة والتزلف بالمدح والاطراء . وسيأتي الكلام على الخلفاء ومجالسهم ومواكبهم والآداب المتبعة في مخاطبتهم وغير ذلك في باب أبهة الدولة من هذا الجزء .

وأهل الخليفة هم بنو هاشم ، وكانوا أرفع الناس قدراً بعده ويسمونهم الأشراف وأبناء الملوك [٢] فاذا دخلوا على الخليفة جلسوا على الكراسي ، وسائر الناس دونهم على الوسائد او البسط ، الا هو فانه يجلس على السرير . وكانوا يرتزقون على الغالب برواتب يقتضونها من بيت المال ، فضلاً عما ينالونه من النعم والهدايا بحسب ما يتراءى للخليفة في

---

١ – راجع الجزء الرابع .   ٢ – المسعودي ١٧٧ ج ٢ وغيره .

امرهم ، فاذا خاف تطاول أحدهم للملك أثقل يديه بالهدايا وقطع لسانه بالعطاء – تلك كانت سياسة العباسيين منذ تأسيس دولتهم . وكان الهاشميون في أوائلها عوناً كبيراً في تأييدها ، يتولون الأعمال ويقودون الجند ويعينون الخليفة بالرأي والسياسة . فلما تأيدت أصبح الخلفاء يخافون مطامع اهلهم ، فأخذوا يبذلون لهم الاموال ، فمن اعجزهم كف اذاه بالمال عمدوا الى الفتك به – باشر ذلك ابو جعفر المنصور وسار الخلفاء على خطته ، فكانوا يعطون اهلهم الرواتب الباهظة والهدايا الفاخرة ويسهلون عليهم اسباب القصف واللهو ليشتغلوا بذلك عن طلب الملك وتعجز هممهم عن النهوض .

فكان الهاشميون في الغالب من اهل السعة والرخاء ، يتمتعون بشرف الملك ولا يحملون اوزاره واعباء تبعته ، فانغمس اكثرهم في الترف وانهمكوا في الشراب والغناء وابتنوا القصور الشماء والحدائق الغناء ، واستكثروا من الجواري وجمعوا اليهم المغنين والقيان وقربوا الشعراء والادباء . واكثر مقامهم في البصرة ، بعيدين عن دور الخلفاء ودسائسها الا من ولاه الخليفة عملا او جندا . واشتهر بعضهم بالثروة الطائلة كمحمد بن سليمان ، فقد بلغت امواله نيفا وخمسين مليون درهم غير الضياع والدور ، وكانت غلته ١٠٠،٠٠٠ درهم في اليوم[١] وبلغت ثروة خمنة بنت عبد الرحمن الهاشمي ما لا يسعه الديوان[٢] ومع ذلك فقد كانوا يؤخذون بغير ذنبهم ويخافون الدسائس على حياتهم .

وأما رجال الدولة فنريد بهم الوزراء والكتاب والقواد ومن جرى مجراهم من ارباب المناصب العالية . وكان اكثرهم في ابان الدولة العباسية من الموالي وخصوصاً الفرس ، كالبرامكة وآل سهل وآل وهب وآل الفرات وآل الخصيب وآل طاهر وغيرهم . وكانوا يختلفون نفوذاً وسطوة باختلاف الخلفاء وتفاوت ادوار التمدن ، ولكن الوزارة كانت على الاجمال من اوسع ابواب الكسب على ما بيناه في الجزء الثاني من هذا الكتاب .

اما اهل البيوتات فهم الاشراف من غير الهاشميين ، ومرجع شرفهم الى اتصال حبل قرباهم بالنسب النبوي او بقريش ، وكان الخلفاء يراعون جانبهم ويفرضون لهم الأعطية والرواتب ويقدمونهم في مجالسهم . على ان هذه الانساب كانت اكثر نفعاً لأصحابها في عهد بني أمية منها في ايام بني العباس ، ولا سيما بعد ضعف العنصر العربي بقتل الأمين .

---

١ – المسعودي ١٨٨ ج ٢ . ٢ – الاتليدي ١٥١ .

فلما أفضى الأمر الى المعتصم قطع رواتب الأشراف في جملة مـا قطعه من أعطيات سائر العرب ، وربما اعيد بعضها بعد ذلك على غير قياس .

اتباع الخاصة

وللخاصة اتباع اخرجوهم من طبقات العامة بما خصوهم به من أسباب القربى والخدمة وهم اربع طبقات : (١) الجند (٢) الأعوان (٣) الموالي (٤) الخدم .

فالجند فرق كثيرة تختلف اصلا ونظاماً على ما فصلناه في الجزء الاول من هـــذا الكتاب ، وقد يتبادر الى الذهن قياساً على المألوف عندنا ان الجند رجال الخليفة يأتمرون بأمره . وقد يكون بعضهم كذلك ، لكنهم كانوا يختلفون في ذلك العصر عما هم عليه الآن ، لأن بعض الخاصة من الوزراء والعمال كانوا يجندون رجالاً ينفقون عليهم من أموالهم وقد يبتاعون غلماناً ويربونهم للاستعانة بهم على اعدائهم وقت الحاجة ويسمونهم بأسمائهم. وقد يذهب الوزير او العامل وينتقل جنده الى غيره ويبقى معروفاً باسمه . فاجتمع في بغداد من الأجناد طوائف كثيرة تنتسب الى اصحابها ، كالساجية والنازوكية والبيلقية والهارونية ، وفيهم الأتراك والفرس والبرابرة والأحباش والاكراد . ومن هـــذا القبيل الفرق العزيزية والأخشيدية والكافورية في مصر مما لا يحصى ، ومن تلك الفرق ما هو من قبيل الضابطة او نحوها كالشاكرية ، او لمجرد حماية القصور او غير ذلك .

اما الاعوان فهم خاصة الرجل ورفاقه ، ولا يراد بهم ما يراد بالرفاق او الاصدقـاء اليوم ، فقد كان للخلفاء وسائر الخاصة من رجال الدولة والأشراف رفـــاق يصطحبونهم ويجالسونهم ويعيشون في منازلهم ويكون لهم رواتب يقتضونها . ومنهم طائفة الجلساء الذين يجالسون الخليفة او الأمير ، وهم غير الندماء او الشعراء وانما هم رجال من اهل التعقل والثقة يختصهم الخليفة او الأمير او الشريف بمجالسته ، فيفاوضهم في شؤونه ويركن اليهم في مهامه وتكون لهم الدالة عليه ، وربما كان بعضهم من مشايخ اهله او بعض ذوي قرابته .

واما الموالي فقد فصلنا الكلام عنهم في الجزء الرابع من هذا الكتاب ، وبينا احوالهم وشروطهم وتاريخهم ولا حاجة الى المزيد .

الخدم

أما الخدم فأكثرهم في ذلك العهد الأرقاء السود والبيض من الذكور والاناث ، وقد اصطلحوا ان يسموا الأرقاء البيض مماليك والسود عبيداً ، ويقسم الكلام في الخدم الى ثلاثة اقسام : الأرقاء والخصيان والجواري .

١ — الأرقاء

في الجزء الرابع من هذا الكتاب فصل عن الرق في الاسلام ومصادره وأحكامه ، وفصل آخر عن الخدم وطبقاتهم ونفوذهم في الدولة حتى نبغ منهم القواد والوزراء ، فنأتي في هذا المقام بما يختص من هذا الموضوع بنظام الاجتماع .

قلنا فيما تقدم عن طبقات الناس قبل الاسلام ان العامة من اهل البلاد الاصليين بالشام والعراق ومصر وفارس كانوا يئنون تحت نير الاستعباد ، وبعضهم أرقاء فعلا ولا سيما الأقنان خدمة المزارع الذين كانوا ينتقلون مع العقار من مالك الى مالك . فهؤلاء العامة جاءهم الاسلام رحمة لأنهم تحولوا من الرق الى الحرية او الى العهد ، فمن اسلم صار حراً له ما للمسلمين وعليه ما عليهم ، ومن ظل على دينه دخل في ذمة المسلمين يدافعون عنه ما أدى الجزية ، الا من حاربهم وأسروه فهو ملك لهم يتصرفون به كيف شاءوا . ولكن اكثر الذين حاربوا المسلمين في صدر الاسلام من حامية البلاد وهم الجنود من الروم او الفرس لم يكونوا من عامة اهل البلاد المظلومين . فمن دخل من الحامية في أسر المسلمين صار ملكاً لهم ، وكان للمسلمين بعد ذلك ان يطلقوا سراحهم او يعتقوهم ، ولكن الغالب أنهم كانوا يدخلون الاسلام ويصبحون في جملة الموالي ، وقد زعم بعض امراء بني امية استعباد اهل البلاد المفتوحة عنوة او اعتبار المسلمين غير العرب من الموالي ، ولكن الشريعة الاسلامية لم تجز لهم ذلك ، فأنكره العلماء وذوو الرأي فلم يلبث ان رجع عنه من اراده من القواد ورجال الدولة . وقد كانت تصرفات اولئك القواد والامراء من بين الاسباب التي دفعت الى الثورة على بني امية . فلما قامت الدولة العباسية تلاشت هذه النزعات نهائياً .

كثرة الأسرى والأرقاء

وتكاثر الأسرى في اثناء الفتوح حتى كانوا يعدون بالالوف ويباعون بالعشرات ـ اعتبر ما كان من ذلك في الصدر الاول وما تبعه من الفتوح البعيدة في ايام بني امية ، فقد بلغت غنائم موسى بن نصير سنة ٩١ هـ في أفريقية ٣٠٠٠٠٠ رأس من السبي ، فبعث خمسها الى الخليفة الوليد بن عبد الملك ٦٠٠٠٠ رأس ، ولم يسمع بسبي أعظم من هذا[١] وذكروا ان موسى هذا لما عاد من الاندلس كان معه ٣٠٠٠٠ بكر من بنات شرفاء القوط وأعيانهم[٢] وقس على ذلك غنائم قتيبة في بلاد الترك وغيرها .

وبلغت غنائم ابراهيم صاحب غزنة سنة ٤٧٢ هـ من قلعة في الهند ١٠٠٠٠٠ نفس[٣] وفي وقعة ببلاد الروم سنة ٤٤٠ هـ بقيادة ابراهيم بن اينال سبا المسلمون ١٠٠٠٠٠ رأس غير الدواب[٤] . وفي جملة غنائم الحرب ، فضلاً عن الاسرى من الرجال ، جماعات من النساء والغلمان مما يثقل نقله ، فكثيراً ما كانوا يبيعونهم بالعشرات رغبة في السرعة كما فعلوا في واقعة عمورية سنة ٢٢٣ هـ اذ نادوا على الرقيق خمسة خمسة او عشرة عشرة وربما بلغ ثمن الانسان بضعة دراهم ـ ذكروا انه بلغ من كثرة غنائم المسلمين في واقعة الأرك بالاندلس ان بيع الاسير فيها بدرهم والسيف بنصف درهم[٥] والبعير بخمسة دراهم ، وقد يقضون عدة اشهر وهم يبيعون الاسرى والغنائم .

تلك امثلة من اسباب تكاثر الرقيق عند المسلمين ، غير ما كان يرسله بعض العمال الى بلاط الخلفاء من الرقيق وظيفة كل سنة من تركستان[٦] وبلاد البربر وغيرهما

معاملة الاسرى

كانوا في صدر الاسلام اذا ظفروا بغنيمة تولى الامير قسمتها على القواد ، بعد ارسال الخمس الى بيت المال ، ثم اختلف ذلك مع الزمان باختلاف الدول . ففي الدولة الفاطمية بمصر كانوا اذا عاد الجند من حرب ومعهم الاسرى يصل الاسطول بالنيل الى شاطىء القاهرة فينزلون الاسرى ويطوفون بهم القاهرة ، ثم ينزلونهم في مكان كانوا يسمونه المناخ (في جهة الاسماعيلية اليوم) كان مستودعاً للأسرى الذكور ، فينظرون فيهم فاذا استرابوا

---

١ ـ نفح الطيب ١١٣ ج ١ وابن الاثير ٢٥٩ ج ٤ . ٢ ـ ابن الاثير ٢٧٢ ج ٤ .
٣ ـ ابن الاثير ٤٦ ج ١٠ . ٤ ـ ابن الاثير ٢٢٧ ج ٩ .
٥ ـ نفح الطيب ٢٠٩ ج ١ . ٦ ـ المقريزي ٣١٣ ج ١ .

في احد قتلوه ، ومن كان شيخاً لا ينفع ضربوا عنقه والقوا جثته في بئر كانت في خرائب مصر تعرف ببئر المنامة . ومن بقي يضاف الرجال منهم الى من في المناخ ، ويمضى بالنساء والاطفال الى قصر الخليفة ، بعد ما يعطى الوزير منهم طائفة ويفرق الباقي لخدمة المنازل. ويدفع الصغار من الاسرى الى الاستاذين فيربونهم ويعلمونهم الكتابة والرماية ويسمونهم اذ ذاك « الترابي » وقد يرتقي اولئك الصبيان الى رتب الامراء[١] .

ولم يكن استخدام الأسرى على هذه الصورة خاصاً بالمسلمين،بل هي عادة كانت مرعية في تلك الأعصر ، فمن يقع من المسلمين في ايدي اعدائهم كان حظهم الاسترقاق حتى يفتديهم المسلمون ، وكان للخلفاء عناية في فكاك الأسرى يبذلون في سبيله المال او يعطون اسرى عندهم على سبيل المبادلة . ومن هنا نشأ ما يعرف « بالفداء » في تاريخ العلاقات بين المسلمين والروم ، لان الحرب كانت سجالا بينهما في البر والبحر يأسرون بعضهم بعضاً ، فاحتاج الجانبان الى تنظيم عملية فداء الاسرى ، فكانوا يتفقون على اللقاء في موضع معين لتبادل الأسرى ، فيتبادلونهم واحداً بواحد، حتى اذا زاد عند احدهم عدد من الأسرى افتداه الجانب الآخر بالمال . وكان الامويون يفتدون اسراهم احياناً وعلى قلة ، النفر بعد النفر ، في سواحل الشام والاسكندرية وملطية وسائر الثغور على الحدود . واول فداء وقع في ايام بني العباس على يد الرشيد كان سنة ١٨٩ هـ وتوالى الفداء بعده بضع عشرة مرة اثناء ١٥٠ سنة . وتزايدت عناية المسلمين في فكاك اسراهم حتى اصبح اهل الورع من الأغنياء يقفون المال على فكاكهم[٢] .

اما الروم فقلما كانوا يفتدون اسراهم بالمال ، ولعل السبب في ذلك ان اولئك الأسرى يكونون في الغالب لفيفاً من رعاياهم او اجنادا من الغرباء المأجورين وليس من الروم انفسهم ، أما المسلمون فهم غالباً المهاجمون ، فاذا ظفروا كانت غنائمهم من ذلك اللفيف واذا غلبوا فمن وقع في الأسر منهم كان من المحاربين الذين يستحقون الفداء ، والرابطة القومية بين المسلمين يومئذ اشد وثوقاً منها بين الروم ورعاياهم واجنادهم . على ان المسلمين كثيراً ما كانوا يأبون المال بدل الأسرى ولا سيا في الدولة الفاطمية ، ولا يعرف عن هذه الدولة انها فادت اسيراً من الافرنج بمال ولا بأسير مثله ، فكان ذلك من جملة البواعث على زيادة الارقاء عند المسلمين .

---

١ – المقريزي ١٩٣ ج ٢ و ٤٨٩ ج ١ .   ٢ – المقريزي ٧٩ و ١٩١ ج ٢ .

فهل يستغرب بعد ذلك اذا استكثر المسلمون من العبيد والمماليك فيبلغ عددهم عند بعضهم عشرة او مائة او الفاً ؟ حتى الفقراء من عامة الجند كان احدهم لا يخلو من عبد او بضعة عبيد يخدمونه[١] وكان للفارس في عصر الأيوبيين عشرة اتباع يخدمونه او بضع عشرات الى مائة[٢] فكيف بالأمراء والقواد ؟ حتى في صدر الاسلام ، فان الخليفة عثمان كان له الف مملوك مع علمك بزهد الراشدين قبله[٣] فاعتبر كم يكون عددهم في ايام الثروة والترف ، فقد كان الأمير في الدولة الأموية اذا سار مشى في ركابه مائة عبد او بضع مئات او الف عبد[٤] وبلغ عدد غلمان رافع بن هرثمة والي خراسان سنة ٢٨٩ هـ ٤٠٠٠ عبد ولم يملك احد من ولاة خراسان قبله مثله .

اصناف الارقاء

وكانوا اذا تكاثر الأرقاء عند احدهم واراد استخدامهم في منزله جعل عليهم نقيباً يتولى النظر في شؤونهم يسمونه الاستاذ . على ان الغالب في الغلمان اذا كثروا عند امير ان يتخذهم جنداً يحرسونه فيعلمهم الحرب والقتال . فقد كان عند الاخشيد صاحب مصر ٨٠٠٠ مملوك يحرسه في كل ليلة الفان . واكثر فرق الجند عند الامراء من غلمانهم ، واصلهم من السبي والأسرى او يبتاعونهم بالمال لهذه الغاية كما تقدم في كلامنا عن فرق الجند ، وربما بلغ ثمن المملوك الف دينار .

أما الباقون من الأرقاء للخدمة في البيوت فيعلمونهم الصنائع اللازمة لتدبير المنزل ، فمنهم الفراش والطباخ والخازن والوكيل او النقيب والبواب والملاح والركابي وغيرهم[٥] ومنهم الوصيف والمملوك ، وفيهم التركي والفارسي والبربري والزنجي والصقلبي بين مجلوب ومولد من الذكور والاناث مما لا يحصى .

واذا زادوا عما يحتاجون اليه في الخدمة او الحراسة او الحماية اتخذوا الغلمان منهم زينة لمجالسهم ، وكان يفعل ذلك اهل السعة واليسار ولا سيما الخلفاء ، فانهم تأنقوا في تزيينهم بأنواع اللباس المزخرفة مما لم يسبق له مثيل . واول من اقدم على ذلك الأمين بن الرشيد فانه بالغ في طلب الغلمان ولا سيما الخصيان ، وابتاعهم وغالى فيهم وصيرهم لخلوته وزينهم زينة الجواري . ثم صار الاستكثار من الغلمان سنة عند الخلفاء فكان عند

---

١ – المسعودي ٢٢ ج ٢ . ٢ – المقريزي ٩٥ ج ١ . ٣ – الدميري ٤٩ ج ١ .
٤ – ابن الاثير ١٤٧ ج ٤ والاغاني ٣٧ ج ١ . ٥ – طبقات الاطباء ١٤١ و ١٤٥ ج ١ .

المقتدر بالله ١١٠٠٠ غلام او مملوك ، وفيهم البيض والسود . فالبيض من الفرس والديلم والترك والطبرية وغيرهم ، والسود من النوبة والزغاوة يجلبونهم من مصر ومكة وافريقية . والزنج اصلهم من رجال صاحب الزنج الذي ثار بالبصرة ، وهم غتم قح يأكلون لحوم الناس والبهائم الميتة ، وقد عوقبوا على ذلك فلم يرجعوا وكانوا منفردين لا يختلطون بالبيض ، ولكل طائفة نوبة في خدمة الخليفة في حراسة وغيرها [١] .

٢ الخصيان

الخصاء عادة شرقية كانت شائعة قديماً بين الاشوريين والبابليين والمصريين القدماء ، وأخذها عنهم اليونانيون ثم انتقلت الى الرومان فالافرنج . ويقال ان اول من استنبطها سميراميس ملكة اشور نحو سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد ــ وكان المظنون ان الخصاء يذهب بقوة الرجولية ، وفي التاريخ جماعة من الخصيان اشتهروا بالشجاعة والسياسة ، وتولوا مناصب مهمة في ازمنة مختلفة ، منهم نارسس القائد الروماني الشهير في عهد جوستنيان في القرن السادس للميلاد ، وهرمياس حاكم اتارنيسة في ميسيا الشهير الذي قدم الفيلسوف ارسطو ذبيحة عن روحه غير ما ذكره فيه من القصائد . وممن اشتهر من الخصيان في الاسلام كافور الاخشيدي صاحب مصر . واشتهر منهم في الهند وفارس والصين جماعات كبيرة واستبد الخصيان في اواخر الدولة الرومانية استبداداً كبيراً .

وللخصاء اغراض اشهرها استخدام الخصيان في دور النساء غيرة عليهن . فلما ظهر الاسلام وغلب الحجاب على اهله استخدموا الخصيان في دورهم ، واول من فعل ذلك يزيد ابن معاوية ، فاتخذ منهم حاجباً لديوانه اسمه فتح ، واقتدى به غيره فشاع استخدامهم عند المسلمين مع ان الشريعة الاسلامية أميل الى تحريمه ، على ما يؤخذ من حديث رواه ابن مظعون .

وكانت تجارة الرقيق شائعة في اوربا قبل الاسلام . ومن اسباب رواجها ان قبائل الصقالبة (الروسيين) نزلوا في اوائل ادوارهم شمالي البحر الاسود ونهر الطونة ، ثم اخذوا

١ ــ تاريخ الوزراء ١٢ .

ينزحون غربا جنوبيا نحو اواسط اوربا وهم قبائل عديدة عرفت بعدئذ بقبـائل السلاف (الصقالبة او السكلاف) والصرب والبوهيم والدلماشيين وغيرهم . فاضطروا وهم نازحون ان يحاربوا الشعوب الذين في طريقهم كالسكسون والهون وغيرهم. وكان من عادات اهل تلك العصور ان يبيعوا اسراهم بيع الرقيق كما تقدم ، فتألف لذلك جماعات كبيرة من التجار يحملون الاسرى عن طريق فرنسا فاسبانيا ، وقـد يحملونهم الى افريقية والشام ومصر . فلما وقعت هذه البلاد في ايدي المسلمين راجت تلك التجارة .

فكان التجار من الافرنج وغيرهم يبتاعون الاسرى من الصقالبة والجرمان من جهات المانيا عند ضفاف الرين والالب وغيرهمـا الى ضفاف الدانوب وشواطىء البحر الاسود ـ ولا يزال اهل جورجيا والجركس الى اليوم (حوالى ١٩١٠) يبيعون اولادهم بيـع السلع ـ فاذا عاد التجار من تلك الرحلة ساقوا الارقـاء امامهم سوق الاغنام ، وكلهم بيض البشرة على جانب عظيم من الجمال ، وفيهم الذكور والاناث حتى يحطوا رحالهم في فرنسا ومنها ينقلونهم الى اسبانيا (الاندلس) فكان المسلمون يبتاعون الذكور للخدمة او الحرب والاناث للتسري . وغلب على اولئك الارقـاء انتسابهم الى قبيلة السلاف ، وكانت تلفظ عندهم « سكلاف » فعربها العرب « صقلبي » واصبح هذا اللفظ عندهم يدل على الرقيق الابيض بالاجمال . وكثيراً ما يرد لفظ الصقالبة في تاريخ الاسلام ويراد بـه الارقاء من قبائل السلاف والجرمان ـ وفعل الافرنج نحو ذلك ايضاً فاستخدموا هذه اللفظة لنفس هذا المعنى ومنها esclave في الفرنسية و Sklave في الجرمانية و slave في الانجليزية .

ولما شاع الحجاب بين المسلمين في ابان سلطانهم واستخدموا الخصيان في دورهم ، عمد تجار الرقيق ـ واكثرهم من اليهود ـ الى خصاء بعض الارقاء وبيعهم بأثمان غالية ، فراجت تلك البضاعة وكثر المشتغلون بها وأنشأوا « لاصطناع » الخصيان معامل عديدة اشهرهـا « معمل » الخصيان في فردان بمقاطعة اللورين في فرنسا . وكان اليهود يخصون اولئك المساكين وهم اطفال فيموت كثيرون منهم على اثر العملية ، فمن بقي حياً ارسلوه الى اسبانيا فيشتريـه الكبراء بثمن كبير . واصبحوا بتوالي الازمـان يتهادون الخصيان كما يتهادون الخيل او الاثاث او الآنيـة ، فـكان ملوك الافرنـج اذا ارادوا التقرب من خليفة المسلمين في الاندلس او غيرها اهدوه التحف ومن جملتها الخصيان ، كما فعل امير

برشلونة وطركونة لما طلبا تجديد الصلح من المستنصر خليفة الاندلس فانهما اهدياه ٢٠ خصياً من الصبيان الصقالبة و٢٠ قنطاراً من صوف السمور ، الخ . فتكاثر الخصيان في بلاط الخلفاء حتى تألفت منهم فرق الحراسة الخاصة ، كما تألفت الفرق من سائر المماليك والعبيد . فاذا احتفل الخليفة ببيعة او نحوها كان المماليك والخصيان زينة ذلك الاحتفال.

وراجت تجارة الصقالبة في ابان التمدن الاسلامي ، وكل ما كان يفد على المملكة الاسلامية منهم يستجلب من الاندلس لانهم كانوا يخصون بالقرب منها ، غير ما يحملونه من الصقالبة من جهات خراسان مما يسبيه الخراسانيون ويحملونه للبيع ، لأن بلد الصقالبة طويل يسبيه الافرنج من الغرب والخراسانيون من الشرق[١] .

٣ — الجواري

تكاثرهن

للجواري شأن كبير في تاريخ التمدن الاسلامي لا يقل عن شأن العبيد والموالي ، وأصل الجواري ما يسبيه الفاتحون في الحرب من النساء والبنات ، فهن ملك الفاتحين ولو كن من بنات الملوك او الدهاقين ، يستخدمونهن او يستولدونهن او يتصرفون في بيعهن تصرف المالك بملكه[٢] ولما أفضت احوال المسلمين الى الترف والقصف وتدفقت الاموال من خزائن الخلفاء والامراء جعلوا يتهادونهن كما يتهادون الحلى والجواهر. فمن احب التقرب من كبير اهدى اليه جارية اتقنت صناعة يعلم انه راغب فيها ـ فاذا علم مثلاً انه يحب الجمال اهداه وصيفة جميلة ، او علم منه ميلا الى الغناء اهدى اليه قينة رخيمة الصوت . وقد يهديه عدة جوار اتقن عدة صناعات ، وربما صارت احداهن بعد حين ام ذلك المنزل وصاحبة الامر فيه اذا استولدها سيدها . واذا كانت في دار خليفة لا يبعد ان تصير من امهات الخلفاء ، كما اتفق لاكثر خلفاء بني العباس ، ذكروا ان جارية اسمها دنانير صفراء صادقة الملاحة كانت اروى الناس للغناء القديم ، وقد خرجها رجل من اهل المدينة فاشتراها جعفر البرمكي ، وسمع الرشيد صوتها فألفها وصار يسير الى جعفر لسماع غنائها ووهب لها هبات سنية . وعلمت امرأته زبيدة بخبرها فشكته الى عمومته فلم ينجحوا في

---

١ — ابن حوقل ٧٥ . ٢ — ابن خلكان ٣٢٠ —

ارجاعه ، فرأت ان تشغله عنها بالجواري فأهدت اليه عشر جوار منهن مارية ام المعتصم ومراجل ام المأمون وفاردة ام صالح [١] .

وكثيراً ما كان العمال والامراء يتقربون الى الخلفاء بأمثال هذه الهدايا ، فأهدى ابن طاهر الى الخليفة المتوكل هدية فيها ٢٠٠ وصيفة ووصيف [٢] فلا غرو اذا تكاثرن في قصور الخلفاء والامراء وأهل الوجاهة وليس الاستكثار منهن حادثاً في الاسلام ، وانما هو من بقايا التمدن القديم، فقد كان ملوك الفرس والروم يتهادونهن وبلغت عدتهن عند بعض الاكاسرة ٦٠٠٠ جارية [٣] وكان لجماعة من بني العباس الف جارية ، وسيأتي بسط ذلك في مكان آخر .

اصناف الجواري

فلما تعود الناس اقتناء الجواري اشتغل النخاسون في استجلابهن من اقصى بلاد الترك والهند والكرج والخطا وأرمينيا والروم والبربر والنوبة والزنج والحبشة صغاراً وكباراً يربونهن على ما تقتضيه مواهبهن او جمالهن ، فينبغ منهن الخدم والحواضن والمواشط والولائد والمغنيات والعوادات والعالمات وامهات الدهاء والسياسة وغير ذلك . وفيهن البيضاء والسمراء والحمراء والبربرية والزنجية ، بين مولدة في البصرة او الكوفة او بغداد ممن يفصحن العربية ، ومجلوبة من ارضها او سبية اخيذة على حالها تتكلم التركية او الفارسية او الرومية او الهندية او البربرية ، ولا تزال ولو تعربت اعجمية اللسان . والمولدة اثمن من الجليبة ، وتختلف اثمانهن باختلاف الصناعة او الجمال وباختلاف الغرض من ابتياعهن للتوليد او الغناء او الخدمة . وفي الجليبات النصرانية واليهودية والمجوسية ، لكل منهن شأنها في دينها حتى يعيدن اعيادهن بما يستلزمه العيد من الزينة الدينية كالصلبان والاحجبة ونحوها ـ ذكر احمد بن صدقة انه دخل على المأمون في يوم الشعانين وبين يديه عشرون وصيفة جلبا روميات مزنرات قد تزين بالديباج الرومي وعلقن في اعناقهن صلبان الذهب وفي ايديهن الخوص والزيتون [٤] .

على انهم كانوا يختصون كل صنف من الجواري بصفات خاصة ، وقد صنفوا كتباً في هذا الموضوع بينوا فيها الصفات المستحسنة في كل صنف منهن ، وخلاصة ذلك قولهم :

---

١ ـ الاغاني ١٣٧ ج ١٦ . ٢ ـ المسعودي ٢٨٠ ج ٢ .
٣ ـ المسعودي ١١٥ ج ١ وترتيب الدول ١١١ . ٤ ـ الاغاني ١٣٨ ج ١٩ .

من اراد النجابة فبنات فارس ، ومن اراد الخدمــة فبنات قيصر ، ومن اراد غــير ذلك فبنات بربر ، والمولدات والزنجيات للزمر ، والحبشيات للحفظ وخزن المــال ، والنوبــة للطبخ ، والأرمن للتربية والرضاع . ومن أقوالهم : الوجوه في الترك ، والأجسام في الروم ، والشعور في الخطا وفارس ، والعيون في الحجاز ، والخصور في اليمن [١] وقالوا في وصف المولدات بالبصرة والكوفة . إنهن ذوات الألسن العذبة ، والقدود المهفهفــة ، والأوساط المخصرة ، والأصداغ المزرفنة ، والعيون المكحلة [٢] مما يطول شرحه . وكانت تجــارة الجواري على أروجها في بغداد ، فكانوا يحملون اليها أجملهن خلقاً وأذكاهن عقلاً ، لمــا يتوقعون من بيعهن بالأثمان الباهظة .

تعليم الجواري

وكان تعليم الجواري وتربيتهن من أبواب الكسب الواسعة في ذلــك العصر ، فيذهب أحدهم الى دار الرقيق يبتاع جارية يتوسم فيها الذكاء ، فيثقفها ويرويها الأشعار او يلقنهــا الغناء او يحفظها القرآن او يعلمها الأدب او النحو او العروض او فنــاً من فنون المنازل ثم يبيعها . وكان يفعل ذلك على الخصوص المغنون المشهورون بدقة الصناعة كإبراهيم الموصلي وابنه اسحق ، فربما ابتاع احدهم الجارية بمائة دينار فاذا علمها وثقفها باعها بخمسمائــة أو الف ديناراً [٣] واشهر المغنيات في المدينة والبصرة وبغداد تعلمن على هذه الصورة . وقد يربي بعضهم الجارية ويهديها الى الخليفة او الوزير لتكون وسيلة له في نفوذ الكلمة عنده . وقد تنبغ احداهن في فن من الفنون الجميلة كالغناء او الشعر او الادب فتبتــاع بألوف الدنانير [٤] . فكيف اذا اتقنت غير فن منها ؟ وربما نبغت منهن من تجيــد الشعر والغناء او فنون الادب والاخبار ، فيقصدها اهل الادب وذوو المروءة للمذاكرة والمساجلة في الشعر وغيره ، وقد ينبغن في حفظ القرآن ، حتى كان منهن عند أم جعفر مائة جارية لكل واحدة ورد عشر القرآن ، وكان يسمع في قصرها كدوي النحل من القراءة [٥] .

فتعدد الجواري في دور الكبراء وتسابق أهل الترف في التفنن في تزيينهن . وأشهر من فعل ذلك أم جعفر المذكورة ، فإنها لما رأت ابنها يغالي في تخنيث الغلمان والباسهم ملابس النساء اتخذت طائفة من الجواري سمتهن المقدودات ، عممت رؤوسهن وجعلت لهن الطرر

---

١ – ترتيب الدول ١١٢ . ٢ – المسعودي ١٥٤ ج ٢ .
٣ – الاغاني ١٥٤ ج ٨ . ٤ – الجزء الثاني من هذا الكتاب . ٥ – ابن خلكان ١٩٠ ج ١ .

والأصداغ والأقفية وألبستهن الأقبية والقراطق والمناطق كأنهن من الغلمان ، واقتدى بها وجيهات قومها فاتخذن الجواري الغلاميات او المطمومات وألبسنهن الأقبية والمناطق الذهب (١) .

نفوذ الجواري

وطبيعي في ربات الحسن أن يكن نافذات الكلمة لأن الجمال قوة والحب سلاح،ولذلك كان أرباب الدهاء من الخلفاء والأمراء يتباعدون عن الجواري ، إذا أهـدي الى احدهم جارية لم يلتفت اليها ، ولا سيما مؤسسي الدولة كمعـاوية والمنصور وعبد الرحمن الداخـل . فاشتهر المنصور بكرهه للهو ، وكان عبد الرحمن إذا أهداه أحد جارية ردها (٢) وعكس ذلك خلفاء اواسط الدولة ابان الترف والقصف والرخاء ، فإنهم كانوا يتمادون في حب الجواري حتى يتسلطن على عقولهم ، كما فعلت حبابة بيزيد بن عبدالملك الأموي حتى كادت تذهب بعقله وشغلته عن مهام الخلافة . وكما فعلت ذات الخال بالرشيد ، فإنها ملكت قياده حتى حلف يوماً أنها لا تسأل شيئاً في ذلك اليوم إلا قضاه لها،فسألته أن يولي حمويه الحرب والخراج بفارس سبع سنين ، ففعل وكتب له عهده به وشرط على ولي عهده بعده أن يتمها له إن لم تتم في حياته (٣) وكثيراً ما كان الخلفاء والأمراء يشتغلون بالجواري عن رعاية الملك ولا سيما المغنيات ، ولذلك كان رجال الحيلة يستخدمونهن للجاسوسية أو نيل رتبـة أو منصب ، وكان المأمون يدس الوصائف هدية ليطلعنه على اخبـار من شاء (٤) ويزداد الجواري نفوذاً وسطوة اذا صرن أمهات كما صارت الخيزران وغيرها من أمهات الخلفـاء – راجع الجزءين الثاني والرابع من هذا الكتاب ، وسيأتي الكلام على المغنيات في باب المغنـين .

طبقات العامة

فرغنا من طبقات الخاصة واتباعهم ، ونحن متكلمون عن العامة وهم أكثر عدداً وأبعد عن الحصر ، لأنهم لفيف من أمم شتى ولا سيما في بغداد في إبان عمارتها ، وقد تقاطر اليها

---

١ – المسعودي ٣٦٦ ج ٢ .
٢ – نفح الطيب ٧٠٩ ج ٢ .
٣ – الاغاني ٨٠ ج ١٥ .
٤ – العقد الفريد ١٤٨ ج ١ .

المرتزقون والمحترفون والمستجدون من اطراف المملكة الاسلامية ، بين صانع وبائع وفيهم العربي والنبطي والفارسي والخراساني والتركي والسندي والرومي والكرجي والأرمني والكردي والقبطي والبربري والنوبي والزنجي والأندلسي وغيرهم . وفيهم اهل الحرف الراقية ، وتجار السلع والأقمشة والجواهر والرقيق وباعة الطعام والشراب ، فضلاً عن الأدباء والشعراء والحكماء والمغنين والندماء مما يطول شرحه ويعسر حصره . على أننا تسهيلاً للبحث نقسم العامة على الاجمال الى طبقتين كبيرتين : الأولى طبقة المقربين من الخاصة ، والثانية طبقة الباعة واهل الحرف والرعاع وغيرهم .

الطبقة الأولى

المقربون من الخاصة

نريد بهذه الطبقة نخبة العامة الذين تسمو بهم نفوسهم أو عقولهم الى التقرب من الخاصة بما يعجبهم او يطربهم ، فيستظلون بهم ويعيشون من عطاياهم او رواتبهم او يرتزقون من بيع سلعهم لهم ، وهم أربع فئات : أهل الفنون الجميلة والأدباء والتجار والصناع .

١ — أهل الفنون الجميلة

المصورون

الفنون الجميلة — ويسميها العرب « الآداب الرفيعة » — ثلاثة : التصوير ، والشعر ، والموسيقى . فالتصوير لم يكن له شأن كبير في التمدن الاسلامي لورود القول بتحريمه ، وإنما كانوا يصورون ما يصورونه في الدولة الأموية والعباسية يقلدون به ما بين أيديهم من تصوير الروم والفرس ، او ما جاء به السلاجقة من صناعة المغول من اواسط تركستان . على أن التصوير أزهر وارتقى في بلاد فارس بعد اجتماع كلمة الفرس تحت سيطرة المغول على أثر فتح هولاكو بغداد سنة ٦٥٦ هـ فان تلك الصناعة أخذت في الارتقاء من ذلك الحين ، لأن المغول المشار اليهم أتوا معهم بمهندسين من أهل الصين تولوا هندسة حصار بغداد ، ومعهم جماعة من أرباب الفنون الجميلة والرياضيات والصناعات الدقيقة ، فاستفاد الفرس منهم واتقنوا هذه الفنون وفي جملتها التصوير ونشروه في سائر ممالك المسلمين ،

وزينوا به كتبهم وجدران قصورهم ومنسوجاتهم في بلاد فارس ومصر وتركستان وغيرها [١] وفي دور الكتب الكبرى في مدائن العالم المتمدن اليوم أمثلة من هذه الصور ، ملونة تلويناً بديعاً أكثرها تمثل حوادث بعض كتب التاريخ او الأدب او العلم . وبعضها تمثل رسوماً خيالية كصورة المعراج ونحوها . ففي دار الكتب بالقاهرة صور ملونة هي عبارة عن اشكال زينوا بها كتابي الشاهنامة للفردوسي وعجائب المخلوقات للقزويني وغيرهما . أما في ابان التمدن الاسلامي فلم يكن لأهل هذه الصناعة سوق عند الخاصة ، الا من اشتغل منهم بهندسة الأبنية ولا سيا في الأندلس .

أما الشعر والموسيقى فقد راجا وتقرب أصحابها من الخلفاء وسائر طبقات الخاصة واكتسبوا بها الأموال الطائلة . وقد بينا في الجزء الثالث من هذا الكتاب ما هو الشعر العربي وما أصله ، وما كان شأنه في الجاهلية وما آل اليه بعد الاسلام ، من عصر الراشدين فالأمويين فالعباسيين وسائر دول الاسلام ،وتحدثنا عن جمع الشعر ورواته وطبقات الشعراء في الاسلام واشعارهم ، والشعر وتأثيره في الدولة والشعر والخلفاء والأمراء وغير ذلك ، – وسيأتي الكلام عما كان الشعراء يصيبونه من الأموال – بقي علينا النظر في الموسيقى وأهلها وهم المغنون .

٢ — المغنون

الغناء قبل الاسلام

الغناء طبيعي في الأمم ، لأنه لغة النفوس وترجمان العواطف، وكل أمة غناؤها يناسب طبائعها وعاداتها ، فالعرب في الجاهلية كانوا أهل ماشية وانعام وخيام ، فلم ينتبهوا الى شيء من الفنون الجميلة غير الشعر . وكانوا يلهجون به ويطربون بتلاوته بلا ترنيم ولا غناء، وتلك أول خطوة نحو الموسيقى لأنها بنت الشعر أو أخته .

ثم ظهر فيهم « الحداء » وهو غناء يتغناه الحداة في سوق إبلهم والفتيان في قضاء خلواتهم ، ثم عمدوا الى « الترنيم » . وكان ترنيمهم على نوعين : « الغناء » وهو ترنيم الشعر، و « التغبير » (بالغين والباء) وهو ترنيم القراءة لغير الشعر .

---

١ – Revue Arch. Les Ecoles des Peintures en Perse, 1905, 11.

ثم تنوع الغناء عندهم حتى صار على ثلاثة أوجه ، أو ثلاثة ألحان أو أصوات وهي : النصب والسناد والهزج . « فالنصب » يريدون به غناء الركبان وغناء الفتيان، وهو الذي يقال في المراثي ، ويسمى « الغناء الجنابي » نسبة الى رجل من قبيلة كلب اسمه جناب بن عبد الله يزعمون أن أصل الحداء منه ، وهو يخرج من الطويل في العروض . و « السناد » اللحن الثقيل ذو الترجيع الكثير النغمات والنبرات . وهو على ستة طرق ، منها الثقيل الأول وخفيفه والثقيل الثاني وخفيفه . وأما «الهزج» فهو الخفيف الذي يرقص عليه ويمشى بالدف والمزمار فيطرب ويستخف الحلوم . وشاع الغنـاء قبل الاسلام في أمهات المدن من بلاد العرب وهي المدينة والطائف وخيبر [١] .

أما آلات الموسيقى عندهم فأشهرها الدف ، وهو أشكال منها المستدير والمربع والكبير والصغير ، والمزمار على أبسط أنواعـه . ولا يظهر انهم كانوا يعرفون غير الدف والمزمار وما يتفرع عنها من آلات النفخ والقرع . وأما آلات الأوتار كالعيدان والطنابير والمعازف ونحوها فهي من صناعة الفرس والروم ، لم يعرفها العرب الا بعد الاسلام .

الغناء في الاسلام

فلما جاء الاسلام واستولى العرب على ممالك الدنيا وحازوا سلطان العجم والروم ، كانوا في عصر الراشدين لا يزالون على بداوتهم مع غضارة الدين وشدته ، مما يدعو الى ترك احوال الفراغ وما ليس نافعاً في دين ولا معاش ، حتى تركوا ما كان عندهم من انغـام الجاهلية ، ولم يكن الملذوذ عندهم الا ترجيع القراءة والترنم بالشعر . فلما جاءهم الترف في ايام بني امية ومن بعدهم وغلب عليهم الرفه بما حصل لهم من غنائم الامم صاروا الى نضارة العيش ورقة الحاشية واستحلاء الفراغ . وكان المغنون من الروم والفرس قـد دخلوا في سلطان العرب ، وحمل بعضهم الى الحجاز في جملة الاسرى او السبايا فاصبحوا من موالي العرب ، وقد حملوا معهم العيدان والطنابير والمعازف والمزامير ، فغنوا بها فأعجبـوا بألحانهم فاشتغل المغنون واكثرهم من الموالي في تلحين اشعار العرب على الالحان الفارسية او الرومية ، فنبـغ في المدينة في ايام بني امية طائفة من المغنين . والمشهور ان اول من ادخل غناء الفرس الى العربية سعيد بن مسجح ، وهو مـكي اسود كان في مكة لمـا حاصرها الامويون ، وفيها ابن الزبير في اواخر القرن الاول للهجرة ، فاستقدم ابن الزبير بعض

---

١ – العقد الفريد ١٨٦ ج ٣ .

البنائين من الفرس لترميم الكعبة ، فسمعهم سعيد بن مسجح يغنون بالفارسية فالتقط النغم وغناه بالعربية ، فأعجب الناس كثيراً فسافر الى الشام وفارس فاتقن فن الغناء وعنه أخذ من جاء بعده من مغني المدينة وغيرها . وشاع الغنـــاء في المملكة الاسلامية وراجت بضاعته باتساع اسباب الحضارة والرخاء ، وتكاثر المغنون لما شاهدوه من رغبة الخاصة في الغناء ، فنبغ جماعة من مهرة الموسيقيين اتقنوا هذه الصناعة وآلاتها اتقاناً حسناً ، على ما بيناه في الجزء الثالث من هذا الكتاب ، وانما يهمنا الآن النظر في تاريخ انتشار المغنين في الاسلام وما كان من منزلته ومنزلتهم .

الغناء والدين

كان الغناء في صدر الاسلام مكروهاً ان لم نقل محرمــاً ، واختلف الائمة في تحريمه وتحليله كله او بعضه . ويقال بالاجمال ان اهل الحجاز اجازوه واهل العراق كرهوه ، وحجة من أحله ان اصله الشعر الذي استحسنه النبي (ص) وحض عليه وندب اصحابه اليه واستنصر به على المشركين ، فقال لحسان شاعره : « شن الغارة على بني عبد مناف ، فوالله لشعرك اشد عليهم من وقع السهام في غلس الظـلام » واكثر شعر حسان يغنى به . وحجة من حرمه انه يسعر القلوب ويستفز العقول ويستخف الحلـــيم ويبعث على اللهو ويحض على الطرب ، وهو باطل من اصله [١] وحلل آخرون بعض الغناء وحرموا بعضه ، ولكن اهل التعقل والتقوى كانوا يكرهونه في كل حال ، ولذلك لم يظهر الا بعــد عصر الراشدين . وكان معاوية بن ابي سفيان يعيب على الراغبين في الغناء ، ولا سيما اهل الوجاهة والشرف ، وله مع عبد الله بن جعفر حكاية تدل على انه كان يعيب عليه استماع الغناء [٢] وان سره اشتغال هذا وسواه من اهل النبي باللهو والطرب عن مقاومته في طلب الخلافــة بل هو كان يبذل لهم الاموال في هذا السبيل .

ولما تولى الخلافة اصحاب اللهو والقصف أخذ الغناء في الانتشار ، وأول من أباحــه ونشط اهله يزيد بن معاوية ، ففي ايام هــذا (سنة ٦٠ – ٦٤ هـ) ظهر الغنــــاء في مكة واستعملت الملاهي لانه كان صاحب لهو وطرب[٣] وتفشى الغناء الجديد في الحجاز ولاسيما المدينة . وما زال محصوراً فيها تقريباً حتى أفضت الخلافة الى الوليد بن يزيد بن عبد الملك

---

١ – العقد الفريد ١٧٨ ج ٣ . ٢ – العقد الفريد ١٨٢ ج ٣ .
٣ – المسعودي ٦٨ ج ٢ .

(سنة ١٢٥ – ١٢٦ هـ) وكان صاحب شراب ولهو مع تهتك وخلاعة ، فبعث الى المدينة في استقدام المغنين اليه في دمشق (١) فاخذ الغناء في الانتشار في بلاد الاسلام من ذلك الحين

مقاومة الخلفاء للغناء

على ان اهل التعقل من الخلفاء والامراء كانوا لا ينفكون عن منعه جهد طاقتهم ، وكان العقلاء من غير الحكام يحرضون الولاة على منعه حتى في المدينة معدن الغناء في ذلك العصر (٢) وكثيراً ما كان امير مكة يخرج المغنين من الحرم خوفاً من افتتان الناس بغنائهم (٣) وصرفهم عن امور دينهم ، ولم يكن اهل الغيرة على العرض يصبرون على سماعه ومن اقوالهم : « المغنون رسل الغرام » .

ذكروا ان سليمان بن عبد الملك كان يكره الغناء ، فسمع مغنياً في عسكره فطلبه فجاءوه به فقال : « أعد ما غنيت » فتغنى واحتفل فقال سليمان : « والله لكأنها جرجرة الفحل في الشول ، وما أحسب انثى تسمع هذا الا صبت اليه » ، ثم امر به فخصي ! (٤) .

وسليمان هو الذي امر بخصي المخنثين في المدينة لمثل هذا السبب – قيل انه كان في بادية له يسمر ليلة على ظهر سطح وقد تفرق عنه جلساؤه ، فدعا بوضوء فجاءت به جارية فبينما هي تصب عليه لحظ ان ذهنها مشتغل عنه بغناء تسمعه فتجاهل . وفي الصباح ذكر الغناء ولين فيه حتى ظن القوم انه يشتهيه ، فأفاضوا فيه وذكروا من كان يسمعه ومن يغنيه حتى توصل الى الرجل الذي شغلت الجارية بغنائه في الامس . فلما تحقق ذلك اقبل على القوم وقال : « هدر الجمل فضبعت الناقة ، ونب التيس فشكرت الشاة ، وهدل الحمام فزافت الحمامة ، وغنى الرجل فطربت المرأة ! » ثم امر به فخصي . وسأل عن الغناء اين اصله فقيل : « في المدينة بجماعة المخنثين وهم ائمته والحذاق فيه » فكتب الى عامله هناك : « اخص من قبلك من المخنثين المغنين » فخصاهم (٥) .

على ان المتهتكين من الخلفاء والامراء لم ينكروا ما يجر اليه الغناء من اسباب اللهو ، قال الوليد بن يزيد الذي ذكرنا انه اول من استقدم المغنين اليه : « اياكم والغناء ، فانه

---

١ – العقد الفريد ٢٦٩ ج ٢ والمسعودي ١٣٣ ج ٢ .

٢ – العقد الفريد ١٩٦ ج ٢ . ٣ – الاغاني ١٣٠ ج ٢ .

٤ – الكامل للمبرد ٣٧٧ . ٥ – الاغاني ٦١ ج ٤ .

ينقص الحياء ويزيد في الشهوة ويهدم المروءة ويثور على الخمر ويفعل ما يفعل المسكر ، فان كنتم فاعلين فجنبوه النساء فان الغناء رقية الزنا ، واني لأقول ذلك فيه على انه احب الي من كل لذة واشهى الي من المـاء البارد الى ذي الغلة ، ولكن الحق احق ان يقال !»[١] .

فكيف بالعقلاء واهل الحزم ومؤسسي الدول او معيديها مثل معاوية وهشام والمنصور وابي مسلم ، او اهل التقوى مثل عمر بن عبد العزيز الأموي والمهتدي العباسي ؟ فقد تقدم ما عابه معاوية على عبدالله بن جعفر . اما هشام فسمع عن اشعب المضحك في المدينة فأمر كاتبه ان يكتب باستقدامه ، فلما ختم الكتاب اطرق هشام طويـلا ثم قال : « هشام يكتب الى بلد رسول الله ليحمل اليه مضحك ؟! » وتمثل :

اذا انت طاوعت الهوى قادك الهوى   الى بعض مـا فيـه عليك مقال

واوقف الكتاب[٢] . وأما المنصور فقد كان يعير آل الزبير بحبهم الغناء[٣] وسمع ذات يوم ضرب طنبور في داره فكسره على صاحبه . أما عمر بن عبدالعزيز فبلغه ان قاضيا من قضاته استخفه الطرب من الغناء فـأمر بعزله[٤] . والمهتدي العباسي كان يتشبه بعمر المذكور ، فلما تولى الخلافة سنة ٢٥٥ هـ كانت الملاهي قد انتشرت في الدولة العباسية فأمر بمنع الغناء[٥] وربما امتنعوا عنه الى اجل ريثما يصفو لهم الزمان ، كما فعل المأمون لما عاد من خراسان وقد اهمه تأييد خلافته ، فبقي عشرين شهراً لا يسمع غنـاء[٦] وكذلك الامراء العقلاء مثل خالد القسري ، فإنـه أمر صاحب شرطته بمنع الغناء من العراق[٧] .

اشتغال الخلفاء بالغناء

ولكن ذلك لم يكن ليمنع تيار الترف من مجراه الطبيعي ، على ما اقتضته الحضارة في ذلك العهد . فالمسلمون لما تحضروا واخلدوا الى السكينة والراحة عمدوا الى اسباب الرخاء وفي جملتها الغناء ، والمرجع في ذلك الى الخلفاء والامراء ، لأن الناس على دين ملوكهم ولا

---

١ – الاغاني ١٣٤ ج ٦. ٢ – المسعودي ١٣١ ج ٢ .
٣ – الاغاني ١١٥ ج ٢ . ٤ – المسعودي ١٢٢ ج ٢ .
٥ – فوات الوفيات ٣٧١ ج ٢ . ٦ – الاغاني ١٠٦ ج ٥ .
٧ – الاغاني ١٢٣ ج ٢ و ٦٣ ج ١٩ .

سيما في الحكم المطلق ، فاذا احب الخليفة الغناء احبه رجال دولته . فراجت بضاعته وكثر المغنون والمغنيات حتى اشتغل الخلفاء وأهلهم به وتعلموا الضرب على آلاته . واول من دونت صنعته به عمر بن عبد العزيز في ايام امارته على الحجاز ، ثم الوليد بن يزيد وله اصوات اشتهرت عندهم ، واشتغل جماعة من خلفاء بني العباس بصناعة الالحان والتلحين، اشهرهم الواثق والمنتصر والمعتز والمعتمد والمعتضد . اما ابناء الخلفاء فأول من دونت صنعته فيه ابراهيم بن المهدي وابو عيسى بن الرشيد وعبدالله بن موسى الهادي وعبدالله بن محمد الأمين وابو عيسى بن المتوكل وعبدالله بن المعتز وغيرهم . فقس على ذلك ما كان في زمن بني أمية ، ولا سيما في عصر الاضمحلال ، حتى كانوا يحملون المغنين وآلاتهم في اسفارهم ولو الى القتال ، فقد وجدوا في معسكرهم لما ظفربه العباسيون بنواحي اصبهان سنة ١٣١ هـ ما لا يحصى من البرابط والطنابير والمزامير[١] .

فالغناء المطرب من جملة ما اقتبسه المسلمون من البلاد التي فتحوها ، فاشتغلوا بنقل كتب الموسيقى من الفارسية والهندية [٢] وحملهم الترف على سماعه والولوع به ، فتقرب به اليهم جماعة من العامة صار لهم مقام رفيع بين الجلساء – وسنعود الى ذكرهم .

٣ ـ العلماء والفقهاء والأدباء

هم طائفة من العامة تقربوا الى الخلفاء بما يلذ لهم من سماع الاخبار والنوادر ، او النظر في علوم تلك الايام الدينية او اللسانية او الادبية او التاريخية . ويدخل في ذلك الفقهاء والمحدثون والنحاة والأدباء من اصحاب الاخبار ، كالاصمعي وابي عبيدة والكسائي والفراء وغيرهم . وكان للخلفاء رغبة في مجالستهم وسماع ابحاثهم ، فكانوا يقربونهم ويعظمون شأنهم ويفرضون لهم الأعطية والرواتب ، على ما سنبينه في باب ابهة الدولة . وقد تكلمنا عن الفقهاء ومنزلتهم في اماكن كثيرة من هذا الكتاب .

واقتدى بالخلفاء وزراؤهم وامراؤهم ، كالبرامكة وآل الفرات فانهم اغدقوا

---

١ – ابن الاثير ١٩٠ جـ ٥ .   ٢ – الجزء الثالث .

الاموال على هؤلاء فنشطوا العلم واهله حتى صار العلم صناعة يرتزق بهـا اصحابها من الناس . ويدخل فيما تقدم المترجمون من غير المسلمين ، وفيهم السريان والروم والفرس وغيرهم ممن نقل العلوم القديمـــة الى اللغة العربية في العصر العباسي ، فانهم فئة من اهل الذمة قربهم الخلفاء وأكرموهم من اجل علمهم على ما فصلنـــــاه في الجزء الثالث من هذا الكتاب .

٤ ـــ التجار

نريد بالتجار باعة السلع الثمينة التي تقتضيها الحضارة ، كالجوهرات والمصوغات والرياش الثمين والثياب الفاخرة والآنية والرقيق . واكثر ارتزاقهم من الخليفة وأهـله وأهل دولته وسائر الخاصة من جلسائه وأعوانه . وكانوا يقيمون في بغداد والبصرة وغيرهما من المدن الاسلامية ، وأكثرهم من جالية الفرس والروم وغيرهم من الامم التي اشتهر أهلها بالعناية بهذه الطرف ، كانوا يحملون الى دار السلام اصناف التجارة للارتزاق مما يتدفق من خزائن الدولة في عصر الثروة .

فكانوا يحملون الياقوت والماس من بلاد الهند ، واللؤلؤ من البحرين ، والعقيق والعاج من الحبشة ، والادهان والزيوت العطرية من نيسابور ، ونسيج الكتان من شيراز . وطراز الوشي والاقمشة المنسوجة من الشعر التي تصنع منها ثياب مثقالية يلبسها الخليفة ورجال الدولة ، والكلل المرتفعة والستور المعلمة من القز ، هذه كلها من فسا . والبسط والنخناخ والمصليات والزلالي من جهرم . والستور والمقاعد من دشت . وأحسن اصناف البسط والتكك الرفيعة والوسائد والانماط والمقاعد من ارمينية ، وكان لهم صبغ من القرمز يصبغون به الصوف لا مثيل له . والعتابى والوشي وسائر ثياب الحرير من أصفهان. والثياب المنيرة من الري ،والابريسم ومطارف القز وطباق الخشب من طبرستان ونيسابور . والسمور الاسود وجلود الخز وجلود الثعالب السود من بـلاد الروس ، والبز من بلخ . والكاغد والنوشادر والأوبار والسمور والسنجـاب والثعالب من وراء النهر ، وكذلك المسك ، ولكن اصله من بلاد التبت . والبسط والمصليـات وثياب الصوف من بخـارا . والديبقي من تنيس ودميـاط . والستور والبسط المصرية من البهنسا . والطيالسة المقورة الرفيعة من كرمان . والحصر والقناطي والقراطيس من مصر . والمناديل الديلمية السضاء

المعلمة من قومس ـ ربما بلغ ثمن المنديل منها ٢٠٠٠ درهم . والمقانع القزيات من جرجان والسوس. والبرود المنيرة والقصاع والأمشاط من الري . والاكسية والجوارب من قزوين. والخفاف والسمور من همدان . والزجاج والخزف من البصرة . والحصر من عبادان . والديباج والانماط من تستر ، والجلود المدبوغة من الحبشة بطريق اليمن . والمسك والكافور والعود من الصين .

اما الرقيق فأبيضه كان يحمل مما وراء النهر ، وأصله من الصقالبة او من الخزر الاتراك من بادية تركستان ، وأحسنهم يربى في سمرقند وخوارزم ثم يحمل الى بلاد الاسلام . ويحمل الرقيق الابيض ايضاً من الاندلس وفيه الجواري والغلمان ، وأصلهم من سبي الافرنج وجليقية او من الصقالبة كما تقدم . ومن الرقيق الابيض صنف كان يرد من خراسان غال جداً ، ربما بيع الغلام منه بخمسة آلاف دينار . إما الرقيق الاسود فكل ما يحمل منه الى بلاد الاسلام من السودان بطريق مصر او بلاد المغرب .

وكان لهذه التجارات قوافل او سفن تنقلها من الشرق والغرب والشمال والجنوب ، وتبيعها في أسواق بغداد وغيرها من المدن الاسلامية . واكثر الناس اشتغالا بنقلها في البر طائفة من التجار اليهود الراذانية كانوا يتقنون اللغات الرائجة في ذلك العصر ، وهي العربية والفارسية والرومية والافرنجية والاندلسية والصقلبية ، ويسافرون بين الاقاليم العامرة يحملون التجارات من اقليم الى آخر [١] كما كان الفينيقيون ابان دولتهم .

اما التجارة البحرية فاشهر اصحابها السيرافيون ، فقد كانوا يحملون الجواهر والعاج والابنوس والفلفل والصندل والعود والعنبر والكافور وسائر الاطياب والعقاقير والتوابل من الهند والصين وشواطىء افريقيا وجزائر الهند واليمن وغيرها الى البصرة فبغداد [٢] .

فكان التجار يفدون على دار السلام بهذه التجارات فيبيعونها بالاثمان الفاحشة. ويدخل في هذه الطبقة من الناس الصيارفة واكثرهم من اليهود ، وكانوا يقرضون رجال الدولة المال بالربا الفاحش . اشتهر منهم في بغداد صيارف كانت مكاسبهم موقوفة على الدولة ورجالها كآل فنخاس وآل عمران وغيرهم .

---

١ ـ ابن خرداذبة ١٥٣ .　　٢ ـ الاصطخري والمسعودي .

تجار المسلمين

فلما نضج التمدن الاسلامي واشتغل المسلمون أنفسهم بالتجارة لم يقصروا في شيء من شروطها ، واتقنوها علماً وعملا حتى الفوا الكتب فيها وفي الاقتصاد السياسي . وبين يدينا نسخة من كتاب « الاشارة الى محاسن التجارة للشيخ أبي الفضل جعفر بن علي الدمشقي من أهل القرن الخامس للهجرة ، فيه فوائد اقتصادية لم يسبقه أحد اليها وأبحاث في معنى النقود والسلع والمال الصامت والأعراض وتحقيق اثمان الأشياء ، ما لا تقل قيمته عما بلغ اليه علماء الاقتصاد في هذا العصر — يدل ذلك على ما بلغ اليه المسلمون من الرقي في علم التجارة ، ناهيك بأهل الرحلة منهم الى اطراف المعمورة في ذلك العصر ، فقد طافوا العالم براً وبحراً من القرن الرابع للهجرة ، ودونوا رحلاتهم تسهيلا لأسباب التجارة ، واكتشفوا طرقاً تجارية في البحر المحيط والبحر الهندي والاحمر وفي اواسط افريقيا وآسيا لم يسبقهم اليها احد .

اما الاسفار التجارية فقد كانوا فيها سلاطين البحار ، فمخرت سفنهم البحر الابيض على كل شواطئه ، والبحر الاحمر الى آخره ، والبحر المحيط الى سومطرا فزنجبار الى بلاد الكفرة ، وشرقاً الى كلكتة وجزائر الهند والصين ، وجنوباً الى مدغشقر وسائر شواطىء افريقيا الشرقية ، واجتازوا بحر قزوين الى بلاد الخزر والروس . اما براً فاخترقوا بلاد الهند وتركستان والتبت حتى نزلوا بلاد الصين ، واوغلوا في افريقيا الى خط الاستواء ، فقربوا الأبعاد بين تلك الاصقاع المتباعدة .

فكان التجار المسلمون حوالي القرن الرابع للهجرة يجوبون الاقطار براً وبحراً ، ينقلون التجارة من بلد الى بلد ، بين شواطىء فارس وسواحل افريقيا والحبشة واليمن وسواحل الهند والصين وسائر المشرق. ويقطعون صحاري خراسان وتركستان وارمينية وافغانستان والهند والشام ومصر والسودان وافريقية والاندلس في نقل اصناف التجارة ، كأنهم هم وحدهم تجار الارض . ومركز تجارة الشرق البصرة بحراً وبغداد براً . واشتهر من تجار المسلمين ممن كانوا يخترقون البحار في القرن الرابع للهجرة السيرافيون الذين تقدم ذكرهم ، والعمانيون وكانت سفنهم التجارية تجوب بحار الصين والهند والزنج واليمن والقلزم ، وقد عرفهم المسعودي وذكرهم في تاريخه[١] .

---

١ — المسعودي : مروج الذهب ، ص ٥٤ —

ثروة التجار

وقد استغرقنا في الكلام على التجارة — وجملة القول ان التجارة العليا كانت من ابواب الرزق الواسعة في ذلك العصر لأصحاب المواهب التجارية ولمن يخدمهم التوفيق ويتقربون من البلاط او بعض اهله . فظهر في عهد ذلك التمدن بيوتات تجارية جمعت الاموال حتى تجاوزت ثروتها الملايين من الدنانير . وفيهم جماعة من عامة الناس يوصفون بالغفلة، فخدمهم حظهم حتى ارتقوا الى طبقة الخاصة وجمعوا الاموال الطائلة ، كآل الجصاص تجار الجواهر وقد اشتهروا في العصر العباسي مثل شهرة آل روتشيلدفي القرن الماضي وروكفلر الاميركي في هذا القرن ، واول من اثرى منهم الحسن بن عبدالله ، وقد قص هو نفسه توصله الى الثروة فقال :

« كان بدء يساري اني كنت في دهليز ابي الجيش خمارويه بن احمد بن طولون بمصر ، وكنت وكيله في ابتياع الجواهر وغيره مما يحتاجون اليه ، وما كنت افارق الدهليز لاختصاصي به فخرجت إلي قهرمانة لهم في بعض الايام ومعها عقد جوهر فيه مائة حبة ، لم ار قبله ولا بعده افخر ولا احسن منه ، كل حبة منه تساوي مائة الف دينار ، وقالت: يحتاج ان تخرط هذا حتى تصغر فتجعل في آذان اللعب وفي قلائدها . فكدت اطير واخذتها وقلت : السمع والطاعة ، وخرجت في الحال مسروراً وجمعت التجار ، ولم ازل اشتري كل ما قدرت عليه الى ان جمعت مائة حبة اشكالا من النوع الذي طلبته وارادته ، وجئت عشياً وقلت : ان خرط هذا يحتاج الى انتظار وزمان ، وقد خرطت اليوم ما قدرنا عليه وهو هذا ، ودفعت اليها المجتمع وقلت : الباقي يخرط في ايام ، فقنعت بذلك واعجبها الحب ، فخرجت وما زلت اياما في طلب الباقي حتى اجتمع ، فحملته اليها . وقامت علي المائة حبة بدون المائة الف درهم ، واخذت منهم جوهراً بمائتي الف دينار . ثم لزمت دهليزهم واخذت لي غرفة كانت فيه فجعلتها مسكني ، وكان يلحقني من هذا اكثر مما يحصى ، حتى كثرت النعمة وانتهيت الى ما استفاض خبره » (1) .

وكان لابن الجصاص بيت كبير في بغداد لبيع المجوهرات ، فلما كانت النكبات والمصادرات على عهد المقتدر بالله العباسي في اوائل القرن الرابع للهجرة ،كان ابن الجصاص في جملة الذين صودروا ، وسبب ذلك ان عبدالله بن المعتز لما بويع بالخلافة ثم انحل امره وتفرق رجاله وطلبه المقتدر اختفى عند ابن الجصاص المذكور ، فوشى به خادم فصادره

---

١ — فوات الوفيات ١٣٨ ج ١ .

المقتدر بالله على ١٦٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار ، وبقي له بعد مصادرتـه شيء كثير من الدور والقماش والاموال والضياع وغيرها . ويقال مع ذلك انه كان احمق ابله – فاعتبر مقدار ما كان يصل الى التجار اهل النباهة والدهاء .

وقس على ذلك ثروة تجار الفرش والاثاث ، ولا سيما في البصرة ، فقد اشتهر جماعة من اهـل اليسار واكثر غناهم من تجـارة البحر ، فقـد كانت سفن بعضهم تعد بالمئات وتحمل بها التجارة الى انحاء العالم – ذكروا واحداً منهم اسمه الشريف عمر كان دخـــله ٢ ٥٠٠ ٠٠٠ درهم في السنة [١] . وبلغت ثروة صـــاحب مراكب في البصرة ٢٠ ٠٠٠ ٠٠٠ دينار [٢] . ومنهم رجل اسمه احمد بن عمار كان طحاناً بالبصرة ، فأصعد الى بغداد في ايام المعتصم فاتسعت حاله حتى صار يخرج من الصدقة كل يوم مائـة دينار . فاذا اعتبرتها عشر ماله كان دخله الف دينار في اليوم ، واستوزره المعتصم لأمانته ولكنه كان جاهلا [٣] .

٥ – الصناع

اما الصناعة فقد اخذوا منها بنصيب كبير ، لانهم كما برعوا بالاتجـار في السلع برعوا ايضاً في صناعتها ، وارتقت الصناعة عندهم بتوالي الاجيال ، حتى فاقوا في بعضها البـلاد الاخرى وامتازوا بصناعات خاصة بهم . فهم الذين نشروا السكر في العـالم ، نقلوه من مواطنه في الهند الى بلاد فارس وأنشأوا له المعامل واستخرجوا منه اصنافاً لم يكن لها مثيل [٤] وهم اتقنوا صناعة الورق ونشروها في العالم وعنهم اخذهـــا اهل اوربا بطريق الاندلس [٥] وقد امتازت بعض مدن الاندلس بصناعات كانت تفاخر بها صناعات المشرق ، فكانوا يصنعون في مرسية وشياً مذهباً في غاية الاتقان ، وفيها ايضاً معمل للبسط لم يكن له نظير وآخر للأسرة المرصعة . وكان في مالقـة معامل للزجاج الغريب وفخار مزيـج مذهب ونوع من الفسيفساء المفضضة على شكل خاص ، ولهم اختراع في صناعة الزجاج

---

١ – ابن الاثير ٢٠ ج ٩ . ٢ – ابن حوقل ١٩٨ .
٣ – الفخري ٢١٣ . ٤ – Encycl. Brit. article Sugar .
٥ – الجزء الأول .

يؤثرونه لهم ، فذكروا ان اول من استنبط صناعة الزجاج من الحجارة عباس بن فرناس حكيم الاندلس [١] واخترعوا البارود للبنادق على ما بيناه في الجزء الاول من هذا الكتاب .

ولهم في الميكانيكيات صناعات حسنة كالساعة التي اشتهرت في جامع دمشق وذكرها ابن جبير في رحلته في القرن السادس للهجرة — وهاك ما قاله في وصفها على ما شاهده بعينه :

« وعن يمين الخارج من باب جيرون جدار البلاط الذي أمامه غرفة لها هيئة طاق كبير مستدير فيه طيقان صفر (اي نحاس) قد فتحت ابواباً صغاراً على عدد ساعات النهار ودبرت تدبيراً هندسياً . فعند انقضاء ساعة من النهار تسقط صنجتان من صفر من فمي بازين مصورين من صفر قائمين على طاستين من صفر تحت كل واحد منهما ، احدهما تحت اول باب من تلك الابواب والثاني تحت آخرها . والطاستان مثقوبتان ، فعند وقوع البندقتين فيهما تعودان داخل الجدار الى الغرفة ، وتبصر البازيين يمدان اعناقهما بالبندقتين الى الطاستين ويقذفانهما بسرعة بتدبير عجيب تتخيله الاوهام سحراً . وعند وقوع البندقتين في الطاستين يسمع لهما دوي ، وينغلق الباب الذي هو لتلك الساعة للحين بلوح من الصفر . لا يزال كذلك عند كل انقضاء ساعة من النهار ، حتى تنغلق الابواب كلها وتنقضي الساعات ثم تعود الى حالها الاول . ولها بالليل تدبير آخر ، وذلك ان في القوس المنعطفة على الطيقان المذكورة اثنتي عشرة دائرة من النحاس مخرمة تعترض في كل دائرة زجاجة من داخل الجدار في الغرفة ، يدبر ذلك كله منها خلف الطيقان المذكورة وخلف الزجاجة مصباح يدور به الماء على ترتيب مقدار الساعة ، فاذا انقضت عم الزجاجة ضوء المصباح وفاض على الدائرة امامها شعاع فلاحت للأبصار دائرة محمرة ، ثم انتقل ذلك الى الاخرى حتى ينقضي الليل وتحمر الدوائر كلها ، وقد وكل بها في الغرفة متفقد لحالها درب بشأنها يعيد فتح الابواب وصرف الصنج الى مواضعها » اه [٢] .

وقس على ذلك كثيراً من الآلات المائية وغير المائية المركبة من البكر والأكر والأنابيب والأنخال وغيرها للرفع والجر والنقل ، ولهم فيها مؤلفات طوى الزمان بعضها وأكثرها مأخوذ في اصله عن اليونانية ، ككتاب « الحيل الروحانية ومخانيقا الماء » لفيلون

---

١ — نفح الطيب ٨٧٣ ج ٢ . ٢ — رحلة ابن جبير ٢٧١ .

البيزنطي ، وكتاب « رفع الاشياء الثقيلة » لهيرون الاسكندري نقله الى العربية قسطا بن لوقا البعلبكي ، وغيرها مما نقله الافرنج الى اللاتينيـة في نهضتهم الاخيرة وفقدت ترجمتـه العربية كما فقد اصله اليوناني قبـله . وفي هذه الكتب كثير من الرسوم الموضحة لحركة تلك الآلات (١) .

واشتغل المسلمون في هذه الفنون وألفوا فيها الكتب من عند انفسهم . وقد وقفنا على مؤلف خطي في الآلات الروحانية أطلعنا عليه صديقنا الشيخ شبلي النعماني العالم الهندي الشهير، وهو تأليف « رئيس الاع ال بديع الزمان، ابو العز بن اسماعيل بن الرزاز الجزري» في اسباب الحيل والحركات الروحانية والآلات المتخذة للساعات المستوية والزمانية ونقل الاجسام بالاجسام من المقدمات الطبيعية ألفه لابي الفتح محمود بن محمد بن قزل ارسلان من آل ارتق في اواخر القرن السادس للهجرة ، فيه رسوم ملونة تمثل الآلات الضاغطة والرافعة والناقلة والمتحركة حركات خفية . وبينها رسم يشبه ما وصفه ابن جبير عن ساعة دمشق - فيدل هذا وغيره على ما بلغ اليـه المسلمون من اتقان فن الميكانيكيات مما يحتاج في وصفه الى كتاب بأسره .

١ - المشرق عدد ٦ سنة ٧ .

الطبقة الثانية من العامة

نريد بهذه الطبقة سائر من بقي من الامة وهم السواد الأعظم ، وفيهم الزارع والصانع والعيار والشاطر واللص والمخنث والصعلوك وغيرهم مما لا يحصى . ولسهولة الاحاطة بهم نقسمهم الى قسمين : اهل القرى وهم المزارعون ، واهل المدن وهم الصناع والباعة والرعاع .

١ — المزارعون أهل القرى

فالمزارعون او الاكرة يتألف منهم معظم سكان المملكة وهم اصل ثروتها ، واكثرهم من اهل الذمة يقيمون في القرى الا من اسلم منهم فينزل في المدن . وكانوا يتكلمون لغات البلاد الاصلية : السريانية والآرامية واليونانية في العراق والشام ، والقبطية بمصر ، والفارسية في بلاد فارس ، والتركية في تركستان بما وراء النهر . واخذ العنصر العربي يتغلب على عناصرهم ، واللغة العربية تتغلب على السنتهم ، والاسلام يتغلب على اديانهم ، حتى ساد الاسلام عليهم جميعاً ، وعمت العربية البلاد الواقعة غربي دجلة وهي العراق والشام ومصر وافريقية والسودان ، وصارت تعد بلاداً عربية واكثر اهلها مسلمون . وانقرضت اللغات التي كانت منتشرة فيها الا بقايا قليلة من السريانية في بعض القرى المتباعدة من الشام والعراق . اما شرقي دجلة بفارس وتركستان والهند فقد ساد الاسلام ايضاً ، وانتشرت اللغة العربية بين اهل العلم ، ولكن السنة اهل البلاد ظلت حية يتفاهم بها الى الآن .

٢ ـ العامة سكان المدن

هم نفر ممن يؤمون المدن من أهل المطامع وطلاب المكاسب ، بالتجارة او الجندية او الأدب او الشعر ، وتقعد بهم نفوسهم عن اللحاق بأهل الهمم واصحاب القرائح فيضطرون الى احتراف ما يعيشون به مما لا يحتاج لهمة او رأي . ولو اردنا الرجوع الى اصول عامة بغداد مثلا لرأيناهم اخلاطاً من مولدي العرب والفرس والترك والديلم والروم والنبط والارمن والجركس والاكراد والكرج والبربر وغيرهم ، ولكنهم يعدون عربا لتغلب اللغة العربية على السنتهم .

وعامة المدن طبقتان : الطبقة الاولى المرتزقون بالصناعة والتجارة ، وهم طائفتان : (١) الصناع اصحاب الصناعات اليدوية كالحدادين والحياكين والخياطين والحلاقين والنجارين والصيادين والخبازين والطحانين ومن جرى مجراهم (٢) الباعة الذين يبيعون البقل واللحم وغيرهما من اصناف المأكولات على انواعها وبعض المنسوجات والسلع الصغيرة . وهم طوائف كثيرة كالزياتين والبقالين والجزارين وباعة الاقمشة والطحين والخضر ونحوها .

والطبقة الثانية رعاع يرتزقون من النهب واللصوصية ، وهم اصناف كثيرة نشأت في بلاد الاسلام على اثر الفتن والانشقاق بين اهل الدولة لا يستطيع اهل هذا الجيل تصور امثالهم لبعد ذلك عن مألوفهم — إلا الذين ادركوا متشردي بيروت المعروفين بالزعران ، وهم طائفة من اهل البطالة كانوا يحترفون السرقة والتحرش بأبناء السبيل . والزعران مثال صغير لرعاع ذلك العصر ، فقد كان في بغداد وغيرها من مدن الاسلام طوائف كثيرة تعرف بالعيارين والشطار والصعاليك والزواقيل ونحوهم ، كثيراً ما استفحل أمر بعضهم حتى تعجز الحكومة عنهم وقد تستنجدهم في بعض حروبها .

والسبب في ظهورهم اضطراب الدولة العباسية بعد عصرها الأول ، بمن دخل فيها من المفسدين منذ حجر على الخلفاء واستولى الاجناد على مصالح الدولة وجعلوا همهم جمع المال لأنفسهم والتنازع على السلطة كما بيناه في الأجزاء الماضية ، ولا سيما الجزء الرابع . ولا يخفى ما تجر اليه الفتن من وقوف الأعمال وغلاء الاسعار ، غير ما كان يرتكبه الحكام انفسهم من خزن الأقوات ، فتقل أرزاق العامة فيعمدون الى التعدي ويؤلفون عصابات لمناوأة أصحاب الأموال من التجار وغيرهم في المدن ، ولا سيما بغداد أم المدائن الاسلامية

في ذلك العهد . فكان الرعاع يتكاثرون ويزدادون تعدياً ، والحكام في شاغل عنهم والخسارة معظمها على الأهالي . وتوالى ذلك أعواماً حتى خربت مدينة السلام وام حضارة الاسلام . ولا يمكن الالمام بكل طوائف الرعاع فنذكر اشهرها :

العيارون

ظهر العيارون ببغداد في أواخر القرن الثاني للهجرة ، وكان لهم في الفتنة بين الامين والمأمون شأن كبير ، لان الامين لما حوصر في تلك المدينة وعجز جنده عن الدفاع استنجد العيارين ، وكانوا يقاتلون عراة في أوساطهم المآزر وقد اتخذوا لرءوسهم دواخل من الخوص سموها الخود ودرقا من الخوص والبواري قد قرنت وحشيت بالحصى والرمل . ونظموهم نظام الجند على كل عشرة عريف ، وعلى كل عشرة عرفاء نقيب ، وعلى كل عشرة نقباء قائد ، وعلى كل عشرة قواد امير ، ولكل ذي مرتبة من المركوب على مقدار ما تحت يده . ومنهم اناس عراة قد جعل في اعناقهم الجلاجل والصدف الاحمر والاصفر ومقاود ولجما من مكانس ومذاب. وبلغ عددهم يومئذ خمسين الف عيار [١] وساروا للحرب يضربون الاعداء بالمقلاع والحصى ، وكانوا اهل مهارة في ذلك فأبلوا بلاء حسنا ، لكنهم لم يثبتوا امام المجانيق والجنود المنظمة ، فعادت العائدة عليهم وقتل منهم خلق كثير ، وفيهم يقول الشاعر :

خرجت هذه الحروب رجالا	لا لقحطان ولا لنزار
معشر في جواشن الحصر يعدو	ن الى الحرب كالليوث الضواري
ليس يدرون ما الفرار اذا الأبـ	طال عاروا في القنا للفرار
واحد منهم يشد على الفيـ	ن عريان ماله من ازار
ويقول الفتى اذا طعن الطعـ	نة خذها من الفتى العيار

وحدث نحو ذلك من العيارين في حرب المستعين والمعتز سنة ٢٥١ هـ اذ حصر المستعين بالله ببغداد نحو حصار الأمين فيها ، فاستعان بالعيارين وفرض لهم الأموال وجعل عليهم عريفاً اسمه ينونه وعمل لهم تراسا من البواري المقيرة واعطاهم المخالي ليجعلوا فيها الاحجار . على انهم كانوا كلما حدثت فتنة اهلية اغتنموا اشتغال الدولة بها وهموا

---

١ — المسعودي ٢١٨ ج ٢ .

بالمنازل والحوانيت وا نخذوا الاموال . وكثيراً ما كانت تحدث امثال هذه الفتن في بغداد من القرن الثالث للهجرة وما بعده [١] .

وكانوا يزدادون قوة كلما ازدادت الدولة ضعفاً ، وتكاثرت تعدياتهم على بغداد كلما تكاثرت الفتن فيها اما بين الحكام في التنازع على السلطة او الاموال ، واما بين العامة تعصباً لبعض المذاهب ، ولا سيا بين السنة والشيعة او الحنفية . فلم ينقض النصف الاول من القرن الخامس للهجرة حتى تسلط العيارون على بغداد ، وجبوا الاسواق واخذوا ما كان يأخذه رجال الدولة وانتظموا انتظام الشرطة او الجند ، واشتهر من رؤسائهم في ذلك العصر رجل اسمه الطقطقي وآخر اسمه الزيبق [٢] بطل القصة المشهورة .

وظهر العيارون في سائر المدن الاسلامية وعظم شأنهم ، وكثيراً ما كان الوزراء وغيرهم من ارباب الحل والعقد يقاسمونهم ويسكتون عنهم [٣] .

الشطار

هم طائفة اخرى من الرعاع كانوا يمتازون بملابس خاصة بهم ولهم مئزر يأتزون به على صدورهم يعرف بأزرة الشطار [٤] وكانوا اكثر انتشاراً في المملكة الاسلامية من العيارين واطول بقاء منهم ، وظهروا في الاندلس ولهم فيها نوادر وتنكيتات وتركيبات واخبار مضحكة تملأ الصحف الكبار لكثرتها وتضحك الثكلى [٥] على ان اسمهم كان يختلف باختلاف البلاد ، فهم يعرفون في العراق بالشطار ، وفي خراسان يسمونهم سرا بداران ، وفي المغرب الصقورة ، وسماهم ابن بطوطة « الفتاك » وذكر تفشيهم في ايامه (القرن الثامن للهجرة) واشار الى اجتماعهم على الفساد وقطع الطرق وتكاثرهم في نواحي سبزوار ، حتى هجموا على مدينة بيهق وملكوها وملكوا غيرها وجندوا الجنود وركبوا الخيل وولوا احدهم سلطاناً عليهم ، وانحاز اليه العبيد يفرون من مواليهم فكل من جاء من هؤلاء اعطاه ذلك السلطان مالا وفرساً ، واذا ظهرت منه شجاعة امره ، الى آخر ما ذكره [٦] .

---

١ – ابن الاثير ٢٤٤ ج ٨ و ١٤٥ – ١٥٠ ج ٩ .
٢ – ابن الاثير ٢٤٦ ج ٩ . ٣ – ابن الاثير ٤١ ج ١١ .
٤ – الاغاني ٩١ ج ٦ . ٥ – نفح الطيب ٧٦٦ ج ٢ .
٦ – رحلة ابن بطوطة ٢٣٥ ج ١ .

ولم يكن الشطار وغيرهم من اهـل الشرور يعدون اللصوصية جريمة ، وانما كانوا يعدونها صناعة ويحللونها باعتبار ان ما يستولون عليه من اموال التجار الأغنياء زكاة تلك الاموال التي اوصى باعطائها للفقراء[١] وكان اولئك اللصوص اذا شاخ احـدهم ربما تاب فتستخدمه الحكومة في مساعدتها على كشف السرقات . وكان في خدمة الدولة العباسية ، جماعة من هؤلاء الشيوخ يقال لهم « التوابون » ،على انهم كثيراً ما كانوا يقاسمون اللصوص ما يسرقونه ويكتمون امرهم[٢] .

طوائف اخرى من الرعاع

وهناك طوائف اخرى من رعاع العامة او من في معناهم،وتكاثروا في عصر الاضمحلال بالمملكة العباسية ، كالصعاليك والزواقيـل والحرافيش وغيرهم ، كان طلاب السلطة يستعينون بهم في حروبهم بعضهم على بعض ويعدون بالآلاف فقد كان مع أبي دلف عشرون الفاً من الصعاليك[٣] :

ويدخل في معنى هذه الطوائف ممن تجمهروا للارتزاق بالتعدي على اصحاب الاموال العبيد ، وكانوا كثيرين لا يخلو منهم منزل كما رأيت . فلما اختلت الاحوال وضعف اسيادهم ذهبت الهيبة من قلوبهم حتى اذا سنحت لهم فرصة نهضوا مع الناهضين . وربمـا انتحلوا لنهوضهم دعوة دينية يقومون بها ، كما فعل صاحب الزنج في اواسط القرن الثالث للهجرة، فانه قام قرب البصرة باسم الشيعة العلوية ، وكان في ضواحيها جماعة من العبيد يكسحون السباخ ، فدعاهم الى النهوض معه على ان يحررهم من الرق ويريحهم من التعب ، وكانوا قد شاهدوا رفاقهم الارقاء البيض (المماليك الاتراك) يتمردون على الخلفاء فاقتدوا بهم . فكل عبد سمع بهذه الدعوة تبعها ، حتى استفحل امرهم وضربوا اسيادهم بالسياط[٤] واجتمع منهم مئات الألوف ، وحاربوا الدولة العباسية بضع عشرة سنة قتلوا في اثنائها ٢ر٥٠٠ر٠٠٠ نفس من الرجال والنساء والاطفال بما تقشعر له الابدان. وانتهت تلك الدعوة بقتل زعيمها وتفريق اصحابه. واراد البجة بمصر ان يفعلوا مثل الزنج بالعراق فلم يفلحوا. وقد يعد من هذا القبيل ايضاً الحشاشون ، وهم طائفة من الفوضويين ظهروا في القرن

١ – الجزء الرابع . ٢ – المسعودي ٣٣٥ ج ٢ .
٣ – ابن الاثير ٦٩ ج ٧ . ٤ – ابن لاثير ٨٢ ج ٧ والطبري.

الخامس للهجرة ، وجعلوا دأبهم الفتك بأهل السلطة غدراً ، وكان لهم شأن كبير في تاريخ الاسلام (١) .

ومن طبقات العامة « المخنثون » ، وكانوا في الحجاز قبل الاسلام ، وهم جماعة من أهل الخلاعة انتشروا بالمدينة بعد الاسلام على أثر ظهور اللهو والقصف وكثرة الأموال . وكثيراً ما كانوا يفسدون النساء يتوسطون بينهن وبين الرجال . وكان احسن المغنين منهم ، وقد تقدم خبر سليمان بن عبد الملك وما فعله بهم . وربما أشبهوا ما كان في القاهرة من « الخول » من عهد غير بعيد . ولما انتشر الغناء في المملكة الاسلامية انتشر المخنثون معه ، وتكاثروا في بغداد والشام ومصر والأندلس وسائر المغرب . والأندلسيون اذا قالوا المخانيث قد يريدون المماليك الصقالبة .

وفيما خلا ذلك فقد كان في المدن من طبقات العامة ما لا يحصيه عد، من أهل الاحتيال للمعايش بأساليب الخداع والشعوذة أو نحوهما ، ولكل صنف من هذه الأصناف اسم خاص . وربما زاد عددها جميعاً على عشرين نوعاً ، كقولهم المخطراني والكاغاني والبانوان والقرسي والعواء والمشعبذ والفلور والاسطبل والمزيدي (٢) وغيرهم .

أخلاق العامة

فالعامة في المدن أخلاط من غوغاء ولفيف من أمم شتى وصناعات شتى ، وهم جهال أتباع من سبق اليهم من غير تمييز بين الفاضل والمفضول . وسئل الامام علي عن العامة فقال : « همج رعاع اتباع كل ناعق » . وقال الفضل بن يحيى : « الناس أربع طبقات : ملوك قدمهم الاستحقاق ، ووزراء فضلتهم الفطنة والرأي ، وعلية أنهضهم اليسار ، وأوساط ألحقهم بهم التأدب ، والناس بعدهم زبد جفاء وسيل غثاء ، لكع لكاع وربيطة اتضاع ، هم احدهم طعامه ونومه » . وقال معاوية للأحنف : صف لي الناس ، فقال : « رؤوس رفعهم الحظ ، واكتاف عظمهم التدبير ، واعجاز اشهرهم المال ، وأدباء ألحقهم بهم التأدب ، والناس بعدهم أشباه البهائم : ان جاعوا ساموا وان شبعوا ناموا » هذه هي آراء خاصة تلك الأيام في عامتهم .

---

١ — الهلال ص ٨٣ سنة ١٠ .

٢ — كتاب البخلاء ص ٣٧ . وقد فسر الجاحظ في ذلك الموضع معاني هذه الالفاظ .

ومع ذلك فطلاب السلطة كانوا يراعون جانبهم ويقربونهم بما يرضيهم ولا سيما الدين وهو جامعتهم الكبرى ، ولا غرو فانه اكبر أسباب سعادتهم ، ولهذا السبب رأيتهم شديدي التعلق بالخليفة اذا اظهر التقوى ، لما في منصبه من الصبغة الدينية ، وهو رئيسهم وامامهم ، فكانوا له عضداً قوياً ، ولولاهم لذهبت الخلافة العباسية من بغداد قبل الزمن الذي ذهبت فيه ، لأنهم كانوا كثيراً ما ينهضون لنصرته على القواد والوزراء اذا ارادوا خلعه . واكثرهم مع ذلك لا يعرفون من الدين غير اسمه ، ولو سئل احدهم عن اعتقاده لما احسن الجواب ، فضلاً عن بساطتهم وسذاجة افكارهم وجهلهم سائر الأمور .

ذكروا من دهاء معاوية في مداراة الناس واجتذاب قلوب العامة ان رجلاً من أهل الكوفة دخل على بعير له الى دمشق في حال منصرفهم عن واقعة صفين ، فتعلق به رجل من أهل دمشق فقال: هذه ناقتي أخذت مني في صفين ! فارتفع امرهما الى معاوية ، وأقام الدمشقي خمسين رجلاً بينة يشهدون انها ناقته فقضى معاوية على الكوفي وأمره بتسليم البعير اليه ، فقال الكوفي: « أصلحك الله ، انه جمل وليس بناقة .. » فقال معاوية: «هذا حكم قد امضي » ودس الى الكوفي بعد تفرقهم فأحضره وسأله عن ثمن بعيره ودفع اليه ضعفيه وبره وأحسن اليه وقال له : « ابلغ علياً اني اقابله بمائة الف ما فيهم من يفرق بين الناقة والجمل » .

وبلغ من امرهم في طاعته انه صلى بهم عند مسيرهم الى صفين الجمعة في يوم الاربعاء ، وأعاروه رءوسهم عند القتال وحملوه بها وركنوا الى قول عمرو بن العاص ان علياً هو الذي قتل عمار بن ياسر حين اخرجه لنصرته . ثم ارتقى بهم الامر في طاعته الى ان جعلوا لعن علي سنة ينشأ عليها الصغير ويهلك عليها الكبير .

وذكروا عن عامة بغداد في ابان التمدن الاسلامي ان رجلاً منهم رفع الى بعض الولاة وشاية برجل من علماء الكلام زعم انه يتزندق ، فسأله الوالي عن مذهب الرجل فقال : « انه مرجىء قدري اباضي رافضي ، يبغض معاوية بن الخطاب الذي قاتل علي بن العاص ! » فقال له الوالي : « ما ادري على اي شيء احسدك ، على علمك بالمقالات او على بصرك بالانساب .. »

وكان جماعة من علماء ذلك العصر يجتمعون في بغداد للمناظرة في ابي بكر وعمر وعلي ومعاوية ، وكان بعض العامة يأتون فيستمعون فتصدى اكبرهم لحية ذات يوم لبعض الباحثين وقال له : « كم تطنبون في علي ومعاوية وفلان وفلان ! » .

فقال له الرجل : « فما تقول انت في علي ؟ »
قال : « أليس هو ابا فاطمة ؟ »
قال : « ومن هي فاطمة ؟ »
قال : « امرأة النبي عليه السلام .. بنت عائشة اخت معاوية ! »
قال : « فما كانت قصة علي ؟ »

قال : « قتل في غزاة حنين مع النبي ، وقد كان عبدالله بن علي حين خرج في طلب مروان الى الشام . وكان من قصة مروان ومقتله ما قد ذكر . ونزل عبدالله بن علي الشام، ووجه الى ابي العباس السفاح اشياخاً من اهل الشام من ارباب النعم والرياسة ، فحلفوا لأبي العباس السفاح انهم ما علموا لرسول الله قرابة ولا اهل بيت يرثونه غير بني امية حتى وليتم الخلافة» [١] .

اولئك هم العامة في كل زمان ومكان ، وطلاب السلطة المطلقة لا يستغنون عنهم ، لانهم معظم الرعية وبهم تجبى الاموال ومنهم تتألف الجنود ، فمن استطاع كسب ثقتهم واجتذاب قلوبهم ملكوه ، ولا يجتذب قلوب العامة مثل الدين ، فـاذا اجتمعت السياسة والدين تمت وسائط السلطة المطلقة وتولى امور الناس اكثرهم دهاء واقدرهم على استرضاء العامة بالتقوى .

١ – المسعودي ٥٢ ج ٢ .

الآداب الاجتماعية

آداب العرب في الجاهلية

نريد بالآداب الاجتماعية ما يدور بين الناس من المعاملات الادبية والامور الاعتبارية في هيأتهم الاجتماعية ، وما يتبادلونه من العلائق العائلية على ما تقتضيه عاداتهم وأخلاقهم وطبائع اقليمهم . وأساس تلك الآداب في التمدن الاسلامي ما كان عند العرب قبل الاسلام من المناقب والعادات وحال المرأة عندهم ، فنقدم الكلام بتمهيد في هذا الشأن .

مناقب العرب الجاهلية

تختلف مناقب الناس وآدابهم باختلاف ضروب معايشهم وأطوار تمدنهم وطبائع اقليمهم ، فللبدو مناقب غير مناقب الحضر ، ولأهل القرى آداب تختلف عما لأهل المدن ، واهل الاقاليم الحارة آدابهم تخالف آداب اهل الاقاليم الباردة ، جرياً على ما يقتضيه ناموس الارتقاء من التناسب بين طباع القوم وطبائع اقليمهم ، لئلا يتولاهم الضعف ويدركهم الفناء .

فأهل البادية يحتاجون الى الشجاعة مثلا اكثر مما يحتاج اليها المتمدنون ، لتفرد البدوي عن المجتمع وتوحشه في الخلاء وبعده عن الحامية وانتباذه عن الاسوار ، ويقوم بالدفاع عن نفسه بيده فهو دائماً يحمل السلاح وينفرد في القفر واثقاً بنفسه ، فصارت الشجاعة سجية له . بخلاف اهل المدن الذين القوا جنوبهم على مهاد الراحة وانغمسوا في الترف ، ووكلوا امرهم في المدافعة عن اعراضهم وأموالهم وأنفسهم الى واليهم والحامية التي تولت حراستهم ، واستناموا الى الأسوار التي تحوطهم فهم آمنون قد القوا السلاح ، وتوالت على ذلك منهم الاجيال وتنزلوا منزلة النساء والولدان الذين هم عيال على سواهم ، فاصبح الجبن طبيعة فيهم . اعتبر ذلك بسائر ما يغلب في طباع اهل البدو كالعصبية والكرم والوفاء والانفة والنجدة وغيرها مما تستلزمه البداوة ولا تستقيم الا به على ما سنبينه :

١ – العصبية

هي اظهر طبائع البدو وأعمها ، وقد فصلنا أسبابها وشروطها وسائر أطوارها في الجزء الرابع .

٢ – الشجاعة

البدو يعيشون غالباً بالغزو ، وهم دائماً في قتال او يتأهبون لقتال ، فالشجاعة شرط من شروط بقائهم وقد كانت غالبة فيهم ، يكرمون الشجاع ويتفاخرون بالشجعان ، واشتهر فيهم جماعة كبيرة من أهل البسالة في الجاهلية والاسلام ، كعمرو بن معديكرب ، وربيعة بن المكدم ، ودريد بن الصمة ، وعروة الورد ، وعنترة العبسي ، وملاعب الأسنة ، وعامر بن الطفيل ، وعلي بن أبي طالب ، وخالد بن الوليد ، والمقداد بن الأسود ، وسعد بن أبي وقاص ، وعبد الله بن الزبير وأخيه مصعب وغيرهم . واشتهرت نساؤهم بالشجاعة أيضاً ، كما سيجيء في كلامنا عن المرأة

٣ – الكرم

وهو من مناقب أهل البادية ، اقتضته طبيعة اقليمهم لما قدمناه من مسير البدوي في أسفاره منفرداً ، وقد يبتعد عن مضربه أياماً في بادية لا طعام فيها ولا ماء ، فإذا لم يجد من يقريه ويسقيه مات . فنشأ عن ذلك الضيافة رقرى الضيفان ، وأصبح الكرم من أفضل المناقب عندهم ، شأن سائر أجيال البدو غير العرب كالجرمان قبل تمدنهم . فكان البدو يتفاخرون بالضيافة ويتسابقون الى المغالاة فيها ، حتى أوقدوا ناراً بجانب مضاربهم يهتدي بها المارة ليلاً يسمونها نار القرى ، وبالغوا في احترام الكرماء ترغيباً للناس في هذه الفضيلة لافتقارهم اليها . فأصبح الأسخياء يبالغون في ذلك ويكثرون من النيران ، فاذا اشتد البرد أو هبت الرياح فعجزوا عن إيقادها ، فرقوا الكلاب حوالي الحي وربطوها الى العمد لتستوحش فتنبح ، فيهتدي الأضياف على نباحها . ولذلك كان من أسماء الكلب عندهم : « داعي الضمير ، ومتمم النعم ، ومشيد الذكر » . وكانوا يتفاخرون بعظم جفانهم وارتفاعها ، ومن أكبر تلك الجفان جفنة عبد الله بن جدعان ، كان الرجل يستظيل في ظلها [١] .

---

١ – الف باء ٨٣ ج ٢ .

وأشهر الكرماء في الجاهلية حاتم الطائي ويضرب المثل بكرمه ، فيقال للمبالغة في مدح كريم : « إنه أكرم من حاتم طي » . ومنهم كعب بن مامة الأيادي ، وهرم بن سنان، وخالد بن عبد الله وغيرهم . وكان جودهم قاصراً على الضروري من حاجات الإنسان ، كالطعام والشراب واللباس لبساطة أحوالهم ، وربما جادوا بالإبل أو الماشية . فلما ظهر الاسلام وكثرت أموالهم من الغنائم والعطايا صاروا يجودون بالنقود والجواهر والضياع والرقيق وغيرها كما سترى .

٤ – الوفـاء

لما كان الغدر سهلاً على البدوي ، لإمكانه الفرار من القصاص والإيغال في البادية ، حيث لا يستطيع خصمه الوصول اليه وليس ثمة وازع يخيفه أو جند يقبضون عليه ، ولا هناك دين يزجره مما يفضي الى ضياع الحقوق وفساد الأحوال ، جعلوا يرغبون الناس في الوفاء ويعظمون أمره ويمتدحون أهله ، فرغب الناس فيه وأصبح بتوالي الأجيال خلقاً لهم ، وصاروا يأنفون من إخلاف الوعد ويشهرون بمرتكبه ويبالغون في الثناء على أهل الوفاء .

٥ – الاستقلال

لا شيء أحب الى أهل البادية من الاستقلال ، ولا سيما الرحل فانهم طبعوا على الحرية وكرهوا التقيد بشيء ، حتى المكان فهم لا يتوطنون صقعاً بل يحملون منازلهم على ظهورهم ينتقلون بها الى حيث يطيب لهم المقام . وهم لا يحملون ضيماً ولا يصبرون على ظلم . وتمكنت الحرية من طباعهم حتى ظهرت في اقوالهم وافكارهم ، ونشأوا على الأنفة وعزة النفس وإباء الضيم . ألا ترى كيف ظهر ذلك منهم في صدر الاسلام ، إذ كانوا يخاطبون الخلفاء كما يخاطبون عامة الناس ، والخلفاء لا يرون بأساً بذلك لأنه كان طبعاً مألوفاً فيهم ؟

٦ – النجـدة

هي من طبائع البدو ولازمة لزوم الضيافة ، وبينهما تناسب من حيث إغاثة الضعيف ، فاذا استنجدت البدوي على أمر أنجدك ولو بذل نفسه في هذا السبيل . وتظهر نجدتهم على الخصوص في الجوار وحمى الذمار ، وقد فصلنا ذلك في الجزء الرابع .

٧ - الاريحية

وقد وصفنا هذه المنقبة وصفاً مختصراً في الجزء المذكور ، وهي من مناقب أهل النجدة والفروسية التي يعبر عنها الافرنج بقولهم Chevalerie ومرجعها الى الافتخار بحسن الأحدوثة ، ولما كان العرب أهل خيال وذوي نفوس حساسة كان للأريحية عندهم شأن كبير ، فالرجل منهم تقيمه كلمة وتقعده ، وربما تجردوا الحرب نقمة على عبارة تطعن في شجاعتهم او كرمهم او وفائهم . وكانوا يتأثرون على الخصوص من اقوال النساء مدحاً او طعناً فيبذلون ما في وسعهم التماساً لثنائهن ، وكثيراً ما كان ذلك سبباً في ابتعادهم عن الرذائل ، وربما تعرض بعضهم للقتل خوفاً من استخفافهن ، وفي اخبار الجاهلية شواهد كثيرة على ذلك .

٨ - الثأر

وكما ينجدك البدوي اذا استنجدته فهو لا يصبر عن الأخذ بثأره اذا اسأت اليه ، واذا قتل رجل من قبيلة رجلاً من قبيلة اخرى نشأت العداوة بين القبيلتين ، فتقوم الموتورة منهما للأخذ بثأرها ولا تنفك حتى تقتل من الأخرى من هو كفء لقتيلها او يتصالحوا على الدية . ومن اشهر حوادث الثأر في الجاهلية الحرب التي اثارها المهلهل بن ربيعة للأخذ بثأر اخيه كليب ، فاصبح المهلهل مثلا في ذلك ، فيقولون : « فلان آخذ للثأر من المهلهل » لانه حلف منذ طلب الثأر انه لا ينزع درعه ولا يشرب الخمر ولا يدهن رأسه بالطيب ولا يقرب النساء الا بعد نيل مرامه .

٩ - الشيخوخة

كان للشيخوخة عند العرب مقام رفيع ، ولفظ الشيخ يدل عندهم على الشيخوخة والرئاسة معاً . وكانوا اذا تساوت المناقب فيمن يرشحونه للامارة فضلوا اكبرهم سناً ، كما فعلت قريش في حرب الفجار الثانية [1] ولما جاء الاسلام وأحدث ما احدثه من المناقب الدينية ، كانت هذه المناقب في جملة ما فضلوه على السن ، فاذا تساوت كلها في المترشح للامارة فضلوا اكبرهم سناً ، عملا بالحديث النبوي بشأن الامامة : « يؤم القوم أقرؤهم

---

١ - الجزء الاول .

كتاب الله تعالى ، فان كانوا في القراءة سواء فأعلمهم بالسنة ، فان كانوا في السنة سواء فاقدمهم هجرة ، فان كانوا في الهجرة سواء فأقدمهم سناً » (١) .

المرأة في الجاهلية

اختلفت الآراء في حال المرأة العربية في العصر الجاهلي ، ولا مشاحة انها كانت على الاجمال عظيمة الشأن عفيفة النفس ، وعفتها من ثمار حب الاستقلال والانفة ، لان المرأة التي تشب على استقلال الفكر واباء الضيم تترفع عن ارتكاب ما يهون على المرأة الناشئة في مهاد الذل المغلولة باغلال الحجاب . ويقال نحو ذلك في غيرة رجالهم على العرض ، فانه من مستلزمات العفة والانفة والاستقلال ، لان الرجل الانوف اذا تعود العفة من امرأته بعظم على طباعه احتمال ما يمس عرضها من قول او فعل . وتزداد غيرته عليها اذا كانت وحيدة لم يحب سواها ، كما كان حال العرب في الجاهلية لقلة الجواري يومئذ ومشقة الحصول على النساء ، مع حاجة البدوي الى امرأته في تدبير شؤونه واعانته في اسفاره وأعماله .

الوأد

وبلغ من غيرة بعضهم في الجاهلية ان يقتلوا بناتهم او يئدوهن ، لئلا يرتكبن ما يجر عليهم العار . ولم يكن الوأد عاماً في قبائل العرب ، ولا كان قديماً عندهم ، وانما حدث قبيل الاسلام . وكان منحصراً في بعض بني تميم بن مر ، ظهر فيهم لسبب طرأ عليهم – ذكروا انهم كانوا يؤدون الاتاوة (الجزية) الى النعمان ملك الحيرة ، فمنعوها سنة من السنين فجرد عليهم النعمان كتائبه وساق انعامهم وسبى ذراريهم ، فعظم ذلك على التميميين فوفدوا عليه يطلبون اهلهم وأموالهم فأبى ، فقالوا : « اعطنا النساء » فقال : « اننا نخيرهن في الذهاب او البقاء » وأعلن « ان كل امرأة اختارت اباها ردت اليه وان اختارت صاحبها تركت عليه » فكلهن اختارت اباها الا ابنة قيس بن عاصم كانت قد أحبت عمرو بن المشمرج فاختارت البقاء عنده ، فغضب قيس ونذر لا تولد له ابنة الا قتلها (٢) وربما اقتدى به بعض اهله او اهل قبيلته . وكان بعض الغيورين من العرب لا

---

١ – مشكاة المصابيح ١٠٠ . ٢ – الكامل للمبرد ٢٧٨ .

يزوج بناته غيرة عليهن ، وأشهرهم ذو الاصبع العدواني فكانت له اربع بنـات منعهن الزواج وهن يردنه في حديث طويل ذكره المبرد [١] ولم يطل زمن الوأد عنـد العرب ، لانه مخالف لأحكام العقل ومباين لعواطف الوالدين . فما لبث ان ظهر صعصعة بن ناجية وأخذ على نفسه فداء البنات الموءودات[٢] حتى بطل الوأد .

شهيرات الجاهلية

وكان للمرأة في الجاهلية شأن وإرادة ، وكانت صاحبة أنفة ورأي وحزم ، فنبـغ غير واحدة منهن في السياسة والحرب والأدب والشعر والتجارة والصناعة ولا سيا في أوائل الاسلام على أثر ما حصل من النهضة في النفوس والعقول ، فاشتهرت جماعة منهن بمناقب رفيعة تضرب بها الأمثال ، وأكثرهن في المدينة مقر الخلافة الاسلامية في ذلك العهد .

فاللواتي اشتهرن في الجاهلية بالشجاعة وشدة البطش أو كبر النفس ، منهن سلمى بنت عمرو إحدى نساء بني عدي بن النجار ، فانها كانت امرأة شريفة لا تتزوج الرجـال إلا وأمرها بيدها ، إذا رأت من الرجل شيئاً تركته . على أن الغالب في نساء الجاهلية أن يخيرن قبيل الزواج ، فلا يزوج الرجل ابنته إلا بعد أن يشاورها [٣] واشتهرت التميميات من نساء قريش بحظوتهن عند رجالهن وكبريائهن وقسوتهن عليهم [٤] ناهيك بمن اشتهرت منهن بالبسالة في أثناء الغزوات . ففي معركة أحد وقع لواء قريش في ساحة القتال ، فلم يزل صريعاً حتى أخذته امرأة منهم اسمها عمرة بنت علقمة الحارثية فرفعته لهم فلاذوا بها [٥] . وفعلت هند بنت عتبة امرأة أبي سفيان في تلك المعركة ما لم تفعله الرجال ، فجمعت اليها نسوة أخذن في أيديهن الدفوف يضربن خلف الرجال وهي تنشد في تحريضهم على الثبات . ولما انتهت الواقعة خرجت مع النسوة تنظر جثث القتلى حتى وجدت بينهـا جثة حمزة عم النبي ، فبقرت بطنه وأخرجت كبده فلاكتها من غيظها فلم تستطع أن تسيغها فلفظتها ، ثم علت صخرة وأنشدت أشعاراً تفخر بالفوز على المسلمين [٦] .

ونساء الجاهلية كن يصحبن الرجال الى ساحة القتال فيداوين الجرحى ويحملن قرب

---

١ – الكامل ٣١٦ .　　٢ – الف باء ٢٠ ج ٢ .
٣ – الاغاني ١٤٩ ج ٩ و ٢٠٨ ج ١٨ .　　٤ – الاغاني ٢٠٣ ج ١٨ .
٥ – الاغاني ١٧ ج ١٤ .　　٦ – الاغاني ٢٠ ج ١٤ .

الماء ، وممن اشتهرن بالشجاعة أم عمارة بنت كعب الأنصارية ، وأم حكيم بنت الحارث ، والخنساء الشاعرة أخت صخر وغيرهن [١] .

ونبغ بالرأي والحزم غير واحدة ، أشهرهن أم المؤمنين خديجة بنت خويلد ، وكانت عاقلة حازمة لبيبة ذات شرف ومال ، تنتقي من اشتهر من الرجال بالامانة والحزم فتستأجرهم بمالها وتضاربهم اياه بشيء تجعله لهم . ولما سمعت بشهرة النبي قبل الدعوة بالأمانة وكرم الاخلاق ، بعثت اليه ان يخرج في مالها تاجراً الى الشام وتعطيه افضل ما كانت تعطي غيره من الرجال ، فلما أفلح في تجارته عرضت عليه أن يتزوج بها فأجابها . وهي أول من اسلم ، وقد نشطته للقيام بالدعوة ، فكان لا يسمع شيئاً مما يكرهه من رد عليه او تكذيب له فيحزنه ويخبرها به الا ثبتته وخففت عنه وهونت عليه ، وما زالت على ذلك حتى ماتت .

١ – ألف باء ٢١٠ جـ ٢ .

آداب العرب في صدر الاسلام

الآداب الاجتماعية

في العصر الاسلامي العربي

ينقضي هذا العصر بانقضاء دولة الامويين في الشام سنة ١٣٢ هـ ، وقد علمت مما ذكرناه عن سياسة هذا العصر في الجزء الرابع انها كانت عربية النزعة وقوادها عرب وعمالها عرب والسيادة فيها للعنصر العربي . وكذلك الآداب الاجتماعية ، فقد كانت لا تزال عربية بدوية ، او هو دور الانتقال من البداوة الى الحضارة ، حاول العرب فيه البقاء على ما الفوه في جاهليتهم من المناقب التي تقدم ذكرها ، كالوفاء والجوار والكرم والنجدة والشجاعة والعفة . وكانت الحضارة وما تقتضيه من الترف والرخاء تغالب تلك المناقب ، حتى غلبت على معظمها في اواسط العصر العباسي .

ويقسم العصر الاسلامي العربي الى : ايام الراشدين ، وايام الأمويين . فنذكر الآداب الاجتماعية في كل منهما على حدة .

١ — الآداب الاجتماعية في عصر الراشدين

قلما اصاب المناقب البدوية تغيير في عصر الراشدين ، إلا ما اقتضاه الدين من جمع كلمة العرب تحت لوائه ، فضعفت بذلك العصبية بين القبائل والبطون ، واجتمع العرب من قحطان وعدنان في ظل الاسلام ، واصاب الكرم في ذلك العصر تغيير اقتضاه عدل الراشدين ولا سيما عمر بن الخطاب ، فانه كان من الصرامة وحب العدل حتى يطالب العامل بالدرهم والدانق ، واذا علم انه كسب مالا من غير راتبه شاطره اياه ، وكذلك كان علي بتدقيقه في محاسبة عماله وسائر رجاله . فكانوا لا يبذلون المال إلا لمن استحقه من اهل العطاء ، فلم يكن لأصحاب الاستجداء عيش في ايامهم . وكان الصحابة يومئذ يقلدون

الخلفاء في هذا التدقيق ، وهو مخالف للسخاء والبذل ، حتى اتهموهم بالبخل وما هو بخل ، ولكنهم كانوا يرون اعطاء كل ذي حق حقه .

اما ما بقي من مناقب العرب فظلت على نحو ما كانت عليه ، وبعضها زاد تمكنا في نفوسهم ، كالوفاء والنجدة والعفة والانفة ، لان الاسلام زادها رونقاً وقوة بالعدل والتقوى ، فكان الخليفة او اميره اذا وعد وفى ، واذا عاهد انجز ، لا يثنيه عن ذلك طمع اوخوف. اعتبر ما كان من وفائهم لأهل الذمة ، اذ عاهدوهم على ان يحموهم ـــا ادوا الجزية . فكانوا اذا شغلهم عن حمايتهم شاغل ردوا الجزية الى اصحابها واعتذروا[١] ولولم يردوها ما طالبهم بها احد ، وانما كانوا يفعلون ذلك من عند انفسهم . والشجاعة كانت سائدة في ذلك العصر ، لما كانوا فيه من الحاجة اليها في الفتح والجهاد . وقس على ذلك سائر المناقب ، ولا سيا الاستقلال والحرية فانهما زادا قوة في صدر الاسلام ، لما توخاه الراشدون من التسوية بين المسلمين على اختلاف طبقاتهم ، حتى اصبحوا يخاطبون الخليفة او الامير بجسارة وانفة كما يخاطبون بعض اقرانهم ، واذا رأوا فيه اعوجاجاً هددوه او عنفوه واصلحوه ، فاذا لم يطعهم قتلوه كما فعلوا بالخليفة عثمان. وكثيراً ما كان المسلمون يحصبون اميرهم وهو يخطب فيهم ، اذا انكروا شيئاً من اقواله او اعماله .

المرأة في عصر الراشدين

اما المرأة فاتجهت قواها في صدر الاسلام الى سداد الرأي ومزاولة الأدب والشعر مع بقاء العفة والانفة ، فاشتهر منهن غير واحدة جرت بذكرهن الامثـــال منهن عائشة ام المؤمنين ، فقد كان لها عقل راجح وفيها دهاء وقوة ، حتى رأست حزباً كبيراً من الصحابة وروت احاديث كثيرة هامة .

وعائشة بنت طلحة بن عبيد الله الصحابي الشهير ، كانت مفرطة الجمال تقيم في المدينة ولها عقل ورأي وعلم واسع بأخبار العرب وايامها وفي مطالع الكواكب واحوالهـــا . وكانت مع جمالها لا تستر وجهها عن الرجال لعظم قدرها وكبر نفسها . وكثيراً ما كانت تجلس في قصرها فيتناضل بين يديها الرماة ويتفاخرون بما ينالونه من اعجابها . وكانت اذا حجت يجيئها النساء الشواعر وغيرهن ويدخل الشعراء فتجيزهم الجوائز الكبيرة ، وكان لها موكب لم يسمع بمثله في عصرها مؤلف من عدة مواكب ، واحـــد لماشطتها وآخر

---

١ — الجزء الاول .

لخازنتها وآخر لكل من كبار اتباعها . أما موكبها الخاص فهو كوكبة فيها ٣٠٠ راحلة عليها القباب والهوادج[١] .

وسكينة بنت الحسين بن علي ، وكانت معاصرة لعائشة بنت طلحة في المدينة وتسميان عقيلتي قريش [٢] وكانت عفيفة برزة تجالس الاجلة من قريش ويجتمع اليها الشعراء ، وتأذن للناس اذناً عاماً حتى تغص الدار بهم ، فتأمر لهم بالأطعمة ، ثم تطرح على الشعراء الأسئلة في الشعر والأدب وتنتقد اقوالهم وتجيزهم ، وخبرها في ذلك مشهور [٣] .

واسماء بنت ابي بكر ، المعروفة بذات النطاقين وهي ام عبدالله بن الزبير ، وفي مراجعة قولها لابنها هذا لما يئس من الفوز وهو محصور بمكة وجاء يستفتيها وتحريضها اياه على استقبال الموت بشرف دليل كاف على كبر نفسها وحزمها[٤] .

ونبغ بالشعر في ذلك العصر عدة نساء ، كليلى الأخيلية والخنساء المتقدم ذكرها والفارعة المرية . واشتهر في البادية غير واحدة ممن كان يجتمع الرجال عندها للمناشدة او المذاكرة على غير ريبة ، فاذا توسمت في احدهم انحرافاً منعته واحتجبت عنه . كما اتفق لأبي دهبل الجمحي مع عمرة الجمحية ، وكانت امرأة جزلة يجتمع اليها الرجال لانشاد الشعر ، وكان ابو دهبل من اشراف بني جمح وكان لا يفارق مجلسها ، وكانت تحبه وتتقدم اليه في كتمان حبها ، فجاء نسوة كن يتحدثن اليها فذكرن لها شيئاً عن ابي دهبل وانه يقول انها عاشقة له ، فرفعت مجلسها وتركت مجالسة الرجال ظاهرة وضربت حجاباً بينها وبينهم[٥] .

ولما نضج التمدن الاسلامي اشتهر عدة نساء بالسياسة والصلاح والدهاء وغير ذلك مما ذكرناه في الاجزاء الماضية

٢ — الآداب الاجتماعية في عصر الأمويين

اصاب المناقب العربية في الدولة الاموية تغيير يختلف عما اصابها في عصر الراشدين باختلاف احوال الدولتين . فالأمويون لما جعلوا همهم الرجوع الى ما كان لهم من السيادة

---

١ — الاغاني ٦٠ ج ١٠ . ٢ — العقد الفريد ٢٥٤ ج ٢ . ٣ — الاغاني ١٧٣ ج ١٤ .
٤ — ابن الاثير ١٩١ ج ٤ . ٥ — الاغاني ١٦٥ ج ٦ .

في الجاهلية اغفلوا كل ما يخافون حيلولته بينهم وبين ذلك المرمى ، واستبقوا ما يتوسمون منه نفعاً لغرضهم – فالكرم رأوا فيه وسيلة لجمع الاحزاب فنشطوه وتسابقوا اليه، فزادوا الأعطية وفرضوا الجوائز واقاموا بيوت الضيافة، واكثروا من السخاء على رؤساء الاحزاب والشعراء ومن يخافون سطوتهم ولا يقوون على قتلهم على ما بيناه في باب السخاء .

والشجاعة لم يكن لهم بد منها فقربوا اصحابها . والعصبية كانت ملجأهم الاكبر في مناوأة اعدائهم من شيعة علي وغيرهم ، فبعد ان ضعفت في عصر الراشدين وقامت جامعة الدين مكانها اعادها الأمويون الى نحو ما كانت عليه قبل الاسلام .

اما الوفاء فكان عثرة في طريق اغراضهم ، لما كانوا يعلمونه من حق مناظريهم في الخلافة وقوتهم فلجأوا الى الغدر والفتك . وكان معاوية زعيمهم ومؤسس دولتهم يفعل ذلك سراً ويموه غدره بالحلم والكرم والدهاء وحسن الاسلوب . فتدرج الخلفاء بعده من بني مروان الى الغدر جهاراً ، واول من فعل ذلك عبد الملك بن مروان[١] وجرى عمالهم على هذه الخطة وافرطوا فيها ، فاشتهر بها منهم زياد بن ابيه وابنه عبيدالله بن زياد والحجاج بن يوسف وغيرهم .

تقييد الافكار في ايام بني أمية

أما الاستقلال وحرية القول فجاهد الأمويون في مقاومتها وقيدوا الالسنة بارادتهم تقييداً شديداً ، فكان ذلك عظيماً على الذين عاصروا الراشدين وتعودوا الحق والحرية ، فعاقبهم الأمويون جزاء حريتهم واستقلال افكارهم بالعذاب الشديد . ومن لم يستطيعوا مقاومته جهاراً قتلوه سراً – بدأوا بذلك من أيام عثمان قبل قبضهم على مقاليد الدولة في الشام ، وقد جرأهم عليه ضعف هذا الخليفة ورغبته في ارضاء أهله ونصرتهم ، ولولا ذلك ما استطاع معاوية اضطهاد ابي ذر الغفاري ونفيه ، لأنه جاهر باستبداد اهل الدولة بأموال المسلمين[٢] .

فلما افضت الخلافة الى معاوية لم ير بداً من الضغط على أفكار أهل الاستقلال والحرية ، واستعمل الشدة في ذلك فقتل حجر بن عدي وعمرو بن الحمق واصحابهما ، لأنهم قالوا بحرية ضمير ان علياً لا يجوز لعنه على المنابر[٣] فأصبح الناس يخافون على أرواحهم وأخذوا

١ – الجزء الرابع . ٢ – الجزء الثاني . ٣ – ابن الاثير ٢٣٧ ج ٣ .

يتعودون السكوت عن الحق ، ثم لجأوا الى التمويه والرياء حتى في المشهور الثابت ، كما فعل ذلك الرجل لما نصب معاوية ابنه يزيد لولاية العهد فأطرى عمل معاوية حتى قال : « انك لو لم تول هذا أمور المسلمين لأضعتها » . ولكن الحرية كانت لا تزال حية في نفوس اهل الرئاسة ممن لم يكن يهمهم التزلف الى اهل الدولة ، وربما كانت الدولة احوج الى نصرتهم ، كالأحنف بن قيس التميمي فانه كان يقول الحق ولا يبالي ، وكان ممن شهد الاحتفال بتولية يزيد وسمع ما قاله ذلك المنافق فاكتفى بالسكوت عن المدح . وأدرك معاوية فكره فاستفهمه عن سبب سكوته فلم يبال أن قال : « أخاف الله اذا كذبت وأخافكم اذا صدقت .. » [١] .

واقتدى بمعاوية من عاصره من الأمراء او جاء بعده من الخلفاء، فنشأ جيل من العرب يهون عليهم السكوت عن الحق ، وكثر أهل الزلفى والرياء وذهبت حرية القول بتوالي الأعوام.

النجدة والاريحية في أيام بني امية

اما النجدة والاريحية فظلتا في العصر الاسلامي العربي متأصلتين في العرب ، وان اضطر الامويون الى الاغضاء عنهما في بعض الاحيان . اما على العموم فقد كانتا مرعيتين حتى عند اشد بني امية استبداداً وظلماً، وفي اخبارهم كثير من امثلة ذلك ، منها انه جيء الى معاوية في يوم صفين بأسير من اهل العراق فقال معاوية : « الحمد لله الذي امكنني منك » .

فقال الرجل : « لا تقل ذلك يا معاوية »

قال : « واي نعمة اعظم من ان يمكنني الله من رجل قتل جماعة من أصحابي في ساعة واحدة ؟ اضرب عنقه يا غلام »

فقال الاسير : « اللهم اشهد ان معاوية لم يقتلني فيك وانك لا ترضى بقتلي ، وانما يقتلني في الغلبة على حطام الدنيا ، فان فعل فافعل به ما هو اهله وان لم يفعل فافعل به ما انت اهله »

فقال له : « ويحك ! لقد سببت فأبلغت ودعوت فأحسنت ... خليا عنه » .

وكان معن بن زائدة قد أمر بقتل جماعة من الأسرى ، فقام اصغر القوم فقال له :

---

١ — ابن خلكان ٢٣٠ ج ١ .

« يا معن ، أتقتل الأسرى عطاشا ؟ » فأمر لهم بالماء ، فلما سقوا قال : « يا معن ، أتقتل ضيفانك ؟ » فأمر معن باطلاقهم ..

وأتى الحجاج بأسرى من الخوارج فأمر بضرب اعناقهم ، فقام فيهم شاب فقال :

« والله يا حجاج لئن كنا أسأنا في الذنب فما أحسنت بالعفو » فقال الحجاج : « اف لهذه الجيف ! أما كان فيهم من يقول مثل هذا ؟ » وأمسك عن القتل . وقس على ذلك [١] .

وكثيراً ما كانوا يعرضون انفسهم للقتل رغبة في حسن الأحدوثة ، ولا سيما عند النساء كما فعل عيسى بن مصعب بن الزبير وهو مع ابيه في مقاتلة محمد بن مروان بالعراق سنة ٧١ هـ اذ تحقق مصعب انه مقتول فأوعز الى ابنه عيسى ان يطلب النجاة فقال : « والله لا تتحدث نساء قريش اني خذلتك ورغبت في نفسي عنك » فقال : « فاذهب انت ومن معك الى عمك في مكة فاخبره بما صنع اهل العراق ودعني فاني مقتول » قال : « لا اخبر عنك قريشاً ابداً ، ولكن يا ابتي الحق بالبصرة فانهم على الطاعة او الحق بأمير المؤمنين » فقال مصعب : « لا تتحدث قريش اني فررت » وحاربوا حتى قتلوا [٢] .

وظلت الاريحية مرعية في اوائل الدولة العباسية ، فان الرشيد رفع القتل عن ربيعة بقصيدة رفعها اليه احدهم استنهض بها اريحيته في العفو عنهم [٣] ولما عزم المأمون على قتل ابراهيم بن المهدي — وكان مصمماً على قتله — شاور فيه أحمد بن أبي خالد الوزير فقال : « يا أمير المؤمنين ، إن قتلته فلك نظراء وإن عفوت عنه فما لك نظير » [٤] فعفا عنه .

فلما ضعف العنصر العربي في الدولة العباسية بعد تسلط الأجناد الأتراك ، وتحولت الأغراض في اهل الدولة الى كسب الأموال بأية وسيلة كانت ، ذهبت الأريحية والنجدة ، على أن ذهابها بدأ من أيام أبي مسلم الخراساني .. فكم استنجدوه واستحثوه ولم يفعل إلا ما يوصله الى غرضه .

والشيخوخة ظلت مرعية ومحترمة الى عصر العباسيين وما بعده ، ولا تزال حتى الآن.

---

١ – العقد الفريد ١٤٠ ج ١ وابن خلكان ١١٠ ج ٢ .
٢ – الاغاني ١٦٣ ج ١٧ وابن الاثير ١٥٩ ج ٤ .
٣ – الاغاني ٢٣ ج ١٢ . ٤ – ابن خلكان ٩ ج ١ .

المرأة في عصر الأمويين

بدأت المرأة بتبديل طباعها من أيام الأمويين ، لأن العفة والغيرة أصابها في ذلك العصر صدمة قوية بتكاثر الجواري والغلمان ، وانغماس بعض الخلفاء في الترف والقصف وانتشار الغناء والمسكر ، فتجرأ الشعراء على التشبيب والتغزل وتكاثر المخنثون في المدن ، وتوسطوا بين الرجال والنساء بالباطل ، فأخذ الفساد يفشو بين الناس وضعفت غيرة الرجال وقلت عفة الناس. فقد رأيت أن المرأة كانت في الجاهلية وأوائل الاسلام تجالس الرجال وتخاطبهم وتذاكرهم والعرب لا يرون ذلك منكراً [١] ولا تخامرهم فيه ريبة ، وإذا توسم رجل من رجل نظرة الى امرأته أو أخته بريبة طلبه للمبارزة أو المجالدة أو المصارعة [٢] (الدويلو Duello) فيتصارعان حتى يصرع أحدهما صاحبه وربما انتشب القتال بين القبائل غيرة على نظرة كما حدث يوم الفجار الثاني [٣] — حتى الشعراء ، فقد كانوا لا ينظمون النسيب أو الغزل إلا قليلا . ويقال أن امرأ القيس هو أول من شبب بالنساء [٤] ومهما يكن من ضعف هذا القول فهو يدل على بعد العرب الجاهلية عن الغزل لفرط غيرتهم ، على أنهم قلما شببوا بعد ذلك إلا بحبيب أو خطيبة . وكانت مغازلة النساء نادرة فيهم ، فاذا اتفق لأحدهم شيء من ذلك اشتهر أمره وذاع خبره ، كما اشتهر العشاق والمجانين في صدر الاسلام. وربما تعشق بعضهم رغبة في شحذ قرائحهم الشعرية . على أن تشبيبهم في كل حال لم يكن عن ريبة أو فاحشة [٥] .

وكانوا يتفاخرون بالعفة وامساك هوى النفس ، وقد يجتمع الحبيبان بعد طول البعد واحتدام الشوق فيجلسان ويتعاتبان ويتحادثان ثم ينصرفان . واشهر الناس في ذلك بنو عذرة ، واكثر عشاق العرب منهم .

التشبيب

فكان العرب الجاهلية قلما يشببون بغير خطيباتهم ، فاذا شبب احدهم بفتاة قبل ان يخطبها منعوه منها[٦] وكان الخلفاء الراشدون حريصين على آداب القوم ، فجعلوا التشبيب ذنباً يستوجب القصاص ، وكان عمر بن الخطاب لا يسمع بشاعر شبب بامرأة إلا جلده [٧]

---

١ — الاغاني ١٨٣ ج ١ و ١٨٤ ج ٧ . ٢ — الاغاني ٢٦ ج ١٩ و ٥٤ ج ٦ .
٣ — الاغاني ٧٤ ج ١٩ . ٤ — الاغاني ٦٧ ج ٢ . ٥ — المسعودي ١٢٢ ج ٢ .
٦ — الاغاني ١٨١ ج ٢٠ . ٧ — الاغاني ٩٨ ج ٤ .

ونظراً لقلة من يجسر على وصف النساء في شعره كان الشاعر اذا شبب بامرأة اشتهرت فتتزوج ، ولذلك كان بعض الآباء يطلب من الشاعر ان يشبب ببناته ليتزوجن .

فالعرب على فطرتهم وطبيعة اقليمهم وطرق معايشهم اهل عفة ، والنساء يجتمعن بالرجال في المجالس والأندية على غير ريبة . حتى في الكعبة ، فكانوا يطوفون معاً لا يرون بذلك بأساً لأن العفة كانت غالبة على طباعهم ، فلما جاءهم الترف وأخذوا بأطراف الحضارة وعمدوا الى التسري والاستكثار من الجواري تغيرت تلك الطباع . فلما كانت امارة خالد القسري على مكة في خلافة سليمان بن عبد الملك الأموي بلغه قول بعض الشعراء :

يا حبذا الموسم من موقف ... وحبذا الكعبة من مسجد
وحبذا اللاتي يزاحمننا ... عند استلام الحجر الأسود

فأمر بالتفريق بين الرجال والنساء في الطواف[١] .

وفي ايام بني أمية تجرأ الشعراء على التشبب بالنساء ، لا سيما في المدينة بعد انتشار الغناء فيها واقبال اهلها على القصف واللهو . ومما زاد انكارهم للتشبيب ان الشاعر اذا نظم ابياتاً تغنى بها المغنون في مجالس الشراب . واول من تجرأ على التشبيب من الشعراء القرشيون ، واسبقهم الى ذلك ابن ابي عتيق حفيد ابي بكر الصديق ، وكان من اهل الطهارة والعفاف وانما كان يتشبب عن غير ريبة ، واقتدى به عمر بن أبي ربيعة وهو قرشي ايضاً ، وكان كثير النسيب والغزل ومن سمع كلامه ظنه من أجرأ الناس على فاحشة ، وهو لم يحل ازراره على حرام[٢] واقتدى به العرجي وهو من قريش ايضاً[٣] ونبغ شعراء آخرون من غير قريش واخذوا يشببون بالنساء رويداً رويداً .

ولم يكن الخلفاء في اول الامر راضين عن ذلك لتغلب البداوة على اخلاقهم ، فأخذوا يقاومون تيار الترف بكل قواهم ، ولكنهم كانوا يداورون الشعراء رغبة في اكتساب الاحزاب على أيديهم ، فلا يمنعونهم من التشبيب إلا اذا مس عرضهم ، ومع ذلك فالدهاة منهم كانوا يتلطفون في دفعهم . ومن لطيف ما يحكى من هذا القبيل ان عبد الرحمن بن

---

١ – المسعودي ١١٦ ج ٢ . ٢ – كتاب الحيوان للجاحظ ٢٨ ج ١ .
٣ – الاغاني ١٥٤ ج ١ .

حسان بن ثابت شبب بابنة معاوية وهو خليفة في ابان مجده ، وبلغ ذلك ابنه يزيد فغضب ودخل على ابيه وقال : « يا امير المؤمنين اقتل عبد الرحمن بن حسان » .

قال : « ولم ؟ » .

قال : « شبب بأختي » .

قال : « وما قال ؟ » .

قال : « قال :

طال ليلي وبت كالمحزون ... وملات الثواء في جيرون » [1]

قال معاوية : « يا بني ، وما علينا من طول ليله وحزنه ؟ أبعده الله ! » .

قال : « صدق يا بني ، » .

فلذلك اغتربت بالشام حتى ... ظن أهلي مرجمات الظنون

قال : « يا بني ، وما علينا من أهله ؟ » .

قال : « انه يقول :

هي زهراء مثـل لؤلؤة الغوا ... ص ميزت من جوهر مكنون »

قال : « صدق يا بني » .

قال : « انه يقول :

واذا ما نسبتها لم تجدهـا ... في سناء من المكارم دون »

قال : « صدق يا بني ، هي هكذا ! » .

قال : « انه يقول :

ثم خاصرتها الى القبة الخضـ ... ـراء تمشي في مرمر مسنون »

قال : « ولا كل

---

١ ـ الاغاني ١٤٩ جـ ١٣ .

وما زال يزيد يذكر له ما قاله فيها من التشبيب وهو يدافعه ويظهر انه لا يرى فيهما يستحق العقاب عليه ، ثم كلمه بعض خاصته بشأنه وأكبروا جسارته وقالوا : « لو جعلته نكالا » فقال : « لا ، ولكن اداويه بغير ذلك » . واتفق ان عبد الرحمن المذكور وفد على معاوية وكان يدخل في اخريات الناس ، فاستقبله احسن استقبال وأجلسه على سريره معه وأقبل عليه بوجهه وحديثه ثم قال : « ان ابنتي الاخرى عاتبة عليك » . قال : « في اي شيء ؟ » قال : « في مدحك اختها وتركك اياها» . قال : «فلها العتبى وكرامة» انا ذاكرها وممدها » فلما فعل وبلغ ذلك الناس قالوا : « قد كنا نرى ان تشبيب ابن حسان بابنة معاوية لشيء ، فاذا هو على رأي معاوية وأمره » . وعلم من كان يعرف انه ليس له بنت اخرى ، وانه انما خدعه ليشبب بها ولا اصل لها ، فعلم الناس انه كذب على الاولى لما ذكر الثانية . وشبب ابو دهبل الجمحي ايضاً بابنة معاوية فعامله باللين وقطع لسانه بالعطاء [1] .

فقس على ذلك سائر خلفاء بني امية وأمرائهم ، مما يدل على غلبة طبائع البدو في الأمويين ، مع أخذهم بأطراف المدنية واختلاطهم بالأمم الاخرى وقربهم من اسباب القصف . وكأن تلك الاسباب أخذت بعقول الشعراء فلم يكونوا يقعدون عن التشبيب مع تعرضهم للخطر ، وقلما كان يجسر على ذلك غير القرشيين ، وأكثرهم جسارة عمر بن ابي ربيعة المتقدم ذكره ، فانه كان يصطحب ابن سريج المغني فيركبان على نجيبين ويلقيان الحاج فيعرضان للنساء وينشدان الأشعار لا يبالون ان تكون فيهن بنت الخليفة او امرأته .

والظاهر أنهم لم يكونوا يفعلون ذلك الا لما يرون من ارتياح النساء اليه ، لأن المرأة تفتخر بأن يثني الشعراء على جمالها وان لم يرض أهلها . فقد كان لعبد الملك بن مروان بنت ارادت الحج فخاف ان يشبب بها ابن ابي ربيعة ، فاستكتب الحجاج اليه ان هو فعل ذلك أصابه بكل مكروه ، فلما قضت حجها خرجت فمر بها رجل فقالت له : « من انت ؟ » فقال: « من اهل مكة » قالت: « عليك وعلى اهل بلدك لعنة الله ! » قال : « ولم ذاك ؟ » قالت :«حججت فدخلت مكة ومعي من الجواري ما لم تر الأعين مثلهن فلم يستطع الفاسق ابن ابي ربيعة ان يزودنا من شعره أبياتاً نلهو بها في الطريق من سفرنا » قال : « اني لا أراه الا قد فعل » قالت : «فأتنا بشيء ان كان قاله ، ولك بكل بيت عشرة دنانير » فمضى

---

١ – الاغاني ٣٩ و ١٥٩ ج ٦ .

اليه فاخبره فقال : « لقد فعلت ولكن أحب ان تكتم علي » وأنشده قصيدة قالها فيها [١]

وممن اشتهر بتعرضه للنساء والتشبيب بهن في ذلك العصر الأحوص، كان يشبب بنساء ذوات أخطار من اهل المدينة فشكوه الى سليمان بن عبد الملك فأمر بالقبض عليه وجلده ثم نفاه [٢] . ووضاح اليمن كان يشبب بأم البنين امرأة الوليد بن عبد الملك ، وهم الوليد بقتله فمنعه ابنه عبد العزيز وقال : « ان قتلته فضحتني وحققت قوله وتوهم الناس ان بينه وبين امي ريبة » فأمسك عنه على غيظ وحنق ، حتى بلغه انه تعدى ام البنين الى اخته فاطمة بنت عبد الملك ، وكانت زوجة عمر بن عبد العزيز وقال فيها :

بنت الخليفة والخليفة جدها　　اخت الخليفة والخليفة بعلها
فرحت قوابلها بها وتباشر ت　　وكذاك كانوا في المسرة أهلها

فاحتنق واشتد غيظه وقال : « أما لهذا الكلب مزدجر عن ذكر نسائنا وأخواتنا ولا له عنا مذهب ؟ » ثم دعا به فأحضر وأمر ببئر فحفرت ودفنه بها حياً [٣] .

فكانت ايام بني امية من حيث العفة والغيرة عصر انتقال من البداوة الى الحضارة ، فلما انقضى عصر الأمويين ذهب ما بقي من سذاجة البداوة في طبائع العرب ، واستسلم الناس للترف والرخاء وضعفت الغيرة وأبيح التشبيب وشاع على ألسنة الشعراء ، حتى صاروا يصدرون به قصائد المدح والفخر . وكان الخلفاء الأولون من بني العباس لا يزالون على مقربة من البداوة فأنكروا ذلك ونهوا عنه . ومن أشدهم غيرة المهدي بن المنصور فان بشارا انشده مديحاً فيه تشبيب فنهاه عن التشبيب البتة [٤] فظل التشبيب مستقبحاً حتى أباحه الرشيد والح في نظمه [٥] فآل ذلك طبعاً الى ضعف الغيرة .

---

١ – الاغاني ١٢٨ ج ٢ .　　٢ – الاغاني ٤٨ ج ٤ .　　٣ – الاغاني ٤٠ ج ٦ .
٤ – الاغاني ٤١ و ٥٨ ج ٢ .　　٥ – الاغاني ١٦٠ ج ٣ .

الآداب الاجتماعية

في العصر العباسي

قد رأيت ما أصاب المناقب العربية الفطرية من التغير بعد الاسلام ، بما طرأ عليها من عوامل الحضارة والانغماس في الرخاء والقصف والاختلاط بأهل المدن ، فغلبت عليهم الضعة وركنوا الى بسطة العيش والتنعم بمطالب الحياة المادية، وزادهم العلم والفلسفة والطب تباعداً عن البداوة وخشونتها وسذاجتها ، وقضت سياسة العباسيين بمراعاة الفرس وغيرهم ممن نصروهم في قيام دولتهم وتشتيت شمل العرب . فذهبت العصبية العربية . واستلزمت رغبتهم في بقاء دولتهم العدول الى الفتك والغدر على ما فصلناه في الجزء الرابع ، فذهبت مناقب العرب ولم يبق من الوفاء والشجاعة والاستقلال والأنفة والعصبية والنجدة إلا آثار ضعيفة

المرأة في العصر العباسي

وآل تكاثر الجواري وشيوع التسري الى ذهاب الغيرة من قلوب الرجال ، حتى صاروا يتهادون الجواري الروميات والتركيات والفارسيات وهن أجمل صورة وأشرق وجهاً من نساء العرب . فبعد ان كان الرجل لا يعرف غير امرأته والمرأة لا تفكر في غير زوجها وهي واثقة بأمانته ، إذا هو قد تشتتت عواطفه بين عدة نساء فقلت غيرته عليها . ولما رأته مشغولاً عنها قلت ثقتها به إلا من عصمها عقلها وشرفها فلم ينضج التمدن في العصر العباسي حتى تنوسيت المرأة العربية في المدن ، وذهبت حريتها وغيرتها وصارت هي نفسها تهدي زوجها الجارية وتحبب اليه القرب منها ، لا يهمها ذلك ولا تغار منه (١) وبعد أن كان العرب في الجاهلية وصدر الاسلام اذا علموا بحب رجل فتاة منعوه من زواجها صاروا يساعدونه في الحصول عليها (٢) .

---

١ – الفرج بعد الشدة ١٨٣ ج ٢ .   ٢ – تزيين الاسواق ١٢٢ .

فأفضى ذلك الى انحطاط المرأة وذهاب عزة نفسها واستقلال فكرها ، فاحتقرهـــا الرجل وأساء الظن بها وصار يعدها عدوة له ويوصي بعدم الإركان اليها ، فيعاشرهـا على غل وسوء رأي ، يقفل عليها الأبواب والنوافذ ، ويسد في وجهها الطرق والمسالك ، ويمنعها من الخروج أو الكلام ، وهو صاحب الذنب في انحطاطها . فأصبح الطعن في طباع المرأة وسوء سريرتها شائعاً على ألسنة الناس، حتى ألفوا فيه الروايات والأقاصيص ونظموا الشعر ، وتفننوا في وضع الجمل الحكمية والعبارات البليغة في تحذير الناس من المرأة وعـدم الوثوق بها. وهذه هي قصة الف ليلة وليلة تمثل حال المرأة في الأعصر الاسلامية الوسطى، بعد شيوع التسري وانغماس المسلمين في الترف. وأما الأشعار فاليك ماقاله أبو العلاء المعري:

إذا بلغ الوليـد لديك عشراً ... فلا يدخل على الحرم الوليـد
وإن خالفتني وأضعت نصحي ... فأنت ، وإن رزقت حجى، بليد
ألا إن النساء حبـــال غي ... بهـــن يضيع الشرف التليد [1]

وأصبح الكاتب اذا اراد تعزية صديق على فقد بنت له قال ما قاله أبو بكر الخوارزمي، إذ كتب الى رئيس بهراه يعزيه في بنته وهو قوله

« ولولا ما ذكرته من سترها ووقفت عليه من غرائب أمرها، لكنت الى التهنئة اقرب من التعزية . فان ستر العورات من الحسنات ، ودفن البنات من المكرمـات ، ونحن في زمان اذا قدم احدنا فيه الحرمة فقد استكمل النعمة ، واذا زف كريمة الى القبر ، فقد بلغ أمنيته من الصهر ، قال الشاعر :

ولم أر نعمة شملت كريمـاً ... كنعمة عورة سترت بقـبر

وقال آخر :

تهوى حياتي وأهوى موتها شفقاً ... والموت أكرم نزال على الحرم

وقال آخر :

وددت بنيـــتي وودت أني ... وضعت بنيتي في لحد قـــبر

١ - ألف باء ٧٧ ج ٢ .

وقال آخر :

ومن غاية المجد والمكرمات ... بقاء البنين وموت البنات

وقال آخر ،

سميتها إذ ولدت تموت ... والقبر صهر ضامن وبيت (١)

هذا مثال من آراء أدباء المسلمين وشعرائهم في المرأة بين القرنين الرابع والخامس للهجرة.

فلم يبق من المناقب العربية في العصر العباسي إلا السخاء ، لأنه كان لازماً لقوام الدولة وسلامتها وتأييدها ، بل هو كان من أهم قواعد الارتزاق في ذلك العصر .

الارتزاق بالسخاء

ان الارتزاق في التمدن الحديث مبني على قواعد اقتصادية عمرانية تحفظ توازن القوى ونتائجها ، فينال الانسان من رزقه على مقدار كده وجده مع اعتبار درجة عقله وذكائه، سواء كان ذلك بالتجارة او الزراعة او الصناعة او غيرها . وقد وضعوا لكل من ابواب الرزق قواعد في تقدير الارباح لا تتعداها إلا في احوال خاصة ترتفع فيها الاسعار فجأة كما حدث في مصر لهذا العهد (حوالي ١٩١٠) . وعلى أي حال فالصانع تقدر أجرته بمقدار عمله ، والتاجر يقدر ربحه بنسبة رأس ماله .

أما في التمدن الاسلامي فقد كان الارتزاق يقرب من ذلك في طبقة العامة من المزارعين والباعة واهل الصناعات . وأما في الخاصة واتباعهم فكان على اسلوب آخر لا مثيل له بين المتمدنين في هذا العصر ، ومداره «السخاء» المتسلسل من الخلفاء فالوزراء فمن بعدهم ممن يعيشون حول البلاط ويرتزقون من رجال الدولة . ومصدر هذه الارزاق بيت المال، وهو في قبضة الخليفة اومن يقوم مقامه من الوزراء او القواد او الأمراء على حسب اطوار النفوذ . والاموال تأتي بيت المال من جباية الخراج والجزية . وقد رأيت في الجزء الثاني من هذا الكتاب ان متوسط جباية الدولة في العصر العباسي الأول بلغ نحو ٣٦٠ مليون

---

١ – رسائل الخوارزمي ٢٠ .

درهم في العام،لا ينفق منها على مصالح الدولة اكثر من ٥٠مليونا،فالباقي ٣٠٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم تبقى في بيت المال تحت تصرف الخليفة ، واكثرها من جباية الخراج . وكان الخراج في العصر المذكور ثقيلا ، لأنهم كانوا يقاسمون الناس غلاتهم بالنصف او الثلث ، وذلك في نظر اهل هذا الزمان ظلم ، ولكن اهل ذلك العصر لم يشعروا بثقله بل كانوا يعدونه رفقاً ، لأن العباسيين نقلوا الخراج من المساحة الى المقاسمة ، فبعد ان كان الحكام قبلهم يقتضون خراج الأرض زرعت أم لم تزرع ، حصروا الخراج في الأرض المزروعة وجعلوه شطراً من غلتها(١) .

سنة العرب في الارتزاق

والأموال التي تبقى في خزانة الدولة يعطى بعضها رواتب لموظفيها ، ويفرق سائرها فيمن بقي من الخاصة بين جوائز ورواتب ، فتتسع احوالهم بالجاه اكثر منها بالمال ، فيضطرون الى الانفاق لحفظ مقامهم . فينفقون على من يتعلق بهم ، فينتقل المال على هذه الصورة من الخليفة ووزرائه وعماله الى حواشيهم واتباعهم ، ومن هؤلاء الى الباعة واهل الأسواق فيعود الى العامة كأنه لم يؤخذ منهم . وهي سنة في الارتزاق تظهر لأول وهلة انها من خصائص التمدن الاسلامي ، ولكنها كانت على نحو ذلك في التمدن القديم . فأهل أثينا وهم خاصة اليونانيين كانوا لا يعملون عملا ولا يحترفون حرفة في سبيل الرزق ، وانما كانت ارزاقهم من خزانة الدولة يتناولونها رواتب في اوقات معينة ، او هبات في اوقات غير معينة ، على مقتضيات الأحوال او على ما يلحقهم من الغنائم ونحوها . ولم يكن لهم شغل غير سماع الخطب السياسية او العلمية والتمشي فيحدائق المدينة وحضور الاحتفالات الرسمية ونحوها(٢) ولكن ذلك كان محصوراً في اثينا او غيرها من العواصم الكبرى . اما المسلمون فتوسعوا فيه حتى شمل كل مدينة وكل طبقة ، لتمكن السخاء في نفسالعربي ، ولأن هذه السنة كانت شائعة عند العرب من ايام الجاهلية .فأمير القبيلة كان يغزو بقبيلته، فما وقع له من مال وماشية فرقه في كبار رجاله ، وهؤلاء يفرقونه في ا هلهم واتباعهم ، ولذلك ذكروا من سنن العرب في الارتزاق انهم « نهابون وهابون » (٣) وكان العرب يكرهون اختزان الأموال ويعدونه قبيحاً(٤) .

---

١ – الجزء الثاني.   ٢ – Library of Univ. Fist. 11,750

٣ – ابن خلكان ١١٧ ج ٢ .   ٤ – الاغاني ١٥٦ ج ١٢ .

والسبب في بقاء هذه السنة مع ذهاب غيرها من المناقب انها لازمة لبقاء الدول في تلك العصور ، وخصوصاً في الاسلام منذ طمع بنو امية في الخلافة واستخدموا الاموال في ابتياع الأحزاب واسترضاء كبار الرجال ، فعودوا الناس العطاء . فلما قام العباسيون لم يستطيعوا الرجوع عنه ، بل تجاوزوه من بعض الوجوه ، فصار السخاء ضرورياً لقيام الدولة والا فسد عليها حماتها وتمرد اهلها .

وكان الصحابة في عصر الراشدين لا يرون اختزان المال ، جرياً على سنة العرب او عملا بحديث رواه قيس بن عاصم بهذا المعنى وهو قول النبي (صلعم) : « نعم المال الأربعون ، والأكثر الستون ، وويل لأصحاب المئين » [١] ولذلك كان الخلفاء الراشدون لا يبقون في بيت المال شيئاً . على أن المسلمين في ايامهم كانوا مشتغلين بما بين ايديهم من الغنائم ، وكانوا لا يزالون في دهشة النبوة والاخلاص في الجهاد والخراج في ايامهم معتدل فلم يكن يفيض منه شيء كثير ، فلما طمع الامويون في الملك اتخذوا كل وسيلة لجمع المال والاستكثار منه ، وزادوا اعطيات الجند ووهبوا واجازوا ، وضاعفوا رواتب ابناء الصحابة وغيرهم من القرشيين اصحاب النفوذ ، فكان هؤلاء يتوسعون في الانفاق ببناء القصور واقتناء الخدم والجواري ، ويهبون الشعراء والندماء والحاشية والأتباع فيذهب ذلك المال كما أتى .

كذلك كان يفعل عبدالله بن عباس وعبدالله بن جعفر وسعيد بن العاص [٢] فيفد أحدهم على معاوية او يزيد فيؤدي له عطاءه ، وربما أهداه هدية سنية ، فيعود الى بلده ويفرق المال جميعه في أهله وأعوانه [٣] وكان الخلفاء يعرفون ذلك ويعدون عطاءهم لهؤلاء عطاء لأهل المدينة [٤] وليس ذلك خاصاً بفئة منهم بل كان شاملاً الأكثرين ، حتى النساء من بنات الصحابة كسكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة وغيرهما ، فكانت عائشة هذه تفد على الخليفة وربما كانت في ضيق ، فتشكو اليه فراغ يدها فيأمر لها بمائة الف درهم مثلاً ، فلما تعود الى الحجاز يأتيها الشاعر او الفارس فتعطيه الألف بعد الألف حتى تستنفد ما جاءت به [٥] — حتى الشعراء كانوا يبذلون بعض جوائزهم فيمن حولهم ، ولذلك كانوا مع كثرة ما يصل الى ايديهم من المال لا يزالون مدينين ويموت اكثرهم فقراء [٦] .

---

١ — الاغاني ١٥٢ ج ١٢ .
٢ — العقد الفريد ٨٥ ج ١ .
٣ — المسعودي ١١١ ج ٢ .
٤ — العقد الفريد ١١٠ ج ١ .
٥ — الاغاني ٦١ ج ١٠ .
٦ — الاغاني ١٧٠ ج ٥ و ١٥٦ ج ١٧ .

ولما أفضى الأمر الى العباسيين ساروا على هذه السنة في الأعطيات والجوائز ، وزادوا مقاديرها لتوفر الثروة في ايامهم . وكان اصحابهم يفرقونها في الناس ، فموسى الكاظم كان يقيم في المدينة ويفد على بغداد فيرده المهدي مثقلا بالأموال ، فلما يصل الى المدينة يجعلها صرراً يفرقها في أهلها [١] وكانوا يفعلون ذلك مع العمال والكتاب والشعراء والمغنين ، وهؤلاء ينفقون المال بالسخاء على تفاوت في درجاته وسائر أحواله . وربما أنفقوا بعضه في حاشية الخليفة او غلمانه [٢] ليسهلوا لهم الدخول عليه .

استرضاء العامة بالطعام

فكان الخلفاء او الامراء يعدون السخاء على العامة والخاصة فرضاً يؤيدون به سلطتهم. اما العامة فكانوا يسترضونهم بأبسط أساليب السخاء وهو الضيافة ، فكانوا ينصبون لهم الموائد يدعونهم الى الطعام ، فيجتمع على مائدة الأمير الوف من العامة يأكلون معاً صباحاً ومساء . ذلك كان دأبهم من عصر الراشدين ، جروا به على سنة العرب ثم احتاجوا اليه بعد الاسلام في استرضاء القبائل المختلفة ، فبالغوا فيه حتى نصبوا الموائد على الطرق ، وأول من فعل ذلك عبيد الله بن عباس [٣] واشتهر في صدر الاسلام غير واحد من الأجواد ممن كانوا يقبضون الأعطية الكبيرة من خلفاء بني امية فينفقونها في البذل والسخاء ، وقد تقدم ذكر بعضهم .

وجرى الدهاة من عمال الامويين على هذه السنة ، فنصبوا الموائد على الطرق ، فكان الحجاج يضع في كل يوم من ايام رمضان الف خوان ، وفي سائر الايام خمسمائة خوان ، على كل خوان عشرة أنفس وعشرة الوان وسمكة مشوية طرية وارزة بسكر . وكان يدور هو بنفسه على الموائد يتفقدها ، يحملونه اليها في محفة وينتقلون به من خوان الى خوان ، فاذا رأى أرزة ليس عليها سكر أمر الخباز بأن يجيء بسكرها ، فاذا ابطأ حتى اكلت الأرزة بلا سكر أمر به فضرب ٢٠٠ سوط . وكذلك كان يفعل عمال الحجاج في سائر المدن ، فكان بعضهم ينصب الموائد مرتين في اليوم للغداء والعشاء [٤] وكان يوسف بن عمر عامل هشام بن عبدالملك ينصب خمسمائة خوان [٥] وكان يزيد بن هبيرة يضع الف خوان يطعم الناس [٦] وقس على ذلك سائر العمال وغيرهم كابن طولون بمصر ، فقد كانت له موائد

---

١ – ابن خلكان ١٣١ ج ٢ .
٢ – الاغاني ٨٤ ج ٥ و ٤٦ ج ٣ و ١١ ج ١٢ .
٣ – العقد الفريد ٨٣ ج ١ .
٤ – العقد الفريد ٦ ج ٣ وابن خلكان ٨٢ ج ١ .
٥ – العقد الفريد ٦ ج ٣ .
٦ – ابن خلكان ٢٧١ ج ٢ .

يحضرها الخاص والعام [١] وربما فرقوا الطعام بلا موائد كما كان يفعل لؤلؤ الحاجب في أيام الفاطميين بمصر ، فانه كان يفرق ١٢٠٠ رغيف مع قدر الطعام كل يوم، واذا دخل رمضان أضعف ذلك ويقف هو بنفسه ليفرقه [٢] هذا غير ما كانوا يبذلونه في استرضاء العامة من الأموال على سبيل الصدقة ، فكان لكل من الخلفاء والامراء والوزراء مال ينفقه صدقة كل يوم ، على ما قدمناه في الجزء الثاني من الكتاب ، وربما فعل بعضهم ذلك لمجرد الرغبة في الأجر او عملا بمقتضى الأريحية .

واطعام العامة على هذه الصورة لم يكن خاصاً بالمسلمين، وانما هو ايضاً من سنن الأعصر الغابرة . فقد كان العامة في رومية يعيشون من أطعمة يفرقها فيهم اهل الدولة من الدقيق واللحم ، وكان بعض ملوك الفرس ينصب ٥٠٠ مائدة يجعل على كل واحدة نصف شاة وجام حلوى او عسل وعشرة أرغفة وآنية شراب او لبن وسمكة مصنوعة [٣] والمسلمون جروا على هذا الترتيب اقتداء بالفرس مثل اقتدائهم بهم في كثير من آدابهم الاجتماعية .

وأما الخاصة او من جرى مجراهم من المقربين غير الموظفين فكان الخلفاء يهبونهم الهبات او يعينون لهم الرواتب لتقييد إرادتهم [٤] كما تقدم ، ولذلك كان اهل الأنفة يكرهون صلات الخلفاء ويبعدون عن جوائزهم رغبة في الاستقلال ، وأكثر ما يقع ذلك لأهل البادية الذين لم تذلهم الحضارة ، ولا سيما بعد نكبة البرامكة ، فقد طال حديث الناس يومئذ بأمرهم وغلب على اعتقادهم أن من يثرى من هبات الخلفاء تكون حياته في خطر — ذكروا بدوياً عيرته امرأته بفقره لبعده عن جوائز الخلفاء الى ان قالت : « هذا فلان قد أخذ الأموال فحلى نساءه وبنى داره واشترى ضياعاً ، وأنت ههنا كما ترى .. » وكانت امرأته اهلية فأنشأ يقول :

---

١ — ابن خلكان ٥٥ ج ١ .
٢ — المقريزي ٨٥ ج ١ .
٣ — ترتيب الدول ١٢٠ .
٤ — الاغاني ١٥٤ ج ١٧ .

تـــلوم على ترك الغنى باهلية ... ذوى الفقر عنها كل طرف وتالد
رأت حولها النسوان يرفلن في الثرا ... مقـــلدة أعناقهـــا بالقـــلائد
أسرك أني نلت مـــا نال جعفر ... من العيش أو ما نال يحيى بن خالد ؟
وأن أمـــير المؤمنين أغصني ... بغصهمـــا بالمشرفـــات النـــوارد ؟
رأيت رفيعـــات الأمور مشوبة ... بمستودعات في بطون الأساود
دعيني تجيء منيتي مطمئنـــة ... ولم أتجشم هـــول تلـــك المـــوارد (١)

الهبات والدين

على أن الفقهاء واهل التقوى كانوا في صدر الاسلام وأوائل دولة بني أميـــة يعدون صلات الخلفاء رشوة ويترددون في قبولها ، فما لبثوا أن ذاقوا حلاوتها حتى صاروا يتفاخرون بنيلها . قال ذو الرمة :

وما كان مـــالي من تراث ورثته ... ولا دية كانت ولا كسب مـــأثم
ولكن عطاء الله من كل رحـــلة ... الى كل محجوب السرادق خضرم (٢)

ثم صاروا يتزلفون الى أصحاب الأموال ويستجدونهم رغبة في الارتزاق فبعضهم ينال رزقه صلة او جائزة ، وآخرون يقبضونه راتباً معيناً ، وهؤلاء على الغالب من اهل البأساء وأيتامهم وأراملهم (٣) او زعماء القبائل ورؤساء الأحزاب على ما يوافق مصلحة الخليفـــة والأمير او ما يتوسم فيه الأجر والثواب . فكان بعضهم يفرض الفروض لأولاد الأنصار والمهاجرين ، وغيره يعطي العلويين أو الطـــالبيين ، وغيره يعطي قريشاً او اليمن ، وقس عليه . فكان ابن عيسى وزير المقتدر يعطي الطالبيين والعباسيين وأبناء الأنصار (٤) وكان ابن الفرات يعطي الفقهاء والعلماء والفقراء واهل البيوتات ، اكثرهم مائة دينـــار في الشهر واقلهم خمسة دراهم وما بين ذلك (٥) وكان لكافور الأخشيدي بمصر مال خاص يجري منه الارزاق على من يأتيه ناقماً على الخليفة ببغداد او غيره (٦) .

ولهذه الاسباب كان الخلفاء يستحلون اجازة الشعراء وغيرهم من بيت المـــال ، لانهم

---

١ — الاغاني ٩ ج ١٢ . ٢ — العقد الفريد ٨٧ ج ١ .
٣ — ابن الاثير ١٥٤ ج ٦ . ٤ — تاريخ الوزراء ٣٢٣ .
٥ — ابن خلكان ٣٧٢ ج ١ . ٦ — الفرج بعد الشدة ١٤٢ ج ٢.

يعدون ذلك في سبيل مصلحة الدولة وان لم يصرحوا به دفاعاً عن انفسهم ، بل كانوا اذا سمعوا الانتقاد عليهم من اهل النفوذ الديني سكتوا واسترضوهم ودافعوا عن انفسهم ، كما فعل الرشيد والمهدي بسفيان الثوري (١) .

ارتزاق الكبير من الصغير

ذلك ما يقال في ارتزاق الصغير من الكبير في التمدن الاسلامي ، اما ارتزاق الكبير من الصغير فقد كان بعضه بالسخاء أيضاً ولكن على سبيل الهدية ، فيعدون عطية الامير الى الصغير صلة او جائزة ، ويسمون ما يقدمه الاصاغر الى الامير والوزير هدية . وكانت الهدايا شائعة على الخصوص في العصر العباسي ، فاذا تولى الامير على بلد فأول ما يدخلها يبعث اهلها اليه بالهدايا من الأموال والجواري والدواب والثياب (٢) وهو يبعث الى الوزير الذي ولاه او الخليفة بالاموال بسبيل الهدية أيضاً ، واذا طال مقامه اصبحت تلك الهدايا فرضاً واجباً يبعث بها كل سنة ، فاذا أمسكها سنة عدوا إمساكه تمرداً (٣) .

فالسخاء كان سنة عامة في عهد ذلك التمدن ، لا يستثنى عنه عصر او طائفة وان تفاوتت مقاديره واختلفت صوره واشكاله باختلاف العصور . فكانت العطايا في أول عهد الأمويين الخيل والإبل والماشية ، فيأمر الخليفة او الامير لمن يستجديه بلقحة وفحلها وراعيها ، او جارية وفرس ، غير ما فرضوه من الاعطيات فانها كانت تعطى عيناً او ورقاً . ثم صارت في أواسط الدولة تخوت الثياب من الوشي ونحوه والوصائف فضلاً عن النقود ، وصارت في بني العباس البدر من الدنانير وعقود الجوهر وتخوت الديبقى والقصور والضياع وغيرها .

المجاملة في المعاملة

المجاملة من الطباع الراسخة في نفوس العرب . وذهب بعض الباحثين الى أنها فطرية في أصل أرومتهم ، وما هي كذلك وانما تولدت فيهم بتوالي الاجيال وتقلب الاحوال . لأن العرب كانوا مفطورين على استقلال الفكر وحرية الرأي كما رأيت ، وظلوا على ذلك

١ – سراج الملوك ٥٦ وراجع الجزء الثاني من هذا الكتاب .
٢ – ابن الاثير ٥١ ج ٦ . ٣ – ابن الاثير ١٢١ ج ٧

الى انقضاء عصر الراشدين ، ثم اخذت افكارهم في الانحباس وعقولهم في التقيد من عصر الأمويين ، لما اقتضاه طمع بني أمية في الملك من الشدة والحيلة ، فاضطر الناس للمداجاة والتمويه . وكان الخلفاء من الجهة الاخرى يداجون الناس ويجاملونهم ، رغبة في نصرتهم او قطع ألسنتهم ويعدون ذلك « حلماً » .

وأشهر الحلماء واقدمهم معاوية بن ابي سفيان ، فقد ذكرنا في الجزء الرابع انه كان يسمع طعن أهل البيت وغيرهم من رؤساء الاحزاب فيه وفي دولته ويغضي ، وربما أحسن الى الطاعنين او تظاهر بالاستخفاف ، كما فعل بشعبة بن غريض . وكان في الكعبة ومعاوية هناك ، فبعث يدعوه فأتاه رسوله فقال : « أجب امير المؤمنين » .

قال : « اوليس قد مات امير المؤمنين ؟ » (يعني عليا) فقال له : « أجب معاوية » . فأتاه ولم يسلم عليه بالخلافة ، فقال له معاوية : « ما فعلت أرضك التي بتيماء ؟ » قال : « يكسى منها العاري ويرد فضلها على الجار » قال : « اتبيعها ؟ » قال : « نعم » قال : « بكم ؟ » قال : « بستين الف دينار ، ولولا خلة اصابت الحي لم ابعها » قال : « لقد اغليت » قال : « اما لو كانت لبعض اصحابك لأخذتها بستمائة الف دينار ثم لم تبال » قال : « أجل واذ بخلت بأرضك فأنشدني شعر ابيك يرثي نفسه » .

فأنشده تلك الأبيات فأعجب بها معاوية وقال : «انا كنت بهذا الشعر أولى من ابيك» قال : « كذبت ولؤمت ! » قال : « أما كذبت فنعم ، وأما لؤمت فلم ؟ » قال : « لأنك كنت ميت الحق في الجاهلية وميته في الاسلام . أما في الجاهلية فقاتلت النبي صلى الله عليه وسلم والوحي حتى جعل الله كيدك المردود ، واما في الاسلام فمنعت ولد رسول الله الخلافة ، وما انت وهي انت طليق ابن طليق ؟ » فقال معاوية : « قد خرف الشيخ فأقيموه » فأخذ بيده فأقيم .

وكان معاوية اذا اعجزه اصطناع الاحزاب بالعطاء او بالحلم او بالسيف جهاراً عمد الى قتلهم غيلة ، وكان انصاره يعرفون ذلك فيه وانه يصانعهم ليغلب بهم ، فكانوا يصانعونه طمعاً في مال او منصب ، فكانت المصانعة والمداجاة اساس سياسة معاوية . وقد قواهما واستثمرهما بدهائه وحزمه ففاز ، وتحدث المسلمون بحلمه وسعة صدره وجعلوه قدوتهم ، والناس على دين ملوكهم . فكثر الميل الى المصانعة في ذلك العصر ، وهي على الغالب بين الدولة ورجالها — على ان الاريحية كانت تحول دون تمكنها .

فلما قام الفرس لمناهضة الأمويين ونصرة العباسيين أغضى ابو مسلم عن الوفاء والاريحية وقتل على التهمة ، فأصبح الناس يخافون على حياتهم وان لم يقترفوا ذنباً، فزادت حاجتهم الى المصانعة ولما فاز ابو مسلم بحزبه وسلم مقاليـــد الدولة الى العباسيين ، كانت فوضى بينهم وبين العلويين . فلما تقلدها المنصور وطمع في استخلاصها للعباسيين ، فتك بأبي مسلم ثم قتل من قتله من العلويين ، وهم لا يستغنون عن الفرس لنظام حكومتهم وحماية دولتهم، فاستخدموهم على غل ولجأوا في الاحتراس منهم واتقـــاء اذاهم الى الجاسوسية ، فبثوا الارصاد على وزرائهم وعمالهم ، يستطلعون اخبارهم ويبعثون بها اليهم سراً . والارصاد نوعان : الاول اصحاب البريد في الأطراف والعمال يعلمون انهم رقباء على اعمالهم ، والثاني العيون الخفية يتخذونهم من الجواري والغلمان مما يقدمه الخليفة هدية الى وزيره او عامله ، فيوليهم الوزير بعض شؤون منزله فيدخلون في جملة الندماء او المغنين او القيان او اصحاب الشراب ، ويكونون رقباء عليه ينقلون اخباره سراً الى الخليفة . وكان الوزراء يفعلون نحو ذلك بالخلفاء .

فشيوع الجاسوسية على هذه الصورة مع المضاغنة والتحاسد بعث على المصانعة والمجاملة، وازداد ذلك على الخصوص بعد ذهاب الاريحية وزوال الانفة وعزة النفس من العرب ، على اثر تضعضع العنصر العربي وتغلب العناصر الأعجمية مع تنافس اصحاب المطامع من هؤلاء في اواسط الدولة العباسية بابتزاز الأموال . واعتبر ما عقب ذلك من الاستبداد والظلم بعد ان فسدت الاحكام في الدول الاسلامية واستبد السلاطين والامراء غير العرب بمن اقام في ممالكهم من اهل اللسان العربي ، ويسمونهم عربا وهم اخلاط من مولدي الامم الاخرى . فلجأ هؤلاء بطبيعة العمران الى المجاملة والمصانعة على نحو ما هو حالهم اليوم — إلا الذين اوتوا السيادة وتوفرت لهم السطوة ونفوذ الكلمة اجيالا متوالية .

العائلة في التمدن الاسلامي

كانت العائلة في اواسط التمدن الاسلامي نحو ما هي عليه اليوم ، وقوامها المرأة وقد تقدم الكلام عليها ، فلا نطيل القول في ذلك الآن وانما نقول كلمـــة في بعض خصائص العائلة الاسلامية ، كالحجاب وتعدد الزوجات والطلاق .

١ – الحجاب

اذا كان المراد بالحجاب ستر العورة كالخمار ونحوه فهو ليس من محدثات الاسلام، بل هو قديم كان شائعاً قبل النصرانية ولم تغير النصرانية شيئا منه ، وظل معروفاً في اوربا الى العصور الوسطى وما بعدها ، ولا تزال آثاره باقية في أوربا الى الآن .

واذا اريد به حبس المرأة في بيتها ومنعها من مخالطة الناس فهو من ثمار التمدن الاسلامي ، لانه لم يكن شائعاً قبله . على انه لم يبلغ الحد الذي بلغ اليه من الشدة والدقة ، الا بعد نضج المدنية وتمكن الحضارة من نفوس المسلمين وإركانهم الى الترف والرخاء . وقد رأيت في كلامنا عن المرأة البدوية أنها كانت مساوية للرجل حتى نبغ من مضارب البادية نساء اشتهرن بالشجاعة والإقدام والحزم والرأي والتجارة والأدب والشعر وغيرها . فلما انتشر الاسلام وكثرت الجواري وشاع التسري في المسلمين اختلفت الظنون بين الرجل والمرأة ، فقلت غيرته عليها وأساء كل منهما الظن في صاحبه ، والرجل صاحب العصمة ورب العائلة فضيق على المرأة الدروب واقام عليها الأرصاد والعيون من أوائل الدولة الأموية ، إذ اتخذوا الخصيان من العبيد ثم استقدموا الصقالبة البيض .

فالحجاب الضيق على نحو ما شاع بين العائلات الاسلامية في الشرق سببه سوء ظن الرجل واستبداده بأهل بيته واستئثاره بالملذات لنفسه ، وليس هو من مقتضيات الاسلام كما يتبادر الى الأذهان . ولو راجعت ما جاء في القرآن الكريم من هذا القبيل لرأيت تفسيره أقرب الى ما يراد من رفع الحجاب . ولكن الناس تعودوا ان يفسروا الآيات القرآنية بما يوافق عاداتهم او اغراضهم او اميالهم . اعتبر ذلك في كل دين تمدن أهله وعمدوا الى تفسير كتبه ، فكتب النصارى مثلا ليس فيها نص صريح يمنع عامتهم من التزوج بامرأتين فأكثر ، ولكن الكنيسة رأت ان الاقتصار على امرأة اقرب الى سعادة العائلة ونظام الاجتماع ، فاستخرج رؤساء الدين ذلك من بعض القرائن بالتفسير والتأويل . والمسلمون لما استكثروا من الجواري وساءت الظنون بينهم وبين نسائهم أرادوا الحجر عليهن ، ولم يعدموا تفسيراً يساعدهم على ما أرادوا فحبسوهن وضيقوا عليهن . واعتقدت المرأة بتوالي الأجيال أنه يحل للرجل ما لا يحل لها ، فصبرت عليه وخافته ولكنها لم تحبه . فخافها وحبسها وجعل بينه وبينها حاجزاً ، وغادرها تجالس الخدم والعبيد ، وأصبح لا يؤاكلها ولا يجالسها ولا يحادثها إلا نادراً ، وأعلن ارتيابه في أمانتها وأصبح يفتخر بأنها لا تخرج من منزلها الا الى القبر .

على أن ظلم المرأة على هذه الصورة واحتقارها مخالف لتعاليم القرآن ، لأنه يأمر بالمودة والرحمة بين الزوجين ، وهذا نص الآية ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ﴾ وقوله « ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف » وقوله ﴿ وعاشروهن بالمعروف ﴾ ، ولكن الرجل أبى الا الاستبداد والاستئثار ولا سيما بعد انقضاء عصر العلم ، إذ اقتصر الفقهاء على النظر في الأبحاث الدينية الجديدة ، وخيم الجهل على العقول كما اصاب النصرانية في الأجيال المظلمة ، فأخذوا يفسرون الآيات والأحاديث على ما يوافق ميولهم وأهواءهم . وكانت الأحكام قد فسدت واستبد الحكام في الناس فعادت عاقبة ذلك على المرأة المسكينة .

لأن الرجل في طور الظلم يتحمل بطش الحاكم وعسفه ويكظم ما في نفسه ، حتى اذا جاء منزله عامل أهله مثل معاملة الحاكم له انتقاماً لنفسه .. تلك سنة من سنن العمران على اختلاف اطوار التمدن . فالبلاد التي يتولاها حاكم ظالم يقتدي به ارباب العائلات بظلم نسائهم وأولادهم ، أما في الحكم العادل فالمرأة تنال حقوقها والرجل يعدل في حكومته . فالبيت دولة صغيرة تمثل دولة الأمة

وما زالت المرأة المسلمة في نحو ما تقدم الى أوائل هذه النهضة والمسلمون سكوت ، حتى تصدى بعض ارباب الأقلام من المسلمين في اواسط القرن الماضي ونددوا بالحجاب وعواقبه وحرضوا اخوانهم على تركه . واقدم من فعل ذلك على ما نعلم المرحوم الشيخ أحمد فارس الشدياق فكتب الفصول الضافية في « الجوائب » بالآستانة ثم كتب غيره فصولاً لا تشفي غليلاً ، حتى ظهر كتاب تحرير المرأة في آخر القرن المذكور لصاحبه قاسم بك أمين فوفى الموضوع حقه ولم يترك مجالاً لسائل .

٢ — تعدد الزوجات

ومن آفات العائلة الاسلامية تعدد الزوجات ، وهي ان يتخذ الرجل زوجتين الى اربع ، والشرع الاسلامي يجيز له ذلك بشرط اذا روعي حق مراعاته لم يتخذ الرجل الا زوجة واحدة لأن الآية التي تجيز تعدد الزوجات تشترط ان يعدل الرجل بينهن فاذا خاف ألا يعدل فيقتصر على واحدة ، وهذا نص الآية « فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة » وفي محل آخر « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة » فاذا جمعت بين الآيتين رأيت فحواهما اقرب الى النهي عن تعدد الزوجات منه الى الأمر به . ولذلك رأيت

الغالب في العقلاء واهل المروءة ان يكتفوا بزوجة واحدة . وكان ذلك سهلاً في عصر التسري ، إذ قد يأتي النسل من بعض الجواري فلا يجد الرجل ضرورة الى الزواج ثانية او ثالثة اكتفاء بجواريه ومن يأتينه بما يشتهيه من النسل . على ان تعدد الزوجات ظل متبعاً حتى في اهل الفضيلة والعقل الى اليوم ولكن على قلة . واذا احصى المتزوجون بأكثر من امرأة فلا نظنهم على خمسة في المائة او عشرة من مجموع المتزوجين ، وهم في الغالب من العامة واذا كانوا من الخاصة فانما فعلوا ذلك لأسباب قهرية .

ومن أجاز تعدد الزوجات ذهب الى تفسير « العدل » بالعدل في النفقة لا في المحبة ، على ان كثيرين من اهل الوجاهة والشرف في العصور الاسلامية الوسطى كانوا يجمعون بين التسري وتعدد الازواج ، والغالب ان تكون السيادة للمرأة الاولى وان اختلف ذلك باختلاف الاحوال — ولكن المرأة العاقلة التقية كانت تعد اهداء زوجها ما يرضاه من الجواري الحسان فضيلة ، كما فعلت ام جعفر بالرشيد لتشغله عن الجارية دنانير .

وقد تساعد المرأة التقية زوجها على الزواج بامرأة اخرى تتوقع من مسعاها في ذلك ثواباً — روى الشيخ الجبرتي المؤرخ المصري عن احدى ازواج ابيه قال انها كانت من الصالحات المصونات وكانت بارة بزوجها ومطيعة له ، ومن جملة برها له انها كانت تشتري له من السراري الحسان من مالها وتنظمهن بالحلي والملابس وتقدمهن اليه وتعتقد حصول الاجر والثواب لها بذلك ، وكان يتزوج عليها كثيراً من الحرائر فلا يسوؤها فعله ولا يحصل عندها ما يحصل عند النساء من الغيرة (١) .

٢ — الطلاق

ويقال عن الطلاق ما يقال عن تعدد الزوجات ، فالعقلاء يذهبون الى كره الطلاق بناء على بعض الآيات الواردة في هذا الشأن كقوله تعالى « وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من اهله وحكما من اهلها ان يريدا اصلاحا يوفق الله بينهما» وقوله «فان كرهتموهن فعسى ان تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا » وفي الحديث « ابغض الحلال عند الله الطلاق » ، ومع ذلك كان بعض كبار الصحابة يكثرون منه اكثاراً مدهشاً ، كما فعل الحسن بن علي بن ابي طالب فانه تزوج ٢٥٠ امرأة وقيل ٣٠٠ ، وكان ابوه يضجر من ذلك ويكرهه حياء من اهليهن ، وكان يقول في خطبه : «ان حسناً مطلاق فلا تزوجوه» .

---

١ — الجبرتي ١٨٢ ج ٣ .

ويليه المغيرة بن شعبة فقد تزوج نحو هذا العدد [١] على ان الطـــلاق ما زال مكروها كما رأيت من كلام الامام علي. وأهل الانفة والفضل لا يطلقون الا لعلة كبيرة او عذر شرعي. ولو أحصيت حوادث الطلاق لرأيت اكثرها في طبقات العامة .

ومما ساعد على تكاثر حوادث الطلاق المبالغة في الحجاب ، فيتزوج الشاب الفتاة وهو لم ير وجهها فاذا لم توافقه هان عليه طلاقها ، لانه لم يرض الزواج على هذا الشرط الا لعلمه بسهولة التخلص من زوجته اذا لم تعجبه . وهذا التضييق ليس من الدين في شيء ، لورود عدة احاديث تجيز للرجل ان يرى خطيبته قبل الزواج وأحاديث تأمر برؤيتها صريحا [٢] فلو عملوا بذلك لقلت البواعث على الطلاق . على ان للطلاق في بعض الاحـــوال فوائد اجتماعية حرمت منها الطوائف التي لا طلاق عندها .

١ – الف باء ٣٤٨ و ٣٤٩ ج ٢ .   ٢ – مشكاة المصابيح ٢٦٩ .

المعيشة العائلية

١ – الطعام

كان طعام العرب قبل الاسلام قاصراً على الألبان وما يستخرج منهـا كالسمن والزبد والجبن ، ومن التمر والحبوب واللحوم يأكلونها على ابسط مـا يكون من احوالها كما يفعل اهل البادية اليوم ، وأكثر ألبانهم ولحومهم من الابل ، وقد يصنعون منها اطعمة تتركب على نسب معينة كالثريد فانه يصنع من اللحم واللبن والخبز . ومنهـا ما يصنع من اللبن والدقيق فقط كالرغيدة والرهيدة والعصيدة ، او يصنع من السمن والدقيق كالبكالة أو من الدقيق والعسل والسمن كالوضيعة ، ولهم من أمثال هذه الاطعمة نحو اربعين لوناً .

ذلك هو طعام اهل اليسار منهم وأصحاب الضيافة ، وأما الفقراء فقلما يأكلون لحم الابل او الضأن ، وانما كانوا يقتاتون بلحم الضب او بالجراد ، واذا جـاعوا اكلوا العلهز وهو وبر الابل يموهونه بالحجارة في الدم فيطحنونه ، وكان حال القرشيين قريباً من ذلك[١] وربما اكلوا القرامة ونحاتة القرون والاظلاف والمناسب من برادتها ، او القرة وهي الدقيق المختلط بالشعر . وكانوا اذا عطشوا ولم يجدوا مـاء ، شربوا الفظ وهو عصارة الفرث او المجدوح وهو مصل دم الابل[٢] .

فلما جاء الاسلام وافتتحوا العراق وفارس ومصر دهشوا لما شاهدوه من حضارة الروم والفرس ، ووقعوا على الوان من الاطعمة لم يعرفوها ، فأشكل عليهم امرها وظفر بعضهم بجراب فيه كافور فاحضره الى اصحابه فظنوا ملحا ، فطبخوا طعاما ووضعوه فيـه فلم يجدوا له طعماً ولم يعلموا ما هو ، فرآه رجل عرف ما فيـه فاشتراه منهم بقميص خلق يساوي درهمين[٣] ورأى بعضهم الخـبز الرقاق فظنه رقاعاً يكتب عليها[٤] وشاهدو

---

١ – ابن خلدون ١٧٠ ج ١ .   ٢ – كتاب البخلاء ١٨٣ .
٣ – الفخري ٧٤ .   ٤ – ابن خلدون ١٤٤ ج ١ .

الأرز فظنوه طعاماً مسموماً [١]. ثم ما لبثوا ان اقاموا بين اولئك الاقوام حتى تعرفوا مآكلهم ولا سيما الفرس ، فأخذوها عنهم كما أخذوا اكثر مبادىء الحضارة وكثيراً من العادات والآداب ، وليس في الشرع الاسلامي ما يمنع تمتعهم بالطيبات من الأطعمة الا ما جاء النص بتحريمه .

فأخذوا بأطراف الحضارة من ايام بني امية ، وأول من قلد الاعاجم بأسباب الترف معاوية ، فتنعم بمأكله ومشربه [٢] واقتدى به خلفاؤه وسائر الناس ، ولا سيما بعد ان كثرت الاموال بين ايديهم فأكلوا السكباج ، وهو نوع من المرق كانوا يصنعونه من مرق اللحم والخل ، ويضعون فيه اللحوم المطبوخة كالدراج ونحوه ، وكانوا يسمونه سيد المرق. والفالوذج وهو نوع من الحلوى ، وكذلك اللوزينج يحشى باللوز والسكر ، والجوزاب والخشاف والجلاب وغيرها ، وتفننوا في معالجة اللحوم بالالبان والخضار والتوابل على اساليب شتى .

٢ ـ اللباس

لباس العرب الجاهلية

ولباس العرب كان بسيطاً مثل طعامهم وسائر طرق معايشهم ، ولا يزال حتى الآن في عرب البادية نحو ما كان عليه قبل الاسلام ، وهو عبارة عن القميص والحلة والازار والشملة والعباءة والعمامة ، ولم يكن العرب في جاهليتهم يعرفون السراويل ولا الأقبية [٣] وانما هي فارسية ، وكذلك النعال والخفاف ، ولكن بعض الخاصة كان يلبسها. وكانوا يعلقون سيوفهم على عواتقهم ، وثيابهم على الاجمال قصيرة الى اسفل الركب [٤] .

وأفضل مثال للباس العرب لباس النبي (صلعم) فقد ذكروا ان احب اللباس اليه البرود والبياض والحبرة ، وهي ضرب من البرود فيه حمرة ، وكان كمه قصيراً الى الرسغ ، يلبس احياناً حلة حمراء وإزاراً ورداء ، والازار قصير الى اسفل الركبة ، ولبس الخف والنعل [٥] وقد نهى عن الثوب الطويل الذي يجر على الارض من الخيلاء ، ومن اقواله : « فضل الازار في النار » [٦] ولم يكن العرب يعرفون من الانسجة غير القطن والصوف .

---

١ – الهمداني ١٨٨ . ٢ – الدميري ٥٥ ج ١ . ٣ – البيان والتبيين ٥٣ ج ٢ .
٤ – سراج الملوك . ٥ – تهذيب الاسماء ٦٠ . ٦ – الكامل للمبرد ٢٦ .

على ان الذين كانوا يفدون على الشام والعراق من اغنيـائهم لتجارة او زيارة كانوا يقلدون اهلها بملابسهم الفاخرة ، فمن فعل ذلك اشتهر ذكره بين القبائل ولا سيما في اوائل الاسلام . ومن المأثور عندهم ان اول من لبس الخز الادكن من العرب عبد الله بن عامر ، واول من لبس الدراريع السود المختار بن أبي عبيد ، واول من لبس الطيلسان في المدينـة جبير بن مطعم[١] وقس عليه سائر ما اتخذوه من لباس الأعاجم بعد الاسلام. والعادة ان يبدأ الامراء بذلك ثم يقلدهم سائر الناس . واول من اقدم على تقليد الاعاجم بأسباب البذخ معاوية وعماله . فزياد بن ابيه امير العراق اول من قلد الفرس بلبس القباء الديباج[٢] وهو اول من لبس الخفاف الساذجة بالبصرة .

ولما اترف بنو امية لبسوا الحرير على انواعـه ، وتفننوا بأنواع الانسجة ، واحبوا الوشي واكثروا من لبسه ، فقلدهم الناس في ذلك فراجت المنسوجات الموشاة في ايامهم ، واتخذوا كثيراً من البسة الروم ، ولكنهم لرغبتهم في المحافظة على البداوة ظلوا يلبسون العمائم ويعلقون السيوف على العواتق ، وكان الأحنف يقول : « لا تزال العرب عربـاً ما لبست العمائم وتقلدت السيوف »[٣] .

اللباس في عصر الحضارة

فلما افضت الخلافة الى العباسيين ، واستسلموا للفرس واخذوا نظامهم وآدابهم ، قلدوهم بالألبسة وجعلوا ذلك بأمر رسمي من اوائل دولتهم ، فأمر المنصور رجاله سنة ١٥٣ هـ ان يلبسوا القلانس الفارسية الطويلة تدعم بعيدان من داخلها ، بدل العمائم ، او يعتموا فوقها بعمامة صغيرة . وان يعلقوا السيوف في اوساطهم ، وان يكون اللباس الأسود عاماً فيهم ، وهو شعار العباسيين كما كان البياض شعار الأمويين . فلا بد للداخل على الخليفة العباسي من لبس جبة سوداء يسمونها « السواد » تغطي سائر الثياب . والبسهم المنصور دراريع كتب على ظهورها « فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم »[٤] وبعث الى عماله في سائر الاقطار ان يأمروا رجالهم بمثل ذلك[٥] .

---

١ – المعارف لابن قتيبة ١٨٧ . ٢ – الاغاني ١٠٤ ج ١٤ . ٣ – الكامل للمبرد ١٠٠

٤ – الاغاني ١٢١ ج ٩ وابن الاثير ٢٨٩ ج ٥ والعقد الفريد ٧٤ ج ١ .

٥ – ابن تغري بردي ٤٣٧ والمقريزي ٣٠٧ ج ١ .

فأقبل العرب من ذلك الحين على تقليد الفرس في الملابس ، ولا سيما أهل الدولة ورجال الحكومة ، فلبسوا الاقبية والسراويلات والطيالسة والخفاف والجوارب وغيرها ، مع بقاء البسة العرب عند عامتهم . ثم اختصت كل طائفة او طبقة بلبس خاص يميزها عن سواها . فالفقهاء والعلماء كانوا يلبسون عمامة سوداء بشكل خاص ومبطنة وطيلسان اسود[١] واول من غير لباس العلماء على هذه الصورة ابو يوسف قاضي الرشيد[٢] وأما لبس القضاة فهو القلانس الطوال والطيالسة الرقاق ، ويختلف ذلك باختلاف الدول والأعصر مما لا محل لاستيفائه .

أما عامة الناس فتختلف اشكال البستهم باختلاف صناعاتهم واحوالهم وطبقاتهم ، وباختلاف الاصقاع والاطوار مما لا يمكن حصره ، وانما يقال بالاجمال ان لباس الرجال العمامة والدراعة والسراويل والقميص والقباء والجبة والجوارب والنعال ، على نحو لباس المصريين والسوريين في اوائل القرن الماضي وهو ما يلبسه جماعة المشايخ الآن .

ثياب المنادمة والتطبيب والخضاب

على ان رجال الدولة ومن جرى مجراهم من الخاصة كانت لهم البسة لمجالس الانس والشراب يسمونها « ثياب المنادمة » ، وهي اثواب مصبغة بالالوان الزاهية : الاحمر او الاصفر او الاخضر ، يصقلونها حتى تلمع وتشرق ، ويتضمخون بالخلوق ويتطيبون ، ولهم البسة يتخففون بها في منازلهم واخرى يلبسونها في الأسفار وغير ذلك .

اما التطيب فقد كان من دلائل الغنى والنبل عندهم ، ومن امثالهم : « ثلاثة يحكم لهم بالنبل حتى يدرى من هم : رجل رأيته راكباً ، او سمعته يعرب كلامه ، او شممت منه طيباً » .

والخضاب كان مستحسناً عندهم ، واصله هندي أخذه الفرس عن الهنود[٣] ومنه انتقل الى بلاد العرب قبل الاسلام ، ويقال ان اول من خضب بالسواد من اهل مكة عبد المطلب[٤] وقالوا بل المغيرة بن شعبة . ولما ظهر الاسلام وانتشر العرب في الأرض تعلموا فنون الخضاب ، فصاروا يخضبون بالحناء للحمرة وبالزعفران للصفرة فضلا عن الخضاب الاسود ،

---

١ – الاغاني ١٠٩ ج ٥ و ٦٩ ج ٦ وطبقات الاطباء ٤ ج ٢ .

٢ – ابن خلكان ٣٠٣ ج ٢ . ٣ – المسعودي ١١٥ ج ١ . ٤ – لطائف المعارف ٨

وكانوا يبيضون شعورهم بالكبريت[١] واول من خضب لحيته بالزعفران جرير الشاعر[٢] وكان حسان بن ثابت يخضب لحيته على اسلوب خاص ، فيلون شاربيه وعنفقته بالحناء دون سائر لحيته ، فيبدو لأول وهلة كأنه أسد والغ في الدم[٣] وقس على ذلك تفننهم في الخضاب للرجال والنساء ، ولا يزال ذلك شائعاً في الشرق الى الآن . والاكثرون يخضبون بالسواد وبعضهم بالحناء ويندر الخضاب بالزعفران ، ولا نعرف احداً يبيض شعره بالكبريت .

٣ — المأوى

مساكن العرب

كان العرب قبل الاسلام اهل خيام وانعام ، يحملون منازلهم على ظهورهم ، الا من اقام منهم في مكة او المدينة او الطائف او غيرها من مدن الجاهلية ، ولما نهضوا للفتح كانت البداوة من جملة اسباب تغلبهم . فلما فتحوا الأمصار تحاشوا سكنى المدن ، ونصبوا مضاربهم في ضواحيها او بنوا بيوتاً من القصب معسكراً لهم ، لا يفصل بينها وبين مقر الخلافة (المدينة) ماء ، كأنهم محتلون الى أجل . وكانوا اذا فسد ما بنوه من القصب او احترق ، استأذنوا الخليفة عمر في بنائها بالحجارة ، مثل المدن التي فتحوها بمصر والشام والعراق ، ولكنه لم يكن يرى تحضرهم خوفاً عليهم من الترف والرخاء ، ولهذا السبب أيضاً منعهم من الزرع . ثم أذن لهم بالبناء ، ولكنه اشترط الاقتصاد فيه ، فلما استشاروه في بناء الكوفة بالحجارة قال لهم : « إفعلوا ، ولا يزيدن احد على ثلاثة ابيات ، ولاتطاولوا في البنيان ، والزموا السنة تلزمكم الدولة »[٤] .

على ان ناموس العمران غلب على ما اراده عمر من بقاء المسلمين يقيمون في المعسكرات ،

---

١ — الف باء ٣٤٤ ج ٢ .
٢ — المعارف لابن قتيبة ٩٩ .
٣ — الاغاني ٣ ج ٤ .
٤ — ابن خلدون ٢٩٩ ج ١ .

فما لبثوا ان تحضروا وتحولت تلك المعسكرات الى مدن عامرة ، ونزلوا المدن القديمة التي فتحوها ، وبنوا المنازل والقصور يقلدون بها أبنية الدول السالفة .

أساليب البناء في الاسلام

وكانت اساليب البناء يومئذٍ تختلف باختلاف الأمم ، ولكل منها نمط تولد عندها بتوالي الأجيال ، اما رأساً او اقتباساً . واهمها النمط البيزنطي في الشام ومصر ، والفارسي في فارس وخراسان ، والقوطي في الأندلس وما يليها . فلما تحضر العرب وعمدوا الى تشييد المباني استخدموا في بنائها مهندسين من الروم والفرس ، فكانوا يخططونها على ما عرفوه من الأساليب التي ذكرناها . ثم أخذ العرب تلك الصناعة وادخلوا فيها تغييراً يوافق الذوق الشرقي ويلائم الاسلام . فتولد نمط اسلامي خاص يعرف بالنمط العربي او الشرقي يختلف باختلاف الأصقاع واختلاف العصور والدول ، وترجع تنوعاته الى ثلاثة اعصر كبرى :

أولاً — العصر العربي الرومي : هو أقدم أعصر البناء في الاسلام ، وأساسه النمط البيزنطي في أثناء التمدن الاسلامي وتفرع الى خمسة أشكال : (١) النمط السوري ومثاله الجامع الأقصى في القدس والجامع الأموي في الشام ، (٢) النمط المصري ومثاله جامع عمرو بالفسطاط ، (٣) النمط الافريقي ومنه جامع القيروان ، (٤) النمط الصقلي في صقلية بايطاليا ومن امثلته قلاع سرقوسة وغيرها (٥) النمط الأندلسي ومنه جامع قرطبة وبعض الآثار العربية في طليطلة مما بني قبل انقضاء القرن العاشر للميلاد .

ثانياً - العصر العربي البحت : وهو يشمل الأشكال التي تكيفت بين يدي العرب حتى بعدت عن الأصول التي نقلت عنها وهي قسمان : (١) النمط المصري ومنه الأبنية التي أقيمت في مصر بين القرن العاشر والخامس عشر وفي جملتها الجوامع التي بناها السلاطين المماليك كجامع الظاهر وجامع السلطان حسن ، (٢) النمط الأندلسي وهو مابني في الأندلس بعد القرن العاشر ومن أمثلته أبنية أشبيلية وغرناطة ولا تزال آثارها باقية الى الآن .

ثالثاً — العصر المختلط : ويدخل فيه : (١) النمط الاسباني العربي ويراد به ما بناه المسيحيون بعد استيلائهم على الأندلس وخروج المسلمين منها ، (٢) النمط الاسرائيلي العربي

ومن أمثلته الآثار الباقية لليهود في طليطلة من أنقاض الكنـــائس ، (٣) النمط الفارسي العربي كالجوامع التي بناها الفرس بعد الاسلام ولا سيما في أصبهان ، (٤) النمط الهندي العربي وهو خليط من النمطين الهندي والعربي كبرج كتاب وهيكل بندرابند وباب علاء الدين ، (٥) النمط المغولي العربي كالأبنية التي أقيمت في الهند أثناء سلطة المغول واشهرها تاج محل وقصر الشاه وكثير من المساجد ونحوها [١] .

فمساكن الناس في عهد التمدن الاسلامي كانت تختلف شكلاً باختلاف البلاد والعصور ، وتتفاوت سعة وقدراً بتفاوت طبقات الناس : من الأكواخ الحقيرة الى القصور الفخيمة ، وسنأتي بأمثلة من القصور وسائر الأبنية الاسلامية عند الكلام على الحضارة .

١ ـ La Civilisation des Arabes, 597

حضارة الدولة الاسلامية

حضارة الدولة الاسلامية

نريد بالحضارة ما تبلغ اليه الدولة من الثروة وبسطة العيش والتوسع في اسباب الترف والرغد في ارقى درجات عمرانها . والدولة الاسلامية ادركت تلك الدرجات اولا في العصر العباسي ببغداد من اواسط القرن الثاني للهجرة (الثامن الميلادي) الى اواسط الرابع (العاشر الميلادي) ، وفي العصر الاموي بالاندلس في القرن الرابع ، وفي العصر الفاطمي بمصر من اواسط الرابع الى اواسط السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) .

وأسباب الحضارة فيما نحن فيه تقسم الى قسمين كبيرين : الاول العمارة اي انشاء المدن وبناء المصانع والقصور ، والثاني الثروة وبها يتم ما يقتضيه الترف من الانغماس في النعيم والرخاء وبسطة العيش . فنتكلم اولا عن المدن ، فالمباني ، ثم نبين ما بلغت اليه الامة من الثروة واسباب الترف والرفاهية .

عمارة المدن والقصور

ان المدن التي سكنها المسلمون وحواها التمدن الاسلامي تعد بالمئات ، وهي منتشرة في آسيا وافريقيا واوربا ، ومنها ما كان عامراً قبل الاسلام ، ومنها ما بناه المسلمون لأنفسهم. قد نشرنا في الجزء الثاني من هذا الكتاب فصلا في المدن الاسلامية ، وما بلغت اليه من الحضارة والثروة في عهد التمدن الاسلامي واقتصرنا على اعظم تلك المدن : البصرة ، والكوفة ، والفسطاط ، وبغداد . وأجلنا الكلام فيما بقي الى هذا الجزء فنقول :

القطر المصري

مساحة الارض الزراعية فيه

القطر المصري اليوم (حوالى سنة ١٩١٠) في نهضة مالية تضاعفت فيها الثروة الى حد

استغربه الناس وخافوا رد الفعل (١) لانهم رأوا غلاء في الاسعار ، مفاجئاً لم يعهدوا مثله ، وزادت مساحة الارض الزراعية ستة اضعافها في قرن واحد . فبعد ان كانت مساحتها في ايام المماليك نحو مليون فدان وبعض المليون صارت ثمانية ملايين فدان . وبعد ان كان الفدان يباع ببضعة عشر جنيهاً بيع بمائة جنيه ، او مائة وخمسين جنيهاً او اكثر . فكيف لو علموا ان مساحة الارض الزراعية في ابان التمدن الاسلامي زادت على ٢٥،٠٠٠،٠٠٠ فدان؟وقد ذكرنا ذلك في الجزء الاول من هذا الكتاب نقلا عن ثقات مؤرخي العرب ، فاستغربه بعض الفضلاء وعدوه من قبيل الخرافة او الاكذوبة على عادتهم في الاستخفاف بأقوال مؤرخي المسلمين .ولا نرى باعثا على هذا الاستخفاف ، والمسلمون او العرب من اكثر الامم تحقيقاً في حوادث التاريخ ، لما تعودوه من التحقيق في المسائل الدينية بالاسناد ونحوه .

على اننا لا نلومهم اذا استغربوا تلك الرواية ، لان الناس يقيسون الاشياء بما علموه من أشباهها ، فثروة القطر المصري اذا قيست بما الفناه من احوال عمرانه في القرنين الماضيين لا نرى ما يسهل علينا تصديق قول العرب بمساحته الزراعية الى ثلاثة اضعاف ما بلغت اليه اليوم . ولكن لو قيل لأهل هذا الجيل ان مساحة الارض الزراعية بمصر ستبلغ بعد عشر سنين عشرة ملايين او ١٢ مليون فدان لهان عليهم التصديق ، لانهم شاهدوا تزايد هذه المساحة من مليون فدان الى ثمانية ملايين . اما لو قيل ذلك لاهل اواسط القرن الماضي لعدوه مستحيلا ، لأن مساحة ارض مصر التي تقبل الزراعة لم تكن تقدر يومئذ بأكثر من ٧،٠٠٠،٠٠٠ فدان ، وهاك تقدير الدكتور كلوت بك لسنة ١٨٤٠ (٢) باعتبار الفدان :

	ارض مزروعة	غير مزروعة	الجملة
مصر السفلى	٢٢٤٩٠٠٠	١٥٥١٠٠٠	٣٨٠٠٠٠٠
« الوسطى	٨٥٦٨٢٦	٧٦٣١٧٤	١٦٢٠٠٠٠
« العليا	٧٥٠٤٠٠	٨٤٣٦٠٠	١٥٩٤٠٠٠
	٣٨٥٦٢٢٦	٣١٥٧٧٧٤	٧٠١٤٠٠٠

١ ـ فصلنا ذلك بمقالات في « النهضة المالية المصرية » في السنتين ١٣ و ١٤ من الهلال

٢ ـ Aperçu sur l'Egypte. 1,265

فتكون مساحة الارض التي يمكن زرعها بمصر ٧٫٠١٤٫٠٠٠ فدان . فمن كان هذا اعتقاده في اطيان مصر لا يصدق اذا قيل له ان مساحة هذه الاطيان ستزيد على عشرة ملايين فدان ، او ١٢ مليونا بعد بضع عشرة سنة .

عدد السكان

ويقال نحو ذلك في عدد السكان، فلو قيل في اواسط القرن الماضي ان القطر المصري سيبلغ عدد سكانه الى عشرة ملايين او ١٢ مليونا لعدوا قولنا من الخرافات ، أو كما قال الدكتور كلوت بك : « من عادات الشرقيين في المبالغة » ، لان عددهم في ايامه لم يكن يزيد على ٣٫٠٠٠٫٠٠٠ نفس ، فكيف يصدق زيادته الى اربعة اضعافه ؟ لا نقول ذلك تحكماً او افتراضاً ، ولكننا ننقل للقارىء قول الدكتور كلوت بك مؤرخ ذلك العصر في هذا الشأن – فقد بحث في كتابه عن سكان القطر المصري سنة ١٨٤٠ فبلغ عددهم ثلاثة ملايين نفس ، فصدر بحثه بمقدمة عن احصائهم في الزمن القديم قال فيها ما معناه : « يؤخذ من احصاء مؤرخي اليونان ان سكان هذا القطر بلغ عددهم في زمن سيزوستريس والبطالسة نحو سبعة ملايين نفس الى ثمانية ، واما مؤرخو العرب فزعموا ان عددهم في زمن عمرو بن العاص بلغ عشرين مليوناً ، وهو قول يدل على عادة الشرقيين في المبالغة في كتاباتهم ... لاننا لو قسنا مصر بما نعلمه في سواها من نسبة عدد الناس الى مساحة ما يتوطنونه من الارض لوصلنا الى نتيجة تنفي كل شك . فمصر مساحتها سدس مساحة فرنسا ، ومهما قلنا في خصب وادي النيل وما يمكن الوصول اليه من امتداد الزراعة وزيادة العمارة ، ولو سلمنا بامكان استثمار البقاع الرملية – فمع كل هذه الوسائل لا يرجى زيادة عدد السكان على ثلث الاحصاء الذي ذكره العرب » (اي نحو ٦٫٣٣٣٫٠٠٠ نفس) – هذا هو رأيه ، وانت ترى ان سكان مصر زاد عددهم اليوم على عشرة ملايين ، ولن تمضي بضع سنين حتى يناهز ١٥ مليونا ، او ضعفي ما ظنه الدكتور كلوت بك غاية ما يمكن الوصول اليه .

وقياساً على ما تقدم لا نرى مانعاً من بلوغ سكان القطر المصري الى ٢٠٫٠٠٠٫٠٠٠ نفس . فلا غرابة اذا بلغوا هذا العدد في إبان التمدن الاسلامي – وإنما أنكر ابناء هذا الجيل ذلك استخفافاً برواية العرب ، مع انها مبنية على احصاءات رسمية واقعية في ازمنة معينة لأجل تعديل الجزية او الخراج ، وليست من قبيل الحدس او الرجم بالغيب . الاحصاء الأول وقع في زمن الفتح على أيام عمر . ذكر المقريزي أنهم أحصوا الرجال الذين تؤخذ عليهم الجزية

فبلغ عددهم ٨٫٠٠٠٫٠٠٠ نفس ، فاذا اعتبرناهم ثلث الأمة كان مجموعها ٢٤٫٠٠٠٫٠٠٠ نفس . والاحصاء الثاني في ولاية الوليد بن رفاعة سنة ١١٠ هـ ، ذكروا أنه خرج ليحصي أهلها وينظر في تعديل الخراج ، فأقام في ذلك ستة أشهر بالصعيد حتى بلغ أسوان ، ومعه جماعة من الكتاب والأعوان يكفونه ذلك بجد وتشمير ، وثلاثة أشهر في الوجه البحري ، فأحصوا من القرى عشرة آلاف قرية ، في اصغر قرية منها ٥٠٠ جمجمة من الرجال الذين تفرض عليهم الجزية ، فتكون جملة ذلك على الأقل ٥٫٠٠٠٫٠٠٠ رجل ، وعلى متوسط ما يلحق ذلك من النساء والأطفال والشيوخ يكون المجموع نحو ٢٠٫٠٠٠٫٠٠٠ نفس

مساحة الأرض الزراعية

ويقال نحو ذلك في الأرض الزراعية ، فانهم استخرجوا مساحتها بالاحصاءات الرسمية لأجل تعديل الخراج. منها احصاء لعبيدالله بن الحبحاب سنة ١٠٧هـ فبلغت مساحة الأرض الزراعية مما يركبه النيل ٣٠٫٠٠٠٫٠٠٠ فدان ، أي نحو أربعة أضعاف ما بلغت اليه مساحتها اليوم ، مع اجتهاد حكومتنا في تعميم وسائل الري ببناء الجسور والخزانات وما لدينا من آلات الحرث والزرع . فاذا سبق الى اذهاننا الاستخفاف برواية العرب حكمنا لأول وهلة وبلا تردد أنها مكذوبة ، اما اذا نظرنا فيها نظر الناقد المحقق فلا نعدم الوصول الى الحقيقة .

فالمقريزي وغيره من رواة هذا الاحصاء لم يقولوه عرضاً ولا تركوا في قولهم التباساً . وذكروا في أمكنة أخرى أن الأرض الزراعية نقصت في أيام ابن المدبر ، أي بعد قرن ونصف قرن ، الى ٢٤٫٠٠٠٫٠٠٠ فدان ، ولم يكتفوا بذكر المساحة ولكنهم ذكروا عدد العمال الذين كانوا يشتغلون بالحرث والزرع ، واشترطوا عدداً منهم فاذا نقص نقصت غلة الأرض [1] .

ولا يتجلى لنا وجه الصواب الا بعد معرفة البقاع التي كانت عامرة في ذلك العصر ، فلو كانت حدود مصر الزراعية يومئذٍ مثل حدودها الآن ، أي يحدها من الشرق والغرب الجبلان والصحراء الشرقية والغربية ، لحكمنا باستحالة زعمهم . لأن مساحة مصر الجغرافية اليوم ، وفيها الواحات والبادية الواقعة بين النيل والبحر الأحمر والعريش ، نحو ٤٠٠٫٠٠٠ ميل مربع ، معظمها صحراء قاحلة . أما الأرض الزراعية فمساحتها ١٧٫٨٢٦ ميلاً مربعاً ،

---

١ — المقريزي ١٠٠ ج ١ .

يخرج منها ٨٥٠ر٤ ميلاً مسطحات النيل والترع والمستنقعات والبحيرات ونحوها ، فالباقي ١٢٫٩٧٦ ميلاً مربعاً ، أي نحو ٨٫٠٠٠٫٠٠٠ فدان ، وهي الأرض المزروعة الآن فلا سبيل الى المزيد .

ولكن يؤخذ مما نقله العرب عن احوال مصر في ابان تمدنهم ، ومما جاء من اخبارها القديمة ، ان حدودها الزراعية كانت اوسع من ذلك كثيراً – ذكروا انها كانت تمتد من الغرب وراء صحراء الاسكندرية الى برقة [١] وتتصل من الشرق بحدود السويس الى العريش ، ومعظم المساحة هناك اليوم رمال قاحلة ، ولكنها كانت تزرع قديماً الزعفران والعصفر وقصب السكر وكان ماؤها غزيراً . ولا تزال آثار العمارة باقية في تلك البقاع ، فان تحت الرمال تربة سوداء زراعية يعرفها من اختبر الأرض بالمسبار .

وكان الصعيد عامراً ويمتد من جهته الشرقية الى البحر الأحمر وأراضي البجة[٢] وكانت أطيان الفيوم ممتدة الى ما وراء العمارة المعروفة مسافة بعيدة . فاذا اعتبرنا ما ذكروه من هذا القبيل ، وأن النيل كان أكثر فروعاً وأغزر ماء وأوسع فيضاناً مما هو عليه اليوم ، هان علينا قبول اقوالهم وان كنا لا نزال نستغربها لبعدها عن مألوفنا . ولعلنا متى رأينا الشركات تعمل على احياء الصحاري المحيطة بوادي النيل شرقاً وغرباً ، بنزع ما يغطيها من الرمال وإروائها بالترع المتصلة اليها من النيل او الآبار الارتوازية ، نرى اقوالهم معقولة ولا نظن ذلك بعيداً ، ورجال الأعمال يدرسون أمثال هذه المشروعات .

مدينة القاهرة

وأشهر مدن القطر المصري في الاسلام الفسطاط والقاهرة ، وقد ذكرنا عمارة الفسطاط في الجزء الثاني. وأما القاهرة فقد بناها القائد جوهر في اواسط القرن الرابع للهجرة معقلاً لمولاه المعز لدين الله الفاطمي وجنده . فظلت في اثناء دولة الفاطميين لم تتسع عمارتها وإنما كانت العمارة للفسطاط والقطائع. وذكر المقريزي انه كان في هاتين المدينتين –غير القاهرة– ١٠٠٫٠٠٠ بيت ، في بعضها مائة انسان ومئتان ، اذ يكون البيت مؤلفاً من خمس طبقات او ست او سبع [٣] ومع ذلك فهي في تقديره لا تزيد على ثلث بغداد ، فكم تكون عمارة هذه ؟ ولما افضت الدولة الى السلطان صلاح الدين اذن للناس بسكنى القاهرة ، فاتصلت بمدينة الفسطاط.

---

١ – المقريزي ١٨٢ ج ١ . ٢ – المقريزي ١٨٩ ج ١ .
٣ – المقريزي ٣٤١ ج ١ .

وكانت الفسطاط تسمى « مصر » ، فلما صارتا مدينة واحـــدة اطلقوا عليها اسم « مصر والقاهرة » ، ثم قالوا « مصر القاهرة » ، ولما خربت الفسطاط ظل الاسم للقاهرة وحدها كما هو مشهور .

الأندلس

لما فتح المسلمون الأندلس كانت عامرة آهلة ، فأقاموا في مدنها وزادوها عمرانـــاً ، وأشهر تلك المدن قرطبة وقد زادهـــا المسلمون عظمة بما بنوه في ضواحيها من القصور الكبيرة أشباه المدن الضخمة مما سنذكره .

قرطبة

هي من أعمال الأندلس ، واقعة على الوادي الكبير تستقي ماءها منه ، وكانت عامرة قبل الاسلام ويظن أنها من بناء القرطجنيين ودخلت في حوزة الرومانيين سنة ١٥٢ قبل الميلاد ، وتوالت عليها أحوال شتى حتى فتح المسلمون الأندلس واستولوا على طليطلة ، ثم جعلوا مقر الامارة في قرطبة ، وزاد الأمويون عمارتها بما أنشأوه من القصور والمساجد والجسور وغيرها ، فاتسعت مساحتها ، وكان محيط المدينة الأصلية ٣٣٫٠٠٠ ذراع عليها سبعة أبواب ، فنشأ حولها ٢١ ربضاً في كل ربض من المساجد والأسواق والحمامات ما يقوم بأهله . فصار طولها ٢٤ ميلا وعرضها ستة أميال او ١٤٤ ميلا مربعـاً (ومساحة لندن ١١٧ ميلا) وكل ذلك ديار وقصور ومساجد وبساتين على طول ضفة الوادي المذكور.

وقد أحصوا مباني هذه المدينة وأرباضها في ابان عمرانها احصاءات مختلفة خلاصتها ان عدد الأبنية فيها كما يأتي :

عدد	
١١٣٫٠٠٠	دور الرعايا
٤٣٠	« القصر الكبير
٦٫٣٠٠	« أهل الدولة
٣٫٨٧٣	المساجد
٩٠٠	الحمامات
١٢٤٫٥٠٠	

وذكروا ان عدد الأبنية بلغ في ايام ابن ابي عامر ٢٠٠٠٠٠ دار للرعية ، و ٦٠٣٠٠ دار لأهل الدولة ، و ٨٠٤٥٥ حانوتاً غير الحمامات والخانات (١) ولا يخلو هذا التقدير من مبالغة ، والأول أقرب الى الصواب . واذا اعتبرنا ما يلحقه من الحوانيت والخانات زاد المجموع على ضعفي عدد ابنية القاهرة اليوم .

على أنك ترى في هذا التقسيم تمييزاً بين الخاصة والعامة في المساكن ، وان دور الخاصة نحو ٦ في المائة من دور العامة — على حين ان دور الأشراف في رومية لم يزد عددهـا في ابان عمرانها على ٢٠٠٠ دار (٢) فعمارة قرطبة بهذا الاعتبار فائقة الحد ، وأما سكانهـا فكانوا يناهزون المليونين ، وسيأتي الكلام على قصورها .

غرناطـة

وأما غرناطة فكانوا يسمونها دمشق الأندلس ، لكثرة أثمارها وأعنابها وفاكهتهـا وتمتاز عن سائر مدائن الأندلس بنهر يتوزع على دورها وأسواقها وحماماتها وارجائهـا الداخلة والخارجة وبساتينها ، كما يتوزع نهر بردى في دمشق . وبلغت غرناطة قمة مجدها في الدولة النصرية ، واشهر ملوكها ابن الأحمر ، في اواسط القرن الثامن للهجرة ، وهـو الذي بنى قصر الحمراء فيها كما بنى عبد الرحمن الناصر قصر الزهراء في قرطبة . ونتقدم الى ذكر القصور والمباني .

القصور والمباني

قال ابن خلدون : « ان المباني والمصانع في الملة الاسلامية قليلة ، بالنسبة الى قدرتهـا وبالقياس على من كان من الدول قبلها » ولكننا اذا اعتبرنا ما انتاب المدائن الاسلامية من أسباب الخراب بما توالى عليها من الاحن والفتن ، ونظرنا الى ما بقي من ابنيتها في مصر والشام والعراق وفارس والهند والأندلس ، رأيناها اكثر مما خيل لمؤرخنا الفيلسوف . ولعل الذي بعثه على هذا القول ان كثيراً من هذه المباني شيد بعد عصره على عهد السلاطين المماليك في مصر ، وبعضها لم يتصل علمه به مما في بلاد فارس والهند وغيرها . فقد كان

١ - نفح الطيب ٢٥٦ ج ١ .

٢ - Gibbon, 1829

للخلفاء والأمراء ، على اختلاف الدول والممالك ، عناية في بناء المساجد والمصانع والقصور يتأنقون في هندامها واتقانها ، فضلا عن المتنزهـــات والحدائق مما ينفقون فيه الأموال الطائلة ، فيجلبون اليه الأغراس من اطراف المعمور ، ويتفننون في تزيين مجالسهم بالاشعار والتصاوير المموهة بالذهب ، وبينها رسوم الحيوانات والآدميين والأزهار وغيرها مما ستراه .

١ ــ مباني الأمويين في الشام

لم يصلنا من أخبار مباني الأمويين في الشام ما يستحق الذكر الا « الجامع الأموي » الذي جدد بناءه الوليد بن عبد الملك بدمشق ، وكان قبل الاسلام كنيسة على اسم القديس يوحنا ، فلما فتح المسلمون دمشق صالحوا أهلها على ان تقسم الكنيسة مناصفة : المسيحيون يصلون في نصفها الغربي ، والمسلمون في النصف الشرقي . فلما أفضت الخلافة الى الوليد بن عبد الملك اخذ النصفين جميعاً وجدد بناء الجامع ، فاستقدم نحو ١٢٫٠٠٠ صانع من بلاد الروم ، تأنقوا في بنائه فغطوا جدرانه كلها بفصوص من الفسيفساء صبغت بأنواع الاصبغة الغريبة فمثلت اشجاراً ، وفرعت اغصانـــاً منظومة بالفصوص ببدائع الصنعة الانيقة . فأنفق في ذلك نحو ١١٫٢٠٠٫٠٠٠ دينـــار . وكان طول الجامع من الشرق الى الغرب ٣٠٠ ذراع ، وعرضه ٢٠٠ ذراع ، قائم على ٦٨ عموداً . وأعظم ما فيه قبة مصنوعة من الرصاص متصلة بالمحراب عظيمة الاستدارة والارتفاع وقد زاره ابن جبير الرحالة الاندلسي في القرن السادس للهجرة ، ووصفه وصفاً مطولا وذكر تاريخه الى ايامه ممـــا يضيق عنه المقام [١] ولا يزال هذا الجامع قائماً الى الآن ، ويعد من افخر ابنية المسلمين .

وبنى الحجاج بن يوسف قبة الاسلام في واسط ، وكانت من افخم الأبنية وفيهـــا يقول الشاعر :

بنى قبة الاسلام حتى كأنمـــا ... أتى الناس من بعد الضلال رسول [١]

---

١ ــ رحلة ابن جبير ٢٦٣ . ٢ ــ الكامل للمبرد ٢٨٧ .

٢ ــ مباني العباسيين بالعراق

أول من شاد الأبنية منهم المنصور ، فبنى القبة الخضراء ليحول اذهان الناس عن الكعبة اليها ، وبنى الجامع والحصون والقصور في بغداد ، كقصر الخلد وقصر باب الذهب وغيرهما ، وأخذ الخلفـــاء بعده في تشييد المصانع ، واقتدى بهم وزراؤهم وامراؤهم ، فأقاموا قصوراً فخيمة تعرف غالباً بأسماء بانيها ، كقصور البرامكة في الشماسية ، وقصر ابن الخصيب ، وقصر أم حبيب بالجانب الشرقي من بغداد ، وقصر بني خلف بالبصرة ، وقصر عيسى بن علي وهو اول قصر بناه الهاشميون في ايام المنصور ، وقصر وضاح بناه رجل اسمه وضاح للمهدي العباسي ، وقصر الرشيد ، وقصر الأمين ، وقصر ابن الفرات ، وقصر ابن مقلة ، غير ما اطلقوا عليه لفظ الدار كدار الشجرة الآتي ذكرهـــا ، ودار القرار وهي قصر زبيدة زوج الرشيد وغير ذلك . وأخذت رغبتهم في بناء القصور تتزايد كلما تقدموا في المدينة واغرقوا في الترف والرخـاء . على ان بعض خلفائهم كانوا يحبون العمارة وينشطونها واولهم المعتصم بالله ، فقد كان كلفاً بالبناء فبنى سامرا لاتراكه واقطعهم فيها القطائع . والمتوكل على الله كان مغرماً بالعمارة ، فبذل فيها الأموال الطائلة ، فأحدث اساليب من الابنية لم تكن معروفة قبله ، منهـا النمط الحيري والكمين ذات الاروقة . وبنى ثلاثة ابنية تعرف بالهاروني والجوسق والجعفري ، بذل في بنائها جميعاً اكثر ١٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ درهم [١] انفق منها على القصر الجعفري اكثر من ٢ر٠٠٠ر٠٠٠ دينار [٢] او نحو ٤٠ر٠٠٠ر٠٠٠ درهم ، ثم صار تشييد المباني عادة جرى عليها الخلفاء والاغنياء ، فضلاً عن المتنزهات ، فبنى اسماعيل بن علي متنزها انفق فيه ٥٠ر٠٠٠ر٠٠٠ درهم [٣] .

قصر التاج وقصر الثريا

وكان المعتضد بالله محبا للعمارة ايضاً ، فبنى قصراً في الجانب الشرقي من بغداد سماه « قصر التاج » لم يتم في ايامه فاتمه ابنه المكتفي . وكان في مكانه قصر بناه جعفر البرمكي ثم سكنه الحسن بن سهل فسمي القصر الحسني . فلما تولى المعتضد سنة ٢٨٩ هـ اضاف اليه

---

١ ــ المسعودي ٢٧٩ ج ٢ . ٢ ــ ابن الاثير ٣٣ ج ٧ .
٣ ــ ابن الاثير ٢٨ ج ٦ .

ما جاوره ، فوسعه وكبره وادار عليه سورا واتخذ حوله منازل كثيرة ودوراً ، واقتطع منه البرية قطعة عملها ميدانا . واخذ في بناء قصر التاج ، فاتفق خروجه الى آمد ، فلما عاد رأى الدخان يرتفع الى الدار ، فكرهه وابتنى على ميلين منه قصرا سماه «قصر الثريا» طوله ثلاثة فراسخ انفق فيه ٤٠٠,٠٠٠ دينار[١] وصله بالقصر الحسني وابتنى بين القصرين على مسافة ميلين سردابا تمشي فيه جواريه وحرمه وسراريه ، وما زال باقياً الى الغرق الاول الذي صار ببغداد وفي قصر الثريا يقول ابن المعتز :

سلمت امير المؤمنين على الدهر ... فلا زلت فينا باقيا واسع العمر
حللت الثريا خير دار ومنزل ... فلا زال معمورا وبورك من قصر
جنان واشجار تلاقت غصونها ... واورقن بالأثمار والورق الخضر
ترى الطير في أغصانهن هواتفا ... تنقل من وكر لهن الى وكر
وبنيان قصر قد علت شرفاته ... كمثل نساء قد تربعن في ازر
وانهار ماء كالسلاسل فجرت ... لترضع اولاد الرياحين والزهر
عطايا اله منعم كان عالما ... بأنك اوفى الناس فيهن بالشكر

ولما توفي المعتضد قام ابنه المكتفي سنة ٢٨٩ هـ فأتم بناء قصر التاج ، وكان وجهه مبنياً على خمسة عقود كل عقد على عشرة اساطين في خمسة اذرع[٢] .

دار الشجرة

وبنى المقتدر بالله في اول القرن الرابع داراً فسيحة ذات بساتين مونقة عرفت بدار الشجرة ، لشجرة كانت فيها مصنوعة من الذهب والفضة في وسط بركة كبيرة امام ايوانها وبين شجر بساتينها ، لها ثمانية عشر غصنا من الذهب والفضة لكل غصن منها فروع كثيرة مكللة بأنواع الجوهر على شكل الثمار ، وعلى اغصانها انواع الطيور من الذهب والفضة ، اذا مر الهواء عليها ابانت عن عجائب من ضروب الصفير والهدير . وفي جانب الدار من يمين البركة تماثيل خمسة عشر فارساً على خمسة عشر فرساً ، ومثلها عن يسار البركة قد البسوا انواع الحرير المدبج ، مقلدين بالسيوف وفي ايديهم المطارد ، يتحركون على خط واحد فيظن الناظر اليهم ان كل واحد منهم يقصد صاحبه[٣] .

---

١ – المسعودي ٣٢٨ ج ٢ .   ٢ – معجم ياقوت ٨٠٦ و ٩٢٤ ج ١ .
٣ – معجم ياقوت ٥٢٠ ج ٣ .

وفي دولة آل بويه بنى معز الدولة قصره المعروف بالدار المعزية ، انفق في بنائـــه ١٠٠٠ر٠٠٠ر١ دينار ومموه سقفه بالذهب — ذكروا انهم لما ارادوا هدمه بذلوا في حـك الذهب من سقفه ٨٠٠٠ر دينار ولم يبق لهذه القصور او الدور اثر الآن .

٣ — مباني الأمويين بالأندلس

أما الأندلس فقد بنى بها آل مروان قصوراً سارت بذكرها الركبان ، ولا يزال بعض آثارها باقياً الى اليوم ، واكثرها في قرطبة وغرناطة فمنها في قرطبة :

القصر الكبير

وهو آية من آيات الزمان ، شرع في بنائه عبد الرحمن الداخل في اواسط القرن الثاني للهجرة ، وأتمه من جاء بعده وبنوا القصور في داخله . وقد رأيت عند ذكر أبنية قرطبة أن القصر المذكور مؤلف من ٤٣٠ داراً ،بينها قصور فخيمة لكل منها اسم خاص، كالكامل والمجدد والحائر والروضة والمعشوق والمبارك والرشيق وقصر السرور والبديع. وقد غالوا في زخرفها واتقانها ، وأنشأوا فيها البرك والبحيرات والصهاريج والأحواض ، جلبوا اليها الماء في قنوات الرصاص على المسافات البعيدة من الجبال ، حتى أوصلوه اليها ووزعوه فيها، وفي ساحاتها ونواحيها بواسطة تلك القنوات التي تؤديها الى المصانع (أي المنشآت) ، هذا الى صور مختلفة الأشكال من الذهب الأبريز والفضة الخالصة والنحاس المموه،الى البحيرات الهائلة والبرك البديعة والصهاريج الغريبة في احواض الرخام الرومية المنقوشة ، ينصب فيها الماء من أنابيب من الذهب او الفضة بصور الحيوانات الكاسرة او الصور الجميلة على اشكال بديعة [١] .

مسجد قرطبة

ومن عجائب قرطبة مسجدها الشهير ، ذكروا انه لم يكن في بلاد الاسلام اعظم منه ولا اعجب بناء ، وكان في مكانه كنيسة للنصارى شاطرهم عليها المسلمون عنـد الفتح كما

---

١ — نفح الطيب ٢١٩ جـ ١ .

فعلوا بالجامع الأموي في دمشق ، ثم أخذوا في توسيعه والزيادة فيه بأنقاض الكنائس على توالي الاجيال . واعجب ما فيه صومعته او المئذنـــة ، قالوا لم يكن في مساجد المسلمين صومعة تعدلها ، بنيت بضخام الحجارة فبلغ طولها الى مكان موقف المؤذن ٥٤ ذراعـاً ، والى اعلى الرمانة الاخيرة ٧٣ ذراعاً ، وعرضها في كل تربيع ١٨ ذراعاً .

وتدرج الجامع في الاتساع بتوالي التجديد فيه ، حتى بلغت مساحته في ايام الخليفـــة الناصر ٢٢٥ ذراعاً في ٢٠٥ اذرع ، وزاد الحكم في طوله مائة ذراع وخمسة اذرع فصـار طوله ٣٣٠ ذراعاً ، وزاد ابن ابي عامر في عرضه ثمانين ذراعاً فصار ٢٨٥ ، وارضه مرصفة باحدى عشرة بلاطة ، الوسطى عرضها ١٦ ذراعاً وعرض كل واحدة من الست البـاقية ١ ذراعاً ، وزاد ابن ابي عامر ثماني بلاطات عرض كل واحدة عشرة اذرع . وكان سقفه قائماً على ١٢٩٣ سارية من الرخام ، وعدد ثرياته ٢٨٠ ثريا ، منها ثريات المقصورة من الفضة الخالصة . وكان في وسط الجامع تنور نحاس يحمل الف مصباح .

وكان للجامع تسعةأبواب مصفحة بالنحاس الاصفر ، الا باب المقصورة فانه من الذهب ، وكذلك جدار المحراب وما يليه وقد أجري فيه الذهب على الفسيفساء . وفيرأس الصومعة ثلاثة تفافيح ، دور كل تفاحة ثلاثة اشبار ونصف ، اثنتان من الذهب الابريز وواحدة من الفضة وتحت كل تفاحة وفوقها سوسنة قد هندست بأبدع صنعة ، ورمانة ذهب صغيرة على رأس الزج. وكان في بيت المنبر مصحف الخليفة عثمان، وعليه حلية الذهب مكللة بالدر والياقوت ، وفوقه اغشية الديباج . وهو موضوع على كرسي مـن العود الرطب بمسامير الذهب . وقد افاد صاحب نفح الطيب في وصف هذا الجامع وما كان ينفق فيه من الزيت والشمع فليراجع هناك [1] وتحول الجامع المذكور بعد دخول قرطبة في حوزة الافرنج الى كنيسة ، ولا يزال على بنائه الاسلامي وعليه النقوش الشرقية والكتابة العربية .

قصر الزهراء

ومن قصورهم في قرطبة « الزهراء » ، بدأ بإنشائهـا الخليفة الناصر سنة ٣٢٥ هـ على اربعة اميال من المدينة ، وأتمها ابنه الحكم فاستغرق البناء اربعين سنة . وهي عبارة عن بلد كبير طوله من الشرق الى الغرب ٢٫٧٠٠ ذراع وعرضه ١٫٥٠٠، وعدد اعمدته او سواريه

---

١ – نفح الطيب ٢٦٠ ج ١ .

٣٠٠ر٤سارية، بعضها حمل الى قرطبة من روما وافريقية وتونس ، وبعضها اهداه صاحب القسطنطينية ، وفيها الرخام الابيض والاخضر والوردي والمجزع . وكان في الزهراء مسجد فخيم وعدة قصور وحدائق ، على نحو ما تقدم في وصف القصر الكبير . وفيها البحيرات تسبح فيها الاسماك بألوانها وأنواعها ، وأحواض الرخام المنقوش على اشكال شتى بين مذهب وغير مذهب ، في جملتها حوض منقوش بتماثيل الانسان ، جيء به من القسطنطينية ونصبه الناصر في بيت المنام بالمجلس الشرقي المعروف بالمؤنس ، وجعل عليه ١٢ تمثالاً من الذهب الأحمر ، مرصعة بالدر النفيس الغالي مما صنع بدار الصناعة في قرطبة ، بصورة اسد بجانبه غزال الى جانبه تمساح يقابله ثعبان وعقاب وفيل . وفي الجنبتين حمامة وشاهين وطاووس ودجاجة وديك وحدأة ونسر ، وكلها من ذهب مرصع بالجوهر يجري الماء من أفواهها (١) .

ووكل الناصر النظر في بناء هذه القصور الى ابنه الحكم بعده . وذكروا ان الناصر كان ينفق عليها ثلث جباية الدولة، وكانت ٠٠٠ر٠٠٠ر٦ دينار فينفق منها ٠٠٠ر٠٠٠ر٢ دينار كل سنة على ذلك البناء . وقد تقدم انهم واصلوا العمل فيه ٤٠ سنة ، فلو فرضنا انهم كانوا ينفقون هذا القدر في نصف هذه المدة فقط لبلغ مجموع ما انفق على الزهراء اكثر من ٠٠٠ر٠٠٠ر٥٠ دينار ، ولكن يظهر ان الانفاق السنوي لم يكن يبلغ ثلث جباية المملكة الا في بضع سنين ، وأما في سائر مدة البناء فكانت النفقة أقل من ذلك كثيراً .

وقد ورد في مكان آخر ان الناصر كان ينفق على بنائها في ايامه ٠٠٠ر٣٠٠ دينار في السنة ، فاذا حسبنا ما انفقه ابنه الحكم فيما بقي من الأربعين سنة على هذه النسبة مع ما انفقه هو بالاضافة الى المقدار السنوي المذكور — كان مجموع ما دخل في بناء هذه المدينة نحو ٠٠٠ر٠٠٠ر٢٠ دينار على الاقل . ولا غرابة في ذلك ، لأننا اذا اعدنا النظر في تفاصيلها رأينا فيها ما يفوق الحصر من المرصعات والمذهبات ، وقد أدخلوا فيها شيئاً كثيراً من الذهب حتى جعلوا بعض قرميدها منه . وقد كان يتصرف في بنائها من الخدم والفعلة عشرة آلاف رجل و ٥٠٠ر١ دابة . واغرب من ذلك ان الناصر انما عمد الى بناء الزهراء مرضاة لحظية له كان اسمها « زهراء » طلبت اليه ان يبني مدينة باسمها وتكون خاصة بها (٢) .

---

١ — نفح الطيب ٢٤٨ و ٢٦٧ ج ١ وابن خلكان ٢٩ ج ٢ . ٢ — نفح الطيب ٢٤٨ ج ١ .

الزاهرة

واقتدى بالخليفة الناصر المنصور بن ابي عامر ، فابتنى سنة ٣٦٨ هـ قصرا لاقامته سماه « الزاهرة » ليكون معقلاً له يحميه من اعدائه ، فأقامه في طرف البلد على نهر قرطبة الاعظم ، وحشد له الصناع والفعلة وبالغ في رفع اسواره وجعل فيه ابنية كثيرة من جملتها اهراء ودواوين، واقطع ما حولها لوزرائه وكتابه وقواده فابتنوا الدور والقصور وغرسوا الحدائق ، فقامت الاسواق وتنافس الناس في النزول في اكنافها تقربا من صاحب الدولة ، حتى اتصفت ارباضها بأرباض قرطبة ، واتصلت بهما الزهراء من الجهة الاخرى ، فأصبح الناس يمشون بين هذه المدن عشرة اميال على ضوء السرج .

قنطرة قرطبة

ويجدر بنا في هذا المقام الاشارة الى القنطرة الفخيمة التي اقامها المسلمون على نهر قرطبة ، وكانت مبنية قبل الاسلام ثم سقطت فاعاد المسلمون بناءها على يد عبدالرحمن الغافقي ، وطولها ٨٠٠ ذراع ، وعرضها عشرون ذراعاً ، وارتفاعها ٦٠ ذراعاً ، وعدد حناياها ١٨ حنية ، وابراجها ١٩ برجاً [١] .

قصر الحمراء وامثاله

الحمراء قصر شهير في غرناطة لا يزال شكله محفوظاً الى الآن يقصده السياح من كل مكان ، بناه ابن الاحمر في اواسط القرن الثامن للهجرة كما تقدم في ارض مساحتها ٣٥ فدانا على مرتفع فسيح . ويقال انها سميت « الحمراء » نسبة الى لون قرميدها ، وفي هذا القصر كانت بركة السباع ، وفي وسطها تماثيل اسود تقذف المياه من افواهها على شكل جميل .

وبنى المنصور بن الاعلى قصراً فخما في بجاية ، انشأ فيه بركة على حافاتها اسود يجري الماء من افواهها ، وعلى البركة اشجار من ذهب وفضة ترمى فروعها في الماء، وعلى اغصانها اطيار من اشكال شتى بألوان بديعة وصنع عجيب ، على مثال الشجرة التي ذكرنا انها نصبت في قصر المقتدر العباسي عند كلامنا عن ابنية العباسيين . وقد نظم احمد بن حمديس الشاعر الاندلسي قصيدة يصف بها بركة هذا القصر وخروج الماء من افواه الاسود قال منها :

---

١ – نفح الطيب ٢٢٦ جـ ١

وضراغم سكنت عرين رياسة تركت خرير الماء فيه زئيرا
فكأنما غشي النضار جسومها وأذاب في أفواهها البلورا
أسد كأن سكونها متحرك في النفس لو وجدت هناك مثيراً
وتذكرت فتكاتها فكأنما أقعت على أدبارها لتثورا
وتخالها والشمس تجلو لونها ناراً وألسنها اللواحس نورا
فكأنما سلت سيوف جداول ذابت بلا نار فعدن غديرا
وكأنما نسج النسيم لمائه درعاً فقدر سردها تقديرا[١]

وقس على ذلك قصر المأمون بن ذي النون الأندلسي، فانه انفق في بنائه بيوت الاموال، وكان من عجائبه أنه صنع فيه بركة ماء كأنها بحيرة ، وبنى في وسطها قبة من زجاج وساق الماء من تحت الأرض حتى علا فوق رأس القبة بتدبير أحكمه المهندسون، فكان الماء ينزل من اعلى القبة وحواليها محيطاً بها متصلا بعضه ببعض ، فكانت القبة في غلالة من ماء سكباً لا يفتر والمأمون قاعد فيها[٢] .

٤ ـ مباني مصر

مباني آل طولون

أنشأ بنو طولون في مصر أبنية أشهرها الجامع الذي بناه أحمد بن طولون ، لا تزال آثاره الى الآن بالقاهرة . والقصر الذي بناه في القطائع وجعل له ميداناً كبيراً ، ولما توفي أحمد زاد فيه ابنه خمارويه وجعل الميدان كله بستاناً زرع فيه أنواع الرياحين واصناف الشجر ، ونقل اليه الشجر اللطيف الذي ينال ثمره القائم (أي الرجل الواقف) ومنه ما يتناوله الجالس من اصناف خيار النخل . وحمل اليه كل صنف من الشجر المطعم العجيب وانواع الورد ، وزرع فيه الزعفران وكسا اجسام النخل نحاساً مذهباً حسن الصنعة ،

١ ـ نفح الطيب ٢٣٣ ج ١ . ٢ ـ سراج الملوك ٥٠ .

وجعل بين النحاس واجساد النخل مزاريب الرصاص واجرى فيها الماء المدبر ، فكان يخرج من تضاعيف قائم النخل عيون الماء فتنحدر الى فساق معمولة ، ويفيض منها الماء الى مجار تسقي سائر البستان . وغرس فيه من الريحان المزروع على نقوش معمولة وكتابات مكتوبة يتعهدها البستاني بالمقراض حتى لا تزيد ورقة على ورقة . وزرع فيه النيلوفر الأحمر والأزرق والأصفر الجنوي العجيب . وأهدى اليه من خراسان وغيرها كل اصل عجيب ، وطعموا له شجر المشمش باللوز وأشباه ذلك من كل ما يستظرف ويستحسن . وبنى فيه برجاً من خشب الساج المنقوش بالنقر النافذ ليقوم مقام الاقفاص ، وزوقه بأصناف الأصباغ وبلط ارضه وجعل في تضاعيفه أنهاراً لطافا جداولها يجري الماء مدبراً من السواقي التي تدور على الآبار العذبة ويسقي منها الأشجار وغيرها. وسرح في هذا البرج من اصناف القماري والدباسي والنونيات وكل طائر جميل الشكل حسن الصوت ، فكانت الطير تشرب وتغتسل من تلك الأنهار الجارية في البرج ، وجعل فيه اوكاراً في قواديس لطيفة ممكنة في جوف الحيطان لتفرخ الطيور فيها ، وعارض لها فيه عيداناً ممكنة في جوانبه لتقف عليها اذا تطايرت حتى يجاوب بعضها بعضاً بالصياح . وسرح في البستان من الطير العجيب كالطواويس ودجاج الحبش ونحوها شيئاً كثيراً .

وعمل في داره مجلساً برواقه سماه بيت الذهب ، طلى حيطانه كلها بالذهب المحلى باللازورد المعمول في احسن نقش واظرف تفصيل ، وجعل فيه على مقدار قامة ونصف صوراً في حيطانه بارزة من خشب معمول على صورته وصور حظاياه والمغنيات اللاتي تغنينه بأحسن تصوير وأبهج تزويق ، وجعل على رءوسهن الأكاليل من الذهب الخالص الابريز الرزين . والكوادن المرصعة بأصناف الجواهر وفي آذانها الأجراس الثقال الوزن المحكمة الصنعة ، وهي مسمرة في الحيطان ولونت اجسامها اشباه الثياب من الاصباغ العجيبة ، فكان هذا البيت من اعجب مباني الدنيا .

وجعل بين يدي هذا البناء فسقية ملأها زئبقاً . وذلك أنه شكا طبيبه كثرة السهر فأشار عليه بالتدليك فأنف من ذلك وقال : « لا اقدر على وضع يد احد علي » فقال له : « تأمر بعمل بركة من زئبق » فعمل بركة يقال أنها خمسون ذراعاً طولاً في خمسين ذراعاً عرضاً وملأها من الزئبق فأنفق في ذلك اموالاً عظيمة . وجعل في اركان البركة سككاً

من الفضة الخالصة ، وجعل في السكك زنانير من حرير محكمة الصنعة في حلق من الفضة ، وعمل فرشاً من أدم (اي جلد) يحشى بالريح حتى ينتفخ فيحكم حينئذٍ شده ويلقى على تلك البركة وتشد زنانير الحرير التي في حلقة الفضة بسكك الفضة ، وينام على هـذا الفرش فلا يزال الفرش يرتج ويتحرك بحركة الزئبق ما دام عليه . وكانت هذه البركة من اعظم ما سمع به من الهمم الملوكية يرى لها في الليالي المقمرة منظر بهيج [١] تألف نور القمر بنور الزئبق [١]

مباني الفاطميين

ولما افضى الامر الى الفاطميين بنوا في القاهرة الجامع الازهر ، وهو عـامر الى اليوم . وقصوراً اشهرها القصران الشرقي والغربي ، وانفقوا على الاخير منهما ٢٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار[٢] فقس على ذلك ما انفقوه في سائر القصور والدور ، كدار الفطرة ودار الديباج وغيرهما . ولما استبحر عمرانهم تفننوا في بناء المقاصير والمناظر على ضفة الخليج وشاطىء النيل ، كمنظرة الجامع الأزهر ، ومنظرة اللؤلؤة على الخليج ، ومنظرة الغزالة بجانبها ، ومنظرة السكرة ، ومنظرة الدكة ، ومنظرة المقس ، ومنظرة التاج ، ومنظرة باب الفتوح ، ومنظرة البعل ، ومنظرة دار الملك ، غير المتنزهات العظيمة والقصور الفخيمة في الجزيرة والروضة ، كالقصر الذي بناه الآمر بأحكام الله لمحبوبته البدوية وسماه الهودج .

وكانوا يتأنقون في زخرفة تلك المناظر والقصور تأنقاً عظيماً يدل على مبلغ حضارتهم وتفننهم . فمنظرة بركة الحبش كانت مصنوعة من خشب مدهون صور فيها الشعراء ، كل شاعر وبلده وعند رأس الشاعر ابيـات نظمها في ذكر المنظرة ، وبجانب كل صورة رف لطيف مذهب ، فاذا دخل الخليفة وقرأ الاشعار امر ان يحط على كل رف صرة مختومة فيها خمسون ديناراً ، فيدخل الشاعر ويأخذ صرته[٣]

مباني الايوبيين والمماليك

ولما انتقلت الدولة الى الاكراد كان اعظم آثارهم البنائية قلعة القاهرة ، بناها السلطان صلاح الدين الايوبي ليعتصم بها من الشيعة ، ولا تزال قائمة الى اليوم .

---

١ – المقريزي ٣١٦ ج ١ .   ٢ – المقريزي ٤٥٧ ج ١ .   ٣ – المقريزي ٤٨٦ ج ١ .

ومعظم ما في مصر الآن من الآثار البنائية انما هو من اعمال السلاطين المماليك ولا سيما المساجد ، كجامع السلطان حسن وجامع المؤيد وقايتباي وقلاوون وغيرها . ومن آثارهم قبور الخلفاء خارج القاهرة فانها لهم ، وان نسبت الى الخلفاء بالاسم ، غير ما اندثر من قصورهم . وكانوا يقلدون الفاطميين في زخرفها كالرفرف الذي بناه الاشرف خليل بن قلاوون عاليا يشرف على الجيزة كلها ، وصور فيه امراء الدولة وخواصها وعقد عليه قبة على عمد وزخرفها وكان السلطان يجلس فيه ، وقصر يلبغا ، بناه الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٣٨ هـ لسكنى الأمير يلبغا حيث مدرسة السلطان حسن تجاه القلعة ، وغيرها .

الثروة والرخاء ونتائجهما

واشتغال الخلفاء والامراء بانشاء المدن وبناء القصور والمتنزهات انما هو من ثمار الثروة وتكاثر النقود في بيوت الاموال ، فتنتقل الى رجال الدولة وغيرهم على ما بيناه في نظام الاجتماع ، ولذلك كان الخليفة اكثر الناس مالا لانه قابض على بيت المال ، يليه الوزراء والكتاب والعمال فبنو هاشم فالاتباع والتجار وغيرهم ، واليك امثلة من ذلك .

ثروة الخلفاء وأهليهم

لما كان الخلفاء يتولون شؤون الدولة بأيديهم كانوا اكثر الناس ثروة ، فلما عهدوا بها الى الوزراء تحولت الثروة اليهم وأصبح الخلفاء احياناً مثل سائر الفقراء[1] والاصل في ثروة بيت المال ان تكون للدولة ، تنفق في مصالحها ، وللخليفة بيت مال خاص به . ولكن الخلفاء تصرفوا في أموال الدولة اولا لاعتبارهم انفاقها مساعدا على تأييدها ، ثم انفقوها في الجوائز والهدايا لمثل هذه الغاية ، وتدرجوا الى بذلها في ملذاتهم وسائر اسباب تنعمهم . وكان يبقى مع ذلك في بيوت الاموال شيء كثير . وقد بينا في الجزء الثاني من هـذا الكتاب مقدار ما بقي منها في خزائن الخلفاء الاولين من بني العباس : المنصور والمهدي والمعتصم والمستعين والمكتفي وغيرهم ، وما صار اليهم من الضياع الكثيرة ، وذكرنا ما بلغت اليه ثروة امهات الخلفاء ولا سيا الخيزران ام الرشيد وقبيحة ام المعتز وغيرهما ، فلا حاجة الى التكرار وانما نأتي ببعض التفصيل على سبيل المثال ذكروا ان المكتفي خلف ١٠٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار هذا تفصيلها[2] .

---

١ - الجزء الثاني من هذا الكتاب .

٢ - لطائف المعارف : ٧٢ .

دينار	
٢٠ر٠٠٠ر٠٠٠	من العين والورق (أي الفضة) والأواني المموّلة .
٢٠ر٠٠٠ر٠٠٠	« الفرش .
٢٠ر٠٠٠ر٠٠٠	« الكراع والسلاح والغلمان.
٢٠ر٠٠٠ر٠٠٠	« الضياع والعقار والاملاك .
٢٠ر٠٠٠ر٠٠٠	« الجوهر والطيب وما يجري مجراهما .

ثروة رجال الدولة وغيرهم

وذكرنا في الجزء الثاني أيضاً سبب ثروة الوزراء ومقادير الأموال التي حصلها الحسن ابن الفرات والمادرائي وابن كلس والأفضل وابن شهيد الأندلسي واليك أمثلة أخرى :

أول من أثرى من الوزراء البرامكة في عهد الرشيد ، فكثرت ضياعهم (الأبعديات والجفالك) حتى بلغت غلة يحيى وابنه جعفر فقط ٢٠ر٠٠٠ر٠٠٠ دينار في السنة . ولما نكبوا وقبضت اموالهم بلغ مقدار ما قبض منها ٣٠ر٦٧٦ر٠٠٠ دينار غير الضياع والدور والرياش [١] ويشبه الوزراء ببغداد الكتاب بمصر ، وقد أثرى منهم جماعة كبيرة كآل المادرائي في أواسط القرن الثالث للهجرة ، فملك أحدهم محمد بن علي المادرائي ما قيمته ٣ر٠٠٠ر٠٠٠دينار من الضياع بالشام ومصر والأمتعة مع كثرة ما كانوا ينفقونه على الناس من الرواتب . وكانت غلته ٤٠٠ر٠٠٠ دينار في السنة[٢] وهو مع ذلك لا يعد شيئاً بالنظر الى البرامكة . ومثلهم آل المغربي وآل الكتامي بمصر أيضاً .

أمـا العمال والأمراء فقد كانوا يحشدون الأموال الكثيرة ، ولا سيما المفوضين منهم ، ويسهل ذلك عليهم لاطلاق أيديهم في مصادر الجباية فيجمعون ما شاءوا وكيف شاءوا . وقد أثروا وكثرت أموالهم من أيام بني أمية قبل زمن الوزراء ، فخلف عمرو بن العاص سبعين بهاراً من الدنانير — والبهار أردبان بالمصري — ذهباً [٣] وبلغت غلة خالد القسري ١٣ر٠٠٠ر٠٠٠ درهم [٤] وصاروا في عهد بني العباس أوفر ثروة ، ولا سيما بعد ان طمعوا في الاستقلال،فخلف يعقوب بن الليث الصفار في بيت ماله ٥٠ر٠٠٠ر٠٠٠درهم و٤ر٠٠٠ر٠٠٠

---

١ — العقد الفريد ٢٢ ج ٣ . ٢ — المقريزي ١٥٥ ج ٢ .
٣ — المقريزي ٣٠١ ج ١ . ٤ — ابن الاثير ١٠٣ ج ٥ .

دينار [١] وقس على ذلك اموال السلاطين المماليك بمصر ورجالهم . وكانت مخلفاتهم من الجواهر والحلى تقدر بالأرطال والقناطير والصناديق — مثال ذلك مـا خلفه الأمير سيف الدين تنكز التستري منها ١٩رطلا من الزمرد والياقوت ، وستة صناديق جواهر وفصوص الماس ، و ١٫٢٥٠ حبة لؤلؤ كبار مدورة مما زنته درهم الى مثقال ، و ٢٤٠٫٠٠٠ مثقال ذهب ، و ١٠٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم فضة ، واربعة قناطير مصرية من المصاغ والعقود ونحوها كالحلق والأساور ، وستة قناطير فضيات ، و ١٫٢٠٠٫٠٠٠ دينـــار فقس عليه ثروة الخلفاء الفاطميين والسلاطين والمماليك وغيرهم من سلاطين المسلمين وملوكهم .

غير ثروة الحواشي والأتباع ، ممن أثرى بالصناعة والأدب او التجارة ، فقد ذكرنا ثروة بعض التجار فيما تقدم ، فاعتبر في سواهم من الأطباء والمغنين والشعراء ، فان ابراهيم الموصلي مغني الرشيد توفي عن ٢٤٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم [٢] وذكرنا في باب الرواتب من الجزء الثاني ما كان يقبضه جبرائيل بن بختيشوع طبيبه .

نتائج الثروة

من قواعدالعمران اذا تكاثرت الأموال في أيدي الناس ان يتوسعوا في الانفاق ويتنعموا بعيشتهم ، فيتأنقوا في الطعام والشراب والسماع وغيرهـا من الملذات الجسدية ، ويتنعموا بالألبسة الثمينة والرياش الفاخر . ثم يطلبوا الملذات المعنوية من التفاخر باقتناء المجوهرات والعقارات ، ويلتمسوا سعة الشهرة فيقربوا من يضمن لهم ذلك كالشعراء ورواة الاخبار في ذلك العهد ، كما يفعل بعض اغنياء زماننا بالتقرب من ارباب الصحافة . ونقسم الكلام في هذا الباب الى فصول :

١ — التأنق في الطعام

قد رأيت في كلامنا عن أطعمة العرب انها كانت ساذجة قليلة، ثم تعددت بعد الاختلاط بالاعاجم ولاسيا الفرس . والعرب قلدوا الفرس في اكثر اسباب الحضارة فضلا عن نظام الحكومة

---

١ – المسعودي ٣١٤ ج ٢ وابن خلكان ٣١٩ ج ٢ .
٢ – سير الملوك/١١٣ .

فكانوا اذا احوجهم الاحتفال بعيد او عرس او ختان سألوا عما يفعله الفرس في مثله وقلدوهم فيه – هموا بذلك من عهد الأمويين، وكان الصحابة قبلهم يتحاشون التنعم اقتداء بخلفائهم الراشدين مع غلبة البداوة على طباعهم . فأبو موسى الاشعري كان يتجافى عن أكل الدجاج لان العرب لم يعهدوا ذلك . وكانوا يتجنبون الاكثار من اكل اللحوم ويعتقدون اضرارها ، نحو ما يعتقده النباتيون اليوم تمثلاً بما قاله عمر بن الخطاب : « مدمن اللحم كمدمن الخمر » . فلما حكم الامويون ومالوا الى التنعم كان الفرس احسن مثال لهم . واراد غير واحد من امراء العراق تقليدهم في ذلك ، لكن البداوة كانت تتغلب عليهم فيرجعون . ذكروا ان الحجاج بن يوسف اولم لختان احد اولاده فاستحضر بعض الدهاقين ليسأله عن ولائم الفرس وقال : « اخبرني بأعظم صنيع شهدته » فقال : « شهدت ايها الأمير بعض مرازبة كسرى وقد صنع لأهل فارس صنيعاً احضر فيه صحائف الذهب على اخونة الفضة اربعا على كل واحد ، وتحمله اربعة وصائف ويجلس عليه اربعة من الناس ، فاذا اطعموا اتبعوا اربعتهم المائدة بصحافها ووصائفها » فلما سمع الحجاج ذلك اكبره وغلبت عليه البداوة فقال : « يا غلام انحر الجزر واطعم الناس .. »[١]

على انهم ما لبثوا ان رضخوا لتيار الترف وتكيفوا لموافقة البيئة التي تحف بهم ، فبعد ان كانوا يحسبون الكافور ملحاً والأرز طعاماً مسموماً والخبز المرقق كاغداً ، وبعد ان اكلوا العلهز والخنافس والعقارب وعجنوا الحنطة بنخالتها[٢] فاقوا الفرس والروم في التأنق والتنعم ، فتفننوا في معالجة اللحوم واصطناع التوابل المنبهة لشهوة الطعام التماساً للمزيد من اللذة . فكان الخلفاء والملوك من بني هاشم اذا جلسوا الى الطعام يقف الاطباء بين ايديهم ومعهم البراني بالجوارشنات الهاضمة المسخنة الطابخة المقوية للحرارة الغريزية في الشتاء على اصطلاحهم في ذلك العصر . ويقفون في الصيف ومعهم الاشربة الباردة والجوارشنات الموافقة لذلك الفصل[٣] واقتدى بهم سائر الامراء واهل الدولة فكانوا يستشيرون الاطباء ويستعينون بهم في حفظ صحتهم ، حتى في اثناء الطعام وهم على المائدة ، وكان سيف الدولة اذا حضر الطعام جلس معه على المائدة ٢٤ طبيباً ارزاقهم جارية .

وغالى الخلفاء في استحضار ما اشتهر بطيبه من الوان الطيور والفاكهة ولو بعد مكانه، فيحملونه على البريد ينفقون في ذلك الاموال الكثيرة[٤] وكانوا يربون الطيور الداجنة على

---

١ – ابن خلدون ١٤٥ ج ١ .　　٢ – ابن خلدون ١٧٠ ج ١ .

٣ – طبقات الاطباء ١٧٥ ج ١ .　　٤ – لطائف المعارف ٩٥ وابن بطوطة ٣ ج ٢ .

اطعمة مغذية يتوهمون انها تزيد في لذة طعمها او نفعها او تسهل هضمها . فكانوا يعلفون الفراريج الجوز المقشر ويسقونها اللبن الحليب[١] وتفنن الطهاة في اصطناع الاطعمة التي يظنون فيها الغذاء الكثير او النفع الصحي ، وربما فعل بعضهم ذلك مغالاة في الاحتفاء ، كما فعل ابراهيم بن المهدي في زيارة زاره فيها الرشيد فاصطنع له اطعمة بينها جام سمك مقطع فاستصغر قطعه ، فسأله الرشيد عن ذلك فقال : « يا امير المؤمنين هذه ألسنة السمك » وقدرت نفقة ما في ذلك الجام بألف درهم[٢] وقس عليه تفننهم في اصطناع الفالوذج بدهن الفستق والمخ المعقود بالسكر والطبرز والعسل .

فاتسعت مطابخ الخلفاء والامراء لتعدد الوان الاطعمة والتوسع في النفقة عليها ، حتى صار لكل صنف منها خدم عليهم رئيس . فكان عندهم لتربية الطيور ادارة قائمة بذاتها عليها رئيس ، وبلغت علوفة البط وحدها على ايام المقتدر العباسي ٣٠ قفيزاً من الشعير كل شهر[٣] فاعتبر كم يحتاج اليه احدهم اذا اراد نقل مطبخه من الدواب لحمله . ذكروا ان عمرو بن الليث الصفار كان مطبخه يحمل على ٦٠٠ جمل[٤] وكان للخليفة المقتفي العباسي ثمانون جملاً تحمل الماء من دجلة شرب عياله[٥] وأما مقدار المطبوخ من كل طعام فلا قياس له ، على انهم كانوا يجعلونه اضعاف ما يحتاجون اليه مخافة ان يطرقهم اضياف ، فكانت الأطعمة تفيض بمقادير كبيرة يحملها الخدم ويبيعونها ويرتفقون بأثمانها[٦] .

فنتج من الانغماس في الأكل والتفنن في التشويق اليه كثير من علل القناة الهضمية ، توالت على اهل الترف في ذلك العهد كالقولنج وتلبك المعدة والدوزنطاريا ، وغيرها من عواقب النهم في اللحوم كالنقرس والروماتزم ونحوهما وتسلطت السويداء على امزجتهم ، وتولتهم حدة المزاج فجرهم الغضب الى سرعة الفتك والقتل من تغلب السويداء ، كما يتضح من مراجعة اخبارهم . وعلة ذلك في الغالب فساد الهضم . واشتهر من الخلفاء والامراء غير واحد من الاكلة ، منهم في ايام بني أمية معاوية بن ابي سفيان وعبيد الله بن زياد والحجاج ابن يوسف وسليمان بن عبد الملك واشتهر من بني العباس محمد الأمين[٧] .

---

١ – طبقات الاطباء ١٤٠ ج ١ . ٢ – المسعودي ١٩٩ ج ٢ .
٣ – تاريخ الوزراء ٣٥١ . ٤ – الفخري ٢٣٢ .
٥ – الفخري ٢٧٦ . ٦ – المقريزي ٣١٨ ج ١ .
٧ – المسعودي ٢٦٧ ج ٢ والفرج بعد الشدة ١٠٢ ج ٢ .

٢ — البذخ في الألبسة

كان المسلمون في صدر الاسلام يتوخون الخشونة في العيش والتعفف في المطعم والملبس، فكان الخليفة من الراشدين يمشي في الاسواق وعليه القميص الخلق المرقوع الى نصف ساقه، او ثوب من كرباس غليظ وفي رجله نعلان من ليف وحمائل سيفه من ليف وفي يده درة يستوفي الحد بها [١] . وكان عمالهم في مثل حالهم ، اذا وفد احدهم على الخليفة لبس جبة صوف وتعمم بعمامة دكناء واحتذى خفين ودخل عليه [٢] واول من اتخذ زي الملوك من أمراء المسلمين معاوية منذ كان أميراً في الشام . وقدم عليه عمر بن الخطاب في أثناء ذلك فلما رآه في أبهة الملك انكرها عليه وقال له : « أكسروية يا معاوية ؟ » [٣]

ثم تحضروا وكثرت الاموال بين ايديهم وخالطوا اهل الترف من الاعاجم ، فاضطروا بطبيعة المدنية الى التبسط في العيش والتنعم باللباس وأحب الأمويون الوشي كما تقدم ، وأكثرهم رغبة في لبسه هشام بن عبد الملك ، فاجتمع عنده ١٢٫٠٠٠ قميص وشي و ١٠٫٠٠٠ تكة حرير . وكانت كسوته اذا حج تحمل على ٧٠٠ جمل [٤] وفي ايامهم تسابق الصناع الى اجادة الوشي . وزاد المسلمون بذخاً في ايام بني العباس ، ورغب اهل التجارة في حمل اصناف المنسوجات الحريرية والصوفية بين موشى ومطرز ومحوك بالذهب او الفضة ومرصع بالحجارة الكريمة على اختلاف البلاد التي يصنع فيها ، على نحو ما بيناه في كلامنا عما يحمل من اصناف التجارة الى بغداد .

ومن أهم المنسوجات الثمينة الخز ، وهو نسيج ناعم يصنع من الحرير ومن وبر الخرز وهو ذكر الأرانب [٥] والأبريسم حرير خالص ، والديباج نسيج حريري موشى بالقصب بأشكال الحيوانات ونحوها ، والبز نسيج قطني ثمين وغير ذلك من اصناف الحرير والكتان والأوداري ، والملحم والمعلم والمنير ومنسوجات الشعر او الوبر او الصوف ، وما يلحق ذلك من انواع السمور والقاقم وغيره — يصنعون منها الأقبية والدراريع والطيالسة والجبب والعمائم والأبراد والغلائل والملاحف والمآزر والسراويلات والشاشيات والتكك وغيرها .

---

١ — الفخري ٢٥ و ٦٦ . ٢ — العقد الفريد ٦ ج ١ . ٣ — ابن خلدون ١٦٩ ج ١ .
٤ — المستطرف ٤٠ ج ٢ والعقد الفريد ٢٦٦ ج ٢ . ٥ — الف باء ١٨٧ ج ٢ .

وكان الصناع يتبارون في اتقان هذه الصناعات ويغالون في ترفيعها ، لما يلاقونه من البذل في ابتياعها لتوفر الثروة بين أيدي الناس ولا سيما الخليفة وأهل دولته . فكان هؤلاء يتهافتون على اقتناء الألبسة ، لا يبالون كم يكون ثمنها حتى بلغت قيمة العمامة من الديبقي خمسمائة دينار ، وهم مع ذلك يكثرون من اقتنائها . وربما لبس الواحد ٩ أقبية كل قباء بلون خاص للمفاخرة في البذخ . وقد تزيد على اضعاف حاجتهم اليها فيجتمع عند احدهم عشرات او مئات او ألوف من القطعة الواحدة ولا سيما الخلفاء — مثاله ما خلفه المكتفي بالله من الألبسة وهو :

عدد	
٤ر٠٠٠ر٠٠٠	من الثياب المقصورة سوى الخامات
٦٣ر٠٠٠	« الأثواب الخراسانية المروية
٨ر٠٠٠	« الملاءات
١٣ر٠٠٠	« العمائم المروية
١ر٨٠٠	« الحلل الموشاة اليمانية وغيرها منسوجة بالذهب
١٨ر٠٠٠	« البطائن التي تحمل من كرمان في أنابيب القصب
١٨ر٠٠٠	« الأبسطة الأرمنية

وتوفي ذو اليمينين وفي خزانته ١ر٣٠٠ سروال لم يستعملها ، ووجدوا في كسوة بختيشوع الطبيب ٤٠٠ سروال ديبقي ، ولما قتل برجوان خادم الوزير بمصر وجدوا في تركته الف سروال ديبقي بألف تكة حرير .

وغالوا في البذخ حتى كسوا دوابهم المنسوجات الحريرية الموشاة ، وكان الفاطميون يلبسون الفيلة اجلة في الخسرواني الأحمر المذهب وكان في القاهرة دار يصنع فيها الديباج ونحوه . وكان عند الفاطميين خزانة للثياب يسمونها دار الكسوة يصطنعون فيها جميع انواع الثياب والبز ، ويكسون بها الناس على مختلف اصنافهم كسوة الشتاء وكسوة الصيف . وقد فصل المقريزي ما تحويه تلك الدار من الألوان والأشكال [١] ولما جهز خمارويه ابنته قطر الندى الى الخليفة المعتضد العباسي كان من جملة الجهاز الف تكة ثمن الواحدة عشرة دنانير [٢] وقس عليه سائر الملابس .

---

١ — المقريزى ٤٠٩ ج ١ . ٢ — المقريزي ٣١٩ ج ١ .

٣ ــ الأثاث والرياش والجوهرات

كان الخلفاء الراشدون يجلسون على الارض مثل سائر الناس وكذلك عمالهم ، فكان عمرو بن العاص بمصر يجلس في قصره على الارض مع العرب ، ويأتيه المقوقس ومعه سرير الذهب محمول على الأيدي لجلوسه شأن الملوك يومئذ ، فيجلس عليه وهو على ما تقدم ، وفاء له بما اعتقد معهم من الذمة واطراحاً لابهة الملك . فما لبث المسلمون ان تحضروا واثروا حتى اتخذوا الاسرة من الذهب والعاج وفاقوا الاكاسرة والقياصرة قبلهم . واول من اتخذ السرير في الاسلام معاوية بن ابي سفيان ، ويريدون بالسرير المقعد او الكرسي الكبير . ولم يقدم معاوية على ذلك إلا بعد استئذان المسلمين ، واعتذر بثقل جسمه فزعم انه بدين ، فأذنوا له فاتخذه واقتدى به من جاء بعده من الخلفاء[1] .

الاثاث والرياش عند الفرس

لما خرج المسلمون للفتح في زمن الراشدين كان اكثر مـا لقوه من الفرش الفاخر والجوهرات الثمينة في فارس وعند فتح المدائن ، فدهشوا منه ولم يعرفوا قيمته . ذكروا بدويا ظفر يوم المدائن بحجر من الياقوت كبير يساوي مبلغاً عظيماً فلم يدر قيمته ، فاشتراه منه بعضهم بألف درهم ثم علم انه كان يساوي اضعاف ذلك المبلغ فلامه اصحابـه على تفريطه به فقال : « لو عرفت عدداً اكثر من الالف لطلبته »[2] .

وكان في جملة ما عثروا عليه في المدائن كثير من الآنيـة والحلية الذهب المرصعة بالجوهر ، وفيها تاج كسرى نفسه والبسة من الديباج المنسوج بالذهب المنظوم بالجوهر . وظفر آخرون بسفطين في احدهما فرس من ذهب بسرج من فضة وعلى ثغره ولباتـه الياقوت والزمرد المنظوم على الفضة وفارس من فضة مكلل بالجوهر ، وفي الآخر ناقة من فضة عليها شليل من ذهب مكلل بالجوهر . ووقع لهم بساط يسمونه القطيف طوله ٦٠ ذراعاً في ٦٠ مطرز بالصور وعليه فصوص كالانهار ارضها مذهبة ، وخلال ذلك فصوص كالدر وفي حافته كالارض المزروعة والارض المبقلة بالنبات في الربيع ، والورق من الحرير

---

١ ــ ابن خلدون ٢١٧ ج ١ .   ٢ ــ الفخري ٧٤ .

على قضبان الذهب والفضة وثمره الجوهر . وحمل هذا البساط الى عمر في المدينة فقطعه وفرقه في اصحابه مثل سائر الغنائم[١] .

وكان عمر اذا جاءته الغنائم من العراق وفيها الجوهر بكى لما كان يخافه من مصير المسلمين الى الترف المؤذن بالانحدار . وكذلك ابو بكر الصديق ، وله السبق في نصرة الاسلام والفضل في تأييده ، فلما حضرته الوفاة وبخ المهاجرين وخوفهم وقال : « والله لتتخذن نضائد الديباج وستور الحرير » والنبي (صلعم) قبلهما نهى عن لبس الحرير واتخاذ آنية الذهب[٢] فلم ينفعهم ذلك كله ، فما كادوا يأخذون بأطراف الحضارة حتى انغمسوا في اسباب التنعم بالفرش الوثير والرياش الفاخر .

بدأ بذلك الامويون لما تقدم من رغبتهم في الدنيا وتحويلهم الخلافة الى الملك ، فأكثر خلفاؤهم المسرفون ولا سيما الوليد بن يزيد من عقود الجوهر يغيرها في كل يوم كما تغير الثياب ، وكان يجمعه من كل وجه ويغالي فيه حتى اغلاه[٣] على انهم اقتصروا من اسباب الحضارة على مثل ذلك لرغبتهم في البقاء على البداوة . الا ما اتخذوه من الستائر المطرزة التي كانت تصنع لهم في مصر كما تصنع للروم من قبل ، عليها طراز باليونانية مفاده البسملة عند النصارى[٤] فأبدلها عبد الملك بالطراز العربي بصورة التوحيد . غير ما استعملوه من الوسائد المزركشة .

الاثاث والرياش عند العباسيين

لما انتقلت الخلافة الى العباسيين اشتغل السفاح والمنصور بتأسيس الدولة وتأييدها ، فلما تأيد سلطانهم مالوا الى الترف فاخذوا بتقليد الدول السابقة لهم عملا بناموس العمران ، فاقتنوا الاسرة الذهب المرصعة بالجوهر او الابنوس المطعم بالعاج ، واتخذوا المقاعد والنمارق والكراسي ، ونصبوا منائر الذهب اوقدوا فيها الشموع من العنبر ، وعلقوا الستور المطرزة والموشاة ، وافترشوا البسط والطنافس المزركشة والحصر المنسوجة بالذهب المكللة بالدر والياقوت[٥] وغالوا في اقتناء آنية الذهب والفضة يأتون من كل بلد بأحسن مصنوعاته

---

١ – ابن الاثير ٢٥٥ ج ٢ .
٢ – الف باء ١٨٧ ج ٢ .
٣ – الاغاني ١٢٩ ج ٦ .
٤ – الدميري ٥٨ ج ١ .
٥ – ابن خلدون ١٤٥ ج ١ .

واثمنها فحملوا الستور المعلمة من فسا ، والبسط والمصليات من تستر وبخارا ، والحصر من عبادان ،والمقاعد من دشت –على ان احسن اصناف الفرش المذهبة بطراز الذهب كانت تأتيهم من أرمينية .والطاقم الأرمني – وهوعشر مصليات بخادها ومساندها ومطارحها وبساطها – يساوي خمسة آلاف دينار[١] وكانت اطباق الخشب لآنية الطعام تأتيهم من طبرستان ، والزجاج والخزف من البصرة واكثره وارد في الاصل من بلاد الصين على مافصلناه في كلامنا عن التجارة من هذا الجزء . ولكن الزجاج الرقيق كان يحمل اليهم من الشام وكان يضرب به المثل بالرقة والصفاء فيقال أرق من زجاج الشام وأصفى من زجاج الشام[٢] - اتخذوا ما تقدم من الآنية والمفروشات تقليداً للفرس والروم على ما كانت عليه عندهم ،ثم عربوها فجعلوا ما ينقش عليها من الكتابة باللغة العربية بين أمثال وأشعار وحكم ينقشونها على الستور ويعلقونها بمسامير الذهب والفضة [٣] ويزركشون البسط والطنافس فيرسمون في أواسطها أشكالاً وصوراً مما في البر والبحر ويطرزون حواشيها بالذهب أو القصب أبياتاً من الشعر وربما طرزوا دور البساط (أي حافته) بقصيدة[٤] وغالوا في الزخرفة حتى نقشوا الأشعار على آنية البلور وأطباق الطعام وعلى جدران القاعات وفوق أبوابها – يتفاوت ذلك شكلاً ومقداراً بتفاوت طبقات الناس من المطرز بالحرير الى المزركش بالقصب فالمحلى بالذهب فالمرصع بالجوهر – كالبساط الذي كان لأم المستعين وعليه صورة كل حيوان من جميع الأجناس وصورة كل طائر من ذهب وأعينها يواقيت وجواهر أنفقت في صنعه ١٣٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم [٥]

وأحدث العباسيون في عهد الرشيد أشكالاً من الفرش وفنونه لم يسبقهم اليها أحد ، منها ما ينسبون اختراعه الى زوجته زبيدة ، فقد ذكروا أنها أول من اتخذ القباب من الفضة والأبنوس والصندل وكلاليبها من الذهب والفضة ملبسة بالوشي والسمور والديباج وأنواع الحرير الأحمر والأصفر والأخضر والأزرق [٦] .

واخترع العباسيون المذاب وهي نوع من المراوح لم تكن معروفة قبلهم [٧] وتفننوا في تزيينها وكتابة الأشعار عليها بما يناسب المراد بها أو يشار به الى غرض. كما فعل أبو العتاهية

---

١ – الفرج بعد الشدة ١٠٣ ج ١ . ٢ – لطائف المعارف ٩٥ .
٣ – الاتليدي ٩٨ . ٤ – الاغاني ٤١ ج ١٥ .
٥ – المستطرف ١٣٤ ج ١ . ٦ – المسعودي ٣٦٦ ج ١ .
٧ – الاغاني ٨١ ج ١٢ .

في طلب الجارية عتبة من الرشيد ، وكان يخاف أن يرده ، فأهدى اليه ثلاث مراوح كتب على كل منها بيتاً هذا مجموعها :

ولقد تنسمت الرياح لحاجتي ... فاذا لها من راحتيه شميم
أعلقت نفسي من رجائك ماله ... عنق يحث اليك بي ورسيم
ولربما استأسيت ثم أقول لا ... إن الذي ضمن النجاح كريم [١]

على أن كتابة الأشعار على المراوح كانت معروفة في أيام بني أمية [٢] .

الجوهرات عند العباسيين

غالى الخلفاء العباسيون في اقتناء الجوهرات، ولا سيا الدر وهو اللؤلؤ الكبير والياقوت الأحمر القاني ويسمى البهرماني ، ويتلوه الأحمر المشرقي الرماني ثم الأزرق الغميق وتشوب زرقته حمرة ويسمى الاسمانجوني ، وبعده الأصفر وهو الفاقع اللون وبعده الذهبي . ولكل من هذه الأشكال قيمة تختلف باختلاف الصفاء والحجم . ومنها الزمرد وأحسنه يعرف بالذبابي اقترب لونه من لون الذباب الكبير المائل الى الخضرة . والماس كانوا يفضلون منه ما يشوب لونه حمرة يسيرة ـ هذا أهم ما كانوا يتفاخرون باقتنائه من الحجارة الكريمة ، وأما الفيروز والمرجان والعقيق والجزع فقلما كان الملوك يقتنونه لكثرته .

وأكثر ماتناقله المسلمون من الحجارة الكريمة في أوائل دولتهم مأخوذ منغنائم الفرس ، لأنهم غنموا ما يفوق الحصر من الجواهر التي قضى الفرس الأجيالوهم يجمعونها ويتوارثونها، فقبضها العرب صفقة واحدة ولم يعرفوا قيمتها كما بيناه آنفاً . وأصابوا نحو ذلك لما حاربوا الأكراد فانهم غنموا سفطاً فيه جوهر حملوه الى عمر في جملة الغنائم فأمر ببيعه وقسمة ثمنه في المسلمين ، فباعه وقسمه وكان الفص يباع بخمسة دراهم وقيمته عشرون ألفاً [٣] .

ولما تحضروا صاروا يشترون الجواهر بالأثمان الغالية، فاشترى الرشيد فص ياقوت أحمر بأربعين ألف دينار وكان قديماً ويعرف بالجبل والملوك تصونه ، فنقش عليهالرشيد اسمه [٤] واشترى فصاً آخر بمائة وعشرين ألف درهم [٥] وعرض أحد تجار المصوغات ببغداد على يحيى بن خالد سفط جوهر فساومه على ثمنه بسبعة ملايين درهم [٦] .

---

١ ـ المسعودي ١٩٦ ج ٢ . ٢ ـ العقد الفريد ١٨٤ ج ٣ .
٣ ـ ابن الاثير ٢٤ ج ٣ . ٤ ـ المسعودي ٣٠٠ ج ٢ .
٥ ـ الاتليدي ١٤١ . ٦ ـ الطبرى ١٨٩ ج ٢

و كثيراً ما كانوا يستخدمون الجواهر بدلاً من المبالغ الكبيرة فاذا عزم أحدهم على سفر طويل يستغرق نفقة عشرة آلاف دينار مثلاً ، فبدلاً من أن يحمل ذلك المال ذهباً أو فضة استبدله بجوهرة أو عدة جواهر يسهل حملها في الجيب . فاذا وصل الى البلد المقصود باع الجواهر وأنفق من ثمنها كما يفعل الناس اليوم بتحاويل المصارف المالية أو البنكنوت (العملة الورقية) .

وكان الأمويون يرغبون في الجوهرات أيضاً ، وقد رصعوا بها الحلى وبعض الآنية واصطنعوا منها العقود للبسهم ولبس نسائهم وجواريهم . أما العباسيون فبالغوا في ذلك حتى نظموها في عصائب نسائهم كما فعلت أخت الرشيد (١) ورصعوا بها خفافهن كما فعلت أم جعفر زوجته (٢) .

فكان الخلفاء العباسيون يقتنون من الآنية والفرش والجوهرات والثياب ما لا يعلم مقداره الا الله ، يدلك على ذلك ما قدمناه مما خلفه المكتفي وغيره وما أخرجوه من خزائنهم في فتنة البساسيري في أواسط القرن الخامس من جملته ٧٥،٠٠٠ قطعة ديباج و١١،٠٠٠ كزاغند و٣٠،٠٠٠ سيف ، وهو بعض ما كان في دار الخليفة ، ومع ذلك فهو لا يقاس بما كان عند الفاطميين كما سترى .

وقد أنكر ابن خلدون ما ذكره المؤرخون عن ترف بني العباس في ملابسهم وزينتهم وسائر متناولاتهم ، لما كانوا عليه من خشونة البداوة (٣) واستشهد بالمسعودي والطبري . ولا ينطبق رأيه في ذلك على ما ذكره هذان ولا على ما قاله هو نفسه . لأن المسعودي هو الذي أخبرنا بنظم الجوهر في خفاف أم جعفر وهي من أقرب الناس للتقوى . والطبري أورد أخباراً كثيرة ، تدل على ترف العباسيين في عصر الرشيد . غير ما ذكره غيرهما من ثقات التاريخ والأدب المتقدمين كأصحاب الأغاني والعقد الفريدوالكاملوالمعارفوغيرهم. ونقل المؤرخون عنهم ذلك ولم يكبروه ولا اعترضوا عليه — حتى ابن خلدون نفسه فقد ذكر في مقدمة تاريخه : « ان المأمون أعطى بوران في مهرها ليلة زفافها ألف حصاة من الياقوت ، وقد أوقد شموع العنبر في كل واحدة مائة من وثلثان ، وبسط لها فرشاً كان الحصير منها منسوجاً بالذهب مكللاً بالدر والياقوت » (٤) ويلوح لنا أن ما كانوا يتجافون

---

١ . الاغاني ٨٣ ج ٩ .   ٢ — المسعودي ٣٦٦ ج ٢ .
٣ — ابن خلدون ١٥ ج ١ .   ٤ — ابن خلدون ١٤٥ ج ١ .

عنه في صدر الدولة العباسية إنما هو الركوب بحلية الذهب ، وأول من ركب فيهـا منهم المعتز بالله [١] فمؤرخنا الفيلسوف شديد الرغبة في تـــنزيه العباسيين عن الترف وهم من أعرق الخلفـاء فيه .

بذخ الفاطميين

كان العباسيون قدوة لمن قـــام بعدهم من الدول الاسلامية في مصر والشام والمغرب والأندلس، فالفاطميون بمصر كانوا يناظرون العباسيين في كل شيء حتى في أسباب الحضارة، وكان التمدن الاسلامي قد نضج والدولة العباسية أخذت في التقهقر ، ففاقوهم في كثير من أسباب البذخ والترف ولا سيما من حيث الأثاث والرياش والثياب ، فقد رأيت أن العباسيين رصعوا عصائب نسائهم وخفافهن بالجواهر ، ولكن الفاطميين رصعوا بها آنيـة المطبـخ واتخذوا كوز الزير من البلور مرصعاً بالجوهر ، وكللوا المزيرة بحب اللؤلؤ النفيس وتأنقوا في المصوغات حتى اتخذوا منها التماثيل المرصعة للزينة في مجالسهم. فـاذا جلس الخليفة في احدى المناظر للراحة أو تبديل الثياب وضعوا بين يديه الصواني الذهب ، عليها أشكال الصور الآدمية والوحشية من الفيلة والزرافات ونحوها ، معمولة من الذهب والفضة والعنبر والمرسين المشدود والمظفور عليها ، المكلل باللؤلؤ والياقوت والزبرجد ، ومن الصور الوحشية مايشبه الفيلة بينها عنبر معجون كخلقة الفيل ونابا‌ه فضة وعيناه جوهرتان كبيرتان ، في كل منهما مسمار ذهب مجرى سواده ، وعلى الفيل سرير منجور من عـود بتكات فضة وذهب ، وعليه عدة من الرجال ركبان عليهم اللبوس تشبه الزرديات، وعلى رءوسهم الخوذ وبأيديهم السيوف المجردة والدرق وجميع ذلك فضـة . ثم صور السبـاع منجورة من عود وعينا السبع ياقوتتـان حمراوان وهو على فريسته وأشكال من سائر الوحوش ، واصناف تشد من المرسين المكلل باللؤلؤ شبه الفاكهة[٢] .

وكان للفاطميين في القاهرة دور يختزنون بها ادوات الترف والبذخ يسمونها خزائن ، بعضها للفرش والبعض الآخر للجوهر وآخر للطيب وآخر للبنود وآخر للسلاح وآخر للسرج او الدرق او الكسوات او الادم او الشراب او التوابـــل او الخيم . وكان الخليفة يذهب الى مجالس خاصة له في تلك الخزائن . والمجلس عبارة عن دكة عليها طراحة ولها فراش يخدمها وينظفها ليجلس الخليفة عليها اذا زار تلك الخزانة . وقد توسع المقريزي في

١ – المسعودي ٣٠٥ ج ٢ . ٢ – المقريزي ٤٧٢ ج ١ .

وصف هذه الدور وما حوته من الآلة والرياش والثياب والجواهر والاطياب مما يضيق هذا المقام فليراجع في مكانه[١] ونأتي بشيء من ذلك على سبيل المثال :

الحلى والجواهر عند الفاطميين

فيما اخرجوه من خزانة الجوهر في ايام الشدة على عهد المستنصر بالله (توفي سنة ٤٨٧هـ صندوق فيه سبعة امداد زمرد سألوا الصياغ عن قيمتها فقالوا انما نعرف قيمة الشيء اذ كان مثله موجوداً . واستخرجوا خريطة فيها ويبة جوهر قال الصياغ ان قيمته لا تقدر واصل ثمنه ٧٠٠٫٠٠٠ دينار بيع يومئذ بعشرين الف دينار . ووجدوا مـا لا يحصى من اقداح البلور المنقوش والمجرود وصحوناً من الميناء منها ما يساوي مئات من الدنانير، وفي مكان آخر ١٨٫٠٠٠ قطعة من بلور تتراوح اثمانها بين عشرة دنانير والف دينار كل قطعة . وصوان من ذهب المجراة بالميناء وغير المجراة المنقوشة بأنواع النقوش ، و١٧٫٠٠٠ غلاف خيار مبطن بالحرير محلاة بالذهب ، ونحو مائة كأس بادزهر واشباهها على اكثرها اسم هرون الرشيد .

غير ما وجدوه هناك من الصناديق المملوءة بالسكاكين المذهبة والمفضضة وانصابها من الجواهر المختلفة ، وصناديق مملوءة دوى (جمع دواة) على اختلاف الاشكال من الذهب والفضة والصندل والعود والابنوس والعاج ، محلاة بالجواهر مما يساوي الف دينار الى بضعة آلاف كل دواة . وعدة ازيار مملوءة كافوراً وعدة جماجم عنبر ونوافج المسك التيبتي وشجر العود وغيره .

ومما خلفته رشيدة بنت المعز وحفظ هناك ما قيمته ١٫٧٠٠٫٠٠٠ دينار من جملتهـا ١٢٫٠٠٠ من الثياب المصمت الوانا و١٠٠ قاطرميز مملوءة كافورا قيصوريا ومعممات بجواهر من ايام المعز ، وبيت هرون الرشيد الخز الاسود الذي مات فيه بطوس ، ومثل ذلك مما تركته عبدة بنت المعز ايضاً ويطول شرحه . وخزائن مملوءة بأنواع الصيني تساوي القطعة منها الف دينار ، وحصير من الذهب وزنه عشرة ارطال يظن انـه الحصير الذي حملت عليه بوران بنت الحسن بن سهل لما زفت الى المأمون كما تقدم ، وصوان من الذهب كان ملك الروم اهداها الى العزيز بالله .

---

١ – المقريزي ٤٠٩ – ٤٢٥ ج ١ .

ووجدوا انواعاً من الشطرنج والنرد مصنوعة من الجوهر والذهب والفضة او العاج او الابنوس ، وعدداً كبيراً من الزهريات ونحوها . ومن تماثيل العنبر ۲۲٫۰۰۰ قطعة اقل تمثال منها وزنه ۱۲ منا ، ومن تماثيل الخليفة ما لا يحد . والكلوتة (أي الطاقية للرأس) المرصعة بالجوهر قيمتها ۱۳۰٫۰۰۰ دينار فيها من الجوهر ۱۷ رطلا . وطاووس من ذهب مرصع بنفيس الجوهر عيناه من ياقوت احمر وريشه من الزجاج المينا المجرى بالذهب على الوان ريش الطاووس . وغزال مرصع بنفيس الدر والجوهر بطنه أبيض قد نظم من در رائق . ومائدة من الجزع يقعد عليها جماعة قوائمها مخروطة . ونخلة ذهب مكللة بالجوهر وبديع الدر في اجانة من ذهب تجمع الطلع والبلح والرطب بشكله ولونه وعلى صفته وهيئته من الجواهر قيمتها لا تقدر . وكوز زير بلور مرصع يحمل عشرة ارطال ومزيرة مكللة بحب لؤلؤ نفيس وقس على ذلك عشرات من امثاله .

الفرش والاثاث عند الفاطميين

ووجدوا في خزائن الفرش من أصناف الاثاث والرياش ما يعد بالالوف . من ذلك ۱۰۰٫۰۰۰ قطعة خسرواني اكثرها مذهب ، ومراتب خسرواني وقلموني ثمن الواحدة ۳٫۵۰۰ دينار ، واجلة معمولة للفيلة من الخسرواني الاحمر المذهب ، و ۳٫۰۰۰ قطعة خسرواني احمر مطرز بأبيض من هدبها لم يفصل من كساء البيوت كاملة بجميع آلاتها ومقاطعها ، وكل بيت يشتمل على مسانده ومخاده ومساوره ومراتبه وبسطه ومقاطعه وستوره وكل ما يحتاج اليه . ومثل ذلك من المخمل والديباج وسائر انواع الحرير وعليها اشكال الصور من كل شيء . ونحو الف من الستور الحرير المنسوجة بالذهب على اختلاف الوانها واطوالها ، فيها صور الدول وملوكها ومشاهيرها وعلى صورة كل واحد اسمه ومدة ايامه وشرح حاله ، و ٤٫۰۰۰ رزمة خسرواني مذهب في كل رزمة فرش مجلس ببسطه وتعاليقه وسائر آلاته منسوجة في خيط واحد . ومن جملتها مقطع من الحرير الازرق التستري غريب الصنعة منسوج بالذهب وسائر الوان الحرير كان المعزلدين الله امر بعمله ،وفيه صورة اقاليم الأرض وجبالها وبحارها ومدنها وانهارها ومساكنها شبه الخارطة الجغرافية . وفيه صورة مكة والمدينة ومكتوب على كل مدينة وجبل وبلد ونهر وبحر وطريق اسمه بالذهب والفضة او الحرير ، وقد كتب في آخره « مما امر بعمله المعزلدين الله شوقاً الى حرم الله واشهاراً لمعالم رسول الله في سنة ۳٥۳ هـ » .

فاعتبر ما تدل عليه هذه الآثار من رقي المدنية والحضارة ، وكم تكون قيمته وجدت الآن وكم يدفع المتمولون من المبالغ في الحصول عليها .

وقس عليه ما كان في سائر الخزائن من التحف ، ففي خزانة السلاح سيف الحسين بن علي ، ودرقة حمزة بن عبد المطلب ، وسيف جعفر الصادق، ومئات الالوف من الدروع والسيوف والقسي والرماح وغيرها . وفي خزانة السروج الوف من السروج الثمينة ومنها ما يساوي الف دينار . وفي خزانة الخيم انواع الفساطيط والمضارب والمسطحات والحصون والقصور ، والشراعات والمشارع العمومية من الديبقي والمخمل والخسرواني والديباج المكي والارمني والبهنساري والكردواني ، وغير ذلك على اختلاف الالوان والنقوش من المفيل والمسبع والمخيل والمطوس والمطير وغيرها من اشكال السباع والطيور والآدميين مما ينصب على اعمدة ملبسة بالفضة . ومن هذه الفساطيط ما يبلغ طوله ٦٥ ذراعاً كبيراً يحمله مع ملحقاته مائة جمل . وفي خزانة البنود كثير من الرايات والاعلام الساذجة والمطرزة وغيرها .

ومن ادلة الترف والاسراف في هـــذه الدولة ان السيدة الشريفة ست الملك اخت الحاكم بأمر الله اهدت اخاها هذا هدايا من جملتها ثلاثون فرسا بمراكبها ذهبا،منها مركب واحـــد مرصع ومركب من حجر البلور وتاج مرصع بنفيس الجوهر وبستان من الفضة مزروع من انواع الشجر .

وقد يتبادر الى الذهن أن ما تقدم ذكره لا يخلو من مبالغة أو هو من قبيل الأحاديث الخرافية . ولكن مصر اشتهرت في العصور الاسلامية الوسطى بالثروة مثل شهرة بغـداد في إبان حضارتهـا ، واشتهر المصريون بالترف والغنى حين كان النـاس يشكون الضيق [١] ولذلك قالوا : « من دخل مصر ولم يستغن فلا أغناه الله » وقد تواتر ذكر هـذه التحف وأمثالهـا في كتب الثقات وبعضهم شهد الأمر بنفسه ورأى هذه التحف رأي العين ومنهم ابن الأثير المؤرخ الشهير فقد ذكر في حوادث سنة ٥٦٧ هـ التي أقام فيها السلطان صلاح الدين الخطبة بمصر للدولة العباسية واستولى على ما كان باقياً في قصور الخلافة من التحف والجواهر بعد ما أصابها من النهب في فتنة المستنصر وغيره – قال : « وحمل الجميع الى صلاح الدين، وكان من كثرتـه يخرج عن الاحصاء ، وفيه من الأعلاق النفيسة والأشياء الغريبة مـا تخلو الدنيا من مثله ، ومن الجواهر التي لم توجد عند غيرهم، فمنه الحبل الياقوت وزنه سبعة عشر

---

١ – ابن خلدون ٣٠٢ جـ ١ .

درهماً أو ١٧ مثقالاً أنا لا أشك ، لأني رأيته ووزنته ، واللؤلؤ الذي لم يوجد مثله ومنه النصاب الزمرد الذي طوله أربع أصابع في عرض عقد كبير »(١) .

بذخ الأندلسيين

واقتدى بالعباسيين في الترف والبذخ الأندلسيون ، ولكنهم لم يبلغوا مبلغ المصريين فيها ، على أن بعضهم تفنن بذلك على شكل لم يسبقه أحد الى مثله ، فالمنصور بن أبي عامر في أواخر القرن الرابع قدم عليه رسول ملك الروم ، وهو أعظم ملوك النصارى في ذلك الزمان ، ليطلع على أحوال المسلمين وقوتهم. فأراد المنصور أن يبغته بما يطلعه عليه من عز الدولة وثروة المملكة ، فأمر أن يغرس في بركة عظيمة ذات أميال نيلوفر ، ثم أمر بأربعة قناطير من الذهب وأربعة قناطير من الفضة فسبكت قطعاً صغاراً قدر ما تسع النيلوفرة ، وملأ بها جميع النيلوفر وبعث الى الرسول فحضر عنده قبل الفجر في مجلسه بالزاهرة فأجلسه بحيث يشرف على موضع البركة . فلما قرب طلوع الشمس جاء ألف من الصقالبة عليهم الأقبية والمناطق من الذهب والفضة ، وبيد ٥٠٠ منهم أطباق من ذهب وبيد ٥٠٠ أطباق من فضة ، فتعجب الرسول من جمالهم ولم يدر الغرض من مجيئهم . فحين أشرقت الشمس ظهر النيلوفر في البركة وبادروا لأخذ الذهب والفضة منه وكانوا يجعلون الذهب في أطباق الفضة والفضة في أطباق الذهب ، حتى التقطوا جميع ما فيها وجاءوا به فعرضوه بين يدي المنصور حتى صار كوماً ، فتعجب الرسول من ذلك وطلب المهادنة . واصطنع المنصور هذا نموذج قصر من فضة لصبح أم هشام وحمله اليها على رءوس الرجال استجلاباً لحبها (٢) .

وأغرب منه ما فعله المعتمد الأندلسي لأم اولاده الرميكية الملقبة اعتماد ، وقد رأت ذات يوم نساء البادية بأشبيلية يبعن اللبن في القرب وهن رافعات عن سوقهن في الطين فقالت : « يا سيدي أشتهي ان أفعل أنا وجواري مثل هؤلاء النساء » فأمر المعتمد بالعنبر والمسك والكافور وماء الورد وصير الجميع طيناً في القصر ، وجعل لها قرباً وحبالاً من الأبريسم وخرجت هي وجواريها تخوض في ذلك الطين (٣) .

---

١ – ابن الاثير ١٦٥ ج ١١ .   ٢ – نفح الطيب ٧٣١ و ٧٣٢ ج ٢ .
٣ – نفح الطيب ٢٠٨ ج ١ .

وقس على ذلك سائر ملوك الاسلام في عصر الترف ، فقد كان عند سنجر بن ملكشاه ١٠٣٠ رطلاً من الجوهر ولم يسمع بمثله عند الملوك . وكانوا يقيسون الاسراف أحياناً بما ينفقونه من الشمع في الأضواء ، فذكروا أن وظيفة كل من ابن بقية وعز الدولة ألف رطل من شمع في الشهر [١] واشتهر محمد الأمين بكبر شمعه . ولم يكن ذلك الترف قاصراً على الخلفاء والملوك والأمراء ، ولكنه كان يتناول سائر رجال الدولة ومن يرتزق منهم ، وأما العامة فربما كانوا في أشد الضيق — راجع الجزء الثاني من هذا الكتاب .

٤ — التسري

هو اقتناء الجواري للتمتع بهن او استيلادهن. وقد علمت ما كان من تكاثرهن والاتجار بهن وتربيتهن وتهاديهن في ذلك العصر ، ونتكلم هنا عما بعث عليه الترف من تسريهن . وكثيراً ما يعقب التسري التزوج ، فاذا ولدت الجارية لأحدهم تزوجها . وكان العرب يكرهون التزوج بالجواري ، فمع كثرتهن في صدر الاسلام لم يتزوج الراشدون جارية [٢] ولكن المسلمين كانوا يتسرونهن للفراش . فتوفي الإمام علي عن ٤ نسوة و ١٧ سرية [٣] وكانت تلد الجارية لأحدهم فيبيعها كما يبيع سائر الجواري ، فنهى عمر عن بيع أمهات الأولاد [٤] وكانت العرب على كل حال تحتقر أبناء الجواري، حتى نبغ منهم ثلاثة من كرام الرجال أمهاتهم من بنات يزدجرد [٥] فرغب الناس في التسري .

وليس المسلمون اول من اقتنى السراري ، فالتسري كان شائعاً عند الرومانيين ، والسرية عندهم احط منزلة من الزوجة ولكن علاقتها مع الرجل كانت شرعية . وكانوا في اول امرهم كالعرب يكرهون التسري ، حتى تقدمهم فيه اثنان من كبار امرائهم فعكفوا عليه[٦] .

وزادت رغبة المسلمين في التسري في ابان الحضارة ، حتى اصبح اكثر ابناء الخلفاء من اولاد الجواري[٧] واكثر نساء اهل الدولة منهن ، واقتدى بهم سائر الوجهاء والاغنياء .

---

١ — ابن خلكان ٨٧ ج ١ و ٦٣ ج ٢ . ٢ — ابن الاثير ٢٦ و ٩٢ ج ٣ .
٣ — الف باء ٣٤٧ ج ٢ . ٤ ابن الاثير ٢٩ ج ٣ .
٥ — ابن خلكان ٣٢٠ ج ١ . ٦ — Gibbon, 11. 205
٧ — الجزء الرابع من هذا الكتاب .

فعمدوا الى اقتناء السراري ، ومن ولدت له تزوجها او اعتقها . فبلغ عددهن عند بعض الخلفاء عدة آلاف ، ذكروا انه كان للمتوكل العباسي ٤٠٠٠ جارية وطئهن جميعاً [١] وعلم الامراء برغبته فيهن فتقربوا اليه بالهدايا منهن ، فأهداه عبدالله بن طاهر ٤٠٠ وصيفة[٢] . وكان لنصر الدولة صاحب ميافارقين ٣٦٠ سرية على عداد ايام السنة[٣] غير ما كانوا يقتنونه من الجواري للغناء ، فقد كان عند الرشيد ٢٠٠٠ جارية[٤] منهن ٣٠٠ قينة للغناء والضرب على آلات الطرب[٥] .

واصبح الاستكثار من الجواري عادة مألوفة ، حتى صار النساء يقتنينهن للزينة . فكان عند ام جعفر البرمكي ٤٠٠ وصيفة يخدمنها[٦] وقد رأيت ما اتخذته زبيدة من الجواري المقدودات وكيف البستهن ملابس الغلمان فقلدتها الوجيهات من اهل اليسار ، فاتخذن الجواري المطمومات او الغلاميات ، ثم تبارى الخلفاء وسائر الكبراء في ذلك ، حتى الف القاهر بالله العباسي جوقاً من الجواري بقد واحد البسهن القراطق والاقبية والطرر والاقفية والمناطق من الذهب او الفضة كأنهن الغلمان[٧] .

وقس على ذلك سائر دول المسلمين في المشرق والمغرب ، وقد فاق الفاطميون سواهم في الاكثار من الجواري ايضاً ، فكان في قصر الحاكم بأمر الله ١٠٫٠٠٠ جارية وخادم[٨] وكان عند اخته السيدة الشريفة ست الملك ٨٠٠٠ جارية منها ١٥٠٠ من البنات الابكار[٩] ولما قبض صلاح الدين على قصورهم وجد في القصر الكبير ١٢٫٠٠٠ نسمة ليس فيهم فحل إلا الخليفة واهله واولاده ، غير الخدم والغلمان والامتعة والتحف ، واطلق صلاح الدين البيع فيهم فاستمروا يبيعون عشر سنين[١٠] ويقال نحو ذلك في السلاطين المماليك بمصر وبني أمية في الاندلس مما يطول شرحه ، ولا يزال مثاله عند بعض امراء الشرق وملوكه الى اليوم (قبل الحرب العالمية الاولى) .

---

١ – المسعودي ٢٧٩ ج ٢ . ٢ – الاغاني ١٣٣ ج ١٩ .
٣ – ابن خلكان ٥٧ ج ١ . ٤ – الاغاني ٨٨ ج ٩ .
٥ – الاتليدي ٦٧ . ٦ – المسعودي ٢٠٨ ج ٢ .
٧ – المسعودي ٣٦٦ ج ٢ . ٨ – ٣٦ ج ١ .
٩ – المقريزي ٤٨٥ ج ٢ . ١٠ – المقريزي ٤٩٧ ج ١

اثمان الجواري

والاستكثار من الجواري في اوائل الاسلام لم يكن يحتـــاج الى نفقة كبيرة لكثرة السبايا ، فلما نضج التمدن صاروا يبتاعونهن ويغالون في رفع اثمانهن ، وكانت اسعارهن تتضاعف اذا جمعن بين الجمال ورخامة الصوت وصناعة الغناء. ويختلف ثمن الجارية من بضع مئات الى بضعة آلاف او مائة الف دينار . واول من بذل في هذا السبيل الى هذا المقدار سعيد اخو سليمان بن عبد الملك ، فابتاع « الذلفاء » الجارية الشهيرة بمليون درهم[١] (نحو ٧٠،٠٠٠ دينار) .

وابتاع الرشيد جارية بمائة الف دينار[٢] وجارية اخرى اشتراها من ابراهيم الموصلي بمبلغ ٣٦،٠٠٠ دينار فباتت عنده ليلة ثم ارسلها الى الفضل وطلب محمد الامين الى جعفر ابن الهادي ان يبيعه جارية له اسمها « بذل » فأبى ، فأمر فأوقروا قاربه ذهبـــاً فبلغت قيمة ذلك ٢٠،٠٠٠،٠٠٠ درهم[٣] اي اكثر من مليون دينار -- وهذا اذا صح كان اعظم ما بلغ اليه بذلهم في اثمان الجواري .

واما ما خلا ذلك فقد اشترى يزيد بن عبد الملك الأموي « سلامة » المغنية بعشرين الف دينار ، وبيعت الجارية « ضياء » بخمسين الف دينار ، واشترى جعفر البرمكي جارية بأربعين الف دينار ، وابتاع الواثق بالله جارية مولدة للغناء اسمها « الصالحيـــة » بعشرة آلاف دينار . وقس عليه ما دون ذلك وما فوقه ، واعتبر ما كانوا ينفقونه من الاموال في اقتنائهن .

٥ ـــ السخاء

علمت مما تقدم انطباع العرب على السخاء من أيام جاهليتهم ، وانهم اضطروا للمحافظة عليه بعد الاسلام حتى اصبح من قواعـــد الارتزاق فيمن يحومون حول الخليفة وأهل الدولة ، فلما توفرت الأموال في أيدي هؤلاء وتمتعوا بالحاجات والكماليات من الملاذ

---

١ ـــ العقد الفريد ٢٠٣ ج ٣ والمستطرف ١٣٢ ج ٢ .
٢ ـــ الطبري ١٣٣٢ ج ٢ .
٣ ـــ العقد الفريد ٤٣ ج ٣ والاغاني ١٤٥ ج ١٥ .

الجسدية تطلبوا الملاذ المعنوية بحسن الأحدوثة ، وهم أهل أريحية يستفزهم الاطـــراء والاستنجاد ، فوجدوا في السخـــاء باباً واسعاً لتلك الملاذ ، فبذلوا الأموال على الشعراء والندماء والمغنين والمستجدين من سائر الطبقات ، لما في ذلك من لذة الفخر أو توقع الأجر.

مبلغ السخاء على العموم

وقد ذكرنا في كلامنا عن الارتزاق بالسخاء ما الذي بعث على بقاء هذه المنقبة الجاهلية حتى صارت سنة مرعية . وتدرج المسلمون فيها بتدرجهم في الحضارة ، والمدنيــة وزادت جوائزهم بزيادة الثروة واتساع الأرزاق ، فكان الأمويون يعطون بالألف درهم او بضعــة آلاف يلحقونها ببعض الماشية او الكسوة او الخيل ، واذا توسعوا في العطاء مصلحة جعلوا الصلة عشرة آلاف او عشرات الألوف او مائة الف او مئات الألوف ، كما فعل معاوية في استرضاء الناس واكتساب بني هاشم الى حزبه ، فانه جعل صلات أبناء الصحابة ملايين يبذلها رواتب كل عام . وهو أول من فعل ذلك من المسلمين ، غير ما كان يصلهم به من الهدايا لسبب او لغير سبب ، كما فعل لما ولد لعبد الله بن جعفر غـلام فبذل له ١٠٠٠٠٠ درهم على ان يسميه معاوية فرضي ، ولكنه اعطى تلك الصلة للذي بشره بالغلام [١] .

واقتدى بمعاوية من خلفه من الأمويين وأمرائهم ، واشتهر من هؤلاء آل المهلب بالسخاء في الدولة الأموية ، كما اشتهر البرامكة في الدولة العباسية [٢] ومن أسخياء عمالهم خـــالد القسري والحجاج بن يوسف اذا مست الحاجة الى السخاء . فالحجاج اعطى الذي توسط في زواجه بهند بنت أسماء ثلاثين غلاماً مع كل غلام عشرة آلاف درهم ، وثلاثين جارية مع كل جارية تخت من ثياب وغير ذلك [٣] وكان سعيد بن العاص لا يرسل الى أحد هدية مع عبد الا كان العبد في جملتها [٤]

أما العباسيون فكانت الثروة في أيامهم أوفر ، فبلغت عطياتهم عشرات الملايــين من الدراهم ، وأول من أعطى هذا القدر منهم المنصور [٥] ثم صاروا يهبون الضياع وخراج البلاد ، أو يوقرون الزوارق ذهباً او فضة ، او يهدون الغلمان يحـــملون بدر المال ، او

---

١ – الاغاني ٧١ ج ١١ . ٢ – ابن خلكان ٢٦٦ ج ٢ .
٣ – الاغاني ١٣٠ ج ١ . ٤ – الفرج بعد الشدة ٣٣ ج ٢ .
٥ – لطائف المعارف ١٦ .

يرسلون الجائزة على مئات من الدواب ، او يولون الولايات والاعمال ، وتزداد جوائزهم اذا استخفهم الطرب او استفزهم الاطراء فقد ولى السفاح رجلا الاهواز بقصيدة (١) والغالب ان يكون سخاؤهم لغرض سياسي يعود نفعه على الدولة ، كما فعل المنصور إذ اعطى في يوم واحد عشرة ملايين درهم فرقها على أعمامه ووجوه قواده ليقطع السنتهم عن مقاومته . ولما تولى ابنه المهدي استكتب أسماء أولاد المهاجرين والأنصار ، وجلس مجلساً عاماً فرق فيه ٣٠٠٠٠٠٠٠ درهم ، وقرر لكل واحد من اهل بيته ٦٠٠٠ درهم كل سنة (٢) وأعطى المغيرة بن حبيب الف فريضة يضعها حيث شاء (٣) وفرق الرشيد في يوم واحد ١٣٥٠٠٠٠ دينار (٤) وطرب يوماً فنثر على الناس ٦٠٠٠٠٠٠ درهم (٥) وأعطى الهادي لعبدالملك بن مالك صاحب شرطة أبيه مالاً أرسله اليه على ٤٠٠ بغل موقرة دراهم (٦) وأعطى الأمين الى سليمان بن أبي جعفر مليون درهم (٧) واختص الأمين من أساليب السخاء بأنه كان يأمر بإيقار زورق الطالب ذهباً او فضة ، وكان قصره على شاطىء دجلة فاذا جاءه شاعر او طالب في زورق وأخذته الأريحية واستخفه الطرب قال : « أوقروا زورق هذا ذهباً او فضة » . وقلما كانوا يفعلون ذلك ، والغالب ان يعوضوا عليه بمبلغ من المال كما فعلوا بأبي محمد التيمي ، فانه مدح الأمين بقصيدة أطربته فأمر الفضل بن الربيع ان يوقر زورقه مالا فقال : « نعم يا سيدي » فلما طالبه التيمي بذلك قال له الفضل : « أنت مجنون ! من أين لنا ما يملأ زورقك ؟ » ثم صالحه على ١٠٠٠٠٠ درهم (٨) واجاز المأمون طبيبه بمليون درهم والف كر حنطة (٩) وفرق المأمون في ساعة ٢٦٠٠٠٠٠٠ درهم ، ومدحه اعرابي فأجازه بثلاثين الف دينار (١٠) وكان المتوكل يهب القطائع جوائز على المدح (١١) وقس على ذلك هدايا سائر الخلفاء ، وإنما ذكرنا أعظمها لبيان مبلغ ذلك في إبان التمدن .

---

١ - فوات الوفيات ٢٠ ج ١ .　　٢ - سير الملوك ٦٥ و ٦٦ .
٣ - الاغاني ٩٨ ج ١٨ .　　٤ - المستطرف ١٣٥ ج ١ .
٥ - الاغاني ٨٨ ج ٠ و ١٢٤ و ج ١٧ .　　٦ - ابن الاثير ٤٢ ج ٦ .
٧ - المستطرف ١٣٣ ج ١ .　　٨ الاغاني ١١٨ ج ١٨ .
٩ - طبقات الاطباء ١٢٨ ج ١ .　　١٠ - فوات الوفيات ٢٤٠ ج ١ .
١١ - الاغاني ٣ ج ١١ .

فلما افتقر الخلفاء العباسيون في أواسط الدولة صاروا يهبون الرتب الاسمية وألقاب الشرف يسترضون الناس بها. وهذه أبيات يقولون أن أبا بكر الخوارزمي نظمهابهذا المعنى:

مالي رأيت بني العباس قد فتحوا ... من الكنى ومن الالقاب ابوابا
ولقبوا رجـــلا لو عاش اولهم ... ما كان يرضى به للحبس بوابا
قـــل الدراهم في كفي خليفتنا ... هـــذا فانفق في الاقوام القابا

سخاء البرامكة

على ان العصر العباسي الاول انما زها بالبرامكة ، وهم الذين رغبوا الخلفاء في السخاء، واولهم خالد بن برمك وزير المنصور ، والثروة لم تنضج في ايامه ، ومع ذلك فالوافدون على الخلفاء للاستجداء كانوا يسمونهم السؤال، فقال خالد : « هذا والله اسم استقله لطلاب الخير ، وارفع قدر الكريم عن ان يسمى به امثال هؤلاء المؤملين ، لأن فيهم الاشراف والاحرار وابناء النعيم ، ومن لعله خير ممن يقصد وافضل ادبا ، ولكننا نسميهم الزوار » وكان ممن شهد مجلسه وسمع قوله بشار بن برد فقال :

حذا خالد في فعله حذو برمك ... فمجـد له مستطرف واصيل
وكان ذوو الآمال يدعون قبله ... بلفظ على الاعدام فيه دليـل
يسمون بـ «السؤال» في كل موطن ... وان كان فيهم نابــه وجليل
فسماهم « الزوار » ستراً عليهم ... فأستاره في المهتـدين سدول

فأعطاه خالد عن كل بيت الف درهم[1] .

وكان ابنه يحيى بن خالد اذا ركب اعطى كل من تعرض له ٢٠٠ درهم[2] ، ويروون من اخبار سخائه ما هو اشبه بالخرافات منه بالحقائق . نذكر حادثة تواتر ذكرها في كتب التاريخ والادب ، وهي تمثل سخاء يحيى احسن تمثيل . وذلك ان البرامكة لما نكبوا منع الرشيد الناس من ذكرهم او رثائهم ، فمن ذكرهم انما يذكرهم سراً . وظلوا على ذلك في ايام الامين والمأمون . فسمع المأمون بشيخ يأتي خرابات البرامكة ويبكي وينتحب طويلا ثم ينشد شعراً يرثيهم به وينصرف ، فبعث في طلبه فلما حضره انتهره الخليفة وسأله من

---

١ – الاغاني ٣٦ ج ٣ . ٢ – ابن خلكان ٢٤٤ ج ٢ .

هو وبم استحق البرامكة منه ما يصنع ، فقال الرجل وهو غير هائب: «للبرامكة عندي اياد خضر ، فان أمر امير المؤمنين حدثته ببعضها » فقال : « هات » . فقال : « انا المنذر بن المغيرة الدمشقي ، نشأت في نعمة فزالت حتى وصلت الى بيع داري وأملقت الى غاية ، فأشير علي بقصد البرامكة فخرجت الى بغداد ومعي نيف وعشرون امرأة وصبيا، فدخلت بهم الى مسجد ببغداد ثم خرجت وتركتهم جياعاً لا نفقة لهم . فمررت بمسجد فيه جماعة عليهم احسن زي ، فجلست معهم اردد في صدري ما اخاطبهم به فتحيد نفسي عن ذل المسألة ، واذا خادم قد ازعج القوم فقاموا فقمت معهم ، ودخلوا داراً كبيرة فدخلت ، فاذا يحيى بن خالد على دكة وسط بستان فجلسوا وجلست ، وكنا مائة رجل ورجل فخرج مائة خادم في يد كل خادم منهم مجمرة ذهب فيها قطعة عنبر ، فتبخروا واقبل يحيى على القاضي وقال : زوج ابن عمي هذا بابنتي عائشة . فخطب وعقد النكاح واخذنا النثار من فتات المسك وبنادق العنبر وتماثيل الند ، فالتقط الناس والتقطت . ثم جاءنا الخدم في يد كل واحد منهم صينية فضة فيها الف دينار مخلوطة بالمسك ، فوضع بين يدي كل واحد واحدة ، فاقبل كل واحد يأخذ الدنانير في كمه والصينية تحت ابطه ويخرج، فبقيت وحدي لا اجسر افعل ذلك ، فغمزني بعض الخدم وقال : خذها وقم . فأخذتها وقمت وجعلت امشي والتفت خوفاً من ان تؤخذ مني ، ويحيى يلاحظني من حيث لا افطن فلما قاربت الستر رددت ، فيئست من الصينية ، فجئته فأمرني بالجلوس فجلست، فسألني عن حالي فحدثته عن قصتي فبكى ثم قال : علي بموسى . فجاءه ، فقال : يا بني ، هذا رجل من اولاد النعم قد رمته الايام بصرفها ، فخذه اليك فاخلطه بنفسك . فأخذني وخلع علي وامرني بحفظ الصينية لي ، فكنت في الذ عيش يومي وليلي ، ثم استدعى اخاه العباس وقال : ان الوزير قد سلم الي هذا واريد الركوب الى دار امير المؤمنين فليكن عندك اليوم ، فكان يومي مثل امس . فأقبلوا يتداولونني وانا قلق بأمر عيالي ولا اتجاسر ان اذكرهم فلما كان في اليوم العاشر ادخلت على الفضل بن يحيى فأقمت عنده يومي وليلتي ، فلما اصبحت جاءني الخادم فقال : قم الى عيالك وصبيانك . فقلت : انا لله ، ذهبت الصينية وما فيها ، فليت هذا كان من اول يوم ! وقمت والخادم بين يدي،فأخرجني من الدار فازداد ما بي ، ثم ادخلني الى دار كأن الشمس تطلع في جوانبها ، وفيها من صنوف الآلات والفرش ، فلما توسطتها رأيت عيالي يرتعون في الديباج والستور ، وقد حمل اليهم مائة الف درهم وعشرة آلاف دينار ، وسلم الي الخادم صكاً باسم ضيعتين

جليلتين وقال هذه الدار وما فيها والضياع لك ، فأقمت مع البرامكة في اخفض عيش الى الآن . ثم قصدني عمرو بن مسعدة في الضيعتين والزمني من خراجهما ما لا يفي به دخلهما ، فكلما لحقتني نائبة قصدت دورهم فبكيت ».

فاستدعى المأمون عمر بن مسعدة وأمره ان يرد على الرجل ما استخرج منه ، ويقرر خراجه على ما كان في ايام البرامكة . فبكى الشيخ بكاء شديداً ، فقال له المأمون : « الم استأنف بك جميلا ؟ » فقال : « بلى ، ولكن هذا من بركة البرامكة ! » فقال : « امض مصاحبا ، فان الوفاء مبارك وحسن العهد من الايمان » (١) .

وعلى ذلك شب جعفر والفضل ابنا يحيى وسائر البرامكة ، وتوسعوا في السخاء حتى عينوا الرواتب لاهل الحاجات . فقد ذكرنا فيما تقدم ان غلتهم بلغت ٢٠،٠٠٠،٠٠٠ دينار في السنة ، فلما قتل جعفر وقبضت اموالهم وجدوا ١٢،٠٠٠،٠٠٠ دينار في بدر مختومة وعليها صكوك لاناس على سبيل الرواتب او الايصالات او نحو ذلك(٢) . ومن فنون سخائهم ان الفضل بن يحيى كان يكتب رقاعاً بخطه فحواها « امض الى فلان الصيرفي وخذ منه كذا وكذا ديناراً » حسبما يجريه الله على يده ، ويركب في الليل او في القائلة ويخترق شوارع البلد وينثرها فيها . وسئل عن ذلك فقال : « اردت ان يصل بري الى من لا يصل الي ولا اعرفه ولا يعرفني » ، فاذا وجد احد رقعة من هذه الرقاع مضى بها الى الصيرفي فيأخذها منه ويعطيه ما فيها ، وعند الصيرفي امين جالس لئلا يصالحه على بعضها. ولا يعطى لأحد غير رقعة واحدة ولا يسأل عنه ولا يثبت اسمه ، وربما جاءت بيد الصبي والمرأة والذمي فيأخذ ما فيها(٣) .

واشتهر من وزراء الدولة العباسية بالسخاء بعد البرامكة آل الفرات في ايام المقتدر ، فكانوا يفرضون الرواتب للعلماء والادباء والفقهاء واهل الفاقة ، وقد نكبوا كما نكب البرامكة ، ولكن شهرة البرامكة غلبت على سواهم ، فأصبحوا مضرب الامثال في الكرم . ولا يزال الناس يتداولون اخبارهم ويتمثلون بسخائهم ويستحثون اريحية العظماء على السخاء بما يروون من احاديثهم ، حتى ظنها بعضهم موضوعة لهذه الغاية . ولا يبعد ان تكون رغبة الناس في الاستحثاث بعثت على المبالغة في بعضها ، ولكنها صحيحة على

---

١ – الفرج بعد الشدة ٢٢ ج ٢ وسير الملوك ١١١ والاتليدي ١٣٢

٢ – العقد الفريد ٢٢ ج ٣ . ٣ – ترتيب الدول ٢٢

اجمالها – قال السلطان العادل الايوبي مرةوقد جرى ذكر البرامكة وامثالهم من الكرماء: « هذا كذب مختلق من الوراقين ومن المؤرخين ، يقصدون بذلك ان يحركوا همم الملوك والاكابر للسخاء وتبذير الاموال » .

فقال بعض الحضور : « يا خوند ، ولأي شيء يكذبون عليك ؟ » (١) .

السخاء على الشعراء والمغنين

واعتبر ذلك في سخائهم على الشعراء ، فقد كانت اجازة الشعراء قاعدة عامـة من اوائل الاسلام لأسباب تقدم ذكرها ، ويشبه ذلك ما تنفقه بعض الدول اليوم على الصحافة لتنصرها او تأخذ بيدها في نشر مبدأ او رأي . وتعودوا ان يسموا مـا يعطى للشاعر جائزة او صلة ، كما يسمون ما يعطى للصحف اعانة او راتباً . على ان بعض الخلفـاء كانوا يفرضون للشعراء رواتب يتناولونها مشاهرة او مسانهة ، وربما عدوا الجائزة راتبـاً يناله الشاعر اذا وفد على الخليفة او الامير في يوم معين من السنة . وقد تكلمنا عن الشعر وسائر احواله فيما تقدم ، ونحن ذاكرون سخاء الخلفاء على الشعراء في ابان الحضارة .

اول من جاد على الشعراء في الاسلام بنو امية ، واسخاهم الوليد بن يزيد وهو اول من عد ابيات الشعر وأعطى على كل بيت الف درهم(٢) واقتدى به من جاء بعده منهم . اما العباسيون فزادوا القيمة واعطوا على القصيدة في مدحهم ١٠٠،٠٠٠ درهم ، واول من نال هذه الصلة منهم مروان بن ابي حفصة وصله بها المهدي على قصيدة مدحه بها مطلعها :

« طرقتك زائرة فحي خيالها »(٣) ومدحه سلم الخاسر بقصيدة مطلعها :

« حضر الرحيل وشدت الاحداج » .

فأراد ان ينقص له من جائزة مروان فحلف انه لا يأخذ إلا مائة الف الف درهم ، ويقال انه اعطاه اياها(٤) والغالب انه اعطاه مائة الف فقط ، وانما اضيفت الالف الاخرى خطأ من النساخ .

---

١ – نفح الطيب ٤٧٢ ج ١ .
٢ – ابن الاثير ١٣٧ ج ٥ والاغاني ١٤٠٨ ج ١٧ و ٣٩ ج ٩ .
٣ – ابن خلكان ١١٢ ج ٢ . ٤ – ابن خلكان ١٩٨ ج ١ .

وكان المنصور قبله بخيلاً على الشعراء ، اذا احب ان يعطي شاعره ابا دلامة فرض على الهاشميين دينارين ليعطيها له [١] .

اما الرشيد فأعطى مروان كما كان يعطيه المهدي ، اي مائة الف درهم[٢] واعطاه مرة ٥٠٠٠ درهم وعشرة من الرقيق ، وكان يعطي ابا العتاهية راتباً سنوياً مقداره ٥٠٠٠٠ درهم غير الجوائز والمعاون[٣] وفاقهم المتوكل في ذلك لأنه اعطى حسين بن الضحاك الف دينار عن كل بيت من قصيدة قالها ، وهو اول من اعطى ذلك[٤] وكان اذا اعجبه قول الشاعر ملأ فمه جوهراً ، وقد سبقه الى ذلك يزيد بن عبد الملك[٥] .

وتشبه الوزراء والأمراء بالخلفاء ، فكان خالد القسري يجلس للشعراء في يوم معين ويجيزهم . وكذلك آل المهلب فانهم فرضوا لهم الأعطية والجوائز [٦] .

أما في الدولة العباسية فالبرامكة لم يدخروا وسعاً في إجازة الشعراء ، وخصوصاً الفضل بن يحيى وقد قال فيه بعضهم :

ما لقينا من جود فضل بن يحيى ترك الناس كلهم شعراء [٧]

وكان أبوه يحيى اذا لقيه شاعر ولم يكن معه مال أعطاه دابته [٨] وقد فاق البرامكة الخلفاء في اجازة الشعراء ، فنال شاعرهم أبان اللاحقي على قصيدة واحدة مثل ما ناله مروان بن أبي حفصة من الرشيد كل عمره[٩] وقس على ذلك سخاء سائر الوزراء والأمراء ، فان يزيد بن مزيد أعطى نصف ماله لشاعر [١٠] .

ويقال نحو ذلك في سخائهم على المغنين ، فقد أعطى المهدي دحمان المغني في ليلة واحدة ٥٠٠٠٠ دينار لأنه أطربه . وأعطى الأمين اسحق الموصلي ١٠٠٠٠٠٠ درهم لأنه غناه شعراً في مدحه فحملها الى داره مائة فراش[١١] وكان الهادي يجري على ابراهيم الموصلي عشرة آلاف درهم في الشهر سوى صلاته . أما الرشيد فكان اذا طرب وهب وجاد

---

١ – الاغاني ٢٨ و ١٣١ ج ٩ . ٢ – الاغاني ١٩ ج ١٢ .
٣ – الاغاني ١٥٧ ج ٣ . ٤ – الاغاني ١٨٤ ج ٦ .
٥ – الاغاني ١٧٤ ج ٦ و ١٤٧ ج ١ .
٦ – الاغاني ١٦٤ ج ١١ . ٧ – ابن خلكان ٤١١ ج ١ .
٨ – الاغاني ٨ ج ٥ . ٩ – الاغاني ٧٣ ج ٢٠ .
١٠ – ابن خلكان ٢٨٥ ج ٢ . ١١ – الاغاني ٩٩ و ١٤٢ ج ٥ .

حتى ولي اسماعيل بن صالح مصر لأنه أطربه بغنائه [١] وأخبار الشعراء والمغنين كثيرة لا محـــل لها .

واقتدى بسخاء العباسيين ورجال دولتهم سائر رجال الدولة الاسلامية ، وإن لم يبلغوا شأوهم .

٦ ـــ المسكر

كان المسكر شائعاً قبل الاسلام في الشام والعراق وفـــارس ومصر وجزيرة العرب وغيرها ، وكان ملوك الفرس يقبلون على اللذات والمسكرات . ويقال أن الرومـانيين لم يتعودوا المسكر الا بعد فتحهم آسيا . على أن عقلاء الناس كانوا يحرمون شربه حتى في جاهلية العرب ، فان جماعة منهم حرموه على أنفسهم وأهلهم ، واذا عربد أحدهم بالسكر وتكرر ذلك منه خلعه قومه ونفوه . فلما جاء الاسلام ورد النص بتحريمـــه ، وأقيمت الحدود في منعه بالجلد والحبس وحلق الرأس أو اللحية والشوارب أو قطع العطاء، وعاقبوا بائعيه وكسروا أوانيه ولا سيما في عصر الراشدين وأوائل أيام بني أميـــة ، حتى عنف عمر ابن الخطاب خالد بن الوليد على تدلكه في الحمام بغسل فيه خمر ، وقال له : « إن الله حرم ظاهر الخمر وباطنها ومسها فلا تمسوها بأجسادكم » ومع ذلك فاختلاط المسلمين بأهل البلاد المفتوحة عودهم اياها ، حتى شربها جماعة من الصحابة وأبنائهم فوقعوا تحت طـائلة العقاب . وأول من عوقب على شربها وحشي بن حرب قاتل حمزة [٢] ثم عوقب غير واحد منهم ومن أبنائهم ، وفيهم جماعة من الكبراء كالوليد بن عقبة ، ويزيد بن معاوية ، وعبدالله ابن عمر بن الخطاب وأخويه عبد الرحمن وعاصم ، والعباس بن عبد الله بن عباس ، وقدامة ابن مظعون، وعبد العزيز بن مروان ، وعبدالرحمن بن عبد الله الثقفي القاضي، وأبي محجن الثقفي وغيرهم [٣] .

ومما ساعد على إقبال نفر من المسلمين على الخمر أن بعض الخلفاء الأمويين كانوا يشربونها، كيزيد بن معاوية ، وعبد الملك بن مروان ، ويزيد بن عبد الملك ، والوليد بن يزيـــد [٤]

---

١ – حلبة الكميت ٦٣ و ٦٤ . ٢ – المعارف لابن قتيبة ١١٢ .
٣ – العقد الفريد ٣١٤ ج ٣ . ٤ – الاغاني ١٥٤ ج ١٩ و١٥٧ج١٣ والعقد الفريد ٣١٤ج٣.

والوليد هذا أول من وصف الخمر وتغزل بها فسرق الشعراء معانيه وأدخلوها في أشعارهم. وتهتك الوليد في المسكر حتى حدثته نفسه أن يسكر فوق الكعبة ، فخوفه أصحابه من الناس فأمسك . وقد أفسده وعلمه الخلاعة مؤدبه عبد الصمد بن عبد الأعلى [١] على أن رجال الحكومة كانوا يشددون في منع الخمر والحد عليها ، حتى كثيراً ما كانوا يمنعون بيع العسل لئلا يصنعوها منه [٢] وأشهر من شدد في منعها من الخلفاء عمر بن عبد العزيز الأموي والمهتدي العباسي ، ومع ذلك فقد كانت تزداد انتشاراً باتساع أسباب الحضارة وذهاب دهشة الدين واشتغال الناس بالغناء والجواري حتى صاروا يشربونها جهاراً. واشتهر بشربها غير واحد من الخلفاء وأهلهم ورجال الدولة مع التهتك في مجالس الشرب . فعمد بعض المتملقين من الفقهاء ورجال الدين الى انتحال بعض المسوغات لشربها ، فأخذوا يبحثون في الفرق بين أنواعها وميزوا بين المحلل والمحرم منها فأجمعوا على تحريم الخمر واختلفوا في تحريم النبيذ ، وفي أي أنواعه حلال وأيها حرام ، ويقال بالاجمال أن أهل العراق كانوا يستحلون النبيذ وأهل الحجاز يحرمونه [٣] .

والنبيذ يصنع من أكثر أنواع الفاكهة ولا سيما العنب والتمر والتفاح والمشمش ومن الذرة . ويختلف باختلاف البلاد وباختلاف طرق عمله ، وهو عصير بعض هذه الأثمار أو منقوعها كما ينقع الزبيب اليوم (الخشاف) وقد يضيفون إليه العسل أو الدبس او يصنعونه من احدهما مع الحب على النار [٤] وكانوا اذا اقبلوا على شربه صفوه وتناولوه بالاقداح الكبيرة ، وربما صنعوا الخمر منه . واذا صفي في القناني صعب تمييزه من الخمر او منقوع الزبيب او مذاب العسل[٥] فمن احب الشرب استحل تناوله على انه نبيذ ، فاذا اكثر من شربه فعل فعل الخمر . وبعضهم كان يحلل قليل الخمر ويحرم كثيرها ، وآخرون يحللون شرب الخمر إلا اذا ادت الى السكر [٦] ولكن الاكثرين حكموا بتحريمها، ولهم في ذلك اقوال يطول شرحها تراها مبسوطة في كتب الشرع .

فالخلفاء العقلاء الذين بلغنا انهم سكروا في بعض مجالسهم كانوا يستحلون شرب النبيذ، وهو حلو منعش فيكثرون منه حتى يسكروا . ويؤيد ذلك انهم كانوا يشربونه بالأرطال،

---

١ – ابن الاثير ١٢٤ و ١٣٦ ج ٥ . ٢ – المقريزي ٢٩٧ ج ٢ .
٣ – ابن الاثير ٣٦ ج ٦ وابن خلدون ١٥ ج ١ .
٤ – كتاب البخلاء ٥١ . ٥ – الاغاني ٤ ج ٥ و ١١٢ ج ٤ و ٣٥ ج ٢ .
٦ – العقد الفريد ٣٠٩ و ٣١٨ ج ٣ و ٢٧٠ ج ٢ والف باء ٨١ ج ١ .

واذا طال مكث النبيذ قبل شربه دب فيه الاختمار وتولد الكحول ولو قليلا . وقد يطول مجلس الشراب فيسكر الشاربون ويعربدون. وربما اتوا في سكرهم بما لا يأتيه غير المجانين. وافظع ما يروى من هذا القبيل ان الملك الناصر بن الملك المعظم الايوبي كان اذا سكر يقول : « اشتهي ان ارى غلامي فلاناً طائراً في الهواء ! » فيرمى ذلك المسكين بالمنجنيق، ويراه في الهواء فيضحك ويشرب ويقول : « اشتهي ان اشم رائحة فلان وهو يشوى ! » فيحضر ذلك الرجل ويقطع لحمه ويشوى [١] . وكتب التاريخ والأدب مشحونة بأخبار مجالس الشراب ، وهي في الغالب مجالس الغناء ، ويندر ان يترفع خليفة او وزير عنها . ومن اكثر العباسيين رغبة فيها الهادي والرشيد والأمين والمأمون والمعتصم والواثق والمتوكل ، واكثرهم نفوراً منها المنصور والمهتدي . واشتهر من الفاطميين بالتهتك بها المستنصر [٢] واشتهر بمقاومتها الحاكم بأمر الله ، وكثيراً ما امر بإراقة الخمور واراقة العسل حتى لا تصنع منه .

اما العامة فانغمس الكثيرون منهم في المسكر وشربوه على انواعه ، شأنهم في كل زمان وان لم يشربه حكامهم ، فكيف اذا كانوا يشربون ؟ والغالب في شاربي النبيذ ان ينبذوه في بيوتهم ، وبعضهم يشربه عند اخوانه ، وآخرون يتناولونه في الحانات وكانت كثيرة، واكثر اصحابها من اليهود ، وقد يشربون الخمر في الاديار وخمرها مشهورة بجودتها .

٧ — التهتك

وطبيعي فيما قدمناه من الحضارة والترف ان يعتورها شيء من التهتك والفحشاء ، وان كان ذلك لا يخلو منه قوم مهما بلغ من بعدهم عن الحضارة ولكنه يكثر غالباً في المتحضرين، لسكون خواطرهم وتوفر اسباب الرغد والتنعم عندهم . كان في جاهلية العرب جماعة من البغايا لهن رايات ينتحيها الفتيان ، وكان بعض الناس يكرهون اماءهم على البغاء يبتغون عرض الدنيا [٣] ولكن ذلك شأن الحضر منهم ، لان البدو اقرب الى صحة الآداب ، فاعتبر كم تكون اسباب التهتك اوفر في المدن الكبرى ، حيث تتزاحم الاقدام وتتوفر

---

١ — فوات الوفيات ١٥٧ ج ١ . ٢ — المقريزي ١٥٤ ج ٢ . ٣ — العقد الفريد ٢ ج ٣.

الثروة وتكاثر الجواري ويتفشى الغناء والمسكر ، كما كان شأن بغداد وقرطبة والقاهرة والفسطاط في ابان ذلك التمدن . فلا غرو اذا تفشت الفحشاء فيها ولا سيما في العصور الوسطى ، حتى صار البغاء في بعض الاحيان صناعة عليها رئيس يحتكم اليه البغاؤون عند الحاجة[١] وتفننوا في ترويج تلك البضاعة بتصوير النساء على جدران الحمامات[٢] واصبح اهل القصف من الأغنياء يصورون حظاياهم على جدران منازلهم كما فعل ابن طولون . وكان الحكام العقلاء يبذلون جهدهم في منع الفحشاء ويقاومون تيارها بما في امكانهم[٣] ولما عجزوا عن كف اذاها بالقوة ضرب بعضهم عليها ضرائب يدفعها اصحابها مثل سائر التجارات[٤] .

واقبح ما ظهر من التهتك في اثناء هذا التمدن مغازلة الغلمان وتسريهم ، وظهر ذلك على الخصوص في ايام الامين ، وتكاثر بتكاثر غلمان الترك والروم من ايام المعتصم وفيهم الأرقاء بالاسر او بالشراء . وتسابق الناس الى اقتنائهم كما تسابقوا الى اقتناء الجواري وغالوا في تزيينهم وتطييبهم . وكانوا يخصونهم ليأمنوا تعديهم على نسائهم وجواريهم . وفشا حب الغلمان في اهل الدولة بمصر وتغزل بهم الشعراء[٥] حتى غارت النساء من ذلك فعمدن الى التشبه بالغلمان في اللباس والقيافة ليستملن قلوب الرجال[٦] .

وكثرة الجواري في بعض القصور جرتهن الى التفنن في اساليب الفحشاء ، وربما اتخذت كل جارية خصياً لنفسها كالزوج ، كما فعلت جواري خمارويه صاحب مصر[٧] حتى النساء الشريفات فان قعودهن عن الزواج لعدم وجود الاكفاء او لاسباب اخرى كان يجرهن الى مثل ذلك فتكاثر الفساد فيهن لقلة التزويج[٨] ذكروا ان ابنة الاخشيد صاحب مصر اشترت جارية لتتمتع بها ، وبلغ المعز لدين الله الفاطمي ذلك — وكان لا يزال في الغرب يتحفز للوثوب على مصر ويخاف الفشل فلما بلغه ما فعلته ابنة الاخشيد استبشر وقال: « هذا دليل السقوط » وجند على مصر وفتحها ، والعفاف سياج العمران .

---

١ — الفرج بعد الشدة ١٤٣ ج ٢ . ٢ — ابن خلكان ١٢٧ ج ٢ ونفح الطيب ٨٦٠ ج ٢ .
٣ — ابن الاثير ٩٥ ج ١٠ و ٢١٥ ج ١١ والمقريزي ٣١٦ ج ١ .
٤ — المقريزي ٨٩ ج ١ . ٥ — تزيين الاسواق ١٦٣ .
٦ — المقريزي ١٠٤ ج ٢ . ٧ — ابن الاثير ٨٨ ج ٧
٨ — الفرج بعد الشدة ٦١ ج ٢ .

أبهة الدولة

أبهة الدولة

الأبهة: « العظمة والبهجة والكبر والنخوة »، ونريد بها مظاهر الدولة في أبهج أحوالها وأفخم أطوارها، والبحث فيها يتناول النظر في مجالس الخلفاء ومواكبهم وضخامة دولتهم وألعابهم وملاهيهم وملابسهم، وغير ذلك مما سنفصله. ولما كانت الدولة العباسية أسبق الدول الاسلامية الى تلك المظاهر وقدوتها فيها، رأينا أن نحصر كلامنا عن الأبهة في العصر العباسي، مع ما يقتضيه المقام من الاستشهاد بما عند الدول الأخرى فنقول :

مجالس الخلفاء

يختلف مجلس الخليفة شكلاً وأبهة باختلاف الدول، وفي الدولة الواحدة باختلاف أطوارها، وفي كل طور باختلاف المراد منها. فكانت مجالس الراشدين في المسجد او المنزل، يقعدون على حصير او جلد يلتفون بعباءة او نحوها، فيدخل عليهم الناس في حوائجهم ويخاطبونهم بأسمائهم، لا يستنكفون من ذلك ولا يرون فيه ضعة. واذا خرج أحد قوادهم للفتح مشى الخليفة لوداعه بلا حرس ولا بنود ولا طبول، وأوصاه بالتؤدة والصبر مع الرفق والعدل. وكان عمالهم في الأمصار على نحو ذلك، على أن العمال – نظراً لإقامتهم في مدن عمرها الفرس أو الروم مع ما رأوه من أحوال تينك الدولتين – كانوا أقرب الى مظاهر الأبهة، وكان الخلفاء اذا علموا بذلك أنبوهم كما فعل عمر لما علم أن سعد بن أبي وقاص أمير الكوفة اتخذ قصراً وجعل عليه باباً، فأرسل اليه رجلاً من خاصته وأمره ان يحرق الباب عليه ففعل.

ثم إن طبيعة العمران غلبت على تلك السذاجة، فتدرج الخلفاء والأمراء في مظاهر الأبهة واتخاذ الحجاب – بدأ ذلك معاوية بن أبي سفيان، وأعانه عليه أمراؤه في العراق ومصر، وعملوا مثل عمله وأشاروا عليه بضروب من الفخامة كان عليها ملوك تلك البلاد

قبلهم ، واقتدى بهم سائر خلفاء بني أمية . وزاد العباسيون أسباب الأبهة بمن قربوهم من الفرس ، فأدخلوا في الدولة كثيراً مما كان عليه الأكاسرة في مجالسهم وسائر أحوالهم ، فتعددت تلك المجالس وأصبحوا يجلسون مجلساً للحكم وآخر للمنادمة أو للمناظرة أو للمذاكرة أو غيرها ، ويختلف المجلس باختلاف ذلك فخامة وترتيباً .

على أن مؤسسي الدول قلما كانوا يجلسون لغير العمل والنظر في شؤون الدولة ، فمعاوية ابن أبي سفيان[١] وأبو جعفر المنصور[٢] كانا يوزعان ساعات النهار على ما لديهما من الأعمال من إدارة وسياسة ومفاوضة ومطالعة . أما في أواسط الدولة فتعددت المجالس ، والمراد هنا بالأكثر المجلس الذي كانوا يجلسونه للنظر في مصالح الدولة .

شكل المجلس وفرشه

قلنا أن الراشدين وعمالهم كانوا يجلسون في المساجد ، لأن الاسلام كان لا يزال غضاً ، فلما جعله الأمويون دولة جلسوا في قصور كانت للدول السابقة أو بنوا قصوراً لأنفسهم نصبوا بها الأسرة والكراسي ، وافترشوا الطنافس والمصليات والوسائد وعلقوا الستور وأقاموا الحجاب . فالأسرة أول من اتخذها معاوية ، قلد بها بطارقة الروم في الشام وكذلك الستور والطنافس ، وأما الكراسي فيظهر أنه قلد بها مرازبة الفرس لأن أول من استخدمها من الأمراء المسلمين زياد بن أبيه عامله على فارس [٣] فلعله نقلها الى الشام ، وقد يكون معاوية اقتبسها من الروم رأساً — وقس على ذلك سائر ما أدخلوه من مظاهر الأبهة من الطراز ونقش الأشعار في صدور المجلس ، وفرش الديباج والخز واصطناع الأسرة من الأبنوس أو الصندل أو العاج أو الذهب أو غيرها .

وبعد أن كانت مصالح الدولة تجتمع في بناء واحد اختصت كل منها بإدارة . وأصبح لبعض كبار الرجال إدارات خاصة بأعمال تشبه ما للخلفاء من إدارات الكتاب والحساب والأطباء وغيرهم [٤] وكان لمجلس الحكم في العصر العباسي داران ، دار خاصة ودار عامة ،

١ — المسعودي ٥١ ج ٢ . ٢ — ابن الاثير ١١ ج ٦ .
٣ — العقد الفريد ٤ ج ٣ . ٤ — طبقات الاطباء ١٣٠ ج ١ .

يجلس الخليفة في الأولى مع رجال الدولة أو من يفد عليه من كبار الأمراء او الملوك. وينظر في الثانية في سائر الشؤون ويعقد بها المجالس الاعتيادية .

والمجلس في إبان الحضارة كان ينعقد فيقاعة او بهو كبير، على جدرانه صور ممثلة بالذهب والفضة لما في البر والبحر من شجر أو حيوان أو جبال ، ويكسو أرضه بساط واحد أو عدة أبسطة من الديباج أو نحوه ، وفي أطراف البهو مناور من ذهب أو فضة توضع عليها الشموع [١] ويسبل على أبواب المجلس ونوافذه ستائر من الحرير أو غيره مطرزة بشارة الدولة أو بأشعار أو حكم أو آيات أو أحاديث أو رسوم مدن أو أنهر أو جبال وفي وسط القاعة سدة أو سرير يجلس عليه الخليفة [٢] يصنع من العاج أو الابنوس أو الصندل يحلى بالذهب . وقد غالى الفاطميون في النفقة على الأسرة حتى يدخل في الواحد منها ١١٠،٠٠٠ مثقال من الذهب الابريز الخالص [٣] وقد يجعل الخليفة بين يديه بعض التحف أو نحوها للزينة أو التشاغل بها . فالمعتمد الأندلسي كانوا يضعون أمامه في المجالس تماثيل عنبر من جملتها جمل مرصع بالذهب واللؤلؤ وجمل من بلور له عينان من ياقوت وقد حلي بنفائس الدر [٤] . ولما كان الخلفاء يحتجبون عن الناس كانوا يعلقون في وسط القاعة ستراً بينهم وبين الجلساء [٥] أو يستترون عنهم وراء شباك مخرم . على أن فرشهم يختلف في الشتاء عنه في الصيف ، فيضاف اليه في الشتاء مواقد النار يستجر فيها الند والعود ويلبسون الفراء اللائقة بالوقت على أشكالها [٦] .

مجالسة الخلفاء

الاستئذان في الدخول

كان الاستئذان على الخليفة في عصر الراشدين أن يقف الرجل بالباب ويقول : « السلام عليكم . أأدخل ؟ » يكرر ذلك ثلاثاً ، فان لم يؤذن له لم يعدها [٧] وربما أقام الراشدون

---

١ – العقد الفريد ١٠٨ ج ٣ . ٢ – طبقات الاطباء ١٤٢ ج ١ .
٣ – المقريزي ٣٨٥ ج ١ . ٤ – نفح الطيب ١١٢٨ ج ٢ .
٥ – الاغاني ٩٩ ج ٢ . ٦ – ترتيب الدول ١٢٣ .
٧ – العقد الفريد ٢١ ج ١ .

الحجاب لمنع الازدحام أو للاستئذان في بعض الأحوال . فلما انقضى ذلك العصر أقيم الآذنون والحجاب يتوسطون للناس في دخولهم على الخليفة بحسب طبقاتهم وفي أوقات معينة لكل طبقة من الجلساء أو الأدباء أو الشعراء أو غيرهم [١] أما في المجالس العامة فيقدمون الناس حسب مراتبهم .

وأول من رتب المراتب في الدخول على الخليفة زياد بن أبيه في العراق ، أشار عليه بذلك حاجبه عجلان ولعله اقتبسها من الفرس ، فجعل الإذن للناس على البيوتات ثم على الأسنان ثم على الآداب [٢] وصار ذلك سنة في الاستئذان على الخلفاء في عصر الأمويين ، فاذا استأذن جماعة في الدخول على الخليفة أو الأمير يؤذن أولاً لأشرفهم نسباً ، وإذا تساووا في النسب قدموا أكبرهم سناً ، فاذا تساووا في السن قدموا أكثرهم أدباً ، وظلت هذه القاعدة مرعية في سائر العصور الاسلامية .

وكانوا في ايام بني أمية وفي اوائل الدولة العباسية اذا وفد الناس على الخليفة او الامير وقفوا ببابه يلتمسون الاذن ، فاما ان يأذن لهم او يصرفهم ، فاذا صرفهم عادوا ثانية واذا لم يؤذن لهم هذه المرة عادوا ثالثة حتى يؤذن لهم او يملوا . ويعبرون عن ذلك بقولهم الاذن الاول والثاني والثالث الخ[٣] ثم جعلوا للوافدين على الخليفة منازل بجوار دار العامة يقيمون فيها ريثما يؤذن لهم . واول من فعل ذلك المنصور العباسي لما بنى بغداد ، فاتخذ في قصره بيوتاً للاذن فجرى الامر على ذلك في الدولة العباسية[٤] فكان الوافد يقيم ريثما يستريح ثم يستأذن . وقد يلتمسون اذناً لدخول القصر وآخر لدخول المجلس .

الدخول على الخليفة والسلام عليه

فاذا اذن لاحدهم بالدخول تقدم والقى التحية . وكانوا في اول الاسلام يحيون تحية عامة فيقول الداخل على الخليفة او الامير او الوالي : « السلام عليك » ويكرهون قولهم : « عليك السلام » لأنها تحية الموتى [٥] وقد يضاف الى التحية كنية الامير او الخليفة ، ولا يزيدون على ذلك . فلما خالطوا الاعاجم ، ورأوا تمييزهم بين الرئيس والمرؤوس ، هموا

---

١ — الاغاني ٦٠ ج ٥ . ٢ — العقد الفريد ٥ ج ٣ و ٢١ ج ١ .
٣ — الاغاني ٧٠ ج ٦ . ٤ — لطائف المعارف ١٤ .
٥ — العقد الفريد ٢٠٩ ج ٢ .

بتقليدهم . واول من قلدهم المغيرة بن شعبة فقال : « ينبغي ان يكون بين الامير ورعيته فرق » ، والزم اهل عمله ان يؤمروه اي يحيوه تحية الامراء وهي : « السلام عليك ايها الامير ورحمة الله وبركاته » [١] او « السلام على الامير ورحمة الله » ففعلوا واقتدى بهم سائر المسلمين، وميزوا الخلفاء بتحية الخلافة ، فصاروا يقولون عند الدخول على الخليفة : « السلام عليك يا امير المؤمنين ورحمة الله وبركاته » او « السلام على امير المؤمنين ورحمة الله[٢] وما زالت هذه تحيتهم حتى فسدت حضارتهم بالتملق ونحوه ، فقلدوا الدول الاخرى بالتعظيم ، وحظروا على الناس السلام على الخليفة لما فيه من تكليف الرد والجواب ، واقتصروا في تحيته على الخدمة والدعاء له والخدمة تختلف بين ان تكون بانحنـــاء الرأس والتطامن والبلوغ الى حد الركوع ، وما زاد عليه فهو سجود ولا يجوز لغير الله .

وربما قبلوا يد الخليفة عند التحية ، وكانوا في اوائل الاسلام يقبلونها عنــد البيعة او تجديد العطاء ، وعند العفو او الوداع . وكان الصحابة يفعلون ذلك مع النبي (صلعم) وظل متبعاً مع اكثر الخلفاء . ثم ترفع هؤلاء عن ان يلمس الناس اكفهم ، فصار التقبيل للأكام والعتبات على حسب الاقتدار . واذا اراد الخليفة تشريف احـد قواده منعه من تقبيل يده او كمه كما فعل المهدي مع مسلم بن قتيبة ، فجذب يده منه وقال : « نصونك عنها ولا نصونها عن غيرك » [٣] وقد يختلف ذلك باختلاف الناس واختلاف الدول وتباين الاحوال . فان جوهر القائد لما ودع مولاه المعز لدين الله عنـــد قدومه لفتح مصر انزل المعز اولاده لوداعه ، فنزلوا عن خيولهم ونزل اهل الدولة لنزولهم فقبل جوهر يد المعز وحافر فرسه [٤] . وعبد الله بن مالك صاحب شرطة المهدي كان خائفاً من الهادي لأنه سبه قبل خلافته ، فرأى منه رعاية وحلماً فلم يتمالك عن تقبيل يده ورجله وحافر دابته[٥] وكذلك فعل ابراهيم الموصلي فقبل حافر دابة الرشيد لأنه تنازل لزيارته[٦] وكان اهـــل الدين والنسك اذا دخلوا على الخليفة لا يخدمون مثل سواهم ، بـــل يدخلون عليهم السكينة والوقار .

---

١ - الاغاني ٣٥ ج ١٢ . ٢ - المقريزي ٢٨٨ ج ٢ .
٣ - ترتيب الدول ٦٠ و ٩ . ٤ - ابن خلكان ١١٩ ج ١ .
٥ - ابن الاثير ٤٢ ج ٦ . ٦ الاغاني ٩١ ج ٩ .

والداخلون على الخليفة يجلسون بالمواضع اللائقة بمراتبهم ، ويتولى اجلاسهم الحاجب او الآذن ، وكانت الرتبة الاولى بعد الخليفة في الدولة الاموية لبني أمية ، يجلسون على الاسرة وبنو هاشم على الكراسي . وأمـــا في الدولة العباسية فصارت الافضلية لبني هاشم ، وصاروا يسمونهم الملوك والاشراف ، فيجلس الخليفة على السرير او السدة ، ويجلس بنو هاشم على الكراسي ، ويقعد بنو امية اذا حضروا على الوسائد تثنى لهم [١] لكن الامويين قلما كانوا يحضرون مجلس بني العباس ، بعد ان نكبوهم وقتلوا معظمهم وما بقي منهم اسقطت مرتبته في ايام المستعين سنة ٢٥٠ ﻫ [٢] ويلي هؤلاء سائر طبقات الجلساء من اهل الدولة وغيرهم ، وتتفاوت مراتب هؤلاء وتتباين على مقتضى الاحوال مما لا حد له .

الآداب في مجالسة الخلفاء

كانت مجالسة الخلفاء في صدر الاسلام مثل مجالسة سائر الناس ، لما علمته من سذاجة الراشدين ، وكانوا يخاطبون الخليفة باسمـــه او كنيته ، فيقولون : يا عمر او يا معاوية او يا علي ، لا يرون بذلك بأساً . وكان الجلساء يتخاطبون ويتباحثون بلا احتراس ولا تهيب . لأسباب تقدم بيانها . فلما ضخم ملكهم وذهبت دهشة النبوة ، عمل الأمويون على التشبه بالدول المستبدة ، وأخذ الدهاة من عمالهم بتعظيم أمر الخليفة وتفخيم منصبه وتنزيه مجلسه عن مجالس سائر الناس . وأول من فعل ذلك زياد بن أبيه ، فوضع القاعدة « أن لا يسلم على قادم بين يدي الخليفة »[٣] ثم منعوا الكلام في حضرة الخليفة على الاطلاق ، وأول من منعه عبد الملك بن مروان . وتجبر الخلفاء بعد ذلك حتى منعوا الناس من مخاطبتهم كما كانوا يخاطبون أسلافهم ، وأول من تجبر الوليد بن عبد الملك ، فكلف الناس أن لا يكلموه كما كانوا يكلمون أسلافه ، وقال بعد كلام : « وإني أعطي الله عهداً يأخذني بالوفاء به لا يكلمني أحد بمثل ذلك إلا أتلفت نفسه ، فلعمري ان استخفاف الرعية براعيها سيدعوها الى الاستخفـــاف بطاعته والجرأة على معصيته » . وقال له رجل من بني مرة يوماً : « اتق الله يا وليـــد فان الكبرياء لله » فأمر به فوطىء حتى مات ، فاتعظ الناس وهابوه[٤] وهو أول من منع الناس أن يكاتبوه بما كانوا يكاتبون أسلافه أو يكاتبون بعضهم بعضاً .

---

١ – الاغاني ٩٢ ج ٤ .   ٢ – ابن الاثير ٥١ ج ٧ .
٣ – العقد الفريد ٦ و ٢١٨ ج ٢ .
٤ – لطائف المعارف ١٤ والبيان والتبيين ١٢ ج ٢ وابن الاثير ٢٥١ ج ٤ .

ثم صارت القاعدة المرعية في مجالسة الخلفاء أن لا يدعى لأحد في حضرتهم[١] ولا ينهض لداخل الا اذا نهض الخليفة – ثم صارت رسوم أرباب الدواوين كبارهم وصغارهم اذا كانوا في دواوينهم لا يقومون لأحد من خلق الله ممن يدخل عليهم [٢] فلا يتكلم أحد في مجلس الخلفاء الا اذا كلموه ، أي لا يبدأهم أحد بكلام . وجرت العادة أن يطلقوا الكلام للوافد عليهم بقولهم : «ما أنعمنا بك يا أبا فلان» وهي كلمة كانت تقولها العرب[٣] فيذكر الرجل ما جاء من أجله ، واذا لم يطلق له الكلام ظل ساكتاً .

وما زال ذلك سنة مرعية في مجالس الخلفاء ، حتى أباح المأمون الكلام لأهل مجلسه للمناظرة بين يديه [٤] واستمر ذلك بعده مع مراعاة الأحوال . أما مبادأة الخليفة بالكلام فأول من استطاعها أحمد بن أبي دؤاد وزير المعتصم [٥] . ولما استولى القواد على الأمور ضعفت هيبة الخلفاء وذهبت تلك الرسوم، حتى أبيح اللعب والضحك والهزل في مجالسهم ، وأول من أباحها المتوكل على الله في أواسط القرن الثالث للهجرة [٦] .

ومن آدابهم في ذلك المجلس أن لا يأمر فيه أحد غير الخليفة [٧] واذا نهض نهض سائر الحضور . وأن يصغي الجليس الى كلامه بكليته فلا يشتغل عنه بشيء. ومن لطيف مايروونه من هذا القبيل ان معاوية كان يحدث يزيد بن سحرة حديثاً ، وابن سحرة مصغ فصك جبينه حجر غائر فأدماه ، فجعلت الدماء تسير على وجهه ولحيته وثوبه ولم يتغير عما كان عليه من الاستماع ، حتى نبهه معاوية الى ذلك فأجابه : « إن حديث أمير المؤمنين ألهاني حتى غمر فكري وغطى على قلبي » فزاد معاوية عطاءه [٨] .

والخلفاء لا يعزون، وإنما يقتصر على الدعاء لهم بدوام الظفر والسعادة من غير تطويل. ولا يقال للخليفة كيف أصبح ولا كيف أمسى ، ولا يسأل عن حاله ولا يطنب في تحسين كلامه ولا افعاله ، ولا يستعاد منه الكلام او يستزاد ولا تحسن الاشارات في مجلسه ولا يغامز ، ولا يشتغل بحضرته بوداع راحل ولا سلام قادم [٩] ولا يليق ان يرد على الخليفة

---

١ – البيان والتبيين ٣٨ ج ٢ . ٢ – الفرج بعد الشدة ١٠٠ ج ١ .
٣ – ترتيب الدول ٩٢ . ٤ – الاغاني ٣٦ ج ١٤ والمسعودي ٢٥٧ ج ٢ .
٥ – ابن خلكان ٢٢ ج ١ . ٦ – المسعودي ٢٦١ ج ٢ .
٧ – العقد الفريد ١١١ ج ٣ . ٨ – المسعودي ١٥٧ ج ٢ .
٩ – ترتيب الدول ٦١ .

بلفظ « لا » فيحتال في التخلص منها [١] . وقد قالوا في الاحتراس في مخاطبة الملوك : « من أراد مصاحبة الملك فليدخل كالأعمى وليخرج كالأخرس » [٢] ومن أمثلة التأدب في مخاطبة الخلفاء ان عبد الملك بن صالح وجه الى الرشيد فاكهة في اطباق الخيزران وكتب اليه : « أسعد الله أمير المؤمنين وأسعدني به . إني دخلت الى بستان لي أفادنيه كرمك وعمرته لي نعمك ، قد أينعت أشجاره وآتت ثماره ، فوجهت الى أمير المؤمنين منه شيئاً على الثقة والامكان في أطباق القضبان ، ليصل الي من بركة دعائه مثل ما وصل الي من كثرة عطائه » فاستحسن الرشيد تكنيته عن الخيزران بالقضبان لأنه اسم أمه [٣] .

وكان الحديث يجري في مجلس الخليفة في أول الاسلام باللغة العربية الفصحى ، فيعربون الكلام ويضبطون حركات الألفاظ ، فمن لم يستطع ذلك من الخلفاء عدوه لحاناً . فكان الأمويون يرسلون اولادهم الى البادية يشبون فيها ليضبطوا الفاظهم ، وقد أحسنوا ذلك الا الوليد بن عبد الملك فان أباه لم يرسله الى البادية فنشأ لحاناً ، وكان أبوه يكره اللحن ومن أقواله : « اللحن في الكلام اقبح من التفتيق في الثوب والجدري في الوجه » ، ومنها : « تعلموا النحو كما تتعلمون الفرائض » . وكان يخاف اللحن اذا وقف للخطابة فيؤلمه ذلك ، وسأله سائل : « لقد عجل اليك الشيب يا أمير المؤمنين » فقال : « شيبني ارتقاء المنابر وتوقع اللحن » ، وكذلك كان سائر بني امية . وللوليد اخبار في اللحن مضحكة [٤] . وكان عمال بني امية مثل خلفائهم في المحافظة على الاعراب إلا الحجاج بن يوسف فقد كان يلحن احياناً [٥] فلما استعجمت الدولة في زمن بني العباس قلت عناية الناس بالاعراب ، وظهر غير واحد من الفقهاء والعلماء يلحنون في كلامهم ، كأبي حنيفة النعمان وابي عبيدة وغيرهما .

احتجاب الخلفاء عن جلسائهم

كان الخلفاء الراشدون يجالسون الناس ويخاطبونهم ولا يحتجبون عنهم ، ثم احتجب الامويون وجعلوا بينهم وبين الجلساء حجابا ، ووسطوا في حوائج الناس من يقضيها عنهم .

---

١ – ابن الجوزي ٣٦ و ٦٠ .
٢ – ترتيب الدول ٩٨ .
٣ – فوات الوفيات ١٣ ج ٢ .
٤ – العقد الفريد ٢٢٤ ج ١ والفخري ١١٢ .
٥ – ابن خلكان ٢٤٤ ج ١ .

واول من احتجب معاوية بعد محاولة البرك بن عبدالله الخارجي سنة ٤٠ ﻫ قتله غيلة ، وكان قد قعد له في المسجد فلما خرج ليصلي الغداة شد عليه بالسيف فجرحه ، فلما شفي بتنى هناك مقصورة يصلي فيها خوفاً من مثل ذلك، واحتجب عن الناس الا من اختصهم بالمجالسة ، واقتدى به الخلفاء بعده في اوائل دولتهم وكذلك الاوائل من بني العباس[١].

والحجاب كان شائعاً عند الفرس من عهد اردشير ، فكانوا ينصبون في مجلس الملك ستارة بينها وبينه عشرة اذرع وبينها وبين الجلساء عشرة اذرع ، فقلدهم العباسيون . ثم ضاعفوا الحجاب في بعض الاحوال، فاتخذوا عدة استار الواحد وراء الآخر الى ثلاثة او اربعة ، وفعل ذلك وزراؤهم البرامكة ايضاً[٢] وجعلوا لقصورهم عدة ابواب الواحد وراء الآخر[٣] .

كذلك كان شأن العباسيين ، من ابي العباس السفاح الى المتوكل ومن بعده، الا الهادي فانه لم يحتجب عن احد[٤] على انهم كانوا يحتجبون غالباً عن الندماء والمغنين وسائر طبقات العامة ، وليس عن الخاصة الا احياناً. فكانوا يقيمون عند الستارة حاجباً يسمونه صاحب الستارة ، يتـ[illegible] في نقل ما يريد الخليفة ابلاغه الى جلسائه او ندمائه ، واقتدى بالعباسيين غيرهم من الدول الاسلامية بمصر والاندلس .

علامة الصرف

واذا اراد الخليفة صرف جلسائه ابدى اشارة يعرفونها فينصرفون . وهي عادة فارسية وضعها كسرى انوشروان ، فكان اذا احب ان يصرف ندماءه مد رجله فينصرفون . وتابعه ملوكهم على ذلك ، فكان فيروز يدلك عينيه ، وبهرام يرفع رأسه الى السماء[٥] وقلدهم فيها المسلمون من ايام بني امية ، فكان معاوية اذا اراد صرف الناس قال : « اذا شئتم » او « العزة لله » وكان ابنه يزيد يصرفهم بقوله : « على بركة الله » . وعبد الملك كان يحمل خيزرانة فاذا القاها من يده عرف جلاسه انه يريد انصرافهم[٦]

---

١ — المسعودي ١٠٦ ج ١ .
٢ — الفرج بعد الشدة ٢٣ ج ٢ والمستطرف ١٦٤ ج ١ والاتليدي ١٢٣ .
٣ — الاتليدي ١١٥ . ٤ — الاغاني ١٦ ج ٥ .
٥ — حلبة الكميت ٢٦ .
٦ — البيان والتبيين ٦٠ ج ٢ والعقد الفريد ٢١٩ ج ١ .

وقس عليه سائر الخلفاء من بني اميـة وامرائهم ، فكان يزيد بن هبيرة اذا اراد صرف جلسائه دعا بمنديل فيقومون .

اما بنو العباس فقد كانت امارة السفاح منهم ان يتثاءب ويلقي المروحة من يـده (١) وكانت علامة المأمون ان يعقد اصبعه الوسطى بابهامه ويقول : « برق يمان برق يمان ! » ومن انصرف من حضرة الخليفة مشى القهقرى ووجهه نحو مجلسه حتى يتوارى .

مجالس الأدب والشعر

رغبة الخلفاء في الاطلاع

كان للخلفاء ميل شديد الى سماع الاخبار ، فيعقدون المجالس يحضرها الادباء من اهل الاخبار والنوادر والادب والشعر ، يحادثون الخليفة بما يلذ له سماعـه من اخبار العرب ونوادرهم واشعارهم . وكان الدهاة من الخلفاء والامراء مثل معاوية وهشام والمنصور وابن هبيرة (٢) يقيمون اناساً يتلون عليهم اعمال القواد والملوك من الروم والفرس ، واخبار الدول وحوادث الشجاعة والرأي ، يلتمسون بذلك التوسع في اسباب الدهاء وافانـين السياسة ، كما يفعل رجال اليوم بالاطلاع على تراجم العظماء .

على انهم كانوا يعقدون مجالس الأدب على الغالب لترويح النفس من مشاغل الدولة ، وتلذذاً بالاطلاع على آداب العرب واخبارهم ، فاختص بكل خليفة جماعة ممن عاصروه من اصحاب الاخبار والشعر ، يجالسونه في اوقات معينة او اذا دعـاهم في ساعة قلقه او ارقه . وقد يكون ذلك في اواسط الليل والناس نيام . فلا يزال الرجل ينتقل بحديثه من خبر الى نكتة الى نادرة الى شعر ، حتى يزول ما في نفس الخليفة وينشرح صدره وقد تفرغ جعبة المحدث مما يعلمه من الاخبار قبل ان ينشرح صدر الخليفة ، فيضع قصة من عند نفسه يبنيها على نكتة او حكمة مما يعلم ارتياح الخليفة له (٣) .

---

١ – الاغاني ٢٠٦ ج ١٨ .
٢ – ابن الاثير ١١ ج ٦ والمسعودي ٥١ ج ٢ وابن خلكان ٢٨٠ ج ٢ وسير الملوك ٢٢ .
٣ – المسعودي ١٦٣ ج ٢ .

احترام الخلفاء لأهل العلم

وكانوا يجلون أهل الأدب والعلم ويقربونهم ويبذلون لهم الأموال ويدافعون عنهم ، ولا سيما الرشيد والمأمون . وفيما يروونه عن الرشيد ومعاملته للعلماء أدلة عديدة على ذلك ، فكان كثير الملاطفة للأصمعي والإجلال له ، فاذا خلا به سأله واستفاد منه علماً وأدباً ، فيقول الرشيد عند ذلك : « هكذا وقرنا في الملا وعلمنا في الخلا » وكان يعطيه الجوائز الحسنة . وأكل أبو معاوية الضرير طعاماً مع الرشيد ، فلما قام ليغسل يديه تناول الرشيد الابريق وصب عليهما والرجل لا يعلم ، فقال له : « أتدري من يصب الماء على يديك ؟ » قال : « لا » قال : « أنا » قال : « أنت يا أمير المؤمنين؟ » قال : « نعم ، اجلالاً للعلم »[١] .

ناهيك بما وقع من البحث في مسألة الزنبور والنحلة بين سيبويه والكسائي ، وكيف انتصر الأمين للكسائي والمأمون لسيبويه ، وما جرى من الجدال في ذلك بحضرة الرشيد ، فأخذ الرشيد بناصر الكسائي في حديث طويل ذكرنا خلاصته في الجزء الثالث .

ومن أدلة إجلالهم للعلم أنهم كانوا يحرضون أبناءهم على تلقيه وحفظ الأشعار والأخبار ، ويعينون لهم المعلمين من نخبة العلماء المعاصرين . فالمنصور ضم الشرقي بن القطامي الى ابنه المهدي وأوصاه أن يعلمه أخبار العرب ومكارم الأخلاق وقراءه الأشعار[٢] والرشيد عهد بتعليم ابنه الأمين الى الأحمر النحوي ثم الى الكسائي وعهد بتأديب المأمون لليزيدي وسيبويه وغيرهما . وللرشيد وصية يقال أنه أوصى بها الأحمر المذكور لما عهد اليه بتأديب الأمين وهي :

« يا أحمر ، إن أمير المؤمنين قد دفع اليك مهجة نفسه وثمرة قلبه ، فصير يدك عليه مبسوطة وطاعته لك واجبة ، فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين : أقرئه القرآن ، وعرفه الأخبار ، وروه الأشعار ، وعلمه السنن ، وبصره بمواقع الكلام وبدئه ، وامنعه من الضحك الا في أوقاته ، وخذه بتعظيم مشايخ بني هاشم اذا دخلوا عليه ، ورفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه ، ولا تمرن بك ساعة الا وأنت مغتنم فائدة تفيده اياها من غير ان تحزنه فتميت ذهنه ، ولا تمعن في مسامحته فيستحلي الفراغ ويألفه ، وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة ، فإن أباهما فعليك بالشدة والغلظة »[٣] .

---

١ — سير الملوك ٧٩ . ٢ — المسعودي ١٨٠ ج ٢ وطبقات الاطباء ٢ ٤٢ .
٣ — ابن خلدون ٤٧٥ ج ١ والمسعودي ١٩٤ ج ٢ .

وعهد المأمون الى الفراء بتعليم ولديه النحو ، واتفق أن الفراء أراد أن ينهض ذات يوم الى حوائجه فابتدرا الى نعله ليقدماها له ، فتنازعا أيهما يقدمها ثم اصطلحا على أن يقدم كل منهما واحدة . فبلغ ذلك المأمون فاستدعاه ، فلما دخل عليه قال المأمون : « من أعز الناس ؟ » قال : « لا أعرف أحداً أعز من أمير المؤمنين » فقال : « بل من اذا نهض تقاتل على تقديم نعله وليا عهد المسلمين حتى يرضى كل واحد منهما أن يقدم له فرداً» فقال : « يا أمير المؤمنين لقد أردت منعهما عن ذلك، ولكن خشيت أن أدفعهما عن مكرمة سبقا اليها او كسر نفسيهما عن شريفة حرصا عليها [1] . وعهد المتوكل بتعليم أبنائه الى ابن السكيت [2] وتعلم عبد الله بن المعتز الأدب والعربية على المبرد وثعلب وأحمد بن سعيد الدمشقي [3] .

تقديم الشعراء

ويقال نحو ذلك في تقديمهم الشعراء ، فقد أجزلوا لهم الأعطية ، وعينوا لهم أوقاتاً يدخلون فيها عليهم كما قلنا في غير هذا المكان ، وكانوا يفرضون لهم مالا يدفعونه اليهم كل سنة على الوفدة أو القصيدة ، أو يعطونهم على البيت من الشعر مبلغاً معيناً . على أن مقامهم كان يعلو ويهبط تبعاً لامزجة الخلفاء وأغراضهم وأحوال السياسة . فمنهم من كان يبعد الشعراء بخلا كعبد الملك بن مروان وابنه الوليد [4]. ومنع عمر بن عبد العزيز الشعراء ورعا لاعتقاده أنه لا تصح اجازتهم من بيت المال ، وكان ذلك اعتقاد غير واحد من أبناء الصحابة كعبدالله بن الزبير وغيره . وكان المنصور بخيلاً على الشعراء اشتغالاً عنهم بتأييد الدولة . فكانوا يخرجون في ايامه من بغداد ويجتمعون ويتذاكرون أيامهم في الشام [5] على عهد بني أمية .

ولكن معظم الخلفاء كانوا يحبون الشعر ويقربون الشعراء ، وبعضهم تعلموا العروض ونظموا الشعر ولهم أبيات مشهورة . وكان الشعراء يتقربون الى الخلفاء أو الأمراء بالمديح، وقد يرتكبون أقبح الأكاذيب في هذا السبيل ، الا من لم ينتجع بشعره وهم قليلون ،

---

١ – طبقات الادباء ١٣٠ وابن خلكان ٢٢٨ ج ٢ .
٢ – طبقات الادباء ٢٣٨ . ٣ – فوات الوفيات ٢٤١ ج ١ .
٤ – الاغاني ١٥٨ ج ١٥ و ١١٩ ج ٢٠ .
٥ – الاغاني ٩١ و ١٠٢ ج ١٢ .

وكانت لهم منزلة رفيعة عند أهل الدولة [١] وأما سائر الشعراء فكانوا يتعيشون بالمدح او الهجاء . وقيل للحطيئة : « إياك وهجاء الناس » فقال : « إذاً يموت عيالي جوعاً . هذا مكسبي ومنه معاشي » [٢] وقد يمدح الشاعر الضدين رغبة في الكسب ، كما فعل ابن دأب فمدح معاوية وعلياً [٣] .

وكان الشاعر اذا دخل على الخليفة بقصيدة انشدها بصوت عـــال وهو قائم واذا تعدد المنشدون قدمهم على الاسنان . وكان الخلفاء يتفهمون معاني الشعر حتى انهم كثيراً ما كانوا يباحثون الشاعر في معنى البيت او الكلمة ، واذا استبطأوا الشاعر او الراوية بعثوا في استقدامه من العراق او الحجاز ، وقد لا يكون الغرض من ذلك إلا سماع بيت او قصيدة ، كما فعل الوليد بن يزيد في استقدام حماد من العراق لينشده قصيدة تغنيهـا مغنيته[٤] او لينظم له شعراً في حادثة جرت معه كما فعل الواثق لما غضبت عليه حظيته فاستقدم ابن الضحاك ليقول في ذلك شعراً [٥] وقد يجيزون من يأتيهم بشاعر يعجبهم ، كما اجـاز المهدي الفضل بن الربيع بعشرة آلاف دينـار وولاه حجابته لانه اتاه بابن جامع[٦] .

وكانوا لا يكتفون بمن يفـد عليهم من الشعراء للاستجداء ، فيرسلون في طلبهم الى الانحاء ، وارغب الخلفاء في ذلك الرشيد[٧] فتكاثر الشعراء ببابه حتى ضاقت بهم بغداد ، واضطروا الى امتحانهم وترتيبهم في الجوائز ، فعهد يحيى بن خالد بذلك الى شاعره ابان اللاحقي[٨] واصبح الخليفة اذا احب مجالسة الشعراء بعث رجـلاً يثق بـه ليختار له احسنهم[٩]او اذا عن له بيت او قصيدةخرج وصيف او حاجب او نحوهما فيقول للشعراء: « من منكم يقدر يقول قول فلان او يحفظ القصيدة الفلانية فليدخل وله كذا وكذا »[١٠] وكانوا يطربون للشعر ويستلذونه ، وربما تزاحفوا عن مجالسهم اعجاباً وطرباً [١١] .

---

١ - الاغاني ٧٩ ج ٢٠ .
٢ - الاغاني ٥٥ ج ٢ .
٣ - الاغاني ١٣٩ ج ٤ .
٤ - الاغاني ٦٥ ج ٢ .
٥ - الاغاني ١٧٨ ج ٦ .
٦ - الاغاني ٨٣ ج ٦ .
٧ - الاغاني ٧٤ ج ١٧ .
٨ - الاغاني ٧٣ ج ٢٠ .
٩ - الاغاني ٢ ج ١٢ .
١٠ - الاغاني ١٣٥ ج ١١ و ١٤١ ج ١٧ .
١١ - سير الملوك ٩٣ .

مجالس المناظرة والعلم

كانت مجالس الادب في ايام بني امية واوائل بني العباس يقتصر البحث فيها على المسائل الادبية والعلوم اللسانية كما تقدم ، فلما ترجمت علوم القدماء في العصر العباسي ونشأ علم الكلام شاعت المناظرة بين العلماء والفقهاء . وقد سبق الناس الى العناية في ذلك البرامكة ، فكان ليحيى بن خالد مجلس يجتمع فيه المتكلمون وغيرهم من اهل النحل ، يتباحثون في الكون والظهور والقدم والحدوث والاثبات والنفي وغيرها من الابحاث الفلسفية المبنية على علم الكلام [1] .

ثم اهتم الخلفاء انفسهم في ذلك ، ولا سيما بعد ان ظهر القول بخلق القرآن وقام به المأمون ، فأخذ يعقد المجالس للمناظرة فيه وفي سواه ، وعين لذلك يوم الثلاثاء من كل اسبوع . فاذا حضر الفقهاء ومن يناظره من سائر اهل المقالات ادخلوا حجرة مفروشة وقيل لهم : « انزعوا اخفافكم » ثم احضرت الموائد وقيل لهم : « اصيبوا من الطعام والشراب وجددوا الوضوء ، ومن كان خفه ضيقاً فلينزعه ، ومن ثقلت عليه قلنسوته فليضعها » . فاذا فرغوا اتوا بالمجامر فتبخروا وتطيبوا ثم خرجوا ، فاستدناهم الخليفة حتى يدنوا منه ويناظرهم احسن مناظرة والطفها وابعدها من مناظرة المتجبرين . فلا يزالون كذلك الى ان تزول الشمس ، ثم تنصب الموائد ثانية فيطعمون وينصرفون[2] وسار الواثق على خطواته في هذا السبيل . وكانوا يعقدون هذه المجالس كلما دعت الحاجة الى اثبات رأي او مذهب جديد .

ولما استقرت الدولة الفاطمية بمصر فعل وزيرها يعقوب بن كلس مثل ما فعل يحيى البرمكي وزير العباسيين ، فأنشأ مجالس للمناظرة في الفقه والادب والشعر وعلم الكلام وغيره ،وغرض هذه الدولة اثبات مذهب الشيعة لأن دولتهم قامت عليه .فأخذ الحاكم بأمر الله يفاوض العلماء ويجيزهم ، ويسهل عليهم البحث والمناظرة في دار الحكمة التي انشأها في القاهرة [3] وربما عقدوا حلق المناظرة في الجوامع او غيرها .

---

١ – المسعودي ٢٠٢ ج ٢ وابن خلكان ٤٨٠ ج ١ .

٢ – المسعودي ٢٣١ ج ٢ وابو الفرج الملطي ٢٣٦ .

٣ – الجزء الثالث من هذا الكتاب .

وصارت تلك المجالس عامة في الدولة التي خلفت الدولة العباسية او تفرعت منها ، واكثر العقلاء والاقوياء من الملوك والسلاطين كانوا يعقدونها للمناظرة — كذلك فعل صلاح الدين الايوبي وسيف الدولة الحمداني ونظام الملك وزير ملكشاه والحكم المستنصر الاندلسي . واقتدى بهم اهل العلم والوجهاء والاطباء ، واطلقت حرية البحث في كل شيء . ومن اشهر مجالس المناظرة مجلس كان يعقده يوحنا بن ماسويه في بغداد ، فيحضره العلماء على اختلاف طبقاتهم من الفلاسفة والاطباء والادباء والمتكلمين وغيرهم[١] ومجلس ابي حامد الاسفراييني كان يحضره ٣٠٠ فقيه . وقس عليهما مجلس ابن المنجم وكان يعقده بحضرة المكتفي[٢] .

مجالس الغناء والأنس

منزلة المغنين

تقدم الكلام في تاريخ الغناء وأصله وانتشاره ، وقد رغب الخلفاء فيه على الخصوص في إبان الحضارة وعصر الرخاء والترف ، وجعلوا للمغنين نوبات يدخلون فيها مجالسهم [٣] وفرضوا لهم الرواتب كما فرضوها للشعراء ، وعهدوا بهم الى بعض اهل البلاط او الحاشية ينظرون في أمورهم [٤] . وكانوا يصطحبونهم في خروجهم للصيد او نحوه ويجيزونهم [٥] الجوائز الكبرى وهم اقرب الى ذلك من الشعراء لما يتفق في مجالسهم من طرب الخلفاء ، لأنهم قلما كانوا يسمعون الغناء من غير شراب ، فاذا طربوا بذلوا الأموال بلا حساب كما تقدم .

ومن أكثر الخلفاء الأمويين رغبة في الغناء وبذلاً للمغنين يزيد بن عبد الملك ، الذي

---

١ — طبقات الاطباء ١٧٥ ج ١ وابو الفرج الملطي ٢٢٧ .
٢ — ابن خلكان ٢٣٥ ج ٢ .
٣ — الاغاني ٩ ج ١٣ .   ٤ — ابن الاثير ٦١ ج ٨ .
٥ — الاغاني ١١١ ج ٥ .

استخفه الطرب من غناء جاريته حبابة حتى قال: « أريد أن أطير ! ». فقالت له حبابة : « على من تدع الأمة وتدعنا ؟ »(١) وكذلك كان ابنه الوليد بن يزيد. ومن الخلفاء العباسيين المهدي والرشيد والأمين والمأمون والواثق والمتوكل ومن نبغ في أيامهم من الوجهاء والعظماء .

على أنهم كانوا اذا أهمهم أمر الدولة وخافوا سقوطها أبعدوا المغنين ليتفرغوا لمهامهم ، كما فعل المأمون لما رجع من خراسان (٢) . وكان لكبار المغنين منزلة رفيعة في الدولة كإبراهيم الموصلي وابنه اسحق وابن جامع ، وكانت جوائزهم من الخلفاء تفوق الحصر ، ذكروا عن ابراهيم المذكور أنه غنى للأمين بشعر أبي نواس :

رشأ لولا ملاحته ... خلت الدنيا من الفتن

فاستخفه الطرب حتى وثب من مجلسه وركب على ابراهيم وجعل يقبل رأسه ! فنهض ابراهيم وأخذ يقبل أخمص قدمي الأمين وما وطئتا من البسط ، فأمر له بثلاثة آلاف درهم ، فقال ابراهيم : « يا سيدي قد أجزتني الى هذه الغاية بعشرين الف الف درهم » فقال الأمين : « وهل ذلك الا خراج بعض الكور؟ » (٣) فاعتبر ما دخل على الموصلي من الرشيد وغيره. فلا غرو اذا توفي عن ثروة طائلة . واشتهر في الأندلس علي بن نافع المعروف بزرياب المغني وهو الذي نقل هذه الصناعة الى الأندلس ، فقد أثرى وارتفعت منزلته حتى صار يركب في ٢٠٠ غلام ويملك ٣٠٠٠٠ دينار غير الخيل والضياع والرقيق (٤) .

المضحكون والمجانون

ومن توابع مجلس الغناء المضحكون والمجانون ، أشهرهم أشعب في دولة بني أمية وأبو الحسن الخليع الدمشقي في أيام الرشيد وأبو العبر في أيام المتوكل وغيرهم كثيرون . فكانوا اذا عقدت مجالس الأنس ودارت الأقداح وطرب الخليفة لبسوا ملابس مضحكة

---

١ – المسعودي ١٢٦ ج ٢ . ٢ – الفرج بعد الشدة ٨٧ ج ١ .
٣ – العقد الفريد ١٩٥ ج ٣ . ٤ – الاغاني ١٣٢ ج ١

يقلدون بها الدب او القرد ، يعلقون في أعناقهم الجلاجل والأجراس مما يضحك الثكلى ، وكان بعض الخلفاء اذا استخفهم الطرب كلفوا هؤلاء المجانين ما لا يطاق من ضروب العذاب وهم يتلذذون بعذابهم ، فالمتوكل كان اذا طرب أمر بأبي العبر المجان ان يرمى به في المنجنيق الى الماء وعليه قميص حرير ، فاذا علا في الهواء صاح : « الطريق الطريق ! » ثم يقع في الماء فيخرجه السباح . وكان يجلس أحياناً على الزلاقة فينحدر فيها حتى يقع في البركة ، ثم يطرح الخليفة الشبكة فيخرجه كما يخرج السمك [1] وكان الأمين اذا طرب صاح في ندمائه وجلاسه : « من يكون منكم حماري ؟ » فكل واحد يقول : « أنا ! » فيركب لواحد ويصله [2] وكان يقع في مجالس الوليد بن يزيد من السكر والفحش في القول والفعل ما نتحاشى ذكره . وقد أفرط الخلفاء في التبسط في العيش والتمتع بالملذات ، ولذلك كانوا قصار الأعمار فمات أكثرهم قبل سن الكهولة .

---

١ – الاغاني ٩٢ ج ٢٠ . ٢ – الاغاني ٢٠٣ ج ٦ .

مواكب الخلفاء

نريد بالموكب الاحتفال بخروج الخليفة او السلطان او الامير في عيد او غير عيد، وهو من مقتضيات الابهة والمدنية . وكانت المواكب معروفة عند ملوك العرب في الجاهلية ، فكان لمعد يكرب عبيد من الأحباش يمشون بين يديه بالحراب [1] فلما جاء الاسلام تزهد اصحابه من التقوى ، فكان الخلفاء الراشدون يركبون في خروجهم كسائر الناس . وكان ابو بكر في اول خلافته يقيم في السنح بضاحية المدينة ويغدو كل يوم على رجليه الى المدينة وقد يركب فرسه . وكان يغدو الى السوق فيبيع ويبتاع ، وله قطعة غنم تروح عليه وربما خرج هو بنفسه فيها منفرداً . وكان عمر يخرج في الاسواق ماشياً ويسوءه ان يركب عماله وامراؤه ركوب الفرس والروم . وفد على الشام اربع مرات جاءها في المرة الاولى على فرس ، وفي الثانية على بعير ، وفي الثالثة على بغل ، وفي الرابعة على حمار . وبعث في احدى خطراته الى امرائه ان يوافوه في الجابية ، فكان اول من لقيه يزيد بن ابي سفيان وابو عبيدة ثم خالد على الخيول عليهم الديباج والحرير ، فنزل واخذ الحجارة ورماهم بها [2] فقس على ذلك سائر الراشدين .

مواكب الخلفاء في ابان التمدن

على ان اتخاذ الآلة والاعوان في المواكب انما بدأ به العمال في الامصار ، لقربهم من حضارة الفرس والروم ، فاتخذوا الطبول والاعلام والحرس وغيرها من شارات الدولة واسبقهم الى ذلك معاوية ، فأقام حراساً يرفعون الحراب بين يديه ، او يقفون بالسيوف

---

١ — المسعودي ١٩٧ ج ١ .

٢ — ابن الاثير ٢٤٦ ج ٢ والعقد الفريد ٢٣٦ ج ٢ .

عند المقصورة التي يصلي فيها خوفاً من الاغتيال [١] واقتدى به عماله ، وبعضهم سبقه الى مثله ، فاتخذ زياد ابن ابيه رجالا يمشون بين يديه بالاعمدة [٢] او بالحربة . واصبح ذلك قاعدة في المسير بين يدي الخليفة ، ثم صار المسير بالحربة خاصاً بولي العهد او بكبار العمال ، يحملها رجل راكب على جواد يتقدم الخليفة او الامير ، فجرى على ذلك الخلفاء العباسيون [٣] .

وفي ايام المتوكل جاء بعضهم بحربة كانت للنبي (صلعم) تسمى العنزة واصلها للنجاشي ، فأهداها للزبير بن العوام فأهداها الزبير للنبي (صلعم) وكانت تركز بين يديه في العيدين ، ثم اتصلت بذلك الرجل فحملها الى المتوكل ، فكان صاحب الشرطة يحملها بين يديه [٤] اذا خرج في موكبه .

وتدرجوا في الابهة بتدرجهم في اسباب المدنية واتساع السلطة ، حتى اصطنعوا المحامل او القباب او المحفات يحملون بها بدل الركوب على الخيل ، ثم صاروا يركبون والناس يمشون بين ايديهم . واقدم من فعل ذلك الاشعث بن قيس سيد اهل اليمن ، فكان يركب والناس يمشون بين يديه [٥] ثم صاروا يمشون بين يدي الخلفاء بالسلاح ، واول من فعل ذلك الهادي العباسي ، فكان اذا ركب مشت الرجال بين يديه بالسيوف المرهفة والاعمدة المشهورة والقسي الموتورة [٦] فلما خلفه الرشيد تجاوزه فاتخذ خدماً صغاراً يسمونهم النمل يتقدمونه وبأيديهم قسي البندق يرمون بها من يعارضه من الناس [٧] ثم صار ذلك سنة جرى عليها الوزراء والامراء ، واول وزير مشى ارباب الدولة بين يديه رجالة الحسن بن علي وزير المسترشد [٨] وكانوا الى ذلك الحين يركبون بالحلية الخفيفة الفضية والسروج المكسوة بالديباج ، ثم ركبوا في حلية الذهب ، واول من ركب بها المعتز العباسي المتوفي سنة ٢٥٥ ﻫ فجرى الناس على ذلك .

اما في مصر فالخلفاء الفاطميون قلدوا العباسيين في مواكبهم على جاري العادة في سائر اسباب المدنية ، وزادوا عليهم الركوب بالمظلة والشمسية ، ولعلهم نقلوا هذه العادة

---

١ – الفخري ٩٧ . ٢ – لطائف المعارف ١٢ والعقد الفريد ٤ ج ٣ .
٣ – البيان والتبيين ١٥ ج ٢ وابن الاثير ٣٩ ج ٦ والمقريزي ٣٠٧ ج ١ .
٤ – ابن الاثير ٣٢ ج ٧ . ٥ – لطائف المعارف ١٢ .
٦ – المسعودي ٣٦٥ ج ٢ . ٧ – الاغاني ٩٤ ج ٢٠ .
٨ – الفخري ٢٧٢ .

من المغرب لانها كانت جارية هناك قبل الاسلام ، فكان الناس يظللون حكامهم بريش الطواويس (١) فاتخذها الفاطميون من الديباج او الخز المحلى بالذهب والمرصع بالجوهر وحولها الاعلام تختلف الوانها باختلاف الاحوال .

وكان السلاجقة يركبون بالطبل والبوق والعلم وبالجتر على رؤوسهم ، وهو كالقبة الصغيرة مرتفعة في الهواء على رمح يحمله من يسير قرب الملك بحيث يظلله من الشمس ، ويتخذونه من الديباج او الحرير المذهب (٢) .

على ان تلك المواكب تختلف فخامة وشكلا باختلاف المقصود منها وباختلاف الدول ، اهمها موكب الخروج الى الحج او الى بلد آخر . ومواكب الاعياد وهي تمتاز بمن يقف للخليفة في خروجه من صفوف الجند . واول من صفت له الجنود يزيد بن الوليد الاموي ، فكان يخرج يوم العيد بين صفين عليهم السلاح (٣) .

وللخلفاء مواكب كثيرة لو اردنا الاتيان عليها كلها لضاق المقام ، ولكننا نقول بالاجمال انهم كانوا يخرجون على الخيول او في القباب ، وحولهم الاعوان ركوباً والشرطة مشاة ، وكذلك الغلمان على اختلاف طبقاتهم يلبسون مناطق الذهب او يحملون المقارع او الطبرزينات المحلاة بالذهب ، ويقف الناس او الجند في الطريق صفين يسير الموكب بينهما ، ويختلف طول هذا الموكب باختلاف ما يريدونه من اظهار الابهة . وقد بلغ طوله في خروج المتوكل على الله اربعة اميال ترجل فيها الناس بين يديه (٤) واذا كان المسير الى مكان بعيد ضربوا القباب العظيمة في الطريق (٥) يستظل الخليفة بها او يقيم فيها .

وكان الخلفاء الفاطميون يركبون يوم الجمعة الى الجامع الازهر بالمظلة المذهبة وبين ايديهم نحو ٥٠٠٠ ماش ، وعلى الخليفة الطيلسان والسيف وبيده قضيب الخلافة ، حتى يأتي الجامع ويصلي ، ولهم رسوم كثيرة يجرونها قبل الصلاة . واذا خرجوا للمبايعة او الاحتفال لفتح الخليج ركب الخليفة وعليه العمامة الجوهر (٦) وثوب يقال له البدنة كله

---

١ – الاغاني ٥٩ ج ٦ . ١ – ترتيب الدول ١٠٣ .
٣ – ابن الاثير ١٤٧ ج ٥ .
٤ – ابن الاثير ٣٦ ج ٧ والاغاني ٣٢ ج ٩ وابن خلكان ٣٨٠ ج ٢ .
٥ – فوات الوفيات ٤ ج ٢ . ٦ – المقريزي ٢٨٠ و ٢٨٥ ج ٢ .

ذهب وحرير مرقوم والمظلة من شكله ، وبـــين يدي الخليفة الجنائب عليها السروج الذهب المرصع بالجوهر والسروج العنبر والقباب الديباج بالحلي ، والعسكر على ازيائه من الاتراك والديلم والعزيزية والاخشيدية والكافورية بالديباج الثقيل والمناطق المذهبـــة ، وبين يديه الفيلة عليهـــا الرجالة بالسلاح والزراقة ، وفوق الخليفة المظلة الثقيلة بالجوهر وبيده قضيب الخلافة ، ويمشي امامه اصحاب الابواق الذهب فأبواق الفضة فالنحاس ، واصحاب الطبول الكبار التي مكان خشبها فضة ، والالوية تخفق فوق ذلك الموكب .

احتفـــالاتهم

الاحتفالات الدينية

والاحتفالات في التمدن الاسلامي بعضها ديني كالموالد والاعياد والكسوة ، وبعضها وطني كالنيروز والمهرجان وشم النسيم وفتح الخليج . على ان الاحتفالات الدينية انمـــا اتخذوا اسلوب الاحتفال بها من غير المسلمين ، كما اتخذ النصارى بعض طقوس الاحتفال باعيادهم من الوثنيين . ولا يزال الاحتفال بالاعياد الاسلامية شائعاً الى الآن مع تغيير اقتضاه الفرق بين التمدنين . واكثر الدول الاسلامية عناية بهذه الاعياد الفاطميون. منها: يوم عاشوراء ، والمولد النبوي ، ومولد علي وفاطمة ، الحسن والحسين ، والخليفة الحاضر ، وليلة اول رجب ، وعيد النحر ، وعيد الفطر ، وفتح الخليج ، ويوم النيروز ، وغيرها مما فصله المقريزي في خططه[1] ولهم في كل من هذه الاعياد رسوم وقواعد يبذلون فيها الاموال ويفرقون الصدقات ويهدون الهدايا من النقود والثياب والحلي وغيرها مما يطول شرحه.

وممن اشتهرت عنايته بالاحتفالات الدينية مظفر الدين صاحب اربل ، وكان احتفاله بالمولد النبوي بالغاً حد النهاية في الابهة ، والمشهور انه اول من احتفل بـــه على الصورة المعروفة اليوم[2] وكذلك السلطان ابو حمو موسى صاحب تلمسان[3] — هذا غـــير احتفالاتهم الاجتماعية كالاعراس والمآتم والختان ونحوها ، والسياسية كاستقبال الوفود والمبايعة والتتويج والخلع ، فنذكر امثلة منها فيما يلي :

---

١ — المقريزي ٤٩٠ ج ١ . ٢ — ابن خلكان ٤٣٦ ج ١ .
٣ — نفح الطيب ٦٠٤ ج ٤ .

احتفالات الاعراس ونحوها

فالاحتفال بالاعراس تقلب على احوال شتى ترجع الى نحـــو المشهور من الاحتفال بأعراس المسلمين في مصر الآن ، مع اعتبار عوائد البلاد وتفاوت الثروة . ونـــأتي بمثال من ابلغ ما يعرف من التناهي بالبذخ في مثل هذه الحـــال ، فنذكر احتفالين اشتهرا في تاريخ الاسلام :

الاول : زفاف خديجة بنت الحسن بن سهل المسماة بوران الى الخليفة المأمون ، احتفلوا به في « فم الصلح » احتفالا لم يسبق له مثيل ، نثر الحسن فيه على الهاشميين والقـــواد والكتاب والوجـــوه بنادق المسك فيها رقاع بأسماء ضياع واسمـــاء جوار وصفات دواب وغير ذلك . فكانت البندقة اذا وقعت في يد الرجل فتحها فيقرأ ما في الرقعة ، فاذا علم ما فيها مضى الى الوكيل المرصد لذلك فيدفعها اليه ويتسلم ما فيهـا ، سواء كان ضيعة او ملكاً آخر او فرساً او جـارية او مملوكاً . ثم نثر على سائر طبقات الناس الدنانير والدراهم ونوافج المسك وبيض العنبر ، غير ما انفقه على المأمون وقواده واصحابه وسائر من كان معه من اجناده واتباعه ، وكانوا خلقاً لا يحصى حتى على الحمالين والمكارية والملاحين وكل من ضمه عسكره ذكروا أنه خدم في ذلك الاحتفال ٣٦٫٠٠٠ ملاح ونفد الحطب يوماً فأوقدوا تحت القدور الخيش مغموساً في الزيت . ولما كانت ليلة البناء وجليت بوران على المأمون فرش لهـــا حصير من الذهب ، وجيء بمكتل مرصع بالجواهر فيه درر كبار نثرت على النساء وفيهن زبيدة وحمدونـــة بنت الرشيد فما مست احداهن من الدر شيئاً . فقال المأمون : « شرفن أبا محمد واكرمنه » فمـدت كل واحدة منهن يدها فأخذت درة ، فبقي سائر الدر يلوح على ذلك الحصير الذهب ويتلألأ فقـــال المأمون : « قاتل الله الحسن بن هانيء » ، وكأنه قد رأى هذا حيث يقول :

كأن صغرى وكبرى من فقاقعها ... حصباء در على أرض من الذهب

وكانت في المجلس شمعة عنبر فيها مائة رطل ، فضج المأمون من دخانها فعملت له مثل من الشمع فكان الليل مدة مقامه فيه كالنهار . وبلغت نفقة هذا الاحتفال ٥٠٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم ، وأمر المأمون للحسن بن سهل عند منصرفه بمبلغ ١٠٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم وأقطعـه فم الصلح ، فجلس الحسن وفرق المال على قواده وأصحابـــه وحشمه ، وأطلق له خراج فارس وكور الأهواز مدة سنة . وجـاء المـأمون الى عروسه في الليلة التالية فنثرت عليه جدتها ألف درة كانت في صنية ذهب [1] وغير ذلك مما يفوق طور التصديق .

---

١ – لطائف المعارف ٧٣ وابن خلكان ٩٣ ج ١ .

والاحتفال الثاني أقامه المتوكل على الله حين ظهر ابنه المعتز بالموضع المعروف ببركوارا، ومما جرى فيه أنه جلس بعد فراغ القواد والأكابر من الأكل ومدت بين يديه مرافع ذهب مرصعة بالجوهر ، وعليها أمثلة من العنبر والند والمسك المعجون على جميع الصور ، وجعلت بساطاً ممدوداً . وأحضر القواد والجلساء وأصحاب المراتب، فوضعت بين أيديهم صواني الذهب مرصعة بأصناف الجواهر من الجانبين وبين السماطين فرجة . وجاء الفراشون بزنابيل قد غشيت بالأدم مملوءة دراهم ودنانير نصفين ، فصبت في الفرجة حتى ارتفعت على الصواني، وأمر الحاضرون أن يشربوا وأن يتنفل كل من شرب من تلك الدنانير بثلاث حفنات مما حملت يده ، وكلما خف موضع صب عليه من الزنابيل حتى يرد الى حالته . ووقف غلمان في آخر المجلس فصاحوا : « إن أمير المؤمنين يقول لكم : ليأخذ من شاء ما شاء ! » فمد الناس أيديهم الى المال فأخذوه ، وكان الرجل يثقله ما معه فيخرج به فيسلمه الى غلمانه ويرجع الى مكانه . ولما تقوض المجلس خلع على الناس الف خلعة ، وحملوا على الف مركب بالذهب والفضة وأعتق الف نسمة [١] .

وقس على ذلك احتفال الخليفة المقتدي بالله سنة ٤٨٠ هـ لما زفت اليه بنت السلطان ملكشاه وحمل جهازها الى دار الخلافة [٢] وأما الاحتفال بتتويج السلاطين والبيعة فقد ذكرنا أمثلة منه في الجزء الأول من هذا الكتاب .

الخلع على الوزراء

ومن مظاهر الأبهة احتفالهم بالخلع على الوزراء والسلاطين ، وأول من خلع عليه جعفر البرمكي في اليوم الذي تولى الرشيد الخلافة فيه ، وكان في جملة ما خلعه عليه ١٠٠ بدرة دراهم ودنانير ، وأمر الناس فركبوا اليه حتى سلموا عليه وأعطاهم خاتم الملك ليختم به على ما يريد [٣] وحذا حذو الرشيد من جاء بعده فخلعوا على وزرائهم وعمالهم خلعاً تختلف شكلاً وقدراً باختلاف الأحوال ، ومعها في كل حال ثوب يرسله الخالع ويلبسه المخلوع عليه يقال له الخلعة . فالخليفة العاضد الفاطمي لما ولى السلطان صلاح الدين الأيوبي الوزارة بمصر لقبه الملك الناصر ، وخلع عليه خلعة مؤلفة من عمامة بيضاء تنيسي بطرف ذهب وثوب ديبقي بطراز ذهب وجبة بطراز ذهب وطيلسان مطرز ذهب، وعقد جوهر بعشرة آلاف دينار وسيف محلى بخمسة آلاف دينار وحجرة بثمانية آلاف دينار عليها سرج

---

١ – لطائف المعارف ٧٤ .   ٢ – ابن الاثير ٦٥ ج ١٠ .   ٣ – المقريزي ٩٩ ج ٢ .

ذهب وسرسار ذهب مجوهر ، وفي رأسها مائتا حبة جوهر وفي قوائمها أربعة عقود جوهر وفي رأسها قصبة بذهب وفيها شدة بياض بأعلام بيض . ومع الخلعة عـــدة بقج وخيل وأشياء أخرى ومنشور الوزارة مكتوب في ثوب أطلس أبيض [١] .

ولما نقلت الخلافة العباسية الى مصر خلع الخليفة العباسي على السلطان الملك الظاهر بيبرس يومئذ خلعة ألبسه اياها باحتفال ، هي عبارة عن جبة سوداء وعمامة سوداء وطوق في عنقه من ذهب وقيد في رجله من ذهب [٢] . وقس على ذلك .

استقبال الوفود

أما استقبال الوفود فقد كان فخيماً يظهرون فيه عز الإسلام، ولا سيما اذا كان القادمون من وفود الدول غير الاسلامية من الروم او الفرس او الهند او الافرنج . والاحتفال بذلك يختلف باختلاف الأحوال ، نذكر من أمثلته احتفال المقتدر العباسي برسل جاءوه من ملك الروم سنة ٣٠٥ هـ فانه استقبلهم في « دار الشجرة » التي تقدم ذكرهـــا وعبى لهم الجيوش ، وصفت الدار بالأسلحة وأنواع الزينة ، وكانت جملة العساكر المصفوفة حينئذ ١٦٠،٠٠٠ رجل بين راكب وواقف. ووقف الغلمان الحجرية بالزينة والمناطق المحلاة وكانوا اثنين وعشرين الفاً . ووقف الخدم والخصيان كذلك وعددهم سبعة آلاف ، منهم ٤٠٠٠ خادم ابيض و ٣٠٠٠ خادم اسود . ووقف الحجاب وكانوا سبعمائة حاجب ، وزينت المراكب والزوارق في دجلة اعظم زينة . وزينت دار الخلافة، وكانت جملة الستور المعلقة عليها ٣٨،٠٠٠ ستر منها ديباج مذهب ١٢،٥٠٠ ستر ، وكانت جملة البسط ٢٢،٠٠٠ بساط . واستعرضوا مائة سبع مع مائة سبع . وكان في جملة الزينة الشجرة الذهب والفضة التي تشتمل على ثمانية عشر غصنا من الذهب والفضة ، فكانت اغصانها تتمايل بحركات موضوعة وعلى الاغصان طيور وعصافير مختلفة من الذهب والفضة تصفر بحركات مرتبة كما وصفناها في محلها . فشاهد الرسل من العظمة ما يطول شرحه [٣] .

---

١ – السيوطي ٢٥ ج ٢ . ٢ – السيوطي ٥٨ ج ١ .
٣ – ابو الفدا ٧٣ ج ٢ وابن الساعي ٧٥ .

الخلفاء والدول المعاصرة

هب العرب للفتح والعالم قد تضعضع واهله في خمول ، فبغتوهم وفتحوا بلادهم في بضع عشرة سنة على اسلوب لم يسبق له مثيل . فلما افاقوا ارادوا ردهم فعجزوا عنه ، ومـــا لبثوا ان شاهدوا تمدنهم وعمران مملكتهم واشتغالهم بالعلوم والفنون والصناعة والتجارة والرحلة والسياحة ، فهابوهم واخذوا يتقربون اليهم بالوفود والهدايا الى المدينة فدمشق ، ثم اصبحت بغداد مجتمع الوفود القادمين من اطراف العالم من الهند والصين شرقاً الى اعالي آسيا واواسط اوربا شمالا الى اقصى افريقيا غرباً والبحر الهندي جنوباً . وصارت البصرة مركز التجارة البحرية في الشرق وملتقى السفن القادمة من اقاصي البحور .

الاسلام في تاريخ الصين

المشهور ان الاسلام لم يذكر ظهوره وانتشاره غير اصحابه ، ولم يدون اخباره غير اهله ، حتى الروم مع ما كان من مدنيتهم يومئـــذ لم يكتب المعاصرون منهم شيئاً عن الاسلام او المسلمين . ولكن الباحثين عثروا في الكتب الصينية على خبر الاسلام وانتشاره الى استقلال معاوية بالخلافة لنفسه ، فقيام ابي مسلم الخراساني ونقله الدولة الى العباسيين وغير ذلك فقرأوا اسماء محمد وقريش ومعاوية وابي العباس وابي جعفر وغيرهما من رجال الاسلام مكتوبة بالاحرف الصينية . ومما جاء هناك ان ابا جعفر ارسل سنة ٧٥٦ م وفداً الى امبراطور الصين التقى عنده بوفد قادم من « هوي هو » من مغول الشمال فاختصم الوفدان فيمن يتقدم بالدخول على الامبراطور ، فانصف الحاجب بينهما وادخل كل وفـد من باب – ذكروا ذلك بكتاب طنغ شو الفصل العاشر في اثنـــاء سيرة الامبراطور سوتسونغ . قالوا : « ثم تولى المهدي وخلفه هرون الرشيد وفي ايامه (سنة ٧٨٥ – ٨٠٤) جرد العرب اصحاب الجبة السوداء على توفان (تيبت) ثم صار اهل توفان يتجندون لقتالهم كل سنة . وفي (٧٩٨ م) جـــاء ثلاثـة سفراء من العرب الى بـــلاط الامبراطور » [١] .

---

١ – E. Betschneider. The knowledge Possessed by the Ancient Chinese of the Arabs & Arabian Colonies 7.

ووقفوا في تاريخ الصين ايضاً على نصوص تشير الى ما كان من العلائق التجارية بين الصينيين والعرب من اواسط القرن العاشر للميلاد او الثالث للهجرة ، فذكروا سفناً تجارية عربية كانت ترسو على شواطىء الصين يحملون فيها الزجاج والسكر وغيرها . وان تجار العرب وربان سفنهم كثيراً ما كانوا يفدون على البلاط ويدخلون على الامبراطور فيخاطبهم ويسألهم عن بلادهم وملكهم وسائر أحوالهم . ووقفوا على نصوص أخرى تدل على علائق مثل هذه بين الصين وغير العرب من دول الاسلام مما يطول بيانه . ومع اختصار هذه الأخبار وتشوش حوادثها وفساد تهجئة الاعلام فيها فهي عظيمة الأهمية ، لأنها منقولة عن مصدر صيني مستقل .

أما العرب فقد ذكر مؤرخوهم وأهل الرحلة منهم كثيراً من أخبار نزولهم شواطىء الصين والهند ودخولهم على ملوكها ومخاطبتهم في بعض الشؤون التجارية . ولكن أكثر الناس كانوا لا يكترثون بتلك الروايات لاعتقادهم أنها محشوة بالمبالغات والخرافات، كأنهم قاسوها بما يقرأونه من الاقاصيص الخرافيه في الف ليلة وليلة مثل قصة السندباد البحري والفرس المسحور وغيرهما . على ان هذه الأقاصيص منقولة في الأصل عن غير العربية ، وأكثر خرافات العرب دخيلة في آدابهم وأما ما يكتبونه من عند أنفسهم فالغالب فيه التحقيق والصدق،ولاسيما كتب التاريخ ونحوها اذا نظرنا فيها نظر الناقد المنصف واعتبرنا الفرق بين عصرهم وعصرنا .

على أننا لا نلوم المنكرين، لأنهم انما عرفوا العرب بعد ذهاب دولتهم وانحلال عصبيتهم وانحطاط هممهم وضعف عزائمهم ، فأكبروا ان يكون لهم مثل تلك الهمم الشماء في عهد ذلك التمدن ، فكذبوا ما قرأوه في كتبهم من هذا القبيل . أما وقد رأينا ما يؤيده في كتب أهل الصين على غير تواطؤ أو نقل فلم يبق لنا بد من تصديقه .

وأقدم ما وصل الينا من الكتب العربية التي ذكرت تجارة العرب مع الصين والهند ونزول تجار العرب شواطىء تلك البلاد كتاب « سلسلة التواريخ » وهو يشتمل على السياحات البحرية التي أجرتها العرب والعجم من شواطىء خليج فارس الى بلاد الهند والصين ، تأليف سليمان التاجر وأبي زيد حسن من أبناء القرن الثالث للهجرة . وقد طبع هذا الكتاب بباريس سنة ١٨١١ ومعه ترجمة فرنسية للمستشرق الشهير رينو . ثم « مروج الذهب للمسعودي» وهو مشهور ومتداول، غير أمهات كتب الجغرافية العربية وكلها مبني

على رحلات حقيقية أشهرها ما كتبه البلخي والأصطخري وابن حوقل والمقدسي وغيرهم ، وليس هنا مكان الإفاضة في ذلك .

ويقال بالاجمال ان في كتب التاريخ نصوصاً كثيرة تدل على علائق تجارية وسياسية بين العباسيين وملوك المشرق في الهند والصين ، وأن المهاداة كانت متواصلة بينهما . فكانت وفود ملوك الهند تؤم بغداد منأواخر القرن الثاني للهجرة تحمل الهدايا او كتب المخابرة[١] ولا بد أيضاً من وفود كانت تأتي بغداد من صاحب الصين .

الاسلام وملوك أوربا

على ان علاقات ملوك المسلمين مع ملوك أوربا – وأعظمهم يومئذ الروم والجرمان والافرنج والاسبان – كانت أوثق من سواها . أمـا الروم ، وهم مـلوك القسطنطينية ، فكانت المخابرات بينهم وبين المسلمين من أيام بني أمية إما لصلح أو مهادنة أو مهاداة أو مفاداة[٢] . والحرب كانت سجالا بينهما على الحدود أو في البحار . وقد حاصر الأمويون القسطنطينيه غير مرة ولم يفتحوها ولكنهم فتحوا بلاداً أخرى من أوربا وأوقعوا الرعب في دول الافرنج . وكذلك بنو العباس[٣] فان الرشيد أخذ الجزية من إيريني صاحبة القسطنطينية .

وأما حوادث المهاداة فهدية الرشيد الى شارلمان ملك فرنسا أشهر من ان تذكر . على ان هدايا ملوك الروم الى دار الخلافة كانت متواصلة ، واكثرها من السيوف والثياب والاطياب والذهب والكلاب . منها هدية بعث بها قيصر الروم (ربما ميخائيل الثاني) الى المأمون وفيها تحف سنية من جملتها مائة رطل مسك ومائة حلة سمور[٤] .

واهدت ثريا بنت الاوباري (كذا) ملكة الافرنـــج الى المكتفي بالله سنة ٢٩٣ هـ خمسين سيفاً و٥٠ رمحاً و٢٠ ثوباً منسوجاً بالذهب و٢٠ خادماً صقلبياً و٢٠ جارية و١٠ كلاب كبار لا تغلبهـــا السباع وستة بازات وسبعة صقور ومضرب حرير ملون كقوس القزح وغيرها[٥] .

---

١ – العقد الفريد ١٤٩ ج ١ والمسعودي ٢٤٨ ج ٢ وترتيب الدول ٩٦ .
٢ – المبرد ٢٩٦ و ٣٢٤ .   ٣ – ابن الاثير ٧٤ ج ٦ .
٤ – فوات الوفيات ٢٤٠ ج ١ .   ٥ – المستطرف ٤٦ ج ٢ .

وكان الخلفاء ايضاً يوجهون وفوداً من عندهم في مراسلة او مخابرة ، وممن سار في ذلك القاضي الاشعري المعروف بابن الباقلاني انفذه عضد الدولة سنة ٣٧١ هـ الى قيصر الروم (باسيل الثاني) في جواب رسالة فانال في بلاط القيصر انفـــة زادت مقام المسلمين عندهم [١] .

الاندلسيون وملوك الفرنج

على ان العلاقات كانت اكثر وثوقاً بين ملوك اوربا وملوك الاسلام في الاندلس ، لان قياصرة القسطنطينية كانوا يتقربون من الخلفاء الامويـــين في قرطبة ليستنصروهم على العباسيين اعداء الجانبين . حتى ان ثيوفيلوس ملك الروم المعاصر لعبدالرحمن الاوسط هاداه سنة ٢٢٥ هـ وكتب اليه يرغبه في ملك المشرق من اجل ما ضيق عليه به المأمون والمعتصم ، وقد ذكرهما في كتابه له وعبر عنهما بابن مراجل وابن مــاردة ، تحقيراً لهما بالانتساب الى امهات من الجواري . فكافأه عبدالرحمن عن الهدية وبعث اليه يحيى الغزال شاعره واحد كبار دولته فأحكم الصلة بينهما[٢] فلما ظهر الخليفة الناصر عبد الرحمن الثالث واوطأ عساكر المسلمين من بلاد الافرنج ما لم يطأه احد من اسلافه ، تقدم اليه ملوكهم بالطاعة وتقربوا بالهدايا فأوفدوا رسلهم وهداياهم من رومية والقسطنطينية وغيرهما على سبيل المهادنة والسلم والعمل على كسب مرضاته ، ووصل الى بابه الملوك من الاسبان المتاخمين لبلاده بجهات قشتالة وبنبلونة وما ينسب اليه من الثغور الشمالية فقبلوا يـــده والتمسوا رضاه واحتقبوا جوائزه وامتطوا مراكبه[٣] .

وتوالت الهدايا على عبدالرحمن الناصر من سائر ملوك الاسبان. فملكا برشلونة وطركونة هادياه يلتمسان تجديد الصلح [٤] وملك الصقالبة وهو يومئذ « ذو فوة » (كذا) اوفـد اليه رسولا مع رسل آخرين من ملك الالمان (ربما اوتو الأعظم) وملك الفرنجـة وراء الرون وهو يومئذ « اوفه ؟ » ورسول آخر من ملك الفرنجة بقاصية المشرق واسمه « كلدة » (ربما كونراد) واحتفل الناصر لقدومهم احتفالاً شائقاً . ولما رجعوا بعث مع رسول الصقالبة ربيعا الاسقف الى ملكهم . وبالجملة ان الخليفة الناصر كان سلطانه ضخماً عزيزاً ،

---

١ – ابن الاثير ٦ جـ ٩ .   ٢ – نفح الطيب ١٦٣ جـ ١ .
٣ – نفح الطيب ١٦٧ جـ ١ .   ٤ – نفح الطيب ١٨١ جـ ١ .

لم يبق ملك من ملوك اوروبا الا خطب مودته، وفي جملتهم قياصرة الروم وملوك الافرنج والاسبان والجرمان . وفي نفح الطيب للمقري تفصيل ما كان يجريه من الاحتفال في استقبالهم (١) تعظيما لدولة المسلمين . ولما اراد بناء « الزهراء » اهداه اولئك الملوك من اصناف الحجارة والرخام على اختلاف الوانه واشكاله شيئاً كثيراً (٢) وقد ذكرنا ذلك في كلامنا عن بناء هذا القصر الفخيم .

وقس على ما تقدم علاقات ملوك اوربا بسائر خلفاء المسلمين وملوكهم، فكانت هدايا قيصر القسطنطينية ترد على صاحب مصر، ولا سيما في زمن الفاطميين بعد ان ضخمت دولتهم، منها هدية بعث بها الامبراطور قسطنطين التاسع الى المستنصر بالله الفاطمي سنة ٤٣٧ هـ اشتملت قيمتها على ثلاثين قنطاراً من الذهب الاحمر، كل قنطار عشرة آلاف دينار، الجملة ٣٠٠،٠٠٠ دينار (٣) وكان رسول الروم اذا قدم القاهرة في ذلك العهد نزل عند باب الفتوح، وهو لا يزال يقبل الارض وهو ماش حتى يصل القصر الكبير مقر الخليفة (٤) .

---

١ – نفح الطيب ١٧٢ ج ١ .
٢ – نفح الطيب ٢٧٠ ج ١ .
٣ – المستطرف ٤٦ ج ٢ .
٤ – المقريزي ١٠٧ ج ٢ .

ألعاب الخلفاء وملاهيهم

ما برح الملوك من قديم الزمان يلهون في ساعات الفراغ بألعاب يروضون بهـــا عقولهم وأبدانهم . ولكل أمة العاب تلائم عاداتها وتشاكل اخلاق أهلها، ولكن الملوك يتشابهون في اكثرها لتشابه مرادهم منها . والعاب الخلفاء كثيرة ، بعضها كان معروفاً في الجـاهلية كالصيد والسباق،وبعضها اقتبسوه من الأعاجم كاللعب بالكرة والصولجان والرمي بالبندق واللعب بالنرد والشطرنج ونحوها . وأسبق الدول الى الاحتفاء بهذه الألعاب العباسيون في ايام الرشيد ، فـــانه اول من لعب بالصولجان والكرة ، واول من رمى بالنشاب في البرجاس،واول من لعب الشطرنج والنرد وقرب اللاعبين وأجرى عليهم الأرزاق [١] واليك وصف أهم العابهم في ابان تمدنهم :

١ ـــ الصيد والقنص

كان الصيد معروفاً في الجاهلية ، ولكنه كان قاصراً على صيد غزال او طائر بالنبل او الفخ ، فلمـا تمدن العرب بعد الاسلام وخـالطوا الفرس والروم توسعوا في طرائق الصيد والقنص ، فاتخذوا الجوارح من الطير وهي الباز والشاهين والعقاب والصقر يعلمونها صيد الطيور،وغالوا في اقتناء الكلاب والفهود ونحوها يستعينون بها على صيد الخنازير والغزلان وحمر الوحش . وأول من اشتغل بالصيد من الخلفاء يزيد بن معاوية ، وكان صاحب طرب وجوارح وقرود وفهود ، وله كلف بالصيد فاتخذه للهو وليس للرياضة . وكان يلبس كلابه الأساور من الذهب والأجلة المنسوجة بالذهب ، ويهب لكل كلب عبداً يخدمه [٢]. واشتغل بالصيد غيره من خلفاء بني أمية على تفاوت في ذلك .

---

١ ـ المسعودي ٣٦٥ ج ٢ .   ٢ ـ الفخري ٤٩ .

حتى اذا أفضى الأمر الى بني العباس ورسخت أقـــدامهم في الدولة ، اهتموا بالصيد وتفننوا في تربية الجوارح والكلاب والفهود ، وغالوا في انتقائها وبذلوا الأموال في اقتنائها وتربيتها ، وأقاموا عليها أناساً ينظرون في شؤونها وفيهم البيازرة والحجالون والفهادون وأصحاب الصقور والكلاب ، وأطلقوا لهم الأرزاق الجليلة وأقطعوهم الاقطاعات السنية وسهلوا عليهم حجابهم وتسابق الشعراء الى وصف تلك الجوارح وحركاتها وسرعتهـــا وخصالها [١] وكتبوا في فنون الصيد وأساليبه كتباً عديدة ، ككتاب البزاة والصيد وكتاب المصائد والمطارد [٢] .

وكان العباسيون يصيدون السباع والخنازير فضلاً عن الغزلان والطيور وحمر الوحش ونحوها. وأول من أحب الصيد منهم المهدي فالرشيد، وكان ابنه صالح يحب صيد الخنازير [٣] وابنه الأمين يهوى صيد السباع يصطادها له جماعة يعرفون بأصحاب اللبابيد [٤] وكان المعتصم ألهجهم به، فبنى في أرض دجيل قرب بغداد حائطاً طوله فراسخ كثيرة يحدون الصيد عنده، وذلك أن يطارد رجاله تلك الحيوانات من الجهة المقابلة للحائط فتفر نحوه فيضربون حولها حلقة ، ولا يزالون يطاردونهـا بخيولهم وكلابهم وفهودهم وهي تثب بين الأعشاب والأدغال حتى يضايقوها ويحصروها بين الحائط ودجلة ، فلا يبقى لها مجال للنجـاة فيقبل المعتصم وأولاده وأقاربه وخواص حاشيته، ويتأنقون في القتل والصيد ويتفرجون فيقتلون ما يقتلون ويطلقون الباقي [٥] .

وقس على ذلك سائر الخلفاء من بني العباس والفاطميين والمروانيين وغيرهم من ملوك المسلمين السلاجقة والأتابكة والأيوبية والمماليك . فقد عدوا ما اصطاده السلطان ملك شاه السلجوقي من الحيوانات فبلغ عشرة آلاف رأس ، حتى بنى من حوافر الحمر الوحشية وقرون الظباء التي صادها منارة [٦] وكان السلطان مسعود السلجوقي يبالغ في ترفيه الكلاب حتى ألبسها الجلال الأطلس الموشاة وسورها بالأساور الذهب . واصطنع السلطان أبو عبد الله المستنصر في المغرب مصيداً بنـــاحية بنزرت في بقعة ببسيط من الأرض ، وأحاطها بسياج خرج نطاقه عن التحديد بحيث لا يراع فيه حمر الوحش ، فاذا ركب

١ – ترتيب الدول ١٣٦ وديوان أبي نواس والاغاني ١١٦ ج ٩ .
٢ – ابن خلكان ٢٣٥ ج ٢ و ٤٢٣ ج ١ .
٣ – الاغاني ٩٧ ج ٩ . ٤ – المسعودي ٢١٣ ج ٢ .
٥ – الفخري ٤٧ . ٦ – ابن خلكان ١٢٤ ج ٢

للصيد تخطى السياج في أصحابه ومواليه وفعل فعل المعتصم بحصر الصيد عند ذلك السياج[١] وفي كتاب الاعتبار لابن منقذ فصول طويلة في الصيد وطرقه [٢] .

٢ ـ الحلبة أو السباق

لم تبق أمة من الأمم القديمة أو الحديثة إلا لهجت بالسباق ، ولا سيما اليونان والرومان والفرس . وكان العرب في الجاهلية يتسابقون بخيولهم ويتفاخرون بذلك ، وكثيراً ما انتشبت الحرب بين القبائل من أجل السباق . وكانوا يرسلون خيلهم الى الحلبة وهي ميدان السباق عشرة عشرة ، وعندهم لكل منها اسم باعتبار تقدمها في السبق بعضها على بعض [٣] .

ولما تحضروا بعد الاسلام بالغوا في اتخاذ الميادين ، واستكثروا من الخيول وتفننوا في تضميرها . وكان لمعاوية حلبة يخرجون اليها في ايام معينة للسباق ، فمن حاز قصب السبق اجازوه - وقصب السبق قصبة يغرسونها في آخر الحلبة فمن سبق اليها واقتلعها فهوالفائز. ومن غريب ما ذكروه ان يزيد بن معاوية كان له قرد يكنى ابا قيس ، يحضره مجلس منادمته ويطرح له متكأ ، وكان نبيهاً خبيثاً يحمله على اتان وحشية قد ريضت وذللت بسرج ولجام ، وكان يسابق بها الخيل يوم الحلبة . فجاء ابو قيس في بعض الايام سابقاً ودخل الحجرة قبل الخيل ، وعليه قباء من الحرير الاحمر والاصفر ، وعلى رأسه قلنسوة من الحرير ذات الوان بشقائق ، وعلى الاتان سرج من الحرير الاحمر المنقوش [٤] .

وكان لهشام بن عبد الملك رغبة في الحلبة ، يستجيد الخيل للسباق ويبذل في اقتنائها الاموال ، فاجتمع عنده ٤٠٠٠ فرس ولم يسبقه احد من العرب الى ذلك . وكان له فرس سابق اسمه « الزائد » اشتهر في ذلك العصر . وكان الوليد بن يزيد مغرماً بخيل السباق ، فجمع منها الف فرس اسبقها فرس اسمه « السندي » كان يسابق به في ايام هشام ، وكان يقصر عن فرس هشام « الزائد » وربما ضامه او جاء مصليا (أي جاء الثاني) . وكان

١ ـ ابن خلدون ٢٨١ ج ٦ .
٢ ـ كتاب الاعتبار ١٥٠ .
٣ ـ المسعودي ٣٨٠ ج ٢ .
٤ ـ المسعودي ٦٨ ج ٢ .

ميدان السباق يومئذ في الرصافة (بالشام) ولهم فيها ميادين مشهورة وحوادث مذكورة[١] ولمحمد بن يزيد بن عبدالله بن مروان قصيدة عامرة وصف بها خيل الحلبة العشرة بأسمائها وصفاتها ، هي احسن ما نظم في هذا الموضوع [٢] .

اما العباسيون فلم يكونوا اقل رغبة في السباق ، وكانت لهم ميادين كبيرة في الرقة والشماسية ، وللرشيد مواقف شهيرة في الحلبة ، نظم فيها الشعراء القصائد في مدح السوابق [٣] وقس على ذلك ما كان من ميادين الحلبة في سائر دول الاسلام ، ومن اشهرها ميدان ابن طولون وميدان بيبرس بمصر [٤] وميادين الحكم في الاندلس .

٣ ــ الكرة والصولجان

هي لعبة فارسية لم يكن بنو امية يعرفونها ، واول من لعبها بنو العباس واسبقهم اليها الرشيد . وهي عبارة عن كرة تصنع من مادة خفيفة مرنة كالفلين ونحوه تلقى في ارض الميدان فيتسابق الفرسان الى التقافها بعصا عقفاء يسمونها الصولجان او الجوكان ، يرسلون الكرة بها في الهواء وهم على خيولهم ، وكان المعتصم شديد الرغبة فيها . ومن لطيف ما يحكى انه قسم اصحابه يوماً للعب بها ، فجعل الافشين في جهة وهو في جهة ، فقال الافشين : « يعفيني امير المؤمنين من هذا » فقال : « ولم ؟ » قال : « لاني ما ارى ان اكون على امير المؤمنين في جد ولا هزل » فاستحسن ذلك منه وجعله في حزبه[٥] .

٤ ــ البندق

البندق كرات تصنع من الطين او الحجارة او الرصاص او غيرها ، وهي فارسية بلفظها واستعمالها ، ويسمونها ايضا الجلاهقات جمع جلاهق . فكان الفرس يرمون هذا البندق عن

---

١ ـــ المسعودي ١٢٩ و ١٣٥ ج ٢ . ٢ ـــ المسعودي ٢٨١ ج ٢ .
٣ ـــ العقد الفريد ٤٧ ج ١ والمسعودي ١٩٩ ج ٢ .
٤ ـــ المقريزي ١١١ ج ٢ . ٥ ـــ ترتيب الدول ١٣٠ .

الاقواس كما يرمون النبال . واقتبس العرب هـذه اللعبة في أواخر ايام عثمان بن عفان ، وعدوا ظهورها في المدينة منكراً [١] ثم الفوها حتى شكلوا فرقاً من الجند ترمي بها . وقد رأيت ان الرشيد كان عنده فرقة يقال لها النمل تسير بين يديه ترمي البندق على من يقف في طريق الموكب . وكان رماة البندق في العصر العباسي طائفة كبيرة يخرجون الى ضواحي المدن يتسابقون في رميه على الطير ونحوه [٢] ويعدون ذلك من قبيل الفتوة ويغلب في رماة البندق ان يشتغلوا بتطيير الحمام . ولهم زي خاص يمتاز بسراويل كانوا يلبسونها ويسمونها سراويل الفتوة . وكان العيارون من اهل بغداد يلبسونها في اواخر الدولة . حتى اذا افضت الخلافة الى الناصر لدين الله العباسي المتوفي سنة ٦٢٢ هـ جعل لرمي البندق شأناً ، لانه كان ولعا به وباللعب بالحمام المناسيب (أي المنسوب ذي الاصل المعروف) وكان يلبس سراويل الفتوة . وقد بلغ من رغبته في ذلك ان جعل رمي البندق فناً لا يتعاطاه الا الذين يشربون كأس الفتوة ويلبسون سراويلها ، على ان يكون بينهم روابط وثيقة نحو ما عند بعض الجمعيات السرية . وجعل نفسه رئيس هذه الطائفة يدخل فيها من شاء ويحرم من شاء . وكتب سنة ٦٠٧ هـ الى ملوك الاطراف الذين يعترفون بخلافته ان يشربوا له كأس الفتوة ويلبسوا سراويلها ، وان ينتسبوا اليه برمي البندق ويجعلوه قدوتهم فيه ، فأجابوه الى ذلك فمن اراد الانتظام في سلك هـذه الطائفة يأتي بغداد فيلبسه الخليفة السراويل بنفسه .. فبطلت الفتوة في البلاد جميعها إلا من لبس سراويلها منه ، ومنع الرمي بالبندق إلا من ينتسب اليه . فاجابه الناس في العراق وغيره إلا انساناً اسمه ابن السفت من بغداد هرب الى الشام ، فأرسل الخليفة اليه يرغبه ببذل المال ليرمي عنه وينتسب في الرمي اليه فلم يفعل فلامه بعضهم على ذلك فقال : « يكفيني فخراً انه ليس في الدنيا احد لا يرمي للخليفة إلا انا » [٣] .

وكان لرمي البندق شأن كبير في العصور الاسلامية الوسطى بالعراق والشام ومصر وفارس وغيرها . وخط البندقانيين بالقاهرة ينسب الى صناعة أقواس البندق [٤] ثم تفننوا في رمي البندق بالمزاريق أو الأنابيب بضغط الهواء من مؤخر الأنبوب بما يشبه أنابيب البندق .. فلما اخترعوا البارود صاروا يرمون البندق به من تلك الأنابيب وسموا هذه الآلة

---

١ – ابن الاثير ٩٠ ج ٣ .   ٢ – الاغاني ٩٣ ج ٢٠ .

٣ – ابن الاثير ٢٠٢ ج ١٢ وابو الفدا ١١٩ و ١٤٢ ج ٣ وابن خلدون ٥٣٥ ج ٣ .

٤ – المقريزي ٣١ ج ٢ .

بندقية نسبة اليه. ومن قبيل رمي البندق رمي النشاب في البرجاس ، وهو غرض في الهواء أو على رأس رمح أو نحوه يطلبون إصابته بالنشاب ، وهي لعبة فارسية أول من لعبها من الخلفاء الرشيد .

ومما يدخل في الألعاب والملاهي لعبة الشطرنج ، وهي هندية الأصل أخذها العرب عن طريق الفرس ، وأول من لعبها من الخلفاء الرشيد أيضاً ، وهو أول من لعب النرد كما تقدم، ولا تزال هاتان اللعبتان شائعتين الى اليوم .

٥ ــ ارتباط السباع

وكان من ملاهي الخلفاء والملوك ارتباط الأسود والفيلة والنمور لاثبات الهيبة في قلوب الرعية ، وأول من اهتم بذلك بنو العباس، فكان المنصور كثير العناية في جمع الفيلة لتعظيم الملوك السالفة اياها ، وكان للرشيد أقفاص فيها الأسود والنمور وغيرها [١] وغالى الذين جاءوا بعده في اقتنائها واقتناء الكلاب والقردة ونحوها ــ ذكروا أنه كان عند أم جعفر زوج الرشيد قرد يخدمه ثلاثون رجلا ، وكانوا يلبسونه لباس الناس ويقلدونه السيف ، واذا ركب ركبوا في خدمته واذا دخلوا عليه قبلوا يده . فجاء يزيد بن مرثد يوماً الى أم جعفر ليودعها قبل سفره فأتوا اليه بالقرد وأمروه أن يقبل يده،فشق عليه ذلك وجرد السيف وقطعه نصفين وانصرف ، فبعث اليه الرشيد وعاتبه فقال : « يا أمير المؤمنين أبعد أن أخدم الخلفاء أخدم القرود ؟ لا والله أبداً » فعفا عنه [٢] .

وما زال شأن الخلفاء واهلهم على ذلك حتى تولى المهتدي ، وكان يتشبه بعمر بن عبدالعزيز في التقوى والزهد ، فأمر بقتل السباع التي كانت في القصور وطرد الكلاب ، ولكن ذلك المنع لم يدم طويلاً . فلما مات المهتدي عادوا الى المغالاة في اقتناء السباع حتى ارتبطها بعضهم في مجلسه . فقد كان عضد الدولة بن بويه اذا جلس على سريره احضرت

---

١ ــ العقد الفريد ١٥٠ ج ١ .
٢ ــ تاريخ طبرستان لابن اسفنديار ترجمة ادورد برون الى الانجليزية صفحة ٥٤ .

الاسود والفيلة والنمور في السلاسل ، وجعلت في حواشي مجلسه تهويلا بذلك على الناس وترويعاً لهم(١) .

وقس على ذلك سائر دول المسلمين في مصر والاندلس وغيرهما ، فقد كان لخمارويه ابن احمد بن طولون دار خاصة بالسباع ، وعمل فيها بيوتاً بآزاج كل بيت يسع سبعاً ولبؤته ، وعلى تلك البيوت ابواب تفتح من اعلاها بحركات ، ولكل بيت منها طاق صغير يدخل منه الرجل الموكل بخدمة ذلك البيت يفرشه بالرمل . وفي جانب كل بيت حوض من رخام بميزاب من نحاس يصب فيه الماء . وبين يدي هذه البيوت قاعة فسيحة متسعة فيها رمل مفروش بها ، وفي جانبها حوض كبير من رخام يصب فيه ماء من ميزاب كبير . فاذا اراد سائس سبع من تلك السباع تنظيف بيته ، او وضع وظيفة اللحم لغذائه ، رفع الباب بحيلة من اعلى البيت وصاح بالسبع فيخرج الى القاعة المذكورة ، فيرد الباب وينزل الى البيت من الطاق فيكنس الزبل ويبدل الرمل بغيره مما هو نظيف ، ويضع الوظيفة من اللحم في مكان معد لذلك بعد ما يخلص ما فيه من الغدد ويقطعه له ، ويغسل الحوض ويملأه ماء ثم يخرج ويرفع الباب من اعلاه . وقد عرف السبع ذلك فحالما يرفع السائس باب البيت يدخل اليه الاسد فيأكل ما هيىء له من اللحم حتى يستوفيه ويشرب من الماء كفايته . فكانت هذه البيوت مملوءة من السباع . ولهم اوقات تفتح فيها فتخرج السباع كلها الى القاعة وتتمشى فيها وتمرح وتلعب ويهارش بعضها بعضاً ، فتقيم يوماً كاملاً الى العشي فيصيح بها السواس فيدخل كل سبع الى بيته لا يتخطاه الى غيره .

وكان من جملة هذه السباع سبع ازرق العينين يقال له زريق ، وقد انس بخمارويه وصار مطلقاً في الدار لا يؤذي احداً ، ويقام له بوظيفته من الغذاء كل يوم . واذا نصبت مائدة خمارويه اقبل زريق معها وربض بين يديه ، فيرمي اليه الدجاجة بعد الدجاجة والفضلة الصالحة من الجدي ونحو ذلك مما على المائدة فيتفكه به . وكانت له لبؤة لم تستأنس كما انس هو ، فكانت مقصورة في بيت ولها وقت معروف يجتمع معها فيه فاذا نام خمارويه جاء زريق ليحرسه ، فان كان قد نام على سرير ربض بين يدي السرير وجعل يراعيه ما دام نائماً ، وان نام على الارض بقي قريباً منه وتفطن لمن يدخل ويقصد خمارويه لا يغفل عن

---

١ — الفخري ٢٠ .

ذلك لحظة واحدة . وكان على ذلك دهره وقد الفه ودرب عليه ، وكان في عنقه طوق من ذهب . فلا يقدر احد ان يدنو من خمارويه ما دام نائماً لمراعاة زريق له وحراسته اياه[١] .

تطرف آخرون في اقتناء الحيوانات حتى الهوام والحشرات، فالوزير جعفر بن خنزابه أحد وزراء المقتدر بالله العباسي كان يهوى النظر الى الحشرات من الأفاعي والحيات والعقارب وأم أربعة وأربعين وما يجري هذا المجرى ، وكان في داره بمصر قاعة لطيفة مرخمة فيها تلك الحيات بالسلال ولها قيم وفراش وحاو يستخدمون برسم نقلها وحطها ، وكان كل حاو بمصر يصيد له ما يقدر عليه من الحيات ويتناهون في ذوات العجب من أجناسها والكبير والغريب منها وهو يثيبهم على ذلك أجل ثواب ويبذل لهم المال الجزيل. وكان له وقت يجلس فيه على دكة فيدخل المستخدمون والحواة فيخرجون مافي تلك السلال ويطرحونه على ذلك الرخام ويحرشون بين الهوام وهو يستعجب من ذلك ويستحسنه [٢] .

وكانت لهم عناية في تربية الحيوانات الداجنة أيضاً كالغزلان والقماري وأشباهها ، يجعلونها في حظائر وأقفاص مخصوصة عليها قوام يخدمونها [٣] .

واجتمع عند العزيز الفاطمي صاحب مصر من غرائب الحيوانات ما لم يجتمع عند غيره وذكروا بينها العنقاء (؟) قالوا : « وهو طائر جاءه من صعيد مصر في طول البلاشون وأعظم جسماً منه ، له غبب ولحية وعلى رأسه وقاية وفيه عدة ألوان ومشابهة من طيور كثيرة » [٤] .

واتخذ الخليفة الناصر الأموي في مدينة الزهراء بالأندلس محلات للوحوش والسباع واسعة الأرجاء متباعدة السياج ، ومسارح للطيور مظللة بالشباك كالأقفاص الكبيرة [٥] .

وهناك ألعاب أخر تتعلق بالحيوانات كسمكة كانت للأمين مقرطة صيدت له وهي صغيرة فقرطها بحلقتين من ذهب فيهما حبتا در، وكلعب الحمام وتطييره ، واللعب بالكباش والديوك للمناطحة والمهارشة ، وغير ذلك مما لا محل لذكره .

---

١ - المقريزي ٣١٧ ج ١ . ٢ - فوات الوفيات ١٠٥ ج ١ .
٣ - المسعودي ٢٦٠ ج ٢ وابن الاثير ٦٦ ج ٨ .
٤ - ابن خلكان ٢٦٧ ج ١ . ٥ - نفح الطيب ٢٧٤ ج ١ .

الكتب التي وردت في هوامش الكتاب

وهي المؤلفات التي وردت أسماؤها في هوامش صفحات هذا الكتاب مرتبة على حروف الهجاء ، مع أسماء مؤلفيها وسني طبعها وأماكنه ، وهي غير ما رجعنا اليه في التحقيق من القواميس والموسوعات العربية والافرنجية :

اسم الكتاب	اسم مؤلفه	مكان طبعه وسنته
الآثار الباقية من القرون الخالية	للبيروني	ليبسك سنة ١٨٧٨ م
الآداب السلطانية (الفخري)	لابن الطقطقي	مصر ١٣١٧ هـ
أبجد العلوم ، ٣ أجزاء	لصديق القنوجي	الهند ١٢٩٦ هـ
ابن الأثير ، تاريخ	أنظر : الكامل	
« الجوزي ، «	« : كتاب الأذكياء	
« حوقل ، جغرافية	« : المسالك والممالك	
« خرداذبة ، «	« : « «	
« خلدون ، تاريخ	« : العبر والمبتدأ والخبر	
« خلكان ، معجم	« : وفيات الأعيان	
« الساعي ، تاريخ	« : مختصر أخبار الخلفاء	
« عساكر ، «	« : تاريخ دمشق	
« الفقيه ، جغرافية	« : كتاب البلدان	
« هشام ، تاريخ	« : السيرة النبوية	
أبو الفرج الملطي ، تاريخ	« : مختصر الدول	
« المحاسن ، تاريخ	« : النجوم الزاهرة	
الأتليدي ، معجم	« : أعلام الناس	
أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم	للمقدسي	ليدن ١٨٧٦ م

اسم الكتاب	اسم مؤلفه	مكان طبعه وسنته	
الأحكام السلطانية	للماوردي	مصر	١٢٩٨ هـ
أخبار الدول وآثار الأول	لأحمد شلبي بن يوسف الدمشقي القرماني	بغداد	١٢٨٢ هـ
أدب الدنيا والدين	للماوردي	بهامش الكشكول	
الاستقصا في المغرب الأقصى ٤ أجزاء	للسلاوى	مصر سنة	١٣١٢ هـ
أسد الغابة في أخبار الصحابة ٥ أجزاء	لابن الأثير	مصر سنة	١٢٨٦ هـ
الاصطخري ، جغرافية	انظر : المسالك والممالك		
أعلام الناس	الاتليدي	مصر	١٣١٨ هـ
الاغاني ٢٠ جزءاً	لأبي الفرج الأصفهاني	بولاق	١٢٨٥ هـ
الافادة والاعتبار	لعبد اللطيف البغدادي	مصر	١٢٨٦ هـ
ألف باء ، جزآن	يوسف البلوي	مصر	١٢٨٧ هـ
البخاري ، صحيح	انظر : صحيح البخاري		
بغية الطالبين في علوم وعوائد المصريين	لأحمد بك كمال	بولاق	١٣٠٩ هـ
البلاذري ، تاريخ	انظر : فتوح البلدان		
بلوغ الأرب في احوال العرب ٣ أجزاء	للألوسي	بغداد	١٨٩٨ م
البيان والتبيين جزآن	للجاحظ	مصر	١٣١٣ هـ
البيروني ، تاريخ	انظر : الآثار الباقية		
تاريخ أبي الفداء ٤ أجزاء	للملك المؤيد	الاستانة	١٢٨٦ هـ
« الامم والملوك ١١ جزءاً	للطبري	ليدن	١٨٨٥ م
« دمشق	لابن عساكر	خط	
« المشارقة	لصليبا بن يوحنا	خط	
« الوزراء	للهلال الصابي	بيروت	١٩٠٤ م
تحذير المسلمين	محمد ظافر	مصر	١٩٠٤
تراجم الحكماء	لابن القفطي	خط	
ترتيب الدول	للحسن بن عبدالله	بولاق	١٢٩٥ هـ

اسم الكتاب	اسم مؤلفه	مكان طبعه وسنته	
تزيين الأسواق	لداود الأنطاكي	مصر	١٣٠٨ هـ
تهذيب الأسماء	للنووي	جوتنجن	١٨٣٢ م
الجبرتي ، تاريخ	انظر : عجائب الآثار		
حسن المحاضرة في مصر والقاهرة جزآن	للسيوطي	مصر	١٢٩٩ هـ
حلبة الكميت	لشمس الدين النواجي	مصر	١٢٩٩ هـ
حياة الحيوان الكبرى (جزآن)	للدميري	مصر سنة	١٣٠٩ هـ
الخراج - كتاب	لأبي يوسف	بولاق	١٣٠٢ هـ
« «	لقدامة بن جعفر	ليدن	١٣٠٦ هـ
الخطط التوفيقية ٢٠ جزءاً	لعلي باشا مبارك	بولاق	١٣٠٦ هـ
خطط مصر (جزآن)	للمقريزي	بولاق	١٢٧٠ هـ
الخميس (جزآن)	للديار بكري	مصر	١٨٢٣ م
الدميري ، كتاب	انظر : حياة الحيوان		
ديوان أبي نواس	للحسن بن هاني	مصر	١٨٩٨ م
رحلة ابن بطوطة جزآن	لابن بطوطة	مصر	١٢٨٧ هـ
رحلة ابن جبير	لابن جبير	ليدن	١٨٥٢ م
رسائل الخوارزمي	لابي بكر الخوارزمي	الاستانة	١٢٩٧ هـ
سراج الملوك	للطرطوشي	على هامش مقدمة ابن خلدون بمصر سنة ١٣١١	
سلسلة التواريخ	لسليمان وأبي زيد	باريس	١٨١١ هـ
السيرة الحلبية ٣ أجزاء	لعلي بن برهان الملقب نور الدين الحلبي القاهري	مصر	١٣٠٢ هـ
سيرة الملوك	لعبدالرحمن الاربلي	بيروت	١٨٨٥ م

اسم الكتاب	اسم مؤلفه	مكان طبعه وسنته
السيرة النبوية ٣ أجزاء	لابن هشام	بولاق ١٢٩٥ هـ
السيوطي ، تاريخ	انظر : حسن المحاضرة	
شعراء السريان	للقرداحي	رومية ١٨٧٥ م
الشعر والشعراء	لابن قتيبة	ليدن ١٩٠٢ م
الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية	لطاشكبري زاده	على هامش ابن خلكان
الشهرستاني ، كتاب	أنظر : الملل والنحل	
صحيح البخاري ٤ أجزاء	للإمام البخاري	مصر ١٣٠٤ هـ
طبقات الأطباء – جزآن	لابن أبي أصيبعة	مصر ١٨٨٢ م
« الأدباء	لعبد الرحمن الأنباري	مصر ١٢٩٤ هـ
« ابن	لابن سعد	(خط)
تاريخ تغري بردى	أنظر : النجوم الزاهرة	
العبر والمبتدأ والخبر ٧ مجلدات	لابن خلدون	بولاق سنة ١٢٨٤ هـ
عجائب الآثار ٣ أجزاء	للجبرتي	على هامش ابن الأثير
« المخلوقات	للقزويني	على هامش الدميري
العقد الفريد ٣ أجزاء	لابن عبد ربه	مصر ١٣٠٥ هـ
« «	للملك السعيد	مصر ١٢٨٣ هـ
فتوح البلدان	للبلاذري	ليدن ١٨٦٦ م
الفخري في الآداب السلطانية ، تاريخ	أنظر : الآداب السلطانية	
الفرج بعد الشدة جزآن	للتنوخي	مصر ١٩٠٣ م
الفلاحة النبطية	لابن وحشية	(خط)
الفهرست	لابن النديم	ليبسك ١٨٧٢ م
فوات الوفيات جزآن	لابن شاكر الكتبي	مصر ١٢٨٢ هـ

اسم الكتاب	اسم مؤلفه	مكان طبعه وسنته	
قاموس الإدارة والقضاء ٧ أجزاء	لفيليب جلاد	مصر	١٨٩٠ م
القانون	لابن سينا	رومية	١٥٩٣ م
القبة الزرقاء	للدكتور فانديك	بيروت	١٨٩٣ م
قدامة ، كتاب	أنظر : الخراج		
القرماني ، تاريخ	أنظر : أخبار الدول		
القزويني ، كتاب	أنظر : عجائب المخلوقات		
القوانين العقارية للحكومة المصرية		مصر	١٨٩٣ م
الكامل ١٢ جزءاً	لابن الأثير	مصر	١٣٠٢ هـ
الكامل	للمبرد	مصر	١٢٨٦ هـ
كتاب الأذكياء	لابن الجوزى (جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن أبي الحسين)	مصر	١٣٠٦ هـ
كتاب الاعتبار	لابن منقذ	ليدن	١٨٨٤ م
كتاب البخلاء	للجاحظ	مصر	١٣٢٤ هـ
كتاب البلدان	لابن الفقيه الهمذاني	ليدن	١٨٨٥ م
« «	لليعقوبي	«	« «
كتاب الحيوان ٣ أجزاء	للجاحظ	مصر سنة	١٣٢٤ هـ
كشف الظنون جزآن	لكاتب جلبي	الاستانة	١٣١١ هـ
الكشكول	للعاملي	مصر	١٣٠٥ هـ
لطائف المعارف	للثعالبي	ليدن	١٨٦٧ م
اللمعة الشهية في اللغة السريانية	للمطران يوسف داود	الموصل	١٨٧٩ م
الماوردي ، كتاب	أنظر : الأحكام السلطانية		

اسم الكتاب	اسم مؤلفه	مكان طبعه وسنته	
مجمع الأمثال جزآن	للميداني	بيروت	١٣١٢ هـ
مختصر أخبار الخلفاء	لابن الساعي (محمد بن أنجب البغدادي)	بولاق	١٣٠٩ هـ
« « الدول	لأبي الفرج بن هرون الملطي المعروف بابن العبري	بيروت	١٨٩٠ م
مروج الذهب جزآن	للمسعودي	مصر	١٣٠٤ هـ
المزهر جزآن	للسيوطي	بولاق	١٢٨٢ هـ
المسالك والممالك	لابن حوقل	ليدن	١٨٧٣ م
« «	لابن خرداذبة	«	١٨٨٠ م
المسالك والممالك	للاصطخري	ليدن	١٨٧٠ م
المستطرف جزآن	للابشيهي	مصر	١٣١١ هـ
المسعودي ، كتاب	انظر : مروج الذهب		
مشكاة المصابيح	لولي الدين العمري	دهلي	١٣١٠ هـ
المعارف	لابن قتيبة	مصر	١٣٠٠ هـ
معجم البلدان ستة أجزاء	لياقوت الحموي	ليبسك	١٨٧٠ م
مفتاح السعادة	لطاشكبري زاده	(خط)	
المقدسي ، جغرافية	انظر : أحسن التقاسيم		
المقري ، تاريخ	« : نفح الطيب		
المقريزي ، تاريخ	« : خطط مصر		
الملل والنحل جزآن	للشهرستاني	لندن	١٨٤٢ م
الموطأ	للامام مالك	(خط)	

اسم الكتاب	اسم مؤلفه	مكان طبعه وسنته
الميداني ، كتاب	انظر : مجمع الأمثال	
ميزانية مصر لسنة ١٩٠٢ للحكومة المصرية		بولاق سنة ١٩٠١ م
النجوم الزاهرة جزآن	لأبي المحاسن	ليدن ١٨٥١ م
نفح الطيب ٤ أجزاء	للمقري	بولاق ١٢٧٩ هـ
نهاية الأرب في قبائل العرب	للقلقشندي	(خط)
الهداية	برهان الدين الفرغاني	لكنهو ١٣١٤ هـ
الهمداني ، جغرافية	انظر : كتاب البلدان	
وفيات الأعيان ٣ أجزاء	لابن خلكان	مصر ١٣١٠ هـ
اليعقوبي ، جغرافية	انظر كتاب البلدان	

فهرس

الجزء الرابع

الجزء الخامس

طبع هذا الكتاب على مطابع

دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر

بيروت - شارع سوريا

تلفون ٢٣١٩٣٠ ص.ب ١٣٩٠